

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سبحان من أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، وبين له من شعائر الشرائع كل ما جل ودق ، أنزل عليه أظهر بينات وأبهر حجج ، قرآنا عربيا غير ذى عوج ، مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، ليديروا آياته وليتذكر أولو الألباب ، ناطقا بكل أمر رشيد ، هاديا إلى صراط العزيز الحميد ، أمرا بعبادة الصمد المعبود ، كتابا متشابها مثنى تقشعر منه الجلود ، تسكاد الرواسي طيبته تمور ، وينوب منه الحديد وتميع العجم الصخور ، حقيقا بأن تسير به الجبال ويتيسر به كل صعب محال ، معجزا ألهم كل مصقع من مهرة قحطان ، وبكت كل مفلق من سحرة البيان ، بحيث لو اجتمعت الإنس والجن على معارضته ومباراته ، لعجزوا عن الإتيان بمثل آية من آياته ، نزله عليه على فطرة من الرسل ليرشد الأمة إلى أقوم السبل ، فهداهم إلى الحق وهم في ضلال مبين ، فاضمحل دجى الباطل وسطح نور اليقين ، فن أتبع هداه فقد فاز بمنه ، وأما من عانده وعصاه ، واتخذ إلهه هواه ، فقد هام في مواجى الردى ، وتردى في مهاوى الزور ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور . صلى الله عليه وعلى آله الأخيار ، وصحبه الأبرار ، ما تناوبت الأنواء ، وتعاقت الظلم والأضواء ، وعلى من تبعهم بإحسان ، مدى الدهور والأزمان . وبعد :

فيقول العبد الفقير إلى رحمة ربه الهادى ، أبو السعود بن محمد الهادى :
إن الغاية القصوى من تحرير نسخة العالم وما كان حرف منها مسطوراً ،
والحكمة الكبرى فى تخمير طينة آدم ولم يكن شيئاً مذكوراً ، ليست إلا معرفة
الصانع المجيد ، وعبادة البارئ المبدئ المعيد ، ولاسيلى إلى ذلك المطلب
الجليل ، سوى الوقوف على مواقف التنزيل فإنه عز سلطانه ، وبهر برهانه ،
وإن سطر آيات قدرته فى صحائف الأكوان ، ونصب رايات وحدته فى

صفائح الأعراض والأعيان ، وجعل كل ذرة من ذرات العالم ، وكل قطرة من قطرات العيلم ، وكل نقطة جرى عليها قلم الإبداع وكل حرف رقم في لوح الاختراع ، مرآة لمشاهدة جماله ، ومطالعة صفات كماله ، حجة نيرة واضحة الممكنون ، وآية بينة لقوم يعقلون ، برهانا جليلا لا ريب فيه ، ومنهاجا سويا لا يضل من ينتحيه ، بل ناطقا يتلو آيات ربه فهل من سامع واع ، ومجيباً صادقا فهل له من داع ، يكلم الناس على قدر عقولهم ، ويرد جوابهم بحسب مقولهم ، يحاور تارة بأوضح عبارة ، ويلوح أخرى بالطف إشارة .

لكن الاستدلال بتلك الآيات والدلائل ، والاستشهاد بتلك الأمارات والمخايل ، والتنبيه لتلك الإشارات السريه ، والتفطن لمعاني تلك العبارات العبقريه ، وما في تضاعيفها من رموز أسرار القضاء والقدر وكشور آثار التعاجيب والعبر بما لا يطيق به عقول البشر إلا بتوفيق خلاق القوى والقدر فإذن مدار المراد ، ليس إلا كلام رب العباد ، إذ هو المظهر لتفاصيل الشعائر الدينيه ، والمفسر لمشكلات الآيات التكوينية ، والكاشف عن خفايا حظائر القدس ، والمطلع على خبايا سرائر الأنس ، وبه تكتسب الملكات الفاخره وبه يتوصل إلى سعادة الدنيا والاخره ، خلا أنه أيضاً من علو الشأن ، ونمو المسكان ، ونهاية الغموض والإعصال ، وصعوبة المسأخذ وعزة المنال ، في غاية الغايات القاصيه ، ونهاية النهايات النائية ، أعز من بيض الأنوق ، وأبعد من مناط العيون لا يتسنى الخروج إلى مبارجة الرفيعة ، ولا يتأتى الرقى إلى مدارجه المنيميه ، كيف لا وإنه مع كونه متضمنا لدقائق العلوم النظرية والعملية ، ومنطويا على رقائق الفنون الخفية والجليه ، حاويا لتفاصيل الأحكام الشرعية ومحيطا بمناط الدلائل الأصلية والفرعيه ، ومنبثاً عن أسرار الحقائق والنوعت مخبراً بأطوار الملك والملسكوت ، عليه يدور فلك الأوامر والنواهي ، وإليه تستند معرفة الأشياء كما هي ، قد نسخ على أبداع منوال وأغرب طراز^(١)

(١) في المطبوعة : أغرب منوال وأبداع طراز .

واحتجبت طلعتة بسبجات الإعجاز، وطويت حقائقه الأبية عن العقول، وزويت دقائقة الحفية عن أذهان الفحول، يرد عيون العقول سبحانه، ويخطف أبصار البصائر بريقه ولمعانه .

ولقد تصدى لتفسير غوامض مشكلاته أساطين أئمة التفسير في كل عصر من الأعصار وتولى تيسير عويصات معضلاته سلاطين أسرة التقرير والتحجير في كل قطر من الأقطار، فغاصوا في لجهه، وخاضوا في ثبجه، فنظموا فرائده في سلك التحجير، وأبرزوا فوائده في معرض التقرير، وصنفوا كتباً جليمة الأقدار وأفرا زبراً جميلة الآثار، أما المتقدمون المحققون فاقصروا على تمهيد المعاني، وتشديد المباني، وتبيين المرامي^(١) وترتيب الأحكام، حسبما بلغهم من سيد الأنام، عليه شرائف التحية والسلام، وأما المتأخرون المندققون، فراموا مع ذلك لإظهار من إياه الرائقة، وإبداء خباياه المائقة، ليعاين الناس دلائل إعجازه ويشاهدوا شواهد فضله وامتيازته عن سائر الكتب السكريمة الربانية، والزر العظيمة السبحانية، فدوّنوا أسفاراً بارعة، جامعة لفنون المحاسن الرائعة، يتضمن كل منها فوائد شريفة تقر بها عيون الأعيان، وعوائد لطيفة تتشرف^(٢) بها آذان الأذهان، لا سيما الكشاف وأنوار التنزيل، المتفردان بالشأن الجليل، والنعمة الجليل، فإن كلامهما قد أحرز قصب السبق أي إحراز، كأنه مرآة لا اجتلاء وجوه الإعجاز^(٣)، صحائفهما مرآيا المزايا الحسان، وسطورهما عقود الجمال وقلائد العقيان .

ولقد كان في سوابق الأيام وسوائف الدهر والأعوام . أو ان اشتغالي بمطالعتهما وممارستهما، وزمان اتصالي بمفاوضتهما ومدارستهما، يدور في خلدي على استمرار، آناء الليل وأطراف النهار، أن أنظم درر فوائدهما في نمط^(٤)

(١) في المطبوعة : يبين المرام .

(٢) في المطبوعة : يتشرف .

(٣) في المطبوعة : وجه الإعجاز .

(٤) في المطبوعة : في نمط .

دقيق ، وأرتب غرر فرائدهما على ترتيب أنيق ، وأضيف إليهما ما ألفيته في
تضاعيف الكتب الفاخرة من جواهر الحقائق ، وصادفته في أصداف العيالم
الزاخرة من زواهر الدقائق ، وأسلك خلالها بطريق الترتيب على نسق أنيق
وأسلوب بديع ، حسبما يقتضيه جلاله شأن التنزيل ، ويستدعيه جزالة نظمه
الجليل ، ماسنح للمكر العليل بالعناية الربانية ، وسمح به النظر الكليل بالهداية
السبحانية ، من عوارف معارف تمتد إليها أعناق الهمم من كل ماهر لبيب ،
وغرائب رغائب ترنو إليها أحداق الأمم من كل نحير أريب ، وتحقيقات
رصينة تقيل عثرات الأفهام في مداحض الأقدام ، وتدقيقات متينة تزيل خطرات
الأوهام ، من خواطر الأنام ، في معارك أفكار تشتبه فيها الشوؤن ، ومدارك
أنظار تختلط فيها الظنون ، وأبرز من وراء أستار السكون ، من دقائق السر
المخزون ، في خزائن الكتاب المكشون ، ما تطمعت إليه النفوس وتقر به العيون ،
من خفايا الرموز ، وخبايا الكنوز ، وأهديها إلى الخزانة العامرة الغامرة
للبحار الزاخرة ، لجناب من خصه الله تعالى بخلافة الأرض ، واصطفاه لسלטنتها
في الطول والعرض ، ألا وهو السلطان الأسعد الأعظم ، والنخاقان الأجد
الأنعم ، مالك الإمامة العظمى ، والسلطان الباهر ، وارث الخلافة الكبرى
كابرا عن كابر ، رافع رايات الدين الأزهر ، موضح آيات الشرع الأنور ،
مرغم أنوف الفراعنة والجبابرة ، معض جباه القياصرة والآكاسره ، فاتح بلاد
المشارك والمغارب ، بنصر الله العزيز وجنده الغالب ، الهمام الذي شرق عزمه
المنير فاتتهى إلى المشرق الأسنى ، وغرب حتى بلغ مغرب الشمس أو أذن ،
بخميس عرمرم متزاحم الأفواج ، وعسكر كخضم متلاطم الأمواج ، فأصبح
ما بين أفقى الطلوع والغرب ، وما بين نقطى الشمال والجنوب ، منتظما في سلك
ولاياته الواسعة ، ومندرجا تحت ظلال راياته الراتقة ، فأصبحت منابر الربع
المسكون مشرفة بذكر اسمه الميمون ، فياله من ملك استوعب ملكة البر البسيط ،
واستغرق فلكه وجه البحر المحيط ، فكأنه فضاء ضربت فيه خيامه ، أو نصبت
عليه أويته وأعلامه ، مالك مالك العالم ، ظل الله الظليل على كافة الأمم ،

قاصم القياصرة وقاهر القروم ، سلطان العرب والعجم والروم ، سلطان المشرقين ، وخاقان الخاقين ، الإمام المقتطد بالقدرة الربانية ، والخليفة المعترف بالعزة السبجانية . المفتخر بخدمة الحرمين الجليلين المعظمين ، وحماية المقامين الجميلين المنفخمين ، ناشر القوانين السلطانية ، عاشر الخواقين العثمانية السلطان ابن السلطان سليمان خان ابن السلطان المظفر المنصور ، والخاقان الموقر المشهور ، صاحب المغازى المشهورة في أقطار الأمصار ، والفتوحات المذكورة في صحائف الأسفار ، السلطان سليم خان ، ابن السلطان السعيد والخاقان المجيد السلطان بايزيد خان ، لازالت سلسلة سلطنته متمسكة إلى انتهاء سلسلة الزمان وأرواح أسلافه العظام متنزهة في روضة الرضوان .

وكنت أتردد في ذلك بين إقدام وإحجام ، لقصور شأني وعزة المرام . أين الخضيض من الذرى ، شتان بين الثريا والثرى ، وهيمات اصطياد العنقاء بالشباك ، واقتياد الجوزاء من بروج الأفلاك ، فضت عليه الدهور والسنون ، وتغيرت الأطوار ، وتبدلت الشؤون . فابتليت بتدبير مصالح العباد برهة في قضاء البلاد ، وأخرى في قضاء العساكر والأجناد ، فحال بيني وبين ما كنت إخال تراكم المهمات ، وتزاحم الأشغال ، وجموم العوارض والعلائق ، وهجوم الصوارف والعوائق ، والتردد إلى المغازى والأسفار ، والتنقل من دار إلى دار .

وكنت في تضاعيف هاتيك الأمور أقدر في نفسي أن أتتهز نبرة من الدهور ، ويتسنى لي القرار ، وتطمئن بي الدار ، وأظفر حينئذ بوقت خال أتبتل فيه إلى جناب ذى العظمة والجلال ، وأوجه إليه وجهتي ، وأسلم له سرى وعلايتي ، وأنظر إلى كل شيء بعين الشهود ، وأتعرف سر الحق في كل موجود تلافياً لما قد فات ، واستعداداً لما هو آت ، وأتصدى لتحصيل ما عزمت عليه ، وأتولى لتكميل ما توجهت إليه ، برفاهة واطمئنان ، وحضور قلب وفراغ جنان ، فبينما أنا في هذا الخيال ، إذ بدا لي ما لم يختر بالبال ، تحولت الأحوال

والدهر حول ، ف وقعت في أمر أشق من الأول ، أمرت بحل مشكلات الأنام
فيما شجر بينهم من النزاع والخصام ، فلقيت معضلة طويلة الذبول ، وصرت
كالهارب من المطر إلى السيول ، فبلغ السيل الزبي ، وغمرني أي غمر ،
غوارب ماجرى بين زيد وعمرو ، فأضحيت في ضيق المجال ، وسعة الأشغال ،
أشهر ممن يضرب بها الأمثال « فجلعت أتمثل بقول من قال :

لقد كنت أشكوك الحوادث برهة وأستمرض الأيام وهي صحاح
إلى أن تغشيني - وقيت - حوادث تحقق أن السالفات منائح

فلما انصرفت عرى الآمال ، عن الفوز بفراغ البال ، ورأيت أن الفرصة
على جناح الفوات ، وشمل الأسباب في شرف الشتات ، وقد مسنى الكبر ،
وتضاءلت القوى والقدر ، ودنا الأجل من الحلول ، وأشرفت شمس الحياة
على الأفول عزمت على لإنشاء ما كنت أنويه ، وتوجهت إلى إملاء ما ظلمت
أبتغيه ، ناويا أن أسميه عند تمامه بتوفيق الله تعالى وإنعامه «إرشاد العقل السليم إلى
مزايا الكتاب الكريم فشرعت» (١) فيه مع تفاهم المكاره على ، وتزحم المشادة
بين يدي ، متضرعا إلى رب العظمة والجبروت ، خلاق عالم الملك والملوكوت
في أن يعصمني عن الزيغ والزلل ، ويقيني مصارع السوء في القول والعمل ،
ويوفقني لتحصيل ما أرومه وأرجوه ، ويهديني إلى تكميله على أحسن الوجوه
ويجعله خير عدة وعتاد ، أتمتع به يوم المعاد .

فيامن توجهت وجوه الذل والابتهال نحو بابہ المنيع ، ورفعت أيدي
الضراعة والسؤال إلى جنابه الرفيع ، أفض علينا شوارق أنوار التوفيق ،
وأطلعنا على دقائق أسرار التحقيق ، وثبت أقدامنا على مناهج هداك ، وأنطقنا
بما فيه أمرك ورضاك ، ولا تسكلنا إلى أنفسنا في لحظة ولا آن ، وخذ بناصيتنا

(١) في ١١ ، وشرعت .

إلى الخير حيث كان ، جنبناك على جباه الاستكانة ضارعين ، ولأبواب فيضك قارعين ، أنت الملاذ في كل أمر مهم ، وأنت المعاذ في كل خطب ملم ، لارب غيرك ولاخير إلاخيرك ، بيدك مقاليد الأمور ، لك الخلق والأمر وإليك النشور .

سورة فاتحة الكتاب سبع آيات

معنى فاتحة الكتاب وأسمائها

الفاتحة في الأصل : أول ما من شأنه أن يفتح ، كالكتاب والشوب ، أطلقت عليه لكونه واسطة في فتح السكك ، ثم أطلقت على أول كل شيء فيه تدريج بوجه من الوجوه كالسكك التدريجي حصولا ، والسطور والأوراق التدريجية قراءة وعداه والتاء للنقل من الوصفية إلى الإسمية ، أو هي مصدر بمعنى الفتح ، أطلقت عليه تسمية للمفعول باسم المصدر ، لإشعارنا بأصالته كأنه نفس الفتح ، فإن تعلقه به بالذات ، وبالباقي بواسطته ، لكن لأعلى معنى أنه واسطة في تعلقه بالباقي ثانيا . حتى يرد أنه لا يتسنى في الخاتمة ، لما أن ختم الشيء عبارة عن باوغ آخره ، وذلك إنما يتحقق بعد انقطاع الملابس عن أجزاءه الأولى ، بل على معنى أن الفتح المتعاقب بالأول فتح له أولا وبالذات ، وهو بعينه فتح للمجموع^(١) بواسطته ، لكونه جزءا منه ، وكذا الكلام في الخاتمة فإن باوغ آخر الشيء يعرض للآخر أولا وبالذات ، وللشكل بواسطته ، على الوجه الذي تحققتة .

والمراد بالأول ما يعم الإضافي فلا حاجة إلى الاعتذار بأن إطلاق الفاتحة على السورة السكرية بتامها باعتبار جزئها الأول ، والمراد بالكتاب هو المجموع الشخصي ، لا القدر المشترك بينه وبين أجزاءه ، على ما (هو)^(٢) اصطلاح

(١) في ١١ أولا وبالذات وللشكل بواسطته (٢) سقطت من المطبوعة

أهل الأصول ، ولا ضير في اشتهار السورة الكريمة بهذا الاسم في أوائل عهد النبوة ، قبل تحصيل المجموع بنزول الكل ، لما أن التسمية من جهة الله عز اسمه أو من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم بالإذن ؛ فيسكني فيها تحصله باعتبار تحققه في علمه عز وجل أوفى اللوح أو باعتبار أنه أنزل جملة إلى السماء الدنيا ، وأملاه جبريل (١) على السفرة ، ثم كان ينزله على النبي صلى الله عليه وسلم نجوماً في ثلاث وعشرين سنة كما هو المشهور والإضافة بمعنى اللام كما في جزء الشيء لا بمعنى من كما في خاتم فضة ، لما عرفت أن المضاف جزء من المضاف إليه ، لا جزئى له ، ومدار التسمية كونه مبدأ للكتاب على الترتيب المعهود ، لا في القراءة في الصلاة ، ولا في التعليم ولا في النزول كما قيل .

أما الأول فبين ، إذ ليس المراد بالكتاب القدر المشترك الصادق على ما يقرأ في الصلاة حتى تعتبر في التسمية مبدئيتها له . وأما الأخيران فلأن اعتبار المبدئية من حيث التعليم ، أو من حيث النزول يستدعى مراعاة الترتيب في بقية أجزاء الكتاب من تينك الحثيثتين ؛ ولا ريب في أن الترتيب التعليمي والنزولي ليسا على نسق الترتيب المعهود .

وتسمى أم القرآن لسكونها أصلاً ومنشأه ، إما المبدئيتها له ، وإما لاشتغالها على ما فيه من الثناء على الله عز وجل ، والتعبد بأمره ونهيه ، وبيان وعده ووعيده أو على جملة معانيه من الحكم النظرية ، والأحكام العملية ، التي هي سلوك الصراط المستقيم ، والاطلاع على معارج السعداء ومنازل الأشقياء ، والمراد بالقرآن هو المراد بالكتاب .

وتسمى أم الكتاب أيضاً كما يسمى بها اللوح المحفوظ ، لسكونه أصلاً لكل الكتابات ، والآيات الواضحة الدالة على معانيها لسكونها بينة تحمل عليها

(١) في ١١ وإملاء جبريل .

المتشابهات ، ومناط التسمية ما ذكر في أم القرآن لاما أو رده الإمام البخارى في صحيحه من أنه يبدأ بقراءتها في الصلاة ، فإنه مما لا تعلق له بالتسمية كما أشير إليه ، وتسمى سورة الكون ، لقوله عليه السلام : « إنها أنزلت من كنز تحت العرش »^(١) أو لما ذكر في أم القرآن ، كما أنه الوجه في تسميتها الأساس ، والكافية ، والوافية ، وتسمى سورة الحمد والشكر والدعاء وتعليم المسئلة ، لاشتغالها عليها ، وسورة الصلاة لوجوب قراءتها فيها ، وسورة الشفاء والشفافية لقوله عليه السلام : « هي شفاء من كل داء » ، والسبع المثاني لأنها سبع آيات تثنى في الصلاة ، أو لتكرر نزولها على ما روى أنها نزلت مرة بمكة حين فرضت الصلاة^(٢) وبالمدينة أخرى حين حولت القبلة ، وقد صح أنها مكية لقوله تعالى : « ولقد آتيناك سبعا من المثاني » وهو مكى بالنسب .

(بسم الله الرحمن الرحيم)
هل البسملة من القرآن

اختلف الأئمة في شأن التسمية في أوائل السور الكريمة فقليل إنما ليست من القرآن أصلاً ، وهو قول ابن مسعود رضى الله عنه ومذهب مالك ، والمشهور من مذهب قدماء الحنفية ، وعليه قراء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها . وقيل إنها آية مفردة^(٣) من القرآن أنزلت للفصل والتبرك بها ؛ وهو الصحيح من مذهب الحنفية ، وقيل هي آية تامة من سورة صدرت بها ، وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما ، وقد نسب لـ ابن عمر أيضاً رضى الله عنهم ، وعليه يحمل لإطلاق عبارة ابن الجوزى في زاد المسير^(٤) حيث قال: روى

(١) أخرجه الحافظ الدهياطى فى المنجى الرابع من طرق مسلم فى ثواب فاتحة .

(٢) انظر ماشا بالفاتحة فى إرشاد الرحمن للاجورى

(٣) (فذة) هكذا فى ٤٨٦ ، وما اخترناه من ١١ أوضح

(٤) هو التفسير الصغير لابن الجوزى طبع أخيراً فى دمشق

عن ابن عمر رضى الله عنهما أنها أنزلت^(١) مع كل سورة ، وهو أيضاً مذهب سعيد بن جبير والزهرى وعطاء وعبد الله بن المبارك ، وعليه قراء مكة والكوفة وفقهاؤهما ، وهو القول الجديد للشافعى رحمه الله ، ولذلك يجهر بها عنده ، فلا عبرة بما نقل عن الجصاص من أن هذا القول من الشافعى لم يسبقه إليه أحد ، وقيل : إنها آية من الفاتحة مع كونها قرآناً في سائر السور أيضاً من غير تعرض لكونها جزءاً منها أولاً ، ولا لكونها آية تامة أولاً ، وهو أحد قولى الشافعى على ما ذكره القرطبي . ونقل عن الخطابي أنه قول ابن عباس وأبي هريرة رضى الله عنهم . وقيل إنها آية تامة فى الفاتحة وبعض فى البواقي : وقيل بعض آية فى الفاتحة وآية تامة فى البواقي ، وقيل إنها بعض آية فى الكل ، وقيل إنها آيات من القرآن متعددة بعدد السور المصدرة بها من غير أن تكون جزءاً منها ، وهذا القول غير معرو^(٢) فى الكتاب إلى أحد ، وهناك قول آخر ذكره بعض المتأخرين ولم ينسبه إلى أحد وهو أنها آية تامة فى الفاتحة وليست بقرآن فى سائر السور ، ولو لا اعتبار كونها آية تامة لكان ذلك أحد محملى تردد الشافعى ، فإنه قد نقل عنه أنها بعض آية فى الفاتحة ، وأما فى غيرها فقولها فيها متردد ، فقيل بين أن يكون قرآناً أولاً ، وقيل بين يكون آية تامة أولاً ، قال الإمام الغزالي : والصحيح من الشافعى هو التردد الثانى . وعن أحمد بن حنبل فى كونها آية كاملة وفى كونها من الفاتحة روايتان ذكرهما ابن الجوزى ، ونقل أنه مع مالك ، وغيره ممن يقول إنها ليست من القرآن .

هذا والمشهور من هذه الأقاويل هى الثلاث^(٣) الأولى ، والاتفاق على إثباتها فى المصاحف مع الإجماع على أن ما بين الدفتين كلام الله عز وجل يقضى بنفى القول الأول ، وثبوت القدر المشترك بين الأخيرين

(٢) فى المطبوعة : معزى خطأ .

(١) فى ١١ نزلت .

(٣) فى المطبوعة : الثلاث .

من غير دلالة على خصوصية أحدهما ، فإن كونها جزءا من القرآن لا يستدعى كونها جزءا من كل سورة منه ، كما لا يستدعى كونها آية منفردة منه .
وأما ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما من أن من تركها فقد ترك
مائة وأربع عشرة آية من كتاب الله تعالى : وما روى عن أبي هريرة
من أنه عليه السلام قال : « فاتحة الكتاب سبع آيات أولاهن بسم الله
الرحمن الرحيم » .

وما روى عن أم سلمة من أنه عليه السلام قرأ سورة الفاتحة وعد
بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين آية . وإن دل كل واحد منها
على نفي القول الثانى فليس بشيء منها نصا فى إثبات القول الثالث ،
أما الأول فلأنه لا يدل إلا على كونها آيات من كتاب الله تعالى متعددة بعدد
السور المصدرة بها ، لا على ما هو المطلوب من كونها آية تامة من كل واحدة
منها ، إلا أن يلتجأ إلى أن يقال إن كونها آية متعددة بعدد السور المصدرة بها
من غير أن تكون جزءا منها قول لم يقل به أحد ، وأما الثانى فساكت عن
التعرض لحالها فى بقية السور ، وأما الثالث فنطاق بخلافه مع مشاركته للثانى
فى السكوت المذكور . والباء فيها متعلقة بمضمرة ينبىء عنه الفعل المصدرة بها ،
كما أنها كذلك فى تسمية المسافر عند الحلول والارتحال ، وتسمية كل فاعل
عند مباشرة الأفعال .

تفسيرها بالبسملة

ومعناها الاستعانة أو الملازمة تبركا ، أى باسم الله أقرأ ، أو أتلو . وتقديم
المعمول للاعتناء به والقصد إلى التخصيص ، كما فى إياك نعبد ، وتقديم أبدأ
لاقتضائه اقتصار التبرك على البداية مغل بما هو المقصود ، أعنى شمول البركة
للكل ، وادعاء أن فيه أمثالا للحديث^(١) الشريف من جهة اللفظ والمعنى معاً ،

(١) فى المطبوعة : الحديث .

وفي تقدير أقرأ من جهة المعنى فقط ليس بشيء ، فإن مدار الامتثال هو البدء بالتسمية لا تقدير فعله ، إذ لم يقل في الحديث الكريم : « كل أمر ذي بال لم يقل فيه أو لم يضم فيه أبداً ، وهذا إلى آخر السورة الكريمة مقول على السنة العباد تلقيناً لهم ، وإرشاداً إلى كيفية التبرك باسمه تعالى ، وهداية إلى منهاج الحمد وسؤال الفضل ، ولذلك سميت السورة الكريمة بما ذكر من تعليم المسألة ، وإنما كسرت ومن حق الحروف المفردة أن تفتح لاختصاصها بلزوم الحرفية والجر ، كما كسرت لام الأمر ، ولام الإضافة داخلة على المظهر للفصل بينهما وبين لام الابتداء . والاسم عند البصريين من الأسماء المحذوفة الأعجاز . المبنيّة الأوائل على السكون قد أدخلت (١) عليها عند الابتداء همزة ، لأن من دأبهم البدء بالمتحرك والوقف على الساكن ، ويشهد له تصرفهم على أسماء ويسمى (٢) وسميت ، وسمى كهدى لغة فيه قال :

والله أسماك سمي مباركاً آثرك الله به إيثاركا

والقلب بعيد غير مطرد ، واشتقاقه من السمو لأنه رفع للمسمى وتنويه له ، وعند الكوفيين من السمة ، وأصله وسم ، حذفت الواو وعوضت عنها همزة الوصل ليقل إعلاها ، ورد عليه بأن الهمزة لم تعهد داخلة على ما حذفت صدره في كلامهم ، ومن لغاتهم سيم (٣) وسم قال :

« باسم الذي في كل سورة سمه »

وإنما لم يقل بالله للفرق بين اليمين واليمين ، أو لتحقيق ما هو المقصود بالاستعانة ههنا ، فإنها تكون تارة بذاته تعالى . وحقيقتها طلب المعونة على إيقاع الفعل وإحداثه ، أي إفاضة القدرة المفسرة عند الأصوليين من أصحابنا

(١) في ٤٨٦ ، دخلت .

(٢) في المطبوعة ، وسمى .

(٣) في المطبوعة : سم وسم

بما يتمكن به العبد من أداء ما لزمه ، المنقسمة إلى ممكنة وميسرة ، وهى المطلوبة بإيادك نستعين ، وتارة أخرى باسمه عز وجل وعلا . وحقيقتها طلب المعونة فى كون الفعل معتمداً به شرعاً فإنه ما لم يصدر باسمه تعالى يكون بمنزلة المعدوم . ولما كانت كل واحدة من الاستعانتين واقعة وجب تعيين المراد بذكر الاسم ، وإلا فالتبادر من قولنا بالله عند الإطلاق لاسيما عند الوصف بالرحمن الرحيم هى الاستعانة الأولى .

إن قيل : فليحمل الباء على التبرك وليستغن عن ذكر الاسم ، لما أن التبرك لا يكون إلا به ، قلنا : ذلك فرع كون المراد بالله هو الاسم ، وهل التشاجر إلا فيه ، فلا بد من ذكر الاسم لينقطع احتمال إرادة المسمى . ويتعين حمل الباء على الاستعانة الثانية أو التبرك ، وإنما لم يكتب الألف لكثرة الاستعمال قالوا : وطولت الباء عوضاً عنها .

والله أصله الإله ، فحذفت همزته على غير قياس كما ينبىء عنه وجوب الإدغام ، وتعويض الألف واللام عنها ، حيث لزمها وجرى من معنى التعريف ، ولذلك قيل يا الله بالقطع ، فإن المحذوف القياسى فى حكم الثابت ، فلا يحتاج إلى التدارك بما ذكر من الإدغام والتعويض . وقيل : على قياس تخفيف ألهمزة ، فيكون الإدغام والتعويض من خواص الاسم الجليل ، ليمتاز بذلك عما عداه امتياز مسماه عما سواه بما لا يوجد فيه من نعوت الكمال . والإله فى الأصل اسم جنس يقع على كل معبود بحق أو باطل ، أى مع قطع النظر عن وصف الحقيقة والبطان ، لامع اعتبار أحدهما لا بعينه ، ثم غلب على المعبود بالحق كالنجم والصعق . وأما الله بحذف ألهمزة فعلم مختص بالمعبود الحق (١) لم يطلق على غيره أصلاً ، واشتقاقه من الألاهة والألوهة .

والألوهية بمعنى العبادة حسبما نص عليه الجوهري ، على أنه اسم منها بمعنى المألوه ، كالكتاب بمعنى المكتوب ، لاعلى أنه (اسم) (٢) صفة منها ، بدليل أنه

(١) فى المطبوعة : بالحق . (٢) سقطت من المطبوعة

يوصف ولا يوصف به ، حيث يقال إله واحد ، ولا يقال شيء إله ، كما يقال كتاب مرقوم ، ولا يقال شيء كتاب . والفرق بينهما أن الموضوع له في الصفة هو الذات المبهمة باعتبار اتصافها بمعنى معين وقيامه بها . فمدلولها مركب من ذات مبهمة لم يلاحظ معها خصوصية أصلا ، ومن معنى معين قائم بها على أن ملاك الأمر تلك الخصوصية ، فبأى ذات يقوم ذلك المعنى يصح إطلاق الصفة عليها ، كما في الأفعال . ولذلك تعمل عملها كاسمى الفاعل والمفعول . والموضوع له في الاسم المذكور هو الذات المعينة . والمعنى الخاص ، فمدلوله مركب من ذينك المعنيين من غير رجحان للمعنى على الذات كما في الصفة ، ولذلك لم يعمل عملها .

وقيل اشتقاقه من أله بمعنى تحير ، لأنه سبحانه تحار في شأنه العقول والأفهام . وأما أله كعبد وزنا ومعنى فشتق من الأله المشتق من أله بالكسر ، وكذا تأله واستأله اشتقاق استنوق واستحجر من الناقة والحجر . وقيل : من أله إلى فلان أى سكن إليه ، لاطمئنان القلوب بذكره تعالى وسكون الأرواح إلى معرفته . وقيل من أله إذا فزع من أمر نزل به ، وآله غيره إذا أجاره ، إذ العائد به تعالى يفزع إليه وهو يجيره حقيقة أو في زعمه . وقيل : أصله لاه على أنه مصدر من لاه يليه بمعنى احتجب وارتفع ، أطلق على الفاعل مبالغة . وقيل هو اسم للذات الجليل ابتداء ، وعليه مدار أمر التوحيد في قولنا لا إله إلا الله .

ولا يخفى أن اختصاص الاسم الجليل بذاته سبحانه بحيث لا يمكن إطلاقه على غيره أصلا كاف في ذلك ، ولا يقدر فيه كون ذلك الاختصاص بطريق الغلبة بعد أن كان اسم جنس في الأصل ، وقيل : هو وصف في الأصل لكنه لما غلب عليه بحيث لا يطلق على غيره أصلا صار كالعلم ، ويرده امتناع الوصف به .

واعلم أن المراد بالمنكر في كلمة التوحيد هو المعبود بالحق ، فعناها : لافرد^(١) من أفراد المعبود بالحق إلا ذلك المعبود بالحق . وقيل : أصله لاها بالسريانية فعرب بحذف الألف الثانية ، وإدخال الألف واللام عليه وتفخيم لأمه إذا لم ينكسر ما قبله سنة ، وقيل مطلقا ، وحذف ألفه لحن تفسد به الصلاة ، ولا ينعقد به صريح اليمين ، وقد جاء لضرورة الشعر في قوله :

ألا لا بارك الله في سهيل إذا ما الله بارك في الرجال

و (الرحمن الرحيم) صفتان مبنيتان من رحم « بعد جعله لازما ، بمنزلة الغرائز ، بنقله إلى رحم بالضم كما هو المشهور . وقد قيل : إن الرحيم ليس بصفه مشبهة ، بل هي صيغة مبالغة ، نص عليه سيبويه في قوهم : هو رحيم فلانا . والرحمة في اللغة رقة القلب والانعطاف ، ومنه الرحم لانعطافها على ما فيها . والمراد ههنا التفضل والإحسان ، وإرادتهما بطريق إطلاق اسم السبب بالنسبة إلينا على مسببه البعيد أو القريب ، فإن أسماء الله تعالى تؤخذ باعتبار الغايات التي هي أفعال ؛ دون المبادئ التي هي انفعالات . والأول من الصفات الغالبة حيث لم يطلق على غيره تعالى ، وإنما امتنع صرفه إلحاقا له بالأغلب في بابه من غير نظر إلى الاختصاص العارض ، فإنه كما حظر وجود فعلي حظر وجود فعلاية ، فاعتباره يوجب اجتماع الصرف وعدمه ، فلزم الرجوع إلى أصل هذه الكلمة قبل الاختصاص ، بأن تقاس إلى نظائرها من باب فعل يفعل ، فإذا كانت^(٢) كلها ممنوعة من الصرف لتحقق وجود فعلي فيها علم أن هذه الكلمة أيضاً في أصلها مما تحقق فيها وجود فعلي ، فتمتنع^(٣) من الصرف ، وفيه من المبالغة ما ليس في الرحيم ؛ ولذلك قيل يارحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا وتقديمه مع كون القياس تأخير رعايته لأسلوب الترقى إلى الأعلى كما في قوهم

(١) في المطبوعة : لافراد . خطأ

(٢) في المطبوعة : كان

(٣) في المطبوعة : فتمتنع

فلان عالم نحرير وشجاع بأسل وجواد فياض ، لأنه باختصاصه به عز وجل صار حقيقاً بأن يكون قريناً للاسم الجميل الخاص به تعالى ، ولأن ما يدل على جلائل النعم وعظائمها وأصولها أحق بالتقديم مما يدل على دقائقها وفروعها ، وإفراد الوصفين الشريفين بالذكر لتحريك سلسلة الرحمة .

الحمد والمدح والشكر

(الحمد لله) الحمد هو : النعت بالجميل على الجميل ، اختيارياً كان أو مبدأً له ، على وجه يشعر^(٣) بتوجيهه إلى المنعوت وبهذه الهيئة يمتاز عن المدح ، فإنه خال عنها ، يرشدك إلى ذلك ما ترى بينهما من الاختلاف في كيفية التعلق بالمفعول في قولك : حمدته ومدحته ، فإن تعلق الثاني بمفعوله على منهاج تعلق عامة الأفعال بمفعولاتها ، وأما الأول فتعلقه بمفعوله منبئ عن معنى الإنهاء ، كما في قولك كلمته ، فإنه معرب عما تفيد لام التبايع في قولك قلت ونظيره ، وشكرته وعبدته وخدمته ، فإن تعلق كل منها منبئ عن المعنى المذكور وتحقيقه أن مفعول كل فعل في الحقيقة هو الحدث الصادر عن فاعله ولا يتصور في كيفية تعلق الفعل به — أى فعل كان — اختلاف أصلاً . وأما المفعول به الذي هو محله وموقعه فلما كان تعلقه به ووقوعه عليه على أنحاء مختلفة حسباً تقتضيه خصوصيات الأفعال بحسب معانيها المختلفة ، فإن بعضها يقتضى أن يلبسه ملابس تامة مؤثرة فيه كعامة الأفعال ، وبعضها يستدعى أن يلبسه أدنى ملابس . إما بالانتهاء إليه كالإعانة مثلاً ، أو بالابتداء منه كالاستعانة مثلاً ، اعتبر في كل نحو من أنحاء تعلقه به كيفية لائقة بذلك النحو ، مغايرة لما اعتبر في النحويين الآخرين .

فنظم القسم الأول من التعلق في سلك التعلق بالمفعول الحقيقي مراعاة لقوة الملابس ، وجعل كل واحد من القسمين الآخرين من قبيل التعلق بواسطة

(٣) في ٤٨٦ يشعر ذلك

الجار المناسب له ، فإن قولك أعنته مشعر بانتهاء الإعانة إليه ، وقولك استعنته بأبتدائها منه ، وقد يكون لفعل واحد مفعولان يتعلق بأحدهما على الكيفية الأولى ، وبالأخر على الثانية أو الثالثة ، كما في قولك حدثني الحديث ، وسألني المال ، فإن التحديث مع كونه فعلا واحدا قد تعلق بك على الكيفية الثانية ، وبالحديث على الأولى ، وكذا السؤال فإنه فعل واحد ، وقد تعلق بك على الكيفية الثالثة (١) وبالمال على الأولى .

ولاريب في أن اختلاف هذه الكيفيات الثلاث وتباينها واختصاص كل من المفاعيل المذكورة بما نسب إليه منها مما لا يتصور فيه تردد ولا تكبير وإن كان لا يتضح حق الاتضاح إلا عند الترجمة والتفسير ، وأن مدار ذلك الاختلاف ليس إلا اختلاف الفعل أو اختلاف (٢) المفعول ، وإذ لا اختلاف في مفعول الحمد والمدح تعين أن اختلافهما في كيفية التعلق ، لاختلافهما في المعنى قطعا . هذا وقد قيل المدح مطلق عن قيد الاختيار ، يقال مدحت زيدا على حسنه ورشاقته قده ، وأيا ما كان فليس بينهما ترادف ، بل أخوة من جهة الاشتقاق الكبير ، وتناسب تام في المعنى كالتصريح والتأييد فإنهما يتناسبان (٣) معنى من غير ترادف لما ترى بينهما من الاختلاف في كيفية التعلق بالمفعول ، وإنما مرادف النصير الإعانة ، ومرادف التأييد التقوية ، فتدبر .

ثم إن ما ذكر من التفسير هو المشهور من معنى الحمد ، واللائق بالإرادة في مقام التنظيم ، وأما ما ذكر في كتب اللغة من معنى الرضى مطلقا كما في قوله تعالى « عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا » وفي قولهم : لهذا الأمر عاقبة حميدة ؛ وفي قول الأطباء ، بحران محمود ، مما لا يختص بالفاعل فضلا عن الاختيار

(١) في المطبوعة الثانية : خطأ .

(٢) في ٢٩٦٠ : لاختلاف .

(٣) في المطبوعة : متناسبان

(٢ - أبو السعود - أول)

فبمعزل من^(١) استحقاق الإرادة ههنا استقلالاً أو استتباعاً بحمل الحمد على ما يعم المعنيين ، إذ ليس في إثباته له عز وجل فائدة يعتد بها . وأما الشكر فهو مقابلة النعمة بالشأن وآداب الجوارح ، وعقد القلب على وصف المنعم بنعمت الكمال كما قال من قال :

أفاددتكم النعماء منى ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا
فإذن هو أعم منهما من جهة ، وأخص من أخرى . ونقيضه الكفران ، ولما كان الحمد من بين شعب الشكر أدخل في إشاعة النعمة والاعتداد بشأنها ، وأدل على مكانها لما في عمل القلب من الخفاء ، وفي أعمال الجوارح من الاحتمال جعل الحمد رأس الشكر ، وملا كما لأمره في قوله عليه السلام : « الحمد رأس الشكر ، ما شكر الله عبد لم يحمده ، وارتفاعه بالابتداء ، وخبره الظرف ، وأصله النصب كما هو شأن المصادر المنصوبة بأفعالها المضمره التي لا تكاد تستعمل معها ، نحو شكر أ وعجبا ، كأنه قيل : نحمد الله حمدا بنون الحكاية ، ليوافق ما في قوله تعالى (إياك نعبد وإياك نستعين) لانحد الفاعل في الكل ، وأما ما قيل من أنه بيان لحرهم له تعالى ، كأنه قيل : كيف تحمدون فقيل إياك نعبد فمع أنه لا حاجة إليه بما لا صحة له في نفسه ، فإن السؤال المقدر لا بد أن يكون بحيث يقتضيه انتظام الكلام وتنساق إليه الأذهان والأفهام ، ولا ريب في أن الحامد بعد ما ساق حمده تعالى على تلك الكيفية اللائقة لا يخطر ببال أحد أن يسأل عن كيفيته على أن ما قدر من السؤال غير مطابق للجواب ، فإنه مسوق لتعيين المعبود ، لا لا لبيان العبادة ، حتى يتوهم كونه بيانا لحمدهم^(١) والاعتذار بأن المعنى نخصك بالعبادة وبه كيفية الحمد تعكيس للأمر ، وتمحل لتوفيق المنزل المقرر بالموهوم المقدر .

وبعد اللتيا والتي إن فرض السؤال من جهته عز وجل فانت نسكتة الالتفات التي أجمع عليها السلف والخلف ، وإن فرض من جهة الغير يحتل النظام لا بتناء الجواب على خطابه تعالى ، وبهذا يتضح فساد ما قيل إنه استئناف جواب السؤال

(١) في ١١ «عن» واحترنا ما في ٤٨٦ (٢) في ١١ لسبغية حمد

يقتضيه لإجراء تلك الصفات العظام على الموصوف بها ، فيكأنه قيل : ما شأنكم معه وكيف توجهكم إليه ، فأجيب بمحصر العبادة والاستعانة فيه ، فإن تناسى جانب السائل بالكلية وبناء الجواب على خطابه عن وعلا بما يجب تنزيهه ساحة التنزيل عن أمثاله .

والحق الذي لا يحيد عنه استئناف صدر عن الحامد بمحض ملاحظة اتصافه تعالى بما ذكر من النعوت الجليلة الموجبة للإقبال الكلي عليه ، من غير أن يتوسط هناك شيء آخر كما ستحيط به خبراً ، وإيثار الرفع على النصب الذي هو الأصل الإيدان بأن ثبوت الحمد له تعالى لذاته لا لإثبات مثبت ، وأن ذلك أمر دائم مستمر لا حادث متجدد كما نفيده قراءة النصب ، وهو السر في كون تسمية الخليل للملائكة عليهم التحية والسلام أحسن من تحيتهم له في قوله تعالى : (قالوا سلاماً قال سلام) وتعريفه للجنس ، ومعناه الإشارة إلى الحقيقة من حيث هي حاضرة في ذهن السامع ، والمراد تخصيص حقيقة الحمد به تعالى المستدعى لتخصيص جميع أفرادها به سبحانه على الطريق البرهاني ، لكن لا بناء على أن أفعال العبادة مغاوبة له تعالى ، فتكون الأفراد الواقعة بمقابلة ما صدر عنهم من الأفعال الجليلة راجعة إليه تعالى ، بل بناء على تنزيل تلك الأفراد ودواعيها في المقام الخطابى منزلة عدم كيفاً وتماً .

وقد قيل للاستعراق الحاصل بالقصد إلى الحقيقة من حيث تحققها في ضمن جميع أفرادها ، حسبما يقتضيه المقام ، وقرئ : الحمد لله بكسر الدال إتباعاً لها باللام ، وبضم اللام إتباعاً لها بالدال ، بناء على تنزيل الكلمتين لكثرة استعمالهما مقترنتين منزلة كلمة واحدة ، مثل المغيرة ومنحدر الجبل .

(رب العالمين) بالجر على أنه صفة لله ، فإن إضافته حقيقة مفيدة للتعريف على كل حال ، ضرورة تعيين إرادة الاستمرار ، وقرئ منصوباً على المدح ، أو بما دلت عليه الجملة السابقة ، كأنه قيل : نحمد الله رب العالمين ولا مساغ لنصبه بالحمد لقلة أعمال المصدر المحلى باللام ، وللزوم الفصل بين العامل والمعمول بالخبر ، والرب في الأصل مصدر بمعنى التربيية وهي تبليغ الشيء إلى كاله شيئاً فشيئاً ، وصف به الفاعل مبالغة كالعدل .

وقيل : صفة مشبهة ، من ربه يربه ، مثل نمه ينمه ، بعد جعله لازماً بنقله إلى فعل بالضم ، كما هو المشهور ، سمي به المالك لأنه يحفظ ما يملكه ويرببه ، ولا يطلق على غيره تعالى إلا مقيداً كرب الدار ورب الدابة ، ومنه قوله تعالى (فيسقى ربه خيراً) وقوله تعالى (فارجع إلى ربك) وما في الصحيحين من أنه عليه السلام قال : « لا يقل أحدكم أطعم ربك ، وضئ ربك ، ولا يقل أحدكم ربى ، وليقل سيدى ومولاي » .

فقد قيل إن النهى فيه للتنزيه ، وأما الأرباب في حيث لم يمكن (١) إطلاقه على الله سبحانه جاز في إطلاقه الإطلاق والتقييد ، كما في قوله (أرباب متفرقون خير) الآية . والعالم اسم لما يعلم به ، كالتاتم والقالب . غلب فيما يعلم به الصانع تعالى من المصنوعات أى فى القدر المشترك بين أجناسها وبين مجموعها ، فإنه كما يطلق على كل جنس جنس منها فى قوطم عالم الأفلاك ، وعالم العناصر ، وعالم النبات ، وعالم الحيوان ، إلى غير ذلك ، يطلق على المجموع أيضاً ، كما فى قولنا العالم بجميع أجزائه محدث ، وقيل : هو اسم لأولى العلم من الملائكة والثقلين وتناوله لما سواهم بطريق الاستتباع .

وقيل : أريد به الناس فقط ، فإن كل واحد منهم من حيث اشتماله على نظائر ما فى العالم الكبير من الجواهر والأعراض يعلم بها الصانع ، كما يعلم بما فى كل (٢) عالم على خياله ، ولذلك أمر بالنظر فى الأنفس كالنظر فى الآفاق ، فقيل (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) والأول هو الأحق الأظهر ، ولا يشار صيغة الجمع ليبيان شمول ربوبيته تعالى بجميع (٣) الأجناس ، والتعريف لاستغراق أفراد كل منها بأسرها ، إذ لو أفرد لربما توهم أن المقصود بالتعريف هو الحقيقة من حيث هى ، أو استغراق أفراد جنس واحد على الوجه الذى أشير إليه فى

(١) فى المطبوعة لم يكن . خطأ

(٢) فى المطبوعة بما فيه عالم . خطأ

(٣) فى المطبوعة ؛ جميع الاجناس .

تعريف الحمد ، وحيث صح ذلك بمساعدة التعريف نزل العالم — وإن لم ينطلق على آحاد مدلوله — منزلة الجمع ، حتى قيل إنه جمع لا واحد له من لفظه ، فكما أن الجمع المعرف يستغرق آحاد مفرده وإن لم يصدق عليها كما في مثل قوله تعالى (والله يحب المحسنين) أى كل محسن ، كذلك العالم يشمل أفراد الجنس المسمى به ، وإن لم ينطلق عليها ، كأنها آحاد مفرده التقديرى ، ومن قضية هذا التنزيل تنزيل جمعه منزلة جمع الجمع ، فكما أن الأقاويل تتناول كل واحد من آحاد الأقوال ، يتناول لفظ العالمين كل واحد من آحاد الأجناس التى لا تكاد تخصى .

روى عن وهب بن منبه أنه قال : لله تعالى ثمانية عشر ألف عالم ، والدنيا عالم منها ، وإنما جمع بالواو والنون مع اختصاص ذلك بصفات العقلاء وما فى حكمها من الأعلام لدلالته على معنى العلم ، مع اعتبار تغاييب العقلاء على غيرهم ، واعلم أن عدم انطلاق اسم العالم على كل واحد من تلك الآحاد ليس إلا باعتبار الغلبة والاصطلاح ، وأما باعتبار الأصل فلا ريب فى صحة الإطلاق قطعاً لتحقيق المصداق حتماً فإنه كما يستدل على الله سبحانه بمجموع ما سواه ، وبكل جنس من أجناسه يستدل عليه تعالى بكل جزء من أجزاء ذلك المجموع ، وبكل فرد من أفراد تلك الأجناس ، لتحقيق الحاجة إلى المؤثر الواجب لذاته فى الشكل ، فإن كل ما ظهر فى المظاهر مما عز وهان وحضر فى هذه المحاضر كأنما ما كان دليل لأئح على الصانع المجيد ، وسبيل واضح إلى عالم التوحيد ، وأما شمول ربوبيته عز وجل للشكل فهما لا حاجة إلى بيانه ، إذ لا شئ مما أحقق به نطاق الإمكان والوجود من العلويات والسفليات والمجردات والماديات والروحانيات والجسمانيات^(١) إلا وهو فى حد ذاته بحيث لو فرض انقطاع آثار الترتيبية عنه آناً واحداً لما استقر له القرار ، ولا اطمأنت به الدار ، إلا فى مطمورة العدم

(١) فى المطبوعة : والجسمانيات .

ومهاوى البوار ، لكن يفيض عليه من الجناب الأقدس ، تعالى شأنه وتقدس ، في كل زمان يمضى ، وكل آن يمر وينقضى ، من فنون الفيوض المتعلقة بذاته ، ووجوده وصفاته وكالاته مما لا يحيط به فلك التعبير ولا يعلمه إلا العليم الخبير ، ضرورة أنه كما لا يستحق شيء من الممكنات بذاته الوجود ابتداء لا يستحقه بقاء ، وإنما ذلك من جناب المبدىء الأول^(١) عز وعلا ، فكما لا يتصور وجوده ابتداء ما لم ينسد عليه جميع أنحاء عدمه الأصلي ، لا يتصور بقاءه على الوجود بعد تحققه بعلمته ، ما لم ينسد عليه جميع أنحاء عدمه الظارى ، لما أن الدوام من خصائص الوجود الواجبي ، وظاهر أن ما يتوقف عليه وجوده من الأمور الوجودية التي هي عالله وشرائطه وإن كانت متناهية لوجوب تناهي ما دخل تحت الوجود ، لكن الأمور العدمية التي لها دخل في وجوده وهي المعبر عنها بارتفاع الموانع ليست كذلك ، إذ لا استحالة في أن يكون لشيء واحد موانع غير متناهية يتوقف وجوده أو بقاءه على ارتفاعها ، أى بقاءها على العدم مع إمكان وجودها في نفسها^(٢) فإبقاء تلك الموانع التي لاتتناهى على العدم تربية لذلك الشيء من وجوه غير متناهية .

وبالجملة فإنا نرى ترتيبه عز وجل الفائضة على كل فرد من أفراد الموجودات في كل آن من آتات الوجود غير متناهية فسبحانه ما أعظم شأنه^(٣) لاتلاحظه العيون بأنظارها ، ولا تطالعه العقول بأفكارها ، شأنه لا يضاهي ، وإحسانه لا يتناهى ، ونحن في معرفته حائرون . وفي إقامة مراسم شكره قاصرون ، نسألك اللهم الهداية إلى مناهج معرفتك ، والتوفيق لأداء حقوق نعمتك ، لانخصي ثناء عليك لا إله إلا أنت ، نستغفرك ونتوب إليك .

(١) في المطبوعة المبدأ الأول .

(٢) في المطبوعة : في نفسها .

(٣) في المطبوعة : سلطانية .

(الرحمن الرحيم) صفتان لله ، فإن أريد بما فيهما من الرحمة ما يختمس بالعقلاء من العالمين ، أو ما يفيض على الكل بعد الخروج إلى طور الوجود من النعم ، فوجه تأخيرهما عن وصف الربوبية ظاهر ، وإن أريد ما يعم الكل في الأطوار كلها حسبا في قوله تعالى (ورحمتي وسعت كل شيء) فوجه الترتيب أن الترتيب لا تقتضى المقارنة للرحمة ، فأرادها في عقبيها^(١) للإيدان بأنه تعالى متفضل فيها فاعل بقضية رحمة السابقة من غير وجوب عليه ، وبأنها واقعة على أحسن ما يكون والاقتصار على نعمته تعالى بهما في التسمية لما أنه الأنسب بحال المتبرك المستعين باسمه الجليل ، والأوفق لمقاصده .

(مالك يوم الدين) صفة رابعة له تعالى ، وتأخيرها عن الصفات الأولى مما لا حاجة إلى بيان وجهه ، وقرأ أهل الحرمين النعمانيين (ملك) من المالك الذى هو عبارة عن السلطان القاهر ، والاستيلاء الباهر ، والعلية العامة ، والقدرة على التصرف السطى فى أمور العامة ، بالأمر والنهى وهو الترتيب بمقام الإضافة إلى يوم الدين ، كما فى قوله تعالى (لمن المالك اليوم لله الواحد القهار) وقرئ (ملك) بالتخفيف و (ملك) بفتح الميم ، (وملك) بالنصب ، على المدح ، أو الحال ، وبالرفع بثبوت مضافا على أنه خبر مبتدأ محذوف ، وملك مضافا بالرفع والنصب ، واليوم فى العرف عبارة عما بين ضروب الشمس وغروبها من الزمان ، وفى الشرع عما بين ضروب العجر الثانى وغروب الشمس والمراد هنا مطلق الوقت ، والدين الجزاء خيرا كان أو شرا ، ومنه الثانى فى المثل السائر كما تدين تدان ، والأول فى بيت الحسانة :

ولم يبق سوى العدوا ن دناهم كما دانوا

وأما الأول فى الأول والثانى فى الثانى فليس بجزء حقيقة ، وإنما سمي به

(١) فى المطبوعة : فأرادها فى عقبيها .

مشاكلة . أو تسمية للشيء باسم مسببه كما سميت إرادة القيام والقراءة باسمهما في قوله عز اسمه (إذا قمتم إلى الصلاة) وقوله تعالى (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله) ولعله هو السر في بناء المفاعلة من الأفعال التي تقوم أسبابها بمفعولاتها ، نحو عاقبت اللص ونظائرُه ، فإن قيام السرقة التي هي سبب للعقوبة باللص نزل منزلة قيام المسبب به ، وهي العقوبة ، فصار كأنها قامت بالجائنين ، وصدرت عنهما ، فبنيت صيغة المفاعلة الدالة على المشاكلة بين^(١) اثنين وإضافة اليوم إليه لأدنى ملاسة كإضافة سائر الظروف الزمانية إلى ما وقع فيها من الحوادث ، كيوم الأحزاب وعام الفتح ، وتخصيصه من بين سائر ما يقع فيه من القيامة والجمع والحساب لسكونه أدخل في الترغيب والترهيب ، فإن ما ذكر من القيامة وغيرها من مبادئ الجزاء ومقدماته وإضافة مالك إلى اليوم إضافة اسم الفاعل إلى الظرف ، على تهيج الاتساع المبنى على إجرائه مجرى المفعول به ، مع بقاء المعنى على حاله ، كقولهم : يا سارق الليلة أهل الدار . أى : مالك أمور العالمين كلها في يوم الدين . وخلو إضافته عن إفادة التعريف المسوغ لوقوعه صفة للمعرفة إنما هو إذا أريد به الحال ، أو الاستقبال ، وأما عند إرادة الاستمرار الثبوتى كما هو اللائق بالمقام فلا ريب في كونها إضافة حقيقية كإضافة الصفة المشبهة إلى غير معمولها في قراءة (ملك يوم الدين) .

ويوم الدين وإن لم يكن مستمرا في جميع الأزمنة إلا أنه لتحقيق وقوعه وبقائه أبدا أجرى مجرى المتحقق المستمر . ويجوز أن يراد به الماضى بهذا الاعتبار ، كما تشهد به القراءة على صيغة الماضى ، وما ذكر من إجراء الظرف مجرى المفعول به إنما هو من حيث المعنى ، لا من حيث الإعراب ، حتى يلزم كون الإضافة لفظية ، ألا ترى أنك تقول في مالك عبده أمس إنه مضاف إلى المفعول به ، على أنه كذلك معنى ، لا أنه منصوب محلا ، وتخصيصه بالإضافة إما

(١) فى المطبوعة : على المشاركة بين الاثنين .

لتعظيمه وتمويله ، أو لبيان تفرده تعالى بإجراء الأمر فيه ، وانتطاع العلائق الجارية (١) بين الملاك والأملاك حينئذ بالكلية ، وإجراء هاتيك الصفات الجليلة عليه سبحانه لتعليل لما سبق من اختصاص الحمد له تعالى ، المستلزم لاختصاص استحقاقه به تعالى ، وتمهيد لما لحق من اقتصار العبادة والاستعانة عليه ، فإن كل واحدة منها مفصحة عن وجوب ثبوت كل واحد منها له تعالى ، وامتناع ثبوتها لما سواه .

أما الأولى والرابعة فظاهر ، لأنهما متعرضتان صراحة لكونه تعالى ربا مالكا وما سواه مربوباً مملوكاً له تعالى .

وأما الثانية والثالثة فلأن اتصافه تعالى بهما ليس إلا بالنسبة إلى ما سواه من العالمين وذلك يستدعى أن يكون الكل منهما عليهم ، فظهر أن كل واحدة من تلك الصفات كما دلت على وجوب ثبوت الأمور المذكورة له تعالى دلت على امتناع ثبوتها لما عداه على الإطلاق ، وهو المعنى بالاختصاص .

(إياك نعبد وإياك نستعين) .

سر وجوب الفاتحة في الصلاة

التفات من الغيبة إلى الخطاب ، وتلوين للنظم من باب إلى باب ، جار على نهج البلاغة في افتتاح الكلام ، ومسالك البراعة حسبما يقتضى المقام ، لما أن التنقل من أسلوب إلى أسلوب ، أدخل في استجلاب النفوس واستمالة القلوب يقع من كل واحد من التكلم والخطاب ، والخصية إلى كل واحد من الآخرين ، كما في قوله عز وجل (الله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا) الآية ، وقوله تعالى (حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم) إلى غير ذلك من الالتفاتات الواردة

(١) فى المطبوعة : المجازية . خطأ

في التنزيل لأسرار تقتضيها ، ومن ايا تستدعيها . وبما استأثر به هذا المقام الجليل من النكت الرائقة الدالة على أن تخصيص العبادة والاستعانة به تعالى لما أجرى عليه من النعوت الجليلة التي أوجبت له تعالى أكمل تميز ، وأتم ظهور ، بحيث تبدل خفاء الغيبة بجلاء الحضور ، فاستدعى استعمال صيغة الخطاب ، والإيدان بأن حق التالي بعد ما تأمل فيما سلف من تفرده تعالى بذاته الأقدس ، المستوجب للعبودية ، وامتيازه بذاته عما سواه بالكلية ، واستبداده بجلائل الصفات وأحكام الربوبية المميزة له عن جميع أفراد العالمين ، وافتقار الكل إليه في الذات والوجود ابتداء وبقاء ، على التفصيل الذي مرت إليه الإشارة أن يترقى من رتبة البرهان إلى طبقة البيان^(١) وينتقل من عالم الغيبة إلى معالم الشهود ، ويلاحظ نفسه في حظائر القدس حاضرا في محاضر الأنس ، كأنه واقف لدى مولاه مائل بين يديه ، وهو يدعو بالخضوع والإخبات ، ويقرع بالضراعة باب المناجاة قائلا : ياهن هذه شؤون ذاتة وصفاته ، نخصك بالعبادة والاستعانة ، فإن ما سواك كأننا ما كان بمعزل من استحقاق الوجود ، فضلا عن استحقاق أن يعبد ويستعان ، ولعل هذا هو السر في اختصاص السورة الكريمة بوجوب القراءة في كل ركعة من الصلاة التي هي (من)^(٢) مناجاة العبد لمولاه ومتمته للتبتل إليه بالكلية ، وإيا ضمير منفصل منصوب ، وما يلحقه من الكاف والياء والهاء حروف زيدت لتعيين الخطاب ، والتكلم والعبية لالمحل لها من الإعراب ، كالتاء في أنت والكاف في رأيتك ، وما ادعاه الخليل من الإضافة محتجا عليه بما حكاه عن بعض العرب : إذا بلغ الرجل الستين فأياه وإيا الشواب ، فيما لا يعول عليه . وقيل هي : الضائر ، وإيا دعامة لها لتصيرها منفصلة ، وقيل الضمير هو المجموع ، وقرى (إياك) بالتخفيف وبفتح الهمزة والتشديد ، وهياك بقلب الهمزة هاء .

العبادة والعبودية والاستعانة

والعبادة أقصى غاية التذلل والخضوع ، ومنه طريق معبد أى مدلل ، والعبودية أدنى منها ، وقيل : العبادة فعل ما يرضى به الله ، والعبودية الرضى بما فعل الله تعالى ، والاستعانة طلب المعونة على الوجه الذى مر بيانه ، وتقديم المفعول فيهما لما ذكر من القصر والتخصيص كما فى قوله تعالى (وإياى فارهبون) مع ما فيه من التعظيم والاهتمام به ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : معناه نعبدك ولا نعبد غيرك ، وتكرير الضمير المنصوب للتخصيص على تخصيصه تعالى بكل واحدة من العبادة والاستعانة ، وإبراز الاستئذان بالمناجاة والخطاب ، وتقديم العبادة لما أنها من مقتضيات مدلول الاسم الجميل ، وإن ساعدته^(١) الصفات المجرأة عليه أيضاً ، وأما الاستعانة فن الأحكام المبنية على الصفات المذكورة ولأن العبادة من حقوق الله تعالى ، والاستعانة من حقوق المستعين ، ولأن العبادة واجبة حتماً ، والاستعانة تابعة للمستعان فيه فى الوجوب ، وعدمه ، وقيل لأن تقديم الوسيلة على المسئول أدعى إلى الإجابة والقبول ، هذا على تقدير كون إطلاق الاستعانة على المفعول فيه ليتناول كل مستعان فيه ، كما قالوا وقد قيل : إنه لما كان المسئول هو المعونة فى العبادة والتوفيق لإقامة مراسمها على ما ينبغى ، وهو اللائق بشأن التنزيل ، والمناسب لحال الخادم ، فإن استعانته مسبوقه بملاحظة فعل من أفعاله ، ليستعينه تعالى فى إيقاعه ، ومن البين أنه عند استغراقه فى ملاحظة شؤونه تعالى ، واشتغاله بأداء ما توجبه تلك الملاحظة من الحمد والثناء ، لا يكاد يخطر بباله من أفعاله وأحواله إلا الإقبال الكلى عليه ، والتوجه التام إليه ، ولقد فعل ذلك بتخصيص العبادة به تعالى أولاً ، وباستدعاء الهداية إلى ما يوصل إليه آخرأ فكيف يتصور أن يشتغل فيما بينهما بما لا يعنيه من أمور دنياه أو بما يعمها وغيرها ، كأنه قيل : وإياك

(١) فى المطبوعة : ساعده خطأ .

نستعين في ذلك ، فإننا غير قادرين على أداء حقوقك^(١) من غير إعانة منك فوجه الترتيب حينئذ واضح ، وفيه من الإشعار بعلو رتبة عبادته تعالى وعزة منالها ، وبكونها عند العابد أشرف المباحي والمقاصد وبكونها من مواهبه تعالى لامن أعمال نفسه ، ومن الملائمة^(٢) لما يعقبه من الدعاء ما لا يخفى .

وقيل الواو للحال ، أى إياك نعبد مستعينين بك ، وإيثار صيغه المتكلم مع الغير فى الفعلين للإيدان بقصور نفسه ، وعدم لياقته للوقوف^(٣) فى مواقف الكبرياء منفرداً ، وعرض العبادة ، واستدعاء المعونة والهداية مستقلاً ، وأن ذلك إنما يتصور من عصابة هو من جملتهم ، وجماعة هو من زميرتهم ، كما هو دين الملوك ، أو للإشعار باشتراك سائر الموحدين له فى الحالة العارضة له ، بناء على تعاضد الأدلة الملمجة إلى ذلك ، وقرىء (نستعين) بكسر النون على لغة بنى تميم .

(إهدنا الصراط المستقيم) لإفراد معظم فراد المعونة المسئولة بالذكر ، وتعيين لما هو الأهم أو بيان لها ، كأنه قيل : كيف أعينكم فقيل : اهدنا .

أجناس الهداية

والهداية دلالة بلطف على ما يوصل إلى البغية ، ولذلك اختصت بالخير ، وقوله تعالى (فاهدوهم إلى صراط الجحيم) وارد على نهج التهمك ، والأصل تعديتها^(٤) بالى واللام ، كما فى قوله تعالى : (قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق قل الله يهدى للحق) فعومل معاملة اختار فى قوله تعالى (واختار موسى

(١) فى المطبوعة : حقوقه . خطأ .

(٢) فى المطبوعة : الملائمة . خطأ

(٣) فى المطبوعة : بالوقوف .

(٤) فى المطبوعة : تعديته .

قومه) وعليه قوله تعالى : (لنهدينهم سبلنا) وهداية الله تعالى مع تنوعها إلى أنواع لاتكاد تحصر منحصرة في أجناس مترتبة ، منها أنفسية ، كإفاضة القوى الطبيعية والحيوانية التي بها يصدر عن المرء فاعيله الطبيعية الحيوانية ، والقوى المدركة ، والمشاعر الظاهرة والباطنة التي بها يتمكن من إقامة مصالحه المعاشية والمعادية ، ومنها آفاقية فإما تكوينية معربة عن الحق بلسان الحال ، وهي نصب الأدلة المودعة في كل فرد من أفراد العالم حسبما لوح به فيما سلف ، وإماتنزيلية مفصحة عن تفاصيل الأحكام النظرية والعملية بلسان المقال ، بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب المنطوية على فنون الهدايات التي من جملتها الإرشاد إلى مسلك الاستدلال بتلك الأدلة التكوينية الآفاقية والأنفسية ، والتنبيه على مكانها ، كما أشير إليه مجملا في قوله تعالى : (وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون) وفي قوله عز وعلا : (إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون) ومنها الهداية الخاصة وهي كشف الأسرار على قلب المهدي بالوحي ، أو الإلهام .

ولكل مرتبة من هذه المراتب صاحب ينتجها ، وطالب يستدعيها ، والمطلوب إما زيادتها كما في قوله تعالى (والذين اهتدوا زادهم هدى) وإما الثبات عليها كما روى عن علي وأبي رضى الله عنهما : إهدنا ثبتنا ، ولفظ الهداية على الوجه الأخير^(١) مجاز قطعاً ، وأما على الأول فإن اعتبر مفهوم الزيادة دخلاً في المعنى المستعمل فيه كان مجازاً أيضاً ، وإن اعتبر خارجاً عنه مدلولاً عليه بالقرائن كان حقيقة ، لأن الهداية الزائدة هداية ، كما أن العبادة الزائدة عبادة ، فلا يلزم الجمع بين الحقيقة والمجاز ، وقرىء أرشدنا ، والصراف الجادة وأصله السين ، قلبت صاداً لمكان الطاء كصيطر في مسيطر ، من شرط الشيء إذا ابتلعه ، سميت به لأنها تسترط السابلة إذا سلكوها ، كما سميت لقمها لأنها

(١) في المطبوعة الآخر .

لأنها تلتقهم وقد تشم الصاد صوت الزامى تحرياً للقرب من المبدل منه . وقد قرىء بهن جميعاً ، وفصحاهن إخلاص الصاد ، وهي لغة قريش ، وهي الثابتة في الإمام ، وجمعة صراط ككتاب وكتب ، وهو كالطريق والسبيل في التذكير والتأنيث ، والمستقيم المستوى ، والمراد به طريق الحق وهي الملة الحنيفة السمحة المتوسطة بين الإفراط والتفريط .

﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ بدل من الأول بدل السبيل ، وهو في حكم تكرير العامل من حيث إنه المقصود بالنسبة ، وفائدته التأكيد والتنصيص على أن طريق الذين أنعم الله عليهم وهم المسلمون هو العلم في الاستقامة ، والمشهور له بالاستواء بحيث لا يذهب الوهم عند ذكر الطريق المستقيم إلا إليه .

النعم ومن الذين أنعم الله عليهم

وإطلاق الإنعام لقصد الشمول ، فإن نعمة الإسلام عنوان النعم كلها ، فمن فاز بها فقد حازها بحذافيرها : وقيل : المراد بهم الأنبياء عليهم السلام ولعل الأظهر أنهم المذكورون في قوله عز قائلنا (فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) بشهادة ما قبله من قوله تعالى (ولهديناهم صراطا مستقيما) وقيل : هم أصحاب موسى وعيسى عليهما (الصلاة^(١) و) السلام قبل النسخ والتحريف وقرىء صراط من أنعمت عليهم والإنعام إيصال النعمة وهي في الأصل الحالة التي يستلذها الإنسان من النعمة وهي اللين ثم أطلقت على ما تستلذه النفس من طيبات الدنيا .

ونعم الله تعالى مع استحالة إحصائها تنحصر^(٢) أصولها في دنيوى وأخروى والأول قسمان : وهبى وكسبى ، والوهبى أيضاً قسمان : روحانى كنفخ الروح

(١) سقطت من المطبوعة .

(٢) في ١١ : تستحضر .

فيه ، وإمداده بالعقل ، وما يتبعه من القوى المدركة ، فإنها مع كونها من قبيل الهدايات نعم جليلة في أنفسها ، وجسماني كتخليق البدن والقوى الحاملة فيه ، والهيئات العارضة له من الصحة وسلامة الأعضاء ، والسكبي تخلية النفس عن الرذائل ، وتخليتها بالأخلاق السنية ، والمملكات البهية ، وتزيين البدن بالهيئات المطبوعة والحلى المرضية ، وحصول الجاه والمال .

والثاني (١) مغفرة ما فرط منه ، والرضى عنه ، وتبوءته في أعلى عليين ، مع المقربين والمطلوب هو القسم الأخير ، وما هو ذريعة إلى نيله من القسم الأول ، اللهم ارزقنا ذلك بفضلك العظيم . ورحمتك الواسعة .

﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ : صفة للموصول على أنه عبارة عن إحدى الطوائف المذكورة المشهورة بالإنعام عليهم ، وباستقامة المسلك ، ومن ضرورة هذه الشهرة شهرتم بالمغايرة لما أضيف إليه كلمة غير من المتصفين بضدى الوصفين المذكورين ، أعنى مطلق المغضوب عليهم والضالين ، فاكتمست بذلك تعرفاً مصححاً لوقوعها صفة للمعرفة كما في قولك : عليك بالحركة غير السكون ، وصفوا بذلك تكلمة لما قبله وإيداناً بأن السلامة مما ابتلى به أولئك نعمة جليلة في نفسها ، أى الذين جمعوا بين النعمة المطلقة التي هي نعمة الإيمان ونعمة السلامة من الغضب والضلال . وقيل المراد بالموصول طائفة من المؤمنين لا بأعيانهم ، فيكون بمعنى النكرة كندى اللام إذا أريد به الجنس في ضمن بعض الأفراد لا بعينه ، وهو المسمى بالمعهود الذهنى ، والمراد (٢) بالمغضوب عليهم والضالين اليهود والنصارى ، كما ورد في مسند أحمد والترمذى فيبقى لفظ غير على إبهامه نكرة مثل موصوفة ، وأنت خبير بأن جعل الموصول عبارة عما ذكر من طائفة غير معينة محل بديلية ما أضيف ، إليه بما قبله ؛ فإن مدارها كون صراط المؤمنين

(١) المراد النعم الأخروية .

(٢) سقطت من المطبوعة

علما في الإستقامة مشهوداً له بالاستواء على الوجه الذي تحققت فيه سلف ، ومن البين أن ذلك من حيث إضافته وانتسابه إلى كلهم لا إلى بعض مبهم منهم ، وبهذا تبين ألا سبيل إلى جعل غير المغضوب عليهم بدلا من الموصول (١) لما عرفت من أن شأن البدل أن يفيد متبوعه مزيد تأكيد وتقرير ، وفضل إيضاح وتفسير ، ولا ريب في أن قصارى أمر مانحن فيه أن يكتب بما أضيف إليه نوع تعرف مصحح لوقوعه صفة للموصول ، وأما استحقاق أن يكون مقصودا بالنسبة مفيداً لما ذكر من الفوائد فكلا ، وقرىء بالنصب على الحال ، والعامل أنعمت ، أو على المدح ، أو على الاستثناء إن فسر النعمة بما يعم القليل .

والغضب هيجان النفس لإرادة الإنتقام وعند اسناده إلى الله سبحانه يراد به غايته بطريق إطلاق اسم السبب بالنسبة إلينا على مسببه القريب إن أريد به لإرادة الإنتقام ، وعلى مسببه البعيد إن أريد به نتمس الإنتقام ، ويجوز حمل الكلام على التمثيل ، بأن تشبه الهيئة المنتزعة من سخطه تعالى للعصاة وإرادة الإنتقام منهم لمعاصيهم بما ينتزع من حال الملك إذا غضب على الذين عصوه ، وأراد أن ينتقم منهم ويعاقبهم ، وعليهم مرتفع بالمغضوب ، قائم مقام فاعله والعدول عن إسناد الغضب إليه تعالى كالإنعام جرى على منهاج الآداب التنزيلية في نسبة النعم والخير إليه عز وجل ، دون أضدادها ، كما في قوله تعالى : (الذي خلقني فهو يهدين ، والذي هو يطعمني ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين) ، وقوله تعالى : (ولأنا لأندرى أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً) ولا مزيدة لتأكيد ما أفاده غير من معنى النفي كأنه قيل : إن ولا المغضوب عليهم ولا الضالين ، ولذلك جاز إن زياداً (٢) غير ضارب ، جواز إن زياداً لا ضارب وإن امتنع إن زياداً مثل ضارب ، والضلال هو

(١) في ١١ . الموصوف .

(٢) في المطبوعة ، أن زياداً في الفقرة كلها خطأ .

سورة البقرة مدنية وهي مائتان وسبع وثمانون آية
 بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ
 آراء في الحروف المقطعة

﴿ ألم ﴾ الألفاظ التي يعبر بها عن حروف المعجم التي من جملتها المقطعات المرقومة في فواتح السور الكريمة أسماء لها ، لاندراجها تحت حد الاسم ، ويشهد به ما يعثر بها من التعريف والتنكير والجمع والتصغير وغير ذلك من خصائص الاسم ، وقد نص على ذلك أساطين أئمة العربية ، وما وقع في عبارات المتقدمين من التصريح بحرفيتها محمول على المساحة ، وأما ما روى عن ابن مسعود رضي الله عنه من أنه عليه السلام قال : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف بل ألف حرف ولام حرف وميم حرف ، وفي رواية الترمذي والدارمي : « لا أقول ألم حرف ذلك الكتاب حرف ولكن الألف حرف واللام حرف والميم حرف والذال حرف والكاف حرف ، فلا تعلق له بما نحن فيه قطعاً ، فإن إطلاق الحرف على ما يقابل الاسم والفعل عرف جديد اخترعه أئمة الصناعة . وإنما الحرف عند الأوائل ما يتركب منه الكلم من الحروف المبسوطة ، وربما يطلق على الكلمة أيضاً تجوزاً وأريد^(١) بالحديث الشريف دفع توهم التجوز ، وزيادة تعيين إردة المعنى الحقيقي ليتبين بذلك أن الحسنة الموعودة ليست بعدد الكلمات القرآنية ، بل بعدد حروفها المكتوبة في المصاحف ، كما يلوح به ذكر كتاب الله دون كلام الله أو القرآن ، وليس هذا من تسمية الشيء باسم مدلوله في شيء كما قيل كيف لا والمحكوم عليه بالحرفية واستتباع الحسنة إنما هي المسميات البسيطة الواقعة في كتاب الله عز وجل^(٢) ، سواء عبر عنها بأسمائها المؤلفة كما إذا قلنا^(٣) الألف مؤلف من ثلاثة أحرف ، فسكاً أن الحسنات في قراءة قوله تعالى

(١) في المطبوعة : فأريد .

(٢) في المطبوعة : وجل .

(٣) في المطبوعة : قلت .

(ذلك الكتاب) بمقابلة حروفه البسيطة ، وموافقة لعددتها كذلك في قراءة قوله تعالى (ألم) بمقابلة حروفه الثلاثة المكتوبة وموافقة لعددتها ، لا بمقابلة أسمائها المفلوطة ، والألفات الموافقة في العدد ، إذ الحكم بأن كلا منها حرف واحد مستلزم للحكم بأنه مستتبع لحسنة واحدة ، فالعبرة في ذلك بالمعبر عنه دون المعبر به ، ولعل السرف فيه أن استتباع الحسنة منوط بإفادة المعنى المراد بالكلمات القرآنية . فكما أن سائر الكلمات الشريفة لا تفيد معانيها إلا بتلفظ حروفها بأنفسها ، كذلك الفواخح المكتوبة لا تفيد المعاني المقصودة بها إلا بالتعبير عنها بأسمائها ، فجعل ذلك تلفظاً بالمسميات كالتقسيم الأول من غير فرق بينهما .

ألا ترى إلى ما في الرواية الأخيرة من قوله عليه السلام « والذال حرف والكاف حرف ، كيف عبر عن طرفي ذلك باسميهما ، مع كونهما مفلوطين باسميهما^(١) ، ولقد روعيت في هذه التسمية نسكته رابعة^(٢) ، حيث جعل كل مسمى لسكونه من قبيل الألفاظ صدرأ لاسمه ، ليكون هو المفهوم منه إثر ذى أثر ، خلا أن الألف حيث تعذر الابتداء بها استعيرت مكانها المهمزة ، وهي معرفة إذ لا مناسبة بينها وبين مبنى الأصل ، لسكنها مالم تلها العوامل ساكنة الأعجاز على الوقف كأسماء الأعداد وغيرها ، حين خلطت عن العوامل ، ولذلك قيل : صاد ، وقاف ، بمجموعا فيهما بين الساكنين ، ولم تعامل معاملة أين وكيف وهؤلاء وإن وليها عامل مسها الإعراب ، وقصر ما آخره ألف عند التهجى لا بتغاء الحقة لا لأن وزانه وزان لا تقصر تارة فتسكون حرفاً وتمد أخرى فتسكون اسما لها كما في قول حسان رضى الله عنه :

ما قال لا قط إلا في تشده لولا التشهد لم تسمع له لاء

هذا وقد تسكلموا في شأن هذه الفواخح الكريمة وما أريد بها فليل : لها

(١) في المطبوعة : بأسميهما . (٢) في ط : رائمة

من العلوم المستورة ، والأسرار المحجوبة ، روى عن الصديق أنه قال د في كل كتاب سر ، وسر القرآن أوائل السور ، وعن علي رضي الله عنه د إن لسلك كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال د عجزت العلماء عن إدراكها ، وسئل الشعبي عنها فقال د سر الله عز وجل فلا تطلبوه ، وقيل : إنها من أسماء الله تعالى وقيل : كل حرف منها إشارة إلى اسم من أسماء الله تعالى ، أو صفة من صفاته تعالى . وقيل : إنها صفات الأفعال ، الألف آلاؤه ، واللام لطفه ، والميم مجده وملكوته ، قاله محمد ابن كعب القرظي . وقيل : إنها من قبيل الحساب ، وقيل الألف من الله ، واللام من جبريل ، والميم من محمد ، أي الله أنزل^(١) الكتاب بواسطة جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام . وقيل هي أقسام من تعالى بهذه الحروف المعجمة ، لشرفها من حيث إنها أصول اللغات ومبادئ كتبه المنزلة ، ومباني أسمائه الكريمة ، وقيل : إشارة إلى انتهاء كلام وابتداء كلام آخر ، وقيل ، وقيل .

ولسكن الذي عليه التعويل : إما كونها أسماء للسور المصدرة بها ، وعليه إجماع الأكثر ، وإليه ذهب الخليل وسيبويه ، قالوا سميت بها إيداناً بأنها كلمات عربية معروفة التركيب من مسميات هذه الألفاظ ، فيكون فيه إيماء إلى الإعجاز والتحدى على سبيل الإيقاظ . فلولا أنه^(٢) وحى من الله عز وجل لما عجزوا عن معارضته ، ويقرب منه ما قاله الكلبي والسدي وقتادة من أنها أسماء للقرآن والتسمية بثلاثة أسماء فصاعداً إنما تستنكر في لغة العرب إذا ركبت وجعلت اسماً واحداً ، كما في حزموت ، فأما إذا كانت منشورة فلا استنكار فيها ، والمسمى هو المجموعة لا الفاتحة فقط ، حتى يلزم اتحاد الاسم والمسمى ، غاية الأمر دخول الاسم في المسمى ، ولا محذور فيه ، كما لا محذور في عكسه حسبها

(١) في المطبوعة : أنزل الله .

(٢) في ١١ : أنها .

تحققته آنفا ، وإنما كتبت في المصاحف صور المسميات دون صور الأسماء لأنه أدل على كيفية التلفظ بها ، وهي أن يكون على نهج النهجى دون التركيب ولأن فيه سلامة من التطويل لاسيما في الفواتح الخاسية ، على أن خط المصحف مما لا يناقش فيه بمخالفة القياس ، وإما كونها مسرودة على نمط التعديد ، وإليه جنح أهل التحقيق .

قالوا إنما وردت هكذا ليسكون لإيقاظ لمن تحدى بالقرآن ، وتنبيه لهم على أنه منتظم من عين ما ينظمون منه كلامهم ، فلو لا أنه خارج عن طوق البشر ، نازل من عند خلاق القوى والقدر ، لما تضاعفت قوتهم ، ولا تساقطت قدرتهم ، وهم فرسان حلبة الحوار ، وأمراء الكلام في نادى الفخار ، دون الإتيان بما يدانيه ، فضلا عن المعارضة بما يساويه ، مع تظاهرهم في المضادة والمضاره ، وتهالكهم على المعازة والمعاره .

أو ليسكون مطلع ما يتلى عليهم مستقلا بضرب من الغرابة أنموذجا لما في الباقي من فنون الإعجاز ، فإن النطق بأنفس الحروف في تضاعيف الكلام ، وإن كان على طرف التمام ، يتناوله الخواص والعوام ، من الأعراب والأعجام لكن التلفظ بأسمائها إنما يتأتى من درس وخط ، وأما من لم يحتم حول ذلك قط ، فأعز من بيض الأنوق ، وأبعد من مناط العيوق ، لاسيما إذا كان على نمط عجيب ، وأسلوب غريب ، منبئ عن سر سرى ، منبئ على نهج عبقرى ، بحيث يحار في فهمه أرباب العقول ، ويعجز عن إدراك ألباب الفحول .

كيف لا وقد وردت تلك الفواتح في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم ، مشتملة على نصفها تقريبا ، بحيث ينطوى على أنصاف أصنافها تحميها أو تقريبا ، كما يتضح عند الفحص والتنقيب ، حسبما فصله بعض أفاضل أئمة التفسير .

فسبحان من دقت حكيمته من أن تظالعها الأنظار ، وجلت قدرته عن أن تنالها أيدي الأفكار ، وإيراد بعضها فرادى وبعضها ثنائية إلى الخاسية جرى

على عادة الافتتان ، مع مراعاة أبنية الكلم وتفريقها على السور ، دون إيراد كلها مرة لذلك ولما في التكرير والإعادة من زيادة إفادة ، وتخصيص كل منها بسورتها مما لاسبيل إلى المطالبة بوجهه ، وعد بعضها آية دون بعض ، مبنى على التوقيف البحث .

هل الحروف آيات ؟ إعرابها

أما الم فآية حيثما وقعت ، وقيل في آل عمران ليست بآية ، والمص آية ، والمر لم تعد آية ، والر ليست بآية في شيء من سورها الخمس ، وطسم آية في سورتها ، وطه ويس آيتان ، وطس ليست بآية ، وحم آية في سورها كلها ، وكهيعص آية ، وحم عسق آيتان . وص وق ون لم تعد واحدة منها آية . هذه على رأى الكوفيين .

وقد قيل : إن جميع الفواتح آيات عندهم في السور كلها بلا فرق بينها ، وأما من عداهم فلم يعدوا شيئاً منها آية ، ثم لأنها على تقدير كونها مسرودة على نمط التعديد لا تشتم رائحة الإعراب ، ويوقف عليها وقف التمام ، وعلى تقدير كونها أسماء للسور أو للقرآن كان لها حظ منه إما الرفع على الابتداء أو على الخبرية ، وإما النصب بفعل مضمّر ، كاذكر ، أو بتقدير فعل القسم على طريقة الله لأفعلن ، وإما الجر بتقدير حرفه حسبما يقتضيه المقام ، ويستدعيه النظام ، ولاوقف فيما عدا الرفع على الخبرية والتلفظ بالمثل على وجه الحكاية ساكنة الأعجاز إلا أن ما كانت منها مفردة مثل ص وق ون يتأني فيها الإعراب اللفظي أيضاً ، وقد قرنت بالنصب على إضمار فعل ، أى اذكر أو اقرأ صاد وقاف ونون ، وإنما لم تنون لامتناع الصرف ، وكذا ما كانت منها موازنة لمفرد نحو حم ويس وطس الموازنة لقابيل وهابيل ، حيث أجاز سيويوه فيها مثل ذلك قال في باب أسماء السور من كتابه : وقد قرأ بعضهم

ياسين والقرآن ، وقاف والقرآن ، فكأنه جعله اسما أعجميا ، ثم قال اذكر ياسين ، انتهى .

وحكى السيرافى أيضا عن بعضهم قراءة ياسين ويجوز أن يكون ذلك فى السكلى تحريكاً لالتقاء الساكنين ، ولا مساعً للنصب بإضمار فعل القسم ؛ لأن ما بعدها من القرآن والقلم محلوف بهما ، وقد استسكرهوا الجمع بين قسمين على مقسم عليه واحد قبل انقضاء الأول ، وهو السر فى جعل ما عدا الواو الأولى فى قوله تعالى (والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى . وما خلق الذكر والأثى) عاطفة ، ولا مجال للعطف ههنا للمخالفة بين الأول والثانى فى الإعراب ، نعم يجوز ذلك بجعل الأول مجرورا بإضمار الباء القسمية ، مفتوحا لكونه غير منصرف ، وقرىء ص وق بالكسر على التحريك لالتقاء الساكنين ، ويجوز فى طاسين ميم أن تفتح نونها ، وتجعل من قبيل دارا مجرد ذكره سيبويه فى كتابه . وأما ما عدا ذلك من الفواتح فليس فيها إلا الحكاية وسيجيء تفصيل سائر أحكام كل منها مشروحة فى مواقعها بإذن الله عز سلطانه أما هذه الفاتحة الشريفة فإن جعلت اسما للسورة أو للقرآن فحلها الرفع ، إما على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير هذا المسمى به ، وإنما صححت الإشارة إلى القرآن بعضاً أو كلاً مع عدم سبق ذكره لأنه باعتبار كونه بصدد الذكر صار فى حكم الحاضر المشاهد ، كما يقال هذا ما اشترى فلان .

ولما على أنه مبتدأ ، أى المسمى به والأول هو الأظهر ، لأن ما يجعل عنوان الموضوع حقه أن يكون قبل ذلك معلوم الانسباب إليه عند المخاطب وإذ لا علم بالتسمية قبل خفها الإخبار بها وادعاء شهرتها ياباه التردد فى أن المسمى هى السورة أو كل القرآن .

(ذلك) إذا اسم إشارة واللام كناية عما جىء به للدلالة على بعد المشار إليه ، والكاف للخطاب ، والمشار إليه هو المسمى ، فإنه منزل منزلة المشاهد بالحس البصرى ، وما فيه من معنى البعد ، مع قرب العهد بالمشار إليه ، للإيدان

بعلو شأنه ، وكونه في الغاية القاصية من الفضل والشرف ، إثر تنويهه بذكر اسمه ، وما قيل من أنه باعتبار التقصى أو باعتبار الوصول من المرسل إلى المرسل إليه في حكم المتباعد ، وإن كان مصححا لإيراده ، ولكنه بمنزل من ترجيحه على إيراد ما وضع للإشارة إلى القريب ، وتذكيره على تقدير كون المسمى هي السورة ، لأن المشار إليه هو المسمى بالاسم المذكور من حيث هو مسمى به ، لامن حيث هو مسمى بالسورة ، ولئن ادعى اعتبار الحينية الثانية في الأول بناء على أن التسمية لتمييز السور بعضها من بعض ، فذلك لتذكير ما بعده ، وهو على الوجه الأول مبتدأ على حدة ، وعلى الوجه الثاني مبتدأ ثان .

وقوله عز وعلا (السكتاب) إما خبر له ، أو صفة ، أما إذا كان خبرا له فالجملة على الوجه الأول مستأنفة مؤكدة ، لما أفادته الجملة الأولى من نباهة شأن المسمى ، لاجل لها من الإعراب ، وعلى الوجه الثاني في محل الرفع على أنها خبر للبتدأ الأول . واسم الإشارة مغن عن الضمير الرابط ، والسكتاب إما مصدر سمي به المفعول مبالغة كالخلق والتصوير للمخلوق والمصور ، وإما فعل بني للمفعول كاللباس ، من السكتاب الذي هو ضم الحروف بعضها إلى بعض وأصله الجمع والضم في الأمور البادية للحس البصرى ، ومنه السكتيبة للعسكر ، كما أن أصل القراءة الجمع والضم في الأشياء الخافية عليه ، وإطلاق السكتاب على المنظوم عبارة لما أن مآله السكتابة ، والمراد به على تقدير كون المسمى هي السورة جميع القرآن الكريم ، وإن لم يتم نزوله نزول السورة إما باعتبار تحققه في علم الله عز وجل ، أو باعتبار ثبوته في اللوح ، أو باعتبار نزوله جملة إلى السماء الدنيا ، حسبما ذكر في فاتحة السكتاب المعهود ، الغنى عن الوصف بالسكال لاشتهاره به فيما بين السكتب على طريقة قوله عليه السلام : د الحج عرفة ، وعلى تقدير كون المسمى كل القرآن .

فالمراد بالسكتاب الجنس ، واللام للحقيقة ، والمعنى أن ذلك هو السكتاب السكامل الحقيق بأن يخص به اسم السكتاب لتفوقه على بقية الأفراد في

حياسة كالات الجنس ، كأن ما عداه من الكتب السماوية خارج منه بالنسبة إليه كما يقال هو الرجل ، أى الكامل فى الرجولية الجامع لما يكون فى الرجال من مراضى الخصال ، وعليه قول من قول :

* هم القوم كل القوم يا أم خالد *

فالمذح كما ترى من جهة حصر كمال الجنس فى فرد من أفرادها ، وفى الصورة الأولى من جهة حصر كمال السكلى فى الجزء ، ولا مساغ هناك لحمل الكتاب على الجنس ، لما أن فرد المعهود هو مجموع القرآن المقابل لسائر أفراد من الكتب السماوية ، لا بعضه الذى ينطلق عليه اسم الكتاب باعتبار كونه جزءا لهذا الفرد ، لا باعتبار كونه جزئيا للجنس على حياله ، ولأن حصر الكمال فى السورة مشعر بنقصان سائر السور ، وإن لم يكن الحصر بالنسبة إليها لتحقق المغايرة بينهما ، هذا على تقدير كون الكتاب خبرا لذلك ، وأما إذا كان صفة له فذلك الكتاب على تقدير كون ألم خبر مبتدأ محذوف ، إما خبر ثان أو بدل من الخبر الأول ، أو مبتدأ مستقل خبره ما بعده ، وعلى تقدير كونه مبتدأ إما خبر له ، أو مبتدأ ثان خبره ما بعده ، والجملة خبر للمبتدأ الأول ، والمشار إليه على كلا التقديرين هو المسمى ، سواء كان هى السورة أو القرآن ، ومعنى البعد ما ذكر من الإشعار بعلو شأنه ، والمعنى ذلك الكتاب العجيب الشأن ، البالغ أقصى مراتب السكالى .

وقيل المشار إليه هو الكتاب الموعود ، فعنى البعد حيثئذ ظاهر ، خلا أنه إن كان المسمى هى السورة ينبغى أن يراد بالوعد ما فى قوله تعالى : (إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً) كما قيل ، وإن كان هو القرآن فهو ما فى التوراة والإنجيل ، هذا على تقدير كون (الم) اسماً للسورة أو القرآن ، وأما على تقدير كونها مسرودة على نمط التعديد فذلك مبتدأ ، والكتاب إما خبره أو صفته ، والخبر ما بعده على نحو ما سلف ، أو يقدر مبتدأ ، أى المؤلف من هذه الحروف ذلك الكتاب ، وقرىء (الم تنزيل الكتاب) .

وقوله تعالى : ﴿ لا ريب فيه ﴾ إما فى محل الرفع على أنه خبر لذلك

الكتاب على الصور الثلاث المذكورة ، أو على أنه خبر ثان لآلف لام ميم أو لذلك على تقدير كون الكتاب خبره ، أو للابتداء المقدر آخرًا على رأى من يجوز كون الخبر الثانى جملة ، كما فى قوله تعالى : (فإذا هى حية تسمى) وإما فى محل النصب على الحالية من ذلك ، أو من الكتاب ، والعامل معنى الإشارة ، وإما جملة مستأنفة لامحل لها من الإعراب مؤكدة لما قبلها ، وكلمة لا نافية للجنس مفيدة للاستغراق ، عاملة عمل إن بحملها عليها ، لكونها نقيضا لها ، ولازمة للاسم لزومها ، واسمها مبنى على الفتح لكونه مفردا نكرة لامضافا ولا شبيها به ، وأما ما ذكره الزجاج من أنه معرب وإنما حذف التنوين للتخفيف فمما لا تعويل عليه ، وسبب بنائه تضمنه لمعنى من الاستغراقية لأنه مركب معها تركيب خمسة عشر كما توهم ، وخبرها محذوف ، أى لا ريب موجود أو نحوه ، كما فى قوله تعالى : (لا عاصم اليوم من أمر الله) والظرف صفة لاسمها ، ومعناه نفي الكون المطلق وسلبه عن الريب المفروض فى الكتاب ، أو الخبر هو الظرف ، ومعناه سلب الكون فيه عن الريب المطلق وقد جعل الخبر المحذوف ظرفا ، وجعل المذكور خبرا لما بعده .

وقرى لا ريب فيه على أن لا بمعنى ليس ، والفرق بينه وبين الأول أن ذلك موجب للاستغراق ، وهذا يجوز له ، والريب فى الأصل مصدر رابى إذا حصل فىك الريبة ، وحقيقتها قلق النفس واضطرابها ، ثم استعمل فى معنى الشك مطلقا ، أو مع تهمة ، لأنه يقلق النفس ويزيل الطمأنينة ، وفى الحديث . ددع ما يريبك إلى ما لا يريبك . . ومعنى نفيه عن الكتاب أنه فى علو الشأن وسطوع البرهان بحيث ليس فيه مظنة أن يرتاب فى حقيقته ، وكونه وحيا منزلا من عند الله تعالى ، لا أنه لا يرتاب فيه أحد أصلا ، ألا ترى كيف جوز ذلك فى قوله تعالى : (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا) الخ . فإنه فى قوة أن يقال : وإن كان لكم ريب فيما نزلنا ، أو إن ارتبتم فيما نزلنا ، الخ إلا أنه خولف فى الأسلوب حيث فرض كونهم فى الريب لا كون الريب فيه لزيادة تنزيه ساحة التنزيل عنه ، مع نوع إشعار بأن ذلك من جهتهم ، لا من جهته .

العالية ، ولم يقصد ههنا ذلك الإشعار ، كما لم يقصد الإشعار بثبوت الرب في سائر الكتب ، ليقضى المقام تقديم الظرف ، كما في قوله تعالى : (لا فيها غول) .

الهدى والضلال

(هدى) مصدر من هداه كالسرى والبسكا ، وهو الدلالة بلطف . على ما يوصل إلى البغية ، أى ما من شأنه ذلك ، وقيل : هى الدلالة الموصلة إليها ، بدليل وقوع الضلالة فى مقابلته ، فى قوله تعالى : (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) وقوله تعالى : (ولنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) ولا شك فى أن عدم الوصول معتبر فى مفهوم الضلال ، فيعتبر الوصول فى مفهوم مقابله ، ومن ضرورة اعتباره فيه اعتباره فى مفهوم الهدى المتعدى . إذ لافرق بينهما إلا من حيث التأثير ، والتأثر ، ومحصله أن الهدى المتعدى هو التوجيه الموصول ، لأن اللازم هو التوجه الموصول ، بدليل أن مقابله الذى هو الضلال توجه غير موصول قطعا ، وهذا كما ترى مبنى على أمرين اعتبار الوصول وجوبا فى مفهوم اللازم ، واعتبار وجود اللازم وجوبا فى مفهوم المتعدى ، وكلا الأمرين بمعزل من الثبوت ، أما الأول فلأن مدار التقابل بين الهدى والضلال ليس هو الوصول وعدمه على الإطلاق ، بل هما معتبران فى مفهوميهما على وجه مخصوص به ، ليتحقق التقابل بينهما .

وتوضيحه أن الهدى لا بد فيه من اعتبار توجه عن علم إلى ما من شأنه الإيصال إلى البغية ، كما أن الضلال لا بد فيه من اعتبار الجور عن القصد إلى ما ليس من شأنه الإيصال قطعا ، وهذه المرتبة من الاعتبار مسلبة بين الفريقين ، ومحقة للتقابل بينهما ، وإنما النزاع فى أن إمكان الوصول إلى البغية هل هو كاف فى تحصيل مفهوم الهدى ، أو لا بد فيه من خروج الوصول من القوة إلى الفعل ، كما أن عدم الوصول بالفعل معتبر فى مفهوم الضلال قطعا .

إذا تقرر هذا فنقول إن أريد باعتبار الوصول بالفعل في مفهوم الهدى
اعتباره مقارناله في الوجود زمانا حسب اعتبار عدمه في مفهوم مقابله فذلك بين
البطلان ، لأن الوصول غاية للتوجه المذكور ، فينتهي به قطعا ، لاستحالة
التوجه إلى تحصيل الحاصل ، وما يبقى بعد ذلك فهو إما توجه إلى الثبات عليه ،
وإما توجه إلى زيادته ، ولأن التوجه إلى المقصد تدريجي ، والوصول إليه
دفعي ، فيستحيل اجتماعهما في الوجود ضرورة ، وأما عدم الوصول فحيث كان
أمرا مستمرا مثل ما يقتضيه من الضلال وجب مقارنته له في جميع أزمنة
وجوده . إذ لو فارقه في آن من آتات تلك الأزمنة لقارنته في ذلك الآن مقابله
الذي هو الوصول ، فما فرضناه ضلالا لا يكون ضلالا ، وإن أريد اعتباره
من حيث أنه غاية له واجبة الترتب عليه لزم أن يكون التوجه المقارن لغاية
الجد في السلوك إلى ما من شأنه الوصول عند تخلفه عنه لمنازع خارجي كاخترام
النية مثلا من غير تقصير ولا جور من قبل المتوجه ، ولاخلل من جهة المسلك
ضلالا ، إذ لا واسطة بينهما ، مع أنه لا جور فيه عن القصد أصلا ، فبطل
اعتبار وجوب الوصول في مفهوم اللازم قطعا ، وتبين منه عدم اعتباره في
مفهوم المتعدى حتما ، وأما اعتبار وجود اللازم فيه وجوبا وهو الأمر الثاني ،
فبيانته مبني على تمهيد أصل . وهو أن فعل الفاعل حقيقة هو الذي يصدر عنه
ويتم من قبله ، لكن لما لم يكن له في تحققه في نفسه بد من تعلقه بمفعوله اعتبر
ذلك في مدلول اسمه قطعا ، ثم لما كان له باعتبار كيفية صدوره عن فاعله ،
وكيفية تعلقه بمفعوله ، وغير ذلك آثار شتى مترتبة عليه متميزة في أنفسها ،
مستقلة بأحكام مقتضية لإفرادها بأسماء خاصة ، وعرض له بالقياس إلى كل
أثر من تلك الآثار إضافة خاصة متميزة عما عداها من الإضافات العارضة له
بالقياس إلى سائرهما ، وكانت الآثار تابعة له في التحقق غير منفكة عنه أصلا
إذ لا مؤثر لها سوى فاعله عدت من متماته ، واعتبرت الإضافة العارضة له
بمسبها داخلة في مدلوله كالاعتقاد المتعلق بالجسم مثلا ، وضع له باعتبار الإضافة
العارضة له من انكسار ذلك الجسم الذي هو أثر خاص لذلك الاعتماد اسم

الكسر ، وباعتبار الإضافة العارضة له من انقطاعه الذي هو أثر آخر له اسم القطع ، إلى غير ذلك من الإضافات العارضة له بالقياس إلى آثاره اللازمة له وهذا أمر مطرد في آثاره الطبيعية .

وأما الآثار التي له مدخل في وجودها في الجملة من غير إيجاب لها تترتب عليه تارة وتفارقة أخرى ، بحسب وجود أسبابها الموجبة لها وعدمها ، كالأثار الاختيارية الصادرة عن مؤثراتها بواسطة كونه داعيا إليها فحيث كانت تلك الآثار مستقلة في أنفسها مستندة إلى مؤثراتها غير لازمة له لزوم الآثار الطبيعية التابعة له لم تعد من متماته ، ولم تعتبر الإضافة العارضة له بحسبها داخله في مدلوله كالإضافة العارضة للأمر بحسب امثال المأمور والإضافة العارضة للدعوة بحسب إجابة المدعو ، فإن الامثال والإجابة وإن عدا من آثار الأمر والدعوة باعتبار ترتيبها عليهما غالبا ، لكنهما حيث كافا فعلمين اختياريين للمأمور والمدعو مستقلين في أنفسهما غير لازمين للأمر والدعوة ، لم يعدا من متماتهما ولم تعتبر الإضافة العارضة لهما بحسبهما داخله في مدلول اسم الأمر والدعوة بل جعلتا عبارة عن نفس الطلب المتعلق بالمأمور والمدعو سواء وجد الامثال والإجابة أو لا . إذا تمهد هذا فنقول كما أن الامثال والإجابة فعلا مستقلان في أنفسهما صادران عن المدعو والمأمور باختيارهما غير لازمين للأمر والدعوة لزوم الآثار الطبيعية التابعة للأفعال الموجبة لها ، وإن كانا مترتبين عليهما في الجملة ، كذلك هدى المهدي أي توجهه إلى ما ذكر من المسلك فعل مستقل له صادر عنه باختياره ، غير لازم للهداية ، أعنى التوجيه إليه لزوم ما ذكر من الآثار الطبيعية ، وإن كان مترتبا عليها في الجملة ، فلما لم يعدا من متمات الأمر والدعوة ولم يعتبر الإضافة العارضة لهما بحسبهما داخله في مدلولهما علم أنه لم يعد الهدى اللازم من متمات الهداية ، ولم يعتبر الإضافة العارضة لهما بحسبه داخله في مدلولها ، إن قيل ليس الهدى بالنسبة إلى الهداية كالامثال والإجابة بالقياس إلى أصلهما ، فإن تعلق الأمر والدعوة بالمأمور والمدعو لا يقتضى

إلا اتصافهما بكونهما مأمورا ومدعوا ، وليس من ضرورته اتصافهما بالامتثال والإجابة ، إذ لا تلازم بينهما وبين الأولين أصلا ، بخلاف الهدى بالنسبة إلى الهداية ، فإن تعلقها بالهدى يقتضى اتصافه به ، لأن تعلق الفعل المتعدى المبني للفاعل بمفعوله يدل على اتصافه بمصدره المأخوذ من المبني للمفعول قطعاً ، وهو مستلزم لاتصافه بمصدر الفعل اللازم ، وهل هو الاعتبار وجود اللازم في مدلول المتعدى حتماً؟ قلنا كما أن تعلق الأمر والدعوة بالمأمور والمدعو لا يستدعى إلا اتصافهما بما ذكر من غير تعرض للامتثال والإجابة إيجاباً وسلباً ، كذلك تعلق الهداية التي هي عبارة عن الدلالة المذكورة بالهدى لا يستدعى إلا اتصافه بالمدلولة ، التي هي عبارة عن المصدر المأخوذ من المبني للمفعول ، من غير تعرض لقبول تلك الدلالة ، كما هو معنى الهدى اللازم ، ولا لعدم قبوله ، بل الهداية عين الدعوة إلى طريق الحق ، والاهتداء عين الإجابة ، فكيف يؤخذ في مدلولها ، واستلزام الاتصاف بمصدر الفعل المتعدى المبني للمفعول للاتصاف بمصدر الفعل اللازم مطلقاً إنما هو في الأفعال الطبيعية كالمكسورية والانكسار ، والمقطوعة والانقطاع ، وأما الأفعال الاختيارية فليست كذلك كما تحققت فيها سلف .

وإن قيل : التعلم من قبيل الأفعال الاختيارية مع أنه معتبر في مدلول التعليم قطعاً ، فليكن الهدى مع الهداية كذلك ، قلنا : ليس ذلك لكونه فعلاً اختيارياً على الإطلاق ، ولا لكون التعليم عبارة عن تحصيل العلم للتعلم ، كما قيل ، فإن العلم ليس بمستقل في ذلك ، ففي إسناده إليه ضرب تجوز ، بل لأن كلاهما مفتقر في تحصيله إلى الآخر ، فإن التعليم عبارة عن إلقاء المبادئ العلمية على المتعلم وسوقها إلى ذهنه شيئاً فشيئاً على ترتيب يقتضيه الحال ، بحيث لا يساق إليه بعض منها إلا بعد تلقيه لبعض آخر ، فكل منهما هتتم للآخر ؛ معتبر في مدلوله . وأما الهدى الذي هو عبارة عن التوجه المذكور فنعمل اختيارياً يستقل به فاعله لا دخل للهداية فيه سوى كونها داعية إلى إيجادها بإختياره ، فلم يكن من متهمتها ولا معتبراً في مدلولها .

إن قيل : التعليم نوع من أنواع الهداية ، والتعلم نوع من أنواع الاهتداء فيكون اعتباره في مدلول التعليم اعتبارا للمدى في مدلول الهداية ، قلنا إطلاق الهداية على التعليم إنما هو عند وضوح المسلك ، واستبعاد المتعلم بساوكة من غير دخل للتعليم فيه ، سوى كونه داعيا إليه ، وقد عرفت جليلة الأمر على ذلك التقدير ، إن قيل : أليس تخلف الهدى عن الهداية كتخلف النعم عن التعليم ، فحيث لم يكن ذلك تعليما في الحقيقة فلتكن الهداية أيضا كذلك ، وليحمل تسمية ما لا يستتبع الهدى بها على التجوز ، قلنا : شتان بين التخلفين ، فإن تخلف التعلم عن التعليم يكون لقصور فيه ، كما أن تخلف الانكسار عن الضرب الضعيف لذلك .

وأما تخلف الهدى عن الهداية فليس لشائبة قصور من جهتها ، بل لأنها هو لفقده سببه الموجب له من جهة الهدى ، بعد تكامل ما يتم من قبل الهدى .

وبهذا التحرير اتضح طريق الهداية ، وتبين أنها عبارة عن مطلق الدلالة على ما من شأنه الايصال إلى البغية بتعريف معاملة وتبيين مسالكه ، من غير أن يشترط في مدلولها الوصول ولا القبول ، وإن الدلالة المقارنة لهما أو لأحدهما والمفارقة عنهما ، كل ذلك مع قطع النظر عن قيد المقارنة وعدمها أفراد حقيقية طاه ، وأن ما في قوله تعالى : (إنك لاتهدى من أحببت) وقوله تعالى : (ولو شاء لهداكم) ونحو ذلك مما اعتبر فيه الوصول من قبيل المجاز ، وانكشف أن الدلالات التكوينية المنصوبة في الأنفس والآفاق والبيانات التشريعية الواردة في السكتب السماوية على الإطلاق بالنسبة إلى كافة البرية برها وفاجرها هدايات حقيقية ، فائضة من عند الله سبحانه ، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

(للبتقين) أى أى المتصفين بالتقوى حالا أو مآلا ، وتخصيص الهدى بهم لما أنهم المقتبسون من أنواره المنتفعون بآثاره ، وإن كان ذلك شاملا

لسكل ناظر ، من مؤمن وكافر ، وبذلك الاعتبار قال الله (هدى للناس) والمتقى اسم فاعل من باب الافتعال من الوقاية وهى فرط الصيانة .

معانى التقوى ومراتبها

والتقوى فى عرف الشرع عبارة عن كمال التوقى عما يضره فى الآخرة قال عليه السلام : « جماع التقوى فى قوله تعالى : إن الله يأمر بالعدل والإحسان » الآية ، وعن عمر بن عبد العزيز أنه ترك ما حرم الله ، وأداء ما فرض الله ، وعن شهر بن حوشب : المتقى من يترك ما لا بأس به حذرا من الوقوع فيما فيه بأس ، وعن أبى يزيد : أن التقوى هو التورع عن كل ما فيه شبهة ، وعن محمد بن حنيف : أنها مجانبة كل ما يبعدك عن الله تعالى ، وعن سهل المتقى من تبرأ عن حوله ، وقدرته . وقيل التقوى : ألا يراك الله حيث نهاك ، ولا يفقدك حيث أمرك . وعن ميمون بن مهران : لا يكون الرجل تقيا حتى يكون أشد محاسبة لنفسه من الشريك الشحيح والسلطان الجائر ، وعن أبى تراب : بين يدى التقوى خمس عقبات لا يناهاها من لا يجاوزهن : لإيثار الشدة على النعمة ، وإيثار الضعف على القوة ، وإيثار الذل على العزة ، وإيثار الجهد على الراحة ، وإيثار الموت على الحياة ، وعن بعض الحكماء أنه لا يبلغ الرجل سنام التقوى إلا أن يكون بحيث لو جعل ما فى قلبه فى طبق فطيف به فى السوق لم يستحى من ينظر إليه : وقيل : التقوى أن تزين ، سرك للحق ، كما تزين علانيتك للخلق .

والتحقيق أن للتقوى ثلاث مراتب : الأولى : التوقى عن العذاب المخلد بالتبرؤ عن الكفر ، وعليه قوله تعالى (وألزهم التقوى) كلمة الثانية التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك ، حتى الصغائر عند قوم ، وهو المتعارف بالتقوى فى الشرع ، وهو المعنى بقوله تعالى (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا) والثالثة أن يتزه عن كل ما يشغل سره عن الحق عز وجل ، ويتبتل إليه بكليته ، وهى

التقوى الحقيقية المأمور بها في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته) وهذه المرتبة عرض عريض يتفاوت فيه طبقات أصحابها حسب تفاوت درجات استعداداتهم الفائضة عليهم بموجب المشيئة الإلهية ، المبنية على الحكم الأيية ، أقصاها ما انتهى إليه همم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، حيث جمعوا بذلك بين رياستي النبوة والولاية ، وما عاقهم التعلق بعالم الأشباح عن العروج إلى معالم الأرواح ، ولم تصدمهم الملازمة بمصالح الخلق عن الاستغراق في شئون الحق ، لكمال استعداد نفوسهم الزكية المؤيدة بالقوة القدسية ، وهداية الكتاب المبين شاملة لأرباب هذه المراتب أجمعين ، فإن أريد بكونه هدى للمتقين إرشاده لإياهم إلى تحصيل المرتبة الأولى ونيلها ، فالمراد بهم المشارفون للتقوى مجازا ، لاستحالة تحصيل الحاصل ، وإيثاره على العبارة المعربة عن ذلك للإيجاز ، وتصدير السورة الكريمة بذكر أولياته تعالى وتفخيم شأنهم وإن أريد به إرشاده إلى تحصيل إحدى المرتبتين الأخيرتين ، فإن عنى بالمتقين أصحاب الطبقة الأولى تعينت الحقيقة ، وإن عنى بهم أصحاب إحدى الطبقتين الأخيرتين تعين المجاز ، لأن الوصول إليهما إنما يتحقق بهديته المترتبة ، وكذا الحال فيما بين المرتبة الثانية والثالثة ، فإنه إن أريد بالهدى الإرشاد إلى تحصيل المرتبة الثالثة ، فإن عنى بالمتقين أصحاب المرتبة الثانية تعينت الحقيقة ، وإن عنى بهم أصحاب المرتبة الثالثة تعين المجاز ، ولفظ الهداية حقيقة في جميع الصور ، وأما إن أريد بكونه هدى لهم تثبيتهم على ما هم عليه أو إرشادهم إلى الزيادة فيه على أن يكون مفهوما داخلها في المعنى المستعمل فيه فهو مجاز لا محالة ، ولفظ المتقين حقيقة على كل حال واللام متعلقة بهدى أو بمحذوف وقع صفة له ، أو حالا منه ، ومحل هدى الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أي هو هدى ، أو خبر مع لاريب فيه لذلك الكتاب ، أو مبتدأ خبره الظرف المقدم ، كما أشير إليه ، أو النصب على الحالية من ذلك ، أو من الكتاب ، والعامل معنى الإشارة ، أو من الضمير في فيه ، والعامل ما في الجار والمجرور من معنى (٤ - أبو السعود - أول)

الفعل المنفي ، كأنه قيل : لم يحصل فيه الريب حال كونه هاديا ، على أنه قيد للنفي لا للنفي ، وحاصله انتفاء الريب فيه حال كونه هاديا ، وتنكيره للتفخيم وحمله على الكتاب إما للبالغة ، كأنه نفس الهدى ، أو لجعل المصدر بمعنى الفاعل ، هذا والذي يستدعيه جزالة التنزيل في شأن ترتيب هذه الجمل أن تكون متناسقة تقرر اللاحقة منها السابقة ، ولذلك لم يتخلل بينها عاطف ، (فإلم) جملة برأسها على أنها خبر لمبتدأ مضمرة ، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها دالة على أن المتحدى به هو المؤلف من جنس ما يؤلفون منه كلامهم ، وذلك الكتاب جملة ثانية مقررة لجملة التحدى لما دلت عليه من كونه ممنوعا بالسكال الفائق ، ثم سجل على غاية فضله بنفي الريب فيه ، إذ لا فضل أعلى مما للحق ، واليقين ، وهدى للمتقين مع ما يقدر له من المبتدأ جملة مؤكدة لكونه حقا لا يحوم حوله شائبة شك ما ، ودالة على تكميله بعد كماله ، أو يستتبع السابقة منها اللاحقة استتباع الدليل للدلول ، فإنه لما نبه أولا على إعجاز المتحدى به من حيث أنه من جنس كلامهم ، وقد عجزوا عن معارضته بالمرّة ، ظهر أنه الكتاب البالغ أقصى مراتب السكال ، وذلك مستلزم لكونه في غاية النزاهة عن مظنة الريب ، إذ لا أنقص مما يعتريه الشك ، وما كان كذلك كان لا محالة هدى للمتقين ، وفي كل منها من النسكت الرائقة والمزايا الفاتقة ما لا يخفى جلالة شأنه حسبها تحفته .

(الذين يؤمنون بالغيب) إما موصول بالمتقين ، ومجمله الجر على أنه صفة مقيدة له إن فسر التقوى بترك المعاصى فقط ، مترتبة عليه ترتب التحلية على التحلية ، وموضحة إن فسر بما هو المتعارف شرعا والمتبادر عرفا ، من فعل الطاعات وترك السيئات معا ، لأنها حينئذ تكون تفصيلا لما انطوى عليه اسم الموصوف إجمالا ، وذلك لأنها مشتملة على ما هو عماد الأعمال وأساس الحسنات ، من الإيمان والصلاة والصدقة ، فإنها أمهات الأعمال النسائية والعبادات البدنية والمالية المستتبعة لسائر القرب الداعية إلى التجنب

عن المعاصى غالبا ألا ترى إلى قوله تعالى : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وقوله عليه السلام . « الصلاة عماد الدين والزكاة قنطرة الإسلام ، أو مادحة للموصوفين بالتقوى المفسر بما مر من فعل الطاعات وترك السيئات وتخصيص ما ذكر من الخصال الثلاث بالذكر لإظهار شرفها وإناقضتها على سائر ما انطوى تحت اسم التقوى من الحسنات ، أو النصب على المدح بتقدير أسمى أو الرفع عليه بتقديرهم ، وإما مفصول عنه مرفوع بالابتداء خبره الجملة المصدرية باسم الإشارة كما سيأتى بيانه ، فالوقف على المتقين حينئذ وقف تام لأنه وقف على مستقل ما بعده أيضا مستقل ، وأما على الوجه الأول فحسن لاستقلال الموقوف عليه غير تام لتعلق ما بعده به وتبعيته له ، أما على تقدير الجر على الوصفية فظاهر ، وأما على تقدير النصب أو الرفع على المدح فلما تقرر من أن المنصوب والمرفوع مدحا وإن خرجا عن التبعية لما قبلهما صورة حيث لم يتبعاهما في الإعراب ، وبذلك سميا قطعا لكونهما تابعان له حقيقة ، ألا ترى كيف التزموا حذف الفعل والمبتدأ في النصب والرفع روما لتصوير كل منهما بصورة متعلق من متعلقات ما قبله وتنديها على شدة الاتصال بينهما ، قال أبو علي : إذا ذكرت صفات للمدح وخولف في بعضها الإعراب فقد خولف للافتنان ، أى للتفنن الموجب لإيقاظ السامع وتحريكه إلى الجهد في الإصغاء ، فإن تغيير الكلام المسوق لمعنى من المعانى وصرفه عن سننه المسلوكة ينبئ عن اهتمام جديد بشأنه من المتكلم ، ويستجلب مزيد رغبة فيه من المخاطب .

إن قيل : لا ريب في أن حال الموصول عند كونه خبرا لمبتدأ محذوف كحالته عند كونه مبتدأ خبره أولئك على هدى في أنه ينسبك به جملة اسمية مفيدة ، لاتصاف المتقين بالصفات الفاضلة ، ضرورة أن كلا من الضمير المحذوف والموصول عبارة عن المتقين . وأن كلا من اتصافهم بالإيمان وفروعه ، وإحرازهم للهدى والفلاح من النعمت الجليلة ، فما السر في أنه

جعل ذلك في الصورة الأولى من توابع المتقين ، وعد الوقف غير تام ، وفي الثانية مقتطعا عنه ، وعد الوقف تاما ، قلنا : السر في ذلك أن المبتدأ في الصورتين وإن كان عبارة عن المتقين ، لكن الخبر في الأولى لما كان تفصيلا لما تضمنه المبتدأ إجمالا حسبما تحققته معلوم الثبوت له بلا اشتباه ، غير مفيد للسامع سوى فائدة التفصيل والتوضيح ، نظم ذلك في سلك الصفات مراعاة لجانب المعنى ، وإن سعى قطعاً مراعاة لجانب اللفظ ، كيف لا وقد اشتهر في الفن أن الخبر إذا كان معلوم الانتساب إلى الخبر عنه فحقه أن يكون وصفاً له ، كما أن الوصف إذا لم يكن معلوم الانتساب إلى الموصوف فحقه أن يكون خبراً له ، حتى قالوا إن الصفات قبل العلم بها أخبار ، والأخبار بعد العلم بها صفات . وأما الخبر في الثانية فحيث لم يكن كذلك بل كان مشتملاً على ما لا ينبئ عنه المبتدأ من المعاني اللائقة كما ستحيط به خبراً مفيداً للمتخاطب فوائد راتقة ، جعل ذلك مقتطعا عما قبله محافظة على الصورة والمعنى جميعاً .

الإيمان

والإيمان إفعال من الأيمن المتعدى إلى واحد ، يقال آمنته ، وبالنقل تعدى إلى اثنين ، يقال آمننيه غيرى ، ثم استعمل في التصديق ، لأن المصدق يؤمن المصدق ، أى يجعله آميناً من التكذيب والمخالفة ، واستعماله بالباء لتضمنه معنى الاعتراف ، وقد يطلق على الوثوق . فإن الواثق يصير ذا أمن وطمانينة ، ومنه ما حكى عن العرب ما أمنت أن أجد صحابة ، أى ما صرت ذا أمن وسكون ، وكلا الوجهين حسن هنا وهو في الشرع لا يتحقق بدون التصديق بما علم ضرورة أنه من دين نبينا عليه الصلاة والسلام ، كالتوحيد والنبوة والبعث والجزاء ونظائرها ، وهل هو كاف في ذلك أو لابد من انضمام الإقرار إليه للتمكن منه ؟

والأول : رأى الشيخ الأشعري ومن شايعه ، فإن الإقرار عنده منشأ

لإجراء الأحكام ، والثاني مذهب أبي حنيفة ومن تابعه وهو الحق ، فإنه جعلهما جزأين له ، خلا أن الإقرار ركن محتمل للسقوط بعذر ، كما عند الإكراه ، وهو مجموع ثلاثة أمور : اعتقاد الحق ، والإقرار به ، والعمل بموجبه عند جمهور المحدثين والمعتزلة والخوارج ، فمن أخل بالاعتقاد وحده فهو منافق ، ومن أخل بالإقرار فهو كافر ، ومن أخل بالعمل فهو فاسق اتفاقا وكافر عند الخوارج ، وخارج عن الإيمان غير داخل في الكفر عند المعتزلة .

وقرىء يؤمنون بغير همزة ، والغيب إما مصدر ووصف به الغائب مبالغة كالشهادة في قوله تعالى : (عالم الغيب والشهادة) أو فعيل خفف كقتل في قتييل وهين في هين ، وميت في ميت ، لكن لم يستعمل فيه الأصل كما استعمل في نظائره . وأياما كان فهو ما غاب عن الحس والعقل غيبة كاملة ، بحيث لا يدرك بواحد منهما ابتداء بطريق البداهة ، وهو قسمان : قسم لا دليل عليه ، وهو الذي أريد بقوله سبحانه : (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو) وقسم نصب عليه دليل كالصانع وصفاته ، والنبوات وما يتعلق بها من الأحكام والشرائع ، واليوم الآخر وأحواله من البعث والنشور والحساب والجزاء ، وهو المراد ههنا ، فالباء صلة للإيمان ، إما بتضمينه معنى الاعتراف ، أو بجعله مجازا من الوثوق ، وهو واقع موقع المفعول به ، وإما مصدر على حاله كالغيبية فالباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من الفاعل كما في قوله تعالى : (الذين يخشون ربهم بالغيب) وقوله تعالى : (ليعلم أني لم أخنه بالغيب) أي يؤمنون ملتبسين بالغيبية ، إما عن المؤمن به ، أي غائبين عن النبي صلى الله عليه وسلم غير مشاهدين لمسافيه من شواهد النبوة ، لمساروى أن أصحاب ابن مسعود رضى الله عنه ، ذكروا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإيمانهم فقال رضى الله عنه : إن أمر محمد عليه الصلاة والسلام كان بيننا لمن رآه ، والذي لا إله غيره ما آمن مؤمن أفضل من الإيمان بغيب ، ثم تلا هذه الآية . وإما عن الناس أي غائبين عن المؤمنين ، لا كالمنافقين الذين إذ لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم .

وقيل المراد بالغيب القلب ، لأنه مستور ، والمعنى يؤمنون بقلوبهم لا كالذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، فالباء حينئذ للآلة ، وترك ذكر المؤمن به على التقادير الثلاثة إما للقصد إلى إحداث نفس الفعل كما في قولهم فلان يعطى ويمنع ، أى يفعلون الإيمان ، وإما للاكتفاء بما سيجيء ، فإن السكتب الإلهية ناطقة بتفاصيل ما يجب الإيمان به .

(ويقومون الصلاة) إقامتها عبارة عن تعديل أركانها ، وحفظها من أن يقع في شيء من فرائضها وسننها وآدابها زيغ ، من إقامة العود إذا قومه وعدله . وقيل عن المواظبة عليها ، مأخوذ من قامت السوق إذا نفقت ، وأقامتها إذا جعلتها نافقة ، فإنها إذا حوفظ عليها كانت كالنافق الذى يرغب فيه ، وقيل عن التشمير لأدائها عن غير فتور ولا توان من قولهم قام بالأمر وأقامه إذا جد فيه واجتهد وقيل عن أدائها ، عبر عنه بالإقامة لاشتراكه على القيام كما عبر عنه بالقنوت الذى هو القيام وبالركوع والسجود والتسبيح ، والأول هو الأظهر ، لأنه أشهر ، وإلى الحقيقة أقرب ، والصلاة فعلة من صلى إذا دعا ، كالكاء من زكى ، وإنما كتبنا بالواو مراعاة اللفظ المفخم ، وإنما سمي الفعل المخصوص بها لاشتماله على الدعاء ، وقيل أصل صلى حرك الصلويين ، وهما العظمان الناتان فى أعلى الفخذين ، لأن المصلى يفعلها فى ركوعه وسجوده واشتار اللفظ فى المعنى الثانى دون الأول لا يقدح فى نقله عنه ، وإنما سمي الداعى مصليا تشبيها له فى تخشعه بالراكع والساجد^(١) .

(ومما رزقناهم ينفقون) والرزق فى اللغة العطاء ، ويطلق على الحظ المعطى ، نحو ذبح ورعى للذبوح والمرعى . وقيل : هو بالفتح مصدر ، وبالكسر اسم ، وفى العرف ما ينتفع به الحيوان .

(١) انظر بحثنا فى معنى الصلاة لنة فى (القول البديع) لحافظ السخاوى .

هل يدخل الحرام في الرزق؟

والمعتزلة لما أحالوا تمكين الله تعالى من الحرام لأنه منع من الانتفاع به وأمر بالزجر عنه قالوا الرزق لا يتناول الحرام، ألا ترى أنه تعالى أسند الرزق إلى ذاته ليداننا بأنهم ينفقون من الحلال والصرف، فإن إنفاق الحرام بمعزل من إيجاب المدح، وذم المشركين على تحريم بعض ما رزقهم الله تعالى بقوله (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا) جمعوا الإسناد المذكور للتعظيم والتحريض على الإنفاق، والذم لتحريم ما لم يحرم، واختصاص ما رزقناهم بالحلال للقرينة، وتمسكوا لشعور الرزق لهما بما روى عنه عليه السلام في حديث عمرو بن قره حين أتاه فقال: يا رسول الله، إن الله كتب على الشقوة، فلا أرى أرزق إلا من دفى بكفى، فأذن لي في الغناء من غير فاحشة، من أنه قال عليه السلام: «لا آذن لك ولا كرامة، ولا نعمة، كذبت أى عدو الله، والله لقد رزقك الله حلالا طيبا، فاخترت ما حرم الله عليك من رزقه مكان ما أحل الله لك من حلاله، وبأنه لو لم يكن الحرام رزقا لم يكن المتنفذى به طول عمره ورزوقا، وقد قال الله تعالى: (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها) والإنفاق والإنفاق أخوان، خلا أن فى الثانى معنى الإذهاب بالسكينة دون الأول، والمراد بهذا الإنفاق الصرف إلى سبيل الخير، فرضا كان أو نفلا، ومن فسر بالزكاة ذكر أفضل أنواعه، الأصل فيه، أو خصصه بها لاقتزائه بما هو شقيقها، والجملة معطوفة على ما قبلها من الصلة، وتقديم المفعول للاهتمام والمحافظة على رموس الآى، وإدخال من التبعيضية عليه للكف عن التنبذير.

هذا وقد جاز أن يراد به الإنفاق من جميع المعاون التى منحهم الله تعالى من النعم الظاهرة والباطنة، ويؤيده قوله عليه السلام: «إن علما لا ينال به كسكنا، لا ينفق منه، وإليه ذهب من قال: وبما خصصناهم من أنوار المعرفة يفيضون» والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ﴿ معطوف

على الموصول الأول ، على تقدير وصله بما قبله ، وفصله عنه مندرج معه في زمرة المتقين من حيث الصورة والمعنى معا ، أو من حيث المعنى فقط ، اندراج خاصين تحت عام ، إذ المراد بالأولين الذين آمنوا بعد الشرك والغفلة عن جميع الشرائع كما يؤذن به التعبير عن المؤمن به بالغيب ، وبالأخرين الذين آمنوا بالقرآن بعد الإيمان بالكتب المنزلة قبله ، كمبد الله بن سلام وأضرابه أو على المتقين على أن يراد بهم الأولون خاصة ، ويكون تخصيصهم بوصف الاتقاء للإيدان بتنزههم عن حالتهم الأولى بالكيفية ، لما فيها من كمال القباحة والمباينة للشرائع كلها ، الموجبة للاتقاء عنها ، بخلاف الآخرين ، فإنهم غير تاركين لما كانوا عليه بالمرّة ، بل متمسكون بأصول الشرائع التي لا تنكاد تختلف باختلاف الأعصار ، ويجوز أن يجعل كلا الموصولين عبارة عن الكل مندرجا تحت المتقين ، ولا يكون توسيط العاطف بينهما لاختلاف الدوات ، بل لاختلاف الصفات كما في قوله :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليت الكتبية في المزدحم

وقوله :

* يالطف زياطة للحارث الصابح فالغانم فالأيب *

للإيدان بأن كل واحد من الإيمان بما أشير إليه من الأمور الغائبة والإيمان بما يشهد بثبوتها من الكتب السماوية نعت جليل على حياله ، له شأن خطير مستتبع لأحكام جمّة ، تحقيق بأن يفرد له موصوف مستقل ، ولا يجعل أحدهما تنمة للآخر ، وقد شفع الأول بأداء الصلاة والصدقة اللتين هما من جملة الشرائع المندرجة تحت تلك الأمور المؤمن بها تكملة له ، فإن كمال العلم بالعمل ، وقرن الثاني بالإيقان بالآخرة مع كونه منظويا تحت الأول تنبيها على كمال صحته ، وتعريضا بما في اعتقاد أهل الكتابيين من الخلل كما سيأتي ، هذا على تقدير تعلق الباء بالإيمان ، وقس عليه الحال عند تعلقها

بالمحذوف ، فإن كلا من الإيمان الغيبي المشفوع بما يصدقه من العبادتين مع قطع النظر عن المؤمن به والإيمان بالسكتب المنزلة الشارحة لتفاصيل الأمور التي يجب الإيمان بها مقرونا بما قرن به فضيلة باهرة ، مستدعية لما ذكر ، والله تعالى أعلم .

وقد حمل ذلك على معنى أنهم الجامعون بين الإيمان بما يدركه العقل جملة والإتيان بما يصدقه من العبادات البدنية والمالية وبين الإيمان لا طريق إليه غير السمع ، وتكرير الموصول للتنبيه على تغاير القبيلين ، وتباين السبيلين فليتأمل ، وأن يراد بالموصول الثاني بعد اندراج الكل في الأول فريق خاص منهم ، وهم مؤمنوا أهل السكتب ، بأن يخصصوا بالذكر تخصيص جبريل ومكائيل به لأثر جريان ذكر الملائكة عليهم السلام تعظيما لشأنهم وترغيبا لأمثالهم ، وأقرانهم في تحصيل ما لهم من السكّال .

إنزال السكتب

والإنزال النقل من الأعلى إلى الأسفل ، وتعلقه بالمعاني إنما هو بتوسط تعلقه بالأعيان المستتبعة لها ، فنزول ما عدا الصحف من السكتب الإلهية إلى الرسل عليهم السلام والله تعالى أعلم بأن يتلقاها الملك من جنابه عز وجل تلقيا روحانيا ، أو يحفظها من اللوح المحفوظ ، فينزل بها إلى الرسل فيلقها عليهم عليهم السلام ، والمراد بما أنزل إليك هو القرآن بأسره ، والشريعة عن آخرها والتعبير عن إنزاله بالمساضى مع كون بعضه مترقبا حينئذ لتغليب المحقق على المقدر ، أو لتنزيل ما في شرف الوقوع لتحققه منزلة الواقع كما في قوله تعالى : (إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى) مع أن الجن ما كانوا سمعوا السكتب جميعا ولا كان الجميع إذ ذاك نازلا ، وبما أنزل من قبلك التوراة والإنجيل وسائر السكتب السالفة ، وعدم التعرض لذكر من أنزل إليه من الأنبياء عليهم السلام ، لقصد الإيجاز مع عدم تعلق الغرض بالتفصيل حسب تعلقه به في قوله تعالى : (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل)

الآية . والإيمان بالكل جملة فرض ، وبالقرآن تفصيلا من حيث أنا متعبدون بتفاصيله فرض كفاية ، فإن في وجوبه على الكل عينا حرجا بينا ، وإخلا لا بأمر المعاش ، وبناء الفعلين للمفعول للإيدان بتعين الفاعل ، والجرى على سنن الكبرياء ، وقد قرنا على البناء للفاعل .

﴿ وبالآخرة هم يوقنون ﴾ الإيقان إتيان العلم بالشئ بنفى الشك والشبهة عنه ، ولذلك لا يسمى عليه تعالى يقينا ، أى يعلمون علما قطعيا مزيجا لما كان أهل الكتاب عليه من الشكوك والأوهام التي من جعلتها زعمهم أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هودا أو نصارى ، وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات ، واختلافهم في أن نعم الجنة هل هو من قبيل نعم الدنيا أو لا ، وهل هو دائم أو لا ، وفي تقديم الصلة وبناء يوقنون على الضمير تعريض بمن عداهم من أهل الكتاب ، فإن اعتقادهم في أمور الآخرة بمعزل من الصحة فضلا عن الوصول إلى مرتبة اليقين ، والآخرة تأنيث الآخر ، كما أن الدنيا تأنيث الأدنى ، غلبتا على الدارين فجرتا بجرى الأسماء ، وقرىء بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام ، وقرىء يوقنون بقلب الواو همزة ، لإجراء الضم ما قبلها بجرى ضمها في وجوه ووقتت ، ونظيره ما في قوله :

لحب المؤقدان إلى موسى وجعدة إذ أضاءهما الوقود

وقوله تعالى : ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الذين حكيت خصالهم الحميدة من حيث اتصافهم بها ، وفيه دلالة على أنهم متميزون بذلك أكمل تميز ، منتظمون بسببه في سلك الأمور المشاهدة ، وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو درجاتهم وبعد منزلتهم في الفضل ، وهو مبتدأ ، وقوله عز وعلّا ﴿ على هدى ﴾ — خبره ، وما فيه من الإبهام المفهوم من التنكير لـكـال تفخيمه ، كأنه قيل : على أى هدى لا يبلغ كنهه ، ولا يقادر قدره . وإيراد كلمة الاستعلاء بناء على تمثيل حالهم في ملاستهم بالهدى بحال من يعتلى الشئ ويستولى عليه

يتصرف فيه كيفما يريد ، أو على استعارتها لتمسكهم بالهدى استعارة تبعية ، متفرعة على تشبيهه باعتلاء الراكب واستوائه على مركوبه ، أو على جعلها قرينة للاستعارة بالكناية بين الهدى والمركوب للإيذان بقوة تمسكهم منه وكال رسوخهم فيه ، وقوله تعالى : ﴿ من ربهم ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة له مبينة لفخامته الإضافية إثر بيان فخامته الذاتية ، مؤكدة لها ، أى على هدى كائن من عنده تعالى ، وهو شامل لجميع أنواع هدايته تعالى ، وفنون توفيقه والتعرض لعنوان الربوبية ، مع الإضافة إلى ضميرهم لغاية تفخيم الموصوف والمضاف إليهم ، وتشريفهما ، ولزيادة تحقيق مضمون الجملة ، وتقريره ببيان ما يوجبه ويقتضيه ؛ وقد أدمجت النون في الراء بغنة أو بغير غنة ، والجملة على تقدير كون الموصولين موصولين بالمتقين مستقلة لاجل لها من الإعراب ، مقرررة لمضمون قوله تعالى : (هدى للمتقين) مع زيادة تأكيد له وتحقيق .

كيف لا وكون الكتاب هدى لهم فن من فنون ما منحوه واستقروا عليه من الهدى ، حسبها تحفته ، لاسيما مع ملاحظة ما يستتبعه من الفوز والفلاح وقيل هي واقعة موقع الجواب عن سؤال ربما ينشأ مما سبق ، كأنه قيل ما للمنعوتين بما ذكر من الشعوت اختصوا بهداية ذلك الكتاب العظيم الشأن ، وهل هم أحقاء بتلك الأثرة ؟ فأجيب بأنهم بسبب انصافهم بذلك ما يكون لزام أصل الهدى الجامع لفنونه ، المستتبع للفوز والفلاح ، فأى ريب فى استحقاقهم لما هو فرع من فروعه ؟

ولقد جار عن سنن الصواب من قال فى تقرير الجواب : بأن أولئك الموصوفين غير مستبعد أن يفوزوا دون الناس بالهدى عاجلا ، وبالفلاح أجلا .

وأما على تقدير كونهما مفصولين عنه فهى فى محل الرفع على أنها خبر للبتداء الذى هو الموصول الأول ، والثانى معطوف عليه ، وهذه الجملة استئناف

وقع جواباً عن سؤال ينساق إليه الذهن من تخصيص ما ذكر بالمتقين قبل بيان مبادئ استحقاقهم لذلك ، كأنه قيل : ما يال المتقين مخصوصين به ، فأجيب بشرح ما انطوى عليه اسمهم إجمالاً من نعوت الكمال ، وبيان ما يستدعيه من النتيجة ، أى الذين هذه شئونها أحقاء بما هو أعظم من ذلك ، كقولك : أحب الأنصار الذين قارعوا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبذلوا مهجتهم فى سبيل الله ، أولئك سواد عيني ، وسويداء قلبي .

واعلم أن هذا المسلك يسلك تارة بإعادة اسم من استؤنف عنه الحديث ، كقولك أحسنت لى زيد ، زيد حقيق بالإحسان ، وأخرى بإعادة صفته ، كقولك أحسنت لى زيد صديقك القديم أهل لذلك ، ولا ريب فى أن هذا أبلغ من الأول لما فيه من بيان الموجب للحكم وإيراد اسم الإشارة بمنزلة إعادة الموصوف بصفات المذكورة ، مع ما فيه من الإشعار بكمال تمييزه بها ، وانتظامه بسبب ذلك فى سلك الأمور المشاهدة ، والإيماء إلى بعد منزلته ، كما مر ، هذا وقد جوز أن يكون الموصول الأول مجرى على المتقين حسبما فصل ، والثانى مبتدأ ، وأولئك الخ خبره ، ويجعل اختصاصهم بالهدى والفلاح تعريضاً بغير المؤمنين من أهل الكتاب حيث كانوا يزعمون أنهم على الهدى ، ويطمعون فى نيل الفلاح .

﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ تكرر اسم الإشارة لإظهار مزيد العناية بشأن المشار إليهم ، وللتنبية على أن اتصافهم بتلك الصفات يقتضى نيل كل واحدة من تينك الأثرين ، وأن كلا منهما كاف فى تمييزهما عن عداهم ، ويؤيده توسط العاطف بين الجملتين ، بخلاف ما فى قوله تعالى (أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) فإن التسجيل عليهم بكمال الغفلة عبارة عما يفيد تشبيههم بالبهائم ، فتسكون الجملة الثانية مقررة للأولى ، وأما الإفلاح الذى هو عبارة عن الفوز بالمطلوب فلما كان مغيراً للهدى نتيجة له وكان كل منهما فى نفسه أعز مرام يتنافس فيه المتنافسون فعل ما فعل ، وهم ضمير فصل يفصل

الخبر عن الصفة ويؤكد النسبة ، ويفيد اختصاص المسند بالمسند إليه ، أو مبتدأ خبره المفلحون ، والجملة خبر لأولئك ، وتعريف المفلحين للدلالة على أن المتقين هم الناس الذين بلغك أنهم المفلحون في الآخرة ، أو إشارة إلى ما يعرفه كل أحد من حقيقة المفلحين وخصائصهم ، هذا وفي بيان اختصاص المتقين بلبيل هذه المراتب الفائقة على فنون من الاعتبارات الراقية اللائقة حسبما أشير إليه في تضاعيف تفسير الآية الكريمة من الترغيب في اقتفاء أثرهم والإرشاد إلى اقتداء سيرهم ما لا يخفى مكانه والله ولي الهداية والتوفيق .

أحوال الكفر والكفار

﴿لن الذين كفروا﴾ كلام مستأنف سيق لشرح أحوال الكفرة الغواة المردة العتاة ، لأثر بيان أحوال أضدادهم المتصفيين بنعموت السكال الفاترين بمباغيهم في الحال والمآل ، وإنما ترك العاطف بينهما ولم يسلك به مسلك قوله تعالى (إن الأبرار لفي نعم ، وإن الفجار لفي جحيم) لما بينهما من التناقى في الأسلوب ، والتباين في الغرض ، فإن الأولى مسوقة لبيان رفعة شأن الكتاب في باب الهداية والإرشاد ، وأما التعرض لأحوال المهتدين به فإنما هو بطريق الاستطراد ، سواء جهل الموصول موصولاً بما قبله ، أو مفصلاً عنه ، فإن الاستئناف مبني على سؤال نشأ من الكلام المتقدم ، فهو من مستتبعاته لا محالة وأما الثانية فسوقة لبيان أحوال الكفرة أصالة ، وتراعى أمرهم في الغواية والضلال إلى حيث لا يحمدتهم الإنذار والتبشير ، ولا يؤثر فيهم العظة والتذكير فهم ناكبون في تيه النغي والفساد عن منهاج العقول ، وراكبون في مسلك المكابرة والعتاد متن كل صعب وذلول ، وإنما أوثرت هذه الطريقة ولم يؤسس الكلام على بيان أن الكتاب هاد للأولين وغير مجد للآخرين لأن العنوان الأخير ليس بما يورثه كمالاً حتى يتعرض له في أثناء تعداد كالاته ، وإن من الحروف التي تشابه الفعل في عدد الحروف والبناء على الفتح ولزوم

الأسماء ودخول نون الوقاية عليها ، كأننى ولعلمنى ونظائرهما ، وإعطاء معانيه ، والمتعدى خاصة فى الدخول على اسمين ، ولذلك أعملت عمله الفرعى وهو نصب الأول ورفع الثانى إيندانا بكونه فرعا فى العمل دخيلا فيه ، وعند الكوفيين لا عمل لها فى الخبر ؛ بل هو باق على حاله بقضية الاستصحاب . وأجيب بأن ارتفاع الخبر مشروط بالتجرد عن العوامل ، وإلا لما انتصب خبر كان وقد زال بدخولها ، فتعين لإعمال الحرف وأثرها تأكيد النسبة وتحقيقتها ، ولذلك يتلقى بها القسم ، وتصدر بها الأجوبة ، ويؤتى بها فى مواقع الشك والإنكار لدفعه وردة ، قال المبرد : قولك عبد الله قائم لإخبار عن قيامه وإن عبد الله قائم جواب سائل عن قيامه شك فيه ، وإن عبد الله لقائم جواب منكر لقيامه .

وتعريف الموصول إما للعهد والمراد به ناس بأعيانهم كأبى لُهب وأبى جهل والوليد بن المغيرة وأضرابهم وأخبار اليهود ، أو للجنس وقد خص منه غير المصرين بما أسند إليه من قوله تعالى : سواء عليهم ألقى أو الكافر فى اللغة ستر النعمة ، وأصله الكفر بالفتح أى الستر . ومنه قيل للزارع واللبل كافر ، قال تعالى (كمثل غيث أعجب الكفار نباته) وعليه قول لبيد :

* فى ليلة كفر النجوم ، غمامها *

ومنه المتكفر بسلاحه وهو الشاكي الذى غطى السلاح بدنه ، وفى الشريعة إنكار ما علم بالضرورة بحىء الرسول عليه الصلاة والسلام به ، وإنما عد ليس الغيار وشد الزنار بغير اضطراب ونظائرهما ككفرأ لدلالته على التكذيب ، فإن من صدق النبى عليه السلام لا يكاد يجترئ على أمثال ذلك ، إذ لاداعى إليه كالزنى وشرب الخمر ، واحتجت المعتزلة على حدوث القرآن بما جاء فيه بلفظ الماضى على وجه الإخبار ، فإنه يستدعى سابقة المخبر عنه لأعماله ، وأجيب بأنه من مقتضيات التعلق وحوادثه لا يستدعى

حدوث الكلام ، كما أن حدوث تعلق العلم بالمعلوم لا يستدعي حدوث العلم
 ﴿ سواء ﴾ هو اسم بمعنى الاستواء ، نعت به كما ينعت بالمصادر مبالغة ، قال
 تعالى ﴿ تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ﴾ وقوله تعالى ﴿ عليهم ﴾ متعلق به ،
 ومعناه عندهم وارتفاعه على أنه خبر ، لأن قوله تعالى ﴿ أنذرتهم أم لم تنذرهم ﴾
 مرتفع به على الفاعلية ؛ لأن الهمزة وأم مجردتان عن معنى الاستفهام ، لتحقيق
 الاستواء بين مدخوليها ، كما جرد الأمر والنهي لذلك عن معنيهما في قوله تعالى :
 ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ﴾ وحرف النداء في قولك : اللهم اغفر لنا أيها
 العصابة عن معنى الطلب لمجرد التخصيص ، كما أنه قيل : إن الذين كفروا مستو
 عليهم إنذارك وعدمه ، كقولك ، إن زيدا مختصم أخوه وابن عمه ، أو مبتدأ
 وسواء عليهم خبر قدم عليه اعتفاء بشأنه ، والجملة خبر لأن ، والفعل إنما يمتنع
 الإخبار عنه عند بقاءه على حقيقته .

وأما لو أريد به اللفظ أو مطلق الحدث المدلول عليه ضمنا على طريقة
 الاتساع فهو كالاسم في الإضافة والإسناد إليه ، كما في قوله تعالى (هذا يوم
 ينفع الصادقين صدقهم) وقوله تعالى (وإذا قيل لهم لا تفسدوا) وفي قولهم :
 تسمع بالمعيدي خير من أن تراه ، كما أنه قيل : إنذارك وعدمه بيان عليهم ،
 والعدول إلى الفعل لما فيه من إيهام التجدد والتوصل إلى إدخال الهمزة ومعادها
 عليه لإفادة تقرير معنى الاستواء وتأكيده ، كما أشير إليه ؛ وقيل : سواء مبتدأ
 وما بعده خبره وليس بذلك ؛ لأن مقتضى المقام بيان كون الإنذار وعدمه
 سواء ، لا بيان كون المستوى الإنذار وعدمه ، والإنذار إعلام المخوف
 للاحتراز عنه ، إفعال من من نذر بالشئ إذا علمه فخره ، والمراد ههنا
 التخويف من عذاب الله وعقابه على المعاصي ، والاقتران عليه لما أنهم ليسوا
 بأهل للبشارة أصلا ، ولأن الإنذار أوقع في القلوب ، وأشد تأثيرا في النفوس
 فإن دفع المضار أهم من جلب المنافع ، بحيث لم يتأثروا به فلا يرفعوا للبشارة رأسا
 أولى ، وقرىء بتوسيط ألف بين الهمزتين مع تحقيقهما وتوسيطها والثانية

بين بين وبتخفيف الثانية بين بين بلا توسط ، وبحذف حرف الاستفهام ، وبحذفه وإلقاء حركته على الساكن قبله ، كما قرئ قد أفلح ، وقرئ بقلب الثانية ألفا ، وقد نسب ذلك إلى اللحن .

(لا يؤمنون) جملة مستقلة مؤكدة لما قبلها ، مبينة لما فيه من إجمال ما فيه الاستواء ، فلا محل لها من الإعراب ، أو حال مؤكدة له ، أو بدل منه أو خبر لأن ، وما قبلها اعتراض بما هو علة للحكم ، أو خبر ثان على رأى من يجوز عند كونه جملة ، والآية السكرية مما استدل به على جواز التكليف بما لا يطاق ، فإنه تعالى قد أخبر عنهم بأنهم لا يؤمنون ، فظهر استحالة إيمانهم لاستلزامه المستحيل الذى هو عدم مطابقة إخباره تعالى للواقع مع كونهم مأمورين بالإيمان ، باقين على التكليف ، ولأن من جملة ما كلفوه الإيمان بعدم إيمانهم المستمر ، والحق أن التكليف بالمتنع لذاته وإن جاز عقلا من حيث أن الأحكام لا تستدعى أغراضا لاسيما الامتثال ، لكنه غير واقع للاستقرار ، والإخبار بوقوع الشيء أو بعدمه لا ينفي القدرة عليه ، كما إخباره تعالى عما يفعل هو ، أو العبد باختياره ، وليس ما كلفوه الإيمان بتفاصيل ما نطق به القرآن حتى يلزم أن يكلفوا الإيمان بعدم إيمانهم المستمر ، بل هو الإيمان بجميع ما جاء به النبي عليه السلام إجمالا ، على أن كون الموصول عبارة عنهم ليس معلوما لهم .

وفائدة الإنذار بعد العلم بأنه لا يفيد إلزام الحجة وإحراز الرسول صلى الله عليه وسلم فضل الإبلاغ ، ولذلك قيل سواء عليهم ، ولم يقل عليك ، كما قيل لعبدة الأصنام سواء عليكم أدعوتهم أم أتم صامتون ، وفي الآية السكرية إخبار بالغيب على ما هو به إن أريد بالموصول أشخاص بأعيانهم فهي من المعجزات الباهرة (ختم الله على قلوبهم) استئناف تعليلي لما سبق الحكم ، وبيان لما يقتضيه ، أو بيان وتأكيده ، والمراد بالقلب محل القوة العاقلة من الفؤاد ، والختم على الشيء الاستيثاق منه بضرب الخاتم عليه صيانة

له ، أو لما فيه من التعرض له كما في البيت الفارغ والكيس المملوء ، والأول هو الأنسب بالمقام ، إذ ليس المراد به صيانة ما في قلوبهم ، بل لإحداث حالة تجعلها بسبب تماديهم في الغنى وانهماكهم في التقليد ، وإعراضهم عن مناج النظر الصحيح ، بحيث لا يؤثر فيها الإنذار ، ولا ينفذ فيها الحق أصلا ، إما على طريقة الاستعارة التبعية ، بأن يشبه ذلك بضرب الخاتم على نحو أبواب المنازل الخالية المبنية للسكنى تشبيه معقول بمحسوس بجامع عقلي هو الاشتغال على منع القابل عما من شأنه وحقه أن يقبله ، ويستعار له الختم ثم يشتق منه صيغة الماضي ، وإما على طريقة التمثيل بأن يشبه الهيئة المنتزعة من قلوبهم وقد فعل بها ما فعل من لإحداث تلك الحالة الممانعة من أن يصل إليها ما خلقت لأجله من الأمور الدينية النافعة ، وحيل بينها وبينه بالمرّة بهيئة منتزعة من مجال معدة لحلول ما يحلها حلولا مستتبعا لمصالح مهمة وقد منع من ذلك بالختم عليها وحيل بينها وبين ما أعدت لأجله بالسكينة ، ثم يستعار لها ما يدل على الهيئة المشبه بها فيكون كل من طرفي التشبيه مركبا من أمور عدة قد اقتصر من جانب المشبه به على ما عليه يدور الأمر في تصوير تلك الهيئة وانتزاعها وهو الختم ، والباقي منوى مراد قصدا بالفاظ متخيلة بها يتحقق التركيب ، وتلك الألفاظ وإن كان لها مدخل في تحقيق وجه الشبه الذي هو أمر عقلي منتزع منها وهو امتناع الانفعال بما أعدله بسبب مانع قوى ، ليس في شيء منها على الانفراد تجوز باعتبار هذا المجاز ، بل هي باقية على حالها من كونه حقيقة أو مجازا أو كناية ، وإنما التجوز في المجموع ، وحيث كان معنى المجموع بمجموع معاني تلك الألفاظ التي ليس فيها التجوز المأمود ، ولم تسكن الهيئة المنتزعة منها مدلولاً وضعيا لها ليسكون ما دل على الهيئة المشبه بها عند استعماله في الهيئة المشبهة مستعملا في غير ما وضع له ، فيندرج تحت الاستعارة التي هي قسم من المجاز اللغوي ، الذي هو عبارة عن السكامة المستعملة في غير ما وضع له ذهب قدماء المحققين كالشيخ عبد القاهر وأضرابه إلى جعل التمثيل قسما برأسه ، ومن رام

(* — أبو السعود — أول)

تقايل الأقسام عد تلك الهيئة المشبه بها من قبيل المدلولات الوضعية ، وجعل الكلام المفيد لها عند استعماله فيما يشبه بها من هيئة أخرى منتزعة من أمور آخر من قبيل الاستعارة ، وسماه استعارة تمثيلية ، وإسناد لإحداث تلك الحالة في قلوبهم إلى الله تعالى لاستناد جميع الحوادث عندنا من حيث الخلق إليه سبحانه وتعالى ، وورود الآية الكريمة ناعية عليهم سوء صنيعهم ووخامة عاقبتهم لتكون أفعالهم من حيث الكسب مستندة إليهم ، فإن خلقها منه سبحانه ليس بطريق الجبر بل بطريق الترتيب على ما اقترفوه من القبائح كما يعرب عنه قوله تعالى (بل طبع الله عليها بكفرهم) ونحو ذلك .

وأما المعتزلة فقد سلكوا مسلك التأويل ، وذكروا في ذلك عدة من الأقاويل منها أن القوم لما أعرضوا عن الحق وتمكن ذلك في قلوبهم حتى صار كالطبيعة لهم شبه بالوصف الخلقى المجبول عليه ، ومنها أن المراد به تمثيل قلوبهم بقلوب البهائم التي خلقها الله تعالى خالية عن الفطن ، أو بقلوب قد ختم الله تعالى عليها كما في : سال به الوادى إذا هلك ، وطار به العنقاء إذا صالت غيبته ، ومنها أن ذلك فعل الشيطان أو الكافر ، وإسناده إليه تعالى باعتبار كونه بإقداره تعالى وتمكينه ، ومنها أن أعراقهم لما رسخت في الكفر واستحكمت بحيث لم يبق إلى تحصل لإيمانهم طريق سوى الإلجاء والقسر ثم لم يفعل ذلك محافظة على حكمة التكليف عبر عن ذلك بالختم ، لأنه سد الطريق لإيمانهم بالسكينة ، وفيه إشعار بترامى أمرهم في الغي والعناد ، وتناهى انهماكهم في الشر والفساد ، ومنها أن ذلك حكاية لما كانت الكفرة يقولونه مثل قولهم (قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ، وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب) تكام بهم ، ومنها أن ذلك في الآخرة ، وإنما أخبر عنه بالماضى لتحقيق وقوعه ويعضده قوله تعالى (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكا) ومنها أن المراد بالختم وسم قلوبهم بسمة يعرفها الملائكة فيعضوهم وينفروا عنهم .

(وعلى سمعهم) عطف على ما قبله داخل في حكم الختم لقوله عز وجل

(وختم على سمعه وقلبه) وللوفاق على الوقف عليه لاعلى قلوبهم ، ولاشترأ كهما في الإدراك من جميع الجوانب ، وإعادة الجار للتأ كيد والإشعار بتغاير الختمين وتقديم ختم قلوبهم للإيدان بأنها الأصل في عدم الإيمان وللإشعار بأن ختمها ليس بطريق التبعية بختم سمعهم ، بناء على أنه طريق إليها ، فالختم عليه ختم عليها بل هي محتومة بختم على حدة ، لو فرض عدم الختم على سمعهم فهو باق على حاله حسبما يفصح عنه قوله تعالى (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) والسمع إدراك القوة السامعة ، وقد يطلق عليها وعلى العضو الحامل لها وهو المراد ههنا ، إذ هو المختوم عليه أصالة ، وتقديم حاله على حال أبصارهم للاشتراك بينه وبين قلوبهم في تلك الحال ، أو لأن جنائتهم من حيث السمع الذي به يتلقى الأحكام الشرعية ، وبه يتحقق الإنذار أعظم منها من حيث البصر الذي به يشاهد الأحوال الدالة على التوحيد ، فيبأنها أحق بالتقديم ، وأنسب بالمقام .

قالوا : السمع أفضل من البصر ، لأنه عز وعلا حيث ذكرهما قدم السمع على البصر ، ولأن السمع شرط النبوة ولذلك ما بعث الله رسولا أصم ، ولأن السمع وسيلة إلى استكمال العقل بالمعارف التي تتلقف من أصحابها وتوحيده للأمن عن اللبس ، واعتبار الأصل ، أو لتقدير المضاف ، أي وعلى حواس سمعهم ، والكلام في إيقاع الختم على ذلك كما مر من قبل ﴿ وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ الأبصار جمع بصر ، والكلام فيه كما سمعته في السمع ، والغشاوة فعالة من التغشية أى التغطية ، بنيت لما يشتمل على الشيء كالعصابة والعمامة ، وتنسكبها للتفخيم والتهويل ، وهى على رأى سيبويه مبتدأ خبره الظرف المقدم والجملة معطوفة على ما قبلها ، وإيثار الاسمية للإيدان بدوام مضمونها ، فإن ما يدرك بالقوة الباصرة من الآيات المنصوبة في الآفاق والأنفس حيث كانت مستمرة كان تعاميمهم من ذلك أيضا كذلك .

وأما الآيات التي تتلقى بالقوة السامعة فلما كان وصولها إليها حيننا فحيننا

أوثر في بيان الختم عليها وعلى ما هي أحد طريق معرفته أعنى القلب الجملة الفعلية ، وعلى رأى الأخنش مرتفع على الفاعلية مما تعلق به الجار ، وقرىء بالنصب على تقدير فعل ناصب ، أى وجعل على أبصارهم غشاوة ، وقيل على حذف الجار وإيصال الختم إليه ، والمعنى وختم على أبصارهم بغشاوة وقرىء بالضم والرفع وبالفتح والنصب ، وهما لغتان فيها ، و(غشوة) بالسكسر مرفوعة وبالفتح مرفوعة ومنصوبة ، وغشاوة بالعين غير المعجمة والرفع ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ وعيد وبيان لما يستحقونه فى الآخرة والعذاب كالتكامل بناء ومعنى يقال أعذب عن الشيء إذا أمسك عنه ومنه الماء العذب لما أنه يجمع العطش ويردعه ، ولذلك يسمى نقاخا ، لأنه ينقخ العطش ويكسره ، وفراثا لأنه يرفته على القلب ويكسره ، ثم اتسع فيه فأطلق على كل ألم فادح ، وإن لم يكن عقابا يراد به ردع الجانى عن المعاودة ، وقيل اشتقاقه من التعذيب الذى هو إزالة العذاب ، كالتقذية والتقرىض . والعظيم نقيض الحقيق ، والكبير نقيض الصغير ، فمن ضرورة كون الحقيق دون الصغير كون العظيم فوق الكبير ، ويستعملان فى الجثث والأحداث . تقول رجل عظيم وكبير تريد جثته أو خطره ، ووصف العذاب به لتأكيد ما يفيد التنكير من التفتيح والتحويل والمبالغة فى ذلك .

والمعنى : أن على أبصارهم ضربا من الغشاوة خارجا عما يتعارفه الناس ، وهى غشاوة التعامى عن الآيات ، ولهم من الآلام العظام نوع عظيم لا يبلغ كنهه ولا يدرك غايته ، اللهم إنا نعوذ بك من ذلك كله يا أرحم الراحمين .

من علامات النفاق

﴿ ومن الناس ﴾ شروع فى بيان أن بعض من حكيت أحوالهم السالفة ليسوا بمقتصرين على ما ذكر من محض الإصرار على الكفر والعناد ، بل يضمون إليه فنونا آخر من الشر والفساد وتعدد لجناياتهم الشنيعة المستبعدة

لأحوال هائلة عاجلة وآجلة ، وأصل ناس أناس ، كما يشهد له إنسان وأناسي وإنس ، حذفت همن ته تخفيفا كما قيل لوفة في ألوفة ، وعوض عنها حرف التعريف ، ولذلك لا يكاد يجمع بينهما وأما ما في قوله :

إن المنايا يطلعن على الأناس الآمنينا

فشاذ ، سموا بذلك لظهورهم وتعلق الإيناس بهم كما سمي الجن جننا لاجتئناهم وذهب بعضهم إلى أن أصله النوس وهو الحركة انقلابت واوه ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ، وبعضهم إلى أنه مأخوذ من نسي ، نقلت لامه إل موضع العين فصار نيسا ، ثم قلبت ألفا سموا بذلك لنسيانهم ، ويروى عن ابن عباس أنه قال : سمي الإنسان إنسانا لأنه عهد إليه فذسى ، واللام فيه إما للعهد ، أو للجنس المقصور على المصرين حسبها ذكر في الموصول ، كما أنه قيل : ومنهم أو من أولئك ، والعدول إلى الناس للإيذان بكثرتهم ، كما ينبىء عنه التبعيض ، ومحل الظرف الرفع على أنه مبتدأ باعتبار مضمونه . أو نعت لمقدر هو المبتدأ ، كما في قوله عز وجل (ومننا دون ذلك) أى وجمع منا الخ ، ومن في قوله تعالى ﴿ من يقول ﴾ موصولة أو موصوفة ، ومحلها الرفع على الخبرية ، والمعنى وبعض الناس ، أو وبعض من الناس الذى يقول ، كقوله تعالى : (ومنهم الذين يؤذون النبي) الآية ، أو فريق يقول ، كقوله تعالى : (من المؤمنين رجال) الخ ، على أن يكون مناط الإفادة والمقصود بالإصالة اتصافهم بما في حيز الصلة أو الصقة ، وما يتعلق به من الصفات جميعا ، لا كونهم ذوات أولئك المذكورين .

وأما جعل الظرف خبرا كما هو الشائع في موارد الاستعمال فيأباه جن الة المعنى ، لأن كونهم من الناس ظاهر فالإخبار به عار عن الفائدة كما قيل ، فإن مبناه توهم كون المراد بالناس الجنس مطلقا ، وكذا مدار الجواب عنه بأن الفائدة هو التلبيه على أن الصفات المذكورة تنافى الإنسانية ، فحق من

يتصف بها ألا يعلم كونه من الناس ، فيخبر به ويتمجب منه ، وأنت خير بأن الناس عبارة عن المعهودين ، أو عن الجنس المقصور على المصريين ، وأياما كان فالفائدة ظاهرة ، بل لأن خبرية الظرف تستدعي أن يكون اتصاف هؤلاء بتلك الصفات القبيحة المفصلة في ثلاث عشرة آية عنوانا للموضوع مفروغا عنه ، غير مقصود بالذات ، ويكون مناط الإفادة كونهم من أولئك المذكورين ، ولا ريب لأحد في أنه يجب حمل النظم الجليل على أجزل المعاني وأكملها وتوحيد الضمير في يقول باعتبار لفظة من وجمعه في قوله ﴿ آمننا بالله واليوم الآخر ﴾ وما بعده باعتبار معناها ، والمراد باليوم الآخر من وقت الحشر إلى ما لا يتناهى ، أو إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، إذ لا حد وراه ، وتخصيصهم للإيمان بهما بالذكر مع تكرير الباء لادعاء أنهم قد حازوا الإيمان من قطريه ، وأحاطوا به من طرفيه ، وأنهم قد آمنوا بكل منهما على الأصالة والاستحكام ، وقد دسوا تحته ما هم عليه من العقائد الفاسدة حيث لم يكن لإيمانهم بواحد منهما إيمانا في الحقيقة ، إذ كانوا مشركين بالله بقولهم (عزير ابن الله) وجاحدين باليوم الآخر بقولهم (لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) ونحو ذلك وحكاية عبارتهم لبيان كمال خبيثهم ودعارتهم ، فإن ما قالوا لو صدر عنهم لا على وجه الخداع والنفاق وعقيدتهم عقيدتهم لم يكن ذلك إيمانا ، فكيف وهم يقولونه تمويها على المؤمنين واستهزاء بهم ﴿ وما هم بمؤمنين ﴾ رد لما ادعوه ونفى لما اتحلوه وما حجازية ، فإن جواز دخول الباء في خبرها لتأكيد النفي اتفاقى بخلاف التيمية ، وإيثار الجملة الاسمية على الفعلية الموافقة لدعواهم المردودة للمبالغة في الرد بإفادة انتفاء الإيمان عنهم في جميع الأزمنة لا في الماضى فقط كما يفيد الفعلية ، ولا يتوهم أن الجملة الاسمية الإيجابية تفيد دوام الثبوت ، فعند دخول النفي عليها يتعين الدلالة على نفي الدوام ، فإنها بمعونة المقام تدل على دوام النفي قطعا ، كما أن المضارع الخالى عن حرف الامتناع يدل على استمرار الوجود وعند دخول حرف الامتناع عليه يدل على استمرار ،

الامتناع ، لا على امتناع الاستمرار ، كما في قوله عز وجل (ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم) فإن عدم قضاء الأجل لاستمرار عدم التعجيل لا لعدم استمرار التعجيل ، وإطلاق الإيمان عما قيده به للإيدان بأنهم ليسوا من جنس الإيمان في شيء أصلا ، فضلا عن الإيمان بما ذكروا ، وقد جوز أن يكون المراد ذلك ، ويكون الإطلاق للظهور ، ومدلول الآية السكريمة أن من أظهر الإيمان واعتقاده بخلافه لا يكون مؤمنا ، فلا حجة فيها على السكرامية القائلين بأن من تفوه بكلمتي الشهادة فارغ القلب عما يوافقه أو ينافيه مؤمن .

﴿ يخادعون الله والذين آمنوا ﴾ بيان ليقول وتوضيح لما هو غرضهم مما يقولون ، أو استئناف وقع جوابا عن سؤال ينساق إليه الذهن ، كأنه قيل : ما لهم يقولون ذلك وهم غير مؤمنين ، فقيل يخادعون الله الخ أي يخادعون ، وقد قرئ كذلك وإيثار صيغة المفاعلة لإفادة المبالغة في السكيفية ، فإن الفعل متى غولب فيه بولغ فيه قطعا أو في السكينة كما في الممارسة والمزاولة ، فإنهم كانوا مداومين على الخدع ، والخدع أن يوهم صاحبه خلاف ما يريد به من المكروه ليوقعه فيه من حيث لا يحتسب ، أو يوهمه المساعدة على ما يريد هو به لينتثر بذلك فينجو منه بسهولة من قوهم ضب خادع وخدع وهو الذي إذا أمر الحارس يده على باب جحره يوهمه الإقبال عليه فيخرج من بابه الآخر ، وكلا المعنيين مناسب للمقام ، فإنهم كانوا يريدون بما صنعوا أن يطلعوا على أسرار المؤمنين فيذيعوها إلى المنافذين ، وأن يدفعوا عن أنفسهم ما يصيب سائر الكفيرة .

وأياما كان فنسبته إلى الله سبحانه إما على طريق الاستعارة والتشثيل ، لإفادة كمال شناعة جنائيتهم أي يعاملون معاملة الخادعين ، وإما على طريقة المجاز العقلي ، بأن ينسب إليه تعالى ما حقه أن ينسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لإبانة مسكاته عنده تعالى ، كما ينبغي عنه قوله تعالى : (إن الذين

بما يعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم) وقوله تعالى : (من يطع
 الرسول فقد أطاع الله) مع إفادة كمال الشناعة كما مر ، وإما لمجرد التوطئة
 والتهديد لما بعده من نسبته إلى الذين آمنوا ، والإيدان بقوة اختصاصهم به
 تعالى كما في قوله تعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه ، وقوله تعالى : (إن
 الذين يؤذون الله ورسوله) وإبقاء صيغة المخادعة على معناها الحقيقي بناء على
 زعمهم الفاسد ، وترجمة عن اعتقادهم الباطل ، كأنه قيل : يزعمون أنهم
 يخدعون الله والله يخدعهم ، أو على جعلها استعارة تبعية ، أو تمثيلا لما أن
 صورة صنعمهم مع الله تعالى والمؤمنين وصنعه تعالى معهم بإجراء أحكام
 الإسلام عليهم ، وهم عنده أخبث الكفرة ، وأهل الدرك الأسفل من النار
 استدراجا لهم ، وامتنال الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين بأمر الله تعالى
 في ذلك مجازاة لهم بمثل صنيعهم صورة صنيع المتخادعين كما قيل ، بما لا يرتضيه
 الذوق السليم أما الأول فلأن المتناقضين لو اعتقدوا أن الله تعالى يخدعهم بمقابلة خدعهم
 له لم يتصور منهم التصدى للخدع ، وأما الثاني فلأن مقتضى المقام لإيراد حاطم
 خاصة وتصويرها بما يليق بها من الصورة المستهجنة ، ويبان أن غايتها آيلة
 إليهم من حيث لا يحتسبون كما يعرب عنه قوله عز و علا ﴿ وما يخدعون
 إلا أنفسهم ﴾ فالتمرض لحال الجانب الآخر بما ينخل بتوفية المقام حقه ،
 وهو حال من ضمير يخادعون ، أى يفعلون والحال أنهم ما يضرون بذلك
 إلا أنفسهم ، فإن دائرة فعلهم مقصورة عليهم ، أو ما يخدعون حقيقة إلا أنفسهم
 حيث يغرونها بالأكاذيب فيلقونها في مهاوى الردى ، وقرىء (وما يخادعون)
 والمعنى هو المعنى ، ومن حافظ على الصيغة فيما قبل قال وما يعاملون تلك
 المعاملة الشبيهة بمعاملة المخادعين إلا أنفسهم لأن ضررها لا يحيق إلا بهم ، أو
 ما يخادعون حقيقة إلا أنفسهم حيث يمتونها الأباطيل ، وهى أيضا تغرهم وتمنيهم
 الأمانى الفارغة ، وقرىء (وما يخدعون) من التخديع ، (وما يخدعون)
 أى يخدعون ، ويخدعون ويخادعون على البناء للفعول ، ونصب أنفسهم
 بنزع الخافض ، والنفس ذات الشيء وحقيقته وقد يقال للروح لأن نفس

الحى به وللقلب أيضاً لأنه محل الروح أو متعلقه وللدن أيضاً لأن قوامها به وللباء أيضاً لشدة حاجتها إليه والمراد هنا هو المعنى الأول لأن المقصود بيان أن ضرر مخادعتهم راجع إليهم لا يتخطاهم إلى غيرهم .

وقوله تعالى ﴿ وما يشعرون ﴾ حال من ضمير ما يخذعون ، أى يقتصرون على خدع أنفسهم والحال أنهم ما يشعرون أى ما يحسون بذلك لتأديهم فى الغواية ، وحذف المفعول إما لظهوره أو لعمومه ، أى ما يشعرون بشئ أصلاً ، جعل لحوق وبال ما صنعوا بهم فى الظهور بمنزلة الأمر المحسوس الذى لا يخفى إلا على مؤوف الحواس مختل المشاعر .

﴿ فى قلوبهم مرض ﴾ للمرض عبارة عما يعرض للبدن فيخرجه عن الاعتدال اللائق به ، ويوجب الخلل فى أفعيله ، ويؤدى إلى الموت ، استعير ههنا لما فى قلوبهم من الجهل وسوء العقيدة ، وعداوة النبى صلى الله عليه وسلم وغير ذلك من فنون الكفر المؤدى إلى الهلاك الروحانى ، والتشكىر للدلالة على كونه نوعاً مبهماً غير ما يتعارفه الناس من الأمراض والجملة مقررة لما يفيدته قوله تعالى (وما هم بمؤمنين) من استمرار عدم إيمانهم ، أو تعليل له كأنه قيل ما لهم لا يؤمنون فقيل فى قلوبهم مرض يمنهم^(١) ﴿ فزادهم الله مرضاً ﴾ بأن طبع على قلوبهم لعلمه تعالى بأنه لا يؤثر فيها التذكير والإنذار ، والجملة معطوفة على ما قبلها ، والقاء للدلالة على ترتب مضمونها عليه ، وبه اتضح كونهم من الكفرة المحتوم على قلوبهم مع زيادة بيان السبب ، وقيل زادهم كفراً بزيادة التكليف الشرعية ، لأنهم كانوا كلياً أزداد التكليف بنزول الوحي يزدادون كفراً ، ويجوز أن يكون المرض مستعاراً لما تدخل قلوبهم من الضعف والجبين والخور عند مشاهدتهم لعزة المسلمين ، فزيادته تعالى إياهم مرضاً ما فعل بهم من إلقاء الروح وقذف الرعب فى قلوبهم عند إعراز الدين بإمداد النبى صلى الله عليه وسلم بإزال الملائكة ، وتأيدته بفنون النصر والتسكين ، فقوله تعالى

(١) فى فى : يمنه

(في قلوبهم مرض) الخ حينئذ استئناف تعليلي لقوله تعالى (يخادعون الله) الخ ، كأنه قيل ما لهم يخادعون ويداهنون ولم لا يجاهرون بما في قلوبهم من الكفر ، فقيل في قلوبهم ضعف مضاعف هذه حالهم في الدنيا ، ﴿ ولهم ﴾ في الآخرة ﴿ عذاب أليم ﴾ أى مؤلم يقال ألم وهو أليم كوجع وهو وجيع وصف به العذاب للبالغته كما في قوله :

✽ تحية بينهم ضرب وجيع ✽

على طريقة جد جده فإن الألم والوجع حقيقة للمؤلم والمضروب ، كما أن الجذ للجاد ، وقيل هو بمعنى المؤلم كالسميع بمعنى المسمع وليس ذلك بثبت كما سيحىء في قوله تعالى بديع السموات والأرض ﴿ بما كانوا يكذبون ﴾ الباء للسببية أو ومصدرية داخلية في الحقيقة على يكذبون ، وكلية كانوا مقحمة للمقابلة لإفادة دوام كذبهم وتجده أى بسبب كذبهم أو بمقابلة كذبهم المتجدد المستمر الذى هو قولهم (آمنا بالله وباليوم الآخر) وهم غير مؤمنين ، فإنه إخبار بإحداثهم الإيمان فيما مضى لا لإنشاء للإيمان ولو سلم فهو متضمن للإخبار بصدوره عنهم وليس كذلك لعدم التصديق القلبي بمعنى الإذعان والقبول قطعاً ويجوز أن يكون محمولاً على الظاهر بناء على رأى من يجوز أن يكون لكان الناقصة مصدر ، كما صرح به فى قول الشاعر :

يبدل وحلم ساد فى قومه الفتى وكونك إياه عليك يسير

أى لهم عذاب أليم بسبب كونهم يكذبون على الاستمرار ، وترتيب العذاب عليه من بين سائر موجباته القوية إما لأن المراد بيان العذاب الخاص بالمنافقين بناء على ظهور شركتهم للمجاهرين فيما ذكر من العذاب العظيم حسب اشتراكهم فيما يوجبه من الإصرار على الكفر كما يفتى عنه قوله تعالى : (ومن الناس) الخ وإما للإيدان بأن لهم بمقابلة سائر جنائياتهم العظيمة من العذاب ما لا يوصف ، وإما للرمز إلى كمال سماجة الكذب نظراً إلى ظاهر العبارة الخيلة لانفراده بالسببية ، مع إحاطة علم السامع بأن لحوق العذاب بهم

من جهات شتى ، وأن الاقتصار عليه للإشعار بنهاية قبجه والتنفير عنه . عن الصديق رضى الله عنه ويروى مرفوعاً أيضاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم « إياكم والكذب فإنه بجانب للإيمان ، وما روى أن إبراهيم عليه السلام كذب ثلاث كذبات^(١) فالمراد به التعريض ، وإنما سمي به لشبهه به صورة ، وقيل ماموصولة والعائد محذوف أى بالذى يكذبون والمفعول محذوف ، وهو إما النبي صلى الله عليه وسلم ، أو القرآن وما مصدرية ، أى بسبب تكذيبهم إياه عليه السلام ، أو القرآن أو موصولة أى بالذى يكذبونه على أن العائد محذوف ، ويجوز أن يكون صيغة التفعيل للمبالغة كما فى بين فى بان وقلص فى قلص ، أو للتكثير كما فى موتت البهائم وبركت الإبل ، وأن يكون من قوطهم كذب الوحشى إذا جرى شوطاً ثم وقف لينظر ما وراءه فإن المنافق متوقف فى أمره متردد فى رأيه ولذلك قيل له مذبذب .

(وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض) شروع فى تعديد بعض من قبائحهم المتفرعة على ما حكى عنهم من الكفر والنفاق وإذا ظرف زمن مستقبل ويلزمها معنى الشرط غالباً ، ولا تدخل إلا فى الأمر المحقق أو المرجح وقوعه ، واللام متعلقة بقيل ومعناها الإنهاء والتبليغ ، والقائم مقام فاعله جملة لا تفسدوا على أن المراد بها اللفظ ، وقيل هو مضمرة يفسره المذكور والفساد خروج الشيء عن الحالة اللائقة به والصلاح مقابله ، والفساد فى الأرض هيج الحروب والفتن المستتعبة لزوال الاستقامة عن أحوال العباد واختلال أمر المعاش والمعاد والمراد بما نهوا عنه ما يؤدى إلى ذلك من إفشاء أسرار المؤمنين إلى الكفار ، وإغرائهم عليهم ، وغير ذلك من فنون الشرور ، كما يقال للرجل لا تقتل نفسك بيدك ، ولا تلق نفسك فى النار إذا أقدم على ما تلك عاقبته وهو

() هى قوله : إني سقيم ، وقوله : بل فعله كبيرهم هذا ، وقوله عن سارة إنها أخته لزوجته ، وفى الأخيرة نظر .

لما معطوف على يقول ، فإن جعلت كلمة من موصولة فلا محل له من الإعراب ولا بأس بتخلل البيان أو الاستئناف وما يتعلق بهما بين أجزاء الصلة فإن ذلك ليس توسيطاً بالأجنبي ، وإن جعلت موصوفة فمحلها الرفع ، والمعنى ومن الناس من إذا نهوا من جهة المؤمنين عما هم عليه من الإفساد في الأرض ﴿ قالوا ﴾ إرادة للناهين أن ذلك غير صادر عنهم مع أن مقصودهم الأصلي إنكار كون ذلك إفساداً وادعاء كونه إصلاحاً محضاً كما سيأتي توضيحه ﴿ إنما نحن مصلحون ﴾ أى مقصرون على الإصلاح المحض ، بحيث لا يتعلق به شائبة الإفساد والفساد ، مشيرين بكلمة إنما إلى أن ذلك من الوضوح بحيث لا ينبغي أن يرتاب فيه ، وإما كلام مستأنف سيق لتعديد شنائهم وأما عطفه على يكذبون بمعنى ولهم عذاب أليم بكذبهم وبقولهم حين نهوا عن الإفساد إنما نحن مصلحون كما قيل ، فيأباه أن هذا النحو من التعليل حقه أن يكون بأوصاف ظاهرة العلية مسلمة الثبوت للموصوف غنية عن البيان لشهرة الاتصاف بها عند السامع أو لسبق ذكره صريحاً كما في قوله تعالى (بما كانوا يكذبون) فإن مضمونه عبارة عما حكى عنهم من قولهم (آمنا بالله وباليوم الآخر) أو لذكر ما يستلزمه استلزاماً ظاهراً كما في قوله عز وجل (إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) فإن ما ذكر من الضلال عن سبيل الله مما يوجب حتماً نسيان جانب الآخرة التي من جملتها يوم الحساب وما لم يكن كذلك فحقه أن يخبر بعلمته قصداً كما في قوله تعالى (ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار) الآية وقوله (ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق) الآية إلى غير ذلك ولا ريب في أن هذه الشرطية وما بعدها من الشرطيتين المعطوفتين عليهما ليس مضمون شيء منها معلوم الانتساب إليهم عند السامعين بوجه من الوجوه المذكورة ، حتى تستحق الانتظام في سلك التعليل المذكور ، فإذا حقها أن تكون مسوقة على سنن تعديد قبائحهم على أحد الوجهين ، مفيدة لاتصافهم بكل واحد من تلك الأوصاف قصداً واستقلالاً كيف لا وقوله عز وجل ﴿ ألا إنهم هم المفسدون ﴾ ينادى بذلك نداء جليلاً فإنه رد من جهته

تعالى لدعواهم المحسكية أبلغ رد ، وأدله على سخط عظيم حيث سلك فيه مسلك الاستئناف المؤدى إلى زيادة تمكن الحكم في ذهن السامع (وصدرت الجملة الجملة بحر في التأكيد ألا المنبهة على تحقق ما بعدها ، فإن الهمزة الإنكارية الداخلة على النفي تفيد تحقيق الإثبات قطعاً كما في قوله تعالى (أليس الله بكاف عبده) ولذلك لا يكاد يقع ما بعدها من الجملة إلا مصدرة بما يتلقى به القسم ، وأختها التي هي أما من طلائع القسم .

وقيل : هما حرفان بسيطان موضوعان للتنبية والاستفتاح وإن المقررة للنسبة ، وعرف الخبر ووسط ضمير الفصل لرد ما في قصر أنفسهم على الإصلاح من التعريض بالمؤمنين ثم استدرك بقوله تعالى ﴿ ولكن لا يشعرون ﴾ للإيدان بأن كونهم مفسدين من الأمور المحسوسة ، لكن لا حس لهم حتى يدركوه ، وهكذا الكلام في الشرطيتين الآتيتين وما بعدهما من رد مضمونهما ، ولولا أن المراد تفصيل جنائياتهم وتعدد خباياهم وهناتهم ثم إظهار فسادها وإبانة بطلانها لما فتح هذا الباب والله أعلم بالصواب .

﴿ وإذا قيل لهم ﴾ من قبل المؤمنين بطريق الأمر بالمعروف لإثرتهم عن المنكر إتماماً للنصح وإكمالاً للإرشاد ﴿ آمنوا ﴾ حذف المؤمن به لظهوره أو أريد أفعالوا الإيمان ﴿ كما آمن الناس ﴾ الكاف في محل نصب على أنه نعت لمصدر مؤكد محذوف أى آمنوا إيماناً مماثلاً لإيمانهم فامصدرية أو كافة ، كما في ربما ، فإنها تكف الحرف عن العمل ، وتصحح دخولها على الجملة ، وتكون للتشبيه بين مضمونى الجملتين ، أى حققوا إيمانكم كما تحقق لإيمانهم ، واللام للجنس ، والمراد بالناس الكاملون فى الإنسانية العاملون بقضية العقل ، فإن اسم الجنس كما يستعمل فى مساه يستعمل فيما يكون جامعاً للمعاني الخاصة به المقصودة منه ، ولذلك يسلب عما ليس كذلك ، فيقال هو ليس بإنسان وقد جمعهما من قال :

* إذ الناس ناس والزمان زمان *

أو للعهد والمراد به الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه ، أو من آمن من أهل جلدتهم كابن سلام وأضرابه ، والمعنى آمنوا إيماناً مقروناً بالإخلاص ، متمحضاً عن شوائب النفاق ، مماثلاً لإيمانهم ﴿قالوا﴾ مقابلين للأمر بالمعروف بالإنكار المنكر واصفين للراجيح الرزان بصد أوصافهم الحسان ﴿أنؤمن كما آمن السفهاء﴾ مشيرين باللام إلى من أشير إليهم في الناس من الكاملين ، أو المعهودين ، أو إلى الجنس بأسره . وهم مندرجون فيه على زعمهم الفاسد ، والسفه خفة وسخافة رأى يورثهما قصور العقل ، ويقابله الحلم والأناة ، وإنما نسبواهم إليه مع أنهم في الغاية القاصية من الرشد والريانة والوقار ، لـكـال ، انهماك أنفسهم في السفاهة ، وتماديهم في الغواية ، وكونهم بمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ، فمن حسب الضلال هدى يسمى الهدى لا محالة ضلالاً أو لتحقير شأنهم ، فإن كثيراً من المؤمنين كانوا فقراء ، ومنهم موال كصهيب وبلال ، أو للتجلد وعدم المبالاة بمن آمن منهم على تقدير كون المراد بالناس عبد الله بن سلام وأمثاله ، وأياً ما كان فالذى يقتضيه جزالة التنزيل ويستدعي نفاة شأنه الجليل أن يكون صدور هذا القول عنهم بمحض من المؤمنين الناصحين لهم جواباً عن نصيحتهم ، وحيث كانوا فحواه تسفيه أولئك المشاهير الأعلام ، والقدح في إيمانهم لزم كونهم مجاهرين لا منافقين . وذلك بما لا يكاد يساعده السباق والسياق ، وعن هذا قالوا ينبغي أن يكون ذلك فيما بينهم لا على وجه المؤمنين .

قال الإمام الواحدى : لأنهم كانوا يظهرون هذا القول فيما بينهم لا عند المؤمنين ، فأخبر الله تعالى نبيه عليه السلام والمؤمنين بذلك عنهم ، وأنت خبير بأن إبراز ما صدر عن أحد المتحاورين في الخلاء في معرض ما جرى بينهما في مقام المحاوره مما لا عهد به في الكلام فضلاً عما هو في منصب الإعجاز فالحق الذى لا محيد عنه أن قولهم هذا وإن صدر عنهم بمحض من الناصحين لا يقتضى كونهم مجاهرين ، فإنه ضرب من الكفر أنيق ، وفن في النفاق

عريق ، مصنوع على شاكاة قولهم (واسمع غير مسمع) فكما أنه كلام ذو وجهين مثلهم محتمل للشر ، بأن يحمل على معنى اسمع منا غير مسمع كلاما نرضاه ونحوه ، وللخير بأن يحمل على معنى اسمع غير مسمع مكروها كانوا يخاطبون به رسول الله صلى الله عليه وسلم استهزاء به ، مظهرين إرادة المعنى الأخير ، وهم مضمرون في أنفسهم المعنى الأول ، مطمئنون به ، ولذلك نهوا عنه ، كذلك هذا الكلام محتمل للشر كما ذكر في تفسيره ، وللخير بأن يحمل على ادعاء الإيمان كإيمان الناس وإنكار ما اتهموا به من النفاق ، على معنى أنؤمن كما آمن السفهاء والمتجانين الذين لا اعتداد بإيمانهم ، لو آمنوا ولا تؤمن كإيمان الناس حتى تأمرونا بذلك ، قد خاطبوا به الناصحين استهزأتهم مراتين لإرادة المعنى الأخير ، وهم معولون على الأول ، فرد عليهم ذلك بقوله عز قائلًا ﴿ أَلَا لَهُمْ هُمُ السَّفَهَاءُ ، وَلَسَكُن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ أبلغ رد وجهلوا أشنع تجهيل حيث صدرت الجملة بحر في التأكيد حسبما أشير إليه فيما سلف ، وجعلت السفاهة مقصورة عليهم وبالغة إلى حيث لا يدرون أنهم سفهاء ، وعن هذا اتضح لك سر مامر في تفسير قوله تعالى (إنما نحن مصلحون) فإن حمله على المعنى الأخير كما هو رأى الجمهور مناف لحالهم ضرورة أن مشافهتهم للناصحين بادعاء كون ما نهوا عنه من الإفساد إصلاحا كما مر إظهار منهم للنفاق ، وبرز بأشخاصهم من نفق النفاق .

والاعتذار بأن المراد بما نهوا عنه مداراتهم للمشركين كما ذكر في بعض التفاسير ، وبالإصلاح الذى يدعو له إصلاح ما بينهم وبين المؤمنين ، وأن معنى قوله تعالى (ألا لهم المفسدون) أنهم في تلك المعاملة مفسدون لمصالح المؤمنين ، لإشعارها بإعطاء الدنية ، وإنباتها عن ضعفهم الملقى إلى توسيط من يتصدى لإصلاح ذات البين ، فضلا عن كونهم مصلحين بما لا سبيل إليه قطعاً ، فإن قوله تعالى ، ولسكن لا يشعرون ناطق بفساده كيف لا وهو ^(١) يقتضى أن يكون المنافقون في تلك الدعوى صادقين

(١) فى ط أنه .

قاصدين للإصلاح ، ويأتيهم الإفساد من حيث لا يشعرون ، ولا ريب في أنهم فيهم كاذبون لا يعاشرهم إلا مضارة للدين ، وخيانة للمؤمنين ، فإذا ن طريق حل الإشكال ليس إلا ما أشير إليه ، فإن قولهم إنما نحن مصلحون محتمل للحمل على الكذب ، وإنكار صدور الإفساد المنسوب إليهم عنهم ، على معنى ، وهم معرجون على المعنى الأول ، فرد عليهم بقوله تعالى (ألا إنهم هم المفسدون) الآية ، والله سبحانه أعلم بما أودعه في تضعيف كتابه الممكنون من السر المخزون ، نسأله العصمة والتوفيق ، والهداية إلى سواء الطريق .

وتفصيل هذه الآية الكريمة بلا يعلمون لما أنه أكثر طباقا لذكر السفه الذى هو فن من فنون الجهل ، ولأن الوقوف على أن المؤمنين ثابتون على الحق وهم على الباطل منوط بالتمييز بين الحق والباطل ، وذلك مما لا يتسنى إلا بالنظر والاستدلال ، وأما النفاق وما فيه من الفتنة والإفساد وما يترتب عليه من كون من يتصف به مفسدا فأمر بدهى يقف عليه من له شعور ، ولذلك فصلت الآية الكريمة السابقة بلا يشعرون ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ﴾ بيان لتباين أحوالهم وتناقض أقوالهم في أثناء المعاملة والمخاطبة حسب تباين ومساق ما صدرت به قصتهم لتحرير مذهبهم والترجمة عن نفاقهم ، ولذلك لم يتعرض ههنا لمتعلق الإيمان فليس فيه شائبة التكرير .

روى أن عبد الله بن أبي وأصحابه خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من الصحابة ، فقال ابن أبي انظروا كيف أورد هؤلاء السفهاء عنكم ، فلما دنوا منهم أخذ بيد أبي بكر رضى الله عنه فقال : مرحبا بالصديق سيد بنى تيم ، وشيخ الإسلام ، وثانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار ، الباذل نفسه وماله لرسول الله ، ثم أخذ بيد عمر رضى الله عنه فقال : مرحبا بسيد بنى عدى ، الفاروق القوى فى دينه الباذل نفسه وماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أخذ بيد على كرم الله وجهه فقال : مرحبا بابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه ، وسيد بنى هاشم ما خلا رسول الله صلى الله عليه وسلم

فنزلت . وقيل : قال له على رضى الله عنه يا عبد الله اتق الله ، ولا تنافق ، فإن المنافقين شر خلق الله تعالى ، فقال له مهلا يا أبا الحسن أفى تقول هذا ، والله إن إيماننا كما يمانكم ، وتصديقنا كتصديقكم ثم افترقوا فقال ابن أبى لأصحابه كيف رأيتمونى فعلت ، فإذا رأيتموهم فافعلوا مثل ما فعلت ، فأنثوا عليه خيراً ، وقالوا لا نزال بخير ما عشت فيما فرجع المسلمون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبروه بذلك فنزلت ، واللقاء المصادفة ، يقال لقيته ولاقيته أى صادفته واستقبلته وقرىء إذا لاقوا ﴿ وإذا خلوا ﴾ من خلوت إلى فلان ، أى انفردت معه ، وقد يستعمل بالباء ، أو من خلا بمعنى مضى ، ومنه القرون الخالية ، وقولهم خلاك ذم أى جاوزك ومضى عنك ، وقد جوز كونه من خلوت به إذا سخرت منه ، على أن تعديته يالى فى قوله تعالى ﴿ إلى شياطينهم ﴾ لتضمنه معنى الإنهاء ، أى وإذا أنوا إليهم السخرية الخ . وأنت خير بأن تقييد قولهم المحكى بذلك الإنهاء بما لاوجه له والمراد بشياطينهم المائلون منهم للشيطان فى التمرد والعناد ، المظهرون لكفرهم ، وإضافتهم إليهم للمشاركة فى الكفر ، أو كبار المنافقين ، والقائلون صغارهم ، وجعل سيويوه نون الشيطان تارة أصلية فوزنه فيعال ، على أنه من شطن إذا بعد ، فإنه بعيد من الخير والرحمة ، ويشهد له قولهم تشيطان ، وأخرى زائدة فوزنه فعلان ، على أنه من شاط أى هلك أو بطل ، ومن أسمائه الباطل ، وقيل معناه هاج واحترق ﴿ قالوا إنا معكم ﴾ أى فى الدين والاعتقاد لانفارقكم فى حال من الأحوال ، وإنما خاطبهم بالجملة الاسمية المؤكدة ، لأن مدعاهم عندهم تحقيق الثبات على ما كانوا عليه من الدين ، والتأكىد للإنباء عن صدق رغبتهم ، ووفور نشاطهم ، لا لإنكار الشياطين ، بخلاف معاملتهم مع المؤمنين ، فإنهم إنما يدعون عندهم لإحداث الإيمان لجزمهم بعدم رواج ادعاء السكال فيه أو الثبات عليه ﴿ إنما نحن ﴾ أى فى إظهار الإيمان عند المؤمنين ﴿ مستهزون ﴾ بهم من غير أن يخطر ببالنا الإيمان حقيقة وهو استئناف مبنى على سؤال ناشئ من ادعاء المعية كأنه قيل لهم عند قولهم إنا معكم فما بالك (٦ - أبو السمود - أول)

توافقون المؤمنين في الإتيان بكلمة الإيمان ، فقالوا : إنما نحن مستهزون بهم فلا يقدح ذلك في كوننا معكم ، بل يؤكدُه وقد ضمنوا جوابهم أنهم يهينون المؤمنين ، ويعدون ذلك نصرة لدينهم ، أو تأكيد لما قبله ، فإن المستهزىء بالشىء مصر على خلافه أو بدل منه ، لأن من حقر الإسلام فقد عظم الكفر والاستهزاء بالشىء السخرية منه ، يقال هزأت واستهزأت بمعنى ، وأصله الخفة من الهزؤ ، وهو القتل السريع ، وهزأ يهزأ مات على مكانه . وتهزأ به فاقته أى تسرع به وتخف .

(الله يستهزىء بهم) أى يجازيهم على استهزائهم ، سمي جزاؤه باسمه كما سمي جزاء السيئة سيئة إما للشاكلة في اللفظ ، أو المقارنة في الوجود ، أو يرجع وبال الاستهزاء عليهم ، فيكون كالمستهزىء بهم ، أو ينزل بهم الحقارة والهوان الذى هو لازم الاستهزاء أو يعاملهم معاملة المستهزىء بهم . أما في الدنيا فيأجراه أحكام المسلمين عليهم ، واستدراجهم بالإمهال والزيادة في النعمة على التماذى في الطغيان ، وأما في الآخرة فبما يروى أنه يفتح لهم باب إلى الجنة فيسرعون نحوه فإذا صاروا إليه سد عليهم الباب ، وذلك قوله تعالى : (فالיום الذين آمنوا من الكفار يضحكون) وإنما استؤنف للإيدان بأنهم قد بلغوا في المبالغة في استهزاء المؤمنين إلى غاية ظهرت شناعاتها عند السامعين ، وتعاضم ذلك عليهم حتى اضطروهم إلى أن يقولوا ما مصير أمر هؤلاء وما عاقبة حالهم ، وفيه أنه تعالى هو الذى يتولى أمرهم ولا يحوجهم إلى المعارضة بالمثل ، ويستهزىء بهم الاستهزاء الأبلغ الذى ليس استهزأؤهم عنده من باب الاستهزاء ، حيث ينزل بهم من النكال ويحل عليهم من الذل والهوان ما لا يوصف ، وإيثار صيغة الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار ، كما يعرب عنه قوله عز قائلنا : (أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين) وما كانوا خالين في أكثر الأوقات من تهتك أستار وتكشاف أسرار ، ونزول في شأنهم ، واستشعار حذر من ذلك ، كما أنبأ عنه قوله عز وجل (يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تدبهم بما

في قلوبهم قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون ﴿ ويمدهم ﴾ أى يزيدهم ويقويهم من مد الجيش وأمده إذا زاده ، ومنه مددت الدواة والسراج إذا أصلحتهما بالخبر والزيت ؛ وإيثاره على يزيدهم للرمز إلى أن ذلك منوط بسوء اختيارهم لما أنه إنما يتحقق عند الاستمداد وما يجرى مجراه من الحاجة الداعية إليه ، كما فى الأمثلة المذكورة ، وقرىء يمدهم من الإمداد وهو صريح فى أن القراءة المشهورة ليست من المد فى العمر ، على أنه يستعمل باللام كالإملاء ، قال تعالى (ونمد له من العذاب مدا) وحذف الجار وإيصال الفعل إلى الضمير بخلاف الأصل لا يصار إليه إلا بدليل ﴿ فى طغيانهم ﴾ متعلق بيمدهم والظنيان مجاوزة الحد فى كل أمر ، والمراد إفراطهم فى العتو ، وغاوبهم فى الكفر ، وقرىء بكسر الطاء ، وهى لغة فيه كلقيان لغة فى لقيان ، وفى إضافته إليهم إيدان باختصاصه بهم ، وتأيد لما أشير إليه من ترتب المد على سوء اختيارهم ﴿ يعمهون ﴾ حال من الضمير المنصوب أو المجرور ، لسكون المضاف مصدرا فهو رفوع حسكها ، والعمه فى البصيرة كالعمى فى البصر ، وهو التحير والتردد ، بحيث لا يدرى أين يتوجه ، وإسناد هذا المد إلى الله تعالى مع إسناده فى قوله تعالى (وإخوانهم يمدونهم فى الغى) بحقق لقاعدة أهل الحق من أن جميع الأشياء مستندة^(١) من حيث الخلق إليه سبحانه ، وإن كانت أفعال العباد من حيث الكسب مستندة إليهم .

والمعتزلة لما تعذر عليهم إجراء النظم الكريم على مسلكه نكسبوا إلى شعاب التأويل ، فأجابوا أو لا بأنهم لما أصروا على كفرهم خذلهم الله تعالى ومنهم أطفاه ، فتزايد الرين فى قلوبهم فسمى ذلك مددا فى الطغيان ، فأسند لإيلاؤه إليه تعالى ، فى المسند مجاز لغوى ، وفى الإسناد عقلى ، لأنه إسناد للفعل إلى المسبب له ، وفاعله الحقيقى هم الكفرة ، وثانياً بأنه أريد بالمد فى الطغيان ترك القسر والإلجاء إلى الإيمان كما فى قوله تعالى (ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) فالجواز فى المسند فقط ، وثالثاً بأن المراد به معناه الحقيقى وهو فعل

(١) فى ط : مستند

الشیطان ، لكننه أسند إليه سبحانه مجازا ، لأنه بتمكينه تعالى وإقداره ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المذكورين باعتبار اتصافهم بما ذكر من الصفات الشنيعة المميزة لهم عن (١) عداهم أكل تمييز . بحيث صاروا كأنهم حضار مشاهدون على ما هم عليه ، وما فيه من معنى البعد للإيدان ببعد منزلتهم في الشر وسوء الحال ، ومحلل الرفع على الابتداء خبره قوله تعالى ﴿ الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾ والجملة مسوقة لتقرير ما قبلها وبيان لسكال جهالتهم فيما حكى عنهم من الأقوال والأفعال بإظهار غاية سماحتها ، وتصويرها بصورة ما لا يكاد يتعاطاه من له أدنى تمييز فضلاء العقلاء والضلالة الجور عن القصد ، والهدى التوجه إليه ، وقد استعير الأول للعدول عن الصواب في الدين ، والثاني للاستقامة عليه ، والاشتراء استبدال السلعة بالثمن ، أى أخذها به لابذله لتحصيها كما قيل ، وإن كان مستلزما له ، فإن المعتبر في عقد الشراء ومفهومه هو الجلب دون السلب ، الذى هو المعتبر في عقد البيع ، ثم استعير لأخذ شيء يعطاه ما فى يده عينا كان كل منهما أو معنى ، لا للإعراض عما فى يده محصلا به غيره كما قيل ، وإن استلزمه لما مر سره ومنه قوله :

أخذت بالجملة رأسا أزعرا وبالثنايا الواضحات الدرورا

وبالطويل العمر عمرا جيدرا كما اشترى المسلم إذ تنصرا

فاشترى الضلالة بالهدى مستعار لأخذها بدلا منه أخذنا منوطا بالرغبة فيها والإعراض عنه ، ولما اقتضى ذلك أن يكون ما يجرى مجرى الثمن حاصل للكفرة قبل العقد وما يجرى مجرى المبيع غير حاصل لهم إذ ذلك حسبها هو فى البيت ، ولا ريب فى أنهم بمعزل من الهدى ، مستمررون على الضلالة استدعى الحال تحقيق ما جرى مجرى العوضين ، فنقول وبالله التوفيق .

وليس المراد بما تعلق به الاشترى ههنا جنس الضلالة الشاملة لجميع أصناف الكفرة ، حتى تكون حاصلة لهم من قبل ، بل هو فردا السكال الخاص

(١) فى ط : عن عداهم .

يهؤلاء ، على أن اللام للعهد ، وهو عمههم المقرون بالمد في الطغيان ، المترتب على ما حكى عنهم من القبائح ، وذلك إنما يحصل لهم عند اليأس عن اهتدائهم والختم على قلوبهم ، وكذا ليس المراد بما في حيز الثمن نفس الهدى بل هو التمسك التام منه بتعاضد الأسباب ، وتأخذ المقدمات المستتبعة له بطريق الاستعارة كأنه نفس الهدى بجامع المشاركة في استتباع الجدوى ، ولا مزية في أن هذه المرتبة من التمسك كانت حاصلة لهم بما شاهدوه من الآيات الباهرة والمعجزات القاهرة من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم وبما سمعوه من نصائح المؤمنين التي من جملتها ما حكى من النهي عن الإفساد في الأرض ، والأمر بالإيمان الصحيح ، وقد نبذوها وراء ظهورهم ، وأخذوا بدلها الضلالة الهائلة التي هي العمه في تيه الطغيان ، وحمل الهدى على الفطرة الأصلية الحاصلة لسكل أحد ياباه أن إضاعتها غير مختصة بهؤلاء ، ولئن حملت على الإضاعة التامة الواصلة إلى حد الختم على القلوب المختصة بهم فليس في إضاعتها فقطع من الشناعة ما في إضاعتها مع ما يؤيدها من المؤيدات العقلية والنقلية ، على أن ذلك يفضى إلى كون ذكر ما فصل من أول للسورة السكريمة إلى هنا ضائعا ، وأبعد منه حمل اشتراء الضلالة بالهدى على مجرد اختيارها عليه من غير اعتبار كونه في أيديهم ، بناء على أنه يستعمل اتساعا في إيثار أحد الشيعيين السكانيين في شرف الوقوع على الآخر ، فإنه مع خلوه عن المزايا المذكورة بالمرّة محل بروق الترشيح الآتي ، هذا على تقدير جعل الاشتراء المذكور عبارة عن معاملتهم السابقة المحسنة وهو الأنسب بتجاوب أطراف النظم السكريم .

وأما إذا جعل ترجمة عن جنائية أخرى من جنائياتهم فالمراد بالهدى ما كانوا عليه من معرفة صحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم وحقية دينه ، بما كانوا يشاهدونه من نعوته عليه الصلاة والسلام في التوراة وقد كانوا على يقين منه حتى كانوا يستفتحون به على المشركين ويقولون اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد نعمته في التوراة ، ويقولون لهم قد أظلم زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما جاءهم

ما عرفوا كفروا به كما سيأتي ولا مساغ لحمل الهدى على ما كانوا يظرونه عند لقاء المؤمنين فإنها ضلالة مضاعفة .

﴿ فما ربحت تجارتهم ﴾ عطف على الصلة داخل في حينها والغاء للدلالة على ترتب مضمونه عليها ، والتجارة صناعة التجار ، وهو التصدى للبيع والشراء لتحصيل الربح ، وهو الفضل على رأس المال ، يقال ربح فلان في تجارته أى استشف فيها وأصاب الربح وإسناد عدمه الذى هو عبارة عن الخسران إليها ، وهو لأربابها بناء على التوسع المبنى على ما بينهما من الملاسة ، وفائدته المبالغة في تخسيرهم لما فيه من الإشعار بكثرة الخسار وعمومه المستتبع لسرايته إلى ما يلابسهم ، وإيرادهما إثر الاشتراء المستعار للاستبدال المذكور ترشيح للاستعارة ، وتصوير لما فاتهم من فوائد الهدى بصورة خسارة التجارة الذى يتحاشى عنه كل أحد للإشباع في التخسير ، والتحسين ، ولا ينافى ذلك أن التجارة في نفسها استعارة لانهما كهم فيما هم عليه من إبطار الضلالة على الهدى ؛ وتمرنهم عليه معرفة عن كون ذلك صناعة لهم راسخة ، إذ ليس من ضروريات الترشيح أن يكون باقيا على الحقيقة ، تابعا للاستعارة لا يقصد به إلا تقويتها ، كما في قولك رأيت أسدا وافي البرائن ، فإنك لا تريد به إلا زيادة تصوير للشجاع ، وأنه أسد كامل من غير أن تريد بلفظ البرائن معنى آخر بل قد يكون مستعارا من ملائم المستعار منه للملائم المستعار له ومع ذلك يكون ترشيحا لأصل الاستعارة كما في قوله :

فلما رأيت النسر عن ابن دأية وعشش في وكرية جاش له صدرى
فإن لفظ الوكرين مع كونه مستعارا من معناه الحقيقي الذى هو موضع يتخذ الطائر للتفريخ للرأس واللحمة أو للفودين أعنى جانبي الرأس ترشيح باعتبار معناه الأصلي ، لاستعارة لفظ النسر للشيب ، ولفظ ابن دأية للشعر الأسود ، وكذا لفظ التعشيش مع كونه مستعارا للحلول والنزول المستمرين ترشيح لتينك الاستعارتين بالاعتبار المذكور ، وقرىء تجارتهم وتعددتها لتعدد المضاف إليهم ﴿ وما كانوا مهتدين ﴾ أى إلى طرق التجارة ، فإن المقصود

منها سلامة رأس المال مع حصول الربح ، ولئن فات الربح في صفقة فربما يتدارك في صفقة أخرى لبقاء الأصل ، وأما إتلاف السكل بالمرة فليس من باب التجارة قطعاً فهؤلاء الذين كان رأس مالهم الهدى قد استبدلوا بها الضلالة فأضاعوا كلتا الطلبتين ، فبقوا خائبين خاسرين نائنين عن طريق التجارة بألف منزل فالجملة راجعة إلى الترشيح معطوفة على ما قبلها مشاركة له في الترتب على الاشتراء المذكور والأولى عطفها على اشتروا الخ ﴿ مثلهم ﴾ زيادة كشف لخالهم وتصوير غب تصويرها بصورة ما يؤدي إلى الخسارة بحسب المال بصورة ما يفضي إلى الخسار من حيث النفس تهويلاً لها وإبانة لفظاعتها ، فإن التمثيل ألفت ذريعة إلى تسخير الوهم للعقل ، واستنزاه من مقام الاستعصاء عليه ، وأقوى وسيلة إلى تفهيم الجاهل الغبي ، وقمع سورة الجامع الأبى ، كيف لا وهو رفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفية ، وإبرازها في معرض المحسوسات الجلية ، وإبداء للنكر في صورة المعروف ، وإظهار للوحشى في هيئة المسألوف ، والمثل في الأصل بمعنى المثل والنظير ، يقال مثل ومثل ومثيل كشيء وشبه وشبيه ، ثم أطلق على القول السائر الذى يمثل مضربه بمورده وحيث لم يكن ذلك إلا قولاً بديعاً فيه غرابة صيرته جديراً بالتسيير في البلاد وخليقاً بالقبول فيما بين كل حاضر وباد ، استعير لكل حال أو صفة أو قصة لها شأن عجيب ، وخطر غريب من غير أن يلاحظ. بينها وبين شيء آخر تشبيه ومنه قوله عز وجل (والله المثل الأعلى) أى الوصف الذى له شأن عظيم وخطر جليل وقوله تعالى (مثل الجنة التى وعد المتقون) أى قصتها العجيبة الشأن ﴿ كمثل الذى ﴾ أى الذين كما فى قوله تعالى (وخضتم كالذى خاضوا) خلا أنه وحد الضمير فى قوله تعالى ﴿ استوقد ناراً ﴾ نظراً إلى الصورة ، وإنما جاز ذلك مع عدم جواز وضع القائم مقام القائمين ، لأن المقصود بالوصف هى الجملة الواقعة صلة له دون نفسه ، بل إنما هو وصلة لوصف المعارف بها ولأنه حقيق بالتخفيف لاستطالته بصلته ، ولذلك بولغ فيه فخذف ياؤه ثم كسرتة ثم اقتصر على اللام فى أسماء الفاعلين والمفعولين ولأنه

ليس باسم تام بل هو كجزئه ، فحقه ألا يجمع ، ويستوى فيه الواحد والمتعدد كما هو شأن إخواته ، وليس الذين جمعه المصحح بل النون فيه مزيدة للدلالة على زيادة المعنى ، ولذلك جاء بالياء أبدا على اللغة الفصيحة ، أو قصد به جنس المستوقد أو الفوج أو الفريق المستوقد ، والنار جوهر لطيف مضيء حار محرق واشتقاقها من نار ينور إذا نقر لأن فيها حركة واضطرابا واستيقادها طلب وقودها . أى سطوعها وارتفاع هبها وتنكبيرها للتفخيم ﴿ فلما أضاءت ما حوله ﴾ الإضاءة فرط الإنارة كما يعرب عنه قوله تعالى (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا) وتجيء متعدية ولازمة ، والفاء للدلالة على ترتبها على الاستيقاد أى فلما أضاءت النار ما حول المستوقد ، أو فلما أضاء ما حوله ، والتأنيث لكونه عبارة عن الأماكن والأشياء ، أو أضاءت النار نفسها فيما حوله على أن ذلك ظرف لإشراق النار المنزل منزلتها لا لنفسها ، أو ما مزيدة وحوله ظرف وتأليف الحول للدوران وقيل للعام حول لأنه يدور ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ النور ضوء كل نير ، واشتقاقه من النار ، والضمير للذى واجمع باعتبار المعنى أى أطفأ الله نارهم التى هى مدار نورهم ، وإنما علق الإذهاب بالنور دون نفس النار لأنه المقصود بالاستيقاد ، لا الاستدفاء ونحوه كما ينبىء عنه قوله تعالى (فلما أضاءت) حيث لم يقل فلما شب ضرامها أو نحو ذلك ، وهو جواب لما أو استئناف أجيب به عن سؤال سائل يقول ما بالهم أشبهت حالهم حال مستوقد انطفأت ناره ، أو بدل من جملة التمثيل على وجه البيان والضمير على الوجهين للنافقين والجواب محذوف كما فى قوله تعالى (فلما ذهبوا به) للإيجاز والأمن من الإلباس ، كأنه قيل فلما أضاءت ما حوله نهدت فبقوا فى الظلمات خابطين متحيرين خائبين بعد الكدح فى إحيائها ، وإسناد الإذهاب إلى الله تعالى إما لأن الكل بخلقه تعالى ، وإما لأن الانطفاء حصل بسبب خفى ، أو أمر سماوى كريح أو مطر وإما للبالغة كما يؤذن به تعدية الفعل بالياء دون الهمزة لما فيه من معنى الاستصحاب والإمساك ، يقال ذهب السلطان بماله إذا أخذه ، وما أخذه الله عز وجل فأمسكه فلا مرسل

له من بعده ولذلك عدل عن الضوء الذي هو مقتضى الظاهر إلى النور لأن ذهاب الضوء قد يجمع بقاء النور في الجملة لعدم استلزام عدم القوى لعدم الضعيف ، والمراد لإزالته بالسكينة كما يفصح عنه قوله تعالى : ﴿ وتركهم في ظلمات لا يبصرون ﴾ فإن الظلمة التي هي عدم النور وانطوائه بالمرءة ، لاسيما إذا كانت متضاعفة متراكبا بعضها على بعض كما يفيد الجمع والتشكيك التفتيحي وما بعدها من قوله تعالى (لا يبصرون) لا يتحقق إلا بعد ألا يبقى من النور عين ولا أثر ، وإما لأن المراد بالنور ما لا يرضى به الله تعالى من النار المجازية التي هي نار الفتنة والفساد كما في قوله تعالى : ﴿ كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ﴾ ووصفها بإضاءة ما حول المستوقد من باب الترشيح ، أو النار الحقيقية التي يوقدها الغواة ليتوصلوا بها إلى بعض المعاصي ، ويبتدوا بها في طرق العبث والفساد ، فأطفأها الله تعالى ، وخيب آمالهم ، وترك في الأصل بمعنى طرح وخلي ، وله مفعول واحد ، فضمن معنى التصيير لجرى مجرى أفعال القلوب قال :

فتركته جزر السباع ينشئه يقضن حسن بنائه والمعصم
والظلمة مأخوذة من قولهم : ما ظلمك أن تفعل كذا ، أي ما منعك ،
لأنها تسد البصر وتمنعه من الرؤية ، وقرئ في ظلمات بسكون اللام ، وفي
ظلمة بالتوحيد ، ومفعول لا يبصرون من قبيل المطروح ، كأن الفعل غير
متعد ، والمعنى أن حالهم المعجبية التي هي اشتراطهم الضلالة التي هي عبارة عن
ظلمة الكفر والنفاق المستتبعين لظلمة سخط الله تعالى ، وظلمة يوم القيامة
يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، وظلمة العقاب
السرمدى بالهدى ، الذي هو النور الفطري المؤيد بما شاهدوه من دلائل الحق
أو بالهدى الذي كانوا حصلوه من التوراة حسبها ذكر ، كحال من استوقد
نارا عظيمة حتى كاد ينتفع بها فأطفأها الله تعالى ، وتركه في ظلمات هائلة
لا يتسنى فيها الإبصار ﴿ صم بكم عمى ﴾ أخبار لمبتدأ محذوف هو ضمير
المنافقين ، أو خبر واحد بالتأويل المشهور ، كما في قولهم : هذا حلو حامض
والصمم آفة مانعة من السماع ، وأصله الصلابة واكتناز الأجزاء ، ومنه

الحجر الأصم ، والقناة الصماء ، وصمام القارورة : سدادها ، سمي به فقدان حاسة السمع لما أن سببه اكتناز باطن الصماخ ، وانسداد منافذه بحيث لا يكاد يدخله هواء يحصل الصوت بتموجه ، والبكم الخرس ، والعمى عدم البصر عما من شأنه أن يبصر ، وصفوا بذلك مع سلامة مشاعرهم المعدودة لما أنهم حيث سدوا مسامعهم عن الإصاخة لما يتلى عليهم من الآيات والذكر الحكيم ، وأبوا أن يتلقوها بالقبول ، وينطقوا بها ألسنتهم ، ولم يجتأوا ما شاهدوا من المعجزات الظاهرة على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم ينظروا إلى آيات التوحيد المنصوبة فى الآفاق والأنفس بعين التدبر ، وأصروا على ذلك بحيث لم يبق لهم احتمال الارعواء عنه ، صاروا كفاقدى تلك المشاعر بالكلية ، وهذا عند مفلقى سحرة البيان من باب التمثيل البليغ ، المؤسس على تناسى التشبيه كما فى قول من قال :

ويصعد حتى يظن الجهول بأن له حاجة فى السماء
لما أن المقدر فى النظم فى حكم الملفوظ ، لا من قبيل الاستعارة التى يطوى فيها ذكر المستعار له بالكلية ، حتى لو لم يكن هناك قرينة تحمل (١) على المعنى الحقيقى ، كما فى قول زهير :

لدى أسد شاكى السلاح مقذف له لبد أظفاره لم تقلم
(فهم لا يرجعون) الفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما قبلها ، أى هم بسبب اتصافهم بالصفات المذكورة لا يعودون إلى الهدى الذى تركوه وضيعوه أو عن الضلالة التى أخذوها ، والآية نتيجة للتمثيل ، مفيدة لزيادة تهويل وتفظيع ، فإن قصارى أمر التمثيل بقاؤهم فى ظلمات هائلة من غير تعرض لمشعري السمع والنطق ، ولاختلال مشعر الإبصار ، وقيل الضمير المقدر وما بعده للموصول باعتبار المعنى ، كالضمائر المتقدمة .

فالآية الكريمة تنمة للتمثيل ، وتكمل له بأن ما أصابهم ليس مجرد انطفاء نارهم وبقائهم فى ظلمات كثيفة هائلة ، مع بقاء حاسة البصر بحالها ، بل

اختلت مشاعرهم جميعا ، واتصفوا بتلك الصفات على طريقة التشبيه أو الحقيقة فبقوا جامدين في مكاناتهم ، لا يرجعون ولا يدرون أيتقدمون أم يتأخرون ، وكيف يرجعون إلى ما ابتدأوا منه والعدول إلى الجملة الاسمية للدلالة على استمرار تلك الحالة فيهم ، وقرىء صما بكما عميا ، إما على الذى كما فى قوله تعالى : (حمالة الحطب) والمخصوص بالذم هم المنافقون ، أو المستوقدون وإما على الحالية من الضمير المنصوب فى تركهم ، أو المرفوع فى لا يهشرون وإما على المفعولية لتركهم ، فالضميران للمستوقدين ﴿ أو كصيب ﴾ تمثيل لحالهم لآثر تمثيل ، ليعم البيان منها كل دقيق وجليل ، ويوفى حقها من التفضيع والتهويل ، فإن تفننهم فى فنون الكفر والضلال وتنقلهم فيها من حال إلى حال حقيق بأن يضرب فى شأنه الأمثال ، ويرخى فى حلبته أعنة المقال ، ويمد لشرحه أطناب الإطناب ، ويعقد لأجله فصول وأبواب ، لما أن كل كلام له حظ من البلاغة ، وقسط من الجزالة والبراعة ، لا بد أن يوفى فيه حق كل من مقامى الإطناب والإيجاز ، فما ظنك بما فى ذروة الإعجاز من التنزيل الجليل ، ولقد نعى عليهم فى هذا التمثيل تفاصيل جنائياتهم ، وهو عطف على الأول على حذف المضاف لما سياتى من الضمائر المستدعية لذلك ، أى كمثل ذوى صيب ، وكلمة أو للإيدان بتساوى القصتين فى الاستقلال بوجه التشبيه وبصحة التمثيل بكل واحدة منهما وبهما معا ، والصيب فيعمل من الصوب وهو النزول الذى له وقع وتأثير ، يطلق على المطر وعلى ألسحاب قال الشماخ :

عفا آيه نسج الجنوب مع الصبا وأسحمت دان صادق الوعد صيب
ولعل الأول هو المراد ههنا لاستلزامه الثانى ، وتنكيره لما أنه أريد به نوع منه شديد هائل كالنار فى التمثيل الأول ، وأمد به ما فيه من المبالغات من جهة مادته الأولى التى هى الصاد المستعلية والياء المشددة والباء الشديدة ، ومادته الثانية أعنى الصوب المنهى عن شدة الانسكاب ، ومن جهة بنائه الحال على الثبات ، وقرىء أو كصائب ﴿ من السماء ﴾ متعلق بصيب ، أو بمحذوف وقع صفة له ، والمراد بالسماء هذه المظلة ، وهى فى الأصل كل ما علك من

سقف ونحوه ، وعن الحسن أنها موج مكشوف ، أى ممنوع بقدره الله عز وجل من السيلان ، وتعريفها للإيدان بأن انبعاث الصيب ليس من أفق واحد ، فإن كل أفق من آفاقها أى كل ما يحيط به كل أفق منها سماء على حدة ، قال :

* ومن بعد أرض بيننا وسماء *

كما أن كل طبقة من طباقها سماء قال تعالى : (وأوحى فى كل سماء أمرها) والمعنى أنه صيب عام نازل من غمام مطبق آخذ بالآفاق ، وقيل المراد بالسماء السحاب ، واللام لتعريف المساهية .

((فيه ظلمات)) أى أنواع منها ، وهى ظلمة تسكافه وانتساجه بتتابع القطر ، وظلمة الهلال^(١) ما يلزمه من الغمام الأسحج المطبق الآخذ بالآفاق مع ظلمة الليل ، وجعله محلا لها مع أن بعضها لغيره كظلمتى الغمام والليل ، لما أنهما جعلتا من توابع ظلمته مبالغته فى شدته وتهويلا لأمره ، ولإيدانا بأنه من الشدة والهول بحيث تغمر ظلمته ظلمات الليل والغمام ، وهو السر فى عدم جعل الظلمات هى الأصل المستتبع للبواقى ، مع ظهور ظرفيتها للكل ، إذ لو قيل أو كظلمات فيها صيب الخ لما أفاد أن للصيب ظلمة خاصة به فضلا عن كونها غالبية على غيرها (وفيه)^(٢) .

((ورعد)) وهو صوت يسمع من السحاب ، والمشهور أنه يحدث من اصطكاك أجرام السحاب بعضها ببعض ، أو من انقلاع بعضها عن بعض عند اضطرابها ، بسوق الرياح إياه سوقا عنيفا ((وبرق)) وهو ما يلمع من السحاب من برق الشئ بريقا أى لمع ، وكلاهما فى الأصل مصدر ، ولذلك لم يجمعا ، وكونهما فى الصيب باعتبار كونهما فى أعلاه ومصبه ووصول أثرهما إليه وكونهما فى الظلمات السكائنة فيه والتنوين فى الكل للتفخيم والتهويل كما أنه قيل فيه ظلمات شديدة داجية ورعد قاصف وبرق خاطف ، وارتفاع الجميع بالظرف على الفاعلية لتحقيق شرط العمل بالاتفاق ، وقيل بالابتداء ، والجملة

(٢) سقطت من المطبوعة .

(١) فى المطبوعة : أطلال .

لما صفة لصيب أو حال منه لتخصسه بالصفة ، أو بالعمل فيما بعده من الجار أو من المستكن في الظرف الأول على تقدير كونه صفة لصيب ، والضائر في قوله عز وجل : (يجعلون أصابعهم في آذانهم) للمضاف الذي أقيم مقامه^(١) المضاف إليه فإن معناه باق وإن حذف لفظه تعويلاً على الدليل كفاً في قوله (وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قاتلون) فإن الضمير للأهل المدلول عليه بما قام مقامه من القرية .

قال حسان رضى الله عنه :

يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل
فإن تذكير الضمير المستكن في يصفق لرجوعه إلى الماء المضاف إلى بردى
ولأنه حتماً ، وإيثار الجعل المنبئ عن دوام الملابس ، واستمرار الاستقرار
على الإدخال المفيد لمجرد الانتقال من الخارج إلى الداخل للمبالغة في بيان سد
المسامع باعتبار الزمان كما أن إيراد الأصابع بدل الأنامل للإشباع في بيان
سدها باعتبار الذات ، كأنهم سدوها بجملتها لا بأناملها فحسب كما هو المعتاد
ويجوز أن يكون هذا إيماء إلى كمال حيرتهم وفرط دهشتهم وبلوغهم إلى حيث
لا يهتدون إلى استعمال الجوارح على النهج المعتاد ، وكذا الحال في عدم تعيين
الأصبع المعتاد أعنى السبابة ، وقيل : ذلك لرعاية الأدب والجملة استئناف لاجل
لها من الإعراب ، مبني على سؤال نشأ من الكلام ، كأنه قيل عند بيان
أحوالهم الهائلة : فاذا يصنعون في تضاعيف تلك الشدة فقيل يجعلون إلخ .
وقوله تعالى :

(من الصواعق) متعلق بيجعلون أى من أجل الصواعق المقارنة للرعذ
من قوطم سقاه من الغيمة والصاعقة قصفة رعد تنقض معها شعلة^(١) نار
لا تمر بشيء إلا أتت عليه . من الصعق وهو شدة الصوت ، وبنائها إما أن
يكون صفة لقصفة الرعد أو للرعذ ، والتاء للمبالغة . كما في الرواية ، أو

(١) في ١٠ مقام

(١) في ط بثقة نار .

مصدر كالعافية . وقد تطلق على كل هائل مسموع أو مشاهد ، يقال صعقته الصاعقة إذا أهلكته بالإحراق ، أو بشدة الصوت ، وسد الأذان إنما يفيد على التقدير الثاني دون الأول ، وقرىء من الصواعق وليس ذلك بقلب من الصواعق لاستواء كلا البناءين في التصرف يقال صعق الديك ، وخطيب مصقع أى مجهر بخطبته ﴿ حذر الموت ﴾ منصوب بيجمعون على العلة وإن كان معرفة بالإضافة كقوله :

وأغفر عوراء الكريم إدخاره وأصفح عن شتم اللثيم تسكرما ولا ضمير في تعدد المفعول له ، فإن الفعل يعمل بعلم شتى ، وقيل هو نصب على المصدرية أى يحذرون حذرا مثل حذر الموت ، والحذر والحذار هو شدة الخوف ، وقرىء حذار الموت ، والموت زوال الحياة ، وقيل عرض يضادها ، لقوله تعالى (خالق الموت والحياة) ورد بأن الخلق بمعنى التقدير والإعدام مقدرة (والله محيط بالكافرين) أى لا يفوتونه كما لا يفوت المحاط به المحيط شبه شمول قدرته تعالى لهم ، وانطواء ملكوته عليهم ، بإحاطة المحيط بما أحاط به فى استحالة الفوت أو شبه الهيئة المنتزعة من شؤونه تعالى معهم بالهيئة المنتزعة من أحوال المحيط مع المحاط فلاستعارة المبنيّة على التشبيه الأول استعارة تبعية فى الصفة متفرعة على ما فى مصدرها من الاستعارة والمبنيّة على الثانى تمثيلية قد اقتصر من طرف المشبه به على ما هو العمدة فى انتزاع الهيئة المشبه بها أعنى الإحاطة والباقي منوى بالفاظ متخيلة بها يحصل التركيب المعتبر فى التمثيل كما مر تحريره فى قوله عز وجل (ختم الله على قلوبهم) والجملة اعتراضية منبهة على أن ما صنعوا من سد الأذان بالأصابع لا يغنى عنهم شيئا فإن القدر لا يدافعه الحذر ، والحيل لا ترد بأس الله عز وجل .

وفائدة وضع الكافرين موضع الضمير الراجع إلى أصحاب الصيب الإيدان . بأن مادهم من الأمور الهائلة المحكية بسبب كفرهم على منهاج قوله تعالى : (كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته) فإن الإهلاك الناشئ من السخط أشد ، وقيل هذا الاعتراض من جملة أحوال المشبه

على أن المراد بالكافرين المنافقون ، قد دل به على أنه لا مدفع لهم من عذاب الله تعالى في الدنيا والآخرة ، وإنما وسط بين أحوال المشبه مع أن القياس تقديمه أو تأخيره لإظهار كمال العناية وفرط الاهتمام بشأن المشبه .

(يكاد البرق) استئناف آخر وقع جوابا عن سؤال مقدر ، كأنه قيل فكيف حالهم مع ذلك البرق ؟ فقيل يكاد ذلك (يخطف أبصارهم) أى يختلسها ويسلبها^(١) بسرعة وكاد من أفعال المقاربة وضعت لمقاربة الخبر من الوجود لتأخذ أسبابه وتعاضد مبادئه لكنه لم يوجد بعد لفقد شرط أو لعروض مانع ، ولا يكون خبرها إلا مضارعا عاريا عن كلفة أن ، وشذ مجيئه اسما صريحا كما في قوله :

✽ فأبت إلى فهم وما كدت آيبا ✽

وكذا مجيئه مع أن حملا لها على عسى في مثل قول رؤبة :

✽ قد كاد من طول البلى أن يمحصا ✽

كما تحمل هي عليها بالخذف لما بينهما من المقارنة في أصل المقاربة وليس فيها شائبة الانشائية كما في عسى ، وقرىء يخطف بكسر الطاء ويخطف ويخطف بفتح الياء والحاء بنقل فتحة التاء إلى الحاء وإدغامها في الطاء ، ويخطف بكسرهما على لا تباع الياء الحاء ، ويخطف من صيغة النفعيل ويتخطف من قوله تعالى : (ويتخطف الناس من حوهم) (كلما أضاء لهم) كل ظرف وما مصدرية والزمان محذوف ، أى كل زمان إضاءة ، وقيل ما نكرة موصوفة معناها الوقت والعائد محذوف ، أى كل وقت أضاء لهم فيه والعامل في كلما جوابها ، وهو استئناف ثالث ، كأنه قيل ما يفعلون في أثناء ذلك الهول ، يفعلون بأبصارهم ما فعلوا بأذانهم أم لا ، فقيل كلما نور البرق لهم ممشى ومسل كما على أن أضاء

(١) في ط : ويستلبها .

متعد والمفعول محذوف ، أو كلما لمع لهم على أنه لازم ، ويؤيده قراءة (كلما أضاء) (مشوا فيه) أى فى ذلك المسلك أو فى مطرح نوره خطوات يسيرة مع خوف أن يخطف أبصارهم ، وإيثار المشى على ما فوقه من السعى والعدول للإشعار بعدم استطاعتهم لها (وإذا أظلم عليهم) أى خفى البرق واستتر ، والمظلم وإن كان غيره لكن لما كان الإظلام دائراً على استتاره أسند إليه مجازاً تحقيقاً لما أريد من المبالغة فى موجبات تخبطهم ، وقد جوز أن يكون متعدياً منقولاً من ظلم الليل . ومنه ما جاء فى قول أنى تمام :

هما أظلمنا حالى ثم أجلبا ظلاميهما عن وجه أمرد أشيب
ويعضده قراءة أظلم على البناء للمفعول (قاموا) أى وقفوا فى أما كتبهم
على ما كانوا عليه من الهيئمة متحيرين مترصدين لحفظة^(١) أخرى عسى يتسنى لهم
الوصول إلى المقصد أو الالتجاء إلى ملجأ يعصمهم ، وإيراد كلما مع الإضاءة
وإذا مع الإظلام للإيذان بأنهم حراس على المشى ، مترقبون لما يصححه ،
فكلما وجدوا فرصة انتهزوها ، ولا كذلك الوقوف ، وفيه من الدلالة على
كمال التحير وتطير اللب ما لا يوصف (ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم)
كلمة لو لتعليق حصول أمر ماض هو الجزاء بحصول أمر مفروض فيه هو
الشرط لما بينهما من الدوران حقيقة أو ادعاء ، ومن قضية مفروضية الشرط
دلالتها على انتفائه قطعاً ، والمنازع فيه مكابر ، وأما دلالتها على انتفاء الجزاء
فقد قيل وقيل . والحق الذى لا محيد عنه أنه إن كان ما بينهما من الدوران
كلية أو جزئياً قد بنى الحكم على اعتباره فهى دالة عليه بواسطة مدلولها الوضعى
لا محالة ، ضرورة استلزام انتفاء العلة لانتفاء المعلول ، أما فى مادة الدوران
الكلية كما فى قوله عز وجل (ولو شاء لهداكم أجمعين) وقولك لو جئتني لأكرمك
فظاهر لأن وجود المشيئة علة لوجود الهداية حقيقة ، ووجود المجىء علة لوجود
الإكرام ادعاء ، وقد انتفيا بحكم المفروضية فانتضى معلولاهما حتماً ، ثم إنه قد

(١) فى ١٠ لحقيقة .

يساق الكلام لتعليل انتفاء الجزاء بانتفاء الشرط كما في المثالين المذكورين وهو الاستعمال الشائع لكلمة لو ، ولذلك قيل هي لامتناع الثاني لامتناع الأول وقد تساق للاستدلال بانتفاء الثاني لكونه ظاهرا أو مسلما على انتفاء^(١) الأول لكونه خفيا أو متنازعا فيه ، كما في قوله سبحانه (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وفي قوله تعالى (لو كان خيرا ما سبقونا إليه) فإن فسادهما لازم لتعدد الآلهة حقيقة وعدم سبق المؤمنين إلى الإيمان لازم لخيرته في زعم الكفرة ولا ريب في انتفاء اللازمين ، فتعين انتفاء الملزومين حقيقة في الأول وإدعاء باطلا في الثاني ضرورة استلزام انتفاء الملزوم ، لكن لا بطريق السببية الخارجية ، كما في المثالين الأولين ، بل بطريق الدلالة العقلية الراجعة إلى سببية العلم بانتفاء الثاني للعلم بانتفاء الأول ومن لم يتنبه له زعم أنه لا تنتفاء الأول لا انتفاء الثاني .

وأما في مادة الدوران الجزئي كما في قولك لو طلعت الشمس لوجد الضوء ، فلأن الجزاء المنوط بالشرط الذي هو طلوعها ليس وجود أي ضوء كان كضوء القمر المجامع لعدم الطلوع مثلا ، بل إنما هو وجود الضوء الخاص الناشئ عن^(٢) الطلوع ، ولا ريب في انتفائه بانتفاء الطلوع ، هذا إذا بني الحكم على اعتبار الدوران ، وأما إذا بني على عدمه فإما أن يعتبر هناك تحقق مدار آخر له أولا ، فإن اعتبر بالدلالة تابعة لحال ذلك المدار فإن كان بينه وبين انتفاء الأول منافاة تعين الدلالة كما إذا قلنا^(٣) لو لم تطلع الشمس لوجد الضوء ، فإن وجود الضوء وإن علق بصورة بعدم الطلوع لسكنه في الحقيقة معلق بسبب آخر له ضرورة أن عدم الطلوع من حيث هو وليس مدارا لوجود الضوء في الحقيقة ، وإنما وضع موضع المدار لكونه كاشفا عن تحقق مدار آخر له ، فكأنه قيل لو لم تطلع الشمس لوجد الضوء بسبب آخر كالقمر مثلا ولا ريب في أن هذا الجزاء منتف عند انتفاء الشرط لاستحالة وجود الضوء القمري عند طلوع الشمس ، وإن لم يكن بينهما منافاة تعين عدم الدلالة كما في قوله صلى الله

(١) في المطبوعة ابتفاء . (٢) في المطبوعة من (٣) في المطبوعة قلت .

(٧ - أبو السعود - أول)

عليه وسلم في بنت أبي سلمة : « لو لم تكن ربيتي في حجرى ما حلت لى لأنها لابنة أخى من الرضاة ، فإن المدار المعبر فى ضمن الشرط أعنى كونها ابنة أخيه عليه السلام من الرضاة غير مناف لانتفائه الذى هو كونها ربيته عليه السلام ، بل مجامع له ، ومن ضرورته مجامعة أثرهما أعنى الحرمة الناشئة من كونها ربيته عليه السلام ، والحرمة الناشئة من كونها ابنة أخيه من الرضاة . وإن لم يعتبر هناك تحقق مدار آخر بل ينبنى^(١) الحكم على اعتبار عدمه فلا دلالة لها على ذلك أصلا .

كيف لا ومساق الكلام حينئذ لبيان ثبوت الجزاء على كل حال بتعليقه بما ينافيه ليعلم ثبوته عند وقوع ما لا ينافيه بالطريق الأولى ، كما فى قوله عز وجل (قل لو أتمتملكون خزائن رحمة ربى إذأ لا أمسكنتم) وقوله عليه السلام « لو كان الإيمان فى الثريا لنالها رجال من فارس ، وقول على رضى الله عنه « لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا ، فإن الأجزية المذكورة قد نيطت بما ينافيها ويستدعى نقائضها . إيدانا بأنها فى أنفسها بحيث يجب ثبوتها مع فرض انتفاء أسبابها أو تحقق انتفاء أسبابها^(٢) ، فكيف إذالم يكن كذلك على طريقة لو الوصلية ، فى مثل قوله تعالى (يكادزيتها يضىء ولو لم تمسسه نار) ولها تفاصيل وتفاريع حررها فى تفسير قوله تعالى (أولو كنا كارهين) وقول عمر رضى الله عنه « نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه ، إن حمل على تعليق عدم العصيان فى ضمن عدم الخوف بمدار آخر نحو الحياء والإجلال وغيرهما مما يجماع الخوف كان من قبيل حديث ابنة أبى سلمة ، وإن حمل بيان استحالة عصيانه مبالغة كان من هذا القبيل ، والآية الكريمة ، واردة على الاستعمال الشائع مفيدة لسكال فظاعة حالهم وغاية هول ما دهمهم من المشاق ، وأنها قد بلغت من الشدة إلى حيث لو تعلققت مشيئة الله تعالى بإزالة مشاعرهم لزال ، لتحقق ما يقتضيه اقتضاء تاما ، وقيل ، كلمة لو فيها لربط جزائها بشرطها مجردا

(١) فى المطبوعة : بنى

(٢) فى المطبوعة : أسباب انتفائها .

عن الدلالة على انتفاء الآخر بمنزلة كلمة أن ومفعول المشيئة محذوف جريا على القاعدة المستمرة فإنها إذا وقعت شرطا وكان مفعولها مضمونا للجزاء فلا يكاد يذكر إلا أن يكون شيئا مستغربا كما في قوله :

فلو شئت أن أبكي دما لبكيتته عليه ولكن ساحة الصبر أوسع
 أى لو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لفعل ، ولكن لم يشأ لما يقتضيه
 من الحكم والمصالح ، وقرىء لأذهب بأسماعهم على زيادة الباء كما في قوله تعالى
 (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) الآية (١) ، والإفراد في المشورة لأن السمع
 مصدر في الأصل ، والجمله الشرطية معطوفة على ما قبلها من الجمل الاستثنائية ،
 وقيل على كلاً أعضاء إلخ وقوله عز وجل ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ تعلق
 للشرطية وتقرير لمضمونها الناطق بقدرته تعالى على إزالة مشاعرهم بالطريق
 البرهاني ، والشئ بحسب مفهومه اللغوي يقع على كل ما يصح أن يعلم ويخبر
 عنه كائنا ما كان ، على أنه في الأصل مصدر شاء أطلق على المفعول واكتفى في
 ذلك باعتبار تعلق المشيئة به من حيث العلم والإخبار عنه فقط ، وقد خص
 ههنا بالممكن موجودا كان أو معدوما بقضية اختصاص تعلق القدرة به ، لما
 أنه عبارة عن التمكن من الإيجاد والإعدام الخاصين به ، وقيل هي صفة تقتضى
 ذلك التمكن والقادر هو الذي إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل ، والقدير هو
 الفعال لكل ما يشاء كما يشاء ، ولذلك لم يوصف به غير الباري جل جلاله
 (وتقدس أسماءه) (٢) ومعنى قدرته تعالى على الممكن الموجود حال وجوده أنه
 إن شاء إبقائه على الوجود أبقاه عليه ، فإن علة الوجود هي علة البقاء ، وقدر
 تحقيقه في تفسير قوله تعالى (رب العالمين) وإن شاء لإعدامه أعدمه ، ومعنى
 قدرته على المعدوم حال عدمه أنه إن شاء لإيجاده أوجده وإن لم يشأ لم يوجده ،
 وقيل قدرة الإنسان هيئة بها يتمكن من الفعل والترك ، وقدرة الله تعالى عبارة عن
 نفي العجز ، واشتقاق القدرة من القدر لأن القادر يقع الفعل بقدر ما تقتضيه

(١) سقط من المطبوعة .

(٢) ما بين الحاصرين سقط من المطبوعة

لإرادته أو بقدر قوته ، وفيه دليل على أن مقدور العبد مقدور لله تعالى حقيقة ،
لأنه شيء وكل شيء مقدور له تعالى .

واعلم أن كل واحد من التمثيلين وإن احتمل أن يكون من قبيل التمثيل
المفرق كما في قوله :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالى
بأن يشبه المنافقون في التمثيل الأول بالمستوقدين وهداهم القطرى بالنار
وتأييدهم إياها^(١) بما شاهدوه من الدلائل باستيقادها وتمسكهم التام من الانتفاع
به بإضامتها ما حولهم وإزالتها بإذهاب النور النارى ، وأخذ الضلالة بمقابلته
بملاستهم الظلمات الكثيفة وبقائهم فيها ، وشبهوا^(٢) في التمثيل الثانى بالسابلة
والقرآن وما فيه من العلوم والمعارف التى هى مدار الحياة الأبدية بالصيب الذى
هو سبب الحياة الأرضية وما عرض لهم بنزوله من الغيوم والأحزان وانكساف
البال بالظلمات ، وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق وهو تصامهم عما يقرع
أسماعهم من الوعيد بحال من يهوله الرعد والبرق فيخاف صواعقه فيسد أذنه
عنها ، ولا خلاص له منها ، واهتزازهم لما يلعب لهم من رشد يدركونه أو رعد
يحرزونه بمشيمهم فى مطرح ضوء البرق ، كلما أضاء لهم ، وتحيرهم فى أمرهم
حين عن لهم مصيبة بوقوفهم إذا أظلم عليهم لكن الحمل على التمثيل المركب الذى
لا يعتبر فيه تشبيه كل واحد من المفردات الواقعة فى أحد الجانبين بواحد من
المفردات الواقعة فى الجانب الآخر على وجه التفصيل ، بل ينتزع فيه من
المفردات الواقعة فى جانب المشبه هيئة فتشبهه هيئة أخرى منتزعة من المفردات
الواقعة فى جانب المشبه به بأن ينتزع من المنافقين وأحوالهم المفصلة فى كل
واحد من التمثيلين هيئة بجياها فتشبهه كل واحدة من الأوليين بما يضاهاها من
الآخرين هو الذى يقتضيه جزالة التنزيل ويستدعيه نظامه شأنه الجليل لاشتماله
على التشبيه الأول إجمالا مع أمر زائد هو تشبيه الهيئة بالهيئة وإيدانه بأن

(١) فى ط : إياه

(٢) فى ط : أو يشبهوا .

اجتماع تلك المفردات مستتبع لهيئة عجيبة حقيقة بأن تكون مثلاً في الغرابة .

التحريض على العبادة

﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم﴾ إثر ما ذكر الله تعالى من علو طبقة كتابه الكريم وتحزب الناس في شأنه إلى ثلاث فرق مؤمنة به محافظة على ما فيه من الشرائع والأحكام . وكافرة قد نبذته وراء ظهرها بالمجاهرة والشقاق ، وأخرى مذبذبة بينهما بالخادعة والنفاق ونعت كل فرقة منها بما لها من النعوت والأحوال وبين ما لهم من المصير والمآل أقبل عليهم بالخطاب على نهج الالتفات هذا لهم إلى الإصغاء وتوجيهها لقلوبهم نحو التلقي ، وجبرالما في العبادة من الكلفة بلذة الخطاب ، فأمرهم كافة بعبادته ونهاهم عن الإشراف به ، ويا حرف وضع لنداء البعيد ، وقد ينادى به القريب تنزيلاً منزلة البعيد إما لإجلالها كما في قول الداعي يا الله ويارب ، وهو أقرب إليه من حبل الوريد استقصاراً لنفسه واستبعاداً لها من محافل الزلنى ومنازل المقربين ، ولما تنبها على غفلته وسوء فهمه وقد يقصد به التنبيه على أن ما يعقبه أمر خطير يعتنى بشأنه ، وأى اسم مهم جعل وصله إلى نداء المعروف باللام لا على المنادى أصالة بل على أنه صفة موضحه له منزلة لإبهامه ، والتزم رفعه مع انتصاب موصوفه محلاً إشعاراً بأنه المقصود بالنداء . وأقحمت بينهما كلمة التنبيه تأكيداً لمعنى النداء وتعويضاً عما يستحقه أى من المضاف إليه ، ولما ترى من استقلال هذه الطريقة بضروب من أسباب المبالغة والتأكيد كثير سلوكها في التنزيل المجيد ، كيف لا وكل ما ورد في تضاعيفه على العباد من الأحكام والشرائع وغير ذلك خطوب جليمة حقيقة بأن تقشعر منها الجلود وتطمئن بها القلوب الأبية ، ويتلقوها بأذان واعية ، وأكثرهم عنها غافلون ، فاقتضى الحال المبالغة والتأكيد في الإيقاظ والتنبيه والمراد بالناس كافة المكلفين الموجودين في ذلك العصر . لما أن الجموع وأسماءها المحلاة باللام للعموم بدليل صحة الاستثناء منها والتأكيد بما يفيد العموم كما في قوله تعالى (فسجد الملائكة كلهم أجمعون) واستدلال الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين بعمومها شائعاً ذائعاً ، وأما من عداهم ممن سيوجد منهم

فغير داخلين في خطاب المشافهة ، وإنما دخولهم تحت حكمه لما تواتر من دينه صلى الله عليه وسلم ، ضرورة أن مقتضى خطابه وأحكامه شامل للوجودين من المكلفين ولمن سيوجد منهم إلى قيام الساعة ، ولا يقدر في العموم ما روى عن علقمة والحسن البصرى من أن كل ما نزل فيه (يا أيها الناس) فهو مكى ، إذ ليس من ضرورة نزوله بمكة شرفها الله تعالى اختصاص حكمه بأهلها ولا من قضية اختصاصه بهم اختصاصه بالكفار ، إذ لم يكن كل أهلها حينئذ كفرة ولا ضير في تحقق العبادة في بعض المكلفين قبل ورود هذا الأمر لما أن المأمور به القدر المشترك الشامل لإنشاء العبادة والثبات عليها والزيادة فيها مع أنها متكررة حسب تكرر أسبابها ولا في انتفاء شرطها في الآخرين منهم أعنى الإيمان لأن الأمر بها منتظم للأمر بما لا يتم إلا به وقد علم من الدين ضرورة اشتراطها به فإن أمر المحدث بالصلاة مستتبع للأمر بالتوضى لا محالة .

وقد قيل المراد بالعبادة ما يعم أفعال القلب أيضاً لما أنها عبارة عن غاية التذلل والخضوع وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن كل ما ورد في القرآن من العبادات فمعناها التوحيد وقيل معنى اعبدوا وحدوا وأطيعوا ولا شك في كون بعض من الفرقتين الأخيرتين ممن لا يجدى فيهم الإنذار بموجب النص القاطع لما أن الأمر لقطع الأعداء ليس فيه تكليفهم بما ليس في وسعهم من الإيمان بعدم إيمانهم أصلاً ، إذ لا قطع لأحد منهم بدخوله في حكم النص قطعاً ، وورد النص بذلك لكونهم في أنفسهم بسوء اختيارهم كذلك لا أن كونهم كذلك لورود النص بذلك ، فلا جبر أصلاً .

نعم لتخصيص الخطاب بالمشركين وجه لطيف ستقف عليه عند قوله تعالى (وأتم تعلمون) وإيراده تعالى بعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لتأكيد موجب الأمر بالإشعار بعلاقتها للعبادة (الذى خلقكم) صفة أجريت عليه سبحانه للتبجيل والتعليل لإشراكهم والتعليل وقد جوز كونها للتقيد والتوضيح بناء على تخصيص الخطاب بالمشركين ، وحمل الرب على ما هو أعم من الرب الحقيقي ، والآلهة التي يسمونها أرباباً والخلق لإيجاد الشيء على تقدير واستواء

وأصله التقدير يقال خلق النحل أى قدرها وسواها بالمقياس ، وقرىء خلقكم بإدغام القاف فى السكاف ﴿ والذين من قبلكم ﴾ عطف على الضمير المنصوب وتمسم لما قصد من التعظيم والتعليل ، فإن خلق أصولهم من موجبات العبادة كخلق أنفسهم ، ومن ابتدائية متعلقة بمحذوف أى كانوا من زمان قبل زمانكم وقيل خلقهم من قبل خلقكم فحذف الخلق وأقيم الضمير مقامه والمراد بهم من تقدمهم من الأمم السالفة كافة ومن ضرورة عموم الخطاب بيان شمول خلقه تعالى لكل وتخصيصه بالمشركين يودى إلى عدم التعرض لخلق من عداهم من معاصريهم وإخراج الجملة مخرج الصلة التى حقها أن تكون معلومة الانتساب إلى الموصول عندهم أيضا مع أنهم غير معترفين بغاية الخلق وإن اعترفوا بنفسه كما ينطق به قوله تعالى (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) للإيدان بأن خلقهم للتقوى من الظهور بحيث لا يتأتى لأحد إنكاره وقرىء وخلق من قبلكم وقرىء والذين من قبلكم بإقحام الموصول الثانى بين الأول وصلته تؤكد كإقحام اللام بين المضافين فى لا أبالك ، أو يجعله موصوفا بالظرف خبرا لمبتدأ محذوف ، أى الذين هم أناس كانوا من قبلكم ﴿ لعلكم تتقون ﴾ المعنى الوضعى لكلمة لعل هو إنشاء توقع أمر متردد بين الوقوع وعدمه مع رجحان الأول إما محبوب فيسمى ترجيا ، أو مكروه فيسمى إشفاقا ، وذلك المعنى قد يعتبر تحققه بالفعل إما من جهة المتكلم كما فى قولك لعل الله يرحمنى وهو الأصل الشائع فى الاستعمال . لأن معانى الإنشاءات قائمة به وإما من جهة المخاطب تنزيلا له منزلة المتكلم فى التلبس التام بالكلام الجارى بينهما ، كما فى قوله سبحانه (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) وقد يعتبر تحققه بالقوة بضرب من التجوز إيدانا بأن ذلك الأمر فى نفسه مثنة للتوقع متصف بحيثية مصححة له من غير أن يعتبر هناك توقع بالفعل من متوقع أصلا .

فإن روعيت فى الآية الكريمة جهة المتكلم يستحيل إرادة ذلك المعنى لامتناع التوقع من علام الغيوب عز وجل فيصار إما إلى الاستعارة بأن يشبه طلبه تعالى من عباده التقوى مع كونهم مثنة لها لتعاضد أسبابها برجاء الراجحى من

المرجو منه أمراً هين الحصول في كون متعلق كل منهما متردداً بين الوقوع وعدمه مع رجحان الأول فيستعار له كلمة لعل استعارة تبعية حرفية للبالغلة في الدلالة على قوة الطلب وقرب المطلوب من الوقوع ولما إلى التمثيل بأن يلاحظ خلقه تعالى لإياهم مستعدين للتقوى وطلبه لإياها منهم وهم متمكنون منها جامعون لأسبابها ، وينتزع من ذلك هيئة قتشبه بهيئة منتزعة من الراجي ورجائه من المرجو منه شيئاً سهل المنال ، فيستعمل في الهيئة الأولى ما حقه أن يستعمل في الثانية ، فيكون هناك استعارة تمثيلية قد صرح من ألفاظها بما هو العمدة في انتزاع الهيئة المشبه بها أعنى كلمة الترجي والباقي منبوي بالفاظ متخيلة بها يحصل التركيب المعتبر في التمثيل كما مر مراراً وأما جعل المشبه إرادته تعالى في الاستعارة والتمثيل فأمر مؤسس على قاعدة الاعتزال القائلة بجواز تخلف المراد عن إرادته تعالى ، فالجمله حال إما من فاعل خلقكم أى طالباً منكم التقوى أو من مفعوله ، وما عطف عليه بطريق تغليب المخاطبين على الغائبين ، لأنهم المسامورون بالعبادة أى خلقكم وإياهم مطلوباً منكم التقوى أو علة له ، فإن خلقهم على تلك الحال في معنى خلقهم لأجل التقوى ، كأنه قيل خلقكم لتتقوا ، أو كي تتقوا ، إما بناء على تجويز تعليل أفعاله تعالى بأغراض راجعة إلى العباد كما ذهب إليه كثير من أهل السنة ، وإما تنزيلاً لترتب الغاية على ما هي ثمرة له منزلة ترتب الغرض على ما هو غرض له ، فإن استتباع أفعاله تعالى لغايات ومصالح متقدمة جليلة من غير أن تكون هي علة غائية لها بحيث لولاها لما أقدم عليها مما لانزاع فيه وتقييد خلقهم بما ذكر من الحال أو العلة لتسكيل علية للأمور به وتأكيدها ، فإن إتيانهم بما خلقوا له أدخل في الوجوب ، وإيثار تقوى على تعبدون مع موافقته لقوله تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) للبالغلة في إيجاب العبادة والتشديد في إلزامها ، لما أن التقوى قصارى أمر العابد ومنتهى جهده ، فإذا لزمهم التقوى كان ما هو أدنى منها ألزم ، والإتيان به أهون .

وإن روعيت جهة المخاطب فلعل في معناها الحقيقي ، والجمله حال من ضمير

أعبدوا ، كأنه قيل أعبدوا ربكم راجين للانتظام في زمرة المتقين الفائزين بالهدى والفلاح .

المراد بالتقوى

على أن المراد بالتقوى مرتبتها الثالثة ، التي هي التبتل إلى الله عز وجل بالسكينة ، والتنزه عن كل ما يشغل سره عن مراقبته ، وهي أقصى غايات العبادة التي يتنافس فيها المتنافسون ، وبالانتظام القدر المشترك بين إنشائه والثبات عليه ليرتجيه أرباب هذه المرتبة ومادونها من مرتبتي التوقى عن العذاب المخلد ، والتجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك كما مر في تفسير المتقين .

ولعل توسط الحال من الفاعل بين وصفي المفعول لما في التقديم من فوات الإشعار بكون الوصف الأول معظم أحكام الربوبية ، وكونه عريفاً في إيجاب العبادة وفي التأخير من زيادة طول الكلام هذا على تقدير اعتبار تحقق التوقع بالفعل ، فأما إن اعتبر تحققه بالقوة فالجملة حال من مفعول خلقكم ، وما عطف عليه على الطريقة المذكورة أي خلقكم وإياهم حال كونكم جميعاً بحيث يرجو منكم كل راج أن تتقوا ، فإنه سبحانه وتعالى لما برأهم مستعدين للتقوى ، جامعين لمبادئها الآفاقية والآنفسية ، كان حالهم بحيث يرجو منهم كل راج أن يتقوا لاحالة ، وهذه الحالة مقارنة لخلقهم وإن لم يتحقق الرجاء قطعاً .

واعلم أن الآية الكريمة مع كونها بعبارتها ناطقة بوجوب توحيدته تعالى . هو تحتم عبادته على كافة الناس مرشدة لهم بإشارتها إلى أن مطالعة الآيات التكوينية المنصوبة في الأنفس والآفاق مما يقضى بذلك قضاء متقناً ، وقد بين ههنا أولاً من تلك الآيات ما يتعلق بأنفسهم من خلقهم وخلق أسلافهم لما أنه أقوى شهادة وأظهر دلالة ، ثم عقب بما يتعلق بمعاشهم فقيل .

عود إلى بواعث التقوى

﴿ الذي جعل لكم الأرض فراشا ﴾ وهو في محل النصب على أنه صفة ما نية لربكم ، موضحة أو مادحة ، أو على تقدير أخص أو أمدح ، أو في محل الرفع على المدح والتعظيم بتقدير المبتدأ ، قال ابن مالك : التزم حذف الفعل

في المنصوب على المدح إشعاراً بأنه لإنشاء كما في المنادى ، وحذف المبتدأ في المرفوع إجراء للوجهين على سنن واحد ، وأما كونه مبتدأ خبره فلا يجعلوا كما قيل فيستدعى أن يكون مناط النهي ما في حين الصلة فقط من غير أن يكون لما سلف من خلقهم وخلق من قبلهم مدخل في ذلك مع كونه أعظم شأنًا ، وجعل بمعنى صير والمنصوبان بعده مفعولاه ، وقيل هي بمعنى خلق ، وانتصاب الثاني على الحالية والظرف متعلق به على التقديرين ، وتقديمه على المفعول الصريح لتعجيل المسرة ببيان كون ما يعقبه من منافع المخاطبين ، وللتشويق إليه لأن النفس عند تأخير ما حقه التقديم لاسيما عند (١) الإشعار بمنفعته تبقى مترقبة له ، فيتمكن لديها عند وروده عليها فضل تمكن ، أولما في المؤخر وما عطف عليه من نوع طول . فلو قدم لفات تجاوب (٢) أطراف النظم الكريم ، ومعنى جعلها فراشا جعل بعضها بارزا من الماء مع اقتضاء طبيعتها الرسوب ، وجعلها متوسطة بين الصلابة واللين صالحة للعود عليها والنوم فيها كاللبساط المفروش ، وليس من ضرورة ذلك كونها سطحا حقيقيا ، فإن كرية شكلها مع عظم جرمها مصحح (٣) لافتراشها ، وقرى بساطا ومهادا .

(والسما بناء) عطف على المفعولين السابقين ، وتقديم حال الأرض لما أن احتياجهم إليها وانتفاعهم بها أكثر وأظهر ، أي جعلها قبة مضروبة عليكم والسما اسم جنس يطلق على الواحد والمتعدد ، أو جمع سماوة أو سماة ، والبناء في الأصل مصدر سمي به المبنى بيتا كان أو قبة أو خباء ، ومنه قولهم بنى على امرأته لما أنهم كانوا إذا تزوجوا امرأة ضربوا عليها خباء جديدا .

(وأنزل من السماء ماء) عطف على جعل أي أنزل من جهتها ، أو منها إلى السحاب ومن السحاب إلى الأرض ، كما روى ذلك عنه عليه الصلاة والسلام أو المراد بالسماء جهة العلو كما ينبىء عنه الإظهار في موضع الإضمار ، وهو على الأولين لزيادة التقرير ، ومن لا ابتداء الغاية متعلقة بأنزل أو بمحذوف

(١) في الأصل : بعد الإشعار (٢) في ١١ : تجاوب (٣) في الأصل : مصححة

وقع حالا من المفعول أى كأننا من السماء ، قدم عليه لكونه نكرة ، وأما تقديم الظرف على الوجه الأول مع أن التأخير عن المفعول الصريح فيما لأن السماء أصله ومبدؤه ، وإما لما مر من التشويق إليه مع ما فيه من مزيد انتظام بينه وبين قوله تعالى : ﴿ فأخرج به ﴾ أى بسبب الماء ﴿ من الثمرات رزقا لكم ﴾ .

وذلك بأن أودع في الماء قوة فاعلة وفي الأرض قوة منفعة ، فتولد من تفاعلها أصناف الثمار ، أو بأن أجرى عاداته بإفاضة صور الثمار وكيفية المخالفة على المادة المترجة منها وإن كان المؤثر في الحقيقة قدرته تعالى ومشيتته ، فإنه تعالى قادر على أن يوجد جميع الأشياء بلا مباد ومواد كما أبدع نفوس المبادئ والأسباب ، لكن له عز وجل في إنشائها متقلبة في الأحوال وفي الأطوار من بدائع حكم باهرة تجدد لأولى الأبصار عبرا ومزيد طمأنينة ، إلى عظيم قدرته ولطيف حكمته ما ليس في إبداعها بغتة ، ومن للتبعض لقوله تعالى (فأخرجنا به ثمرات) ولو قوعها بين منكرين . أعنى ماء ورزقا كأنه قيل : وأنزل من السماء بعض الماء فأخرج به بعض الثمرات ليسكون بعض رزقكم ، وهكذا الواقع إذ لم ينزل من السماء كل الماء ، ولا أخرج من الأرض كل الثمرات ، ولا جعل كل المرزوق ثمارا ، أو للتبيين ورزقا مفعول بمعنى المرزوق ، ومن الثمرات بيان له ، أو حال منه كقولك أنفقت من الدراهم ألفا ، ويجوز أن يكون من الثمرات مفعولا ورزقا حالا منه أو مصدرا من أخرج ، لأنه بمعنى رزق .

ولإنما شاع ورود الثمرات دون الثمار مع أن الموضع موضع كثرة لأنه أريد بالثمرات جماعة الثمرة في قولك : أدركت ثمرة بستانه ، ويؤيده القراءة على التوحيد ، أو لأن الجموع يقع بعضها موقع بعض ، كقوله تعالى : (كم تركوا من جنات وعيون) وقوله تعالى : (ثلاثة قروء) أو لأنها محلاة باللام خارجة عن حد القلة ، واللام متعلقة بمحذوف وقع صفة لرزقا على تقدير كونه بمعنى المرزوق ، أى رزقا كأننا لكم ، أو دعامة لتقوية عمل رزقا على تقدير كونه مصدرا ، كأنه قيل رزقا إياكم .

﴿ فلا تجعلوا لله أندادا ﴾ إما متعلق بالأمر السابق مترتب عليه ، كأنه قيل : إذا أمرتم بعبادة من هذا شأنه من التفرد بهذه النعوت الجليلة والأفعال الجميلة فلا تجعلوا له شريكا ، وإنما قيل أندادا باعتبار الواقع ، لا لأن مدار النهي هو الجمعية ، وقرىء ندا ، وإيقاع الاسم الجليل موقع الضمير لتعيين المعبود بالذات إثر تعيينه بالصفات وتعيين^(١) الحكم بوصف الألوهية التي عليها يدور أمر الوجدانية واستحالة الشركة والإيدان باستتباعها لسائر الصفات ، وإما معطوف عليه كما في قوله تعالى : اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، والفاء للإشعار بعلمية ما قبلها من الصفات المجراة عليه تعالى للنهي أو الانتهاء أو لأن مآل النهي هو الأمر بتخصيص العبادة به تعالى المترتب على أصلها ، كأنه قيل : اعبدوه فخصوها به ، والإظهار في موضع الإضمار لما مر آنفاً ، وقيل هو نفي منصوب بإضمار أن جوابا للأمر ، ويأباه أن ذلك فيما يكون الأول سببا للثاني . ولا ريب في أن العبادة لا تكون سببا للتوحيد ، الذي هو أصلها ومبناها .

وقيل هو منصوب بلعل نصب (فأطلع) في قوله تعالى : (لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى) أى خلقكم لتتقوا وتخافوا عقابه فلا تشبهوه بخلقه ، وحيث كان مدار هذا النصب تشبيه لعل في بعد المرجو بليت كان فيه تنبيه على تقصيرهم بجعلهم المرجو القريب بمنزلة المتمنى البعيد ، وقيل هو متعلق بقوله تعالى : (الذى جعل الخ) على تقدير رفعه على المدح ، أى هو الذى خصكم بهذه الآيات العظام والدلائل النيرة ، فلا تتخذوا له شركاء ، وفيه ما مر من لزوم كون خلقهم وخلق أسلافهم بمعزل من مناطية النهي مع عراقتهما فيها . وقيل هو خبر للموصول بتأويل مقول في حقه ، وقد عرفت ما فيه مع لزوم المصير إلى مذهب الأخفش في تنزيل الاسم الظاهر بمنزلة الضمير كما في قولك زيد قام أبو عبد الله إذا كان ذلك كنيته .

(١) فى الأصل : وتعليل

والند المثل المساوى من ند ندودا إذا نفر ، وناددته خالفته ، خص بالمخالف المائل بالذات كما خص المساوى بالمائل في المقدار ، وتسمية ما يعبده المشركون من دون الله أندادا والحال أنهم ما زعموا أنها تماثله تعالى في صفاته ولا أنها تخالفه في أفعاله لما أنهم لما تركوا عبادته تعالى إلى عبادتها ، وسموها آلهة شابهت حالهم حال من يعتقد أنها ذوات واجبة بالذات ، قادرة على أن تدفع عنهم بأس الله عز وجل ، وتمنحهم ما لم يرد الله تعالى بهم من خير ، فتمسك بهم وشنع عليهم أن جعلوا أندادا لمن يستحيل أن يكون له ند واحد وفي ذلك قال موحد الجاهلية زيد بن عمرو بن نفيل :

أربا واحدا أم ألف رب أدين إذا تقسمت الأمور
تركت اللات والعزى جميعا^١ كذلك يفعل الرجل البصير

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ حال من ضمير لا تجعلوا بصرف التقييد إلى ما أفاده النهى من قبح المنهى عنه ووجوب الاجتناب عنه ، ومفعول تعلمون مطروح بالسكوية كما أنه قيل لا تفعلوا^(١) ذلك فإنه قبيح واجب الاجتناب عنه ، والحال أنكم من أهل العلم والمعرفة بدقائق الأمور وإصابة الرأى ، أو مقدر حسبما يقتضيه المقام ، نحو وأنتم تعلمون بطلان ذلك ، أو تعلمون ، أنه لا يماثله شيء ، أو تعلمون ما بينه وبينها من التفاوت ، أو تعلمون أنها لا تفعل مثل أفعاله كما في قوله تعالى : (هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء) أو غير ذلك .

وحاصله تنشيط المخاطبين وحثهم على الانتهاء عما نهوا عنه هذا هو الذى يستدعيه عموم الخطاب فى النهى بجعل المنهى عنه القدر المشترك المنتظم لإنشاء الانتهاء كما هو المطلوب من الكفرة ، وللثبات عليه كما هو شأن المؤمنين حسبما مر مثله فى الأمر ، وأما صرف التقييد إلى نفس النهى فيستدعى تخصيص الخطاب بالكفرة لا مجاله إذ لا يتسنى ذلك بطريق قصر النهى على حالة العلم ضرورة شمول التكليف للعالم والجاهل والتممكن من العلم بل إنما

(١) فى الأصل : لا تجعلوا

يتأتى بطريق المبالغة في التوبيخ والتفريع ، بناء على أن تعاطى القبائح من العالمين بقبحها أقبح ؛ وذلك إنما يتصور في حق الكفرة ، فمن صرف التقييد إلى نفس النهى مع تعميم الخطاب للمؤمنين أيضا فقد نأى عن التحقيق .

إن قلت : أليس في تخصيصه بالكفرة في الأمر والنهى خلاص من أمثال ما مر من التكاليف وحسن انتظام بين السياق والسياق إذ لا محيد في آية التحدى من تجريد الخطاب وتخصيصه بالكفرة لامحالة مع ما فيه من رياء محل المؤمنين ورفع شأنهم عن حين الانتظام في سلك الكفرة والإيدان بأنهم مستمرين على الطاعة والعبادة حسبما مر في صدر السورة الكريمة . مستخنون في ذلك عن الأمر والنهى ؟ قلت ، بلى إنه وجه سرى ، ونهج سوى ، لا يضل من ذهب إليه ولا يزل من ثبت قدمه عليه ، فتأمل .

دلالات أن القرآن من عند الله

﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ﴾ شروع في تحقيق أن الكتاب الكريم الذى من جملته ما نزل على من الآيتين السكريميتين ، الناطقتين بوجوب العبادة والتوحيد منزل من عند الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم ، كما أن ما ذكر فيهما من الآيات التكوينية الدالة على ذلك صادرة عنه تعالى لتوضيح انصافه بما ذكر في مطلع السورة الشريفة من النعوت الجليلة التى من جملتها نزاهته عن أن يعتريه ريب ما والتعبير عن اعتقادهم في حقه بالريب مع أنهم جازمون بكونه من كلام البشر كما يعرب عنه قوله تعالى (إن كنتم صادقين) إما للإيدان بأن أقصى ما يمكن صدوره عنهم وإن كانوا في غاية ما يكون من المسكارة والعناد هو الارتياب في شأنه ، وأما الجزم المذكور بخارج من دائرة الاحتمال ، كما أن تنكيره وتصديره بكلمة الشك للإشعار بأن حقه أن يكون ضعيفا مشكوك الوقوع ، وإما للتنبيه على أن جزمهم ذلك بمنزلة الريب الضعيف لسكمال وضوح دلالات الإعجاز ونهاية قوتها .

ولما لم يقل وإن ارتبتم فيما نزلنا الخ لما أشير إليه فيما سلف من المبالغة في تنزيهه ساحة التنزيل عن شائبة وقوع الريب فيه حسبما نطق به قوله تعالى :

(لاريب فيه) للإشعار بأن ذلك إن وقع فنن جهتهم لامن جهته العالية ، واعتبار استقرارهم فيه وإحاطته بهم لا ينافي اعتبار ضعفه وقلته ، لما أن ما يقتضيه ذلك هو دوام ملابتهم به لاقوته وكثرتة ، ومن في مما ابتدائية متعلقة بمحذوف وقع صفة لريب ، وحملها على السببية ربما يوهم كونه محلا للريب في الجملة وحاشاه (من) (١) ذلك وما موصولة كانت أو موصوفة عبارة عن الكتاب الكريم لاعن القدر المشترك بينه وبين أبعاضه ، وليس معنى كونهم في ريب منه ارتيابهم في استقامة معانيه ، وصحة أحكامه ، بل في نفس كونه وحيا منزلا من عند الله عز وجل ، وإيثار التنزيل المنهي (٢) عن التدرج على مطلق الإنزال لتذكير منشأ ارتيابهم ، وبناء التحدى عليه لإرخاء للعنان وتوسيعا للبيدان ، فإنه كانوا اتخذوا نزوله منجما وسيلة إلى إنكاره ، فجعل ذلك من مبادئ الاعتراف به ، كأنه قيل : إن ارتبتم في شأن ما نزلناه على مهل وتدرج فها تواتم مثل نوبة فذة من نوبه ، ونجم فرد من نجومه ، فإنه أيسر عليكم من أن ينزل جملة واحدة ، ويتحدى بالكل .

وهذا كما ترى غاية ما يكون في التبكيت وإزاحة العلل وفي ذكره صلى الله عليه وسلم بعنوان العبودية مع الإضافة إلى ضمير الجلالة من التشريف والتنويه والتنبيه على اختصاصه به عز وجل وإنقياده لأوامره تعالى ما لا يخفى . وقرىء على عبادنا والمراد هو صلى الله عليه وسلم وأمته ، أو جميع الأنبياء عليهم السلام ، ففيه إيدان بأن الارتياب فيه إرتياب فيما أنزل (على) (٣) من قبله لكونه مصدق له ومهيمننا عليه والأمر في قوله تعالى ﴿ فأتوا بسورة ﴾ من باب التعجيز وإلقام الحجر ، كما في قوله تعالى (فأت بها من المغرب) والفاء للجواب وسببية الارتياب للأمر أو الإتيان بالمأمور به لما أشير إليه من أنه عبارة عن جزمهم المذكور ، فإنه سبب للأول مطلقا ، وللثاني على تقدير الصدق ، كأنه قيل إن كان الأمر كما زعمتم من كونه كلام البشر فأتوا بمثله ، لأنكم تقدرتون على

(١) سقطت من الأصل (٢) في ١١ : البنى (٣) سقطت من الأصل

ما يقدر عليه سائر بني نوعكم . والسورة الطائفة من القرآن العظيم المترجمة ، وأقلها ثلاث آيات . وواوها أصلية منقولة من سور البلد ، لأنها محيطه بطائفة من القرآن مفرزة محوزة على حياها ، أو محتوية على فنون رائقة من العلوم احتواء سور المدينة على ما فيها ، أو من السورة التي هي الرتبة قال :

ولرهب حراب وقد سورة في المجد ليس غرابها بمطار

فإن سور القرآن مع كونها في أنفسها رتبا من حيث الفضل والشرف . أو من حيث الطول والقصر ، فهي من حيث انتظامها مع أخوانها في المصحف مراتب يرتقى لآلها القارىء شيئاً فشيئاً . وقيل واوها مبدلة من الهمزة ، فعناها البقية من الشيء ، ولا يخفى ما فيه ومن في قوله تعالى ﴿ من مثله ﴾ بيانية متعلقة بمحذوف وقع صفة لسورة ، والضمير لما نزلنا ، أي بسورة كائنة من مثله في علو الرتبة وسمو الطبقة ، والنظم الرائق والبيان البديع ، وحياسة سائر نعوت الإعجاز وجعلها تبعيضية يوهم أن له مثلاً محققاً قد أريد تعجيزهم عن الإتيان ببعضه ، كأنه قيل ، فأتوا ببعض ما هو مثل له فلا يفهم منه كون المماثلة من تسمية المعجوز عنه فضلاً عن كونها مداراً للعجز مع أنه المراد ، وبناء الأمر على المجازاة معهم بحسب حسابهم حيث كانوا يقولون (لو نشاء لقلنا مثل هذا) أو على التهكم بأباه ما سبق من تنزيله منزلة الريب ، فإن مبنى التهكم على تسليم ذلك منهم وتسويقه ولو بغير جد ، وقيل هي زائدة كما هو رأى الأخفش ، بدليل قوله تعالى (فأتوا بسورة مثله) ، (بعشر سور مثله) وقيل هي ابتدائية ، فالضمير حينئذ للمنزل عليه حتماً ، لما أن رجوعه إلى المنزل يوهم أن له مثلاً محققاً (بالفعال)^(١) قد ورد الأمر التعجيزى بالإتيان بشيء منه ، وقد عرفت ما فيه بخلاف رجوعه إلى المنزل عليه ، فإن تحقق مثله عليه السلام في البشرية والعربية والامية يهون الخطاب في الجملة ، خلا أن تخصيص التحدى بفرد يشاركه عليه السلام فيما ذكر من الصفات المنافية للإتيان بالمأمور به لا يدل على عجز من ليس كذلك من علمائهم ، بل ربما يوهم قدرتهم على ذلك في

(١) سقط من ط .

الجملة فرادى أو مجتمعين ، مع أنه يستدعى عراء المنزل عما فصل من النعوت الموجبة لاستحالة وجود مثله ، فأين هذا من تحدى أمة حجة وأمرهم بأن يحتشدوا في حلبة المعارضة بخيلهم ورجلهم حسبما ينطق به قوله تعالى ﴿وادعوا شهداءكم من دون الله﴾ على الإتيان بقدر يسير مماثل في صفات الكمال لما أتى بجملته واحد من أبناء جنسهم .

والشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر أو القائم بالشهادة أو الناصر ، ومعنى دون أدنى مكان من شيء ، يقال هذا دون ذلك إذا كان أحط منه قليلا ، ثم استعير للتفاوت في الأحوال والرتب فقبل زيد دون عمرو ، أى فى الفضل والرتبة ، ثم اتسع فاستعمل فى كل تجاوز حد إلى حد وتخطى حكم إلى حكم من غير ملاحظة انحطاط أحدهما عن الآخر ، فجرى مجرى أداة الاستثناء ، وكلمة من إما متعلقة بادعوا فتكون لابتداء الغاية ، والظرف مستقر والمعنى ادعوا متجاوزين الله تعالى لاستظهار من حضركم كائننا من كان ، أو الحاضرين فى مشاهدكم ومحاضركم من رؤسائكم وأشرفكم الذين تفرعون إليهم فى الملل ، وتولون عليهم فى المهيات ، أو القائمين بشهادتكم الجارية فيما بينكم من أمنائكم الميولين لاستخلاص الحقوق بتنفيذ القول عند الولاية ، أو القائمين بنصرتكم حقيقة أو زعما من الإنس والجن ليعينوكم .

ولإخراجه سبحانه وتعالى من حكم الدعاء فى الأول مع اندراجه فى الحضور لتأكيده تناوله لجميع ما عداه ، لا لبيان استبداده تعالى بالقدرة على ما كلفوه فإن ذلك مما يؤمهم لو دعوه تعالى لأجابهم إليه ؛ وأما فى سائر الوجوه فالتصريح من أول الأمر ببرأتهم منه تعالى ؛ وكونهم فى عدوة المحادة والمشاقة له قاصدين^(١) استظهارهم على ما سواه ؛ والالتفات لإدخال الروعة وتربية المهابة ؛ وقيل المعنى ادعوا من دون أولياء الله شهداءكم الذين هم وجوه الناس وفرسان المناقلة والمناقلة ليشهدوا لكم أن ما أتيتم به مثله ، إيدانا بأنهم

(١) فى الأصل : قاصرين

يأبون أن يرضوا لأنفسهم الشهادة بصحة ما هو بين الفساد وجلى الاستحالة وفيه أنه يؤذن بعدم شمول التحدى لأولئك الرؤساء وقيل المعنى ادعوا شهداءكم فصححوا بهم دعواكم ولا تستشهدوا بالله تعالى قائلين الله يشهد أن مانديه حق فإن ذلك ديدن المحجوج وفيه أنه إن أريد بما يدعون حقيقة ما هم عليه من الدين الباطل فلا مساس له بمقام التحدى وإن أريد مثلية ما أتوا به للبتحدى به فمع عدم ملاءمته لابتداء التحدى يومهم أنهم قد تصدوا للمعارضة وأتوا بشيء مشتمبه الحال مترددين بين المثلية وعدمها ، وأنهم ادعوا مستشهادين في ذلك بالله سبحانه ، إذ عند ذلك تمس الحاجة إلى الأمر بالاستشهاد بالناس والنهى عن الاستشهاد به تعالى ، وأنى لهم ذلك ، وما نبض لهم عرق ولا نبسوا ببنت شفة .

ولما متعلقة بشهداءكم والمراد بهم الأصنام ، ودون بمعنى التجاوز على أنها ظرف مستقر وقع حالا من ضمير المخاطبين ، والعامل ما دل عليه شهداءكم ، أى ادعوا أصنامكم الذين اتخذتموهم آلهة متجاوزين الله تعالى في اتخاذها ، كذلك وكلمة من ابتدائية فإن الاتخاذ ابتداء من التجاوز ، والتعبير عن الأصنام بالشهداء لتعيين مدار الاستظهار بها بتذكير ما زعموا من أنها بمكان من الله تعالى وأنها تنفعهم بشهادتها لهم أنهم على الحق ، فإن ما هذا شأنه يجب أن يكون ملاذا لهم في كل أمر مهم ، وملجأ يأوون إليه في كل خطب لم ، كأنه قيل : أولئك عدتكم فادعوهم لهذه الداهية التى دهمتكم ، فوجه الالتفات الإيدان بكال سخافة عقولهم حيث آثروا على عبادة من له الألوهية الجامعة لجميع صفات الكمال عبادة ما لا أحقر منه .

وقيل لفظة دون مستعارة من معناها الوضعى الذى هو أذى مكان من شيء لقدامه ، كما في قول الأعشى :

• تريك القذى من دونها وهى دونه •

أى تريك القذى قدامها وهى قدام القذى ، فتكون ظرفا لغويا معمولا لشهداءكم لكفاية راحة الفعل فيه ، من غير حاجة إلى اعتاد ولا إلى تقدير

يشهدون ، أى أدعوا شهداء كم الذين يشهدون لكم بين يدي الله تعالى ليدينوكم في المعارضة ، وإيرادها بهذا العنوان لما مر من الإشعار بمناط الاستعانة بها ، ووجه الالتفات تربية المهابة وترشيح ذلك المعنى فإن ما يقوم بهذا الأمر في ذلك المقام الخطير حقه أن يستعان به في كل مرام ، وفي أمرهم على الوجهين بأن يستظهروا في معارضة القرآن الذى أخرج كل منطق بالجماد من التمسك بهم ما لا يوصف ، وكلمة من ههنا تبعية ، لما أنهم يقولون جلس بين يديه وخلفه بمعنى فى لأنهما طرفان للفعل ومن بين يديه ومن خلفه لأن الفعل إنما يقع فى بعض تينك الجهتين كما تقول جثته من الليل تريد بعض الليل .

وقد يقال كلمة من الداخلة على دون فى جميع المواقع بمعنى فى كما فى سائر الظروف التى لاتنصرف ، وتكون منصوبة على الظرفية أبدا ، ولا تنجر إلا بمن خاصة ، وقيل المراد بالشهداء مداره القوم ووجوه المحافل والمحاضر ، ودون ظرف مستقر ومن ابتدائية أى ادعوا الذين يشهدون لكم أن ما أنتم به مثله متجاوزين فى ذلك أولياء الله ، ومحصله شهداء مغايرين لهم إيدانا بأنهم أيضا لا يشهدون بذلك ، وإنما قدر المضاف إلى الله تعالى رعاية للمقابلة ، فإن أولياء الله تعالى يقابلون أولياء الأصنام ، كما أن ذكر الله تعالى يقابل ذكر الأصنام ، والمقصود بهذا الأمر إرخاء العنان والاستدراج إلى غاية التبكيك ، كأنه قيل تركنا لإلزامكم بشهداء لا ميل لهم إلى أحد الجانبين كما هو المعتاد ، واكتفينا بشهداءكم المعروفين بالذنب عنكم ، فإنهم أيضا لا يشهدون لكم حذرا من الائمة^(١) وأنفة من الشهادة المينة البطلان .

كيف لا وأمر الإعجاز قد بلغ من الظهور إلى حيث لم يبق إلى إنكاره سبيل قطعا ، وفيه ما مر من عدم الملائمة لابتداء التحدى وعدم تناوله لأولئك الشهداء ، وإيهام أنهم تعرضوا للمعارضة وأتوا بشيء احتاجوا فى إثبات مثلته للمتحدى به إلى الشهادة ، وشتان بينهم وبين ذلك (إن كنتم صادقين) أى فى زعمكم أنه من كلامه عليه السلام . وهو شرط حذف جوابه لدلالة ما سبق

عليه ، أى إن كنتم صادقين فأتوا بسورة من مثله إلخ ، واستلزام المقدم للتالى من حيث أن صدقهم فى ذلك الزعم يستدعى قدرتهم على الإتيان بمثله بقضية مشاركتهم له عليه السلام فى البشرية والعربية ، مع ما بهم من طول الممارسة للخطب والأشعار وكثرة المزاولة لأساليب النظم والنثر ، والمبالغة فى حفظ الوقائع والأيام ، لا سيما عند المظاهرة والتعاون ولا ريب فى أن القدرة على الشيء من موجبات الإتيان به ودواعى الأمر به .

(فإن لم تفعلوا) أى ما أمرتم به من الإتيان بالمثل بعد ما بذلتم فى السعى غاية المجهود ، وجاوزتم فى الجدل كل حد معهود ، متشبثين بالذيول ، راكبين متن كل صعب وذلول ، وإنما لم يصرح به إيدانا بعدم الحاجة إليه ، بناء على كمال ظهور تمالكهم على ذلك ، وإنما أورد فى حيز الشرط مطلق الفعل وجعل مصدر المأمور به مفعولاً له للإيجاز البديع المغنى عن التطويل والتكرير ، مع سرسرى استقل به المقام وهو الإيدان بأن المقصود بالتسكليف هو إيقاع نفس الفعل المأمور به ، لإظهار عجزهم عنه لا لتحصيل المفعول أى المآتى به ضرورة استحالتهم ، وأن مناط الجواب فى الشرطية أعنى الأمر باتقاء النار هو عجزهم عن إيقاعه لا فوت حصول المفعول فإن مدلول لفظ هو أنفس الأفعال الخاصة لازمة كانت أو متعدية من غير اعتبار تعلقاتها بمفعولاتها الخاصة ، فإذا علق بفعل خاص متعدد فإنما يقصد به إيقاع نفس ذلك الفعل وإخراجه من القوة إلى الفعل ، وأما تعلقه بمفعوله المخصوص فهو خارج عن مدلول الفعل المطلق وإنما يستفاد ذلك من الفعل الخاص ، ولذلك تراهم يتوسلون بذلك إلى تجريد الأفعال المتعدية عن مفعولاتها وتنزيلها منزلة الأفعال اللازمة ، فيقولون مثلاً ، معنى فلان يعطى ويمنع يفعل الإعطاء ، والمنع ، يرشدك إلى هذا قوله تعالى (فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون) بعد قوله تعالى (أئتوني بأخ لكم من أبيكم) فإنه لما كان مقصود يوسف عليه السلام بالأمر ومرحى غرضه بالتسكليف منه استحضار بنيامين لم يكتف فى الشرطية الداعية لهم إلى الجدل فى الامتثال ، والسعى فى تحقيق المأمور به بالإشارة الإجمالية إلى الفعل الذى ورد

به الأمر بأن يقول : فإن لم تفعلوا ، بل أعاده بعينه متعلقاً بمفعوله تحقيقاً لمطلبه وإعراباً عن مقصده .

هذا وقد قيل أطلق الفعل وأريد به الإتيان مع ما يتعلق به إما على طريقة التعبير عن الأسماء الظاهرة بالضمائر الراجعة إليها حذراً من التكرار ، أو على طريقة ذكر اللازم وإرادة الملزوم ، لما بينهما من التلازم المصحح للانتقال بمعونة قرأتين الحال فتدبر ، وإيثار كلمة إن المفيدة للشك على إذا مع تحقق الجزم بعدم فعلهم بحجارة معهم بحسب حسابهم قبل التجربة أو تهكم بهم .

﴿ولن تفعلوا﴾ كلمة لن لنفي المستقبل كلا ، خلا أن في لن زيادة تأكيد وتشديد ، وأصلها عند الخليل (لا أن) وعند الفراء (لا) أبدلت ألفها نونا ، وعند سيديه حرف مقتضب للمعنى المذكور ، وهي إحدى الروايتين عن الخليل والجملة اعتراض بين جزأى الشرطية مقرر لمضمون مقدمها ، ومؤكدة لإيجاب العمل بتأليها ، وهذه معجزة باهرة حيث أخبر بالغيب الخاص عليه به عز وجل وقد وقع الأمر كذلك ، كيف لا ولو عارضوه بشيء يدانيه في الجملة لتناقله الرواة خلفاً عن سلف .

﴿فاتقوا النار﴾ جواب للشرط على أن اتقاء النار كناية عن الاحتراز من العناد ، إذ بذلك يتحقق تسببه عنه وترتبه عليه ، كأنه قيل : فإذا عجزتم عن الإتيان بمثله كما هو المقرر فاحترزوا من إنكار كونه منزلاً من عند الله سبحانه فإنه مستوجب للعقاب بالنار ، لكن أوثر عليه الكناية المذكورة المبينة على تصوير العناد بصورة النار وجعل الاتصاف به عين الملازمة بها للبه العنة في تهويل شأنه ، وتفطيش أمره . وإظهار كمال العناية بتحذير المخاطبين منه ، وتنفيرهم عنه ، وحثهم على الجِد في تحقيق المكثبي عنه ، وفيه من الإيجاز البديع ما لا يخفى ، حيث كان الأصل ، فإن لم تفعلوا فقد صح صدقه عندكم ، وإذا صح ذلك كان لزومكم العناد وترككم الإيمان به سبباً لاستحقاقكم العقاب بالنار ، فاحترزوا منه واتقوا النار (التي وقودها الناس والحجارة) صفة للنار مورثة لها زيادة هول وفضاعة أعادنا الله من ذلك ، والوقود ما توقد به النار وترفع من الخطب .

وقرىء بضم الواو وهو مصدر وسمى به المفعول مبالغة كما يقال فلان نثر قومه وزين بلده ، والمعنى أنها من الشدة بحيث لا تمس شيئاً من رطب أو يابس إلا أحرقتة ، لا كمنيران الدنيا تفتقر في الالتهاب إلى وقود من حطب أو حشيش وإنما جعل هذا الوصف صلة للموصول مقتضية لكون انتسابها إلى ما نسبت هي إليه معلوماً للمخاطب بناء على أنهم سمعوه من أهل الكتاب قبل ذلك ، أو الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو سمعوا قبل هذه الآية المدنية قوله تعالى (ناراً وقودها الناس والحجارة) فأشير ههنا إلى ما سمعوه أولاً ، وكون سورة التحريم مدنية لا يستلزم كون جميع آياتها كذلك كما هو المشهور ، وأما أن الصفة أيضاً يجب أن تكون معلومة الانتساب إلى الموصوف عند المخاطب فالخطب فيه حين ، لما أن المخاطب هناك المؤمنون ، وظاهر أنهم سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمراد بالحجارة الأصنام ، وبالناس أنفسهم حسبما ورد في قوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) الآية .

(أعدت للكافرين) أى هيئت للذين كفروا بما نزلناه وجعلت عدة لعذابهم والمراد إما جنس الكفار والمخاطبون داخلون فيهم دخولا أولياً ، وإما هم خاصة ، ووضع الكافرين موضع ضميرهم لزمهم وتعليل الحكم بكفرهم وقرىء (أعدت) من العتاد بمعنى العدة ، وفيه دلالة على أن النار مخلوقة موجودة الآن ، والجملة استئناف لا محل لها من الإعراب مقررة لمضمون ما قبلها ، ومؤكدة لإيجاب العمل به ، ومبينة لمن أريد بالناس دافعة لاحتمال (١) العموم وقيل حال يا ضمير قد من النار ، لا من ضميرها في وقودها ، لما في ذلك من الفصل بينهما بالخبر ، وقيل صلة بعد صلة أو عطف على الصلة بترك العاطف .

بشارات المؤمنين

(وبشر الذين آمنوا) أى بأنه منزل من عند الله عز وجل ، وهو معطوف على الجملة السابقة لكن لا على أن المقصود عطف نفس الأمر حتى يطلب له مشاكل يصح عطفه عليه ، بل على أنه عطف قصة المؤمنين بالقرآن ووصف

(١) في ١١ : لإضمار العموم

ثوابهم ، على قصة الكافرين به وكيفية عقابهم ، جريا على السنة الإلهية من شفع الترغيب بالترهيب ، والوعد بالوعيد ، وكان تغيير السبك لتخييل كمال التباين بين حالى الفريقين ، وقرىء وبشر على صيغة الفعل مبنيا للمفعول عطفًا على أعدت ، فيكون استئنافا وتعاقب التبشير بالموصول للإشعار بأنه معلل بما فى حيز الصلة من الإيمان والعمل الصالح ، لكن لا لذاتهما ، فإنهما لا يكافئان النعم السابقة فضلا من أن يقتضيا ثوابا فيما يستقبل ، بل يجعل الشارع ، ومقتضى وعده وجعل صلته فعلا مفيدا للحدث بعد إيراد الكفار بصيغة الفاعل لحث المخاطبين بالالتقاء على إحداث الإيمان ، وتحذيرهم من الاستمرار على الكفر ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل لكل من يتأتى منه التبشير ، كما فى قوله عليه السلام : «بشر المشائين إلى المساجد فى ظلم الليالى بالنور التام يوم القيامة ، فإنه عليه السلام لم يأمر بذلك واحدا بعينه بل كل أحد ممن يتأتى منه ذلك ، وفيه رمز إلى أن الأمر لعظمه ونظامه شأنه تحقيق بأن يتولى التبشير به كل من يقدر عليه ، والبشارة الخبر السار الذى يظهر به أثر السرور فى البشارة ، وتباشير الصبح أوائل ضوته ﴿وعملوا الصالحات﴾ الصالحة كالحسنة فى الجريان مجرى الاسم ، وهى كل ما استقام من الأعمال بدليل العقل والنقل واللام للجنس ، والجمع لإفادة أن المراد بها جملة من الأعمال الصالحة التى أشير إلى أمهاتها فى مطلع السورة الكريمة ، وطائفة منها متفاوتة حسب تفاوت حال المكلفين فى مواجب التكليف ، وفى عطف العمل على الإيمان دلالة على تغايرهما وإشعار بأن مدار استحقاق البشارة بمجموع الأمرين ، فإن الإيمان أساس والعمل الصالح كالبناء عليه ولا غناء بأس لا بناء به .

﴿أن لهم جنات﴾ منصوب بنزع الخافض وإفضاء الفعل إليه ، أو مجرور بإضماره مثل : «الله لأفعلن ، والجنة هى المرة من مصدر جنه إذا ستره ، تطلق على النخل والشجر المتكاثف المظل بالتفاف أغصانه قال زهير :

كأن عيني فى غربى مقتلة من النواضح تسقى جنة سحقا

أى نخلا طوالا كأنها لفرط تكاثفها والتفافها وتغطيتها لما تحتها بالمرة نفس

السترة وعلى الأرض ذات الشجر ، قال الفراء الجنة ما فيه النخيل ، والفردوس ما فيه الكرم ، فحق المصدر حينئذ أن يكون مأخوذاً من الفعل المبني للمفعول وإنما سميت دار الثواب بها مع أن فيها ما لا يوصف من الغرفات والقصور لما أنها مناط نعيمها ، ومعظم ملاذها ، وجمعها مع التنكير لأنها سمع على ما ذكره ابن عباس رضى الله عنهما : جنة الفردوس ، وجنة عدن ، وجنة النعيم ، ودار الخلد ، وجنة المأوى ، ودار السلام ، وعليون . وفي كل واحدة منها مراتب ودرجات متفاوتة بحسب تفاوت الأعمال وأصحابها .

﴿ تجرى من تحتها الأنهار ﴾ في حين النصب على أنه صفة جنات . فإن أريد بها الأشجار فجريان الأنهار من تحتها ظاهر ، وإن أريد بها الأرض المشتملة عليها فلا بد من تقدير مضاف أى من تحت أشجارها وإن أريد بها مجموع الأرض والأشجار فاعتبار التحتية بالنظر إلى الجزء الظاهر المصحح لإطلاق اسم الجنة على الكل .

عن مسروق أن أنهار الجنة تجرى في غير أ الحدود ، واللام في الأنهار للجنس ، كما في قولك : لفلان بستان فيه الماء الجارى والتين والعنب ، أو عوض عن المضاف إليه كما في قوله تعالى (واشتعل الرأس شيباً) أو للعهد والإشارة إلى ما ذكر في قوله عز وعلا : (أنهار من ماء غير آسن) الآية . والنهر بفتح الهاء وسكونها الجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر كالنيل والفرات ، والتركيب للسعة والمراد بها ماؤها على الإضمار أو على المجاز اللغوى ، أو الجارى أنفسها ، وقد أسند إليها الجريان مجازاً عقلياً كما في سأل الميزاب .

﴿ كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا ﴾ صفة أخرى لجنات أخرت عن الأولى لأن جريان الأنهار من تحتها وصف لها باعتبار ذاتها ، وهذا وصف لها باعتبار أهلها المنتعمين بها ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو جملة مستأنفة ، كأنه حين وصفت الجنات بما ذكر من الصفة وقع في ذهن السامع أثمارها كثمار جنات الدنيا أولاً ، فبين حالها ، و (كلما) نصب على الظرفية ، ورزقا مفعول به ، ومن الأولى والثانية للابتداء واقعتان موقع

الحال ، كدأه قيل كل وقت رزقوا رزوقا مبتدأ من الجنات مبتدأ من ثمرة على أن الرزق مقيد بكونه مبتدأ من الجنات ، وابتدأؤه منها مقيد بكونه مبتدأ من ثمرة ، فصاحب الحال الأولى رزقا ، وصاحب الثانية ضميره المستكن في الحال ، ويجوز كون من ثمرة بيانا قدم على المبين كما في قولك رأيت منك أسدا ، وهذا إشارة إلى ما رزقوا ، وإن وقعت على فرد معين منه كقولك مشيراً إلى نهر جار هذا الماء لا ينقطع ، فإنك إن أشرت إلى ما تعابته بحسب الظاهر لكنتك إنما تعنى بذلك النوع المعلوم المستمر ، فالمعنى هذا مثل الذى رزقناه من قبل ، أى من قبل هذا في الدنيا ، ولكن لما استحکم الشبه بينهما جعل ذاته ذاته ، وإنما جعل ثمر الجنة كثمار الدنيا لتميل النفس إليه حين تراه ، فإن الطبايع مائلة إلى المألوف متنفرة عن غير معروف ، وليتبين لها مزيتها وكنهه النعمة فيه إذ لو كان جنسا غير معروف لظن أنه لا يكون إلا كذلك أو مثل الذى رزقناه من قبل في الجنة لأن طعامها متشابه الصور كما يحكى عن الحسن رضى الله عنه أن أحدهم يؤتى فياً كل منها ثم يؤتى بأخرى فبها مثل الأولى فيقول ذلك ، فيقول الملك كل فاللون واحد والطعم مختلف ، أو كما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : (والذى نفسى بيده إن الرجل من أهل الجنة ليتناول الثمرة لياً كلها فما هى وأصلة إلى فيه حتى يبدل الله تعالى مكانها مثلها) والأول أنسب لمحافظة عموم كليها ، فإنه يدل على ترديدهم هذه المقالة كل مرة رزقوا لا فيما عدا المرة الأولى يظهر بذلك التبجح ، وفرط الاستغراب لما بينهما من التفاوت العظيم من حيث اللذة مع اتحادهما في الشكل واللون ، كأنهم قالوا هذا عين ما رزقناه في الدنيا فمن أين له هذه الرتبة من اللذة والطيب .

ولا يقدح فيه ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما من أنه ليس في الجنة من أطعمة الدنيا إلا الاسم ، فإن ذلك لبيان كمال التفاوت بينهما من حيث اللذة والحسن والهيئة لا لبيان الألتشابه بينهما أصلاً ، كيف لا وإطلاق الأسماء منوط بالاتحاد النوعى قطعاً ، هذا وقد فسرت الآية الكريمة بأن

مستلذات أهل الجنة بمقابلة ما رزقوه في الدنيا من المعارف والطاعات متفاوتة الحال ، فيجوز أن يريدوا هذا ثواب الذي رزقناه في الدنيا من الطاعات ، ولا يساعده تخصيص ذلك بالثمرات ، فإن الجنة وما فيها من فنون الكرامات من قبيل الثواب .

﴿ وأتوا به متشابهاً ﴾ اعتراض مقرر لما والضمير المجرور على الأول راجع إلى ما دل عليه نحوى الكلام بما رزقوا في الدارين كما في قوله تعالى : (إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما) أى بجنسى الغنى والفقير ، وعلى الثانى إلى الرزق ﴿ ولهم فيها أزواج مطهرة ﴾ أى بما فى نساء الدنيا من الأحوال المستقدرة كالحيض والدرن وذنس الطبع وسوء الخلق ، فإن التطهر يستعمل فى الأجسام والأخلاق والأفعال ، وقرىء مطهرات ، وهما لغتان فصيحتان يقال النساء فعلت وفعلن وهن فاعلة وفواعل قال :

وإذا العذارى بالدخان تقنعت واستعملت نصب القدور فملت

فالجمع على اللفظ ، والإفراد على تأويل الجماعة ، وقرىء (مطهرة) بتشديد الطاء وكسر الهاء بمعنى متطهرة ومطهرة أبلغ من طاهرة ومتطهرة للإشعار بأن مطهراً طهرهن ، وما هو إلا الله سبحانه وتعالى . وأما التطهر فيحتمل أن يكون من قبل أنفسهن كما عند اغتسالهن والزوج يطلق على الذكر والأنثى ، وهو فى الأصل اسم لماله قرين من جنسه ، وليس فى مفهومه اعتبار التوالد الذى هو مدار بقاء النوع حتى لا يصح إطلاقه على أزواج أهل الجنة لخلودهم فيها ، واستغنائهم عن الأولاد ، كما أن المدارية لبقاء الفرد ليست بمعتبرة فى مفهوم اسم الرزق حتى يحل ذلك بإطلاقه على ثمار الجنة .

﴿ وهم فيها خالدون ﴾ أى دائمون والخلود فى الأصل الثبات المديد دام أو لم يدم ، ولذلك قيل للأثافي والأحجار الخوالد وللجزء الذى يبقى من الإنسان على حاله خالد ، ولو كان وضعه للدوام لما قيد بالتأييد فى قوله عز وعلا (خالدين فيها أبداً) ولما استعمل حيث لا دوام فيه لكن المراد ههنا الدوام

قطعا لما يفضى به من الآيات والسنن ، وما قيل من أن الأبدان مؤلفة من الأجزاء المتضادة في الكيفية معرضة للاستحالات المؤدية إلى الانحلال. والانفكاك مداره قياس ذلك العالم الكامل بما يشاهد في عالم الكون والفساد على أنه يجوز أن يعيدها الخالق تعالى بحيث لا يعتمورها الاستحالة ، ولا يعترتها الانحلال قطعا ، بأن تجعل أجزاؤها متفاوتة في الكيفيات متعادلة في القوى ، بحيث لا يقوى شيء منها عند التفاعل على إحالة الآخر ، متعاقبة متلازمة لا ينفك بعضها عن بعض ، وتبقى هذه النسبة متحفظة فيما بينها أبدا لا يعترتها التغير بالأكل والشرب والحركات وغير ذلك .

واعلم أن معظم اللذات الحسية لما كان مقصوراً على المساكن والمطاعم والمناكح حسبما يقضى به الاستقراء ، وكان ملاك جميع ذلك الدوام والثبات إذ كل نعمة وإن جلت حيث كانت في شرف الزوال ومعرض الاضمحلال فإنها منغصة غير صافية من شوائب الألم بشر المؤمنين بها وبدوامها تكميلاً للبهجة والسرور ، اللهم وفقنا لمراضيك ، وثبتنا على ما يؤدي إليها من العقد والعمل .

دفع شبهات عن القرآن الكريم

﴿ إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة ﴾ شروع في تنزيه ساحة التنزيل عن تعلق ريب خاص اعتراهم من جهة ما وقع فيه من ضرب الأمثال وبيان لحكمته ، وتحقيق للحق لإثر تنزيهها عما اعتراهم من مطلق الريب بالتحدي ، وإلحاق الحجر ، وإفحام كافة البلغاء من أهل المدر والوبر روى أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المنافقين طعنوا في ضرب الأمثال بالنار والظلمات والرعد والبرق ، وقالوا : الله أجل وأعلى من ضرب الأمثال . وروى عطاء رضي الله عنه أن هذا الطعن كان من المشركين .

وروى عنه أيضاً أنه لما نزل قوله تعالى : (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له) الآية ، وقوله تعالى : (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء) الآية ، قالت اليهود : أى قدر للذباب والعنكبوت حتى يضرب الله تعالى بهما وجعلوا ذلك ذريعة إلى إنكار كونه من عند الله تعالى ، مع

أنه لا يخفى على أحد من له تمييز أنه ليس بما يتصور فيه التردد فضلا عن التكبير ، بل هو من أوضح أدلة كونه خارجا عن طوق البشر ، نازلا من عند خلاق القوى والقدر ، كيف لا وإن التمثيل كما مر ليس إلا إبرازا للبعنى المقصود في معرض الأمر المشهود ، وتحلية المعقول بحلية المحسوس ، وتصوير أوابد المعاني بهيئة المأفوس ، لاستئالة الوهم واستنزاله عن معارضته للعقل واستمصائه عليه في إدراك الحقائق الخفية ، وفهم الدقائق الآبية ، كي يتابعه فيما يقتضيه ويشايعة إلى ما يرتضيه ، ولذلك شاعت الأمثال في السكتب الإلهية والسكلمات النبوية وذاعت في عبارات البلغاء وإشارات الحكماء ، ومن قضية وجوب التماثل بين الممثل والممثل به في مناط التمثيل تمثيل العظيم بالعظيم ، والحقير بالحقير ، وقد مثل في الإنجيل غل الصدر بالنخالة ، ومعارضة السفهاء بإثارة الزنابير ، وجاء في عبارات البلغاء : أجمع من ذره ، وأجرأ من الذباب ، وأسمع من قراد ، وأضعف من بعوضة ، إلى غير ذلك مما لا يكاد يحصر .

والحياء تغير النفس وانقباضها عما يعاب به أو يذم عليه ، يقال حيي ، الرجل وهو حيي ، واشتقاقه من الحياة اشتقاق شطى وحشى ونسى من الشطى والنسى والحشى ، يقال شطى الفرس ونسى وحشى إذا اعتلت منه تلك الأعضاء كأن من يعتريه الحياء تعتل قوته الحيوانية وتنتقص ، واشتكى بمعناه خلا أنه يتعدى بنفسه وبحرف الجر ، يقال : استحيته واستحييت منه ، والأول لا يتعدى إلا بحرف الجر ، وقد يحذف منه لإحدى اليامين . ومنه قوله :

ألا يستحي منا الملوك ويتقى محارمنا لا ييؤم الدم بالدم
وقوله :

إذا ما استحين الماء يعرض نفسه كرعن بسبت في إناء من الورد
فكما أنه إذا أسند إليه سبحانه بطريق الإيجاب في مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يستحي من ذى الشبهة المسلم أن يعذبه ، وقوله عليه السلام : « إن الله حيي كريم يستحي إذا رفع إليه العبد يديه أن يردهما صفرا حتى يضع فيهما خيرا » ، يراد به الترك الخاص على طريقة التمثيل حيث مثل في الحديثين

الكريمين تركه تعذيب ذى الشبية ، وتخيب العبد من عطائه بترك من يتركهما حياء ، كذلك إذا نبي عنه تعالى في المواد الخاصة كما في هذه الآية الشريفة ، وفي قوله تعالى : (واقه لا يستحي من الحق) يراد به سلب ذلك الترك الخاص المضاهى لترك المستحي عنه ، لا سلب وصف الحياء عنه تعالى رأسا ، كما في قولك إن الله لا يوصف بالحياء : لأن تخصيص السلب ببعض المواد يوهم كون الإيجاب من شأنه تعالى في الجملة ، فالمراد ههنا عدم ترك ضرب المثل المماثل لترك من يستحي من ضربه ، وفيه رمز إلى تعاضد الدواعي إلى ضربه وتأخذ البواعث إليه ، إذ الاستحياء إنما يتصور في الأفعال المقبولة للنفس ، المرضية عندها ، ويجوز أن يكون وروده على طريقة المشاكلة ، فإنهم كانوا يقولون ، أما يستحي رب محمد أن يضرب مثلا بالأشياء المحقرة كما في قول من قال :

من مبلغ أفناء يعرب كلها أنى بنيت الجار قبل المنزل

وضرب المثل استعماله في مضربه وتطبيقه به لاصنمته^(١) وإنشاؤه في نفسه وإلا لكان لإنشاء الأمثال السائرة في موارد ضربها لها دون استعمالها بعد ذلك في مضاربها ، لفقدان الإنشاء هناك . والأمثال الواردة في التنزيل وإن كان استعمالها في مضاربها عين لإنشائها في أنفسها ، لكن التعبير عنه بالضرب ليس بهذا الاعتبار ، بل بالاعتبار الأول قطعا ، وهو مأخوذ إما من ضرب الخاتم بجامع التطبيق ، فكما أن ضربه تطبيقه بقالبه ، كذلك استعمال الأمثال في مضاربها تطبيقها بها ، كأن المضارب قوالب تضرب الأمثال على شاكلتها ، لكن لا بمعنى أنها تنشأ بحسبها بعد أن لم تكن كذلك ، بل بمعنى أنها تورد منطبقه عليها سواء كان لإنشاؤها حينئذ كعامية الأمثال التنزيلية ، فإن مضاربها قوالبها ، أو قبل ذلك كسائر الأمثال السائرة ، فإنها وإن كانت مصنوعة من قبل إلا أن تطبيقها أى إيرادها منطبقه على مضاربها إنما يحصل عند الضرب ، وإما من ضرب الطين على الجدار ليلتزق به بجامع الإصاق ، كأن من يستعملها يلصقها بمضاربها ويجعلها ضربة لازب^(٢) لا تنفك عنها لشددة تعلقها بها .

(١) في ٤٦٥ : لا صنمته

(٢) في ١١ : لازمة

ومحل أن يضرب على تقدير تعدية يستحي بنفسه النصب على المفعولية ،
 وأما على تقدير تعديته بالجار فعند الخليل الخفض بإضمار من ، وعند سيبويه
 النصب بإفشاء الفعل إليه بعد حذفها ، ومثلاً مفعول ليضرب ، وما لاسمية لإبهامية
 تزيد ما تقارنه من الاسم المنكر لإبهاما وشياعا ، كما في قولك أعطاني كتابا ما ،
 كأنه قيل مثلاً ما من الأمثال ، أى مثل كان . فهى صفة لما قبلها ، أو حرفية
 مزيدة لتقوية النسبة وتوكيدها كما في قوله تعالى : (فبما رحمة من الله) وبعوضة
 بدل من مثلاً أو عطف بيان عند من يجوزه في النكرات ، أو مفعول ليضرب
 ومثلاً حال تقدمت عليها لكونها نكرة ، أوهما مفعولاه لتضمنته معنى الجمل
 والتصيير ، وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هو بعوضة .

والجملة على تقدير كون ما موصولة صلة لها محذوفة المصدر كما في
 قوله تعالى : (تماماً على الذى أحسن) على قرأة الرفع ، وعلى تقدير كونها
 موصوفة لها كذلك ، ومحل ما ، على الوجهين النصب على أنه بدل من مثلاً ،
 أو على أنه مفعول ليضرب ، وعلى تقدير كونها لإبهامية صفة لمثلاً كذلك ،
 وأما على تقدير كونها استفهامية فهى خبر لها ، كأنه لما رد استبعادهم
 ضرب المثل قيل : ما بعوضة ، وأى مانع فيها حتى لا يضرب بها المثل ، بل
 له تعالى أن يمثل بما هو أصغر منها وأحقر كجناحها على ما وقع في قوله
 صلى الله عليه وسلم : ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر
 منها شربة ماء ، والبعوض فعول من البعض وهو القطع كالبضع والعضب
 غلب على هذا النوع كالخوش في لغة هذيل من الخش وهو الخدش .

(فما فوقها) عطف على بعوضة على تقدير نصبها على الوجوه المذكورة
 وما موصولة أو موصوفة صلتها أو صفتها الظرف وأما على تقدير رفعها
 فهو عطف على ما الأولى على تقدير كونها موصولة أو موصوفة ، وأما على
 تقدير كونها استفهامية فهو عطف على خبرها أعني بعوضة لا على نفسها كما
 قيل ، والمعنى ما بعوضة فالذى فوقها أو فشىء فوقها ، حتى لا يضرب بها المثل ،
 وكذا على تقدير كونها صفة للنكرة أو زائدة ، وبعوضة خبر للمضمر ،

وذكر البعوضة فما فوقها من بين أفراد المثل إنما هو بطريق التمثيل دون التعمين والتخصيص ، فلا يخل بالشيوع بل يقرره ويؤكد بطريق الأولوية والمراد بالفوقية إما الزيادة في المعنى الذي أريد بالتمثيل أعنى الصغر والحقارة . وإما الزيادة في الحجم والجثة لكن لا بالغا ، بل في الجملة كالذباب والعنكبوت . وعلى التقدير الأول يجوز أن تكون ما الثانية خاصة استفهامية إنكارية والمعنى : إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فأى شيء فوقها في الصغر والحقارة ، فإذا ناله تعالى أن يمثل بكل ما يريد ، ونظيره في احتمال الأمرين ما روى أن رجلا بمنى خر على طنب فسقاط فقالت هائشة رضى الله عنها حين ذكر لها ذلك : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة » فإنه يحتمل ما يجاوز الشوكة في القلة كمنخبة النملة بقوله عليه السلام : « ما أصاب المؤمن من مكروه فهو كنفارة لخطاياها حتى نخبه النملة » وما تجاوزها من الألم كأمثال ما حكى من الحرور .

حكمة ضرب المثل في القرآن

﴿ فأما الذين آمنوا ﴾ شروع في تفصيل ما يترتب على ضرب المثل من الحكم لإثر تحقيق حقيقة صدوره عنه تعالى . والفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما يدل عليه ما قبلها ، كأنه قيل : فيضربه فأما الذين الخ ، وتقديم بيان حال المؤمنين على ما حكى من الكفرة بما لا يفتقر إلى بيان السبب ، وفي تصدير الجملتين إياها من إحماد أمر المؤمنين وذم الكفرة ما لا يخفى ، وهو حرف متضمن لمعنى الشرط وفعله بمنزلة مهما يكن من شيء ، ولذلك يجاب بالفاء وفائدته توكيد ما صدر به وتفصيل ما في نفس المتكلم من الأقسام ، فقد تذكر جميعا وقد يقتصر على واحد منها ، كما في قوله عز من قائل (١) ، فأما الذين في قلوبهم زيغ الخ قال سيبيويه أما زيد معناه مهما يكن من شيء

(١) في ١١ : عز قائل

فهو ذاهب لا محالة ، وأنه منه عزيمة ، وكان الأصل دخول الفاء على الجملة لأنها الجزاء لكن كرهوا إيلاها حرف الشرط ، فأدخلوها الخبر وعوض المبتدأ عن الشرط لفظاً ، والمراد بالموصول فريق المؤمنين المعهودين كما أن المراد بالموصول الآتي فريق الكفرة لا من يؤمن بضرب المثل ، ومن يكفر به ، لاختلال المعنى أى فأما المؤمنين .

﴿ فيعلمون أنه الحق من ربهم ﴾ كسائر ما ورد منه تعالى والحق هو الثابت الذى يحق ثبوته لا محاله ، بحيث لا سبيل للعقل إلى إنكاره لا الثابت مطلقاً ، واللام للدلالة على أنه مشهود له بالحقيقة ، وأن له حكماً ومصالح ، ومن لا ابتداء الغاية المجازية ، وعاملها محذوف وقع حالا من الضمير المستكن فى الحق ، أو من الضمير العائد إلى المثل ، أو إلى ضربه ، أى كاتنا وصادراً من ربهم ، والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم لتشير يفهم ، وللايدان بأن ضرب المثل تربية لهم ، وإرشاد إلى ما يوصلهم إلى كما لهم الاتق بهم ، والجملة سادة مسد مفعولى يعلمون عند الجمهور ، ومسد مفعوله الأول والثانى محذوف عند الأخفش ، أى فيعلمون حقيقته ثابتة ، ولعل الاكتفاء بحكاية علمهم المذكور عن حكاية اعترافهم بموجبه كما فى قوله تعالى : (والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) للإشعار بقوة ما بينهما من التلازم وظهوره المغنى عن الذكر .

﴿ وأما الذين كفروا ﴾ بمن حكيت أقوالهم وأحوالهم ﴿ فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾ أوثر يقولون على لا يعلمون حسبما يقتضيه ظاهر قرينه دلالة على كمال غلوهم فى الكفر ، وترامى أمرهم فى العتو ، فإن مجرد عدم العلم بحقيقته ليس بمثابة إنكارها والاستهزاء به صريحاً وتمهيداً لتعداد مانع عليهم فى تضاعيف الجواب من الضلال والفسق ونقض العهد وغير ذلك من شنائعهم المترتبة على قولهم المذكور .

على أن عدم العلم بحقيقته لا يعم جميعهم ، فإن منهم من يعلم بها ، وإنما يقول ما يقول مكابرة وعناداً ، وحمله على عدم الإذعان والقبول الشامل للجهل والعناد

تعسف ظاهر . هذا وقد قيل كان من حقه وأما الذين كفروا فلا يعلمون ،
ليطابق قرينه ويقابل قسيمه ، لكن لما كان قولهم هذا دليلاً واضحاً على
جهلهم عدل إليه على سبيل الكناية ليسكون كالبرهان عليه ، فتأمل وكن على
الحق المبين ، و (ماذا) إما مؤلفة من كلمة استفهام وقعت مبتدأ خبره ذا
بمعنى الذى وصلته ما بعده والمائد محذوف ، فالأحسن أن يجيء جوابه
مرفوعاً ، وإما منزلة اسم واحد بمعنى أى شيء ، فالأحسن فى جوابه النصب
والإرادة نزوع النفس وميلها إلى الفعل بحيث يحملها إليه أو القوة التى هى مبدؤه ،
والأول مع الفعل ، والثانى قبله ، وكلاهما مما لا يتصور فى حقه تعالى ، ولذلك
اختلفوا فى إرادته عز وجل ، فقيل إرادته تعالى لأفعاله كونه غير ساه فيه ،
ولا مكره ، ولأفعال غيره أمره بها ، فلا تكون المعاصى بإرادته تعالى ، وقيل
هى علمه باشتغال الأمر على النظام الأكمل ، والوجه الأصح ، فإنه يدعو
القادر إلى تحصيله والحق عبارة عن ترجيح أحد طرفى المقذور على الآخر
وتخصيصه بوجه دون وجه أو معنى يوجبها ، وهى أعم من الاختيار ، فإنه
ترجيح مع تفضيل ، وفى كلمة (هذا) تحقير للمشار إليه واستبدال له^(١) ومثلاً نصب
على التمييز أو على الحال كما فى قوله تعالى : (ناقة الله لكم آية) وليس مرادهم
بهذه العظيمة استفهام الحكمة فى ضرب المثل ولا القدح فى اشتغاله على الفائدة
مع اعترافهم بصدوره عنه جل وعلا ، بل غرضهم التنبيه بادعاء أنه من الدناءة
والحقارة بحيث لا يليق بأن يتعلق به أمر من الأمور الداخلة تحت إرادته
تعالى ، على استحالة أن يكون ضرب المثل به من عنده سبحانه ، فقوله عز
من قائل (يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً) جواب عن تلك المقالة الباطلة ،
ورد لها بيان أنه مشتمل على حكمة جليمة وغاية جميلة هى كونه ذريعة إلى
هداية المستعدين للهداية ، وإضلال المنهمكين فى الغواية ، فوضع الفعلان
موضع الفعل الواقع فى الاستفهام مبالغة فى الدلالة على تحققهما ، فإن إرادتهما

(١) فى ٤٦٠ : واستبدال له

دون وقوعهما بالفعل وتجاوفاً عن نظم الإضلال مع الهداية في سلك الإرادة لإيهامه تساويهما في تعلقهما ، وليس كذلك ، فإن المراد بالذات من ضرب المثل هو التذكر والاهتداء كما ينبىء عنه قوله تعالى : (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) ونظائره .

وأما الإضلال فهو أمر عارض مترتب على سوء اختيارهم ، وأوثر صيغة الاستقبال لإيداناً بالتجدد والاستمرار ، وقيل . وضع الفعلان موضع مصدر كأنه قيل : أراد إضلال كثير وهداية كثير وقدم الإضلال على الهداية مع تقدم حال المهتمدين على حال الضالين فيما قبله ليكون أول ما يقرع أسعاهم من الجواب أمراً فظيماً يسوءهم ويفت في أعضادهم وهو السر في تخصيص هذه الفائدة بالذكر وقيل هو بيان للجملتين المصدرتين بأما وتسجيل بأن العلم بكونه حقاً هدى وأن الجهل بوجه إيراده والإنكار لحسن^(١) مورده ضلال وفسوق وكثرة كل فريق إنما هي بالنظر إلى أنفسها لا بالقياس إلى مقابلتهم فلا يقدح في ذلك أقلية أهل الهدى بالنسبة إلى أهل الضلال حسبما نطق به قوله تعالى : وقليل من عبادى الشكور . ونحو ذلك واعتبار كثرتهم الذاتية دون قلتهم الإضافية لتكميل فائدة ضرب المثل وتكثيرها ويجوز أن يراد فى الأولين الكثرة من حيث العدد وفى الآخرين من حيث الفضل والشرف كما فى قول من قال :

إن السكرام كثير فى البلاد وإن قلوا كما غيرهم قل وإن كثروا
وإسناد الإضلال^(٢) أى خلق الضلال إليه سبحانه مبنى على أن جميع الأشياء مخلوقة له تعالى وإن كان أفعال العباد من حيث الكسب مستندة إليهم وجعله من قبيل إسناد الفعل إلى سببه بأباه التصريح بالسبب وقرىء
يضل به كثير ويهدى به كثير على البناء للمفعول وتكرير به مع جواز الاكتفاء بالأول لزيادة تقرير السببية وتأكيدها ﴿وما يضل به﴾ أى بالمثل أو بضر به ﴿إلا الفاسقين﴾ عطف على ما قبله وتكملة للجواب والرد وزيادة

(١) فى ١١ : بحسب

(٢) فى ١١ : الضلال

تعيين لمن أريد إضلالهم ببيان صفاتهم القبيحة المستتعبة له وإشارة إلى أن ذلك ليس إضلالا ابتدائيا بل هو تثبيت على ما كانوا عليه من فنون الضلال وزيادة فيه وقرىء وما يضل به إلا الفاسقون على البناء للمفعول والفسق في اللغة الخروج يقال فسقت الرطبة عن قشرها والفأرة من جحرها أي خرجت قال رؤبة :

يذهب في نجد وغورا غائرا فواسقا عن قصدها جواررا
وفي الشريعة الخروج عن طاعة الله عز وجل بارتكاب الكبيرة التي من جملتها الإصرار على الصغيرة وله طبقات ثلاث الأولى التغابي وهو ارتكابها أحيانا مستقبحا لها والثانية الانهماك في تعاطيها والثالثة المتابعة عليها مع جحود قبحها وهذه الطبقة من مراتب الكفر فالمراتب الأولى لا يسلب عنه اسم المؤمن لاتصافه بالتصديق الذي عليه يدور الإيمان ولقوله تعالى (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) والمعزلة لما ذهبوا إلى أن الإيمان عبارة عن مجموع التصديق والإقرار والعمل والكفر عن تكذيب الحق وجحوده ، ولم يتسن لهم إدخال الفاسق في أحدهما فجعلوه قسما بين قسما المؤمن والكافر لمشاركته كل واحد منهما في بعض أحكامه . والمراد بالفاسقين ههنا العاتون الماردون في الكفر ، الخارجون عن حدوده بمن حكى عنهم ما حكى من إنكار كلام الله تعالى ، والاستهزاء به وتخصيص الإضلال بهم مترتبا على صفة الفسق وما أجرى عليهم من القبائح للإيدان بأن ذلك هو الذي أعدهم للإضلال وأدى بهم إلى الضلال فإن كفرهم وعدوهم عن الحق وإصرارهم على الباطل صرف وجوه أنظارهم عن التدبر في حكمة المثل إلى حقارة الممثل به حتى رسخت به جهالتهم وازدادت ضلالتهم فأنكروه وقالوا فيه ما قالوا .

صفات الفاسقين

﴿ الذين ينقضون عهد الله ﴾ صفة للفاسقين للذم وتقرير ما هم عليه من الفسق والنقض فسخ التوكيد من المركبات الحسية كالحبل والغزل ونحوهما ، واستعماله في إبطال العهد من حيث استعارة الحبل له لما فيه من ارتباط أحد

كلامي المتعاقدين^(١) بالآخر ، فإن شفع بالحبل وأريد به العهد كان ترشيحاً للمجاز ، وإن قرن بالعهد كان رمزاً إلى ما هو من روادفه وتنديها على مكانه ، وأن المذكور قد استعير له كما يقال شجاع يفترس أقرانه ، وعالم يغترف منه الناس تنديها على أنه أسد في شجاعته وبحر في إفاضته ، والعهد الموثق يقال عهد إليه كذا إذا وصاه به ووثقه عليه والمراد ههنا إما العهد المأخوذ بالفعل وهو الحجة القائمة على عباده الدالة على وجوده (تعالى)^(٢) ووحدته وصدق رسوله عليه السلام ، وبه أول قوله تعالى (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) أو المعنى الظاهر منه أو المأخوذ من جهة الرسل على الأمم بأنهم إذا بعث إليهم رسول مصدق بالمعجزات صدقوه واتبعوه ولم يكتموا أمره وذكره في السكتب المتقدمة ولم يخالفوا حكمه كما ينبغي عنه قوله عز وجل (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتُمونه) ونظائر ، وقيل عهد الله تعالى ثلاثة الأول ما أخذه على جميع ذرية آدم عليه السلام بأن يقرؤا به وبربوبيته^(٣) والثاني ما أخذه على الأنبياء عليهم السلام بأن يقيموا الدين ولا يفرقوا فيه والثالث ما أخذه على العلماء بأن يبينوا الحق ولا يكتُموه .

(من بعد ميثاقه) الميثاق إما اسم لما يقع به الوثيقة والإحكام ، وإما مصدر بمعنى الوثيقة كالميعاد بمعنى الوعد ، فعلى الأول إن رجع الضمير إلى العهد كان المراد بالميثاق ما وثقوه من القبول والالتزام وإن رجع إلى لفظ الجلالة يراد به آياته وكتبه وإنذار رسله عليهم السلام ، والمضاف مخذوف على الوجهين ، أى من بعد تحقق ميثاقه ، وعلى الثاني إن رجع الضمير إلى العهد والميثاق مصدر من المبني للفاعل فالمعنى من بعد أن وثقوه بالقبول والالتزام ، أو من بعد أن وثقه الله عز وجل بإنزال السكتب وإنذار الرسل ، وإن كان مصدراً من المبني للفعول فالمعنى من بعد كونه موثقاً إما بتوثيقهم إياه بالقبول وإما بتوثيقه تعالى إياه بإنزال السكتب وإنذار الرسل .

(١) في ط : المتعاقدين (٢) -قطت من ط . (٣) في ط : على ربوبيته .

﴿ ولا يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ يحتمل كل قطيعة لا يرضى بها الله سبحانه وتعالى كقطع الرحم وعدم موالاته المؤمنين والتفرقة بين الأنبياء عليهم السلام والكتب في التصديق ، وترك الجماعات المفروضة وسائر ما فيه رفض خير أو تعاطى شر ، فإنه يقطع ما بين الله تعالى وبين العبد من الوصلة التي هي المقصودة بالذات من كل وصل وفصل ، والأمر هو القول الطالب للفعل مع العلو ، وقيل بالاستعلاء ، وبه سمي الأمر الذي هو واحد الأمور تسمية للفعول بالمصدر ، فإنه بما يؤمر به كما يقال له شأن وهو القصد والطلب لما أنه أثر للشأن ، وكذا يقال له شيء وهو مصدر شاء لما أنه أثر للشئثة ، ومحل أن يوصل إما النصب على أنه بدل من الموصول أو من ضميره والثاني أولى لفظا ومعنى .

﴿ ويفسدون في الأرض ﴾ بالمنع عن الإيمان والاستهزاء بالحق وقطع الوصل التي عليها يدور فلك نظام العالم وصلاحه ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الفاسقين باعتبار اتصافهم بما فصل من الصفات القيحية ، وفيه إيدان بأنهم متميزون بها أكمل تميز ومنتظمون بسبب ذلك في سلك الأمور المحسوسة ، وما فيه من معنى البعد للدلالة على بعد منزلتهم في الفساد ﴿ هم الخاسرون ﴾ الذين خسروا بإهمال العقل عن النظر واقتناص ما يفيدهم الحياة الأبدية واستبدال الإنكار والظعن في الآيات بالإيمان بها والتأمل في حقائقها والاعتباس من أنوارها واشتراء النقض بالوفاء والفساد بالصلاح والقطيعة بالصلة والعقاب بالثواب .

﴿ كيف تكفرون بالله ﴾ التفات إلى خطاب المذكورين مبني على إيراد ما عد^(١) من قبائحهم السابقة لتزايد السخط الموحب للشافهة بالتوبيخ والتقريع والاستفهام إنكارى لا بمعنى إنكار الوقوع كما في قوله تعالى (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله) الخ بل المعنى إنكار الواقع واستبعاده والتعجيب منه ، وفيه من المبالغة ما ليس في توجيه الإنكار إلى نفس الكافر

(١) في ط : ما عده

بأن يقال أتكفرون ، لأن كل موجود يجب أن يكون وجوده على حال من الأحوال قطعاً فإذا انتفى جميع أحوال وجوده فقد انتفى وجوده على الطريق البرهاني ، وقوله عز وجل ﴿ وكنتم أمواتا ﴾ إلى آخر الآية حال من ضمير الخطاب في تكفرون مؤكدة للإنكار والاستبعاد بما عدد فيها من الشؤون العظيمة الداعية إلى الإيمان الرادعة من الكفر من حيث كونها نعمة عامة ومن حيث دلالتها على قدرة تامة كقوله تعالى (وقد خلقكم أطوارا) وكيف منصوبة على التشبيه بالظرف عند سيويوه ، وبالحال عند الأخفش ، أى فى أى حال أو على أى حال تكفرون به تعالى ، والحال أنكم كنتم أمواتا أى أجساما لحياء لها ، عناصر وأغذية ونظفا ومضغا مخلقة وغير مخلقة ، والأموات جمع ميت كأقوال جمع قيل ، وإطلاقها على تلك الأجسام باعتبار عدم الحياة مطلقا كما فى قوله تعالى (بلدة ميتا) وقوله تعالى (وآية لهم الأرض الميتة) ، ﴿ فأحياءكم ﴾ بفتح الأرواح فيكم ، والفاء للدلالة على التعقيب فإن الإحياء حاصل لماثر كونهم أمواتا وإن توارد عليهم فى تلك الحياة^(١) أطوار مترتبة بعضها مترسخ عن بعض كما أشير إليه آنفا ﴿ ثم يميتكم ﴾ أى عند انقضاء آجالكم ، وكون الإمامة من دلائل القدرة ظاهر ، وأما كونها من النعم فلكونها وسيلة إلى الحياة الثانية التى هى الحيوان والنعمة العظمى ، والتراخى المستفاد من كلمة ثم بالنسبة إلى زمان الإحياء دون زمان الحياة ، فإن زمان الإمامة غير مترسخ عنه ﴿ ثم يحييكم ﴾ بالنشور يوم ينفخ فى الصور أو للسؤال فى القبور ، وأيا ما كان فهو مترسخ من زمان الإمامة ، وإن كان لماثر زمان الموت المستمر ﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ بعد الحشر لا إلى غيره. فيجازيكم بأعمالكم إن خيرا خيرا وإن شرا فشر أو إليه تنشرون من قبوركم للحساب ، وهذه الأفعال وإن كان بعضها ماضيا وبعضها مستقبلا لا يتسنى مقارنة شئ منها لما هو حال منه فى الزمان ، لكن الحال فى الحقيقة هو العلم المتعلق بها كأنه قيل كيف تكفرون بالله وأنتم عالمون بهذه الأحوال الممانعة

(١) فى ط : أى الحالة

منه ، وما له التعجيب من وقوعه مع تحقق ما ينفيه ، وإنما نظم ما ينكرونه من الإحياء الأخير والرجع في سلك ما يعترفون به من الإحياء الأول والإماتة تنزيلاً لتمكينهم من العلم لما عاينوه من الدلائل القاطعة منزلة العلم بذلك بالفعل في إزاحة العلل والأعدار .

والحياة حقيقة في القوة الحساسة أو ما يقتضيها ، وبها سمى الحيوان حيواناً مجاز في القوة النامية لسكونها من طلائعها وكذا فيما يخص الإنسان من العقل والعلم والإيمان من حيث أنه كما لها وغايتها والموت بإزائها يطلق على ما يقابل كل مرتبة من تلك المراتب ؛ قال تعالى (قل الله يحييكم ثم يميتكم) وقال تعالى (اعلموا أن الله يحيي الأَرْضَ بعد موتها) وقال تعالى (أو من كان ميتاً فأحييناه ، وجعلنا له نورا يمشي به في الناس) وعند وصفه تعالى بها يراد صحة اتصافه تعالى بالعلم والقدرة اللازمة لهذه القوة فينا ، أو معنى قائم بذاته تعالى مقتض لذلك ، وقرىء ترجعون بفتح التاء والأول هو الأليق بالمقام .

﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ تقرير للإنكار وتأكيده له من الحياتين المذكورتين غير سبكه عن سبكه ما قبله مع اتحادهما في المقصود لإبانه لما بينهما من التفاوت ، فإن ما يتعلق بذواتهم من الإحياء والإماتة والحشر أدخل في الحث على الإيمان والسكف عن السكفر مما يتعلق بمعايشهم ، وما يجري مجراها ، وفي جعل الضمير مبتدأ والموصول خبراً من الدلالة على الجلالة ما لا يخفى ، وتقديم الظرف على المفعول الصريح لتعجيل المسرة ببيان كونه نافعاً للمخاطبين وللتشويق إليه كما سلف ، أي خلق لأجلكم جميع ما في الأرض من الموجودات لتنتفعوا بها في أمور دنياكم بالذات أو بالواسطة وأمر دينكم بالاستدلال بها على شؤون الصانع تعالى شأنه ، والاستشهاد بكل واحد منها على ما يلائمه من لذات الآخرة وآلامها وما يعم جميع ما في الأرض لأنفسها إلا أن يراد بها جهة السفلى كما يراد بالسماء جهة العلو ، نعم يعم كل جزء من أجزائها ، فإنه من جملة ما فيها ضرورة وجود الجزء في السلك ؛ وجميعاً حال من الموصول الثاني مؤكدة لما فيه من العموم ، فإن كل فرد من

أفراد ما في الأرض بل كل جزء من أجزاء العالم له مدخل في استمراره على ما هو عليه من النظام اللائق الذى عليه يدور انتظام مصالح الناس .
 أما من جهة المعاش فظاهر ، وأما من جهة الدين فلما أنه ليس في العالم شيء ، ما يتعلق به النظر وما لا يتعلق به إلا وهو دليل على القادر الحكيم جل جلاله كما مر في تفسير قوله تعالى (رب العالمين) وإن لم يستدل به أحد بالفعل .
 ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ أى قصد إليها بإرادته ومشيئته قصدا سويا بلا صارف يلويه ولا عاطف يثنيه من إرادة خلق شيء آخر في تضاعيف خلقها أو غير ذلك ، مأخوذ من قولهم : استوى إليه كالسهم المرسل ، وتخصيصه بالذكر ههنا إما لعدم تحققه في خلق السفليات ، لما روى من تخلل خلق السموات بين خلق الأرض ودحوها . عن الحسن رضى الله عنه : خلق الله تعالى الأرض في موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليها دخان يلتزق بها ، ثم أصدد الدخان وخلق منه السموات ، وأمسك الفهر في موضعها ، وبسط منها الأرضين . وذلك قوله تعالى (كانتا رتقا ففتقناهما) وإما لإظهار كمال العناية بإبداع العلويات ، وقيل : استوى : استولى وملك ، والأول هو الظاهر ، وكلمة ثم للإيدان بما فيه من المزية والفضل على خلق السفليات لا للتراخي الزماني ، فإن تقدمه على خلق ما في الأرض المتأخر عن دحوها بما لا مزية فيه لقوله تعالى (والأرض بعد ذلك دحاها) ولما روى عن الحسن ، والمراد بالسماء إما الأجرام العلوية فإن القصد إليها بالإرادة لا يستدعى سابقة الوجود وإما جهات العلو .

﴿ فسواهن ﴾ أى أتمن وقومن وخلقهن ابتداء مصونة عن العوج والفظور لا أنه تعالى سواهن بعد أن لم يكن كذلك ولا يخفى ما في مقارنة التسوية والاستواء من حسن الموقع ، وفيه إشارة إلى ألا تغير فيهن بالنو والذبول كما في السفليات ، والضمير على الوجه الأول للسماء لأنها^(١) في معنى الجنس ، وقيل هي جمع سماء أو سماوة ، وعلى الوجه الثاني مبهم يفسره قوله تعالى (سبع

(١) في ط : فإنها

سماوات ﴿ كما في قولهم : ربه رجلا ، وهو على الوجه الأول بدل من الضمير ، وتأخير ذكر هذا الصنيع البديع عن ذكر خلق ما في الأرض مع كونه أقوى منه في الدلالة على كمال القدرة القاهرة كما نبه عليه لما أن المنافع المنوطة بما في الأرض أكثر ، وتعلق مصالح الناس بذلك أظهر ، وإن كان في إبداع العلويات أيضا من المنافع الدينية والدنيوية ما لا يحصى هذا ما قالوا ، وسيأتي في حم السجدة من يد تحقيق وتفصيل بإذن الله تعالى .

﴿ وهو بكل شيء عليم ﴾ اعتراض تذييلي مقرر لما قبله من خلق السموات والأرض وما بينهما^(١) على هذا النمط البديع المنطوي على الحكم الفارقة والمصالح اللائقة ، فإن عليه عز وجل بجميع الأشياء ظاهرها وباطنها بارزها وكامنها وما يليق بكل واحد منها يستدعى أن يخلق كل ما يخلقه على الوجه الرائق ، وقرىء وهو بسكون الهاء تشبيها له بعضه .

﴿ وإذ قال ربك ﴾ بيان لأمر آخر من جنس الأمور المتقدمة المؤكدة للإنكار والاستبعاد فإن خلق آدم عليه السلام وما خصه به من الكرامات السننية المحكية من أجل النعم الداعية لذريته إلى الشكر والإيمان الناهية عن الكفر والعصيان وتقرير لمضمون ما قبله من قوله تعالى (خلق لسكم ما في الأرض جميعاً) وتوضيح لكيفية التصرف والانتفاع ، بما فيها وتلوين الخطاب بتوجيهه إلى النبي صلى الله عليه وسلم خاصة للإيدان بأن لحوى الكلام ليس بما يهتدى لإليه بأدلة العقل كالأمر المشاهدة التي نبه عليها الكفرة بطريق الخطاب ، بل إنما طريقه الوحي الخاص به عليه السلام ، وفي التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى السكالم مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام من الإنباء عن تشريفه عليه السلام ما لا يخفى ، وإذا ظرف موضوع لزمان نسبة ماضية وقع فيه نسبة أخرى مثلها ، كما أن إذا موضوع لزمان نسبة مستقبلية

(١) في ط : وما فيهما .

يقع فيه أخرى مثلها ، ولذلك يجب إضافتهما إلى الجمل وانتصابه بمضمر صرح في قوله عز وجل (واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم) وقوله تعالى (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد) وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات للبالغة في إيجاب ذكرها ، لما أن إيجاب ذكر الوقت لإيجاب لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهاني ، ولأن الوقت مشتمل عليها ، فإذا استحضرت كانت حاضرة بتفاصيلها ، كأنها مشاهدة عيانا ، وقيل : ليس انتصابه على المفعولية ، بل على تأويل اذكر الحادث فيه بحذف المظروف وإقامة الظرف مقامه .

وأيا ما كان فهو معطوف على مضمر آخر ينسحب عليه عليه الكلام كأنه قيل له عليه السلام غيب ما أوحى إليه ما خوطب به الكفرة من الوحي الناطق بتفاصيل الأمور السابقة الزاجرة عن الكفر به تعالى : ذكرهم بذلك واذكر لهم هذه النعمة ليتنبهوا بذلك لبطلان ما هم عليه^(٢) وينتهوا عنه ، وأما ما قيل من أن المقدر هو اشكر النعمة في خلق السموات والارض أو تدبر ذلك فغير سديد ضرورة أن مقتضى الكلام^(٣) تذكير المخاطبين^(٤) بمواجب الشكر وتنبههم على ما يقتضيه ، وأين ذلك من مقامه الجليل صلى الله عليه وسلم ، وقيل انتصابه بقوله تعالى قالوا ، ويأباه أنه يقتضى أن يكون هو المقصود بالذات دون سائر القصة ، وقيل بما سبق من قوله تعالى وبشر الذين آمنوا ، ولا يخفى بعده وقيل بمضمر دل عليه مضمون الآية المتقدمة مثل وبدأ خلقكم إذ قال الخ لا ريب في أنه لا فائدة في تقييد بدء الخلق بذلك الوقت ، وقيل بخلقكم أو بأحياءكم مضمرا ، وفيه ما فيه : وقيل إذ زائدة ، ويعزى ذلك إلى أبي عبيد ومعمر ، وقيل إنه بمعنى قد ، واللام في قوله عز قاتلا ﴿ للملائكة ﴾ للتبليغ وتقديم

(٢) في ط : فيه
(٤) في ط : الخليلين

(١) في ١١ : به
(٣) في ط : المقام

الجار والمجرور في هذا الباب مطرد لما في المقول من الطول غالباً مع ما فيه من الاهتمام بما قدم والتشويق إلى ما أخر كما مر مرارا ، والملائكة جمع ملك باعتبار أصله الذي هو ملائكة على أن الهمزة مزيدة كالشمال في جمع شمال ، والتاء لتأكيد تأنيث الجماعة ، واشتقاقه من ملك لما فيه من معنى الشدة والقوة ، وقيل : على أنه مقلوب من مالك ، من الألوكة وهي الرسالة أي موضع الرسالة أو مرسل على أنه مصدر بمعنى المفعول ، فإنهم وسائط بين الله تعالى وبين الناس فهم رسوله عز وجل ، أو بمنزلة رسوله عليهم السلام ، واختلفت العقلاء في حقيقةتهم بعد اتفاهم على أنها ذوات موجودة قائمة بأنفسها .

فذهب أكثر المتكلمين إلى أنها أجسام لطيفة قادرة على التشكل بأشكال مختلفة ، مستدلين بأن الرسل كانوا يرونهم كذلك عليهم السلام ، وذهب الحكماء إلى أنها جواهر مجردة مخالفة للنفوس الناطقة في الحقيقية ، وأنها أكل منها قوة وأكثر علما يجرى منها مجرى الشمس من الأضواء منقسمة إلى قسمين ، قسم شأنهم الاستعراق في معرفة الحق والتنزه عن الاشتغال بغيره كما نعمهم الله عز وجل بقوله (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) وهم العليون المقربون ، وقسم يدبر الأمر من السماء إلى الأرض حسبما جرى عليه قلم القضاء والقدر وهم المدبرات أمرا ، فمنهم سماوية ومنهم أرضية ، وقالت طائفة من النصارى هي النفوس الفاضلة البشرية المفارقة للأبدان ، ونقل في شرح كثيرتهم أنه عليه السلام قال : « أظت السماء وحق لها أن تظ ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك ساجد أو راع ، وروى أن بني آدم عشر الجن ، وهما عشر حيوانات البر ، والسكل عش الطيور ، والسكل عشر حيوانات البحار ، وهؤلاء كلهم عشر ملائكة السماء الدنيا ، وكل هؤلاء عشر ملائكة السماء الثانية ، وهكذا إلى السماء السابعة ، ثم كل أولئك في مقابلة ملائكة الكرسي نزر قليل ، ثم جميع هؤلاء عشر ملائكة سرادق واحد من سرادقات العرش التي عددها ستائة ألف ، طول كل سرادق وعرضه وسمكه إذا قوبلت به السموات

والأرض وما فيهما وما بينهما لا يكون لها عنده قدر محسوس ، وما منه من مقدار شبر إلا وفيه ملك ساجد أو راکع أو قائم ، لهم زجل بالتسييح والتقدیس .

ثم كل هؤلاء في مقابلة الملائكة الذين يحومون حول العرش كالقطرة في البحر ، ثم ملائكة اللوح الذين هم أشياع لإسرافيل عليه السلام والملائكة الذين هم جنود جبريل عليه السلام لا يحصى أجناسهم ولا مدة أعمارهم ولا كفيات عباداتهم إلا بارئهم العليم الخبير على ما قال تعالى (وما يعلم جنود ربك إلا هو) .

وروى أنه عليه السلام حين عرج به إلى السماء رأى ملائكة في موضع بمنزلة شرف يمشى بعضهم تجاه بعض ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام إلى أين يذهبون ؟ فقال جبريل : لا أدري إلا أنى أراهم منذ خلقت ولا أرى واحدا منهم قد رأته قبل ذلك ، ثم سألا واحدا منهم منذ كم خلقت ؟ فقال : لا أدري غير أن الله عز وجل يخلق في كل أربعائة ألف ستة كوكبا ، وقد خلق منذ خلقتي أربعائة ألف كوكب (١) فسبحانه من إله ما أعظم قدره وما أوسع ملكوته .

واختلف في الملائكة الذين قيل لهم ما قيل ، فقيل : هم ملائكة الأرض وروى الضحاك عن ابن عباس رضی الله عنهما : أنهم المختارون مع إبليس حين بعثه الله عز وجل لمحاربة الجن ، حيث كانوا سكان الأرض فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء فقتلواهم إلا قليلا ، قد أخرجوهم من الأرض وألحقوهم بجزائر البحار وقلل الجبال وسكنوا الأرض ، وخفف الله تعالى عنهم العبادات ، وأعطى إبليس ملك الأرض وملك السماء الدنيا وخزانة الجنة ، فكان يعبد

(١) كل تلك الأخبار لا يراد ظاهرها في العدد ؛ وإنما يراد منها بيان عظمة الخلق وعظمة الخالق سبحانه .

الله تعالى تارة في الأرض وتارة في السماء ، وأخرى في الجنة ، فأخذه العجب ، فكان من أمره ما كان ، وقال أ كثر الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم لمنهم^(١) كل كل الملائكة لعموم اللفظ وعدم التخصيص وقوله تعالى :

﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ في حيز النصب على أنه مقول قال ، وصيغة الفاعل بمعنى المستقبل ، ولذلك عملت عمله . وفيها ما ليس في صيغة المضارع من الدلالة على أنه فاعل ذلك لاحتمال وهي من الجعل بمعنى التصيير المتعدى إلى مفعولين . فقيل أولها خليفة وثانيتها الظرف المتقدم على ما هو مقتضى الصناعة ، فإن مفعولى التصيير في الحقيقة اسم صار وخبره ، أولها الأول ، وثانيتها الثاني ، وهما مبتدأ وخبر والأصل في الأرض خليفة ثم قيل صار في الأرض خليفة ثم مصير في الأرض خليفة فمعناه بعد اللتيا والتي : إني جاعل خليفة من الخلائف أو خليفة بعينه كأننا في الأرض ، فإن خبر صار في الحقيقة هو الكون المقدر العامل في الظرف ، ولا ولا ريب في أن ذلك ليس مما يقتضيه المقام أصلا ، وإنما الذي يقتضيه هو الإخبار بجعل آدم (عليه السلام)^(٢) خليفة فيها كما يعرب عنه جواب الملائكة عليهم السلام ، فإذا ن قوله تعالى خليفة مفعول ثان ، والظرف متعلق بجاعل ، قدم على المفعول الصريح لما مر من التشويق إلى ما آخر ، أو بمحذوف وقع حالا ما بعده لكونه نكرة ، وأما المفعول الأول فمحذوف تعويلا على القرينة الدالة عليه كما في قوله تعالى (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما) حذف فيه المفعول الأول وهو ضمير الأموال لدلالة الحال عليه وكذا في قوله تعالى (ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم) حيث حذف فيه المفعول الأول لدلالة يبخلون عليه . أى لا يحسبن البخلاء

(١) في الأصل : في أنهم خطأ .

(٢) سقطت من ط .

بخلهم هو خير أ لهم ولا ريب في تحقق القرينة ههنا ، أما إن حمل على الحذف عند وقوع المحكى ففى واضحة لوقوعه فى أثناء ذكره عليه السلام على ما سنفصله ، كأنه قيل : إنى خالق بشرا من طين وجاعل فى الأرض خليفة ، وإما إن حمل على أنه لم يحذف هناك بل قيل مثلا وجاعل إياه خليفة فى الأرض . لكنه حذف عند الحكاية فالقرينة ما ذكر من جواب الملائكة عليهم السلام قال العلامة الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى (وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين) : إن قلت : كيف صح أن يقول لهم بشرا وما عرفوا ما البشر ولا عهدوا به ؟ قلت : وجهه أن يكون قد قال لهم : إنى خالق خلقا من صفته كيت وكيت ولكنه حين حكاه اقتصر على الاسم انتهى . فحيث جازالا اكتفاء عند الحكاية عن ذلك التفصيل بمجرد الاسم من غير قرينة تدل عليه فما ظنك بما نحن فيه ومعه قرينة ظاهرة ، ويحوز أن يكون من الجمل بمعنى الخلق المتعدى إلى مفعول واحد هو خليفة ، وحال الظرف فى التعلق والتقديم كما مر ، فحيث لا يكون ما سياتى من كلام الملائكة مترتبا عليه بالذات بل بالواسطة ، فإنه روى أنه تعالى لما قال لهم : (إنى جاعل فى الأرض خليفة) قالوا : ربنا وما يكون ذلك الخليفة ؟ قال تعالى يكون له ذرية يفسدون فى الأرض ويتحاسدون . ويقتل بعضهم بعضا فعند ذلك قالوا ما قالوا والله تعالى أعلم .

والخليفة من يخلف غيره وينوب منابه ، فعيل بمعنى الفاعل والتاء للبالغة ، والمراد به إما آدم عليه السلام وبنوه ، وإنما اقتصر عليه استغناء بذكره عن ذكرهم كما يستغنى عن ذكر القبيلة بذكر أبيها كعصر وهاشم ومنه الخلافة فى قریش وإما من يخلف أو خلف يخلف فيعمه عليه السلام وغيره من خلفاء ذريته ، والمراد بالخلافة إما الخلافة من جهته سبحانه فى إجراء أحكامه وتنفيذ أوامره بين الناس وسياسة الخلق لكن لا الحاجة به تعالى إلى ذلك بل لقصور استعداد المستخلف عليهم ، وعدم لياقتهم لقبول الفيض بالذات فتختص بالخواص من بنييه ، وإما الخلافة بمن كان فى الأرض قبل ذلك فتعم حينئذ الجميع .

(قالوا) استئناف وقع جوابا عما تنساق إليه الأذهان كأنه قيل : فماذا

قالت الملائكة حينئذ ، فقيل : قالوا ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾؟ وهو أيضاً من الجعل المتعدى إلى اثنين ، فقيل فيهما ما قيل في الأول ، والظاهر أن الأول كلمة من ، والثاني محذوف ثقة بما ذكر في الكلام السابق كما حذف الأول ثمة تعويلا على ما ذكر هنا قال قائلهم :

لا تخلنا على عزائك إنا طالما قد وشى بنا الأعداء

بم حذف المفعول الثاني أى لا تخلنا جازعين على عزائك : والمعنى أتجعل فيها من يفسد فيها خليفة . والظرف الأول متعلق بتجعل وتقديمه لما مر مرارا والثاني يفسد وفائدته تأكيد الاستبعاد لما أن في استخلاف المفسد في محل إفساده من البعد ما ليس في استخلافه في غيره ، وهذا وقد جوز كونه من الجعل بمعنى الخلق المتعدى إلى مفعول واحد هو كلمة من ، وأنت خير بأن مدار تعجبهم ليس خلق من يفسد في الأرض ، كيف لا وإن ما يعقبه من الجملة الحالية الناطقة بدعوى أحقيتهم منه يقضى ببطلانه حتماً إذ لا صحة لدعوى الأحقية منه بالخلق وهم مخلوقون ، بل مداره أن يستخلف لعارة الأرض وإصلاحها بإجراء أحكام الله تعالى وأوامره أو يستخلف مكان المطبوعين على الطاعة من من شأنه نوعه الإفساد وسفك الدماء وهو عليه السلام وإن كان منزهاً عن ذلك إلا أن استخلافه مستتبح لاستخلاف ذريته التي لا تخلو عنه غالباً ، وإنما أظهروا تعجبهم استكشافاً عما خفي عليهم من الحكم التي بدت على تلك المفسد والغتها ، واستخباراً عما يزيح شبهتهم ويرشدهم إلى معرفة ما فيه عليه السلام من الفضائل التي جعلته أهلاً لذلك ، كسؤال المعلم عما ينقدح في ذهنه لا اعتراضاً على فعل الله سبحانه ولا شكاً في اشتغاله على الحكمة والمصلحة إجمالاً ، ولأطمناً فيه عليه السلام ولا في ذريته على وجه الغيبة ، فإن منصبتهم أجل من أن يظن بهم أمثال ذلك ، قال تعالى (بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) وإنما عرفوا ما قالوا إما بإخبار من الله تعالى حسبما نقل من قبل ، أو بتلق من اللوح ، أو باستنباط عما ارتكز في عقولهم من اختصاص

الحكمة^(١) بهم ، أو بقياس لأحد الثقلين على الآخر .

﴿ ويسفك الدماء ﴾ السفك والسفح والسبك والسكب أنواع من الصب ، والأولان مختصان بالدم ، بل لا يستعمل أوطها إلا في الدم المحرم ، أى يقتل النفوس المحرمة بغير حق ، والتعبير عنه بسفك الدماء لما أنه أقبح أنواع القتل وأفظعه وقرىء يسفك بضم الفاء ، ويسفك ويسفك من أسفك وسفك ، وقرىء يسفك على البناء للمفعول وحذف الراجع إلى من موصولة أو موصوفة أى يسفك الدماء فيهم ،

﴿ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ جملة حالية مقررة للتعجب السابق ومؤكدة له على طريقة قول من يجد في خدمة مولاة وهو يأمر بها غيره أتستخدم العصاة وأنا مجتهد فيها ، كأنه قيل أتستخلف من شأن ذريته الفساد مع وجود من ليس من شأنه ذلك أصلا ، والمقصود عرض أحقيتهم منهم بالخلافة واستفسار عما رجحهم عليهم مع ما هو متوقع منهم من الموانع لا العجب والتفاخر ، فكأنهم شعروا بما فيهم من القوة الشهوية التي رذيلتها الإفراطية الفساد في الأرض والقوة الغضبية التي رذيلتها الإفراطية سفك الدماء فقالوا ما قالوا وذهلوا عما إذا سخرتهما القوة العقلية ومرنتهما على الخير [فإنه] يحصل بذلك من علو الدرجة ما يقصر عن بلوغ رتبة القوة العقلية عندا نفرادها في أفعالها ، كإحاطة بتفاصيل أحوال الجزئيات واستنباط الصناعات ، واستخراج منافع الكائنات من القوة إلى الفعل وغير ذلك مما يبط به أمر الخلافة . والتسبيح تنزيه الله تعالى وتبعيده اعتقادا وقولا وعملا عما لا يليق بجناحه سبحانه من سبوح في الأرض والماء إذا أبعده فيهما وأمعن ، ومنه فرس سبوح أى واسع الجرى وكذلك تقديسه تعالى من قدس في الأرض إذا ذهب فيها وأبعد ، ويقال قدسه أى طهره فإن مطهر الشيء مبعده عن الأقدار ، والباء في بحمدك متعلقة بمحذوف وقع حالا من الضمير ، أى ننزهك عن كل ما لا يليق بشأنك

(١) في ط . العصمة

ملتبسين بحمدك على ما أنعمت به علينا من فنون النعم التي من جملتها توفيقنا لهذه العبادة ، فالتسبيح لإظهار صفات الجلال والحمد لتذكير صفات الإناعام ، واللام في لك إما من يدة والمعنى تقدسك ، وإما صلة للفعل كما في سجدت لله وإما للبيان كما في سقيالك ، فتسكون متعلقة بمحذوف ، أى تقدس تقديسا لك أى نصفك بما يليق بك من العلو والعزة ونزهك عما لا يليق بك ، وقيل المعنى نظير نفوسنا عن الذنوب لأجلك ، كأنهم قابلوا الفساد الذى أعظمه الإشراف بالتسبيح وسفك الدماء الذى هو تلويث النفس بأقبح الجرائم بتطهير النفس عن الآثام لا تمدحا^(١) بذلك ولا إظهارا للمنة بل بيانا للواقع .

﴿ قال ﴾ استئناف كما سبق ﴿ لئى أعلم ما لا تعلمون ﴾ ليس المراد به بيان أنه تعالى يعلم ما لا يعلمون من الأشياء كأننا ما كان ، فإن ذلك مما لا شبهة لهم فيه حتى يفتقروا إلى التنبية عليه لاسيما بطريق التوكيد ، بل بيان أن فيه عليه الصلاة والسلام معانى مستدعية لاستخلافه ، إذ هو الذى خفى عليهم وبنوا عليه ما بنوا من التعجب والاستبعاد ، فما موصولة كانت أو موصوفة عبارة عن تلك المعانى ، والمعنى : لئى أعلم ما لا تعلمونه من دواعى الخلافة فيه ، وإنما لم يقتصر على بيان تحققها فيه عليه السلام بأن قيل مثلا إن فيه ما يقتضيه من غير تعرض لإحاطته تعالى وغلطهم عنه تفخيرا لشأنه وإيذانا بابتناء أمره تعالى على العلم الرصين والحكمة المتقنة وصدور قولهم عن الغفلة ، وقيل معناه لئى أعلم من المصالح فى استخلافه ما هو خفى عليكم ، وأن هذا إرشاد للملائكة إلى العلم بأن أفعاله تعالى كلها حسنة وحكمة وإن خفى عليهم وجه الحسن والحكمة ، وأنت خبير بأنه مشعر بكونهم غير عالمين بذلك من قبل ويكون تعجبهم مبنيا على ترددهم فى اشتغال هذا الفعل لحكمة ما ، وذلك مما لا يليق بشأنهم فإنهم عالمون بأن ذلك متضمن لحكمة ما ، ولكنهم مترددون فى أنها

(١) فى ١١ : لاقدحا

ماذا؟ هل هو أمر راجع إلى محض حكم الله عز وجل ، أو إلى فضيلة من جهة المستخلف؟ فيين سبحانه وتعالى لهم أولاً على وجه الإجمال والإبهام أن فيه فضائل غائبة عنهم ليستشرفوا إليها ، ثم أبرز لهم طرفاً منها ليعاينوه جهرة ويظهر لهم بديع صنعه وحكمته وينزاح شبهتهم بالكلية .

(وعلم آدم الأسماء كلها) شروع في تفصيل ماجرى بعد الجواب الإجمالي تحقيقاً لمضمونه وتفسيراً لإبهامه وهو عطف على قال ، والابتداء بحكاية التعليم يدل بظاهره على أن ما مر من المناقشة المحكية إنما جرت بعد خلقه عليه السلام بمحضر منه وهو الأنسب بوقوف الملائكة على أحواله عليه السلام ، بأن قيل لئن نفخ الروح فيه : لئن جعل إياه خليفة فقيل ما قيل كما أشير إليه ، وإيراده عليه السلام باسمه العلمي لزيادة تعيين المراد بالخليفة ، ولأن ذكره بعنوان الخليفة لا يلائم مقام تمهيد مبادئها ، وهو اسم أعجمي والأقرب أن وزنه فاعل كسالم وعاذر وعابر وفالغ لا أفعل ، والتصدي لاشتقاقه من الأدمة أو الأدمة بالفتح بمعنى الأسوة ، أو من أديم الأرض بناء على ما روى عنه صلى الله عليه وسلم من : أنه تعالى قبض قبضة من جميع الأرض مهلبها وحزنها فخلق منها آدم ، ولذلك اختلفت ألوان ذريته أو من الأدم والأدمة بمعنى الألفة تعسف كاشتقاق إدريس من الدرر ، ويعقوب من العقب ، وإبليس من الإبلاس ، والاسم باعتبار الاشتقاق ما يكون علامة للشئ ودليلاً يرفعه إلى الذهن من الألفاظ والصفات والأفعال ، واستعماله عرفاً في اللفظ الموضوع لمعنى مفرداً كان أو مركباً مخبراً عنه أو خبراً أو رابطة بينهما ، واصطلاحاً في المفرد الدال على معنى في نفسه غير مقترن بالزمان والمراد هنا إما الأول أو الثاني ، وهو مستلزم للأول ، إذ العلم بالألفاظ من حيث الدلالة على المعاني مسبوق بالعلم بها والتعليم حقيقة عبارة فعل يترتب عليه العلم بلا تخلف عنه ولا يحصل ذلك بمجرد إفاضة المعلم ، بل يتوقف على استعداد المتعلم لقبول الفيض وتلقيه من جهته كما مر في تفسير

الهدى ، وهو السر في إثارة على الإعلام والإنباء ، فإنهما إنما يتوقفان على سماع الخبر الذي يشترك فيه البشر والملوك ، وبه يظهر أحقيقته بالخلافة منهم عليهم السلام لما أن جبهاتهم غير مستعدة للإحاطة بتفاصيل أحوال الجزئيات الجسمانية خبراً فمعنى تعليمه تعالى إياه أن يخلق فيه إذ ذاك بموجب استعداده علماً ضرورياً تفصيلياً بأسماء جميع المسميات وأحوالها وخواصها اللاتفة بكل منها ، أو يلقي في روعه تفصيلاً أن هذا فرس ، وشأنه كيت وكيت ، وذلك بعير وحاله زيت وذيت إلى غير ذلك من أحوال الموجودات ، فيتلقاها عليه السلام حسبما يقتضيه استعداده ويستدعيه قابليته المتفرعة على فطرته المنطوية على طبائع متباينة وقوى متخالفة وعناصر متغايرة .

قال ابن عباس وعكرمة وقتادة ومجاهد وابن جبير رضى الله تعالى عنهم : علمه أسماء جميع الأشياء حتى القصعة والقصيعة وحتى الجفنة والمحلب وحتى (١) مشفحة كل شيء إلى جنسه . وقيل أسماء ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة ، وقيل : معنى قوله تعالى وعلم آدم الأسماء خلقه من أجزاء مختلفة وقوى متباينة مستعداً لإدراك أنواع المدركات من المعقولات والمحسوسات والتمثيلات والموهومات ، وألهمه معرفة ذوات الأشياء وأسمائها وخواصها ومعارفها وأصول العلم وقوانين الصناعات وتفاصيل آلياتها وكيفيات استعمالها ، فيكون مأمراً من المقابلة قبل خلقه عليه السلام . وقيل التعليم على ظاهره وليسكن هناك جملاً مطوية عطف عليها المذكور أى فخلقها فسواء ونفخ فيه الروح وعلمه الخ (ثم عرضهم على الملائكة) الضمير للمسميات المدلول عليها بالأسماء كما في قوله تعالى : (واشتعل الرأس شيباً) والتذكير لتغليب العقلاء على غيرهم وقرىء عرضهن وعرضها أى عرض مسمياتهن أو مسمياتها في الحديث : أنه تعالى عرضهم أمثال الذر ، ولعله عز وجل عرض عليهم من

(١) في ط : وانحى .

أفراد كل نوع ما يصلح أن يكون أنموذجا يتعرف منه أحوال البقية وأحكامها .

﴿ فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ﴾ نبكيتا لهم وإظهاراً لعجزهم عن إقامة ما علقوا به رجاءهم من أمر الخلافة ، فإن التصرف والتدبير وإقامة المعدلة بغير وقوف على مراتب الاستعدادات ومقادير الحقوق مما لا يكاد يمكن والإنباء لإخبار فيه لإعلام ، ولذلك يجرى مجرى كل منهما والمراد ههنا ما خلا عنه ، وإيثاره على الإخبار للإيدان برفعة شأن الأسماء وعظم خطرها ، فإن النبأ إنما يطلق على الخبر الخطير والأمر العظيم ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أى فى زعمكم أنكم أحقاء بالخلافة من استخلفته كما ينبىء عنه مقالكم ، والتصديق كما يتطرق إلى الكلام باعتبار منطوقه قد يتطرق إليه باعتبار ما يلزمه من الإخبار ، فإن أدنى مراتب الاستحقاق هو الوقوف على أسماء ما فى الأرض ، وأما ما قيل من أن المعنى فى زعمكم أنى أستخلف فى الأرض مفسدين سفاكين للدماء فليس مما يقتضيه المقام ، وإن أول بأن يقال فى زعمكم أنى أستخلف من غالب أمره الإفساد وسفك الدماء من غير أن يكون له منية من جهة أخرى ، إذ لا تعلق له بأمرهم بالإنباء . وجواب الشرط محذوف لدلالة المذكور عليه .

﴿ قالوا ﴾ استئناف واقع موقع الجواب كأنه قيل فإذا قالوا حينئذ ، هل خرجوا عن عهدة ما كفوه أولاً؟ فقيل : قالوا ﴿ سبحانك ﴾ قيل هو علم للتسبيح ولا يكاد يستعمل إلا مضافاً وقد جاء غير مضاف على الشذوذ غير منصرف للتعريف والألف والنون المزيدين كما فى قوله :

﴿ سبحان من علقة الفاخر ﴾

وأما فى قوله :

﴿ سبحانه ثم سبحانا نعود له ﴾

فقبل صرفه للضرورة ، وقيل إنه مصدر منكر كغفران ، لا اسم مصدر ، ومعناه على الأول نسبحك عما لا يليق بشأنك الأقدس من الأمور التي من جعلتها خلوا أفعالك من الحكم والمصالح وعنوا بذلك تسميها ناشئا عن كمال طمأنينة النفس والإيمان باشتغال استخلاف آدم عليه السلام على الحكم البالغة ، وعلى الثاني تنزهت عن ذلك ناشئا عن ذاتك ، وأرادوا به أنهم قالوه عن إذعان لما علموا إجمالا بأنه عليه السلام يكلف ما كلفوه ، وأنه يقدر على ما قد عجزوا عنه مما يتوقف عليه الخلافة ، وقوله عز وعلا (لا علم لنا إلا ما علمتنا) اعتراف منهم بالعجز عما كلفوه ، إذ معناه لا علم لنا إلا ما علمتنا بحسب قابليتنا من العلوم المناسبة لعالمنا ولا قدرة بنا على ما هو خارج عن دائرة استعدادنا حتى لو كنا مستعدين لذلك لأفضته علينا ، وما في ما علمتنا موصولة حذف من صلتها عائدها أو مصدرية ، ولقد نفوا عنهم العلم بالاسماء على وجه المبالغة حتى (١) لم يقتصروا على بيان عدمه بأن قالوا مثلا لا علم لنا بها ، بل جعلوه من جملة ما لا يعلمونه ، وأشعروا بأن كونه من تلك الجملة غنى عن البيان (إنك أنت العليم) الذي لا يخفى عليه خافية ، وهذا إشارة إلى تحقيقهم لقوله تعالى : (إني أعلم ما لا تعلمون) (الحكيم) أي المحكم لمصنوعاته الفاعل لها حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة وهو خبر بعد خبر ، أو صفة للأول ، وأنت ضمير الفصل لا محل له من الإعراب ، أوله محل منه مشارك لما قبله كما قاله الفراء ، أو لما بعده كما قاله الكسائي ، وقيل تأكيد للكاف كما في قولك مررت بك أنت ، وقيل مبتدأ خبره ما بعده ، والجملة خبر إن ، وتلك الجملة تعليل لما سبق من قصر علمهم بما علمهم الله تعالى وما يفهم من ذلك من علم آدم عليه السلام بما خفي عليهم ، فكأنهم قالوا أنت العالم بكل المعلومات التي من جعلتها استعداد آدم عليه السلام لما نحن بمعزل من الاستعداد له من العلوم الخفية المتعلقة بما في الأرض من أنواع المخلوقات التي عليها يدور

فلك خلافة الحكيم الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة ومن جملته تعليم آدم عليه السلام ما هو قابل له من العلوم الكلية والمعارف الجزئية المتعلقة بالأحكام الواردة على ما في الأرض وبناء أمر الخلافة عليها .

﴿ قال ﴾ استئناف كما سبق^(١) ﴿ يا آدم أنبئهم ﴾ أى أعلمهم أوثر على أنبئنى كما وقع فى أمر الملائكة مع حصول المراد معه أيضاً وهو ظهور فضل آدم عليهم ، عليهم السلام ، لإبانة لما بين الأمرين من التفاوت الجلى وإيداناً بأن علمه عليه السلام بها أمر واضح غير محتاج إلى ما يجرى مجرى الامتحان ، وأنه عليه السلام حقيق بأن يعلمها غيره وقرىء بقلب الهمزة ياء وبجذفها أيضاً والهاء مكسورة فيهما ﴿ بأسمائهم ﴾ التى عجزوا عن علمها واعترفوا بتقصيرهم عن بلوغ مرتبتها ﴿ فلما أنبأهم بأسمائهم ﴾ الفاء فصيحة عاطفة للجملته الشرطية على محذوف يقتضيه المقام وينسحب عليه الكلام ، للإيدان بتقرره وغناه عن الذكر وللإشعار بتحقيقه فى أسرع ما يكون كما فى قوله عز وجل ﴿ فلما رآه مستقراً عنده ﴾ بعد قوله سبحانه (أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) وإظهار الأسماء فى موضع^(٢) الإضمار لإظهار كمال العناية بشأنها ، والإيدان بأنه عليه السلام أنبأهم بها على وجه التفصيل دون الإجمال والمعنى فأنبأهم بأسمائهم مفصلة وبين لهم أحوال كل منهم وخواصه وأحكامه المتعلقة بالمعاش والمعاد ، فعلموا ذلك لما رأوا أنه عليه السلام لم يتلثم فى شئ من التفاصيل التى ذكرها مع مساعدة ما بين الأسماء والمسميات من المناسبات والمشكلات وغير ذلك من القرائن الموجبة لصدق مقالاته عليه السلام ، فلما أنبأهم بذلك .

﴿ قال ﴾ عز وجل تقريراً لما مر من الجواب الإجمالى واستحضاراً له

(١) فى ط : سلف

(٢) فى ط : موقع

﴿لم أقل لكم لاني أعلم غيب السموات والأرض﴾ ولكن لا لتقرير نفسه كما في قوله تعالى (لم يعدكم ربكم وعداً حسناً) ونظائره بل لتقرير ما يفيد من تحقق دواعي الخلافة في آدم عليه السلام لظهور مصداقه ، وإيراد ما لا يعلمون بعنوان الغيب مضافاً إلى السموات والأرض للمبالغة في بيان كمال شمول علمه المحيط وغاية سعته ، مع الإيذان بأن ما ظهر من عجزهم وعلم آدم عليه السلام من الأمور المتعلقة بأهل السموات وأهل الأرض ، وهذا دليل واضح على أن المراد بما لا تعلمون فيما سبق ما أشير إليه هناك كأنه قيل ألم أقل لكم لاني أعلم فيه من دواعي الخلافة ما لا تعلمونه فيه هو هذا الذي عاينتموه ، وقوله تعالى : ﴿وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ عطف على جملة ألم أقل لكم لاني أعلم ، إذ هو غير داخل تحت القول ، وما في الموضوعين موصولة حذف عاندها أى أعلم ما تبدونه وما تكتمونه ، وتغيير الأسلوب للإيذان باستمرار كتمهم ، قيل المراد بما تبدون قولهم أتجعل الخ وبما يكتمون استبطنهم أنهم أحقاء بالخلافة وأنه تعالى لا يخلق خلقاً أفضل منهم .

روى أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام رأت الملائكة فطرتة العجيبة وقالوا ليسكن ما شاء فلن يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أكرم عليه منه وقيل هو ما أسره إبليس في نفسه من الكبر وترك السجود ، فاستناد السكتان حينئذ إلى الجميع من قبيل قولهم بنو فلان قتلوا فلانا والقاتل واحد من بينهم ، قالوا : في الآية الكريمة دلالة على شرف الإنسان ومزية العلم وفضله على العبادة ، وأن ذلك هو المناط للخلافة ، وأن التعليم يصح إطلاقه على الله تعالى . وإن لم يصح إطلاق المعلم عليه لاختصاصه عادة بمن يحترف به ، وأن اللغات توقيفية إذ الأسماء تدل على الألفاظ بخصوص أو بعموم وتعليمها ظاهر في إلحاقها على المتعلم مبيناً له معانيها وذلك يستدعى سابقة وضع وما هو إلا من الله تعالى وأن مفهوم الحكمة زائد على مفهوم العلم وإلا لزم التكرار وأن علوم الملائكة وكالاتهم تقبل الزيادة والحكماء منعوا ذلك في الطبقة العليا منهم وحملوا على

ذلك قوله تعالى (وما منا إلا له مقام معلوم) وأن آدم أفضل من هؤلاء الملائكة لأنه عليه السلام أعلم منهم وأنه تعالى يعلم الأشياء قبل حدوثها .

﴿ وإذ قلنا للملائكة ﴾ عطف على الظرف الأول منصوب بما نصبه من المضمرة : أو بتأنيب مستقل معطوف على ناصبه عطف القصة على القصة ، أى واذا كررنا قولنا لهم ، وقيل بفعل دل عليه الكلام ، أى أطاعوا وقت قولنا الخ ، وقد عرفت ما فى أمثاله ، وتخصص هذا القول بالذكر مع كون مقتضى الظاهر إيرادها على منهاج ما قبله من الأقوال المحسكية المتصلة به للإيذان بأن ما فى حيزه نعمة جليلة مستقلة حقيقة بالذكر والتذكير على حيالها ، والاتفات إلى التكلم لإظهار الجلالة وتربية المهابة مع ما فيه من تأكيد الاستقلال وكذا إظهار الملائكة فى موضع الإضمار ، والكلام فى اللام وتقديمها مع مجرورها على المفعول كما مر ، وقرئ بضم تاء الملائكة لإتباعا لضم الجيم فى قوله تعالى : (اسجدوا لآدم) كما قرئ بكسر الدال فى قوله تعالى : الحمد لله لإتباعا لكسر الكسر اللام وهى لغة ضعيفة ، والسجود فى اللغة الخضوع والتطامن وفى الشرع وضع الجبهة على الأرض على قصد العبادة ، فقيل أمروا بالسجود له عليه والسلام على وجه التحية تعظيما له واعترافا بفضله وأداء الحق التعليم واعتذارا عما وقع منهم فى شأنه ، وقيل أمروا بالسجود له تعالى وإنما كان آدم قبلة لسجودهم تفخيما لشأنه أو سببا لوجوبه ، فكأنه تعالى لما برأه أنموذجا للبيدعات كلها ونسخة منطوية على تعلق العالم الروحاني بالعالم الجسماني وامتزاجهما على نمط بديع أمرهم بالسجود له تعالى لما عاينوا من عظيم قدرته فاللام فيه كما فى قول حسان رضى الله عنه :

أليس أول من صلى لقبيلتكم وأعرف الناس بالقرآن والسنن

أو فى قوله تعالى : (أقم الصلاة لندوك الشمس) والأول هو الأظهر ، وقوله عز وجل ﴿ فسجدوا ﴾ عطف على قلنا ، والفاء لإفادة مسارعتهم إلى

الامتثال وعدم تلغثمهم في ذلك ، روى عن وهب أن أول من سجد لله جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم عزرائيل ثم سائر الملائكة عليهم السلام وقوله تعالى ﴿إلا إبليس﴾ استثناء متصل لما أنه كان جنيا مفردا مغمورا بألوف من الملائكة متصفا بصفاتهم فغلبوا عليه في فسجدوا ، ثم استثنى استثناء واحد منهم أو لأن من الملائكة جنسا يتوالدون يقال لهم الجن كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما وهو منهم ، أو لأن الجن أيضا كانوا مأمورين بالسجود له لكن استغنى بذكر الملائكة عن ذكرهم ، أو منقطع : وهو اسم أعجمي ولذلك لم ينصرف ومن جعله مشتقا من الإبلاس وهو لباس قال إنه مشبه بالجمجمة حيث لم يسم به أحد فكان كالاسم الأعجمي .

واعلم أن الذى تقتضيه هذه الآية السكرية والى في سورة الأعراف من قوله تعالى (ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس) الآية ، والى في سورة بني إسرائيل وسورة الكهف وسورة طه من قوله تعالى : (وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا) الآية ، أن سجود الملائكة إنما ترتب على الأمر التنجيزى الوارد بعد خلقه وتسويته ونفخ الروح فيه ألبتة كما يوضح به حكاية امتثالهم بعبارة السجود دون الوقوع الذى به ورد الأمر التعليق ، ولسكن ما في سورة الحجر من قوله عز وعلا (وإذا قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون) وما في سورة ص من قوله تعالى : (إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين) إلى آخر الآية يستدعيان بظاهرهما ترتبه على ما فيهما من الأمر التعليمى من غير أن يتوسط بينهما شيء غير ما تفصح عنه الفاء الفصيحة من الخلق والتسوية ونفخ الروح فيه عليه السلام .

وقد روى عن وهب أنه كان السجود كما نفخ فيه الروح بلا تأخير وتأويل الآيات السابقة بحمل ما فيها من الأمر على حكاية الأمر التعليق بعد تحقق

المعلق به إجمالاً ، فإنه حينئذ يكون في حكم التنجيز يأباه ما في سورة الأعراف من كلفة ثم المغادية بتأخر ورود الأمر عن التصوير المتأخر عن الخلق المتأخر عن الأمر التعليقي والاعتذار بحمل التراخي على الرتبى أو التراخي في الإخبار أو بأن الأمر التعليقي قبل تحقق المعلق به لما كان في عدم إيجاب المأمور به بمنزلة العدم جعل كأنه إنما حدث بعد تحققه فحكي على صورة التنجيز يؤدي بعد اللتيا والتي إلى أن ماجرى بينه وبينهم عليهم السلام في شأن الخلافة وما قالوا فيه وما سمعوا إنما جرى بعد السجود المسبوق بمعرفة جلالته منزلة عليه السلام وخروج إبليس من الدين باللعن المؤبد لعناده ، وبعد مشاهدتهم لذلك كله عياناً وهل هو إلا خرق لقضية العقل والنقل ، والالتجاء في النقصى عنه إلى تأويل نفخ الروح بحمله على ما يعم إفاضة ما به حياة النفوس التي من جملتها تعليم الأسماء تعسف ينيء عن ضيق المجال .

فالذى يقتضيه التحقيق ويستدعيه النظم^(١) الأنيق بعد التصفح في مستودعات الكتاب المكنون والتفحص عما فيه من السر الخزون أن سجودهم له عليه السلام إنما ترتب على الأمر التنجيزى المتفرع على ظهور فضله عليه السلام المبني على المحاورة المسبوقة بالإخبار بخلافته المنتظم جميع ذلك في سلك ما ينيط به الأمر التعليقي من التسوية ونفخ الروح ، إذ ليس من قضيته وجوب السجود عقيب نفخ الروح فيه ، فإن الفاء الجزائية ليست بنص في وجوب وقوع مضمون الجزاء عقيب وجود الشرط من غير تراخ للقطع بعدم وجوب السعى عقيب النداء ، لقوله تعالى : (إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا) الآية وبعدم وجوب إقامة الصلاة غب الاطمئنان لقوله تعالى : (فإذا اطمأننتهم فأقيموا الصلاة) بل إنما الوجوب عند دخول الوقت . كيف لا والحكمة الداعية إلى ورود ما نحن فيه من الأمر التعليقي إثرذى أنير إنما هي حمل الملازمة عليهم السلام على التأمل في شأنه عليه السلام ليتدبروا في أحواله طراً ، ويحيطوا

(١) في الأصل : النظر

بما لديه خبراً ، ويستفهموا ما عسى يستهم عليهم في أمره عليه السلام لا بتناؤه على حكم آية ، وأسرار خفية طويت عن علومهم ، ويقفوا على جليلة الحال قبل ورود الأمر التنجيزي وتحتم الامتثال ؛ وقد قالوا بحسب ذلك ما قالوا وعانوا ما عانوا ؛ وعدم نظم الأمر التنجيزي في سلك الأمور المذكورة في السورتين عند الحكاية لا يستلزم عدم انتظامه فيه عند وقوع المحكي كما أن عدم ذكر الأمر التعليق عند حكاية الأمر التنجيزي في السورة الكريمة المذكورة لا يوجب عدم مسبوقيه به ، فإن حكاية كلام واحد على أساليب مختلفة حسبما يقتضيه المقام ويستدعيه حسن الانتظام ليست بعزيزة في الكتاب العزيز ، وناهيك بما نقل في توجيه قوله تعالى : (بشرأ) مع عدم سبق معرفة الملائكة عليهم السلام بذلك وحيث صير إليه مع أنه لم يرد به نقل فما ظنك بما قد وقع التصريح به في مواضع عديدة فلعله قد ألقى إليهم ابتداء جميع ما يتوقف عليه الأمر التنجيزي إجمالاً بأن قيل مثلاً إنى خالق بشرأ من كذا وكذا وجاعل إياه خليفة في الأرض ، فهناك ذكروا في حقه عليه السلام ما ذكروا ، فأيده الله عز وجل بتعليم الأسماء فشاهدوا منه ما شاهدوا ، فعند ذلك ورد الأمر التنجيزي اعتناء بشأن المأمور به وتعييننا لوقته ، وقد حكى بعض الأمور في بعض المواطن وبعضها في بعضها اكتفاء بما ذكر في كل موطن عما ترك في موطن آخر ، والذي يحسم مادة الاشتباه أن ما في سورة ص من قوله تعالى (إذ قال ربك للملائكة) الخ ، بدل من قوله تعالى (إذ يختصمون) فيما قبله من قوله تعالى (ما كان لى من علم بالملا الأعلى إذ يختصمون) أى بكلامهم عند اختصاصهم و المراد بالملا الأعلى الملائكة وآدم عليهم السلام وإبليس حسبما أطبق عليه جمهور الأمة ، وباختصاصهم ما جرى بينهم في شأن خلافة آدم عليه السلام من التقاوى الذى من جملة ما صدر عنه عليه السلام من الإنباء بالأسماء ومن قضية البدلية وقوع الاختصاص المذكور في تضاعيف ما ذكر فيه تفصيلاً من الأمر التعليق ، وما علق به من الخلق والتسوية ونفخ الروح فيه وما ترتب عليه من سجود الملائكة عليهم السلام وعناد إبليس وما تبعه من لعنه وإخراجه من

بين الملائكة ، وما جرى بعده من الأفعال والأقوال ، وإذ ليس تمام الاختصاص بعد سجود الملائكة ومكابرة إبليس المستتعبة لطرده من بينهم لما عرفت من أنه أحد المختصمين كما أنه ليس قبل الخلق ضرورة استحالة الإنبياء بالأسماء حينئذ ، فهو إذن بعد نفخ الروح وقبل السجود حتما بأحد الطريقتين والله سبحانه أعلم بحقيقة الأمر .

(أبى واستكبر) استئناف مبين لكيفية عدم السجود المفهوم من الاستثناء وأنه لم يكن للتردد والتأمل (١) والإباء الامتناع بالاختيار ، والتكبر أن يرى نفسه أكبر من غيره ، والاستكبار طلب ذلك بالتشبع ، أى امتنع عما أمر به واستكبر من أن يغضمه أو يتخذَه وصلة في عبادة ربه وتقديم الإباء على الاستكبار مع كونه مسببا عنه لظهوره ووضوح أثره واقتصر في سورة ص على ذكر الاستكبار اكتفاء به ، وفي سورة الحجر على ذكر الإباء حيث قيل أبى أن يكون مع الساجدين (وكان من الكافرين) أى فى علم الله تعالى ، إذ كان أصله من كفره الجن فلذلك ارتكب ما ارتكبه على ما أفصح عنه قوله تعالى (كان من الجن ففسق عن أمر ربه) فالجملة اعتراضية مقررة لما سبق من الإباء والاستكبار ، أو صار منهم باستقباح أمره تعالى لإيابه بالسجود لآدم عليه السلام زعما منه أنه أفضل منه ، والأفضل لا يحسن أن يؤمر بالخضوع للمفضول كما يفصح عنه قوله (أنا خير منه) حين قيل له (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين) لا بترك الواجب وحدة فالجملة معطوفة على ما قبلها ، وإيثار الواو على الفاء للدلالة على أن محض الإباء والاستكبار كفر لا أنهما سببان له كما تفيده الفاء .

(وقلنا) شروع فى حكاية ما جرى بينه تعالى وبين آدم عليه السلام بعد تمام ما جرى بينه تعالى وبين الملائكة وإبليس من الأقوال والأفعال ، وقد تركت حكاية توبيخ إبليس وجوابه ولعنه واستنظاره (٢) وإنظاره اجترأ بما

(١) فى ط : وللتأمل

(٢) فى ط : واستنظاره

فصل في سائر السور الكريمة وهو عطف على قلنا للملائكة ولا يقدر في ذلك اختلاف وقتيهما ، فإن المراد بالزمان المدلول عليه بكلمة إذ زمان ممتد واسع للقولين ، وقيل هو عطف على إذ قلنا بإضمار إذ ، وهذا تذكير لنعمة أخرى موجبة للشكر مانعة من الكفر وتصدير الكلام بالنداء في قوله تعالى ﴿ يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ للتنبيه على الاهتمام بتلقي الأمور به ، وتخصيص أصل الخطاب به عليه السلام للإيدان بأصالته في مباشرة الأمور به ، واسكن من السكنى وهو اللبث والإقامة والاستقرار دون السكن الذي هو ضد الحركة وأنت ضمير أكد به المستكن ليصح العطف عليه واختلف في وقت خلق زوجة . فذكر السدي عن ابن مسعود وابن عباس وناس من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين : أن الله تعالى لما أخرج إبليس من الجنة وأسكنها آدم بقي فيها وحده وما كان معه من يستأنس به فألقى الله تعالى عليه النوم ثم أخذ ضلعا من جانبه الأيسر ووضع مكانه لحما وخلق حواء منه فلما استيقظ وجدها عند رأسه قاعدة ، فسألها : ما أنت ؟ قالت : امرأة . قال : ولم خلقت ؟ قالت : لتسكن إلى . فقالت الملائكة تجر به لعلمه : من هذه ؟ قال : امرأة ، قالوا : لم سميت امرأة قال : لأنها من المرء أخذت ، فقالوا ما اسمها ؟ قال : حواء ، قالوا : لم سميت حواء ؟ قال : لأنها خلقت من شيء حى . وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : بعث الله تعالى جندا من الملائكة فحملوا آدم وحواء على سرير من ذهب كما يحمل الملوك ولباسهما النور ، حتى أدخلوهما الجنة ، وهذا كما ترى يدل على خلقها قبل دخول الجنة والمراد بها دار الثواب ، لأنها المعروفة ، وقيل هي جنة بأرض فلسطين ، أو بين فارس وكرمان ، خلقها الله تعالى امتحانا لأدم عليه السلام وحمل الإهباط على النقل منها إلى أرض الهند كما في قوله تعالى (اهبطوا مصرا) لما أن خلقه عليه السلام كان في الأرض بلا خلاف ولم يذكر في هذه القصة رفعه إلى السماء ولو وقع ذلك لكان أولى بالذكر والتذكير ، لما أنه من أعظم النعم ، ولأنها لو كانت دار الخلد لما دخلها إبليس . وقيل إنها كانت في السماء السابعة ، بدليل اهبطوا ، ثم إن

الإهباط الأول كان منها إلى السماء الدنيا ، والثاني منها إلى الأرض ، وقيل الكل ممكن ، والأدلة النقلية متعارضة فوجب الشوقف وترك القطع .
 ﴿ وكلا منها ﴾ أى من ثمارها ، وإنما وجه الخطاب إليهما تعميماً للتشريف والترفيه ، ومبالغة في إزالة العلل والأعذار ، ولإيداننا بتساويهما في مباشرة الأمور به ، فإن حواء أسوة له عليه السلام في الأكل بخلاف السكنى ، فإنها تابعة له فيه ﴿ رغدا ﴾ صفة للمصدر المؤكد أى أكلا واسعاً رافها ﴿ حيث شئنا ﴾ أى أى مكان أردت ما منها ، وهذا كما ترى لإطلاق كلى حيث أيسح لهما الأكل منها على وجه التوسعة البالغة المزيحة للعلل ولم يحظر عليهما بعض الأكل ولا بعض المواضع الجامعة للمأكولات حتى لا يبقى لهما عذر في تناول ما منعنا منه بقوله تعالى ﴿ ولا تقربا ﴾ بفتح الراء من قربت الشيء بالكسر أقربه بالفتح إذا التبست به وتعرضت له ، وقال الجوهري قرب بالضم يقرب قربا إذا دنا ، وقربته بالكسر قربانا دنوت منه ﴿ هذه الشجرة ﴾ نصب على أنه بدل من اسم الإشارة ، أو نعت له بتأويلها بمشتق ، أى هذه الحاضرة من الشجرة أى لا تأكلا منها وإنما علق النهى بالقربان منها مبالغة في تحريم الأكل ووجوب الاجتناب عنه والمراد بها الخنطة أو العنبة أو التينة وقيل هى شجرة من أكل منها أحدث ، والأولى عدم تعيينها من غير قاطع وقرىء هذى بالياء وبكسر شين الشجرة وتاء تقربا ، وقرىء الشيره بكسر الشين وفتح الياء ﴿ فتكونا من الظالمين ﴾ مجزوم على أنه معطوف على تقربا أو منصوب على أنه جواب للنهى . وأياما كان بالقرب أى الأكل منها سبب لكونهما من الظالمين أى الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب المعصية . أو نقصوا حظوظهم بمباشرة ما يحل بالكراهة والنعيم ، أو تعدوا حدود الله تعالى .

﴿ فأزلهما الشيطان عنها ﴾ أى أصدر زلتهما أى زلتهما وحملهما على الزلة بسببها ، ونظيره عن هذه ما فى قوله تعالى (وما فعلته عن أمرى) أو أزلهما عن الجنة بمعنى أذهبهما وأبعدهما عنها ، يقال زل عنى كذا إذا ذهب عنك ، ويعضده قرأه (أزلهما) وهما متقاربان فى المعنى . فإن الإزال أى الإزلاق يقتضى زوال

الزوال عن موضعه ألبتة ، وإزالاه قوله لهما هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى . وقوله مانها كما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، ومقاسمته لهما لاني لسكلمان الناصحين ، وهذه الآيات مشعرة بأنه عليه السلام لم يؤمر بسكنى الجنة على وجه الخلود بل على وجه التكرمة والتشريف لما قلد من خلافة الأرض إلى حين البعث لئليها .

واختلف في كيفية توصله إليهما بعد ما قيل له (أخرج منها فإنك رجيم) فقيل إنه إنما منع من الدخول على وجه التكرمة كما يدخلها الملازمة عليهم السلام ولم يمنع من الدخول للوسوسة ابتلاء لأدم وحواء ، وقيل قام عند الباب فناداهما وقيل تمثل بصورة دابة فدخل ولم يعرفه الخنزرة ، وقيل دخل في فم الحية فدخل معها ، وقيل أرسل بعض أتباعه فأزلهما والمعلم عند الله سبحانه .

(فأخرجهما بما كانا فيه) أى من الجنة إن كان ضمير عنها للشجرة ، والتعبير عنها بذلك للإيدان بفخامتها وجلالتها وملا بستهما له ، أى من المكان العظيم الذى كانا مستقرين فيه أو من التكرامة والنعيم إن كان الضمير للجنة (وقلنا اهبطوا) الخطاب لأدم وحواء عليهما السلام بدليل قوله تعالى (قال اهبطا منها جميعا) وجمع الضمير لأنهما أصل الجنس ، فكأنهما الجنس كلهم ، وقيل لهما وللحية ولإبليس على أنه أخرج منها ثانيا بعدما كان يدخلها للوسوسة أو يدخلها مسارقة ، وأهبط من السماء وقرىء بضم الباء (بعضكم لبعض عدو) حال استغنى فيها عن الواو بالضمير أى متعادين يبغى بعضكم على بعض بتضليله أو استئثاف لا محل له من الإعراب ، وإفراد العدو إما للنظر إلى لفظ البعض وإما لأن وزانه وزان المصدر كالتقول (وللكم فى الأرض) التى هى محل الإهباط والظرف متعلق بما تعلق به الخبر أعنى لكم من الاستقرار (مستقر) أى استقرار أو موضع استقرار (ومتاع) أى تمتع بالعيش وانتفاع به (إلى حين) هو حين الموت على أن المغنيا تمتع كل فرد من المخاطبين ، أو القيامة ، على أنه تمتع الجنس فى ضمن بعض الأفراد والجملة كما قبلها فى كونها

حالا أى مستحقين للاستقرار والتمتع أو استئنافاً .

﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات ﴾ أى استقبلها بالأخذ والقبول والعمل بها حين عليها ووفق لها وقرىء بنهص آدم ورفع كلمات دلالة على أنها استقبلته بلغته وهى قوله تعالى (ربنا ظلمنا أنفسنا) الآية . وقيل « سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله إلا أنت ظلمت نفسى فاغفر لى لأنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال يارب ألم تخلقنى بيدك؟ قال : بلى قال يارب ألم تنفخ فى من روحك ؟ قال : بلى . قال : يارب ألم تسبق رحمتك غضبك ؟ قال : بلى . قال ألم تسكنى جنتك ؟ قال : بلى . قال : يارب إن تبت وأصلحت أراجعى أنت إلى الجنة ؟ قال : نعم . والفاء للدلالة على أن التوبة حصلت عقيب الأمر بالهبوط قبل تحقق المأمور به ، والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إليه عليه السلام للتشريف والإيدان بعليته لإلقاء الكلمات المدلول عليها^(١) بتلقيها ﴿ فتاب عليه ﴾ أى رجع عليه بالرحمة وقبول التوبة والفاء للدلالة على ترتبه على تلقي الكلمات المتضمن لمعنى التوبة التى هى عبارة عن الاعتراف بالذنب والندم عليه والعزم على عدم العود إليه واكتفى بذكر شأن آدم عليه السلام لما أن حواء تبع له فى الحكم ولذلك طوى ذكر النساء فى أكثر مواضع^(٢) الكتاب والسنة ﴿ لأنه هو التواب ﴾ أى الرجاع على عباده بالمغفرة أو الذى يكثّر إعانتهم على التوبة وأصل التوب الرجوع فإذا وصف به العبد كان رجوعاً عن المعصية ، وإذا وصف به البارى عز وجل أريد به الرجوع عن العقاب إلى المغفرة ﴿ الرحيم ﴾ المبالغ فى الرحمة وفى الجمع بين الوصفين وعد بليغ للتائب بالإحسان مع العفو والغفران والجملة تعليل لقوله تعالى فتاب عليه .

﴿ قلنا ﴾ استئنافاً مبنى على سؤال ينسحب عليه الكلام ، كأنه قيل : فإذا وقع بعد قبول توبته فقيل : قلنا ﴿ اهبطوا منها جميعاً ﴾ كرر الأمر بالهبوط إيداناً بتحتم مقتضاه وتحققه لا محالة . ودفعاً لما عسى يقع فى أمنيته عليه

(١) فى ط عليه

(٢) فى ط مواقع

السلام في استتباع قبول التوبة للعفو عن ذلك ، وإظهارا لنوع رأفة به عليه السلام لما بين الأمرين من الفرق الغير ، كيف لا والأول مشوب بضرب سخط مذيل ببيان أن مهبطهم دار بلية وتعاد لا يخلدون فيها . والثاني مقرون بوعد إيتاء الهدى المؤدى إلى النجاة والنجاح ، وأما ما فيه من وعيد العقاب فليس بمقصود من التكليف قصدا أوليا ، بل إنما هو دأثر على سوء اختيار المكلفين قيل وفيه تنبيه على أن الحازم يكفيه في الردع عن مخالفة حكم الله تعالى مخافة الإهباط المقترن بأحد هذين الأمرين ، فكيف بالمقترن بهما فتأمل ، وقيل الأول من الجنة إلى السماء الدنيا ، والثاني منها إلى الأرض ، وبأباه التعرض لاستقرارهم في الأرض في الأول ، ورجوع الضمير إلى الجنة في الثاني وجميعاً حال في اللفظ وتأكيدي في المعنى ، كأنه قيل اهبطوا أنتم أجمعون ولذلك لا يستدعي الاجتماع على الهبوط في زمان واحد كما في قولك جاموا جميعاً ، بخلاف قولك جاموا معاً .

(فإما يأتينكم من هدى) الفاء لترتيب ما بعدها على الهبوط المفهوم من الأمر به وإما مركبة من أن الشرطية وما المزيدة المؤكدة لمعناها والفعل في محل الجزم بالشرط ، لأنه مبنى لاتصاله بنون التأكيدي ، وقيل معرب مطلقاً ، وقيل مبنى مطلقاً ، والصحيح التفصيل . إن باشرته النون بنى وإلا أعرب ، نحو هل يقومان ، وتقديم الظرف على الفاعل لما مر غير مرة ، والمعنى أن يأتينكم من هدى برسول أبعثه إليكم وكتاب أنزله عليكم ، وجواب الشرط قوله تعالى (فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) كما في قولك إن جئتني فإن قدرت أحسنت إليك ، وإيراد كلمة الشك مع تحقق الإتيان لا محالة للإيدان بأن الإيمان بالله والتوحيد لا يشترط فيه بعثة الرسل وإنزال الكتب ، بل يكفي في وجوبه إفاضة العقل ونصب الأدلة الآفاقية والآنفسية ، والتحكين من النظر والاستدلال ، أو للجرى على سنن العظام في إيراد عسى ولعل في مواقع القطع والجزم والمعنى أن من تبع هداى منكم فلا خوف عليهم في الدارين من لحوق مكروه ولا هم يحزنون من فوات مطلوب أى لا يعترهم ما يوجب ذلك ؛ لا (١١ - أبو السعود - أول)

أنه يعترفهم ذلك لكنهم لا يخافون ولا يحزنون ولا أنه لا يعترفهم نفس الخوف والحزن أصلا بل يستمرون على السرور والنشاط ، كيف لا واستشعار الخوف والخشية استعظاما لجلال الله سبحانه وهيبته واستقصارا للجد والسعي في إقامة حقوق العبودية من خصائص الخواص والمقربين والمراد بيان دوام انتفائهما لا بيان انتفاء دوامهما كما يتوهم من كون الخبر في الجملة الثانية مضارعا لما تقرر في موضعه أن النفي وإن دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام ، وإظهار الهدى مضافا إلى ضمير الجلالة لتعظيمه وتأكيده وجوب اتباعه أو لأن المراد بالثاني ما هو أعم من الهديات التشريعية وما ذكر من إفاضة العقل ونصب الأدلة الآفاقية والأنفسية كما قيل ، وقرىء هدى على لغة هذيل ولا خوف بالفتح ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ عطف على من تبع إلخ قسيم له كأنه قيل ومن لم يتبعه ، وإنما أوثر عليه ما ذكر تفضيلا لحال الضلالة وإظهار السكالم قبجها ، وإيراد الموصول بصيغة الجمع للإشعار بكثرة الكفرة ، والجمع بين الكفر والتكذيب للإيدان بتنوع الهدى إلى ما ذكر من النوعين ، وإيراد نون العظمة لتربية المهابة وإدخال الروعة وإضافة الآيات إليها لإظهار كمال قببح التكذيب بها ، أى والذين كفروا برسولنا المرسل إليهم وكذبوا بآياتنا المنزلة عليهم ، وقيل المعنى كفروا بالله وكذبوا بآياته التى أنزلها على الأنبياء عليهم السلام ، أو أظهرها بأيديهم من المعجزات ، وقيل كفروا بالآيات جنانا وكذبوا بها لسانا فيسكون كلا الفعلين متوجها إلى الجار والمجرور والآية فى الأصل العلامة الظاهرة قال النابغة :

توهمت آيات لها فعرقتها لسته أعوام وذا العام سابع
ويقال للمصنوعات من حيث دلالتها على الصانع تعالى وعلمه وقدرته
ولكل طائفة من كلمات القرآن التميزة عن غيرها بفصل لأنها علامة لانفصال
ما قبلها عما بعدها ، وقيل ، لأنها تجمع كلمات منه فيكون من قولهم خرج بنو
فلان بآيتهم أى بجماعتهم قال :

خرجنا من البيتين لا حى مثلنا بآيتنا نزجى النعاج المطافلا

واشتقاقها من أى لأنها تبين أيا من أى ، أو من أوى إليه أى رجوع وأصلها أوية أو أية ، فأبدلت عينها ألفا على غير تياس أو أوية أو أية كرمكة ، فأعلت أو آتية كقائلة ، فحذفت الهمزة تخفيفا ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الموصوف باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة من الكفر والتكذيب وفيه إشعار بتمييزهم بذلك الوصف تميزا مصححا للإشارة الحسية وما فيه من معنى البعد للإيدان ببعدهم منزلتهم فيه وهو مبتدأ وقوله عز وجل : ﴿ أصحاب النار ﴾ أى ملازموها وملابسوها بحيث لا يفارقونها خبره ، والجملة خبر للموصول أو اسم الإشارة بدل من الموصول ، أو عطف بيان له ، وأصحاب النار خبر له وقوله تعالى : ﴿ هم فيها خالدون ﴾ في حيز النصب على الحالية لورود التصريح به في قوله تعالى : ﴿ أصحاب النار خالدون فيها ﴾ وقد جوز كونه حالا من النار لاشتراكه على ضميرها والعامل معنى الإضافة أو اللام المقدرة أو في محل الرفع على أنه خبر آخر لأولئك على رأى من جوز وقوع الجملة خبرا ثانيا ، وفيها متعلق بخالدون والخلود في الأصل المكث الطويل وقد انعقد الإجماع على أن المراد به الدوام .

عناصر كفر بنى إسرائيل

﴿ يا بنى إسرائيل ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى طائفة خاصة من الكفرة المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم لتذكيرهم بفضول النعم العائضة عليهم بعد توجيهه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمره بتذكير كلهم بالنعمة العامة لبني آدم قاطبة بقوله تعالى ﴿ وإذ قال ربك ﴾ الخ ﴿ وإذ قلنا للملائكة ﴾ الخ لأن المعنى كما أشير إليه بلغهم كلامى واذكر لهم إذ جعلنا أباهم خائفة فى الأرض ومسجودا للملائكة عليهم السلام وشرفناه بتعليم الأسماء وقبلنا توبته ، والابن من البناء لأنه مبنى أبيه ولذلك ينسب المصنوع إلى صانعه ، فيقال أبو الحرب وبنت فكر ، وإسرائيل لقب يعقوب عليه السلام ومعناه بالعبودية صفوة الله ، وقيل عبد الله ، وقرىء إسرائيل بحذف الياء ، وإسرائيل ،

بجذفهما وإسرائيل بقلب الهمزة ياء ، واسرائل بهمزة مفتوحة ، واسرائل بهمزة مكسورة بين الراء واللام ، وتخصيص هذه الطائفة بالذكر والتذكير لما أنهم أوفر الناس نعمة وأكثرهم كفرًا بها .

﴿ اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ﴾ بالتفكير فيها والقيام بشكرها ، وفيه إشعار بأنهم قد نسوها بالكلية ، ولم يخطرورها بالبال لأنهم أهملوا شكرها فقط وإضافة النعمة إلى ضمير الجلالة لتشير فيها وإيجاب تخصيص شكرها به تعالى ، وتقييد النعمة بهم لما أن الإنسان مجبول على حب النعمة ، فإذا نظر إلى ما فاض عليه من النعم حمله ذلك على الرضى والشكر ، قيل أريد بها ما أنعم به على آباؤهم من النعم التي سيحییء تفصيلها وعليهم من فنون النعم التي أجلها إدراك عصر النبي عليه السلام ، وقرئ اذكروا من الأفعال ونعمتي بإسكان الياء وإسقاطها في الدرج وهو مذهب من لا يحرك الياء المكسور ما قبلها ﴿ وأوفوا بعهدى ﴾ بالإيمان والطاعة ﴿ أوف بعهدكم ﴾ بحسن الإثابة ، والعهد يضاف إلى كل واحد من يتولى طرفيه ، ولعل الأول مضاف إلى الفاعل والثاني إلى المفعول ، فإنه تعالى عهد إليهم بالإيمان والعمل الصالح بنصب الدلائل وإرسال الرسل وإنزال الكتب ووعدهم بالثواب على حسناتهم ، وللوفاء بهما عرض عريض ، فأول مراتبه منا هو الإتيان بكلمتي الشهادة ، ومن الله تعالى حقن الدماء والأموال ، وآخرها منا الاستغراق في بحر التوحيد بحيث تغفل عن أنفسنا فضلا عن غيرنا ، ومن الله تعالى الفوز باللقاء الدائم وأما ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أوفوا بعهدى في اتباع محمد صلى الله عليه وسلم أوف بعهدكم في رفع الأصار والأغلال . وعن غيره أوفوا بأداء الفرائض وترك الكبائر أوف بالمغفرة والثواب ، أو أوفوا بالاستقامة على الطريق المستقيم أوف بالكرامة والنعيم المقيم ، فبالنظر إلى الوسائط ، وقيل كلاهما مضاف إلى المفعول ، والمعنى أوفوا بما عاهدتموني من الإيمان والتزام الطاعة أوف بما عاهدتكم من حسن الإثابة ، وتفصيل

العهدين قوله تعالى : (ولقد أخذ الله ميثاق بنى اسرائيل) الى قوله (ولأدخلنكم جنات) الخ وقرىء أوف بالتشديد للمبالغة والتأكيد .

﴿ وإياي فارهبون ﴾ فيما تأتون وما تدرون خصوصا في نقض العهد ، وهو أكد في إفادة التخصيص من إياك نعبد ، لما فيه مع التقديم من تكرير المفعول والفاء الجزائية الدالة على تضمن الكلام معنى الشرط كأنه قيل إن كنتم راهبين شيئا فارهبوني ، والرهبنة خوف معه تحرز ، والآية متضمنة للوعد والوعيد ودالة على وجوب الشكر والوفاء بالعهد ، وأن المؤمن ينبغي ألا يخاف إلا الله .

﴿ وآمنوا بما أنزلت ﴾ أفرد الإيمان بالقرآن بالأمر به لما أنه العمدة المقصوى في شأن الوفاء بالعهد ﴿ مصدقا لما معكم ﴾ من التوراة ، والتعبير عنها بذلك للإيدان بعلمهم بتصديقه لها ، فإن المعية مشنة لتكرار المراجعة إليها والوقوف على ما في تضاعيفها المؤدى إلى العلم بكونه مصدقا لها ومعنى تصديقه للتوراة أنه نازل حسبما نعت فيها أو من حيث أنه موافق لها في القصاص والمواعيد والدعوة إلى التوحيد والعدل بين الناس والنهي عن المعاصي والنواحيش : وأما ما يترامى من مخالفته لها في بعض جزئيات الأحكام المتفاوتة بحسب تفاوت الأعصار فليست بمخالفة في الحقيقة ، بل هي موافقة لها من حيث أن كلامها حق بالإضافة إلى عصره وزمانه ، متضمن للحكم التي عليها يدور ذلك التشريع ، وليس في التوراة دلالة على أبدية أحكامها المنسوخة حتى يخالفها ما ينسخها ، وإنما تدل على مشروعيتها مطلقا من غير تعرض لبقائها وزوالها ، بل نقول هي ناطقة بنسخ تلك الأحكام ، فإن نطقها بصحة القرآن الناسخ لها نطق بنسخها ، فإذن مناط المخالفة في الأحكام المنسوخة إنما هو اختلاف العصر حتى لو تأخر نزول المتقدم لنزل على وفق المتأخر ولو تقدم نزول المتأخر لوافق المتقدم قطعا ، ولذلك قال عليه السلام : « لو كان موسى حيا لما وسعه إلا اتباعي » ،

وتقييد المنزل بكونه مصدقا لما معهم لتأكيد وجوب الامتثال بالأمر فإن
إيمانهم بما معهم بما يقتضى الإيمان بما يصدقه قطعاً .

﴿ ولا تكونوا أول كافر به ﴾ أى لا تسارعوا إلى الكفر به ، فإن
وظيفةكم أن تكونوا أول من آمن به لما أنكم تعرفون شأنه وحقيقته بطريق
التلقى مما معكم من الكتب الإلهية كما تعرفون أبناءكم ، وقد كنتم تستفتحون
به وتبشرون بزمانه كما سيحىء ، فلا تضعوا موضع ما يتوقع منكم ويجب
عليكم ما لا يتوهم صدوره عنكم من كونكم أول كافر به ، ووقوع أول
أول كافر به خبراً من ضمير الجمع بتأويل أول فريق أو فوج ، أو بتأويل
لا يكن كل واحد منكم أول كافر به ، كقولك كسانا حلة ، ونهيم
عن التقدم فى الكفر به مع أن مشركى العرب أقدم منهم لما أن المراد به
التعريض لا الدلالة على ما نطق به الظاهر ، كقولك أما أنا فلست بجاهل ،
لأن المراد نهيم عن كونهم أول كافر به من أهل الكتاب ، أو من كفر بما
عنده ، فإن من كفر بالقرآن فقد كفر بما يصدقه أو مثل من كفر من مشركى
مكة ، وأول : أفعال لا فعل له ، وقيل أصله أوأل ، من وأل إليه إذا نجما
وخلص ، فأبدلت الهمزة واوا تخفيفاً غير قياسى ، أو أوأول من آل فقلبت
همزته واوا وأدغمت .

﴿ ولا تشتروا بآياتى ﴾ أى لا تأخذوا لأنفسكم بدلاً منها ﴿ ثمنا قليلاً ﴾
من الحظوظ الدنيوية ، فإنها وإن جلت قليلة مستردلة بالنسبة إلى مافات
عنهم من حظوظ الآخرة بترك الإيمان ، قيل كانت لهم رياسة فى قومهم
ورسوم وعطايا يخافوا عليها لو اتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاختروها ،
على الإيمان ، وإنما عبر عن الشراء الذى هو العمدة فى عقود المعاوضة والمقصود
فيها بالثمن الذى شأنه أن يكون وسيلة فيها وقرنت الآيات التى حققها أن يتنافس
فيها المتنافسون بالباه التى تصحب الوسائل إيداناً بتعكيسهم حيث جعلوا ما هو
المقصد الأسمى وسيلة ، والوسيلة مقصداً .

﴿ وإياي فاتقون ﴾ بالإيمان واتباع الحق والإعراض عن حطام الدنيا ولما كانت الآية السابقة مشتملة على ما هو كالمبادئ لما في الآية الثانية فصلت بالرهبة التي هي من مقدمات التقوى ، أو لأن الخطاب بها لما عم العالم والمقلد أمر فيها بالرهبة المتناولة للتقويين ، وأما الخطاب بالثانية فحيث خص بالعلماء أمر فيها بالتقوى الذي هو المنتهى .

﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل ﴾ عطف على ما قبله واللبس الخلط ، وقد يلزمه الاشتباه من المختلطين والمعنى لا تخلطوا الحق المنزل بالباطل الذي تخترعونه وتكتبونه حتى يشتبه أحدهما بالآخر ، أو لا تجعلوا الحق ملتبسا بسبب الباطل الذي تكتبونه في تضاعيفه ، أو تذكرونه في تأويله ﴿ وتكتموا الحق ﴾ مجزوم داخل تحت حكم النهي كأنهم أمروا بالإيمان وترك الضلال ، ونهوا عن الإضلال بالتلبس على من سمع الحق والإخفاء عن من لم يسمع^(١) أو منصوب بإضمار أن على أن الواو للجمع ، أى لا تجمعوا بين لبس الحق بالباطل وبين كتمانها ، ويعضده أنه في مصحف ابن مسعود وتكتمون أى وأنتم تكتمون أى كاتمين ، وفيه إشعار بأن استقباح اللبس لما يصحبه من كتمان الحق وتكرير الحق إما لأن المراد بالآخر ليس عين الأول بل هو نعت النبي صلى الله عليه وسلم الذي كتبه وكتبوا مكانه غيره كما سيجيء في قوله تعالى (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم) وإما لزيادة تقييد المنهى عنه ، إذ في التصريح باسم الحق ما ليس في ضميره .

﴿ وأنتم تعلمون ﴾ أى حال كونكم عالمين بأنكم لا بسون كاتمون ، أو أنتم تعلمون أنه حق أو وأنتم من أهل العلم ، وليس ليراد الحال لتقييد النهي به كما في قوله تعالى (لا تقر بوا الصلاة وأنتم سكارى) بل لزيادة تقييد حالهم ، إذ الجاهل عسى يعذر .

﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ أى صلاة المسلمين وزكاتهم فإن غيرهما بمنزل من كونه صلوة وزكاة أمرهم الله تعالى بفروع الإسلام بعد الأمر

(١) في ط : يسمعه

بأصوله ﴿واركعوا مع الراكعين﴾ أى فى جماعتهم فإن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة ، لما فيها من تظاهر النفوس فى المناجاة ، وعبر عن الصلاة بالركوع احترازا عن صلاة اليهود وقيل الركوع الخضوع والانقياد لما يلزمهم الشارع قال الأصبط بن قريع السعدى :

لا تحقرن الضعيف علك أن تركع يوماً والدهر قد رفعه

﴿أأمرؤن الناس بالبر﴾ تجريد للخطاب وتوجيه له إلى بعضهم بعد توجيهه إلى الكل والهمزة فيها تقرير مع توبيخ وتعجيب والبر التوسع فى الخير من البر الذى هو الفضاء الواسع يتناول جميع أصناف الخيرات ، ولذلك قيل البر ثلاثة : بر فى عبادة الله تعالى ، وبر فى مراعاة الأقارب ، وبر فى معاملة الأجانب .

﴿وتنسون أنفسكم﴾ أى تتركونها من البر كالمنسيات عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها نزلت فى أحبار المدينة كانوا يأمرؤن سرا من نصحوه باتباع النبى صلى الله عليه وسلم ولا يتبعونه طمعا فى الهدايا والصلوات التى كانت تصل إليهم من أتباعهم وقيل كانوا يأمرؤن بالصدقة ولا يتصدقون ، وقال السدى : لمنهم كانوا يأمرؤن الناس بطاعة الله تعالى وينهونهم عن معصيته وهم يتركون الطاعة ويقدمون على المعصية ، وقال ابن جريج : كانوا يأمرؤن الناس بالصلاة والزكاة وهم يتركونها ومدار الإنكار والتوبيخ هى الجملة المعطوفة دون ما عطفت هى عليه .

﴿وأتمم تعلمون الكتاب﴾ تبكيت لهم وتقريع كقوله تعالى ﴿وأتمم تعلمون﴾ أى والحال أنكم تتلون التوراة الناطقة بنعوته صلى الله عليه وسلم الأمرة بالإيمان به أو بالوعد بفعل الخير والوعيد على الفساد والعناد وترك البر ومخالفة القول العمل ﴿أفلا تعقلون﴾ أى أتتونه فلا تعقلون ما فيه ، أو قبح ما تصنعون حتى تردعوا عنه ، فالإنكار متوجه إلى عدم العقل^(١) بعد تحقق ما يوجبه فالمبالغة من حيث الكيف أو ألا تتأملون فلا تعقلون ، فالإنكار متوجه إلى

(١) فى ١١ : الفعل

كلا الأمرين والمبالغة حينئذ من حيث السكيم ، والعقل في الأصل المنع والإمسك ، ومنه العقال الذي يشد به وظيف البعير إلى ذراعه لحبسه عن الحراك سمي به النور الروحاني الذي به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية لأنه يحبسه عن تعاطي ما يقبح ويعقله على ما يحسن ، والآية كما ترى ناعية على كل من يعظ غيره ولا يتعظ بسوء صنيعه وعدم تأثره وإن فعله فعل الجاهل بالشرع أو الأحق الخالي عن العقل ، والمراد بها كما أشير إليه حثه على تزكية النفس والإقبال عليها بالتكامل لتقوم بالحق فتقيم غيرها لا تمنع الفاسق عن الوعظ يروى أنه كان عالم من العلماء مؤثر الكلام قوى التصرف في القلوب ، وكان كثيرا ما يموت من أهل مجلسه واحد أو اثنان من شدة تأثير وعظه ، وكان في بلده عجوز لها ابن صالح رقيق القلب سريع الانفعال وكانت تحتز عليه وتمنعه من حضور مجلس الواعظ فحضره يوما على حين غفلة منها فوقع من أمر الله تعالى ما وقع ثم إن العجوز لقيت الواعظ يوما في الطريق فقالت :

لتهدى الأنام ولا تهتدى ألاب ذلك لا ينفع
فيا حجر الشحذ حتى متى تسن الحديد ولا تقطع
فلما سمعه الواعظ شهق شهقة نخر عن فرسه ممشيا عليه فحملوه إلى بيته
فتوفى إلى رحمة الله سبحانه .

﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ متصل بما قبله كأنهم لما كلفوا ما فيه مشقة من ترك الرياضة والإعراض عن المال عولجوا بذلك والمعنى استعينوا على حوائجكم بانتظار النجح والفرج توكلوا على الله تعالى أو بالصوم الذي هو الصبر عن المفطرات لما فيه من كسر الشهوة وتصفية النفس والتوسل بالصلاة والالتجاء إليها فإنها جامعة لأنواع العبادات النفسانية والبدنية من الطهارة وستر العورة وصرف المال فيهما والتوجه إلى الكعبة والعكوف على العبادة وإظهار الخشوع بالجوارح وإخلاص النية بالقلب ومجاهدة الشيطان ومناجاة الحق وقرأة القرآن والتكلم بالشهادة وكف النفس عن الأطيبين حتى تجابوا إلى تحصيل المسآرب وجبر المصائب روى أنه عليه السلام كان إذا حزبه أمر

فزع إلى الصلاة ويجوز أن يراد بها الدعاء ﴿ولإنها﴾ أى الاستعانة بهما أو الصلاة وتخصيصها برد الضمير إليها لعظم شأنها واشتغالها على ضروب من الصبر كما في قوله تعالى (وإذا رأوا تجارة أو هواً انفضوا إليها) أو جملة ما أمروا بها ونهوا عنها ﴿لكبيرة﴾ لتفيله شاقة كقوله تعالى كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ﴿إلا﴾ على الخاشعين ﴿الخشوع الإخبات ومنه الخشعة للرملة المنتظمة والخضوع اللين والانتقاد ولذلك يقال الخشوع بالجوارح والخضوع بالقلب مؤنثاً لم تنقل عليهم لأنهم يتوقعون ما أعد لهم بمقابلتها فتهون عليهم ولأنهم يستغرقون في مناجاة ربهم فلا يدركون ما يجرى عليهم من المشاق والمتاعب ولذلك قال عليه السلام ووقرة عيني في الصلاة، والجملة حالية أو اعتراض تذييلي ﴿الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون﴾ أى يتوقعون لقاءه تعالى ونيل ما عنده من المثوبات والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إليهم للايدان بفيضان لإحسانه إليهم أو يتيقنون أنهم يحشرون إليه للجزاء فيعملون على حسب ذلك رغبة ورهبة وأما الذين لا يوقنون بالجزاء ولا يرجون الثواب ولا يخافون العقاب كانت عليهم مشقة خالصة فتثقل عليهم كالمناققين والمرائين فالتعرض للعنوان المذكور للإشعار بعملية الربوبية والمالكية للحكم ويؤيده أن في مصحف ابن مسعود رضى الله عنه يعلمون وكأن الظن لما شابه العلم في الرجحان أطلق عليه لتضمن معنى التوقع قال :

فأرسلته مستيقن الظن أنه مخالط ما بين الشراسيف جائف
وجعل خبر إن في الموضوعين اسماً للدلالة على تحقق اللقاء والرجوع
وتقررهما عندهم ﴿يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم﴾ كرر التذكير
للتأكيد ولربط ما بعده من الوعيد الشديد به ﴿وأنى فضلتمكم﴾ عطف على نعمتى
عطف الخاص على العام لكماله أى فضلت آباءكم ﴿على العالمين﴾ أى عالمى
زمانهم بما منحتمهم من العلم والإيمان والعمل الصالح وجعلتهم أنبياء وملوكاً
مقسطين وهم آباؤهم الذين كانوا فى عصر موسى عليه السلام وبعده قبل أن
يغيروا ﴿واتقوا يوماً﴾ أى حساب يوم أو عذاب يوم ﴿لا تجزى نفس عن

نفس شيئاً ﴿ أى لا تقضى عنها شيئاً من الحقوق فانتصاب شيئاً على المفعولية أو شيئاً من الجزاء فيكون نصبه على المصدرية وقرىء لا تجزى : أى لا تغنى عنها فيتعين النصب على المصدرية وإيراده منكرًا مع تنكير النفس للتعميم والإقنات السكلى والجملة صفة يوما والعاث منها محذوف أى لا تجزى فيه ومن لم يجوز الحذف قال اتسع فيه فحذف الجار وأجرى المجرور مجرى المفعول به ثم حذف كما حذف في قول من قال :

فما أدرى أغيرهم تناء وطول العهد أم مال أصابوا

أى أصابوه ﴿ ولا تقبل منها شفاعته ولا يؤخذ منها عدل ﴾ أى من النفس الثانية العاصية أو من الأولى والشفاعة من الشفع كأن المشفوع له كان فرداً فجعله الشفيع شفعا والعدل الفدية وقيل البدل وأصله التسوية سمي به الفدية لأنها تساوى المفدى وتجزى مجزاه ﴿ ولا هم يتصرون ﴾ أى يمتنعون من عذاب الله عز وجل والضمير لما دلت عليه النفس الثانية المنسكرة الواقعة في سياق النبي من النفوس الكثيرة والتذكير لكونها عبارة عن العباد والأناسى والنصرة ههنا أخص من المعونة لاختصاصها بدفع الضرر وكأنه أريد بالآية نبي أن يدفع العذاب أحد عن أحد من كل وجه محتمل فإنه إما أن يكون قهرا أولا والأول النصرة ، والثاني إما أن يكون مجانا أولا ، والأول الشفاعة والثاني إما أن يكون بأداء عين ما كان عليه وهو أن يجزى عنه أو بأداء غيره وهو أن يعطى عنه عدلا وقد تمسكت المعتزلة بهذه الآية على نفي الشفاعة لأهل الكبائر والجواب أنها خاصة بالكفار للآيات الواردة في الشفاعة والأحاديث المروية فيها ويؤيده أن الخطاب معهم ولردم عما كانوا عليه من اعتقاد أن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم ﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون ﴾ تذكير لتفاصيل ما أجمل في قوله تعالى (نعمتى التى أنعمت عليكم) من فنون النعماء وصنوف الآلاء أى واذكروا وقت تنجيتنا إياكم أى آباءكم فإن تنجيتهم تنجية لأعقابهم وقرىء أنجيئكم وأصل آل أهل لأن تصغيره أهيل وخص بالإضافة إلى أولى الأخطار كالأنبياء

عليهم السلام والملوك وفرعون لقب لمن ملك العمالة ككسرى ملك الفرس وقبصر ملك الروم وخاقان ملك الترك ولعتوه اشتق منه تفرعن الرجل إذا عتا وتمرد وكان فرعون موسى عليه السلام مصعب بن ريان وقيل ابنه وليدا من بقايا عاد وقيل لأنه كان عطارا أصفها نيا ركبته الديون فأفلس فاضطر إلى الخروج فلحق بالشام فلم يتسن له المقام به فدخل مصر فرأى في ظاهره حملا من البطيخ بدرهم ، وفي نفسه بطيخة بدرهم فقال في نفسه إن تيسر لي أداء الدين فهذا طريقه نخرج إلى السواد فاشتري حملا بدرهم فتوجه به إلى السوق فكل من لقيه من المسكسين أخذ منه بطيخة فدخل المصر ومامعه الا بطيخة فباعها بدرهم ومضى لوجهه ورأى أهل البلد متروكين سدى لا يتعاطى أحد سياستهم وكان قد وقع بهم وباء عظيم فتوجه نحو المقابر فرأى ميتا يدفن فتعرض لأوليائه فقال أنا أمين المقابر فلا أدعكم تدفنونه حتى تعطوني خمسة دراهم فدفعوها إليه ومضى لآخر وآخر حتى جمع في مقدار ثلاثة أشهر مالا عظيما ولم يتعرض له قط إلى أن تعرض يوما لأولياء ميت فطلب منهم ما كان يطلب من غيرهم فأبوا ذلك فقالوا من نصبك هذا المنصب فذهبوا به إلى فرعون فقال من أنت ومن أقامك بهذا المقام قال لم يقمى أحد وإنما فعلت ما فعلت ليحضرني أحد إلى مجلسك فأنبهك على اختلال حال قومك وقد جمعت بهذا الطريق هذا المقدار من المال فأحضره ودفعه إلى فرعون فقال ولنى أمورك ترى أمينا كافيا فولاه إياها فسار بهم سيرة حسنة فانتظمت مصالح العسكر واستقامت أحوال الرعية ولبث فيهم أمدا طويلا وترامى أمره في العدل والصلاح فلما مات فرعون أقاموه مقامه فكان من أمره ما كان وكان فرعون يوسف ريان وكان بينهما أكثر من أربعائة سنة ﴿يسومونكم﴾ أى يبغونكم من سامه خسفاً إذا أولاه ظلما وأصله الذهاب فى طلب الشيء ﴿سوء العذاب﴾ أى أفضله وأقبحه بالنسبة إلى سائره والسوء مصدر من ساء يسموه ونصبه على المفعولية ليسومونكم والجملة حال من الضمير فى نجيناكم أو من آل فرعون أو منهما

جميعا لاشتمالها على ضميريهما ﴿ يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ﴾ بيان ليسومونكم . ولذلك ترك العاطف بينهما وقرىء يذبحون بالتخفيف وإنما فعلوا بهم ما فعلوا لما أن فرعون رأى فى المنام أو أخبره الكهنة أنه سيولد منهم من يذهب بملكه فلم يرد اجتهادهم من قضاء الله عز وجل شيئا قيل قتلوا بتلك الطريقة ألف مولود وتسعين ألفا وقد أعطى الله عز وجل نفس موسى عليه السلام من القوة على التصرف ما كان يعطيه أولئك المقتولين لو كانوا أحياء ولذلك كانت معجزاته ظاهرة باهرة ﴿ وفى ذلكم ﴾ إشارة إلى ما ذكر من التذبيح والاستحياء أو إلى الإنجاء منه وجمع الضمير للمخاطبين فعلى الأول معنى قوله تعالى ﴿ بلاء ﴾ محنة وبلية وكون استحياء نساءهم أى استبقائهن على الحياة محنة مع أنه عفو وترك للعذاب لما أن ذلك كان للاستعمال فى الأعمال الشاقة وعلى الثانى نعمة وأصل البلاء الاختبار ولكن لما كان ذلك فى حقه سبحانه محالا وكان ما يجرى مجرى الاختبار لعباده تارة بالمحنة وأخرى بالمنحة أطلق عليهما وقيل يجوز أن يشار بذلكم إلى الجملة ويراد بالبلاء القدر المشترك الشامل لهما ﴿ من ربكم ﴾ من جهته تعالى بتسليطهم عليكم أو ببعث موسى عليه السلام وتوفيقه لتخليصكم منهم أو بهما معا ﴿ عظيم ﴾ صفة لبلاء وتنكيرهما للتفخيم ، وفى الآية الكريمة تنبيه على أن ما يصيب العبد من السراء والضراء من قبيل الاختبار فعليه الشكر فى المسار والصر على المضار ﴿ وإذ فرقنا بكم البحر ﴾ بيان لسبب التنجية وتصوير لكيفية أثر تذكيرها وبيان عظمها وهولها وقد بين فى تضاعيف ذلك نعمة جليلة أخرى هى الإنجاء من الغرق أى واذكروا إذ فلقناه بسلوكم كقولته تعالى (تنبت بالدهن) أو بسبب إنجائكم وفصلنا بين بعضه وبعض حتى حصلت مسالك وقرىء بالتشديد للتكثير لأن المسالك كانت اثنى عشر بعدد الأسباط ﴿ فأنجيناكم ﴾ أى من الغرق بإخراجكم إلى الساحل كما يصرح (١) به العدول إلى صيغة الأفعال بعد إيراد التخليص من فرعون بصيغة التفعيل وكذا قوله تعالى :

(١) فى ط : كما يلوخ

﴿وأغرقنا آل فرعون﴾ أريد فرعون وقومه وإنما اقتصر على ذكرهم للعلم بأنه أولى به منهم وقيل شخصه كما روى أن الحسن رضى الله عنه كان يقول اللهم صل على آل محمد أى شخصه واستغنى بذكره عن ذكر قومه ﴿وأنتم تنظرون﴾ ذلك أو غرقهم وإطياق البحر عليهم أو انفلاق البحر عن طرق يابسة مذلة أو جثثهم التي قذفها البحر إلى الساحل أو ينظر بعضكم بعضا روى أنه تعالى أمر موسى عليه السلام أن يسرى بيني إسرائيل فخرج بهم فصيحهم فرعون وجنوده وصادفوه على شاطئ البحر فأوحى الله تعالى إليه أن اضرب بعصاك البحر فضر به بها فظهر فيه اثنا عشر طريقا يابسا فسلسكوها فقالوا نخاف أن يغرق بعض أصحابنا فلا نعم ففتح الله تعالى فيها كوى فتراوا وتسامعوا حتى عبروا البحر فلما وصل إليه فرعون فرآه منفلقا اقتحمه هو وجنوده فغشيهما ما غشيهما واعلم أن هذه الواقعة كما أنها لموسى معجزة عظيمة تنخر لها أطم الجبال ونعمة عظيمة لأوائل بنى إسرائيل موجبة عليهم شكرها كذلك اقتصاصها على ما هي عليه من رسول الله صلى الله عليه وسلم معجزة جليلة تطمئن بها القلوب الأبية وتنقاد لها النفوس الغبية موجبة لأعقابهم أن يتلقوها بالإذعان فلا تأثرت أوائلهم بمشاهدتها ورؤيتها ولا تذكرت أو آخرهم بتذكيرها وروايتها فيا لها من عصابة ما أعصاها وطائفة ما أطغاها ﴿وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة﴾ لما عادوا إلى مصر بعد مهلك فرعون وعد الله موسى عليه السلام أن يعطيه التوراه ميقاتا ذا القعدة وعشر ذى الحجة وقيل وعد عليه السلام بنى إسرائيل وهو بمصر إن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب من عند الله تعالى فيه بيان ما يأتون وما يندرون فلما هلك فرعون سأل موسى ربه السكتاب فأمره بصوم ثلاثين وهو شهر ذى القعدة ثم زاد عشرأ من ذى الحجة وعبر عنها بالليالى لأنها غرر الشهور وصيغة المفاعلة بمعنى الثلاثى وقيل على أصلها تنزيلا لقبول موسى عليه السلام منزلة الوعد وأربعين ليلة مفعول ثان لواعدنا على حذف المضاف أى بمقام أربعين ليلة وقرىء واعدنا ﴿ثم اتخذتم العجل﴾ بتسويل السامرى لها ومعبودا وثم للتراخي الرتبى ،

﴿من بعده﴾ أى من بعد مشيه إلى الميقات على حذف مضاف ﴿وأنتم ظالمون﴾
 يأشركم ووضعكم للشيء فى غير موضعه وهو حال من ضمير اتخذتم
 أو اعتراض تذييلى أى وأنتم قوم عادتكم الظلم ﴿ثم عفو نا عنكم﴾ حين تبتم
 والعفو نحو الجريمة من عفاه درسه وقد يجيء لازما قال :

عرفت المنزل الخالى عفا من بعد أحوال
 عفاه كل هتان كثير الويل هطال

وقوله تعالى : ﴿من بعد ذلك﴾ أى من بعد الاتخاذ الذى هو مثناه فى
 القبح للإيدان بكمال بعد العفو بعد تلك المرتبة من الظلم ﴿لعلكم تشكرون﴾
 لى تشكروا نعمة العفو وتستمروا بعد ذلك على الطاعة ﴿وإذ آتينا موسى
 الكتاب والفرقان﴾ أى التوراة الجامعة بين كونها كتابا وحجة تفرق بين
 الحق والباطل وقيل أريد بالفرقان معجزاته الفارقة بين الحق والباطل فى
 الدعوى أو بين الكفر والإيمان وقيل الشرع الفارق بين الحلال والحرام
 أو النصر الذى فرق بينه وبين عدوه كقوله تعالى يوم الفرقان يريد به يوم
 بدر ﴿لعلكم تهتدون﴾ لى تهتدوا بالتدبر فيه والعمل بما يحويه ﴿وإذ قال
 موسى لقومه﴾ بيان لكيفية وقوع العفو المذكور ﴿يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم
 باتخاذكم العجل﴾ أى معبودا ﴿فتوبوا﴾ أى فاعزموا على التوبة ﴿إلى بارئكم﴾
 أى إلى من خلقكم بريئا من العيوب والنقصان والتفاوت وميز بعضكم من
 بعض بصور وهياكل مختلفة وأصل التركيب الخلوص عن الغير إما بطريق
 التفصى كما فى برىء ومن الغواية منتهاها حيث تركوا عبادة العليم الحكيم
 الذى خلقهم بلطيف حكمته بريئا من التفاوت والتنافر إلى عبادة البقر
 الذى هو مثل فى الغباوة وأن من لم يعرف حقوق منعمه تحقيق بأن تسترد
 هى منه ولذلك أمروا بالقتل وفك التركيب ﴿فاقتلوا أنفسكم﴾ تماما لتوبتكم
 بالبئع أو بقطع الشهوات وقيل أمروا أن يقتل بعضهم بعضا وقيل أمر من
 لم يعبد العجل بقتل من عبده . يروى أن الرجل كان يرى قريبه فلم يقدر على

المضى لأمر الله تعالى فأرسل الله ضيابة وسحابة سوداء لا يتباصرون بها فأخذوا يقتتلون من الغداة إلى العشى حتى دعا موسى وهارون عليهما السلام فكشفت السحابة ونزلت التوبة وكانت القتلى سبعين الفا والفاة الأولى للتسبيب والثانية للتعقيب ﴿ذلكم﴾ إشارة إلى ما ذكر من التوب والقتل ﴿خير لكم عند بارئكم﴾ لما أنه طهرة عن الشرك ووصلة إلى الحياة الأبدية والبهجة السرمدية ﴿فتاب عليكم﴾ عطف على محذوف على أنه خطاب منه سبحانه على نهج الالتفات من التكلم الذى يقتضيه سباق النظم الكريم وسياقه فإن مبنى الجميع على التكلم إلى الغيبة ليكون ذريعة إلى إسناد الفعل إلى ضمير بارئكم المستمع للايدان بعلمية عنوان البارئية والخلق والإحياء لقبول التوبة التى هى عبارة عن العفو عن القتل تقديره فعلتم ما أمرتم به فتاب عليكم وإنما لم يقل فتاب عليهم على أن الضمير للقوم لما أن ذلك نعمة أريد التذكير بها للمخاطبين لا لأسلافهم هذا وقد جوز أن يكون فتاب عليكم متعلقا بمحذوف على أنه من كلام موسى عليه السلام لقومه تقديره إن فعلتم ما أمرتم به فقد تاب عليكم ولا يخفى أنه بعزل من اللياقة بجملة شأن التنزيل كيف لا وهو حيثئذ حكاية لوعده موسى عليه السلام قومه بقبول التوبة منه تعالى لا لقبوله تعالى حتما وقد عرفت أن الآية الكريمة تفصيل لكيفية القبول المحكى فيما قبل وأن المراد تذكير المخاطبين بتلك النعمة .

﴿إنه هو التواب الرحيم﴾ تعليل لما قبله أى الذى يكفى توفيق المذنبين للتوبة ويبالغ فى قبولها منهم وفى الإنعام عليهم ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك﴾ تذكير لنعمة أخرى عليهم بعد ما صدر عنهم ما صدر من الجنائفة العظيمة التى هى اتخاذ العجل أى لن نؤمن لأجل قولك ودعوتك أو لن نقر لك والمؤمن به إعطاء الله إياه التوراة أو تسليمه إياه أو أنه نبي أو أنه تعالى جعل توبتهم بقتلهم أنفسهم ﴿حتى أرى الله جهرة﴾ أى عيانا وهى فى الأصل مصدر قولك جهرت بالقراءة استعيرت للمعاينة لما بينهما من الاتحاد فى الوضوح والانكشاف إلا أن الأول فى المسموعات والثانى فى المبصرات

ونصبها على المصدرية لأنها نوع من الرؤية أو حال من الفاعل أو المفعول. وقرئ بفتح الهاء على أنها مصدر كالتغلب أو جمع كالكتابة فيكون حالا من الفاعل لا غير والقائلون هم السبعون المختارون لميقات التوبة عن عبادة العجل ، روى أنهم لما ندموا على ما فعلوا وقالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويفر لنا لنكونن من الخاسرين أمر الله موسى عليه السلام أن يجمع سبعين رجلا ويحضر معهم الطور يظهر فيه تلك التوبة فلما خرجوا إلى الطور وقع عليه عمود من الغمام وتغشاه كله فكلم الله موسى عليه السلام يأمره وينهاه ، وكان كلما كلبه تعالى أوقع على جبهته نورا ساطعا لا يستطيع أحد من السبعين النظر إليه وسمعوا كلامه تعالى مع موسى عليه السلام ففعل ولا تفعل فعند ذلك طمعوا في الرؤية فقالوا ما قالوا كما سيأتي في سورة الأعراف إن شاء الله تعالى وقيل عشرة آلاف من قومه ﴿ فأخذتكم الساعة ﴾ لفرط العناد والتعنت وطلب المستحيل فإنهم ظنوا أنه سبحانه وتعالى بما يشبه الأجسام وتعلق به الرؤية تعلقها بها على طريق المقابلة في الجهات والأحياز ولا ريب في استحالة إنما الممكن في شأنه تعالى الرؤية المنزهة عن الكيفيات بالسكوية وذلك للمؤمنين في الآخرة وللأفراد من الأنبياء الذين بلغوا في صفاء الجوهر إلى حيث تراهم كأنهم وهم في جلايب من أبدانهم قد نضوها وتجردوا عنها إلى عالم القدس في بعض الأحوال في الدنيا قيل جاءت نار من السماء فأحرقتهم وقيل صيحة وقيل جنود سمعوا بحسيسها فخروا صعقن ميتين يوما وليلة وعن وهب أنهم لم يموتوا بل لما رأوا تلك الهيئة الهائلة أخذتهم الرعدة ورجفوا حتى كادت تبين مفاصلهم وتنقض ظهورهم وأشرفوا على الهلاك فعند ذلك بكى موسى عليه السلام ودعاه به فكشف الله عز وجل عنهم ذلك فرجعت إليهم عقولهم ومشاعرهم ولم تكن صعقة موسى عليه السلام موتاً بل غشية لقوله تعالى فلما أفاق ﴿ وأنتم تنظرون ﴾ أي ما أصابكم بنفسه أو بآثاره ﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم ﴾ بتلك الصاعقة قيد البعث به لما أنه قد

يكون من الإغماء وقد يكون من النوم كما في قوله تعالى ﴿ثم بعثناهم لنعلم﴾ الخ
 ﴿لعلكم تشكرون﴾ أى نعمة البعث أو ما كفرتموه بما رأيتم من بأس
 الله تعالى .

﴿وظللنا عليكم الغمام﴾ أى جعلناها بحيث تلقى عليكم ظلها وذلك أنه تعالى
 سخر لهم السحاب يسير بسيرهم وهم فى التيه يظلمهم من الشمس وينزل بالليل
 عمود من نار يسرون فى ضوئه وثيابهم لا تتسخ ولا تبلى ﴿وأنزلنا عليكم
 المن والسلوى﴾ أى الترنجين والسمانى وقيل كان ينزل عليهم المن مثل الثلج من
 الفجر إلى الطلوع لكل إنسان صاع وتبعث الجنوب عليهم السمانى فيندج الرجل
 منه ما يكفيه ﴿كلوا﴾ على إرادة القول أى قائلين لهم أو قيل لهم كلوا ﴿من
 طبيات ما رزقناكم﴾ من مستلذاته وما موصولة كانت أو موصوفة عبارة عن
 المن والسلوى ﴿وما ظلمونا﴾ كلام عدل بهم عن نهج الخطاب السابق للإيدان
 باقتضاء جنائيات المخاطبين للإعراض عنهم وتعداد قبائحهم عند غيرهم على طريق
 المباشرة معطوف على مضمرة قد حذف للإيجاز والإشعار بأنه أمر محقق غنى عن
 التصريح به أى فظلموا بأن كفروا تلك النعم الجليلة وما ظلمونا بذلك ﴿ولكن
 كانوا أنفسهم يظلمون﴾ بالكفران إذ لا يتخطاهم ضرره وتقديم المفعول
 للدلالة على القصر الذى يقتضيه النفى السابق وفيه ضرب تهكم بهم والجمع بين
 صيغتي الماضى والمستقبل للدلالة على تماديهم فى الظلم واستمرارهم على الكفر
 ﴿وإذ قلنا﴾ تذكير لنعمة أخرى من جنابه تعالى وكفرة أخرى لأسلافهم أى
 واذكروا وقت قولنا لأبائكم لإثر ما أنقذناهم من التيه ﴿ادخلوا هذه القرية﴾
 منصوبة على الظرفية عند سيديويه وعلى المفعولية عند الأخفش وهى بيت
 المقدس وقيل أريحا ﴿فكلوا منها حيث شئتم رغدا﴾ أى واسعا هنيئا ونصبه
 على المصدرية أو الحالية من ضمير المخاطبين وفيه دلالة على أن المأمور به
 الدخول على وجه الإقامة والسكنى فيقول إلى ما فى سورة الأعراف من قوله
 تعالى اسكنوا هذه القرية ﴿وادخلوا الباب﴾ أى باب القرية على ما روى من
 أنهم دخلوا أريحا فى زمن موسى عليه السلام كما سيجىء فى سورة المائدة أو

باب القبة التي كانوا يصلون إليها فإنهم لم يدخلوا بيت المقدس في حياة موسى عليه السلام ﴿سجداً﴾ أى متطامنين مخبتين أو ساجدين لله شكراً على إخراجهم من التيه ﴿وقولوا حطة﴾ أى مثلنا أو أمرك حطه وهى فعلة من الحط كالجلسة وقرىء بالنصب على الأصل بمعنى حط عنا ذنوبنا حطة أو على أنها مفعول قولوا أى قولوا هذه الكلمة وقيل معناه أمرنا حطة أى أن نحط رحالنا في هذه القرية ونقيم بها ﴿نغفر لكم خطاياكم﴾ لما تفعلون من السجود والدعاء وقرىء بالياء والتاء على البناء للمفعول وأصل خطايا خطايء كخصايص فعند سيويوه أبدلت الياء الزائدة همزة بين ألفين فأبدلت ياء وعند الخليل قدمت الهمزة على الياء ثم فعل بها ما ذكر ﴿وسنزيد المحسنين﴾ ثواباً جعل الامتثال توبة للمسيء وسبباً لزيادة الثواب للمحسن وأخرج ذلك عن صورة الجواب إلى الوعد لئذنا بأن المحسن بصدد ذلك وإن لم يفعله فكيف إذا فعله وأنه يفعله وأنه يفعلها لا محالة ﴿فبدل الذين ظلموا﴾ بما أمروا به من التوبة والاستغفار بأن أعرضوا عنه وأوردوا مكانه ﴿قولاً﴾ آخر بما لا خير فيه روى أنهم قالوا مكان حطة حنطة وقيل قالوا بالنبطية حطاً سمقاسا يمتنون حنطة حمراء استخفافاً بأمر الله عز وجل ﴿غير الذى قيل لهم﴾ نعت لقولاً وإنما صرح به مع استحاله تحقق التبديل بلا مغايرة تحقيقاً لمخالفتهم وتنصيها على المغايرة من كل وجه ﴿فأنزلنا﴾ أى عقيب ذلك ﴿على الذين ظلموا﴾ بما ذكر من التبديل وإنما وضع الموصول موضع الضمير العائد إلى الموصول الأول للتعليل والمبالغة في الذم والتفريع وللتصريح بأنهم بما فعلوا قد ظلموا أنفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى ﴿رجزاً من السماء﴾ أى عذاباً مقدرها منها والتنوين للتحويل والتفخيم ﴿بما كانوا يفسقون﴾ بسبب فسقهم المستمر حسبما يفيد الجمع بين صيغتي الماضى والمستقبل وتعليل إنزال الرجز به بعد الإشعار بتعليله بظلمهم للإيدان بأن ذلك فسق وخروج عن الطاعة وغلو في الظلم وأن تعذيبهم بجميع ما ارتكبوه من القبائح لا بعدم توبتهم فقط كما يشعر به ترتيبه على ذلك بالفاء والرجز فى الأصل ما يعاف عنه وكذلك الرجز وقرىء بالضم وهو لغة فيه والمراد به الطاعون

روى أنه مات به في ساعة واحدة أربعة وعشرون ألفاً ﴿ وإذ استسقى موسى لقومه ﴾ تذكير لنعمة أخرى كفروها وكان ذلك في التيه حين استولى عليهم العطش الشديد وتغيير الترتيب لما أشير إليه مرارا من قصد إبراز كل من الأمور المعدودة في معرض أمر مستقل واجب التذكير والتذكر ولو روعي الترتيب الوقوعي لفرض أن السكك أمر واحد أمر بذكره واللام متعلقة بالفعل أى استسقى لأجل قومه ﴿ فقلنا اضرب بعصاك الحجر ﴾ روى أنه كان حجرا طوريا مكعبا حمله معه وكان ينبع من كل وجه منه ثلاث أعين تسيل كل عين في جدول إلى سبط وكانوا ستائة ألف وسعة المعسكر اثني عشر ميلا أو كان حجرا أهبطه الله تعالى مع آدم عليه السلام من الجنة ووقع إلى شعيب عليه السلام فأعطاه موسى عليه السلام مع العصا أو كان هو الحجر الذي فر بثوبه حين وضعه عليه ليغتسل وبرأه الله تعالى به عما رموه به من الأدرة فأشار إليه جبريل عليه السلام أن يحمله أو كان حجرا من الحجارة وهو الأظهر في الحجة قيل لم يؤمر عليه السلام بضرب حجر بعينه ولما قالوا كيف بنا لو أفضينا إلى أرض لا حجارة بها حمل حجرا في مخلاته وكان يضربه بعصاه إذا نزل فيتفجر ويضربه إذا ارتحل فييبس فقالوا إن فقد موسى عصاه متناعطاشا ، فأوحى الله تعالى إليه أن لا تفرح الحجر وكلبه يطعمك لعلمهم يعتبرون وقيل كان الحجر من رخام حجمه ذراع في ذراع والعصا عشرة أذرع على طوله عليه السلام من آس الجنة ولها شعبتان تتقدان في الظلمة ﴿ فانفجرت ﴾ عطف على مقدر. يندسحب عليه الكلام قد حذف للدلالة على كمال سرعة تحقق الانفجار كأنه حصل عقيب الأمر بالضرب أى فضرب فانفجرت ﴿ منه اثنتا عشرة عينا ﴾ وأما تعلق الفاء بمحذوف أى فإن ضربت فقد انفجرت فغير تحقيق بجملالة. شأن النظم الكريم كما لا يخفى على أحد وقرئ عشره بكسر الشين وفتحها وهما، أيضاً لغتان ﴿ قد علم كل أناس ﴾ كل سبط ﴿ مشربهم ﴾ عينهم الخاصة بهم ﴿ كلوا واشربوا ﴾ على إرادة القول ﴿ من رزق الله ﴾ هو ما رزقهم من المن والسلوى والماء وقيل هو الماء وحده لأنه يؤكل ما ينبت به من الزروع والثمار ويأباه.

أن المأمور به أكل النعمة العتيدة لا ما سيطلبونه وإضافته إليه تعالى مع استناد الكل إليه خاتماً وملكاً إما للتشريف وإما لظهوره بغير سبب عادي وإنما لم يقل من رزقنا كما يقتضيه قوله تعالى فقلنا الخ إذنا بأن الأمر بالآكل والشرب لم يكن بطريق الخطاب بل بواسطة موسى عليه السلام ﴿ولا تعثوا في الأرض﴾ العث أشد الفساد فقل لهم لا تتبادوا في الفساد حال كونكم ﴿مفسدين﴾ وقيل إنما قيد به لأن العث في الأصل مطلق التعدي وإن غلب في الفساد وقد يكون في غير الفساد كما في مقابلة الظالم المعتدى بفعله وقد يكون فيه صلاح راجح كقتل الخضر عليه السلام للغلام وخرقه للسفينة ونظيره العيث خلا أنه غالب فيما يدرك حساً ﴿وإذ قلتم﴾ تذكير لجناية أخرى لأسلافهم وكفرانهم لنعمة الله عز وجل وإخلاصهم إلى ما كانوا فيه من الهداية والحساسة وإسناد القول المحكي إلى أخلاقهم وتوجيه التوبيخ إليهم لما بينهم من الاتحاد ﴿يا موسى إن نصبر على طعام واحد﴾ لهم لم يريدوا بذلك جمع ما طلبوا مع ما كان لهم من النعمة ولا زوالها وحصول ما طلبوا مكانها إذ ياباه التعرض للوحدة بل أرادوا أن يكون هذا تارة وذاك أخرى . روى أنهم كانوا فلاحاً فنزعوا إلى عكرهم فأجمعوا ما كانوا فيه من النعمة العتيدة لوحدها النوعية وإطرادها . وتأتى أنفسهم إلى الشقاء ﴿فادع لنا ربك﴾ أى سله لأجلنا بدعائك إياه والفاء لسببية عدم الصبر للدعاء والتعرض لعنوان الربوبية لتمهيد مبادئ الإجابة ﴿يخرج لنا﴾ أى يظهر لنا ويوجد والجزم لجواب الأمر ﴿مما تنبت الأرض﴾ إسناد مجازى بإقامه القابل مقام الفاعل ومن تبعيضية والتي في قوله تعالى ﴿من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها﴾ بيانية واقعة موقع الحال أى كأننا من بقلها الخ وقيل بدل بإعادة الجار والبقول مما تنبت الأرض من الخضر والمراد به أطايبه التي تؤكل كالنخاع والكرفس والكراث وأشباهاها والفوم الحنطة وقيل الثوم وقرى . قثائها بضم القاف وهو لغة فيه ﴿قال﴾ أى الله تعالى أو موسى عليه السلام إنكاراً عليهم وهو استئناف وقع جواباً عن سؤال مقدر كأنه قيل فإذا نقال لهم فقليل قال ﴿أستبدلون﴾ أى أتأخذون لأنفسكم ويختارون .

﴿الذى هو أدنى﴾ أى أقرب منزلة وأدون قدراً سهل المنال وهين الحصول لعدم كونه مرغوباً فيه وكونه تافهاً مردولاً قليل القيمة وأصل الدنو القرب. فى المسكان فاستعير للخسة كما استعير البعد للشرف والرفعة فقليل بعيد المحل. وبعيد الهمة وقرىء أدناً من الدناءة وقد حملت المشهورة على أن ألفها مبدلة من الهمة ﴿بالذى هو خير﴾ أى بمقابلة ما هو خير فإن الباء تصحب الذاهب الزائل دون الآتى الحاصل كما فى التبدل والتبديل فى مثل قوله عز وجل ﴿ومن يتبدل الكفر بالإيمان﴾ وقوله (وبدلناهم بجننتهم جننتين ذواتى أكل نخط) وليس فيه ما يدل قطعاً على أنهم أرادوا زوال المن والسلوى بالمرّة وحصول ما طلبوا مكانه لتحقق الاستبدال فيما مر من صورة المناوبة ﴿اهبطوا مصرأ﴾ أمروا به بياناً لدناءة مطلبهم أو إسعافاً لمرامهم أى انحدروا إليه من التيه يقال هبط الوادى وقرىء بضم الباء والمصر البلد العظيم وأصله الحد بين الشيتين وقيل أريد به العلم وإنما صرف لسكون وسطه أو لتأويله بالبلد دون المدينة ويؤيده أنه فى مصحف ابن مسعود رضى الله عنه غير ممنون، وقيل: وأصله مصر إيم فعرّب ﴿فإن لكم ما سألتهم﴾ تعليل للأمر بالهبط أى فإن لكم فيه ما سألتهم ولعل التعبير عن الأشياء المسئولة بما الاستهجان بذكرها كأنه قيل فإنه كثير فيه مبتذل يناله كل أحد بغير مشقة ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة﴾ أى جعلنا محيطتين بهم لإحاطة القبة بمن ضربت عليه أو ألصقهما بهم وجعلهما ضربة لازب لا تنفسكان عنهم مجازاة لهم على كفرانهم من ضرب الطين على الحائط بطريق الاستعارة بالكسناية واليهود فى غالب الأمر أذلاء مساكين إما على الحقيقة، وإما خوفاً أن تضاعف جزيتهم ﴿وباءوا﴾ أى رجعوا، ﴿بغضب﴾ عظيم وقوله تعالى ﴿من الله﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لغضب مؤكداً لما أفاده. التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أى بغضب كائن من الله تعالى أو صاروا أحقاء به من قوطهم بآء فلان بفلان أى صار حقيقة بأن يقتل بمقابله ومنه قول من قال بؤ بشسع نعل كليب وأصل البوء المساواة ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما سلف من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب العظيم ﴿بأنهم﴾

بسبب أنهم ﴿ كانوا يكفرون ﴾ على الاستمرار ﴿ بآيات الله ﴾ الباهرة التي هي المعجزات الساطعة الظاهرة على يدى موسى عليه السلام مما عد ومالم يعد (ويقتلون النبيين بغير الحق) كشمعون وزكريا ويحيى عليهم السلام وفائدة التقييد مع أن قتل الأنبياء يستحيل أن يكون بحق الإيذان بأن ذلك عندهم أيضا بغير الحق إذ لم يكن أحد معتقدا بحقية قتل أحد منهم عليهم السلام وإنما حملهم على ذلك حب الدنيا واتباع الهوى والغلو في العصيان والاعتداء كما يفصح عنه قوله تعالى ﴿ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ أى جرم العصيان والتمادى في العدوان إلى ما ذكر من الكفر وقتل الأنبياء عليهم السلام فإن صغار الذنوب إذا دووم عليها أدت إلى كبارها كما أن مداومة صغار الطاعات مؤدية إلى تحرى كبارها وقيل كررت الإشارة للدلالة على أن ما لحقهم كما أنه بسبب الكفر والقتل فهو بسبب ارتكابهم المعاصى واعتدائهم حدود الله تعالى وقيل الإشارة إلى الكفر والقتل والياء بمعنى مع ويجوز الإشارة إلى المتعدد بالمفرد بتأويل ما ذكر أو تقدم كما فى قول رؤية بن العجاج:

ففيها خطوط من سواد وبلق كأنه فى الجلد توليع البهق

أى كان ما ذكر والذى حسن ذلك فى المضمرة والمبهمة أن تثنيتهما وجمعها ليسا على الحقيقة ولذلك جاء الذى بمعنى الذين (إن الذين آمنوا) أى بالسنتهم فقط وهم المنافقون بقريئة انتظامهم فى سلك الكفرة والتعبير عنهم بذلك دون عنوان النفاق للتصريح بأن تلك المرتبة وإن عبر عنها بالإيمان لا تجديهم نفعاً أصلاً ولا تنقذهم من ورطة الكفر قطعاً ﴿ والذين هادوا ﴾ أى تهودوا من هاد إذا دخل فى اليهودية ويهود إما عربى من هاد إذا تاب سموا بذلك حين تابوا من عبادة العجل وخصوا به لما كانت توبتهم توبة هائلة وإما معرب يهودا كأنهم سموا باسم أكبر أولاد يعقوب عليه الصلاة والسلام ﴿ والنصارى ﴾ جمع نصران كندامى جمع ندمان يقال رجل نصران وأمراة نصرانة والياء فى نصرانى للبالغة كما فى أحرى سموا بذلك لأنهم نصروا المسيح

عليه السلام أو لأنهم كانوا معه في قرية يقال لها نصران فسموا باسمها أو نسبوا إليها والياء للنسبة وقال الخليل واحد النصارى نصرى كهرى ومهارى (والصائبين) هم قوم بين النصارى والمجوس وقيل أصل دينهم دين نوح عليه السلام وقيل هم عبدة الملائكة وقيل عبدة الكواكب فهو إن كان عربياً فمن صبأ إذا خرج من دين إلى آخر وقرىء بالياء إما للتخفيف ، وإما لأنه من صبأ إذا مال لما أنهم مالوا من سائر الأديان إلى ما هم فيه أو من الحق إلى الباطل (من آمن بالله واليوم الآخر) أى من أحدث من هذه الطوائف إيماناً خالصاً بالمبدأ والمعاد على الوجه اللائق (وعمل) عملاً (صالحاً) حسبما يقتضيه الإيمان بما ذكر (فلهم) بمقابلة ذلك (أجرهم) الموعود لهم (عند ربهم) أى مالك أمرهم ومبلغهم إلى كما لهم اللائق فمن أما في محل الرفع على الابتداء خبر جملة فلهم أجرهم والفاء لتضمن الموصول معنى الشرط كما في قوله تعالى : (إن الذين فتنوا المؤمنين . . الآية) وجمع الضمائر الثلاثة باعتبار معنى الموصول كما أن افراد ما في الصلة باعتبار لفظه والجملة كما هي خبر إن والعائد إلى اسمها محذوف أى من آمن منهم الخ ، وأما في محل النصب على البدلية من اسم إن وما عطف عليه وخبرها فلهم أجرهم وعند متعلق بما تعلق به لهم من معنى الثبوت ، وفي إضافته إلى الرب المضاف إلى ضميرهم مزيد لطف بهم وإيدان بأن أجرهم متيقن الثبوت مأمون من الفوات .

(ولاخوف عليهم) عطف على جملة أجرهم أى لاخوف عليهم حين يخاف الكفار العقاب (ولا هم يحزنون) حين يحزن المقصرون على تضبيع العمر وتفويت الثواب والمراد بيان دوام انتفاهما لا بيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر في الجملة الثانية مضارعاً لما مر من أن النبي وإن دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام هذا وقد قيل المراد بالذين آمنوا المتدينون بدين الإسلام المخلصون منهم والمنافقون حينئذ لا بد من تفسير من آمن بمن اتصف منهم بالإيمان الخالص بالمبدأ والمعاد على الإطلاق سواء

كان ذلك بطريق الثبات والدوام عليه كإيمان المخلصين أو بطريق لإحداثه وإنشائه كإيمان من عدائم من المنافقين ، وسائر الطوائف وفائدة التعميم للمخلصين من يد ترغيب الباقين في الإيمان ببيان أن تأخرهم في الاتصاف به غير محفل بكونهم أسوة لأولئك الأقدمين في استحقاق الأجور وما يتبعه من الأمن الدائم ، وأما ما قيل في تفسيره من كان منهم في دينه قبل أن ينسخ مصدقا بقلبه بالمبدأ والمعاد عاملا بمقتضى شرعه فما لاسبيل إليه أصلا لأن مقتضى المقام هو الترغيب في دين الإسلام ، وأما بيان حال من مضى على دين آخر قبل انتساخه فلا ملازمة له بالمقام قطعاً بل ربما يخجل بمقتضاه من حيث دلالاته على حقيقته في زمانه في الجملة على أن المنافقين والصائبين لا يتسنى في حقهم ما ذكر ، أما المنافقون فإن كانوا من أهل الشرك فالأمر بين ، وإن كانوا من أهل الكتاب فمن مضى منهم قبل النسخ ليسوا بمنافقين ، وأما الصائبون فليس لهم دين يجوز رعايته في وقت من الأوقات ولو سلم أنه كان لهم دين سماوي ثم خرجوا عنه فمن مضى من أهل ذلك الدين قبل خروجهم منه فليسوا من الصائبين فكيف يمكن إرجاع الضمير الرابط بين اسم إن وخبرها إليهم أو إلى المنافقين وارتكاب إرجاعه إلى مجموع الطوائف من حيث هو مجموع لا إلى كل واحدة منها قصداً إلى درج الفريق المذكور فيه ضرورة أن من كان من أهل الكتاب عاملاً بمقتضى شرعه قبل نسخه من مجموع الطوائف بحكم اشتماله على اليهود والنصارى وإن لم يكن من المنافقين والصائبين بما يجب تنزيهه ساحة التنزيل عن أمثاله على أن المخلصين مع اندراجهم في حيز اسم إن ليس لهم في حيز خبرها عين ولا أثر فتأمل وكن على الحق المبين ﴿ ولذ أخذنا ميثاقكم ﴾ تذكر لجنائية أخرى لأسلافهم أي واذكروا وقت أخذنا لميثاقكم بالمحافظة على ما في التوراة ﴿ ورفعنا فوقكم الطور ﴾ عطف على قوله أخذنا أو حال أي وقد رفعنا فوقكم الطور كأنه ظلة ، روى أن موسى عليه السلام لما جاءهم بالتوراة فرأوا ما فيها من التكليف الشاقة كبرت عليهم فأبوا قبولها فأمر جبريل عليه السلام فقلع الطور فظلمه عليهم حتى قبلوا .

﴿خذوا﴾ على إرادة القول ﴿ما آتيناكم﴾ من الكتاب ﴿بقوة﴾ بجد وعزيمة
﴿واذكروا ما فيه﴾ أى أحفظوه ولا تنسوه أو تفكروا فيه فإنه ذكر بالقلب
أو اعملوا به ﴿لعلكم تتقون﴾ لى تتقوا المعاصى أو لتنجوا من هلاك الدارين
أو رجاء منكم أن تلتظموا فى سلك المتقين أو طلبا لذلك وقد مر تحقيقه ﴿ثم
توليتم﴾ أى أعرضتم عن الوفاء بالميثاق ﴿من بعد ذلك﴾ من بعد أخذ ذلك
الميثاق المؤكد ﴿فلولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ بتوفيقكم للتوبة أو بمحمد صلى
الله عليه وسلم حيث يدعوكم إلى الحق ويهديكم إليه ﴿لكنتم من الخاسرين﴾
أى المفتونين بالانهماك فى المعاصى والخبط فى مهاوى الضلال عند الفترة وقيل
لولا فضله تعالى عليكم بالإمهال وتأخير العذاب لكنتم من الهالكين وهو
الأنسب بما بعده وكلمة لولا إما بسيطة أو مركبة من لو الامتناعية وحرف
النفى ومعناها امتناع الشيء لوجود غيره كما أن لو لامتناعه لامتناع غيره
والاسم الواقع بعدها عند سيبويه مبتدأ خبره محذوف وجوبا لدلالة الحال عليه
وسد الجواب مسده والتقدير لولا فضل الله حاصل وعند الكوفيين فاعل فعل
محذوف أى لولا ثبت فضل الله تعالى عليكم ﴿ولقد علمتم﴾ أى عرفتم ﴿الذين
اعتدوا منكم فى السبت﴾ روى أنهم أمروا بأن يتمحصوا يوم السبت للعبادة
ويتجردوا لها ويتركوا الصيد فاعتدى فيه أناس منهم فى زمن داود عليه السلام
فاشتغلوا بالصيد وكانوا يسكنون قرية بساحل البحر يقال لها أيلة فإذا كان
يوم السبت لم يبق فى البحر حوت إلا برز وأخرج خرطومها فإذا مضى تفرقت
فحفروا حياضا وشرعوا إليها الجداول وكانت الحيتان تدخلها يوم السبت
فيصطادونها يوم الأحد فالمعنى وباللله لقد علمتمهم حين فعلوا من قبيل جنائياتكم
ما فعلوا فلم نعلمهم ولم تؤخر عقوبتهم بل عجلناها ﴿فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾
أى جامعين بين صورة القردة والخسوء وهو الطرد والصغار على أن خاسئين
نعت للقردة وقيل حال من اسم كونوا عند من يجيز عمل كان فى الظروف
والحال وقيل من الضمير المستكن فى قردة لأنه فى معنى ممسوخين وقال مجاهد
ما مسخت صورهم ولكن قلوبهم فقتلوا بالقردة كما مثلوا بالحمار فى قوله تعالى

كمثل الحمار يحمل أسفارا والمراد بالأمر بيان سرعة التكوين وأنهم صاروا كذلك كما أراده عز وجل وقرىء قرودة بفتح القاف وكسر الراء وخاسين بغير همز ﴿فجعلناها﴾ أى المسخنة والعقوبة ﴿نكالا﴾ عبرة تنسكل المعترف بها أى تمنعه وتردعه ومنه النكل للقيد ﴿لما بين يديها وما خلفها﴾ لما قبلها وما بعدها من الأمم إذ ذكرت حالهم فى زبر الأولين واشتهرت قصصهم فى الآخرين أو لمعاصريهم ومن بعدهم أو لما بحضورتها من القرى وما تباعد عنها أو لأهل تلك القرية وما حوالها أو لأجل ما تقدم عليها من ذنوبهم وما تأخر منها ﴿وموعظة للمتقين﴾ من قومهم أو لكل متق سمعها ﴿ولإذ قال موسى لقومه﴾ توبيخ آخر لأخلاف بنى إسرائيل بتذكير بعض جنائيات صدرت عن أسلافهم أى واذكروا وقت قول موسى عليه السلام لأجدادكم ﴿لئن الله يأمركم أن تدبحوا بقرة﴾ وسببه أنه كان فى بنى إسرائيل شيخ موسى فقتله بنو عمه طمعا فى ميراثه فطرحوه على باب المدينة ثم جاءوا يطالبون بديته فأمرهم الله تعالى أن يدبحوا بقرة ويضربوه ببعضها فيحیی فيخبرهم بقاتله ﴿قالوا﴾ استئناف وقع جوابا عما ينساق إليه الكلام كأنه قيل فماذا صنعوا هل سارعوا إلى الامتثال أو لا ؟ فقيل قالوا ﴿أتتخذنا هزوا﴾ بضم الزاء وقلب الهمزة واوا وقرىء بالهمزة مع الضم والسكون أى أتجعلنا مكان هزؤ أو أهل هزؤ أو مهزؤا بنا أو الهزؤ نفسه استبعادا لما قاله واستخفافا به ﴿قال﴾ استئناف كما سبق ﴿أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ لأن الهزؤ فى أثناء تبليغ أمر الله سبحانه جهل وسفه فمضى عنه عليه السلام ما توهموه من قبله على أبلغ وجه وآكده بإخراجه مخرج ما لا مكروه وراه بالاستعاذة منه استفظاعا له واستعظاما لما أقدموا عليه من العظيمة التى شافهوه عليه السلام بها ﴿قالوا﴾ استئناف كما مر كأنه قيل فإذا قالوا بعد ذلك فقيل توجهوا إلى الامتثال وقالوا ﴿ادع لنا﴾ أى لأجلنا ﴿ربك يبين لنا ما هى﴾ ما مبتدأ وهى خبره والجملة فى حيز النصب يبين أى يبين لنا جواب هذا السؤال وقد سألوا عن حالها وصفتها لما قرع أسماعهم ما لم يعهدوه من بقرة ميتة يضرب ببعضها ميت فيحيا فإن ما وإن شاعت فى طلب مفهوم

الاسم والحقيقة كما في ما الشارحة والحقيقة لكانها قد يطلب بها الصفة والحال تقول ما زيد؟ فيقال طيب أو عالم وقيل كان حقه أن يستفهم بأى لكانهم لما رأوا ما أمروا به على حالة مغايرة لما عليه الجنس أخرجه عن الحقيقة فجعلوه جنسا على حياله ﴿قال﴾ أى موسى عليه بعد ما دعا ربه عز وجل بالبيان وأتاه الوحى ﴿إنه﴾ تعالى ﴿يقول لأنها﴾ أى البقرة المأمور بذبحها ﴿بقرة لا فارض ولا بكر﴾ أى لا مسنة ولا فتية يقال فرضت البقرة فروضا أى أسنت من الفرض بمعنى القطع كأنها قطعت سنها وباغت أخوها وتركيب البكر للأولية ومنه البكرة والباكورة ﴿عوان﴾ أى نصف لا لخل ولا ضرع قال :

طوال مثل أعناق الهوادي نواعم بين أبكار وعون

﴿بين ذلك﴾ إشارة إلى ما ذكر من الفارض والبكر ولذلك أضيف إليه بين لاختصاصه بالإضافة إلى المتعدد ﴿فافعلوا﴾ أمر من جهة موسى عليه السلام متفرع على ما قبله من بيان صفة المأمور به ﴿ما تؤمرون﴾ أى ما تؤمرونه بمعنى تؤمرون به كما في قوله أمرتك الخير فافعل ما أمرت به فإن حذف الجار قد شاع في هذا الفعل حتى لحق بالأفعال المتعدية إلى مفعولين وهذا الأمر منه عليه السلام لحثهم على الامتثال وزجرهم عن المراجعة ومع ذلك لم يقتنعوا به وقوله تعالى ﴿قالوا﴾ استئناف كما مر كأنه قيل ماذا صنعوا بعد هذا البيان الشافي والأمر المسكر فقولوا ﴿أدع لنا ربك يمين لنا ما لونها﴾ حتى يتبين لنا البقرة المأمور بها ﴿قال﴾ أى موسى عليه السلام بعد المناجاة إلى الله تعالى ومجىء البيان ﴿إنه﴾ تعالى ﴿يقول لأنها بقرة صفراء فاقع لونها﴾ إسناد البيان في كل مرة إلى الله عز وجل لإظهار كمال المساعدة في إجابة مسؤلهم بقولهم يمين لنا وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة والفقوع نصوع الصفرة وخلوصها ولذلك يؤكد به ويقال أصفر فاقع كما يقال أسود حالك وأحمر قانيء وفي إسناده إلى اللون مع كونه من أحوال الملون ملابسته به ما لا يخفى من فضل تأكيد كأنه قيل صفراء شديدة الصفرة صفرتها كما في جد جده وعن الحسن

رضى الله عنه سوداء شديدة السواد وبه فسر قوله تعالى (جمالة صفرة) قيل ولعل التعبير عن السواد بالصفرة لما أنها من مقدماته وإما لأن سواد الإبل يعلوه صفرة ويأباه وصفها بقوله تعالى ﴿تسر الناظرين﴾ كما يأباه وصفها بفقوع اللون والسرور لذة في القلب عند حصول نفع أو توقعه من السر عن على رضى الله عنه من لبس نعلا صفراء قل همه ﴿قالوا﴾ استشفاف كمنظأره ﴿ادع لنا ربك يمين لنا ما هي﴾ زيادة استكشاف عن حالها كما أنهم سألوا بيان حقيقتها بحيث تمتاز عن جميع ما عداها بما تشاركها في الأوصاف المذكورة والأحوال المشروحة في أثناء البيان ولذلك علوه بقولهم ﴿إن البقر تشابه علينا﴾ يعنون أن الأوصاف المحدودة يشترك فيها كثير من البقر ولا نهتدى إلى تشخيص ما هو المأمور بها ولذلك لم يقولوا إن البقر تشابهت لإيداننا بأن النعوت المحدودة ليست بمشخصة للمأمور بها بل صادقة على سائر أفراد الجنس وقرىء إن الباقر وهو اسم لجماعة البقر والباقر والبواقر ويتشابه بالياء والتاء ويشابه بطرح التاء والإدغام على التذكير والتأنيث وتشابهت مخففا ومشددا وتشبه بمعنى تشبه وتشبه بالتذكير ومتشابهة ومتشابهة ومتشبهة وفيه دلالة على أنهم ميزوها عن بعض ما عداها في الجملة وإنما بقي اشتباه بشرف الزوال كما ينفي عنه قولهم ﴿ولنا إن شاء الله لمهتدون﴾ مؤكدا بوجوه من التوكيد أى لمهتدون بما سألنا من البيان إلى المأمور بذبحها وفي الحديث لو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد :

﴿قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث﴾ أى لم تذلل للكراة وسقى الحرث ولاذلول صفة لبقرة بمعنى غير ذلول ولاالثانية لتأ كيد الأولى والفعلان صفتا ذلول كأنه قيل لاذلول مشيرة وساقية وقرىء لاذلول بالفتح أى حيث هو كقولك مررت برجل لا بخيل ولا جبان أى أى حيث هو وقرىء تسقى من أسقى ﴿مسلمة﴾ أى سلمها الله تعالى من العيوب أو أهلها من العمل أو أخلص لها لونها من سلم له كذا إذا أخلص له ويؤيده قوله تعالى : ﴿لاشية فيها﴾ أى لالون فيها يخالف لون جلدها حتى قرنها وظلفها

وهي في الأصل مصدر وشاه وشيا وشية إذا خلط بلونه لونا آخر ﴿ قالوا ﴾
عندما سمعوا هذه النعوت ﴿ الآن جئت بالحق ﴾ أى بحقيقة وصف البقرة
بحيث ميزتها عن جميع ماعداها ولم يبق لنا في شأنها اشتباه أصلا بخلاف
المرتين الأوليين فإن ما جئت به فيهما لم يكن في التعمين بهذه المرتبة ولعلمهم
كانوا قبل ذلك قد رأوها ووجدوها جامعة لجميع ما فصل من الأوصاف
المشروحة في المرات الثلاث من غير مشارك لها فيما عد في المرة الأخيرة
.ولإفن أين عرفوا اختصاص النعوت الأخيرة بها دون غيرها وقرىء الآن
بالمدة على الاستفهام والآن بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام ﴿ فذبحوها ﴾
الفاء فصيحة كما في فأنفجرت أى فصلوا البقرة فذبحوها ﴿ وما كادوا يفعلون ﴾
كاد من أفعال المقاربة وضع لدنو الخبر من الحصول والجملة حال من ضمير
ذبحوا أى فذبحوها والحال أنهم كانوا قبل ذلك بمعزل منه أو اعتراض
تذييل ومآله استئصال استعصامهم واستبطاء لهم وأنهم لفرط تطويلهم وكثرة
مراجعاتهم ما كاد ينتهى خيط استفهامهم فيها . قيل معنى من أول الأمر إلى
الامثال أربعون سنة وقيل وما كادوا يفعلون ذلك لغلاء ثمنها . روى أنه
كان في بنى إسرائيل شيخ صالح له عجلة فأتى بها الغيضة وقال اللهم إني
استودعتكها لابنى حتى يكبر وكان برأ بوالديه فتوفى الشيخ وشبت العجلة
فكانت من أحسن البقر وأسمنها فساوموها بالبيتم وأمه حتى اشتروها بماء
مسكها ذهباً لما كانت وحيدة بالصفات المذكورة وكانت البقرة إذ ذاك
بثلاثة دنانير . واعلم أنه لا خلاف في أن مدلول ظاهر النظم الكريم بقرة
مطلقة مهمة وأن الامثال في آخر الأمر إنما وقع بذبح بقرة معينة حتى
لو ذبحوا غيرها ما خرجوا عن عهدة الأمر لكن اختلف في أن المراد المأمور
به إثر ذى أثر هل هى المعينة وقد أخرج البيان عن وقت الخطاب أو المهمة
ثم لحقها التغير إلى المعينة بسبب تشاكلهم في الامثال وتماديهم في التعمق
والاستبصار فذهب بعضهم إلى الأول تمسكا بأن الضمان في الأجوبة
أعنى أنها بقرة إلى آخره للمعينة قطعاً ومن قضيته أن يكون في السؤال ايضاً

كذلك ولا ريب في أن السؤال إنما هو عن البقرة المأمور بذبحها فتكون هي المعينة وهو مدفوع بأنهم لما تعجبوا من بقرة ميتة يضرب ببعضها ميت فيحيا ظنوها معينة خارجة عما عليه الجنس من الصفات والخواص فسألوا عنها فرجعت الضمائر إلى المعينة في زعمهم واعتقادهم فعينها الله تعالى تشديدا عليهم وإن لم يكن المراد من أول الأمر هي المعينة والحق أنها كانت في أول الأمر مبهمة بحيث لو ذبحوا أية بقرة كانت لحصل الامتثال بدلالة ظاهر النظم الكريم وتكرير الأمر قبل بيان اللون وما بعده من كونها مسلمة الخ وقد قال صلى الله عليه وسلم «لو اعترضوا أذى بقرة فذبحوها لسكرتمهم»، وروى مثله عن رئيس المفسرين عبد الله بن عباس رضى الله عنهما، ثم رجع الحكم الأول منسوخا بالثاني والثاني بالثالث تشديدا عليهم لكن لا على وجه ارتفاع حكم المطلق بالسكينة وانتقاله إلى المعين بل على طريقة تقييده وتخصيصه به شيئا فشيئا كيف لا ولو لم يكن كذلك لما عدت مراجعاتهم المحكية من قبيل الجنايات بل من قبيل العبادة فإن الامتثال بالأمر بدون الوقوف على المأمور به مما لا يكاد يتسنى فتكون سؤالاتهم من باب الاهتمام بالامتثال ﴿وإذ قتلتم نفسا﴾ منصوب بمضمرة كما مرت نظائره والخطاب لليهود المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإسناد القتل والتدارؤ إليهم لما مر من نسبة جنائيات الأسلاف إلى الأخلاف توبيخا وتقريبا وتخصيصهما بالإسناد دون ما مر من جنائياتهم لظهور قبح القتل وإسناده إلى الغير أى اذكروا وقت قتلكم نفسا محرمة ﴿فادارأتم فيها﴾ أى تخاصتم في شأنها إذ كل واحد من الخصماء يدافع الآخر أو تدافعتم بأن طرح كل واحد قتلها إلى آخر وأصله تدارأتم فأدغمت التاء في الدال واجتلبت لها همزة الوصل ﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ أى مظهر لما تكتمونه لا محالة والجمع بين صيغتي الماضى والمستقبل للدلالة على الاستمرار وإنما أعمل مخرج لأنه حكاية حال ماضية ﴿فقلنا اضربوه﴾ عطف على فادارأتم وما بينهما اعتراض والالتفات لتربية المهابة والضمير للنفس والتذكير باعتبار أنها عبارة عن الرجل

أو بتأويل الشخص أو القتل ﴿ببعضها﴾ أى ببعض البقرة أى بعض كان وقيل بأصغريها وقيل بلسانها وقيل بفخذها اليمنى وقيل بأذنها وقيل بعجبها وقيل بالعظم الذى يلى الغضروف وهذا أول القصة كما ينبىء عنه الضمير الراجع إلى البقرة كأنه قيل ولما قتلتم أنفسا فادارأتم فيها، فقلنا اذبحوا بقرة فاضربوه ببعضها وإنما غير الترتيب عند الحكاية لتكرير التوبيخ وتثنية التقرير فإن كل واحد من قتل النفس المحرمة والاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم والافتيات على أمره وترك المسارعة إلى الامتثال به جنائة عظيمة حقيقة بأن تنعى عليهم بحياها ولو حكيت القصة على ترتيب الوقوع لما علم استقلال كل منها بما يخص بها من التوبيخ وإنما حكى الأمر بالذبح عن موسى عليه السلام مع أنه من الله عز وجل كالأمر بالضرب لما أن جنائياتهم كانت بمراجعتهم إليه عليه السلام والافتيات على رأيه ﴿كذلك يحيى الله الموتى﴾ على إرادة قول معطوف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى فضر به فحى وقلنا كذلك يحيى الخ فحذفت الفاء الفصيحة فى فحى مع ما عطف بها وما عطف هو لدلالة كذلك على ذلك فالخطاب فى كذلك حينئذ للحاضرين عند حياة القتل ويجوز أن يكون ذلك للحاضرين عند حياة القتل ويجوز أن يكون ذلك للحاضرين عند نزول الآية الكريمة فلا حاجة حينئذ إلى تقدير القول بل تنتهى الحكاية عند قوله تعالى ببعضها مع ما ما قدر بعده فالجملة معترضة أى مثل ذلك الإحياء العجيب يحيى الله الموتى يوم القيامة ﴿ويرىكم آياته﴾ ودلائله الدالة على أنه تعالى على كل شىء قدير ويجوز أن يراد بالآيات هذا الإحياء والتعبير عنه بالجمع لاشتغاله على أمور بديعة من ترتب الحياة على عضو ميت وإخباره بقاتله وما يلبسه من الأمور الخارقة للعادة ﴿لعلكم تعقلون﴾ أى لى تكمل عقولكم وتعلموا أن من قدر على إحياء نفس قدر على إحياء الأنفس كلها أو تعلموا على قضية عقولكم ولعل الحكمة فى اشتراط ما اشترط فى الإحياء مع ظهور كمال قدرته على إحيائه ابتداء بلا واسطة أصلا اشتغاله على التقرب إلى الله تعالى وأداء الواجب ونفع اليتيم والتنبية على بركة التوكل

على الله تعالى والشفقة على الأولاد ونفع بر الوالدين وأن من حق الطالب أن يقدم قربته ومن حق المتقرب أن يتحري الأنفس ويغالي بثمرته كما يروى عن عمر رضی الله عنه أنه ضحى بنجیمة اشتراها بثلاثمائة دينار وأن المؤثر هو الله تعالى وإنما الأسباب أمارات لا تأثير لها وأن من رام أن يعرف أعدى عدوه الساعى في إمامته الموت الحقيقي فطريقه أن يذبح بقره نفسه التي هي قوته الشهوية حين زال عنها شره الصبا ولم يلحقها ضعف الكبر وكانت معجبة راقية المنظر غير مذلة في طلب الدنيا مسلمة عن دنسها لاشية لها من قبائحها بحيث يتصل أثره إلى نفسه فيحيا بها حياة طيبة ويعرب عما به ينكشف الحال ويرتفع ما بين العقل والوهم من التدارؤ والجدال ﴿ ثم قست قلوبكم ﴾ الخطاب لمعاصري النبي صلى الله عليه وسلم والقسوة عبارة عن الغلظ والجفاء والصلابة كما في الحجر استعيرت لنبو قلوبهم عن التأثير بالعظاظ والقوارع التي تبيع منها الجبال وتلين بها الصخور وإيراد الفعل المفيد لحدوث القساوة مع أن قلوبهم لم تزل قاسية لما أن المراد بيان بلوغهم إلى مرتبة مخصوصة من مراتب القساوة حادثة وإما لأن الاستمرار على شيء بعد ورود ما يوجب الإقلاع عنه أمر جديد وصنع حادث وثم لاستبعاد القسوة بعد مشاهدة ما يزيلها كقوله تعالى ﴿ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ .

﴿ من بعد ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من إحياء القتيل أو إلى جميع ما عدد من الآيات الموجبة للين القلوب وتوجيهها نحو الحق أى من بعد سماع ذلك وما فيه من معنى البعد للإيدان ببعد منزلته وعلو طبقتة وتوحيد حرف الخطاب مع تعدد المخاطبين ، إما بتأويل الفريق أو لأن المراد مجرد الخطاب لاتعيين المخاطب كما هو المشهور ، ﴿ فهى كالحجارة ﴾ فى القساوة ، ﴿ أو أشد ﴾ منها ، ﴿ قسوة ﴾ أى هى فى القسوة مثل الحجارة أو زائدة عليها فيها أو أنها مثلها أو مثل ما هو أشد منها قسوة كالحديد مخدّف وأقيم المضاف إليه مقامه ويعضده القراءة بالجر عطفًا على الحجارة وإيراد الجملة اسمية مع كون ما سبق فعلية للدلالة على (١٣ - أبو السمود - أول)

استمرار قساوة قلوبهم ، والفاء إما للتعليل كما في قولك اعبد ربك فالعبادة حق له وإنما لم يقل أو أقسى منها لما في التصريح بالشدة من زيادة مبالغة ودلالة ظاهرة على اشتراك القسوتين في الشدة واشتمال المفضل على زيادة ، وأو للتخيير أو للتريد بمعنى أن من عرف حالها شبهها بالحجارة أو بما هو أقسى أو من عرفها شبهها بالحجارة أو قال هي أقسى من الحجارة وترك ضمير المفضل عليه للأمن من الالتباس ﴿ وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ﴾ بيان لأشدية قلوبهم من الحجارة في القساوة وعدم التأثر واستحالة صدور الخير منها يعني أن الحجارة ربما تتأثر حتى كان منها ما يتفجر منه المياه العظيمة ﴿ وإن منها لما يشقق ﴾ أى يتشقق ﴿ فيخرج منه الماء ﴾ أى العيون ﴿ وإن منها لما يهبط من خشية الله ﴾ أى يتردى من الأعلى إلى الأسفل بقضية ما أودعه الله عز وجل فيها من النقل الداعى إلى المركز وهو مجاز من الانقياد لأمره تعالى والمعنى إن الحجارة ليس منها فرد إلا وهو منقاد لأمره عز وعلا آت بما خلق له من غير استعصاء وقلوبهم ليست كذلك فتكون أشد منها قسوة لا محالة واللام فى لما لام الابتداء دخلت على اسم إن لتقدم الخبر وقرىء أن على أنها مخففة من الثقيلة واللام فارقة وقرىء يهبط بالضم ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ عن متعلقة بغافل ، وما موصولة والعائد محذوف أو مصدرية ، وهو وعيد شديد على ما هو عليه من قساوة القلوب وما يترتب عليها من الأعمال السيئة وقرىء بالياء على الالتفات وقوله تعالى ﴿ أفطمعون ﴾ تلوين للن خطاب وصرف له عن اليهود لإثراء عدت سيئاتهم ونعت عليهم جنائياتهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين والهمزة لإنكار الواقع واستبعاده كما فى قولك أتضرب أباك لا لإنكار الوقوع كما فى قولك أأضرب أبى والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ويستدعيه نظام الكلام لئلا يتركب على قصد توجيه الإنكار إلى المعطوفين معا كما فى أفلا تبصرون على تقدير المعطوف عليه منفيما أى ألا تنظرون فلا تبصرون فالمنسكركلا الأمرين بل إلى ترتب الثانى على الأول مع وجوب أن يترتب عليه نقيضه كما إذا قدر الأول مثبتا أى أنتظرون فلا تبصرون فالمنسكرك ترتب الثانى على الأول مع

وجوب أن يترتب عليه نقيضه أى أتسمعون أخبارهم وتعلمون أحوالهم
فتطمعون ومآل المعنى أبعد أن علمتم تفاصيل شؤونهم المؤيسة عنهم تطمعون
﴿ أن يؤمنوا ﴾ فانهم متماثلون في شدة الشكيمة والأخلاق الذميمة ، لا يتأتى
من أخلافهم إلا مثل ما أتى من أسلافهم وأن مصدرية حذف عنها الجار والأصل
نفي أن يؤمنوا وهى مع ما فى حيزها فى محل النصب أو الجر على الخلاف
المعروف واللام فى لكم لتضمين معنى الاستجابة كما فى قوله عز وجل (فآمن له
تلوط) أى فى إيمانهم مستجيبين لكم أو للتعليل أى فى أن يحدوا الإيمان لأجل
دعوتكم وصلة الإيمان محذوفة لظهور أن المراد به معناد الشرعى وستقف على
ما فيه من المزية بإذن الله تعالى ﴿ وقد كان فريق منهم ﴾ الفريق اسم جمع
الواحد له من لفظه كارهط والقوم والجار والمجرور فى محل الرفع أى فريق
كائن منهم وقوله تعالى ﴿ يسمعون كلام الله ﴾ خبر كان وقرئ كلف الله والجملة
حالية مؤكدة للانكار حاشية لمادة الطمع مثل أحوالهم الشنيعة المحكيمة
فيما سلف على منهاج قوله تعالى (وهم لكم عدو) بعد قوله تعالى (أفتتخذونه وذريته
أولياء من دونى) أى والحال أن طائفة منهم قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما
هم قوم من السبعين المختارين للميقات كانوا يسمعون كلامه تعالى حين كلم
موسى عليه السلام بالطور وما أمر به ونهى عنه ﴿ ثم يحرفونه ﴾ عن مواضعه
إلا لقصور فهمهم عن الإحاطة بتفاصيله على ما ينبغى لاستيلاء الدهشة والمهابة
حسبما يقتضيه مقام الكبرياء بل ﴿ من بعد ما عقلوه ﴾ أى فهموه وضبطوه
يعقلوهم ، ولم تبق لهم فى مضمونه ولا فى كونه كلام رب العزة ريبه أصلا
فعلما رجعوا إلى قومهم أداه الصادقون إليهم كما سمعوا وهؤلاء قالوا سمعنا الله
تعالى يقول فى آخر كلامه: إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا ، وإن
شئتم فلا تفعلوا فلا بأس فثم للتراخي زمانا أو رتبة قال القفال سمعوا كلام الله
وعقلوا مراده تعالى منه فأولوه تأويلا فاسدا وقيل هم رؤساء أسلافهم الذين
تولوا تحريف التوراة بعد ما أحاطوا بما فيها علما وقيل هم الذين غيروا نعت
النبي صلى الله عليه وسلم فى عصره وبدلوا آية الرجم ويأباه الجمع بين صيغتي

الماضى والمستقبل الدال على وقوع السماع والتحريف فيما سلف إلا أن يحمل ذلك على تقدمه على زمان نزول الآية السكريمة لا على عهده عليه الصلاة والسلام. هذا والأول هو الأنسب بالسماع والكلام إذ التوراة وإن كانت كلام الله عز وعل لا سكنها باسم الكتاب أشهر وأثر التحريف فيه أظهر ، ووصف اليهود بتلاوتها أكثر لاسيما رؤسائهم المباشرين للتحريف فيه أظهر . ووصف اليهود بتلاوتها أكثر لاسيما رؤسائهم المباشرين للتحريف فإن وظيفتهم التلاوة دون السماع فكان الأنسب حينئذ أن يقال يتلون كتاب الله تعالى فالمعنى أفطمعون فى أن يؤمن هؤلاء بواسطتكم ويستجيبوا لكم والحال أن أسلافهم الموافقين لهم فى خلال السوء كانوا يسمعون كلام الله بلا واسطة ثم يحرفونه من بعد ما علموه يقينا ولا يستجيبون له هيئات ومن ههنا ظهر ما فى إيتار لكم على بالله من الفخامة والجزالة وقوله عز وجل ﴿ وهم يعلمون ﴾ جملة حالية من فاعل يحرفونه مفيدة لكمال قباحة حالهم مؤذنة بأن تحريفهم ذلك لم يكن بناء على نسيان ما عقوله أو على الخطأ فى بعض مقدماته بل كان ذلك حال كونهم عالمين مستحضرين له أو وهم يعلمون أنهم كاذبون ومفترون ﴿ وإذا لقوا ﴾ جملة مستأنفة سبقت لإثر بيان ما صدر عن أشباههم لبيان ما صدر عنهم بالذات من الشنائع المؤيسة عن إيمانهم من نفاق بعض وعتاب آخرين عليهم أو معطوفة على ما سبق من الجملة الحالية والضمير لليهود لما ستقف على سره لالمنافقيهم خاصة كما قيل تحريا لاتحاد الفاعل فى فعلى الشرط والجزاء حقيقة ﴿ الذين آمنوا ﴾ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ قالوا ﴾ أى اللاقون لكن لا بطريق تصدى الكل للقول حقيقة بل بمباشرة منافقيهم وسكوت الباقيين كما يقال بنو فلان قتلوا فلانا والقاتل واحد منهم وهذا أدخل فى تقبيح حال الساكنين أولا العائدين ثانيا لما فيه من الدلالة على نفاقهم واختلاف أحوالهم وتناقض آرائهم من إسناد القول إلى المباشرين خاصة بتقدير المضاف أى قال منافقوهم ﴿ آمننا ﴾ لم يقتصروا على ذلك بل عللوه بأنهم وجدوا نعت النبي صلى الله عليه وسلم فى التوراة وعلموا أنه النبي المبشر به وإنما لم يصرح به تعويلا على شهادة التوبيخ

الآتي ﴿وإذا خلا بعضهم﴾ أى بعض المذكورين وهم الساكتون منهم أى إذا فرغوا من الاشتغال بالمؤمنين متوجهين ومنضمين ﴿إلى بعض﴾ آخر منهم وهم منافقون بحيث لم يبق معهم غيرهم ، وهذا نص على اشتراك الساكتين فى لقاء المؤمنين كما أشير إليه آنفاً إذ الخلو إنما يكون بعد الاشتغال ، ولأن عتابهم معلق بمحض الخلو ولولا أنهم حاضرون عند المقابلة لوجب أن يجعل سماعهم لها من تمام الشرط ، ولأن فيه زيادة تشنيع لهم على ما أتوا من السكوت ثم العتاب ﴿قالو﴾ أى الساكتون موبخين لمنافقهم على ما صنعوا ﴿أتحدثونهم﴾ يعنون المؤمنين ﴿بما فتح الله عليكم﴾ ماموصولة والمائد محذوف أى يدينه لكم خاصة فى التوراة من نعت النبي صلى الله عليه وسلم والتعبير عنه بالفتح للايدان بأنه سر مكتون وباب مغلق لا يقف عليه أحد وتجوز كون هذا التوبيخ من جهة المنافقين لأعقابهم إراءة للتصايب فى دينهم كما ذهب إليه عصاة بما لا يليق بشأن التنزيل الجليل واللام فى قوله عز وجل ﴿ليحاجوكم به﴾ متعاقبة بالتحديث دون الفتح والمراد تأكيد النكير وتشديد التوبيخ ، فإن التحديث بذلك وإن كان منكراً فى نفسه ، لكن التحديث به لأجل هذا الغرض بما لا يكاد يصدر عن العاقل أى أحدثونهم بذلك ليحاجوكم به فيسكتوكم والمحدثون به وإن لم يجرموا حول ذلك الغرض لكن فعلهم ذلك لما كان مستتبعا له البتة جعلوا فاعلين للغرض المذكور لإظهاراً لسكالات سخافة عقولهم وركاكة آرائهم .

﴿عند ربكم﴾ أى فى حكمه وكتابه كما يقال هو عند الله كذا أى فى كتابه وشرعه وقيل عند ربكم يوم القيامة ورد عليه بأن الإخفاء لا يدفعه إذ هم عالمون بأنهم محجوجون يومئذ حدثوا به أو لم يحدثوا والاعتذار بأن لإلزام المؤمنين إياهم وتبكيتهم بأن يقولوا لهم ألم تحدثونا بما فى كتابكم فى الدنيا من حقيقة ديننا وصدق نبينا ألخس فيجوز أن يكون المحذور عندهم هذا الإلزام بإرجاع الضمير فى به إلى التحديث دون المحدث به ولا ريب فى أنه مدفوع بالإخفاء لا تساعده الآية الكريمة الآتية كما ستقف عليه بإذن الله عز وجل ﴿أفلا تعقلون﴾ من تمام التوبيخ والعتاب والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه

الكلام أى ألا تلاحظون فلا تعقلون هذا الخطأ الفاحش أو شيئاً من الأشياء. التي من جملتها هذا فالمنكر عدم التعقل ابتداء أو أتفعلون ذلك فلا تعقلون. بطلانه مع وضوحه حتى تحتاجون إلى التنبية عليه فالمنكر حينئذ عدم التعقل. بعد الفعل هذا وأما ما قيل من أنه خطاب من جهة الله سبحانه للمؤمنين متصل بقوله تعالى (أفتطمعون) والمعنى أفلا تعقلون حالهم وأن لا مطمع لكم في إيمانهم، فإياه قوله تعالى ﴿أو لا يعلمون﴾ فإنه إلى آخره تجهيل لهم من جهته تعالى فيما حكى عنهم فيكون إيراد خطاب المؤمنين في أثناءه من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه على أن في تخصيص الخطاب بالمؤمنين من التعسف وفي تعميمه للنبي أيضاً، صلى الله عليه وسلم كما في أفتطمعون من سوء الأدب ما لا يخفى والهمزة للإنكار والتوبيخ كما قبلها والواو للعطف على مقدر ينساق إليه الذهن والضمير للموخبين أى أيلومونهم على التحديث المذكور مخافة الحاجة ولا يعلمون ﴿أن الله يعلم ما يسرون﴾ أى يسرونه فيما بينهم من المؤمنين أو ما يضمنونه في قلوبهم، فثبت الحكم في ذلك بالطريق الأولى ﴿وما يعلنون﴾ أى يظهرونه للمؤمنين أو لأصحابهم حسبما سبق فحينئذ يظهر الله تعالى للمؤمنين ما أرادوا إخفاءه، بواسطة الوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فتحصل الحاجة ويقع التبيكيت كما وقع في آية الرجم وتحريم بعض المحرمات عليهم فأى فائدة في اللوم والعتاب، ومن ههنا تبين أن المحذور عندهم هو الحاجة بما فتح الله عليهم وهى حاصلة في الدارين حدثوا به أم لا، لا بالتحديث به حتى يندفع بالإخفاء وقيل الضمير للمنافقين فقط أو لهم والموخبين أو لأبائهم المخرفين أى يفعلون ما يفعلون. ولا يعلمون أن الله يعلم جميع ما يسرون وما يعلنون ومن جملته أسرارهم الكفر وإظهارهم الإيمان وإخفاء ما فتح الله عليهم وإظهار غيره وكنتم أمر الله وإظهار ما أظهره افتراء وإنما قدم الإسرار على الإعلان للإيدان بافتضاحهم ووقوع ما يحذرونه من أول الأمر والمبالغة في بيان شمول علمه المحيط بجميع المعلومات كأن علمه بما يسرونه أقدم منه بما يعلنونه مع كونهما في الحقيقة على السوية فإن علمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول صورها بل وجود كل

شيء في نفسه علم بالنسبة إليه تعالى وفي هذا المعنى لا يختلف الحال بين الأشياء البارزة والكامنة ونظيره قوله عز وعلا (قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله) حيث قدم فيه الإخفاء على الإبداء لما ذكر من السر على عكس ما وقع في قوله تعالى (وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) فإن الأصل في تعلق المحاسبة به هو الأمور البادية دون الخافية ويجوز أن يكون ذلك باعتبار أن مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلق إذ ما من شيء يعلن إلا وهو مباديه قبل ذلك مضمرة في القلب يتعلق به الأسرار غالباً فتعلق عليه تعالى بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية .

﴿ ومنهم أميون ﴾ وقرىء بتخفيف الياء ، جمع أمى ، وهو من لا يقدر على الكتابة والقراءة واختلف في نسبته فقيل إلى الأم بمعنى أنه شبيه بها في الجهل بالكتابة والقراءة فإنهما ليستا من شؤون النساء بل من خلال الرجال بمعنى أنه على الحالة التي ولدته أمه في الخلو عن العلم والكتابة وقيل إلى الأمة بمعنى أنه باق على سذاجتها خال عن معرفة الأشياء كقولهم عاى أى على عادة العابة روى عن عكرمة والضحاك أن المراد بهم نصارى العرب وقيل هم قوم من أهل الكتاب رفع كتبهم لذنوب ارتكبوها فصاروا أميين وعن علي رضي الله تعالى عنه هم المجوس والحق الذي لا يحيد عنه أنهم جهلة اليهود والجملة مستأنفة مسوقة لبيان قبائحهم لإثبات شنائع الطوائف السالفة وقيل هي معطوفة على الجملة الحالية فإن مضمونها مناف لرجاء الخير منهم وإن لم يكن فيه ما يحسم مادة الطمع عن إيمانهم كما في مضمون الجملة الحالية وما بعدها فإن الجهل بالكتاب في منافاة الإيمان ليس بمثابة تحريف كلام الله بعد سماعه والعلم بمعانيه كما وقع من الفرقتين الآخرين ، أى ومنهم طائفة جهلة غير قادرين على الكتابة والتلاوة .

﴿ لا يعلمون الكتاب ﴾ أى لا يعرفون التوراة ليطالعوها ويتحققوا ما في تضاعيفها من دلائل النبوة فيؤمنوا وحمل الكتاب على الكتابة ياباه سباق النظم الكريم وسياقه ﴿ إلا أمانى ﴾ بالتشديد وقرىء بالتخفيف جمع أمنية أصلها أمنية أفعولة من

منى بمعنى قدر أو بمعنى تلا كتمنى في قوله * تمنى كتاب الله أول ليلة * فأعلنت إعلال سيد وميت ومعناها على الأول ما يقدره الإنسان في نفسه ويتمناه وعلى الثانى ما يتلوه وعلى التقديرين فالاستثناء منقطع إذ ليس ما يتمنى وما يتلى من جنس علم الكتاب أى لا يعلمون الكتاب لكن يتمنون أماني حسب ما منهم أحبارهم من أن الله سبحانه يعفو عنهم وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم وغير ذلك من أمانيهم الفارغة المستندة إلى الكتاب على زعم رؤسائهم أو لا يعلمون الكتاب لكن يتلقونه قدر ما يتلى عليهم فيقبلونه من غير أن يتمكنوا من التدبر فيه وأما حمل الأمانى على الأكاذيب المختلفة على الإطلاق من غير أن يكون لها ملائمة بالكتاب فلا يساعده النظم الكريم ﴿ وإن هم إلا يظنون ﴾ ما هم إلا قوم قصارى أمرهم الظن والتقليد من غير أن يصلوا إلى رتبة العلم فأنى يرجى منهم الإيمان المؤسس على قواعد اليقين ولما بين حال هؤلاء في تمسكهم بجبال الأمانى واتباع الظن عقب ببيان حال الذين أوقعوهم في تلك الورطة وبكشف كيفية إضلالهم وتعيين مرجع السلك بالآخرة فليل على وجه الدعاء عليهم ﴿ فويل ﴾ هو وأمثاله من ويح وويس وويب وويه وويك وعول من المصادر المنصوبة بأفعال من غير لفظها لا يجوز إظهارها البتة فإن أضيف نصب نحو ويلك وويحك وإذا فصل عن الإضافة رفع نحو ويل له ومعنى الويل شدة الشر قاله الخليل وقال الأصمعى الويل التفجع والويح الترحم وقال سيبويه ويل لمن وقع في الهلكة وويح زجر لمن أشرف على الهلاك وقيل الويل الحزن، وهل ويح وويب وويس بذلك المعنى أو بينه وبينها فرق وقيل ويل فى الدعاء عليه وويح وما بعده فى الترحم عليه وقال ابن عباس رضى الله عنهما الويل العذاب الأليم وعن سفیان الثورى أنه صديد أهل جهنم وروى أبو سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «الويل واد فى جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره» وقال سعيد بن المسيب إنه واد فى جهنم لوسيرت فيه جبال الدنيا لماعت من شدة حره وقال ابن بريدة جبل قبيح ودم وقيل صهريج فى جهنم وحكى الزهراوى أنه باب من أبواب جهنم وعلى

كل حال فهو مبتدأ خبره قوله عز وعلا ﴿للذين يكتبون الكتاب﴾ أى المحرف أو ما كتبوه من التأويلات الزائغة ﴿بأيديهم﴾ تأكيد لدفع توهم المجاز كقولك كتبته بيمينى ﴿ثم يقولون هذا﴾ أى جميعاً على الأول وبخصوصه على الثانى (من عند الله) روى أن أحبار اليهود خافوا ذهاب ما كلهم وزوال رياستهم حين قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فاحتالوا فى تمويق أسافل اليهود عن الإيمان فعمدوا إلى صفة النبي صلى الله عليه وسلم فى التوراة وكانت هى فيها حسن الوجه حسن الشعر أحل العينين ربعة فغيروها وكتبوا مكانها طوال أزرق سبط الشعر فإذا سأهم سفلتهم عن ذلك قرأوا عليهم ما كتبوا فيجدونه مخالفا لصفته عليه السلام فيكذبونه وشم للتراخى الرتبى فإن نسبة المحرف والتأويل الزائغ إلى الله سبحانه صريحا أشد شناعة من نفس التحريف والتأويل ﴿ليشتروا به﴾ أى يأخذوا لأنفسهم بمقابلته ﴿ثمناً﴾ هو ما أخذوه من الرشا بمقابلة ما فعلوا من التحريف والتأويل وإنما عبر عن المشتري الذى هو المقصود بالذات فى عقد المعاوضة بالثمن الذى هو وسيلة فيه لإيداننا بتعكيهم حيث جعلوا المقصود بالذات وسيلة والوسيلة مقصودا بالذات ﴿قليلاً﴾ لا يعبأ به فإن ذلك وإن جل فى نفسه فهو أقل قليلا عندما استوجبوا به من العذاب الخالد ﴿فويل لهم﴾ تكرير لما سبق للتأكيد وتصريح بتعليله بما قدمت أيديهم بعد الإشعار به فيما سلف بإيراد بعضه فى حيز الصلة وبعضه فى معرض الغرض والفاء للإيدان بترتبه عليه ومن فى قوله عز وجل ﴿مما كتبنا بأيديهم﴾ تعاليلية متعلقة بويل أو بالاستنقرار فى الخبر وما موصولة اسمية والعائد محذوف أى كتبته أو مصدرية والأول أدخل فى الزجر عن تعاطى المحرف والثانى فى الزجر عن التحريف ﴿وويل لهم مما يكسبون﴾ الكلام فيه كالذى فيما قبله والتكرير لما مر من التأكيد والتشديد والقصد إلى التعليل بكل من الجانبين وعدم التعرض لقولهم هذا من عند الله لما أنه من مبادئ ترويح ما كتبت أيديهم فهو داخل فى التعاليل به ﴿وقالوا﴾ بيان لبعض آخر من جناباتهم وفصله عما قبله مشعر بكونه من الأكاذيب التى اختلقوها ولم يكتبوها فى الكتاب ﴿إن تمسنا النار﴾

في الآخرة ﴿إلا أياما معدودة﴾ قليلة محصورة عدد أيام عبادتهم العجل أربعين يوما مدة غيبة موسى عليه السلام عنهم وحكى الأصمعي عن بعض اليهود أن عدد أيام عبادتهم العجل سبعة وروى عن ابن عباس ومجاهد أن اليهود قالوا عمر الدنيا سبعة آلاف سنة وإنما نعذب بكل ألف سنة يوما واحدا وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن اليهود زعمت أن ما وجدوا في التوراة أن ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم وأنهم يقطعون في كل يوم مسيرة سنة فيكملونها ﴿قل﴾ تبكيتم لهم وتوبيخنا ﴿أتخذتم﴾ ياسقاط الهمزة المحتملة لوقوعها في الدرج ويأظهار النال وقرىء بإدغامها في التاء ﴿عند الله عهدا﴾ خبرا أو وعدا بما تزعمون فإن ما تدعون لا يكون إلا بناء على وعد قوى ولذلك عبر عنه بالعهد ﴿فلن يخلف الله عهده﴾ الفاء فصيحة معربة عن شرط محذوف كما في قول من قال :

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القبول فقد جئنا خراسانا

أى أن الأمر كذلك فلن يخلفه والجملة اعتراضية وإظهار الاسم الجليل للإشعار بعلّة الحكم فإن عدم الإخلاف من قضية الألوهية وإظهار العهد مضافا إلى ضميره عز وجل لما ذكر أو لأن المراد به جميع عهده لعمومه بالإضافة فيدخل فيه العهد المعهود دخولا أوليا وفيه تجاف عن التصريح بتحقيق مضمون كلامهم وإن كان معلقا بما لم يكذب يشم رائحة الوجود قطعا أعنى اتخاذ العهد ﴿أم تقولون﴾ مفترين ﴿على الله ما لا تعلمون﴾ وقوعه وإنما علق التوبيخ بإسنادهم إليه سبحانه ما لا يعلمون وقوعه مع أن ما أسندوه إليه تعالى من قبيل ما يعلمون عدم وقوعه للمبالغة في التوبيخ والنكير فإن التوبيخ على الأدنى مستلزم للتوبيخ على الأعلى بالطريق الأولى وقولهم المحكى وإن لم يكن تهريجا بالافتراء عليه سبحانه مستلزم له لأن ذلك الجزم لا يكون إلا بإسناد سببه إليه تعالى وأم إما متصلة والاستفهام للتقرير المؤدى إلى التبيكيت لتحقق العلم بالشق الأخير كأنه قيل أم لم تتخذوه بل تتقولون عليه تعالى وإما منقطعة والاستفهام لإنكار الاتخاذ ونفيه ومعنى بل فيها الإضراب

والانتقال من التوبيخ بالإنكار على اتخاذ العهد إلى ما تفيد همزتها من التوبيخ على التقول على الله سبحانه كما في قوله عز وجل قل آله أذن لكم أم على الله تفترون ﴿ بلى ﴾ إلى آخره جواب عن قولهم المحكى وإبطال له من جهته تعالى وبيان الحقيقة الحال تفصيلا في ضمن تسريع كلى شامل لهم ولسائر الكفرة بعد إظهار كذبهم إجمالا وتفويض ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم لما أن الحاجة والإلزام من وظائفه عليه السلام مع ما فيه من الإشعار بأنه أمر هين لا يتوقف على التوقيف وبلى حرف إيجاب محتسب بجواب النفي خبرا واستنفهما ﴿ من كسب سيئة ﴾ فاحشة من السيئات أى كبيرة من الكبائر كدأب هؤلاء الكفرة والكسب استجلاب النفع وتعليقه بالسيئة على طريقة فبشرهم بعذاب أليم ﴿ وأحاطت به ﴾ من جميع جوانبه بحيث لم يبق له جانب من قلبه ولسانه وجوارحه إلا وقد اشتملت واستولت عليه ﴿ خطيئته ﴾ التى كسبها وصارت خاصة من خواصه كما تنبىء عنه الإضافة إليه وهذا إنما يتحقق فى الكافر ولذلك فرها السلف بالكفر حسبما أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس وأبى هريرة رضى الله عنهم وابن جرير عن أبى وائل ومجاهد وقتادة وعطاء والربيع وقيل السيئة الكفر والخطيئة الكبيرة وقيل بالعكس وقيل الفرق بينهما أن الأولى قد تطلق على ما يقصد بالذات والثانية تغلب على ما يقصد بالعرض لأنها من الخطأ وقرىء خطيئته وخطيئاته على القلب والادغام فيهما وخطيئاته وخطاياها وفى ذلك إيذان بدثرة فنون كفرهم ﴿ فأولئك ﴾ مبتدأ ﴿ أصحاب النار ﴾ خبره والجملة خبر للمبتدأ والفاء لتضمنه معنى الشرط وإيراد اسم الإشارة المنبىء عن استحضار المشار إليه بماله من الأوصاف للإشعار بعليتها لصاحبية النار وما فيه من معنى البعد للتنبية على بعد منزلتهم فى الكفر والخطايا وإنما أشير إليهم بعنوان الجمعية مراعاة لجانب المعنى فى كلمة من بعد مراعاة جانب اللفظ فى الضمائر الثلاثة لما أن ذلك هو المناسب لما أسند إليهم فى تينك الحالتين فإن كسب السيئة وأحاطت خطيئتنا به فى حالة الانفراد وصاحبية النار فى حالة

الاجتماع أى أولئك الموصوفون بما ذكر من كسب السيئات وإحاطة خطاياهم بهم أصحاب النار أى ملازموها فى الآخرة حسب ملازماتهم فى الدنيا لما يستوجبها من الأسباب التى جمعتها ما هم عليه من تكذيب آيات الله تعالى وتحريف كلامه والافتراء عليه وغير ذلك وإنما لم يخص الجواب بحالهم بأن يقال مثلاً بلى لأنهم أصحاب النار الخ لما فى التعميم من التحويل وبيان حالهم بالبرهان والدليل مع ما مر من قصد الإشعار بالتعليل ﴿ هم فيها خالدون ﴾ دائماً أبداً فأنى لهم التفتضى عنها بعد سبعة أيام أو أربعين كما زعموا فلا حجة فى الآية الكريمة على خلود صاحب الكبيرة لما عرفت من اختصاصها بالكافر ولا حاجة إلى حمل الخلود على اللبث الطويل على أن فيه تهوين الخطب فى مقام التحويل ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ جرت السنة الإلهية على شفع الوعد بالوعيد مراعاة لما تقتضيه الحكمة فى إرشاد العباد من الترغيب تارة والترهيب أخرى ، والتبشير مرة والإنذار أخرى (وإذا أخذنا ميثاق بنى إسرائيل) شروع فى تعداد بعض آخر من قبائح أسلاف اليهود بما ينادى بعدم إيمان أخلافهم وكلمة إذ نصب بإضمار فعل خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ليؤديهم التأمل فى أحوالهم إلى قطع الطمع عن إيمانهم أو اليهود الموجودون فى عهد النبوة توبيخاً لهم بسوء صنيع أسلافهم أى اذكروا إذ أخذنا ميثاقهم ﴿ لا تعبدون إلا الله ﴾ على إرادة القول أى وقلنا أو قائلين لا تعبدون إلخ وهو لإخبار فى معنى النهى كقوله تعالى ولا يضار كاتب ولا شهيد وكما تقول تذهب إلى فلان وتقول كيت وكيت وهو أبلغ من صريح النهى لما فيه من إيهام أن المنهى حقه أن يسارع إلى الانتهاء عما نهى عنه فكأنه انتهى عنه فيخبر به الناهى ويؤيده قراءة لا تعبدوا وعطف قولوا عليه وقيل تقديره أن لا تعبدوا إلخ حذف الناصب ورفع الفعل كما فى قوله :

ألا أي هذا الزاجرى أحضر الوغى

وأن أشهد اللذات ، هل أنت مخلدى ؟

ويعضده قراءة ألا تعبدوا فيكون بدلا من الميثاق أو معمولا له بحذف الجار وقيل إنه جواب قسم دل عليه المعنى كأنه قيل وحلفناهم لا تعبدون إلا الله وقرىء بالياء لأنهم غيب ﴿وبالوالدين إحسانا﴾ متعلق بمضمر أى وتحسنوا أو وأحسنوا ﴿وذى القربى واليتامى والمساكين﴾ عطف على الوالدين ويتامى جمع يتيم كندامى جمع نديم ، وهو قليل ومسكين مفعيل من السكون كان الفقر أسكنه من الحراك وأثخنه عن الثقل ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ أى قولوا حسنا سماه حسناً مبالغة وقرىء كذلك وحسناً بضمين ، وهى لغة أهل الحجاز وحسنى كبشرى والمراد به ما فيه تخلق وإرشاد .

﴿وأقيموا الصلوة وآتوا الزكاة﴾ هما ما فرض عليهم فى شريعتهم ﴿ثم توليتم﴾ أن جعل ناصب الظرف خطابا للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فهذا التفتت إلى خطاب بنى إسرائيل جميعاً بتغليب أخلافهم على أسلافهم لجريان ذكر كلهم حينئذ على نهج الغيبة فإن الخطابات السابقة لآسلافهم محكية داخلية فى حين القول المقدر قبل لا تعبدون كأنهم استحضروا عند ذكر جنائياتهم فنعيت هى عليهم ، وإن جعل خطابا لليهود المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا تعميم للخطاب بتنزيل الأسلاف منزلة الأخلاف كما أنه تعميم للتولى بتنزيل الأخلاف منزلة الأسلاف للتشديد فى التوبيخ أى أعرضتم عن المضى على مقتضى الميثاق ورفضتموه ﴿إلا قليلا منكم﴾ وهم من الأسلاف من أقام اليهودية على وجهها قبل النسخ ومن الأخلاف من أسلم كعبد الله بن سلام وأضرابه ﴿وأتم معرضون﴾ جملة تذييلية أى وأتم قوم عادتكم الإعراض عن الطاعة ومراعاة حقوق الميثاق ، وأصل الإعراض الذهاب عن المواجهة والإقبال إلى جانب العرض ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم﴾ منصوب بفعل مضمر خو طب به اليهود قاطبة على ما ذكر من التغليب ونعى عليهم لإخلافهم بمواجب الميثاق المأخوذ منهم فى حقوق العباد على طريقة النهى لإثر بيان ما فعلوا بالميثاق المأخوذ منهم فى حقوق الله سبحانه وما يجرى مجراه على سبيل الأمر فإن المقصود الأسمى من النهى عن عبادة غير الله تعالى هو الأمر بتخصيص العبادة

به تعالى أى واذكروا وقت أخذنا ميثاقكم فى التوراة وقوله تعالى ﴿ لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ﴾ كما قبله لإخبار فى معنى النهى غير السبك لما ذكر من نكته المبالغة والمراد به النهى الشديد عن تعرض بعض بنى إسرائيل لبعض بالقتل والإجلاء والتعبير عن ذلك بسفك دماء أنفسهم وإخراجها من ديارهم بناء على جريان كل واحد منهم مجرى أنفسهم لما بينهم من الاتصال القوى نسباً ودينياً للمبالغة فى الحمل على مراعاة حقوق الميثاق بتصوير المنهى عنه بصورة تكرها كل نفس وتنفير عنها كل طبيعة فضمير أنفسكم للمخاطبين حتماً إذ به يتحقق تنزيل المخرجين منزلتهم كما أن ضمير دياركم للمخرجين قطعاً إذ المحذور إنما هو إخراجهم من ديارهم لا من ديار المخاطبين من حيث أنهم مخاطبون كما يفصح عنه ماسياتى من قوله تعالى من ديارهم وإنما الخطاب ههنا باعتبار تنزيل ديارهم منزلة ديار المخاطبين بناء على تنزيل أنفسهم منزلتهم لتأكيد المبالغة وتشديد التشنيع ، وأما ضمير دماءكم فمحمّل للوجهين مفاد الأول كون المسفوك دماء ادعائية للمخاطبين حقيقة ومفاد الثانى كونه دماء حقيقية للمخاطبين ادعاء وهما متقاربان فى إفادة المبالغة فتدبر ، وأما ما قيل من أن المعنى لا تبشروا ما يودى إلى قتل أنفسكم قصاصاً ، أو ما يبيح سفك دماءكم وإخراجكم من دياركم ويصرفكم عن دياركم أو لا تفعلوا ما يردىكم ويصرفكم عن الحياة الأبدية فإنه القتل فى الحقيقة ولا تقتروا ما تحرمون به عن الجنة التى هى داركم فإنه الجلاء الحقيقى فما لا يساعده سياق النظم الكريم بل هو نفس فيما قلناه كما ستقف عليه ﴿ ثم أقررتم ﴾ أى بالميثاق وما يوجب المحافظة عليه ، ﴿ وأنتم تشهدون ﴾ تؤكد للإقرار كقولك أقر فلان شاهداً على نفسه ، وقيل وأنتم أيها الحاضرون تشهدون اليوم على إقرار أسلافكم بهذا الميثاق ، ﴿ ثم أنتم هؤلاء ﴾ خطاب خاص بالحاضرين فيه توبيخ شديد واستبعاد قوى لما ارتكبوه بعد ما كان من الميثاق والإقرار به والشهادة عليه وأنتم مبتدأ وهؤلاء خبره ومناط الإفادة اختلاف الصفات المنزلة منزلة اختلاف الذات والمعنى أنتم بعد ذلك هؤلاء المشاهدون الناقضون المتناقضون حسبما تعرب عنه الجمل الآتية

فإن قوله عز وجل ﴿تقتلون أنفسكم﴾ الخ بيان له وتفصيل لأحوالهم المنكرة المتدرجة تحت الإشارة ضمناً كأنهم قالوا كيف نحن فقيل تقتلون أنفسكم أى الجارين مجرى أنفسكم كما أشير إليه وقرىء تقتلون بالتشديد للتكثير ﴿وتخرجون فريقاً منكم﴾ الضمير ، إما للمخاطبين والمضاف محذوف أى من أنفسكم ، وإما للمقتولين والخطاب باعتبار أنهم جعلوا أنفسهم المخاطبين وإلا فلا يتحقق التكافؤ بين المقتولين والمخرجين فى ذلك العنوان الذى عليه يدور فلك المبالغة فى تأكيد الميثاق حسبما نص عليه ولا يظهر كمال قباحة جنائياتهم فى نقضه ﴿من ديارهم﴾ الضمير للفريق وإيثار الغيبة مع جواز الخطاب أيضاً بناء على اعتبار العنوان المذكور كما مر فى الميثاق للاحتراز عن توهم كون المراد لمخارجهم من ديار المخاطبين من حيث هى ديارهم لامن حيث هى ديار المخرجين ، وقيل هؤلاء موصول والمثلتان فى حيز الصلة والمجموع هو الخبر لأنتم ﴿تظاهرون عليهم﴾ بحذف لإحدى التامين وقرىء بإثباتهما وبالإدغام وتظهورون بطرح لإحدى التامين من تتظهورون ومعنى الكل تتعاونون وهى حال من فاعل تخرجون أو من مفعوله أو منهما جميعاً مبينة لكيفية الإخراج دافعة لتوهم اختصاص الحرمة بالإخراج بطريق الأصالة والاستقلال دون المظاهرة والمعاونة ﴿بالإثم﴾ متعلق بتظاهرون حال من فاعله أى ملتبسين بالإثم وهو الفعل الذى يستحق فاعله الذم واللوم وقيل هو ما ينفرد عنه النفس ولا يطمئن إليه القلب ﴿والعدوان﴾ وهو التجاوز فى الظلم ﴿وإن يأتوكم أسارى﴾ جمع أسير وهو من يؤخذ قهراً فاعيل بمعنى مفعول من الأسر أى الشد أو جمع أسرى وهو جمع أسير كجرحى وجريح ، وقد قرىء أسرى وعمله النصب على الحالية ﴿تفادوهم﴾ أى تخرجوهم من الأسر باعطاء الفداء وقرىء تفدوهم قال السدى إن الله تعالى أخذ على بنى إسرائيل فى التوراة الميثاق أن لا يقتل بعضهم بعضاً ولا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم وأيما عبد أو أمة وجدتموه من بنى إسرائيل فاشتروه وأعتقوه ، وكانت قريظة حلفاء الأوس والنضير حلفاء الخزرج حتى كان بينهما ما كان من العداوة والشنآن فكان كل فريق يقاتل مع حلفائه

فإذا غلبوا خربوا ديارهم وأخرجوهم منها ثم إذا أسر رجل من الفريقين جمعوا له مالا فيفدونه فعيرتهم العرب وقالت كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم فيقولون أمرنا أن نفديهم وحرم علينا قتالهم ، ولكن نستحي أن نذل حلفاءنا فذمهم الله تعالى على المناقضة ﴿ وهو محرم عليكم إخراجهم ﴾ ضمير الشأن وقع مبتدأ ومحرم فيه ضمير قائم مقام الفاعل وقع خبرا عن إخراجهم والجملة خبر لضمير الشأن وقيل محرم خبر لضمير الشأن وإخراجهم مرفوع على أنه مفعول مالم يسم فاعله وقيل الضمير بهم تفسيره إخراجهم أو راجع إلى ما يدل عليه تخرجون من المصدر ، وإخراجهم تأكيد أو بيان والجملة حال من الضمير في تخرجون أو من فريقاً أو منهما كما من بعد اعتبار القيد بالحال السابقة وتخصيص بيان الحرمة ههنا بالإخراج مع كونه قريناً للقتل عند أخذ الميثاق لكونه مظنة للمساهلة في أمره بسبب قلة خطره بالنسبة إلى القتل ، ولأن مساق الكلام لذمهم وتوبيخهم على جنایاتهم وتناقص أفعالهم معا وذلك مختص بصورة الإخراج حيث لم ينقل عنهم تدارك القتل بشيء من دية أو قصاص هو السر في تخصيص التظاهر به فيما سبق ، وأما تأخيرهم من الشرطية المعترضة مع أن حقه التقديم كما ذكره الواحدى فلأن نظم أفعالهم المتناقضة في سبط واحد من الذكر أدخل في إظهار بطلانها ﴿ أفتمنون ببعض الكتاب ﴾ أى التورة التي أخذ فيها الميثاق المذكور والهمزة للإنكار التوبيخي والفاء للعطف على مقدر يستدعيه المقام أى أتفعلون ذلك فتؤمنون ببعض الكتاب ، وهو المفاداة ﴿ وتكفرون ببعض ﴾ وهو حرمة القتال والإخراج مع أن من قضية الإيمان ببعضه الإيمان بالباقي لكون الكل من عند الله تعالى داخلا في الميثاق فنطاق التوبيخ كفرهم ببعض مع إيمانهم ببعض حسبا يفيد ترتيب النظم الكريم فإن التقديم يستدعى في المقام الخطابى أصالة المقدم وتقدمه بوجه من الوجوه حتما وإذ ليس ذلك ههنا باعتبار الإنكار والتوبيخ عليه وهو باعتبار الوقوع قطعاً لا لإيمانهم ببعض مع كفرهم ببعض كما هو المفهوم لوقيل أفتمنون ببعض الكتاب وتؤمنون ببعض ولا مجرد كفرهم

بالبعض ، وإيمانهم بالبعض كما يفيد أنه يقال أفتجمعون بين الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعض أو بالعكس .

﴿فما جزاء من يفعل ذلك﴾ ما نافية ومن إن جعلت موصولة فلا محل ليفعل من الإعراب وإن جعلت موصوفة فحله الجر على أنه صفتها وذلك إشارة إلى الكفر ببعض الكتاب مع الإيمان ببعض أو إلى ما فعلوا من القتل والإجلاء مع مفاداه الأسارى ﴿منكم﴾ حال من فاعل يفعل ﴿الآخزي﴾ استثناء مفرغ وقع خبراً للمبتدأ والخزي الذل والهوان مع الفضيحة والتسكير للتفخيم وهو قتل بنى قريظة وإجلاء بنى النضير إلى أذرعات وأريحاء من الشام وقيل الجزية ﴿في الحياة الدنيا﴾ في حيز الرفع على أنه صفة خزي أى خزي كائن في الحياة الدنيا أو في حيز النصب على أنه ظرف الخزي ولعل بيان جزائهم بطريق القصر على ما ذكر لقطع أطعاهم الفارغة من ثمرات إيمانهم ببعض الكتاب وإظهار أنه لا أثر له أصلاً مع الكفر ببعض ﴿ويوم القيامة يردون﴾ وقرىء بالتاء أو ثر صيغة الجمع نظراً إلى معنى من بعد ما أوثر الإفراد نظراً إلى لفظها لما أن الرد إنما يكون بالاجتماع ﴿إلى أشد العذاب﴾ لما أن معصيتهم أشد المعاصي وقيل أشد العذاب بالنسبة إلى ما لهم في الدنيا من الخزي والصغار وإنما غير سبك النظام الكريم حيث لم يقل مثلاً وأشد العذاب يوم القيامة للإيذان بكمال التنافي بين جزاءى الناشئين وتقديم يوم القيامة على ذكر ما يقع فيه لتحويل الخطب وتفظيع الحال من أول الأمر ، ﴿وما الله يتعامل عما تعلمون﴾ من القبايح التي من جملتها هذا المنكر وقرىء بالياء على نهج يردون وهو تأكيد للوعيد ﴿أولئك﴾ الموصوفون بما ذكر من الأوصاف القبيحة وهو مبتدأ خبره وقوله تعالى ﴿الذين اشترؤا﴾ أى آثروا ﴿الحياة الدنيا﴾ واستبدلوها ﴿بالآخرة﴾ وأعرضوا عنها مع تمسكهم من مصيبتها فإن ما ذكر من الكفر ببعض أحكام الكتاب إنما كان لمراعاة جانب حلفائهم لما يعود إليهم منهم من بعض المنافع الدنيوية والدنيوية ﴿فلا يخفف عنهم العذاب﴾ دنيويًا كان أو آخرويًا ولا هم ينصرون ﴿

يدفعه عنهم شفاعة أو جبراً والجملة معطوفة على ما قبلها عطف الاسمية على الفعلية أو ينصرون مفسر لمحذوف قبل الضمير فيكون من عطف الفعلية على مثلها ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ شروع في بيان بعض آخر من جنائياتهم وتصديره بالجملة القسمية لإظهار كمال الاعتناء به والمراد بالكتاب التوراة ، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن التوراة لما نزلت جملة واحدة أمر الله تعالى موسى عليه السلام بحملها فلم يطق ذلك فبعث الله بكل حرف منها ملكاً فلم يطيقوا حملها فخففها الله تعالى لموسى فحملها ﴿ وقفينا من بعده بالرسول ﴾ يقال قفاه به إذا أتبعه إياه أى أرسلناهم على أثره كقوله تعالى ﴿ ثم أرسلنا رسلنا نترى ﴾ وهم يوشع وأشمويل وشمعون وداود وسليمان وشعيا وأرميا وعزير وحزقيل وإلياس وإليسع ويونس وزكريا ويحيى وغيرهم عليهم الصلاة والسلام ﴿ وآتينا عيسى ابن مريم البينات ﴾ المعجزات الواضحات من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار بالمغيبات أو الإنجيل وعيسى بالسريانية لإشوع ومعناه المبارك ومريم بمعنى الخادم وهو بالعبرية من النساء كالزير من الرجال وبه فسر قول رؤبة :

قلت ليزير لم تصله مريمه ضليل أهواء الصبا تندمه

ووزنه مفعول إذ لم يثبت فعيل ﴿ وأيدناه ﴾ وقرىء وأيدناه ﴿ بروح القدس ﴾ بضم الهمزة وقرىء بسكونها أى بالروح المقدسة وهى روح عيسى عليه السلام كقولك حاتم الجود ورجل صدق وإنما وصفت بالقدس لكرامته أو لأنه عليه السلام لم تضمه الأصلاب ولا أرحام الطوامث وقيل بجبريل عليه السلام وقيل بالإنجيل كما قيل فى القرآن روحاً من أمرنا وقيل باسم الله الأعظم الذى يحيى الموتى بذكره وتخصيصه من بين الرسل عليهم السلام بالذكر ووصفه بما ذكر من إيتاء البينات والتأييد بروح القدس لما أن بعثهم كانت لتنفيذ أحكام التوراة وتقريرها وأما عيسى عليه السلام فقد نسخ بشرعه كثير من أحكامها ولسم مادة اعتقادهم الباطل فى حقه عليه السلام ببيان حقيقته وإظهار كمال قبح ما فعلوا به عليه السلام

﴿ أفكلها جاءكم رسول ﴾ من أولئك الرسل ﴿ بما لا تهوى أنفسكم ﴾ من الحق الذي لا مجيد عنه أى لا تحبه من هوى كفرح إذا أحب والتعبير عنه بذلك للإيدان بأن مدار الرد والقبول عندهم هو المخالفة لأهواء أنفسهم والموافقة لها لاشيء آخر وتوسيط الهمزة بين الفاء وما تعلقت به من الأفعال السابقة لتوييخهم على تعقيهم ذلك أو للتعجب من شأنهم ويجوز كون الفاء للعطف على مقدر يناسب المقام أى ألم تطيعوهم فكلمها جاءكم رسول منهم بما لا تهوى أنفسكم ﴿ استكبرتم ﴾ عن الاتباع له والإيمان بما جاء به من عند الله تعالى ﴿ ففريقا ﴾ منهم ﴿ كذبتهم ﴾ من غير أن تعرضوا لهم بشيء آخر من المضار والنماء للسيبية أو للتعقيب ﴿ وفريقا ﴾ آخر منهم ﴿ تقتلون ﴾ غير مكنتين بتكذيبهم كزكريا ويحيى عليهما السلام وتقديم فريقا فى الموضوعين للاهتمام وتشويق السامع إلى ما فعلوا بهم لا للقصر وإيثار صيغة الاستقبال فى القتل لاستحضار صورته الهائلة أو للإيماء إلى أنهم بعد على تلك النية حيث هموا بما لم ينالوه من جهته عليه السلام وسحره وسمموا له الشاة حتى قال صلى الله عليه وسلم: «ما زالت أكلة خيبر تماودنى فهذا أوان قطعت أهرى» ﴿ وقالوا ﴾ بيان لفن آخر من قبائحهم على طريق الالتفات إلى الغيبة إشعارا بإبعادهم عن رتبة الخطاب لما فصل من مخازيهم الموجبة للإعراض عنهم وحكاية نظائرها لكل من يفهم بطلانها وقبحاتها من أهل الحق والقائلون هم الموجودون فى عصر النبي عليه الصلاة والسلام ﴿ قلوبنا غلف ﴾ جمع أغلف الذى لم يختن أى مغطاة بأغشية جبلية لا يكاد يصل إليها ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ولا تفقهه كقولهم قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وقيل هو تخفيف غلف جمع غلاف ويؤيده ما روى عن أبى عمرو من القراءة بضممتين يعنون أن قلوبنا أوعية للعلوم فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره قاله ابن عباس وعطاء وقال السكبي يعنون أن قلوبنا لا يصل إليها حديث إلا وعته ولو كان فى حديثك خير لوعته أيضا ﴿ بل لعنهم الله بكفرهم ﴾ رد لما قالوه وتكذيب لهم فى ذلك والمعنى على الأول بل أبعدهم الله سبحانه عن رحمته بأن خذلهم

وخلاصهم وشأنهم بسبب كفرهم العارض وإبطالهم لاستعدادهم بسوء اختيارهم،
 بالمرّة وكونهم بحيث لا ينفعهم الإلطاف أصلا بعد أن خلقهم على الفطرة.
 والتسكن من قبول الحق وعلى الثاني بل أبعدهم من رحمته فأنى لهم ادعاء العلم
 الذى هو أجل آثارها وعلى الثالث بل أبعدهم من رحمته فلذلك لا يقبلون الحق
 المؤدى إليها ﴿قليلًا ما يؤمنون﴾ ما مزيدة للمبالغة أى فإيماننا قليلا يؤمنون.
 وهو لإيمانهم ببعض الكتاب وقيل فزمانا قليلا يؤمنون وهو ما قالوا
 آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره وكلاهما ليس
 بإيمان حقيقة وقيل أريد بالقلة العدم والفاء لسببية اللعن لعدم الإيمان
 ﴿ولما جاءهم كتاب﴾ من القرآن وتنكيره للتفخيم ووصفه بقوله عز وجل
 ﴿من عند الله﴾ أى كائن من عنده تعالى للتشريف ﴿مصدق لما معهم﴾ من
 التوراة عبر عنها بذلك لما أن المعية من موجبات الوقوف على ما فى تضاعيفها.
 المؤدى إلى العلم بكونه مصدقا لهما وقرىء مصدقا على أنه حال من كتاب
 لتخصسه بالوصف ﴿وكانوا من قبل﴾ أى من قبل مجيئه ﴿يستفتحون على
 الذين كفروا﴾ أى وقد كانوا قبل مجيئه يستفتحون به على المشركين ويقولون
 اللهم انصرنا بالنبي المبعوث فى آخر الزمان الذى نجد نعتة فى التوراة ويقولون
 لهم قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم قال
 ابن عباس وقتادة والسدى نزلت فى بنى قريظة والنضير كانوا يستفتحون على
 الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه وقيل معنى
 يستفتحون يفتحون عليهم ويعرفونهم بأن نبيا يبعث منهم قد قرب أو أنه والسين
 للمبالغة كما فى استعجب أى يسألون من أنفسهم الفتح عليهم أو يسأل بعضهم
 بعضا أن يفتح عليهم وعلى التقديرين فالجملة حالية مفيدة لسكال مكابرتهم
 وعنادهم وقوله عز وعلا ﴿فلما جاءهم﴾ تذكير للأول لطول العهد بتوسط
 الجملة الحالية وقوله تعالى ﴿ما عرفوا﴾ عبارة عما سلف من الكتاب لأن
 معرفة من أنزل هو عليه معرفة له والاستفتاح به استفتاح به وإيراد الموصول
 دون الاكتفاء بالإضمار لبيان كمال مكابرتهم فإن معرفة ما جاءهم من مبادئ

الإيمان به ودواعيه لاحالة والفاء للدلالة على تعقيب مجيئه للاستفتاح به من غير أن يتخلل بينهما مدة منسية له وقوله تعالى: ﴿كفروا به﴾ جواب لما الأولى كما هو رأى المبرد أو جوابها معا كما قاله أبو البقاء وقيل جواب الأولى محذوف لدلالة المذكور عليه فيكون قوله تعالى وكانوا الخ جملة معطوفة على الشرطية عطفت القصة على القصة والمراد بما عرفوا النبي صلى الله عليه وسلم ، كما هو المراد بما كانوا يستفتحون به فالمعنى ولما جاءهم كتاب مصدق لسكتابهم كذبوه وكانوا من قبل مجيئه يستفتحون بمن أنزل عليه ذلك الكتاب فلما جاءهم النبي الذي عرفوه كفروا به ﴿فلعنة الله على الكافرين﴾ اللام للعهد أى عليهم ووضع المظهر موضع المضمرة للإيدان بأن حلول اللعنة بسبب كفرهم كما أن الفاء للإيدان بترتبها عليه أو للجنس وهم داخلون فى الحكم دخولا أوليا إذ الكلام فيهم وأيا ما كان فهو محقق لمضمون قوله تعالى بل لعنهم الله بكفرهم ﴿بئسما اشتروا به أنفسهم﴾ ما تنكرة بمعنى شئء منصوبة مفسرة لفاعل بئس واشتروا صفته أو بئس شيئا باعوا به أنفسهم وقيل اشتروها به فى زعمهم حيث يعتقدون أنهم بما فعلوا خلصوها من العقاب ويأباه أنه لا بد أن يكون المذموم ما كان حاصلها لهم لا ما كان زائلا عنهم والخصوص بالذم قوله تعالى ﴿أن يكفروا بما أنزل الله﴾ أى الكتاب المصدق لما معهم بعد الوقوف على حقيقته وتبديل الإنزال بالمجىء للإيدان يعلو شأنه الموجب للإيمان به ﴿بغيا﴾ حسدا وطلبا لما ليس لهم وهو علة لأن يكفروا حتما دون اشتروا لما قيل من الفصل بما هو أجنبي بالنسبة إليه وإن لم يكن أجنبيا بالنسبة إلى فعل الذم وفاعله ولأن البغى بما لا تعلق له بعنوان البيع قطعاً لاسيما وهو معلل بما سيأتى من تنزيل الله تعالى من فضله على من يشاؤه وإنما الذى بينه وبينه علاقة هو كفرهم بما أنزل الله والمعنى بئس شيئا باعوا به أنفسهم كفرهم المعلن بالبغى الكائن لأجل ﴿أن ينزل الله من فضله﴾ الذى هو الحى ﴿على من يشاء﴾ أى يشاؤه وبصطفيه ﴿من عباده﴾ المستأهلين لتحمل أعباء الرسالة ومآله تعليل كفرهم بالمنزل عليه وإثبات

صيغة التفعيل ههنا للإيذان بتجدد بغيتهم حسب تجدد الإنزال وتكثيره حسب تكثيره ﴿فباؤا بغضب على غضب﴾ أى رجعوا ملتبسين بغضب كائن على غضب مستحقين له حسب ما اقترفوا من كفر على كفر فإنهم كفروا بنبي الحق وبغوا عليه وقيل كفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام بعد عيسى وقيل بعد قولهم عزير ابن الله وقولهم يد الله مغلولة وغير ذلك من فنون كفرهم ﴿وللكافرين﴾ أى لهم والإظهار فى موقع الإضمار للإشعار بعليّة كفرهم لما حاق بهم ﴿عذاب مهين﴾ يراد به إهانتهم وإذلالهم لما أن كفروهم بما أنزل الله تعالى كان مبنيا على الحسد المبني على طمع المنزول عليهم وادعاء الفشل على الناس والاستهانة بمن أنزل عليه السلام ﴿وإذا قيل﴾ من جانب المؤمنين ﴿لهم﴾ أى لليهود وتقديم الجار والمجرور قد مر وجهه لاسيما فى لام التبليغ ﴿آمنوا بما أنزل الله﴾ من الكتب الإلهية جميعا والمراد به الأمر بالإيمان بالقرآن لسكن سلك مسلك التعميم إيذانا بتحتم الامتثال من حيث مشاركته لما آمنوا به فيما فى حيز الصلوة وموافقته له فى المضمون وتنبئها على أن الإيمان بما عداه من غير إيمان به ليس بإيمان بما أنزل الله ﴿قالوا تؤمن﴾ أى نستمر على الإيمان ﴿بما أنزل علينا﴾ يعنون به التوراة وما نزل على أنبياء بنى إسرائيل لتقرير حكمها ويدسون فيه أن ما عدا ذلك غير منزل عليهم ومرادهم بضمير المتكلم إما أنفسهم فعنى الإنزال عليهم تكليفهم بما فى المنزل من الأحكام وإما أنبياء بنى إسرائيل وهو الظاهر لاشتراكه على مزية الإيذان بأن عدم إيمانهم بالفرقان لما مر من بغيتهم وحسدتهم على نزوله على من ليس منهم ولأن مرادهم بالموصول وإن كان هو التوراة وما فى حكمها خاصة لكن إيرادها بعنوان الإنزال عليهم مبنى على ادعاء أن ما عداهما ليس كذلك على وجه التعريض كما أشير إليه فلو أريد بالإنزال عليهم ما ذكر من تكليفهم يلزم من مغايرة القرآن لما أنزل عليهم حسبما يعرب عنه قوله عز وجل ﴿ويكفرون بما وراه﴾ عدم كونهم مكلفين بما فيه كما يلزم عدم كونه نازلا على واحد من بنى إسرائيل على الوجه الأخير

وتجريد الموصول عند الإضمار عما عرضوا به تعسف لا يخفى والوراء في الأصل مصدر جعل ظرفا ويضاف إلى الفاعل فيراد به ما يتوارى به وهو خلفه وإلى المفعول فيراد به ما يواريه وهو أمامه والجملة حال من ضمير قالوا بتقدير مبتدأ أى قالوا ما قالوا وهم يكفرون بما عداه وليس المراد مجرد بيان أن أفراد إيمانهم بما أنزل عليهم بالذکر لنفى إيمانهم بما وراءه بل بيان أن ما يدعون من الإيمان ليس بإيمان بما أنزل عليهم حقيقة فإن قوله عن اسمه ﴿وهو الحق﴾ أى المعروف بالحقيقة بأن يخص به اسم الحق على الإطلاق حال من فاعل يكفرون وقوله تعالى ﴿مصدقا﴾ حال مؤكدة لمضمون الجملة صاحبها إما ضمير الحق وعاملها ما فيه من معنى الفعل قاله أبو البقاء وإما ضمير دل عليه الكلام وعاملها فعل مضمرة أى أحقه مصدقا ﴿لما معهم﴾ من التوراة والمعنى قالوا نؤمن بما أنزل علينا وهم يكفرون بالقرآن والحال أنه حق مصدق لما آمنوا به فيلزمهم الكفر بما آمنوا به ومآله أنهم ادعوا الإيمان بالتوراة والحال أنهم يكفرون بما يلزم من الكفر به الكفر بها ﴿قل﴾ تبكيئا لهم من جهة الله عز من قائل بيان التناقض بين أقوالهم وأفعالهم بعد بيان التناقض في أقوالهم ﴿فلم﴾ أصله لما حذف عنه الألف فرقا بين الاستفهامية والخبرية ﴿تقتلون أنبياء الله من قبل﴾ الخطاب للحاضرين من اليهود والمساكين على طريق التغليب وحيث كانوا مشاركين في العقد والعمل كان الاعتراض على أسلافهم اعتراضا على أخلافهم وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضية وهو جواب شرط محذوف أى قل لهم إن كنتم مؤمنين بالتوراة كما تزعمون فلائى شيء كنتم تقتلون أنبياء الله من قبل وهو فيها حرام وقرىء أنبياء الله ميموزا وقوله تعالى ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ تكرير للاعتراض لتأكيد الإلزام وتشديد التهديد أى إن كنتم مؤمنين فلم تقتلونهم وقد حذف من كل واحدة من الشرطيتين ما حذف ثقة بما أثبت في الأخرى وقيل لا حذف فيه بل تقديم الجواب على الشرط وذلك لا يتأتى إلا على رأى السكوفيين وأبي زيد وقيل إن نافية أى ما كنتم مؤمنين وإلا لما قتلتهم

﴿ ولقد جاءكم موسى بالبينات ﴾ من تمام التبيكات والتوبيخ داخل تحت الأمر لا تكرير لما قص في تضاعيف تعداد النعم التي من جملتها العفو عن عبادة العجل واللام للقسم أي وبالله لقد جاءكم موسى ملتبساً بالمعجزات الظاهرة التي هي العصا واليد والسنون ونقص الثمرات والدم والطوفان والجراد والقمل والضفادع وخلق البحر وقد عد منها التوراة وليس بواضح فإن المجيء بها بعد قصة العجل ﴿ ثم اتخذتم العجل ﴾ أي لها ﴿ من بعده ﴾ أي من بعد مجيئه بها وقيل من به ذهابه إلى الطور فتكون التوراة حينئذ من جملة البينات وشم للتراخي في الرتبة والدلالة على نهاية قبيح ما صنعوا ﴿ وأنتم ظالمون ﴾ حال من ضمير اتخذتم بمعنى اتخذتم العجل ظالمين بعبادته واضعين لها في غير موضعها أو بالإخلال بحقوق آيات الله تعالى أو اعتراض أي وأنتم قوم عادتكم الظلم ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ﴾ توبيخ من جهة الله تعالى وتكذيب لهم في ادعائهم الإيمان بما أنزل عليهم بتذكير جنائياتهم الناطقة بكذبهم أي واذكروا حين أخذنا ميثاقكم ﴿ ورفعنا فوقكم الطور ﴾ قائلين ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا ﴾ أي خذوا بما أمرتم به في التوراة واسمعوا ما فيها سمع طاعة وقبول ﴿ قالوا ﴾ استئناف مبنى على سؤال سائل كأنه قيل فإذا قالوا فقيل قالوا ﴿ سمعنا ﴾ قولك ﴿ وعصينا ﴾ أمرك فإذا قابل أسلافهم مثل ذلك الخطاب المؤكد مع مشاهدتهم مثل تلك المعجزة الباهرة بمثل هذه العظيمة الشنعاء وكفروا بما في تضاعيف التوبة فكيف يتصور من أخلاقهم الإيمان بما فيها .

﴿ وأشر بوا في قلوبهم العجل ﴾ على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه للبالغته أي تداخلهم حبه ورسخ في قلوبهم صورته لفرط شغفهم به وحرصهم على عبادته كما يتداخل الصبيغ الثوب والشراب أعماق البدن ، وفي قلوبهم بيان لمكان الإشراب كما في قوله تعالى ﴿ إنما يأكلون في بطونهم نارا ﴾ والجملة حال من ضمير قالوا بتقدير قد ﴿ بكفروهم ﴾ بسبب كفرهم السابق الموجب

لذلك قيل كانوا بجسمة أو حلولية ، ولم يروا جسما أعجب منه فتمسكن في قلوبهم ماسول لهم السامري ﴿ قل ﴾ توبيننا لحاضري اليهود إثر ماتين أحوال رؤسائهم الذين بهم يقتدون في كل ما يأتون وما يذرون ﴿ بثما يأمركم به إيمانكم ﴾ بما أنزل عليكم من التوراة حسبما تدعون والمخصوص بالذم محذوف أى ما ذكر من قولهم سمعنا وعصينا وعبادتهم العجل ، وفي إسناد الأمر إلى الإيمان تهكم بهم وإضافة الإيمان إليهم للإيدان بأنه ليس بإيمان حقيقة كما ينفي عنه قوله تعالى ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ فإنه قدح في دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم من التوراة وإبطال لها وتقريره إن كنتم مؤمنين بها عاملين فيما ذكر من القول والعمل بما فيها فبثما يأمركم به إيمانكم بها وإذ لا يسوغ الإيمان بها مثل تلك القبائح فليست بمؤمنين بها قطعاً وجواب الشرط كما ترى محذوف لدلالة ماسبق عليه ﴿ قل ﴾ كرر الأمر مع قرب العهد بالأمر السابق لما أنه أمر بتسكينهم وإظهار كذبهم في فن آخر من أباطيلهم لكنه لم يحك عنهم قبل الأمر بإبطاله بل اكتفى بالإشارة إليه في تضاعيف الكلام حيث قيل ﴿ إن كانت لكم الدار الآخرة ﴾ أى الجنة أو نعيم الدار الآخرة ﴿ عند الله خالصة ﴾ أى سالمة لكم خاصة بكم كما تدعون انه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ونصبها على الحالية من الدار وعند ظرف للاستقرار في الخبر أعنى لكم وقوله تعالى : ﴿ من دون الناس ﴾ في محل النصب بخالصة يقال نخلص لى كذا من كذا واللام للجنس أى الناس كافة أو للعهد أى المسلمين ﴿ فتمنوا الموت ﴾ فإن من أيقن بدخول الجنة اشتاق إلى التخلص إليها من دارة البوار وقرارة الأكدار لاسيما إذا كانت خالصة كما قال على كرم الله وجهه لا أبالي أسقطت على الموت أو سقط الموت على وقال عمار بن ياسر بصفين :
الآن ألقى الأحبه محمداً وحزبه

وقال حذيفة بن اليمان حين احتضر وقد كان يتمنى الموت قبل :

جاء حبيب على فاقة فلا أفلح اليوم من قد ندم

أى على التمنى وقوله تعالى : ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ تكرير للكلام لتشديد

الإلزام وللتنبية على أن ترتب الجواب ليس على تحقق الشرط في نفس الأمر فقط بل في اعتقادهم أيضا وأنهم قد ادعوا ذلك والجواب محذوف ثقة بدلالة ما سبق عليه أي إن كنتم صادقين فتمنوه وقوله تعالى: ﴿وان يتمنونه أبدا﴾ كلام مستأنف غير داخل تحت الأمر سيق من جهته سبحانه لبيان ما يكون منهم من الإحجام عما دعوا إليه الدال على كذبهم في دعواهم ﴿بما قدمت أيديهم﴾ بسبب ما عملوا من المعاصي الموجبة لدخول النار كالكفر بالنبي عليه السلام والقرآن وتحريف التوراة ولما كانت اليد من بين جوارح الإنسان مناط عامة صنائعه ومدار أكثر منافعه عبرها تارة عن النفس وأخرى عن القدرة ﴿والله عليم بالظالمين﴾ أي بهم وإيثار الإظهار على الإضمار لظهورهم والتسجيل عليهم بأنهم ظالمون في جميع الأمور التي من جملتها ادعاء ما ليس لهم ونفيه عن غيرهم والجملة تذييل لما قبلها مقرررة لمضمونه أي عليهم بهم وبما صدر عنهم من فنون الظلم والمعاصي المفضية إلى أفانين العذاب وبما سيكون منهم من الاحتراز عما يؤدي إلى ذلك فوقع الأمر كما ذكر فلم يتمن منهم موته أحد إذ لو وقع ذلك لنقل واشتهر وعن النبي صلى الله عليه وسلم لو تمنوا الموت لغص كل إنسان بريقه فمات مكانه ، وما بقي يهودى على وجه الأرض ﴿ولتجدنهم أحرص الناس﴾ من الوجدان العقلي ، وهو جار مجرى العلم خلا أنه مختص بما يقع بعد التجربة ونحوها ومفعولاه الضمير وأحرص والتنكير في قوله تعالى ﴿على حيوة﴾ للإيدان بأن مرادهم نوع خاص منها وهي الحياة المتطاولة وقرئ بالتعريف ﴿ومن الذين أشركوا﴾ عطف على ما قبله بحسب المعنى كأنه قيل أحرص من الناس ومن الذين أشركوا وأفرادهم بالذكر مع دخولهم في الناس للإيدان بامتيازهم من بينهم بشدة الحرص للبالغة في توبيخ اليهود فإن حرصهم وهم معترفون بالجزاء لما كان أشد من حرص المشركين المنسكيرين له دل ذلك على جزمهم بمصيرهم إلى النار ويجوز أن يحمل على حذف المعطوف ثقة بإنباء المعطوف عليه عنه أي وأحرص من الذين أشركوا فقوله تعالى ﴿يودأحدهم﴾ بيان لزيادة حرصهم على طريقة الاستئناف ويجوز أن يكون في حيز الرفع صفة لمبتدأ محذوف خبره الظرف المتقدم على أن يكون المراد بالمشركين اليهود

لقولهم عزير ابن الله أى ومنهم طائفة يود أحدهم أيهم كان أى كل واحد منهم ﴿لو يعمر ألف سنة﴾ وهو حكاية لودادتهم كأنه قيل ليتنى أعمر وإنما أجرى على الغيبة لقوله تعالى يود كما تقول حلف بالله ليفعلن ومحله النصب على أنه مفعول يود لإجراء له مجرى القول لأنه فعل قلبي ﴿وما هو بمنزحته من العذاب﴾ ما حجازية والضمير العائد على أحدهم اسمها وبمنزحته خبرها والباء زائدة ﴿أن يعمر﴾ فاعل من مزححه أى وما أحدهم بمن يزححه أى يبعده وينجيه من العذاب تعميره وقيل الضمير لما دل عليه يعمر من المصدر وأن يعمر بدل منه وقيل هو مهم ، وأن يعمر مفسره وبالجملة حال من أحدهم والعامل يود لا يعمر على أنها حال من ضميره لفساد المعنى أو اعتراض وأصل سنة سنوة لقولهم سنوات وسنية وقيل سنة بكسبه لقولهم سائنته وسنيته وتمنيت النخلة إذا أتت عليها السنون ﴿والله بصير بما يعلمون﴾ البصير فى كلام العرب العالم بكنهه الشيء الخبير به ومنه قولهم فلان بصير بالفقه أى علم بخفيات أعمالهم فهو مجازيهم بها لا محالة وقرىء بباء الخطاب التفاتاً وفيه تشديد للوعيد ﴿قل من كان عدواً لجبريل﴾ نزل فى عبد الله بن سوريا من أحبار فدىك حاج رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله عن نزل عليه بالوحى فقال عليه السلام جبريل عليه السلام فقال هو عدونا لو كان غيره لآمنابك وفى بعض الروايات ورسولنا ميكائيل فأو كان هو الذى يأتىك لآمنابك ، وقد عادانا مرارا وأشدها أنه أنزل على نبينا أن بيت المقدس سيخرب به بخت نصر فبعثنا من يقتله فإقيه بابل غلاما مسكينا فدفع عنه جبريل عليه السلام ، وقال إن كان ربكم أمره بهلاككم فإنه لا يسلطكم عليه وإلا فبأى حق تقتلونه وقيل أمره الله تعالى أن يجعل النبوة فينا فجعلها فى غيرنا ، وروى أنه كان لعمر رضى الله عنه أرض بأعلى المدينة ، وكان يمر على مدارس اليهود فسكان يجلس إليهم ويسمع كلامهم فقالوا يا عمر قد أحببناك وإنما لنطمع فيك فقال والله ما أحببكم لحكم ، ولا أسألكم لشك فى ديني وإنما أدخل عليكم لأزداد بصيرة فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، وأرى آثاره فى كتابكم ثم سألهم عن

جبريل عليه السلام فقالوا ذلك هو عدونا يطلع محمداً على أسرارنا وهو صاحب كل خسف وعذاب وميكائيل يحيى بالخصب والسلام فقال لهم : وما منزلتهما عند الله تعالى قالوا جبريل أقرب منزلة هو عن يمينه وميكائيل عن يساره وهما متعاديان فقال عمر رضى الله عنه إن كانا كما تقولون فما هما بعدوين ولأنتم أكفر من الحجر ، ومن كان عدوا لأحدهما فهو عدو للآخر ومن كان عدوا لهم كان عدوا لله سبحانه ثم رجع عمر فوجد جبريل عليه السلام قد سبقه بالوحى فقال النبي صلى الله عليه وسلم ، لقد وافقك ربك يا عمر فقال عمر رضى الله عنه ، لقد رأيتنى فى دينى بعد ذلك أصلب من الحجر وقرىء جبرئيل كسلسيل وجبرئيل كجمرش وجبريل وجبرئيل وجبرائيل كجراويل وجبرائيل كجبراعل ومنع الصرف فيه للتعريف والعجمة ، وقيل معناه عبد الله ﴿ فإنه نزله ﴾ تعليل لجواب الشرط قائم مقامه والبارز الأول لجبريل عليه السلام والثانى للقرآن أضمر من غير ذكر لإيداننا بفخامة شأنه واستغناؤه عن الذكر لكمال شهرته ونباهته لاسيما عند ذكر شئ من صفاته ﴿ على قلبك ﴾ زيادة تقرير للتنزيل ببيان محل الوحى فإنه القائل الأول له ومدار الفهم والحفظ وإيثار الخطاب على التكلم المبني على حكاية كلام الله تعالى بعينه كما فى قوله تعالى ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ لما فى النقل بالعبارة من زيادة تقرير لمضمون المقالة ﴿ ياذن الله ﴾ بأمره وتيسيره مستعار من تسهيل الحجاب وفيه تلويح بكال توجه جبريل عليه السلام إلى تنزيهه وصدق عزمته عليه السلام وهو حال من فاعل نزله وقوله تعالى : ﴿ مصدقا لما بين يديه ﴾ أى من الكتب الألهية التى معظمها التوراة حال من مفعوله وكذا قوله تعالى ﴿ وهدى وبشرى للمؤمنين ﴾ والعامل فى السكك نزله والمعنى من عادى جبريل من أهل الكتاب فلا وجه لمعاداته بل يجب عليه محبته فإنه نزله عليك كتابا مصدقا لكتبهم أو فالسبب فى عداوته تنزيل الكتاب مصدقا لكتبهم موافق له وهم له كارهون ولذلك حرفوا كتبهم وجحدوا موافقته له لأن الاعتراف بها يوجب الإيمان به وذلك يستدعى

انتكاس أحوالهم وزوال رياستهم وقيل إن الجواب فقد خلع ربة الإنصاف أو فقد كفر بما معه من الكتاب أو فليمت غيظا أو فهو عدوى ، وأنا عدوله ﴿ من كان عدوا لله ﴾ أريد بعداوته تعالى مخالفة أمره عنادا والخروج عن طاعته مكابرة أو عداوة خواصه ومقربيه لكن صدر الكلام بذكره الجليل تفخيما لشأنهم وإيدانا بأن عداوتهم عداوته عز وعلا كما في قوله عز وجل (والله ورسوله أحق أن يرضوه) ثم صرح بالمرام فقول ﴿ وملائكته ورسوله وجبريل وميكال ﴾ وإنما أفردا بالذكر مع أنهما أول من يشملهما عنوان الملكية والرسالة لإظهار فضلتهما كأنهما عليهما السلام من جنس آخر أشرف بما ذكر تنزيلا للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الجنس وللتنبية على أن عداوة أحدهما عداوة للآخر حسما لمادة اعتقادهم الباطل في حقهما حيث زعموا أنهما متعاديان وللإشارة إلى أن معاداة الواحد والسكل سواء في الكفر واستتباع العداوة من جهة الله سبحانه ، وأن من عادى أحدهم فكأنما عادى الجميع وقوله تعالى ﴿ فإن الله عدو للكافرين ﴾ أى لهم جواب الشرط والمعنى من عاداهم عاداه الله وعاقبه أشد العقاب وإيثار الاسمى للدلالة على التحقق والثبات ووضع الكافرين موضع المضمر للإيدان بأن عداوة المذكورين كفر ، وأن ذلك بين لا يحتاج إلى الإخبار به ، وأن مدار عداوته تعالى لهم وسخطه المستوجب لأشد العقوبة والعذاب هو كفرهم المذكور وقرى ميكائيل وميكائيل وميكائيل وميكائيل وميكائيل وميكائيل ﴿ ولقد أنزلنا إليك آيات بينات ﴾ واضحات الدلالة على معانيها ، وعلى كونها من عند الله تعالى ، ﴿ وما يكفر بها إلا الفاسقون ﴾ أى المتمردون في الكفر الخارجون عن حدوده فإن من ليس على تلك الصفة من الكفرة لا يجترىء على الكفر بمثل هاتيك البينات قال الحسن إذا استعمل الفسق في نوع من المعاصي وقع على أعظم أفراد ذلك النوع من كفر أو غيره وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال قال ابن صوريا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما جئتنا بشيء نعرفه وما أنزل عليك من آية فنتبعك لها فنزلت واللام للعهد أى الفاسقون المعهودون وهم أهل الكتاب المحرفون لكتابهم

الخارجون عن دينهم أو للجنس وهم داخلون فيه دخولاً أولياً ﴿أو كلما عاهدوا عهداً﴾ الهمة للانكار والوال للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أ كفروا بها وهى فى غاية الوضوح وكلما عاهدوا عهداً ، ومن جملة ذلك ما أشير إليه فى قوله تعالى ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾ من قولهم للمشركين . قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم وقرىء . بسكون الواو على أن تقدير النظم الكريم ، وما يكفر بها إلا الذين فسقوا أو نقضوا عهودهم مراراً كثيرة وقرىء عاهدوا وعهدوا وقوله تعالى عهداً ، إما مصدر مؤكد لعاهدوا من غير لفظه أو مفعول له على أنه بمعنى أعطوا العهد ﴿نبذ فريق منهم﴾ أى رموا بالزام ورفضوه وقرىء نقضه وإسناد النبذ إلى فريق منهم لأن منهم من لم ينبذهم ﴿بل أ كثرهم لا يؤمنون﴾ أى بالتوراة وهذا دفع لما يتوهم من أن النابذين هم الأقلون ، وأن من لم ينبذ جهارا فهم يؤمنون بها سرا ﴿ولما جاءهم رسول﴾ هو النبي صلى الله عليه وسلم والتنكير للتفخيم ﴿من عند الله﴾ متعلق بجاء أو محذوف وقع صفة لرسول لإفادة مزيد تعظيمه يتأ كيد ما أفاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية ﴿مصدق لما معهم﴾ من التوراة من حيث أنه صلى الله عليه وسلم قرر صحتها وحقق حقيقة نبوة موسى عليه الصلاة والسلام بما أنزل عليه أو من حيث أنه عليه السلام جاء على وفق ما نعت فيها ﴿نبذ فريق من الذين أتوا الكتاب﴾ أى التوراة ، وهم اليهود الذين كانوا فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم ممن كانوا يستفتحون به قبل ذلك لا الذين كانوا فى عهد سليمان عليه السلام كما قيل لأن النبذ عند مجيء النبي صلى الله عليه وسلم لا يتصور منهم وأفرد هذا النبذ بالذكر مع اندراجة تحت قوله عز وجل أو كلما عاهدوا عهداً نبذ فريق منهم لأنه تمهيد لذكر اتباعهم لما تتلو الشياطين وإيثارهم له عليه والمراد بإيتائها ، إما إيتاء علمها بالدراسة والحفظ ، والوقوف على ما فيها فالموصول عبارة عن علمائهم . وإنما مجرد إنزالها عليهم فهو عبارة عن السكل ، وعلى التقديرين فوضعه موضعه الضمير للإيدان بكال التنافى بين ما أثبت لهم فى حين الصلة وبين ما صدر عنهم

من النبذ ﴿ كتاب الله ﴾ أى الذى أوتوه قال السدى لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم عارضوه بالتوراة والفرقان فاتفقت التوراة والفرقان فنبتذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وسحرها روت ، وماروت فلم يوافق القرآن فها قوله تعالى ﴿ ولما جاءهم رسول من عند الله بالحق ، وإنما عبر عنها بكتاب الله تشريفا لها وتعظيما لحقها عليهم وتهويلا لما اجترأوا عليه من الكفر بها وقيل كتاب الله القرآن نبتذوه بعد ما لمهم تلقيه بالقبول لاسيما بعد ما كانوا يستفتحون به من قبل فإن ذلك قبول له وتمسك به فيكون الكفر به عند مجيئه نبتذأ له كأنه قيل كتاب الله الذى جاء به فإن مجيء الرسول معرب عن مجيء الكتاب ﴿ وراء ظهورهم ﴾ مثل لتركهم وإعراضهم عنه بالسكينة مثل بما يرمى به وراء الظهر استغناء عنه وقلة التفات إليه ﴿ كأنهم لا يعلمون ﴾ جملة حالية أى نبتذوه وراء ظهورهم مشبهين بمن لا يعلمه فإن أريد بهم أحبارهم فالمعنى كأنهم لا يعلمونه على وجه الإيقان ولا يعرفون ما فيه من دلائل نبوته عليه الصلاة والسلام ففيه ليدان بأن علمهم به رصين لكنهم يتجاهلون أو كأنهم لا يعلمون أنه كتاب الله أو لا يعلمونه أصلا كما إذا أريد بهم السكك ، وفي هذين الوجهين زيادة مبالغة في إعراضهم عما فى التوراة من دلائل النبوة هذا وإن أريد بما نبتذوه من كتاب الله القرآن فالمراد بالمعلم المتنى فى قوله تعالى ﴿ كأنهم لا يعلمون ﴾ هو العلم بأنه كتاب الله ففيه ما فى الوجه الأول من الإشعار بأنهم متيقنون فى ذلك وإنما يكفرون به مكابرة وعنادا قيل إن جيل اليهود أربع فرق ففرقة آمنوا بالتوراة وقاموا بحقوقها كمؤمنى أهل الكتاب وهم الأقلون المشار إليهم بقوله عز وجل ﴿ بل أكثرهم لا يؤمنون ﴾ وفرقة جاهروا بنبتذالعهود وتعدى الحدود تمردا وفسوقا وهم المعنيون بقوله تعالى ﴿ نبتذو فرقت منهم ﴾ وفرقة لم يهاجروا بنبتذها لجهلهم بها وهم الأكثرون وفرقة تمسكوا بها ظاهرا ونبذوها خفية وهم المتجاهلون ﴿ واتبعوا ما تنزلوا الشياطين ﴾ عطف على جواب لما أى نبتذوا كتاب الله واتبعوا كتب السحرة التى كانت تقرؤها الشياطين وهم المتمردون من الجن وتتلو حكاية حال ماضية والمراد بالإتباع التوغل والتمحض فيه والإقبال عليه

بالسكينة وإلا فأصل الاتباع كان حاصلًا قبل مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم فلا يتسنى عطفه على جواب لما ولذلك قيل هو معطوف على الجملة ، وقيل على على أشربوا ﴿ على ملك سليمان ﴾ أى فى عهد ملكه قيل كانت الشياطين يسترقون السمع ويضمون إلى ما سمعوا أ كاذب يلقونها ويلقونها إلى الكهنة وهم يدونونها ويعلمونها الناس وفشا ذلك فى عهد سليمان عليه السلام حتى قيل إن الجن تعلم الغيب ، وكانوا يقولون هذا علم سليمان وماتم له ملكه إلا بهذا العلم وبه سخر الإنس والجن والطير والريح التى تجرى بأمره وقيل إن سليمان عليه السلام كان قد دفن كثيرًا من العلوم التى خصه الله تعالى بها تحت سرير ملكه فلما مضت على ذلك مدة توصل إليها قوم من المنافقين فكتبوا فى خلال ذلك أشياء من فنون السحر تناسب تلك الأشياء المدفونة من بعض الوجوه ثم بعد موته وإطلاع الناس على تلك الكتب أو همومهم أنه من عمل سليمان عليه السلام وأنه ما بلغ هذا المبلغ إلا بسبب هذه الأشياء .

﴿ وما كفر سليمان ﴾ تنزيه لساحته عليه السلام عن السحر وتكذيب لمن افترى عليه بأنه كان يعتقد ويعمل به والتعرض لسكونه للبهلغة فى فى إظهار نزاهته عليه السلام وكذب باهتية بذلك ﴿ ولكن الشياطين ﴾ وقرىء بتخفيف لكن ورفع الشياطين والواو عاطفة للجملة الاستدراكية على ما قبلها وكون المخففة عند الجمهور للعطف إنما هو عند عدم الواو وكون ما بعدها مفردا ﴿ كفروا ﴾ باستعمال السحر وتدوينه ﴿ يعلمون الناس السحر ﴾ لإغواء وإضلالا والجملة فى محل النصب على الحالية من ضمير كفروا أو من الشياطين فإن ما فى لكن من راحة الفعل كاف فى العمل فى الحال أو فى محل الرفع على خبر ثان للسكن أو بدل من الخبر الأول وصيغة الاستقبال للدلالة على استمرار التعليم وتجده أو جملة مستأنفة هذا على تقدير كون الضمير للشياطين وأما على تقدير رجوعه إلى فاعل اتبعوا فهى إما حال منه وإما استئنافية فحسب واعلم أن السحر أنواع منها سحر الكلدانيين الذين كانوا فى قديم الدهر وهم قوم يعبدون الكواكب ويزعمون أنها هى المدبرة لهذا العالم ومنها

تصدر الخيرات والشور والسمادة والنحوسة ويستحدثون الخوارق بواسطة
 تمزيج القوى السجوية بالقوى الارضية وهم الذين بعث الله تعالى لإبراهيم
 عليه الصلاة والسلام لإبطال مقاتلتهم وهم ثلاث فرق ففرقة منهم يزعمون
 أن الأفلاك والنجوم واجبة الوجود لذواتها وهم الصابئة وفرقة يقولون بإلهية
 الأفلاك ويتخذون لكل واحد منها ميكلا ويشغلون بخدمتها وهم عبدة
 الأوثان وفرقة أثبتوا للأفلاك وللكواكب فاعلا مختارا لسكنهم قالوا إنه
 أعطاها قوة عالية نافذة في هذا العالم وفوض تدبيره إليها ومنها سحر أصحاب
 الأوهام والنفوس القوية فإنهم يزعمون أن الإنسان تبلغ روحه بالتصفية
 في القوة والتأثير إلى حيث يقدر على الإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة
 وتغيير البنية والشكل ومنها سحر من يستعين بالأرواح الأرضية وهو المسمى
 بالعزائم وتسخير الجن ومنها التخيلات الأخذة بالعيون وتسمى الشعوذة
 ولا خلاف بين الأمة في أن من اعتقد الأول فقد كفر وكذا من اعتقد
 الثاني وهو سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية وأما من اعتقد أن الإنسان
 يبلغ بالتصفية وقراءة العزائم والرق إلى حيث يخلق الله سبحانه وتعالى عقيب
 ذلك على سبيل جربان العادة بعض الخوارق فالمترلة انفقوا على أنه كافر
 لأنه لا يمكنه بهذا الاعتقاد معرفة صدق الأنبياء والرسول بخلاف غيرهم
 ولعل التحقيق أن ذلك الإنسان إن كان خيرا متشرعا في كل ما يأتي ويذر
 وكان من يستعين به من الأرواح الخيرة وكانت عزائمه ورفاه غير مخالفة
 لأحكام الشريعة الشريفة ولم يكن فيما ظهر في يده من الخوارق ضرر شرعي
 لأحد فليس ذلك من قبيل السحر وإن كان شريرا غير متمسك بالشريعة
 الشريفة فظاهر أن من يستعين به من الأرواح الخبيثة الشريرة لا محالة ضرورة
 امتناع تحقق التضام والتعاون بينهما من غير اشتراك في الحبث والشرارة فيكون
 كافر لقطعا ، وأما الشعوذة وما يجري مجراها من إظهار الأمور العجيبة بواسطة
 ترتيب الآلات الهندسية وخفة اليد والاستعانة بخواص الأدوية والأحجار
 فإطلاق السحر عليها بطريق التجوز أو لما فيها من الدقة لأنه في الأصل عبارة
 (١٥) أبو السعود (أول)

عن كل ما لطف مأخذه وخفى سببه أو من الصرف عن الجهة المعتادة لما أنه في أصل اللغة الصرف على ما حكاه الأزهري عن الفراء ويونس ﴿ وما أنزل على الملكين ﴾ عطف على السحر أى ويعلمونهم ما أنزل عليهما والمراد بهما واحد والعطف لتغاير الاعتبار أو هو نوع أقوى منه أو على ما تملو وما بينهما اعتراض أى واتبعوا ما أنزل الخ وهما ملكان أنزلا لتعليم السحر ابتلاء من الله للناس كما ابتلى قوم طالوت بالنهر أو تمييزا بينه وبين المعجزة لئلا يغتر به الناس أو لأن السحرة كثرت في ذلك الزمان واستنبطت أبوابا غريبة من السحر وكانوا يدعون النبوة فيبحث الله تعالى هذين الملكين ليعلمنا الناس أبواب السحر حتى يتمكنوا من معارضة أولئك الكذابين وإظهار أمرهم على الناس وأما ما يحكى من أن الملائكة عليهم السلام لما رأوا ما يصعد من ذنوب بنى آدم عيروهم ، وقالوا لله سبحانه هؤلاء الذين اخترتهم لخلافة الأرض يعصونك فيها فقال عز وجل لوركت فيكم ماركبت فيهم لعصيتموني قالوا سبحانه ما ينبغي لنا أن نعصيك قال تعالى فاخترنا من خياركم ملكين فاخترنا هاروت وماروت وكانا من أصلحهم وأعبدهم فأهبنا إلى الأرض بعد ماركب فيهما ماركب في البشر من الشهوة وغيرها من القوة ليقضيا بين الناس نهارا ويعرجا إلى السماء مساء وقد نهبها عن الإشرار والقتل بغير الحق وشرب الخمر والزنا وكانا يقضيان بينهم نهارا فإذا أمسيا ذكرا اسم الله الأعظم فصعدا إلى السماء فاختصمت لئلهما ذات يوم امرأة من أجمل النساء تسمى زهرة وكانت من لحم وقيل كانت من أهل فارس ملكة في بلدها وكانت خصومتها مع زوجها فلما رأياها افتتنا بها فراوداها عن نفسها فأبت فألحا عليها فقالت لا إلا أن تقضيا لى على خصمى ، ففعلا ، ثم سألاها ما سألا ، فقالت : لا إلا أن تقتلاه ففعلا ، ثم سألاها ما سألا فقالت لا إلا أن تشربا الخمر وتسجدا للهمن ففعلا كلا من ذلك بعد اللتيا والتي ثم سألاها ما سألا فقالت لا إلا أن تعلماني ما تصعدان به إلى السماء فعلمهاها الاسم الأعظم فدعت به وصعدت إلى السماء فمسخها سبحانه كوكبا فهما بالعروج حسب عادتهما فلم تعطعهما أجنحتهما

فعلما ما حل بهما ، وكان في عهد إدريس عليه السلام فالتجأ إليه ليشفع لهما .
فجعل تخييرهما الله تعالى بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا الأول
لأنقطاعه عما قليل فهما معذبان . يبايل قيل معلقان بشعورهما وقيل منكوسان
. يضربان بسياط الحديد إلى قيام الساعة فيما لاتعويل عليه لما أن مداره رواية
اليهود مع ما فيه من المخالفة لأدلة العقل والنقل ولعله من مقولة الأمثال
والرموز التي قصد بها إرشاد اللبيب الأريب بالترغيب والترهيب وقيل هما
رجلان سميّا ملكين لصلاحهما ويعضده قراءة الملكين بالسكسر ﴿ يبايل ﴾
الباء بمعنى في وهي متعلقة بأنزل أو بمحذوف وقع حالا من الملكين أو من
الضمير في أنزل وهي بابل العراق ، وقال ابن مسعود رضى الله عنه بابل أرض
الكوفة وقيل جبل دماوند ومنع الصرف العجمة والعلمية أو للتأنيث والعلمية
﴿ هاروت وما روت ﴾ عطف بيان للملكين علمان لهما ومنع صرفهما للعجمة
والعلمية ، ولو كانا من الهرت والمرت بمعنى السكسر لانصرفا ، وأما من قرأ
الملكين بكسر اللام أو قال كانا رجلين صالحين فقال هما أسمان لهما وقيل هما
اسما قبيلتين من الجن هما المراد من الملكين بالسكسر وقرىء بالرفع على هما
هاروت ، وما روت ﴿ وما يعلمان من أحد ﴾ من مزيدة في المفعول به لإفادة
تأكيد الاستغراق الذي يفيدة أحد لا لإفادة نفس الاستغراق كما في قولك
. ما جاءني من رجل وقرىء يعلمان من الإعلام ﴿ حتى يقولوا إنما نحن فتننة ﴾
الفتنة الاختيار والامتحان وإفرادها مع تعددهما لكونها مصدرا وحماتها عليهما
. مواضة للمبالغة كأنهما نفس الفتنة والقصر لبيان أنه ليس لهما فيما يتعاطيانه شأن
. سواها لينصرف الناس عن تعلمه أى ، وما يعلمان ما أنزل عليهما من السحر
: أحدا من ضالبيه حتى ينصحاها قبل التعليم ويقولوا له إنما نحن فتننة وابتلاء من
الله عز وجل فمن عمل بما تعلم منا واعتقد حقيقته كفر ومن توقي عن العمل به
، أو اتخذ ذريعة للاتقاء عن الاعتراض بمثله بقى على الإيمان ﴿ فلا تكفر ﴾
. باعتقاد حقيقته وجواز العمل به والظاهر أن غاية النفي ليست هذه المقالة فقط
. بل من جملتها التزام المخاطب بموجب النهى لكن لم يذكر لظهوره وكون

الكلام في بيان اعتناء المملكين بشأن النصيح والإرشاد والجملة في محل النصب على الحالية من ضمير يعلمون لامعطوفة عليه كما قيل أي ولما سكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ، وما أنزل على المملكين ويحملونهم على العمل به لإغواء وإضلالا ، والحال أنهما ما يعلمان أحدا حتى ينهيا عن العمل به والكفر بسببه. وأما ما قيل من أن ما في قوله تعالى (وما أنزل الخ) نافية والجملة معطوفة على قوله تعالى (وما كفر سليمان) جرى بها لتكذيب اليهود في القصة أي لم ينزل على المملكين لإباحة السحر ، وأن هاروت وماروت بدل من الشياطين على أنهما قبيلتان من الجن خصتا بالذكر لأصالتها وكون باقي الشياطين أتباعا لهما وأن المعنى ما يعلمان أحدا حتى يقولوا إنما نحن فتنة فلا تكفر فتكون مثلنا فيأباه أن مقام وصف الشياطين بالكفر وإضلال الناس بما لا يلائمه وصف رؤسائهم بما ذكر من النهي عن الكفر مع ما فيه من الإخلال بنظام الكلام فإن الإبدال في حكم تنحية المبدل منه ﴿ فيتعلمون منهما ﴾ عطف على الجملة المنفية فإنها في قوة المثبتة كأنه قيل يعلمانهم بعد قولها إنما نحن الخ والضمير لأحد حملا على المعنى كما في قوله تعالى ﴿ فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ ﴿ ما يفرقون به ﴾ أي بسببه وباستعماله ﴿ بين المرء ﴾ وقرىء بضم الميم وكسرهما مع الهمزة وتشديد الراء بلا همزة ﴿ وزوجه ﴾ بأن يحدث الله تعالى بينهما التباغض والفرك والنشوز عند ما فعلوا ما فعلوا من السحر على حسب جرى العادة الإلهية من خلق المسببات عقيب حصول الأسباب العادية ابتلاء لأن السحر هو المؤثر في ذلك وقيل فيتعلمون منهما ما يعملون به فيراه الناس ويعتقدون أنه حق فيكفرون فتبين أزواجهم ﴿ وما هم بصارين به ﴾ أي بما تعلموه واستعملوه من السحر ﴿ من أحد ﴾ أي أحدا ومن زائدة كما ذكر في قوله تعالى وما يعلمان من أحد والمعهود وأن كان زيادتها في معمول فعل منفي إلا أنه حملت الإسمية في ذلك على الفعلية كأنه قيل وما يضررون به من أحد ﴿ إلا يأذن الله ﴾ لأنه وغيره من الأسباب بعزل من التأثير بالذات وإنما هو بأمره تعالى فقد يحدث عند استعمالهم السحر فعلا من أفعاله ابتلاء ، وقد لا يحدثه والاستثناء منمّرغ

والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من ضمير ضارين أو من مفعوله وإن كان
فكرة لاعتقادها على النفي أو الضمير المجروز في به أى وما يضررون به أحداً
إلا مقرونا بإذن الله تعالى وقرىء بضارى على الإضافة يجعل الجار جزءاً من
المجزور وفصل ما بين المضافين بالظرف ﴿ ويتعلمون ما يضرهم ﴾ لأنهم
يقصدون به العمل أو لأن العلم يجر إلى العمل غالباً ﴿ ولا ينفعهم ﴾ صرح
بذلك إيدانا بأنه ليس من الأمور المشوبة بالنفع والضرر بل هو شر بحت
وضرر محض لأنهم لا يقصدون به التخلص عن الاغترار بأكاذيب من يدعى
النبوة مثلاً من السحرة أو تخليص الناس منه حتى يكون فيه نفع في الجملة
وفيه أن الاجتناب عما لا يؤمن غوائله خير كتعلم الفسفة التي لا يؤمن أن تجر
إلى الغواية وإن قال من قال :

عرفت الشر لالشـر لـكن لتوقيه

ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

﴿ ولقد علموا ﴾ أى اليهود الذين حكميت جنباياتهم ﴿ لمن اشتراه ﴾
أى استبدل ماتلوا الشياطين بكتاب الله عز وجل واللام الأولى جواب قسم
محذوف والثانية لام ابتداء علق به علموا عن العمل ومن موصولة في حيز الرفع
بالإبتداء واشتراه صلتها وقوله تعالى ﴿ ماله في الآخرة من خلاق ﴾ أى من
نصيب جملة من مبتدأ وخبر ومن مزيدة في المبتدأ وفي الآخرة متعلق بمحذوف
وقع حالاً منه ولو أخر عنه لكان صفة له والتقدير ماله خلاق في الآخرة
وهذه الجملة في محل الرفع على أنها خبر للوصول والجملة في حيز النصب
سادة مسد مفعول علموا إن جعل متعدياً إلى اثنين أو مفعوله الواحد إن جعل
متعدياً إلى واحد ، الجملة ولقد علموا الخ مقسم عليها دون جملة لمن اشتراه الخ
هذا ما عليه الجمهور . وهو مذهب سيدييه وقال الفراء وتبعه أبو البقاء إن
اللام الأخيرة موصولة للقسم ومن شرطية مرفوعة بالإبتداء واشتراه خبرها ،
وماله في الآخرة من خلاق جواب القسم وجواب الشرط محذوف اكتفاء
عنه بجواب القسم لأنه إذا اجتمع الشرط والقسم يجاب سابقهما غالباً لحيث

يكون الجملتان مقسما عليهما ﴿ ولبس ما شروا به أنفسهم ﴾ أى باعوها واللام جواب قسم محذوف والمخصوص بالذم محذوف أى وبالله لبسها باعوا به أنفسهم السخر أو الكفر وفيه إيدان بأنهم حيث نبدوا كتاب الله وراء ظهورهم فقد عرضوا أنفسهم للهلكة وباعوها بما لا يزيدهم إلا تبارا وتجويز كون الشراء بمعنى الاشتراء ما لا سبيل إليه لأن المشتري متعين وهو ما تتلو الشياطين ولأن متعلق الذم هو المأخوذ لا المنبوذ كما أشير إليه فى تفسير قوله سبحانه بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أى يعملون بعلمهم جعلوا غير عالمين لعدم عملهم بموجب علمهم أو لو كانوا يتفكرون فيه أو يعلمون قبحه على اليقين أو حقيقة ما يتبعه من العذاب عليه على أن المثبت لهم أولا على التوكيد القسمى العقل الغريزى أو العلم الإجمالى بقبح الفعل أو ترتب العقاب من غير تحقيق وجواب لو محذوف أى لما فعلوا ما فعلوا ﴿ ولو أنهم آمنوا ﴾ أى بالرسول الموماً إليه فى قوله تعالى (ولما جاءهم رسول من عند الله) الخ أو بما أنزل إليه من الآيات المذكورة فى قوله تعالى (ولقد أنزلنا إليك آيات بيّنات وما يكفر بها إلا الفاسقون) أو بالتوراة التى أريدت بقوله تعالى (نذ فريق من الذين أتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم) فإن الكفر بالقرآن والرسول عليه السلام كفر بها ﴿ واتقوا ﴾ المعاصى المحكمية عنهم ﴿ لثوبة من عند الله خير ﴾ جواب لو وأصله لأثيبوا مثوبة من عند الله خيراً مما شروا به أنفسهم فحذف الفعل وغير السبك إلى ما عليه النظم الكريم دلالة على ثبات المثوبة لهم والجزم بخيريتها وحذف المفضل عليه لإجلالاً للمفضل من أن ينسب إليه وتنكير المثوبة للتقليل ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة تشريفية لمثوبة أى لشيء ما من المثوبة كائنة من عنده تعالى خير وقيل جواب لو محذوف أى لأثيبوا وما بعده جملة مستأنفة فإن وقوع الجملة الابتدائية جواباً للوغير معهود فى كلام العرب وقيل لو للتمنى ومعناه أنهم من فظاعة الحال بحيث يتمنى العارف إيمانهم واتقاءهم تلهفا عليهم وقرىء لثوبة وإنما سمي الجزء ثواباً ومثوبة لأن المحسن يثوب إليه ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أن ثواب الله خير نسبوا إلى الجهل لعدم

العمل بموجب العلم ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ خطاب للمؤمنين فيه إرشاد لهم إلى الخير وإشارة إلى بعض آخر من جنائيات اليهود ﴿ لاتقولوا راعنا ﴾ المراعاة المبالغة في الرعى وهي حفظ الغير وتدبير أموره وتدارك مصالحه وكان المسلمون إذا ألقى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من العلم يقولون راعنا يارسول الله أى راقبنا وانتظرنا وتأن بنا حتى نفهم كلامك ونحفظه وكانت لليهود كلمة عبرانية أو سريانية يتسابقون بها فيما بينهم وهي راعينا قيل معناها اسمع لاسمعت فلما سمعوا بقول المؤمنين ذلك افترضوه واتخذوه ذريعة إلى مقصدهم فجعلوا يخاطبون به النبي صلى الله عليه وسلم يعنون به تلك المسية أو نسبتته صلى الله عليه وسلم إلى الرعن وهو الحق والهوج روى أن سعد بن عبادة رضى الله عنه سمعها منهم فقال يا أعداء الله عليكم لعنة الله عليكم لعنة الله والذي نفسى بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأحتزن عنقه قالوا أو لستم تقولونها فنزلت الآية ونهى فيها المؤمنون عن ذلك قطعاً لألسنة اليهود عن التدليس وأمروا بما فى معناها ولا يقبل التلبس فليل ﴿ وقولوا انظرنا ﴾ أى انظر إلينا بالحذف والإيصال أو انتظرنا على أنه من نظره إذا انتظره وقرىء أنظرنا من النظر ، أى أملهنا حتى نحفظ وقرىء راعونا على صيغة الجمع للتوقير وراعنا على صيغة الفاعل أى قولاً ذار عن كدارع ولا بن لأنه لما أشبه قولهم راعينا وكان سبباً للسب بالرعن اتصف به ﴿ واسمعوا ﴾ وأحسنوا سماع ما يكلمكم رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يلقى إليكم من المسائل بأذان واعية وأذهان حاضرة حتى لا تحتاجوا إلى الاستعاذة وطلب المراعاة أو واسمعوا ما كلفتموه من النهى والأمر بجد واعتناء حتى لاترجعوا إلى ما نهيتهم عنه أو واسمعوا سماع طاعة وقبول ولا يكن سماعكم مثل سماع اليهود حيث قالوا سمعنا وعصينا ﴿ وللكافرين ﴾ أى اليهود الذين توسلوا بقولكم المذكور إلى كفراتهم وجعلوه سبباً للتهاون برسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا له ما قالوا ﴿ عذاب أليم ﴾ لما اجترأوا عليه من العظيمة وهو تذييل لما سبق فيه وعيد شديد لهم ونوع تحذير للمخاطبين عما نهوا عنه .

﴿ ما يود الذين كفروا ﴾ الود حب الشيء مع تمنيه ولذلك يستعمل في كل منهما ونفيه كناية عن الكراهة ووضع الموصول موضع الضمير للإشعار بعلمية ما في حيز الصلة لعدم ودهم ولعل تعلقه بما قبله من حيث أن القول المنهى عنه كثير ا ما كان يقع عند تنزيل الوحي المعبر عنه في هذه الآية بالخير فكأنه أشير إلى أن سبب تحريفهم له إلى ما حكي عنهم لوقوعه في أثناء حصول ما يكرهونه من تنزيل الخير وقيل كان فريق من اليهود يظهرن للؤمنين محبة ويزعمون أنهم يودون لهم الخير فنزلت تكذيباً لهم في ذلك ومن في قوله تعالى ﴿ من أهل الكتاب ولا المشركين ﴾ للتبيين كما في قوله عز وعلا (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين) ولا مزيدة لما ستعرفه ﴿ أن ينزل عليكم ﴾ في حيز النصب على أنه مفعول يود وبناء الفعل للمفعول للثقة بتعين الفاعل والتصریح الآتي في قوله تعالى ﴿ من خير ﴾ هو القائم مقام فاعله ومن مزيدة للاستغراق والنفي وإن لم يباشره ظاهراً لكنه منسحب عليه معنى والخير الوحي وحمله على ما يعمه وغيره من العلم والنصرة كما قيل يأباه وصفه فيما سياتى بالاختصاص وتقديم الظرف عليه مع أن حقه التأخر عنه لإظهار كمال العناية به لأنه المدار لعدم ودهم ومن في قوله تعالى ﴿ من ربكم ﴾ ابتدائية والتعرض لعنوان الربوبية للإشعار بعلميته لتنزيل الخير والإضافة إلى ضمير المخاطبين لتشير يفهم وليست كراهتهم لتنزيله على المخاطبين من حيث تعبدكم بما فيه وتعريضهم بذلك لسعادة الدارين كيف لا وهم من تلك الحثيثة من جملة من نزل عليهم الخير بل من حيث وقوع ذلك التنزيل على النبي صلى الله عليه وسلم وصيغة الجمع للإيدان بأن مدار كراهتهم ليس معنى خاصاً بالنبي صلى الله عليه وسلم بل وصف مشترك بين الكل هو الخلو عن الدراسة عند اليهود وعن الرياسة عند المشركين والمعنى أنهم يرون أنفسهم أحق بأن يوحى إليهم ويكرهونكم فيحسدونكم أن ينزل عليكم شيء من الوحي أما اليهود فبناء على أنهم أهل الكتاب وأبناء الأنبياء الناشئون في مهابط الوحي وأنتم أميون وأما المشركون فإدلالاً بما كان لهم من الجاه والمال زعماً منهم أن رياسة الرسالة كسائر الرياسات الدنيوية منوطه

بالأسباب الظاهرة ولذلك قالوا (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) ولما كانت اليهود بهذا الداء أشهر لاسيما في أثناء ذكر ابتلائهم به لم يلزم من نفى ودادتهم لما ذكر نفى ودادة المشركين له فزيدت كلمة لا لتأكيد النفي ﴿ والله يختص برحمته ﴾ جملة ابتدائية سبقت لتقرير ما سبق من تنزيل الخير والتنبيه على حكمته وإرغام الكارهين له والمراد برحمته الوحي كما في قوله سبحانه (أهم يقسمون رحمة ربك) عبر عنه باعتبار نزوله على المؤمنين بالخير وباعتبار إضافته إليه تعالى بالرحمة قال على رضى الله عنه بنبوته خص بها محمدا صلى الله عليه وسلم فالفعل متعد وصيغة الافتعال للإنباء عن الاصطفاء وإيثاره على التنزيل المناسب للسياق الموافق لقوله تعالى (أن ينزل الله من فضله على من يشاء) لزيادة تشریفه صلى الله عليه وسلم وإقناطهم بما علقوا به أطعمهم الفارغة والباء داخلة على المقصور أى يؤتى رحمته ﴿ من يشاء ﴾ من عباده ويجعلها مقصورة عليه لاستحقاقه الذاتى الفاضل عليه بحسب إرادته عز وعلا تفضلا لاتعداه إلى غيره وقيل الفعل لازم ومن فاعله والضمير العائد إلى من محذوف على التقديرين وقوله تعالى ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ تذييل لما سبق مقرر لمضمونه وفيه إيدان بأن إنباء النبوة من فضله العظيم كقوله تعالى (إن فضله كان عليك كبيرا) وأن حرمان من حرم ذلك ليس لضيق ساحة فضله بل لمشيئته الجارية على سنن الحكمة البالغة وتصدير الجملتين بالأسم الجليل للإيدان بفخامة مضمونها وكون كل منهما مستقلة بشأنها فإن الإضمار فى الثانية منبىء عن توقفها على الأولى ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان سر النسخ الذى هو فرد من أفراد تنزيل الوحي وإبطال مقالة الطاعنين فيه أثر تحقيق حقيقة الوحي ورد كلام الكارهين له رأساً قيل نزلت حين قال المشركون أو اليهود ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينههم عنه ويأمر بخلافه والنسخ فى اللغة الإزالة والنقل يقال نسخت الریح الأثر أى أزالته ونسخت الكتاب أى نقلته ونسخ الآية بيان انتهاء التعبد بقراءتها أو بالحكم المستفاد منها أو بهما جميعاً وإنساؤها إذهابها من القلوب وما شرطية جازمة لنسخ منتصبة

به على المفعولية وقرىء فنسخ من أنسخ أى نأمرك أو جبريل بنسخها أو نجدها منسوخة ونسأها من النسء أى نوخرها ونسها بالتشديد ونسها ونسها على خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم مبنيًا للفاعل وللفعول وقرىء ما فنسخ من آية أو فنسكها وقرىء ما ننسك من آية أو فنسخها والمعنى أن كل آية نذهب بها على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة من لإزالة لفظها أو حكمها أو كليهما معاً إلى بدل أو إلى غير بدل ﴿ نأت بخير منها ﴾ أى نوع آخر هو خير للعباد وبحسب الحال فى النفع والثواب من الذاهبة وقرىء بقلب الهمزة ألفاً ﴿ أو مثلها ﴾ أى فيما ذكر من النفع والثواب وهذا الحكم غير مختص بنسخ الآية التامة فما فوقها بل جار فى ما دونها أيضاً وتخصيصها بالذكر باعتبار الغالب والنص كما ترى دال على جواز النسخ كيف لا وتنزيل الآيات التى عليها يدور فلك الأحكام الشرعية إنما هو بحسب ما يقتضيه من الحكم والمصالح وذلك يختلف باختلاف الأحوال ويتبدل حسب تبدل الأشخاص والأبصار كأحوال المعاش فرب حكم تقتضيه الحكمة فى حال تقتضى فى حال أخرى نقيضه فلو لم يحز النسخ لاختل ما بين الحكمة والأحكام من النظام ﴿ ألم تعلم ﴾ الهمزة للتقرير كما فى قوله سبحانه (أليس الله بكاف عبده) وقوله تعالى (ألم نشرح لك صدرك) والخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى ﴿ إن الله على كل شىء قدير ﴾ ساد مسد بفعولى تعلم عند الجمهور ومسد مفعوله الأول والثانى محذوف عند الأخفش والمراد بهذا التقرير الاستشهاد بعلمه بما ذكر على قدرته تعالى على النسخ وعلى الإتيان بما هو خير من المنسوخ وبما هو مثله لأن ذلك من جملة الأشياء المقهورة تحت قدرته سبحانه فمن علم شمول قدرته تعالى لجميع الأشياء علم قدرته على ذلك قطعاً والانتفات بوضع الاسم الجليل موضع الضمير لتربية المهابة والإشعار بمناط الحكم فإن شمول القدرة لجميع الأشياء من أحكام الألوهية وكذا الحال فى قوله عز سلطانه ﴿ ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ﴾ فإن عنوان الألوهية مدار أحكام ملكوتها والجار والمجرور خبر مقدم وملك السموات والأرض مبتدأ والجملة خبر لأن وإيثاره على أن يقال إن لله ملك لله السموات.

والأرض للقصد إلى تقوى الحكم بتكرار الإسناد وهو إما تكرير للتقرير وإعادة للاستشهاد على ما ذكر وإنما لم يعطف أن مع ما في حيزها على ما سبق من مثلها وما لزيادة التأكيد وإشعارا باستقلال العلم بكل منهما وكفايته في الوقوف على ما هو المقصود وإما تقرير مستقل للاستشهاد على قدرته تعالى على جميع الأشياء أى ألم تعلم أن الله له السلطان القاهر والاستيلاء الباهر المستلزمان للقدرة التامة على التصرف السكلى فيهما إيجاداً وإعداماً وأمرأ ونهيا حسبما تقتضيه مشيئته لا معارض لأمره ولا معقب لحكمه فمن هذا شأنه كيف يخرج عن قدرته شيء من الأشياء وقوله تعالى ﴿ وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾ معطوفة على الجملة الواقعة خبراً لأن داخلته معها تحت تعلق العلم المقرر وفيه إشارة إلى تناول الخطابين السابقين للأمة أيضاً وإنما إفراده عليه السلام بهما لما أن علومهم مستندة إلى علمه عليه السلام ووضع الاسم الجليل موضع الضمير الراجع إلى اسم أن لتربية المهابة والإيدان بمقارنة الولاية والنصرة للقوة والعزة والمراد به الاستشهاد بما تعلق به من العلم على تعلق إرادته تعالى بما ذكر من الإتيان بما هو خير من المنسوخ أو بمثله فإن مجرد قدرته تعالى على ذلك لا يستدعى حصوله البتة وإنما الذى يستدعيه كونه تعالى مع ذلك ولياً ونصيراً لهم فمن علم أنه تعالى وليه ونصيره على الاستقلال يعلم قطعاً أنه لا يفعل به إلا ما هو خير له فيعرض أمره إليه تعالى ولا يخطر بباله ريبية في أمر النسخ وغيره أصلاً والفرق بين الولى والنصير أن الولى قد يضعف عن النصرة والنصير قد يكون أجنبياً من المنصور وما إما تيمية لا عمل لها ولكم خبر مقدم ومن ولى مبتدأ مؤخر زيدت فيه كلمة من للاستفراق وإما حجازية ولكم خبرها المنصوب عند من يميز تقديمه واسمها من ولى ومن مزيدة لما ذكر ومن دون الله في حيز النصب على الحالية من اسمها لأنه في الأصل صفة له فلما قدم انتصب حالاً ومعناه سوى الله والمعنى أن قضية العلم بما ذكر من الأمور الثلاثة هو الجزم والإيقان بأنه تعالى لا يفعل بهم في أمر من أمور دينهم أو دنياهم إلا ما هو خير لهم والعمل بموجبه من الثقة به والتوكل عليه وتفويض الأمر إليه من غير إصغاء إلى

أقويل الكفرة وتشكيكاتهم التي من جملتها ما قالوا في أمر النسخ وقوله تعالى ﴿ أم تريدون ﴾ تجريد للخطاب عن النبي صلى الله عليه وسلم وتخصيص له بالؤمنين وأم منقطعة ومعنى بل فيها الإضراب والانتقال من حملهم على العمل بموجب علمهم بما ذكر عند ظهور بعض مخايل المساهلة منهم في ذلك وأمارات التأثر من أقويل الكفرة إلى التحذير من ذلك ومعنى الهمزة إنكار وقوع الإرادة منهم واستبعاده لما أن قضية الإيمان وإزعة عنها وتوجيه الإنكار إلى الإرادة دون متعلقها للبالغة في إنكاره واستبعاده ببيان أنه بما لا يصدر عن العاقل إرادته فضلا عن صدور نفسه والمعنى بل أتريدون ﴿ أن تسألوا ﴾ وأنتم مؤمنون ﴿ رسولكم ﴾ وهو في تلك الرتبة من غلو الشأن واقترحوا عليه ما تشتهون غير واثقين في أموركم بفضل الله تعالى حسبما يوجهه قضية علمكم بشؤنه سبحانه قيل لعلمهم كانوا يطلبون منه عليه الصلاة والسلام بيان تفاصيل الحكم الداعية إلى النسخ وقيل سأله عليه السلام قوم من المسلمين أن يجعل لهم ذات أنواع كما كانت للشركيين وهي شجرة كانوا يعبدونها ويعلقون عليها الماء كول والمشروب وقوله تعالى ﴿ كما سئل موسى ﴾ مصدر تشبيهي أى نعت لمصدر مؤكد محذوف وما مصدرية أى سؤالاً مشبهاً بسؤال موسى عليه السلام حيث قيل له اجعل لنا إلهاً وأرنا الله جهرة وغير ذلك ومقتضى الظاهر أن يقال كما سألوا موسى لأن المشبه هو المصدر من المبني للفاعل أعنى سؤالية المخاطبين لا من المبني للمفعول أعنى مسؤولية الرسول صلى الله عليه وسلم حتى يشبه بمسؤولية موسى عليه السلام فلعله أريد التشبيه فيهما معاً ولكنه أوجز النظم فذكر في جانب المشبه السائلية وفي جانب المشبه به المسؤولية واكتفى بما ذكر في كل موضع عما ترك في الموضع الآخر كما ذكر في قوله تعالى (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله) وقد جوز أن تكون ما موصولة على أن العائد محذوف أى كالسؤال الذى سئله موسى عليه السلام وقوله تعالى ﴿ من قبل ﴾ متعلق بسئل جىء به للتأكيد وقرىء سيل بالياء وكسر السين وبتسهيل الهمزة بين بين ﴿ ومن يتبدل الكفر ﴾ أى يختره ويأخذه

لنفسه ﴿بالإيمان﴾ بمقابلته بدلا منه وقرىء ومن يبدل من أبدل وكان مقتضى الظاهر أن يقال ومن يفعل ذلك أى السؤال المذكور أو إرادته وحاصله ومن يترك الثقة بالآيات البينة المنزلة بحسب المصالح التى من جملتها الآيات الناسخة التى هى خير محض وحق بحت وافترح غيرها ﴿فقد ضل سواء السبيل﴾ أى عدل وجار من حيث لا يدري عن الطريق المستقيم الموصول إلى معالم الحق والهدى وتاه فى تيه الهوى وتردى فى مهاوى الردى وإنما أوتر على ذلك ما عليه النظم الكبريم للتصريح من أول الأمر بأنه كفر وارتداد وأن كونه كذلك أمر واضح غنى عن الإخبار به بأن يقال ومن يفعل ذلك يكفر حقيق بأن يعد من المسلمات ويجعل مقدا للشرطية روما للبالغة فى الزجر والإفراط فى الردع وسواء السبيل من باب إضافة الوصف إلى الموصوف لقصد المبالغة فى بيان قوة الاتصاف كأنه نفس السواء على منهاج حصول الصورة فى الصورة الحاصلة وقيل الخطاب لليهود حين سألوا أن ينزل الله عليهم كتابا من السماء وقيل للبشر حين قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا إلخ إضافة الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم على القولين باعتبار أنهم من أمة الدعوة ومعنى تبدل الكفر بالإيمان وهم بمعزل من الإيمان ترك صرف قدرتهم إليه مع تمكنهم من ذلك وإيثارهم للكفر عليه ﴿ود كثير من أهل الكتاب﴾ هم رهط من أحبار اليهود . روى أن فنحاص بن عازوراء وزيد بن قيس ونفرا من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر رضى الله عنهما بعد وقعة أحد ألم تروا ما أصابكم ولو كنتم على الحق ما هزتم فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم وأفضل ونحن أهدى منكم سبيلا فقال عمار كيف نقض العهد فيكم قالوا شديد قال فإنى عاهدت أن لا أكفر بمحمد عليه الصلاة والسلام ما عشت فقالت اليهود أما هذا فقد صبا وقال حذيفة أما أنا فقد رضيت بالله ربا وبمحمد نبيا وبالإسلام ديننا وبالقرآن إماما وبالكعبة قبلة والمؤمنين إخوانا ثم أتيار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبراه فقال أصبتما خيرا وأفلحتما فنزلت ﴿لو يردونكم﴾ حكاية لودادتهم ولو فى معنى التنى وصيغة الغيبة كما فى قوله حلف ليفعلن وقيل

هى بمنزلة أن الناصبة فلا يكون لها جواب وينسبك منها وبما بعدها مصدر يقع
منعولاً لودوا التقدير وذوا ردكم وقيل هى على حقيقتها وجوابها محذوف تقديره
لو يردونكم كنفاراً لسروا بذلك و﴿من بعد إيمانكم﴾ متعلق ببردونكم وقوله
تعالى ﴿كفاراً﴾ منعول ثان له على تضمين الرد معنى التصيير أى يصيرونكم
كفاراً كما فى قوله :

رمى الحدثنان نسوة آل سعد بمقدار سمدن له سمودا

فرد شعورهن السود بيضاً ورد وجوههن البيض سودا

وقيل هو خال من منعوله والأول أدخل لما فيه من الدلالة صريحا على كون
الكفر المفروض بطريق القسر وإيراد الظرف مع عدم الحاجة إليه ضرورة
كون المخاطبين مؤمنين واستحالة تحقق الرد إلى الكفر بدون سبق الإيمان مع
توسيطه بين المفعولين لإظهار كمال شناعة ما أراده وغاية بعده من الوقوع إما
بزيادة قبحة الصارف للعاقل عن مباشرة وإما لممانعة الإيمان له كأنه قيل من بعد
إيمانكم الراسخ وفيه من تثبيت المؤمنين ما لا يخفى .

﴿حسدا﴾ علة لود أو حال أريد به نعت الجمع أى حاسدين لكم والحسد
الأسف على من له خير بخيره ﴿من عند أنفسهم﴾ متعلق بورد أى ودوا ذلك من
أجل تشهيههم وحظوظ أنفسهم لا من قبل التدبير والميل مع الحق ولو على
زعمهم أو بحسدا أى حسدا منبعضاً من أصل نفوسهم بالغاً أقصى مراقبه ﴿من
بعد ما تبين لهم الحق﴾ بالمعجزات الساطعة وبما عاينوا فى التوراه من الدلائل
وعلموا أنكم متمسكون به وهم منهمكون فى الباطل ﴿فاعفوا واصفحوا﴾ العفو
ترك المؤاخذه والعقوبة والصفح ترك التثريب والتأنيب ﴿حتى يأتى الله بأمره﴾
الذى هو قتل بنى قريظة وإجلاء بنى النضير وإذلالهم بضرب الجزية عليهم أو
الإذن فى القتال وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه منسوخ بآية السيف ولا
يقدر فى ذلك ضرب الغاية لأنها لا تعلم إلا شرعاً ولا يخرج الوارد بذلك من
أن يكون ناسخاً كأنه قيل فاعفوا واصفحوا إلى ورود الناسخ ﴿إن الله على كل

شيء قدير ﴿ فينتقم منهم إذ اهان حينه وأن أو انه فهو تعليل لما دل عليه ما قبله
 ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ عطف على فاعنوا أمروا بالصبر والمداراة
 واللبأ إلى الله تعالى بالعبادة البدنية والمالية ﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير ﴾
 كصلاة أو صدقة أو غير ذلك أي شيء من الخيرات تقدموه لمصلحة أنفسكم
 ﴿ تجدوه عند الله ﴾ أي تجدوا ثوابه وقرىء تقدموا من أقدم ﴿ إن الله بما تعملون
 بصير ﴾ فلا يضيع عنده عمل فهو وعد للمؤمنين وقرىء بالياء فهو وعيد للكافرين
 ﴿ وقالوا ﴾ عطف على ود والضمير لأهل الكتابين جميعاً ﴿ لن يدخل الجنة إلا
 من كان هوداً أو نصارى ﴾ أي قالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً
 وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى فلف بين القولين ثقة أن
 السامع يرد كلا منهما إلى فأنه ونحوه وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا
 وليس مرادهم بأولئك من أقام اليهودية والنصرانية قبل النسخ والتجريف على
 وجههما بل أنفسهم على ما هم عليه لأنهم إنما يقولونه لإضلال المؤمنين وردم
 إلى الكفر والهود جمع هائد كعوذ جمع عائد وبزل جمع بازل والإفراد في كان
 باعتبار لفظ من والجمع في خبره باعتبار معناه وقرىء إلا من كان يهودياً أو
 نصرانياً ﴿ تلك أمانيتهم ﴾ الأمانى جمع أمنية وهي ما يتمنى كالأعجوبة والأضحوكة
 والجملة محترضة مبينة لبطلان ما قالوا وتلك إشارة إليه والجمع باعتبار صدوره
 عن الجميع وقيل فيه حذف مضاف أي أمثال تلك الأمانية أمانيتهم وقيل تلك
 إشارة إليه وإلى ما قبله من أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم وأن يردم
 كفاراً ويرده قوله تعالى ﴿ قل ها أتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ فإنهما ليسا
 بما يطلب له البرهان ولا بما يحتمل الصدق والكذب قيل ها أتوا أصله آتوا قلبت
 الهمزة هاء أي أحضروا حججكم على اختصاصكم بدخول الجنة إن كنتم صادقين
 في دعواكم . هذا ما يقتضيه المقام بحسب النظر الجليل والذي يستدعيه إعجاز
 التنزيل أن يحمل الأمل التبيكتي على طلب البرهان على أصل الدخول الذي
 يتضمنه دعوى الاختصاص به فإن قوله تعالى ﴿ بلى ﴾ إلخ لإثبات من جهته تعالى
 لما نفوه مستلزم لنفى ما أثبتوه وإذ ليس الثابت به مجرد دخول غيرهم بالدخول

كما استعرفه بإذن الله تعالى ظهر أن المنفى أصل دخولهم ومن ضرورته أن يكون هو الذي كلفوا إقامة البرهان عليه لا اختصاصهم به ليتحد مورد الإثبات والنفي وإنما عدل عن إبطال صريح ما ادعوه وسلك هذا المسلك لإبانة لغاية حرمانهم مما علقوا به أطاعهم وإظهاراً لسكّال عجزهم عن إثبات مدعاهم لأن حرمانهم من الاختصاص بالدخول وعجزهم عن إقامة البرهان عليه لا يقتضيان حرمانهم من أصل الدخول وعجزهم عن إثباته وأما نفس الدخول فحيث ثبت حرمانهم منه وعجزهم عن إثباته فهم من الاختصاص به أبعد وعن إثباته أعجز وإنما الفائز به من انتظمه قوله سبحانه :

﴿ من أسلم وجهه لله ﴾ أى أخلص نفسه له تعالى لا يشرك به شيئاً عبر عنها بالوجه أشرف الأعضاء وجمع المشاعر وموضع السجود ومظهر آثار الخضوع الذى هو من أخص خصائص الإخلاص أو بوجهه وقصده بحيث لا يلوى عزيمته إلى شيء غيره ﴿ وهو محسن ﴾ حال من ضمير أسلم أى والحال أنه محسن فى جميع أعماله التى من جملتها الإسلام المذكور وحقيقة الإحسان الإتيان بالعمل على الوجه اللائق وهو حسنه الوصفى التابع لحسنه الذاتى وقد فسره صلى الله عليه وسلم بقوله أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ﴿ فله أجره ﴾ الذى وعد له على عمله وهو عبارة عن دخول الجنة أو عما يدخل هو فيه دخولا أوليا وأياما كان فتصويره بصورة الأجر للإيدان بقوة ارتباطه بالعمل واستحالة نياله بدونه وقوله تعالى : ﴿ عند ربه ﴾ حال من أجره والعامل فيه معنى الاستقرار فى الظرف والعندية للتشريف ووضع اسم الرب مضافا إلى ضمير من أسلم موضع ضمير الجلالة لإظهار مزيد اللطف به وتقرير مضمون الجملة أى فله أجره عند مالكه ومدبر أموره ومبلغه إلى كماله والجملة جواب من إن كانت شرطية وخبرها إن كانت موصولة والفاء لتضمنها معنى الشرط فيكون الرد بقوله تعالى بلى وحده ويجوز أن يكون من فاعلا لفعل مقدر أى بلى يدخلها من أسلم وقوله تعالى فله أجره معطوف على ذلك المقدر وأياما كان فتعليق ثبوت الأجر بما ذكر

من الإسلام والإحسان المختصين بأهل الإيمان قاض بأن أولئك المدعين من دخول الجنة بمعزل ومن الاختصاص به بألف منزل ﴿ ولا خوف عليهم ﴾ في النارين من الحوق مكروه ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ من فوات مطلوب أى لا يعترهم ما يوجب ذلك لأنه يعترهم لكنهم لا يخافون ولا يحزنون والجمع في الضمائر الثلاثة باعتبار معنى من كما أن الأفراد في الضمائر الأول باعتبار اللفظ ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء ﴾ بيان لتضليل كل فريق صاحبه بخصوصه إثر بيان تضليله كل من عداه على وجه العموم . نزلت لما قدم وفد نجران على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتاهم أحبار اليهود فتناظروا فارتفعت أصواتهم فقالوا لهم لستم على شيء أى أمر يعتد به من الدين أو على شيء مأمته أصلاً مبالغة في ذلك كما قالوا أقل من لاشيء وكفروا بعبسى والإنجيل ﴿ وقالت النصارى ليست اليهود على شيء ﴾ على الوجه المذكور وكفروا بموسى والتوراة لا أنهم قالوا ذلك بناء للأمر على منسوخية التوراة ﴿ وهم يتأون الكتاب ﴾ والواو للمحال واللام للجنس أى قالوا ما قالوا والحال أن كل فريق منهم من أهل العلم والكتاب أى كان حق كل منهم أن يعترف بمقيدة دين صاحبه حسبما يتعلق به كتابه فإن كتب الله تعالى متصادقة ﴿ كذلك ﴾ أى مثل ذلك الذى سمعت به والكاف في محل ال نصب اما على أنها نعت لمصدر محذوف قدم على عامله لإفادة القصر أى قولاً مثل ذلك القول بعينه لا قولاً مغايراً له ﴿ قال الذين لا يعلمون ﴾ من عبدة الأصنام والمعطلة ونحوهم من الجهلة أى قالوا لأهل كل دين ليسوا على شيء وإما على أنها حال من المصدر المضمرة المعروف الدال عليه قال أى قال القول الذين لا يعلمون حال كونه مثل ذلك القول الذى سمعت به ﴿ مثل قولهم ﴾ إما بدل من محل السكاب وإما مفعول للفعل المنقى قبله أى مثل ذلك القول قال الجاهلون بمثل مقالة اليهود والنصارى وهذا توبيخ عظيم لهم حيث نظموا أنفسهم مع علمهم في سلك من لا يعلم أصلاً ﴿ فأنه يحكم بينهم ﴾ أى بين اليهود والنصارى فإن مساق النظم لبيان حالهم وإنما التعرض لمقالة غيرهم (١٦ - أراء السور - أول)

لإظهار كمال بطلان مقالهم ولأن المحاجة الموجهة إلى حكم إنما وقعت بينهم ﴿يوم القيامة﴾ متعلق بيحكم وكذا ما قبله وما بعده ولا ضير فيه لاختلاف المعنى ﴿فيما كانوا فيه يختلفون﴾ بما يقسم لكل فريق ما يليق به من العقاب وقيل حكمه بينهم أن يكذبهم ويدخلهم النار والظرف الأخير متعلق بـيختلفون قدم عليه للحفاظ على رؤس الأي لا بكانوا ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله﴾ إنكار واستبعاد لأن يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك أو مساويا له وإن لم يكن سبب التركيب متعرضا لإنكار المساواة ونفها يشهد به العرف الفاشي والاستعمال المطرد فإذا قيل من أكرم من فلان أو لا أفضل من فلان فالمراد به حتما أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل وهذا الحكم عام لكل من فعل ذلك في أي مسجد كان وإن كان سبب النزول فعل طائفة معينة في مسجد مخصوص . روى أن النصارى كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى ويمنعون الناس أن يصلوا فيه وأن الروم غزوا أهله فخرّبوه وأحرقوا التوراة وقتلوا وسبوا وقد نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما أن طيطيوس الرومى ملك النصارى وأصحابه غزوا بنى إسرائيل وقتلوا مقاتلتهم وسبوا ذراريهم وأحرقوا التوراة وخرّبوا بيت المقدس وقذفوا فيه الجيف وذبحوا فيه الخنازير ولم يزل خرابا حتى بناه المسلمون في عهد عمر رضى الله عنه وإنما أوقع المنع على المساجد وإن كان المنوع هو الناس لما أن فعلهم من طرح الأذى والتخريب ونحوهما متعلق بالمسجد لا بالناس منع كونه على حاله وتعلق الآية الكريمة بما قبلها من حيث أنها مبطلّة لدعوى النصارى اختصاصهم بدخول الجنة وقيل هو منع المشركين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدخل المسجد الحرام عام الحديدية فتعلقها بما تقدمها من جهة أن المشركين من جملة الجاهلدين القائلين لكل من عداهم ليسوا على شيء .

﴿أن يذكر فيها اسمه﴾ ثانى منفعولى منع كقوله تعالى (وما منع الناس أن يؤمنوا) ، وقوله تعالى (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) ويجوز أن يكون ذلك بحذف الجار مع أن وأن يكون ذلك منفعولا

له أى كراهة أن يذكر فيها اسمه ﴿ وسعى في خرابها ﴾ بالهدم أو التعطيل
 يانقطاع الذكر ﴿ أولئك ﴾ المانعون الظالمون الساعون في خرابها ﴿ ما كان
 لهم أن يدخلوها إلا خائفين ﴾ أى ما كان ينبغى لهم أن يدخلوها إلا بخشية
 وخضوع فضلا عن الاجترار على تخريبها أو تعطيلها أو ما كان الحق أن
 يدخلوها إلا على حال التهب وارتعاد الفرائص من جهة المؤمنين أن يبظشوا
 بهم فضلا أن يستولوا عليها ويلوها ويمنعوهم منها أو ما كان لهم في علم الله تعالى
 وقضائه بالآخرة إلا ذلك فيكون وعدا للمؤمنين بالنصرة واستخلاص
 ما استولوا عليه منهم وقد أنجز الوعد وقته الحمد . روى أنه لا يدخل بيت
 بيت المقدس أحد من النصارى إلا متنكرا مسارقة وقيل معناه النهى عن
 تمكينهم من الدخول في المسجد واختلف الأئمة في ذلك فجوزه أبو حنيفة
 مطلقا ومنعه مالك مطلقا وفرق الشافعي بين المسجد الحرام وغيره ﴿ لهم ﴾
 أى لأولئك المذكورين ﴿ في الدنيا خزي ﴾ أى خزي فظيع لا يوصف
 بالقتل والسبى والإذلال بضرب الجزية عليهم ﴿ ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾
 وهو عذاب النار لما أن سببه أيضا وهو ما حكى من ظلمهم كذلك في العظام
 وتقديم الظرف في الموضوعين للتشويق إلى ما يذكر بعده من الخزي والعذاب
 لما مر من أن تأخير ما حقه التقديم موجب لتوجه النفس إليه فيتمكن فيها
 عند وروده فضل تمكن كما في قوله تعالى ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ (وأنزله لكم
 من الأنعام ثمانية أزواج) إلى غير ذلك ﴿ والله المشرق والمغرب ﴾ أى له كل
 الأرض التي هي عبارة عن ناحيتي المشرق والمغرب لا يحتجس به من حيث
 الملك والتصرف ومن حيث المحلية لعبادته مكان منها دون مكان فإن منعم
 بمن إقامة العبادة في المسجد الأقصى أو المسجد الحرام ﴿ فأينما تولوا ﴾ أى
 ففي أى مكان فعلمت تولية وجوهكم شطر القبلة ﴿ فثم وجه الله ﴾ ثم اسم لإشارة
 إلى مكان البعيد خاصة مبنى على الفتح ولا يتصرف سوى الجر بمن وهو خبر
 مقدم ووجه الله مبتدأ والجملة في محل الجزم على أنها جواب الشرط أى
 هناك جهته التي أمر بها فإن لإمكان التولية غير محتجس بمسجد دون مسجد

أو مكان دون آخر أو فتم ذاته بمعنى الحضور العلى أى فهو عالم بما يفعل فيه
ومثيب لسكر على ذلك وقرىء بفتح التاء واللام أى فأينما توجهوا القبلة
﴿ إن الله واسع ﴾ بإحاطته بالأشياء أو برحمته يريد التوسعة على عياده.
﴿ عليم ﴾ بمصالحهم وأعمالهم فى الأما كن كلها والجملة تعليل لمضمون.
الشرطية وعن ابن عمر رضى الله عنهما نزلت فى صلاة المسافرين على الراحلة.
أينما توجهوا وقيل فى قوم عميت عليهم القبلة فصلوا إلى أنحاء مختلفة فلما
أصبحوا تبينوا خطأهم وعلى هذا لو أخطأ المجتهد ثم تبين له الخطأ لم يلزمه.
التدراك وقيل هى توطئة لنسخ القبلة وتنزيه للعبود عن أن يكون فى جهة.
﴿ وقالوا اتخذ الله ولدا ﴾ حكاية لطرف آخر من مقالاتهم الباطلة المحكية
فيما سلف معطوفة على ما قبلها من قوله تعالى وقالت الخ لا على صلة من لما:
بينهما من الجمل الكثيرة الأجنسية والضمير لليهود والنصارى ومن شاركهم.
فيما قالوا من الذين لا يعلمون وقرىء بغير واو على الاستئناف نزلت حين.
قالت اليهود عزيز ابن الله والنصارى المسيح ابن الله ومشركو العرب.
الملائكة بنات الله والاتخاذ إما بمعنى الصنع والعمل فلا يتعدى إلا إلى واحد
ولما بمعنى التصيير والمفعول الأول محذوف أى صير بعض مخلوقاته ولداً
﴿ سبحانه ﴾ تنزيه وتبرئة له تعالى عما قالوا وسبحان علم للتسييح كسبحان.
الرجل وانتصابه على المصدرية ولا يكاد يذكر ناصبه أى أسبح سبحانه أى.
أنزهه تنزيها لا تقا به وفيه من التنزيه البليغ من حيث الاشتقاق من السبح.
الذى هو الذهاب والإبعاد فى الأرض ومن جهة النقل إلى التفعيل ومن جهة.
العدول من المصدر إلى الاسم الموضوع له خاصة لاسيما العلم المشير إلى الحقيقة.
الحاضرة فى الذهن ومن جهة إقامته مقام المصدر مع الفعل ما لا يخفى وقيل
هو مصدر كغفران بمعنى التنزه أى تنزه بذاته تنزهها حقيقة به ففيه مبالغة من.
حيث إسناد البراءة إلى الذات المقدسة وإن كان التنزيه اعتقاد نزاهته تعالى.
عما لا يليق به لا لإثباتها له تعالى ﴿ بل له ما فى السموات والأرض ﴾ رد.
لما زعموا وتبسيه على بطلانه وكلمة بل للإضراب عما تقتضيه مقالاتهم الباطلة.

من مجانسته سبحانه وتعالى لشيء من المخلوقات ومن سرعة فناءه المحوثة إلى اتخاذ ما يقوم مقامه فإن مجرد الإمكان والفناء لا يوجب ذلك . ألا يرى أن الأجرام الفلكية مع إمكانها وفنائها بالآخرة مستغنية بدوامها وطول بقائها عما يجرى مجرى الولد من الحيوان أى ليس الأمر كما زعموا بل هو خالق جميع الموجودات التي من جملتها عزيز والمسيح والملائكة ﴿ كل ﴾ التنوين عوض عن المضاف إليه أى كل ما فيهما كأننا ما كان من أولى العلم وغيرهم ﴿ له قانتون ﴾ منقادون لا يستعصى شيء منهم على تكوينه وتقديره ومشيدته ومن كان هذا شأنه لم يتصور مجانسته لشيء ومن حق الولد أن يكون من جنس الوالد وإنما جرى بما المختصة بغير أولى العلم تحقيراً لشأنهم ولإيداننا بكل بعدهم عما نسبوا إلى بعض منهم وصيغة جمع العقلاء في قانتون للتغليب أو كل من جعلوه لله تعالى ولدا له قانتون أى مطيعون عابدون له معترفون برؤيته تعالى أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴿ بديع السموات والأرض ﴾ أى مبدعهما ومخترعهما بلا مثال يحتذيه ولا قانون ينتجيه فإن البديع كما يطلق على المبتدع يطلق على المبتدع نص عليه أساطين أهل اللغة وقد جاء بدعه كمنعه بمعنى أنشأه كابتدعه كما ذكر في القاموس وغيره ونظيره السميع بمعنى المسمع في قوله « أمن ربحانة الداعي السميع » وقيل هو من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها للتخفيف بعد نصبه على تشبيهها باسم الفاعل كما هو المشهور أى بديع سمواته من بدع إذا كان على شكل فائق وحسن رائق وهو حجة أخرى لإبطال مقالاتهم الشنعاء تقريرها أن الوالد عنصر الولد للمنفعلة بانفصال مادته عنه والله سبحانه مبدع الأشياء كلها على الإطلاق منزه عن الانفعال فلا يكون والداً ورفعته على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى هو بديع الخ وقرىء بالنصب على المدح وبالجر على أنه بدل من الضمير في له على رأى من يجوز الإبدال من الضمير الجرور كما في قوله « على جوده صن الماء حاتم » ﴿ وإذا قضى أمراً ﴾ أى أراد شيئاً كقوله إنما أمره إذا أراد شيئاً وأصل القضاء الإحكام أطلق على الإرادة الإلهية المتعلقة بوجود الشيء لإيجابها إياه البتة

وقيل الأمر ومنه قوله تعالى (وقضى ربك) الخ ﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾. كلاهما من السكون التام أى أحدث وليس المراد به حقيقة الأمر والامتنال. وإنما هو تمثيل لسهولة تأتى المقدورات بحسب تعلق مشيئته تعالى وتصوير سرعة حدوثها بما هو علم فى الباب من طاعة المسأور المطيع للأمر القوى. المطاع وفيه تقرير لمعنى الإبداع وتلويح لحجة أخرى لإبطال ما زعموه بأن اتخاذ الولد شأن من يفتقر فى تحصيل مراده إلى مبادئ يستدعى ترتيبها مرور زمان وتبدل أطوار وفعله تعالى متعال عن ذلك ﴿وقال الذين لا يعلمون﴾. حكاية لنوع آخر من قبائحهم وهو قد حهم فى أمر النبوة بعد حكاية قدحهم فى شأن التوحيد بنسبة الولد إليه سبحانه وتعالى واختلف فى هؤلاء القائلين. فقال ابن عباس رضى الله عنهما هم اليهود وقال مجاهد هم النصارى ووصفهم بعدم العلم لعدم علمهم بالتوحيد والنبوة كما ينبغى أو لعدم علمهم بموجب عملهم أو لأن ما يحكى عنهم لا يصدر عن له شائبة علم أصلا وقال قتادة. وأكث أهل التفسير هم مشركو العرب لقوله تعالى (فليأتنا بآية كما أرسل الأولون) وقالوا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴿لولا يكلمنا الله﴾ أى هلا يكلمنا بلا واسطة أمرا ونهيا كما يكلم الملائكة أو هلا يكلمنا تنصيحا على نبوتك ﴿أو تأتينا آية﴾ حجة تدل على صدقك بلغوا من العتو والاستكبار إلى حيث أملوا نيل مرتبة المفاوضة الإلهية من غير توسط الرسول والملك ومن العناد والمكابرة إلى حيث لم يعدوا ما آتاهم من البينات الباهرة التى تخز لها صم الجبال من قبيل الآيات قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴿كذلك﴾ مثل ذلك القول الشنيع الصادر عن العناد والفساد ﴿قال الذين من قبلهم﴾ من الأمم الماضية ﴿مثل قولهم﴾ هذا الباطل الشنيع فقالوا: أرنا الله جهرة وقالوا لن نصبر على طعام واحد الآية وقالوا هل يستطيع ربك الخ وقالوا اجعل لنا إله الخ ﴿تشابهت قلوبهم﴾ أى قلوب هؤلاء وأولئك فى العمى والعناد وإلا لما تشابهت أقاويلهم الباطلة ﴿قد بينا الآيات﴾ أى نزلناها بينة بأن جعلناها كذلك فى أنفسها كما فى قولهم سبحانه من صفر

البعوض وكبر الفيل لا أنا بينما بعد أن لم تسكن بينة ﴿لقوم يوقنون﴾ أى يطلبون اليقين ويوقنون بالحقائق لا يعترتهم شبهة ولا ريبة وهذا رد لطلبهم الآية وفى تعريف الآيات وجمعها وإيراد النبيين المفصح عن كمال التوضيح مكان الإتيان الذى طلبوه ما لا يخفى من الجزالة والمعنى أنهم اقترحوا آية فذة ونحن قد بينا الآيات العظام لقوم يطلبون الحق واليقين وإنما لم يتعرض لرد قولهم لولا يكلمنا الله لإيداننا بأنه من ظهور البطلان بحيث لا حاجة له إلى الرد والجواب ﴿إنا أرسلناك بالحق﴾ أى ملتبساً بالقرآن كما فى قوله تعالى (بل كذبوا بالحق لما جاءهم) أو بالصدق كما فى قوله تعالى (أحق هو) وقوله تعالى: ﴿بشيراً ونذيراً﴾ حال من المفعول باعتبار تقييده بالحال الأولى أى أرسلناك ملتبساً بالقرآن حال كونك بشيراً لمن آمن بما أنزل عليك وعمل به ونذيراً لمن كفر به أو أرسلناك صادقاً حال كونك بشيراً لمن صدقك بالثواب ونذيراً لمن كذبك بالعذاب ليختاروا لأنفسهم ما أحبوا لا فاسر لهم على الإيمان فلا عليك إن أصروا وكابروا ﴿ولا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾ ما لهم لم يؤمنوا بعده ما أرسلت به وقرىء لن تسأل وقرىء لا تسأل على صيغة النهى لإيداننا بكمال شدة عقوبة الكفار وتهويلها كأنها لغاية فظاعتها لا يقدر المخبر على إجرائها على لسانه أو لا يستطيع السامع أن يسمع خبرها وحمله على نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن السؤال عن حال أبويه مما لا يساعده النظم الكريم والجحيم المتأجج من النار وفى التعبير عنهم بصاحبية الجحيم دون الكفر والتكذيب ونحوهما وعيد شديد لهم وإيدان بأنهم مطبوع عليهم لا يرجى منهم الإيمان قطعا .

وقوله تعالى: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾ بيان لكمال شدة شكامة هاتين الطائفتين خاصة إثر بيان ما يعمهما والمشركين من الإصرار على ما هم عليه إلى الموت وإيراد لا النافية بين المعطوفين لتأكيد النفي لما مر من أن تصلب اليهود فى أمثال هذه العظام أشد من النصارى

والإشعار بأن رضى كل منهما مباين لرضى الأخرى أى لن ترضى عنك اليهود ولو خليتهم وشأنهم حتى تتبع ملتهم ولا النصرارى ولو تركتهم حتى تتبع ملتهم فأوجز النظم ثقة بظهور المراد وفيه من المبالغة فى إقناطه صلى الله عليه وسلم من إسلامهم ما لا غاية وراءه فإنهم حيث لم يرضوا عنه عليه السلام ولو خلاهم يفعلون ما يفعلون بل أملا منه صلى الله عليه وسلم ما لا يكاد يدخل تحت الإمكان من اتباعه عليه السلام لملتهم فكيف يتوهم اتباعهم لملته عليه السلام وهذه حالتهم فى أنفسهم ومقاتلتهم فيما بينهم ، وإما أنهم أظهروها للنبي صلى الله عليه وسلم وشافهوه بذلك وقالوا لن نرضى عنك وإن بالغت فى طلب رضانا حتى تتبع ملتنا كما قيل فلا يساعده النظم الكريم بل فيه ما يدل على خلافه فإن قوله عز وجل ﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ﴾ صريح فى أن ما وقع هذا جوابا عنه ليس عين تلك العبارة بل ما يستلزم مضمونها أو يلزمه من الدعوة إلى اليهودية والنصرانية وأداء أن الاهتداء فيهما كقوله عز وجل حكاية عنهم كونوا هودا أو نصارى تهتدوا أى قل ردا عليهم إن هدى الله الذى هو الإسلام هو الهدى بالحق والذى يحق ويصح أن يسمى هدى وهو الهدى كنهى ليس وراءه هدى وما تدعون إليه ليس بهدى بل هو هوى كما يعرب عنه قوله تعالى ﴿ وإن اتبعت أهواءهم ﴾ أى آراءهم الزائغة الصادرة عنهم بقضية شهوات أنفسهم وهى التى عبر عنها فيما قبل بملتهم إذ هى التى ينتمون إليها ، وأما ما شرعه الله تعالى لهم من الشريعة على لسان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهو المعنى الحقيقى للملة فقد غيروها تغييرا ﴿ بعد الذى جاءك من العلم ﴾ أى الوحى أو الدين المعلوم صحته ﴿ مالك من الله ﴾ من جهته العزيزة ﴿ من ولى ﴾ يلى أمرك عموما ﴿ ولا نصير ﴾ يدفع عنك عقابه وحيث لم يستلزم نفى الولى نفى النصير وسط لا بين المعطوفين لئلا أكيد النفى وهذا من باب التهيج والإلهاب وإلا فأتى يتوهم إمكان اتباعه عليه السلام لملتهم وهو جواب للقسم الذى وطأه اللام واكتفى به عن جواب الشرط ﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ هم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه ﴿ يتلونه

حق تلاوته ﴿ بمراعاة لفظه عن التحريف وبالتدبر في معانيه والعمل بما فيه وهو حال مقدرة والخبر ما بعده أو خبر وما بعده مقرر له ﴾ (أولئك) إشارة إلى الموصوفين بإيتاء الكتاب وتلاوته كما هو حقه ، وما فيه من معنى البعد للإيدان ببعده منزلتهم في الفضل ﴿ يؤمنون به ﴾ أي بكتابهم دون المحرفين فإنهم بمعزل من الإيمان به فإنه لا يجامع الكفر ببعض منه ﴿ ومن يكفر به ﴾ بالتحريف والكفر بما يصدقه ﴿ فأولئك هم الخاسرون ﴾ حيث اشتروا الكفر بالإيمان ﴿ يا بني إسرائيل إذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ﴾ ومن جملتها التوراة وذكر النعمة إنما يكون بشكرها وشكرها الإيمان بجميع ما فيها ومن جملته نعت النبي صلى الله عليه وسلم ومن ضرورة الإيمان بها الإيمان به عليه الصلاة والسلام ﴿ وأنى فضلتكم على العالمين ﴾ أفردت هذه النعمة بالذكر مع كونها مندرجة تحت النعمة السالفة لإناقتها فيما بين فنون النعم ﴿ وانقوا ﴾ إن لم تؤمنوا ﴿ يوما لا تجزى ﴾ في ذلك اليوم ﴿ نفس ﴾ من النفوس ﴿ عن نفس ﴾ أخرى ﴿ شيئاً ﴾ من الأشياء أو شيئاً من الجزاء ﴿ ولا يقبل منها عدل ﴾ أي فدية ﴿ ولا تنفعها شناعة ولا هم ينصرون ﴾ وتخصيهم بتكرير التذكير وإعادة التحذير للبالغة في النصح والإيدان بأن ذلك فذلك القضية والمقصود من القصة لما أن نعم الله عز وجل عليهم أعظم وكفرهم بها أشد وأقبح ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات ﴾ شروع في تحقيق أن هدى الله هو ما عليه النبي صلى الله عليه وسلم من التوحيد والإسلام الذي هو ملة إبراهيم عليه السلام ، وأن ما عليه أهل الكتابين أهواء زائغة وأن ما يدعونه من أنهم على ملة إبراهيم عليه والصلاة والسلام فرية بلا مرية ببيان ما صدر عن إبراهيم وأبنائه الأنبياء عليهم السلام من الأقاويل والأفاعيل الناطقة بحقية التوحيد والإسلام وبطلان الشرك وبصحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم وبكونه ذلك النبي الذي استدعاه إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام بقولهما (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) الآية فإذا منصوب على المفعولية بمضمر مقدر خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين أي واذكر لهم وقت ابتلائه عليه السلام ليتذكروا بما

وقع فيه من الأمور العارضة إلى التوحيد الوازنة عن الشرك فيقبلوا الحق ويتركوا ما هم فيه من الباطل وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات قد مر وجهه في أثناء تفسير قوله عز وجل (ولذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) وقيل على الظرفية بمضمرة مؤخر أي وإذا ابتلاه كان كيت وكيت وقيل بما سيحىء من قوله تعالى : قال الخ ، والأول هو اللائق بجزالة التنزيل ولا يبعد أن ينتصب بمضمرة معطوف على اذكروا خوطب به بنو إسرائيل ليتأملوا فيها يحكى عن ينتمون إلى ملة إبراهيم وأبنائه عليهم السلام من الأفعال والأقوال ليتمتدوا بهم ويسيروا سيرتهم والابتلاء في الأصل الاختبار أي تطلب الخبرة بحال المختبر بتعريضه لأمر يشق عليه غالباً فعله أو تركه وذلك إنما يتصور حقيقة بمن لاوقوف له عواقب الأمور ، وأما من العلم الخبير فلا يكون إلا مجازاً من تمكينه للعبد من اختيار أحد الأمرين قبل أن يرتب عليه شيئاً هو من مبادئ العادية كمن يختبر عبده ليتعرف حاله من الكياسة فيأمره بما يليق بحاله من مصالحه وإبراهيم اسم أعجمي قال السهيلي كثيراً ما يقع الاتفاق أو التقارب بين السرياني والعربي ألا ترى أن إبراهيم تفسيره أب راحم ولذلك جعل هو وزوجته سارة كافلين لأطفال المؤمنين الذين يموتون صغاراً إلى يوم القيامة على ما روى البخاري في حديث الرقيا أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى في الروضة إبراهيم عليه السلام وحوله أولاد الناس وهو مفعول مقدم لإضافة فاعله إلى ضميره والتعرض لعنوان الربوبية تشريف له عليه السلام ولإيدان بأن ذلك الابتلاء تربية له وترشيح لأمر خطير والمعنى عامله سبحانه معاملة المختبر حيث كلفه أو امر ونواهى تظهر بحسن قيامه بمقوماته على الخروج عن عهد الإمامة العظمى وتحمل أعباء الرسالة وهذه المقالة وتذكيرها الناس لإرشادهم إلى طريق إتقان الأمور بيناتها على التجربة ولإيدان بأن بعثة النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً مبنية على تلك القاعدة الرصينة واقعة بعد ظهور استحقاقه عليه السلام للنبوذة العامة كيف لاوهى النبي أجيب بها دعوة إبراهيم عليه السلام.

كما سيأتي واختلف في الكلمات فقال مجاهد هي المذكورة بعدها ورد بأنه يأباه الفاء في فآتمهن ثم الاستئناف وقال طاوس عن ابن عباس رضى الله عنهما هي عشر خصال كانت فرضاً في شرعه وهن سنة في شرعنا خمس في الرأس المضمضة والاستنشاق وفرق الرأس وقص الشارب والسواك وخمس في البدن الختان وحلق العانة وتنف الإبط وتقليم الأظفار والاستنجاء بالماء .

وفي الخبر أن إبراهيم عليه السلام أول من قص الشارب وأول من اختتن وأول من قلم الأظفار وقال عكرمة عن ابن عباس لم يبتل أحد بهذا الدين فأقامه كله إلا إبراهيم ابتلاه الله تعالى بثلاثين خصلة من خصال الإسلام عشر منها في سورة براءة: التائبون لمخ وعشر في الأحزاب: إن المسلمين والمسلمات لمخ وعشر في المؤمنون: وسأل سائل إلى قوله عز وجل والذين هم على صلاتهم يحافظون . وقيل ابتلاه الله سبحانه بسبعة أشياء بالشمس والقمر والنجوم والاختتان على الكبر والنار وذبح الولد والهجرة فوفى بالكل وقيل هن محاجته قومة والصلاة والزكاة والصوم والضيافة والصبر عليها وقيل هي المناسك كالطواف والسعي والرمى والإحرام والتعريف وغيرهن وقيل هي قوله عليه السلام (الذى خلقتني فهو يهدين) الآيات ثم قيل إنما وقع هذا الابتلاء قبل النبوة وهو الظاهر وقيل بعدها لأنه يقتضى سابقة الوحي وأجيب بأن مطلق الوحي لا يستلزم البعثة إلى الخلق وقرىء برفع إبراهيم ونصب ربه أى دعاه بكلمات من الدعاء فعل المختبر هل يجيبه إلهين أولاً ﴿ فآتمهن ﴾ أى قام بهن حق القيام وأداهن أحسن التأدية من غير تفريط وتوان كما في قوله تعالى (وإبراهيم الذى وفى) وعلى القراءة الأخيرة فأعطاه الله تعالى ما سأله من غير نقص ويعضده ما روى عن مقاتل أنه فسر الكلمات بما سأله إبراهيم ربه بقوله (رب اجعلنى) الآيات وقوله عز وجل ﴿ قال ﴾ على تقدير انتصاب إذ بمضمر جملة مستأنفة وقعت جواباً عن سؤال نشأ من الكلام فإن الابتلاء تمهيد لأمر معظم وظهور فضيلة المبلى من دواعى الإحسان إليه فبعد حكايتها اتقرب النفس إلى ما وقع بهما كأنه قيل فإذا كان بعد ذلك فقيل قال ﴿ لاني جاعلك للناس إماما ﴾ أو بيان لقوله تعالى

ينساق إليه الذهن كما سبق ﴿ لا ينال عهدى الظالمين ﴾ ليس هذا ردا لدعوته عليه السلام بل إجابة خفية لها وعدة إجمالية منه تعالى بتشريف بعض ذريته عليه السلام بنيل عهد الإمامة حسبها وقع في استدعائه عليه الصلاة والسلام من غير تعيين لهم بوصف يميز لهم عن جميع من عداهم فإن التنصيص على حرمان الظالمين منه بمعزل من ذلك التمييز إذ ليس معناه أنه ينال كل من ليس بظالم منهم ضرورة استحالة ذلك كما أشير إليه ولعل لإثار هذه الطريقة على تعيين الجامعين لمبادئ الإمامة من ذريته إجمالا أو تفصيلا وإرسال الباقيين لئلا ينتظم المقتدون بالأئمة من الأمة في سلك المحرومين وفي تفصيل كل فرقة من الإطناب ما لا يخفى مع ما في هذه الطريقة من تحييب الكفرة الذين كانوا يتمنون النبوة وقطع أطعاهم الفارغة من نيلها. إنما أوتر النيل على الجعل إيماء إلى أن إمامة الأنبياء عليهم السلام من ذريته عليه السلام كاسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان وأيوب ويونس وزكريا ويحيى وعيسى وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا ليست بجعل مستقل بل هي حاصلة في ضمن إمامة إبراهيم عليه السلام تنال كلا منهم في وقت قدره الله عز وجل وقرىء الظالمون على أن عهدى مفعول قدم على الفاعل اهتماما ورعاية للتواصل وفيه دليل على عصمة الأنبياء عليهم السلام من الكبائر على الإطلاق وعدم صلاحية الظالم للإمامة. قوله تعالى ﴿ وإذ جعلنا البيت ﴾ أى الكعبة المعظمة غلب عليها غلبة النجم على الثريا معطوف على إذا ابتلى على أن العامل فيه هو العامل فيه أو مضمرة مستقل معطوف على المضمرة الأول والجعل إما بمعنى التصيير فقوله عز وجل ﴿ مثابة ﴾ أى مرجعا يثوب إليه الزوار بعدما تعوقوا عنه أو أمثالهم أو موضع ثواب يثابون بحجة وافتخاره مفعوله الثانى وإما بمعنى الإبداع فهو حال من مفعوله واللام في قوله تعالى ﴿ للناس ﴾ متعلقة بمحذوف وقع صفة لمثابة أى مثابة كائنة للناس أو بجعلنا أى جعلناه لأجل الناس وقرىء مثابات باعتبار تعدد التائبين. ﴿ وأمنا ﴾ أى آمننا كما في قوله تعالى (حرما آمنا) على إيقاع المصدر موقع اسم.

الفاعل للبالغه أو على تقدير المضاف أى ذا أمن أو على الإسناد المجازى أى آمننا بحجه من عذاب الآخرة من حيث أن الحج يجب ما قبله أو من دخله من التعرض له بالعقوبة وإن كان جانيا حتى يخرج على ما هو رأى أبى حنيفة ويجوز أن يعتبر الأمن بالقياس إلى كل شيء كائننا ما كان ويدخل فيه أمن الناس دخولا أوليا وقد اعتيد فيه أمن الصيد حتى أن الكلب كان مهم بالصيد خارج الحرم فيفر منه وهو يتبعه فإذا دخل الصيد الحرم لم يتبعه الكلب ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ على إرادة قول هو عطف على جعلنا أو حال من فاعله أى وقلنا أو قائلين لهم اتخذوا الح و قيل هو بنفسه معطوف على الأمر الذى يتضمنه قوله عز وجل مثابة للناس كأنه قيل تو بوا إليه واتخذوا الح وقيل على المضمر العامل فى إذ وقيل هى جملة مستأنفة والخطاب على الوجوه الأخيرة له عليه السلام ولأمته والأول هو الأليق بجزالة النظم الكريم والأمر صريحا كان أو مفهوما من الحكاية للاستحباب ومن تبييضية والمقام اسم مكان وهو الحجر الذى عليه أثر قدمه عليه السلام والموضع الذى كان عليه حين قام ودعا الناس إلى الحج أو حين رفع قواعد البيت وهو موضعه اليوم والمراد بالمصلى إما موضع الصلاة أو موضع الدعاء روى أنه صلى الله عليه وسلم أخذ بيد عمر رضى الله عنه فقال « هذا مقام إبراهيم » فقال عمر رضى الله عنه أفلا تتخذونه مصلى فقال « لم أوامر بذلك » فلم تغب الشمس حتى نزلت وقيل المراد به الأمر بركعتي الطواف لما روى جابر رضى الله عنه أنه عليه السلام لما فرغ من طوافه عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين وقرأ ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ وللشافعى فى وجوبهما قولان وقيل مقام إبراهيم الحرم كله وقيل مواقف الحج عرفه والمزدلفة والحجر واتخاذها مصلى أن يدعى فيها ويتقرب إلى الله عز وجل وقرىء واتخذوا على صيغة الماضى عطفا على جعلنا أى واتخذ الناس من مكان إبراهيم الذى وسم به لاهتمامه به وإسكان ذريته غنده قبله يصلون إليها ﴿ وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل ﴾ أى أمرناهما أمرا مؤكدا ﴿ أن طهرا بيتي ﴾ بأن طهراه على أن مصدرية حذف عنها الجار حذفاً مطرداً لجواز كون صلته أمرا

ونبيا كما في قوله عز وجل (وأن أقم وجهك للدين حنيفا) لأن مدار جواز كونها فعلا إنما هو دلالة على المصدر وهي متحققة فيهما ووجوب كونها خبرية في صلة الموصول الاسمي إنما هو للتوصل إلى وصف المعارف بالجميل وهي لا يوصف بها إلا إذا كانت خبرية وأما الموصول الحرفي فليس كذلك ولما كان الخبر والإنشاء في الدلالة على المصدر سواء ساغ وقوع الأمر والنهي صلة حسب وقوع الفعل فيتجرد عند ذلك عن معنى الأمر والنهي نحو تجرد الصلة الفعلية عن معنى المضى والاستقبال أو أى طهراه على أن «أن» مفسرة لتضمن العهد معنى القول وإضافة البيت إلى ضمير الجلالة للتشريف وتوجيه الأمر بالتطهير ههنا إليهما عليهما السلام لا ينافي ما في سورة الحج من تخصيصه بإبراهيم عليه السلام فإن ذلك واقع قبل بناء البيت كما ينصح عنه قوله تعالى (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت) وكان إسماعيل عليه السلام حينئذ بمعزل من مثابة الخطاب وظاهر أن هذا بعد بلوغه مبلغ الأمر والنهي وتام البناء كما ينفي عنه إيراده لإثارة حكاية جعله مثابة للناس إلخ والمراد تطهيرة من الأوثان والأنجاس وطواف الجنب والحائض وغير ذلك مما لا يليق به (للطائمين) حوله (والعاكفين) المجاورين المقيمين عنده أو المعتكفين أو القائمين (والركع السجود) جمع راع وساجد أى للطائمين والمصلين لأن القيام والركوع والسجود من هيئات المصلي أى لتقارب الأخيرين ذاتا وزمانا ترك العاطف بين موصوفيهما أو إخلاصه لهما لولا أن يشاه غيرهم وفيه إيماء إلى أن ملابسة غيرهم به وإن كانت مع مقارنة أمر مباح من قبيل تلويثه وتدنيسه (وإذ قال إبراهيم) عطف على ما قبله من قوله وإذ جعلنا إلخ إما بالذات أو بعامله المضمرة كما مر (رب اجعل هذا بلدا آمنا) ذا أمن كعيشة راضية أو آمنا أهله كليلة نائم أى اجعل هذا الوادى من البلاد الآمنة وكان ذلك أول ما قدم عليه السلام مكة كما روى سعيد بن جبیر عن ابن عباس رضی الله عنهم أنه عليه الصلاة والسلام لما أسكن إسماعيل وهاجر هناك وعاد متوجها إلى الشام تبعته هاجر فجعلت تقول لى من تكلمنا فى هذا البلقع وهو لا یرد علیها جوابا حتى قالت آله أمرک بهذا

فقال نعم قالت إذن لا يضيعنا فرضيت ومعنى حتى إذا استوى على ثنية كداء
أقبل على الوادى فقال (ربنا إني أسكنت) الآية وتعريف البلد مع جعله صفة
لهذا في سورة إبراهيم إن حمل على تعدد السؤال لما أنه عليه السلام سأل أو لا
كلا الأمرين البلدية والأمن فاستجيب له في أحدهما وتأخر الآخر إلى وقته
المقدر له لما تقتضيه الحكمة الباهرة ثم كرر السؤال حسبا هو المعتاد في الدعاء
والإبتهاال أو كان المسئول أولا البلدية ومجرد الأمن المصحح للسكنى كما في سائر
البلاد وقد أجيب إليه ذلك وثانيا الأمن المعهود أو كان هو المسئول أولا أيضا
وقد أجيب إليه لسكن السؤال الثانى لاستدامته والاقتصار على سؤاله مع جعل
البلد صفة لهذا لأنه المقصد الأصلي أو لأن المعتاد في البلدية الاستمرار بعد
التحقق بخلاف الأمن وإن حمل على وحدة السؤال وتكرر الحكاية كما هو
المتبادر فالظاهر أن المسئول كلا الأمرين وقد حكى ذلك لهمنا واقتصر هناك
على حكاية سؤال الأمن اكتفاء عن حكاية سؤال البلدية بحكاية سؤال جعل
أقنعة الناس تهوى إليه كما سيأتى تفصيله هناك بإذن الله عز وجل (وارزق أهله
من الثمرات) من أنواعها بأن تجعل بقرب منه قرى يحصل فيها ذلك أو يجي
إليه من الأقطار الشاسعة وقد حصل كلاهما حتى أنه يجتمع فيه الفواكه الربيعية
والصيفية والخريفية في يوم واحد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن
الطائف كانت من أرض فلسطين فلما دعا إبراهيم عليه الصلاة والسلام بهذه
الدعوة رفعها الله تعالى فوضعها حيث وضعها رزقا للحرم وعن الزهرى أنه
تعالى نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف للدعوة لإبراهيم عليه الصلاة والسلام
(من آمن منهم بالله واليوم الآخر) بدل من أهله بدل البعض خصهم بالدعاء
وإظهاراً لشرف الإيمان وإبانه لخطره واهتماماً بشأن أهله ومراعاة لحسن الأدب
وفيه ترغيب لقومه في الإيمان وزجر عن الكفر كما أن في حكايته ترغيباً
وترهيباً لقريش وغيرهم من الكتاب (قال) استئناف مبنى على السؤال كما هو
مراراً وقوله تعالى (ومن كفر) عطف على مفعول فعل محذوف تقديره أرزق
من آمن ومن كفر وقوله تعالى (فأمتعه) معطوف على ذلك القول أو في محل
رفع بالابتداء وقوله تعالى فأمتعه خبره أى فأنا أمتعه وإنما دخلته الفاء تشبيهاً له
بالشرط والكفر وإن لم يكن سبباً للتمتع المطلق لكنه يصلح سبباً لتقليله

وكونه موصولا بعذاب النار وقيل هو عطف على من آمن عطف تلمين كأنه قيل قل وارزق من كفر فإنه أيضا مجاب كأنه عليه السلام قاس الرزق على الإمامة فنبيه تعالى على أنه رحمة دنيوية شاملة للبر والفاجر بخلاف الإمامة الخاصة بالخواص وقرىء فأمتعه من أمتع وقرىء فنمتعه ﴿قليلًا﴾ تمتعًا قليلًا أو زمانًا قليلًا ﴿ثم أضطره إلى عذاب النار﴾ أي ألزه إليه لئلا يضطر للكفره وتضييعه ما تمتعه به من النعم وقرىء ثم نضطره على وفق قراءة فنمتعه وقرىء فأمتعه قليلًا ثم أضطره بلفظ الأمر فيهما على أنهما من دعاء إبراهيم عليه السلام وفي قال ضميره وإنما فصله عما قبله لكونه دعاء على الكفرة وتغيير سبكه للإيدان بأن الكفر سبب لا يضطرهم إلى عذاب النار وأما رزق من آمن فإنما هو على طريقة التفضل والإحسان وقرىء بكسر الهمزة على لغة من يكسر حرف المضارعة وأطره يادغام الضاد في الطاء وهي لغة مرذولة فإن حروف (ضم شفر) يدغم فيها ما يحاورها بلا عكس ﴿وبئس المصير﴾ المخصوص بالذم محذوف أي بئس المصير النار أو عذابها ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت﴾ عطف على ما قبله من قوله عز وعلا وإذ قال إبراهيم على أحد الطريقين المذكورين في وإذ جعلنا وصيغته الاستقبال الحكاوية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة المنبثقة عن المعجزة الباهرة والقواعد جمع قاعدة وهي الأساس صفة غالبية من القعود بمعنى الثبات ولعله مجاز من مقابل القيام ومنه قعدك الله ورفع البناء عليها لأنه ينقلها من هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع والمرتفع حقيقة وإن كان هو الذي بنى عليها لكنهما لما صاروا شيئًا واحدًا فكأنهما نمت وارتفعت وقيل المراد بها ساقات البناء فإن كل ساق قاعدة لما يبنى عليها ويرفعها بناء بعضها على بعض وقيل المراد برفعها رفع مكانة البيت وإظهار شرفه ودعاء الناس إلى حجه وفي إبهامها أولًا ثم تبيينها من تفخيم شأنها ما لا يخفى وقيل المعنى وإذ يرفع إبراهيم ما قعد من البيت واستوطأ يعني يجعل هيئة القاعدة المستوطأة مرتفعة عالية بالبناء روى أن الله عز وجل أنزل البيت ياقوته من يواقيت الجنة له بابان من زمرد شرقي وغربي وقال لآدم أهبطت لك ما يطاف به كما يطاف به

كما يطاف حول عرشى فتوجه آدم من أرض الهند إلى مكة ماشيا وتلقته الملائكة فقالوا برحمتك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بالفي عام وحج آدم عليه السلام أربعين حجة من أرض الهند إلى مكة على رجله فكان على ذلك إلى أن رقه الله أيام الطوفان إلى السماء الرابعة فهو البيت المعمور وكان موضعه خاليا إلى زمن إبراهيم عليه السلام فأمره سبحانه ببناؤه وعرفه جبريل عليه السلام بمكانه وقيل بعث الله السكينة لتدله عليه فتبعها إبراهيم عليه السلام حتى أتى مكة المعظمة وقيل بعث الله تعالى سحابة على قدر البيت وسار إبراهيم في ظلها إلى أن وافت مكة المعظمة فوقف على موضع البيت فنودي أن ابن علي ظلها ولا تزد ولا تنقص وقيل بناه من خمسة أجبل طور سيناء وطور زيتا ولبنان والجودي وأمسسه من حراء وجاء جبريل عليه السلام بالحجر الأسود من السماء وقيل تمخض أبو قبيس فانشق عنه وقد خبيء فيه في أيام الطوفان وكان ياقوته ييضأ من يواقيت الجنة فلما لمستته الحبيض في الجاهلية اسود وقال القاسمى في مشير الغرام في تاريخ البلد الحرام والذي يتحصل من جملة ما قيل في عدد بناء الكعبة أنها بنيت عشر مرات منها بناء الملائكة عليهم السلام ذكره النووي في تهذيب الأسماء واللغات والأزرقي في تاريخه وذكر أنه كان قبل خلق آدم عليه السلام ومنها بناء آدم عليه السلام ذكره البيهقي في دلائل النبوة وروى فيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بعث الله عز وجل جبريل إلى آدم عليهما السلام فقال له ولحواء ابنيما لي بيتا نخط جبريل وجعل آدم يحفر وحواء تنقل التراب حتى إذا أصاب الماء نودي من تحتك حسبك آدم فلما بنياه أوحى إليه أن يطوف به فقيل له أنت أول الناس وهذا أول بيت وهكذا ذكره الأزرقي في تاريخه وعبد الرزاق في مصنفه ومنها بناء بني آدم عندما رفعت الخيمة التي عزى الله تعالى بها آدم عليه السلام وكانت ضربت في موضع البيت فبنى بنوه مكانها بيتا من الطين والحجارة فلم يزل معمورا يعمرونه هم ومن بعدهم إلى أن مسه الغرق في عهد نوح عليه السلام ذكره الأزرقي بسنده إلى وهب بن منبه ومنها بناء الخليل عليه السلام وهو منصوص عليه في القرآن مشهور في

ما بين قاص ودان ومنها بناء العماققة ومنها بناء جرهم ذكرهما الأزرق بسنده إلى علي بن أبي طالب رضى الله عنه ومنها بناء قصى بن كلاب ذكره الزبير بن يكار في كتاب النسب ومنها بناء قريش وهو مشهور ومنها بناء عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما ومنها بناء الحجاج بن يوسف وما كان ذلك بناء لسككها بل لجدار من جدارنها وقال الحافظ السهيلي إن بناءها لم يكن في الدهر إلا خمس مرات الأولى حين بناها شيث عليه السلام انتهى والله سبحانه أعلم ﴿واسماعيل﴾ عطف على إبراهيم ولعل تأخيره عن المفعول للإيدان بأن الأصل في الرفع هو إبراهيم وإسماعيل تبع له قيل لأنه كان يناوله الحجارة وهو يبنيا وقيل كأننا يبنيا نه من طرفيه ﴿ربنا تقبل منا﴾ على إرادة القول أى يقولان وقد قرىء به على أنه حال منهما عليهما السلام وقيل على أنه هو العامل في إذ والجملة معطوفة على ما قبلها والتقدير ويقولان ربنا تقبل منا إذ يرفعان أى وقت رفعهما وقيل وإسماعيل مبتدأ خبره قول محذوف وهو العامل في ربنا تقبل منا فيكون إبراهيم هو الرفع وإسماعيل هو الداعى والجملة في محل النصب على الحالية أى ولذا يرفع إبراهيم القواعد والحال أن إسماعيل يقول ربنا تقبل منا والتعرض لوصف الربوبية المنبثثة عن إفاضة ما فيه صلاح المربوب مع الإضافة إلى ضميرهما عليهما السلام لتحريرك سلسلة الإجابة وترك مفعول ثقيل مع ذكره في قوله تعالى ربنا تقبل دعاء ليعم الدعاء وغيره من القرب والطاعات التى من جملتها ما هما بصدده من الثناء كما يعرب عنه جعل الجملة الدعائية الحالية ﴿إنا أنك أنت السميع﴾ بجميع المسوعات التى من جملتها دعاؤنا ﴿العليم﴾ بكل المعلومات التى من زمرتها نياتنا في جميع أعمالنا والجملة تعليل لاستدعاء التقليل لا من حيث أن كونه تعالى سميعا لدعائهما عليا بنياتهما مصحح للتقبل في الجملة بل من حيث أن عليه تعالى بصحة نياتهما وإخلاصهما في أعمالهما مستدع بموجب الوعد تفضلا وتأكيد الجملة لغرض كمال قوة يقينهما بمضمونها وقصر نعمى السمع والعلم عليه تعالى لإظهار اختصاص دعائهما به تعالى وانقطاع رجائهما عما سواه بالسكينة واعلم أن للظاهر أن أول ما جرى من الأمور المحكمية هو الابتلاء وما يتبعه ثم دعاء

البلدية والأمن وما يتعلق به ثم رفع قواعد البيت وما يتلوه ثم جعله مشابه للناس والأمر بتطهيره ولعل تغيير الترتيب الوقوعي في الحكاية لتنظيم الشئون الصادرة عن جنباته تعالى في سلك مستقل ونظم الأمور الواقعة من جهة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام من الأفعال والأقوال في سلك آخر وأما قوله تعالى ومن كفر إلخ فإنما وقع في تضاعيف الأحوال المتعلقة بإبراهيم لاقتضاء المقام واستيجاب ما سبق من الكلام ذلك بحيث لم يكن بد منه أصلا كما أن وقوع قوله عليه السلام ومن ذريتي في خلال كلامه سبحانه لذلك ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ﴾ مخلصين لك أو مستسلمين من أسلم إذا استسلم وانقاد وأياما كان فالمطوب الزيادة والثبات على ما كانا عليه من الإخلاص والإذعان وقرىء مسلمين على صيغة الجمع بإدخال هاجر معهما في الدعاء أو لأن التثنية من مراتب الجمع.

﴿ ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ أى واجعل بعض ذريتنا وإنما خصهم بالدعاء لأنهم أحق بالشفقة ولأنهم إذا صلحوا صلح الأتباع وإنما خصابهم بعضهم لما علما أن منهم ظلمة وأن الحكمة الإلهية لا تقتضى اتفاق السلك على الإخلاص والإقبال السلكى على الله عز وجل فإن ذلك مما يخجل بأمر المعاش ولذلك قبل لولا الحقى لخربت الدنيا وقيل أراد بالأمة أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقد جوز أن يكون من مبينة قدمت على المبين وفصل بها بين العاطف والمعطوف كما في قوله تعالى (ومن الأرض مثلهن) والأصل وأمة مسلمة لك من ذريتنا ﴿ وأرنا ﴾ من الرؤية بمعنى الإبصار أو بمعنى التعريف أى بصرنا أو عرفنا ﴿ مناسكنا ﴾ أى متعبداتنا في الحج أو مذابحنا والنسك في الأصل غاية العبادة وشاع في الحج لما فيه من الكلفة والبعد عن العادة وقرىء أرنا قياسا على فخذ في فخذ وفيه إجحاف لأن الكسرة منقولة من الهمزة الساقطة دليل عليها وقرىء بالاختلاس ﴿ وتب علينا ﴾ استتابة لذريتهما وحكايتها عنهما لترغيب الكفرة في التوبة والإيمان أو توبة لها عما فرط

منهما سهوا ولعلمهما قلاه هضما لأنفسهما وإرشادا لذريتهما ﴿لأنك أنت التواب الرحيم﴾ وهو تعليل للدعاء ومزيد استدعاء للإجابة قيل إذا أراد العبد أن يستجاب له فليدع الله عز وجل بما يناسبه من أسمائه وصفاته ﴿ربنا وابعث فيهم﴾ أي في الأمة المسلمة ﴿رسولا منهم﴾ أي من أنفسهم فإن البعث فيهم لا يستلزم البعث منهم ولم يبعث من ذريتهما غير النبي صلى الله عليه وسلم فهو الذي أجيب به دعوتهما عليهما السلام روى أنه قيل له قد استجيب لك وهو في آخر الزمان قال عليه السلام «أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ورقيا أمي» وتخصيص إبراهيم عليه السلام بالاستجابة له أنه الأصل في الدعاء واسماعيل تبع له عليه السلام ﴿يتلو عليهم آياتك﴾ يقرأ ويبلغهم ما يوحى إليه من البينات ﴿ويعلمهم﴾ بحسب قوتهم النظرية ﴿الكتاب﴾ أي القرآن ﴿والحكمة﴾ وما يكمل به نفوسهم من أحكام الشريعة والمعارف الحقة ﴿ويزكهم﴾ بحسب قوتهم العملية أي يطهرهم عن دنس الشرك وفنون المعاصي ﴿لأنك أنت العزيز﴾ الذي لا يقهر ولا يغلب على ما يريد ﴿الحكيم﴾ الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة والجملة تعليل للدعاء وإجابة المسئول فإن وصف الحكمة مقتض لإفاضة ما تقتضيه الحكمة من الأمور التي من جملتها بعث الرسول ووصف العزة مستدع لإمتناع وجود المانع بالمرّة ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم﴾ إنكار واستبعاد لأن يكون في العقلاء من يرغب عن ملته التي هي الحق الصريح والدين الصحيح أي لا يرغب عن ملته الواضحة الغراء ﴿إلا من سفه نفسه﴾ أي أذها واستهناها واستخف بها وقيل خسر نفسه وقيل أوبق أو أهلك أو جهل نفسه قال المبرد وثعلب سفه بالكسر متعد وبالضم لازم ويشهد له ما ورد في الخبر أن تسفه الحق وتغمص الناس وقيل معناه ضل من قبل نفسه وقيل أصله سفه نفسه بالرفع فنصب على التمييز نحو غبن رأيه وألم رأسه ونحو قوله :

ونأخذ بعده بذناب عيش أجب الظهر ليس له سنام

وقوله :

وما قومي بشعيلة بن سعد ولا بفرارة الشعر الرقابا

ذلك لأنه إذا رغب عما لا يرغب عنه أحد من العقلاء فقد بالغ في إذلال نفسه وذلتها وإهانتها حيث خالف بها كل نفس عاقلة روى أن عبد الله بن سلام دعا ابن أخيه سلمة ومهاجرا إلى الإسلام فقال لهما قد علمنا أن الله تعالى قال في التوراة إنني باعث من ولد اسماعيل نبيا اسمه أحمد فمن آمن به فقد اهتدى ورشد ومن لم يؤمن فهو ملعون فأسلم سلمة وأبى مهاجر فنزلت ﴿ ولقد اصطفيناه في الدنيا ﴾ أي اخترناه بالنبوة والحكمة من بين سائر الخلق وأصله اتخاذ صفوة الشيء كما أن أصل الاختيار اتخاذ خيره واللام والجواب قسم محذوف الواو اعتراضية والجملة مقررمة لمضمون ما قبلها أي وبالله لقد اصطفيناه وقوله تعالى ﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ أي من المشهور لهم بالثبات على الاستقامة والخير والصلاح معطوف عليها داخل في حيز القسم مؤكدا لمضمونها مقررمة لما تقرره ولا حاجة إلى جملة اعتراضا آخر أو حالا مقدرمة فإن من كان صفوة للعباد في الدنيا مشهودا له بالصلاح في الآخرة كان حقيقا بالاتباع لا يرغب عن ملته إلا سفيه أو متسفه أذل نفسه بالجهل والإعراض عن النظر والتأمل وإيثار الإسمية لما أن انتظامه في زمرة صالحى أهل الآخرة أمر مستمر في الدارين لأنه يحدث في الآخرة والتأكيد بأن واللام لما أن الأمور الأخروية خفية عند المخاطبين فحاجتها إلى التأكيد أشد من الأمور التي تشاهد آثارها وكلمة في متعلقة بالصالحين على أن اللام للتعريف وليست بموصولة حتى يلزم تقديم بعض الصلة عليها على أنه قد يغتفر في الظرف ما لا يغتفر في غيره كما في قوله :

ربته حتى إذا تمعدا كان جزائي بالعصا أن أجلدا

أو بمحذوف من لفظه أي وأنه لصالح في الآخرة لمن الصالحين أو من

غير لفظه أى أعنى فى الآخرة نحو لك بعد رعبا وقيل هى متعلقة باصطفيناه على أن فى النظم الكريم تقدما وتأخيرا تقديره ولقد اصطفيناه فى الدنيا والآخرة وإنه لمن الصالحين ﴿إذ قال له﴾ ظرف لاصطفيناه لما أن المتوسط ليس بأجنبي بل هو مقرر له لأن اصطفاه فى الدنيا إنما هو بالنبوة وما يتعلق بصلاح الآخرة أو تعليل له أو منصوب باذكار كأنه قيل اذكر ذلك الوقت لتقف على أنه المصطفى الصالح المستحق للإمامة والتقدم وأنه مانال مانال إلا بالمبادرة إلى الإذعان والانقياد لما أمر به، وإخلاص سره على أحسن ما يكون حين قال له ﴿ربه أسلم﴾ أى لربك ﴿قال أسلمت لرب العالمين﴾ وليس الأمر على حقيقته بل هو تمثيل والمعنى أخطر بياله دلائل التوحيد المؤدية إلى المعرفة الداعية إلى الإسلام من الكوكب والقمر والشمس وقيل أسلم أى أذعن وأطع وقيل اثبت على ما أنت عليه من الإسلام والإخلاص أو استقم وفوض أمورك إلى الله تعالى فالأمر على حقيقته والاتفات مع التعرض لعنوان الربوبية والإضافة إليه عليه السلام لإظهار مزيد اللطف به والاعتناء بتربيته وإضافة الرب فى جوابه عليه الصلاة والسلام إلى العالمين للإيدان بكال قوة إسلامه حيث أيقن حين النظر بشمول ربوبيته للعالمين قاطبة لا لنفسه وحده كما هو المأمور به ﴿ووصى بها إبراهيم بنيه﴾ شروع فى بيان تكميله عليه السلام لغيره إثر بيان كماله فى نفسه وفيه تأكيد لوجوب الرغبة فى ملته عليه السلام والتوصية التقدم إلى الغير بما فيه خير وصلاح للمسلمين من فعل أو قول وأصلها الوصلة يقال وصاه إذا وصله وفصاه إذا فصله كان الموصى يصل فعله بفعل الوصى والضمير فى بها البتة أو قوله أسلمت لرب العالمين بتأويل الكلمة كما عبر بها عن قوله تعالى (لأنى برأه مما تعبدون إلا الذى فطرنى) فى قوله عز وجل (وجعلها كلمة باقية فى عقبه) وقرىء أوصى والأول أبلغ ﴿ويعقوب﴾ عطف على إبراهيم أى وصى بها هو أيضاً بنيه وقرىء بالنصب عطفاً على بنيه ﴿يابنى﴾ على إضمار القول عند البصريين ومتعلق بوصى عند الكوفيين لأنه فى معنى القول كما فى قوله :

رجلان من ضبة أخبرانا أنا رأينا رجلا عريانا

فهو عند الأولين بتقدير القول وعند الآخرين متعلق بالإخبار الذي هو في معنى القول وقرئ أن يابنى وبنو إبراهيم عليه السلام كانوا أربعة لإسماعيل وإسحاق ومدين ومدان وقيل ثمانية وقيل أربعة وعشرين وكان بنو يعقوب اثني عشر روبين وشمعون ولاوى ويهوذا ويشسوخور وزبولون وزوانا وتفثونا وكوذا وأوشير وبنيامين ويوسف عليه السلام ﴿ إن الله اصطفى لكم الدين ﴾ دين الإسلام الذي هو صفوة الأديان ولادين غيره عنده تعالى : ﴿ فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ ظاهره النهى عن الموت على خلاف حال الإسلام والمقصود الأمر بالثبات على الإسلام إلى حين الموت أى فاثبتوا عليه ولا تفارقوه أبدا كقولك لا تصل إلا وأنت خاشع وتغيير العبارة للدلالة على أن موتهم لا على الإسلام موت لاخير فيه وأن حقه أن لا يحل بهم وأنه يجب أن يحذروه غاية الحذر ونظيره مت وأنت شهيد روى أن اليهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ألسنت تعلم أن يعقوب أوصى باليهودية يوم مات فنزلت ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت) أم منقطعة مقدره ببل والهمزة والخطاب لأهل الكتاب الراغبين عن ملة إبراهيم وشهداء جمع شهيد أو شاهد بمعنى الحاضر وإذ ظرف لشهداء والمراد بحضور الموت حضور أسبابه وتقديم يعقوب عليه السلام للاهتمام به إذ المراد بيان كيفية وصيته لبنيه بعد ما بين ذلك إجمالا ومعنى بل الإضراب والانتقال عن توبيخهم على رغبتهم عن ملة إبراهيم عليه السلام إلى توبيخهم على افتراءهم على يعقوب عليه السلام باليهودية حسبا حكى عنهم وأما تعميم الافتراء ههنا لسائر الأنبياء عليهم السلام كما قيل فيآباه تخصيص يعقوب بالذكر وما سياتى من قوله عز وجل (أم تقولون إن إبراهيم الخ ومعنى الهمزة إنكار وقوع الشهود عند احتضاره عليه السلام وتبكيتهم وقوله تعالى ﴿ إذ قال ﴾ بدل من إذ حضر أى ما كنتم حاضرين عند احتضاره عليه السلام. وقوله ﴿ لبنيه ما تعبدون من

بعدي) أي شيء تعبدونه بعد موتي فمن أين لكم أن تدعوا عليه عليه السلام ما تدعون رجما بالغيب وعند هذا تم التوبيخ والإنكار والتبكيث ثم بين أن الأمر قد جرب حينئذ على خلاف ما زعموا وأنه عليه السلام أراد بسؤاله ذلك تقرير بنيه على التوحيد والإسلام وأخذ ميثاقهم على الثبات عليهما إذ به يتم وصيته بقوله فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون وما يسأل به عن كل شيء ما لم يعرف فإذا عرف خص العقلاء بمن إذا سئل عن شيء بعينه وإن سئل عن وصفه قيل ما زيد أفضيه أم طيب فقله تعالى ﴿قالوا﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ عن حكاية سؤال يعقرب عليه السلام كأنه قيل فماذا قالوا عند ذلك فقيل قالوا ﴿نعبد الهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق﴾ حسبما كان مراد أبيهم بالسؤال أي نعبد الإله المتفق على وجوده وإلهيته ووجوب عبادته وعد إسماعيل من آبائه تغليبا للأب والجد لقوله عليه الصلاة والسلام عم الرجل صنو أبيه وقوله عليه السلام في العباس هذا بقية آبائي وقرىء أبيك على أنه جمع بالواو والنون كما في قوله :

فلما تبين أصواتنا بكين وفديننا بالآبينا

وقد سقطت النون بالإضافة أو مفرد وإبراهيم عطف بيان له وإسماعيل وإسحاق معطوفان على أبيك ﴿إله واحد﴾ بدل من إله آبائك كقوله تعالى (بالناصية ناصية كاذبة) وفائدته التصريح بالتوحيد ودفع التوهم الناشئ من تكرير المضاف لتعذر العطف على المجرور أو نصب على الاختصاص ﴿ونحن له مسلمون﴾ حال من فاعل نعبد أو من مفعوله أو منهما معا ويحتمل أن يكون اعتراضا محققا لمضمون ماسبق ﴿تلك أمة﴾ مبتدأ وخبر والإشارة إلى إبراهيم ويعقوب وبنيهما الموحدين والأمة هي الجماعة التي تؤمها فرق الناس أي يقصدونها ويقتدون بها ﴿قد خلت﴾ صفة للخبر أي مضت بالموت وانفردت عن عداها وأصله صارت إلى الخلاء وهي الأرض التي لا أنيس بها ﴿لهما ما كسبت﴾ جملة مستأنفة لاجل لها من الإعراب أو صفة أخرى لأمة أو حال

من الضمير في خلت وما موصولة أو موصوفة والعاثد إليها محذوف أى لها ما كسبته من الأعمال الصالحة المحسنة لا تتخطاها إلى غيرها فإن تقديم المسند يوجب قصر المسند إليه عليه كما هو المشهور ﴿ولكم ما كسبتم﴾ عطف على نظيرتها على الوجه الأول ، وجملة مبتدأة على الوجهين الآخرين إذ لا رابط فيها ولا بد منه في الصفة ولا مقارنة في الزمان ولا بد منها في الحال أى لكم ما كسبتموه لا ما كسبه غيركم فإن تقديم المسند قد يقصد به قصره على المسند إليه كما قيل في قوله تعالى (لكم دينكم ولي دين) أى ولي ديني لا دينكم وحمل الجملة الأولى على هذا القصر على معنى أن أولئك لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا كما قيل بما لا يساعده المقام إذ لا يتوهم متوهم انتفاعهم بكسب هؤلاء حتى يحتاج إلى بيان امتناعه وإنما الذى يتوهم انتفاع هؤلاء بكسبهم فبين امتناعه بأن أعمالهم الصالحة مخصوصة بهم لا تتخطاهم إلى غيرهم وليس هؤلاء إلا ما كسبوا فلا ينفعهم انتسابهم إليهم وإنما ينفعهم اتباعهم لهم في الأعمال كما قال عليه السلام يا بنى هاشم لا يأتيني الناس بأعمالهم وفأتوني بأنسابكم ﴿ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ إن أجرى السؤال على ظاهره فالجملة مقررمة لمضمون ما مر من الجملتين تقريراً ظاهراً وأن أريد به سببه أعنى الجزاء فهو تسميم لما سبق جار مجرى النتيجة له وأياما كان فالمراد تخييب المخاطبين وقطع أطعهم الفارغة عن الانتفاع بحسنات الأمة الخالية وإنما أطلق العمل لإثبات الحكم بالطريق البرهاني في ضمن قاعدة كلية هذا وقد جعل السؤال عبارة عن المؤاخذة والموصول عن السيئات فليل أى لا تؤاخذون بسيئاتهم كما لا تثابون بحسناتهم ولا ريب في أنه مما لا يليق بشأن التنزيل كيف لا وهم منزهون من كسب السيئات فمن أين يتصور تحميلها على غيرهم حتى يتصدى لبيان انتفاعه ﴿وقالوا﴾ شروع في بيان فنون كفرهم وهو إضلالهم لغيرهم إثر بيان ضلالهم في أنفسهم والضمير لأهل الكتابين على طريقة الالتفات المؤذن باستيجاب حالهم لإبعادهم من مقام المخاطبة والإعراض عنهم وتعميد جنائياتهم عند غيرهم أى قالوا للمؤمنين ﴿كونوا هودا أو نصارى﴾ ليس هذا القول مقولاً لسلوكهم أو لأى طائفة كانت من الطائفتين بل هو موزع عليهما

على وجه خاص يقتضيه حالهما اقتضاء مغنيا عن التصريح به أى قالت اليهود كونوا هودا والنصارى كونوا نصارى ففعل بالنظم الكريم ما فعل بقوله تعالى (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى) اعتمادا على ظهور المراد (تهتدوا) جواب الأمر أن تكونوا كذلك تهتدوا (قل) خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أى قل لهم على سبيل الرد عليهم وبيان ما هو الحق لديهم وإرشادهم إليه (بل ملة إبراهيم) أى لا تكون كما تقولون بل تكون أهل ملته عليه السلام وقيل بل نتبع ملته عليه السلام وقد جوز أن يكون المعنى بل اتبعوا أمتهم ملته عليه السلام أو كونوا أهل ملته وقرىء بالرفع أى بل ملتنا أو أمرنا ملته أو نحن ملته (حنيفا) أى ما نلا عن الباطل إلى الحق وهو حال من المضاف إليه كما فى رأيت وجه هند قائمة أو المضاف كما فى قوله تعالى (ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا) الخ (وما كان من المشركين) تعريض بهم ولإيدان ببطان دعواهم اتباعه عليه السلام مع إشرأ كههم بقوله عزير ابن الله والمسيح ابن الله .

(قولوا) خطاب للمؤمنين بعد خطابه عليه السلام برد مقاتلهم الشنعاء على الإجمال وإرشاد لهم إلى طريق التوحيد والإيمان على ضرب من التفصيل أى قولوا لهم بمقابلة ما قالوا تحقيقا وإرشادا ضمنيا لهم إليه (آمنا بالله وما أنزل إلينا) يعنى القرآن قدم على سائر الكتب الإلهية مع تأخره عنها نزولا لاختصاصه بنا وكونه سببا للإيمان بها (وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط) جمع سبط وهو الحافد والمراد بهم حفدة يعقوب عليه السلام أو أبناؤه الإثنا عشر وذريتهم فإنهم حفدة إبراهيم وإسحق (وما أوتى موسى وعيسى) من التوراة والإنجيل وسائر المعجزات الباهرة بأيديهما حسبما فصل فى التنزيل الجليل وإيراد الإيتاء لما أشير إليه من التعميم وتخصيصهما بالذكر لما أن الكلام مع اليهود والنصارى (وما أوتى النبيون) أى جملة المذكورين وغيرهم (من ربهم) من الآيات البينات والمعجزات الباهرات

﴿ لا نفرق بين أحد منهم ﴾ كدأب اليهود والنصارى آمنوا ببعض وكفروا ببعض وإنما اعتبر عدم التفريق بينهم مع أن الكلام فيها أوتوه لاستلزام عدم التفريق بينهم بالتصديق والتكذيب لعدم التفريق بين ما أوتوه وهمزة أحدا إما أصلية فهو اسم موضوع لمن يصلح أن يخاطب يستوى فيه المفرد والمثنى والمجموع والمذكر والمؤنث ولذلك صح دخول بين عليه كما في مثل المال بين الناس ومنه ما في قوله صلى الله عليه وسلم ما أحلت الغنائم لأحد سود الروس غيركم، حيث وصف بالجمع، وإما مبدلة من الواو فهو بمعنى واحد وعمومه لوقوعه في حيز النفي وصحة دخول بين عليه باعتبار معطوف قد حذف لظهوره أى بين أحد منهم وبين غيره كما في قول النابغة :

فما كان بين الخير لوجاء سالما أبو حجر إلا ليسال قلائل

أى بين الخير وبينى وفيه من الدلالة صريحا عليه تحقيق عدم التفريق بين كل فرد فرد منهم وبين من عداه كأننا من كان ما ليس فى أن يقال لا نفرق بينهم والجملة حال من الضمير فى آمننا وقوله عز وجل ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ أى مخلصون له ومدعونون حال أخرى منه أو عطف على آمننا ﴿ فإن آمنوا ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن ما تقدم من إيمان المخاطبين على الوجه المحرر مظنة لإيمان أهل الكتابين لما أنه مشتمل على ما هو مقبول عندهم ﴿ بمثل ما آمنتم به ﴾ أى بما آمنتم به على الوجه الذى فصل على أن المثل مقحم كما فى قوله تعالى (وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله) أى عليه ويعضده قراءة ابن مسعود بما آمنتم به وقراءة أبى بالذى آمنتم به ويجوز أن تكون الباء للاستعانة على أن المؤمن به محذوف لظهوره بمروره آنفا أو على أن الفعل مجرى مجرى اللزوم أى فإن آمنوا بما مر مفصلا أو فإن فعلوا الإيمان بشهادة مثل شهادتكم، وأن تكون الأولى زائدة والثانية صلة لآمنتم وما مصدرية أى فإن آمنوا إيماننا مثل إيمانكم بما ذكر مفصلا وأن تكون للملابسة أى فإن آمنوا ملتبسين بمثل ما آمنتم ملتبسين به أو فإن آمنوا إيماننا ملتبسا به من الإذعان

والإخلاص وعدم التصريق بين الأنبياء عليهم السلام فإن ما وجد فيهم وصدور عنهم من الشهادة والإذعان وغير ذلك مثل ما للمؤمنين لاعينه بخلاف المؤمن به فإنه لا يتصور فيه التعدد ﴿ فقد اهتدوا ﴾ إلى الحق وأصابوه كما اهتديتم وحصل بينكم الاتحاد والاتفاق ، وأما ما قيل من أن المعنى فإن تحروا الإيمان بطريق يهدى إلى الحق مثل طريقكم فقد اهتدوا فإن وحدة المقصد لا تأبى تعدد الطريق الحق وإرشادهم إليه بعينه لا يلائم تجويز أن يكون له طريق آخر وراءه ﴿ وإن تولوا ﴾ أى أعرضوا عن الإيمان على الوجه المذكور بأن أخلوا بشيء من ذلك كأن آمنوا ببعض وكفروا ببعض كما هو دينهم وديديهم ﴿ فإنما هم في شقاق ﴾ المشاققة والشقاق من الشق كالمخالفة والخلاف من الخلف والمعاداة والعداء من العداوة أى التجانب فإن أحد المخالفين يعرض عن الآخر صورة أو معنى ويؤليه خلفه ويأخذ في شق غير شقه وعدوة غير عدوته والنووين للتفخيم أى هم مستوون في خلاف عظيم بعيد من الحق وهذا للدفع ما يتوهم من احتمال الوفاق بسبب إيمانهم ببعض ما آمن به المؤمنون والجملة إما جواب الشرط كما هى على أن المراد مشاققتهم الحادثة بعد توليهم عن الإيمان بجواب الشرطية الأولى وإنما أوثرت الجملة الاسمية للدلالة على ثباتهم واستقرارهم في ذلك ، وإما بتأويل فاعلوا أنما هم في شقاق . هذا هو الذى يستدعيه نظامه شأن التنزيل الجليل ، وقد قيل قوله تعالى ﴿ فإن آمنوا الخ ﴾ من باب التعجيز والتبكيك على منهاج قوله تعالى ﴿ فأتوا بسورة مثله ﴾ ، والمعنى فإن حصلوا ديناً آخر مثل دينكم مماثلاً له فى الصحة والسادد فقد اهتدوا وإذ لا إمكان له فلا إمكان لاهتدائهم ولا ريب فى أنه مما لا يلىق بحمل النظم الكريم عليه . ولما دل تنبيكير الشقاق على امتناع الوفاق وأن ذلك مما يؤدى إلى الجدال والقتال لا محاله عقب ذلك بتسليية رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفريح المؤمنين بوعد النصر والغلبة ضمان التأييد والإعزاز ، وعبر بالسين الدالة على تحقق الوقوع البتة فقيل ﴿ فسيفيكمهم الله ﴾ أى سيفيكم شقاقهم فإن الكفاية لاتعلق بالأعيان بل بالأفعال وقد أنجز عز وعلا وعده الكريم بقتل بنى

النضير وتلوين الخطب بتجريده للنبي صلى الله عليه وسلم مع أن ذلك كفاية منه سبحانه للكل لما أنه الأصل والعمدة في ذلك والإيدان بأن القيام بأمر الحروب وتحمل المؤن والمشاق ومقاساة الشدائد في مناهضة الأعداء من وظائف الرؤساء فنعتمه تعالى في الكفاية والنصر في حقه عليه السلام أتم وأكمل ﴿ وهو السميع العليم ﴾ تذييل لما سبق من الوعد وتأكيده والمعنى أنه تعالى يسمع ما تدعوه به ويعلم ما في نيتك من إظهار الدين فيستجيب لك ويوصلك إلى مرادك أو وعيد للكفرة أي يسمع ما ينطقون به ويعلم ما يضمرونه في قلوبهم مما لا خير فيه وهو معاقبهم عليه ولا يخفى ما فيه من تأكيد الوعد السابق فإن وعيد الكفرة وعد للمؤمنين ﴿ صبغة الله ﴾ الصبغة من الصبغ كالجلسة من الجلوس وهي الحالة التي يقع عليها الصبغ عبرها عن الإيمان بما ذكر على الوجه الذي فصل لكونه تطهيراً للمؤمنين من أضرار الكفر وحلية تزيينهم بآثاره الجميلة ومتداخلاً في قلوبهم كما أن شأن الصبغ بالنسبة إلى الثوب كذلك وقيل للشكاة التقديرية فإن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية ويزعمون أنه تطهير لهم وبه يحق نصرانيتهم وإضافتها إلى الله عز وجل مع استناده فيما سلف إلى ضمير المتكلمين للتشريف والإيدان بأنها عطية منه سبحانه لا يستقل العبد بتحصيلها فهي إذن مصدر مؤكد لقوله تعالى ﴿ آمننا ﴾ داخل معه في حيز قولوا منتصب عنه انتصاب وعد الله عما تقدمه لكونه بمثابة فعله كأنه قيل صبغنا الله صبغة وقيل هي منصوبة بفعل الإغراء أي الزموا صبغة الله وإنما وسط بينهما الشرطيتان وما بعدهما اعتناء ببيان أنه الإيمان الحق وبه الاهتداء ومسارة إلى تسليته عليه الصلاة والسلام ﴿ ومن أحسن من الله ﴾ مبتدأ وخبر الاستفهام للإنكار والنفي وقوله تعالى ﴿ صبغة ﴾ نصب على التمييز من أحسن منقول من المبتدأ والتقدير ومن صبغته أحسن من صبغته تعالى فالتفضيل جار بين الصبغتين لا بين فاعليهما أي لاصبغة أحسن من صبغته تعالى على معنى أنها أحسن من كل صبغة على ما أشير إليه في قوله تعالى ﴿ ومن أظلم ممن منع الخ ﴾ وحيث كان مدار التفضيل على

تعميم الحسن الحقيقي والفرضى المبني على زعم الكفرة لم يلزم منه أن يكون في صبغة غيره تعالى حسن في الجملة والجملة اعتراضية مقررة لما في صبغة الله من معنى التبجح والابتهاج ﴿ونحن له﴾ أى لله الذى أولانا تلك النعمة الجليلة ﴿عابدون﴾ شكرها ولسائر نعمه وتقديم الظرف للاهتمام ورعاية الفواصل وهو عطف على آمننا داخل معه تحت الأمر وإيثار الاسمىة للإشعار بدوام العبادة أو على فعل الإغراء بتقدير القول أى ألزموا صبغة الله وقولوا نحن له عابدون فقوله تعالى (ومن أحسن من الله) صبغة حينئذ يجرى مجرى التعليل للإغراء ﴿قل أتحمجوننا﴾ تجريد الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم عقب الكلام الداخلى تحت الأمر الوارد بالخطاب العام لما أن المأمور به من الوظائف الخاصة به عليه الصلاة والسلام وقرىء بإدغام النون والهمزة للإنكار والتوبيخ أى أتجادلوننا ﴿فى الله﴾ أى فى دينه وتدعون أن دينه الحق هو اليهودية والنصرانية وتبشرون دخول الجنة والاهتداء عليهما وتقولون تارة لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى وتارة كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ﴿وهو ربنا وربكم﴾ جملة حالية وكذلك ما عليها أى أتجادلوننا والحال أنه لا وجه للمجادلة أصلاً لأنه تعالى ربنا أى مالك أمرنا وأمركم ﴿ولنا أعمالنا﴾ الحسنه الموافقة لأمره ﴿ولكم أعمالكم﴾ السيئة المخالفة لحكمه ﴿ونحن له مخلصون﴾ فى تلك الأعمال لا نبتغى بها إلا وجهه فأنى لكم المحاجة حقية ما أتم عليه والطمع فى دخول الجنة بسببه ودعوة الناس إليه وكلمة أم فى قوله تعالى ﴿أم تقولون﴾ إما معادلة للهمزة فى قوله تعالى (أتحمجوننا) داخلة فى حيز الأمر على معنى أى الأمرين تأتون لإقامة الحجة وتنوير البرهان على حقية ما أنتم عليه والحال ما ذكر أم التشبث بذيل التقليد والافتراء على الأنبياء وتقولون ﴿إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى﴾ فنحن بهم مقتدون والمراد إنكار كلا الأمرين والتوبيخ عليهما ، وإما منقطعة مقدرة بيل والهمزة دالة على الإضراب والانتقال من التوبيخ على المحاجة إلى التوبيخ على الافتراء على الأنبياء عليهم

السلام وقرىء أم يقولون على صيغة الغيبة فهي منقطعة لا غير غير داخله تحت الأمر واردة من جهته تعالى توييخا لهم وإنكاراً عليهم لا من جهته عليه السلام على نهج الالتفات كما قيل . هذا ، وأما ما قيل من أن المعنى أتجاوزنا في شأن الله واصطفائه نبيا من العرب دونكم لما روى أن أهل الكتاب قالوا الأنبياء كلهم منا فلو كنت نبيا لكانت منا فنزلت ومعنى قوله تعالى (وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم) أنه لا اختصاص له تعالى بقوم دون قوم يصيب برحمته من يشاء من عباده فلا يبعد أن يكرمنا كما أكرمكم بأعمالكم كأنه ألزمهم على كل مذهب ينتحلونه لإخاما وتبكيئا فإن كرامة النبوة ، إما تفضل من الله تعالى على من يشاء فالكل فيه سواء ، وإما إفاضة حق على المستحقين لها بالمواظبة على الطاعة والتحلى بالإخلاص فكما أن لكم أعمالا ربما يعتبرها الله تعالى في إعطائها فلنا أيضا أعمال ونحن له مخلصون أى لا أنتم فمع عدم ملامته لسياق النظم الكريم وسما على تقدير كون كلمة أم معادلة للهمزة غير صحيح في نفسه لما أن المراد بالأعمال من الطرفين ما أشير إليه من الأعمال الصالحة والسيدة ولا ريب في أن أمر الصلاح والسوء يدور على موافقة الدين المبني على البعثة ومخالفته فكيف يتصور اعتبار تلك الأعمال في استحقاق النبوة واستعدادها المتقدم على البعثة بمراتب ﴿ قل أنتم أعلم أم الله ﴾ إعادة الأمر ليست لمجرد تأكيد التوييخ وتشديد الإنكار عليهم بل للإيدان بأن ما بعده ليس متصلا بما قبله بل بينهما كلام المخاطبين مترتب على ما سبق مستتبع لما أنه الحق قد أضر به عنه الذكر صفحا لظهوره وهو تصريحهم بما وبخوا عليه من الافتراء على الأنبياء عليهم السلام كما في قوله عز وجل قال (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون قال فما خطبكم أيها المرسلون) وقوله عز قائلنا (قال أسجد لمن خلقت طينا قال أرايتك هذا الذي كرمت على) فإن تكرير قال في الموضوعين وتوسطه بين قولى قائل واحد للإيدان بأن بينهما كلاما لصاحبه متعلقا بالأول والثاني بالتبعية والاستتباع كما حرر في محله أى كذبهم في ذلك ونكثهم قائلنا إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون وقد نفي عن إبراهيم عليه السلام كلا الأمرين حيث

قال ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا واحتج عليه بقوله تعالى (وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده) وهؤلاء المعطوفون عليه السلام أتباعه في الدين وفاقا فكيف تقولون ما تقولون سبحان الله عما تصفون ﴿ ومن أظلم ﴾ إنكار لأن يكون أحد أظلم ﴿ بمن كنتم شهادة ﴾ ثابتة ﴿ عنده ﴾ كائنة ﴿ من الله ﴾ وهي شهادته تعالى له عليه السلام بالحنيفية والبراءة من اليهودية والنصرانية حسبما تلى آنفاً فعنده صفة لشهادة وكذا من الله جىء بهما لتعليل الإنكار وتأكيده فإن ثبوت الشهادة عنده وكونها من جانب الله عز وجل من أقوى الدواعى إلى إقامتها وأشد الزواجر عن كتمانها وتقديم الأول مع أنه متأخر في الوجود لمراعاة طريقة الترتي من الأدنى إلى الأعلى والمعنى أنه لا أحد أظلم من أهل الكتاب حيث كنتموا هذه الشهادة وأثبتوا نقيضها بما ذكر من الافتراء وتعليق الأظلمية بمطلق الكتمان للإيمان إلى أن مرتبة من يردّها ويشهد بخلافها في الظلم خارجة عن دائرة البيان أو لا أحد أظلم منا لو كتمناها فالمراد بكتمها عدم إقامتها في مقام المحاجة وفيه تعريض بغاية أظلمية أهل الكتاب على نحو ما أشير إليه وفي إطلاق الشهادة مع أن المراد بها ما ذكر من الشهادة المعينة تعريض بكتمانهم شهادة الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل ﴿ وما الله بعاقل عما تعملون ﴾ من فنون السيئات فيدخل فيها كتمانهم لشهادته سبحانه وإفترائهم على الأنبياء عليهم السلام دخولا أوليا أى هو محيط بجميع ما تأتون وما تذكرون فيعاقبكم بذلك أشد عقاب وقرىء عما يعملون على صيغة الغيبة فالضمير إما لمن كنتم باعتبار المعنى ، وإما لأهل الكتاب وقوله تعالى (ومن أظلم إلى آخر الآية) مسوق من جهة تعالى لوصفهم بغاية الظلم وتهديدهم بالوعيد ﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ تكرير للمبالغة في الزجر عما هم عليه من الافتخار بالأباء والاتكال على أعمالهم وقيل الخطاب السابق لهم وهذا لنا تحذير عن الاقتداء بهم وقيل المراد بالأمّة الأولى الأنبياء عليهم السلام وبالثنائية أسلاف اليهود ﴿ سيقول السفهاء ﴾ أى الذين خفت أحلامهم واستمهنوها بالتقليد والإعراض (١٨ - أبو السعود - أول)

عن التدبر والنظر من قوهم ثوب سفیه إذا كان خفيف النسيج وقيل السفیه البهات الكذاب المتعمد خلاف ما يعلم وقيل الظلوم الجهول والمراد بالسفهاء هم اليهود علی ما روى عن ابن عباس ومجاهد رضی الله عنهم قالوه إنكاراً للنسخ وكرهية للتحويل حيث كانوا يأنسون بموافقته عليه الصلاة والسلام لهم في القبلة الأولى وبطلان النانية إذ ليس كلهم من اليهود وقيل هم المشركون ولم يقولوه كراهية للتحويل إلى مكة بل طعننا في الدين فإنهم كانوا يقولون رغب عن قبلة آباءه ثم رجع إليها وليرجعن إلى دينهم أيضاً وقيل هم القادحون في النحويل منهم جميعاً فيكون قوله تعالى ﴿من الناس﴾ أي الكفرة لبيان أن ذلك القول المحكى لم يصدر عن كل فرد فرد من تلك الطوائف الثلاث بل عن أشقيائهم المعتادين للخوض في فنون الفساد وهو الأظهر إذ لو أريد بهم صائفة مخصوصة منهم لما كان لبيان كونهم من الناس مزيد فائدة وتخصيص سفهائهم بالذکر لا يقتضى تسليم الباقي للتحويل وارتضاءهم إياه بل عدم التفوه بالقدح مطلقاً أو بالعبارة المحكية .

﴿ ما ولاهم ﴾ أي أي شيء صرفهم والاستفهام للإنكار والنفي ﴿ عن قبلتهم ﴾ القبلة فعلة من المقابلة كالوجهة وهي الحالة التي يقابل الشيء غيره عليها كالجلسة للحالة التي يقع عليها الجلوس يقال لا قبلة له ولا دبرة إذا لم يهتد لجهة أمره غلبت على الجهة التي يشقيلها الإنسان في الصلاة والمراد بها ههنا بيت المقدس وإضافتها إلى ضمير المسلمين ووصفها بقوله تعالى ﴿ التي كانوا عليها ﴾ أي ثابتين مستمرين على التوجه إليها ومراعاتها واعتقاد حقيقتها لتأكيد الإنكار فإن الاختصاص بالشيء والاستمرار عليه باعتقاد حقيقته مما ينافي الانصراف عنه فإن أريد بالقائلين اليهود فدار الإنكار كراهتهم للتحويل عنها وزعمهم أنه خطأ وإن أريد بهم المشركون فمداره مجرد القصد إلى الطعن في الدين والقدح في أحكامه وإظهار أن كلا من التوجه إليها والانصراف عنها واقع بغير داع إليه لا لكراهتهم الانصراف عنها أو التوجه إلى مكة وتعليق الإنكار بما يوليهم عنها لا بما يوجههم إلى غيرها مع تلازمهما في

الوجود لما أن ترك الدين القديم أبعد عند العقول وإنكار سببه أدخل
لا للإيدان بأن المنكرين هم اليهود بناء على أن المنكر عندهم هو التحويل
عن خصوصية بيت المقدس الذي هو القبلة الحققة عندهم لا التوجه إلى
خصوصية قبلة أخرى أو هم المشركون بناء على أن المنكر عندهم ترك القبلة
القديمة على وجه الطعن والقدح لا التوجه إلى الكعبة لأنه الحق عندهم فإنه
بمعزل عن ذلك كيف لا والمتفقون من أحد الفريقين لا محالة والإخبار بذلك
قبل الوقوع مع كونه من دلائل النبوة حيث وقع كما أخبر لتوطين النفوس
وإعداد ما يسكتهم فإن مفاجأة المكروه على النفس أشق وأشد والجواب
العتيد لشغب الخصم الألد أرد وقوله عز وجل ﴿ قل لله المشرق والمغرب ﴾
استئناف مبني على السؤال كأنه قيل فماذا أقول عند ذلك فقيل قل الخ أي
لله تعالى ناحيتا الأرض أي الجهات كلها ملكا وملكاً وتصرفاً فلا اختصاص
لناحية منها لذاتها بكونها قبلة دون ما عداها بل إنما هو بأمر الله سبحانه
ومشيئته ﴿ يهدي من يشاء ﴾ أن يهديه مشيئة تابعة للحكم الخفية التي لا يعلمها
إلا هو ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾ موصل إلى سعادة الدين وقد هداها إلى ذلك
حيث أمرنا بالتوجه إلى بيت المقدس تارة وإلى الكعبة أخرى حسبما تقتضيه
مشيئته المقارنة لحكم آية ومصالح خفية ﴿ وكذلك جعلناكم ﴾ توجيه للخطاب
إلى المؤمنين بين الخطابين المختصين بالرسول صلى الله عليه وسلم لتأييد ما في
مضمون الكلام من التشریف وذلك إشارة إلى مصدر جعلناكم لا إلى جعل
آخر مفهوم مما سبق كما قيل وتوحيد الكاف مع القصد إلى المؤمنين لما أن
المراد مجرد الفرق بين الحاضر والمنقضى دون تعيين المخاطبين وما فيه من
معنى البعد للإيدان بعلو درجة المشار إليه وبعد منزلته في الفضل وكال تميزه
به وانتظامه بسببه في سلك الأمور المشاهدة والكاف لتأكيد ما أفاده اسم
الإشارة من الفخامة ومحلها في الأصل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف
وأصل التقدير جعلناكم أمة وسطاً جعلناكم مثل ذلك الجعل فقدم على الفعل
لإفادة القصر واعتبرت الكاف مقحمة للنسبة المذكورة فصار نعت المصدر

المؤكد لا نعتاً له أى ذلك يجعل البديع جعلناكم ﴿ أمة وسطا ﴾ لا جعلنا
آخر أدنى منه والوسط فى الأصل اسم لما يستوى نسبة الجوانب إليه كمرکز
الدائرة ثم استعير للخصال المحمودة البشرية لكن لا لأن الأطراف يتسارع
إليها الخلل والإعواز والأوساط محمية محوطة كما قيل واستشهد عليه بقول
ابن أوس الطائى :

كانت هى الوسط المحمى فاكتنفت بها الحوادث حتى أصبحت طرفا

فإن تلك العلاقة بمعزل من الاعتبار فى هذا المقام إذ لا ملاسة بينها وبين
أهليه الشهادة التى جعلت غاية للجعل المذكور لتكون تلك الخصال أوساطا
للخصال الذميمة المكتنفة بها من طرفى الإفراط والتفريط كالعفة التى
طرفاها الفجور والخمود وكالشجاعة التى طرفاها التهور والجهن وكالحكمة التى
طرفاها الجريرة والبلادة وكالعدالة التى هى كيفية متشابهة حاصلة من اجتماع
تلك الأوساط المحفوظة بأطرافها ثم أطلق على المتصف بها مبالغة كأنه
نفسها وسوى فيه بين المفرد والجمع والمذكر والمؤنث زعاية لجانب الأصل
كدأب سائر الأسماء التى يوصف بها وقد روعيت ههنا فكيتة رائقة هى أن
الجعل المشار إليه عبارة عما تقدم ذكره من هدايته تعالى إلى الحق الذى عبر
عنه بالصراط المستقيم الذى هو الطريق السوى الواقع فى وسط الطرق الجائرة
عن القصد إلى الجانبين فإننا إذا فرضنا خطوطا كثيرة واصلة بين نقطتين
متقابلتين فالخط المستقيم إنما هو الخط الواقع فى وسط تلك الخطوط المنحنية
ومن ضرورة كونه وسطا بين الطرق الجائرة كون الأمة المهديّة إليه أمة
وسطا بين الأمم السالكة إلى تلك الطرق الزائغة أى متصفة بالخصال الحميدة
خيارا وعدولا مزكين بالعلم والعمل ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ﴾ بأن
الله عز وجل قد أوضح السبل وأرسل الرسل فبلغوا ونصحوا وذكروا فهل
من مدكر وهى غاية للجعل المذكور مترتبة عليه فإن العدالة كما أشير إليه حيث
كانت هى الكيفية المتشابهة المتألفة من العفة التى هى فضيلة القوة الشهوية

البهيمية والشجاعة التي هي فضيلة القوة الغضبية السبعية والحكمة التي هي فضيلة القوة العقلية الملكية المشار إلى رتبها بقوله عز وعلا (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا) كان المنصف بها واقفا على الحقائق المودعة في الكتاب المبين المنطوي على أحكام الدين وأحوال الأمم أجمعين حاويا بالشرائط الشهادة عليهم . روى أن الأمم يوم القيامة يتحدثون تبليغ الأنبياء عليهم السلام فيطالهم الله تعالى بالبينة وهو أعلم لإقامة للحجة على المنكرين وزيادة لخزيهم بأن كذبهم من بعدهم من الأمم فيؤتى بأمة محمد صلى الله عليه وسلم فيشهدون فيقول الأمم من أين عرفتم فيقولون علمنا ذلك يا خبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق فيؤتى عند ذلك بالنبي صلى الله عليه وسلم ويسأل عن حال أمته فيزكهم ويشهد بعداتها وذلك قوله عز قائلنا ﴿ ويكفر الرسول عليكم شهيداً ﴾ وكلمة الاستعلاء لما في الشهيد من معنى الرقيب والمهيمن وقيل لتكفروا شهداء على الناس في الدنيا فيما لا يقبل فيه الشهادة إلا من العدول الأخيار وتقديم الظرف للدلالة على اختصاص شهادته عليه السلام بهم ﴿ وما جعلنا القبلة التي كنت عليها ﴾ جرد الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم رمزا إلى أن مضمون الكلام من الأسرار الحقيقية بأن تخص معرفته بها عليه السلام وليس الموصول صفة للقبلة بل هو مفعول ثانٍ للجعل وما قيل من أن الجعل تحويل الشيء من حالة إلى أخرى فالملتبس بالحالة الثانية هو المفعول الثاني كما في قولك جعلت الطين خزفا فينبغي أن يكون المفعول الأول هو الموصول والثاني هو القبلة فهو كلام صناعي ينساق إليه الذهن بحسب النظر الجميل ولكن التأمل اللائق يهدي إلى العكس فإن المقصود إفادته أنه ليس جعل الجهة قبلة لا غير كما يفيد ما ذكر بل هو جعل القبلة المحققة الوجود هذه الجهة دون غيرها والمراد بالموصول هي الكعبة فإنه عليه الصلاة والسلام كان يصلي إليها أولا ثم لما هاجر أمر بالاصلاة إلى الصخرة تألفاً لليهود أو هي الصخرة لما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما من أن قبلته عليه السلام بمكة كانت بيت المقدس إلا أنه كان يجعل الكعبة بينه وبينه

وعلى هذه الرواية لا يمكن أن يراد بالقبلة الأولى الكعبة وأما الصخرة فيتأني إرادتها على الروایتين والمعنى على الأول وما جعلنا القبلة الجهة التي كنت عليها قبل هذا الوقت وهي الصخرة ﴿ إلا لنعلم ﴾ استثناء مفرغ من أعم العلل أى وما جعلنا ذلك الشيء من الأشياء إلا لنمتحن الناس أى نعاملهم معاملة من يمتحنهم ونعلم حينئذ ﴿ من يتبع الرسول ﴾ فى التوجه إلى ما أمر به من الدين أو القبلة والالتفات إلى القبلة مع إرادته عليه السلام بعنوان الرسالة للإشعار بعلية الاتباع ﴿ من ينقلب على عقبيه ﴾ يرتد عن دين الإسلام أو لا يتوجه إلى القبلة الجديدة أو لنعلم الآن من يتبع الرسول من لا يتبعه وما كان لعارض يزول بزواله وعلى الأول ما رددناك إلى ما كنت عليه إلا لنعلم الثابت على الإسلام والناس على عقبيه لقلقه وضعف إيمانه والمراد بالعلم ما يدور عليه فلك الجزاء من العلم الحالى أى ليتعلق بعلينا به موجودا بالفعل وقيل المراد علم الرسول عليه السلام والمؤمنين وإسناده إليه سبحانه لما أنعم على خواصه وليتميز الثابت عن المتزلزل كقوله تعالى (ليميز الله الخبيث من الطيب) فوضع العلم موضع التمييز الذى هو مسبب عنه ويشهد له قراءة ليعلم على بناء المجهول من صيغة الغيبة والعلم إما بمعنى المعرفة أو متعلق بما فى دمن، من معنى الاستفهام أو مفعوله الثانى من ينقلب الخ أى لنعلم من يتبع الرسول متميزا من ينقلب على عقبيه ﴿ وإن كانت لكبيرة ﴾ أى شاقة ثقيلة وإن هى المخففة من الثقيلة دخلت على ناسخ المبتدأ والخبر واللام هى الفارقة بينها وبين النافية كما فى قوله تعالى (إن كان وعد ربنا لمفعولا) وزعم الكوفيون أنها نافية واللام بمعنى إلا أى ما كانت إلا كبيرة والضمير الذى هو اسم كان راجع إلى ما دل عليه قوله تعالى (وما جعلنا القبلة التى كنت عليها) من الجملة أو التولية أو التحويلة أو الردة أو القبلة وقرىء لكبيرة بالرفع على أن كان مزيدة كما فى قوله :

• وإخوان لنا كانوا كرام ه وأصله وإن هى لكبيرة

كقوله إن زيد لمنطلق ﴿ إلا على الذين هدى الله ﴾ أى إلى سر الأحكام الشرعية المبنية على الحكم والمصالح إجمالا وتفصيلا وهم المهديون إلى الصراط

المستقيم الثابتون على الإيمان واتباع الرسول عليه السلام : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ أى ما صح وما استقام له أن يضيع ثباتكم على الإيمان بل شكر صنيعكم وأعد لكم الثواب العظيم وقيل إيمانكم بالقبلة المنسوخة وصلاتكم إليها لما روى أنه عليه السلام لما توجه إلى الكعبة قالوا كيف حال إخواننا الذين مضوا وهم يصلون إلى بيت المقدس فنزلت واللام فى ليضيع إما متعلقة بالخبر المقدر لكان كما هو رأى البصرية واتصاب الفعل بعدها بأن المقدر أى ما كان الله مريدا أو متصديا لأن يضيع الخ فى توجيه النفى إلى إرادة الفعل تأكيد ومبالغة ليس فى توجيهه إلى نفسه وإما مزيدة للتأكيد ناصبة للفعل بنفسها كما هو رأى الكوفية ولا يقدح فى ذلك زيادتها كما لا يقدح زيادة حروف الجر فى عملها وقوله تعالى : ﴿ إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ تحقيق وتقرير للحكم وتعليل له فإن اتصافه عز وجل بهما يقتضى لا عمالة أن لا يضيع أجورهم ولا يدع ما فيه صلاحهم والباء متعلقة برؤوف وتقديمه على رحيم مع كونه أبلغ منه لما مر فى وجه تقديم الرحمن على الرحيم وقيل الرحمة أكثر من الرأفة فى السكمية والرأفة أقوى منها فى الكيفية لأنها عبارة عن إيصال النعم الصافية من الآلام والرحمة إيصال النعمة مطلقا وقد يكون مع الألم كقطع العضو المتأكل وقرىء رؤوف بغير مد كندس ﴿ قد نرى تقلب وجهك فى السماء ﴾ أى تردده وتصرف نظرك فى جهتها تطلعا للوحى وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقع فى روعة ويتوقع من ربه عز وجل أن يحوله إلى الكعبة لأنها قبلة إبراهيم وأدعى للعرب إلى الإيمان لأنها مفخرتهم ومزارهم ومطافهم ومخالفة اليهود فكان يراعى نزول جبريل بالوحى بالتحويل ﴿ فلنولينك قبلة ﴾ الفاء للدلالة على سببية ما قبلها لما بعدها وهى فى الحقيقة داخلية على قسم محذوف يدل عليه اللام أى فوالله لنولينك أى لنعطينكما ولنمكننك من استقبالها من قولك وليته كذا أى صيرته والياً له أو لنجعلنك تلى جهتها أو لنحولنك على أن نصب قبلة بحذف الجار أى إلى قبلة وقيل هو متعد إلى مفعولين ﴿ ترضاها ﴾

تجها وتشتاق إليها لمقاصد دينية وافقت مشيئته تعالى وحكمته ﴿فول وجهك﴾
الفاء لتفريع الأمر بالتولية على الوعد الكريم وتخصيص التولية بالوجه لما
أنه مدار التوجه ومعياره وقيل المراد به كل البدن أى فاصرفه ﴿شطر المسجد
الحرام﴾ أى نحوه وهو نصب على الظرفية من نولى أو على نزع الخافض
أو على أنه مفعول ثان له وقيل الشطر فى الأصل اسم لما انفصل من الشيء
ودار شطور إذا كانت منفصلة عن الدور ثم استعمل لجانبه وإن لم ينفصل
كالقطر والحرام المحرم أى محرم فيه القتال أو ممنوع من الظلمة أن يتعرضوا
له وفى ذكر المسجد الحرام دون الكعبة إيدان بكفاية مراعاة الجهة لأن مراعاة
العين من البعيد حرجا عظيما بخلاف القريب . روى عن البراء بن عازب
أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة فهضى نحو بيت المقدس ستة عشر
شبرا ثم وجه إلى الكعبة وقيل كان ذلك فى رجب بعد زوال الشمس قبل
قتال بدر بشهرين ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسجد بنى سلمة وقد صلى
بأصحابه ركعتين من صلاة الظهر فتحول فى الصلاة واستقبل الميزاب وحول
الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال فسمى المسجد مسجدا القبليتين ﴿وحيثما
كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ خص الرسول صلى الله عليه وسلم بالخطاب
تعظيما لجنابه وإيدانا بإسعاف مرامه تم عمم الخطاب للمؤمنين مع التعرض
لاختلاف أمانتهم تأكيذا للحكم وتصريحا بعمومه لكافة العباد من كل
حاضر وباد وحثا للأمة على المتابعة وحيثما شرطية وكنتم فى محل الجزاء بها
وقوله تعالى فولوا جوابها وتكون هى منصوبة على الظرفية بكنتم نحو
قوله تعالى (أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى) ﴿ولان الذين أوتوا الكتاب﴾ من
فريقي اليهود والنصارى ﴿ليعلمون أنه﴾ أى التحويل أو التوجه المفهوم من
التولية ﴿الحق﴾ لا غير لعلمهم بأن عادته سبحانه وتعالى جارية على تخصيص
كل شريعة بقبلة ومعاينتهم لما هو مسطور فى كتبهم من أنه عليه الصلاة والسلام
يصلى إلى القبليتين كما يشعر بذلك التعبير عنهم بالاسم الموصل بإيتاء الكتاب
وأن مع اسمها وخبرها ساد مسد مفعولى يعلمون أو مسد مفعوله الواحد على

أن العلم بمعنى المعرفة وقوله تعالى: ﴿ من ربهم ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من الحق أى كأننا من ربهم أو صفة له على رأى من يجوز حذف الموصول مع بعض صلته أى السكائن من ربهم ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ وعد ووعد للفريقين والخطاب للكل تغايبا وقرىء على صيغة الغيبة فهو وعيد لأهل الكتاب .

﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب ﴾ وضع الموصول موضع المضمرة للإيدان بكمال سوء حالهم من العناد مع تحقيق ما يرغبهم منه من الكتاب الناطق بحقية ما كانوا فى قبوله ﴿ بكل آية ﴾ أى حجة قطعية دالة على حقية التحويل واللام موطئة للقسم وقوله تعالى ﴿ ما تبعوا قبلتك ﴾ جواب للقسم المضمرة ساد مسد جواب الشرط والمعنى أنهم ما تركوا قبلتك لشبهة تزيلها الحجة وإنما خالفوك مكابرة وعنادا وتجريد الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم بعد تعميمه للأمة لما أن الحاجة والإتيان بالآية من الوظائف الخاصة به عليه السلام وقوله تعالى: ﴿ وما أنت بتابع قبلتهم ﴾ جملة معطوفة على الجملة الشرطية لا على جوابها مسوقة لقطع أطماعهم الفارغة حيث قالت اليهود لو ثبت على قبلتنا لسكننا نرجو أن تكون صاحبنا الذى ننظره تغيرا له عليه الصلاة والسلام وطمعا فى رجوعه وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على دوام مضمونها واستمراره وإفراد قبلتهم مع تعددها باعتبار اتحادها فى البطلان ومخالفة الحق ولئلا يتوهم أن مدار النبي هو التعدد وقرىء بتابع قبلتهم على الإضافة ﴿ وما بعضهم بتابع قبلة بعض ﴾ فإن اليهود تستقبل الصخرة والنصارى مطلع الشمس ولا يرجى توافقهم كما لا يرجى موافقتهم لك لتصلب كل فريق فيما هو فيه .

﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ الزائغة المتخالفة ﴿ من بعد ما جاءك من العلم ﴾ يبطلانها وحقية ما أنت عليه وهذه الشرطية الفرضية واردة على منهاج التبيين والإلهاب للثبات على الحق أى ولئن اتبعت أهواءهم فرضا ﴿ إنك إذأ لمن الظالمين ﴾ وفيه لطف للسامعين وتحذير لهم عن متابعة الهوى

فإن من ليس من شأنه ذلك إذا نهى عنه ورتب على فرض وقوعه مراتب من الانتظام في سلك الراسخين في الظلم فما ظن من ليس كذلك وإذن حرف جواب وجزاء توسطت بين اسم إن وخبرها لتقرير ما بينهما من النسبة إذ كان حقها أن تتقدم أو تتأخر فلم تتقدم لئلا يتوهم أنها لتقرير النسبة التي بين الشرط وجوابه المحذوف لأن المذكور جواب القسم ولم تتأخر لرعاية الفواصل ولقد بولغ في التأكيد من وجوه تعظيما للحق المعلوم وتحريضا على اقتضائه وتحذيرا عن متابعة الهوى واستعظاما لصدور الذنب من الانبياء عليهم السلام .

(الذين آتيناهم الكتاب) أي علماءهم إذا هم العمدة في إيتائه ووضع الموصول موضع المضمرة مع قرب العهد للإشعار بعلمية ما في حيز الصلة للحكم والضمير المنصوب في قوله تعالى (يعرفونه) للرسول صلى الله عليه وسلم والالتفات إلى الغيبة للإيذان بأن المراد ليس معرفتهم له عليه السلام من حيث ذاته ونسبه الزاهر بل من حيث كونه مسطورا في الكتاب ممنوعا فيه بالنعوت التي من جملتها أنه عليه السلام يصلى إلى القبلتين كأنه قيل الذين آتيناهم الكتاب يعرفون من وصفناه فيه وبهذا يظهر جزالة النظم الكريم وقيل هو إضمار قبل الذكر للإشعار بفخامة شأنه عليه الصلاة والسلام أنه علم معلوم بغير إعلام فتأمل وقيل الضمير للعلم أو سببه الذي هو الوحي أو القرآن أو التحويل ويؤيد الأول قوله عز وجل (كما يعرفون أبناءهم) أي يعرفونه عليه الصلاة والسلام بأوصافه الشريفة المكتوبة في كتابهم ولا يشتهبه عليهم كالأيشتهبه بأبنائهم وتخصيصهم بالذكر دون ما يعم البنات لسكونهم أعرف عندهم ممن بسبب كونهم أحب إليهم عن عمر رضي الله عنه أنه سأل عبد الله بن سلام رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أنا أعلم به مني بابني قال ولم قال لأنني لست أشك فيه أنه نبي فأما ولدي فلعل والدته خانت فقبل عمر رأسه رضي الله عنهما (وإن فريقا منهم ليسكتمون الحق وهم يعلمون) هم الذين كبروا وعاندوا الحق والباقون هم الذين آمنوا منهم فإنهم يظهرون الحق ولا يكتمونه وأما

الجهلة منهم فليست لهم معرفة بالكتاب ولا بما في تضاعيفه فاهم بصدد الإظهار ولا بصدد السكتهم وإنما كفرهم على وجه التقليد ﴿الحق﴾ بالرفع على أنه مبتدأ وقوله تعالى ﴿من ربك﴾ خبره واللام للعهد والإشارة إلى ما عليه النبي صلى الله عليه وسلم أو إلى الحق الذي يكتمونونه أو للجنس والمعنى أن الحق ما ثبت أنه من الله تعالى كالذي أنت عليه لا غيره كالذي عليه أهل الكتاب أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو الحق وقوله تعالى من ربك إما حال أو خبر بعد خبر وقرئ بالنصب على أنه بدل من الأول أو مفعول ليعلمون وفي التعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام من إظهار اللطف به عليه السلام ما لا يخفى ﴿فلا تكونن من الممتزين﴾ أي الشاكين في كتابهم الحق عالمين به وقيل في أنه من ربك وليس المراد نهي الرسول صلى الله عليه وسلم عن الشك لأنه غير متوقع منه عليه الصلاة والسلام وليس بقصد واختيار بل إما تحقيق الأمر وأنه بحيث لا يشك فيه ناظر أو أمر الأمة باكتساب المعارف المزيحة للشك على الوجه الأبلغ ﴿ولكل﴾ أي ولكل أمة من الأمم على أن التنوين عوض من المضاف إليه ﴿وجهة﴾ أي قبلة وقد قرئ كذلك أو لكل قوم من المسلمين جانب من جوانب الكعبة ﴿هو موليا﴾ أحد المفعولين محذوف أي موليا وجهه أو الله موليا لإياه وقرئ ولكل وجهة بالإضافة والمعنى ولكل وجهة الله موليا أهلها واللام مزيدة للتأكيد وجبر ضعف العامل وقرئ موليا أي مولى تلك الجهة قد وليها ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ أي تسابقوا إليها بنزع الجار كما في قوله :

ثناي عليكم آل حرب ومن يمل سواكم فإنني مهتد غير ما نل

وهو أبلغ من الأمر بالمسارعة لما فيه من الحث على إحراز قصب السبق والمراد بالخيرات جميع أنواعها من أمر القبلة وغيره مما ينال به سعادة الدارين أو الفاضلات من الجهات وهي المسامحة للكعبة ﴿أيما تكونوا يأت بكم الله جميعا﴾ أي في أي موضع تكونوا من موافق أو مخالف مجتمع الأجزاء أو

متفرقا يحشركم الله تعالى إلى المحشر للجزاء أو أينما تكونوا من أعماق الأرض وقلل الجبال يقبض أرواحكم أو أينما تكونوا من موافق أو مخالف مجتمع الأجزاء أو متفرقا يحشركم الله تعالى إلى المحشر للجزاء أو أينما تكونوا من أعماق الأرض وقلل الجبال يقبض أرواحكم أو أينما تكونوا من الجهات المختلفة المتقابلة يجعل صلواتكم كأنها صلاة إلى جهة واحدة ﴿لن الله على كل شيء قدير﴾ فيقدر على الإمامة والإحياء والجمع فهو تعليل للحكم السابق ﴿ومن حيث خرجت﴾ تأكيد للحكم التحويل وتصريح بعدم تفاوت الأمر في حالتي السفر والحضر ومن متعلقة بقوله تعالى ﴿فول﴾ أو بمحذوف عطف هو عليه أى من أى مكان خرجت إليه للسفر فول ﴿وجهلك﴾ عند صلاتك ﴿شطر المسجد الحرام﴾ أو أفعل ما أمرت به من أى مكان خرجت إليه فول لإخ ﴿ولأنه﴾ أى هذا الأمر ﴿للحق من ربك﴾ أى التابت الموافق للحكمة ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ فيجازيكم بذلك أحسن جزاء فهو وعد للمؤمنين وقرىء يعملون على صيغة الغيبة فهو وعيد للكافرين ﴿ومن حيث خرجت﴾ إليه فى أسفارك ومغازيك من المنازل القريبة والبعيدة ﴿فول وجهلك شطر المسجد الحرام﴾ الكلام فيه كما مر آنفا ﴿وحيثما كنتم﴾ من أقطار الأرض مقيمين أو مسافرين حسبا يعرب عنه لإثارة كنتم على خرجتم فإن الخطاب عام لكافة المؤمنين المنتشرين فى الآفاق من الحاضرين والمسافرين فلو قيل وحيثما خرجتم لما تناول الخطاب المقيمين فى الأماكن المختلفة من حيث إقامتهم فيها ﴿فولوا وجوهكم﴾ من محالكم ﴿شطره﴾ والتكرير لما أن القبلة لها شأن خطير والنسخ من مظان الشبهة والفتنة فبالحرى أن يؤكد أمرها مرة بعد أخرى مع أنه قد ذكر فى كل مرة حكمة مستقلة ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾ متعلق بقوله تعالى (فولوا) وقيل بمحذوف يدل عليه الكلام كأنه قيل فعلنا ذلك لئلا لإخ والمعنى أن التولية عن الصخرة تدفع احتجاج اليهود بأن المنعوت فى التوراة من أوصافه أنه يحول إلى الكعبة واحتجاج المشركين بأنه يدعى ملة إبراهيم ويخالف قبلته

﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ وهم أهل مكة أى لئلا يكون لأحد من الناس حجة إلا المعاندين منهم الذين يقولون ما تحول إلى الكعبة إلا ميلا إلى دين قومه وحبا لبلده أو بداله فرجع إلى قبلة آباءه ويوشك أن يرجع إلى دينهم وتسمية هذه الكلمة الشنعاء حجة مع أنها أخش الأباطيل من قبيل ما فى قوله تعالى حججهم داحضة حيث كانوا يسوقونها مساق الحجة وقيل الحجة بمعنى مطلق الاحتجاج وقيل الاستثناء للمبالغة فى نفي الحجة رأسا كالذى فى قوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتاب

ضرورة أن لا حجة للظالم وقرىء أيا الذين بحرف التنبيه على استئناف ﴿فلا تخشوهم﴾ فإن مطاعهم لا تضركم شيئا ﴿واخشوني﴾ فلا تخالفوا أمرى ﴿ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون﴾ علة محذوف يدل عليه النظم الكريم أى أمرتكم بما مر لإتمامي للنعمة عليكم لما أنه نعمة جليلة وإرادتى لما أنه صراط مستقيم مؤد إلى سعادة الدارين كما أشير إليه فى قوله عز وجل (يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) وفى التعبير عن الإرادة بكلمة لعل الموضوع للترجى على طريقة الاستعارة التبعية من الدلالة على كمال العناية بالهداية ما لا يخفى أو عطف على علة مقدره أى واخشوني لأحفظكم عنهم وأتمم الخ أو على قوله تعالى لئلا يكون الخ وتوسيط قوله تعالى فلا تخشوهم الخ بينهما للمسارعة إلى التسلية والتثبيت وفى الخبر تمام النعمة دخول الجنة وعن على رضى الله عنه تمام النعمة الموت على الإسلام ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم ﴾ متصل بما قبله والظرف الأول متعلق بالفعل قدم على مفعوله الصريح لما فى صفاته من الطول والظرف الثانى متعلق بمضمر وقع صفة لرسولا مبينة لتمام النعمة أى ولأتم نعمتى عليكم فى أمر القبلة أو فى الآخرة إتماما كإتمامي لها بإرسال رسول كائن منكم فإن إرسال الرسول لاسيما المجانس لهم نعمة لا يكافئها نعمة قط وقيل متصل بما بعده أى كما ذكرتم بالإرسال فاذكرونى الخ وإيثار صيغة المتكلم مع الغير بعد التوجيه فيما قبله افتتان وجريان على سنن الكبرياء ﴿ يتلو عليكم آياتنا ﴾

صفة ثانية لرسول كاشفة لسكال النعمة ﴿ويزكيكم﴾ عطف على يتلو أى يحملكم على ما تصيرون به أذكيا ﴿ويعلمكم الكتاب والحكمة﴾ صفة أخرى مترتبة في الوجود على التلاوة وإنما وسط بينهما التزكية التي هي عبارة عن تكميل النفس بحسب القوة العملية وتهذيبها المتفرع على تكميلها بحسب القوة النظرية الحاصل بالتعليم المترتب على التلاوة للإيدان بأن كلا من الأمور المترتبة نعمة جليلة على حياتها مستوجبة للشكر فلو روعي ترتيب الوجود كما في قوله تعالى (وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) لتبادر إلى الفهم كون الكل نعمة واحدة كما مر نظيره في قصة البقرة وهو السر في التعبير عن القرآن تارة بالآيات وأخرى بالكتاب والحكمة رمز إلى أنه باعتبار كل عنوان نعمة على حدة ولا يقدح فيه شمول الحكمة لما في تضاعيف الأحاديث الشريفة من الشرائع وقوله عز وجل ﴿ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ صريح في ذلك فإن الموصول مع كونه عبارة عن الكتاب والحكمة قطعا قد عطف تعليمه على تعليمها وما ذلك إلا لتفصيل فنون النعم في مقام يقتضيه كما في قوله تعالى (ونجيناهم من عذاب غليظ) عقيب قوله تعالى (نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا) والمراد بعدم علمهم أنه ليس من شأنهم أن يعلوه بالفكر والنظر وغير ذلك من طرق العلم لانحصار الطريق في الوحي ﴿فاذكروني﴾ النماء للدلالة على ترتب الأمر على ما قبله من موجباته أى فاذكروني بالطاعة ﴿أذكركم﴾ بالشواب وهو تحريض على الذكر مع الإشعار بما يوجبه ﴿واشكروا لي﴾ ما أنعمت به عليكم من النعم ﴿ولا تكفروا﴾ بحددها وعصيان ما أمرتكم به ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ وصفهم بالإيمان إثر تعداد ما يوجبه ويقتضيه تنشيطا لهم وحثا على مراعاة ما يعقبه من الأمر ﴿استعينوا﴾ في كل ما تأتون وما تدرنون ﴿بالصبر﴾ على الأمور الشاقة على النفس التي من جملتها معاداة الكفرة ومقابلتهم المؤدية إلى مقاتلتهم ﴿والصلوة﴾ التي هي أم العبادات ومعراج المؤمنين ومناجاة رب العالمين ﴿إن الله مع الصابرين﴾ تعليل للأمر بالاستعانة بالصبر خاصة لما أنه المحتاج إلى التعليل وأما الصلاة

فحيث كانت عند المؤمنين أجل المطالب كما ينفي عنه قوله عليه الصلاة والسلام وجعلت قرة عيني في الصلاة . لم يفتقر الأمر بالاستعانة بها إلى التعليل ومعنى المعية الولاية الدائمة المستتبعة للنصرة وإجابة الدعوة ودخول مع علي الصابرين لما أنهم المباشرون للصبر حقيقة فهم متبوعون من تلك الهيئة ﴿ ولا تقولوا ﴾ عطف على استعينوا الخ مسوق لبيان أن لا غاية للمأمور به وإنما الشهادة التي ربما يؤدي إليها الصبر حياة أبدية ﴿ لمن يقتل في سبيل الله أموات ﴾ أى هم أموات ﴿ بل أحياء ﴾ أى بل هم أحياء ﴿ ولكن لا تشعرون ﴾ بحياتهم وفيه رمز إلى أنها ليست مما يشعر به بالمشاعر الظاهرة من الحياة الجسدية وإنما هي أمر روحاني لا يدرك بالعقل بل بالوحى وعن الحسن رحمه الله أن الشهداء أحياء عند الله تعرض أرواحهم على أرواحهم فيصل إليهم الروح والفرح كما تعرض النار على آل فرعون غدوا وعشيا فيصل إليهم الألم والوجع قلت رأيت في المذام سنة تسع وثلاثين وتسعمائة أنى أزور قبور شهداء بأحد رضى الله تعالى عنهم أجمعين وأنا أتلو هذه الآية وما في سورة آل عمران وأرددهما متفكرا فى أمرهم وفى نفسى أن حياتهم روحانية لا جسمانية فيدنا أنا على ذلك إذ رأيت شأبا منهم قاعدا فى قبره تام الجسد كامل الخلقة فى أحسن ما يكون من الهيئة والمنظر ليس عليه شىء من اللباس قد بدا منه ما فوق السرة والباقي فى القبر خلا أنى أعلم يقينا أن ذلك أيضا كما ظهر وإنما لا يظهر لكونه عورة فنظرت إلى وجهه فرأيتة ينظر إلى متبسما كأنه يذهبى على أن الأمر بخلاف رأى فسبحان من علمت كلمته وجلت حكمته وقيل الآية نزلت فى شهداء بدر وكانوا أربعة عشر وفيها دلالة على أن الأرواح جواهر قائمة بأنفسها مغايرة لما يحس به من البدن تبقى بعد الموت دراية وعليه جمهور الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وبه نطق السنن وعلى هذا فتخصيص الشهداء بذلك لما يستدعيه مقام التحريض على مباشرة مبادئ الشهادة ولاختصاصهم بمزيد القرب من الله عز و علا ﴿ ولنبلونكم ﴾ لنصيبينكم إصا بة من يختبر أحوالكم أتصبرون على البلاء وتسلمون للقضاء ﴿ بشىء من الخوف والجوع ﴾ أى بقليل من ذلك

فإن ما وقام عنه أكثر بالنسبة إلى ما أصابهم بألف مرة وكذا ما يصيب به معانديهم وإنما أخبر به قبل الوقوع ليوطنوا عليه نفوسهم ويزداد يقينهم عند مشاهدتهم له حسبما أخبر به وليعلموا أنه شيء يسير له عاقبة حميدة ﴿ونقص من الأموال والأنفس والثمرات﴾ عطف على شيء وقيل على الخوف وعن الشافعي رحمه الله الخوف خوف الله والجوع صوم رمضان ونقص من الأموال الزكاة والصدقات ومن الأنفس الأمراض ومن الثمرات موت الأولاد وعن النبي صلى الله عليه وسلم إذا مات ولد العبد قال الله تعالى للهلائك أقبضتم روح عبدى فيقولون نعم فيقول عز وجل أقبضتم ثمرة قلبه فيقولون نعم فيقول الله تعالى ماذا قال عبدى فيقولون حمدك واسترجع فيقول الله عز وعلا ابنوا لعبدى بيتا فى الجنة وسموه بيت الحمد ﴿وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو لسكل من يتأتى منه البشارة والمصيبة ما يصيب الإنسان من مكروه لقوله عليه السلام كل شيء يؤذى المؤمن فهو له مصيبة وليس الصبر هو الاسترجاع باللسان بل بالقلب بأن يتصور ما خلق له وأنه راجع إلى ربه ويتذكر نعم الله تعالى عليه ويرى أن ما أبقى عليه أضعاف ما استرد معه فيهنون ذلك على نفسه ويستسلم والمبشر به محذوف دل عليه ما بعده ﴿أولئك﴾ إشارة إلى الصابرين باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت ومعنى البعد فيه للإيدان بعلو رتبهم ﴿عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾ الصلاة من الله سبحانه المغفرة والرفقة وجمعها للتنبيه على كثرتها وتنوعها والجمع بينها وبين الرحمة للمبالغة كما فى قوله تعالى (رفقة ورحمة) (رؤف رحيم) والتنوين فيهما للتفخيم والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم لإظهار مزيد العناية بهم أى أولئك الموصوفون بما ذكر من النعوت الجليلة عليهم فنون الرفقة الفاضلة من مالك أمورهم ومبلغهم إلى كالاتهم اللاتفة بهم وعن النبي صلى الله عليه وسلم من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبتة وأحسن عقباه وجعل له خلفا صالحا يرضاه ﴿وأولئك﴾ إشارة إليهم إما بالاعتبار السابق والتكرير لإظهار كمال العناية بهم وإما باعتبار

حيازتهم لما ذكر من الصلوات والرحمة المترتب على الاعتبار الأول فعلى الأول المراد بالاهتداء في قوله عز وجل ﴿ وهم المهتدون ﴾ هو الاهتداء للحق والصواب مطلقا لا الاهتداء لما ذكر من الاسترجاع والاستسلام خاصة لما أنه متقدم عليهما فلا بد لتأخيره عما هو نتيجة لهما من داع يوجهه وليس بظاهر والجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبله كأنه قيل وأولئك هم المختصون بالاهتداء لكل حق وصواب ولذلك استرجعوا واستسلموا لقضاء الله تعالى وعلى الثاني هو الاهتداء والفوز بالمطالب والمعنى أولئك هم الفائزون بماغيهم الدينية والدنيوية فإن من نال رافة الله تعالى ورحمته لم يفته مطلب ﴿ إن الصفا والبروة ﴾ علمان لجبلين بمكة المعظمة كالصمان والمقطم ﴿ من شعائر الله ﴾ من أعلام مناسكه جمع شعيرة وهي العلامة ﴿ فن حج البيت أو اعتمر ﴾ الحج في اللغة القصد والاعتبار الزيارة غالبا في الشريعة على قصد البيت وزيارته على الوجهين المعروفين كالبيت والنجم في الأعيان وحيث أظهر البيت وجب تجريده عن التعلق به ﴿ فلا جناح عليه أن يطوف بهما ﴾ أى فى أن يطوف بهما أصله يتطوف قلبت التاء طاء فأدغمت الطاء فى الطاء وفى إيراد صيغة التفعّل لإيدان بأن من حق الطائف أن يتكلف فى الطواف ويبدل فيه جهده وهذا الطواف واجب عندنا والشافعى وعن مالك رحمهما الله أنه ركن وإيراده بعدم الجناح المشعر بالتخيير لما أنه كان فى عهد الجاهلية على الصفا صم يقال له إساف وعلى المروة آخر اسمه نائلة وكانوا إذا سعوا بينهما مسحوا بهما فلما جاء الإسلام وكسر الأصنام تخرج المسلمون أن يطوفوا بينهما لذلك فنزلت وقيل هو تطوع ويعضده قراءة ابن مسعود فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ﴿ ومن تطوع خيرا ﴾ أى فعل طاعة فرضا كان أو نفلا أو زاد على ما فرض عليه من حج أو عمرة أو طواف وخيرا حينئذ نصب على أنه صفة لمصدر محذوف أى تطوعا خيرا أو على حذف الجار وإيصال الفعل إليه أو على تضمين معنى فعل وقرىء يطوع وأصله يتطوع مثل يطوف وقرىء ومن يتطوع بخير ﴿ فإن الله شاكر ﴾ أى مجاز على الطاعة عبر عن ذلك بالشكر مبالغة فى الإحسان (١٩ - أبو السعود - أول)

إلى العباد (علم) مبالغ في العلم بالأشياء فيعلم مقادير أعمالهم وكيفياتها فلا ينقص من أجورهم شيئاً وهو علة لجواب الشرط قائم مقامه كأنه قيل ومن تطوع خيراً جازاه الله وأثابه فإن الله شاكر عليم (إن الذين يكتُمون) قيل نزلت في أحبار اليهود الذين كتموا ما في التوراة من نعوت النبي صلى الله عليه وسلم وغير ذلك من الأحكام وعن ابن عباس ومجاهد وقتادة والحسن والسدي والربيع والأصم أنها نزلت في أهل الكتاب من اليهود والنصارى وقيل نزلت في كل من كتم شيئاً من أحكام الدين لعموم الحكم للكل والأقرب هو الأول فإن عموم الحكم لا يأبى خصوص السبب والكتم والكتمان ترك إظهار الشيء قصداً مع مساس الحاجة إليه وتحقق الداعي إلى إظهاره وذلك قد يكون بمجرد ستره وإخفائه وقد يكون بإزالته ووضع شيء آخر في موضعه وهو الذي فعله هؤلاء .

(ما أنزلنا من البينات) من الآيات الواضحة الدالة على أمر محمد صلى الله عليه (والهدى) أى والآيات الهادية إلى كنهه أمره ووجوب اتباعه والإيمان به عبر عنها بالمصدر مبالغة ولم يجمع مراعاة للأصل وهي المرادة بالبينات أيضاً والعطف لتغاير العنوان كما في قوله عز وجل (هدى للناس وبيّنات) لمخ وقيل المراد بالهدى الأدلة العقلية ويأباه الإنزال والكتم (من بعد ما بيناه للناس) متعلق بـيكتُمون والمراد بالناس الكل لا الكاتمون فقط واللام متعلقة بـبيناه وكذا الظرف في قوله تعالى (في الكتاب) فإن تعلق جارين بفعل واحد عند اختلاف المعنى مما لا ريب في جوازه أو الأخير متعلق بمحذوف وقع حالا من مفعوله أى كائناً في الكتاب وتبينها لهم تلخيصه وإيضاحه بحيث يتلقاه كل أحد منهم من غير أن يكون له فيه شبهة وهذا عنوان مغاير لكونه بيناً في نفسه وهدى مؤكداً لقبح الكتّم أو تفهيمه لهم بواسطة موسى عليه السلام والأول أنسب بقوله تعالى في الكتاب والمراد بكتّمه إزالته ووضع غيره في موضعه فإنهم محوا نعمته عليه الصلاة والسلام وكتبوا مكانه ما يخالفه كما ذكرناه في تفسير قوله عز وعلا (فويل للذين يتكلمون الكتاب) لمخ (أولئك) إشارة إليهم باعتبار

ما وصفوا به للإشعار بعليته لما حاق بهم وما فيه من معنى البعد للإيذان يترامى أمرهم وبعد منزلتهم في الفساد ﴿يلعنهم الله﴾ أى يطردهم ويعدمهم من رحمته والالتفات إلى الغيبة بإظهار اسم الذات الجامع للصفات لتربية المهابة وإدخال الروعة والإشعار بأن مبدأ صدور اللعن عنه سبحانه صفة الجلال المغيرة لما هو مبدأ الإنزال والتبيين من وصف الجمال والرحمة ﴿ويلعنهم اللاعنون﴾ أى الذين يتأتى منهم اللعن أى الدعاء عليهم باللعن من الملائكة ومؤمنى القليلين والمراد بيان دوام اللعن واستمراره وعليه يدور الاستثناء المتصل فى قوله تعالى :

﴿إلا الذين تابوا﴾ أى عن السكتان ﴿وأصلحوا﴾ أى ما أفسدوا بأن أزالوا الكلام المحرف وكتبوا مكانه ما كانوا أزالوه عند التحريف ﴿ويبنوا﴾ للناس معانيه فإنه غير لصلاح المذكور أو يبنوا لهم ما وقع منهم أولاً وآخرها فإنه أدخل فى إرشاد الناس إلى الحق وصرّفهم عن طريق الضلال الذى كانوا أو قعوه فىه أو يبنوا توبتهم ليمحوها به سمة ما كانوا فيه ويقتدى بهم أضرابهم وحيث كانت هذه التوبة المقرونة بالإصلاح والتبيين مستلزمة للتوبة عن الكفر مبنية عليها لم يصرح بالإيمان وقوله تعالى ﴿فأولئك﴾ إشارة إلى الوصول باعتبار اتصافه بما فى حين الصلة للإشعار بعليته للحكم والفاء لتأكيد ذلك ﴿أتوب عليهم﴾ أى بالقبول وإفاضة المغفرة ، والرحمة وقوله تعالى ﴿وأنا للتواب الرحيم﴾ أى المبالغ فى قبول التوب ونشر الرحمة اعتراض تذييلى محقق لمضمون ما قبله والالتفات إلى التسكيم للافتنان فى النظم الكريم مع ما فيه من التلويح والرمز إلى ما مر من اختلاف المبدأ فى فعلية تعالى السابق واللاحق ﴿إن الذين كفروا﴾ جملة مستأنفة سبقت لتحقيق بقاء اللعن فيما وراء الاستثناء وتأكيد دوامه واستمراره على غير التائبين حسبما يفيد الكلام والاختصار على ذكر الكفر فى الصلة من غير تعرض لعدم التوبة والإصلاح والتبيين مبنى على ما أشير إليه فسكاً أن وجود تلك الأمور الثلاثة مستلزم للإيمان الموجب لعدم الكفر كذلك وجود الكفر مستلزم لعدمها جميعاً أى أن الذين استمروا

على الكفر المستتبع للكتمان وعدم التوبة ﴿ وما تواروا وهم كفار ﴾ لا يراعون عن حالتهم الأولى ﴿ أولئك ﴾ الكلام فيه كما فيما قبله ﴿ عليهم ﴾ أى مستقر عليهم ﴿ لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ﴾ بمن يعتد بلعنهم وهذا بيان لدوامها الثبوتى بعد بيان دوامها التجددى وقيل الأول لعنتهم أحياء وهذا لعنتهم أمواتا وقرىء والملائكة والناس أجمعون عطفًا على محل اسم الله لأنه فاعل فى المعنى كقولك أعجبنى ضرب زيد وعمر وتريد من أن ضرب زيد وعمر وكأنه قيل أولئك عليهم أن لعنهم الله والملائكة الخ وقيل هو فاعل لفعل مقدر أى ويلعنهم الملائكة ﴿ خالدين فيها ﴾ أى فى اللعنة أو فى النار على أنها أضمرت من غير ذكر تفخيما لشأنها وتهويلا لأمرها ﴿ لا يخفف عنهم العذاب ﴾ إما مستأنف لبيان كثرة عذابهم من حيث الكيف إثر بيان كثرتة من حيث الكم أو حال من الضمير فى خالدين على وجه التداخل أو من الضمير فى عليهم على طريقة الترادف ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ عطف على ما قبله جارفيه وإثارة الجملة الاسمية لإفادة دوام النفي واستمراره أى لا يمهلون ولا يؤجلون أو لا ينتظرون ليعتذروا أو لا ينظر إليهم نظر رحمة ﴿ وإلهكم ﴾ خطاب عام لكافة الناس أى المستحق منكم للعبادة ﴿ إله واحد ﴾ أى فرد فى الإلهية لاصحة للتسمية غيره إلهًا أصلاً ﴿ لا إله إلا هو ﴾ خبر ثان للمبتدأ أو صفة أخرى للخبر أو اعتراض وأياً ما كان فهو مقرر للوحدانية ومزيج لما عسى أن يتوهم أن فى الوجود إلهًا لكن لا يستحق العبادة ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ خبران آخران للمبتدأ أو لمبتدأ محذوف وهو تقرير للتوحيد فإنه تعالى حيث كان موليا لجميع النعم أصولها وفروعها جليلها ودقيقها وكان ماسواه كائنًا ما كان مفتقرا إليه فى وجوده وما يتفرع عليه من كالاته تحققت وحدانيته بلا ريب وانحصر استحقاق العبادة فيه تعالى قطعاً قيل كان للمشركين حول الكعبة المكربة ثلاثمائة وستون صنفا فلما سمعوا هذه الآية تعجبوا وقالوا إن كنت صادقاً فأت بآية نعرف بها صدقك فنزلت ﴿ إن فى خلق السموات والأرض ﴾ أى فى إبداعهما على ما هما عليه مع ما فيهما من تعاجيب العبر وبدائع صنائع يعجز عن فهمها عقول البشر وجمع السموات.

لما هو المشهور من أنها طبقات متخالفة الحقائق دون الأرض ﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ أى اعتقابهما وكون كل منهما خلفاً للآخر كقوله تعالى (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفاً) أو اختلاف كل منهما فى أنفسهما ازديادا وانتقاصا على ما قدره الله تعالى ﴿ والفلك التى تجرى فى البحر ﴾ عطف على ما قبله وتأنيته إما بتأويل السفينة أو بأنه جمع فإن ضمة الجمع مغايرة لضمة الواحد فى التقدير إذ الأولى كما فى حمر والثانية كما فى قفل وقرىء بضم اللام ﴿ بما ينفع الناس ﴾ أى ملتبسة بالذى ينفعهم مما يحمل فيها من أنواع المنافع أو بنفعهم ﴿ وما أنزل الله من السماء من ماء ﴾ عطف على الفلك وتأخيره عن ذكرها مع كونه أعم منها نفعا لما فيه من مزيد تفصيل وقيل المقصود الاستدلال بالبحر وأحواله وتخصيص الفلك بالذكر لأنه سبب الخوض فيه والاطلاع على عجائبه ولذلك قدم على ذكر المطر والسحاب لأن مذهبهما البحر فى غالب الأمر ومن الأولى ابتدائية والثانية بيانية أو تبعيضية وأياما كان فتأخيرها لما مر مرارا من التمشويق والمراد بالسما الفلك أو السحاب أو جهة العلو ﴿ فأحيى به الأرض ﴾ بأنواع النبات والأزهار وما عليها من الأشجار ﴿ بعد موتها ﴾ باستيلاء السيوسه عليها حسبما تقتضيه طبيعتها كما يوزن به لإيراد الموت فى مقابلة الإحياء ﴿ وبث فيها ﴾ أى فرق ونشر ﴿ من كل دابة ﴾ من العقلاء وغيرهم والجملة معطوفة على أنزل داخله تحت حكم الصلة وقوله تعالى فأحيى النخ متصل بالمعطوف عليه بحيث كانا فى حكم شيء واحد كأنه قيل وما أنزل فى الأرض من ماء وبث فيها النخ أو على أحياء بحذف الجار والمجرور العائد إلى الموصول وإن لم تتحقق الشرائط المعهودة كما فى قوله :

وإن لسانى شهدة بشتفى بها ولسكن على من صبه الله علقم

أى علقم عليه وقوله :

لعل الذى أصعدتنى أن يردنى إلى الأرض إن لم يقدر الخير قادره

على معنى فأحيى بالماء الأرض وبث فيها من كل دابة فإنهم ينمون

بالخشب ويعيشون بالحيا ﴿ وتصريف الرياح ﴾ عطف على ما أنزل أى
تقليها من مقاب إلى آخر أو من حال إلى أخرى وقرىء على الإفراد
﴿ والسحاب ﴾ عطف على تصريف أو الرياح وهو اسم جنس واحده
سحابة سمي بذلك لانسحابه فى الجو ﴿ المسخر بين السماء والأرض ﴾ صفة
للسحاب باعتبار لفظه وقد يعتبر معناه فيوصف بالجمع كما فى قوله تعالى سحابا
تقالا وتسخيره تقليبه فى الجو بواسطة الرياح حسبما تقتضيه مشيئة الله تعالى
ولعل تأخير تصريف الرياح وتسخير السحاب فى الذكر عن جريان الفلك
وإنزال الماء مع انعكاس الترتيب الخارجى لما مر فى قصة البقرة من الإشعار
باستقلال كل من الأمور المعدودة فى كونها آية ولو روعى الترتيب الخارجى
لربما توهم كون المجموع المترتب بعضه على بعض آية واحدة ﴿ لايات ﴾ اسم
لأن دخلته اللام لتأخره عن خبرها والتنكير للتفخيم كما وكيفا أى آيات عظيمة
كثيرة دالة على القدرة القاهرة والحكمة الباهرة والرحمة الواسعة المقتضية
لاختصاص الألوهية به سبحانه ﴿ لقوم يعقلون ﴾ أى يتفكرون فيها
وينظرون إليها بعيون العقول وفيه تعريض بجهل المشركين الذين اقترحوا على
النبي صلى الله عليه وسلم آية تصدقه فى قوله تعالى ﴿ والهمكم إله واحد ﴾ وتسجيل
عليهم بسخافة العقول وإلا فن تأمل فى تلك الآيات وجد كلا منها ناطقة
بوجوده تعالى ووحدانيته وسائر صفاته الكمالية الموجبة لتخصيص العبادة به
تعالى واستغنى بها عن سائرهما فإن كل واحد من الأمور المعدودة قد وجد على
وجه خاص من الوجوه الممكنة دون ما عداه مستتبعا لآثار معينة وأحكام
مخصوصة من غير أن تقتضى ذاته وجوده فضلا عن وجوده على نمط معين
مستتبع لحكم مستقل فإذا ن لا بد له حتما من موجد قادر حكيم يوجد حسبما
تقتضيه حكمته وتستدعيه مشيئته متعال عن معارضة الغير إذ لو كان معه آخر
يقدر على ما يقدر عليه لزم إما اجتماع المؤثرين على أثر واحد أو التانع
المؤدى إلى فساد العالم ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله ﴾ بيان لكمال
ركا كآراء المشركين لإثر تقرير وحدانيته سبحانه وتحرير الآيات الباهرة

الملمجة للعقلاء إلى الاعتراف بها الفائضة باستحالة أن يشاركه شيء من الموجودات في صفة من صفات الكمال فضلا عن المشاركة في صفات الألوهية والكلام في إعرابه كما فصل في قوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر) الخ ومن دون الله متعلق يتخذ أى من الناس من يتخذ من دون ذلك الإله الواحد الذى ذكرت شئونه الجليلة وإيثار الإسم الجليل لتعيينه تعالى بالذات غب تعيينه بالصفات ﴿أندادا﴾ أى أمثالا وهم رؤسائهم الذين يتبعونهم فيما يأتون وما يذرون لاسيما فى الأوامر والنواهي كما يفصح عنه ما سيأتى من وصفهم بالتبرى من المتبعين وقيل هى الأصنام وإرجاع ضمير العقلاء إليها فى قوله عز و علا ﴿يحبونهم﴾ مبنى على آرائهم الباطلة فى شأنها وصفهم بما لا يوصف به إلا العقلاء والمحبة ميل القلب من الحب استعير لحنة القلب ثم اشتق منه الحب لأنه أصابها ورسخ فيها والفعل منها حب على حدمد لكن الاستعمال المستفيض على أحب حبا ومحبة فهو محب وذلك محبوب ومحب قليل وحاب أقل منه ومحبة العبد لله سبحانه إرادة طاعته فى أوامره ونواهيه والاعتناء بتحصيل مرضيه فعنى يحبونهم يطيعونهم ويعظمونهم والجملة فى حيز النصب إما صفة لأندادا أو حالا من فاعل يتخذ وجمع الضمير باعتبار معنى من كما أن إفراده باعتبار لفظها ﴿حُب الله﴾ مصدر تشبيهى أو نعت لمصدر مؤكد للفعل السابق ومن قضية كونه مبنيا للفاعل كونه أيضا كذلك والظاهر اتحاد فاعلها فإنهم كانوا يقررون به تعالى أيضا ويتقربون إليه فالمعنى حبا كأننا كحبهم لله تعالى أى يسوون بينه تعالى وبينهم فى الطاعة والتعظيم وقيل فاعل الحب المذكورهم المؤمنون فالمعنى حقا كأننا كحُب المؤمنين له تعالى فلا بد من اعتبار المشابهة بينهما فى أصل الحب لا فى وصفه كما أوكيفا لما سيأتى من التفاوت البين وقيل هو مصدر من المبنى للمفعول أى كما يجب الله تعالى ويعظم وإنما استغنى عن ذكر من يحبه لأنه غير ملبس وأنت خير بأنه لا مشابهة بين محبتهم لأندادهم وبين محبته تعالى فالمصير حينئذ ما أسلفناه فى تفسير قوله عز قائلًا (كما سئل موسى من قبل

وإظهار الاسم الجليل في مقام الإضمار لتربية المهابة وتفخيم المضاف وإبانة كمال قببح ما ارتكبوه .

﴿ والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ جملة مبتدأة جرىء بها توطئة لما يعقبها من بيان رخاوة حبيبهم وكونه حسرة عليهم والمفضل عليه محذوف أى المؤمنون أشد حبا له تعالى منهم لأناداهم وما له أن حب أولئك له تعالى أشد من حب هؤلاء لأناداهم فيه من الدلالة على كون الحب مصدرا من المبنى للفاعل ما لا يخفى وإنما لم يجعل المفضل عليه حبيبهم لله تعالى لما أن المقصود بيان انقطاعه وانقلابه بغضا وذلك إنما يتصور فى حبيبهم لأناداهم لسكونه منوطا بمبان فاسدة ومباد موهومة يزول بزوالها، قيل ولذلك كانوا يعدلون عنها عند الشدائد إلى الله سبحانه وكانوا يعبدون صنما أياما فإذا وجدوا آخر رفضوه إليه وقد أكلت باهلة إلهها عام المجاعة وكان من حيس وأنت خير بأن مدار ذلك اعتبار اختلال حبيبهم لها فى الدنيا وليس الكلام فيه بل فى انقطاعه فى الآخرة عند ظهور حقيقة الحال ومعاينة الأهوال كما سيأتى بل اعتباره مخل بما يقتضيه مقام المبالغة فى بيان كمال قببح ما ارتكبوه وغاية عظم ما اقترفوه وإيثار الإظهار فى موضع الإضمار لتفخيم الحب والإشعار بعلته ﴿ ولو يرى الذين ظلموا ﴾ أى باتخاذ الأنداد ووضعها موضع المعبود ﴿ إذ يرون العذاب ﴾ المعد لهم يوم القيامة أى لو علموا إذا عاينوه وإنما أوثر صيغة المستقبل لجرىانها مجرى الماضى فى الدلالة على التحقيق فى أخبار علام الغيوب ﴿ أن القوة لله جميعا ﴾ ساد مسد مفعولى يرى ﴿ وأن الله شديد العذاب ﴾ عطف عليه وفائدته المبالغة فى تهويل الخطب وتفطيع الأمر فإن اختصاص القوة به تعالى لا يوجب شدة العذاب لجواز تركه عفوا مع القدرة عليه وجواب لو محذوف للإيدان بخروجه عن دائرة البيان إما لعدم الإحاطة بكنهه وإما لضيق العبارة عنه وإما لإيجاب ذكره ما لا يستطيعه المعبر أو المستمع من الضجر والتفجع عليه أى لو علموا إذ رأوا العذاب قد حل بهم ولم ينقذهم منه أحد من أناداهم أن القوة لله جميعا ولا دخل لأحد فى شىء أصلا لوقعوا من الحسرة والندم فيما لا يكاد

يوصف وقرىء. ولو ترى بالتاء الفوقانية على أن الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب فالجواب حيثما رأيت أمراً لا يوصف من الهول والفظاعة وقرىء إذ يرون على البناء للمفعول وأن الله شديد العذاب على الاستمئاف وإضمار القول ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا ﴾ بدل من إذ يرون أى إذ تبرأ الرؤساء ﴿ من الذين اتبعوا ﴾ من الأتباع بأن اعترفوا بيطان ما كانوا يدعونهم فى الدنيا ويدعونهم إليه من فنون الكفر والضلال واعتزلوا عن مخالطتهم وقابلوهم باللعن كقول إبليس: إني كفرت بما أشركتمونى من قيل وقرىء بالعكس أى تبرأ الأتباع من الرؤساء والواو فى قوله عز وجل ﴿ ورأوا العذاب ﴾ حالية وقد مضى وقيل عاطفة على تبرأ والضمير فى رأوا للموصوفين جميعاً ﴿ وتقطعت بهم الأسباب ﴾ والوصل التى كانت بينهم من التبعية والمتبوعية والاتفاق على الملة الزائغة والأغراض الداعية إلى ذلك وأصل السبب الحبل الذى يرتقى به الشجر ونحوه والجملة معطوفة على تبرأ وتوسيط الحال بينهما للتنبيه على علة التبرى وقد جوز عطفها على الجملة الحالية ﴿ وقال الذين اتبعوا ﴾ حين عاينوا تبرؤ الرؤساء منهم وندموا على ما فعلوا من اتباعهم لهم فى الدنيا ﴿ لو أن لنا كرة ﴾ أى ليت لنا رجعة إلى الدنيا ﴿ فنتبرأ منهم ﴾ هناك ﴿ كما تبرؤا منا ﴾ اليوم ﴿ كذلك ﴾ إشارة إلى مصدر الفعل الذى بعده لا إلى شىء آخر مفهوم مما سبق وما فيه من معنى البعد للإيدان بعلو درجة المشار إليه وبعد منزلته مع كمال تميزه عما عداه وانتظامه فى سلك الأمور المشاهدة والسكاف مقهمة لنا كيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة ومحلها النصب على المصدرية أى ذلك الإراء الفظيخ ﴿ يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ﴾ أى ندامات شديدة فإن الحسرة شدة الندم والكمد وهى تألم القلب وانحساره عما يؤلمه واشتقاقه من قولهم بعير حسير أى منقطع القوة وهى ثالث مفاعيل يرى إن كان من رؤية القلب وإلا فهى حال والمعنى أن أعمالهم تنقلب حسرات عليهم فلا يرون إلا حسرات مكان أعمالهم ﴿ وما هم بخارجين من النار ﴾ كلام مستأنف لبيان حالهم بعد دخولهم النار والأصل وما يخرجون والعدول إلى الاسمية

لإفادة دوام نفي الخروج والضمير للدلالة على قوة أمرهم فيما أسند إليهم كما في قوله :

هم يفرشون اللبد كل طمره وأجرد سباق يئذ المغالبا
﴿ يا أيها الناس كلوا مما في الأرض ﴾ أى بعض ما فيها من أصناف
المأكولات التى من جملتها ما حرمتوه افتراء على الله من الحرث والأنعام قال
ابن عباس رضى الله عنهما نزلت في قوم من ثقيف وبني عامر بن صعصعة
وخزاعة وبني مدلج حرموا على أنفسهم ما حرموا من الحرث والبجائر
والسوانب والوصائل والحام وقوله تعالى ﴿ حلالا ﴾ حال من الموصول أى
كلوه حال كونه حلالا أو مفعول لكلوا على أن من ابتدائية وقد جوز كونه
صفة لمصدر مؤكد أى أكل حلالا ويؤيد الأولين قوله تعالى ﴿ طيبا ﴾ فإنه
صفة له ووصف الأكل به غير معتاد وقيل نزلت في قوم من المؤمنين حرموا
على أنفسهم رفيع الأطعمة والملابس ويرده قوله عز وجل ﴿ ولا تتبعوا خطوات
الشیطان ﴾ أى لا تقتدوا بها في اتباع الهوى فإنه صريح في أن الخطاب للكفرة.
كيف لا وتحريم الحلال على نفسه تزهيدا ليس من باب اتباع خطوات الشيطان.
فضلا عن كونه تقولا وافتراء على الله تعالى وإنما الذى نزل فهم ما في سورة
المائدة من قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم)
الآية وقرىء خطوات بسكون الطاء وهما لغتان في جمع خطوة وهى ما بين
قدمى الخاطى وقرىء بضميتين وهمزة جعلت الضمة على الطاء كأنها على الواو
وبفتحتين على أنها جمع خطوة وهى المرة من الخطو ﴿ لأنه لكم عدو مبين ﴾
تعليل للنهى أى ظاهر العداوة عند ذوى البصيرة وإن كان يظهر الولاية لمن
يغويه ولذلك سمى وليا فى قوله تعالى (أولياؤهم الطاغوت) ﴿ إنما يأمركم بالسوء
والفحشاء ﴾ استئناف لبيان كيفية عداوته وتفصيل لفنون شره وإفساده
وانحصار معاملته معهم فى ذلك والسوء فى الأصل مصدر ساءه يسوؤه سوءا
ومساءة إذا أحزنه يطلق على جميع المعاصى سواء كانت من أعمال الجوارح أو
أفعال القلوب لاشتراك كلها فى أنها تسوء صاحبها والفحشاء أقبح أنواعها

وأعظمها مساواة ﴿ وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ عطف على الفحشاء أى وبأن تفتروا على الله بأنه حرم هذا وذلك ، ومعنى ما لا تعلمون أن الله تعالى أمر به وتعليق أمره بتقوهم على الله تعالى ما لا يعلمون وقوعه منه تعالى لا بتقوهم عليه ما يعلمون عدم وقوعه منه تعالى مع أن حالهم ذلك للبالغة فى الزجر فإن التحذير من الأول مع كونه فى القبح والشناعة دون الثانى تحذير عن الثانى على أبلغ وجه وآكده وللإيدان بأن العاقل يجب عليه ألا يقول على الله تعالى ما لا يعلم وقوعه منه تعالى مع الاحتمال فضلا عن أن يقول عليه ما يعلم عدم وقوعه منه تعالى ، قالوا وفيه دليل على المنع من اتباع الظن رأسا وأما اتباع المجتهد لما أدى إليه ظننه فستند إلى مدرك شرعى فوجوبه قطعى والظن فى طريقه ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ﴾ التفات إلى الغيبة تسجيلا بكامل ضلالهم وإيدانا بإيجاب تعداد ما ذكر من جنائياتهم لصرف العذاب عنهم وتوجيهه إلى العقلاء وتفصيل مساوى أحوالهم لهم على نهج المباعدة أى إذا قيل لهم على وجه النصيحة والإرشاد اتبعوا كتاب الله الذى أنزله ﴿ قالوا ﴾ لا نتبعه ﴿ بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ﴾ أى وجدناهم عليه إما على أن الظرف متعلق بمحذوف وقع حالا من آباءنا وألفينا متعد إلى واحد وإما على أنه مفعول ثان له مقدم على الأول نزلت فى المشركين أمروا باتباع القرآن وسائر ما أنزل الله تعالى من الحجج الظاهرة والبيئات الباهرة فجنحوا للتقليد والموصول إما عبارة عما سبق من اتخاذ الأنداد وتحريم الطيبات ونحو ذلك وإما باق على عمومه وما ذكر داخل فيه دخولا أوليا وقيل نزلت فى طائفة من اليهود دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فقالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا لأنهم كانوا خير أمنا وأعلم فعلى هذا يعم ما أنزل الله تعالى التوراة لأنها أيضا تدعو إلى الإسلام وقوله عز وجل ﴿ أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾ استئناف مسوق من جهته تعالى رداً لمقاتلهم الحمقاء وإظهار البطلان آرائهم والهزيمة لإنكار الواقع واستقبحه والتعجب منه لا لإنكار الوقوع كالتى فى قوله تعالى (أولو كنا كارهين) وكلمة لو فى أمثال هذا المقام ليست لبيان

انتفاء الشيء في الزمان الماضي لا انتفاء غيره فيه فلا يلاحظ لها جواب قد حذف ثقة بدلالة ما قبلها عليه بل هي لبيان تحقق ما يفيد الكلام السابق بالذات أو بالواسطة من الحكم الموجب أو المنفي على كل حال مفروض من الأحوال المقارنة له على الإجمال بإدخالها على أبعدها منه وأشدها منافاة له ليظهر بثبوته أو انتفائه معه ثبوته أو انتفائه مع ما عداه من الأحوال بطريق الأولوية لما أن الشيء متى تحقق مع المنافي القوي فلأن يتحقق مع غيره أولى ولذلك لا يذكر معه شيء من سائر الأحوال ويكتفى عنه بذكر الواو العاطفة للجملته على نظيرتها المقابلة لها المتناولة لجميع الأحوال المغايرة لها وهذا معنى قولهم إنها لاستقصاء الأحوال على سبيل الإجمال وهذا المعنى ظاهر في الخبر الموجب والمنفي والأمر والنهي كما في قولك فلان جواد يعطى ولو كان فقيرا وبخيل لا يعطى ولو كان غنيا وقولك أحسن إليه ولو أساء إليك ولا تهنه ولو أهانك لبقائه على حاله وأما فيما نحن فيه ففيه نوع خفاء ناشئ من ورود الإنكار عليه لكن الأصل في الكل واحد إلا أن كلمة لو في الصور المذكورة متعلقة بنفس الفعل المذكور قبلها وأن ما يقصد بيان تحققه على كل حال هو نفس مدلوله وأن الجملة حال من ضميره أو بما يتعلق به وأن ما في حين لو باق على ما هو عليه من الاستبعاد غالبا بخلاف ما نحن فيه لما أن كلمة لو متعلقة فيه بفعل مقدر يقتضيه المذكور وأن ما يقصد بيان تحققه على كل حال مدلوله لا مدلول المذكور من حيث هو مدلوله وأن الجملة حال مما يتعلق به لا بما يتعلق بالمذكور من حيث هو متعلق به وأن المقصود الأصلي لإنكار مدلوله باعتبار مقارنته للحالة المذكورة وإما تقدير المقارنته لغيرها فلتوسيع الدائرة وأن ما في حين لولا يقصد استبعاده في نفسه بل يقصد الإشعار بأنه أمر محقق إلا أنه أخرج منخرج الاستبعاد معاملة مع المخاطبين على معتقدهم لئلا يلبسوا من التصريح بنسبه آبائهم إلى كمال الجهالة والضلالة جلد النمر فيركبوا متن العناد ومبالغة في الإنكار من جهة اتباعهم لأبائهم حيث كان منكرا مستقيحا عند احتمال كون آبائهم كما ذكر احتمالا بعيدا فلأن يكون منكرا عند تحقق ذلك

أولى والتقدير أيتبعون ذلك لو لم يكن آباؤهم لا يعقلون شيئاً من الدين ولا يهتدون للصواب ولو كانوا كذلك فالجملة في حيز النصب على الحالية من آباؤهم على طريقة قوله تعالى (أن أتبع ملة إبراهيم حنيفاً) كأنه قيل أيتبعون دين آباؤهم حال كونهم غافلين وجاهلين ضالين إنكاراً لما أفاده كلامهم من الاتباع على أى حالة كانت من الحالتين غير أنه اكتفى بذكر الحالة الثانية تنبيهاً على أنها هى الواقعة في نفس الأمر وتعويلاً على اقتضاها للحالة الأولى اقتضاء بينا فإن اتباعهم الذى تعلق به الإنكار حيث تحقق مع كون آباؤهم جاهلين ضالين فلأن يتحقق مع كونهم عاقلين ومهتدين أولى إن قلت الإنكار المستفاد من الاستفهام الإنكارى بمنزلة النفى ولا ريب في أن الأولوية في صورة النفى معتبرة بالنسبة إلى النفى ألا يرى أن الأولى بالتحقق فيما ذكر من مثال النفى عند الحالة المسكوت عنها أعنى عدم الغنى هو عدم الإعطاء لا نفسه فكان ينبغى أن يكون الأولى بالتحقق فيما نحن فيه عند الحالة المسكوت عنها وهى حالة كون آباؤهم عاقلين ومهتدين إنكار الاتباع لا نفسه إذ هو الذى يدل عليه أيتبعون إلخ فلم اختلفت الحال بينهما قلت لما أن مناط الأولوية هو الحكم الذى أريد بيان تحققه على كل حال وذلك في مثال النفى عدم الإعطاء المستفاد من الفعل المنفى المذكور وأم فيما نحن فيه فهو نفس الاتباع المستفاد من الفعل المقدر إذ هو الذى يقتضيه الكلام السابق أعنى قوظم بل تتبع إلخ وأما الاستفهام فخارج عنه وارد عليه لإنكار ما يفيدده واستقباح ما يقتضيه لا أنه من تمامه كما في صورة النفى وكذا الحال فيما إذا كانت الهمزة لإنكار الوقوع ونفيه مع كونه بمنزلة صريح النفى كما سيأتى تحقيقه في قوله تعالى (أرلو كنا كارهين) وقيل الواو الحالية ولكن التحقيق أن المعنى يدور على معنى العطف في سائر اللغات أيضاً ومثل الذين كفروا جملة ابتدائية واردة لتقرير ما قبلها بطريق التصوير وفيها مضاف قد حذف لدلالة مثل عليه ووضع الموصول موضع الراجع إلى ما ترجع إليه الضمائر السابقة لدمهم بما في حيز الصلة والإشعار بعلته ما أثبت لهم من الحكم والتقدير مثل ذلك القائل وحاله الحقيقة لغرابتها بأن تسمى مثلاً وتسير في

الآفاق فيما ذكر من دعوته إياهم إلى إتباع الحق وعدم رفعهم إليه رأساً لانهما كهم في التقليد وإخلاصهم إلى ما هم عليه من الضلال وعدم فهمهم من جهة الداعى إلى الدعاء من غير أن يلقوا أذهانهم إلى ما يلقى عليهم ﴿ كمثل الذى ينطق بما لا يسمع الإدعاء ونداء ﴾ من البهائم فإنها لا تسمع إلا صوت الراعى. وهتفه بها من غير فهم لكلامه أصلاً وقيل إنما حذف المضاف من الموصول الثانى لدلالة كلمة ما عليه فإنها عبارة عنه مشعرة مع ما فى حيز الصلة بما هو مدار التمثيل أى مثل الذين كفروا فيما ذكر من إنهما كهم فيما هم فيه وعدم التدبر فيما ألقى إليهم من الآيات كمثل بهائم الذى ينطق بها وهى لا تسمع منه إلا جرس النغمة ودوى الصوت وقيل المراد تمثيلهم فى دعائهم الأصنام بالناعق فى نطقه. وهو تصويته على البهائم وهذا غنى عن الإضمار لكن لا يساعده قوله إلا دعاء ونداء فإن الأصنام بمعزل من ذلك وقد عرفت أن حسن التمثيل فيما تشابه أفراد الطرفين ﴿ صم بكم عمى ﴾ بالرفع على الزم أهم صم ألمخ ﴿ فهم لا يعقلون ﴾ شيئاً لأن طريق التعقل هو التدبر فى مبادئ الأمور المعقولة والتأمل فى ترتيبها وذلك إنما يحصل باستماع آيات الله ومشاهدة حججه الواضحة والمفاوضة مع من يؤخذ منه العلوم فإذا كانوا صمياً بكما عمياً فقد انسدت عليهم أبواب التعقل وطرق الفهم بالكافية ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ أى مستلذاته ﴿ واشكروا لله ﴾ الذى رزقكموها والالتفات لتربية المهابة ﴿ إن كنتم إياه تعبدون ﴾ فإن عبادته تعالى لا تتم إلا بالشكر له وعن النبي صلى الله عليه وسلم: يقول الله عز وجل لئن والانس والجن فى نبال عظيم أخلق ويعبد غيرى وأرزق ويشكر غيرى ، ﴿ إنما حرم عليكم الميتة ﴾ أى أكلها والانتفاع بها وهى التى ماتت على غير ذكاة والسمك والجراد خارجان عنها بالعرف أو باستثناء الشرع خروج الطحال من الدم ﴿ والدم ولحم الخنزير ﴾ إنما خص لحمه مع أن سائر أجزائه أيضاً فى حكمه لأنه معظم ما يؤكل من الحيوان وسائر أجزائه بمنزلة التابع له ﴿ وما أهل به لغير الله ﴾ أى رفع به الصوت عند ذبحه للصنم والإهلال أصله رؤية الهلال لكن لما جرت العادة برفع الصوت بالتكبير

عندها سمي ذلك إهلالاً ثم قيل لرفع الصوت وإن كان لغيره ﴿فمن اضطر غير باغ﴾ بالاستئثار على مضطر آخر ﴿ولا عاد﴾ سد الرmq والجوعه وقيل غير باغ على الوالى ولا عاد بقطع الطريق وعلى هذا لا يباح للعاصى بالسفر وهو ظاهر مذهب الشافعى وقول أحد رحمهما الله ﴿فلا إثم عليه﴾ فى تناوله ﴿إن الله غفور رحيم﴾ بالرخصة إن قيل كلمة إنما تفيد قصر الحكم على ما ذكرتم من حرام لم يذكر قلنا المراد قصر الحرمة على ما ذكر بما استحلوه لا مطلقاً أو قصر حرمة على حالة الاختيار كأنه قيل إنما حرم عليكم هذه الأشياء ما لم تضطروا إليها .

﴿إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب﴾ المشتمل على فنون الأحكام التى من جملتها أحكام المحللات والمحرمات حسبها ذكر آنفا وقال ابن عباس الله عنهما نزلت فى رؤساء اليهود حين كتموا نعت النبى صلى الله عليه وسلم ﴿ويشترون به﴾ أى يأخذون بدله ﴿ثمنا قليلا﴾ عوضاً حقيراً وقد مر سر التعبير عن ذلك بالثمن الذى هو وسيلة فى عقود المعاوضة وقوله تعالى ﴿أولئك﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة من الوصفين الشنيعين المميزين لهم عن عداهم أكمل تمييز الجامعين إياهم بحيث كأنهم حضار مشاهدون على ما هم عليه وما فيه من معنى البعد للإيدان بغاية بعد منزلتهم فى الشر والفساد وهو مبتدأ خبره قوله تعالى : ﴿ما يأكلون فى بطونهم إلا النار﴾ والجملة خبر لأن أو اسم الإشارة مبتدأ ثان أو بدل من الأول والخبر ما يأكلون الخ ومعنى أكلهم النار أنهم يأكلون فى الخال ما يستتبع النار ويستلزمها فكأنه عين النار وأكله أكلها كقوله :

أكلت دما إن لم أركع بضرة بعيدة مهوى القرط طيبة النثر

أو يأكلون فى المآل يوم القيامة عين النار عقوبة على أكلهم الرشا فى الدنيا وفى بطونهم متعلق بياكلون وفائدته تأكيد الأكل وتقريره ببيان مقر

المأكول وقيل معناه ملء بطونهم كما في قولهم أكل في بطنه وأكل في بعض بطنه ومنه كلوا في بعض بطنكم تعفوا فلا بد من الالتجاء إلى تعليقه بمحذوف وقع حالا مقدره من النار مع تقديمه على حرف الاستثناء والافتعالية يباكلون يؤدي إلى قصر ما ياكلونه إلى الشبع على النار والمقصود قصر ما ياكلونه مطلقا عليها ﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة﴾ عبارة عن غضبه العظيم عليهم وتمريض بحرمانهم ما أتيح للمؤمنين من فنون السكرات السنية والزلفى ﴿ولا يزكهم﴾ لا يثنى عليهم ﴿ولهم﴾ مع ما ذكر ﴿عذاب أليم﴾ مؤلم ﴿أولئك﴾ إشارة إلى ما أشير إليه بنظيره بالاعتبار المذكور خاصة لا مع ما يتلوه من أحوالهم الفظيعة إذ لا دخل لها في الحكم الذي يراد إثباته وهنا فإن المقصود تصوير ما باشروه من المعاملة بصورة قبيحة تنفر منها الطباع ولا يتماطأها عاقل أصلا ببيان حقيقة ما نبذوه وإظهار كنه ما أخذوه وإبداء فظاعة تبعاته وهو مبتدأ خبره الموصول أى أولئك المشترون بكتاب الله عز وجل ثمنا قليلا ليسوا بمشترين للثمن وإن قل بل هم ﴿الذين اشتروا﴾ بالنسبة إلى الدنيا ﴿الضلالة﴾ التى ليست بما يمكن أن يشتري قطعا ﴿بالهدى﴾ الذى ليس من قبيل ما يبذل بمقابلة شيء وإن جل ﴿والعذاب﴾ أى اشتروا بالنظر إلى الآخرة العذاب الذى لا يتوهم كونه مما يشتري ﴿بالمغفرة﴾ التى يتنافس فيها المتنافسون ﴿فما أصبرهم على النار﴾ تعجيب من حالهم الهائلة التى هى ملاستهم بما يوجب النار لإيجابا قطعيا كأنه عينها وما عند سيبوية نكرة تامة مفيدة لمعنى التعجيب مرفوعة بالابتداء وتخصيصها كتخصص شرفى «شر أهر ذاناب» خبرها ما بعدها أى شيء ما عظيم جعلهم صابرين على النار وعند الفراء استفهامية وما بعدها خبرها أى شيء أصبرهم على النار وقيل هى موصولة وقيل موصوفة بما بعدها والخبر محذوف أى الذى أصبرهم على النار أو شيء أصبرهم على النار أمر فظيع ﴿ذلك﴾ العذاب ﴿بأن الله نزل الكتاب﴾ أى جنس الكتاب ﴿بالحق﴾ أى ملتبسا به فلا جرم أن يكون من يرضه بالتكذيب والسكران ويركب متن الجهل والغواية مبتلى بمثل هذا من أفانين العذاب ﴿وأن

الذين اختلفوا في الكتاب ﴿ أى فى جنس الكتاب الإلهى بأن آمنوا ببعض كتب الله تعالى وكفروا ببعضها أو اختلفوا فى التوراة بأن آمنوا ببعض آياتها وكفروا ببعض كآيات المغيرة المشتملة على أمر بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ونعوته الكريمة فمعنى الاختلاف التخلّف عن الطريق الحق أو الاختلاف فى تأويلها أو فى القرآن بأن قال بعضهم أنه سحر وبعضهم أنه شعر وبعضهم أساطير الأولين كما حكى عن المفسرين ﴿ لى شقاق بعيد ﴾ عن الحق والصواب مستوجب لأشد العذاب ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ﴾ البر اسم جامع لمراضى الخصال والخطاب لأهل الكتابين فإنهم كانوا أكثروا الخوض فى أمر القبلة حين حولت إلى السكبة وكان كل فريق يدعى خيرية التوجه إلى قبلته من القطرين المذكورين وتقديم المشرق على المغرب مع تأخر زمان الملة النصرانية إما لرعاية ما بينهما من الترتيب المتفرع على ترتيب الشروق والغروب وإما لأن توجه اليهود إلى المغرب ليس لكونه مغرباً بل لكون بيت المقدس من المدينة المنورة واقعا فى جانب فقيل لهم ليس البر ما ذكرتم من التوجه إلى تينك الجهتين على أن البر خير ليس مقدما على اسمها كما فى قوله :

سلى إن جهلت الناس عنى وعنهم فليس سواء عالم وجهول
وقوله :

أليس عظيما أن تلم ملبّة وليس علينا فى الخطوب مقول

ولمّا أخرج ذلك لما أن المصدر المؤول أعرف من المحلى باللام لأنه يشبه الضمير من حيث أنه لا يوصف ولا يوصف به والأعرف أحق بالاسمية ولأن فى الاسم طولا فلو روعى الترتيب المعهود لفات تجاوب أطراف النظم الكريم وقرىء برفع البر على أنه اسمها وهو أقوى بحسب المعنى لأن كل فريق يدعى أن البر هذا فيجب أن يكون الرد موافقا لدعواهم وما ذلك إلا بكون
(٢٠ - أبو السمود - أول)

البر اسما كما يفصح عنه جعله مخبرا عنه في الاستدراك بقوله عز وجل :
﴿ ولكن البر من آمن بالله ﴾ وهو تحقيق للحق بعد بيان الباطل وتفصيل
لخصال البر بما لا يختلف باختلاف الشرائع وما يختلف باختلافها أى ولكن
البر المعبود الذى يحق أن يهتم بشأنه ويجد في تحصيله بر من آمن بالله وسخده
إيمانا بريئا من شائبة الإشرار لا كإيمان اليهود والنصارى المشركين بقولهم
عزير ابن الله وقولهم المسيح ابن الله ﴿ واليوم الآخر ﴾ أى على ما هو عليه
لا كما يزعمون من أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات وأن آباءهم الأنبياء
يشفعون لهم ففيه تعريض بأن إيمان أهل الكتابين حيث لم يكن كما ذكر
من الوجه الصحيح لم يكن إيمانا وفى تعليق البر بهما من أول الأمر عقيب نفيه
عن التوجه إلى المشرق والمغرب من الجزالة ما لا يخفى كأنه قيل ولكن البر
هو التوجه إلى المبدأ والمعاد اللذين هما المشرق والمغرب في الحقيقة ﴿ والملائكة ﴾
أى وآمن بهم وبأنهم عباد مكرمون متوسطون بينه تعالى وبين أنبيائه بالقاء
الوحي وإنزال الكتب ﴿ والكتاب ﴾ أى بجنس الكتاب الذى من أفراده
الفرقان الذى نبذوه وراء ظهورهم وفيه تعريض بكتابتهم نعوت النبي صلى الله
عليه وسلم واشترائهم بما أنزل الله تعالى ثمنا قليلا ﴿ والنبيين ﴾ جميعا من غير
تفرقة بين أحد منهم كما فعل أهل الكتابين ووجه توسيط الكتاب بين حملة
الوحي وبين النبيين واضح وسيأتى في قوله تعالى (كل آمن بالله وملائكته
وكتبه ورسله) ﴿ وآتى المال على حبه ﴾ حال من الضمير فى آتى والضمير
المجروح راجع للمال أى آتاه كائنا على حب المال كما فى قوله صلى الله عليه
وسلم حين سئل : أى الصدقة أفضل ؟ د أن تؤتبه وأنت صحيح صحيح ، وقول
ابن مسعود رضى الله عنه أن تؤتبه وأنت صحيح صحيح تأمل العيش وتخشى
الفقر ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا ، وقيل
الضمير لله تعالى أى آتاه كائنا على محبته تعالى لا على قصد الشر والفساد ففيه
نوع تعريض لباذل الرشا وأخذها لتغيير التوراة وقيل للمصدر أى كائنا على
حب الإيتاء ﴿ ذوى القربى ﴾ مفعول أول لآتى قدم عليه منفعوله الثانى أعنى

المال للاهتمام به أو لأن في الثاني مع ما عطف عليه طولا لوروعى الترتيب لغات تجاوب الأطراف في الكلام وهو الذي اقتضى تقديم الحال أيضاً وقيل هو المفعول الثاني ﴿واليتامى﴾ أى المحاويج منهم على ما يدل عليه الحال وتقديم ذوى القربى عليهم لما أن إيتاءهم صدقة وصلية ﴿والمساكين﴾ جمع مسكين وهو الدائم السكون لما أن الخلة أسكنته بحيث لاحرك به أو دائم السكون إلى الناس ﴿وابن السبيل﴾ أى المسافر سمي به لملازمته إياه كما سمي القاطع ابن الطريق وقيل الضيف ﴿والسائلين﴾ الذين ألتأثم الحاجة والضرورة إلى السؤال قال عليه الصلاة والسلام: أعطوا السائل ولو جاء على فرس ﴿وفي الرقاب﴾ أى وضعه في فك الرقاب بمعاونة المكاتبين حتى يفسكوا رقابهم وقيل في فك الأسارى وقيل في ابتياع الرقاب وإعتاقها وأياً ما كان فالعدول عن ذكرهم بعنوان مصحح للمالكية كالذين من قبلهم إما للإيدان بعدم قرار ملكهم فيما أوتوا كما في الوجين الأولين أو بعدم ثبوته رأساً كما في الوجه الأخير. وإما للإشعار برسوخهم في الاستحقاق والحاجة لما أن في للظرفية المنبئة عن محلينهم لما يؤتى ﴿وأقام الصلاة﴾ أى المفروضة منها ﴿وآتى الزكاة﴾ أى المفروضة على أن المراد بما مر من إيتاء المال التنفل بالصدقات قدم على الفريضة مبالغة في الحث عليه أو المراد بهما المفروضة والأول لبيان المصارف والثانى لبيان وجوب الأداء ﴿والموفون بعهدهم﴾ عطف على من آمن فإنه في قوة أن يقال ومن أوفوا بعهدهم وإيثار ضيغة الفاعل للدلالة على وجوب استمرار الوفاء والمراد بالعهد ما لا يحرم حلالاً ولا يحلل حراماً من العهود الجارية فيما بين الناس ، وقوله تعالى ﴿إذا عاهدوا﴾ للإيدان بعدم كونه من ضروريات الدين ﴿والصابرين﴾ نصب على الاختصاص غير سبكه عما قبله تنبيها على فضيلة الصبر ومزيته وهو في الحقيقة معطوف على ما قبله . قال أبو على إذا ذكرت صفات للمدح أو الذم فخولف في بعضها الإعراب فقد خولف للافتنان ويسمى ذلك قطعاً لأن تغيير المألوف يدل على زيادة ترغيب في استماع المذكور ومزيد اهتمام بشأنه كما مر في صدر السورة وقد قرىء

الصابرون كما قرىء والموفين ﴿ في البأساء ﴾ أى فى الفقر والشدة ﴿ والضراء ﴾ أى المرض والزمانة ﴿ وحين البأس ﴾ أى وقت مجاهدة العدو فى مواطن الحرب وزيادة الحين للإشعار بوقوعه أحيانا وسرعة انقضائه ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المذكورين باعتبار اتصافهم بالنعوت الجميلة المعدودة وما فيه من معنى البعد لما مر مرار من التنبيه عن علو طبقتهم وسمو رتبتهم ﴿ الذين صدقوا ﴾ أى فى الدين واتباع الحق وتحرى البر حيث لم تغيرهم الأحوال ولم تزلزلهم الأهوال ﴿ وأولئك هم المتقون ﴾ عن الكفر وسائر الرذائل وتكرير الإشارة لزيادة تفويده شأنهم وتوسيط الضمير للإشارة إلى انحصار التقوى فيهم والآية الكريمة كما ترى حاوية لجميع الكلمات البشرية برمتها تصريحاً أو تلويحاً لما إنما مع تكثير فنونها وتشعب شجونها منحصرة فى خلال ثلاث صحة الاعتقاد وحسن المعاشرة مع العباد وتهذيب النفس وقد أشير إلى الأولى بالإيمان بما فصل وإلى الثانية بإيتاء المال وإلى الثالثة بإقامة الصلاة الخ ولذلك وصف الخائزون لها بالصدق نظراً إلى إيمانهم واعتقادهم وبالتقوى اعتباراً بمعاشرتهم مع الخلق ومعاملتهم مع الحق وإليه يشير قوله صلى الله عليه وسلم من عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان .

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ شروع فى بيان بعض الأحكام الشرعية على وجه التلافي لما فرط من المخيلين بما ذكر من أصول الدين وقواعده التى عليها بنى أساس المعاش والمعاد ﴿ كتب عليكم ﴾ أى فرض وألزم عند مطالبة صاحب الحق فلا يقدر فيه قدرة الولي على العفو فإن الوجوب إنما اعتبر بالنسبة إلى الحكام أو القاتلين ﴿ القصاص فى القتل ﴾ أى بسبب قتلهم كما فى قوله صلى الله عليه وسلم إن امرأة دخلت النار فى هرة ربطتها، أى بسبب ربطها لإياها ﴿ الحر بالحر والعبد بالأثني بالأثني ﴾ كان فى الجاهلية بين حيين من أحياء العرب دماء وكان لأحدهما طول على الآخر فأقسموا لقتلن الحر منكم بالعبد والذكر بالأثني فلما جاء الإسلام تحا كمو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت.

فأمرهم أن يتباؤوا وليس فيها دلالة على عدم قتل الحر بالعبد عند الشافعي أيضا لأن اعتبار المفهوم حيث لم يظهر للتخصيص بالذكر وجه سوى اختصاص الحكم بالمنطوق وقد رأيت الوجه ههنا وإنما يتمسك في ذلك هو ومالك رحمهما الله بما روى على رضى الله عنه أن رجلا قتل عبده فجلده رسول الله صلى الله عليه وسلم ونفاه سنة ولم يقده وبما روى عنه رضى الله عنه أنه قال من السنة أن لا يقتل مسلم بذي عهد ولا حر بعبد وبأن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما كانا لا يقتلان الحر بالعبد بين أظهر الصحابة من غير تكبير وبالقياس على الأطراف وعندنا يقتل الحر بالعبد لقوله تعالى (أن النفس بالنفس) فإن شريعة من قبلنا إذا قصت علينا من غير دلالة على نسخها فالعمل بها واجب على أنها شريعة لنا ولأن القصاص يعتمد المساواة في العصمة وهي بالدين أو بالدار وهما سيان فيهما وقرىء كتب على البناء للفاعل ونصب القصاص ﴿فمن عفى له من أخيه شيء﴾ أى شيء من العفو لأن عفا لازم وفائدته الإشعار بأن بعض العفو بمنزلة كله في إسقاط القصاص وهو الواقع أيضا في العادة إذ كثير ما يقع العفو من بعض الأولياء فهو شيء من العفو وقيل معنى عفى ترك وشيء مفعول به وهو ضعيف إذ لم يثبت عفاه بمعنى تركه بل أعفاه وحمل العفو على المحو كما في قول من قال :

* ديار عفاها جور كل معاند *

وقوله : عفاها كل هتان كثير الوهل هطال

فيكون المعنى فمن عفى له من أخيه شيء صرف للعبارة المتداولة في الكتاب والسنة عن معناها المشهور المعهود إلى ما ليس بمعهود فيهما وفي استعمال الناس فإنهم لا يستعملون العفو في باب الجنائيات إلا فيما ذكر من قبل وعفا يعدى بعن إلى الجاني والذنب قال تعالى (عفا الله عنك) وقال (عفا الله عنها) فإذا تعدى إلى الذنب قيل عفوت لفلان عما جنى كأنه قيل فمن عفى له عن جنائيه من جهة أخيه يعنى ولى الدم وإيراده بعنوان الأخوة الثابتة بينهما بحكم كونهما من بنى آدم عليه السلام لتجريك سلسلة الرقة والعطف عليه ﴿فاتباع بالمعروف﴾ فالأمر اتباع أو فليكن اتباع والمراد وصية الباقي بالمساحة ومطالبتة بالدية

بالمعروف من غير تعسف وقوله عز وجل ﴿ وأداء إليه يا احسان ﴾ حث للمعفو عنه على أن يؤديها يا احسان من غير مما طلة ولا بخش ﴿ ذلك ﴾ أى ما ذكر من الحكم ﴿ تخفيف من ربكم ورحمة ﴾ لما فيه من التسهيل والنفع وقيل كتب على اليهود القصاص وحده وحرم عليهم العفو والدية وعلى النصارى العفو على الإطلاق وحرم عليهم القصاص والدية وخيرت هذه الأمة بين الثلاث تيسيرا عليهم وتنزيلا للحكم على حسب المنازل ﴿ فمن اعتدى بعد ذلك ﴾ بأن قتل غير القاتل بعد ورود هذا الحكم أو قتل القاتل بعد العفو أو أخذ الدية ﴿ فله ﴾ باعتدائه ﴿ عذاب أليم ﴾ أما فى الدنيا فبالاقتصاص لما قتله بغير حق وأما فى الآخرة فبالتار ﴿ ولكم فى القصاص حياة ﴾ بيان لمحاسن الحكم المذكور على وجه بديع لا تنال غايته حيث جعل الشئ محلا لضده وعرف القصاص ونكر الحياة. ليدل على أن فى هذا الجنس نوعا من الحياة عظيما لا يبلغه الوصف وذلك لأن العلم به يردع القاتل عن القتل فيتسبب حياة نفسين ولأنهم كانوا يقتلون غير القاتل والجماعة بالواحد فتثور الفتنة بينهم فإذا اقتص من القاتل سلم الباقون. فيكون ذلك سببا لحياتهم وعلى الأول فيه إضمار وعلى الثانى تخصيص وقيل المراد بالحياة هى الآخروية فإن القاتل إذا اقتص منه فى الدنيا لم يؤخذ به فى الآخرة والظرفان إما خبران لحياة أو أحدهما خبر والآخر صلة له أو حال من المستكن فيه وقرىء فى القصص أى فيما قص عليكم من حكم القتل حياة. أو فى القرآن حياة أو فى القرآن حياة للقلوب ﴿ يا أولى الألباب ﴾ أى ذوى العقول الخالصة عن شوب الأوهام خوطبوا بذلك بعد ما خوطبوا بعنوان الإيمان تنشيطاً لهم إلى التأمل فى حكمة القصاص ﴿ لعلمكم تتقون ﴾ أى تتقون أنفسكم من المساهلة فى أمره والإهمال فى المحافظة عليه والحكم به والإذعان له أو فى القصاص فتكفوا عن القتل المؤدى إليه ﴿ كتب عليكم ﴾ بيان للحكم آخر من الأحكام المذكورة ﴿ إذا حضر أحدكم الموت ﴾ أى حضر أسبابه وظهر أماراته أو دنا نفسه من الحضور وتقديم المفعول لإفادة كمال تمكن الفاعل عند النفس وقت وروده عليها ﴿ إن ترك خيراً ﴾ أن مالا وقيل مالا كثيراً لمله

روى عن علي رضي الله عنه أن مولى له أراد أن يوصى وله سبعمائة درهم فمنعه وقال قال الله تعالى (إن ترك خيراً) وإن هذا لشيء يسير فاتركه لعيالك وعن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً أراد أن يوصى وله سبعمائة درهم فمنعه وقال قال الله تعالى: (إن ترك خيراً) وإن هذا لشيء يسير فاتركه لعيالك وعن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً أراد الوصية وله عيال وأربعمائة دينار فقالت ما أرى فيه فضلاً وأراد آخر أن يوصى فسأله كم مالك فقال ثلاثة آلاف درهم قالت كم عيالك قال أربعة قالت إنما قال الله تعالى إن ترك خيراً وإن هذا لشيء يسير فاتركه لعيالك ((الوصية للوالدين والأقربين)) مرفوع بكتب آخر عما بينهما لما مر مرارا وإيثار تذكير الفعل مع جواز تأنيثه أيضاً للفصل أو على تأويل أن يوصى أو الإيضاء ولذلك ذكر الضمير في قوله تعالى (فن بدل به بعد ما سمعه) وإذا ظرف محض والعامل فيه كتب لكن لا من حيث صدور الكتاب عنه تعالى بل من حيث تعلقه بهم تعلقاً فعلياً مستتبعا لوجوب الأداء كما ينبغي عنه البناء للمفعول وكلمة الإيجاب ولا مساع لجعل العامل هو الوصية لتقدمه عليها وقيل هو مبتدأ خبره للوالدين والجملة جواب الشرط بإضمار الفاء كما في قوله بمن يفعل الحسنات الله يشكرها ورد بأنه إن صح فن ضرورة الشعر ومعنى كتب فرض وكان هذا الحكم في بدء الإسلام ثم نسخ عند نزول آية المواريث بقوله عليه السلام أن الله قد أعطى كل ذي حق حقه ألا لا وصية لوارث فإنه وإن كان من أخبار الأحاد لكن حيث تلقته الأمة بالقبول انتظم في سلك المتواتر في صلاحيته للنسخ عند الحنفية على أن التحقيق أن الناسخ حقيقة هي آية المواريث وإنما الحديث مبين لجهة نسخها ببيان أنه تعالى كان قد كتب عليكم أن تؤدوا إلى الوالدين والأقربين حقوقهم بحسب استحقاقهم من غير تعيين لمراتب استحقاقهم ولاتعيين لمقادير أنصباهم بل فوض ذلك إلى آرائكم حيث قال ((بالمعروف)) أي بالعدل فالآن قد رفع ذلك الحكم عنكم لتبيين طبقات استحقاق كل واحد منهم وتعيين مقادير حقوقهم بالذات وأعطى كل ذي حق منهم حقه الذي يستحقه بحكم القرابة من غير نقص ولا زيادة ولم

يدع ثمة شيئاً فيه مدخل لرأيكم أصلاً حسبما تعرب عنه الجملة المنفية بلا النافية للجنس وتصديرها بكلمة التنبيه إذا تحققت هذا ظهر لك أن ما قيل من أن آية المواريث لا تعارضه بل تحققة وتؤكد من حيث أنها تدل على تقديم الوصية مطلقاً والحديث من الأحاد وتلقى الأمة إياه بالقبول لا يلحقه بالمتواتر ولعله احترز عنه من فسر الوصية بما أوصى به الله عز وجل من توريث الوالدين والأقربين بقوله تعالى (يوصيكم الله) أو بإيصال المحتضر لهم بتوفير ما أوصى به الله تعالى عليهم بمزل من التحقيق وكذا ما قيل من أن الوصية للوارث كانت واجبة بهذه الآية من غير تعيين لأنصباهم فلما نزلت آية الموارث بيانا للأنصباء بلفظ الإيصال فهم منها بتنبيه النبي صلى الله عليه وسلم أن المراد منه هذه الوصية التي كانت واجبة كأنه قيل إن الله تعالى أوصى بنفسه تلك الوصية ولم يفوضها إليكم فقام الميراث مقام الوصية فكان هذا معنى النسخ لا أن فيها دلالة على رفع ذلك الحكم فإن مدلول آية الوصية حيث كان تفويضاً للأمر إلى آراء المكلفين على الإطلاق وتسنى الخروج عن عهدة التكليف بأداء ما أدى إليه آراؤهم بالمعروف فتكون آية الموارث الناطقة بمراتب الاستحقاق وتفصيل مقادير الحقوق القاطعة بامتناع الزيادة والنقص بقوله تعالى فريضة من الله ناسخة لها رافعة لحكمها بما لا يشقبه على أحد وقوله تعالى ﴿حقاً على المتقين﴾ مصدر مؤكد أى حق ذلك حقاً ﴿فن بدله﴾ أى غيره من الأوصياء والشهود ﴿بعد ما سمعه﴾ أى بعدما وصل إليه وتحقق لديه ﴿فإنما إثمهم﴾ أى إثم الإيصال المغير أو إثم التبديل ﴿على الذين يدلونه﴾ لأنهم غانوا وخالفوا حكم الشرع ووضع الموصول في موضع الضمير الراجع إلى من لتأكيد الإيدان بعلية ما في حيز الصلة الأولى وإيثار الجمع للإشعار بتعدد المبدلين أنواعاً أو كثرتهم أفراداً والإيدان بشمول الإثم لجميع الأفراد ﴿إن الله سميع عليم﴾ وعيد شديد للمبدلين ﴿فن خاف من موص﴾ أى توقع وعلم من قولهم أخاف أن يرسل السماء وقرىء من موص ﴿جنفا﴾ أى ميلاً بالخطأ في الوصية ﴿أو إثم﴾ أى تعمداً للجنف ﴿فأصلح بينهم﴾ أى بين الموصى لهم بإجرائهم على منهاج الشريعة

الشريفة ﴿فلا إثم عليه﴾ أى فى هذا التبديل لأنه تبديل باطل إلى حق بخلاف الأول ﴿إن الله غفور رحيم﴾ وعد للصالح وذكر المغفرة لمطابقة ذكر الإثم وكون الفعل من جنس ما يؤثم ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام﴾ بيان لحكم آخر من الأحكام الشرعية وتكرير النداء لإظهار مزيد الاعتناء والصيام والصوم فى اللغة الإمساك عما تنازع إليه النفس ومنه قوله تعالى (إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم) الآية ، وقيل هو الإمساك عن الشيء مطلقاً ومنه صامت الريح إذا أمسكت عن الهبوب والفرس إذا أمسكت عن العدو قال: خيل صيام ونخيل غير صائمة تحت العجاج وأخرى تملك اللجما وفى الشريعة هو الإمساك نهاراً مع النية عن المفطرات المعهودة التى هى معظم ما تشتهيه الأنفس ﴿كما كتب﴾ فى حيز النصب على أنه نعت للمصدر المؤكد أى كتاباً كأننا كما كتب أو على أنه حال من المصدر المعرفة أى كتب عليكم الصيام المكتب مشبهاً بما كتب فما على الوجوهين مصدرية أو على أنه نعت لمصدر من لفظ الصيام أى صوما بماثلاً للصوم المكتوب على من قبلكم فما موصولة أو على أنه حال من الصيام أى حال كونه بمثابة لما كتب ﴿على الذين من قبلكم﴾ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والأمم من لدن آدم عليه السلام وفيه تأكيد للحكم وترغيب فيه وتطبيب لأنفس المخاطبين به فإن الشاق إذا عم سهل عمله والمراد بالمماثلة إما المماثلة فى أصل الوجوب ، وإما فى الوقت والمقدار كما روى أن صوم رمضان كان مكتوباً على اليهود والنصارى أما اليهود فقد تركته وصامت يوماً من السنة زعموا أنه يوم غرق فرعون وكذبوا فى ذلك فإنه كان يوم عاشوراء ، وأما النصارى فإنهم صاموا رمضان حتى صادفوا حراً شديداً فاجتمعت آراء علمائهم على تعيين فصل واحد بين الصيف والشتاء فجعلوه فى الربيع وزادوا عليه عشرة أيام كفارة لما صنعوا فصار أربعين ثم مرض ملكهم أو وقع فيهم موت فزادوا عشرة أيام فصار خمسين ﴿لعلكم تتقون﴾ أى المعاصى فإن الصوم يكسر الشهوة الداعية إليها كما قال عليه الصلاة والسلام ﴿فعلية بالصوم فإنه له وجاء ، أو تتقون الإخلال بأدائه لأصاليه أو تصلون بذلك إلى رتبة التقوى .

﴿أياما معدودات﴾ مؤقتات بعدد معلوم أو قلائل فإن القليل من امال يعد عدا والكثير يمال هيلا والمراد بها إما رمضان أو ما وجب في بدء الإسلام ثم نسخ به من صوم عاشوراء وثلاثة أيام من كل شهر وانتصاه به ليس بالصيام كما قيل لوقوع الفصل بينهما بأجنبي بل بمضمر دل هو عليه أعنى صوموا إما على الظرفية أو المفعولية اتساعا وقيل بقوله تعالى كتب على أحد الوجهن وفيه أن الأيام ليست محلا له بل للكتابة فلا تتحقق الظرفية ولا المفعولية المتفرعة عليها اتساعا ﴿فن كان منكم مريضا﴾ أى مرضا يضره الصوم أو يعسر معه ﴿أو على سفر﴾ مستمرين عليه وفيه تلويح ورمز إلى أن من سافر في أثناء اليوم لم يفطر ﴿فعدة﴾ أى فعلية صوم عدة أيام المرض والسفر ﴿من أيام آخر﴾ إن أفطر فحذف الشرط والمضاف ثقة بالظهور وقرئ بالنصب أى فليصم عدة وهذا على سبيل الرخصة وقيل على الوجوب وإليه ذهب الظاهرية وبه قال أبو هريرة رضى الله عنه ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾ أى وعلى المطيقين للصيام إن أفطروا ﴿فدية﴾ أى إعطاء فدية وهى ﴿طعام مسكين﴾ وهو نصف صاع من بر أو صاع من غيره عند أهل العراق ومد عند أهل الحجاز وكان ذلك في بدء الإسلام لما أنه قد فرض عليهم الصوم وما كانوا متعودين له فاشتد عليهم فرخص لهم في الإفطار والفدية وقرئ يطوقونه أى يكلفونه أو يقلدونه ويتطوقونه ويتطوقونه بإدغام التاء في الطاء ويطيقونه ويطوقونه بمعنى يتطيقةونه وأصلهما يطيقونه ويتطوقونه من فيعل وتفيعل من الطوق فأدغمت الياء في الواو بعد قلبها ياء كقولهم تدبر المسكان وما بها ديار وفيه وجهان أحدهما نحو معنى يطيقونه والثانى يكلفونه أو يتكلفونه على جهد منهم وعسر وهم الشيوخ والمعجزة وحكم هؤلاء الإفطار والفدية وهو حيثئذ غير منسوخ ويجوز أن يكون هذا معنى يطيقونه أو يصومونه جهدهم وطاقتهم ومبلغ وسعهم ﴿فن تطوع خيرا﴾ فزاد في الفدية ﴿فهو﴾ أى التطوع أو الخير الذى تطوعه ﴿خير له وأن تصوموا﴾ أيها المطيقون أو المطوقون وتحملوا على أنفسكم وتجهدوا طاقتكم أو المرخصون في الإفطار من المرضى والمسافرين ﴿خير لكم﴾ من

الفدية أو من تطوع الخير أو منهما أو من التأخير إلى أيام آخر والالتفات إلى الخطاب للهن والتشيط ﴿إن كنتم تعلمون﴾ أى ما فى صومكم مع تحق المبيع للإفطار من الفضيلة والجواب محذوف ثقة بظهوره أى اخترتموه أو سارعتم إليه وقيل معناه إن كنتم من أهل العلم والتدبر علمتم أن الصوم خير من ذلك ﴿شهر رمضان﴾ مبتدأ سيأتى خبره أو خبر لمبتدأ محذوف أى ذلك شهر رمضان أو بدل من الصيام على حذف المضاف أى صيام شهر رمضان وقرىء بالنصب على إضمار صوموا أو على أنه مفعول تصوموا أو بدل من أيام معدودات ورمضان مصدر رمض أى احترق من الرمضاء فأضيف إليه الشهر وجعل علماً ومنع الصرف للتعريف والألف والنون كما قيل ابن دأية للغراب فقوله عليه السلام من صام رمضان الحديث وارد على حذف المضاف للأمن من الالتباس وإنما سمي بذلك إما لارتماضهم فيه من الجوع والعطش أو لارتماض الذنوب بالصيام فيه أو لوقوعه فى أيام رمض الحر عند نقل أسماء الشهور عن اللغة القديمة ﴿الذى أنزل فيه القرآن﴾ خبر للمبتدأ على الوجه الأول وصفة لشهر رمضان على الوجوه الباقية ومعنى إنزاله فيه أنه ابتدئ به إنزاله فيه وكان ذلك ليلة القدر أو أنزل فيه جملة إلى السماء الدنيا ثم نزل منجها إلى الأرض حسبما تقضيه المشيئة الربانية أو أنزل فى شأنه القرآن وهو قوله عز وجل كتب عليكم وعن النبي صلى الله عليه وسلم نزلت صحف إبراهيم أول ليلة من رمضان وأنزلت التوراة لست مضين منه والإنجيل لثلاث عشرة منه والقرآن لأربع وعشرين ﴿هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾ حالان من القرآن أى أنزل حال كونه هداية للناس بما فيه من الإعجاز وغيره وآيات واضحة مرشدة إلى الحق فارقة بينه وبين الباطل بما فيه من الحكم والأحكام ﴿فمن شهد منكم الشهر﴾ أى حضر فيه ولم يكن مسافرا ووضع الظاهر موضع الضمير للتعظيم والمبالغة فى البيان والفاء للتنفيع والترتيب أو لتضمن المبتدأ معنى الشرط أو زائدة على تقدير كون شهر رمضان مبتدأ والموصول صفة له وهذه الجملة خبر له وقيل هى جزائية كأنه قيل لما كتب عليكم الصيام فى ذلك الشهر فمن حضر فيه

﴿ فليصمه ﴾ أى فليصم فيه بحذف الجار وإيصال الفعل إلى المجرور اتساعاً وقيل من شهد منكم هلال الشهر فليصمه على أنه مفعول به كقولك شهدت الجمعة أى صلاتها فيكون ما بعده مخصصاً له كأنه قيل ﴿ ومن كان مريضاً ﴾ وإن كان مقيماً حاضراً فيه ﴿ أو على سفر ﴾ وإن كان صحيحاً ﴿ فعدة من أيام أخر ﴾ أى فعليه صيام أيام أخر لأن المريض والمسافر ممن شهد الشهر ولعل التكرير لذلك أو لثلاثاً يتوهم نسخه كما نسخ قرينه ﴿ يريد الله ﴾ بهذا الترخيص ﴿ بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ لغاية هى رأفته وسعة رحمته ﴿ ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلمكم تشكرون ﴾ تعليل لفعل محذوف يدل عليه ما سبق أى ولهذه الأمور شرع ما أمر من أمر الشاهد بصوم الشهر وأمر المرخص لهم بمراعاة عدة ما أفطر فيه ومن الترخيص فى إباحة الفطر فقوله تعالى لتكملوا عدة الأمر بمراعاة العدة ولتكبروا عدة ما عليه من كيفية القضاء ولعلمكم تشكرون عدة الترخيص واليسير وتعدية فعل التكبير بعلى لتضمنه معنى الحمد كأنه قيل ولتكبروا الله حامدين على ما هداكم ويجوز أن تكون معطوفة على عدة مقدرة مثل ليسهل عليكم أو لتعلموا ما تعملون ولتكملوا الخ ويجوز عطفها على اليسر أى يريد بكم لتكملوا الخ كقوله تعالى (يريدون ليظفثوا) الخ والمعنى بالتكبير تعظيمه تعالى بالحمد والثناء عليه وقيل تكبير يوم العيد وقيل التكبير عند الإهلال وما تحتل المصدرية والموصولة أى على هدايته إياكم أو على الذى هداكم إليه وقرىء ولتكملوا بالتشديد ﴿ وإذا سألك عبادى عني ﴾ فى تلوين الخطاب وتوجيهه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى من تشرىفة ورفع محله ﴿ فإني قريب ﴾ أى فقل لهم إني قريب وهو تمثيل لسكال عليه بأفعال العباد وأقوالهم وإطلاعه على أحوالهم بحال من قرب مكانه، روى أن أعرابياً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أقرب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه فنزلت ﴿ أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ تقرير للقرب وتحقيق له ووعد للداعى بالإجابة ﴿ فليستجيبوا لى ﴾ إذا دعوتهم للإيمان والطاعة كما أجيبهم إذا دعوتى لمهماتهم ﴿ وليؤمنوا بى ﴾ أمر بالثبات على ما هم عليه ﴿ لعلمهم يرشدون ﴾

راجين إصابة الرشد أى الحق وقرىء بفتح الشين وكسرها ولما أمرهم الله تعالى بصوم الشهر ومراعاة العدة وحثهم على القيام بوظائف التكبير والشكر عقبه بهذه الآية الكريمة الدالة على أنه تعالى خير بأحوالهم سميع لأقوالهم مجيب لدعائهم مجازيهم على أعمالهم تأكيداً له وحثاً عليه ثم شرع فى بيان أحكام الصيام فقال ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾ روى أن المسلمين كانوا إذا أمسوا حل لهم الأكل والشرب والجماع إلى أن يصلوا العشاء الأخيرة أو يرقدوا ثم إن عمر رضى الله عنه باشر بعد العشاء فندم وأتى النبي صلى الله عليه وسلم واعتذر إليه فقام رجال فاعترفوا بما صنعوا بعد العشاء فنزلت . ليلة الصيام الليلة التى يصبح منها صائماً والرفث كناية عن الجماع لأنه لا يكاد يخلو من رفث وهو الإفصاح بما يجب أن يكفى عنه وعدى إلى لتضمنه معنى الإفشاء والإتياء وإيثاره ههنا لاستقباح ما ارتكبه ولذلك سمي خيانة وقرىء الرفوث وتقديم الظرف على القائم مقام الفاعل لما مر مراراً من التشويق فإن ما حقه التقديم إذا أخرج تبقى النفس مترقبة إليه فيتمكن وقت وروده فضل تمكن ﴿هن لباس لكم وأتم لباس لهن﴾ استئناف مبين لسبب الإحلال وهو صعوبة الصبر عنهن مع شدة المخالطة وكثرة الملايسة بهن وجعل كل من الرجل والمرأة لباساً للآخر لاعتناقهما واشتغال كل منهما على الآخر بالليل قال :

إذا ما الضجيع نثى عطفها تثنت فكانت عليه لباساً

أو لأن كلا منهما يستر حال صاحبه ويمنعه من الفجور ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم﴾ استئناف آخر مبين لما ذكر من السبب والاختيان أبلغ من الخيانة كالأكتساب من الكسب ومعنى تختانون تظلمونها بتعريضها للعقاب وتنقيص حظها من الثواب ﴿فتاب عليكم﴾ عطف على علم أى تاب عليكم لما تبتم بما اقترفتهموه ﴿وعفا عنكم﴾ أى محآ أثره عنكم ﴿فالآن﴾ لما نسخ التحريم ﴿باشروهن﴾ المباشرة لإزاق البشرة بالبشرة كنى بها عن الجماع الذى يستلزمها وفيه دليل على جواز نسخ الكتاب للسنة ﴿وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ أى واطلبوا ما قدره الله لكم وقرره فى اللوح من الولد وفيه أن المباشر ينبغى أن

يكون غرضه الولد فإنه الحكمة في خلق الشهوة وتشريع النكاح لا قضاء الشهوة وقيل فيه نهى عن العزل وقيل عن غير المأثى والتقدير وابتغوا المحل الذى كتب لكم ﴿ وكلاوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ﴾ شبه أول ما يبدو من الفجر المعترض فى الأفق وما يمتد معه من غلس الليل بخيطين أبيض وأسود واكتفى ببيان الخيط الأبيض بقوله تعالى من الفجر عن بيان الخيط الأسود لدلالته عليه وبذلك خرجا عن الاستعارة إلى التمثيل ويجوز أن يكون من التبويض فإن ما يبدو بعض الفجر وما روى من أنها نزلت ولم ينزل من الفجر فعمد رجال إلى خيطين أبيض وأسود وطفقوا يأكلون ويشربون حتى يتبين لهم فنزلت فلعل ذلك كان قبل دخول رمضان وتأخير البيان إلى وقت الحاجة جائزا واكتفى أولا باشتهارهما فى ذلك ثم صرح بالبيان لما التبس على بعضهم وفى تجويز المباشرة إلى الصبح دلالة على جواز تأخير الغسل إليه وصحة صوم من أصبح جنبا ﴿ ثم أتوا الصيام إلى الليل ﴾ بيان لآخر وقتها ﴿ ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد ﴾ أى معتكفون فيها والمراد بالمباشرة الجماع وعن قتادة كان الرجل يعتكف فيخرج إلى امرأته فيباشرها ثم يرجع فنهوا عن ذلك وفيه دليل على أن الاعتكاف يكون فى المسجد غير مختص ببعض دون بعض وأن الوطء فيه حرام ومفسد له لأن النهى فى العبادات يوجب الفساد ﴿ تلك حدود الله ﴾ أى الأحكام المذكورة وحدود وضعها الله تعالى لعباده ﴿ فلا تقر بها ﴾ فضلا عن تجاوزها نهى أن يقرب الحد الحاذق بين الحق والباطل مبالغة فى النهى عن تخطئها كما قال صلى الله عليه وسلم إن لكل ملك حمى وحى الله محارمه فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه ويجوز أن يراد بحدود الله تعالى محارمه ومناهيه ﴿ كذلك ﴾ أى مثل ذلك التبيين البليغ ﴿ يبين الله آياته ﴾ الدالة على الأحكام التى شرعها ﴿ للناس لعلمهم يتقون ﴾ مخالفة أوامره ونواهيه ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ نهى عن أكل بعضهم أموال بعض على خلاف حكم الله تعالى بعد النهى عن أكل أموال أنفسهم فى نهار رمضان أى لا يأكل بعضكم أموال بعض بالوجه الذى لم يبيحه.

الله تعالى وبين نصب على الظرفية أو الحالية من أموالكم ﴿وتدلوا بها إلى الأحكام﴾ عطف على المنهى عنه أو نصب بإضمار أن والإدلاء الإلقاء أى ولا تلقوا حكومتها إلى الأحكام ﴿لنا كلوا﴾ بالتحاكم إليهم ﴿فريقا من أموال الناس بالإثم﴾ بما يوجب إثما كشهادة الزور واليمين الفاجرة أو ملتبسين بالإثم ﴿وأنتم تعلمون﴾ أنكم مبطلون فإن ارتكاب المعاصى مع العلم بها أقبح . روى أن عبدان الحضرمى ادعى على امرئ القيس الكندى قطعة أرض ولم يكن له بيثة فحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يحلف امرؤ القيس فهم به فقرأ عليه الصلاة والسلام (إن الذين يشتركون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا) الآية فارتدع عن اليمين فسلم الأرض إلى عبدان فنزلت . وروى أنه اختصم إليه خصمان فقال عليه السلام وإنما أنا بشر مثلكم وأنتم تختصمون إلى ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع منه فن قضيت له بشيء من حق أخيه وإنما أقضى له قطعة من نار ، فبكيا فقال كل واحد منهما حتى لصاحبي فقال اذهبا فتأخيا ثم ليحل كل واحد منكما صاحبه ﴿يسألونك عن الأهلة﴾ سأله معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم فقالا ما بال الهلال يبدو رقيقا كالخيط ثم يزيد حتى يستوى ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا ﴿قل هي مواقيت للناس والحج﴾ كانوا قد سألوه عليه الصلاة والسلام عن الحكمة فى اختلاف حال القمر وتبدل أمره فأمره الله العزيز الحكيم أن يجيبهم بأن الحكمة الظاهرة فى ذلك أن تكون معالم للناس فى عبادتهم لا سيما الحج فإن الوقت مراعى فيه أداء وقضاء وكذا فى معاملاتهم على حسب ما يتفقون عليه والمواقيت جمع ميقات من الوقت والفرق بينه وبين المدة والزمان أن المدة المطلقة امتداد حركة الملك من مبدئها إلى منتهاها والزمان مدة مقسومة إلى الماضى والحال والمستقبل والوقت الزمان المفروض لأمر ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ كانت الأنصار إذا أحرموا لم يدخلوا دارا ولا فسطاطا من بابه وإنما يدخلون ويخرجون من نقب أو فرجة وراها ويعدون ذلك برا فبين لهم أنه ليس ببر فقيل ﴿ولكن البر من اتقى﴾ أى بر من اتقى المحارم والشهوات ووجه اتصاله بما قبله أنهم

سألوا عن الأمرين أو أنه لما ذكر أنها موأقبت للحج ذكر عقبيه ما هو من أفعالهم في الحج استطرادا أو أنهم لما سألوا عما لا يعينهم ولا يتعلق بعلم النبوة فإنه عليه الصلاة والسلام مبعوث لبيان الشرائع لالبيان حقائق الأشياء وتركوا السؤال عما يعينهم ويختص بعلم الرسالة عقب بذكره جواب ما سألوا عنه تشبيها على أن اللائق بهم أن يسألوا عن أمثال ذلك ويهتموا بالعلم بها أو أريد به التنبيه على تعكيسهم في السؤال وكونه من قبيل دخول البيت من ورائه والمعنى وليس البر بأن تعكسوا في مسائلكم ولكن البر من اتقى ذلك ولم يجترأ على مثله ﴿وأتوا البيوت من أبوابها﴾ إذ ليس في العدول بر أو باشروا الأمور من وجوهها ﴿واتقوا الله﴾ في تغيير أحكامه أو في جميع أموركم أمر بذلك صريحا بعد بيان أن البر بر من اتقى إظهارا لزيادة الاعتناء بشأن التقوى وتمهيدا لقوله تعالى ﴿لعلكم تفلحون﴾ أى لى تظفروا بالبر والهدى ﴿وقاتلوا فى سبيل الله﴾ أى جاهدوا لإعزاز دينه وإعلاء كلمته وتقديم الظرف على المفعول الصريح لإبراز كمال العناية بشأن المقدم ﴿الذين يقاتلونكم﴾ قيل كان ذلك قبل ماأمروا بقتال المشركين كافة المقاتلين منهم والمهاجرين وقيل معناه الذين يناصبونكم القتال ويتوقع منهم ذلك دون غيرهم من المشايخ والصبيان والرهبان والنساء أو الكفرة جميعا فإن الكل بصدد قتال المسلمين ويؤيد الأول ماروى أن المشركين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية وصالحوه على أن يرجع من قابل فيخلوا له مكة شرفها الله تعالى ثلاثة أيام فرجع لعمره القضاء بخاف المسلمون أن لا يفوا لهم وأن يقاتلهم فى الحرم والشهر الحرام وكرهوا ذلك فنزلت ويعضده إيراده فى أثناء بيان أحكام الحج ﴿ولا تعتدوا﴾ بابتداء القتال أو بقتال المعاهد والمفاجأة به من غير دعوة أو بالمثلة وقتل من نهيتم عن قتله من النساء والصبيان ومن يجرى مجراهم ﴿إن الله لا يحب المعتدين﴾ أى لا يريد بهم الخير وهو تعليل للنهى ﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ أى حيث وجدتموهم من حل أو حرم وأصل الثقف الحدق فى إدراك الشيء علما أو عملا وفيه معنى الغلبة ولذلك استعمل فيها قال :

فإما تهفونى فاقتلونى فمن أثقف فليس إلى خلود

﴿ وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ﴾ أى من مكة وقد فعل بهم ذلك يوم الفتح بمن لم يسلم من كفارها ﴿ والفتنة أشد من القتل ﴾ أى المحنة التى يفتن بها الإنسان كالأخراج من الوطن أصعب من القتل لدوام تعبها وبقاء ألم النفس بها وقيل شركهم فى الحرم وصددهم لكم عنه أشد من قتلكم إياهم فيه ﴿ ولا تقتلواهم عند المسجد الحرام ﴾ أى لا تمسحوا بالقتل هناك ولا تهتكوا حرمة المسجد الحرام ﴿ حتى يقتلوكم فيه فإن قاتلوكم ﴾ ثمة ﴿ فاقتلوهم ﴾ فيه ولا تبالوا بقتلهم ثمة لأنهم الذين هتكوا حرمة فاستحقوا أشد العذاب وفى العدول عن صيغة المفاعلة التى بها ورد النهى والشرط عدة بالنصر والغلبة وقرىء ولا تقتلواهم حتى يقتلوكم فإن قاتلوكم فاقتلوهم والمعنى حتى يقتلوا بعضكم كقتلنا بنو أسد ﴿ كذلك جزاء الكافرين ﴾ يفعل بهم مثل ما فعلوا بغيرهم ﴿ فإن انتهوا عن القتال والكفر بعد ما رأوا قتالكم ﴾ ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ يغفر لهم ما قد سلف ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ﴾ أى شرك ﴿ ويكون الدين لله ﴾ خالصا ليس للشيطان فيه نصيب ﴿ فإن انتهوا ﴾ بعد مقاتلتكم عن الشرك ﴿ فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾ أى فلا تعتدوا عليهم إذ لا يحسن الظلم إلا لمن ظلم فوضع العلة موضع الحكم وتسمية الجزاء بالعدوان للمشاكلة كما فى قوله عز وجل ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه ﴾ أو إنكم إن تعرضتم للمنتهين صرتم ظالمين وتنعكس الحال عليكم والفاء الأولى للتعقيب والثانية للجزاء .

﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام ﴾ قاتلهم المشركون عام الحديبية فى ذى القعدة فقبل لهم عند خروجهم لعمرة القضاء فى ذى القعدة أيضاً وكرهتهم القتال فيه هذا الشهر الحرام بذلك الشهر الحرام وهتكه بهتكم فلا تبالوا به ﴿ والحرمت قصاص ﴾ أى كل حرمة وهى ما يجب المحافظة عليه يجرى فيها القصاص فلما هتكوا حرمة شهركم بالصد فافعلوا بهم مثله وادخلوا عليهم عنوة فاقتلوهم إن قاتلوكم كما قال تعالى : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه

بمثل ما اعتدى عليكم) وهي فذلـكة مقررـة لما قبلها ﴿ واتقوا الله ﴾ في شأن الانتصار واحذروا أن تعتدوا إلى ما لم يرخـص لكم ﴾ واعلموا أن الله مع المتقين) فيحرسهم ويصلح شؤونهم بالنصر والتمكين ﴿ وأنفقوا في سبيل الله ﴾ أمر بالجهاد بالمال بعد الأمر به بالأنفس أى ولا تمسكوا كل الإمساك : ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ بالإسراف وتضييع وجه المعاش أو بالكف عن الغزو والإنفاق فيه فإن ذلك مما يقوى العدو ويسلطه عليكم ويؤيده ما روى عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه أنه قال لما أعز الله الإسلام وكثر أهله رجعنا إلى أهالينا وأموالنا نقيم فيها ونصلحها فنزلت أو بالإمساك وحب المال فإنه يؤدى إلى الهلاك المؤبد ولذلك سمي البخل هلاكا وهو فى الأصل انتهاء الشيء فى الفساد والإلقاء طرح الشيء وتعديته إلى لتضمنه معنى الانتهاء والباء مزيدة والمراد بالأيدى الأنفس والتهلكة مصدر كالتنصرة والتسترة وهى والهالك واحد أى لا توقعوا أنفسكم فى الهلاك وقيل معناه لا تجعلوها آخذة بأيديكم ولا تلقوا بأيديكم أنفسكم لئلا فحذف المفعول ﴿ وأحسنوا ﴾ أى أعمالكم وأخلاقكم أو تفضلوا على الفقراء ﴿ إن الله يحب المحسنين ﴾ أى يريد بهم الخير وقوله تعالى : ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله ﴾ بيان لوجوب إتمام أفعالهما عند التصدى لأدائهما وإرشاد للناس إلى تدارك ما عسى يعتريهم من العوارض المحتملة بذلك من الإحصار ونحوه من غير تعرض لحالهما فى أنفسهما من الوجوب وعدمه كما فى قوله تعالى (ثم أتموا الصيام إلى الليل) فإنه بيان لوجوب مد الصيام إلى الليل من غير تعرض لوجوب أصله وإنما هو بقوله تعالى (كتب عليكم الصيام) الآية كما أن وجوب الحج بقوله تعالى (والله على الناس حج البيت) الآية فإن الأمر بإتمام فعل من الأفعال ليس أمرا بأصله ولا مستلزما له أصلا فليس فيه دليل على وجوب العمرة قطعا وادعاء أن الأمر بإتمامها أمر بإنشائها تامين كاملين حسبما تقتضيه قراءة وأقيموا الحج والعمرة وأن الأمر للوجوب ما لم يدل على خلافه دليل بما لا سداد له ضرورة أن ليس البيان مقصورا على أفعال الحج المفروض حتى يتصور ذلك بل الحق أن تلك

القرآءة أيضا محمولة على المشهورة ناطقة بوجود إقامة أفعالهما كما ينبغي من غير تعرض لجهلها في أنفسهما فالمعنى أكملوا أركانها وشرائطها وسائر أفعالها المعروفة شرعا لوجه الله تعالى من غير إخلال منكم بشيء منها هذا وقد قيل لإتمامهما أن تحرم بهما من دوية أهلك روى ذلك عن علي وابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهم وقيل أن تفرد لكل واحد منها سفرا كما قال محمد حجة كوفية وعمرة كوفية أفضل وقيل هو جعل نفقتهما حلالا وقيل أن تخلصوهما للعبادة ولا تشوبوهما بشيء من الأغراض الدنيوية وأيا ما كان فلا تعرض في الآية الكريمة لوجوب العمرة أصلا وأما ما روى أن ابن عباس رضى الله عنهما قال إن العمرة لقريظة الحج وقول عمر رضى الله عنه هديت لسنة نبيك حين قال له رجل وجدت الحج والعمرة مكتوبين على فأهللت بهما وفي رواية فأهللت بهما جميعا فبمعزل من إفادة الوجوب مع كونه معارضا بما روى عن جابر أنه قال يارسول الله العمرة واجبة مثل الحج قال لا ولكن أن تعتمر خير لك بقوله عليه السلام الحج جهاد والعمرة تطوع فتدبر ﴿فإن أحصرتم﴾ أى منعتهم من الحج يقال حصره إذا حبسه ومنعه من المضى لوجهه مثل صدده واصدده والمراد منع العدو عند مالك والشافعي رضى الله عنهما لقوله تعالى ﴿فإذا أمتتم﴾ ولنزوله في الحديدية واقول ابن عباس لا حصرا إلا حصرا العدو وكل منع من عدو أو مرض أو غيرهما عند أبي حنيفة رضى الله عنه لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من كسر أو عرج فعليه الحج من قابل ﴿فما استيسر من الهدى﴾ أى فعليكم أو فالواجب ما استيسر أو فاهدوا ما استيسر والمعنى أن المحرم إذا أحصر وأراد أن يتحلل تحلل بذبح هدى مما تيسر عليه من بدنة أو بقرة أو شاة حيث أحصر عند الأكثر وعندنا يبعث به إلى الحرم ويجعل للبعوث بيده يوم أمار فإذا جاء اليوم وظن أنه ذبح تحلل لقوله تعالى ﴿ولا تحلقوا رؤسكم حتى يبلغ الهدى محله﴾ أى لا تحلقوا حتى تعلموا أن الهدى المبعوث إلى الحرم يبلغ مكانه الذى يجب أن ينحر فيه وحمل الأولون بلوغ الهدى محله على

ذبحه فيه حلا كان أو حرما ومرجعهم في ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذبح عام الحديبية بها وهي من الحل قلنا كان محصره عليه الصلاة والسلام طرف الحديبية الذي إلى أسفل مكة وهو من الحرم وعن الزهري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نحر هديه في الحرم وقال الواقدي الحديبية هي طرف الحرم على تسعة أميال من مكة والحل بالكسر يطلق على المسكان والزمان والهدى جمع هدية كجدي وجديه وقرىء من الهدى جمع هدية كطلى ومطية ﴿فمن كان منكم مريضا﴾ مرضا محوجا إلى الحلق ﴿أو به أذى من رأسه﴾ كجراحة أو قمل ﴿فقدية﴾ أي فعليه فدية إن حلق ﴿من صيام أو صدقة أو نسك﴾ بيان لجنس الفدية وأما قدرها فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لسكعب بن عجرة لعلك آذاك هو أمك قال نعم يا رسول الله قال لحلق وصم ثلاثة أيام أو تصدق بفرق على ستة مساكين أو انسك شاة والفرق ثلاثة أصع ﴿فإذا أمتم﴾ أي الإحصار أو كنتم في حال أمن أو سعة ﴿فمن تمتع بالعمرة إلى الحج﴾ أي فمن انتفع بالتقرب إلى الله تعالى بالعمرة قبل الانتفاع بتقربه بالحج في أشهره وقيل من استمتع بعد التحلل من عمرته باستباحة محظورات الإحرام إلى أن يحرم بالحج ﴿فما استيسر من الهدى﴾ أي فعليه دم استيسر عليه بسبب التمتع وهو دم جبران يذبحه إذا أحرم بالحج ولا يأكل منه عند الشافعي وعندنا هو كالأضحية ﴿فمن لم يجد﴾ أي الهدى ﴿فصيام ثلاثة أيام في الحج﴾ أي في أشهره بين الإحرامين ، وقال الشافعي في أيام الاشتغال بأعماله بعد الإحرام وقبل التحلل والأحب أن يصوم سابع ذي الحجة وثامنه وناسعه فلا يصح يوم النحر وأيام التشريق ﴿وسبعة إذا رجعتن﴾ أي نفرتم وفرغتم من أعماله وفي أحد قولي الشافعي إذا رجعتن إلى أهليكم وقرىء وسبعة بالنصب عطفًا على محل ثلاثة أيام ﴿تلك عشرة﴾ فذلك الحساب وفائدتها ألا يتوهم أن الواو بمعنى أو كما في قولك جالس الحسن وابن سيرين ، وأن يعلم العدد جملة كما علم تفصيلا فإن أكثر العرب لا يعرف الحساب وأن المراد بالسبعة هو العدد المخصوص دون الكثرة كما يراد بها ذلك أيضا.

﴿ كاملة ﴾ صفة مؤكدة لعشرة تفيد المبالغة في المحافظة على العدد أو مدينة لسكال العشرة فإنها أول عدد كامل إذ به ينهى الأحاد ويتم مراتبها أو مقيدة تفيد كمال بدليتها من الهدى ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى التمتع عندنا وإلى الحكم المذكور عند الشافعي ﴿ لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام ﴾ وهو من كان من الحرم على مسافة القصر عند الشافعي ومن كان مسكنه وراء الميقات عندنا وأهل الحل عند طاوس وغير أهل مكة عند مالك ﴿ واتقوا الله ﴾ في المحافظة على أوامره ونواهيه لاسيما في الحج ﴿ واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ لمن لم يتقه كي يصدكم العلم به عن العصيان وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لترية المماثلة وإدخال الروعة .

﴿ الحج ﴾ أى وقته ﴿ أشهر معلومات ﴾ معروفة بين الناس هى شوال وذو القعدة وعشر ذى الحجة عندنا وتسعة بليدة النحر عند الشافعي وكله عند مالك ومدار الخلاف أن المراد بوقته وقت إحرامه أو وقت أعماله ومناسكه أو ما لا يحسن فيه غيره من المناسك مطلقا فإن ما كرهه العمرة فى بقية ذى الحجة وأبو حنيفة وإن صحح الإحرام به قبل شوال فقد استكرهه وإنما سمي شهرين وبعض شهر أشهر إقامة للبعض مقام الكل أو إطلاقا للجمع على ما فوق الواحد وصيغة جمع المذكر فى غير العقلاء تجيء بالالف والتاء ﴿ فمن فرض فىهن الحج ﴾ أى أوجبه على نفسه بالإحرام فىهن أو بالتلبية أو بسوق الهدى ﴿ فلا رفث ولا فسوق ﴾ أى لاجماع أو فلا فحش من الكلام ولا خروج من حدود الشرع بارتكاب المحظورات وقيل بالسباب والتناؤد بالألقاب ﴿ ولا جدال ﴾ أى لامراء مع الخدم والرفقة ﴿ فى الحج ﴾ أى فى أيامه والإظهار فى مقام الإضمار لإظهار كمال الاعتناء بشأنه والإشعار بعلّة الحكم فإن زيارة البيت المعظم والتقرب بها إلى الله عز وجل من موجبات ترك الأمور المذكورة وإثارة النفى للمبالغة فى النهى والدلالة على أن ذلك حقيق بأن لا يكون فإن ما كان منكرا مستقبجا فى نفسه فى تضاعيف الحج أقبح كلبس الحرير فى الصلاة والنظير بقراءة القرآن لأنه خروج عن مقتضى الطبع والعادة إلى محض

العبادة وقرىء الأولان بالرفع على معنى لا يكونن رفث ولا فسوق والثالث بالفتح على معنى الإخبار بانتقاء الخلاف في الحج وذلك أن قریشا كانت تخالف سائر العرب فتقف بالمشعر الحرام فانرفع الخلاف بأن أمروا بأن يقفوا أيضاً بعرفات ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾ فيجزى به خير جزاء وهو حث على فعل الخير لإثر النهى عن الشر ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾ أى تزودوا لمعادكم التقوى فإنه خير زاد وقيل نزلت في أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن متوكلون فيكونون كلا على الناس فأمروا أن يتزودوا ويتقوا الإبرام في السؤال والثقل على الناس ﴿واتقون يا أولى الألباب﴾ فإن قضية اللب استشعار خشية الله عز وجل وتقواه حثهم على التقوى ثم أمرهم بأن يكون المقصود بذلك هو الله تعالى فيتهربوا من كل شيء سواه وهو مقتضى العقل المعرى عن شوائب الهوى فلذلك خص بهذا الخطاب أولو الألباب ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا﴾ أى فى أن تبتغوا أى تطلبوا ﴿فضلا من ربكم﴾ عطاء ورزقا منه أى الربح بالتجارة وقيل كان عكاظ ومجنته وذو المجاز أسواقهم فى الجاهلية يقيمونها أيام مواسم الحج وكانت معايشهم منها فلما جاء الإسلام تأموا منه فنزلت ﴿فإذا أفضت من عرفات﴾ أى دفعتم منها بكثرة من أفضت الماء إذا صببته بكثرة وأصله أفضتم أنفسكم حذف المفعول حذفه من دفعت من البصرة وعرفات جمع سمي به كأذرعات وإنما نون وكسر وفيه علمية وتأنيث لما أن تنوين الجمع تنوين المقابلة لاتنوين التمكن ولذلك يجمع مع اللام وذهاب الكسرة تبع ذهاب التنوين من غير عوض لعدم الصرف وههنا ليس كذلك أولان التأنيث إما بالتاء المذكورة وهى ليست بتاء التأنيث وإنما هى مع الألف التى قبلها علامة جمع المؤنث أو بناء مقدرة كما فى سعاد ولا سبيل إليه لأن المذكورة تأبى تقديرها لما أنها كالبديل منها لاختصاصها بالمؤنث كتاء بنت وإنما سمي الموقف عرفة لأنه نعت لإبراهيم عليه السلام فلما أبصره عرفه أولان جبريل عليه السلام كان يدور به فى المشاعر فلما رآه قال عرفت أولان آدم وحواء التقيا فيه فتعارفا أولان الناس يتعارفون فيه وهى من الأسماء المرتجلة

إلا من يجعلها جمع عارف قيل وفيه دليل على وجوب الوقوف بها لأن الإفاضة لا تكون إلا بعده وهي مأمور بها بقوله تعالى ﴿ثم أفيضوا﴾ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم الحج عرفة ، فمن أدرك عرفة فقد أدرك الحج أو مقدمة المذكر المأمور به وفيه نظر إذ الذكر غير واجب والأمر به غير مطلق ﴿فاذكروا الله﴾ بالتلمية والتهيل والدعاء وقيل بصلاة العشاءين ﴿عند المشعر الحرام﴾ هو جبل يقف عليه الإمام ويسمى قزح وقيل ما بين مازى عرفة ووادي محسر ويؤيد الأول ما روى جابر أنه عليه الصلاة والسلام لما صلى الفجر يعنى بالمزدلفة بغلس ركب ناقته حتى أتى المشعر الحرام فدعا فيه وكبر وهلل ولم يزل واقفا حتى أسفر وإنما سمي مشعرا لأنه معلم العبادة ووصف بالحرام لحرمة ومعنى عند المشعر الحرام ما يليه ويقرب منه فإنه أفضل وإلا فالمزدلفة كلها موقف الإوادي محسر ﴿واذكروه كما هداكم﴾ أى كما علمكم أو اذكروه ذكرا حسنا كما هداكم هداية حسنة إلى المناسك وغيرها وما مصدرية أو كافة ﴿وإن كنتم من قبله﴾ من قبل ما ذكر من هدايته إياكم ﴿لمن الضالين﴾ غير العاملين بالإيمان والطاعة وأن الخففة واللام هي الفارقة وقيل هي نافية واللام بمعنى إلا كما في قوله عز وعلا ﴿وإن نظنك لمن الكاذبين﴾ ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ أى من عرفة لا من المزدلفة والخطاب لقريش لما كانوا يقفون بجمع وسائر الناس بعرفة ويرون ذلك ترفعا عليهم فأمروا بأن يساووهم وثم لتفاوت ما بين الإفاضة كما في قولك أحسن إلى الناس ثم لا تحسن إلا إلى كريم وقيل من مزدلفة إلى متى بعد الإفاضة من عرفة إليها والخطاب عام وقرىء الناس بكسر السين أى الناسى على أن يراد به آدم عليه السلام من قوله تعالى فنسى والمعنى أن الإفاضة من عرفه شرع قديم فلا تغيروه ﴿واستغفروا الله﴾ من جاهليتكم فى تغيير المناسك ﴿إن الله غفور رحيم﴾ يغفر ذنب المستغفر وينعم عليه فهو تعليل للاستغفار أو للأمر به ﴿فاذا قضيت مناسككم﴾ عباداتكم المتعلقة بالحج وفرغتم منها ﴿فاذكروا الله كذكركم آباءكم﴾ أى فأكثروا ذكره تعالى وبالغوا فى ذلك كما تفعلون بذكر آباءكم ومفاخرهم وأيامهم وكانت العرب إذا قضوا

مناسكهم وقفوا بيني وبين المسجد والجبل فيذكرون مفاخر آباءهم ومحاسن أيامهم ﴿أو أشد ذكرا﴾ ، إما مجرور معطوف على الذكر يجعله ذا كرا على المجاز والمعنى فاذكروا الله ذكرا كأننا مثل ذكركم آباءكم أو كذا ذكر أشد منه وأبلغ أو على ما أضيف إليه بمعنى أو كذا قوم أشد منكم ذكرا أو منصوب بالعطف على آباءكم وذكرا من فعل المذكور بمعنى أو كذا ذكركم أشد مذكور من آباءكم أو بمضمرة دل عليه المعنى تقديره أو كونوا أشد ذكرا لله منكم لآباءكم ﴿فمن الناس﴾ تفصيل للذاكرين إلى من يطلب بذكر الله الدنيا وإلى من يطالب به خير الدارين والمراد به الحث على الإكثار والانتظام في سلك الآخرين ﴿من يقول﴾ أى فى ذكره (ربنا آتانا فى الدنيا) أى اجعل لآباءنا ومنحنتنا فى الدنيا خاصة ﴿وما له فى الآخرة من خلاق﴾ أى من حظ ونصيب لاقتصارهم على الدنيا فهو بيان لحاله فى الآخرة أو من طلب خلاق فهو بيان لحاله فى الدنيا وتأكيده لقصر دعائه على المطالب الدنيوية ﴿ومنهم من يقول ربنا آتانا فى الدنيا حسنة﴾ هى الصحة والكفاف والتوفيق للخير ﴿وفى الآخرة حسنة﴾ هى الثواب والرحمة ﴿وقنا عذاب النار﴾ بالعفو والمغفرة وروى عن على رضى الله عنه أن الحسنه فى الدنيا المرأة الصالحة ، وفى الآخرة الحور وعذاب النار امرأة السوء وعن الحسن أن الحسنه فى الدنيا العلم والعبادة ، وفى الآخرة الجنة وقنا عذاب النار معناه احفظنا من الشهوات والذنوب المؤدية إلى النار ﴿أولئك﴾ إشارة إلى الفريق الثانى باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت الجميلة وما فيه من معنى البعد لما مر مرارا من الإشارة إلى علو درجاتهم وبعد منزلتهم فى الفضل وقيل ليهما معا فالتنوين فى قوله تعالى ﴿لهم نصيب مما كسبوا﴾ على الأول للتفخيم وعلى الثانى للتنويع أى لكل نوع منهم نصيب من جنس ما كسبوا أو من أجله كقوله تعالى (بما خطيئاتهم أغرقوا) أو بما دعوا به نعطيهم منه ما قدرناه وتسمية الدعاء كسبا لما أنه من الأعمال ﴿والله سريع الحساب﴾ يحاسب العباد على كثرتهم وكثرة أعمالهم فى مقدار لحظة فاحذروا من الإخلال بطاعة من هذا شأن قدرته أو يوشك أن يقيم القيامة ويحاسب الناس فبادروا

إلى الطاغوت اكتساب الحسنات ﴿ واذكروا الله ﴾ أى كبروه فى أعقاب الصلوات وعند ذبح القرابين ورمى الجمار وغيرها ﴿ فى أيام معدودات ﴾ هى أيام التشريق ﴿ فمن تعجل ﴾ أى استعجل فى النفر أو النفر فإن الفعل والاستفعال يجيئان لازمين ومتعديين يقال تعجل فى الأمر واستعجل فيه وتعجله واستعجله. والأول أوفق للتأخر كما فى قوله :

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون من المستعجل الزلل

﴿ فى يومين ﴾ أى فى تمام يومين بعد يوم النحر وهو القر ويوم الرأس واليوم بعده ينفر إذا فرغ من رمى الجمار ﴿ فلا إثم عليه ﴾ بتعجله ﴿ ومن تأخر ﴾ فى النفر حتى رمى فى اليوم الثالث قبل الزوال أو بعده وعند الشافعى بعده فقط ﴿ فلا إثم عليه ﴾ بما صنع من التأخر والمراد التخيير بين التعجل والتأخر ولا يقدر فيه أفضلية الثانى وإنما ورد بنى الإثم تصريحاً بالرد على أهل الجاهلية حيث كانوا مختلفين فمن مؤثم للمتعجل ومؤثم للتأخر ﴿ لمن اتقى ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أى الذى ذكر من التخيير ونفى الإثم عن المتعجل والمتأخر أو من الأحكام لمن اتقى لأنه الحاج على الحقيقة والمنتهى به أو لأجله حتى لا يتضرر بترك ما يهمله منهما ﴿ واتقوا الله ﴾ فى جامع أموركم بفعل الواجبات وترك المحظورات ليعبأ بكم وتلتظموا فى سلك المغتنمين بالأحكام المذكورة والرخص أو احذروا الإخلال بما ذكر من الأحكام وهو الأنسب بقوله عز وجل ﴿ واعلموا أنكم إليه تحشرون ﴾ أى للجزاء على أعمالكم بعد الإحياء والبعث وأصل الحشر الجمع والضم المتفرق وهو تأكيد للأمر بالتقوى وموجب للامتثال به فإن من علم بالحشر والمحاسبة والجزاء كان ذلك من أقوى الدواعى إلى ملازمة التقوى ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله ﴾ تجريد للخطاب وتوجيه له إليه عليه الصلاة والسلام وهو كلام مبتدأ سيق لبيان تحزب الناس فى شأن التقوى إلى حزبين وتعيين مآل كل منهما ومن موصولة أو موصوفة وإعرابه كما بينا فى قوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وبالْيَوْمِ الآخِرِ) أى ومنهم من يروك كلامه ويعظم موقعه فى نفسه لما تشاهد فيه من ملاءمة الفجوى

ولطف الأداء والتعجب حيرة تعرض للإنسان بسبب عدم الشعور بسبب ما يتعجب منه ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ متعلق بقوله أى ما يقوله في حق الحياة الدنيا ومعناها فإنها الذى يريد بما يدعيه من الإيمان ومحبة الرسول صلى الله عليه وسلم وفيه إشارة إلى أن له قولا آخر ليس بهذه الصفة أو يبعجيك أى يعجبك قوله في الدنيا بحلاوته وفصاحته لا في الآخرة لما أنه يظهر هناك كذبه وقبحه وقيل لما يرهقه من الحبسة واللكنة وأنت خبير بأنه لا مبالغة حيثئذ في سوء حاله فإن ما له بيان حسن كلامه في الدنيا وقبحه في الآخرة وقيل معنى في الحياة الدنيا أى لا يصدر منه فيها إلا القول الحسن ﴿ ويشهد الله على ما في قلبه ﴾ أى بحسب ادعائه حيث يقول الله يعلم أن ما في قلبى موافق لما فى لسانى وهو عطف على يعجبك وقرىء ويشهد الله فالمراد بما فى قلبه ما فيه حقيقة ويؤيده قراءة ابن عباس رضى الله عنهما (والله يشهد على ما فى قلبه) على أن كلمة على لكون المشهود به مضراً له فالجملته اعتراضية وقرىء ويستشهد الله ﴿ وهو ألد الخصام ﴾ أى شديد العداوة والخصومة للمسلمين على أن الخصام مصدر وإضافة ألد إليه بمعنى فى كقولهم ثبت العذر أو أشد الخصوم لهم خصومة على أنه جمع خصم كصعب وصعاب قيل نزلت فى الأحنس بن شريق الثقفى وكان حسن المنظر حلو المنطق يوالى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويدعى الإسلام والمحبة وقيل فى المنافقين والجملة حال من الضمير المجرور فى قوله أو من المستكن فى يشهد وعطف على ما قبلها على القراءتين المتوسطتين ﴿ وإذا تولى ﴾ أى من مجلسك وقيل إذا صار والياً ﴿ سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ﴾ كما فعله الأحنس بثقيف حيث بيثهم وأحرق زروعهم وأهلك مواشيهم أو كما يفعله ولاية السوء بالقتل والإتلاف أو بالظلم حتى يمنع الله تعالى بشؤمه القطر فيهلك الحرث والنسل وقرىء ويهلك الحرث والنسل على إسناد الهلاك إليهما عطفاً على سعى وقرىء بفتح اللام وهى لغة وقرىء على البناء للفعول من الإهلاك ﴿ والله لا يحب الفساد ﴾ أى لا يرتضيه بل يبغضه ويفضبه على من يتعاطاه وهو اعتراض تذييل .

﴿ وإذا قيل له ﴾ على نهج العظة والنصيحة ﴿ اتق الله ﴾ وارك ما تباشره من الفساد أو النفاق واحذر سوء مغبته ﴿ أخذته العزة بالإثم ﴾ أى حملته الألفه وحمية الجاهلية على الإثم الذى نهى عنه لجأجا وعنادا من قولك أخذته بكذا إذا حملته عليه أو ألزمته إياه ﴿ فحسبه جهنم ﴾ مبتدأ وخبر أى كافيته جهنم وقيل جهنم فاعل لحسبه ساد مسد خبره وهو مصدر بمعنى الفاعل وقوى لاعتقاده على الفاء الرابطة للجمله بما قبلها وقيل حسب اسم فعل ماض أى كفته جهنم ﴿ لبس المهاد ﴾ جواب قسم مقدر والمخصوص بالذم محذوف لظهوره وتعينه والمهاد الفراش وقيل ما يوطأ للجنب والجملة اعتراض ﴿ ومن الناس من يشرى نفسه ﴾ مبتدأ وخبر كما مر أى يبيعها بينظا فى الجهاد ومشاق الطاعات وتعريضها للمهلك فى الحروب أو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وإن ترتب عليه القتل ﴿ ابتغاء مرضات الله ﴾ أى طالبا لرضاه وهذا كمال التقوى وإيراده قسيما للأول من حيث أن ذلك يأنف من الأمر بالتقوى وهذا يأمر بذلك وإن أدى إلى الهلاك وقيل نزلت فى صهيب بن سنان الرومى أخذه المشركون وعذبوه ليرتد فقال لى شيخ كبير لا أنفعكم إن كنتم معكم ولا أضركم إن كنتم عليكم فخلونى وما أنا عليه وخذوا مالى فقبلوا منه ماله فأتى المدينة فيشرى حينئذ بمعنى يشتري لجرىان الحال على صورة الشراء ﴿ والله رؤوف بالعباد ﴾ ولذلك يكلفهم التقوى ويعرضهم للثواب والجملة اعتراض تذييل ﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم ﴾ أى الاستسلام والطاعة وقيل الإسلام وقرىء بفتح السين وهو لغة فيه وفتح اللام أيضا وقوله تعالى ﴿ كافة ﴾ حال من الضمير فى ادخلوا أو من السلم أو منهما معا فى قوله :

خرجت بها تمشى تجر وراءنا على أثرنا ذيل مرط مرجل

وهى فى الأصل اسم الجماعة تكلف مخالفا ثم استعملت فى معنى جميعا وتأوها ليست للتأنيث حتى يحتاج إلى جعل السلم مؤنثا مثل الحرب كما فى قوله عز وجل (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها) وفى قوله :

السلم تأخذ منها ما رضيت به والحرب يكفيك من أنفاسها جرع

وإنما هي للنقل كما في عامة وخاصة وقاطبة والمعنى استسلموا لله تعالى وأطيعوه
جملة ظاهرا وباطنا والخطاب للمنافقين أو ادخلوا في الإسلام بكليته ولا
تخلطوا به غيره والخطاب لمؤمني أهل الكتاب فإنهم كانوا يراعون بعض أحكام
دينهم القديم بعد إسلامهم أو في شرائع الله تعالى كلها بالإيمان بالأنبياء عليهم
السلام والكتب جميعاً والخطاب لأهل الكتاب كلهم ووصفهم بالإيمان إما على
طريقة التغليب وإما بالنظر إلى إيمانهم القديم أو في شعب الإسلام وأحكامه
كلها فلا يخلوا بشيء منها والخطاب للمسلمين وإنما خوطب أهل الكتاب بعنوان
الإيمان مع أنه لا يصح الإيمان إلا بما كفروه الآن لئذا بان ما يدعونه لا يتم
بدونه ﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ بالتفرق والتفريق أو بمخالفة ما أمرتم
به ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ ظاهر العداوة أو مظهر لها وهو تعليل للنهي أو الانتهاء
﴿ فإن زلتم ﴾ أي عن الدخول في السلم. وقرئ بكسر اللام وهي لغة فيه ﴿ من
بعد ما جاءكم ﴾ الآيات ﴿ البينات ﴾ والحجج القطعية الدالة على حقيقته الموجبة
للدخول فيه ﴿ فاعلموا أن الله عزيز ﴾ غالب على أمره لا يعجزه الاتقمام منكم
﴿ حكيم ﴾ لا يترك ما تقتضيه الحكمة من مؤاخذة المجرمين المستعصين على أمره
﴿ هل ينظرون ﴾ استفهام إنكارى في معنى النفي أي ما ينتظرون بما يفعلون
من العناد والمخالفة في الامتثال بما أمروا به والانتهاء عما نهوا عنه ﴿ إلا أن
يأتهم الله ﴾ أي أمره وبأسه أو يأتهم الله بأمره وبأسه فحذف المآتي به للدلالة
الحال عليه والالتفات إلى الغيبة للإيذان بأن سوء صنيعهم موجب للإعراض
عنهم وحكاية جنائيتهم لمن عداهم من أهل الإنصاف على طريق المباشرة وليراد
الانتظار للإشعار بأنهم لانهما كهم فيما هم فيه من موجبات العقوبة كأنهم طالبون
لها مترقبون لوقوعها ﴿ في ظلال ﴾ جمع ظلة كقول جمع قلة وهي ما أظلك وقرئ
بالجر عطفاً على ظلل أو الغمام ﴿ وقضى الأمر ﴾ أي تم أمر إهلاكهم وفرغ منه
وهو عطف على يأتهم داخل في حيز الانتظار وإنما عدل إلى صيغة الماضي
دلالة على تحققه فكأنه قد كان أو جملة مستأنفة جيء بها إنباء عن وقوع
مضمونها وقرئ وقضاء الأمر عطفاً على الملائكة ﴿ وإلى الله ﴾ لا إلى غيره

﴿ ترجع الأمور ﴾ بالتأنيث على البناء للمفعول من الرجوع وقرئ بالتذكير وعلى البناء للفاعل بالتأنيث من الرجوع .

﴿ سل بني إسرائيل ﴾ الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد من أهل الخطاب والمراد بالسؤال تسكينهم وتقريعهم بذلك وتقرير الحجى اليينات ﴿ كم آتيناهم من آية بينة ﴾ معجزة ظاهرة على أيدي الأنبياء عليهم السلام وآية ناطقة بحقية الإسلام المأمور بالدخول فيه وكم خبرية أو استفهامية مقرررة ومحلها النصب على المفعولية أو الرفع بالابتداء على حذف العائد من الخبر وآية يميزها ﴿ ومن يبدل نعمة الله ﴾ التي هي آياته الباهرة فإنها سبب للهدى الذى هو أجل النعم وتبديلها جعلها سببا للضلالة وازدياد الرجس أو تحريفها وتأويلها الزائغ ﴿ من بعد ما جاءته ﴾ ووصلت إليه وتمكن من معرفتها والتصريح بذلك مع أن التبديل لا يتصور قبل الحجى للإشعار بأنهم قد بدلوها بعد ما وقفوا على على تفاصيلها كما فى قوله عز وجل ﴿ ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴾ قيل تقديره فبدلوها ومن يبدل وإنما حذف للإيدان بعدم الحاجة إلى التصريح به لظهوره ﴿ فإن الله شديد العقاب ﴾ تعليل للجواب كأنه قيل ومن يبدل نعمة الله يعاقبه أشد عقوبة فإنه شديد العقاب وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة ﴿ زين للذين كفروا الحياة الدنيا ﴾ أى حسنت فى أعينهم وأشربت محبتها فى قلوبهم حتى تهاكوا عليها وتهافتوا فيها معرضين عن غيرها والذين من حيث الخلق والإيجاد مستند إليه سبحانه كما يعرب عنه القراءة على البناء للفاعل إذا ما من شىء إلا وهو خالقه وكل من الشيطان والقوى الحيوانية وما فى الدنيا من الأمور البهية والأشياء الشبيهة مزين بالعرض ﴿ ويستخرون من الذين آمنوا ﴾ عطف على زين وإيثار صيغة الاستقبال للدلالة على استمرار السخرية منهم وهم فقراء المؤمنين كبلال وعمار وصهيب رضى الله عنهم كانوا يستردلونهم ويستهنئونهم على رفضهم الدنيا وإقبالهم على العقبى ومن ابتدائية فكأنهم جعلوا السخرية مبدأة منهم .

﴿ والذين اتقوا ﴾ هم الذين آمنوا بعينهم وإنما ذكروا بعنوان التقوى للإيدان

بأن إعراضهم عن الدنيا للاتقاء عنها لكونها مخلة بتبتلهم إلى جناب القدس شاعلة عنه ﴿فوقهم يوم القيامة﴾ لأنهم في أعلى عليين وهم في أسفل سافلين أو لأنهم في أوج السكرامة وهم في حضيض الذل والمهانة أو لأنهم يتطاولون عليهم في الآخرة فيسخرون منهم كما سخروا منهم في الدنيا والجملة مطروفة على ما قبلها وإيثار الاسمية للدلالة على دوام مضمونها ﴿والله يرزق من يشاء﴾ أى فى الدارين ﴿بغير حساب﴾ بغير تقدير فيوسع فى الدنيا استدراجا تارة وابتلاء أخرى ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ متفقين على كلمة الحق ودين الإسلام وكان ذلك بين آدم وإدريس أو نوح عليهم السلام أو بعد الطوفان ﴿فبعث الله النبيين﴾ أى فاختلّفوا فبعث الخ وهى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه وقد حذف تعويلا على ما يذكر عقبيه ﴿مبشرين ومنذرين﴾ عن كعب الذى علمته من عدد الأنبياء عليهم السلام مائة وأربعة وعشرون ألفا والمرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر والمذكور فى القرآن ثمانية وعشرون وقيل كان الناس أمة واحدة متفقة على الكفر والضلال فى فترة إدريس أو نوح فبعث الله النبيين فاختلّفوا عليهم والأول هو الأنسب بالنظم الكريم ﴿وأزل معهم الكتاب﴾ أى جنس الكتاب أو مع كل واحد منهم ممن له كتاب كتابه الخاص به لا مع كل واحد منهم على الإطلاق إذ لم يكن لبعضهم كتاب وإنما كانوا يأخذون بكتب من قبلهم وعموم النبيين لا ينافى خصوص الضمير العائد إليه بمعونة المقام ﴿بالحق﴾ حال من الكتاب أى ملتبسا بالحق أو متعلق بأزل كقوله عز وعلّا (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) ﴿ليحكم﴾ أى الكتاب أو الله سبحانه وتعالى أول كل واحد من النبيين ﴿بين الناس﴾ أى المذكورين والإظهار فى موضع الإضمار لزيادة التعيين ﴿فما اختلفوا فيه﴾ أى فى الحق الذى اختلفوا فيه أو فيما التبس عليهم ،

﴿وما اختلف فيه﴾ أى فى الحق أو فى الكتاب المنزل ملتبسا به والواو حالية ﴿إلا الذين أتوه﴾ أى الكتاب المنزل لإزالة الاختلاف وإزاحة الشقاق والتعبير عن الإنزال بالإيتاء للتنبيه من أول الأمر على كمال تمسكهم

من الوقوف على ما في تضاعيفه من الحق فإن الإنزال لا يفيد تلك الفائدة أى عكسوا الأمر حيث جعلوا ما أنزل لإزالة الاختلاف سببا لاستحكامه ورسوخه ﴿ من بعد ما جاءتهم البينات ﴾ أى رسخت في عقولهم ومن متعلقة بمحذوف يدل عليه الكلام أى فاختلفوا وما اختلف فيه إلخ وقيل بالملفوظ بزاء على عدم منع إلا عنه كما في قولك ما قام إلا زيد يوم الجمعة ﴿ بغيا بينهم ﴾ متعلق بما تعلقت به من أى اختلفوا بغيا وتهاالكاعلى الدنيا ﴿ فهدى الله الذين آمنوا ﴾ بالكتاب ﴿ لما اختلفوا فيه ﴾ أى للحق الذى اختلف فيه من اختلف ﴿ من الحق ﴾ بيان لما وفي إبهامه أو لا وتفسيره ثانيا ما لا يخفى من التفخيم ﴿ بإذنه ﴾ بأمره أو بتيسيره ولطفه ﴿ والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ موصل إلى الحق وهو اعتراض مقرر لمضمون ما سبق .

﴿ أم حسبتم ﴾ خوطب به رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين حثا لهم على الثبات على المصابرة على مخالفة الكفرة وتحمل المشاق من جهتهم لإثر بيان اختلاف الأمم على الأنبياء عليهم السلام وقد بين فيه ما لاختلافهم وما لقي الأنبياء ومن معهم من قلبهم من مكابدة الشدائد ومقاساة الهموم وأن عاقبة أمرهم النصر وأم منقطعة والهمزة فيها للإنكار والاستبعاد أى بل أحسبتم ﴿ أن تدخاوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ﴾ من الأنبياء ومن معهم من المؤمنين أى والحال أنه لم يأتكم مثلهم بعد ولم تبتلوا بما ابتلوا به من الأحوال الهائلة التى هى مثل فى الفظاعة والشددة وهو متوقع ومنتظر ﴿ مستهم ﴾ استئناف وقع جوابا عما ينساق إليه الذهن كأنه قيل وكيف كان مثلهم فقيل مستهم ﴿ البأساء ﴾ أى الشدة من الخوف والفاقة ﴿ والضراء ﴾ أى الآلام والأمراض (وزلوا) أى أزعجوا إزعاجا شديدا بما دهمهم من الأهوال والأفزاع ﴿ حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه ﴾ أى انتهى أمرهم من الشدة إلا حيث اضطروهم الضجر إلى أن يقول الرسول وهو أعلم الناس بشؤون الله تعالى وأوثقهم بنصره والمؤمنون المقتدون بآثاره المستضيئون بأنواره ﴿ متى ﴾ أى متى يأتى ﴿ نصر الله ﴾ طلبيا وتمنيا له

واستطالة لمدة الشدة والعناء وقرىء حتى يقول بالرفع على أنه حكاية حال ماضية وهذا كما ترى غاية الغايات القاصية ونهاية النهايات النائية كيف لا والرسل مع علو كعبهم في الثبات والاصطبار حيث عيل صبرهم وبلغوا هذا المبلغ من الضجر والضحج علم أن الأمر بلغ إلى غاية لا مطمح وراءها ﴿ألا إن نصر الله قريب﴾ على تقدير القول أى فليل لهم حينئذ ذلك إسعافاً لمرامهم والمراد بالقرب القرب الزمانى وفى إثبات الجملة الاسمية على الفعلية المناسبة لما قبلها وتصديرها بحرف التنبيه والتأكيد من الدلالة على تحقيق مضمونها (١) ما لا يخفى واختيار حكاية الوعد بالنصر لما أنها فى حكم إنشاء الوعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم والاقتصار على حكايتها دون حكاية نفس النصر مع تحققه للإيدان بعدم الحاجة إلى ذلك لاستحالة الخلف ويجوز أن يكون هذا وارداً من جهته تعالى عند الحكاية على نهج الاعتراض لا وارداً عند وقوع المحكى وفيه رمز إلى أن الوصول إلى جناب القدس لا يتسنى إلا برفض اللذات ومكابدة المشاق كما ينبىء عنه قوله عليه السلام حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات .

﴿يسألونك ماذا ينفقون﴾ أى من أصناف أموالهم ﴿قل ما أنفقتم من خير﴾ إما شرطية وإما موصولة حذف العائد إليها أى ما أنفقتموه من خير أى من خير كان ففيه تجوز الإنفاق من جميع أنواع الأموال وبيان لما فى السؤال إلا أنه جعل من جملة ما فى حيز الشرط أو الصلة وأبرز فى معرض بيان المصرف حيث قيل ﴿فللوالدين والأقربين﴾ للإيدان بأن الأهم بيان المصارف المحدودة لأن الاعتداد بالإنفاق بحسب وقوعه فى موقعه وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه جاء أنه جاء عمرو بن الجوح وهو شيخهم له مال عظيم فقال يارسول الله ماذا تنفق من أموالنا وأين نضعها فنزلت ﴿واليتامى﴾ أى المحتاجين منهم ﴿والمساكين وابن السبيل﴾ ولم يتعرض للسائلين والرقاب إما اكتفاء بما ذكر

في المواقع الأخر وإما بناء على دخولهم تحت عموم قوله تعالى ﴿ وما تفعلوا من خير ﴾ فإنه شامل لكل خير واقع في أي مصرف كان ﴿ فإن الله به عليم ﴾ فيوفي ثوابه وليس في الآية ما ينافيه فرض الزكاة لينسخ به كما نقل عن السدي ﴿ كتب عليكم القتال ﴾ ببناء الفعل للمفعول ورفع القتال أي قتال الكفرة وقرىء ببنائه للفاعل وهو الله عز وجل ونصب القتال وقرىء وكتب عليكم القتل أي قتل الكفرة والواو في قوله تعالى ﴿ وهو كره لكم ﴾ حالية أي والحال أنه مكروه لكم طبعاً على أن الكره مصدر وصف به المفعول مبالغة أو بمعنى المفعول كالحبز بمعنى الخبز وقرىء بالفتح على أنه بمعنى المضموم كالضعف والضعف أو على أنه بمعنى الإكراه مجازاً كأنهم أكرهوا عليه لشدة كراهتهم له ومشقته عليهم ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ﴾ وهو جميع ما كلفوه من الأمور الشاقة التي من جملتها القتال فإن النفوس تكرهه وتنفر عنه والجملة اعتراضية دالة على أن في القتال خيراً لهم ﴿ وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ﴾ وهو جميع ما نهوا عنه من الأمور المستلثة وهو معطوف على ما قبله لاجل لهما من الإعراب ﴿ والله يعلم ﴾ ما هو خير لكم فلذلك أمركم به ^(١) ﴿ وأنتم لا تعلمون ﴾ أي لا تعلمونه ولذلك تكرهونه أو والله يعلم ما هو خير وشر لكم وأنتم لا تعلمونهما فلا تتبعوا في ذلك رأيكم وامثلوا بأمره تعالى .

﴿ يسألونك عن الشهر الحرام ﴾ روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث عبد الله بن جحش على سرية في جمادى الآخرة قبل قتال بدر بشهرين ليتصدوا عيراً لقريش فيهم عمرو بن عبد الله الحضرمي وثلاثة معه فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير بما فيها من تجارة الطائف وكان ذلك أول يوم من رجب وهم يظنون أنه من جمادى الآخرة فقالت قريش قد استحج محمد الشهر الحرام شهراً يأمن فيه الخائف ويبدع فيه الناس إلى معايشهم فوقف رسول

(١) في ط : يأمركم .

الله صلى الله عليه وسلم العير وعظم ذلك على أصحاب السرية وقالوا ما نبرح حتى تنزل توبتنا ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم العير والأسارى وعن ابن عباس رضى الله عنهما لما نزلت أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنيمة ، والمعنى يسألك الكفار أو المسلمون عن القتال في الشهر الحرام على أن قوله عز وجل ﴿ قتال فيه ﴾ بدل اشتغال من الشهر وتنكيره لما أن سؤالهم كان عن مطلق القتال الواقع في الشهر الحرام لا عن القتال المعهود ولذلك لم يقل يسألونك عن القتال في الشهر الحرام وقرئ عن قتال فيه ﴿ قل ﴾ في جوابهم ﴿ قتال فيه كبير ﴾ جملة من مبتدأ وخبر محلها النصب بقل وإنما جاز وقوع قتال مبتدأ مع كونه نكرة لتخصصه إما بالوصف إن تعلق الظرف بمحذوف وقع صفة له أى قتال كائن فيه وإما بالعمل إن تعلق به وإنما أوتر التنكير احترازاً عن توهم التعمين وإيذاناً بأن المراد مطلق القتال الواقع فيه أى قتال كان عن عطاء أنه سئل عن القتال في الشهر الحرام خلف بالله ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم ولا في الشهر الحرام إلا أن يقاتلوا فيه وما نسخت وأكثر الأقاويل أنها منسوخة بقوله تعالى ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ ﴿ وصد عن سبيل الله ﴾ مبتدأ قد تخصص بالعمل فيما بعده أى ومنع عن الإسلام الموصل للعبد إلى الله تعالى ﴿ وكفر به ﴾ عطف على صدعامل فيما بعده مثله أى وكفر بالله تعالى وحيث كان الصد عن سبيل الله فرداً من أفراد الكفر به تعالى لم يقدح العطف المذكور في حسن عطف قوله تعالى ﴿ والمسجد الحرام ﴾ على سبيل الله لأنه ليس بأجنبي محض وقيل هو أيضاً معطوف على صد بتقدير المضاف أى وصد المسجد الحرام ﴿ وإخراج أهله ﴾ وهو النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ﴿ منه ﴾ أى من المسجد الحرام وهو عطف على وكفر به .

﴿ أكبر عند الله ﴾ خبر للأشياء المدودة أى كباثر السائلين أكبر عند الله مما عنوا بالسؤال عنه وهو ما فعلته السرية خطأ وبناء على الظن وأفضل يستوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ﴿ والفتنة ﴾ أى ما ارتكبه من

الإخراج والشرك وصد الناس عن الإسلام ابتداء وبقاء ﴿أكبر من القتل﴾
أى أفضح من قتل الحضرمي .

﴿ولا يزالون يقاتلونكم﴾ بيان لاستحكام عدوتهم وإصرارهم على الفتنة
في الدين ﴿حتى يردوكم عن دينكم﴾ الحق إلى دينهم الباطل وإضافة الدين إليهم
لتذكير تأكد ما بينهما من العلاقة الموجبة لامتناع الافتراق ﴿لأن استطاعوا﴾
الإشارة إلى تصلبهم في الدين وثبات قدمهم فيه كأنه قيل وأنى لهم ذلك ﴿ومن
يرتد منكم عن دينه﴾ تحذير من الارتداد أى ومن يفعل ذلك بإضلالهم
وإغوائهم ﴿فيمت وهو كافر﴾ بأن لم يرجع إلى الإسلام وفيه ترغيب في
الرجوع إلى الإسلام بعد الارتداد ﴿فأولئك﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار
إضافته بما في حين الصلة من الارتداد والموت عليه وما فيه من معنى البعد
للإشعار ببعد منزلتهم في الشر والفساد والجمع للنظر إلى المعنى أى أولئك المصرون
على الارتداد إلى حين الموت ﴿حبطت أعمالهم﴾ الحسنة التي كانوا عملوها في
حالة الإسلام حبوطاً لا تلافى له قطعا ﴿في الدنيا والآخرة﴾ بحيث لم يبق لها
حكم من الأحكام الدنيوية والآخروية ﴿وأولئك﴾ الموصوفون بما ذكر سابقا
ولا حقا من القبائح ﴿أصحاب النار﴾ أى ملابسوها وملازموها ﴿هم فيها خالدون﴾
كدأب سائر الكفرة ﴿لأن الذين آمنوا﴾ نزلت في أصحاب السرية لما ظن بهم
أنهم إن سلموا من الإثم فلا أجر لهم ﴿والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله﴾
كرر الموصول مع أن المراد بهما واحد لتفخيم شأن الهجرة والجهاد فكأنهما
مستقلان في تحقيق الرجاء ﴿أولئك﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة المذكورة
﴿يرجون﴾ بما لهم من مبادئ الفوز ﴿رحمة الله﴾ أى ثوابه أثبت لهم الرجاء
دون الفوز بالمرجو للإيمان بأنهم عالمون بأن العمل غير موجب للأجر وإنما
هو على طريق التفضل منه سبحانه لا لأن في فوزهم اشتباها ﴿والله غفور﴾
مبالغ في مغفرة ما فرط من عباده خطأ ﴿رحيم﴾ يهزل لهم الأجر والثواب
والجملة اعتراض بمحقق لمضمون ما قبلها .

﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ تواردت في شأن الخمر أربع آيات نزلت

بمكة (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا) فطفق المسلمون يشربونها ثم إن عمر ومعاذا ونفرامن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين قالوا أفتنا يا رسول الله في الخمر فإنها مذهبة للعقل فنزلت هذه الآية فشربها قوم وتركها آخرون ثم دعا عبد الرحمن بن عوف ناسا منهم فشربوا فسكروا فأما أحدهم فقرأ (قل يا أيها الكافرون أعبدوا ما تعبدون) فنزلت (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) الآية فقل من يشربها ثم دعا عتبان بن مالك سعد بن أبي وقاص في نفر فلها سكروا تفاخروا وتناشدوا حتى أنشد سعد شعرا فيه هجاء للأنصار فضربه أنصاري بلحى بعير فشججه شججة موضحة فشكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا فنزلت (إنما الخمر والميسر) إلى قوله تعالى (فهل أتم منتهون) فقال عمر رضى الله عنه انتهينا يارب وعن علي رضى الله عنه لو وقعت قطرة منها في بئر فبئيت في مكانها منارة لم أؤذن عليها ولو وقعت في بحر ثم جف فنبت فيه السكلاء لم أرعه وعن ابن عمر رضى الله عنهما لو أدخلت أصبعي فيها لم تتبعني وهذا هو الإيمان والتقى حقار رضوان الله تعالى عليهم أجمعين . والخمر مصدر خمره أى ستره سمي به من عصير العنب على ما غلى واشتد وقذف بالزبد لتغطيتها العقل والتمييز كأنها نفس الستر كما سميت سكرًا لأنها تسكرهما أى تحجزهما والميسر مصدر ميمى من يسر كالموعد والمرجع يقال يسرته إذا قرته واشتقاقه إما من اليسر لأنه أخذ المال بيسر من غير كد. ولا^(١) تعب وإما من اليسار لأنه سلب له وصفته أنه كانت لهم عشرة قداح هى الأزلام والأقلام : الفذ والتوأم والرقيب والحلمس والنافس والمسبل والمعلى والمنيع والسفيح والوغد لكل منها نصيب معلوم من جزور ينحرونها ويحزونها. عشرة أجزاء وقيل ثمانية وعشرين إلا الثلاثة وهى المنيع والسفيح والوغد. للفذ سهم وللتوأم سهمان وللرقيب ثلاثة وللحلمس أربعة وللنافس خمسة وللمسبل ستة وللمعلى سبعة يجعلونها فى الربابة وهى خريطة ويضعونها على يدى عدل.

(١) سقطت من ط .

ثم يجلجلها ويدخل يده فيخرج باسم رجل رجل قدحا قدحا فن خرج له قدح من ذوات الأنصباء أخذ النصيب المعين لها ومن خرج له من تلك الثلاثة غرم ثمن الجزور مع حرمانه وكانوا يبيعون تلك الأنصباء إلى الفقراء ولا يأكلون منها ويفتخرون بذلك ويندمون من لا يدخل فيه ويسمونه البرم وفي حكمه جميع أنواع القهار من النرد والشطرنج وغيرهما وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «إياكم وهاتين اللعبتين المشؤمتين» فإنهما مياسر العجم وعن علي كرم الله وجهه أن النرد والشطرنج من الميسر وعن ابن سيرين كل شيء فيه خطر فهو من الميسر . والمعنى يسألونك عن حكمهما وعمما في تعاطيهما .

﴿ قل فيهما لإثم كبير ﴾ أى فى تعاطيهما ذلك لما أن الأول مسببة للعقوبات التى هى قطب الدين والدنيا مع كون كل منهما متلفة للأموال (ومنافع للناس) من كسب الطرب واللذة ومصاحبة الفتيان وتشجيع الجبان وتقوية الطهامة وقرىء لإثم كثير بالمثلثة وفى تقديم بيان لإثمه ووصفه بالكبير وتأخير ذكر منافعه مع تخصيصها بالناس من الدلالة على غلبة الأول ما لا يخفى على ما نطق به قوله تعالى ﴿ وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ أى المماسد المترتبة على تعاطيهما أعظم من الفوائد المترتبة عليه وقرىء أقرب من نفعهما .

﴿ ويسألونك ماذا ينفقون ﴾ عطف على يسألونك عن الخبر لإخ عطف القصة على القصة أى أى شيء ينفقونه قيل هو عمرو بن الجوح أيضا سأل أولا من أى جنس ينفق من أجناس الأموال فلما بين جواز الإنفاق من جميع الأجناس سأل ثانيا من أى أصنافها تنفق أمن خيارها أم من غيرها أو سأل عن مقدار ما ينفقه منه فقيل ﴿ قل العفو ﴾ بالنصب أى ينفقون العفو أو أنفقوا العفو وقرىء بالرفع على أن ما استنفامية وذا موصولة صلتهما ينفقون أى الذى ينفقونه العفو قال الواحدى أصل العفو فى اللغة الزيادة وقال القفال العفو ماسهل وتيسر بما فضل من الكفاية وهو قول قتادة وعطاء والسدى وكانت الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين يكسبون المال ويمسكون قدر النفقة ويتصدقون بالفضل

وروى أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم ببئضة من ذهب أصابها في بعض المغنم فقال خذها مني صدقة فأعرض عنه فكرر ذلك مرارا حتى قال عليه السلام مغضبا هاتها فأخذها فحذفها عليه حذفها لو أصابته لشجته ثم قال : « يا أتى أحدكم بماله كله يتصدق به ويجلس يتكفف الناس إنما الصدقة عن ظهر غنى »

﴿ كذلك ﴾ إشارة إلى مصدر الفعل الآتى وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجة المشار إليه في الفضل مع كمال تميزه وانتظامه بسبب ذلك في سلك الأمور المشاهدة والكاف لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة وإفراد حرف الخطاب مع تعدد المخاطبين باعتبار القبيل أو الفريق أو لعدم القصد إلى تعيين المخاطب كما مر ومحل النصيب على أنه نعت لمصدر محذوف أى مثل ذلك البيان الواضح الذى هو عبارة عمامضى في أجوبة الأسئلة المارة ﴿ يبين أى لكم الآيات ﴾ الدالة على الأحكام الشرعية المذكورة لايباتا أدنى منه وقد مر تمام تحقيقه في قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) وتبين الآيات تنزيلها ظاهرة^(١) الفجوى واضحة المدلول لا أنه تعالى يبينها بعد أن كانت مشبهة ملتبسة وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة ﴿ لعلكم تتفكرون ﴾ لى تتفكروا فيها وتقفوا على مقاصدها: وتعملوا بما فى تضاعيفها وقوله تعالى ﴿ فى الدنيا والآخرة ﴾ متعلق إما بيبين أى يبين لكم فيما يتعلق بالدنيا والآخرة الآيات وإما بمحذوف وقع حالا من الآيات أى يبينها لكم كائنه فيما أى مبيته لأحوالكم المتعلقة بهما وإنما قدم عليه التعليل بمزيد الاعتناء بشأن التفكير وإما بقوله تعالى تتفكرون أى تتفكرون فى الأمور المتعلقة بالدنيا والآخرة فى الأحكام الواردة فى أجوبة الأسئلة المارة فتختارون منها ما يصلح لكم فيهما وتجتنبون عن غيره وهذا التخصيص هو المناسب لمقام تعداد الأحكام الجزئية ويجوز التعميم لجميع الأمور المتعلقة بالدنيا والآخرة بذلك حينئذ إشارة إلى ما مر من البيانات كلا أو بعضا لا إلى مصدر

(١) فى ط : مبينة.

ما بعده فإنه حينئذ فعل مستقل ليس بعبارة عن تلك البيانات والمراد بالآيات غير ما ذكر والمعنى مثل ذلك البيان الوارد في الأجوبة المذكورة يبين الله لكم الآيات والدلائل لعلكم تتفكرون في أموركم المتعلقة بالدنيا والآخرة وتأخذون بما يصلح لكم وينفعكم فيهما وتذرون ما يضركم حسبما تقتضيه تلك الآيات المسببة .

﴿ ويسألونك عن اليتامى ﴾ عطف على ما قبله من نظيره روى أنه لما نزلت إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً الآية تحامى الناس عن مخالطة اليتامى وتعهد أموالهم فشق عليهم ذلك فذكروه للنبي صلى الله عليه وسلم فنزلت ﴿ قل إصلاح لهم خير ﴾ أى التعرض لأحوالهم وأموالهم على طريق الإصلاح خير من مجانبتهم اتقاء .

﴿ وإن تخالطوهم ﴾ وتعاشروهم على وجه ينفعهم ﴿ فإخوانكم ﴾ أى فهم إخوانكم أى فى الدين الذى هو أقوى من العلاقة النسبية ومن حقوق الأخوة ومواجهتها المخالطة بالإصلاح والنفذ وقد حمل المخالطة على المصاهرة ﴿ والله يعلم المفسد من المصلح ﴾ العلم بمعنى المعرفة المتعدية إلى واحد ومن لتضمينته معنى التمييز أى يعلم من يفسد فى أمورهم عند المخالطة أو من يقصد بمخالطته الخيانة والإفساد بميزاله من يصلح فيها أو يقصد الإصلاح فيجازى كلا منهما بعمله ففيه وعد ووعد خلا أن فى تقديم المفسد من يد تهديد وتأ كيد للوعد ﴿ ولو شاء الله لأعنتكم ﴾ أى لو شاء أن يعنتكم أو يكلفكم ما يشق عليكم من العنت وهو المشقة لفعل ولم يجوز لكم مداخلتهم ﴿ إن الله عزيز ﴾ غالب على أمره لا يعز عليه أمر من الأمور التى من جملتها إعناتكم فهو تعليل لمضمون الشرطية وقوله عز وجل ﴿ حكيم ﴾ أى فاعل لأفعاله حسبما تقتضيه الحكمة الداعية إلى بناء التكليف على أساس الطاقة دليل على ما تفيدته كلمة ولو، من اتقاء مقدها .

﴿ولا تنكحوا المشركات﴾ أى لا تتزوجوهن وقرىء بهنم التاء من الإنكاح أى لا تزوجوهن من المسلمين ﴿حتى يؤمن﴾ والمراد بهن إما ما يعم الكتابيات أيضا حسبما يقتضيه عموم التعليلين الآتين لقوله تعالى (وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله) إلى قوله (سبحانه عما يشركون) فالآية منسوخة بقوله تعالى ﴿والحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ وأما غير الكتابيات فهي ثابتة وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث مرثد بن أبى مرثد الغنوى إلى مكة ليخرج منها ناسا من المسلمين وكان يهوى امرأة في الجاهلية اسمها عناق فأنته فقالت ألا تخلو فقال ويحك إن الإسلام حال بيننا فقالت هل لك أن تتزوج بي قال نعم ولكن أرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاستأمره فاستأمره فنزلت ﴿ولامة مؤمنة﴾ تعليل للنهي عن مواصلةهن وترغيب في مواصلة المؤمنات صدر بلام الابتداء الشبيهة بلام القسم في إفادة التأكيد مبالغة في الحمل على الانزجار وأصل أمة أمو حذف لامها على غير قياس وعوض منه تاء التأنيث ودليل كون لامها واو رجوعها في الجمع قال الكلابي أما الإمام فلا يدعونى ولدا إذا تداعى بنو الأموات بالعار وظهورها في المصدر يقال هي أمة بينة الأموة وأقرت له بالأموة وقد وقعت مبتدأ لما فيها من لام الابتداء والوصف أى ولامة مؤمنة مع ما بها من حساسة الرق وقلة الخطر ﴿خير﴾ بحسب الدين والدنيا ﴿من مشركة﴾ أى امرأة مشركة مع ما لها من شرف الحرية ورفعة الشأن ﴿ولو أعجبتكم﴾ قد مر أن كلمة لو في أمثال هذه المواضع ليست لبيان انتفاء الشيء في الماضي لانتهاء غيره فيه فلا يلاحظ لها جواب قد حذف ثقة بدلالة ما قبلها عليه مع انصباب المعنى على تقديره بل هي لبيان تحقيق ما يفيد الكلام السابق من الحكم على كل حال مفروض من الأحوال المقارنة له على الإجمال بإدخالها على أبعدها منه وأشدها منافاة له ليظهر بثبوته معه ثبوته مع ما عداه من الأحوال بطريق الأولوية لما أن الشيء متى تحقق مع المنافي القوى فلأن يتحقق مع غيره أولى ولذلك لا يذكر معه شيء من سائر الأحوال ويكتفى عنه بذكر الواو العاطفة

للجملة على نظيرتها المقابلة لها المتناولة لجميع الأحوال المغايرة لها وهذا معنى قولهم إنها لاستقصاء الأحوال على وجه الإجمال كأنه قيل لو لم تعجبكم ولو أعجبتم والجملة في حين النصب على الحالية من مشركة إذ المآل ولامة مؤمنة خير من امرأة مشركة حال عدم إعجابها إياكم بجهاها وما لها ونسبها وغير (١) ذلك من مبادئ الإعجاب وموجبات الرغبة فيها أى على كل حال وقد اقتصر على ذكر ما هو أشد منافاة للخيرية تنبها على أنها حيث تحققت معه فلا تنحقق مع غيره أولى وقيل الواو الحالية وليس بواضح وقيل اعتراضية وليس بسديد والحق أنها عاطفة مستتعبة لما ذكر من الاعتبار اللطيف . نعم يجوز أن تكون الجملة الأولى مع عاطف عليها مستأنفة مقررمة لمضمون ما قبلها فتدبر .

﴿ ولا تنكحوا المشركين ﴾ من الإنكاح والمراد بهم الكفار على الإطلاق لما مرأى لانزوجوا منهم المؤمنات سواء كن حرائر أو إماء ﴿ حتى يؤمنوا ﴾ ويتركوهاهم فيه من الكفر ﴿ ولعبد مؤمن ﴾ مع ما به من ذل المملوكية ﴿ خير مشرك ﴾ مع ماله من عز المالكية ﴿ ولو أعجبكم ﴾ بما فيه من دواعي الرغبة فيه الراجعة إلى ذاته وصفاته ﴿ أولئك ﴾ استئناف مقرر لمضمون التعليلين السابقين أى أولئك المذكورون من المشركات والمشركين ﴿ يدعون ﴾ من يقارنهم ويعاشرهم ﴿ إلى النار ﴾ أى إلى ما يؤدي إليها من الكفر والفسوق فلا بد من الاجتناب عن مقارنتهم ومقاربتهم ﴿ والله يدعو ﴾ بواسطة عباده المؤمنين من يقارنهم ﴿ إلى الجنة والمغفرة ﴾ أى إلى الاعتقاد الحق والعمل الصالح الموصلين إليهما وتقديم الجنة على المغفرة مع أن حق التخليه أن تقدم على التخليه لرعاية مقابلة النار ابتداء ﴿ بإذنه ﴾ متعلق بیدعو أى يدعو ملتبسا بتوفيقه الذى من جملته إرشاد المؤمنين لمقاربتهم إلى الخير ونصيحتهم إياهم أحقاء بالمواصلة ﴿ ويبين آياته ﴾ المشتملة على الأحكام الفاتحة والحكم الراقية ﴿ للناس لعلمهم يتذكرون ﴾ أى لكي يتذكروا ويعملوا بما فيها فيفوز بما دعوا إليه من الجنة والغفران . هذا وقد قيل معنى والله يدعو وأولياء الله يدعون ولا

بما فيها فيفوز بما دعوا إليه من الجنة والغفران. هذا وقد قيل معنى والله يدعو وأولياء الله يدعون وهم المؤمنون على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه. تشریفاً لهم وأنت خير بأن الضمير في المعطوف على الخبر أعنى قوله تعالى. وبين الله تعالى فيلزم التفكيك وقيل معناه وأى يدعو بأحكامه المذكورة إلى الجنة والمغفرة فإنها موصلة لمن عمل بها إليهما وهذا وإن كان مستدعياً لاتحاد مرجع الضميرين السكانيين في الجملتين المتعاطفتين الواقعتين خبراً للمبتدأ لسن. يفوت حينئذ حسن المقابلة بينه وبين قوله تعالى (أولئك يدعون إلى النار) ولعل الطريق الأسلم ما أوضحناه أولاً وإيراد التذکر ههنا للإشعار بأنه واضح لا يحتاج إلى التفكر كما في الأحكام السابقة .

﴿ ويسألونك عن المحيض ﴾ عطف على ما تقدم من مثله ولعل حكاية هذه .
 الأسئلة الثلاثة بالعطف لوقوع الكل عند السؤال عن الخبر وحكاية ما عداها
 بغير عطف لوقوع كل من ذلك في وقت على حدة والمحيض مصدر من حاضت
 المرأة كالحيء والمبيت . روى أن أهل الجاهلية كانوا لا يساكنون الحيض .
 ولا يؤاكلونهم كدأب اليهود والمجوس واستمر الناس على ذلك إلى أن سأل
 عن ذلك أبو الدرداء في نفر من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فنزلت
 ﴿ قل هو أذى ﴾ أى شيء يستقذر منه ويؤذى من يقربه نفرة منه وكرهه له
 ﴿ فاعتزلوا النساء في المحيض ﴾ أى فاجتنبوا مجامعتهم في حالة المحيض . قبل أخذ
 المسلمون بظاهر الاعتزال فأخرجوهن من بيوتهم فقال ناس من الأعراب
 يا رسول الله البرد شديد والثياب قليلة فإن آثرناهن هلك سائر أهل البيت
 وإن استأثرنا بها هلكت الحيض فقال صلى الله عليه وسلم « إنما أمرتم أن تعتزلوا
 مجامعتهم إذا حضن ولم يأمركم بإخراجهن من البيوت كفعل الأعاجم، وقيل إن
 النصراني كانوا يجامعونهم ولا يبالون بالحيض واليهود كانوا يفرطون
 في الاعتزال فأمر المسلمون بالاعتقاد بين الأمرين ﴿ ولا تقر بهن حتى يطهرن ﴾
 تأكيد لحكم الاعتزال وتنبية على أن المراد به عدم قربانهم لا عدم القرب
 منهم وبيان لغايته وهو انقطاع الدم عند أبي حنيفة رحمه الله فإن كان ذلك

في أكثر المدة حل القربان كما انقطع وإلا فلا بد من الاغتسال أو من مضى وقت صلاة وعند الشافعي رحمه الله أن يغتسلن بعد الانقطاع كما تفصح عنه القراءة بالتشديد وينبئ عنه قوله عز وجل ﴿ فإذا تطهروا فإنا نتطهر هو الاغتسال ﴾ فأتوهن من حيث أمركم الله ﴿ من المأتى الذي حلله لكم وهو القبل ﴾ إن الله يحب التوابين ﴿ مما عسى يبدر^(١) منهم من ارتكاب بعض ما نهوا عنه ومن سائر الذنوب ﴾ ويحب المتطهرين ﴿ المنتزهين عن الفواحش والأقذار وفي ذكر التوبة لإشعار بمساس الحاجة إليها بارتكاب بعض الناس لما نهوا عنه وتكرير الفعل لمزيد العناية بأمر التطهر .

﴿ نساؤكم حرث لكم ﴾ أى مواضع حرث لكم شبهن بها لما بين ما يلقى في أرحامهن وبين البذور من المشابهة من حيث أن كلا منهما مادة لما يحصل منه ﴿ فأتوا حرثكم ﴾ لما عبر عنهن بالحرث عبر عن مجامعتن بالإتيان وهو بيان لقوله تعالى ﴿ فأتوهن من حيث أمركم الله ﴾ ﴿ أنى شئتم ﴾ من أى جهة شئتم . روى أن اليهود كانوا يزعمون أن من أتى امرأته في قبلها من دبرها يأتى ولده أحول فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت ﴿ وقدموا لأنفسكم ﴾ أى ما يدخر لكم من الثواب وقيل هو طلب الولد وقيل هو التسمية عند المباشرة ﴿ واتقوا الله ﴾ بالاجتناب عن معاصيه التى من جملتها ما عد من الأمور ﴿ واعلموا أنكم ملاقوه ﴾ فتعرضوا لتحصيل ما تفتنسون به حينئذ واجتنبوا اقتراف ما تفتنسون به ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ الذين تلقوا ما خوطبوا به من الأوامر والنواهي بحسب القبول والامتنال بما يقصر عنه البيان من الكرامة والنعيم المقيم أو بكل ما يبشر به من الأمور التى تسر بها القلوب وتقر بها العيون وفيه مع ما فى تلوين الخطاب وجعل المبشر رسول الله صلى الله عليه وسلم من المبالغة فى تشریف المؤمنين ما لا يخفى ﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لإيمانكم ﴾ قيل نزلت فى عبد الله بن رواحة حين حلف أن لا يكلم ختنته بشر بن النعمان ولا يصلح بينه وبين أخته وقيل فى الصديق رضى الله عنه حين

حلف أن لا ينفق على مسطح لخوضه في حديث الإفك والعرضة فعلة بمعنى مفعول كالقبضة والغرفة تطلق على ما يعرض دون الشيء فيصير حاجزا عنه كما يقال فلان عرضة للخير وعلى المعرض للأمر كما في قوله :

« فلا تجعلوني عرضة للوأم »

فالمعنى على الوجه الأول لا تجعلوا الله مانعا من الأمور (١) الحسنة التي تحلفون على تركها وعبر عنها بالإيمان لملاستها بها كما في قوله عليه السلام لعبد الله بن سمرة « إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك » وقوله تعالى : ﴿ أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس ﴾ عطف بيان لأيمانكم أو بدل منها لما عرفت أنها عبارة عن الأمور المحلوف عليها واللام في لأيمانكم متعلقة بالفعل أو بعرضة لما فيها من معنى الاعتراض أي لا تجعلوا الله لبركم وتقواكم وإصلاحكم بين الناس عرضة أي برزخا حاجزا بأن تحلفوا به تعالى على تركها أو لا تجعلوه تعالى عرضة أي شيئا يعترض الأمور المذكورة ويحجزها بما ذكر من الحلف به تعالى على تركها وقد جوز أن تكون اللام للتعليل ويتعلق أن تبروا الخ بالفعل أو بعرضة فيكون الإيمان بمعناها وأنت خير بأنه يؤدي إلى الفصل بين العامل ومعموله بأجنبي وعلى الوجه الثاني لا تجعلوا الله معرضا لأيمانكم تبتذلونه بكثرة الحلف به ولذلك ذم من نزلت فيه ولا تطع كل حلاف مهين بأشنع المذام وجعل الحلاف مقدمتها وأن تبروا حينئذ علة للنهي أي إرادة أن تبروا وتتقوا وتصلحوا لأن الحلاف مجتريء على الله سبحانه غير معظم له فلا يكون برا متقيا ثقة بين الناس فيكون بمعزل من التوسط في إصلاح ذات البين ﴿ والله سميع ﴾ يسمع أيمانكم ﴿ عليم ﴾ يعلم نياتكم لحافظوا على ما كلفتموه .
﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ﴾ اللغو ما سقط من الكلام عن درجة الاعتبار والمراد به في الإيمان ما لا عقد معه ولا قصد كما ينبىء عنه قوله تعالى

(١) في ط : للأمر .

(ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان) وهو المعنى بقوله عز وجل ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ وقد اختلف فيه فمئدنا هو أن يحلف على شيء يظنه على ما حلف عليه ثم يظهر خلافه فإنه لا قصد فيه إلى الكذب وعند الشافعي رحمه الله هو قول العرب لا والله وبلى والله بما يؤكدون به كلامهم من غير إخطار الحلف بالبال فالمعنى على الأول لا يؤاخذكم الله أى لا يعاقبكم بلغو اليمين الذى يحلفه أحدكم ظاناً أنه صادق فيه ولكن يعاقبكم بما اقترفته قلوبكم من إثم القصد إلى الكذب فى اليمين وذلك فى الغموس وعلى الثانى لا يلزمكم الكفارة بما لا قصد معه إلى اليمين ولكن يلزمكموها بما نوت قلوبكم وقصدت به اليمين ولم يكن كسب اللسان فقط ﴿والله غفور﴾ حيث لم يؤاخذكم بالغو مع كونه ناشئاً من عدم التثبت وقلة المبالاة ﴿حليم﴾ حيث لم يعجل بالمؤاخذة والجملة اعتراض مقرر لمضمون قوله تعالى لا يؤاخذكم الخ وفيه إيدان بأن المراد بالمؤاخذة المعاقبة لا يحجب الكفارة إذ هى التى يتعلق بها المغفرة والحلم دونه .

﴿الذين يؤولون من نسائهم﴾ الإبلاء الحلف وحقه أن يستعمل بعلى واستعماله بمن لتضمينه معنى البعد أى للذين يحلفون متباعدين من نسائهم ويحتمل أن يراد لهم من نسائهم ﴿تربص أربعة أشهر﴾ كقولك لى منك كذا وقرىء آلوا من نسائهم وقرىء يقسمون من نسائهم والإبلاء من المرأة أن يقول والله لا أقربك أربعة أشهر فصاعداً على التقييد بالأشهر أو لا أقربك على الإطلاق ولا يكون فيما دون ذلك وحكمه أنه إن فاء إليها فى المدة بالوطء إن أمكن أو بالقول إن عجز عنه صحح الفء وحنث القادر ولزمته كفارة اليمين ولا كفارة على العاجز وإن مضت الأشهر^(١) الأربعة بانة بتطبيقه والتربص الانتظار والتوقف أضيف إلى الظرف أنساعاً أى لهم أن ينتظروا فى هذه المدة من غير مطالبة بقاء أو طلاق ﴿فإن فاءوا﴾ أى رجعوا عن

(١) سقطت من ط .

اليمين بالحنث والفاء للتفصيل كما إذا قلت أنا نزيلكم هذا الشهر فإن حمدتكم أقمت عندكم إلى آخره وإلا لم ألث إلا ريثما أتحوّل ﴿فإن الله غفور رحيم﴾
يعرض للمولى بفيئته التي هي كتوبته إثر حنثه عند تكفيره أو ما قصد بالإيلاء من ضرار المرأة .

﴿ وإن عزموا الطلاق ﴾ وأجمعوا عليه ﴿ فإن الله سميع ﴾ بما جرى منهم من الطلاق وما يتعلق به من الدممة والمقاولة التي لا تخلو عنها الحال عادة ﴿ عليهم ﴾ بنياتهم وفيه من الوعيد على الإصرار وترك الفيئة ما لا يخفى ﴿ والمطلقات ﴾ أي ذوات الأقراء من الحرائر المدخول بهن لما قد بين أن لاعدة على غير المدخول بها وأن عدة من لا تحيض لصغر أو كبر أو حمل بالأشهر ووضع الحمل وأن عدة الأمة قرآن أو شهران ﴿ يتربصن ﴾ خبر في معنى الأمر مفيد للتأكيد يا شعاره بأن المأمور به مما يجب أن يتلق بالمسارعة إلى الإتيان به فكأنهن امتثلن بالأمر بالتربص فتخبر به موجودا متحققا وبنائه على المبتدأ مفيد لزيادة تأكيد ﴿ بأنفسهن ﴾ الباء للتعدية أي يقمعنها ويحملنها على ما لا تشتهي بل يشق عليها من التربص وفيه مزيد حث لمن على ذلك لما فيه من الإنباه عن الاتصاف بما يستنكفن منه من كون نفوسهن طوامح إلى الرجال فيحملن ذلك على الإقدام على الإتيان بما أمر به ﴿ ثلاثة قروء ﴾ نصب على الظرفية أو المفعولية بتقدير مضاف أي يتربصن مدة ثلاثة قروء أو يتربصن -مضى ثلاثة قروء وهو جمع قرء والمراد به الحيض بدليل قوله صلى الله عليه وسلم ردى الصلاة أيام أقرانك، وقوله عليه السلام طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان، وقوله تعالى (واللاتي يئسن من المحيض من نساءكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر) ولأن المقصود الأصلي من العدة استبراء الرحم ومداره الحيض دون الطهر ويقال أقرأت المرأة إذا حاضت وقوله تعالى (فطلقوهن لعدتهن) معناه مستقبلات لعدتهن وهي الحيض الثلاث وإيراد جمع الكثرة في مقام جمع القله بطريق الإتساع فإن إيراد كل من الجمعين مكان الآخر شائع ذائع وقرىء ثلاثة قروء بغير همز ﴿ ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله

في أرحامهن ﴿ من الحيض والولد استعجالاً للعدة ^(١) وإبطالا لحق الرجعة وفيه دليل على قبول قولهن في ذلك نفياً وإثباتاً ﴿ إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ جواب الشرط محذوف يدل عليه ما قبله دلالة واضحة أى فلا يجترئن على ذلك فإن قضية الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر الذى يقع فيه الجزاء والعقوبة منافية له قطعاً ﴿ وبهولتهن ﴾ البعولة جمع بعل وهو فى الأصل السيد المسالك والتاء لتأنيث الجمع كما فى الحزونة والسهولة أو مصدر بتقدير مضاف أى أهل بهولتهن أى أزواجهن الذين طلقوهن طلاقاً رجعياً كما ينبىء عنه التعبير عنهم بالبعولة والضمير لبعض أفراد المطلقات ﴿ أحق بردهن ﴾ إلى ملكهم بالرجعة لملهن ﴿ فى ذلك ﴾ أى فى زمان التربص وصيغة التفضيل لإفادة أن الرجل إذا أراد الرجعة والمرأة تاباها وجب إثبات قوله على قولها لأن لها أيضاً حقاً فى الرجعة ﴿ إن أرادوا ﴾ أى الأزواج بالرجعة ﴿ لإصلاح ﴾ لما بينهم وبينهن وإحساناً لملهن ولم يريدوا مضارتهن وليس المراد به شرطية قصد الإصلاح بصحة الرجعة بل هو الحث عليه والزجر عن قصد الضرار ﴿ ولهن ﴾ عليهم من الحقوق ﴿ مثل الذى ﴾ لهم ﴿ عليهم بالمعروف ﴾ من الحقوق التى يجب مراعاتها ويتحتم المحافظة عليها ﴿ وللرجال عليهن درجة ﴾ أى زيادة فى الحق لأن حقوقهم فى أنفسهن وحقوقهن فى المهر والسكفاف وترك الضرار ونحوها أومزية فى الفضل لما أنهم قوامون عليهن حراس لهن ولما فى أيديهن يشاركونهن فى ^(٢) الغرض من الزواج ويستبدون بفضيلة الرعاية والإنفاق ﴿ والله عزيز ﴾ يقدر على الانتقام ممن يخالف أحكامه ﴿ حكيم ﴾ تنطوى شرانعه على الحكم والمصالح .

﴿ الطلاق ﴾ هو بمعنى التطلق كالسلام بمعنى التسليم والمراد به الرجعى لما أن السابق الأقرب حكمه ، ولما روى أنه عليه السلام سئل عن الثالثة فقال عليه السلام أو تسريح بإحسان وهو مبتدأ بتقدير مضاف خبره ما بعده أى عدد الطلاق الذى يستحق الزوج فيه الرد والرجعة حسبما بين آنفاً ﴿ مرتان ﴾

(١) فى ط : فى العدة .

(٢) فى ط : فيها هو .

أى اثنان وإيثار ما ورد به النظم الكريم عليه للإيدان بأن حقهما أن يقعا مرة بعد مرة لادفعة واحدة وإن كان حكم الرد ثابتا حينئذ أيضا ﴿فإمساك﴾ أى فالحكم بعدهما إمساك لمن بالرجعة ﴿بمعروف﴾ أى بحسن عشرة ولطف معاملة ﴿أو تسريح بإحسان﴾ بالطلقة الثالثة كما روى عنه صلى الله عليه وسلم أو بعدم الرجعة إلى أن تنقضى العدة فتبين وقيل المراد به الطلاق الشرعى وبالمرتين مطلق التكرير لا التثنية بعينها كما فى قوله تعالى (ثم ارجع البصر كرتين) أى كرة بعد كرة والمعنى أن التطلق الشرعى تطلقه بعد تطلقه على التفريق دون الجمع بين الطلقتين أو الثلاث فإن ذلك بدعة عندنا فقوله تعالى فإمساك الخ حكم مبتدا وتخيير مستأنف والفاء فيه للترتيب على التعليم كأنه قيل إذا علمتم كيفية التطلق فأمركم أحد الأمرين ﴿ولا يحل لَكُمْ أن تأخذوا﴾ منهن بمقابلة الطلاق ﴿مما آتيتوهن﴾ أى من الصدقات وتخصيصها بالذكر وإن شاركها فى الحكم سائر أموالهن إما لرعاية العادة أو للتنبيه على أنه إذا لم يحل لهم أن يأخذوا مما آتوهن بمقابلة البضع عند خروجه عن ملكهم فلأن لا يحل أن يأخذوا مما لاتعلق له بالبضع أولى وأحرى ﴿شيئا﴾ أى نورا يسيرا فضلا عن الكثير وتقديم الظرف عليه لما مر مرارا والخطاب مع الحكام وإسناد الأخذ والإيتاء إليهم لأنهم الأمرون بهما عند المرافعة وقيل مع الأزواج وما بعده مع الحكام وذلك مما يشوش النظم الكريم على القراءة المشهورة ﴿إلا أن يخافا﴾ أى الزوجان وقرىء يظنوا وهو مؤيد لتفسير الخوف بالظن ﴿أن لا يقيما حدود الله﴾ أى أن لا يراعيها ما واجب أحكام الزوجية وقرىء يخافا على البناء للمفعول وإبدال أن بصلته من الضمير بدل الاشتغال وقرىء تخافا وتقيما بناء الخطاب ﴿فإن خفتن﴾ أيها الحكام ﴿أن لا يقيما﴾ أى الزوجان ﴿فيما أفتدت به﴾ لاعلى الزوج فى أخذ ما أفتدت به ولا عليها فى إعطائه إياه ، روى أن جميلة بنت عبد الله بن أبى بن سلول كانت تبغض زوجها ثابت بن قيس فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت لا أنا ولا ثابت لا يجمع رأسى ورأسه شىء والله ما أعيب عليه فى دين ولا خلق ، ولكن أكره الكفر

بعد الإسلام ما أطيقه بغضا لاني رفعت جانب الخباء فرأيته أقبل في عدة فإذا هو أشدهم سوادا وأقصرهم قامة وأقبحهم وجها فنزلت فاختلفت منه بمديقة كان أصدقها إياها .

﴿ فإن طلقها ﴾ أى بعد الطلقتين السابقتين ﴿ فلا تحل ﴾ هى ﴿ له من بعد ﴾ أى من بعد هذا الطلاق ﴿ حتى تنكح زوجا غيره ﴾ فإن النكاح أيضا يسند إلى كل منهما وتعلق بظاهره من اقتصر على العقد والجمهور على اشتراط الإصابة لما روى أن امرأة رفاعة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن رفاعة طلقني فبت طلاقى وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوجني، وإن مامعه مثل هذبة الثوب فقال صلى الله عليه وسلم تريدن أن ترجعى إلى رفاعة قالت نعم قال صلى الله عليه وسلم لا إلا أن تذوق عسيلته ويذوق عسيلتك وبمثلها تجوز الزيادة على الكتاب وقيل النكاح بمعنى الوطء والعقد مستفاد من لفظ الزوج^(١) والحكمة من هذا التشريع الردع عن المسارعة إلى الطلاق والعود إلى المطلقة ثلاثا والرغبة فيها والنكاح بشرط التحليل مكروه عندنا، ويروى عدم الكراهة فيما لم يكن الشرط مصرحا به وفسد عند الأكثرين لقوله صلى الله عليه وسلم لعن الله المحلل والحلل له ﴿ فإن طلقها ﴾ أى الزوج الثانى ﴿ فلا جناح عليهما ﴾ أى على الزوج الأول والمرأة ﴿ أن يتراجعا ﴾ أن يرجع كل منهما إلى الآخر بالعقد ﴿ إن ظننا أن يقيما حدود الله ﴾ التى أوجب مراعاتها على الزوجين من الحقوق ولا وجه لتفسير الظن بالعلم لما أن العواقب غير معلومة ولأن أن الناصبة للتوقع المنافى للعلم ولذلك لا يكاد يقال علمت أن يقوم زيد .

﴿ وتلك ﴾ إشارة إلى الأحكام المذكورة إلى هنا ﴿ حدود الله ﴾ أى أحكامه المعينة المحمية من التعرض لها بالتغيير والمخالفة ﴿ يبينها ﴾ بهذا البيان اللاتق أو سيبينها فيما سياتى بناء على أن بعضها يلحقه زيادة كشف وبيان بالكتاب

(١) فى ١١ : الزواج . .

والسنة والجملة خبر ثان عند من يجوز كونه جملة كما في قوله تعالى (فإذا هي حية تسعى) أو حال من حدود الله والعامل معنى الإشارة ﴿ لقوم يعلمون ﴾ أى يفهمون وتخصيصهم بالذكر مع عموم الدعوة والتبليغ لما أنهم المنتفعون بالبيان أو لأن ما سيلحق بعض النصوص من البيان لا يقف عليه إلا الراسخون في العلم ﴿ وإذا طلقتن النساء فبلغن أجلهن ﴾ أى آخر عدتهن فإن الأجل كما ينطلق على المدة ينطلق على منتهائها والبلوغ هو الوصول إلى الشيء وقد يقال للدنو منه اتساعا وهو المراد هنا لقوله عز وجل ﴿ فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ﴾ إذ لا إمكان للإمسك بعد تحقق بلوغ الأجل أى فراجعوهن بغير ضرار أو خلوهن حتى ينقضى أجلهن بإحسان من غير تطويل وهذا كما ترى إعادة للحكم في بعض صورته اعتناء بشأنه ومبالغة في إيجاب المحافظة عليه ﴿ ولا تمسكوهن ضرارا ﴾ تأكيد للأمر بالإمسك بمعروف وتوضيح لمعناه وزجر صريح عما كانوا يتعاطونه أى لاتراجعوهن إرادة الإضرار بهن ، كان يترك المعتدة حتى إذا شارفت انقضاء الأجل يراجعها لالرغبة فيها بل ليطول عليها العدة فنهى عنه بعد ما أمر بضده لما ذكر وضراراً نصب على العلية أو الحالية أى لاتمسكوهن للمضارة أو مضارين واللام في قوله ﴿ لتعتدوا ﴾ متعلقة بضرار أى لتظلموهن بالإلجاء إلى الافتداء .

﴿ ومن يفعل ذلك ﴾ أى ما ذكر من الإمساك المؤدى إلى الظلم وما فيه من معنى البعد للدلالة على بعد منزلته في الشر والفساد ﴿ فقد ظلم نفسه ﴾ في ضمن ظلمه لمن يتعريضها للعقاب ﴿ ولاتتخذوا آيات الله المنطوية على الأحكام المذكورة أو جميع آياته وهى داخلة فيها دخولا أوليا ﴾ هزوا ﴾ أى مهزوا بها بأن تعرضوا عنها وتهاونوا فى المحافظة على ما فى تضاعيفها من الأحكام والحدود من قولهم لمن لم يجد فى الأمر : أنت هازىء ، كأنه نهى عن الهزؤ بها وأريد ما يستلزمه من الأمر بضده أى جدوا فى الأخذ بها والعمل بما فيها وارعوها حق رعايتها وإلا فقد أخذتموها هزوا ولعبا ويجوز أن يراد به النهى عن الإمساك ضرارا فإن الرجعة بلا رغبة فيها عمل بموجب آيات الله تعالى بحسب

الظاهر دون الحقيقة وهو معنى الهزؤ وقيل كان الرجل ينكح ويطلق ويعتق ثم يقول إنما كنت أعب فنزلت ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « ثلاث جدهن جد وهن لمن جد النكاح والطلاق والعتاق، ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم ﴾ حيث هداكم إلى ما فيه سعادتهم الدينية والدنيوية أى قابلوها بالشكر والقيام بحقوقها والظرف متعلق بمحذوف وقع حالا من نعمة الله أى كائنة عليكم أو صفة لها على رأى من يجوز حذف الموصول مع بعض صلته أى الكائنة عليكم ويجوز أن يتعلق بنفسها إن أريد بها الإنعام لأنها اسم مصدر كنبات من أنبت ولا يقدح فى عمله تاء التأنيث لأنه مبنى عليها كما فى قوله :

فلولا رجاء النصر منك ورهبة عقابك قد كانوا لنا كالموارد

﴿ وما أنزل عليكم ﴾ عطف على نعمة الله وما موصولة حذف عائدها من الصلة ومن فى قوله عز وجل ﴿ من الكتاب والحكمة ﴾ بيانية أى من القرآن والسنة أو القرآن الجامع للعنوانين على أن العطف لتغاير الوصفين كما فى قوله

* إلى الملك القرم وابن الهمام *

وفى إبهامه أو لا ثم بيانه من التفتيح ما لا يخفى وفى إفراده بالذكر مع كونه أول ما دخل فى النعمة المأمور بذكرها لإبانه بخطره ومبالغة فى البعث على مراعاة ما ذكر قبله من الأحكام ﴿ يعظكم به ﴾ أى بما أنزل حال من فاعل أنزل أو من مفعوله أو منهما معا ﴿ واتقوا الله ﴾ فى شأن المحافظة عليه والقيام بحقوقه الواجبة ﴿ واعلموا أن الله بكل شىء عليم ﴾ فلا يخفى عليه شىء مما تأتون وما تدرون فيؤاخذكم بأفانين العقاب .

﴿ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن ﴾ بيان لحكم ما كانوا يفعلونه عند بلوغ الأجل حقيقة بعد بيان حكم ما كانوا يفعلونه عند المشاورة إليه والعضل الحبس والتضييق ومنه عضلت الدجاجة إذا نشب بيضها ولم يخرج والمراد المنع والخطاب إما للأولياء لما روى أنها نزلت فى معقل بن يسار حين عضل أخته جملا أن ترجع إلى زوجها الأول بالنكاح وقيل نزلت فى

جابر بن عبد الله حين عضل ابنة عم له وإسناد التطليق إليهم لتسبيهم فيه كما ينبيء عنه تصديهم للعضل ولعل التعرض لبلوغ الأجل مع جواز الزواج بالزوج الأول قبله أيضا لوقوع العضل المذكور حينئذ وليس فيه دلالة على أن ليس للمرأة أن تزوج نفسها وإلا لما احتيج إلى نهى الأولياء عن العضل لما أن النهى لدفع الضرر عنهن فإنهن وإن قدرن على تزويج أنفسهن لكنهن يحتزنن عن ذلك مخافة للوم والقطيعة ، وإما للأزواج حيث كانوا يعضلون مطلقاتهم ولا يدعونهن يتزوجن ظلما وقسرا لحمة الجاهلية ، وإما للناس كافة فإن إسناد ما فعله واحد منهم إلى الجميع شائع مستفيض والمعنى إذا وجد فيكم طلاق فلا يقع فيما بينكم عضل سواء كان ذلك من قبل الأولياء أو من جهة الأزواج أو من غيرهم وفيه تهويل لأمر العضل وتحذير منه وإيدان بأن وقوع ذلك بين ظهرانيهم وهم ساكتون عنه بمنزلة صدوره عن الكل في استتباع اللائمة وسراية الغائلة ﴿ أن ينسكحن ﴾ أي من أن ينسكحن فحلله النصب عند سيبويه والفراء والجر عند الخليل على الخلاف المشهور وقيل هو بدل اشتغال من الضمير المنصوب في تعضلوهن وفيه دلالة على صحة النكاح بعبارتهن ﴿ أزواجهن ﴾ إن أريد بهن المطلقات فالزوجة إما باعتبار ما كان وإما باعتبار ما يكون وإلا فباعتبار الأخير ﴿ إذ تراضوا ﴾ ظرف للتعضلوا وصيغة التذكير باعتبار تغليب الخطاب على النساء والتقييد به لأنه المعتاد لا لتجويز المنع قبل تمام التراضي وقيل ظرف لأن ينسكحن وقوله تعالى ﴿ بينهم ﴾ ظرف للتراضي مفيد لرسوخه واستحكامه ﴿ بالمعروف ﴾ الجميل عند الشرع المستحسن عند الناس والباء إما متعلقة بمحذوف بحال من فاعل تراضوا أو نعت^(١) لمصدر محذوف أي تراضيا كائنا بالمعروف ، وإما بتراضوا بما يحسن في الدين والمرومة وفيه إشعار بأن المنع من الزواج بغير كفو أو بما دون مهر المثل ليس من باب العضل .

(١) في ط : وقع حالا أو نعتا .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما فصل من الأحكام وما فيه من البعد لتعظيم المشار إليه والخطاب لجميع المكلفين كما فيما بعده والتوحيد إما باعتبار كل واحد منهم ، وإما بتأويل القبيل والفريق ، وإما لأن الكاف مجرد الخطاب والفرق بين الحاضر والمنقضى دون تعيين المخاطبين أو للرسول صلى الله عليه وسلم كما في قوله تعالى ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء ﴾ للدلالة على أن حقيقة المشار إليه أمر لا يكاد يعرفه كل واحد ﴿ يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ فيسارع إلى الامتثال بأوامره ونواهيه لإجلاله وخوفا من عقابه ، وقوله تعالى منكم إما متعلق بكان عند من يجوز عملها في الظروف وشبهها ، وإما بمحذوف وقع حالا من فاعل يؤمن أى كائننا منكم ﴿ ذلكم ﴾ أن الاتعاظ به والعمل بمقتضاه ﴿ أزكى لكم ﴾ أى أنمى وأنفع ﴿ وأطهر ﴾ من أدناس الآثام وأوضار الذنوب ﴿ والله يعلم ﴾ ما فيه من الزكاء والطهر ﴿ وأنتم لا تعلمون ﴾ ذلك أو والله يعلم ما فيه صلاح أموركم من الأحكام والشرائع التى من جعلتها ما بينه ههنا وأنتم لا تعلمونها فدعوا رأيكم وامثلوا أمره تعالى ونهيه فى كل ما تأتون وما تذررون .

﴿ والوالدات يرضعن أولادهن ﴾ شروع فى بيان الأحكام المتعلقة بأولادهن خصوصا واشتراكا وهو أمر أخرج مخرج الخبر مبالغة فى الحمل على تحقيق مضمونه ومعناه النذب أو الوجوب إن خص بمادة عدم قبول الصبي ثدى الغير أو فقدان الظئر أو عجز الوالد عن الاستئجار والتعبير عنهن بالعنوان المذكور لهن عطفهن نحو أولادهن والحكم عام للمطلقات وغيرهن وقيل خاص بهن إذ الكلام فيهن ﴿ حولين كاملين ﴾ التأكيد بصفة السكال لبيان أن التقدير تحقيقى لا تقرىبى مبنى على المسامحة المعتادة ﴿ لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾ بيان لمن يتوجه إليه الحكم أى ذلك لمن أراد إتمام الرضاعة وفيه دلالة على جواز النقص وقيل اللام متعلقة بيرضعن فإن الأب يجب عليه الإرضاع كالنفقة والام ترضع له كما يقال أرضعت فلانة لفلان ولده ﴿ وعلى المولود له ﴾ أى الوالد فإن الولد يولد له وينسب إليه وتغيير العبارة للإشارة إلى المعنى المقتضى لوجوب الإرضاع ومؤنة المرصعة عليه ﴿ رزقهن وكسوتهن ﴾ أجرة لهن واختلف فى

استئجار الأم وهو غير جائز عندنا مادامت في النكاح أو العدة جائز عند الشافعي، رحمه الله ﴿ بالمعروف ﴾ حسبما يراه الحاكم وينبغي به وسعه ﴿ لا تكلف نفس إلا وسعها ﴾ تعليل لا يجاب المؤمن بالمعروف أو تفسير للمعروف وهو نص على أنه تعالى لا يكلف العبد مالا يطيقه وذلك لا يتنافى إمكانه .

﴿ لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده ﴾ تفصيل لما قبله وتقرير له أي لا يكلف كل واحد منهما الآخر مالا يطيقه ولا يضاره بسبب ولده وقرىء لا تضار بالرفع بدلا من لا تكلف وأصله على القراءتين لا تضار بالكسر على البناء للمفعول وعلى الوجه الأول يجوز أن يكون بمعنى تضر والباء من صلته . أي لا يضر الوالدان بالولد فيعهده ويقصر فيها ينبغي له وقرىء لا تضار بالسكون مع التشديد على نية الوقف وبه مع التخفيف على أنه من ضاره يضره وإضافة الولد إلى كل منهما لاستعطافهما إليه وللتنبية على أنه جدير بأن ينفقا على استصلاحه ولا ينبغي أن يضرأ به أو يتضارا بسببه .

﴿ وعلى الوارث مثل ذلك ﴾ عطف على قوله تعالى (وعلى المولود له رزقهن) الخ وما بينهما تعليل أو تفسير معترض والمراد به وارث الصبي بمن كان ذا رحم محرم منه وقيل عصبته وقال الشافعي رحمه الله هو وارث الأب وهو الصبي أي تمان المرزعة من ماله عند موت الأب ولا نزاع فيه وإنما الكلام فيها إذا لم يكن للصبي مال وقيل الباقي من الأبوين من قوله عليه الصلاة والسلام واجعله الوارث منا وذلك إشارة إلى ما وجب على الأب من الرزق والكسوة ﴿ فإن أرادا ﴾ أي الوالدان ﴿ فصالا ﴾ أي فظاما عن الرضاع قبل تمام الحولين والتشكير للإيدان بأنه فصال غير معتاد ﴿ عن تراض ﴾ متعلق بمحذوف ينساق إليه الذهن أي صادرا عن تراض ﴿ منهما ﴾ أي من الوالدين لا من أحدهما فقط . لاحتمال إقدامه على ما يضر بالولد بأن تمل المرأة الإرضاع ويبخل الأب . بإعطاء الأجرة ﴿ وتشاور ﴾ في شأن الولد وتفحص عن أحواله وإجماع منهما على استحقيقه للفظام والتشاور من المشورة وهي استخراج الرأي من شرت . العسل إذا استخراجته وتشكيرهما للتفخيم ﴿ فلا جناح عليهما ﴾ في ذلك لما أن تراضيهما إنما يكون بعد استقرار رأيهما أو اجتهادهما على أن صلاح الولد

في الفطام وقبلما يتفقان على الخطأ ﴿ وإن أردتم ﴾ بيان لحكم عدم اتفاقهما على الفطام والالتفات إلى خطاب الآباء لجذبهم إلى الامتثال بما أمروا به ﴿ أن ترضعوا أولادكم ﴾ بحذف المفعول الأول استغناء عنه أى أن ترضعوا المراضع لأولادكم يقال أرضعت المرأة الصبي واسترضعتها إياه وقيل إنما يتعدى إلى الثاني بحرف الجر يقال استرضعت المرأة للصبي أى أن ترضعوا المراضع لأولادكم بحذف حرف الجر أيضاً كما في قوله تعالى (وإذا كالوهم) أى كالواهم ﴿ فلا جناح عليكم ﴾ أى فى الاسترضاع وفيه دلالة على أن اللب أن يرضع للولده ويمنع الأم من الإرضاع ﴿ إذا سلمتم ﴾ أى إلى المراضع ﴿ ما أتيتن ﴾ أى ما أردتم إيتاءه كما في قوله تعالى (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله) وقرىء ما أتيتن من أتى إليه إحساناً إذا فعله وقرىء ما أو تيتن أى من جهة الله عز وجل كما في قوله تعالى (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) وفيه مزيد بعث لهم إلى التسليم ﴿ بالمعروف ﴾ متعلق بسلمتم أى بالوجه المتعارف المستحسن شرعاً وجواب الشرط محذوف للدلالة المذكور عليه وليس التسليم بشرط للصحة والجواز بل هو نذب إلى ما هو الألبق والأولى فإن المراضع إذا أعطين ما قدر لهن ناجز آيداً بيد كان ذلك أدخل فى استصلاح شئون الأطفال ﴿ واتقوا الله ﴾ فى شأن مراعاة الأحكام المذكورة ﴿ واعلموا أن الله بما تعملون بصير ﴾ فيجازيكم بذلك وإظهار الاسم الجليل فى موضع الإضمار لتربية المهابة وفيه من الوعيد والتهديد ما لا يخفى .

﴿ والذين ﴾ على حذف المضاف أى وأزواج الذين ﴿ يتوفون منكم ﴾ أى تفيض أرواحهم بالموت فإن التوفى هو القبض يقال توفيت مالى من فلان واستوفيته منه أى أخذته وقبضته والخطاب لكافة الناس بطريق التلوين ﴿ ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ﴾ أو على حذف العائد إلى المبتدأ فى الخبر أى يتربصن بعدهم كما فى قولهم: السمن ممنون بدرهم أى ممنون منه وقرىء يتوفون بفتح الياء أى يستوفون آجالهم وتأنيث العشر

باعتبار الليالي لأنها غرر الشهور والأيام ولذلك تراهم لا يكادون يستعملون التذكير في مثله أصلاً حتى أنهم يقولون صمت عشرأ ومن البين في ذلك قوله تعالى (إن لبئس ما آتاكم الله) ثم (إن لبئس ما آتاكم الله) ولعل الحكمة في هذا التقدير أن الجنين إذا كان ذكراً يتحرك غالباً لثلاثة أشهر وإن كان أنثى يتحرك لأربعة فاعتبر أقصى الأجلين وزيد عليه الأيام^(١) العشر استظهاراً إذ ربما تضعف الحركة فلا يحس بها وعموم اللفظ يقتضى تساوى المسئلة والكتابية والحرية والأمة في هذا الحكم ولكن القياس اقتضى التنصيف في الأمة وقوله عز وجل وأولات الأحمال خضعن الحمل منه وعن علي وابن عباس رضى الله عنهم أنها تعدد بأبعد الأجلين احتياطاً ﴿ فإذا بلغن أجلهن ﴾ أى انقضت عدتهن ﴿ فلا جناح عليكم ﴾ أيها الحكام والمسلمون جميعاً ﴿ فيما فعلن في أنفسهن ﴾ من التزين والتعرض للخطاب وسائر ما حرم على المعتدة ﴿ بالمعروف ﴾ بالوجه الذى لا ينكره الشرع وفيه إشارة إلى أنهم لو فعلن ما ينكره الشرع فعليهم أن يكفوهن عن ذلك وإلا فعليهم الجناح ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ فلا تعملوا خلاف ما أمرتم به .

﴿ ولا جناح عليكم ﴾ خطاب للسكك ﴿ فيما عرضتم به ﴾ التعريض والتلويح لإبهام المقصود بما لم يوضع له حقيقة ولا مجازاً كقول السائل جئتكم لا أسلم عليكم وأصله إمالة الكلام عن نهجه إلى عرض منه أى جانب والكنائية هى الدلالة على الشيء بذكر لوازمه وروادفه كقولك طويل النجاد للطويل وكثير الرماد للمضياف ﴿ من خطبة النساء ﴾ الخطبة بالكسر كالقعدة والجلسة ما يفعله الخاطب من الطلب والاستلطاف بالقول والفعل فليل هى مأخوذة من الخطب أى الشأن الذى له خطر لما أنها شأن من الشئون ونوع من الخطوب وقيل من الخطاب لأنها نوع مخاطبة تجرى بين جانب الرجل وجانب المرأة والمراد بالنساء المعتدات للوفاة والتعريض لخطبتهن أن يقول

(١) سقطت من ط .

لها إنك جميلة أو صالحة أو نافعة ومن غرضي أن أتزوج ونحو ذلك مما يوم أنه يريد نكاحها حتى تحبس نفسها عليه إن رغبت فيه ولا يصرح بالنكاح ﴿أو أكنتم في أنفسكم﴾ أي أضرتتم في قلوبكم فلم تذكروه تصريحاً ولا تعريضاً ﴿علم الله أنكم ستذكرونهن﴾ ولا تصبرون على السكوت عنهن وعن إظهار الرغبة فيهن وفيه نوع توبيخ لهن على قلة التثبت ﴿ولكن لا تواعدوهن سرا﴾ استدراك محذوف دل عليه ستذكرونهن أي فاذكروهن ولكن لا تواعدوهن نكاحاً بل اكتفوا بما رخص لكم من التعريض والتعبير عن النكاح بالسرا لأن مسبته الذي هو الوطء بما يسره وإيثاره على اسمه للإيدان بأنه مما ينبغي أن يسره ويكتسب وحمله على الوطء ربما يوم الرخصة في المحذور الذي هو التصريح بالنكاح وقيل انتصاب سرا على الظرفية أي لا تواعدوهن في السر على أن المراد بذلك المواعدة بما يستهجن وفيه ما فيه ﴿إلا أن تقولوا قولاً معروفًا﴾ استثناء مفرغ مما يدل عليه النهي أي لا تواعدوهن مواعدة ما إلا مواعدة معروفة غير منكورة شرعاً وهي ما يكون بطريق التعريض والتلويح أو إلا مواعدة بقول معروف أو لا تواعدوهن بشيء من الأشياء إلا بأن تقولوا قولاً معروفًا وقيل هو استثناء منقطع من سرا وهو ضعيف لادائه إلى جعل التعريض موعوداً وليس كذلك ﴿ولا تعزموا عقدة النكاح﴾ من عزم الأمر إذا قصده قصداً جازماً وحققيقته القطع بدليل قوله عليه السلام لا صيام لمن لم يعزم الصيام من الليل وروى لمن لم يبيت الصيام والنهي عنه للمبالغة في النهي عن مباشرة عقد النكاح أي لا تعزموا عقدة النكاح ﴿حتى يبلغ الكتاب أجله﴾ أي (تبلغ) ^(١) العدة المكتوبة المفروضة آخرها وقيل معناه لا تقطعوا (على أنفسكم) ^(٢) عقدة النكاح أي لا تبرموها ولا تترموها ولا تقدموا عليها فيكون نهياً عن نفس الفعل لا عن قصده .

﴿واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم﴾ من ذوات الصدور التي من جملتها العزم على ما نهيتم عنه ﴿فاحذروه﴾ بالاجتناب عن العزم ابتداء أو إقلاعا عنه بعد تحققه ﴿واعلموا أن الله غفور﴾ يغفر لمن يقلع عن عزمه خشية منه تعالى ﴿حليم﴾ لا يعاجلكم بالعقوبة فلا تستدلوا بتأخيرها على أن ما نهيتم عنه من العزم ليس مما يستتبع المؤاخظة وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لإدخال الروعة ﴿لا جناح عليكم﴾ أي لا تبعه من مهر وهو الأظهر وقيل من وزر إذ لا بدعة في الطلاق قبل المسيس وقيل كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر النهي عن الطلاق فظان أن فيه جناحا فنفي ذلك ﴿إن طالقتم النساء ما لم تمسوهن﴾ أي ما لم تجمعهن وقرىء تماسوهن بضم التاء في جميع المواقع أي مدة عدم مساسكم إياهن على أن ما مصدرية ظرفية بتقدير المضاف ونقل أبو البقاء أنها شرطية بمعنى إن فيكون من باب اعتراض الشرط على الشرط فيكون الثاني قيما للأول كما في قولك إن تأتني إن تحسن إلى أكرمك أي إن تأتني محسنا إلى والمعنى إن طالقتموهن غير ماسين لهن وهذا المعنى أقدم من الأول لما أن ما الظرفية إنما يحسن موقعها فيما إذا كان المظروف أمرا متبعا منطوقا على ما أضيف إليها من المدة أو الزمان كما في قوله تعالى (خالدين فيها ما دامت السموات والأرض) وقوله تعالى (وكنتم عليهم شهيدا ما دمت فيهم) ولا يخفى أن التطبيق ليس كذلك وتعليق الظرف بنفي الجناح ربما يوهم إمكان المسيس بعد الطلاق فالوجه أن يقدر الحال مكان الزمان والمدة ﴿أو تفرضوا لهن فريضة﴾ أي إلا أن تفرضوا لهن أو حتى تفرضوا لهن عند العقد مهرا على أن فريضة فعيلة بمعنى مفعول والتاء لعقل اللفظ من الوصفية إلى الإسمية وانتصابه على المفعولية ويجوز أن يكون مصدرا صيغة وإعرابا والمعنى أنه لا تبعه على المطلق بمطالبة المهر أصلا إذا كان الطلاق قبل المسيس على كل حال إلا في حال تسمية المهر فإن عليه حينئذ نصف المسمى وفي حال عدم تسميته عليه المتعة لا نصف مهر المثل

وأما إذا كان بعد المسيس^(١) فعليه في صورة التسمية تمام المسعى وفي صورة عدمها تمام مهر المثل وقيل كلمة أو عاطفة لمدخولها على ما قبلها من الفعل المجزوم على معنى ما لم يكن منكم مسيس ولا فرض مهر .

﴿ ومتعوهن ﴾ عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى فطلقوهن ومتعوهن والحكمة في إيجاب المتعة جبر لإيحاش الطلاق وهى درع وملحفة وخمار على حسب الحال كما يفصح عنه قوله تعالى ﴿ على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ﴾ أى ما يليق بحال كل منهما وقرىء بسكون الدال وهى جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب مبينة لمقدار المتعة بالنظر إلى حال المطلق إيسارا وإقتارا أو حال من فاعل متعوهن بخذف الرابط أى على الموسع منكم الخ أو على جعل الألف واللام عوضا من المضاف إليه عند من يجوزه أى على موسعكم الخ وهذا إذا لم يكن مهر مثلها أقل من ذلك فإن كان أقل فلها الأقل من نصف مهر المثل ومن المتعة ولا ينقص عن خمسة دراهم ﴿ متاعا ﴾ أى تمتيعا ﴿ بالمعروف ﴾ أى بالوجه الذى تستحسنه الشريعة والمرءة ﴿ حقا ﴾ صفة لمتاعا أو مصدر مؤكد أى حق ذلك حقا ﴿ على المحسنين ﴾ أى الذين يحسنون إلى أنفسهم بالمسارعة إلى الامتثال أو إلى المطلقات بالتمتع بالمعروف وإنما سموا محسنين اعتبارا للشارفة وترغيبا وتحريضا .

﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن ﴾ قبل ذلك ﴿ فريضة ﴾ أى وإن طلقتموهن من قبل المسيس حال كونكم مسمين لهن فيما سبق أى عند النكاح مهرا على أن الجملة حال من فاعل طلقتموهن ويجوز أن تكون حالا من مفعوله لتحقق الرابط بالنسبة إليهما ونفس الفرض من المبني للفاعل أو للمفعول وإن لم يقارن حالة التطبيق لكن اتصاف المطلق بالفارضية فيما سبق مما لا ريب فى مقارنته لها وكذا الحال فى اتصاف المطلقة بكونها مفروضا لها فيما سبق .

﴿ فنصف ما فرضتم ﴾ أى فلهن نصف ما سميت لهن من المهر أو فالواجب

عليكم ذلك وهذا صريح في أن المنفى الصورة السابقة إنما هو تبعه المهر وقرىء
 بالنصب أى فأدوا نصف ما فرضتم ولعل تأخير حكم التسمية مع أنها الأصل
 في العقد والأكثر في الوقوع لما أن الآية الكريمة نزلت في أنصاري تزوج
 امرأة من بني حنيفة وكانت مفوضة فطلقها قبل الدخول بها فتخاصما إلى
 رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له عليه الصلاة والسلام عند العلم بالأحوال^(١)
 لأشياء له متعها بقلنسوتك ﴿ إلا أن يعفون ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال
 أى فلهن نصف المفروض معيناً في كل حال إلا حال عفوهن فإنه يسقط ذلك
 حينئذ بعد وجوبه وظاهر الصيغة في نفسها يحتمل التذكير والتأنيث وإنما
 الفرق في الاعتبار والتحقيق فإن الواو في الأولى ضمير والنون علامة الرفع
 وفي الثانية لام الفعل والنون ضمير والفعل مبنى ولذلك لم يؤثر فيه أن تأثيره
 فيما عطف على محله من قوله تعالى ﴿ أو يعفو ﴾ بالنصب وقرىء بسكون
 الواو ﴿ الذى بيده عقدة النكاح ﴾ أى يترك الزوج المالك لعقده وحله
 ما يعود إليه من نصف المهر الذى ساقه إليها كاملاً على ما هو المعتاد تكريماً
 فإن ترك حقه عليها عفواً^(٢) بلا شبهة أو سمي ذلك عفواً في صورة عدم
 السوق مشاكلة أو تغليباً لحال السوق على حال عدمه فرجع الاستثناء حينئذ
 إلى منع الزيادة في المستثنى منه كما أنه في الصورة الأولى إلى منع النقصان
 فيه أى فلهن هذا القدر بلا زيادة ولا نقصان في جميع الأحوال إلا في
 حال عفوهن فإنه حينئذ لا يكون لهن القدر المذكور بل ينتفى ذلك أو ينحط
 أو في حال عفو الزوج فإنه حينئذ يكون لهن الزيادة على ذلك القدر هذا على
 التفسير الأول وأما على التفسير الثانى فلا بد من المصير إلى جعل الاستثناء
 منقطعاً لأن في صورة عفو الزوج لا يتصور الوجوب عليه هذا عندنا وفي
 القول القديم للشافعى رحمه الله أن المراد عفو الولى الذى بيده عقدة نكاح
 الصغيرة وهو ظاهر المأخذ خلا أن الأول أنسب بقوله تعالى: ﴿ وأن تعفوا

(١) في ط : كما يلوح عند إظهار الأشياء عنده . (٢) في ط : عفو .

أقرب للتقوى ﴿ إلى آخره فإن إسقاط حق الصغيرة ليس في شيء من التقوى وعن جبير بن مطعم أنه تزوج امرأة وطلقها قبل الدخول وأكمل لها الصداق وقال أنا أحق بالعتق وقرىء بالياء ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ أى لا تتركوا أن يتفضل بعضكم على بعض كالشئ المنسى وقرىء بكسر الواو والخطاب في الفعلين للرجال والنساء جميعاً بطريق التغليب ﴿ إن الله بما تعملون بصير ﴾ فلا يكاد يضيع ما عملتم من التفضل والإحسان .

﴿ حافظوا على الصلوات ﴾ أى داوموا على أدائها لأوقاتها من غير إخلال بشئ منها كما تنبى عنه صيغة المفاعلة المفيدة للمبالغة ولعل الأمر بها في تضاعيف بيان أحكام الأزواج والأولاد قبل الإتمام للإيدان بأنها حقيقة بكل الاعتناء بشأنها والمثابرة عليها من غير اشتغال بشأنهم وبشأن أنفسهم أيضاً كما يفصح عنه الأمر بها في حالة الخوف ولذلك أمر بها في خلال بيان ما يتعلق بهم من الأحكام الشرعية المتشابكة الآخذ بعضها بحجزة بعض ﴿ والصلوة الوسطى ﴾ أى المتوسطة بينها أو الفضلى منها وهى صلاة العصر لقوله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملائكة الله تعالى بيوتهم ناراً وقال عليه السلام لأنها الصلاة التى شغل عنها سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام وفضلها لكثرة اشتغال الناس فى وقتها بتجاراتهم ومكاسبهم واجتماع ملائكة الليل وملائكة النهار حينئذ وقيل هى صلاة الظهر لأنها فى وسط النهار وكانت أشق الصلوات عليهم لما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلها بالهجرة فكانت أفضلها لقوله عليه السلام أفضل العبادات أحزها وقيل هى صلاة الفجر لأنها بين صلاتى الليل والنهار والواقعة فى الحد المشترك بينهما ولأنها مشهودة كصلاة العصر وقيل هى صلاة المغرب لأنها متوسطة من حيث العدد ومن حيث الوقوع بين صلاتى النهار والليل وتر النهار ولا تنقص فى السفر وقيل هى صلاة العشاء لأنها بين الجهرتين الواقعتين فى طرفى الليل وعن عائشة وابن عباس رضى الله عنهم أنه عليه السلام كان يقرأ والصلاة الوسطى وصلاة العصر فتكون حينئذ إحدى الأربع قد خصت بالذكر مع العصر

لانفرادها بالفضل وقرىء وعلى الصلاة الوسطى وقرىء بالنصب على المدح ، وقرىء الوسطى ﴿وقوموا لله﴾ أى فى الصلاة ﴿قانتين﴾ ذا كرين له تعالى فى القيام لأن القنوت هو الذكر فيه وقيل هو كمال الطاعة وإتمامها بغير إخلال بشئ من أركانها وقيل خاشعين ، وقال ابن المسيب المراد به القنوت فى الصبح .

﴿فإن خفتم﴾ أى من عدو أو غيره ﴿فرجالاً﴾ جمع راجل كقيام وقائم أو رجل بمعنى راجل وقرىء بضم الراء مع التخفيف وبضمها مع التشديد أيضاً وقرىء فرجلاً أى راجلاً ﴿أو ركباناً﴾ جمع راكب أى فصلوا راجلين أو راكبين حسبما يقتضيه الحال ولا تخلوا بها ما أمكن الوقوف فى الجملة وقد جوز الشافعى رحمه الله أداءها حال المسابقة أيضاً ﴿فإذا أمتتم﴾ بزوال الخوف ﴿فاذكروا الله﴾ أى فصلوا صلاة الأمن وعبر عنها بالذكر لأنه معظم أركانها ﴿كما علمكم﴾ متعلق بمحذوف وقع وصفا لمصدر محذوف أى ذكرا كأننا كما علمكم أى كتعليمه إياكم ﴿مالم تكونوا تعلمون﴾ من كيفية الصلاة والمراد بالتشبيه أن تكون الصلاة المؤداة موافقة لما علمه الله تعالى وإيرادها بذلك العنوان لتذكير النعمة أو اشكروا الله تعالى شكرا يوازي تعليمه إياكم مالم تكونوا تعلمونه من الشرائع والأحكام التى من جملتها كيفية إقامة الصلاة حالتى الخوف والأمن . هذا وفى إيراد الشرطية الأولى بكلمة إن المفيدة لمشكوكية وقوع الخوف وندرته وتصدير الشرطية الثانية بكلمة إذا المنهية عن تحقق وقوع الأمن وكثرته مع الإيجاز فى جواب الأولى والإطناب فى جواب الثانية المبنيين على تنزيل مقام وقوع المسأور به فيهما منزلة مقام وقوع الأمر تنزيل مستدعياً لإجراء مقتضى المقام الأول فى كل منهما مجرى مقتضى المقام الثانى من الجزالة ولطف الاعتبار ما فيه عبرة لأولى الأبصار ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً﴾ عود إلى بيان بقية الأحكام المفصلة فيما سلف إثر بيان أحكام توسطت^(١) بينهما لما أشير إليه من الحكمة الداعية إلى

فى ط : وسط .

ذلك ﴿ وصية لأزواجهم ﴾ أى يوصون أو ليوصوا أو كتب الله عليهم وصية ويؤيد هذا قراءة من قرأ كتب عليكم الوصية لأزواجكم وقرىء بالرفع على تقدير مضاف فى المبتدأ أو الخبر أى حكم الذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم أو والذين يتوفون أهل وصية لأزواجهم أو كتب عليهم وصية أو عليهم وصية وقرىء متاع لأزواجهم بدل وصية ﴿ متاعاً إلى الحول ﴾ منصوب بيوصون إن أضمرته وإلا فبالوصية أو بمتاع على القراءة الأخيرة ﴿ غير إخراج ﴾ بدل منه أو مصدر مؤكد كما فى قولك هذا القول غير ما تقول أو حال من أزواجهم أى غير مخرجات والمعنى يجب على الذين يتوفون أن يوصوا قبل الاحتضار لأزواجهم بأن يمتنع بعدهم حولاً بالنفقة والسكنى وكان ذلك أول الإسلام ثم نسخت المدة بقوله تعالى (أربعة أشهر وعشراً) فإنه وإن كان متقدماً فى التلاوة فهو (١) متأخر فى النزول وسقطت النفقة بتوريثها الربع أو الثمن وكذلك السكنى عندنا وعند الشافعى هى باقية ﴿ فإن خرجن ﴾ عن منزل الأزواج باختيارهن ﴿ فلا جناح عليكم ﴾ أيها الأئمة ﴿ فيما فعلن فى أنفسهن من معروف ﴾ لا ينكره الشرع كالتزوين والتطيب وترك الحداد والتعرض للخطاب وفيه دلالة على أن المحذور إخراجها عند إرادة القرار وملازمة مسكن الزوج والحداد من غير أن يجب عليها ذلك وأنها كانت مخيرة بين الملازمة مع أخذ النفقة وبين الخروج مع تركها ﴿ والله عزيز ﴾ غالب على أمره يعاقب من خالفه ﴿ حكيم ﴾ يراعى فى أحكامه مصالح عباده ﴿ وللمطلقات ﴾ سواء كن مدخولاً بهن أولاً ﴿ متاع ﴾ أى مطلق المتعة الشاملة الواجبة والمستحبة وأوجهها سعيد بن جبير وأبو العالية والزهرى للسكل وقيل المراد بالمتاع نفقة العدة وقيل اللام للعمد والمراد غير المدخول بهن والتسكير للتأكييد بالمعروف ﴿ شرعاً وعادة ﴾ ﴿ حقاً على المتقين ﴾ أى بما ينبغى ﴿ كذلك ﴾ أى مثل ذلك البيان الواضح ﴿ يبين الله لكم آياته ﴾

(١) سقطت من ط .

الدالة على أحكامه التي شرعها لعباده ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ لكي تفهموا ما فيها وتعملوا بموجبها ﴿ ألم تر ﴾ تقرير لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأرباب الأخبار من شأنهم البديع فإن سماعهم لها بمنزلة الرؤية النظرية أو العملية أو لكل أحد من له حظ من الخطاب إيدانا بأن قصتهم من الشهرة والشيوخ بحيث يحق لكل أحد أن يحمل على الإقرار بروقيتهم وسماع قصتهم ويعجب بها وإن لم يكن عن رأي أو سمع بقصتهم فإن هذا الكلام قد جرى مجرى المثل في مقام لما أنه شبه حال غير الرائي لشيء عجيب بحال الرائي له بناء على ادعاء ظهور أمره وجلاته بحيث استوى في إدراكه الشاهد والغائب ثم أجرى الكلام معه كما يجرى مع الرائي قصداً إلى المبالغة في شهرته وعراقته في التعجب وتعدية الرؤية إلى في قوله تعالى ﴿ إلى الذين خرجوا من ديارهم ﴾ على تقدير كونها بمعنى الأنصار باعتبار معنى النظر على تقدير كونها إدراكاً قلبياً لتضمين معنى الوصول والإنتهاء على معنى ألم ينته عليك إليهم ﴿ وهم أوف ﴾ أى أوف كثيرة قيل عشرة آلاف وقيل ثلاثون وقيل سبعون ألفاً والجملة حال من فاعل خرجوا (١) وقوله عز وجل ﴿ حذر الموت ﴾ مفعول له . روى أن أهل دراورد (٢) قرية قبل واسط وقع فيهم الطاعون فخرجوا منها هاربين فأماتهم الله ثم أحياهم ليعتبروا ويعلموا ألا منمر من حكم الله عز سلطانه وقضاؤه وقيل مر عليهم حز قيل بعد زمان طويل وقد عريت عظامهم وتفرقت أوصالهم فلوى شدقيه وأصابه تعجبا مما رأى من أمرهم فأوحى إليه ناد فيهم أن قوموا بإذن الله فنادى فإذا هم قيام يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت وقيل هم قوم من بنى إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد فهربوا حذرا من الموت فأماتهم الله تعالى ثمانية أيام ثم أحياهم . وقوله عز وجل :

﴿ فقال لهم الله موتوا ﴾ إما عبارة عن تعلق إرادته تعالى بموتهم دفعة ،

(١) في ط . من ضمير خرجوا . (٢) في ط . داوردان .

ولما تمثيل لإماتته تعالى إياهم ميتة نفس واحدة في أقرب وقت وأدناه وأسرع زمان وأوحاه بأمر مطاع لمأمور مطيع كما في قوله تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) ، ﴿ ثم أحياهم ﴾ عطف إما على مقدر يستدعيه المقام أى فأتوا ثم أحياهم وإنما حذف للدلالة على الاستغناء عن ذكره لاستحالة تخلف مراده تعالى عن إرادته وإما على قال لما أنه عبارة عن الإماتة وفيه تشجيع للمسلمين على الجهاد والتعرض لأسباب الشهادة وأن الموت حيث لم يكن منه بد ولم ينفع منه المنع فأولى أن يكون في سبيل الله تعالى ﴿ إن الله لذو فضل ﴾ عظيم ﴿ على الناس ﴾ قاطبة أما أو أئتمك فقد أحياهم ليعتبروا بما جرى عليهم فيموزوا بالسعادة العظمى ، وأما الذين سمعوا قصتهم فقد هداهم إلى مسلك الاعتبار والاستبصار ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ أى لا يشكرون فضله كما ينبغي ويجوز أن يراد بالشكر الاعتبار والاستبصار وإظهار الناس في مقام الإضمار لمزيد التشنيع ﴿ وقاتلوا في سبيل الله ﴾ عطف على مقدر يعينه ما قبله كأنه قيل فاشكروا فضله بالاعتبار بما قص عليكم وقاتلوا في سبيله لما علمتم أن الفرار لا ينحى من الحمام وأن المقدر لا مرد له فإن كان قدحان الأجل فموت في سبيل الله عز وجل وإلا فنصر عزيز وثواب ﴿ واعلموا أن الله سميع ﴾ يسمع مقالة السابقين والمتخلفين ﴿ عليهم ﴾ بما يضمرونه في أنفسهم وهو من وراء الجزاء خيراً أو شراً فسارعوا إلى الامتثال واحذروا المخالفة والمساهلة .

﴿ من ذا الذى يقرض الله ﴾ من استفهامية مرفوعة المحل بالابتداء وذا خبره والموصول صفة له أو بدل منه وإقراض الله تعالى مثل لتقديم العمل العاجل طلباً للتواب الأجل والمراد ههنا إما الجهاد الذى هو عبارة عن بذل النفس والمال في سبيل الله عز وجل ابتغاء لرضاته وإما مطلق العمل الصالح المنتظم له انتظاماً أو اياً ﴿ قرضاً حسناً ﴾ أى لإقراضنا مقروننا بالإخلاص وطيب النفس أو مفرضاً حلالاً طيباً ﴿ فيضاعفه له ﴾ بالنصب على جواب الاستفهام (٢٤ - أبو السمود - أول)

حملا على المعنى فإنه في معنى أيقرضه وقرىء بالرفع أى يضاعف أجره وجزاه
 جعل ذلك مضاعفة له بناء على ما بينهما من المناسبة بالسببية والمسببية ظاهرا
 وصيغة المفاعلة للمبالغة وقرىء فيضعفه بالرفع بالنصب ﴿أضعافا﴾ جمع ضعف
 ونصبه على أنه حال من الضمير المنصوب أو مفعول بأن يضمن المضاعفة معنى
 التصيير أو مصدر مؤكد على أن الضعف اسم للمصدر والجمع للتثنية ﴿كثيرة﴾
 لا يعلم قدرها إلا الله تعالى وقيل الواحد بسبعائة ﴿والله يقبض ويبسط﴾ أى
 يكثر على بعض ويوسع على بعض أو يكثر تارة ويوسع أخرى حسبما تقتضيه
 مشيئته المبنية على الحكيم والمصالح فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم كي لا يبدل
 أحوالكم ولعل تأخير البسط عن القبض في الذكر للإيماء إلى أنه يعقبه في
 الوجود تساية للفقراء وقرىء يبسط بالصاد لمجاورة الطاء ﴿وليه ترجعون﴾
 فيجازيكم على ما قدمتم من الأعمال خيرا وشرا .

﴿ألم تر﴾ تقرير وتعجيب كما سبق قطع عنه للإيدان باستقلاله في التعجب
 مع أن له مزيد ارتباط بما وسط بينهما من الأمر بالقتال ﴿إلى الملائ من بنى
 إسرائيل﴾ الملائ من القوم وجوهمهم وأشرفهم وهو اسم للجماعة لا واحد له من
 لفظه كالرهب والقوم سموا بذلك لما أنهم يملأون العيون مهابة والمجالس
 بهاء أو لأنهم ملبثون بما يتغنى منهم ومن تبعيضية ومن في قوله تعالى ﴿من بعد
 موسى﴾ ابتدائية وعاملها مقدر وقع حالا من الملائ أى كائنين بعض بنى إسرائيل
 من بعد وفاة موسى ولا ضير في اتحاد الحرفين لفظا عند اختلافهما معنى ﴿إذ
 قالوا﴾ منصوب بمضمر يستدعيه المقام أى ألم تر إلى قصة الملائ أو حديثهم
 حين قالوا ﴿لنبي لهم﴾ هو يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف عليهما
 السلام وقيل شعون بن صعبة بن علقمة من ولد لاوى بن يعقوب عليهما
 السلام وقيل أشمويل بن بال بن علقمة وهو بال عبرانية اسمعيل . قال مقاتل هو
 من نسل هرون عليه السلام وقال مجاهد أشمويل بن هلقايا ﴿ابعث لنا ملكا
 نقاتل في سبيل الله﴾ أى أنهض للقتال معنا أميرا نصدر في تدبير أمر الحرب
 عن رأيه وقرىء نقاتل بالرفع على أنه حال مقدره أى ابعثه لنا مقدرين القتال

أو استئناف مبني على السؤال وقرىء يقاتل بالياء مجزوما ومرفوعا على الجواب
للأمر والوصف للمسكا ﴿ قال ﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال ينساق إليه
الذهن كأنه قيل فماذا قال لهم النبي حينئذ فقيل قال ﴿ هل عسيتم إن كتب
عليكم القتال ألا تقاتلوا ﴾ فصل بين عسى وخبره بالشرط للاعتناء به أي
هل قاربتم ألا تقاتلوا كما أتوقعه منكم والمراد تقرير أن المتوقع كائن وإنما لم
يذكر في معرض الشرط ما التمسوه بأن قيل هل عسيتم إن بعثت لكم ملكا الخ
مع أنه أظهر تعلقا بكلامهم بل ذكر كتابة القتال عليهم للمبالغة في بيان تخلفهم
عنه فإنهم إذا لم يقاتلوا عند فرضية القتال عليهم بإيجاب الله تعالى فليلا يقاتلوا
عند عدم فرضيته أولى ولأن إيراد ما ذكره ربهما يوم أن سبب تخلفهم عن
القتال هو المبعوث لانفس القتال وقرىء عسيتم بكسر السين وهي ضعيفة
﴿ قالوا ﴾ استئناف كما سبق ﴿ وما لنا ألا نقاتل ﴾ أي أي سبب لنا في ألا نقاتل
﴿ في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ﴾ أي والحال أنه قد عرض
لنا ما يوجب القتال إيجابا قويا من الإخراج عن الديار والأوطان والاعتراب
من الأهل والأولاد وإفراد الأبناء بالذكر لمزيد تقوية أسباب القتال وذلك
أن جالوت رأس العمالة وملسكهم وهو جبار من أولاد عمليق بن عاد كان هو
ومن معه من العمالة يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين وظهروا
على بني إسرائيل وأخذوا ديارهم وسبوا أولادهم وأسروا من أبناء ملوكهم
أربعمائة وأربعين نفسا وضربوا عليهم الجزية وأخذوا توراتهم ﴿ فلما كتب
عليهم القتال ﴾ بعد سؤال النبي عليه السلام ذلك وبعث الملك ﴿ تولوا ﴾ أي
أعرضوا وتخلفوا لسن لا في ابتداء الأمر بل بعد مشاهدة كثرة العدو وشوكمته
كما سيحىء تفصيله وإنما ذكر ههنا ما آل إليه (١) أمرهم إجمالا لإظهار المسأ بين
قولهم وفعلهم من التنافي والتباين ﴿ إلا قليلا منهم ﴾ وهم الذين اكتفوا بالفرقة
من النهر وجاوزوه وهم ثلثمائة وثلاثة عشر بدم أهل بدر ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾

(١) في ط : مآل أمرهم .

وعيد لهم على ظلمهم بالتولى عن القتال وترك الجهاد وتنافي أقوالهم وأفعالهم والجملة اعتراض تذييلي ﴿ وقال لهم نبيهم ﴾ شروع في تفصيل ما جرى بينه عليه السلام وبينهم من الأقوال والأفعال إثر الإشارة الإجمالية إلى مصير حالهم أى قال لهم بعد ما أوحى إليه ما أوحى ﴿ إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا ﴾ طالوت علم عبرى كداود وجعله فعلا من الطول يأباه منع صرفه وما سكا حال منه روى أنه عليه السلام لما دعا ربه أن يجعل لهم ملكا أتى بعضا يقاس بها من يملك عليهم فلم يساوها إلا طالوت ﴿ قالوا ﴾ استثناف كما مر ﴿ أنى يكون له الملك علينا ﴾ أى من أين يكون أو كيف يكون ذلك ﴿ ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال ﴾ الواو الأولى حالية والثانية عاطفة جامعة للجملة في الحكم أى كيف يتملك علينا والحال أنه لا يستحق التملك لوجود من هو أحق منه ولعدم ما يتوقف عليه الملك من المال وسبب هذا الاستبعاد أن النبوة كانت مخصوصة بسبب معين من أسباط بنى إسرائيل وهو سبط لاوى بن يعقوب عليه السلام والمملكة بسبب يهوذا ومنه داود وسليمان عليهما السلام ولم يكن طالوت من أحد هذين السبطين بل من ولد بنيامين قيل كان راعيا وقيل دباغا وقيل سقاء .

﴿ قال إن الله اصطفاه عليكم ﴾ لما استبعدوا تملكه بسقوط نسبه وبفقره رد عليهم ذلك أولا بأن ملاك الأمر هو اصطفاء الله تعالى وقد اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم وثانيا بأن العمدة فيه وفور العلم ليتمكن به من معرفة أمور السياسة وجسامة البدن ليعظم خطره في القلوب ويقدر على مقاومة الأعداء ومكابدة الحروب وقد خصه الله تعالى منهما بحظ وافر وذلك قوله عز وجل ﴿ وزاده بسطة في العلم ﴾ أى العلم المتعلق بالملك أو به وبالديانات أيضا وقيل قد أوحى إليه ونبيه ﴿ والجسم ﴾ قيل بطول القامة فإنه كان أطول من غيره برأسه ومنكبته حتى أن الرجل القائم كان يمد يده فينال رأسه وقيل بالجمل وقيل بالقوة ﴿ والله يؤتى ملكه من يشاء ﴾ لما أنه مالك الملك والملوك فعال لما يريد - فله أن يؤتیه من يشاء من عباده ﴿ واقه واسع ﴾

يرسع على الفقير ويعنيه ﴿عليم﴾ بمن يليق بالملك من لا يليق به وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة .

﴿وقال لهم نبيهم﴾ توسطه فيما بين قوليه المحكيين عنه عليه السلام للإشعار بعدم اتصال أحدهما بالآخر وتحلل كلام من جهة المخاطبين متفرع على السابق مستتبع لللاحق كأنهم طلبوا منه عليه السلام آية تدل على أنه تعالى اصطنى طالوت وملكه عليهم. روى أنهم قالوا ما آية ملكه فقال ﴿إن آية ملكه أن يأتىكم التابوت﴾ أى الصندوق وهو فعلوت من التوب الذى هو الرجوع لما أنه لا يزال يرجع إليه ما يخرج منه وتأوه مزيدة لخير التائت كملكوت ورهبوت والمشهور أن يوقف على تائه من غير أن تقلب هاء ومنهم من يقبلها إياها والمراد به صندوق التوراة وكان قد رفعه الله عز وجل بعد وفاة موسى عليه السلام سخطا على بنى إسرائيل لما عصوا واعتدوا فلما طلب القوم من نبيهم آية تدل على ملك طالوت قال لهم إن آية ملكه أن يأتىكم التابوت من السماء والملائكة يحفظونه فأتاهم كما وصف والقوم ينظرون إليه حتى نزل عند طالوت وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما وقال أرباب الأخبار إن الله تعالى أنزل على آدم تابوتا فيه تماثيل الأنبياء عليهم السلام من أولاده وكان من عود الشمشاد نحووا من ثلاثة أذرع فى ذراعين فكان آدم عليه السلام إلى أن توفى فتوارثه أولاده واحد بعد واحد إلى أن وصل إلى يعقوب عليه السلام ثم بقى فى أيدي بنى إسرائيل إلى أن وصل إلى موسى عليه السلام فكان عليه الصلاة والسلام يضع فيه التوراة وكان إذا قاتل قدمه فكانت تسكن إليه نفوس بنى إسرائيل وكان عنده إلى أن توفى ثم تداولته أيدي بنى إسرائيل وكانوا إذا اختلفوا فى شىء تحاكموا إليه فيكلمهم ويحكم بينهم وكانوا إذا حضروا القتال يقدمونه بين أيديهم ويستفتون به على عدوهم وكانت الملائكة تحمله فوق العسكر ثم يقاتلون العدو فإذا سمعوا من التابوت صيحة استيقنوا النصر فلما عصوا وأفسدوا سلط الله عليهم العاقلة فغلبوهم على

التابوت وسلبوه وجعلوه في موضع البول والغائط فلما أراد الله تعالى أن يملك طالوت سلط عليهم البلاء حتى أن كل من بال عنده ابتلى بالبواسير وهلك من بلادهم خمس مدائن فعلم الكفار أن ذلك بسبب استهانتهم بالتابوت فأخرجوه وجعلوه على ثورين فأقبل الثوران يسيران وقد وكل الله تعالى بهما أربعة من الملائكة يسوقونهما حتى أتوا منزل طالوت فلما سألوا نبيهم البيهية على ملك طالوت قال لهم النبي إن آية ملكة أنكم تجدون التابوت في داره فلما وجدوه عنده أيقنوا بملكه .

﴿ فيه سكنة من ربكم ﴾ أى فى إتيانه سكون لكم وطمانينة كأنه من ربكم أو فى التابوت ما تسكنون إليه وهو التوراة المودعة فيه بناء على ما مر من أن موسى عليه السلام إذا قاتل قدمه فتسكن إليه نفوس بنى إسرائيل وقيل السكنة صورة كانت فيه من زبرد أو ياقوت لها رأس وذنب كرأس الهر وذنبه وجناحان فتمن فيزحف (١) التابوت نحو العدو وهم يمضون معه فإذا استقر ثبتوا وسكنوا ونزل النصر وعن على رضى الله عنه كان لها وجه كوجه الإنسان وفيها ريح هفافة ﴿ وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون ﴾ هى رضاض الألواح وعصا موسى وثيابه وشيء من التوراة وكان قد رفعه الله تعالى بعد وفاة موسى عليه السلام وألها أبناؤها أو أنفسهما والآل مقحم لتفخيم شأنهما أو أنبياء بنى إسرائيل ﴿ تحمله الملائكة ﴾ حال من التابوت أى إن آية ملكة إتيانه حال كونه محمولا للملائكة وقد مر كيفية ذلك ولعل حمل الملائكة على الرواية الأخيرة عبارة عن سوقهم للثورين الحاملين له : ﴿ إن فى ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من شأن التابوت فهو من تمام كلام النبى عليه السلام لقومه أو إلى نقل القصة وحكايتها فهو ابتداء كلام من جهة الله تعالى جىء به قبل تمام القصة إظهاراً لكمال العناية به ، وإفراد حرفه

(١) فى ط : فيرف .

الخطاب مع تعدد المخاطبين على التقديرين بتأويل الفريق أو غيره كما سلف
﴿ لاية ﴾ عظيمة ﴿ لكم ﴾ دالة على ملك طالوت أو على نبوة محمد صلى الله
عليه وسلم حيث أخبر بهذه التفاصيل على ما هي عليه من غير سماع من البشر
﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أى مصدقين بتكليمه أو بشيء من الآيات وإن شرطية
والجواب محذوف ثقة بما قبله وقيل هي بمعنى إذ .

﴿ فلما فصل طالوت بالجنود ﴾ أى انفصل بهم عن بيت المقدس والأصل
فصل نفسه ولما اتحد فاعله ومنعوله شاع استعماله محذوف المفعول حتى
نزل منزلة القاصر كأنفصل وقيل فصل فصولاً وقد جوز كونه أصلاً برأسه
ممتازاً من المتعدى بمصدره كوقف وقوفاً ووقفه قفاً وكصد صدوداً وصد
صدأ ورجع رجوعاً ورجعه رجعا والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا
من طالوت أى ملتبساً بهم ومصاحباً لهم روى أنه قال لقومه لا يخرج معى
رجل بنى بناء لم يفرغ منه ولا تاجر مشغول بالتجارة ولا متزوج بامرأة لم
يبن عليها ولا أتبعى إلا الشاب النشيط الفارغ فاجتمع إليه من اختارهم
ثمانون ألفاً وكان الوقت قيظاً وسلكوا مفازة فسألوا أن يجرى الله تعالى لهم
نهرأ فبعد ما ظهر له ما تعلق به مشيئته تعالى من جهة النبي عليه السلام
أو بطريق الوحي عند من يقول بنبوته ﴿ قال إن الله مبتليكم بنهر ﴾ بفتح
الهاء وقرىء بسكونها ﴿ فمن شرب منه ﴾ أى ابتداء شربه من النهر بأن كرع
لأنه الشرب منه حقيقة ﴿ فليس منى ﴾ أى من جملة وأشياعى المؤمنين
وقيل ليس بمتصل بى ومتحد معى من قولهم فلان منى كأنه بعضه لكال
اختلاطهما ﴿ ومن لم يطعمه ﴾ أى لم يذقه من طعم الشيء إذا ذاقه ما كولا
كان أو مشروباً أو غيرهما قال :

وإن شئت حرمت النساء سواكم وإن شئت لم أطعم نقاخاً ولا برداً
أى نوما ﴿ فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده ﴾ استثناء من قوله تعالى:
﴿ فمن شرب منه ﴾ فليس منى وإنما أخر عن الجملة الثانية لإبراز كمال العناية بها ومعناه
الرخصة فى اغتراف الغرفة باليد دون السكرع والغرفة ما يغرف وقرىء

بفتح الغين على أنها مصدر والباء متعلقة باغترف أو بمحذوف وقع صفة لغرفة أى غرفة كائنة بيده . يروى أن الغرفة كانت تسكنى الرجل لشربه وإداوته^(١) ودوابه وأما الذين شربوا منه فقد اسودت شفاههم وغلبهم العطش ﴿ فشربوا منه ﴾ عطف على مقدر يقتضيه المقام أى فابتلوا به فشربوا منه ﴿ إلا قليلا منهم ﴾ وهم المشار إليهم فيما سلف بالاستثناء من التولى وقرىء إلا قليل منهم ميلا إلى جانب المعنى وضربا عن عدوة اللفظ جانبا فإن قوله تعالى فشربوا منه فى قوة أن يقال فلم يطعموه فحق أن يرد المستثنى مرفوعا كما فى قول الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحت أو مجلف
فإن قوله لم يدع فى حكم لم يبق ﴿ فلما جاوزه ﴾ أى النهر ﴿ هو ﴾ أى طالوت ﴿ والذين آمنوا معه ﴾ عطف على الضمير المتصل المؤكد بالمنفصل والظرف متعلق بجاوز لا بأمنوا وقيل الواو حالية والظرف متعلق بمحذوف وقع خبرا من الموصول كأنه قيل فلما جاوزه والحال أن الذين آمنوا كانوا معه وهم أولئك القليل وفيه إشارة إلى أن من عداهم بمعزل من الإيمان ﴿ قالوا ﴾ أى بعض من معه من المؤمنين لبعض ﴿ لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾ أى بمحاربتهم ومقاومتهم فضلا عن أن يكون لنا غلبة عليهم لما شاهدوا من الكثرة والشدة ، قيل كانوا مائة ألف مقاتل شاكى السلاح ﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال مخاطبهم فقيل قال ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقوا الله ﴾ قيل أى الخالص منهم الذين يوقنون بلقاءه^(٢) الله تعالى بالبعث ويتوقعون ثوابه وإفرادهم بذلك الوصف لا ينافى لإيمان الباقين فإن درجات المؤمنين فى التيقن والتوقع متفاوتة أو الذين يعلمون أنهم يستشهدون عما قريب فيلقون الله تعالى وقيل الموصول عبارة عن المؤمنين

(١) فى ط : وأدواته . والإداوة إناء ماء الوضوء .

(٢) فى ط يتيقنون لقاء

كافة والضمير في قالوا للمنخذلين عنهم كأنهم قالوه اعتذارا عن التخلف والنهر بينهما .

﴿ كم من فئة ﴾ أى فرقة وجماعة من الناس من فأوت رأسه إذا شققها أو من فاه إليه إذا رجع فوزنها على الأول ففة وعلى الثانى فلة ﴿ قليلة غلبت فئة كثيرة ﴾ خبرية كانت أو استفهامية مفيدة للتكثير وهى فى حيز الرفع بالابتداء خبرها غلبت أى كثير من الفئات القليلة غلبت الفئات السكثيرة ﴿ ياذن الله ﴾ أى بحكمه وتيسيره فإن دوران كافة الأمور على مشيئته تعالى فلا يذل من نصره وإن قل عدده ولا يعز من خذله وإن كثرت أسبابه ووعده وقد روعى فى الجواب نكته بديعة حيث لم يقل أطاقت بفئة كثيرة حسبما وقع فى كلام أصحابهم مبالغة فى رد مقالتهم وتسكين قلوبهم وهذا كما ترى جواب ناشئ من كمال ثقتهم بنصر الله تعالى وتوفيقه ولادخل فى ذلك لظن لقاء الله تعالى بالبعث لاسيما بالاستشهاد فإن العلم به ربما يورث اليأس من الغلبة ولا لتوقع ثوابه تعالى ولا ريب فى أن ما ذكر فى حيز الصلة ينبغى أن يكون مداراً للحكم الوارد على الموصول فلا أقل من أن يكون وصفا ملائماً له فلعل المراد بلقائه تعالى لقاء نصره وتأنيده عبر عنه بذلك مبالغة كما عبر عن مقارنة نصره تعالى لمعيته^(١) سبحانه حيث قيل ﴿ والله مع الصابرين ﴾ فإن المراد به معية نصره وتوفيقه حتماً وحملها على المعية بالإثابة كما فعل ياباه أنهم إنما قالوه تتميماً لجوابهم وتأيداً له بطريق الاعتراض التذييل تشجيعاً لأصحابهم وتثبيتاً لهم على الصبر المؤدى إلى الغلبة ولا تعلق له بما ذكر من المعية بالإثابة قطعاً وكذا الحال إذا جعل ذلك ابتداء كلام من جهة الله تعالى جىء به تقريراً لكلامهم والمعنى قال الذين يظنون أو يعلمون من جهة النبي أو من جهة التابوت والسكينة أنهم ملاقوا نصر الله العزيز كم من فئة قليلة غلبت

(١) فى ط : بمقارنته .

فئة كثيرة بإذن الله تعالى فنحن أيضا نغلب جالوت وجنوده وإيراد خبر أن اسما مع أن اللقاء مستقبل للدلالة على تقررته وتحققه .

﴿ ولما برزوا ﴾ أى ظهر طالوت ومن معه من المؤمنين وصاروا إلى براز من الأرض في موطن الحرب ﴿ لجالوت وجنوده ﴾ وشاهدوا ما هم عليه من العدد والعدد وأيقنوا أنهم غير مطيقين لهم عادة ﴿ قالوا ﴾ أى جميعا عند تقوى القلوب الفريق الأول منهم بقول الفريق الثانى متضرعين إلى الله تعالى مستعينين به ﴿ ربنا أفرغ علينا صبرا ﴾ على مقاساة شدائد الحرب واقتحام موارده الصعبة الضيقة وفى التوسل بوصف الربوبية المنبى^(١) عن التبليغ إلى السجال وإيثار الإفراغ المعرب عن الكثرة وتنكير الصبر المفصح عن التفخيم من الجزالة لا لا يخفى ﴿ وثبت أقدامنا ﴾ فى مداحض القتال ومزال النزال وبيات الأقدم عبارة عن كمال القوة والرسوخ عند المقارعة وعدم التزلزل وقت المقاومة لا مجرد التقرر فى حيز واحد ﴿ وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ بقهرهم وهزمهم ووضع الكافرين فى موضع الضمير العائد إلى جالوت وجنوده. للإشعار بعملة النصر عليهم ولقد راعوا فى الدعاء ترتيبا بديعا حيث قدموا سؤال إفراغ الصبر الذى هو ملاك الأمر ثم سؤال تثبيت القدم المتفرع عليه ثم سؤال النصر الذى هو الغاية القصوى ﴿ فهن مومم ﴾ أى كسروهم بلا مكث ﴿ بإذن الله ﴾ بنصره وتأييده لإجابة لدعائهم وإيثار هذه الطريقة على طريقة قوله عز وجل (فأتاهم الله ثواب الدنيا) الخ للمحافظة على مضمون قوتهم غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴿ وقتل داود جالوت ﴾ كان إيشى أبو داود فى عسكر طالوت معه ستة من بنيه وكان داود عليه السلام سابعهم وكان صغيرا يرعى الغنم فأوحى الله تعالى إلى نبيهم أنه الذى يقتل جالوت فطلبه من أبيه فجاء ، وقد مر فى طريقة بثلاثة أحجار قال له كل منها احملنا فإنك بنا تقتل جالوت فحماها فى مخلاته وقيل لما أبطأ على أبيه خبر إخوته فى المصاف أرسل داود

(١) فى ط المنبثة

لإيهم ليأتيه بخبرهم فأتاهم وهم في القراع وقد برز جالوت بنفسه إلى البراز ولا يكاد يبارزه أحد وكان ظله ميلا فقال داود لإخوته أما فيكم من يخرج إلى هذا الأقفف فزجروه فتنحى^(١) ناحية أخرى ليس فيها إخوته وقد مر به طالوت وهو يحرض الناس على القتال فقال له داود ما تصنعون بمن يقتل هذا الأقفف قال طالوت أنكحه ابنتي وأعطيه شطر مملكتي فبرز له داود فرماه بما معه من الأحجار بالمقلاع فأصابه في صدره فنفذت الأحجار منه وقتلت بعده ناسا كثيرين^(٢) وقيل إنما كلمته الأحجار عند بروزه لجالوت في المعركة فأنجز له طالوت ما وعده وقيل إنه حسده وأخرجه من مملكته ثم ندم على ما صنعه فذهب يطلبه إلى أن قتل وملك داود عليه السلام وأعطى النبوة وذلك قوله تعالى ﴿وآتاه الله الملك﴾ أي ملك بني إسرائيل في مشارق الأرض المقدسة ومغارها ﴿والحكمة﴾ أي النبوة ولم يجتمع في بني إسرائيل الملك والنبوة قبله إلا له بل كان الملك في سبط والنبوة في سبط آخر وما اجتمعوا قبله على ملك قط ﴿وعليه بما يشاء﴾ أي بما يشاء الله تعالى تعليمه إياه لا بما يشاء داود عليه السلام كما قيل لأن معظم ما علمه تعالى إياه بما لا يكاد يخطر ببال أحد ولا يقع في أمنية بشر ليتمكن من طلبه ومشيبته كالسرد بالآلة الحديد ومنطق الطير والدواب ونحو ذلك من الأمور الخفية .

﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم﴾ الذين يباشرون الشر والفساد ﴿ببعض﴾ آخر منهم بردهم عما هم عليه بما قدر الله تعالى من القتل كما في القصة المحكية أو غيره وقرئ دفاع الله على أن صيغة المخالفة للبالغة ﴿لفسدت الأرض﴾ وبطلت منافعها وتعطلت مصالحها من الحرث والنسل وسائر ما يعمر الأرض ويصلحها وقيل لولا أن الله ينصر المسلمين على الكافرين لفسدت الأرض بعينهم وقتلهم المسلمين أو لو يدفعهم بالمسلمين لعم الكفر ونزلت السخطة فاستوصل أهل الأرض قاطبة ﴿ولكن الله ذو فضل﴾

(١) في ط : فدعا ناحية

(٢) في ط : كثيرا .

عظيم لا يقادر قدره ﴿ على العالمين ﴾ كافة وهذا إشارة إلى قياس استثنائي مؤلف من وضع نقيض المقدم منتج لنقيض التالي خلا أنه قد وضع موضعه ما يستتبعه ويستوجبه أعني كونه تعالى ذا فضل على العالمين إيدانا بأنه تعالى متفضل في ذلك الدفع من غير أن يجب عليه ذلك وأن فضله تعالى غير منحصر فيه بل هو فرد من أفراد فضله العظيم كأنه قيل ولكنه تعالى يرفع فساد بعضهم ببعض فلا تفسد الأرض وتلتظم به مصالح العالم وتنصلح أحوال الأمم ﴿ تلك ﴾ إشارة إلى ما سلف من حديث الألوف وخبر طالوت على التفصيل المرقوم وما فيه من معنى البعد للإيدان بعلو شأن المشار إليه ﴿ آيات الله ﴾ المنزلة من عنده تعالى والجملة مستأنفة وقوله تعالى : ﴿ تتلوها عليكم ﴾ أى بواسطة جبريل عليه السلام إما حال من الآيات والعامل معنى الإشارة وإما جملة مستقلة لا محل لها من الإعراب ﴿ بالحق ﴾ فى حيز النصب على أنه حال من مفعول تتلوها أى ملتبسة باليقين الذى لا يرتاب فيه أحد من أهل الكتاب وأرباب التواريخ لما يجدونها موافقة لما فى كتبهم أو من فاعله أى تتلوها عليكم ملتبسين بالحق والصواب أو من الضمير المجرور أى ملتبسا بالحق والصدق ﴿ وإنك لمن المرسلين ﴾ أى من جملة الذين أرسلوا إلى الأمم لتبليغ رسالاتنا وإجراء أوامرنا وأحكامنا عليهم فإن هذه المعاملة لا تجرى بيننا وبين غيرهم فهى شهادة منه سبحانه برسالاته عليه الصلاة والسلام لئلا يبان ما يستوجبها والتأكيد من مقتضيات مقام الجاحدين بها .

﴿ تلك الرسل ﴾ استئناف فيه رمز إلى أنه عليه الصلاة والسلام من أفاضل الرسل العظام عليهم الصلاة والسلام لئلا يبان كونه من جملتهم والإشارة إلى الجماعة الذين من جملتهم النبى صلى الله عليه وسلم فاللام فى المسأل للاستغراق وما فيه من معنى البعد للإيدان بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم وقيل إلى الذين ذكرت قصصهم فى السورة وقيل إلى الذين ثبت علمه صلى الله عليه وسلم بهم ﴿ فضلنا بعضهم على بعض ﴾ فى مراتب الكمال بأن خصصناه حسبما تقتضيه مشيئتنا بما أثر جليله خلا عنها غيره ﴿ منهم من كلم الله ﴾

تفصيل للتفصيل المذكور إجمالاً أى فضله بأن كلمة تعالى بغير سفير وهو موسى عليه الصلاة والسلام حيث كلمة تعالى ليلة الخيرة وفي الطور وقرىء كتم الله بالنصب وقرىء كالم الله من المكاملة فإنه كلم الله تعالى كما أنه تعالى كلمه ويؤيده كليم الله بمعنى مكالمه وإيراد الاسم الجليل بطريق الإلتفات لتربية المهابة والرمز إلى ما بين التكليم والرفع وبين ما سبق من مطلق التفضيل وما أُلحق من إيتاء البيئات والتأييد بروح القدس من التفاوت ﴿ ورفع بعضهم درجات ﴾ أى ومنهم من رفعه على غيره من الرسل المتفاوتين في معارج الفضل بدرجات قاصية ومراتب نائية وتغيير الأسلوب لتربية ما بينهم من اختلاف الحال في درجات الشرف والظاهر أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ينبيء عنه الإخبار بكونه عليه الصلاة والسلام منهم فإن ذلك في قوة بعضهم فإنه قد خص بالدعوة العامة والحجج الجمّة والمعجزات المستمرة والآيات المتعاقبة بتعاقب الدهور والفضائل العلمية والعملية الفاتنة للحصر والإبهام لتفخيم شأنه وللإشعار بأنه العلم الفرد الغنى عن التعيين وقيل إنه إبراهيم عليه الصلاة والسلام حيث خصه تعالى بكرامة الخلة وقيل لإدريس عليه السلام حيث رفعه مكاناً علياً وقيل أو لو العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام .

﴿ وآتينا عيسى ابن مريم البيئات ﴾ الآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار بالمغيبات أو الإنجيل ﴿ وأيدناه ﴾ أى قويناه ﴿ بروح القدس ﴾ بضم الدال وقرىء بسكونها أى بالروح المقدسة كقولك رجل صدق وهى روح عيسى وإنما وصفت بالقدس للكرامة أو لأنه عليه السلام لم تضمه الأصلاب والأرحام الطوامث وقيل بحبريل وقيل بالإنجيل كما مر وإفراده عليه السلام بما ذكر لرد ما بين أهل الكتابين فى شأنه عليه السلام من التفريط والإفراط والآية ناطقة بأن الأنبياء عليهم السلام متفاوتة الأقدار فيجوز تفضيل بعضهم على بعض ولكن بقاطع ﴿ ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم ﴾ أى جاءوا من بعد الرسل من الأمم .

المختلفة أى لو شاء الله عدم اقتتلهم ما اقتتلوا بأن جعلهم متفقين على اتباع الرسل المتفقة على كلمة الحق ففعل المشيئة محذوف لكونه مضمون الجزاء على القاعدة المعروفة وقيل تقديره ولو شاء هدى الناس جميعاً ما اقتتل الخ وليس بذلك ﴿ من بعد ما جاءتهم ﴾ من جهة أولئك الرسل ﴿ البيئات ﴾ المعجزات الواضحة والآيات الظاهرة الدالة على حقيقة الحق الموجبة لاتباعهم الزاجرة عن الإعراض عن سننهم المؤدى إلى الاقتتال فمن متعلقة باقتل ﴿ ولكن اختلفوا ﴾ استدراك من الشرطية أشير به إلى قياس استثنائي مؤلف من وضع نقيض مقدها منتج لنقيض تاليها إلا أنه قد وضع فيه الاختلاف موضع نقيض المقدم المترتب عليه للإيدان بأن الاقتتال ناشئ من قلبهم لا من جهته تعالى ابتداء كأنه قيل ولكن لم يشأ عدم اقتتلهم لأنهم اختلفوا اختلافاً فاحشاً ﴿ فمنهم من آمن ﴾ بما جاءت به أولئك الرسل من البيئات وعملوا به ﴿ ومنهم من كفر ﴾ بذلك كفراً لا ارعوا له عنه فافتضت الحكمة عدم مشيئته تعالى لعدم اقتتلهم فاقتتلوا بموجب اقتضاء أحوالهم ﴿ ولو شاء الله ﴾ عدم اقتتلهم بعد هذه المرتبة أيضاً من الإختلاف والشقاق المستقبين للاقتتال بحسب العادة ﴿ ما اقتتلوا ﴾ وما نبض منهم عرق التطاول والتعاضد لما أن السكل تحت ملكوته تعالى فالتكرير ليس للتأكيدي كما ظن بل للتنبية على أن اختلفهم ذلك ليس موجبا (١) لعدم مشيئته تعالى لعدم اقتتلهم كما يفهم ذلك من وضعه في الاستدراك موضعه بل هو سبحانه مختار في ذلك حتى لو شاء بعد ذلك عدم اقتتلهم ما اقتتلوا كما يفصح عنه الاستدراك بقوله عز وجل ﴿ ولكن الله يفعل ما يريد ﴾ أى من الأمور الوجودية والعدمية التي من جملتها عدم مشيئته عدم اقتتلهم فإن الترك أيضاً من جملة الأفعال أى يفعل ما يريد حسبها يريد من غير أن يوجهه عليه موجب أو يمنع منه مانع وفيه دليل بين على أن الحوادث تابعة لمشيئته سبحانه خيراً كان أو شراً إيماناً كان أو كفراً ﴿ يا أيها

(١) في ط : موجب : خطأ .

الذين آمنوا أنفقوا ﴿ في سبيل الله ﴾ ﴿ مما رزقناكم ﴾ أى شيئاً مما رزقناكموه على أن ما مرصولة حذف عائدها والتعرض لوصوله منه تعالى للبحث على الإنفاق كما في قوله تعالى ﴿ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ والمراد به الإنفاق الواجب بدلالة ما بعده من الوعيد ﴿ من قبل أن يأتى يوم لا يبيع فيه ولا خلة ولا شفاعاة ﴾ كلمة من متعلقة بما تعلق به أختها ولا ضير فيه لاختلاف معنيهما فإن الأولى تبعضية وهذه لا ابتداء الغاية أى أنفقوا بعض ما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا تقدر على تلافى ما فرطتم فيه إذ لا تبايح فيه حتى تتبايعوا ما تنفقونه أو تفتدون به من العذاب ولا خلة حتى يسألكم به أخلاقكم أو يعينوكم عليه ولا شفاعاة إلا لمن أذن له الرحمن ورضى له قولاً حتى تتوسلوا بشفاعاء يشفعون لكم في حط ما في ذمتكم وإنما رفعت الثلاثة مع قصد التعميم لأنها في التقدير جواب هل فيه يبيع أو خلة أو شفاعاة وقرىء بفتح الكسر ﴿ والكافرون ﴾ أى والتاركون للزكاة وإشاره عليه للتخليط والتهديد كما في قوله تعالى (ومن كفر) مكان ومن لم يحج وللإيدان بأن ترك الزكاة من صفات الكفار قال تعالى (وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة) ﴿ هم الظالمون ﴾ أى الذين ظلموا أنفسهم بتعريضها للعقاب ووضعوا المسأل في غير موضعه وصرفوه إلى غير وجهه ﴿ الله لا إله إلا هو ﴾ مبتدأ وخبر أى هو المستحق للمعبودية لا غير وفي إضمار خبر لا مثل في الوجود أو يصح أن يوجد خلاف للنحاة معروف ﴿ الحى ﴾ الباقى الذى لا سبيل عليه للموت والفناء وهو إما خبر ثان أو خبر مبتدأ محذوف أو بدل من لا إله إلا هو أو بدل من الله أو صفة له وبعضه القراءة بالنصب على المدح لاختصاصه بالنعمة ﴿ القيوم ﴾ فيعمل من قام بالأمر إذا حفظه أى دائم القيام بتدبير الخلق وحفظه وقيل هو القائم بذاته المقيم لغيره ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ السنة ما يتقدم النوم من الفتور قال عدى بن الرقاع العاملى :

وسنان أقصده النعاس فرانقت فى عينه سنة ولبس بنائم

والنوم حالة تعرض للحيوان من استرخاء أعصاب الدماغ من رطوبات الأبخرة المتصاعدة بحيث تقف المشاعر الظاهرة عن الإحساس رأساً والمراد بيان انتفاء اعتراء شيء منهما له سبحانه لعدم كونهما من شأنه تعالى لا لأنهما قاصران بالنسبة إلى القوة الإلهية فإنه بمعزل من مقام التنزيه فلا سبيل إلى حمل النظم الكريم على طريقة المبالغة والترقى بناء على أن القادر على دفع السنة قد لا يقدر على دفع النوم القوي كما في قولك فلان يقظ لا تغلبه سنة ولا نوم وإنما تأخير النوم للمحافظة على ترتيب الوجود الخارجى وتوسيط كلمة لا للتخصيص على شمول النفي لسلك منهما كما في قوله عز وجل (ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة) الآية وأما التعبير عن عدم الاعتراء والعروض بعدم الأخذ فلإعارة الواقع إذ عروض السنة والنوم لمعرضهما إنما يكون بطريق الأخذ والاستيلاء وقيل هو من باب التكميل والجملة تأكيد لما قبلها من كونه تعالى حياً قيوماً فإن من يعتريه أحدهما يكون موقوف الحياة قاصراً في الحفظ والتدبير وقيل استئناف مؤكداً لما سبق وقيل حال مؤكدة من الضمير المستكن في القيوم ﴿له ما فى السموات وما فى الأرض﴾ تقرير لقيوميته تعالى واحتجاج به على تفردده فى الألوهية والمراد بما فىهما ما هو أعم من أجزائهما الداخلة فىهما ومن الأمور الخارجة عنهما المتمكنة فىهما من العقلاء وغيرهم .

﴿من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه﴾ بيان لكبرياء شأنه وأنه لا يدانيه أحد ليقدر على تغيير ما يريد شفاعته وضراعة فضلاً عن أن يدافعه عنادا أو مناصبة ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ أى ما قبلهم وما بعدهم أو بالعكس لأنك مستقبل المستقبل ومستدبر الماضى أو أمور الدنيا أو أمور الآخرة أو بالعكس أو ما يحسونه ، وما يعقلونه أو ما يدركونه وما لا يدركونه والضمير لما فى السموات والأرض بتغليب ما فىهما من العقلاء على غيرهم أو لما دل عليه من ذا الذى من الملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه﴾ أى من معلوماته ﴿إلا بما شاء﴾ أن يعلموه وعطفه على ما قبله لما أنهما جميعاً دليل على تفردده تعالى بالعلم الداخلى التام الدال على

وحدانيته ﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ﴾ الكرسي ما يجلس عليه ولا يفضل عن مقعد القاعد وكأنه منسوب إلى الكرسي الذي هو الملبد وليس نمة كرسي ولا قاعد ولا قعود وإنما هو تمثيل لعظمة شأنه عز وجل وسعة سلطانه وإحاطة علمه بالأشياء قاطبة على طريقة قوله عز قائلنا (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) وقيل كرسيه مجاز عن علمه أخذنا من كرسي العالم وقيل عن ملكه أخذنا من كرسي الملك فإن الكرسي كلما كان أعظم تكون عظمة القاعد أكثر وأوفر فعبر عن شمول علمه أو بسطة ملكه وسلطانه بسعة كرسيه وإحاطته بالأقطار العلوية والسفلية وقيل هو جسم بين يدي العرش محيط بالسموات السبع لقوله صلى الله عليه وسلم ما السماوات السبع والأرضون السبع مع الكرسي إلا كحلقة في فلاة وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة ، ولعله الفلك الثامن وعن الحسن البصري أنه العرش .

﴿ ولا يؤوده ﴾ أى لا يثقله ولا يشق عليه ﴿ حفظهما ﴾ أى حفظ السموات والأرض وإنما لم يتعرض لذكر ما فيهما لما أن حفظهما مستتبع لحفظه ﴿ وهو العلى ﴾ المتعالى بذاته عن الأشباه والأنداد ﴿ العظيم ﴾ الذى يستحق بالنسبة إليه كل ما سواه ولما ترى من انطواء هذه الآية الكريمة على أمهات المسائل الإلهية المتعلقة بالذات العلية والصفات الجليلة فإنها ناطقة بأنه تعالى موجود متفرد بالإلهية متصف بالحياة واجب الوجود لذاته موجود لغيره لما أن القيوم هو القائم بذاته المقيم لغيره منزّه عن التحيز والحلول مبرأ عن التغير والفتور لامناسبة بينه وبين الأشباح ولا يعتريه ما يعترى النفوس والأرواح مالك الملك والملوك ومبدع الأصول والفروع ذو البطش الشديد لا يشفع عنده إلا من أذن له فيه العالم وحده بجميع الأشياء جلها وخفيها كليها وجزئها واسع الملك والقدرة لسكل ما من شأنه أن يملك ويقدر عليه لا يشق عليه شاق ولا يشغله شأن عن شأن متعال عما تناله الأوهام عظيم

(٢٥ - أبو السعود - أول)

لا تحديق به الأفهام تفردت بفضائل رائقة وخواص فائقة خلت عنها أخواتها قال صلى الله عليه وسلم إن أعظم آية في القرآن آية الكرسي من قرأها بعث الله تعالى ملكا يكتب من حسناته ويمحو من سيئاته إلى الغد من تلك الساعة ، وقال عليه الصلاة والسلام ما قرئت هذه الآية في دار إلا هجرتها الشياطين ثلاثين يوماً ولا يدخلها ساحر ولا ساحرة أربعين ليلة ، وقال ديا على علمها ولدك وأهلك وجيرانك فما نزلت آية أعظم منها ، وقال عليه السلام د من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت ولا يواظب عليها إلا صديق أو عابد ومن قرأها إذا أخذ مضجعه آمنه الله تعالى على نفسه وجاره وجاره والآيات حوله ، وقال عايه الصلاة والسلام سيد البشر آدم وسيد العرب محمد ولائقر وسيد الفرس سلمان وسيد الروم ضميم وسيد الحبشة بلال وسيد الجبال الطور وسيد الأيام يوم الجمعة وسيد القرآن سورة البقرة وسيد البقرة آية الكرسي ، وتخصيص سيادته صلى الله عليه وسلم للعرب بالذكر في أثناء تعداد السیادات الخاصة لا يدل على نفي ما دلت عليه الأخبار المستفيضة وانعقد عليه الإجماع من سيادته عليه السلام لجميع افراد البشر .

(لا إكراه في الدين) جملة مستأنفة جىء بها لاثربیان تفرده سبحانه وتعالى بالشئون الجليلة الموجبة للإيمان به وحده ليداننا بأن من حق العاقل ألا يحتاج إلى التكليف والإلزام بل يختار الدين الحق من غير تردد وتلعثم وقيل هو خبر في معنى النهى أى لا تكروهوا في الدين فليل منسوخ بقوله تعالى (جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) وقيل خاص بأهل الكتاب حيث حصنوا أنفسهم بأداء الجزية وروى أنه كان لأنصارى من بنى سالم بن عوف ابنان قد تنصراً قبل مبعثه عليه السلام ثم قدما المدينة فلزمهما أبوهما وقال والله لا أدعكما حتى تسلميا فأيا فاختصهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت غلاهما (قد تبين الرشد من الغى) استئناف تعليلى صدر بكلمة التحقيق لزيادة تقرير مضمونه كما في قوله عز وجل (قد بلغت من لدنى عذرا)

أى إذ قد تبين بما ذكر من نعوته تعالى التي يتمتع توهم اشتراك غيره في شيء منها الإيمان الذي هو الرشد الموصل إلى السعادة الأبدية من الكفر الذي هو الغي المؤدى إلى الشقاوة السرمدية ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ﴾ هو بناء مبالغته من الطغيان كالمملكوت والجبروت قلب مكان عينه ولامه فقيل هو في الأصل مصدر وإليه ذهب الفارسي وقيل اسم جنس مفرد مذكر وإنما الجمع والتأنيث لإرادة الآلهة وهو رأى سيديويه وقيل هو جمع وهو مذهب المبرد وقيل يستوى فيه المفرد والجمع والتذكير والتأنيث أى فمن يعمل لإثر ما تميز الحق من الباطل بموجب الحجج الواضحة والآيات البينة ويكفر بالشیطان أو بالأصنام أو بكل ما عبد من دون الله تعالى أو صد عن عبادته سبحانه تعالى لما تبين له كونه بمعزل من استحقاق العبادة ﴿ ويؤمن بالله ﴾ وحده لما شاهد من نعوته الجليلة المقتضية لاختصاص الألوهية به عز وجل الموجبة للإيمان والتوحيد وتقديم الكفر بالطاغوت على الإيمان به تعالى لتوقفه عليه فإن التخلية متقدمة على التحلية ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ أى بالغ في التمسك بها كأنه وهو ملتبس به يطلب من نفسه الزيادة فيه والثبات عليه ﴿ لا انفصام لها ﴾ الفصم الكسر بغير صوت كما أن القضم هو الكسر بصوت^(١) ونفى الأول يدل على انتفاء الثانى بالأولوية والجملة إما استئناف مقرر لما قبلها من وثيقة العروة وإما حال من العروة والعامل استمسك أو من الضمير المستتر فى الوثقى ولها فى حيز الخبر أى كائن لها والكلام تمثيل مبنى على تشبيه الهيئة العقلية المنتزعة من ملازمة الاعتقاد الحق الذى لا يحتمل النقيض أصلاً لثبوته بالبراهين النيرة القطعية بالهيئة الحسية المنتزعة من التمسك بالحبل المحكم المأمون انقطاعه فلا استعارة فى المفردات ويجوز أن تكون العروة الوثقى مستعارة للاعتقاد الحق الذى هو الإيمان والتوحيد لا للنظر الصحيح المؤدى إليه كما قيل فإنه غير مذکور فى حيز الشرط والاستمسك بها مستعاراً

(١) فى ط : بغير إبانة . . . بإبانة

لما ذكر من الملازمة أو ترشيحا للاستعارة الأولى ﴿ والله سميع ﴾ بالأقوال ﴿ علم ﴾ بالعزائم والعقائد والجملة اعتراض تذييلي حامل على الإيمان رادع عن الكفر والتناق بما فيه من الوعد والوعيد .

﴿ الله ولي الذين آمنوا ﴾ أى معينهم أو متولى أمورهم والمراد بهم الذين ثبت في علمه تعالى إيمانهم في الجملة مآلا أو حالا ﴿ يخرجهم ﴾ تفسير للولاية أو خبر ثان عند من يجوز كونه جملة أو حال من الضمير في ولي ﴿ من الظلمات ﴾ التى هى أعم من ظلمات الكفر والمعاصى وظلمات الشبه بل بما فى بعض مراتب العلوم الاستدلالية من نوع ضعف وخفاء بالقياس إلى مراتبها القوية الجليلة بل بما فى جميع مراتبها بالنظر إلى مرتبة العيان كما ستعرفه ﴿ إلى النور ﴾ الذى يعين نور الإيمان ونور الإيقان بمراتبه ونور العيان أى يخرج بهدايته وتوفيقه كل واحد منهم من الظلمة التى وقع فيها إلى ما يقابلها من النور وإفراد النور لتوحيد الحق كما أن جمع الظلمات لتعدد فنون الضلال ﴿ والذين كفروا ﴾ أى الذين ثبت فى علمه تعالى كفرهم ﴿ أولياؤهم الطاغوت ﴾ أى الشياطين وسائر المضلين عن طريق الحق فالموصول مبتدأ وأولياؤهم مبتدأ ثان. والطاغوت خبره والجملة خبر للآول والجملة الحاصلة معطوفة على ما قبلها ولعل تغيير السبك للاحتراز عن وضع الطاغوت فى مقابلة الاسم الجليل ولتقصد المبالغة بتكرير الإسناد مع الإيماء إلى التباين بين الفريقين من كل وجه حتى من جهة التعبير أيضا ﴿ يخرجونهم ﴾ بالوساوس وغيرها من طرق الإضلال والإغواء ﴿ من النور ﴾ الفطرى الذى جبل عليه الناس كافة أو من نور البينات التى يشاهدونها من جهة النبى صلى الله عليه وسلم بتنزيل تمسكهم من الاستضاءة بها منزلة نفسها ﴿ إلى الظلمات ﴾ ظلمات الكفر والانهماك فى الغل وقيل نزلت فى قوم ارتدوا عن الإسلام والجملة نفسير لولاية الطاغوت أو خبر ثان كما مر وإسناد الإخراج من حيث السببية إلى الطاغوت لا يقدح فى استناده من حيث الخلق إلى قدرته سبحانه ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة وما يتبعه من القبائح ﴿ أصحاب النار ﴾ أى ملايسوها، وملايسوها بسبب ما لهم من الجرائم ﴿ هم فيها خالدون ﴾ ما كئون أبدا .

﴿ ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه ﴾ استشهاد على ما ذكر من أن الكفرة أولياؤهم الطاغوت وتقرير له على طريقة قوله تعالى (ألم تر أنهم في كل واديهيمون) كما أن ما بعده استشهاد على ولايته تعالى للؤمنين وتقرير لها وإنما بدى بهذا الرعاية الاقتران بينه وبين مدلوله ولاستقلاله بأمر عجيب حقيق بأن يصدر به المقال وهو اجتزاؤه على الحاجة في الله عز وجل وما أتى بها في أثنائها من العظيمة المنادية بكمال حماقته ولأن فيما بعده تعدداً وتفصيلاً يورث تقديمه انتشار النظم على أنه قد أشير في تضاعيفه إلى هداية الله تعالى أيضاً بواسطة إبراهيم عليه السلام فإن يحكى عنه من الدعوة إلى الحق وإدحاض حجة الكافر من آثار ولايته تعالى وهمزة الاستفهام لإنكار النفي وتقرير المنفى أى ألم تنظر أو ألم ينته عليك إلى هذا الطاغوت المارد كيف تصدى لإضلال الناس وإخراجهم من النور إلى الظلمات أى قد تحققت الرؤية وتقررت بناء على أن أمره من الظهور بحيث لا يكاد يخفى على أحد من له حظ من الخطاب فظهر أن الكفرة أولياؤهم الطاغوت وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام تشریف له وإيدان بتأييده في الحاجة ﴿ أن آتاه الله الملك ﴾ أى لأن آتاه إياه حيث أبطره ذلك وحمله على الحاجة أو حاجه لأجله وضعا للحاجة التي هي أقبح وجوه الكفر موضع ما يجب عليه من الشكر كما يقال عاديتنى لأن أحسنت إليك أو وقت أن آتاه الله الملك وهو حجة على من منع إيتاء الله الملك للكافر .

﴿ إذ قال إبراهيم ﴾ ظرف لحاج أو بدل من آتاه على الوجه الأخير ﴿ ربى الذى يحيى ويميت ﴾ بفتح ياء ربى وقرئ بمحذوها . روى أنه عليه الصلاة والسلام لما كسر الأصنام سجنه ثم أخرجه فقال من ربك الذى تدعو إليه قال ربى الذى يحيى ويميت أى يخلق الحياة والموت فى الأجساد ﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل كيف حاجه فى هذه المقالة القوية الحققة فقيل قال ﴿ أنا أحيى وأميت ﴾ روى أنه دعا برجلين فقتل أحدهما وأطلق الآخر فقال ذلك ﴿ قال إبراهيم ﴾ استئناف كما سلف كأنه قيل فماذا قال

إبراهيم لمن في هذه المرتبة من الحماقة وبماذا أحمه فقيل قال ﴿ فإن الله يأتي بالشمس من المشرق ﴾ حسبما تقتضيه مشيئته ﴿ فأت بها من المغرب ﴾ لأن كنت قادرا على مثل مقدراته تعالى فلم ﴿١﴾ يلتفت عليه السلام إلى إبطال مقالة اللعين إذانا بأن بطلانها من الجلاء والظهور بحيث لا يكاد يخفى على أحد وأن التصدي لإبطالها من قبيل السعي في تحصيل الحاصل وأتى بمثال لا يجد اللعين فيه مجالاً للتمويه والتليس ﴿ فهبت الذي كفر ﴾ أي صار مبهوتا وقرىء على بناء الفاعل على أن الموصول مفعوله أي فغلب إبراهيم الكافر وأسكته وإيراد الكفر في حيز الصلة للإشعار بعلامة الحكم والتنصيص على كونه المحاجة كقرا ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله أي لا يهدي الذين ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخلد بسبب إعراضهم عن قبول الهداية إلى مباحج الاستدلال أو إلى سبيل النجاة أو إلى طريق الجنة يوم القيامة .

﴿ أو كالذي مر على قرية ﴾ استشهد على ما ذكر من ولايته تعالى للمؤمنين وتقرير له معطوف على الموصول السابق وإيثار أو الفارقة على الواو الجامعة للاحتراز عن توهم اتحاد المستشهد عليه من أول الأمر والكاف إما اسمية كما اختاره قوم جيء بها للتنبيه على تعدد الشواهد وعدم انحصارها فيما ذكر كما في قولك الفعل المناضى مثل نصر إما زائدة كما ارتضاه آخرون والمعنى أو لم تر إلى مثل الذي أو إلى الذي مر على قرية كيف هداه الله تعالى وأخرجه من ظلمة الاشتباه إلى نور العيان والشهود أي قد رأيت ذلك وشاهدته فإذا لا ريب في أن الله ولي الذين آمنوا الخ . هذا وإما جعل الهمزة لمجرد التعجب على أن يكون المعنى في الأول ألم تنظر إلى الذي حاج الخ أي انظر إليه وتعجب من أمره وفي الثاني أو رأيت مثل الذي مر الخ إذانا بأن حاله وما جرى عليه في الغرابة بحيث لا يرى له مثل كما استقر عليه

رأى الجمهور فغير خليق بجزالة التنزيل ونخامة شأنه الجليل فتدبر والمار هو
عزير بن شرخيا قاله قتادة والريبع وعكرمة وناجية بن كعب وسليمان
ابن يزيد والضحاك والسدى رضى الله عنهم وقيل هو أرميا بن حلقيا من سبط
هرون عليه السلام قاله وهب وعبيد الله بن عمير وقيل أرميا هو الخضر بعينه
قال مجاهد كان المار رجلا كافرا بالبعث وهو وعبيد الله بن المقدس قاله
وهب وعكرمة والريبع ، وقيل هي دير هرقل على شط دجلة وقال الكلبي
هي دير سابر آباد وقال السدى هي دير سلما باد والاول هو الأظهر والأشهر
دوى أن بنى إسرائيل لما بالغوا في تعاطى الشر والفساد وجاوزوا في العتو
والظغيان كل حد معتاد سلط الله تعالى عليهم بنحت نصر البابلي فسار إليهم في
ستائة ألف راية حتى وطئ الشام وخرب بيت المقدس وجعل بنى إسرائيل
أثلاثا ثلث منهم قتلهم وثلث منهم أسكنهم بالشام^(١) وثلث منهم سباهم وكانوا
مائة ألف غلام يافع وغير يافع فقسّمهم بين الملوك الذين كانوا معه فأصاب
كل مالك منهم أربعة غلّة وكان عزير من جملتهم فلما نجاه الله تعالى منهم بعد
حين مر بجواره بيت المقدس فرآه على أفضح مرأى وأوحش منظر وذلك
قوله عز وجل ﴿ وهى خاوية على عروشها ﴾ أى ساقطة على سقوفها بأن
سقطت العروش ثم الحيطان من خوى البيت إذا سقط أو من خوت الأرض
أى تهدمت والجملة حال من ضمير مر أو من قرية عند من يجوز الحال من النكرة
مطلقا ﴿ قال ﴾ أى تلهفا عليها وتشوقا إلى عمارتها مع استشعار اليأس عنها
﴿ أنى يحيى هذه الله ﴾ وهى على ما يرى من الحالة العجيبة المبينة للحياة وتقديمها
على الفاعل للاعتناء بها من حيث أن الاستبعاد ناشئ من جهتها لا من جهة
الفاعل وأنى نصب على الظرفية إن كانت بمعنى متى وعلى الحالية من هذه إن
كانت بمعنى كيف والعامل يحيى وأياما كان فالمراد استبعاد عمارتها بالبناء
والسكان من بقايا أهلها الذين تفرقوا أيدي سبا ومن غيرهم وإنما عبر عنها

(١) فى ط: أفرهم بالشام

بالإحياء الذي هو علم في البعد عن الوقوع عادة تهويلا للخطب وتأكيذا للاستبعاد كما أنه لأجله عبر عن خرابها بالموت حيث قيل ﴿ بعد موتها ﴾ وحيث كان هذا التعبير معربا عن استبعاد الإحياء بعد الموت على أبلغ وجه وأكده أراه الله عز وجل أثر ذي أثر أبعد الأمرين في نفسه ثم في غيره ثم أراه ما استبعده صريحا مبالغة في إزاحة ما عسى يختلج في خلدته وأما حمل إحيائها على إحياء أهلها فيأباه التعرض لحال القرية دون حالهم والاقتصار على ذكر موتهم دون كونهم ترابا وعظاما مع كونه أدخل في الاستبعاد لشدة مباينته للحياة وغاية بعده عن قبولها على أنه لم تتعلق إرادته تعالى بإحيائهم كما تعلقت بعارتها ومعاينة المار لها كما استحيط به خبرا .

﴿ فأماته الله ﴾ وألبثه على الموت ﴿ مائة عام ﴾ روى أنه لما دخل القرية ربط حمارة فطاف بها ولم يربها أحدا فقال ما قال وكانت أشجارها قد أثمرت فتناول من التين والعنب وشرب من عصيره ونام فأماته الله تعالى في منامه وهو شاب وأمات حمارة وبقية تينته وعنبه وعصيره عنده ثم أعمى الله تعالى عنه عيون المخلوقات فلم يره أحد فلما مضى من موته سبعون سنة وجهه الله عز وعلا ملكا عظيما من ملوك فارس يقال له يوشك إلى بيت المقدس ليعمره ومعه ألف قهرمان مع كل قهرمان ثلثمائة ألف عامل فجعلوا يعمرونه وأهلك الله تعالى بخت نصر ببعوضة دخلت دماغه ونجى الله تعالى من بقى من بني إسرائيل وردهم إلى بيت المقدس وتراجع إليه من تفرق منهم في الأكناف فعمروه ثلاثين سنة وكثروا وكانوا كأحسن ما كانوا عليه فلما تمت المائة من موت عزير أحياه الله تعالى وذلك قوله تعالى ﴿ ثم بعثه ﴾ وإشاره على أحياء للدلالة على سرعته وسهولة تأتية على البارئ تعالى كأنه بعثه من النوم وللإيدان بأنه أعاد، كهيئته يوم موته عاقلا فاعما مستعدا للنظر والاستدلال ﴿ قال ﴾ استئناف مبني على السؤال كأنه قيل فإذا قال له بعثه فقيل قال : ﴿ كم لبثت ﴾ ليظهر له عجزه عن الإحاطة بشئونه تعالى وأن إحياءه ليس بعد مدة يسيرة ربما يتوهم أنه هين في الجملة بل بعد مدة طويلة وينجسم به

مادة استبعاده بالمرّة ويطلع في تضاعيفه على أمر آخر من بدائع آثار قدرته تعالى وهو إبقاء الغذاء المتسارع إلى الفساد بالطبع على ما كان عليه دهرًا طويلاً من غير تغيير ما وكم نصب على الظرفية بميزها محذوف أى كم وقتاً لبثت والقائل هو الله تعالى أو ملك ما مور بذلك من قبله تعالى قيل فودى من السماء ياعزيزكم لبثت بعد الموت ؟

﴿ قال لبثت يوماً أو بعض يوم ﴾ قاله بناء على التقريب والتخمين أو استقصاراً لمدة لبثه وأما ما يقال من أنه مات ضحى وبعث بعد المائة قبيل الغروب فقال قبل النظر إلى الشمس يوماً فالتفت إليها فرآى منها بقية فقال أو بعض يوم على وجه الإضراب فبمعزل عن التحقيق إذ لا وجه للجزم بتمام اليوم ولو بناء على حسابان الغروب لتحقيق التقصان من أوله ﴿ قال ﴾ استئناف كما سلف ﴿ بل لبثت مائة عام ﴾ عطف على مقدر أى ما لبثت ذلك القدر بل هذا المقدار ﴿ فانظر ﴾ لتعابن أمر الآخر من دلائل قدرتنا ﴿ إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ﴾ أى لم يتغير في هذه المدة المتطاولة مع تداعيه إلى الفساد ، روى أنه وجد تينته وعنبه كما جنى وعصيره كما عصر والجملة المنفية حال بغير واو كقوله تعالى (لم يمسهم سوء) إما من الطعام والشراب وإفراد الضمير لجر يانها مجرى الواحد كالغذاء وإما من الأخير ا كتنفاه بدلالة حاله على حال الأول ويؤيده قراءة من قرأ وهذا شرابك لم يتسن والهاء أصلية أو هاء سكت واشتقاقه من السنه لما أن لامها هاء أو واو وقيل أصله لم يتسن من الحما المسنون فقلبت نونه حرف علة كما في تقضى البازى وقد جوز أن يكون معنى لم يتسنه لم يمر عليه السنون التى مرت لاحقيقة بل تشبها أى هو على حاله كأنه لم يلبث مائة عام وقرىء لم يسنه بادغام التاء فى السين .

﴿ وانظر إلى حمارك ﴾ كيف نخرت عظامه وتفرقت وتقطعت أوصاله وتمزقت ليتبين لك ما ذكر من لبثك^(١) المديد وتطمئن به نفسك وقوله

(١) فى ط : من اللبث

عز وجل ﴿ ولنجعلك آية للناس ﴾ عطف على مقدر متعلق بفعل مقدر قبله بطريق الاستئناف مقرر لمضمون ما سبق أى فعلنا ما فعلنا من إحيائك بعد ما ذكر لتعاني ما استبعدته من الإحياء بعد دهر طويل ولنجعلك آية للناس الموجودين في هذا القرن بأن يشاهدوك وأنت من أهل القرون الخالية ويأخذوا منك ما طوى عنهم منذ أحقاب من علم التوراة كما سيأتى أو متعلق بفعل مقدر بعده أى ولنجعلك آية لهم على الوجه المذكور فعلنا ما فعلنا فهو على التقديرين دليل على ما ذكر من اللبث المديد ولذلك فرق بينه وبين الأمر بالنظر إلى حماره وتكرير الأمر في قوله تعالى : ﴿ وانظر إلى العظام ﴾ مع أن المراد عظام الحمار أيضا لما أن المسأور به أولا هو النظر إليها من حيث دلالتها على ما ذكر من اللبث المديد وثانيا هو النظر إليها من حيث تعثرها الحياة ومبائها أى وانظر إلى عظام الحمار لتشاهد كيفية الإحياء في غيرك بعد ما شاهدت نفسه في نفسك ﴿ كيف ننشرها ﴾ بالزاي المعجمة أى ترفع بعضها إلى بعض وزدها إلى أما كتبها من الجسد فنزكها تركيبا لانقائها وقال الكسائى نلينها ونعظمها ولعل من فسره بنحيها أراد بالإحياء هذا المعنى وكذا من قرأ ننشرها بالراء من أنشر الله تعالى الموتى أى أحيائها لا معناه الحقيقي لقوله تعالى

﴿ ثم نكسوها لحماً ﴾ أى نسترها به كما يستر الجسد باللباس وأما من قرأ ننشرها بفتح النون وضم الشين فلعله أراد به ضد الطى كما قال الفراء فالعنى كيف نبسطها والجملة إما حال من العظام أى وانظر إليها مركبة مكسوة لحماً أو بدل اشتمال أى وانظر إلى العظام كيفية إنشازها وبسط اللحم عليها ولعل عدم التعرض لكيفية نفخ الروح لما أنها بما لا تقتضى الحكمة بيانه ، روى أنه نودى أيتها العظام البالية أن الله يأمرك أن تجتمعى فاجتمع كل جزء من أجزائها التى ذهب بها الطير والسباع وطارت بها الرياح من كل سهل وجبل فانضم بعضها إلى بعض والتصق كل عضو بما يليق به الضلع والذراع بمحلها والرأس بموضعها ثم الأعصاب والعروق ثم انبسط عليه اللحم ثم

الجلد ثم خرجت منه الشعور ثم نفخ فيه الروح فإذا هو قائم ينهق .

﴿ فلما تبين له ﴾ أى ما دل عليه الأمر بالنظر إليه من كيفية الإحياء بمباديه والفاء للعطف على مقدر يستدعيه الأمر المذكور وإنما حذف الإيدان بظهور تحققه واستغنائه عن الذكر والإشعار بسرعة وقوعه كما فى قوله عز وجل (فلما رآه مستقرا عنده) بعد قوله (أنا آتيتك به قبل أن ىرتد إليك طرفك) كأنه قيل فأنشزها الله تعالى وكساها لحماً فنظر إليها فتبين له كيفيةته فلما تبين له ذلك أى اتضح اتضاحاً تاماً ﴿ قال أعلم أن الله على كل شىء ﴾ من الأشياء التى من جملتها ما شاهده فى نفسه وفى غيره من تعاجيب الآثار ﴿ قدير ﴾ لا يستعصى عليه أمر من الأمور وإيثار صيغة المضارع للدلالة على أن علمه بذلك مستمر نظراً إلى أن أصله لم يتغير ولم يتبدل بل إنما تبدل بالعيان وصفه وفيه إشعار بأنه إنما قال ما قال بناء على الاستبعاد العادى واستعظاما للأمر وقد قيل فاعل تبين مضمرة يفسره مفعول أعلم أى فلما تبين له أن الله على كل شىء قدير قال أعلم أن الله على كل شىء قدير فتدبر وقرىء تبين له على صيغة المجهول وقرىء قال أعلم على صيغة الأمر ، روى أنه ركب حمارة وأتى محلته وأنكره الناس وأنكر الناس وأنكر المنازل فانطلق على وهم منه حتى أتى منزله فإذا هو بعجوز عمياء مقعدة قد أدركت زمن عزيز فقال لها عزيز يا هذه هذا منزل عزيز قالت نعم وأين ذكرى عزيز وقد (١) فقدناه منذ كذا وكذا فبكاء شديداً قال فإنى عزيز قالت سبحان الله أنى يكون ذلك قال قد أماتنى الله مائة عام ثم بمعنى قالت إن عزيزاً كان رجلاً مستجاب الدعوة فادع الله لى ىرد على بصرى حتى أراك فدعاه ربه ومسح بيده عينها فصحتها فأخذ بيدها فقال لها قومى ياذن الله فقامت صحيحة كأنها نشطت من عقاب فنظرت إليه فقالت أشهد أنك عزيز فانطلقت إلى محلة بنى إسرائيل

وهم في أنديتهم وكان بها ابن لعزير قد بلغ مائة وثمانى عشرة سنة وبنو بنيه شيوخ فنادت هذا عزير قد جاءكم فكذبوها فقالت انظروا فإنى بدعائه رجعت إلى هذه الحالة فنهض الناس فأقبلوا إليه فقال ابنه كان لأبى شامة سوداء بين كتفيه مثل الهلال فكشف فإذا هو كذلك وقد كان قتل بخت نصر بيت المقدس من قراء التوراة أربعين ألف رجل ولم يكن يومئذ بينهم نسخة من التوراة ولا أحد يعرف التوراة فقرأها عليهم عن ظهر قلبه من غير أن يخرم منها حرفاً فقال رجل من أولاد المسييين ممن ورد بيت المقدس بعد مهلك بخت نصر حدثنى أبى عن جدى أنه دفن التوراة يوم سبينا فى خابية فى كرم فإن أريتمونى كرم جدى أخرجتها لكم فذهبوا إلى كرم جده ففتشوا فوجدوها فعارضوها بما أملى عليهم عزير من ظهر القلب فما اختلفا فى حرف واحد فعند ذلك قالوا هو ابن الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

﴿ وإذ قال إبراهيم ﴾ دليل آخر على ولايته تعالى للمؤمنين وإخراجه لهم من الظلمات إلى النور وإنما لم يسلك به مسلك الاستشهاد كما قبله بأن يقال أو كالدنى قال رب الخ لجرىان ذكره عليه السلام فى أثناء المحاجة ولأنه لا دخل لنفسه عليه السلام فى أصل الدليل كدأب عزير عليه السلام فإن ما جرى عليه من إحيائه بعد مائة عام من جملة الشواهد على قدرته تعالى وهدايته والظرف منتصب بمضمر صرح بمثله فى نحو قوله تعالى (واذكروا إذ جعلكم خلفاء) أى واذكروا وقت قوله عليه السلام وما وقع حينئذ من تعاجيب صنع الله تعالى لتقف على ما مر من ولايته تعالى وهدايته وتوجيه الأمر بالذكر فى أمثال هذه المواقع إلى الوقت دون ما وقع فيه من الوقائع مع أنها المقصودة بالتذكير لما ذكر غير مرة من المبالغة فى إيجاب ذكرها لما أن إيجاب ذكر الوقت إيجاب لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهاني ولأن الوقت مشتمل عليها مفصلة فإذا استحضرت كانت حاضرة بتفاصيلها بحيث

لا يشذ عنها شيء مما ذكر عند الحكاية أو لم يذكر كأنها مشاهدة عياناً ﴿رب﴾
 كلمة استعطاف قدمت بين يدي الدعاء مبالغة في استدعاء الإجابة ﴿أرني﴾
 من الرؤية البصرية المتعدية إلى واحد وبدخول همزة النقل طلبت مفعولاً
 آخر هو الجملة الاستفهامية المعلقة لها فإنها تعلق كما يعلق النظر البصرى أى
 اجعلنى مبصراً ﴿كيف تحي الموتى﴾ بأن يحييها وأنا أنظر إليها وكيف فى
 محل نصب على التشبيه بالظرف عند سيبويه وبالحال عند الأخفش والعامل
 فيها تحي أى فى أى حال أو على أى حال تحي قال القرطبي الاستفهام بكيف
 إنما هو سؤال عن حال شيء متقرر الوجود عند السائل والمستؤل فالاستفهام
 ههنا عن هيئة الإحياء المتقرر عند السائل أى بصرنى كيفية إحيائك للموتى
 وإنما سأله عليه السلام ليتأكد لإيقانه بالعيان ويزداد قلبه اطمئناناً على اطمئنان
 وأما ما قيل من أن نمرود لما قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم عليه السلام
 إن إحياء الله تعالى برد الأرواح إلى الأجساد فقال نمرود هل عاينته فلم
 يقدر على أن يقول نعم فانتقل إلى تقرير آخر ثم سأل ربه أن يريه ذلك فيأباه
 تعاميل السؤال بالاطمئنان .

﴿قال﴾ استئناف كما مر غير مرة ﴿أولم تؤمن﴾ عطف على مقدر
 أى ألم تعلم ولم تؤمن بأنى قادر على الإحياء كيف أشاء حتى تسألنى لإرادته
 قاله عز وعلا وهو أعلم بأنه عليه السلام أثبت الناس إيماناً وأقوامهم يقيناً
 ليجيب بما أجاب به فيكون ذلك لطفاً للسامعين ﴿قال بلى﴾ علمت وآمنت
 بأنك قادر على الإحياء على أى كيفية شئت ﴿ولسكن﴾ سألت ما سألت
 ﴿ليطمئن قلبي﴾ بمضامة العيان إلى الإيمان والإيقان وأزداد بصيرة بمشاهدته
 على كيفية معينة .

﴿قال نخذ﴾ الفاء لجواب شرط محذوف أى إن أردت ذلك نخذ
 ﴿أربعة من الطير﴾ قيل هو اسم بلع طائر كركب وسفر وقيل جمع له كتاجر
 وتجر وقيل هو مصدر سمي به الجذس وقيل هو تخفيف طير بمعنى طائر كهين
 فى هين ومن متعلقة بنخذ أو بمحذوف وقع صفة لأربعة أى أربعة كائنه من

الطير قيل هي طاوس وديك وغراب وحمامة وقيل نسر بدل الأخير وتخصيص الطير بذلك لأنه أقرب إلى الإنسان وأجمع لخواص الحيوان ولسهولة تأتي ما يفعل به من التجزئة والتفريق وغير ذلك ﴿فصرهن﴾ من صاره يصوره أى أماله وقرىء بكسر الصاد من صاره يصيره أى أملهن واضممهن وقرىء فصرهن بضم الصاد وكسرها وتشديد الراء من صره يصره وإذا جمعه وقرىء فصرهن من التصرية بمعنى الجمع أى اجمعهن ﴿إليك﴾ لتأملها وتعرف شياتها منفصلة حتى تعلم بعد الإحياء أن جزءاً من أجزائها لم ينتقل من موضعه الأول أصلاً، روى أنه أمر بأن يذبحها وينتف ريشها ويقطعها ويفرق أجزائها ويخلط ريشها ودماءها ولحومها ويمسك رأسها ثم أمر بأن يجعل أجزائها على الجبال وذلك قوله تعالى ﴿ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً﴾ أى جزئاً وفرق أجزأهن على ما بحضرتك من الجبال قيل كانت أربعة أجبل وقيل سبعة فجعل على كل جبل ربعاً أو سبعاً من كل طائر وقرىء جزواً بضمين وجزا بالتشديد بطرح همزته تخفيفاً ثم تشديده عند الوقف ثم لإجراء الوصل بجرى الوقف .

﴿ثم ادعهم يا تبينك﴾ فى حين الجزم على أنه جواب الأمر ولكنه بنى لاتصاله بنون جمع المؤنث ﴿سعيًا﴾ أى ساعيات مسرعات أو ذوات سعى طيراناً أو مشياً وإنما اقتصر على حكاية أوارره عز وجل من غير تعرض لامتاله عليه السلام ولا لما ترتب عليه من عجائب آثار قدرته تعالى كما روى أنه عليه السلام نادى فقال تعالين يا ذن الله فجعل كل جزء منهن يطير إلى صاحبه حتى صارت جثثاً ثم أقبلن إلى رؤسهن فانضمت كل جثة إلى رأسها فعادت كل واحدة منهن إلى ما كانت عليه من الهيئة للإيدان بأن ترتب تلك الأمور على الأوامر الجليلة واستحالة تخلفها عنها من الجلاء والظهور بحيث لا حاجة له إلى الذكر أصلاً وناهيك بالقصة دليلاً على فضل الخليل ويمين الضراعة فى الدعاء وحسن الأدب فى السؤال حيث أراه الله تعالى ما سأله فى الحال على أيسر ما يكون منى الوجوه وأرى عزيراً ما أراد بعدما أماته مائة عام

﴿ واعلم أن الله عزيز ﴾ غالب على أمره لا يعجزه شيء عما يريدہ ﴿ حكيم ﴾ ذو حكمة بالغة في أفعيله فليس بناء أنعاله على الأسباب العادية لعجزه عن إيجادها بطريق آخر خارق للعادات بل لكونه متضمنا للحكم والمصالح .

﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ﴾ أى في وجوه الخير من الواجب والفضل ﴿ كمثل حبة ﴾ لا بد من تقدير مضاف في أحد الجانبين أى مثل نفقتهم كمثل حبة أو مثلهم كمثل باذر حبة ﴿ أنبتت سبع سنابل ﴾ أى خرجت ساقا تشعب منها سبع شعب لسكل واحدة منها سنبله ﴿ في كل سنبله مائة حبة ﴾ كما يشاهد ذلك في الذرة والدخن في الأراضي المغلة بل أكثر من ذلك وإسناد الإنبات إلى الحبة مجازى كإسناده إلى الأرض والربيع وهذا التمثيل تصوير للأضعاف كأنها حاضرة بين يدي الناظر ﴿ والله يضاعف ﴾ تلك المضاعفة أو فوقها إلى ما شاء الله تعالى ﴿ لمن يشاء ﴾ أن يضاعف له بفضلہ على حسب حال المنفق من إخلاصه وتعبه ولذلك تفاوتت مراتب الأعمال في مقادير الثواب ﴿ والله واسع ﴾ لا يضيق عليه ما يتفضل به من الزيادة ﴿ عليم ﴾ بنية المنفق ومقدار إنفاقه وكيفية تحصيل ما أنفقہ ﴿ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ﴾ جملة مبتدأة جرى بها لبيان كيفية الإنفاق الذي بين فضلہ بالتمثيل المذكور ﴿ ثم لا يتبعون ما أنفقوا ﴾ أى ما أنفقوه أو إنفاقهم ﴿ منا ولا أذى ﴾ لمن أن يفتد على من أحسن إليه بإحسانه ويريه أنه أوجب بذلك حقا والأذى أن يتناول عليه بسبب إنعامه عليه وإنما قدم المن لكثرة وقوعه وتوسيط كلمة لا للدلالة على شمول النفي لإتباع كل واحد منهما وثم لإظهار علو رتبة المعطوف ، قيل نزلت في عثمان رضی الله عنه حين جهز جيش العسرة بألف بعير بأقتابها وأحلاسها وعبد الرحمن بن عوف رضی الله عنه حين أتى النبي صلى الله عليه وسلم بأربعة آلاف درهم صدقة ولم يكذب يخالها شيء من المن أو الأذى ﴿ لهم أجرهم ﴾ أى حسبما وعد لهم في ضمن التمثيل وهو جملة من مبتدأ وخبر وقعت خبرا عن الموصول وفي تكرير الإسناد وتقييد الأجر بقوله ﴿ عند ربهم ﴾ من التأکید والتشريف

مالا يخفى وتخليه الخبر عن الفاء المفيدة لسببية ما قبلها لما بعدها للإيدان بأن ترتب الأجر على ما ذكر من الإنفاق وترك إتباع المن والأذى أمر بين لا يحتاج إلى التمهيد بالسببية وأما إيهام أنهم أهل لذلك وإن لم يفعلوا فكيف بهم إذا فعلوا فيأباه مقام الترغيب في الفعل والحث عليه ﴿ ولاخوف عليهم ﴾ في الدارين من حقوق مكروهه من المكروه ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ لفوات مطلوب من المطالب قل أو جل أى لا يعتريهم ما يوجب له لأنه يعتريهم ذلك لكنهم لا يحزنون ولا يحزنون ولا أنه لا يعتريهم خوف وحزن أصلا بل يستمرون على النشاط والسرور ، كيف لا واستشعار الخوف والخشية استعظاما لجلال الله وهيبته واستقصارا للجد والسعى في إقامة حقوق العبودية من خواص الخاصة والمقربين والمراد بيان دوام اتفائهما لا بيان اتفناء دوامهما كما يوهمه كون الخبر في الجملة الثانية مضارعا عالما أن النفي وإن دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام .

﴿ قول معروف ﴾ أى كلام جميل تقبله القلوب ولا تنسكه يرد به السائل من غير إعطاء شيء ﴿ ومغفرة ﴾ أى ستر لما وقع من السائل من الإلحاف في المسئلة وغيره مما يثقل على المسئول وصفح عنه وإنما صح الابتداء بالنكرة في الأول لاختصاصها بالوصف وفي الثانى بالعطف أو بالصفة المقدره أى ومغفرة كائنه من المسئول ﴿ خير ﴾ أى للسائل ﴿ من صدقة يتبعها أذى ﴾ لكونها مشوبة بضرر ما يتبعها وخلوص الأولين من الضرر والجملة مستأنفة مقررة لا اعتبار ترك إتباع المن والأذى وتفسير المغفرة بنيل مغفرة من الله تعالى بسبب الرد الجميل أو بعفو السائل بناء على اعتبار الخيرية بالنسبة إلى المسئول يؤدي إلى أن يكون في الصدقة الموصوفة بالنسبة إليه خير في الجملة مع بطلانها بالمره ﴿ والله غنى ﴾ لا يحوج الفقراء إلى تحمل مؤنة المن والأذى ويرزقهم من جهة أخرى ﴿ حلیم ﴾ لا يعاجل

أصحاب المن والأذى بالعقوبة لا أنهم لا يستحقونها بسببهما والجملة تذييل لما قبلها مشتمل على الوعد والوعيد مقرر لاعتبار الخيرية بالنسبة إلى السائل قطعاً ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أقبل عليهم بالخطاب لاثربيان ما بطريق الغيبة مبالغة في إيجاب العمل بموجب النهي ﴿ لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ أى لا تحبطوا أجرها بواحد منهما ﴿ كالذى ﴾ فى محل النصب إما على أنه نعت لمصدر محذوف أى لا تبطلوها لإبطال الذى ﴿ ينفق ماله رياء الناس ﴾ وإما على أنه حال من فاعل لا تبطلوها مشابهيين الذى ينفق أى الذى يبطل إنفاقه بالرياء وقيل من ضمير المصدر المقدر على ما هو رأى سيئويه وانتصاب رياء إما على أنه علة لينفق أى لأجل رئاتهم أو على أنه حال من فاعله أى ينفق ماله مراثياً والمراد به المنافق لقوله تعالى ﴿ ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ حتى يرجو ثواباً أو يخشى عقاباً .

﴿ فثله ﴾ الفاء لربط ما بعدها بما قبلها أى فمثل المرأى فى الإنفاق وحالته العجيبة ﴿ كمثل صفوان ﴾ أى حجر أملس ﴿ عليه تراب ﴾ أى شىء يسير منه ﴿ فأصابه وابل ﴾ أى مطر عظيم القطر ﴿ فتركه صلدا ﴾ أملس ليس عليه شىء من الغبار أصلاً ﴿ لا يقدرون على شىء مما كسبوا ﴾ لا ينتفعون بما فعلوا رياء ، ولا يجدون له ثواباً قطعاً كقوله تعالى (لجمعنا هباء منثوراً) والجملة استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا يكون حالهم حينئذ فقيل لا يقدرون الخ ومن ضرورة كون مثلهم كما ذكر كون مثل من يشبههم وهم أصحاب المن والأذى كذلك والضميران الأخيران للموصول باعتبار المعنى كما فى قوله عز وجل (وخصتم كالذى خاصوا) لما أن المراد به الجنس أو الجمع أو الفريق كما أن الضمائر الأربعة السابقة له باعتبار اللفظ ﴿ والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ إلى الخير والرشاد والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبله وفيه تعريض بأن كلام الرياء والمن والأذى من خصائص الكفار ولا بد للؤمنين أن يحتنبوها ﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله ﴾ (٢٦ - أبو السمود - أول)

أى لطلب رضاه ﴿ وتثبيتاً من أنفسهم ﴾ أى ولتثبيت بعض أنفسهم على الإيمان فمن تبعيضية كما فى قولهم هز من عطفه وحرك من نشاطه فإن المال شقيق الروح فمن بذل ماله لوجه الله تعالى فقد ثبت بعض نفسه ومن بذل ماله وروحه فقد ثبتها كلها أو تصديقاً للإسلام وتحقيقاً للجزاء من أصل أنفسهم فمن ابتدائية كما فى قوله تعالى (حسداً من عند أنفسهم) ويحتمل أن يكون المعنى وتثبيتاً من أنفسهم عند المؤمنين أنها صادقة الإيمان مخلصه فيه وبعضه قراءة من قرأ وتبيننا من أنفسهم وفيه تنبيه على أن حكمة الإنفاق للمنفق تزكية النفس عن البخل وحب المال الذى هو رأس كل خطيئة .

﴿ كمثل جنة بربوة ﴾ الربوة بالحركات الثلاث وقد قرىء^(١) بها المسكان المرتفع أى مثل نفقتهم فى الزكاه كمثل بستان كائن بمكان مرتفع مأمون من أن يصطلمه البرد للطافة هوائه بهبوب الرياح الملطفة له فإن أشجار الربا تكون أحسن منظر وأزكى ثمراً وأما الأراضى المنخفضة فقلما تسلم ثمارها من البرد لكثافة هوائها بركود الرياح وقرىء كمثل حبة ﴿ أصابها وابل ﴾ مطر عظيم القطر ﴿ فأتت أكلها ﴾ ثمرتها وقرىء بسكون الكاف تخفيفاً ﴿ ضعفين ﴾ أى مثلى ما كانت تثمر فى سائر الأوقات بسبب ما أصابها من الواابل والمراد بالضعف المثل وقيل أربعة أمثال ونصبه على الحال من أكلها أى مضاعفاً ﴿ فإن لم يصبها وابل فطل ﴾ أى فطل يكفيها لجودتها وكرم منبتها ولطافة هوائها وقيل فيصيبها طل وهو المطر الصغير القطر وقيل فالذى يصيبها طل والمعنى أن نفقات هؤلاء زاكية عند الله تعالى لاتضيع بحال وإن كانت تتفاوت باعتبار ما يقارنها من الأحوال ويجوز أن يعتبر التمثيل بين حالهم باعتبار ما صدر عنهم من النفقة الكثيرة والقليلة وبين الجنة المعهودة باعتبار ما أصابها من المطر الكثير واليسير فسكاً أن كل واحد من المطرين يضعف أكلها فكذلك نفقتهم

(١) فى ط : قرئت .

جملت أو قلت بعد أن يطلب بها وجه الله تعالى زاكية زائدة في زلفاهم وحسن حالهم عند الله ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ لا يخفى عليه شيء منه وهو ترغيب في الإخلاص مع تحذير من الرياء ونحوه .

﴿ أيود أحدكم ﴾ الودحج الشيء مع تمنيه ولذلك يستعمل استعمالهما والهمزة لإنكار الوقوع كما في قوله أضرب أبي لا لإنكار الواقع كما في قولك أضرب أباك على أن مناط الإنكار ليس جميع ما تعلق به الود بل إنما هو إصابة الإعصار وما يتبعها من الاحتراق ﴿ أن تكون له جنة ﴾ وقرىء جنات ﴿ من نخيل وأعناب ﴾ أي كائنة منهما على أن يكون الأصل والركن فيها هذين الجنسيتين الشريفين الجامعين لفنون المنافع والباقي من المستنبعات للأعلى ألا يكون فيها غيرهما كما ستمرفه والجنة تطلق على الأشجار الملتفة المتكاثفة قال زهير .

كأن عيني في غربى مفتلة من النواضح تسقى جنة سحقا

وعلى الأرض المشتملة عليها والأول هو الأنسب بقوله عز وجل ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ إذ على الثاني لا بد من تقدير مضاف أي من تحت أشجارها هو كذا لا بد من جعل إسناد الاحتراق إليها فيما سيأتي مجازيا والجملة في محل الرفع على أنها صفة جنة كما أن قوله تعالى (من نخيل وأعناب) كذلك أوفى محل النصب على أنها حال منها لأنها موصوفة ﴿ له فيها من كل الثمرات ﴾ الظرف الأول خبر والثاني حال والثالث مبتدأ أي صفة للمبتدأ قائمة مقامه أي له رزق من كل الثمرات كما في قوله تعالى (وما منا إلا له مقام معلوم) أي وما منا أحد إلا له الخ وليس المراد بالثمرات العموم بل إنما هو التسكثير كما في قوله تعالى (وأوتيت من كل شيء) ﴿ وأصابه الكبير ﴾ أي كبر السن الذي هو مظنة شدة الحاجة إلى منافعها كمال العجز عن تدارك أسباب المعاش والواو حالية أي وقد أصابه الكبير ﴿ وله ذرية ضعفاء ﴾ حال من الضمير في أصابه أي أصابه الكبير . والحال أن له ذرية صغارا لا يقدر على الكسب وترتيب مبادئ المعاش وقرىء ضعاف ﴿ فأصابها إعصار ﴾ أي ريح عاصفة تستدير في الأرض ثم

تنعكس منها ساطعة إلى السماء على هيئة العمود ﴿ فيه نار ﴾ شديدة ﴿ فاحترقت ﴾ عطف على فأصابها وهذا كما ترى تمثيل لحال من يعمل أعمال البر والحسنات ويضم إليها ما يحبها من القوادح ثم يمجدها يوم القيامة عند كمال حاجته إلى ثوابها هباء منثورا بها في التحسر والتأسف عليها. ﴿ كذلك ﴾ توحيد الكاف مع كون المخاطب جمعاً قد مر وجهه مرارا أى. مثل ذلك البيان الواضح الجارى فى الظهور مجرى الأمور المحسوسة ﴿ يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾ كى تتفكروا فيها وتعتبروا بما فيها من العبر وتعملوا بموجبها .

﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ﴾ بيان لحال ما ينفق منه إثر بيان أصل الإنفاق وكيفيته أى أنفقوا من خلال ما كسبتم وجيادته. لقوله تعالى (ان تناولوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) ﴿ وما أخرجنا لكم من الأرض ﴾ أى من طيبات ما أخرجنا لكم من الحبوب والثمار والمعادن الخذف لدلالة ما قبله عليه ﴿ ولا تيمموا ﴾ بفتح التاء أصله ولا تيمموا وقرىء بهضمها، وقرىء ولا تأموا والسكل بمعنى القصد أى لا تقصدوا ﴿ الخبيث ﴾ أى الردىء الخسيس وهو كالطيب من الصفات الغالبة التى لا تذكر موصوفاتها ﴿ منه تنفقون ﴾ الجار متعلق بتنفقون والضمير للخبيث والتقديم للتخصيص والجملة حال من فاعل تيمموا أى لا تقصدوا الخبيث قاصرين الإنفاق عليه أو من الخبيث أى مختصا به الإنفاق وأياً ما كان فالتخصيص لتوبيخهم بما كانوا يتعاطونه من إنفاق الخبيث خاصة لا لتسوية إنفاقه مع الطيب عن ابن عباس. رضى الله عنهما أنهم كانوا يتصدقون بحشف التمر وشراره فنهوا عنه وقيل متعلق بمحذوف وقع حالا من الخبيث والضمير للمال المدلول عليه بحسب المقام أو للموصولين على طريقة قوله :

• كأنه فى الجلد تولىع البهق •

أو للثانى وتخصيصه بذلك لما أن التفاوت فيه أكثر وتنفقون حال من الفاعل المذكور أى ولا تقصدوا الخبيث كائنا من المال أو بما كسبتم .

وما أخرجنا لكم منفقين إياه وقوله تعالى ﴿ ولستم بأخذيه ﴾ حال على كل حال من أو تنفقون أى والحال أنكم لا تأخذونه فى معاملاتكم فى وقت من الأوقات أو بوجه من الوجوه ﴿ إلا أن تغمضوا فيه ﴾ أى إلا وقت إغماضكم فيه وهو عبارة عن المساحة بطريق الكناية أو الاستعارة يقال أغمض بصره إذا غضه وقرىء على البناء للمفعول على معنى إلا أن تحملوا على الإغماض وتدخلوا فيه أو توجدوا مغمضين وقرىء وتغمضوا وتغمضوا بضم الميم وكسرهما وقيل تم الكلام عند قوله تعالى (ولا تيمموا الخبيث) ثم استؤنف فقيل على طريقة التوبيخ والتقريع منه تنفقون والحال أنكم لا تأخذونه إلا إذا أغمضتم فيه ومآله الاستفهام الإنكارى فكأنه قيل أمنه تنفقون الخ ﴿ واعلموا أن الله غنى ﴾ عن إنفاقكم وإنما يأمركم به لمنفعتكم وفى الأمر بأن يعلموا ذلك مع ظهور علمهم به توبيخ لهم على ما يصنعون من إعطاء الخبيث وإيدان بأن ذلك من آثار الجهل بشأنه تعالى فإن إعطاء مثله إنما يكون عادة عند اعتقاد المعطى أن الآخذ محتاج إلى ما يعطيه بل مضطر إليه ﴿ حميد ﴾ مستحق للحمد على نعمه العظام وقيل جامد بقبول الجيد والإثابة عليه .

﴿ الشيطان يعدكم الفقر ﴾ الوعد هو الإخبار بما سيكون من جهة المخبر مترتباً على شىء من زمان أو غيره يستعمل فى الشر استعماله فى الخير قال تعالى : (النار وعدة الله الذين كفروا) أى يعدكم فى الإنفاق الفقر ويقول إن عاقبة إنفاقكم أن تفتقروا وإنما عبر عن ذلك بالوعد مع أن الشيطان لم يصف بجمه القفر إلى جهته للإيدان بمبالغته فى الإخبار بتحقيق مجيئه كأنه نزل فى تقرير الوقوع منزلة أفعاله الواقعة بحسب إرادته أو لوقوعه فى مقابلة وعده تعالى على طريقة المشاكلة وقرىء بضم الفاء والسكون وبضميتين ﴿ ويأمركم بالفحشاء ﴾ أى بالخصلة الفشحاء أى ويغريكم على البخل ومنه الصدقات إغراء الأمر للمأمور على فعل المأمور به والعرب تسمى البخيل فاحشاً قال طرفة باين العبد :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطنى عقيلة مال الفاحش المتشدد
وقيل بالمعاصى والسيئات ﴿ والله يعدكم ﴾ أى فى الإنفاق ﴿ مغفرة ﴾
لذنوبكم والجارى فى قوله تعالى ﴿ منه ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لمغفرة.
مؤكدة لفخامتها التى أفادها تنكيرها أى مغفرة أى مغفرة كائنة منه عن
وجل ﴿ وفضلا ﴾ صفته محذوفة لدلالة المذكور عليها كما فى قوله تعالى (فانقلبوا
بنعمة من الله وفضل) ونظائره أى وفضلا كائنا منه تعالى أى خلفا مما أنفقتم
زائدا عليه فى الدنيا وفيه تكذيب للشيطان وقيل ثوابا فى الآخرة ﴿ والله
واسع ﴾ قدرة وفضلا فيحقق ما وعدكم به من المغفرة وإخلاف ما تنفقونه.
﴿ عليهم ﴾ مبالغ فى العلم فيعلم إنفاقكم فلا يكاد يضيع أجركم أو يعلم ما سيكون
من المغفرة والفضل فلا احتمال للخلف فى الوعد والجملة تذييل مقرر لمضمون
ما قبله .

﴿ يؤتى الحكمة ﴾ قال مجاهد الحكمة هى القرآن والعلم والفقاه روى
عن ابن نجيم أنها الإصابة فى القول والعمل وعن إبراهيم النخعى أنها معرفة
معانى الأشياء وفهمها وقيل هى معرفة حقائق الأشياء وقيل هى الإقدام على
الأفعال الحسنة الصائبة وعن مقاتل أنها تفسر فى القرآن بأربعة أوجه فتارة
بمواظب القرآن وأخرى بما فيه من عجائب الأسرار ومرة بالعلم والفهم
وأخرى بالنبوة ولعل الأنسب بالمقام ما ينتظم الأحكام المبينة فى نضعيف
الآيات الكريمة من أحد الوجهين الأولين ومعنى إيتائها تبيينها والتوفيق للعلم
والعمل بها أى يبينها ويوفق للعلم والعمل بها ﴿ من يشاء ﴾ من عباده أن يؤتيها
إياه بموجب سعة فضله وإحاطة علمه كما آتاكم ما بينه فى ضمن الآى من
الحكم البالغة التى يدور عليها فلك منافعكم فاغتنموها وسارعوا إلى العمل بها
والموصول مفعول أول ليؤتى قدم عليه الثانى للعناية به والجملة مستأنفة مقررة.
لمضمون ما قبلها ﴿ ومن يؤتى الحكمة ﴾ على بناء المفعول وقرىء على البناء
للفاعل أى ومن يؤته الله الحكمة والإظهار فى مقام الإضمار لإظهار الاعتناء
بشأنها وللإشعار بعلّة الحكم ﴿ فقد أوتى خيرا كثيرا ﴾ أى أى خير كثير

فإنه قد خير له خير الدارين ﴿وما يذكر﴾ أى وما يتعظ بما أوتى من الحكمة أو وما يتفكر فيها ﴿إلا أولوا الألباب﴾ أى العقول الخالصة عن شوائب الوهم والركون إلى مشايعة الهوى وفيه من الترغيب فى المحافظة على الأحكام الواردة فى شأن الإنفاق ما لا يخفى والجملة إما حال أو اعتراض تذييلى .

﴿وما أنفقتم من نفقة﴾ بيان لحكم كلى شامل لجميع أفراد النفقات وما فى حكمها لآثر بيان حكم ما كان منها فى سبيل الله وما إما شرطية أو موصولة حذف عاندها من الصلة أى وما أنفقتموه من نفقة أى نفقة كانت فى حق أو باطل فى سر أو علانية قليلة أو كثيرة ﴿أو نذرتهم﴾ النذر عقد الضمير على شىء والتزامه وفعله كضرب ونصر ﴿من نذر﴾ أى نذر كان فى طاعة أو معصية بشرط أو بغير شرط متعلق بالمال أو بالأفعال كالصيام والصلاة ونحوهما ﴿فإن الله يعليه﴾ الفاء على الأول داخلة على الجواب وعلى الثانى من يدة فى الخبر وتوحيد الضمير مع تعدد متعلق العلم لاتحاد المرجع بناء على كون العطف بكلمة أو كما فى قولك زيد أو عمرو أكرمه ولا يقال أكرمتها ولهذا صرنا^(١) إلى التأويل فى قوله تعالى (إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما) بل يعاد الضمير تارة إلى المقدم رعاية للأولية كما فى قوله عز وعلا (وإذا رأوا تجارة أو وطوا انفضوا إليها) وأخرى إلى المؤخر رعاية للقرب كما فى هذه الآية الكريمة وفى قوله تعالى (ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً) وحمل النظم على تأويلهما بالمذكور ونظائره أو على حذف الأول ثقة بدلالة الثانى عليه كما فى قوله تعالى (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله) وقوله :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف
ونحوهما مما عطف فيه بالواو الجامعة تعسف مستغنى عنه نعم يجوز إرجاع
الضمير إلى ما على تقدير كونها موصولة وتصدير الجملة بأن لتأكيد مضمونها

إفادة لتحقيق الجزاء أى فإنه تعالى يجازيكم عليه ألبتة إن خيراً فخير وإن شراً فشر فهو ترغيب ووعيد ووعيد ﴿ وما للظالمين ﴾ بالإنفاق والنذر فى المعاصى أو بمنع الصدقات وعدم الوفاء بالنذر أو بإنفاق الخبيث أو بالرياء والمن والأذى وغير ذلك مما ينتظمه معنى الظلم الذى هو عبارة عن وضع الشيء فى غير موضعه الذى يحق أن يوضع فيه ﴿ من أنصار ﴾ أى أعوان ينصرونهم من بأس الله وعقابه لاشفاعة ولا مدافعة وإيراد صيغة الجمع لمقابلة الظالمين أى وما لظالم من الظالمين من نصير من الأنصار والجملة استئناف مقرر لما فيما قبله من الوعيد مفيد لفظاعة حال من يفعل ما يفعل من الظالمين لتحصيل الأعوان ورعاية الخلان .

﴿ إن تبدوا الصدقات فنمأ هي ﴾ نوع تفصيل لبعض ما أجمل فى الشرطية وبيان له ولذلك ترك العطف بينهما أى أن تظهروا الصدقات فنمأ شيئاً إبداءها بعد أن لم يكن رياء وسمعة وقرىء بفتح النون وكسر العين على الأصل وقرىء بكسر النون وسكون العين وقرىء بكسر النون وإخفاء حركة العين وهذا فى الصدقات المفروضة وأما فى صدقة التطوع فالإخفاء أفضل وهى التى أريدت بقوله تعالى ﴿ وإن تخفوها ﴾ أى تعطوها خفية ﴿ وتؤتوها الفقراء ﴾ ولعل التصريح بإيتائها الفقراء مع أنه واجب فى الإبداء أيضاً لما أن الإخفاء مظنة الالتباس والاشتباه فإن الغنى ربما يدعى الفقر ويقدم على قبول الصدقة سرا ولا يفعل ذلك عند الناس ﴿ فهو خير لكم ﴾ أى فالإخفاء خير لكم من الإبداء وهذا فى التطوع ومن لم يعرف بالمال وأما فى الواجب فالأمر بالعكس لدفع التهمة ، عن ابن عباس رضى الله عنهما صدقة السر فى التطوع تفضل علانيتها سبعين ضعفاً وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفاً ﴿ ويكفر عنكم من سيئاتكم ﴾ أى والله يكفر أو الإخفاء ومن تبعضية أى شيئاً من سيئاتكم كما سترتموها وقيل مزيدة على رأى الأخفش وقرىء بالتاء مرفوعاً ومجزوماً على أن الفعل للصدقات وقرىء بالنون مرفوعاً عطفاً على محل ما بعد الفاء أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أى

ونحن نكفر أو على أنها جملة مبتدأة من فعل وفاعل وقرىء مجزوما عطفا على محل الفاء وما بعده لأنه جواب الشرط ﴿ والله بما تعملون ﴾ من الإسرار والإعلان ﴿ خبير ﴾ فهو ترغيب في الإسرار .

﴿ ليس عليك هدام ﴾ أى لا يجب عليك أن تجعلهم مهديين إلى فعل (١) ما أمروا به من المحاسن والانتها عما نهوا عنه من القبائح المدودة وإنما الواجب عليك الإرشاد إلى الخير والحث عليه والنهي عن الشر والردع عنه بما أوحى إليك من الآيات والذكر الحكيم ﴿ ولكن الله يهدي ﴾ هداية هداية خاصة موصلة إلى المطلوب حتما ﴿ من يشاء ﴾ هدايته إلى ذلك بمن يتذكر بما ذكر ويتبع الحق ويختار الخير والجملة معترضة جرى بها على طريق تلوين الخطاب وتوجيهه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الالتفات إلى الغيبة فيما بين الخطابات المتعلقة بالمسكفين مبالغة في حملهم على الامتثال فإن الإخبار بعدم وجوب تدارك أمرهم على النبي صلى الله عليه وسلم مؤذن بوجوده عليهم حسبا ينطق به ما بعده من الشرطية وقيل لما كثر فقراء المسلمين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن التصديق على المشركين كي تحملهم الحاجة على الدخول في الإسلام فنزلت أى ليس عليك هدى من خالفك حتى تمنعهم الصدقة لأجل دخولهم في الإسلام فلا التفتت حينئذ في الكلام وضمير الغيبة للمعويدين من فقراء المشركين بل فيه تلوين فقط وقوله تعالى :

﴿ وما تنفقوا من خير ﴾ على الأول التفتت من الغيبة إلى خطاب المسكفين لزيادة هزم نحو الامتثال وعلى الثانى تلوين للخطاب بتوجيهه إليهم وصرفه عن النبي صلى الله عليه وسلم وما شرطية جازمة لتنفقوا منتصبه به على المفعولية ومن تبعيضية متعلقة بمحذوف وقع صفة لاسم الشرط مبينة ومخصصة له أى أى شىء تنفقوا كأن من مال ﴿ فلا أنفسكم ﴾ أى فهو لأنفسكم لا ينتفع

(١) فى ط : إلى الإيتان بما أمروا به

به غيركم فلا تمنوا على من أعطيتموه ولا تؤذوه ولا تنفقوا من الخبيث أو فتنعه
الديني لكم لا لغيركم من الفقراء حتى تمنعوه ممن لا ينتفع به من حيث الدين
من فقراء المشركين ﴿ وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ﴾ استثناء من أعم العلل
أو أعم الأحوال أى ليست نفقتكم لشيء من الأشياء إلا لا ابتغاء وجه الله
أو ليست فى حال من الأحوال إلا حال ابتغاء وجه الله فما بالك تمنون بها
وتنفقون الخبيث الذى لا يوجه مثله إلى الله تعالى وقيل هو نفى فى معنى النهى
﴿ وما تنفقوا من خير يوف إليكم ﴾ أى أجره وثوابه أضعافاً مضاعفة حسبما
فصل فيما قبل فلا عذر لكم فى أن ترغبوا عن إنفاقه على أحسن الوجوه
وأجملها فهو تأكيد وبيان للشرطية السابقة أو يوف إليكم ما يخلفه وهو من
نتائج دعائه عليه السلام بقوله اللهم اجعل للمنفق خلفاً وللممسك تلفاً^(١) وقيل
حجت أسماء بنت أبى بكر فأتتها أمها تسألها وهى مشركة فأبى أن تعطىها
وعن سعيد بن جبير أنهم كانوا يتقون أن يرضخوا لقراباتهم من المشركين
وروى أن ناساً من المسلمين كانت لهم أصهار فى اليهود ورضاع كانوا ينفقون
علمهم قبل الإسلام فلما أسلموا كرهوا أن ينفقوهم فنزلت وهذا فى غير الواجب
وأما الواجب فلا يجوز صرفه إلى الكافر وإن كان ذمياً ﴿ وأنتم لا تظلمون ﴾
لا تنقصون شيئاً بما وعدتم من الثواب المضاعف أو من الخلف .

﴿ للفقراء ﴾ متعلق بمحذوف ينساق إليه الكلام كما فى قوله عز وجل
(فى تسع آيات إلى فرعون) أى اعمدوا للفقراء أو اجعلوا ما تنفقونه للفقراء
أو صدقاتكم للفقراء ﴿ الذين أحصروا فى سبيل الله ﴾ بالغزو والجهاد
﴿ لا يستطيعون ﴾ لا شغلهم به ﴿ ضرباً فى الأرض ﴾ أى ذهاباً فيها للكسب
والتجارة وقيل هم أهل الصفة كانوا رضى الله عنهم نحواً من أربعائة من فقراء
المهاجرين يسكنون صفة المسجد يستغرقون أوقاتهم بالتعلم والجهاد وكانوا
يخرجون فى كل سرية بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ يحسبهم الجاهل ﴾
بجاهلهم ﴿ أغنياء من التعفف ﴾ أى من أجل تعففهم عن المسئلة ﴿ تعرفهم بسيماهم ﴾

(١) للشهور : اللهم أعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً .

أى تعرف فقرهم واضطرابهم بما تعاین منهم من الضعف ورثاثة الحال والخطاب للرسول عليه السلام أو لسكل أحد ممن له حظ من الخطاب مبالغة فى بیان وضوح فقرهم ﴿ لا يسألون الناس إلخافا ﴾ أى إلخافا وهو أن یلازم السائل المستول حتى يعطیه من قولهم لحنى من فضل لحنه أى أعطانى من فضل ما عنده والمعنى لا يسألونهم شيئا وإن سألوا الحاجة اضطرتهم إليه لم یلجوا وقيل هو نفي لسكلا الأمرین جميعا على طريقة قوله :

• على لاجب لا یهدى لمناره •

أى لامنار ولا اهتداء ﴿ وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم ﴾ فیجازیکم بذلك أحسن جزاء فهو ترغیب فى التصدق لاسیما على هؤلاء .
 ﴿ الذين ینفقون أموالهم باللیل والنهار سرا وعلانية ﴾ أى یعمون الأوقات والأحوال بالخير والصدقة وقيل نزلت فى شأن الصديق رضى الله عنه حيث تصدق بأربعین ألف دینار عشر آلاف منه باللیل وعشرة بالنهار وعشرة سرا وعشرة علانية وقيل فى على رضى الله عنه حين لم یکن عنده إلا أربعة دراهم فتصدق بكل واحد منها على وجه من الوجوه المذكورة ولعل تقدیم اللیل والنهار والسرا على العلانية للإیدان بمنزلة الإخفاء على الإظهار وقيل فى رباط الخیل والإنفاق علیها ﴿ فلمهم أجرهم عند ربهم ﴾ خبر للموصول والفاء للدلالة على سببية ما قبلها لما بعدها وقيل للعطف والخبر محذوف أى ومنهم الذين الخ ولذلك جوز الوتف على علانية ﴿ ولا خوف علیهم ولا هم یحزون ﴾ تقدم تفسیره .

﴿ الذين یا کلون الربوا ﴾ أى یاخذونه والتعبیر عنه بالأكل لما أنه معظم ما قصد به ولشيوعه فى المعلومات مع ما فيه من زیادة تشنیع لهم وهو زیادة فى المقدار أو فى الأجل حسبما فصل فى كتب الفقه وإنما كتب بالواو كالصلوة على لغة من یفخهم فى أمثالها وزیدت الالف تشبیها بواو الجمع ﴿ لا یقومون ﴾ أى من قبورهم إذا بعثوا ﴿ إلا كما یقوم الذى یتخبطه الشیطان ﴾ أى إلا قیاما كقیام المصروع وهو وارد على ما یزعمون أن الشیطان یخبط

الإنسان فيصرع والخبط والضرب بغير استواء كخبط العشواء ﴿من المس﴾ أى الجنون وهذا أيضا من زعماتهم أن الجنى يمسه فيختلط عقله فلذلك يقال جن الرجل وهو متعلق بما قبله من الفعل المنفى أى لا يقومون من المس الذى بهم بسبب أكلهم الربا أو يقوم أو يبتخطه فيكون نهوضهم وسقوطهم كالمصروعين للاختلال عقولهم بل لأن الله تعالى أربى فى بطونهم ما أكلوا من الربا فأنقلهم فصاروا مخبلين ينهضون ويسقطون تلك سيماهم يعرفون بها عند أهل الموقف ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما ذكر من حالهم وما فى اسم الإشارة من معنى البعد للإيدان بفضاعة المشار إليه ﴿بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربوا﴾ أى ذلك العقاب بسبب أنهم نظموا الربا والبيع فى سلك واحد لإفضائهما إلى الربح فاستحلوه استحلاله وقالوا يجوز بيع درهم بدرهمين كما يجوز بيع ما قيمته درهم بدرهمين بل جعلوا الربا أصلا فى الحل وقاسوا به البيع مع وضوح الفرق بينهما فإن أحد الدرهمين فى الأول ضائع حتما وفى الثانى منجبر بمساس الحاجة إلى السلعة أو بتوقع رواجها .

﴿وأحل الله البيع وحرم الربوا﴾ إنكار من جهة الله تعالى لتسويتهم وإبطال للقياس لوقوعه فى مقابلة النص مع ما أشير إليه من عدم الاشتراك فى المناط والجملة ابتدائية لا محل لها من الإعراب ﴿فمن جاءه موعظة﴾ أى فمن بلغه وعظ وزجر كالنهي عن الربا وقرئ جاءته ﴿من ربه﴾ متعلق بجاءه أو بمحذوف وقع صفة لموعظة والتعرض لعنوان الربوية مع الإضافة للإشعار بكون مجيء الموعظة للتربية ﴿فانتهى﴾ عطف على جاءه أى فاتمظ بلا تراخ وتبع النهى ﴿فله ما سلف﴾ أى ما تقدم أخذه قبل التحريم ولا يسترد منه وما مرتفع بالظرف إن جعلت من موصولة بالابتداء إن جعلت شرطية على رأى سيديويه لعدم اعتماد الظرف على ما قبله ﴿وأمره إلى الله﴾ يجازيه على انتهائه إن كان عن قبول الموعظة وصدق النية وقيل يحكم فى شأنه ولا اعتراض لكم عليه ﴿ومن عاد﴾ أى إلى تحميل الربا ﴿فأولئك﴾ إشارة إلى من عاد والجمع باعتبار المعنى كما أن الأفراد فى عاد

اعتبار اللفظ وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعدهم في الشر والفساد
 ﴿ أصحاب النار ﴾ أى ملازموها ﴿ هم فيها خالدون ﴾ ما كانوا فيها أبدا
 والجملة مقررة لما قبلها .

﴿ يحق الله الربوا ﴾ أى يذهب ببركته ويهلك المال الذى يدخل فيه
 ﴿ ويربى الصدقات ﴾ يضاعف ثوابها ويبارك فيها ويزيد المال الذى أخرجت
 منه الصدقة . روى عنه صلى الله عليه وسلم أن الله يقبل الصدقة ويربها كما يربى
 أحدكم مهره (١) وعنه عليه الصلاة والسلام ما نقص مال من صدقة (٢) قط
 ﴿ والله لا يحب ﴾ أى لا يرضى لأن الحب مختص بالتوايين ﴿ كل كفار ﴾
 مصر على تحليل المحرمات ﴿ أنتم ﴾ منكم فى ارتكابه ﴿ إن الذين آمنوا ﴾
 بالله ورسوله وبما جاءهم به ﴿ وعملوا الصالحات وأقاموا الصلوة وآتوا الزكاة ﴾
 تخصيصهما بالذكر مع اندراجهما فى الصالحات لإناقتهما على سائر الأعمال
 الصالحة على طريقة ذكر جبريل وميكال عقيب الملائكة عليهم السلام
 ﴿ لهم أجرهم ﴾ جملة من مبتدأ وخبر واقعة خبرا لأن أى لهم أجرهم الموعود .
 لهم وقوله تعالى ﴿ عند ربهم ﴾ حال من أجرهم وفى التعرض لعنوان الربوبية
 مع الإضافة إلى ضميرهم مزيد لطف وتشريف لهم ﴿ ولا خوف عليهم ﴾
 من مكروه آت ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ من محبوب فات .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ أى قوا أنفسكم عقابه ﴿ وذروا ما بقى
 من الربوا ﴾ أى واتركوا بقايا ما شرطتم منه على الناس تركا كليا ﴿ إن كنتم
 مؤمنين ﴾ على الحقيقة فإن ذلك مستلزم لامتنال ما أمرتم به البتة وهو شرط
 حذف جوابه ثقة بما قبله أى إن كنتم مؤمنين فاتقوا وذروا الخ ، روى أنه
 كان لثقيف مال على بعض قریش فطالبوهم عند المحل بالمال والربا فنزلت
 ﴿ فإن لم تفعلوا ﴾ أى ما أمرتم به من الاتقاء وترك البقايا إماما مع إنكار

(١) للروى : كما يربى أحدكم فلوه . وهو المهر .

(٢) فى ط : ما نقصت زكاة من مال .

حرمته وإما مع الاعتراف بها ﴿ فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ أى فاعلموا بها من أذن بالشىء إذا علم به أما على الأول فكحرب المرتدين وأما على الثانى فكحرب البغاة ، وقرىء فأذنوا أى فاعلموا غيركم قيل هو من الأذان وهو الاستماع فإنه من طرق العلم وقرىء فأيقنوا وهو مؤيد لقراءة العامة وتنكير حرب للتفخيم ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة لها مؤكدة لفخامتها أى بنوع من الحرب عظيم لا يقادر قدره كائن من عند الله ورسوله روى أنه لما نزلت قالت ثقيف لا يد لنا بحرب الله ورسوله ﴿ وإن تبتم ﴾ من الارتباء مع الإيمان بحرمتها بعدما سمعتموه من الوعيد ﴿ فلكم رؤس أموالكم ﴾ تتأخذونها كمالا ﴿ لا تظلمون ﴾ غرماءكم بأخذ الزيادة والجملة إما مستأنفة لا محل لها من الإعراب أو حال من الضمير فى لكم والعامل ما تضمنه الجار من الاستقرار ﴿ ولا تظلمون ﴾ عطف على ما قبله أى لا تظلمون أنتم من قبلهم بالمطل والنقص ومن ضرورة تعليق هذا الحكم بتوبتهم عدم ثبوته عند عدمها إن كان مع إنكار الحرمة فهم مرتدون ومالهم المكسوب فى حال الردة فى المسلممين عند أى حنييفة رضى الله عنه وكذا سائر أموالهم عند الشافعى وعندنا هو لورثتهم ولاشئ لهم على كل حال وإن كان مع الاعتراف بها فإن كان لهم شوكة فهم على شرف القتل لم تسلم لهم رؤسهم فكيف برؤس أموالهم وإلا فكذلك عند ابن عباس رضى الله عنهما فإنه يقول من عامل الربا يستتاب وإلا ضرب عنقه وأما عند غيره فهم محبوسون إلى أن تظهر توبتهم لا يمكنون من التصرفات أصلا فالمتوبوا لم يسلم لهم شئ من أموالهم بل إنما يسلم بموتهم لورثتهم .

﴿ وإن كان ذو عسرة ﴾ أى إن وقع غريم من غرمانكم ذو عسرة على أن كان تامة وقرىء ذا عسرة على أنها ناقصة ﴿ فنظرة ﴾ أى فالحكم نظرة أو فعليكم نظرة أو فلتكن نظرة وهى الإنظار والإمهال وقرىء فناظره أى محتظره أو فصاحب نظرتة على طريق النسب وقرىء فناظره أمرا من المفاعلة

أى فساحه بالنظرة ﴿ إلى ميسرة ﴾ أى إلى يسار وقرىء بضم السين وهما لغتان
كشرفة ومشرفة وقرىء بهما مضافين بحذف التاء عند الإضافة كما فى قوله :
وأخلفوك عد الأمر الذى وعدوا . ﴿ وأن تصدقوا ﴾ بحذف أحد التاءين
وقرىء بتشديد الصاد أى وأن تصدقوا على معسرى غرمائكم بالإبراه
﴿ خير لکم ﴾ أى أكثر ثوابا من الإنظار أو خير بما تأخذونه لمضاعفة
ثوابه ودوامه فهو نذب إلى أن تصدقوا برؤس أموالهم كلا أو بهضا على
غرمائهم المعسرين كقوله تعالى (وأن تعفوا أقرب للتقوى) وقيل المراد بالتصدق
الإنظار لقوله عليه السلام لا يحمل دين رجل مسلم فيؤخره إلا كان له بكل يوم
صدقة ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ جوابه محذوف أى إن كنتم تعلمون أنه خير لکم
عملتموه ﴿ واتقوا يوما ﴾ هو يوم القيامة وتنسكيره للتفخيم والتحويل وتعليق
الإتياء به للمبالغة فى التحذير عما فيه من الشدائد والأحوال ﴿ ترجعون فيه ﴾
على البناء للمفعول من الرجوع وقرىء على البناء للفاعل من الرجوع والأول
أدخل فى التحويل وقرىء بالياء على طريق الالتفات وقرىء تردون وكذا
تصيرون ﴿ إلى الله ﴾ لمحاسبة أعمالكم ﴿ ثم توفى كل نفس ﴾ من النفوس
والتميم للمبالغة فى تحويل اليوم أى تعطى كاملا^(١) ﴿ ما كسبت ﴾ أى جزاء
ما عملت من خير أو شر ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ حال من كل نفس تفيد إن
كانت عقوباتهم مؤبدة غير مظلومين فى ذلك لما أنه من قبل أنفسهم وجمع
الضمير لأنه أنسب بحال الجزاء كما أن الأفراد أوفق بحال الكسب عن ابن
عباس رضى الله عنهما أنها آخر آية نزل بها جبريل عليه السلام وقال ضعها فى
رأس المسائين والثمانين من البقرة وعاش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها
أحدًا وعشرين يوما وقيل أحدا وثمانين وقيل سبعة أيام وقيل ثلاث
ساعات .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين ﴾ شروع فى بيان حال المدائنة

(١) فى ط . ك .

الواقعة في تضاعيف المعاوضات الجارية فيما بينهم ببيع السلع بالنقود بعد بيان حال الربا أى إذا دأب بعضهم بعضاً وعامله نسيئة معطياً أو أخذاً وفائدة ذكر الدين دفع توهم كون التداين بمعنى المجازاة أو التنبيه على تنوعه إلى الحال والمؤجل وأنه الباعث على الكتابة وتعيين المرجع للضمير المنصوب المتصل بالامر ﴿ إلى أجل ﴾ متعلق بتدائنتهم أو بمحذوف وقع صفة للدين ﴿ مسمى ﴾ بالأيام أو الأشهر ونظائرهما مما يفيد العلم ويرفع الجهالة لا بالحصاد والدياس ونحوهما مما لا يرفعها ﴿ فاكتبوه ﴾ أى الدين بأجله لأنه أوثق وأرفع للنزاع والجمهور على استحبابه وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن المراد به السلم وقال لما حرم الله الربا أباح في السلف ﴿ وليكتب بينكم كاتب ﴾ بيان لكيفية الكتابة المأمور بها وتعيين لمن يتولاها إثر الأمر بها إجمالاً وحذف المفعول إما لتعيينه أو للتقصد إلى إيقاع نفس الفعل أى ليفعل الكتابة وقوله تعالى بينكم للإيدان بأن الكاتب ينبغي أن يتوسط بين المتدائنين ويكتب كلامهما ولا يكتب بكلام أحدهما وقوله تعالى ﴿ بالعدل ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لكاتب أى كاتب كائن بالعدل أى وليسكن المتصدى للكتابة من شأنه أن يكتب بالسوية من غير ميل إلى أحد الجانبين لا يزيد ولا ينقص وهو أمر للمتدائنين باختيار كاتب فقيه دين حتى يحىء كتابه موثقاً به معدلاً بالشرع ويجوز أن يكون حالاً منه أى ملتبساً بالعدل وقيل متعلق بالفعل أى وليكتب بالحق ﴿ ولا يأت كاتب ﴾ أى ولا يمتنع أحد من الكتابات ﴿ أن يكتب ﴾ كتاب الدين ﴿ كما علمه الله ﴾ على طريقة ما علمه من كتبه الوثائق أو كما بينه بقوله تعالى بالعدل أو لا يأت أن ينفع الناس بكتابته كما نفعه الله تعالى بتعليم الكتابة كقوله تعالى (وأحسن كما أحسن الله إليك) ﴿ فليكتب ﴾ تلك الكتابة المعلمة أمر بها بعد النهى عن إياها تأكيدها ويجوز أن تتعلق الكاف بالأمر على أن يكون النهى عن الامتناع منها مطلقاً ثم الأمر بها مقيدة .

﴿ وليلل الذى عليه الحق ﴾ الإملال هو الإملاء أى وليسكن المملى من عليه الحق لأنه المشهود عليه فلا بد أن يكون هو المقر ﴿ وليتق الله ربه ﴾

جمع ما بين الاسم الجليل والنعمة الجميل للمبالغة في التحذير أى وليتق المملى دون الكاتب كما قيل لقوله تعالى ﴿ ولا يبغض منه ﴾ أى من الحق الذى يمليه على الكاتب ﴿ شيئاً ﴾ فإنه الذى يتوقع منه البغض خاصة ، وأما الكاتب فيتوقع منه الزيادة كما يتوقع منه النقص فلو أريد نهيه لنهى عن كليهما وقد فعل ذلك حيث أمر بالعدل وإنما شدد في تكليف المملى حيث جمع فيه بين الأمر بالاتقاء والنهى عن البغض لما فيه من الدواعى إلى المنهى عنه فإن الإنسان مجبول على دفع الضرر عن نفسه وتخفيف ما في ذمته بما أمكن ﴿ فإن كان الذى عليه الحق ﴾ صرح بذلك في موضع الإضمار لزيادة الكشف والبيان لأن الأمر والنهى لغيره ﴿ سفياً ﴾ ناقص العقل مبذراً مجاز ﴿ أو ضعيفاً ﴾ صعباً أو شيخاً مختلاً ﴿ أو لا يستطيع أن يمل هو ﴾ أى غير مستطيع للإملاء بنفسه لخرس أو عى أو جهل أو غير ذلك من العوارض ﴿ فليمل وليه ﴾ أى الذى يلى أمره ويقوم مقامه من قيم أو وكيل أو مترجم ﴿ بالعدل ﴾ أى من غير نقص ولا زيادة لم يكلف بعين ما كلف به من عليه الحق لأنه يتوقع منه الزيادة كما يتوقع منه البغض ﴿ واستشهدوا شهيدين ﴾ أى اطلبوهما ليتحملا الشهادة على ما جرى بينكم من المداينة وتسميتهما شهيدين لتنزيل المشارف منزلة الكائن ﴿ من رجالكم ﴾ متعلق باستشهدوا ، ومن ابتدائية أو بمحذوف وقع صفة لشهيدين ومن تبعيضية أى شهيدين كائنين من رجال المسلمين الأحرار إذا الكلام في معاملاتهم فإن خطابات الشرع لا تنتظم العبيد بطريق العبارة كما بين في موضعه ، وأما إذا كانت المداينة بين الكفرة أو كان من عليه الحق كافراً فيجوز استشهاد الكافر عندنا .

﴿ فإن لم يكونا ﴾ أى الشهيدان جميعاً على طريقة نفي الشمول لاشمول النفي ﴿ رجلين ﴾ إما لإعوازهما أو لسبب آخر من الأسباب ﴿ فرجل وامرأتان ﴾ أى فليشهد رجل وامرأتان يكفون وهذا فيما عدا الحدود والقصاص عندنا ، وفي الأموال خاصة عند الشافعى ﴿ بمن ترضون ﴾ متعلق

بمحذوف وقع صفة لرجل وأمرأتان أى كائنون مرضيين عندكم وتخصيصهم بالوصف المذكور مع تحقق اعتباره فى كل شهيد لقلة اتصاف النساء به وقيل نعت لشهيدىن أى كائنين ممن ترضون ورد بأنه يلزم الفصل بينهما بالأجنبي وقيل بدل من رجالكم بتكرير العامل ورد بما ذكر من الفصل وقيل متعلق بقوله تعالى فاستشهدوا فيلزم الفصل بين اشتراط المرأتين وبين تعليله وقوله عز وجل ﴿ من الشهداء ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من الضمير المحذوف الراجع إلى الموصول أى ممن ترضونهم كائنين من بعض الشهداء لعلمكم بعد التهم وثقتكم بهم وإدراج النساء فى الشهداء بطريق التغليب ﴿ إن تضل إحداهما فتذكر إحداها الأخرى ﴾ تعليل لاعتبار العدد فى النساء والعلة فى الحقيقة هى التذكير ولكن الضلال لما كان سببا له منزلته كما فى قولك أعددت السلاح أن يحمىء عدو فأدفعه كأنه قيل لأجل أن تذكر إحداها الأخرى إن ضلت من الشهادة بأن نسبتها ولعل لإيثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال أن تضل إحداها فتذكرها الأخرى لتأكيد الإبهام والمبالغة فى الاحتراز عن توهم اختصاص الضلال بإحداهما بعينها والتذكير بالأخرى وقرىء فتذكر من الإذكار وقرىء فتذاكر وقرىء أن تضل على الشرط فتذكر بالرفع كقوله تعالى (ومن عاد فينتقم الله منه) ﴿ ولا ياب الشهداء إذا ما دعوا ﴾ لأداء الشهادة أو لتحملها وتسميتهم شهداء قبل التحمل لما من تنزيل المشارف منزلة الواقع وما مزيدة . عن قتادة أنه كان الرجل يطوف فى الحواء العظيم فيه القوم فلا يتبعه منهم أحد فنزلت .

﴿ ولا تساموا ﴾ أى لا تملوا من كثرة مدايناتكم ﴿ أن تكشبهوه ﴾ أى الدين أو الحق أو الكتاب وقيل كنى به عن الكسل الذى هو صفة المنافق كما ورد فى قوله تعالى (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى) وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لا يقول المؤمن كسلت ﴿ صغيراً أو كبيراً ﴾ حال من الضمير أى حال كونه صغيراً أو كبيراً أى قليلاً أو كثيراً أو بجمل أو مفصلاً ﴿ إلى

أجله ﴿ متعلق بمحذوف وقع حالا من الهاء في تكتبوه أى مستقرا في الزمة إلى وقت حلوله ﴾ ذلكم ﴿ الذى أقر به المديون لإشارة إلى ما أمر به من التكتب والخطاب للمؤمنين ﴾ أقسط ﴿ أى أعدل ﴾ عند الله ﴿ أى فى حكمه تعالى ﴾ وأقوم للشهادة ﴿ أى أثبت لها وأعون على إقامتها وهما مبنيان من أقسط وأقام فإنه قياسى عند سيبويه أو من قاسط بمعنى ذى قسط وقويم وإنما صححت الواو فى أقوم كما صححت فى التعجب بلجوده ﴿ وأذى ألا ترتابوا ﴾ وأقرب إلى انتفاء ريبكم فى جنس الدين وقدره وأجله وشهوده ونحو ذلك ﴿ إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ﴾ استثناء منقطع من الأمر بالكتابة أى لكن وقت كون تداينكم أو تجارة حاضرة بحضور البدين تديرونها بينكم بتعاطيها يدا بيد ﴿ فليس عليكم جناح أن لا تكتبوها ﴾ أى فلا بأس بالكتابة لبعده عن التنازع والنسيان وقرىء برفع تجارة على أنها اسم كان وحاضرة صفتها وتديرونها خيرها أو على أنها تامة .

﴿ وأشهدوا إذا تبايعتم ﴾ هذا التبايع أو مطلقا لأنه أحوط والأوامر الواردة فى الآية الكريمة للندب عند الجمهور وقيل للوجوب ثم اختلف فى أحكامها ونسخها ﴿ ولا يضار كاتب ولا شهيد ﴾ نهى عن المضارة بمقتضى البناءين كما ينهى عنه قراءة من قرأ ولا يضار بالسكر والفتح وهو نهى عن ترك الإجابة والتغيير والتحريف فى الكتابة والشهادة أو نهى الطالب عن الضرر بهما بأن يعجلهما عن مهمهما أو يكلفهما الخروج عما حدلها أو لا يعطى الكاتب جعله وقرىء بالرفع على أنه نفي فى معنى النهى ﴿ وإن تفعلوا ﴾ ما نهيتم عنه من الضرر ﴿ فإنه ﴾ أى فعلمكم ذلك ﴿ فسوق بكم ﴾ أى خروج عن الطاعة ملتبس بكم ﴿ واتقوا الله ﴾ فى مخالفة أوامره ونواهيه التى من جملتها نهى عن المضارة ﴿ ويعلمكم الله ﴾ أحكامه المتضمنة لمصالحكم ﴿ والله بكل شئ عليم ﴾ فلا يكاد يخفى عليه حالكم وهو مجازيكم بذلك كمر لفظ الجلالة فى الجمل الثلاث لإدخال الروعة وتربية المهابة وللتنبية على استقلال كل منها بمعنى على

حياله فإن الأولى حث على التقوى والثانية وعد بالإععام والثالثة تعظيم لشأنه تعالى ﴿ وإن كنتم على سفر ﴾ أى مسافرين أو متوجهين إليه ﴿ ولم تجدوا كاتباً ﴾ فى المدينة وقرىء كئاباً وكتبا وكتاباً ﴿ فرهان مقبوضة ﴾ أى فالذى يستوثق به أو فعليكم أو فليؤخذ أو فالمشروع رهان مقبوضة وليس هذا التعليق لاشتراط السفر فى شرعية الارتهان كما حسبه مجاهد والضحاك لأنه صلى الله عليه وسلم رهن درعه فى المدينة من يهودى بعشرين صاعاً من شعير أخذه لأهله بل لإقامة التوثق بالارتهان مقام التوثق بالكتابة^(١) فى السفر الذى هو مظنة إغوازا وإلما لم يتعرض لحال الشاهد لما أنه فى حكم الكاتب توثقاً وإغوازا والجمهور على وجوب القبض فى تمام الرهن غير مالك وقرىء فرهن كسقف وكلاهما جمع رهن بمعنى مرهون وقرىء بسكون الهاء تخفيفاً ﴿ فإن أمن بعضهم بعضاً ﴾ أى بعض الدائنين بعض المديونين لحسن ظننه به واستغنى بأمانته عن الارتهان وقرىء فإن أمن بعضهم أى آمنه الناس ووصفوه بالأمانة قيل فىكون انتصاب بعضاً حيثئذ على نزع الخافض أى على متاع بعض ﴿ فليؤد الذى أؤتمن ﴾ وهو المديون وإلما عبر عنه بذلك العنوان لتعيينه طريقاً للإعلام وحمله على الأداء ﴿ أمانته ﴾ أى دينه وإلما سمي أمانة لانتبانه عليه بترك الارتهان به وقرىء إيتمن بقلب الهمزة ياء وقرىء بإدغام الياء فى التاء وهو خطأ لأن المنقلبة من الهمزة لا تدغم لأنها فى حكمها ﴿ وليتق الله ربه ﴾ فى رعاية حقوق الأمانة وفى الجمع بين عنوان الألوهية وصفة الربوبية من التأكيد والتعذير ما لا يخفى .

﴿ ولا تكتموا الشهادة ﴾ أيها الشهود أو المديونون أى شهادتكم على أنفسكم عند المعاملة ﴿ ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾ آثم خبر إن وقلبه مرتفع به على الفاعلية كأنه قيل يآثم قلبه أو مرتفع بالابتداء وآثم خبر مقدم والجملة خبر إن وإسناد الإثم إلى القلب لأن الكتان مما اقترفته ونظيره نسبة الزنا إلى

(١) فى ط : بالسكتية .

العين والأذن أو للبالغه لأنه رئيس الأعضاء وأفعاله أعظم الأفعال كأنه قيل
تمسك الإثم في نفسه وملك أشرف مكان فيه وفاق سائر ذنوبه . عن ابن عباس
رضي الله عنهما إن أكبر الكبائر الإشراك بالله لقوله تعالى (فقد حرم الله
عليه الجنة) وشهادة الزور وكتمان الشهادة وقرىء قلبه بالنصب كما في سغه نفسه
وقرىء أم قلبه أى جعله آثماً ﴿ والله بما تعملون عليم ﴾ فيجازيكم به إن خيراً
نخيراً وإن شراً فشر ﴿ لله ما في السموات وما في الأرض ﴾ من الأمور الداخلة
في حقيقتهم والخارجة عنهما المتمكنة فيهما من أولى العلم وغيرهم أى كلها له
تعالى خلقاً وملاكاً وتصرفاً لا شريك لغيره في شيء منها بوجه من الوجوه ﴿ وإن
تبدوا ما في أنفسكم ﴾ من سوء والعزم عليه بأن تظهروه للناس بالقول أو
بالفعل أو بهما^(١) ﴿ أو تخفوه ﴾ بأن تكتموه منهم ولا تظهروه بأحد الوجهين
ولا يندرج فيه ما لا يخلو عنه البشر من الوسوس وأحاديث النفس التي لا عقد
ولا عنمة فيها إذ التكليف بحسب الوسع ﴿ يحاسبكم به الله ﴾ يوم القيامة وهو
حجة على منكري الحساب من المعتزلة والروافض وتقديم الجار والمجرور على
الفاعل للاعتناء به وأما تقديم الإبداء على الإخفاء على عكس ما في
قوله عز وجل (قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله) فلها أن
المعلق بما في أنفسهم ههنا هو المحاسبة والأصل فيها الأعمال البادية ، وأما العلم
فتعلقه بها كتعلقه بالأعمال الخافية كيف لا وعلمه سبحانه بمعلوماته متعال عن
أن يكون بطريق حصول الصور بل وجود كل شيء في نفسه في أى طور كان
علم بالنسبة إليه تعالى وفي هذا لا يختلف الحال بين الأشياء البارزة والسكائمة
خلا أن مرتبة الإخفاء متقدمة على مرتبة الإبداء إذ ما من شيء يبدى إلا وهو
أو مباديه قبل ذلك مضمرة في النفس فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى متقدم على
تعلقه بحالته الثانية وقد مر في تفسير قوله تعالى (أولاً يعلمون أن الله يعلم
ما يسرون وما يعلنون) .

(١) سقط من ط .

﴿ فيغفر ﴾ بالرفع على الاستثناف أى فهو يغفر بفضلہ ﴿ لمن يشاء ﴾ أى يغفر له ﴿ ويعذب ﴾ بعذله ﴿ من يشاء ﴾ أى يعذبه حسبما تقتضيه مشيئته المبذية على الحكم والمصالح وتقديم المغفرة على التعذيب لتقدم رحمته على غضبه وقرىء بجزم الفعلين عطفًا على جواب الشرط وقرىء بالجزم من غير فاء على أنهما بدل من الجواب بدل البعض أو الاشتغال ونظيره الجزم على البدلية من الشرط في قوله :

متى تأتينا تلسم بنا في ديارنا تجد حطبا جزلا ونارا تأججا
 وإدغام الراء في اللام لحن ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله فإن كمال قدرته تعالى على جميع الأشياء موجب لقدرته سبحانه على ما ذكر من المحاسبة وما فرع عليه من المغفرة والتعذيب ﴿ آمن الرسول ﴾ لما ذكر في فاتحة السورة الكريمة أن ما أنزل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من الكتاب العظيم الشأن هدى للمتصفين بما فصل هناك من الصفات الفاضلة التي من جملتها الإيمان به وبما أنزل قبله من الكتب الإلهية وأنهم حائزون لأثرني الهدى والفلاح من غير تعيين لهم بخصوصهم ولا تصريح بتحقيق اتصافهم بها إذ ليس فيما يذكر في حيز الصلة حكم بالفعل وعقب ذلك ببيان حال من كفر به من المجاهرين والمنافقين ثم شرح في تضاعيفها من فنون الشرائع والأحكام والمواعظ والحكم وأخبار الأمم السالفة^(١) وغير ذلك ما تقتضيه الحكمة شرحه عين في خاتمتها المتصفون بها وحكم باتصافهم بها على طريق الشهادة لهم من جهته عز وجل بكمال الإيمان وحسن الطاعة وذكر صلى الله عليه وسلم بطريق الغيبة مع ذكره هناك بطريق الخطاب لما أن حق الشهادة الباقية على مر الدهور ألا يخاطب بها المشهود له ولم يتعرض ههنا لبيان فوزهم بمطالبهم التي من جملتها ما حكى عنهم من الدعوات الآتية لإيذانا بأنه أمر محقق غنى عن التصريح به لاسيما بعد ما نص عليه فيما سلف وإيراده عليه السلام

(١) في ط : سوائف الأمم .

بعنوان الرسالة المنبئة عن كونه عليه السلام صاحب كتاب مجيد وشرع جديد تمهيد لما يعقبه من قوله تعالى ﴿ بما أنزل إليه ﴾ ومزيد توضيح لاندراجه في الرسل المؤمن بهم عليهم السلام والمراد بما أنزل إليه ﴿ من ربه ﴾ لإيماننا تفصيليا متعلقا بجميع ما فيه من الشرائع والأحكام والقصص والمواعظ وأحوال الرسل والكتب وغير ذلك من حيث أنه منزل منه تعالى ، وأما الإيمان بحقية أحكامه وصدق أخباره ونحو ذلك فن فروع الإيمان به من الحيثية المذكورة وفي هذا الإجمال إجلال لمحله عليه الصلاة والسلام وإشعار بأن تعلق إيمانه بتفاصيل ما أنزل إليه وإحاطته بجميع ما انطوى عليه من الظهور بحيث لا حاجة إلى ذكره أصلا وكذا في التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه للسلام تشریف له وتنبية على أن إنزاله إليه تربية وتكميل له عليه السلام .

﴿ والمؤمنون ﴾ أى الفريق المعروفون بهذا الاسم فاللام عهدية لاموصولة لإفضائها إلى خلو الكلام عن الجدوى وهو مبتدأ وقوله عز وجل ﴿ كل ﴾ مبتدأ ثان وقوله تعالى ﴿ آمن ﴾ خبره والجملة خبر للمبتدأ الأول والرابط بينهما الضمير الذى ناب مناب التنوين وتوحيد الضمير فى آمن مع رجوعه إلى كل المؤمنين لما أن المراد ببيان إيمان كل فرد منهم من غير اعتبار الاجتماع كما اعتبر ذلك فى قوله تعالى (وكل أتوه داخرين) وتغيير سبك النظم الكريم عما قبله لتأكيد الإشعار بما بين إيمانه على السلام المبني على المشاهدة والعيان وبين إيمانهم الناشئ عن الحججة والبرهان من التفاوت البين والاختلاف الجلى كأنهما متخالفان من كل وجه حتى فى هيئة التركيب الدال عليهما وما فيه من تكرير الإسناد لما فى الحكم بإيمان كل واحد منهم على الوجه الآتى من نوع خفاء محجج إلى التقوية والتأكيد أى كل واحد منهم آمن ﴿ بالله ﴾ وحده من غير شريك له فى الألوهية والمعبودية ﴿ وملائكته ﴾ أى من حيث أنهم عباد مكرمون له تعالى من شأنهم التوسط بينه تعالى وبين الرسل بإنزال الكتب وإلقاء الوحي فإن مدار الإيمان بهم ليس من خصوصيات ذواتهم فى

أنفسهم بل هو من إضافتهم إليه تعالى من الحيثية المذكورة كما يلوح به الترتيب في النظم .

(وكتبه ورسله) أى من حيث مجيئهما من عنده تعالى لإرشاد الخلق إلى ما شرع لهم من الدين بالأوامر والنواهي لكن لا على الإطلاق بل على أن كل واحد من تلك الكتب منزل منه تعالى إلى رسول معين أولئك الرسل عليهم الصلاة والسلام حسبما فصل في قوله تعالى (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم) الآية ولا على أن مناط الإيمان خصوصية ذلك الكتاب أو ذلك الرسول بل على أن الإيمان بالكل مندرج في الإيمان بالكتاب المنزل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ومستند إليه لما تلى من الآية الكريمة ولا على أن أحكام الكتب السالمة وشرائعها باقية بالكلية ولا على أن الباقي منها معتبر بالإضافة إليها بل على أن أحكام كل واحد منها كانت حقة ثابتة إلى ورود كتاب آخر ناسخ له وأن ما لم ينسخ منها إلى الآن من الشرائع والأحكام ثابتة من حيث أنها من أحكام هذا الكتاب المصون عن النسخ إلى يوم القيامة وإنما لم يذكر ههنا الإيمان باليوم الآخر كما ذكر في قوله تعالى (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين) لاندراجه في الإيمان بكتبه وقرىء وكتابه على أن المراد به القرآن أو جنس الكتاب كما في قوله تعالى (فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب) .

والفرق بينه وبين الجمع أنه شائع في أفراد الجنس والجمع في جموعه ولذلك قيل الكتاب أكثر من الكتب وهذا نوع تفصيل لما أجمل في قوله تعالى (بما أنزل إليه من ربه) اقتصر عليه إذانا بكفايته في الإيمان الإجمالى المتحقق في كل فرد من أفراد المؤمنين من غير نفي لزيادة ضرورة اختلاف طبقاتهم وتفاوت إيمانهم بالأمور المذكورة في مراتب التفصيل تفاوتاً فاحشاً فإن الإجمال في الحكاية لا يوجب الإجمال في المحكى كيف لا وقد أجمل في حكاية

إيمانه عليه السلام بما أنزل إليه من ربه مع بداهة كونه متعلقا بتفاصيل ما فيه من الجلائل والدقائق ثم إن الأمور المذكورة حيث كانت من الأمور الغيبية التي لا يوقف عليها إلا من جهة العلم الخبير كان الإيمان بها مصداقا لما ذكر في صدر السورة الكريمة من الإيمان بكتبه تعالى فأشارة إلى ما في قوله تعالى (يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) هذا هو اللائق بشأن التنزيل والحقيق بمقداره الجليل وقد جوز أن يكون قوله تعالى والمؤمنون معطوفا على الرسول فيوقف عليه والضمير الذي عوض عنه التنوين راجع إلى المعطوفين معا كأنه قيل آمن الرسول والمؤمنون بما أنزل إليه من ربه ثم فصل وقيل كل واحد من الرسل (١) والمؤمنين آمن بالله الخ خلا أنه قدم المؤمن به على المعطوف اعتناء بشأنه وإيدانا بأصالته عليه السلام في الإيمان به ولا يخفى أنه مع خلوه عما في الوجه الأول من كمال وإجلال شأنه عليه السلام وتفخيم إيمانه محل بجزالة النظم الكريم لأنه إن حمل كل من الإيمانين على ما يليق بشأنه عليه الصلاة والسلام من حيث الذات ومن حيث التعلق بالتفاصيل استحال إسنادهما إلى غيره عليه الصلاة والسلام وضاع التكرير وإن حملا على ما يليق بشأن آحاد الأمة كان ذلك حطا لرتبته العلية عليه السلام وأما حملهما على ما يليق بكل واحد ممن نسا إليه من الآحاد ذاتا وتعلقا بأن يحملا بالنسبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم على الإيمان العيان المتعلق بجميع التفصيل وبالنسبة إلى آحاد الأمة على الإيمان المكتسب من جهته عليه السلام اللائق بمجالهم في الإجمال والتفصيل فاعتساف بين ينبغي تنزيهه ساحة التنزيل عن أمثاله ، وقوله تعالى :

(لا نفرق بين أحد من رسله) في حيز النصب بقول مقدر على صيغة الجمع رعاية لجانب المعنى منصوب على أنه حال من ضمير آمن أو مرفوع على

(١) في ط : الرسول .

أنه خبر آخر لكل أى يقولون لا نفرق بينهم بأن تؤمن ببعض منهم ونكفر
بآخرين بل تؤمن بصحة رسالة كل واحد منهم قیدوا به لإيمانهم تحقيقاً للحق
وتحظئة لأهل الكتابين حيث أجمعوا على الكفر بالرسول صلى الله عليه وسلم
واستقلت اليهود بالكفر بعيسى عليه السلام أيضاً على أن مقصودهم الأصيل
إبراز إيمانهم بما كفروا به من رسالته عليه السلام لإظهار موافقتهم لهم فيما
آمنوا به وهذا كما ترى صريح في أن القائلين أحاد المؤمنين خاصة إذ لا يمكن
أن يسند إليه السلام أن يقول لا أفرق بين أحد من رسله وهو يريد به
إظهار إيمانه برسالة نفسه وتصديقه في دعواها وعدم التعرض لنفى التفريق
بين الكتب لاستلزام المذكور إياه وإنما لم يعكس مع تحقق التلازم من الطرفين
لما أن الأصل في تفریق المفرقين هو الرسل وكفرهم بالكتب متفرع على
كفرهم بهم وقرىء بالياء على إسناد الفعل إلى كل وقرىء لا يفرقون حملاً على
المعنى كما في قوله تعالى (وكل أتوه داخرين) فالجملة نفسها حال من الضمير المذكور
وقيل خبر ثان لكل كما قيل في القول المقدر فلا بد من اعتبار السكينة بعد النفى
دون العكس إذ المراد شمول النفى لا نفي الشمول والكلام في همزة أحد
وفي دخول بين عليه قد مر تفصيله عند قوله تعالى (لا نفرق بين أحد منهم) وفيه
من الدلالة صريحا على تحقق عدم التفريق بين كل فرد فرد منهم وبين من عداه
كائنا من كان ما ليس في أن يقال لا نفرق بين رسله وإيثار إظهار الرسل
على الإضمار الواقع مثله في قوله تعالى (وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق
بين أحد منهم) إما للاحتراز عن توهم اندراج الملائكة في الحكم أو للإشعار
بعدم التفريق أو للإيماء إلى عنوانه لأن الاعتبار عدم التفريق من حيث
الرسالة دون سائر الحيثيات الخاصة (وقالوا) عطف على آمن وصيغة الجمع
باعتبار جانب المعنى وهو حكاية لامثالهم بالأوامر إثر حكاية إيمانهم (سمعنا)
أى فهمنا ما جاءنا من الحق وتيقنا بصحته (وأطعنا) ما فيه من الأوامر
والنواهي وقيل سمعنا أجبتنا دعوتك وأطعنا أورك (غفرانك ربنا) أى
اغفر لنا غفرانك أو نسالك غفرانك ذنوبنا المتقدمة أو ما لا يخلو عنه البشر

من التقصير في مراعاة حقوقك وتقديم ذكر السمع والطاعة على طلب الغفران لما أن تقديم الوسيلة على المسئول أدعى إلى الإجابة والقبول والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إليهم للبالغ في التصرع والجوار .

﴿ وإليك المصير ﴾ أى الرجوع بالموت والبعث لا إلى غيرك وهو تذييل لما قبله مقرر للحاجة إلى المغفرة لما أن الرجوع للحساب والجزاء وقوله تعالى ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ جملة مستقلة جرى بها إثر حكاية تلقيهم لتكليفه تعالى بحسن الطاعة إظهاراً لما له تعالى عليهم في ضمن التكليف من محاسن آثار الفضل والرحمة ابتداء لا بعد السؤال كما سيحىء ، هذا وقد روى أنه لما نزل قوله تعالى (ولئن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) الآية اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوه ثم بركوا على الركب فقالوا أى رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطبق الصلاة والصوم والحج والجهاد وقد أنزل إليك هذه الآية ولا نطبقها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير فقرأها القوم فأنزل الله عز وجل (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه إلى قوله تعالى غفرانك ربنا وإليك المصير) فمشو طم الغفران المعلق بمشيئته عز وعلا في قوله (فيغفر لمن يشاء) ثم أنزل الله تعالى (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) تهوينا للخطب عليهم بيان أن المراد بما في أنفسهم ما عزموا عليه من السوء خاصة لا ما يعم الخواطر التي لا يستطاع الاحتراز عنها والتكليف وإلزام ما فيه كلفة ومشقة والوسع ما يسع الإنسان ولا يضيق عليه أى سنته تعالى أنه لا يكلف نفسا من النفوس إلا ما يتسع فيه طوقها ويتيسر عليها دون مدى الطاقة والمجهود فضلا منه تعالى ورحمة لهذه الأمة كقوله تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقرىء وسعها بالفتح وهذا يدل على عدم وقوع التكليف بالحال لا على امتناعه وقوله تعالى :

﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ للترغيب في المحافظة على مواجب التكليف والتحذير عن الإخلال بها ببيان أن تكليف كل نفس مع مقارنته لنعمة التخفيف والتيسير تتضمن مراعاته منفعة زائدة وأنها تعود إليها لا إلى غيرها ويستتبع الإخلال به مضرة تحقيقها لا بغيرها فإن اختصاص منفعة الفعل بفعله من أقوى الدواعي إلى تحصيله واقتضار مضرته عليه من أشد الزواجر عن مباشرته أي لها ثواب ما كسبت من الخير الذي كلفت فعله لا لغيرها استقلالاً أو اشتراكاً ضرورة شمول كلمة مالسكل جزء من أجزاء مكسوبها وعليها لا على غيرها بأحد الطريقتين المذكورين عقاب ما اكتسبت من الشر الذي كلفت تركه وإيراد الاكتساب في جانب الشر لما فيه من احتمال ناشئ من اعتناء النفس بتحصيل الشر وسعيها في طلبه ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ شروع في حكاية بقية دعواتهم لإثبات سر التكليف أي لا تؤاخذنا بما صدر عنا من الأمور المؤدية إلى النسيان أو الخطأ من تفریط وقلة مبالاة ونحوهما بما يدخل تحت التكليف أو بأنفسهما من حيث ترتبهما على ما ذكر أو مطلقاً إذ لا امتناع في المؤاخذة بهما عقلاً فإن المعاصي كالسوم فكأن تناولها ولو سهواً أو خطأ مؤد إلى الهلاك فتعاطى المعاصي أيضاً لا يبعد أن يفضى إلى العقاب وإن لم يكن عن عزيمة ووعده تعالى بعدمه لا يوجب استحالة وقوعه فإن ذلك من آثار فضله ورحمته كما ينبى عنه الرفع في قوله عليه السلام «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان» وقد روى أن اليهود كانوا إذا نسوا شيئاً عجلت لهم العقوبة فدعاؤهم بعد العلم بتحقيق الموعد للاستدامة والاعتداد بالنعمة في ذلك كما في قوله تعالى (ربنا وآتتنا ما وعدتنا على رسلك) ﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصراً ﴾ عطف على ما قبله وتوسيط النداء بينهما لإبراز مزيد الضراعة والإصرار العبء الثقيل الذي يأصر صاحبه أي يحبس مكانه والمراد به التكليف الشاق وقيل الإصرار الذنب الذي لا توبة له فالمعنى اعصمنا من اقتراه وقرى آصاراً وقرى ولا تحمل بالتشديد للبالغة ﴿ كما حملته على الذين من قبلنا ﴾ في حيز النصب على أنه صفة لمصدر محذوف

أى حملاً مثل حملك إياه على من قبلنا أو على أنه صفة لإصرأ أى لإصرأ مثل الإصر الذى حملته على من قبلنا وهو ما كلفه بنو إسرائيل من بئح النفس فى التوبة وقطع موضع النجاسة وخمسين صلاة فى يوم وليلة وصرف ربع المال للزكاة وغير ذلك من التشديدات فإنهم كانوا إذا أتوا بمخطئة حرم عليهم من الطعام بعض ما كان حلالاً لهم قال الله تعالى (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) وقد عصم الله عز وجل بفضله ورحمته هذه الأمة عن أمثال ذلك وأنزل فى شأنهم (ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم) وقال عليه السلام «بعثت بالحنيفية السهلة السمحة» وعن العقوبات التى عوقب بها الأولون من المسخ والحسف وغير ذلك قال عليه السلام «رفع عن أمتى الحسف والمسوخ والغرق» .

(ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به) عطف على ما قبله واستعفاء عن العقوبات التى لا تطاق بعد الاستعفاء عما يؤدي إليه التفريط فيه من التكليف الشاقة التى لا يكاد من كلفها يخلو عن التفريط فيها كأنه قيل لا تكلفنا تلك التكليف ولا تعاقبنا بتفريطنا فى المحافظة عليها فيكون التعبير عن إنزال العقوبات بالتحميل باعتبار ما يؤدي إليها وقيل هو تكبير للأول وتصوير للإصر بصورة ما لا يستطيع مبالغة وقيل هو استعفاء عن التكليف بما لا تقوى به الطاقة البشرية حقيقة فيكون دليلاً على جواز عقاله وإلا لما سئل التخلص عنه والتشديد ههنا لتعدية الفعل إلى مفعول ثانٍ (واعف عنا) أى آثار ذنوبنا (واغفر لنا) واستر عيوبنا ولا تفضحنا على رؤس الأشهاد (وارحمنا) وتعطف بنا وتفضل علينا وتقديم طلب العفو والمغفرة على طلب الرحمة لما أن التخلية سابقة على التحلية (أنت مولانا) سيدنا ونحن عبيدك أو ناصرنا أو متولى أمورنا (فانصرنا على القوم الكافرين) فإن من حق المولى أن ينصر عبده ومن يتولى أمره على الأعداء والمراد به عامة

الكفرة وفيه إشارة إلى أن إعلاء كلمة الله والجهاد في سبيله تعالى حسبما أمر في تضاعيف السورة الكريمة غاية مطالبهم ، روى أنه عليه الصلاة والسلام لما دعا بهذه الدعوات قيل له عند كل دعوة قد فعلت ، وعنه عليه السلام « أنزل الله آيتين من كنوز الجنة كتبهما الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألفي عام من قرأهما بعد العشاء الأخيرة أجزأته عن قيام الليل ، وعنه عليه السلام من قرأ آيتين من سورة البقرة كفتاه وهو حجة على من استكره أن يقول سورة البقرة وقال ينبغي أن يقال السورة التي يذكر فيها البقرة كما قال عليه السلام « السورة التي يذكر فيها البقرة فسطاط القرآن فتعلها بركة وتركها حسرة ولن تستطيعها البطلة قيل وما البطلة قال عليه السلام السحرة ، » .

سورة آل عمران ، مدنية ، مائتا آية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(ألم الله لا إله إلا هو) قد سلف أن ما لا تكون من هذه الفوائج مفردة كصاد وقاف ونون ولا موازنة لمفرد كحاميم وطاسين وياسين الموازنة لقابيل وهابيل وكطاسين ميم الموازنة للدار ابجرد حسبما ذكره سيديويه في الكتاب فطريق التلفظ بها الحكاية فقط ساكنة الأفعال على الوقف سواء جعلت أسماء أو مسرودة على نمط التعديد وإن لزمتها التقاء الساكنين لما أنه معتبر في باب الوقف قطعاً فحق هذه الفاتحة أن يوقف عليها ثم يبدأ بما بعدها كما فعله أبو بكر رضي الله عنه رواية عن عاصم وأما ما فيها من الفتح على القراءة المشهورة فإنما هي حركة همزة الجلالة ألقيت على الميم لتدل على ثبوتها إذ ليس إسقاطها للدرج بل للتخفيف في بقاء حركتها في حكم التاب المبتدأ به والميم يكون الحركة لغيرها في حكم الوقف على السكون دون الحركة كما توهم واعتراض

بأنه غير معهود في الكلام وقيل هي حركة الالتقاء السواكن التي هي الياء والميم ولام الجلالة بعد سقوط همزتها وأنت خبير بأن سقوطها مبني على وقوعها في الدرج وقد عرفت أن سكون الميم وقف موجب لانقطاعها عما بعدها مستدع لثبات الهمزة على حالها لا كما في الحروف والأسماء المبينة على السكون فإن حقها الاتصال بما بعدها ووضعا واستعمالا فتسقط بها همزة الوصل وتحرك أعجازها لالتقاء الساكنين ثم إن جعلت مسرودة على نمط التعديد فلا محل لها من الإعراب كسائر الفواتح وإن جعلت اسما للسورة فحملها إما الرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف ، وإما النصب على إضمار فعل يليق بالمقام كاذكر أو اقرأ أو نحوهما وأما الرفع بالابتداء أو النصب بتقدير فعل القسم أو الجر بتقدير حرفه فلا مسأغ لشيء منها لما أن ما بعدها غير صالح للخبرية ولا للإقسام عليه فإن الاسم الجليل مبتدأ وما بعده خبره والجملة مستأنفة أي هو المستحق للمعبودية لا غير وقوله عز وجل .

﴿الحى القيوم﴾ خبر آخر له أو لمبتدأ محذوف أي هو الحى القيوم لا غيره وقيل هو صفة للمبتدأ أو بدل منه أو من الخبر الأول أو هو الخبر وما قبله اعتراض بين المبتدأ والخبر مقرر لما يفيد الاسم الجليل أو حال منه وأياً ما كان فهو كالدليل على اختصاص استحقاق المعبودية به سبحانه وتعالى لما مر من أن معنى الحى الباقي الذى لا سبيل عليه للبوت والفساء ومعنى القيوم الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه ومن ضرورة اختصاص ذينك الوصفين به تعالى اختصاص استحقاق المعبودية به تعالى لاستحالة تحققه بدونهما وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اسم الله الأعظم فى ثلاث سور فى سورة البقرة (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) وفى آل عمران (ألم الله لا إله هو الحى القيوم) وفى طه (وعنت الوجوه للحى القيوم) وروى أن بنى إسرائيل سألوا موسى عليه السلام عن اسم الله الأعظم قال الحى القيوم ويروى أن عيسى عليه السلام كان إذا أراد إحياء الموتى يدعو يا حى يا قيوم ويقال إن آصف بن برخيا حين أراد أن يأتى بعرش بلقيس دعا بذلك وقرىء الحى القيوم وهذا رد على من زعم أن

عيسى عليه السلام كان ربا فإنه روى أن وفد نجران قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا ستين راكبا فيهم أربعة عشر رجلا من أشرفهم ثلاثة منهم أكابر إليهم يؤول أمرهم أحدهم أميرهم وصاحب مشورتهم العاقب واسمه عبد المسيح وثانيهم وزيرهم ومشيرهم السيد واسمه الأيهم وثالثهم حبرهم وأسقفهم وصاحب مدارسهم أبو حارثة بن علقمة أحد بني بكر بن وائل وقد كان ملوك الروم شرفوه ومولوه وأكرموه لما شاهدوا من عليه واجتهاده في دينهم وبنوا له كنائس فلما خرجوا من نجران ركب أبو حارثة بغلته وكان أخوه كرز بن علقمة إلى جنبه فبينما بغلة أبي حارثة تسير إذ عثرت فقال كرز تعسا للأبعد يريد به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له أبو حارثة بل تعست أمك فقال كرز ولم يا أخي قال إنه والله النبي الذي كنا ننتظره فقال له كرز فما يمنعك عنه وأنت تعلم هذا؟ قال لأن هؤلاء الملوك أعطونا أموالا كثيرة وأكرمونا فلو آمننا به لأخذوا منا كلها، فوقع ذلك في قلب كرز وأضمره إلى أن أسلم فكان يحدث بذلك فأتوا المدينة ثم دخلوا مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد صلاة العصر عليهم ثياب الخبثات جيب وأردية فاخرة يقول بعض من رأيهم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ما رأينا وفدا مثلهم وقد حانت صلاتهم فقاموا ليصلوا في المسجد فقال عليه السلام دعوهم فصلوا إلى المشرق ثم تكلم أولئك الثلاثة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا تارة عيسى هو الله لأنه كان يحيي الموتى ويرى الأكمه ويخبر بالغيوب ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيطير وتارة أخرى هو ابن الله إذ لم يكن له أب يعلم وتارة أخرى إنه ثالث ثلاثة لقوله تعالى فعلنا وقلنا ولو كان واحدا لقال فعلت وقلت فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلموا قالوا أسلمنا قبلك قال عليه السلام كذبتكم يمنعكم من الإسلام دعاؤكم لله تعالى ولدا قالوا إن لم يكن ولداً لله فمن أبوه فقال عليه السلام ألستم

تعلمون أنه لا يكون ولد إلا ويشبه أباه فقالوا بلى قال أستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت وأن عيسى يأتي عليه الفناء قالوا بلى قال عليه السلام أستم تعلمون أن ربنا قيوم على كل شيء يحفظه ويرزقه قالوا بلى قال عليه السلام فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً قالوا لا فقال عليه السلام أستم تعلمون أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء قالوا بلى قال عليه السلام فهل يعلم عيسى من ذلك إلا ما علم قالوا بلى قال عليه السلام أستم تعلمون أن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء وأن ربنا لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث قالوا بلى قال عليه السلام أستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة وضعته كما تضع المرأة ولدها ثم غذى كما يغذى الصبي ثم كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث قالوا بلى قال عليه السلام فكيف يكون هذا كما زعمتم فسكتوا^{١٠} وأبوا إلا جحوداً فأنزل الله عز وجل من أول السورة إلى نيف وثمانين آية تقريراً لما احتج به عليه السلام عليهم وأجاب به عن شبههم وتحقيقاً للحق الذي فيه يمترون .

﴿ نزل عليك الكتاب ﴾ أى القرآن عبر عنه باسم الجنس إيدانا بكلمة تفوقه على بقية الأفراد في حيازة كالات الجنس كأنه هو الحقيق بأن يطلق عليه اسم الكتاب دون ما عداه كما يلوح به التصريح باسمى التوراة والإنجيل وصيغة التفعيل للدلالة على التفضيم وتقديم الظرف على المفعول لما مر من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر والجملة إما مستأنفة أو خبر آخر عن الاسم الجليل أو هى الخبر وقوله تعالى لا إله إلا هو اعتراض أو حال وقوله عز وجل الحى القيوم صفة أو بدل كما مر وقرىء نزل عليك الكتاب بالتخفيف ورفع الكتاب فالظاهر حينئذ أن تكون مستأنفة وقيل يجوز كونها خبراً بحذف العائد أى نزل الكتاب من عنده ﴿ بالحق ﴾ حال من الفاعل أو المفعول أى نزل محققاً فى تنزيله على ما هو عليه أو ملتبساً بالعدل فى أحكامه أو بالصدق فى أخباره التى من جملتها خبر التوحيد وما يليه وفى وعده (٢٨ - أبو السعود - أول)

ووعيده أو بما يحقق أنه من عند الله تعالى من الحجج البينة ﴿ مصدقا ﴾ حال من الكتاب بالاتفاق على تقدير كون قوله تعالى بالحق حالا من فاعل نزل وأما على تقدير حالته من الكتاب فهو عند من يجوز تعدد الحال بلا عطف ولا بديلة حال منه بعد حال وأما عند من يمنعه فقد قيل إنه حال من محل الحال الأولى على البدلية وقيل من المستكن في الجار والمجرور لأنه حينئذ يتحمل ضمير القيامة مقام عامله المتحمل له فيكون حالا متداخلة وعلى كل حال فهي حال مؤكدة وفائدة تقييد التنزيل بها حث أهل الكتابين على الإيمان بالمنزل وتنبههم على وجوبه فإن الإيمان بالمصدق موجب للإيمان بما يصدقه حتما ﴿ لما بين يديه ﴾ مفعول لمصدقا واللام دعامة لتقوية العمل نحو فعال لما يريد أى مصدقا لما قبله من الكتب السالفة وفيه إيماء إلى حضورها وكمال ظهور أمرها بين الناس وتصديقه إياها في الدعوة إلى الإيمان والتوحيد وتنزيهه الله عز وجل عما لا يليق بشأنه الجليل والأمر بالعدل والإحسان وكذا في أنباء الأنبياء والأمم الخالية وكذا في نزوله على النعمت المذكور فيها وكذا في الشرائع التي لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار ظاهر لإرباب فيه وأما في الشرائع المختلفة باختلافها فمن حيث أن أحكام كل واحد منها واردة حسبما تقتضيه الحكمة التشريعية بالنسبة إلى خصوصيات الأمم المكلفة بها مشتملة على المصالح اللائقة بشأنهم .

﴿ وأنزل التوراة والإنجيل ﴾ تعيين لما بين يديه وتبيين لرفعة محله تأكيذا لما قبله وتمهيدا لما بعده إذ بذلك يترقى شأن ما يصدقه رفعة ونباهة ويزداد في القلوب قبولا ومهابة ويتفاحش حال من كفر بهما في الشناعة واستتباع ما سيذكر من العذاب الشديد والانتقام أى أنزلها جملة على موسى وعيسى عليهما السلام وإنما لم يذكر الآن الكلام في الكتابين لا فيمن أنزلا عليه وهما اسمان أعجميان الأول عبرى والثانى سريانى ويعضده القراءة بفتح همزة الإنجيل فإن لإفعال ليس من أبئية العرب والتصدي لاشتقاقهما من الورى والنجل تعسف ﴿ من قبل ﴾ متعلق بأزل أى أنزلها من قبل تنزيل

الكتاب والتصريح به مع ظهور الأمر للمبالغة في البيان ﴿ هدى للناس ﴾ في حين النصب على أنه علة للإنزال أى أنزلها لهداية الناس أو على أنه حال منهما أى أنزلها حال كونها هدى لهن والإفراد لما أنه مصدر جملا نفس الهدى مبالغة أو حذف منه المضاف أى ذوى هدى ثم إن أريد هدايتهما بجميع ما فيهما من حيث هو جميع فالمراد بالناس الأمم الماضية من حين نزولها إلى زمان نستخهما وإن أريد هدايتهما على الإطلاق وهو الأنسب بالمقام فالناس على عمومهما لما أن هدايتهما بما عدا الشرائع المنسوخة من الأمور التي يصدقها القرآن فيها ومن جعلها البشارة بنزوله وبمبعث النبي صلى الله عليه وسلم تعم الناس قاطبة .

﴿ وأنزل الفرقان ﴾ الفرقان في الأصل مصدر كالغفران أطلق على الفاعل مبالغة والمراد به ههنا إما جنس الكتب الإلهية عبر عنها بوصف شامل لما ذكر منها وما لم يذكر على طريق التتميم بالتعميم لإثر تخصيص بعض مشاهيرها بالذكر كما في قوله عز وجل (فأنزلنا فيها حبا وعنبا إلى قوله تعالى وفاكهة) ولما نفس الكتب المذكورة أعيد ذكرها بوصف خاص لم يذكر فيها سبق على طريقة العطف بتكرير لفظ الإنزال تنزيلا للتغاير الوصفي منزلة التغاير الذاتي كما في قوله سبحانه ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ وأما الزبور فإنه مشتمل على المواعظ الفارقة بين الحق والباطل الداعية إلى الخير والرشاد الزاجرة عن الشر والفساد وتقديم الإنجيل عليه مع تأخره عنه نزولا لقوة مناسبته للتوراة في الاشتغال على الأحكام والشرائع وشيوع اقتراحهما في الذكر وأما القرآن نفسه فذكر (١) بنعت مادح له بعد ما ذكر باسم الجنس تعظيما لشأنه ورفعاً لمكانته وقد بين أولاً تنزيله التدريجي إلى الأرض وثانياً إنزاله الدفعي إلى السماء الدنيا أو أريد بالإنزال القدر المشترك العارى عن قيد التدريج وعدمه وأما المعجزات المقرونة بإنزال

(١) في ط : ذكر

الكتب المذكورة الفارقة بين المحق والمبطل ﴿ إن الذين كفروا بآيات الله ﴾
 وضع موضع الضمير العائد إلى ما فصل من الكتب المنزلة أو منها ومن المعجزات.
 الآيات مضافة إلى الإسم الجليل تعييناً لحيثية كفرهم وتهويلاً لأمرهم وتأكيدهم
 لاستحقاقهم العذاب الشديد وإيداناً بأن ذلك الاستحقاق لا يشترط فيه الكفر
 بالكل بل يكفي فيه الكفر ببعض منها والمراد بالموصول إما أهل الكتابين
 وهو الأنسب بمقام المحاجة معهم أو جنس الكفرة وهم داخلون فيه دخولاً
 أولياً أي إن الذين كفروا بما ذكر من آيات الله الناطقة بالحق لاسيما بتوحيده
 تعالى وتنزيهه عما لا يليق بشأنه الجليل كلا أو بعضها مع ما بها من النعوت
 الموجبة للإيمان بها بأن كذبوا بالقرآن أصالة وبسائر الكتب الإلهية تبعاً لما
 أن تكذيب ما يصدقه حتماً وأصالة أيضاً بأن كذبوا بآياتها الناطقة بالتوحيد
 والتنزيه وآياتها المبشرة بنزول القرآن ومبعث النبي صلى الله عليه وسلم وغيرها.
 ﴿ لهم ﴾ بسبب كفرهم بها ﴿ عذاب ﴾ مرتفع إما على الفاعلية من الجار
 والمجرور أو على الابتداء والجملة خبر إن والتنوين للتفخيم أي أي عذاب
 ﴿ شديد ﴾ لا يقادر قدره وهو وعيد جيء به لإثر تقرير أمر التوحيد الذاتي
 والوصفي والإشارة إلى ما ينطق بذلك من الكتب الإلهية حملاً على القبول
 والإذعان وزجراً عن الكفر والعصيان .

﴿ والله عزيز ﴾ لا يغالب يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿ ذو انتقام ﴾
 عظيم خارج عن أفراد جنسه وهو افتعال من النقمة وهي السطوة والتسلط
 يقال انتقم منه إذا عاقبه بجنائته والجملة اعتراض تذييلي مقرر للوعيد ومؤكده.
 ﴿ إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴾ استئناف كلام سيق
 لبيان سعة علمه تعالى وإحاطته بجميع ما في العالم من الأشياء التي من جملتها
 ما صدر عنهم من الكفر والفسوق سرراً وجهراً لإثر بيان كمال قدرته وعزته
 تربية لما قبله من الوعيد وتنبيهها على أن الوقوف على بعض المغيبات كما كان
 في عيسى عليه السلام بمعزل من بلوغ رتبة الصفات الإلهية وإنما عبر عن علمه
 عز وجل بما ذكر بعدم خفائه عليه كما في قوله سبحانه وما يخفى على الله من

شيء في الأرض ولا في السماء لئذانا بأن عليه تعالى بمعلوماته وإن كانت في أقصى الغايات الخفية ليس من شأنه أن يكون على وجه يمكن أن يقارنه شائبة خفاء بوجه من الوجوه كما في علوم مخلوقين بل هو في غاية الوضوح والجلال والجملة المنفية خبر لأن وتكرير الإسناد لتقوية الحكم وكلمة في متعلقة بمحذوف وقع صفة لشيء مؤكدة لعمومه المستفاد من وقوعه في سياق النفي أي لا يخفى عليه شيء ما كائن في الأرض ولا في السماء أعم من أن يكون ذلك بطريق الاستقرار فيهما أو الجزئية منهما وقيل متعلقة بيخفى وإنما عبر بهما عن كل العالم لأنهما قطراه وتقديم الأرض على السماء لإظهار الاعتناء بشأن أحوال أهلها وتوسيط حرف النفي بينهما للدلالة على الترقى من الأدنى إلى الأعلى باعتبار القرب والبعد منا المستدعين للتفاوت بالنسبة إلى علومنا وقوله عز وجل .

﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء ﴾ جملة مستأنفة ناطقة ببعض أحكام قيوميته تعالى وجريان أحوال الخلق في أطوار الوجود حسب مشيئته المبنية على الحكمة^(١) البالغة مقررة لسكال عليه مع زيادة بيان لتعلقه بالأشياء قبل دخولها تحت الوجود ضرورة وجوب علمه تعالى بالصور المختلفة المترتبة على التصوير المترتب على المشيئة قبل تحققها بمراتب وكلمة في متعلقة بـ يصوركم أو بمحذوف وقع حالا من ضمير المفعول أي يصوركم وأنتم في الأرحام مضغ وكيف معمول ليشاء والجملة في محل النصب على الحالية إما من فاعل يصوركم أي يصوركم كائنا على مشيئته تعالى أي مريدا أو من مفعوله أي يصوركم كائنين على مشيئته تعالى تابعين لها في قبول الأحوال المتغيرة من كونكم نطفًا ثم علقًا ثم مضغًا غير مخلقة ثم مخلقة. وفي الاتصاف بالصفات المختلفة من الذكورة والأنوثة والحسن والقبح وغير ذلك من الصفات وفيه من الدلالة على بطلان زعم من زعم ربوية عيسى عليه السلام وهو من جملة

(١) في ط : الحكم

أبناء النواصيت المتقلبين في هذه الأطوار على مشيئة الباري عز وجل وكال
 ركاكة عقولهم مالا يخفى وقرىء تصوركم على صيغة الماضى من الفعل أى
 أى صوركم لنفسه وعبادته ﴿ لا إله إلا هو ﴾ إذ لا يتصف بشيء مما ذكر
 من الشئون العظيمة الخاصة بالألوهية أحد ليتوهم ألوهيته ﴿ العزيز الحكيم ﴾
 المتناهى فى القدرة والحكمة لذلك يخلقكم على ما ذكر من النمط البديع .
 ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب ﴾ شروع فى إبطال شبههم الناشئة عما
 نطق به القرآن فى نعت عيسى عليه السلام بطريق الاستثناف لإثر بيان اختصاص
 الربوبية ومناطها به سبحانه وتعالى تارة بعد أخرى وكون كل من عداه مقهورا
 تحت ملكوته تابعا لمشيئته . قيل إن وفد نجران قالوا لرسول الله صلى الله
 عليه وسلم ألسنت تزعم يا محمد أن عيسى كلمة الله وروحه^(١) قال عليه السلام
 بلى قالوا فحسبنا ذلك فنحن عليهم زبغهم وفتنتهم وبين أن الكتاب مؤسس على
 أصول رصينة وفروع مبنية عليها ناطقة بالحق قاضية ببطلان ما هم عليه من
 الضلال والمراد بالإنزال القدر المشترك المجرى عن الدلالة على قيد التدرج
 وعدمه ولام الكتاب للعهد وتقديم الظرف عليه لما أشير إليه فيما قبل من
 الاعتناء بشأن بشارته عليه السلام بتشريف الإنزال عليه ومن التشويق إلى
 ما أنزل فإن النفس عند تأخير ما حقه التقديم لاسيما بعد الإشعار برفعة شأنه
 أو بمنفعته تبقى مترقبة له فيتمكن لديها عند وروده عليها فضل تمكن وليتصل به
 تقسيمه إلى قسميه ﴿ منه آيات ﴾ الظرف خبر وآيات مبتدأ أو بالعكس
 بتأويل مر تحقيقه فى قوله تعالى (ومن الناس من يقول) الآية والأول أوفق
 بقواعد الصناعة والثانى أدخل فى جزالة المعنى إذ المقصود الأصيل انقسام
 الكتاب إلى القسمين المعهودين لا كونهما من الكتاب فتذكر الجملة مستأنفة
 فى حيز النصب على الحالية من الكتاب أى هو الذى أنزل الكتاب كائنا على
 هذه الحال منقسما إلى محكم ومتشابه أو الظرف هو الحال وحده وآيات مرتفع

(١) فى ط : وروح منه .

به على الفاعلية ﴿محركات﴾ صفة آيات أى قطعية الدلالة على المعنى المراد محكمة العبارة محفوظة من الاحتمال والاشتباه ﴿هن أم الكتاب﴾ أى أصل فيه وعمدة يرد إليها غيرها فالمراد بالكتاب كله والإضافة بمعنى فى كما فى واحد العشرة لا بمعنى اللام فإن ذلك يؤدى إلى كون الكتاب عبارة عما عدا المحركات والجملة إما صفة لما قبلها أو مستأنفة وإنما أفرد الأم مع تعدد الآيات لما أن المراد بيان أصلية كل واحدة منها أو بيان أن الكل بمنزلة آية واحدة كما فى قوله تعالى (وجعلناها وابنها آية للعالمين) وقيل اكتفى بالمفرد عن الجمع كما فى قول الشاعر :

بها جيف الحسرى فأها عظامها فييض وأما جلدتها فصليب

أى وأما جلودها ﴿وأخر﴾ نعمت المحذوف معطوف على آيات أى وآيات أخر وهى جمع أخرى وإنما لم ينصرف لأنه وصف معدول عن الآخر أو عن آخر من ﴿متشابهات﴾ صفة لأخر وفى الحقيقة صفة للمحذوف أى محتملات لمعان متشابهة لا يمتاز بعضها عن^(١) بعض فى استحقاق الإرادة بها ولا يتضح الأمر إلا بالنظر الدقيق والتأمل الأنيق فالتشابه فى الحقيقة وصف لتلك المعانى وصف به الآيات على طريقة وصف الدال بوصف المدلول وقيل لما كان من شأن الأمور المتشابهة أن يعجز العقل عن التمييز بينها سعى كل مالا يهتدى إليه العقل متشابهة وإن لم يكن ذلك بسبب التشابه كما أن المشكل فى الأصل ما دخل فى أشكاله وأمثاله ولم يعلم بعينه ثم أطلق على كل غامض وإن لم يكن غموضه من تلك الجهة وإنما جعل ذلك كذلك ليظهر فضل العلماء ويزداد حرصهم على الاجتهاد فى تدبرها وتحصيل العلوم التى نيط بها استنباط ما أريد بها من الأحكام الحقة فينالوا بها ويأتعاب القرائح فى استخراج مقاصدها الرائقة ومعانيها اللاتقة المدارج العالية ويعرجوا بالتوفيق بينها وبين المحكمات من اليقين والاطمئنان إلى المعارج القاصية وأما قوله عز وجل

(١) فى ط : من بعض

(الر كتاب أحكمت آياته) فمعناه أنها حفظت من اعتراء الخلل أو من النسخ أو أيدت بالحجج القاطعة الدالة على حقيقتها أو جعلت حكيمة لانطوائها على جلائل الحكم البالغة ودقائقها وقوله تعالى كتابا متشابها مثاني معناه متشابه الأجزاء أى يشبه بعضها بعضا فى صحة المعنى وجزالة النظم وحقية المدلول .

(فأما الذين فى قلوبهم زيغ) أى ميل عن الحق إلى الأهواء الباطلة . قال الراغب الزينغ الميل عن الاستقامة إلى أحد الجانبين وفى جعل قلوبهم مقرا للزيغ مبالغة فى عدوهم عن سنن الرشاد وإصرارهم على الشر والفساد (فيتبعون ما تشابه منه) معرضين عن المحكمات أى يتعلقون بظاهر المتشابه من الكتاب أو بتأويل باطل لا تحريا للحق بعد الإيمان بكونه من عند الله تعالى بل (ابتغاء الفتنة) أى طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم بالتشكيك والتلبس ومناقضة المحكم بالمتشابه كما نقل عن الوفد (وابتغاء تأويله) أى وطلب أن يؤولوه حسبما يشتهونه من التأويلات الزائغة والحال أنهم بمعزل من تلك الرتبة وذلك قوله عز وجل (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم) فإنه حال من ضمير فيتبعون باعتبار العلة الأخيرة أى يتبعون المتشابه لابتغاء تأويله والحال أنه مخصوص به تعالى وبمن وفقه له من عباده الراسخين فى العلم أى الذين ثبتوا وتمسكوا فيه ولم يتزلزلوا فى مزال الأقدام وفى تعليل الاتباع بابتغاء تأويله دون نفس تأويله وتجريد التأويل عن الوصف بالصحة أو الحقيقة ليدان بأنهم ليسوا من التأويل فى شىء وأن ما يبتغونه ليس بتأويل أصلا لأنه تأويل غير صحيح قد يعذر صاحبه ومن وقف على إلا الله فسر المتشابه بما استأثر الله عز و علا بعلمه كمدة بقاء الدنيا ووقت قيام الساعة وخواص الأعداد كعدد الزبانية أو بما دل القاطع على عدم إرادة ظاهره ولم يدل على ما هو المراد به .

(يقولون آمنا به) أى بالمتشابه وعدم التعرض لإيمانهم بالمحكم . لظهوره أو بالكتاب والجملة على الأول استئناف موضح لحال الراسخين أو حال منه وعلى الثانى خبر لقوله تعالى والراسخون وقوله تعالى (كل من عند ربنا)

من تمام المقول مقرر لما قبله ومؤكده له أى كل واحد منه ومن المحكم أو كل واحد من متشابهه ومحكمه منزل من عنده تعالى لا مخالفة بينهما أو آمنة به وبحقيقته على مراده تعالى ﴿ وما يذكر ﴾ حق التذكر ﴿ إلا أولو الألباب ﴾ أى العقول الخاصة عن الركون إلى الأهواء الزائغة وهو تذييل سيق من جهته تعالى مدحا للراسخين بجودة الذهن وحسن النظر وإشارة إلى ما به استعدوا للاهتداء إلى تأويله من مجرد العقل عن غواشى الحس وتعلق الآية الكريمة بما قبلها من حيث أنها جواب عما تشبث به النصارى من نحو قوله تعالى (وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) على وجه الإجمال وسيجىء الجواب المفصل بقوله تعالى (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا ﴾ من تمام مقالة الراسخين أى لا تزغ قلوبنا عن نهج الحق إلى اتباع المتشابه بتأويل لا تراضيه قال صلى الله عليه وسلم « قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه على الحق وإن شاء أزاغه عنه، وقيل معناه لا تبلنا ببلايا تزيع على الظرف، وإذ في محل الجر بإضافته إليه خارج من الظرفية أى بعد وقت هدايتك إيانا وقيل لأنه بمعنى أن ﴿ وهب لنا من لدنك ﴾ كلا الجارين متعلق بهب وتقديم الأول لما مر مرارا ويجوز تعلق الثانى بمحذوف هو حال من المفعول أى كائنة من لدنك ومن لا ابتداء الغاية المجازية ولدن فى الأصل ظرف بمعنى أول غاية زمان أو مكان أو غيرهما من الذوات نحو من لدن زيد وليست مرادفة لعند إذ قد تكون فضلة وكذا لدى وبعضهم يخصصها بظرف المكان وتضاف إلى صريح الزمان كما فى قوله :

تلتفض الرعدة فى ظهيري من لدن الظهر إلى العصور

ولا تقطع عن الإضافة بحال وأكثر ما تضاف إلى المفردات وقد تضاف إلى أن وصلتها كما فى قوله :

ولم تقطع أصلا من لدن أن وليتنا قرابة ذى رحم ولا حق مسلم
أى من لدن ولايتك إيانا وقد تضاف إلى الجملة الاسمية كما فى قوله :

ه تذكر نعماء لدن أنت^(١) يافع ه

وإلى الجملة الفعلية أيضاً كما في قوله :

لزمنا لدن سالمتمونا وفاقكم فلا يك منكم للخلاف جنوح
وقلما تخلو عن من كما في البيتين الأخيرين ﴿رحمة﴾ واسعة تزلفنا
إليك ونفوز بها عندك أو توفيقاً للثبات على الحق وتأخير المفعول الصريح
عن الجارين لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر فإن ما حقه
التقديم إذا أخرج تبقى النفس مترقبة لوروده لا سيما عند الإشعار بكونه من
المنافع باللام فإذا أوردته يتمكن عندها فضل تمكن ﴿إنك أنت الوهاب﴾
تعليل للسؤال أو لإعطاء المسئول وأنت إما مبتدأ أو فصل أو تأكيد لاسم
إن وإطلاق الوهاب ليتناول كل موهوب وفيه دلالة على أن الهدى والضلال
من قبله تعالى وأنه مفضل بما ينعم به على عباده من غير أن يجب
عليه شيء . . .

﴿ربنا إنك جامع الناس ليوم﴾ أى لحساب يوم أو لجزاء يوم حذف
المضاف وأقيم مقامه المضاف إليه تهويلاً وتفظيها لما يقع فيه ﴿لأريب فيه﴾
أى في وقوعه ووقوع ما فيه من الحشر والحساب والجزاء ومقصودهم بهذا
عرض كمال افتقارهم إلى الرحمة وأنها المقصد الأسنى عندهم والتأكيد لإظهار
ما هم عليه من كمال الطمأنينة وقوة اليقين بأحوال الآخرة ﴿إن الله لا يخلف
الميعاد﴾ تعليل لمضمون الجملة المؤكدة أو لانتفاء الريب والتأكيد لما مر
وإظهار الاسم الجليل مع الالتفات لإبراز كمال التعظيم والإجلال الناشئ
من ذكر اليوم المهيب الهائل بخلاف ما في آخر السورة الكريمة فإنه مقام
طلب الإنعام كما سيأتى وللإشعار بعلّة الحكم فإن الألوهية منافية للإخلاف
وقد جوز أن تكون الجملة مسوقة من جهته تعالى لتقرير قول الراسخين
والميعاد مصدر كالمبقيات واستدل به الوعيدية وأجيب بأن وعيد الفساق مشروط

(١) في ط : أنت : خطأ .

بعدم العفو بدلائل مفصلة كما هو مشروط بعدم التوبة وفاقاً ﴿ إن الذين كفروا ﴾ إثر ما بين الدين الحق والتوحيد وذكر أحوال الكتفب الناطقة به وشرح شأن القرآن العظيم وكيفية إيمان العلماء الراسخين به شرع في بيان حال من كفر به والمراد بالموصول جنس الكفرة الشامل لجميع الأصناف وقيل وفد نجران أو اليهود من قريظة والنضير أو مشركو العرب ﴿ لن تغنى عنهم ﴾ أى لن تنفعهم وقرىء بالتذكير ويسكون الياء جداً في استئقال الحركة على حروف اللين ﴿ أمواهم ﴾ التى يبذلونها في جلب المنافع ودفع المضار ﴿ ولا أولادهم ﴾ الذين بهم يتناصرون في الأمور المهمة وعليهم يعولون في الخطوب الملمة وتأخير الأولاد عن الأموال مع توسط حرف النقي بينهما إما لعرفة الأولاد في كشف الكروب أو لأن الأموال أول عدة يفزع إليها عند نزول الخطوب ﴿ من الله ﴾ من عذابه تعالى ﴿ شيئاً ﴾ أى شيئاً من الإغناء وقيل كلمة من بمعنى البدل والمعنى بدل رحمة الله أو بدل طاعته كما في قوله تعالى (إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً) أى بدل الحق ومنه قوله ولا ينفع ذا الجد منك الجد أى لا ينفعه جده بذلك أى بدل رحمتك كما في قوله تعالى (وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقر بكم عندنا زلنى) وأنت خبير بأن احتمال سد أمواهم وأولادهم مسد رحمة الله تعالى أو طاعته بما لا يخطر ببال أحد حتى يتصدى لنفسيه والأول هو الأليق بتفطيع حال الكفرة وتهويل أمرهم والأنسب بما بعده من قوله تعالى : ﴿ وأولئك هم وقود النار ﴾ ومن قوله تعالى (فأخذهم الله) أى أولئك المنصفون بالكفر حطب النار وحصبها الذى تسعر به فإن أريد بيان حالهم عند التسعير فيأشار الجملة الاسمية للدلالة على تحقق الأمر وتقرره وإلا فهو للإيدان بأن حقيقة حالهم ذلك وأن أحوالهم الظاهرة بمنزلة العدم فهم حال كونهم في الدنيا وقود النار بأعيانهم وفيه من الدلالة على كمال ملاستهم بالنار ما لا يخفى وهم يحتمل الإبتداء وأن يكون ضمير فصل والجملة إما مستأنفة مقررة لعدم الإغناء أو معطوفة على خبر إن وأيا ما كان ففيها تعيين للعذاب الذى بين أن أمواهم وأولادهم لا تغنى عنهم منه شيئاً وقرىء وقود النار بضم الواو وهو مصدر أى أهل وقودها

﴿ كذاب آل فرعون ﴾ الدأب مصدر دأب في العمل إذا كدح فيه وتعجب غلب استعماله في معنى الشأن والحال والعادة ومحل الكاف الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف وقد جوز النصب بـن تغنى أو بالوقود أى لن تغنى عنهم كما لم تغن عن أولئك أو توقد بهم النار كما توقد بهم وأنت خير بأن المذكور في تفسير الدأب إنما هو التـكذيب والأخذ من غير تعرض لعدم الإغناء لاسيما على تقدير كون من بمعنى البذل كما هو رأى المجوز ولا لإيقاد النار فيحمل على التعليل وهو خلاف الظاهر على أنه يلزم الفصل بين العامل والمعمول بالأجنبي على تقدير النصب بأن تغنى وهو قوله تعالى (وأولئك هم وقود النار) إلا أن يجعل استئنافا معطوفا على خبر إن فالوجه هو الرفع على الخبرية أى دأب هؤلاء في الكفر وعدم النجاة من أخذ الله تعالى وعذابه كذاب آل فرعون ﴿ والذين من قبلهم ﴾ أى من قبل آل فرعون من الأمم الكافرة فالموصول في محل الجر عطفا على ما قبله وقوله تعالى ﴿ كذبوا بآياتنا ﴾ بيان وتفسير لدأبهم الذى فعلوا على طريق الاستئناف المبني على السؤال كأنه قيل كيف كان دأبهم فقيل كذبوا بآياتنا وقوله تعالى :

﴿ فأخذهم الله ﴾ تفسير لدأبهم الذى فعل بهم أى فأخذهم الله وعاقبهم ولم يحدوا من بأس الله تعالى محيضا فدأب هؤلاء الكافرة أيضا كذابهم وقيل كذبوا الخ حال من آل فرعون والذين من قبلهم على إضمار قد أى دأب هؤلاء كذاب أولئك وقد كذبوا الخ ، وأما كونه خبرا عن الموصول كما قيل فما يذهب برونق النظم الكريم والالتفات إلى التـكلم أولا للجرى على سنن الكبرياء وإلى الغيبة ثانيا بإظهار الجلالة لتزيية المهابة وإدخال الروعة ﴿ بذنوبهم ﴾ إن أريد بها تكذيبهم بالآيات فالباء للسببية جىء بها تـأكيدا لما تفيد الفاء من سببية ما قبلها لما بعدها وإن أريد بها سائر ذنوبهم فالباء للملابسة جىء بها للدلالة على أن لهم ذنوبا أخرى أى فأخذهم ملتبسين بذنوبهم غير تائبين عنها كما في قوله تعالى (وتزهق أنفسهم وهم كافرون) والذنب في الأصل التلو والتابع وسمى الجريمة ذنبا لأنها تلو أى يتبع عقابها فاعلها ﴿ والله شديد

العقاب ﴿ تذييل مقرر لمضمون ما قبله من الأخذ وتكملة له ﴾ قل للذين كفروا ﴿ المراد بهم اليهود لما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن يهود المدينة لما شاهدوا غلبة رسول الله صلى الله عليه وسلم على المشركين يوم بدر قالوا والله إنه النبي الأعمى الذى بشرنا به موسى وفى التوراة نعمته وهموا باتباعه فقال بعضهم لا تعجلوا حتى تنظر إلى وقعة له أخرى فلما كان يوم أحد شكوا وقد كان بينهم وبين رسول الله عهد إلى مدة فنقضوه وانطلق كعب بن الأشرف فى ستين راكبا إلى أهل مكة فأجمعوا أمرهم على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت وعن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهم أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أصاب قريشا بدر ورجع إلى المدينة جمع اليهود فى سوق بنى قينقاع فحذرهم أن ينزل بهم ما نزل بقريش فقالوا لا يغرنك أنك لقيت قوما أغمارا لا علم لهم بالحرب فأصابت منهم فرصة لئن قاتلتنا لعلمت أننا نحن الناس فنزلت أى قل لهم :

﴿ ستغلبون ﴾ البتة عن قريب فى الدنيا وقد صدق الله عز وجل وعده بقتل بنى قريظة وإجلاء بنى النضير وفتح خمير وضرب الجزية على من عداهم وهو من أوضح شواهد النبوة ؛ وأما ما روى عن مقاتل من أنها نزلت قبل بدر وأن الموصول عبارة عن مشركى مكة ولذلك قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر إن الله غالبكم وحاشركم إلى جهنم وبئس المهاد فيؤدى إلى انقطاع الآية الكريمة عما بعدها لنزوله بعد وقعة بدر ﴿ وتحشرون ﴾ أى فى الآخرة ﴿ إلى جهنم ﴾ وقرىء الفعلان بالياء على أنه عليه السلام أمر بأن يحكى لهم ما أخبر الله تعالى به من وعيدهم بعبادته كأنه قيل أد إليهم هذا القول ﴿ وبئس المهاد ﴾ إما من تمام ما يقال لهم أو استئناف لتحويل جهنم وتنظييع حال أهلها والخصوص بالذم محذوف أى وبئس المهاد جهنم أو ما مهدوه لأنفسهم ﴿ قد كان لكم ﴾ جواب قسم محذوف وهو من تمام القول المسأور به جرىء به لتقرير مضمون ما قبله وتحقيقه والخطاب لليهود أيضا والظروف خبر كان على أنها ناقصة وتوسطه بينها وبين اسمها ترك التانيث كما فى قوله :

إن امرأ غره منكن واحدة بعدى وبعك في الدنيا لمغرور
 على أن التأنيث ههنا غير حقيقى أو هو متعلق بكان على أنها تامة وإنما قدم
 على فاعلها لما مر مرارا من الاعتناء بما قدم والتشويق إلى ما آخر أى والله قد
 كان لكم أيها المغترون بعددكم وعددهم ﴿ آية ﴾ عظيمة دالة على صدق
 ما أقول لكم إنكم ستغلبون ﴿ في فئتين ﴾ أى فرقتين أو جماعتين فإن المغلوبة
 منهما كانت مدلة بكثرتها معجبة بعزتها وقد لقيها ما لقيها فسيصيديكم ما يصيبكم
 ومحل الظرف الرفع على أنه صفة لآية وقيل النصب على خبرية كان والظرف
 الأول متعلق بمحذوف من آية ﴿ التقتا ﴾ في حيز الجر على أنه صفة فئتين أى
 تلاقيا بالقتال يوم بدر ﴿ فئة ﴾ بالرفع خبر مبتدأ محذوف أى أحدهما فئة
 كما في قوله :

إذا مت كان الناس حزبين شامت وآخر مثن بالذى كنت أصنع
 أى أحدهما شامت والآخر مثن وقوله :

حتى إذا ما استقل النجم في غلس وغودر البقل ملوى ومحصود
 والجملة مع ما عطف عليها مستأنفة لتقرير ما في الفئتين من الآية وقوله
 تعالى : ﴿ تقاتل في سبيل الله ﴾ في محل الرفع على أنه صفة فئة كأنه قيل فئة
 مؤمنة ولكن ذكر مكانه من أحكام الإيمان ما يليق بالمقام مدحاً لهم واعتداداً
 بقتالهم وإيداناً بأنه المدار في تحقق الآية وهى رؤية القليل كثيراً وقرىء يقاتل
 على تأويل الصفة بالقوم أو الفريق ﴿ كفرة ﴾ خبر المبتدأ المحذوف وإنما لم
 توصف هذه الفئة بما يقابل صفة الفئة الأولى إسقاطاً لقتالهم عن درجة
 الاعتبار وإيداناً بأنهم لم يتصدوا للقتال لما اعتراهم من الرعب والهزيمة وقيل كل
 من المتعاطفين بدل من الضمير في التقتا وما بعدهما صفة فلا بد من ضمير محذوف
 عائد إلى المبدل منه مسوغ لوصف البدل بالجملة العارضة عن ضميره أى فئة منهما
 تقاتل الخ وفئة أخرى كفرة^(١) ويجوز أن يكون كل منهما مبتدأ وما بعدهما

(١) كررت هذه العبارة في ط بعد قوله وما بعدهما خبراً .

خبراً ، وقيل كل منهما مبتدأ محذوف الخبر أى منهما فئة تقاثل الخ وقرىء
فئة بالجر على البدلية من فئتين بدل بعض من كل وقد مر أنه لا بد من ضمير
عائد إلى المبدل منه ويسمى بدلاً تفصيلاً كما في قول كثير عزة :

وكنت كذى رجلين رجل صحيحة ورجل رمى فيها الزمان فشلت
وقرىء فئة الخ بالنصب على المدح أو على الحالية من ضمير التقتا كأنه قيل
التقتا مؤمنة وكافرة فيكون فئة وأخرى توطئة لما هو الحال حقيقة إذ
المقصود بالذكر وصفاً هما كما في قولك جاءنى زيد رجلاً صالحاً .

(يرونهم) أى يرى الفئة الأخيرة الفئة الأولى وإيثار صيغة الجمع
للدلالة على شمول الرؤية لكل واحد واحد من آحاد الفئة والجملة في محل
الرفع على أنها صفة للفئة الأخيرة أو مستأنفة مبينة لكيفية الآية (مثلهم) أى
مثلى عدد الرائيين ألفين إذا كانوا قريباً من ألف . كانوا تسعمائة وخمسين مقاتلاً
رأسهم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وفيهم أبو سفيان وأبو جهل وكان فيهم من الخيل
والإبل مائة فرس وسبعمائة بعير ومن أصناف الأسلحة عدد لا يحصى ، عن
محمد بن أبي القرات عن سعد بن أوس أنه قال أسر المشركون رجلاً من المسلمين
فسألوه كم كنتم قال ثلثمائة وبضعة عشر قالوا ما كنا نراكم إلا تضعفون علينا
أو مثلى عدد المرثيين أى ستمائة ونيفاً وعشرين حيث كانوا ثلثمائة وثلثة عشر
رجلاً سبعة وسبعون رجلاً من المهاجرين ومائتان وستة وثلاثون من الأنصار
رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وكان صاحب راية رسول الله صلى الله عليه
وسلم والمهاجرين على بن أبي طالب رضى الله عنه وصاحب راية الأنصار
سعد بن عباد الخزرجى وكان فى العسكر تسعون بعيراً وفرسان أحدهما
للبقداد بن عمرو والآخر لمرثد بن أبى مرثد وست أدرح وثمانية سيوف
وجميع من استشهد يومئذ من المسلمين أربعة عشر رجلاً ستة من المهاجرين
وثمانية من الأنصار رضوان الله تعالى عليهم أجمعين أراهم الله عز وجل كذلك
مع قتلهم ليها بؤهم ويحببوا عن قتلهم مددا لهم منه سبحانه كما أمدهم بالإنكة

عليهم السلام وكان ذلك عند التقاء الفئتين بعد أن قال لهم في أعينهم عند ترائيها ليجترئوا عليهم ولا يهربوا من أول الأمر حين ينجيهم الحرب وقيل يرى الفئة الأولى الفئة الأخيرة مثل أنفسهم مع كونهم ثلاثة أمثالهم ليثبتوا ويطمئنوا بالنصر الموعود في قوله تعالى (فإن يكون منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين) والأول هو الأول لأن رؤية المثليين غير متعينة من جانب المؤمنين بل قد وقعت رؤية المثل بل أقل منه أيضا فإنه روى أن ابن مسعود رضى الله عنه قال قد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا ثم نظرنا إليهم فرأيناهم يزيدون علينا رجلا واحدا ثم قال لهم الله تعالى أيضا في أعينهم حتى رأوهم عددا يسيرا أقل من أنفسهم .

قال ابن مسعود رضى الله عنه لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جتبي تراهم سبعين قال أراهم مائة فأسرنا منهم رجلا فقلنا كم كنتم قال ألفا فلو أريد رؤية المؤمنين المشركين أقل من عددهم في نفس الأمر كما في سورة الأنفال لسكانت رؤيتهم إياهم أقل من أنفسهم أحق بالذكر في كونهم آية من رؤيتهم مثلهم على أن إبانة آثار قدرة الله تعالى وحكمته للكفرة بإراءتهم القليل كثيرا والضعيف قويا وإلقاء الرعب في قلوبهم بسبب ذلك أدخل في كونها آية لهم وحجة عليهم وأقرب إلى اعتراف المخاطبين بذلك لكثرة مخالطتهم الكفرة المشاهدين للحال وكذا تعلق الفعل بالفاعل أشد من تعلقه بالمفعول فجعل أقرب المذكورين السابقين فاعلا وأبعدهما مفعولا سواء جعل الجملة صفة، أو مستأنفة أولى من العكس هذا ما تقضيه جزالة التنزيل على قراءة لجمهور ولا ينبغي جعل الخطاب لمشركي مكة كما قيل أما إن جعل الوعيد عبارة عن هزيمة بدر كما صرحوا به فظاهر لا خفاء فيه وأما إن جعل عبارة عن هزيمة أخرى فلأن الفئة التي شاهدت تلك الآية الهائلة هم المخاطبون حينئذ والتعبير عنهم بفئة مبهمه تارة وموصوفة أخرى ثم إسناد المشاهدة إليها مع كون إسنادها إلى المخاطبين أوقع في إلزام الحجة وأدخل في التبكيت بما لا داعى إليه وبهذا يتبين سر جعل الخطاب الثانى للمؤمنين ، وأما قراءة ترونها بناء

الخطاب فظاهرها وإن اقتضى توجيه الخطاب الثاني إلى المشركين لكنه ليس بنص في ذلك لأنه وإن اندفع به المحذور الأخير فالأول باق بحاله فلعل رؤية المشركين نزلت منزلة رؤية اليهود لما بينهم من الاتحاد في الكفر والاتفاق في الكلمة لا سيما بعد ما وقع بينهم بواسطة كعب بن الأشرف من العهد والميثاق فأسندت الرؤية إليهم مبالغة في البيان وتحقيقاً لعروض مثل تلك الحالة لهم فتدبر وقيل المراد جميع الكفرة ولأريب في صحته وسداده وقرىء يرونهم وترونهم على البناء للمفعول من الإراماة أى يريهم أو يريكم الله تعالى كذلك ﴿ رأى العين ﴾ مصدر مؤكد ليرونهم إن كانت الرؤية بصرية أو مصدر تشبهي إن كانت قلبية أى رؤية ظاهرة مكشوفة جارية مجرى رؤية العين ﴿ والله يؤيد ﴾ أى يقوى ﴿ بنصره من يشاء ﴾ أى يؤيده من غير توسط الأسباب العادية كما أيد الفئة المقاتلة في سبيله بما ذكر من النصر وهو تمام القول المسأور به ﴿ إن في ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من رؤية القليل كثيراً المستتعبة لغلبة القليل العديم العدة على الكثير الشاكي السلاح وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلة المشار إليه في الفضل ﴿ لعبرة ﴾ العبرة فعلة من العبور كالركبة من الركوب والجلسة من الجلوس والمراد بها الاتعاض فإنه نوع من العبور أى لعبرة عظيمه كائنة ﴿ لأولى الأبصار ﴾ لذوى العقول والبصائر وقيل لمن أبصرهم وهو إما من تمام الكلام الداخل تحت القول مقرر لما قبله بطريق التذييل وإما وارد من جهته تعالى تصديقا لمقاتته عليه الصلاة والسلام .

﴿ زين للناس ﴾ كلام مستأنف سيق لبيان حقارة شأن الحظوظ الدنيوية بأصنافها وتزهيد للناس فيها وتوجيه لرغباتهم^(١) إلى ما عنده تعالى لإثربيان عدم نفعها للكفرة الذين كانوا يتعززون بها والمراد بالناس الجنس ﴿ حب الشهوات ﴾ الشهوة نزوع النفس إلى ما تريده والمراد ههنا المشتهيات عبر عنها بالشهوات مبالغة كونها مشتهاة مرغوبا فيها كأنها نفس الشهوات

(١) في ط : رغباتهم

أو إيدانا بانهما كهم في حبها بحيث أحبوا شهواتها كما في قوله تعالى (إني أحببت حب الخير) أو استرذالا لها فإن الشهوة مسترذلة مذمومة من صفات البهائم والمزين هو البارى سبحانه وتعالى إذ هو الخالق لجميع الأفعال والدواعى والحكمة في ذلك ابتلاؤهم ، قال تعالى (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم) الآية فإنها ذريعة لنيل سعادة الدارين عند كون تغاطبها على نهج الشريعة الشريفة ووسيلة إلى بقاء النوع وإيثار صيغته المبني للفعول للجري على سنن الكبرياء وقرىء على البناء للفاعل وقيل المزين هو الشيطان لما أن مساق الآية الكريمة على ذمها وفرق الجبائى بين المباحات فأستند تزيينها إليه تعالى وبين المحرمات فنسب تزيينها إلى الشيطان ﴿ من النساء والبنين ﴾ في محل النصب على أنه حال من الشهوات وهى مفسرة لها في المعنى وقيل من لبيان الجنس وتقديم النساء على البنين لعراقتهم في معنى الشهوة فإنهن حبات الشيطان وعدم التعرض للبنات لعدم الاطراد في حبهن ﴿ والقناطر المقنطرة ﴾ جمع قنطار وهو المال الكثير وقيل مائة ألف دينار وقيل ملء مسك ثور وقيل سبعون ألفا وقيل أربعون ألف مثقال وقيل ثمانون ألفا وقيل مائة رطل وقيل ألف ومائتا مثقال وقيل ألف دينار وقيل مائة من ومائة رطل ومائة مثقال ومائة درهم وقيل : دية النفس واختلف في أن وزنه فعال أو فعال ، ولفظ المقنطرة مأخوذ منه للتأكيد كقولهم بدرة مبدرة ، وقيل : المقنطرة المحكمة المحصنة ، وقيل : الكثرة المنضدة بعضها على بعض أو المدفونة المضروبة المنقوشة .

﴿ من الذهب والفضة ﴾ بيان للقناطر أو حال ﴿ والخيل ﴾ عطف على القناطر قيل هى جمع لا واحد له من لفظه كالقوم والرهط والواحد فرس وقيل واحده خائل وهو مشتق من الخيلاء ﴿ المسومة ﴾ أى المعلمة من السمّة^(١) وهى العلامة أو المرعية من أسام الدابة وسومها إذا أرسلها وسببها

(١) فى ط : الوسمة

للرعى أو المطهمة النامة الخلق ﴿ والأنعام ﴾ أى الإبل والبقر والغنم
 ﴿ والحراث ﴾ أى الزرع مصدر بمعنى المفعول .
 ﴿ ذلك ﴾ أى ما ذكر من الأشياء المعهودة ﴿ متاع الحياة الدنيا ﴾ أى
 ما يتمتع به فى الحياة الدنيا أياما قلائل فتفتنى سريعا ﴿ والله عنده حسن المآب ﴾
 حسن المرجع وفيه دلالة على أن ليس فيما عدد عاقبة حميدة وفى تكرير
 الإسناد يجعل الجلالة مبتدأ وإسناد الجملة الظرفية إليه زيادة تأكيد وتفخيم
 ومزيد اعتناء بالترغيب فيما عند الله عز وجل من النعيم المقيم والتزهيد فى
 ملاذ الدنيا وطيباتها الفانية .

﴿ قل أو نبئكم بخير من ذلكم ﴾ لئلا ما بين شأن مخرفات الدنيا وذكر
 ما عنده تعالى من حسن المآب إجمالا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتفصيل
 ذلك المجمل للناس مبالغة فى الترغيب والخطاب للجميع والهمزة للتقرير أى
 أخبركم بما هو خير مما فصل من تلك المستلذات المزينة لكم وإيهام الخبر
 لتفخيم شأنه والتشويق إليه وقوله تعالى ﴿ للذين اتقوا عند ربهم جنات ﴾
 استئناف مبين لذلك المهم على أن جنات مبتدأ والجار والمجرور خبر أو على
 أن جنات مرتفع به على الفاعلية عند من لا يشترط فى ذلك اعتماد الجار على
 ما فصل فى محله والمراد بالتقوى هو التبتل إلى الله تعالى والإعراض عما سواه
 على ما تنبىء عنه النعوت الآتية وتعليق حصول الجنات وما بعدها من فنون
 الخيرات به للترغيب فى تحصيله والثبات عليه وعند نصب على الحالية من جنات
 أو متعلق بما تعلق به الجار والمجرور^(١) من معنى الاستقرار مفيد لكمال
 علو رتبة الجنات وسمو طبقتها والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى
 ضمير المتقين لإظهار مزيد اللطف بهم وقيل اللام متعلقة بخير وكذا الظرف
 بوجنات خبر لمبتدأ محذوف والجملة مبينة لخبر ويؤيده قراءة جنات بالجر على
 البدلية من خير ولا يخفى أن تعليق الإخبار والبيان بما هو خير لطائفة ربما

(١) سقط : من ط

يوم أن هناك خيراً آخر لآخرين ﴿تجرى﴾ في محل الرفع والجر صفة الجنات على حسب القراءتين ﴿من تحتها الأنهار﴾ متعلق بتجرى فإن أريد بالجنات نفس الأشجار كما هو الظاهر فجر بانها من تحتها ظاهر وإن أريد بها مجموع الأرض والأشجار فهو باعتبار جزئها الظاهر كما مر تفصيله مراراً: ﴿خالدين فيها﴾ حال مقدر من المستكن في للذين والعامل ما فيه من معنى الاستقرار ﴿وأزواج مطهرة﴾ عطف على جنات أى مبرأة مما يستقذر من النساء من الأحوال البدنية والطبيعية ﴿ورضوان﴾ النون للتفخيم وقوله تعالى ﴿من الله﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة له مؤكدة لما أفاده النون من التخمات أى رضوان وأى رضوان لا يقادر قدره كائن من الله عز وجل. وقرىء بضم الراء ﴿والله بصير بالعباد﴾ وبأعمالهم فيثيب ويعاقب حسبها يليق بها أو بصير بأحوال الذين اتقوا ولذلك أعد لهم ما ذكر وفيه إشعار بأنهم المستحقون بالتسمية باسم العبد .

﴿الذين يقولون ربنا إننا آمننا﴾ في محل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف كأنه قيل من أولئك المتقون الفائزون بهذه الكرامات السنية فقيل هم الذين الخ أو النصب على المدح أو الجر على أنه تابع للمتقين نعمتاً أو بدلاً أو للعباد كذلك والأولى أظهر وقوله تعالى (والله بصير بالعباد) حينئذ معترضة. وتأكيد الجملة لإظهار أن إيمانهم ناشئ من وفور الرغبة وكال النشاط وفي ترتيب الدعاء بقولهم ﴿فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار﴾ على مجرد الإيمان. دلالة على كفايته في استحقاق المغفرة والوقاية من النار ﴿الصابرين﴾ هو على تقدير كون الموصول في محل الرفع منصوب على المدح بإضمار أعنى. وأما على تقدير كونه في محل النصب أو الجر فهو نعمت له والمراد بالصبر هو الصبر على مشاق الطاعات وعلى البأساء والضراء وحين البأس ﴿والصادقين﴾ في أقوالهم ونياتهم وعزائمهم ﴿والقانتين﴾ المداومين على الطاعات الموابطين على العبادات ﴿والمنفقين﴾ أموالهم في سبيل الله تعالى ﴿والمتخفين بالأسحار﴾

قال مجاهد وقتادة والسكبي هم المصلون^(١) بالأسحار وعن زيد بن أسلم هم الذين يصلون الصبح في جماعة وقال الحسن مدوا الصلاة إلى السحر ثم استغفروا. وقال نافع كان ابن عمر رضى الله عنه يحكي الليلة ثم يقول^(٢) يا نافع أسحرنا؟ فأقول لا فيعاود الصلاة فإذا قلت نعم قعد يستغفر الله ويدعو حتى يصبح وعن الحسن كانوا يصلون في أول الليل حتى إذا كان السحر أخذوا في الدعاء والاستغفار وتخصيص الأسحار بالاستغفار لأن الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة إذ العبادة حينئذ أسبق والنفوس أصفى والروح أجمع لاسيما للمتهجدين وتوسيط الواو بين الصفات المعدودة للدلالة على استقلال كل منها وكالمهم فيها أو لتغاير الموصوفين بها ﴿شهد الله أنه﴾ بفتح الهمزة أى بأنه أو على أنه ﴿لا إله إلا هو﴾ أى بين وحدانيته بنصب الدلائل التكوينية فى الآفاق والأنفس وإنزال الآيات التشريعية الناطقة بذلك عبر عنه بالشهادة على طريقة الاستعارة إيذانا بقوة فى إثبات المطلوب وإشعارا بإنكار المنكر وقرىء لأنه بكسر الهمزة إما بإجراء شهد مجرى قال وإما بجعل الجملة اعتراضا وإيقاع الفعل على قوله تعالى إن الدين الخ على قراءة أن بفتح الهمزة كما سيأتى وقرىء شهداء لله بالنصب على أنه حال من المذكورين أو على المدح وبالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ومآله الرفع على المدح أى هم شهداء لله وهو إما جمع شهيد كظرفاء فى جمع ظرف أو جمع شاهد كشعراء فى جمع شاعر .

﴿والملائكة﴾ عطف على الاسم الجليل بحمل الشهادة على معنى مجازى شامل للإقرار والإيمان بطريق عموم المجاز أى أقروا بذلك ﴿وأولوا العلم﴾ أى آمنوا به واحتجوا عليه بما ذكر من الأدلة التكوينية والتشريعة قيل المراد بهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وقيل المهاجرون والأنصار وقيل علماء مؤمنى أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه وقيل جميع علماء المؤمنين الذين عرفوا وحدانيته تعالى بالدلائل القاطعة وارتفاعها على القراءتين

(١) فى ط : أى المصلين

(٢) فى ط : قال .

الأخيراتين قيل بالعطف على الضمير في شهداء لوقوع الفصل بينهما وأنت خير
 بأن ذلك على قراءة النصب على الحالية يؤدي إلى تقييد حال المذكورين بشهادة
 الملائكة وأولى العلم وليس فيه كثير فائدة فالوجه حينئذ كون ارتفاعهما
 بالابتداء والخبر محذوف لدلالة الكلام عليه أي والملائكة وأولو العلم شهداء
 ولك أن تحمل القراءتين على المدح نصبا ورفعا فيثبت يحسن العطف على المستتر
 على كل حال وقوله تعالى ﴿ قائما بالقسط ﴾ أي مقيما للعدل في جميع أمور
 بيان لكماله تعالى في أفعاله إثر بيان كماله في ذاته وانتصابه على الحالية من
 الله كما في قوله تعالى (وهو الحق مصدقا) وإنما جاز إفراده مع عدم جواز جاء
 زيد وعمرو راكبا لعدم اللبس كقوله تعالى (وهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة)
 ولعل تأخيره عن المعطوفين للدلالة على علو رتبتهما وقرب منزلتهما والمسارعة
 إلى إقامة شهود التوحيد اعتناء بشأنه ورفعا لمحله والسر في تقديمه على المعطوفين
 مع ما فيه من الإيذان بأصالته تعالى في الشهادة به كما مر في قوله تعالى (آمن
 الرسول بما أنزل إليه من ربه) أو من هو وهو الأوجه والعامل فيها معنى الجملة
 أي تفرد أو أحقه لأنها حال مؤكدة أو على المدح وقبل على أنه صفة للمنفق
 أي لا إله قائما الخ والفصل بينهما من قبيل توسعاتهم وهو مندرج في المشهود
 به إذا جعل صفة أو حالا من الضمير أو نصبا على المدح منه وقرىء القائم
 بالقسط على البدلية من هو فيلزم الفصل بينهما كما في الصفة أو على أنه خبر
 لمبتدأ محذوف وقرىء قيسا بالقسط .

﴿ لا إله إلا هو ﴾ تكرير للتأكيد ومزيد الاعتناء بمعرفة أدلة التوحيد
 والحكم به بعد إقامة الحجة وليجري عليه قوله تعالى : ﴿ العزيز الحكيم ﴾
 فيعلم أنه المنعوت بهما ووجه الترتيب إذن (١) تقدم العلم بقدرته على العلم بحكمته
 تعالى ورفعهما على البدلية من الضمير أو الوصفية لفاعل شهد أو الخبرية لمبتدأ
 مضمرة وقد روى في فضلها أنه عليه السلام قال « يجاء بصاحبها يوم القيامة

(١) سقط من ط .

فيقول الله عز وجل إن لعبدى هذا عندي عهدا وأنا أحق من وفي بالعهد أدخلوا عبدى الجنة ، وهو دليل على فضل علم أصول الدين وشرف أهله وروى عن سعيد بن جبير أنه كان حول البيت ثلثمائة وستون صنما فلما نزلت هذه الآية الكريمة خررن سجدا وقيل نزلت في نصارى نجران وقال السكبي قدم على النبي صلى الله عليه وسلم حبران من أحبار الشام فلما أبصرا المدينة قال أحدهما ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان فلما دخلا عليه عليه السلام عرفاه بصفته فقالا له عليه السلام أنت محمد قال صلى الله عليه وسلم نعم قالوا وأنت أحمد قال عليه السلام أنا محمد وأحمد قالوا فإننا نسألك عن شيء فإن أخبرتنا به آمنا بك وصدقناك قال عليه السلام سلا فقال أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله عز وجل فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة فأسلم الرجلان ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ جملة مستأنفة مؤكدة للأولى أى لا دين مرضيا لله تعالى سوى الإسلام الذى هو التوحيد والتدرع بالشرعية الشريفة وعن قتادة أنه شهادة أن لا إله إلا الله والإقرار بما جاء من عند الله تعالى وقرىء إن الدين عند الله الإسلام وقرىء أن الدين الخ على أنه بدل الكل إن فسر الإسلام بالإيمان أو بما يتضمنه وبدل الاشتغال إن فسر بالشرعية أو على أن شهد واقع عليه تقدير قراءة لأنه بالسكسر كما أشير إليه ﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب ﴾ نزلت في اليهود والنصارى حين تركوا الإسلام الذى جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وأنكروا نبوته والتعبير عنهم بالموصول وجعل إيتاء الكتاب صلة لزيادة تقييح حالهم فإن الاختلاف من أوتى (١) ما يزيله ويقطع شأفته في غاية القبح والسماجة وقوله تعالى : ﴿ إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أو أعم الأوقات أى وما اختلفوا في حال من الأحوال أو في وقت من الأوقات إلا بعد أن علموا بأنه الحق الذى لا يحيد عنه أو بعد أن علموا حقيقة الأمر وتمسكوا من العلم بها بالحجج النبوية

(١) في ١١ : عرف .

والآيات الباهرة وفيه من الدلالة على تراخي حالهم في الضلالة ما لا يزيد عليه فإن الاختلاف بعد حصول تلك المرتبة بما لا يصدر عن العاقل وقوله تعالى : ﴿ بغياً بينهم ﴾ أى حسداً كأنما بينهم وطلباً للرياسة لا لشبهة وخفاء فى الأمر تشنيع لإثر تشنيع .

﴿ ومن يكفر بآيات الله ﴾ أى بآياته الناطقة بما ذكر من أن الدين عند الله تعالى هو الإسلام ولم يعمل بمقتضاها أو بأية آية كانت من آياته تعالى فإنه على أن يدخل فيها ما نحن فيه دخولا أوليا ﴿ فإن الله سريع الحساب ﴾ قائم مقام جواب الشرط علة له أى ومن يكفر بآياته فإنه يجازيه ويعاقبه عن قريب فإنه سريع الحساب أى يأتى حسابه عن قريب أو يتم ذلك بسرعة وإظهار الجلالة لترية المهابة وإدخال الروعة وفى ترتيب العقاب على مطلق الكفر بآياته تعالى من غير تعرض لخصوصية حالهم من كون كفرهم بعد إيتاء الكتاب وحصول الاطلاع على ما فيه وكون ذلك للبعى دلالة على كمال شدة عقابهم ﴿ فإن حاجوك ﴾ أى فى كون الدين عند الله الإسلام أو جادلوك فيه بعد ما أقمت عليهم الحجج ﴿ فقل أسلمت وجهى ﴾ أى أخلصت نفسى وقلبى وجماعى وإنما عبر عنها بالوجه لأنه أشرف الأعضاء الظاهرة ومظهر القوى والمشاعر وجمع معظم ما تقع به العبادة من السجود والقراءة وبه يحصل التوجه إلى كل شىء ﴿ لله ﴾ لا أشرك به فيها غيره وهو الدين القويم الذى قامت عليه الحجج ودعت إليه الآيات والرسل عليهم السلام ﴿ ومن اتبعن ﴾ عطف على المتصل فى أسلمت وحسن ذلك لمكان الفصل الجارى مجرى التأكيد بالمنفصل أى وأسلم من اتبعنى أو مفعول معه ﴿ وقل للذين أتوا الكتاب ﴾ أى من اليهود والنصارى وضع الموصول موضع الضمير لرعاية التقابل بين وصفى المتعاطفين ﴿ والأمين ﴾ أى الذين لا كتاب لهم من مشركى العرب ﴿ أسلمتم ﴾ متبعين لى كما فعل المؤمنون فإنه قد أتاكم من البينات ما يوجبها ويقتضيه لا محالة فهل أسلمتم وعلمتم بمقتضاها (١) أو أنتم على كفركم بعد كما يقول من لخص لصاحبه

(١) فى ط : بقضيتها .

المسألة ولم يدع من طرق التوضيح والبيان مسلكاً إلا سلكه فهل فهمتها على
على منهاج قوله تعالى (فهل أنتم منتهون) لآثر تفصيل الصوارف عن تعاطي الخمر
والميسر وفيه من استقصارهم وتعبيرهم بالمعاندة وقلة الإنصاف وتوبيخهم
بالبلادة وكلة القريحة ما لا يخفى .

(فإن أسلبوا) أى كما أسلمتم وإنما لم يصرح به كما فى قوله تعالى (فإن
آمنوا بمثل ما آمنتم به) حسباً لباب إطلاق اسم الإسلام على شىء آخر بالسكنية
(فقد اهتدوا) أى فازوا بالخط الأوفر ونجوا عن مهاوى الضلال
(وإن تولوا) أى أعرضوا عن الاتباع وقبول الإسلام (فإنما عليك
البلاغ) قائم مقام الجواب أى لم يعنرك شيئاً إذ ما عليك إلا البلاغ وقد
فعلت على أبلغ وجه ، روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه
الآية على أهل الكتاب قالوا أسلمنا فقال عليه السلام لليهود أتشهدون أن
عيسى كلمة الله وعبدته ورسوله فقالوا معاذ الله قال عليه الصلاة والسلام للنصارى
أتشهدون أن عيسى عبد الله ورسوله فقالوا معاذ الله أن يكون عيسى عبداً وذلك
قوله عز وجل (وإن تولوا) والله بصير بالعباد) عالم بجميع أحوالهم وهو
تذييل فيه وعد ووعد .

(إن الذين يكفرون بآيات الله) أى آية كانت فيدخل فيهم الكافرون
بالآيات الناطقة بحقية الإسلام على الوجه الذى مر تفصيله دخولا أولياً
(ويقتلون النبيين بغير حق) هم أهل الكتاب قتل أولوهم الأنبياء عليهم
السلام وقتلوا أتباعهم وهم راضون بما فعلوا وكانوا قاتلهم الله تعالى حائمين
حول قتل النبي صلى الله عليه وسلم لولا أن عصم الله تعالى ساحته المنيعه وقد
أشير إليه بصيغة الاستقبال وقرىء بالتشديد للتكثير والتقييد بغير حق
للإيذان بأنه كان عندهم أيضاً بغير حق (ويقتلون الذين يأمرون بالقسط
من الناس) أى بالعدل ولعل تكرير الفعل للإشعار بما بين القتلين من
التفاوت أو باختلافهما فى الوقت ، عن أنى عبيدة بن الجراح قلت يا رسول الله
أبى الناس أشد عذاباً يوم القيامة قال رجل قتل نبياً أو رجلاً أمر معروف

ونهى عن منكر ثم قرأها ثم قال يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا من أول النهار في ساعة واحدة فقام مائة واثنا عشر رجلا من عباد بنى إسرائيل فأمرؤا قتلهم بالمعروف ونهوه عن المنكر فقتلوا جميعا من آخر النهار وقرىء ويقاتلون الذين ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ خبر إن والفاء انتضمن اسمها معنى الشرط فإنها بالنسخ لا تغير معنى الابتداء بل تزيده تأكيدا وكذا الحال فى النسخ بأن المفتوحة كما فى قوله تعالى (واعلموا أنما غنمتم من شىء فإن لله خمسته) وكذا النسخ لكن كما فى قوله :

فوالله ما فارقتكم عن ملالة ولكن ما يقضى فسوف يكون

ولإنما يتغير معنى الابتداء فى النسخ بليت ولعل وقد ذهب سيبويه والأخفش إلى منع دخول الفاء عند النسخ مطلقا فالخبر عندهما قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة ﴾ كما فى قولك الشيطان فأحذر عدو مبين وعلى الأول هو استئناف واسم الإشارة مبتدأ وما فيه من معنى البعد للدلالة على ترمى أمرهم فى الضلال وبعد منزلتهم فى فظاعة الحال والموصول بما فى حيز صلته خبره أى أولئك المتصفون بتلك الصفات القبيحة أو المبتلون بأسوأ الحال الذين بطلت أعمالهم التى عملوها من البر والحسنات ولم يبق لها أثر فى الدارين بل بقى لهم اللعنة والخزى فى الدنيا وعذاب أليم فى الآخرة ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ ينصرونهم من بأس الله وعذابه فى إحدى الدارين وصيغة الجميع لرعاية ما وقع فى مقابلته لا لنعنى تعدد الأنصار من كل واحد منهم كما فى قوله تعالى (وما للظالمين من أنصار) .

﴿ ألم تر ﴾ تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لـكل من يتأتى منه الرؤية من طال أهل للكتابة وسوء صنيعهم وتقرير لما سبق من أن اختلافهم فى الإسلام إنما كان بعد ما جاءهم العلم بحقيقته أى ألم تنظر ﴿ إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب ﴾ أى التوراة على أن اللام للعهد وحمله على جنس الكتاب الإلهية تطويل للمسافة إذ تمام التقريب حينئذ يكون التوراة من جملتها لأن مدار التشنيع والتعجيب إنما هو إعراضهم عن المحاكمة إلى مادعوا

إليه وهم لم يدعوا إلا إلى التوراة والمراد بما أتوه منها ما بين لهم فيها من العلوم والأحكام التي من جملتها ما علموه من نعمات النبي صلى الله عليه وسلم وحقيقة الإسلام والتعبير عنه بالنصيب للإشعار بكمال اختصاصه بهم وكونه حقا من حقوقهم التي يجب مراعاتها والعمل بموجبها وما فيه من التنكير للتفخيم وحمله على التحقير لا يساعده مقام المبالغة في تقييح حالهم ﴿ يدعون إلى كتاب الله ﴾ الذي أتوا نصيبا منه وهو التوراة والإظهار في مقام الإضمار لإيجاب الإجابة وإضافته إلى الاسم الجليل لتشريفه وتأكيده وجوب المراجعة إليه والجملة استئناف مبين لمحل التعجب مبني على سؤال نشأ من صدر الكلام كأنه قيل ماذا يصنعون حتى ينظر إليهم فقيل يدعون إلى كتاب الله تعالى وقيل حال من الموصول ﴿ ليحكم بينهم ﴾ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل مدارسهم فدعاهم إلى الإيمان فقال له نعيم بن عمرو والحريث بن زيد على أي دين أنت قال عليه الصلاة والسلام على ملة إبراهيم قالوا إن إبراهيم كان يهوديا فقال صلى الله عليه وسلم لهما إن بيننا وبينكم التوراة فلبسوا إليها فأبيا وقيل نزلت في الرجم وقد اختلفوا فيه وقيل كتاب الله القرآن فإنهم قد علموا أنه كتاب الله ولم يشكوا فيه وقرىء ليحكم على بناء المجهول فيسكون الاختلاف بينهم بأن أسلم بعضهم كعبد الله بن سلام وأضرابه وعاداهم الآخرون ﴿ ثم يتولى فريق منهم ﴾ استبعاد لتوليهم بعد علمهم بوجوب الرجوع إليه ﴿ وهم معرضون ﴾ إما حال من فريق لتخصصه بالصفة أي يتولون من المجلس وهم معرضون بقلوبهم أو اعتراض أي وهم قوم ديدنهم الإعراض عن الحق والإصرار على الباطل ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما مر التولى والإعراض وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ بأنهم ﴾ أي حاصل بسبب أنهم ﴿ قالوا لن تمسنا النار ﴾ باقتراف الذنوب وركوب المعاصي ﴿ إلا أياما معدودات ﴾ وهي مقدار عبادتهم العجول ورسخ اعتقادهم على ذلك وهونوا على أنفسهم الخطوب ﴿ وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون ﴾ من قولهم ذلك وما أشبهه من قولهم إن آباءنا الأنبياء يشفعون لنا أو إن الله تعالى وعد يعقوب عليه السلام ألا يعذب أولاده لإتحملة

القسم ولذلك ارتكبوا ما ارتكبوا من القبائح ﴿ فكيف ﴾ رد لقولهم المذكور ولبطال لما عراهم باستعظام ما سيدهمهم وتهويل ما سيحقيق بهم من الأهوال أى فكيف يكون حالهم ﴿ إذا جمعناهم ليوم ﴾ أى لجزاء يوم ﴿ لا ريب فيه ﴾ أى فى وقوعه ووقوع ما فيه ، روى أن أول راية ترفع يوم القيامة من رايات الكفر راية اليهود فيفضحهم الله عز وجل على رؤس الأشهاد ثم يأمر بهم إلى النار ﴿ ووفيت كل نفس ما كسبت ﴾ أى جزاء ما كسبت من غير نقص أصلاً كما يزعمون وإنما وضع المكسوب موضع جزائه للإيدان بكمال الاتصال والتلازم بينهما كأنهما شئ واحد وفيه دلالة على أن العبادة لا تجب وأن المؤمن لا يخلد فى النار لأن توفية جزاء إيمانه وعمله لا تكون فى النار ولا قبل دخولها فإذا هى بعد الخلاص منها ﴿ وهم ﴾ أى كل الناس المدلول عليهم بكل نفس ﴿ لا يظلمون ﴾ بزيادة عذاب أو بنقص ثواب بل يصيب كلا منهم مقدار ما كسبه ﴿ قل اللهم ﴾ الميم عوض عن حرف النداء ولذلك لا يجتمعان وهذا من خصائص الاسم الجليل كدخوله عليه مع حرف التعريف وقطع همزته ودخول تاء القسم عليه وقيل أصله يا الله أمنا بخير أى أقصدنا به نخفف بحذف حرف النداء ومتعلقات الفعل وهمزته ﴿ مالك الملك ﴾ أى ملك جنس الملك على الإطلاق ملكاً حقيقياً بحيث تتصرف فيه كيفما تشاء لإيجاد وإعدام وإحياء وإماتة وتعذيب وإثابة من غير مشارك ولا مانع وهو نداء ثان عند سيبويه فإن الميم عنده تمنع الوصفية ﴿ توتى الملك ﴾ بيان لبعض وجوه التصرف الذى تستدعيه مالكية الملك وتحقيق لاختصاصها به تعالى حقيقة وكون ملك غيره بطريق المجاز كما ينبىء عنه إشار الإتياء الذى هو مجرد الإعطاء على التملك المؤذن بثبوت المالكية حقيقة ﴿ من تشاء ﴾ أى إتياءه إياه ﴿ وتنزع الملك ﴾ عن تشاء أى نزعته منه فالملك الأول حقيقى عام وملوكيته حقيقية والآخران مجازيان خاصان ونسبتهما إلى صاحبهما مجازية وقيل الملك الأول عام والآخران بعضان منه فتأمل وقيل المراد بالملك النبوة ونزعها نقلها من قوم إلى آخرين

﴿ وتعز من تشاء ﴾ أن تعزه في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما بالنصر والتوفيق
﴿ وتذل من تشاء ﴾ أن تذله في إحداهما أو فيهما من غير ممانعة من الغير
ولا مدافعة ﴿ بيدك الخير ﴾ تعريف الخير للتعميم وتقديم الخير للتخصيص أى
بقدرتك الخير كله لا بقدره أحد غيرك تنصرف فيه قبضا وبسطا حسبما تقتضيه
مشيئتك وتخصيص الخير بالذكر لما أنه مقضى بالذات وأما الشر فقضى
بالعرض إذ ما من شر جزئى إلا وهو متضمن لخير كلى أو لأن في حصول
السر دخلا لصاحبه في الجملة لأنه من أجزبة أعماله وأما الخير فنفضل محض
أو لرعاية الأدب أو لأن الكلام فيه فإنه روى أن الرسول صلى الله عليه وسلم
لما خط الخندق عام الأحزاب وقطع لكل عشرة من أهل المدينة أربعين
ذراعا وأخذوا يحفرونه خرج من بطن الخندق صخرة كالتل لم تعمل فيها
المعاول فوجروا سلمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره فجاء عليه
السلام وأخذ منه المعول فضربها ضربة صدعتها وبرق منها برق أضاء ما بين
لابتها لكان مصباحا في جوف بيت مظلم فكبر وكبر معه المسلمون وقال
أضاءت لى منها قصور الحيرة كأنها أنياب السكاب ثم ضرب الثانية فقال
أضاءت لى منها القصور الحمر من أرض الروم ثم ضرب الثالثة فقال أضاءت لى
قصور صنعاء وأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة على كلها فأبشروا فقال المنافقون
ألا تعجبون يمينكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة
ومدان كسرى وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون
أن تبرزوا فنزلت ﴿ إنك على كل شىء قدير ﴾ تعليل لما سبق وتحقيق له
﴿ توبل الليل فى النهار ﴾ أى تدخله فيه بتعقيبه إياه أو بنقص الأول وزيادة
الثانى ﴿ وتوبل النهار فى الليل ﴾ على أحد الوجهين ﴿ وتخرج الحى من
الميت ﴾ أى تلشىء الحيوانات من موادها أو من النطفة وقيل تخرج المؤمن
من الكافر ﴿ وتخرج الميت من الحى ﴾ أى تخرج النطفة من الحيوان وقيل
تخرج الكافر من المؤمن ﴿ وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ قال أبو العباس
المقرئ ورد لفظ الحساب فى القرآن على ثلاثة أوجه بمعنى التعب قال تعالى

(وترزق من تشاء بغير حساب) وبمعنى العدد قال تعالى (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) وبمعنى المطالبة قال تعالى (فامنن أو أمسك بغير حساب) والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من فاعل نرزق أو من مفعوله وفيه دلالة على أن من قدر على أمثال هاتيك الأفاعيل العظام المحيرة للعقول والأفهام فقد رته على أن ينزع الملك من العجم ويذلهم ويؤتبه العرب ويعزهم أهون من كل هين عن علي رضي الله عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن فاتحة الكتاب وآية الكرسي وآيتين من آل عمران (شهد الله أنه لا إله إلا هو) إلى قوله تعالى (إن الدين عند الله الإسلام) و(قل اللهم مالك الملك إلى قوله بغير حساب) معلقات ما يذهن وبين الله تعالى حجاب قلن يارب تهبطننا إلى أرضك وإلى من يعصيك قال الله تعالى إني خلقت أنه لا يقرؤكن أحد دبر كل صلاة إلا جعلت الجنة مثواه على ما كان منه وأسكنته في حظيرة القدس ونظرت إليه بعيني كل يوم سبعين مرة وقضيت له سبعين حاجة أدناها المغفرة وأعدته من كل عدو وحاسد ونصرتهم عليهم وفي بعض الكتب أنا الله ملك الملوك قلوب الملوك ونواصيهم بيدي فإن العباد أطاعوني جعلتهم لهم رحمة وإن العباد عصوني جعلتهم عليهم عقوبة فلا تشتغلوا بسب الملوك ولكن توبوا إلى أعظفهم عليكم وهو معنى قوله عليه السلام كما تكونوا يول عليكم ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء ﴾ نهوا عن موالاتهم لقرابة أو صداقة جاهلية ونحوها من أسباب المصادقة والمعاشرة كما في قوله سبحانه (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء) وقوله تعالى (لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) حتى لا يكون حبههم ولا بغضهم إلى الله أو عن الاستعانة بهم في الغزو وسائر الأمور الدينية ﴿ من دون المؤمنين ﴾ في موضع الحال أي متجاوزين المؤمنين إليهم استقلالاً أو اشتراكاً وفيه إشارة إلى أنهم الأحقاء بالموالاة وأن في موالاتهم مندوحة عن موالاة الكفرة ﴿ ومن يفعل ذلك ﴾ أي اتخذهم أولياء والتعبير عنه بالفعل للاختصار أو لإيهام الاستهجان بذكره ﴿ فليس من الله ﴾ أي من ولايته تعالى ﴿ في شيء ﴾ يصح أن يطلق عليه اسم الولاية فإن موالاة المتعادين بما لا يكاد يدخل تحت الوقوع قال :

تود عدوى ثم تزعم أنني صديقك ليس النوك عنك بعازب
والجملة اعتراضية . قوله تعالى ﴿ إلا أن تتقوا ﴾ على صيغة الخطاب بطريق
الالتفات استثناء مفرغ من أعم الأحوال والعامل فعل النهى معتبرا فيه الخطاب
كأنه قيل لا تتخذوهم أولياء ظاهرا أو باطنا في حال من الأحوال إلا حال
إتقائكم ﴿ منهم ﴾ أي من جهتهم ﴿ تقاة ﴾ أي اتقاء أو شيئا يجب اتقاؤه على
أن المصدر واقع موقع المفعول فإنه يجوز إظهار الموالاة حينئذ مع اطمئنان
النفوس بالعداوة والبغضاء وانتظار زوال المانع من قشر العصا وإظهار ما في
الضمير كما قال عيسى عليه السلام كن وسطا و امش جانبا وأصل تقاة وقية ثم
أبدلت الواو تاء كتخمة وتهمة وقلبت الياء ألفا وقرىء تقية ﴿ ويحذركم الله
نفسه ﴾ أي ذاته المقدسة فإن جواز إطلاق لفظ النفس مرادا به الذات عليه
سبحانه بلا مشاكلة بما لا كلام فيه عند المتقدمين وقد صرح بعض محققى
المتأخرين بعدم الجواز وإن أريد به الذات إلا مشاكلة وفيه من التهديد ما
لا يخفى عظمه وذكر النفس للإيدان بأن له عقابا هائلا لا يؤبه دونه بما يحذر من
الكفرة ﴿ وإلى الله المصير ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله ومحقق لوقوعه حتما
﴿ قل إن تخفوا ما فى صدوركم ﴾ من الضمائر التى من جملتها ولاية الكفرة
﴿ أو تبدوه ﴾ فيما بينكم ﴿ يعلمه الله ﴾ فيؤاخذكم بذلك عند مصيركم إليه
وتقديم الإخفاء على الإبداء قد مر سره فى تفسير قوله تعالى (وإن تبدوا ما فى
أنفسكم أو تخفوه) وقوله تعالى (يعلم ما يسرون وما يعلنون) ﴿ ويعلم ما فى السموات
وما فى الأرض ﴾ كلام مستأنف غير معطوف على جواب الشرط وهو من
باب إيراد العام بعد الخاص تأكيذا له وتقريراً ﴿ والله على كل شىء قدير ﴾
فيقدر على عقوبتكم بما لا مزيد عليه إن لم تنتهوا عما نهيتم عنه وإظهار الاسم
الجليل فى موضع الإضمار لتربية المهابة وتهويل الخطب وهو تذييل لما قبله
مبين لقوله تعالى (ويحذركم الله نفسه) بأن ذاته المقدسة المتميزة عن سائر الذوات
المتصفة بما لا يتصف به شىء منها من العلم الذاتى المتعلق بجميع المعلومات متصفة
بالقدرة الذاتية الشاملة لجميع المقدورات بحيث لا يخرج من ملكوته شىء قط

﴿يوم تجد كل نفس﴾ أى من النفوس المسكفة ﴿ما عملت من خير محضرا﴾ عندها بأمر الله تعالى وفيه من التحويل ما ليس فى حاضرنا ﴿وما عملت من سوء﴾ عطف على ما عملت والإحضر معتبر فيه أيضا إلا أنه خص بالذكر فى الخير للإشعار بكون الخير مرادا بالذات وكون إحضار الشر من مقتضيات الحكمة التشريعية ﴿تود﴾ عامل فى الظرف والمعنى تود وتتمنى يوم تجد صحائف أعمالها من الخير والشر أو أجزيتها محضرة ﴿لو أن بينها وبينه﴾ أى بين ذلك اليوم ﴿أمدا بعيدا﴾ لشدة هوله وفى إسناد الود إلى كل نفس سواء كان لها عمل سىء أو لا بل كانت متمحضة فى الخير من الدلالة على كمال فظاعة ذلك اليوم وهول مطلعه ما لا يخفى ، اللهم إنا نعوذ بك من ذلك ويجوز أن يكون انتصاب يوم على المفعولية بإضمار اذكروا وتودا ما حال من كل نفس أو استئناف مبنى على السؤال أى اذكروا يوم تجد كل نفس ما عملت من خير وشر محضرا وادة أن بينها وبينه أمدا بعيدا أو كان سائلا قال حين أمروا بذكر ذلك اليوم فإذا يكون إذ ذاك فقل تود لو أن بينها الخ أو تجد مقصور على ما عملت من خير وتود خبر ما عملت من سوء ولا تكون ما شرطية لارتفاع تود وقرىء ودت فحينئذ يجوز كونها شرطية لكن الحمل على الخبر أو وقع معنى لأنها حكاية حال ماضية وأوفق للقراءة المشهورة ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ تكرير لما سبق وإعادة له لكن لا للتأكيد فقط بل لإفادة ما يفيد قوله عز وجل ﴿ والله رؤف بالعباد﴾ من أن تحذيره تعالى من رأفته بهم ورحمته الواسعة أو أن رأفته بهم لا تمنع تحقيق ما حذرهموه من عقابه وأن تحذيره ليس مبنيا على تناسى صفة الرأفة بل هو متحقق مع تحققها أيضا كما فى قوله تعالى (يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم) فالجملة على الأول اعتراض وعلى الثانى حال وتكرير الاسم الجليل لتربية المهابة ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى﴾ المحبة ميل النفس إلى الشىء لسكالم أدركته فيه بحيث يحملها على ما يقربها إليه والعبء إذا علم أن السكالم الحقيقى ليس إلا الله عز وجل وأن كل ما يراه كما لا من نفسه أو من غيره فهو من الله وبالله وإلى الله لم يكن حبه

إلا الله وفي الله وذلك مقتضى إرادة طاعته والرغبة فيما يقربه إليه فلذلك فسرت المحبة بإرادة الطاعة وجعلت مستلزماً لاتباع الرسول صلى الله عليه وسلم في عبادته والحرص على مطاوعته ﴿ يحببكم الله ﴾ أى يرض عنكم ﴿ ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ أى يكشف الحجب عن قلوبكم بالتجاوز عما فرط منكم فيقربكم من جناب عزه ويؤثركم في جوار قدسه عبر عنه بالمحبة بطريق الاستعارة أو المشاكلة ﴿ والله غفور رحيم ﴾ أى لمن يتعجب إليه بطاعته ويتقرب إليه باتباع نبيه عليه الصلاة والسلام فهو تذييل مقرر لما قبله مع زيادة وعد الرحمة ووضع الاسم الجليل موضع الضمير للإشعار باستتباع وصف الألوهية للمغفرة والرحمة ، روى أنها نزلت لما قالت اليهود نحن أبناء الله وأحباؤه وقيل نزلت في وفد نجران لما قالوا إنا نعبد المسيح حباً لله تعالى وقيل في أقوام زعموا على عهد عليه الصلاة والسلام أنهم يحبون الله تعالى فأمروا أن يجعلوا لقولهم مصداقاً من العمل وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم وقف على قريش وهم في المسجد الحرام يسجدون للأصنام وقد علقوا عليهم بيض النعام وجعلوا في آذانها الثمنوف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا معشر قريش لقد خالفتم ملة إبراهيم ولمسمعيل عليهما الصلاة والسلام فقالت قريش إنما نعبد الله تعالى ليقربونا إلى الله زلفى فقال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام قل إن كنتم تحبون الله تعالى وتعبدون الأصنام لتقربكم إليه فاتبعوني أى اتبعوا شريعتى وسنتى يحببكم الله فأنا رسول له إليكم وحبته عليكم ﴿ قل أطيعوا الله والرسول ﴾ أى فى جميع الأوامر والنواهي فيدخل فى ذلك الطاعة فى اتباعه عليه الصلاة والسلام دخولا أوليا وإيثار الإظهار على الإضمار بطريق الالتفات لتعيين حيثية الإطاعة والإشعار بعلتها فإن الإطاعة المأمور بها إطاعته عليه الصلاة والسلام من حيث أنه رسول الله لامن حيث ذاته ولا ريب فى أن عنوان الرسالة من موجبات الإطاعة ودواعيها ﴿ فإن تولوا ﴾ إما من تمام مقول القول فى صيغة المضارع المخاطب بحذف إحدى التامين أى تتولوا وإما كلام (٣٠ - أبو السعود - أول)

متفرع عليه مسوق من جهته تعالى فهي صيغة الماضي الغائب وفي ترك ذكر احتمال الطاعة كما في قوله تعالى فإن أسلموا تلويح إلى أنه غير محتمل منهم ﴿ فإن الله لا يحب الكافرين ﴾ نفي المحبة كناية عن بغضه تعالى لهم وسخطه عليهم أى لا يرضى عنهم ولا يثنى عليهم وإيثار الإظهار على الإضمار لتعميم الحكم لسلك الكفرة والإشعار بعلمته فإن سخطه تعالى عليهم بسبب كفرهم والإيدان بأن التولى عن الطاعة كفر وبأن محبته عز وجل خاصة بالمؤمنين .

﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ﴾ لما بين الله تعالى أن الدين المرضي عنده هو الإسلام والتوحيد وأن اختلاف أهل الكتابين فيه إنما هو للبغي والحسد وأن الفوز برضوانه ومغفرته ورحمته منوط باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم وطاعته شرع في تحقيق رسالته وكونه من أهل بيت النبوة القديمة فبدأ ببيان جلالته أقدار الرسل عليهم الصلاة والسلام كافة وأتبعه ذكر مبدأ أمر عيسى عليه الصلاة والسلام وأمه وكيفية دعوته للناس إلى التوحيد والإسلام تحقيقاً للحق وإبطالاً لما عليه أهل الكتابين في شأنهما من الإفراط والتفريط ثم بين بطلان محاجتهم في إبراهيم عليه الصلاة والسلام وادعائهم الانتماء إلى ملته ونزه ساحتها العملية عما هم عليه من اليهودية والنصرانية ثم نص على أن جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام دعاة إلى عبادة الله عز وجل وحده وطاعته منزهون عن احتمال الدعوة إلى عبادة أنفسهم أو غيرهم من الملائكة والنبين وأن أهمهم قاطبة مأمورون بالإيمان بمن جاءهم من رسول مصدق لما معهم تحقيقاً لوجوب الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وكتابه المصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل ووجوب الطاعة له حسبما سيأتى تفصيله وتخصيص آدم عليه الصلاة والسلام بالذكر لأنه أبو البشر ومنشأ النبوة وكذا حال نوح عليه السلام فإنه آدم الثانى وأما ذكر آل إبراهيم فلتزغيب المعترفين باصطفائهم في الإيمان بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم واستئثارهم نحو الاعتراف باصطفائه بواسطة كونه من زمرةهم مع مامر من التنبيه على كونه عليه الصلاة والسلام عريقاً في النبوة من زمرة المصطفين

الأخيار وأما ذكر آل عمران مع اندراجهم في آل إبراهيم فلاظهار مزيد الاعتناء بتحقيق أمر عيسى عليه الصلاة والسلام لسكّال رسوخ الخلاف في شأنه فإن نسبة الاصطفاء إلى الأب الأقرب أدل على تحقّقه في الآل وهو الداعي إلى إضافة الآل إلى إبراهيم دون نوح وآدم عليهم الصلاة والسلام والاصطفاء أخذ ما صفا من الشيء كالاستصفاة مثل به اختياره تعالى لإيهم النفوس القدسية وما يليق بها من الملسكات الروحانية والسكالات الجسمانية المستتعبة للرسالة في نفس المصطفى كما في كافة الرسل عليهم الصلاة والسلام أو فيمن يلبسه وينشأ منه كما في مريم وقيل اصطفى آدم عليه الصلاة والسلام بأن خلقه بيده في أحسن تقويم وبتعليم الأسماء وإسجاد الملائكة إياه وإسكان الجنة واصطفى نوحا عليه الصلاة والسلام بكونه أول من نسخ الشرائع إذ لم يكن قبل ذلك تزويج المحارم حراما وباطالة عمره وجعل ذريته هم الباقين واستجابة دعوته في حق الكفرة والمؤمنين وحمله على متن الماء والمراد بآل إبراهيم إسماعيل وإسحق والأنبياء من أولادها الذين من جملتهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وأما اصطفاء نفسه عليه الصلاة والسلام ففهوم من اصطفائهم بطريق الأولوية وعدم التصريح به للإيدان بالغنى عنه لسكّال شهرة أمره في الخلة وكونه لإمام الأنبياء وقدوة للرسل عليهم الصلاة والسلام وكون اصطفاء آله بدعوته بقوله ربنا وابعث فيهم رسولا منهم الآية ولذلك قال عليه الصلاة والسلام أناد عوة أبي إبراهيم وبآل عمران عيسى وأمه مريم ابنة عمران بن ماثان بن أبي بور بن رب بابل بن ساليان بن يوشيان بن أمون بن منشا بن حزقيا بن أحز- بن يوثم بن عزياهو بن يهوشافاط بن أسا بن رجبعم بن سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ابن ييشا بن عوفيد ابن بوغز بن سلمون بن نحشون بن عمينوذب بن رم بن حصرون بن باص بن يهوذا بن يعقوب عليه الصلاة والسلام وبين العمرانين ألف وثمانمائة سنة فيكون اصطفاء عيسى عليه الصلاة والسلام حيثئذ بالاندراج في آل إبراهيم عليه السلام والأول هو الأظهر بدليل تعقيبه بقصة مريم واصطفاء موسى وهرون عليهما الصلاة والسلام

بالانتظام في سلك آل إبراهيم عليه السلام انتظاما ظاهرا والمراد بالعالمين أهل زمان كل واحد منهم أى اصطفى كل واحد منهم على عالمي زمانه .
 ﴿ ذرية ﴾ نصب على البدلية من الآلين أو على الحالية منهما وقد مر بيان اشتقاقها في قوله تعالى (ومن ذريتي) ، وقوله تعالى ﴿ بعضها من بعض ﴾ في محل النصب على أنه صفة لذرية أى اصطفى الآلين حال كونهم ذرية متسلسلة متشعبة البعض من البعض في النسب كما ينبيء عنه التمرض لسكونه ذرية وقيل بعضها من بعض في الدين فالاستمالة على الوجه الأول تقرينية وعلى الثاني برهانية ﴿ والله سميع ﴾ لأقوال العباد ﴿ عليم ﴾ بأعمالهم البادية والخافية فيصطفى من بينهم لخدمته من تظهر استقامته قولا وفعلا على نهج قوله تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبلها .

﴿ إذ قالت امرأة عمران ﴾ في حين النصب على المفعولية بفعل مقدر على طريقة الاستئناف لتقرير اصطفاء آل عمران وبيان كفيته أى اذكر لهم وقت قولها الخ وقد مر مرارا وجه توجيه التذكير إلى الأوقات مع أن المقصود تذكير ما وقع فيها من الحوادث وقيل هو منصوب على الظرفية ما قبله أى سميع لقولها المحكى عليم بضميرها المنوى وقيل هو ظرف لمعنى الاصطفاء المدلول عليه باصطفى المذكور كأنه قيل واصطفى آل عمران إذ قالت الخ فكان من عطف الجمل على الجمل دون عطف المفردات على المفردات ليلزم كون اصطفاء الكل في ذلك الوقت وامرأة عمران هي حنة بنت فاقوذا جدة عيسى عليه الصلاة والسلام وكانت لعمران بن يصهر بنت اسمها مريم أكبر من موسى وهرون عليهما الصلاة والسلام فظن أن المراد زوجته وليس بذلك فإن قضية كفالة زكريا عليه الصلاة والسلام قاضية بأنها زوجة عمران بن ماثان لأنه عليه الصلاة والسلام كان معاصرا له وقد تزوج إيشاع أخت حنة أم يحيى عليه الصلاة والسلام وأما قوله عليه الصلاة والسلام في شأن يحيى وعيسى عليهما الصلاة والسلام هما ابنا خالة فقيل تأويله أن الأخت كثيرا ما تطلق على بنت الأخت وبهذا الاعتبار جعلهما عليهما الصلاة والسلام ابني خالة وقيل كانت

إشاع أخت حنة من الأم وأخت مريم من الأب على أن عمران نكح أولا أم حنة فولدت له إشاع ثم نكح حنة بناء على نكاح الربائب في شريعتهم فولدت مريم فكانت إشاع أخت مريم من الأب وخالتها من الأم لأنها أخت حنة من الأم روى أنها كانت عجوزا عاقرا فبينما هي ذات يوم في ظل شجرة إذ رأت طائرا يطعم فرجه فحنت إلى الولد وتمنته وقالت اللهم إن لك على نذرا إن رزقتني ولدا أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من سدنته وكان هذا النذر مشروعا عندهم في الغلمان ثم هلك عمران وهي حامل وحينئذ فقولها ﴿ رب إنى نذرت لك ما في بطني ﴾ لا بد من حمله على التكبير لتأكيد نذرها وإخراجه عن صورة التعليق إلى هيئة التنجيز والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن إفاضة ما فيه صلاح المربوب مع الإضافة إلى ضميرها لتحريك سلسلة الإجابة ولذلك قيل إذا أراد العبد أن يستجاب له دعاؤه فليدع الله بما يناسبه من أسمائه وصفاته وتأكد الجملة لإبراز وفور الرغبة في مضمونها وتقديم الجار والمجرور ليكمال الاعتناء به وإنما عبر عن الولد بما لإبهام أمره وقصوره عن درجه العقلاء ﴿ محررا ﴾ أى معتقا لخدمة بيت المقدس لا يشغله شأن عنه أو مخلصا للعبادة ونصبه على الحالية من الموصول والعامل فيه نذرت وقيل من ضميره في الصلة والعامل معنى الاستقرار فإنها في قوة ما استقر في بطني ولا يخفى أن المراد تقييد فعلها بالتحريم ليحصل به التقرب إليه تعالى لا تقييد ما لا دخل لها فيه من الاستقرار في بطنها ﴿ فتقبل منى ﴾ أى ما نذرتة والتقبل أخذ الشيء على وجه الرضا وهذا في الحقيقة استدعاء للولد إذ لا يتصور القبول بدون تحقيق المقبول بل للولد الذكر لعدم قبول الأنثى ﴿ إنك أنت السميع ﴾ لجميع المسموعات التي من جملتها تضرعى ودعائى ﴿ العليم ﴾ بكل المعلومات التي من زمرتها ما في ضميرى لا غير وهو تعليل لاستدعاء القبول لا من حيث أن كونه تعالى سميعا لدعائها عليها بما في ضميرها مصحح للتقبل في الجملة بل من حيث أن عليه تعالى بصحة نيتها وإخلاصها مستدع لذلك تفضلا وإحسانا وتأكد الجملة لعرض قوة يقينها بمضمونها وقصر صفتى السمع والعلم عليه تعالى لعرض اختصاص دعائها به تعالى

وانقطاع حبل رجائها عما عداها بالسكينة مبالغة في الضراعة والابتهال ﴿ فلما وضعتها ﴾ أى ما فى بطنها وتأنى الضمير العائد إليه لما أن المقام يستدعى ظهور أنوثته واعتباره فى حين الشرط إذ عليه يترتب جواب لما أعنى قوله تعالى ﴿ قالت رب لى وضعتها أنى ﴾ لاعلى وضع ولد ما كأنه قيل فلما وضعت بنتا قالت الخ قيل تأنىته لأن ما فى بطنها كان أنى فى علم الله تعالى أولآنه مؤول بالمره من الحبل أو النفس أو النسمة وأنت خبير بأن اعتبار شىء بما ذكر فى حين الشرط لا يكون مدارا لترتب الجواب عليه وقوله تعالى أنى حال مؤكده من الضمير أو بدل منه وتأنىته للمسارعة إلى عرض مادهمها من خيبة الرجاء أو لسامر من التأويل بالحيلة أو النسمة فالحال حينئذ مبيته وإنما قالته تخزنا وتحسرا على خيبة رجائها وعكس تقديرها لما كانت ترجو أن تلد ذكرا ولذلك ندرته محررا للسدانة والتأكيد للرد على اعتقادها الباطل ﴿ والله أعلم بما وضعت ﴾ تعظيم من جهته تعالى لموضوعها وتفخيم لشأنه وتجهيل لها بقدره أى والله أعلم بالشىء الذى وضعته وما علق به من عظام الأمور وجعله وابنه آية للعالمين وهى غافلة عن ذلك والجملة اعتراضية وقرىء وضعت على خطاب الله تعالى لها أى إنك لا تعلمين قدر هذا الموهوب وما أودع الله فيه من علو الشأن وسمو المقدار وقرىء وضعت على صيغة التكلم مع الالتفات من الخطاب إلى الغيبة إظهاراً لغاية الإجلال فىكون ذلك منها اعتذارا إلى الله تعالى حيث أتت بمولود لا يصلح لما ندرته من السدانة أو تسلية لنفسها على معنى لعل الله تعالى فيه سرا وحكمة ولعل هذه الأنى خير من الذكر فوجه الالتفات حينئذ ظاهر وقوله تعالى ﴿ وليس الذكر كالأنى ﴾ اعتراض آخر مبين لما فى الأول من تعظيم الموضوع ورفع منزلته واللام فى الذكر والأنى للعهد أى ليس الذكر الذى كانت تطلبه وتتحيل كماله ليكون كواحد من السدنة كالأنى التى وهبت لها فإن دائرة علمها وأمنيتها لا تكاد تحيط بما فيها من جلائل الأمور . هذا على القراءتين الأوليين وأما على التفسير الأخير للقراءة الأخيرة فعنائه وليس الذكر كهنه الأنى فى الفضيلة بل أدنى منها وأما على التفسير الأول لها فعنائه تأكيد

الاعتذار ببيان أن الذكر ليس كالأثني في الفضيلة والمزية وصلاحيه خدمة المتعبدات فإنهن بمعزل من ذلك فاللام للجنس وقوله تعالى ﴿ وَإِذْ سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ عطف على إني وضعتها أثني وغرضها من عرضها على علام الغيوب التقرب إليه تعالى واستدعاء العصمة لها فإن مريم في لغتهم بمعنى العابدة قال القرطبي معناه خادم الرب وإظهار أنها غير راجعة عن نيتها وإن كان ما وضعتها أثني وأنها وإن لم تكن خليقة بسدانة بيت المقدس فاتمكن من العابدات فيه ﴿ وَإِذْ أَعْيَضَهَا بَكْ ﴾ عطف على إني سميتها وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار أي أجبرها بحفظك وقرىء بفتح ياء المتكلم في المواضع التي بعدها همزه مضمومه إلا في موضعين بعهدى أوف آتوني أفرغ ﴿ وذريتها ﴾ عطف على الضمير وتقديم الجار والمجرور عليه لإبراز كمال العناية به ﴿ من الشيطان الرجيم ﴾ أي المطرود وأصل الرجيم الرمي بالحجارة . عن النبي صلى الله عليه وسلم ما من مولود يولد يولد إلا والشيطان يمسّه حين يولد فيستلم صارخاً من مسه إلا مريم وابنها ومعناه أن الشيطان يطمع في إغواء كل مولود بحيث يتأثر منه إلا مريم وابنها فإن الله تعالى عصمهما ببركة هذه الاستعاذة ﴿ فتقبلها ﴾ أي أخذ مريم ورضى بها في النذر مكان الذكر ﴿ ربها ﴾ مالسكها ومبلغها إلى كمالها اللاتق بها وفيه من تشريفها ما لا يخفى ﴿ بقبول حسن ﴾ قيل الباء زائدة والقبول مصدر مؤكد للفعل السابق بحذف الزوائد أي تقبلها قبولاً حسناً وإنما عدل عن الظاهر للإيذان بمقارنة التقبل لكمال الرضا وموافقته للعناية الذاتية فإن صيغة التفعّل مشعرة بحسب أصل الوضع بالتمكيف وكون الفعل على خلاف طبع الفاعل وإن كان المراد بها في حقه تعالى ما يترتب عليه من كمال قوة الفعل وكثرته وقيل القبول ما يقبل به الشيء كالسعوط والدود لما يسعط به ويلد وهو اختصاصه تعالى إياها بإقامتها مقام الذكر في النذر ولم تقبل قبلها أثني أو بأن تسلمها من أمها عمقيب الولادة قبل أن تنشأ وتصلح للسدانة . روى أن حنة حين ولدتها لفتها في خرقة وحملتها إلى بيت المقدس ووضعتها عند الأحبار أبناء هرون وهم في بيت المقدس كالحجبة في السكبة فقالت لهم دونكم هذه النذيرة فتنافسوا فيها لأنها

كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم فإن بنى مائنان كانت رؤس بنى إسرائيل
وملوكتهم وقيل لأنهم وجدوا أمرها وأمر عيسى عليه الصلاة والسلام في الكتب
الإلهية فقال زكريا عليه الصلاة والسلام أنا أحق بها لأن عندي خالتها فأبوا
إلا القرعة وكانوا سبعة وعشرين فانطلقوا إلى نهر فألقوا فيه أقلامهم فطفأ قلم
زكريا ورسبت أقلامهم فتكفلها وقيل هو مصدر وفيه مضاف مقدر أى فتقبلها
بندى قبول أى بأمر ذى قبول حسن وقيل تقبل بمعنى استقبل كتقصى بمعنى
استقصى وتعجل بمعنى استعجل أى استقبلها فى أول أمرها حين ولدت
بقبول حسن ﴿ وأنبتها ﴾ مجاز عن تربيتها بما يصلحها فى جميع أحوالها
﴿ نباتا حسنا ﴾ مصدر مؤكد للفعل المذكور بحذف الزوائد وقيل بل لفعل
مضمر موافق له تقديره فنبتت نباتا حسنا ﴿ وكفلها زكريا ﴾ أى جعله عليه
الصلاة والسلام كافلا لها وضامنا لمصلحتها قائما بتدبير أمورها لاعلى طريقة
الوحى بل على ما ذكر من التفصيل فإن رغبته عليه الصلاة والسلام فى كفالتها
وظفو قلبه ورسوب أقلامهم وغير ذلك من الأمور الجارية بينهم كلها من آثار
قدرته تعالى وقرىء أ كفلها وقرىء زكرياء بالنصب والمد وقرىء بتخفيف
الفاء وكسرهما ورفع زكرياء بمدودا وقرىء وتقبلها رها وأنبتها وكفلها على
صيغة الأمر فى السكك ونصب رها على الدعاء أى فاقبلها ياربها وربها تربية
حسنة واجعل زكريا كافلا لها فهو تعيين لجهة التربية . قيل بنى عليه الصلاة
والسلام لها محرابا فى المسجد أى غرفة يصعد إليها بسلم وقيل المحراب أشرف
المجالس ومقدمها كأنها وضعت فى أشرف موضع من بيت المقدس وقيل كانت
مساجدهم تسمى المحاريب . روى أنه كان لا يدخل عليها إلا هو وحده وإذا
خرج غلق عليها سبعة أبواب ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب ﴾ تقديم
الظرف على الفاعل لإظهار كمال العناية بأمرها ونصب المحراب على التوسع وكلمة
كلما ظرف على أن ما مصدرية والزمان محذوف أو نكرة موصوفة معناها
الوقت والعائد محذوف والفاعل فيها جوابها أى كل زمان دخوله عليها أو كل
وقت دخل عليها فيه ﴿ وجد عندها رزقا ﴾ أى نوعا منه غير معتاد إذ كان

ينزل ذلك من الجنة وكان يجد عندها في الصيف فاكهة الشتاء وفي الشتاء فاكهة الصيف ولم ترضع ثديا قط ﴿ قال ﴾ استثناف مبنى على السؤال كأنه قيل فإذا قال زكريا عليه الصلاة والسلام عند مشاهدة هذه الآية فقيل قال ﴿ يا مريم أنى لك هذا ﴾ أى من أين جاء لك هذا الذى لا يشبه أرزاق الدنيا والآبواب مغلقة دونك وهو دليل على جواز الكرامة للأولياء ومن أنكرها جعل هذا إرهابا وتأسيسا لرسالة عيسى عليه الصلاة والسلام وأما جعله معجزة لزكريا عليه الصلاة والسلام فيأباه اشتباه الأمر عليه عليه الصلاة والسلام وإنما خاطبها عليه الصلاة والسلام بذلك مع كونها بمعزل من رتبة الخطاب لما علم بما شاهدته أنها مؤيدة من عند الله تعالى بالعلم والقدرة ﴿ قالت ﴾ استثناف كما قبله كأنه قيل فإذا صنعت مريم وهى صغيرة لاقدرة لها على فهم السؤال ورد الجواب فقيل قالت ﴿ هو من عند الله ﴾ فلا تعجب ولا تستبعد ﴿ إن الله يرزق من يشاء ﴾ أن يرزقه (بغير حساب) أى بغير تقدير لسكثرتة أو بغير استحقاق تفضلا منه تعالى وهو تعليل لسكونه من عند الله إما من تمام كلامها فيسكون في محل النصب وإما من كلامة عز وجل فهو مستأنف روى أن فاطمة الزهراء رضيت الله عنها أهدت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رغيفين وبضعة لحم فرجع بها إليها فقال هلمى يا بنية فكشف عن الطبق فإذا هو مملوء خبزا ولحما فقال لها أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب فقال عليه الصلاة والسلام الحمد لله الذى جعلك شبيهة بسيدة بنى اسرائيل ثم جمع عليا والحسن والحسين وجميع أهل بيته رضوان الله عليهم أجمعين فأكلوا وشبعوا وبقي الطعام كما هو فأوسعت على جيرانها ﴿ هنالك ﴾ كلام مستأنف وقصة مستقلة سيقى فى تضاعيف حكاية مريم لما بينهما من قوة الارتباط وشدة الاشتباك مع ما فى إيرادها من تقرير ما سيقى له حكايتها من بيان اصطفاء آل عمران فإن فضائل بعض الأقرباء أدلة على فضائل الآخرين وهنا ظرف مكان واللام للدلالة على البعد والكاف للخطاب أى فى ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم فى المحراب أو فى ذلك الوقت إذ يستعار هنا وثمة وحيث للزمان ﴿ دعا

زكريا ربه ﴿ لما رأى كرامة مريم على الله ومنزلتها منه تعالى رغب في أن يكون له من إشباع ولد مثل ولد حنة في النجابة والكرامة على الله تعالى وإن كانت عاقرا عجوزا فقد كانت حنة كذلك وقيل لما رأى الفواكه في غير إبانها تنبيه لجواز ولادة العجوز العاقر من الشيخ الفاني فأقبل بالدعاء من غير تأخير كما ينبغي عنه تقديم الظرف على الفعل لاعلى معنى أن ذلك كان هو الموجب للإقبال على الدعاء فقط بل كان جزءا أخيرا من العلة التامة التي من جملتها كبر سنه عليه الصلاة والسلام وضعف قواه وخوف مواليه حسبها فصل في سورة مريم ﴿ قال ﴾ تفسير الدعاء وبيان لكيفيته لأجل له من الإعراب ﴿ رب هب لي من لدنك ﴾ كلا الجارين متعلق بهب لاختلاف معنيهما فاللام صلة له ومن لا ابتداء الغاية مجازا أى أعطنى من محض قدرتك من غير وسط معتاد ﴿ ذرية طيبة ﴾ كما وهبتها لحنة ويجوز أن يتعلق من بمحذوف وقع حالا من ذرية أى كائنة من لدنك والذرية النسب تقع على الواحد والجمع والذكر والأنثى والمراد ههنا ولد واحد فالتأنيث فى الصفة لتأنيث لفظ الموصوف كما فى قول من قال :

أبوك خليفة ولدته أخرى وأنت خليفة ذاك السكال

وهذا إذا لم يقصد به واحد معين أما إذا قصد به المعين امتنع اعتبار اللفظ نحو طلحة وحمزة فلا يجوز أن يقال جاءت طلحة وذهبت حمزة ﴿ إنك سميع الدعاء ﴾ أى مجيبه وهو تعليل لما قبله وتحريك لسلسلة الإجابة ﴿ فناداته الملائكة ﴾ كان المنادى جبريل عليه الصلاة والسلام كما تفصح عنه قراءة من قرأ فناداته جبريل والجمع كما فى قولهم فلان يركب الخيل ويابس الثياب وماله غير فرس وثوب قال الزجاج أى أتاه النداء من هذا الجنس الذين هم الملائكة وقيل لما كان جبرائيل عليه الصلاة والسلام رئيسهم عبر عنه باسم الجماعة تعظيما له وقيل الرئيس لابتدائه من إلتباع فأسند النداء إلى الكل مع كونه صادرا عنه خاصة وقرئ فناداته بالإمالة ﴿ وهو قائم ﴾ جملة حالية من مفعول النداء مقررة لما أفاده الفاء من حصول البشارة عقيب الدعاء وقوله تعالى ﴿ يصلى ﴾

لإما صفة لقائم أو خبر ثان عند من يرى تعدده عند كون الثاني جملة كما في قوله تعالى ﴿ في المحراب ﴾ أى فى المسجد أو منه على القول بتعددتها بلا عطف ولا بدلية أو حال من المستكن فى قائم وقوله تعالى فإذا هى حية تسعى أو حال من المستكن فى قائم وقوله تعالى ﴿ فى المحراب ﴾ أى المسجد أو فى غرفة مريم متعلق بيصلى أو بقائم على تقدير كون يصلى حالا من ضمير قائم لأن العامل فيه وفى الحال حينئذ شىء واحد فلا يلزم الفصل بالأجنبي كما يلزم على التقادير الباقية .

﴿ إن الله يبشرك بيحيى ﴾ أى بأن الله وقرىء بكسر الهمزة على تقدير القول أو لإجراء النداء مجراه لسكونه نوعا منه وقرىء يبشرك من الإبشار ويبشرك من الثلاثى وأيا ما كان ينبغى أن يكون هذا الكلام إلى آخره محكما بعبارة عن الله عز وجل على منهاج قوله تعالى (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) الآية كما يلوح من مراجعته عليه الصلاة والسلام فى الجواب إليه تعالى بالذات لا بواسطة الملك والعدول عن إسناد التبشير إلى نون العظمة حسبا وقع فى سورة مريم للجرى على سنن الكبرياء كما فى قول الخلفاء أمير المؤمنين يرسم لك بكذا وللإيدان بأن ما حكى هناك من النداء والتبشير وما يترتب عليه من المحاورة كان كل ذلك بتوسط الملك بطريق الحكاية عن سبحانه لا بالذات كما هو المتبادر وبهذا يتضح اتحاد المعنى فى السورتين الكريمتين فتأهل ويحيى اسم أجمعى وإن جعل عربيا فمنع صرفه للتعريف ووزن الفعل ، روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما إنما سمي يحيى لأن الله تعالى أحيا به وعقر أمه وقال قتادة لأنه تعالى أحيا قلبه بالإيمان قال القرطبى كان اسمه فى الكتاب الأول حيا ولا بد من تقدير مضاف يعود إليه الحال أى بولادة يحيى فإن التبشير لا يتعلق بالأعيان ﴿ مصدقا ﴾ حال مقدره من يحيى ﴿ بكلمة من الله ﴾ أى بعيسى عليه الصلاة والسلام وإنما سمي كلمة لأنه وجد بكلمة كائنة منه تعالى قيل هو أول من آمن به وصدق بأنه كلمة الله وروح منه وقال السدى لقيت أم يحيى أم عيسى فقالت

يا مريم أشعرت بحبلى فقالت مريم وأنا أيضا حبلى قالت فأنى وجدت ما فى بطنك فذلك قوله تعالى (مصدقا بكلمة) الخ وقال ابن عباس رضى الله عنهما إن يحيى كان أكبر من عيسى عليهما الصلاة والسلام بستة أشهر وقيل بثلاث سنين وقتل قبل رفع عيسى عليهما الصلاة والسلام بمدة يسيرة وعلى كل تقدير يكون بين ولادة يحيى وبين البشارة بها زمان مديد لما أن مريم ولدت وهى بنت ثلاث عشرة سنة أو بنت عشر سنين وقيل بكلمة من الله أى بكتاب الله سمي كلبه كما قيل كلبه الحويدرة لقصيدته ﴿ وسيدا ﴾ عطف على مصدقا أى رئيسا يسود قومه ويفوقهم فى الشرف وكان فائقا للناس قاطبة فإنه لم يلم بخطيئة ولم يهجم بمعصية فيألها من سيادة ما أسناها ﴿ وحصورا ﴾ عطف على ما قبله أى مبالغا فى حصر النفس وحبسها عن الشهوات مع القدرة ، روى أنه مر فى صباه بصبيان فدعوه إلى اللعب فقال ما للعب خلقنا ﴿ ونبيا ﴾ عطف على ما قبله مترتب على ما عدد من الخصال الحميدة ﴿ ومن الصالحين ﴾ أى ناشئا منهم لأنه كان من أصلاب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أو كائنا من جملة المشهورين بالصلاح كما فى قوله تعالى (ولأنه فى الآخرة لمن الصالحين) والمراد بالصلاح ما فوق الصلاح الذى لا بد منه فى منصب النبوة من أقاصى مراتبه وعليه مبنى دعاء سليمان عليه السلام وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴿ قال ﴾ استئناف مبنى عن السؤال كأنه قيل فإذا قال زكريا عليه السلام حينئذ فقيل قال ﴿ رب ﴾ لم يخاطب الملك المنادى له بملاسة أنه المباشر للخطاب وإن كان ذلك بطريق الحكاية عنه تعالى بل جرى نهج دعائه السابق مبالغة فى التضرع والمناجاة وجدا فى التبتل إليه تعالى واحترازا عما عسى يوهم خطاب الملك من توهم أن علمه سبحانه بما يصدر عنه يتوقف على توسطه كما يتوقف وقوف البشر على ما يصدر عنه سبحانه على توسطه فى عامة الأحوال وإن لم يتوقف عليه فى بعضها ﴿ أنى يكون لى غلام ﴾ فيه دلالة على أنه قد أخبر بكونه غلاما عند التبشير كما فى قوله تعالى (إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى) وأنى بمعنى كيف أو من أين وكان تامة وأنى واللام متعلقتان بها

وتقديم الجار على الفاعل لما مر مرارا من الاعتناء بما قدم والتشويق إلى ما آخر أى كيف أو من أين يحدث لى غلام ويجوز أن تتعلق اللام بمحذوف وقع جالا من غلام إذ لو تأخر لكان صفة له أو ناقصة واسمها ظاهر وخبرها إما أنى واللام متعلقة بمحذوف كما مر أو هو الخبر وأنى منصوب على الظرفية ﴿ وقد بلغنى الكبر ﴾ حال من ياء المتكلم أى أدركنى كبر السن وأثر فى كقولهم أدركته السن وأخذته السن وفيه دلالة على أن كبر السن من حيث كونه من طلائع الموت طالب للإنسان لا يكاد يتركه قيل كان له تسع تسع وتسعون سنة وقيل اثنتان وتسعون وقيل مائة وعشرون وقيل ستون ، وقيل خمس وستون وقيل سبعون وقيل خمس وسبعون وقيل خمس وثمانون ولامرأته ثمان وتسعون ﴿ وامرأتى عاقر ﴾ أى ذات عقر وهو أيضا حال من الياء فى لى عند من يجوز تعدد الحال أو من ياء بلغنى أى كيف يكون لى ذلك والحال أنى وامرأتى على حالة منافية له كل المنافاة وإنما قاله عليه الصلاة والسلام مع سبق دعائه بذلك وقوة يقينه بقدرة الله تعالى عليه لاسيما بعد مشاهدته عليه الصلاة والسلام للشواهد السالفة استعظاما لقدرة الله سبحانه وتعجيبا منها واعتدادا بنعمته عز وجل عليه فى ذلك لا استبعادا له وقيل بل كان ذلك للاستبعاد حيث كان بين الدعاء والبشارة ستون سنة وكان قد نسى دعاءه وهو بعيد وقيل كان ذلك استقهما عن كيفية حدوثه ﴿ قال ﴾ استئناف كما سلف ﴿ كذلك ﴾ إشارة إلى مصدر يفعل فى قوله عز وجل ﴿ الله يفعل ما يشاء ﴾ أى ما يشاء أن يفعله من عجيب الأفاعيل الخارقة للعادات فالله مبتدأ ويفعل خبره والكاف فى محل النصب على أنها فى الأصل نعت لمصدر محذوف أى الله يفعل ما يشاء أن يفعله فعلا مثل ذلك الفعل العجيب والصنع البديع الذى هو خلق الولد من شيخ فان وعجوز عاقر فقدم على العامل لإفادة القصر بالنسبة إلى ما هو أدنى من المشار إليه واعتبرت الكاف مقحمة لتأكيدهم أفاده اسم الإشارة من الفخامة وقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) أو على أنها حال من ضمير المصدر المقدر معرفة أى يفعل ما يشاء

بيان لذلك الشأن المهم أو كذلك خبر لمبتدأ محذوف أى الأمر كذلك وقوله تعالى (الله يفعل ما يشاء بيان) له ﴿ قال رب اجعل لى آية ﴾ أى علامة تدانى على تحقق المشغول ووقوع الحبل وإنما سأها لأن العلوق أمر خفى لا يوقف عليه فأراد أن يطلعه الله تعالى عليه ليتلقى تلك النعمة الجليلة من حين حصولها بالشكر ولا يؤخره إلى أن يظهر ظهوراً معتاداً ولعل هذا السؤال وقع بعد البشارة بزمان مديد إذ به يظهر ما ذكر من كون التفاوت بين سنى يحيى وعيسى عليهما الصلاة والسلام بستة أشهر أو بثلاث سنين لأن ظهور العلامة كان عقيب تعيينها لقوله تعالى فى سورة مريم فتخرج على قومها من المحراب فأوحى إليهم الآية اللهم إلا أن تكون المجاوبة بين زكريا ومريم فى حالة كبرها وقد عدت من جملة من تكلم فى الصغر بموجب قولها المحكى والجعل إبداعى واللام متعلقة به والتقديم لما مر مرارا من الإعتناء بما قدم والتشويق إلى ما أخرج أو بمحذوف وقع حالا من آية وقيل هو بمعنى التصيير المستدعى لمفعولين أو لهما آية وثانيتها لي والتقديم لأنه لا مسوغ لكون آية مبتدأ عند انحلال الجملة إلى مبتدأ وخبر سوى تقديم الجار فلا يتغير حالهما بعد دخول الناسخ ﴿ قال آيتك أن لا تكلم الناس ﴾ أى أن تقدر على تكليمهم ﴿ ثلاثة أيام ﴾ أى متوالية لقوله تعالى فى سورة مريم (ثلاث ليال سويا) مع القدرة على الذكر والتسبيح وإنما جعلت آيته ذلك لتخليص المدة لذكر الله تعالى وشكره قضاء لحق النعمة كأنه قيل آية حصول المطلوب ووصول النعمة أن تحبس لسانك إلا عن شكرها وأحسن الجواب ما اشتق من السؤال ﴿ إلا رمزا ﴾ أى إشارة بيد أو رأس أو نحوها وأصله التحرك يقال ارتمز أى تحرك ومنه قيل للبحر الراموز وهو استثناء منقطع لأن الإشارة ليست من قبيل الكلام أو متصل على أن المراد بالكلام ما فهم منه المرام ولا ريب فى كون الرمز من ذلك القبيل وقرىء رمزا بفتحتين على أنه جمع رامز كخدم وبضميتين على أنه جمع رموز كرسل على أنه حال منه ومن الناس معا بمعنى مترامزين كقوله :

متى ما تلقى فردين ترجف روافف أليتيك وتستطارا

﴿ واذكر ربك ﴾ أى فى أيام الحبس شكراً لحصول التفضل والإنعام كما يؤذن به العرض لعنوان الربوبية ﴿ كثيراً ﴾ أى ذكرها كثيراً أوزماناً كثيراً ﴿ وسبح ﴾ أى سبحه تعالى أو أفعّل التسبيح ﴿ بالعشى ﴾ أى من الزوال إلى الغروب وقيل من العصر إلى ذهاب صدر الليل ﴿ والإبكار ﴾ من طوع الفجر إلى الضحى ، قيل المراد بالتسبيح الصلاة بدليل تقييده بالوقت كما فى قوله تعالى ﴿ فسمحان الله حين تمسون وحين تصبحون ﴾ وقيل الذكر اللسانى كما أن المراد بالذكر الذكر القلبى وقرىء الأبكار بفتح الهمزة على أنه جمع بكر كسحر وأسحار ﴿ وإذ قالت الملائكة ﴾ شروع فى شرح بقية أحكام اصطفاة آل عمران إثر الإشارة إلى نبد من فضائل بعض أقاربهم أعنى زكريا ويحيى عليهما الصلاة والسلام لاستدعاء المقام إياهما حسبما أشير إليه وقرىء بتذكير الفعل والمراد بالملائكة جبريل عليه الصلاة والسلام وقد مر ما فيه من الكلام وإذ منصوب بمضمر معطوف على المضمر السابق. عطف القصة على القصة وقيل معطوف على الظرف السابق أعنى قوله ﴿ إذ قالت امرأة عمران ﴾ منصوب بناصبه فتدبر أى واذكر أيضاً من شواهد اصطفاةم وقت قول الملائكة عليهم الصلاة والسلام ﴿ يا مريم ﴾ وتكرير التذكير للإشعار بمزيد الاعتناء بما يحكى من أحكام الاصطفاة والتنبيه على استقلالها وانفرادها عن الأحكام السابقة فإنها من أحكام التريبة الجسمانية اللائقة بحال صغر مريم وهذه من باب التريبة الروحانية بالتكاليف الشرعية المتعلقة بحال كبرها ، فيل كلبوها شفاها كرامة لها أو إرهاباً لنبوة عيسى عليه الصلاة والسلام لمكان الإجماع على أنه تعالى لم يستنبه امرأة وقيل ألبوها ﴿ إن الله اصطفاك ﴾ أولاً حيث تقبلك من أمك بقبول حسن ولم يتقبل غيرك أنثى ورباك فى حجاز زكريا عليه السلام ورزقك من رزق الجنة وخصك بالكرامات السنية ﴿ وطهرك ﴾ أى مما يستقدر من الأحوال والأفعال ومما قدفك به اليهود بإنطاق الطفل ﴿ واصطفاك ﴾ آخرأ ﴿ على نساء العالمين ﴾ بأن وهب لك عيسى عليه الصلاة

والسلام من غير أب ولم يكن ذلك لأحد من النساء وجعلس كما آية للعالمين فعلى هذا ينبغي أن يكون تقديم حكاية هذه المقابلة على حكاية بشارتها بعيسى عليه الصلاة والسلام لما مر مرارا من التنبيه على أن كلا منهما مستحق للاستقلال بالتذكير ولو روعي الترتيب الخارجى لتبادر كون الكل شيئا واحدا وقيل المراد بالاصطفاءين واحد والتكريم للتأكيذ وتبيين من اصطفاها عليهن فينشأ لا إشكال فى ترتيب النظم السكريم إذ يحمل حينئذ الاصطفاء على ما ذكر أولا وتجعل هذه المقابلة قبل بشارتها بعيسى عليه الصلاة والسلام لإيدانها بكونها قبل ذلك متوفرة على الطاعات والعبادات حسبما أمرت بها بجهته فيها مقبلة على الله تعالى متبئلة إليه تعالى منسلخة عن أحكام البشرية مستعدة لميضان الروح عليها ﴿يامريم﴾ تكريم النداء للإيدان بأن المقصود بالخطاب ما يرد بعده وأن ما قبله من تذكير النعم كان تمهيدا لذكره وترغيبا فى العمل بموجبه ﴿اقتنى لربك﴾ أى قوسى فى الصلاة أو أطيل القيام فيها له تعالى والتعرض لعنوان ربوبيته تعالى لها للإشعار بعلته وجوب الامتثال بالأمر ﴿واسجدى واركنى مع الراكعين﴾ أمرت بالصلاة بالجماعة بذكر أركانها مبالغة فى إيجاب رعايتها وإيدانها بفضيلة كل منها وأصالته وتقديم السجود على الركوع إما لسكون الترتيب فى شريعتهم كذلك وإما لسكون السجود أفضل أركان الصلاة وأقصى مراتب الخضوع ولا يقتضى ذلك كون الترتيب الخارجى كذلك بل اللائق به الترقى من الأدنى إلى الأعلى وإما ليقترن اركنى بالراكعين للإشعار بأن من لا ركوع فى صلاتهم ليسوا مصلين وأما ما قيل من أن الواو لا توجب الترتيب فغاياته التصحيح لا الترجيح وتجريد الأمر بالركنين الأخيرين عما قيد به الأول لما أن المراد تقييد الأمر بالصلاة بذلك وقد فعل حيث قيد به الركن الأول منها وقيل المراد بالقنوت لإدامة الطاعات كما فى قوله تعالى (أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما) وبالسجود الصلاة لما مر من أنه أفضل أركانها وبالركوع الخشوع والإخبات ، قيل لما أمرت بذلك قامت فى الصلاة حتى ورمت قدمها وسالت دما وقيحا ﴿ذلك﴾ إشارة إلى

ما سلف من الأمور البديعة وما فيه من معنى البعد للتنبيه على علو شأن المشار إليه وبعد منزلته في الفضل وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ من أنباء الغيب ﴾ أي من الأنباء المتعلقة بالغيب والجملة مستأنفة لاجل لها من الإعراب وقوله تعالى: ﴿ نوحيه إليك ﴾ جملة مستقلة مبينة للأولى وقيل الخبر هو الجملة الثانية ومن أنباء الغيب وصيغة الاستقبال للإيدان بأن الوحي لم ينقطع بعد ﴿ وما كنت لديهم ﴾ أي عند الذين اختلفوا وتنازعوا في تربية مريم وهو تقرير وتحقيق لسكونه وحيا على طريقة التهكم بمنكره كما في قوله تعالى (وما كنت بجانب الغربي) الآية (وما كنت ثاويا في أهل مدين) الآية فإن طريق معرفة أمثال هاتيك الحوادث والواقعات إما المشاهدة وإما السماع وعدمه محقق عندهم فبقى احتمال المعاينة المستحيلة ضرورة فنفتت تهكما بهم ﴿ إذ يلقون أقلامهم ﴾ ظرف للاستقرار العامل في لديهم وأقلامهم أقداحهم التي اقترعوا بها وقيل اقترعوا بأقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة تبركا ﴿ أيهم يكفل مريم ﴾ متعلق بمحذوف دل عليه يلقون أقلامهم أي يلقونها ينظرون أو ليعلموا أيهم يكفلها ﴿ وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ أي في شأنها تنافسا في كفالتها حسبما ذكر فيما سبق وتكرير ما كنت لديهم مع تحقق المقصود بعطف إذ يختصمون على إذ يقولون كما في قوله عز وجل (نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى) للدلالة على أن كل واحد من عدم حضوره عليه السلام عند اللقاء الأفلام وعدم حضوره عند الاختصاص مستقل بالشهادة على نبوته عليه السلام لاسيما إذا أريد باختصاصهم تنازعهم قبل الاقتراع فإن تغيير الترتيب في الذكر مؤكده ﴿ إذ قالت الملائكة ﴾ شروع في قصة عيسى عليه الصلاة والسلام وهو بدل من ﴿ إذ قالت الملائكة منصوب بخاصبه وما بينهما اعتراض جيء به تقريرا لما سبق وتنبها على استقلاله وكونه حقيقا بأن يعد كمنظأره من شواهد النبوة وترك العطف بينهما بناء على اتحاد المخاطب والمخاطب ولإيداننا بتقارن الخطابين أو تقاربهما في الزمان وقيل (٣١ - أبو السعود - أول)

منصوب بمضمر معطوف على ناصبه وقيل بدل من إذ يختصمون كأنه قيل وما كنت حاضرا في ذلك الزمان المديد الذي وقع في طرف منه الاختصاص وفي طرف آخر هذا الخطاب إشعارا بإحاطته عليه الصلاة والسلام بتفاصيل أحوال مريم من أولها إلى آخرها والقائل جبريل عليه الصلاة والسلام وإيراد صيغة الجمع لما مر ﴿ يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه ﴾ من لا ابتداء الغاية مجازا متعلقة بمحذوف وقع صفة لكلمة أى بكلمة كائنة منه عز وجل : ﴿ اسمه ﴾ ذكر الضمير الراجع إلى الكلمة لكونها عبارة عن مذكر وهو مبتدأ خبره ﴿ المسيح ﴾ وقوله تعالى ﴿ عيسى ﴾ بدل منه أو عطف بيان وقيل خبر آخر وقيل خبر مبتدأ محذوف وقيل منصوب بإضمار أعنى مدحا وقوله تعالى ﴿ ابن مريم ﴾ صفة لعيسى وقيل المراد بالإسم ما به يتميز المسمى عن سواه فالخبر حينئذ مجموع الثلاثة إذ هو المهيز له عليه الصلاة والسلام تمييزا عن جميع من بعده والمسيح لقبه عليه الصلاة والسلام وهو من الألقاب المشرفة كالصديق وأصله بالعبرية مشيحا ومعناه المبارك وعيسى معرب من إيشوع والتصدى لاشتقاقهما من المسح والعيس وتعديله بأنه عليه الصلاة والسلام مسح بالبركة أو بما يظهره من الذنوب أو مسحه جبريل عليهما الصلاة والسلام أو مسح الأرض ولم يقيم في موضع أو كان عليه الصلاة والسلام يمسح ذا العاهة فيبرأ وبأنه كان في لونه عيس أى بياض يعلوه حمرة من قبيل الرقم على الماء وإنما قيل ابن مريم مع كون الخطاب لها تنبيها على أنه يولد من غير أب فلا ينسب إلا إلى أمه وبذلك فضلت على نساء العالمين ﴿ وجهها في الدنيا والآخرة ﴾ الوجيه ذو الجاه وهو القوة والمنعة والشرف وهو حال مقدره من كلمة فإنها وإن كانت نكرة لكنها صالحة لأن ينتصب بها الحال وتذكيرها باعتبار المعنى والوجهة في الدنيا الثبوت والتقدم على الناس وفي الآخرة الشفاعة وعلو الدرجة في الجنة ﴿ ومن المقربين ﴾ أى من الله عز وجل وقيل هو إشارة إلى رفعه إلى السماء وصحبة الملائكة وهو عطف على الحال الأولى وقد عطف عليه قوله تعالى ﴿ ويكلم الناس في المهد وكهلا ﴾ أى

يكلّمهم حال كونه طفلاً وكهلاً وكلام الأنبياء من غير تفاوت والمهد مصدر سمي به ما يهد للصبي أى يسوى ملى مضجعه وقيل لأنه رفع شاباً والمراد وكهلاً بعد نزوله وفي ذكر أحواله المختلفة المتنافية إشارة إلى أنه بمنزل من الألوهية ﴿ومن الصالحين﴾ حال أخرى من كلمة معطوفة على الأحوال السالفة أو من الضمير فى يكلم .

﴿ قالت ﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فإذا قالت مريم حين قالت لها الملائكة ما قالت فقيل قالت متضرعة إلى ربها ﴿ رب أنى يكون ﴾ أى كيف يكون أو من أين يكون ﴿ لى ولد ﴾ على وجه الاستبعاد العادى والتعجب واستعظام قدرة الله عز وجل وقيل على وجه الاستفهام والاستفسار بأنه بالتزوج أو بغيره يكون الولد ويكرن إما تامة وأنى واللام متعلقتان بها بتأخير الفاعل عن الجار والمجرور لما مر من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ويجوز أن تتعلق اللام بمحذوف وقع حالاً من ولد إذ لو تأخر لكان صفة له وإما ناقصة واسمها ولد وخبرها إما أنى واللام متعلقة بمضمر وقع حالاً كما مر أو خبر وأنى نصب على الظرفية وقوله تعالى ﴿ ولم يمسنى بشر ﴾ جملة حالية محققة للاستبعاد أى والحال أنى على حالة منافية للولادة ﴿ قال ﴾ استئناف كما سلف والقائل هو الله تعالى أو جبريل عليه الصلاة والسلام ﴿ كذلك الله يخلق ما يشاء ﴾ الكلام فى إعرابه كما مر فى قصة زكريا بعينه خلا أن إيراد يخلق ههنا مكان يفعل هناك لما أن ولادة العذراء من غير أن يمسه بشر أبدع وأغرب من ولادة عجوز عاقر من شيخ فإن فخلق الخلق المنبئ عن الاختراع أنسب بهذا المقام من مطلق الفعل ولذلك عقب ببيان كيفيته فقيل ﴿ إذا قضى أمراً ﴾ من الأمور أى أراد شيئاً كما فى قوله تعالى إنما أمره إذا أراد شيئاً وأصل القضاء الأحكام أطلق على الإرادة الإلهية القطعية المتعلقة بوجود الشيء لإيجابها إياه البتة وقيل الأمر ومنه قوله تعالى ﴿ وقضى ربك ﴾ ﴿ فإنما يقول له كن ﴾ لا غير ﴿ فيكون ﴾ من غير تريث وهو كما ترى تمثيل للكمال قدرته تعالى وسهولة حصول المقدورات حسب مقتضيه مشيئته وتصوير لسرعة

حدوثها بما هو علم فيها من طاعة المأمور المطيع للأمر القوي المطاع وبيان
لأنه تعالى كما يقدر على خلق الأشياء مدرجا بأسباب ومواد معتادة يقدر على
خلقها دفعة من غير حاجة إلى شيء من الأسباب والمواد ﴿ ويعلمه الكتاب ﴾
أى الكتابة أو جنس الكتب الإلهية ﴿ والحكمة ﴾ أى العلوم وتهذيب
الأخلاق ﴿ والتوراة والإنجيل ﴾ لإفرادهما بالذكر على تقدير كون المراد
بالكتاب جنس الكتب المنزلة لزيادة فضلها وإناقتهما على غيرهما والجملة عطف
على يبشرك أو على وجيها أو على يخلق أو كلام مبتدأ سيق تطيبها لقلبها وإزاحة
لما أهمها من خوف اللامة لما علمت أنها تلد من غير زوج وقرىء ونعلمه
بالنون ﴿ ورسولا إلى بنى إسرائيل ﴾ منصوب بمضمر يعود إليه المعنى
معطوف على يعلمه أى ويجعله رسولا إلى بنى إسرائيل أى كلهم وقال بعض
اليهود إنه كان مبعوثا إلى قوم مخصوصين ثم قيل كان رسولا حال الصبا وقيل
بعد البلوغ ، وكان أول أنبياء بنى إسرائيل يوسف عليه الصلاة والسلام وآخرهم
عيسى عليه الصلاة والسلام وقيل أولهم موسى وآخرهم عيسى عليهم الصلاة
والسلام وقوله تعالى ﴿ أنى قد جئتكم ﴾ معمول لرسولا لما فيه من معنى
النطق أى رسولا ناطقا بآنى الخ وقيل منصوب بمضمر معمول لقول مضمر
معطوف على يعلمه أى يعلمه أى ويقول أرسلت رسولا بآنى قد جئتكم الخ
وقيل معطوف على الأحوال السابقة ولا يقدر فيه كونها فى حكم الغيبة مع
كون هذا فى حكم التكلم لما عرفت من أن فيه معنى النطق كأنه قيل حال
كونه وجيها ورسولا ناطقا بآنى الخ وقرىء ورسول بالجر عطفًا على كلمة
والباء فى قوله تعالى ﴿ بآية ﴾ متعلقة بمحذوف وقع حالا من فاعل الفعل على
أنها للملابسة والتنوين للتفخيم دون الوحدة لظهور تعددها وكثرتها وقرىء
بآيات أو بجثتكم على أنها للتعددية ومن فى قوله تعالى ﴿ من ربكم ﴾ لا ابتداء
الغاية مجازا متعلقة بمحذوف وقع صفة لآية أى قد جئتكم ملتبسا بآية عظيمة
كأنه من ربكم أن أتيتكم بآية عظيمة كأنه منه تعالى والتعرض لوصف الربوبية
مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لتأكيد إيجاب الامتثال بما سيأتى من الأوامر

وقوله تعالى ﴿ أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ﴾ بدل من قوله تعالى ﴿ أنى قد جثتكم ﴾ ومحله النصب على نزع الجار عند سيدييه والقراء والجر على رأى الخليل والسكسائي أو بدل من آية وقيل منصوب بفعل مقدر أى أعنى أنى الخ وقيل مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى هى أنى أخلق لكم وقرىء بكسر الهمزة على الاستئناف أى أقدر لكم أى لأجل تحصيل إيمانكم ودفع تكذيبكم إياى من الطين شيئاً مثل صورة الطير ﴿ فأنفخ فيه ﴾ الضمير للسكاف أى فى ذلك الشئ المماثل لهيئة الطير وقرىء فأنفخ فيها على أن الضمير للهيئة المقدره أى أخلق لكم من الطين هيئة كهيئة الطير فأنفخ فيها ﴿ فيكون طيراً ﴾ حياً طياراً كسائر الطيور ﴿ بإذن الله ﴾ بأمره تعالى أشار عليه الصلاة والسلام بذلك إلى أن إحياءه من الله تعالى لامنه . قيل لم يخلق غير الخفاش ، روى أنه عليه الصلاة والسلام لما ادعى النبوة وأظهر المعجزات طالبوه بخلق الخفاش فأخذ طيناً وصوره ونفخ فيه فإذا هو يطير بين السماء والأرض ، قال وهب كان يطير مادام الناس ينظرون إليه فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتاً ليتميز من خلق الله تعالى قيل إنما طلبوا خلق الخفاش لأنه أكمل الطير خلقاً . وأبلغ دلالة على القدرة لأن له ثدياً وأسناناً وهى تحيض وتطهر وتلد كسائر الحيوان وتضحك كما يضحك الإنسان وتطير بغير ريش ولا تبهر فى ضوء النهار ولا فى ظلمة الليل وإنما ترى فى ساعتين ساعة بعد الغروب وساعة بعد طلوع الفجر وقيل خلق أنواعاً من الطير ﴿ وأبرىء الأكمه ﴾ أى الذى ولد أعمى أو الممسوح العين ﴿ والأبرص ﴾ المبتلى بالبرص لم تكن العرب تنفر من شئ نفرتها منه ويقال له الوضع أيضاً وتخصيص هذين الداءين لأنهما مما أعيى الأطباء وكانوا فى غاية الخذاقة فى زمنه عليه الصلاة والسلام فأراهم الله تعالى المعجزة من ذلك الجنس . روى أنه عليه الصلاة والسلام ربما كان يجتمع عليه أوف من المرضى من أطاق منهم أتاه ومن لم يطق أتاه عيسى عليه الصلاة والسلام وما يداويه إلا بالدعاء ﴿ وأحي الموتى بإذن الله ﴾ كرره مبالغة فى دفع وهم من توهم فيه اللاهوتية . قال السكبي كان عليه الصلاة والسلام يحيى

الموتى بياحى ياقيوم ، أحيا عازر وكان صديقا له فعاش وولدت بعد ذلك . فقالوا إنك تحيي من كان قريبا العهد من الموت فلعلهم لم يموتوا بل أصابتهم سكتة فأحى لنا سام بن نوح فقال دلوني على قبره ففعلوا فقام على قبره فدعا الله عز وجل فقام من قبره وقد شاب رأسه فقال عليه السلام كيف شبت ولم يكن فى زمانكم شيب قال يا روح الله لما دعوتنى سمعت صوتا يقول أجب روح الله فظننت أن الساعة قد قامت فن هول ذلك شبت فسأله عن النزاع قال يا روح الله إن مرارته لم تذهب من حنجرتى وكان بينه وبين موته أكثر من أربعة آلاف سنة وقال للقوم صدقوه فإنه نبي الله فأمن به بعضهم وكذبه آخرون فقالوا هذا سحر فأرنا آية فقال يا فلان أكلت كذا ويا فلان خبيء لك كذا وذلك قوله تعالى ﴿ وَأَنْبِئْكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ أى بالمغيبات من أحوالكم التى لا تشكون فيها وقرىء تذخرون بالذال والتخفيف ﴿ إن فى ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الأمور العظام ﴿ لآية ﴾ عظيمة وقرىء لايات ﴿ لكم ﴾ دالة على صحة رسالتى دلالة واضحة ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ جواب الشرط محذوف لانصباب المعنى إليه أو دلالة المذكور عليه أى انتفعتم بها أو إن كنتم مؤمنين يتأتى منهم الإيمان دللتكم الآية (١) على صحة رسالتى والإيمان بها .

﴿ ومصدقا لما بين يدى من التوراة ﴾ عطف على المضمرة الذى تعلق به قوله تعالى بآية أى قد جئتكم ملتبسا بآية الخ ومصدقا لما بين يدى الخ أو على رسولا على الأوجه الثلاثة فإن مصدقا فيه معنى النطق كما فى رسولا أى ويجعله مصدقا ناطقا بأنى أصدق الخ أو ويقول أرسلت رسولا بأنى قد جئتكم الخ ومصدقا الخ أو حال كونه مصدقا ناطقا بأنى أصدق الخ أو منصوب بإضمار فعل دل عليه قد جئتكم مصدقا الخ وقوله من التوراة إما حال من الموصول والعامل مصدقا وإما من ضميره المستتر فى الظرف الواقع صلة والعامل

(١) صقتت ، ن ط .

الاستقرار المضمرة في الظرف أو نفس الظرف لقيامه مقام الفعل ﴿ ولاحل لكم ﴾ معمول لمضمرة دل عليه ما قبله أى وجئتكم لأحل الخ وقيل عطف على معنى مصدقا كقولهم جئته معذرا ولا جئنا رضاه كأنه قيل قد جئتم لأصدق ولاحل الخ وقيل عطف على آية أى قد جئتم بآية من ربكم ولاحل لكم ﴿ بعض الذى حرم عليكم ﴾ أى فى شريعة موسى عليه الصلاة والسلام من الشحوم والثروب والسّمك ولحوم الإبل والعمل فى السبت ، قيل أحل لهم من السّمك والطير ما لا صُصّته له واختلف فى إحلال السبت وقرىء حرم على تسمية الفاعل وهو ما بين يدي أو الله عز وجل وقرىء حرم بوزن كرم وهذا يدل على أن شرعه كان ناسخا لبعض أحكام التوراة ولايخل ذلك بكونه مصدقا لها لما أن النسخ فى الحقيقة بيان وتخصيص فى الأزمان وتأخير المفعول عن الجار والمجرور لما مر مرارا من المبادرة إلى ذكر ما يسر المخاطبين وللتشويق^(١) إلى ما آخر ﴿ وجئتكم بآية من ربكم ﴾ شاهدة على صحة رسالتى وقرىء بآيات ﴿ فاتقوا الله ﴾ فى عدم قبولها ومخالفة مدلولها ﴿ وأطيعون ﴾ فيما أمركم به وأنما كم عنه بأمر الله تعالى وتلك الآية هى قولى .

﴿ إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾ فإنه الحق الصريح الذى أجمع عليه الرسل قاطبة فيسكون آية بيّنة على أنه عايم الصلاة والسلام من جملتهم وقرىء أن الله بالفتح بدلا من آية أو قد جئتم بآية على أن الله ربى وربكم وقوله فاتقوا الله وأطيعون اعتراض والظاهر أنه تكرير لما سبق أى قد جئتم بآية على أن الله ربى وربكم وقوله فاتقوا الله وأطيعون اعتراض والظاهر أنه تكرير لما سبق أى قد جئتم بآية بعد آية مما ذكرت لكم من خلق الطير وإبراء الأكمه والأبرص والإحياء والإنباء بالخفيات وغيره من ولادتي بغير أب ومن كلامى فى المهد وغير ذلك والأول لتمهيد الحجّة والثانى لتقريبها إلى الحكم ولذلك رتب عليه بالفاء قوله فاتقوا الله أى لما جئتم

(١) فى ط : التشويق

بالمعجزات الباهرة والآيات الظاهرة فاتقوا الله في المخالفة وأطيعون فيما أَدْعُوكُمْ إليه ومعنى قراءة من فتح ولأن الله ربي وربكم فاعبدوه كقوله تعالى (لإيلاف قريش) الخ ثم شرع في الدعوة وأشار إليها بالقول المجمل فقال (إن الله ربي وربكم) إشارة إلى أن استكمال القوة النظرية بالاعتقاد الحق الذي غايته التوحيد وقال فاعبدوه إشارة إلى استكمال القوة العملية فإنه يلزم الطاعة التي هي الإتيان بالأوامر والإنتهاء عن المناهي ثم قرر ذلك بأن بين أن الجمع بين الأمرين هو الطريق المشهود له بالاستقامة ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام قل آمنت بالله ثم استقم ﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر ﴾ شروع في بيان مآل أحواله عليه السلام إثر ما أشير إلى طرف منها بطريق النقل عن الملائكة والفاء فصيحة تنصيح عن تحقق جميع ما قالته الملائكة وخروجه من القوة إلى الفعل حسبها شرحته كما في قوله تعالى (فلما رآه مستقرا عنده) بعد قوله تعالى (أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) كأنه قيل لحملته فولدته فكان كيت وكيت وقال ذيت وذيت وإنما لم يذكره اكتفاء بحكاية الملائكة وإيذايا بعدم الخلف وثقة بما فصل في المواضع الأخر وأما عدم نظم بقية أحواله عليه الصلاة والسلام في سلك النقل فيما للاعتناء بأمرها أو لعدم مناسبتها لمقام فيها من ذكر مقاساته عليه الصلاة والسلام للشدائد ومعاناته للمكابد والمراد بالإحساس الإدراك القوي الجاري مجرى المشاهدة وبالكفر لإصرارهم عليه وعتوهم ومكابرتهم فيه مع العزيمة على قتله عليه الصلاة والسلام كما ينبىء عنه الإحساس فإنه إنما يستعمل في أمثال هذه المواقع عند كون متعلقه أمرا محذورا مكروها كما في قوله عز وجل (فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون) وكلية من متعلقة بأحس والضمير المجرور لبني إسرائيل أى ابتدأ الإحساس من جهتهم وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر غير مرة من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر وقيل متعلقة بمحذوف وقع حالا من الكفر ﴿ قال ﴾ أى خلاص أصحابه لا لجميع بني إسرائيل لقوله تعالى (كما قال عيسى ابن مريم للحواريين) الآية وقوله تعالى (فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة) ليس بنص في

في توجيه الخطاب إلى السكك بل يكفى فيه بلوغ الدعوة إليهم ﴿من أنصارى﴾
الأنصار جمع نصير كأشراف جمع شريف .

﴿إلى الله﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من الياء أى من أنصارى متوجها
إلى الله ملتجئا إليه أو بأنصارى متضمنا معنى الإضافة كأنه قيل من الذين
يضيفون أنفسهم إلى الله عز وجل ينصرونى كما ينصرنى وقيل إلى بمعنى فى
أى فى سبيل الله وقيل بمعنى اللام وقيل بمعنى مع ﴿قال﴾ استئناف مبنى على
سؤال ينساق إليه الذهن كأنه قيل فماذا قالوا فى جوابه عليه الصلاة والسلام
فقيل قال ﴿الحواريون﴾ جمع حوارى يقال فلان حوارى فلان أى صفوته
وخالصته من الحور وهو البياض الخالص ومنه الحواريات للحضريات الخلوص
ألوانهن ونقائهن سمي به أصحاب عيسى عليه الصلاة والسلام لخلوص نياتهم
ونقاء سرائرهم .

وقيل لما عليهم من آثار العبادة وأنوارها وقيل كانوا ملوكا يلبسون
البياض^(١) وذلك أن واحدا من الملوك صنع طعاما وجمع الناس عليه وكان
عيسى عليه الصلاة والسلام على قصعة لا يزال يأكل منها ولا تنقص فذكروا
ذلك للملك فاستدعاه عليه الصلاة والسلام فقال له من أنت قال عيسى ابن مريم
فترك مملكته وتبعه مع أقاربه فأولئك هم الحواريون وقيل كانوا صيادين
يصطادون السمك يلبسون الثياب البيض فيهم شمعون ويعقوب ويوحنا فربهم
عيسى عليه الصلاة والسلام فقال لهم أنتم تصيدون السمك فإن اتبعتمونى صرتم
بمحيط تصيدون الناس بالحياة الأبدية قالوا من أنت قال عيسى ابن مريم عبد الله
ورسوله فطلبوا منه المعجزة وكان شمعون قد رمى شبكته تلك الليلة فما اصطاد
شيئا فأمره عيسى عليه الصلاة والسلام بإلقائها فى الماء مرة أخرى ففعل
فاجتمع فى الشبكة من السمك ما كادت تنمزق واستعانوا بأهل سفينة أخرى
وملأوا السفينتين فعند ذلك آمنوا بعيسى عليه السلام وقيل كانوا اثنى عشر

(١) فى ط. البيض

رجلا آمنوا به عليه الصلاة والسلام واتبعوه وكانوا إذا جاعوا قالوا جمعنا ياروح ﴿ الله فيضرب بيده الأرض فيخرج منها لسلك واحد رغيفان وإذا عطشوا قالوا عطشنا فيضرب بيده الأرض فيخرج منها الماء فيشربون فقالوا من أفضل منا قال عليه الصلاة والسلام أفضل منكم من يعمل بيده ويأكل من كسبه فصاروا يغسلون الثياب بالأجرة فسموا حواريين وقيل إن أمه سلمته إلى صباغ فأراد الصباغ يوما أن يشتغل ببعض مهماته فقال له عليه الصلاة والسلام مهنا ثياب مختلفة قد جعلت لسلك واحد منها علامة معينة فاصبغها بتلك الألوان فغاب فجعل عليه الصلاة والسلام كلها في جب واحد وقال كوني بإذن الله كما أريد فزجع الصباغ فسأله فأخبره بما صنع فقال أفسدت على الثياب قال قم فانظر فجعل يخرج ثوبا أحمر وثوبا أخضر وثوبا أصفر إلى أن أخرج الجميع على أحسن ما يكون حسبما كان يريد فتعجب منه الحاضرون وآمنوا به عليه الصلاة والسلام وهم الحواريون قال القفال ويجوز أن يكون بعض هؤلاء الحواريين الإثني عشر من الملوك وبعضهم من صيادى السمك وبعضهم من القصارين وبعضهم من الصباغين والسلك سماوا بالحواريين لأنهم كانوا أنصار عيسى عليه الصلاة والسلام وأعوانه والمخلصين في طاعته ومحبته .

﴿ نحن أنصار الله ﴾ أى أنصار دينه ورسوله ﴿ آمنا بالله ﴾ استئناف جار مجرى العلة لما قبله فإن الإيمان به تعالى موجب لنصرة دينه والذب عن أوليائه والمخاربة مع أعدائه ﴿ واشهد بأننا مسلمون ﴾ مخلصون في الإيمان منقادون لما تريد منا من نصرتك طلبوا منه عليه الصلاة والسلام الشهادة بذلك يوم القيامة يوم أشهد الرسل عليهم الصلاة والسلام لأمتهم وعليهم إيداننا بأن مرى غرضهم السعادة الآخروية ﴿ ربنا آمنا بما أنزلت ﴾ تضرع إلى الله عز وجل وعرض لحالهم عليه تعالى بعد عرضها على الرسول مبالغة في إظهار أمرهم ﴿ واتبعنا الرسول ﴾ أى فى كل ما يأتى ويذر. من أمور الدين فيدخل فيه الاتباع فى النصرة دخولا أوليا ﴿ فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ أى مع الذين يشهدون بوحدانيتك أو مع الأنبياء الذين يشهدون لاتباعهم أو مع

أمة محمد عليه الصلاة والسلام فإنهم شهداء على الناس قاطبة وهو حال من مفعول اكتبنا .

﴿ ومكروا ﴾ أى الذين علم عيسى عليه الصلاة والسلام كفرهم من اليهود بأن وكلوا به من يقتله غيلة ﴿ ومكر الله ﴾ بأن رفع عيسى عليه الصلاة والسلام وألقى شبهه على من قصد اغتياله حتى قتل والمكر من حيث أنه فى الأصل حيلة يجلب بها غيره إلى مضرة لا يمكن إسناده إليه سبحانه إلا بطريق المشاكلة ، روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن ملك بنى إسرائيل لما تصد قتله عليه الصلاة والسلام أمره جبريل عليه الصلاة والسلام أن يدخل بيتا فيه روزنة فرفعه جبريل من تلك الروزنة إلى السماء فقال الملك لرجل خبيث منهم أدخل عليه فاقتله فدخل البيت فألقى الله عز وجل شبهه عليه فخرج يخبرهم أنه ليس فى البيت فقتلوه وصلبوه وقيل إنه عليه الصلاة والسلام جمع الحوارين ليلة وأوصاهم ثم قال دليكم فى أحدكم قبل أن يصيح الديك وبيعى بدرهم يسيرة ، فخرجوا وتفزعوا وكانت اليهود تطلبه فنافق أحدهم فقال لهم ما تجعلون لى إن دللتكم على المسيح فجعلوا له ثلاثين درهما فأخذها ودلهم عليه فألقى الله عز وجل عليه شبه عيسى عليه الصلاة والسلام ورفعته إلى السماء فأخذوا المنافق وهو يقول أنا دليلكم فلم يلتفتوا إلى قوله وصلبوه ثم قالوا وجهه يشبه وجه عيسى وبدنه يشبه بدن صاحبنا فإن كان هذا عيسى فأين صاحبنا وإن كان صاحبنا فأين عيسى فوقع بينهم قتال عظيم وقيل لما صلب المصلوب جاءت مريم ومعها امرأة أبرأها الله تعالى من الجنون بدعاء عيسى عليه الصلاة والسلام وجعلتا تبيكان على المصلوب فأنزل الله تعالى عيسى عليه الصلاة والسلام فجاءهما فقال علام تبيكان فقالتا عليك فقال إن الله تعالى رفعنى ولم يصننى إلا خير وإن هذا شىء شبه لهم قال محمد بن إسحاق إن اليهود عذبوا الحوارين بعد رفع عيسى عليه الصلاة والسلام ولقوا منهم الجهد فبلغ ذلك ملك الروم وكان ملك اليهود من رعيتة فقيل له إن رجلا من بنى إسرائيل من تحت أمرك كان يخبرهم أنه رسول الله وأراهم إحياء الموتى وإبراء

الأكمة والأبرص وفعل وفعل فقال لو علمت ذلك ما خليت بينهم وبينه ثم بعث إلى الحواريين فأنزعهم من أيديهم .

وسألهم عن عيسى عليه الصلاة والسلام فأخبروه فبايعهم على دينهم وأنزل المصلوب فغيبه وأخذ الخشبة فأكرمها ثم غزا بني إسرائيل وقتل منهم خلقا عظيما ومنه ظهر أصل النصرانية في الروم ثم جاء بعده ملك آخر يقال له تيتوس^(١) وغزا بيت المقدس بعد رفع عيسى عليه الصلاة والسلام بنحو من أربعين سنة فقتل وسبي ولم يترك في مدينة بيت المقدس حجرا على حجر فخرج عند ذلك قريظة والنضير إلى الحجاز قال أهل التواريخ حملت مريم بعيسى عليه الصلاة والسلام وهي بذت ثلاث عشرة سنة وولدت له بيت لحم من أرض داورى سلم، لمضى خمس وستين سنة من غلبة الإسكندر على أرض بابل وأوحى الله تعالى إليه على رأس ثلاثين سنة ورفعه إليه من بيت المقدس ليلة القدر من شهر رمضان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وعاشت أمه بعد رفعه ست سنين ﴿ والله خير الماكرين ﴾ أقوام مكررا وأنفذهم كيدا وأقدرهم على إيصال الضرر من حيث لا يحتسب وإظهار الجلالة في موقع الإضمار لتربية المهابة والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبله .

﴿ إذ قال الله ﴾ ظرف لمسكر الله أو لمضمون نحو وقع ذلك ﴿ يا عيسى إني متوفيك ﴾ أى مستوفى أجلك ومؤخرى إلى أجلك المسمى عاصما لك من قتلهم أو قابضك من الأرض من توفيت مالى أو متوفيك نائما إذ روى أنه رفع وهو نائم وقيل بميتك فى وقتك بعد النزول من السماء ورافعك الآن أو بميتك من الشهوات العائقة عن التزوج إلى عالم الملكوت وقيل أماته الله تعالى سبع ساعات ثم رفعه إلى السماء وإليه ذهب النصرانى ، قال القرطبي والصحيح أن الله تعالى رفعه من غير وفاة ولا نوم كما قال الحسن وابن زيد

(١) فى ط : طيطرس وهما واحد .

وهو اختيار الطبري وهو الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما وأصل
القصة أن اليهود لما عزموا على قتله عليه الصلاة والسلام اجتمع الحواريون
وهم اثنا عشر رجلا في غرفة فدخل عليهم المسيح من مشكاة الغرفة فأخبر بهم
لبليس جميع اليهود فركب منهم أربعة آلاف رجل فأخذوا باب الغرفة فقال
المسيح للحواريين أيكم يخرج ويقتل ويكون معي في الجنة فقال واحد منهم
أنا يا نبي الله فألقى عليه مدرعة من صوف وعمامة من صوف وناولته عكازه
والتقى عليه شبه عيسى عليه الصلاة والسلام فخرج على اليهود فقتلوه وصلبوه
وأما عيسى عليه الصلاة والسلام فكساه الله الريش والنور وألبسه النور وقطع
عنه النور شهوة المطعم والمشرب وذلك قوله تعالى (إني متوفيك) فطار مع
الملائكة ثم إن أصحابه حين رأوا ذلك تفرقوا ثلاث فرق فقالت فرقة كان
الله فينا ثم صعد إلى السماء وهم اليعقوبية وقالت فرقة أخرى كان فينا ابن
الله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه وهم النسطورية وقالت فرقة أخرى منهم كان
فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه وهؤلاء هم المسلمون
فتظاهرت عليهم الفرقتان الكافرتان فقتلوه فلم يزل الإسلام منظمسا إلى أن
بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم .

﴿ ورافعك إلى ﴾ أي إلى محل كرامتي ومقر ملائكتي ﴿ ومطهرك من
الذين كفروا ﴾ أي من سوء جوارهم وخبث صحبتهم ودنس معاشرتهم
﴿ وجاعل الذين اتبعوك ﴾ قال قتادة والربيع والشعبي ومقاتل والكلبي هم
أهل الإسلام الذين صدقوه واتبعوا دينه من أمة محمد صلى الله عليه الصلاة
وسلم دون الذين كذبوه وكذبوا عليه من النصارى ﴿ فوق الذين كفروا ﴾
وهم الذين مكروا به عليه الصلاة والسلام ومن يسير بسيرتهم من اليهود فإن
أهل الإسلام فوقهم ظاهرين بالعزة والمنعة والحجة وقيل هم الحواريون
فيبغي أن تحمل فوقيتهم على فوقية المسلمين بحكم الإتحاد في الإسلام والتوحيد
وقيل هم الروم وقيل هم النصارى فالمراد بالاتباع مجرد الإدعاء والمحبة وإلا
فأولئك الكفرة بمنزل من اتباعه عليه الصلاة والسلام ﴿ إلى يوم القيامة ﴾

غاية للجعل أو للاستقرار المقدر في الظرف لا على معنى أن الجعل أو الفوقية تنهى حينئذ ويتخلص الكفرة من الذلة بل على معنى أن المسلمين يعاونهم إلى تلك الغاية فأما بعدها فيفعل الله تعالى بهم ما يريد ﴿ ثم إلى مرجعكم ﴾ بالبعث وثم للتراخي وتقديم الجار والمجرور للقصر المفيد لتأكيد الوعد والوعيد والضمير لعيسى عليه الصلاة والسلام وغيره من المتبعين له والكافرين به على تغليب المخاطب على الغائب في ضمن الالتفات فإنه أبلغ في التبشير والإنذار ﴿ فأحكم بينكم ﴾ يومئذ إثر رجوعكم إلى ﴿ فيما كنتم فيه تختلفون ﴾ من أمور الدين وفيه متعلق بتختلفون وتقديمه عليه لرعاية الفواصل .

﴿ فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً ﴾ تفسير للحكم الواقع بين الفريقين وتفصيل لسكيفيته والبداية ببيان حال الكفرة لما أن مساق الكلام تهديدهم وزجرهم عما هم عليه من الكفر والعناد وقوله تعالى : ﴿ في الدنيا والآخرة ﴾ متعلق بأعذبهم لا بمعنى إيقاع كل واحد من التعذيب في الدنيا والتعذيب في الآخرة وإحداثهما يوم القيامة بل بمعنى إتمام مجرمهما يومئذ . وقيل إن المرجع أعم من اللعنوى والآخروي وقوله تعالى إلى يوم القيامة غاية للفوقية لا للجعل والرجوع متراخ عن الجعل وهو غير محدود لا عن الفوقية المحدودة على نهج قولك سأعيرك سكنى هذا البيت شهر ثم أخلع عليك خامة فيلزم تأخر الخلع عن الإعارة لا عن الشهر ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ يخلصونهم من عذاب الله تعالى في الدارين وصيغة الجمع لمقابلة ضمير الجمع أى ليس لواحد منهم ناصر واحد ﴿ وأما الذين آمنوا ﴾ بما أرسلت به ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ كما هو دين المؤمنين ﴿ فيوفىهم أجورهم ﴾ أى يعطيهم إياها كاملة ولعل الالتفات إلى الغيبة للإيدان بما بين مصدرى التعذيب والإثابة من الاختلاف من حيث الجلال والجمال ، وقرىء فنوفىهم جريا على سنن العظمه والكبرياء ﴿ والله لا يحب الظالمين ﴾ أى بعضهم فإن هذه الكناية

فاشية في جميع اللغات جارية مجرى الحقيقة وإيراد الظلم للإشعار بأنهم بكفرهم متعدون متجاوزوا الحدود^(١) واضعون للكفر مكان الشكر والإيمان والجملة تذييل لما قبله مقرر لمضمونه .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما سلف من نبأ عيسى عليه الصلاة والسلام وما فيه من معنى البعد للدلالة على عظم شأن الميثاق إليه وبعد منزلته في الشرف وعلى كونه في ظهور الأمر ونباهة الشأن بمنزلة المشاهد للعاين وهو مبتدأ وقوله عز وجل ﴿ تتلوه ﴾ خبره وقوله تعالى ﴿ عليك ﴾ متعلق بتلوه وقوله تعالى ﴿ من الآيات ﴾ حال من الضمير المنصوب أو خبر بعد خبر أو هو الخبر وما بينهما حال من اسم الإشارة أو ذلك خبر لمبتدأ مضمرة أى الأمر ذلك وتلوه حال كما مر وصيغة الاستقبال إما لاستحضار الصورة أو على معناها إذ التلاوة لم تتم بعد ﴿ والذكر الحكيم ﴾ أى المشتمل على الحكم أو المحكم الممنوع من تطرق الخلل إليه والمراد به القرآن فمن تبعيضية أو بعض مخصوص منه فمن يانية وقيل هو اللوح المحفوظ فمن ابتدائية ﴿ إن مثل عيسى ﴾ أى شأنه البديع المنتظم لغرابته فى سلك الأمثال ﴿ عند الله ﴾ أى فى تقديره وحكمه ﴿ كمثل آدم ﴾ أى كحاله العجيبة التى لا يرتاب فيها مراتب ولا ينازع فيها منازع ﴿ خلقه من تراب ﴾ تفسير لما أبهم فى المثل وتفصيل لما أجمل فيه وتوضيح للتمثيل ببيان وجه الشبه بينهما وحسم لمادة شبهة الخصوم فإن إنكار خلق عيسى عليه الصلاة والسلام بلا أب ممن اعترف بخلق آدم عليه الصلاة والسلام بغير أب وأم بما لا يكاد يصح والمعنى خلق قلبه من تراب ﴿ ثم قال له كن ﴾ أى أنشأه بشرا كما فى قوله تعالى ثم (أنشأناه خلقا آخر) أو قدر تكوينه من التراب ثم كونه ويجوز كون ثم لتراخى الخبر به ﴿ فيكون ﴾ حكاية حال ماضية ، روى أن وفد نجران قالوا لرسول صلى الله عليه وسلم مالك تشتم صاحبنا قال وما أقول قالوا تقول إنه عبد قال أجل هو عبد الله

(١) فى ط : متجاوزون عن الحدود

ورسوله وكتبته ألقاها إلى العذراء البتول فغضبوا وقالوا هل رأيت إنسانا من غير أب فحيث سلبت أنه لا أب له من البشر وجب أن يكون أبوه هو الله فقال عليه الصلاة والسلام إن آدم عليه الصلاة والسلام ما كان له أب ولا أم ولم يلزم من ذلك كونه ابناً لله سبحانه وتعالى فكذا حال عيسى عليه الصلاة والسلام .

﴿ الحق من ربك ﴾ خبر مبتدأ محذوف أى هو الحق أى ما قصصنا عليك من نبأ عيسى عليه الصلاة والسلام وأمه والظرف إما حال أى كأننا من ربك ربك أو خبر ثان أى كائن منه تعالى وقيل هما مبتدأ وخبر أى الحق المذكور من الله تعالى والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطب لتشريفه عليه الصلاة والسلام والإيدان بأن تنزيل هذه الآيات الحقة الناطقة بكنهه الأمر ترتبة له عليه الصلاة والسلام ولطف به ﴿ فلا تكن من الممتريين ﴾ فى ذلك والخطاب إما للنبي صلى الله عليه وسلم على طريقة الإلهاب والتهييج لزيادة التثبيت والإشعار بأن الامتراء فى المحذورية بحيث ينبغى أن أن ينهى عنه من لا يكاد يمكن صدوره عنه فكيف بمن هو بصدد الامتراء وإما لكل من له صلاحية الخطاب ﴿ فمن حاجك ﴾ أى من النصارى إذ هم المتصدرون^(١) للمحاجة ﴿ فيه ﴾ أى فى شأن عيسى عليه السلام وأمه زعماء منهم أنه ليس على الشأن المحكى ﴿ من بعد ما جاءك من العلم ﴾ أى ما يوجبه لإجباباً قطعياً من الآيات البيّنات وسمعوا ذلك منك فلم يرعوا عما هم عليه من النعى والضلال ﴿ فقل ﴾ لهم ﴿ تعالوا ﴾ أى هلموا بالرأى والعزيمة ﴿ ندع أبناءنا وأبنائكم ﴾ اكتفى بهم عن ذكر البنات لظهور كونهم أعز منهن وأما النساء فنعلقهن من جهة أخرى ﴿ ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ﴾ أى ليدع كل منا ومنكم نفسه وأعزة أهله وألصقهم بقلبه إلى المباهلة ويحملهم عليها وتقديمهم على النفس فى أثناء المباهلة التى هى من باب المهالك ومطّان التلف مع أن الرجل يخاطر لهم بنفسه ويحارب دونهم للإيدان بكال أمنه عليه الصلاة والسلام وتام

(١) فى ط : المقصدون .

ثقتنه بأمره وقوة يقينه بأنه إن يصيبهم في ذلك شائبة مكروه أصلا وهو السر في تقديم جانبه عليه السلام على جانب المخاطبين في كل من المقدم والمؤخر مع رعاية الأصل في الصيغة فإن غير المتسكلم تبع له في الإسناد .

﴿ ثم نبتهل ﴾ أي نتباهل بأن نلعن السكاذب منا والبهلة بالضم والفتح اللعنة وأصلها الترك من قوطم بهلت الناقة أي تركتها بلا صرار ﴿ فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ عطف على نبتهل مبين لمعناه ، روى أنهم لما دعوا إلى المباهلة قالوا حتى نرجع وننظر فلما خلوا^(١) قالوا للعاقب وكان ذا رأيهم يا عبد المسيح ما ترى فقال والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبي مرسل ولقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم والله ما باهل قوم نبيا قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، ولئن فعاتم لتهلكن ، فإن أبيتكم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أتم عليه فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد غدا محتضنا^(٢) الحسين آخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعلى خلفها - رضى الله عنهم أجمعين - وهو يقول إذا أنا دعوت فأمنوا فقال أسقف نجران يامعشر النصارى إني لأرى وجوها لو سألوا الله تعالى أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبق على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة فقالوا يا أبا القاسم رأينا أن لا بناهلك وأن نترك على دينك ونثبت على ديننا قال صلى الله عليه وسلم دفاذا أبيتكم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما على المسلمين ، فأبوا قال عليه الصلاة والسلام «فإني أنا جزكم ، فقالوا مالنا بحرب العرب طاقة ولكن نصالحك على ألا تغزونا ولا تخيفنا ولا تردنا عن ديننا على أن نؤدى إليك كل عام ألفي حلة ألفا في صفر وألفا في رجب وثلاثين درعا عادية من حديد فصالحهم على ذلك وقال والذي نفسى بيده إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران ولو لا عنوا

(١) في ط : تخالوا .

(٢) في ١٠ : ومعه .

لمسخوا قرده وخنزير ولا ضطرم عليهم الوادى ناراً ولا ستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على رؤس الشجر ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا .

﴿ إن هذا ﴾ أى ما قص من نبأ عيسى وأمه عليهما السلام ﴿ هو القصص الحق ﴾ دون ما عداه من أكاذيب النصارى فهو ضمير الفصل دخلته اللام لكونه أقرب إلى المبتدأ من الخبر وأصلها أن تدخل المبتدأ وقرىء هو بسكون الهاء والقصص خبر إن والحق صفة أو مبتدأ والقصص خبره والجملة خبر لأن ﴿ وما من إله إلا الله ﴾ صرح فيه بمن الاستغراقية تأكيداً للرد على النصارى فى تثلثهم ﴿ وإن الله هو العزيز ﴾ القادر على جميع المقدورات ﴿ الحكيم ﴾ المحيط بالمعلومات لا أحد يشاركه فى الألوهية ﴿ فإن تولوا ﴾ عن التوحيد وقبول الحق الذى قصصنا^(١) عليك بعد ما عاينوا تلك الحجج النيرة والبراهين الساطعة ﴿ فإن الله عليم بالمفسدين ﴾ أى بهم وإنما وضع موضعه ما وضع للإيدان بأن الإعراض عن التوحيد والحق الذى لا يحيد عنه بعدما قامت به الحجج لإفساد للعالم وفيه من شدة الوعيد ما لا يخفى ﴿ قل يا أهل الكتاب ﴾ أمر بخطاب أهل الكتابين وقيل بخطاب وفد نجران وقيل بخطاب يهود المدينة ﴿ تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ﴾ لا يختلف فيها الرسل والكتب وهى ﴿ أن لا نعبد إلا الله ﴾ أى فوحده بالعبادة ونخلص فيها ﴿ ولا نشرك به شيئاً ﴾ ولا نجعل غيره شريكاً له فى استحقاق العبادة ولا نراه أهلاً لأن يعبد ﴿ ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾ بأن نقول عزير ابن الله والمسيح ابن الله ولا نطيع الأحرار فيما أحدثوا من التحريم والتحليل لأن كلا منهم بعضنا بشر مثلنا ، روى أنه لما نزلت اتخذوا أحرارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله قال عدى بن حاتم ما كنا نعبدهم يا رسول الله فقال عليه السلام أليس كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم قال نعم قال عليه السلام هو ذلك ﴿ فإن تولوا ﴾ عما

دعوتهم إليه من التوحيد وترك الإشرك ﴿فقلوا﴾ أى قل لهم أنت والمؤمنون ﴿اشهدوا بأنا مسلمون﴾ أى لزمتمكم الحجّة فاعترفوا بأنا مسلمون دونكم أو اعترفوا بأنكم كافرون بما نطقت به الكتب وتطابقت عليه الرسل عليهم السلام .

﴿تنبية﴾ انظر إلى ما روعى في هذه القصة من المبالغة في الإرشاد وحسن التدرج في المحاجة حيث بين أولاً أحوال عيسى عليه السلام وما توارد عليه من الأطوار المنافية للإلهية ثم ذكر كيفية دعوته للناس إلى التوحيد والإسلام فلما ظهر عندهم دعوا إلى المبالغة بنوع من الإعجاز ثم لما عرضوا عنها وانقادوا ببعض الانقياد دعوا إلى ما اتفق عليه عيسى عليه السلام والإنجيل وسائر الأنبياء عليهم والسلام والكتب ثم لما ظهر عدم إجدائه أيضاً أمر بأن يقال لهم اشهدوا بأنا مسلمون ﴿يا أهل الكتاب﴾ من اليهود والنصارى ﴿لم تحاجون في إبراهيم﴾ أى في ملته وشريعته تنازعت اليهود والنصارى في إبراهيم عليه السلام وزعم كل منهم أنه عليه السلام منهم وترافعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت والمعنى لم تدعون أنه عليه السلام كان منكم ﴿وما أنزلت التوراة﴾ على موسى عليه الصلاة والسلام ﴿والإنجيل﴾ على عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿إلا من بعده﴾ حيث كان من بينه وبين موسى عليهما السلام ألف سنة وبين موسى وعيسى عليهما السلام ألفاً سنة فكيف يمكن أن يتفوه به عاقل ﴿أفلا تعقلون﴾ أى ألا تتفكرون فلا تعقلون بطلان مذهبكم أو أتقولون ذلك فلا تعقلون بطلانه ﴿ها أنتم هؤلاء﴾ جملة من مبتدأ وخبر صدرت بحرف التنبيه ثم بيئت بجملة مستأنفة إشعاراً بكال غفلتهم أى أنتم هؤلاء الأشخاص الحق حيث ﴿حاجبتم فيما لكم به علم﴾ في الجملة حيث وجدتموه في التوراة والإنجيل .

﴿فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم﴾ أصلاً إذ لا ذكر لدين إبراهيم في أحد الكتابين قطعاً وقيل هؤلاء بمعنى الذى وحاجبتم صلته وقيل ها أنتم أصله

أأنتم على الاستفهام للتعجب قبلت الهمزة هاء ﴿ والله يعلم ﴾ ما حاجتكم فيه أو كل شيء فيدخل فيه ذلك دخولا أوليا ﴿ وأنتم لا تعلمون ﴾ أى محل النزاع أو شيئاً من الأشياء التي من جملتها ذلك ﴿ ما كان لإبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ﴾ تصريح بما نطق به البرهان المقرر ﴿ ولكن كان حنيفاً ﴾ أى ما نأخذ عن العقائد الزائفة كلها ﴿ مسلماً ﴾ أى منقاداً لله تعالى وليس المراد أنه كان على ملة الإسلام وإلا لاشترك الإلزام ﴿ وما كان من المشركين ﴾ تعريض بأنهم مشركون بقولهم عزير ابن الله والمسيح ابن الله ورد لادعاء المشركين أنهم على ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم ﴾ أى أقربهم إليه وأخصهم به ﴿ للذين أتبعوه ﴾ أى في زمانه ﴿ وهذا النبي والذين آمنوا ﴾ لموافقته لهم في أكثر ما شرع لهم على الأصالة وقرىء والنبي بالنصب عطفًا على الضمير في أتبعوه وبالجر عطفًا على إبراهيم ﴿ والله ولي المؤمنين ﴾ ينصرونهم ويجازيهم الحسنى بإيمانهم وتخصيص المؤمنين بالذكر ليثبت الحكم في النبي صلى الله عليه وسلم بدلالة النص ﴿ ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ﴾ نزلت في اليهود حين دعوا حذيفة وعمارا ومعاذاً إلى اليهودية ولو بمعنى أن ﴿ وما يضلون إلا أنفسهم ﴾ جملة حالية جىء بها للدلالة على كمال رسوخ المخاطبين وثباتهم على ما هم عليه من الدين القويم أى وما يتخطأهم الإضلال ولا يعود وباله إلا لإلهم لما أنه يضاعف به عذابهم وقيل وما يضلون إلا أمثالهم ويأباه قوله تعالى ﴿ وما يشعرون ﴾ أى باختصاص وباله وضرره بهم .

﴿ يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله ﴾ أى بما نطقتم به التوراة والإنجيل ودلت على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وأنتم تشهدون ﴾ أى والحال أنكم تشهدون أنها آيات الله أو بالقرآن وأنتم تشهدون نعمته في الكتابين أو تعلمون بالمعجزات أنه حق ﴿ يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل ﴾ بتحريفكم وإبراز الباطل في صورته أو بالتقصير في التمييز بينهما وقرىء تلبسون بالتشديد وتلبسون بفتح الباء أى تلبسون الحق مع الباطل كما في قوله عليه

السلام كلابس ثوبي زور ﴿وتسكتمون الحق﴾ أى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ونعمته ﴿وأنتم تعلمون﴾ أى حقيقته ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب﴾ وهم رؤساؤهم ومفسدوهم لأعقابهم ﴿آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا﴾ أى أظهروا الإيمان بالقرآن المنزل عليهم ﴿وجه النهار﴾ أى أوله ﴿واكفروا﴾ أى أظهروا ما أنتم عليه من الكفر به ﴿آخره﴾ مرانين لهم أنكم آمنتم به بادىء الرأى من غير تأمل ثم تأملتم فيه فوقفتم على خلل رأيكم الأول فرجعتم عنه ﴿لعلهم﴾ أى المؤمنين ﴿يرجعون﴾ عما هم عليه من الإيمان به كما رجعتهم والمراد بالطائفة كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف قالا لأصحابهما لما حولت القبلة آمنوا بما أنزل عليهم من إلى الكعبة وصلوا إليها أول النهار ثم صلوا إلى الصخرة آخره لعلهم يقولون هم أعلم منا وقد رجعوا فيرجعون وقيل هم اثنا عشر رجلا من أحناف خبير اتفقوا على أن^(١) يدخلوا فى الإسلام أول النهار ويقولوا آخره نظرنا فى كتابنا وشاورنا علماءنا فلم نجد محمدا بالنعته الذى ورد فى التوراة لعل أصحابه يشكون فيه .

﴿ولا تؤمنوا﴾ أى لا تقروا بتصديق قلبى ﴿إلا من تبع دينكم﴾ أى لأهل دينكم أولا تظهروا إيمانكم وجه النهار إلا من كان على دينكم من قبل فإن رجوعهم أرجى وأهم ﴿قل إن الهدى من الله﴾ يهدى به من يشاء إلى الإيمان ويثبت عليه ﴿أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم﴾ متعلق بمحذوف أى دبرتم ذلك وقلتم لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو بلا تؤمنوا أى ولا تظهروا إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لأشياءكم ولا تفشوه إلى المسلمين لئلا يزيد ثباتهم ولا إلى المشركين لئلا يدعوهم إلى الإسلام وقوله تعالى (قل إن الهدى هدى الله) اعتراض مفيد لكون كيدهم غير مجد لطائل أو خبر إن على أن هدى الله بدل من الهدى وقرىء أن يؤتى على الاستنهام التقريعى وهو مؤيد للوجه الأول

(١) فى ط : تقاولوا بأن .

أى لأن يؤتى أحد الخ دبرتم وقرىء أن على أنها نافية فيكون من كلام الطائفة
أى ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم وقولوا لهم ما يؤتى أحد مثل ما أوتيتهم
(أو يحاجوكم عند ربكم) عطف على أن يؤتى على الوجهين الأولين وعلى
الثالث معناه حتى يحاجوكم عند ربكم فيدحضوا حججتكم والواو ضمير أحد
لأنه فى معنى الجمع إذ المراد به غير أتباعهم (قل إن الفضل بيد الله يؤتية من
يشاء والله واسع عليم) رد لهم وإبطال لما زعموه بالحجة الباهرة (يختص
برحمته) أى يجعل رحمته مقصورة على (من يشاء والله ذو الفضل العظيم)
كلاهما تذييل لما قبله مقرر لمضمونه .

(ومن أهل الكتاب) شروع فى بيان خيانتهم فى المال بعد بيان
خيانتهم فى الدين والجار والمجرور فى محل الرفع على الابتداء حسبها مرتتحقيقه
فى تفسير قوله تعالى (ومن الناس من يقول) الخ خبره قوله تعالى (من إن
تأمنه بقنطار يؤده إليك) على أن المقصود بيان انصافهم بمضمون الجملة
الشرطية لا كونهم ذوات المذكورين كأنه قيل بعض أهل الكتاب بحيث إن
تأمنه بقنطار أى بمال كثير يؤده إليك كعبد الله بن سلام استودعه قرشى ألفا
ومائتى أوقية ذهباً فأداها إليه^(١) (ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك)
كفمنحاص بن عازوراء استودعه قرشى آخر ديناراً فجحده وقيل المسامونون
على الكثير النصارى إذ الغالب فيهم الأمانة والخائنون فى القليل اليهود إذ
الغالب فيهم الخيانة (إلا ما دمت عليه قائماً) استثناء مفرع من أعم الأحوال
أو الأوقات أى لا يؤده إليك فى حال من الأحوال أو فى وقت من الأوقات
إلا فى حال دوام قيامك أو فى وقت دوام قيامك على رأسه مبالغاً فى مطالبته
بالتقاضى وإقامة البينة (ذلك) إشارة إلى ترك الأداء المدلول عليه بقوله
تعالى لا يؤده وما فيه من معنى البعد للإيدان بكال غلوهم فى الشر والفساد

(١) فى ط فأداه إليه

﴿ بأنهم ﴾ أى بسبب أنهم ﴿ قالوا ليس علينا فى الأئمين ﴾ أى فى شأن من ليس من أهل الكتاب ﴿ سبيل ﴾ أى عتاب ومؤاخذة ﴿ ويقولون على الله الكذب ﴾ بادعائهم ذلك ﴿ وهم يعلمون ﴾ أنهم كاذبون مفترون على الله تعالى وذلك لأنهم استحلوا ظلم من خالفهم وقالوا لم يجعل فى التوراة فى حقهم حرمة وقيل عامل اليهود رجالا من قريش فلما أسلموا تقاضوهم فقالوا سقط حقكم حيث تركتم دينكم وزعموا أنه كذلك فى كتابهم وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال عند نزولها كذب أعداء الله ما من شىء فى الجاهلية إلا وهو تحت قدمي إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر .

﴿ بلى ﴾ لإثبات لما نفوه أى بلى عليهم فيهم سبيل وقوله تعالى ﴿ من أوفى بعهدده واتقى فإن الله يحب المتقين ﴾ استئناف مقرر للجمله التى سد بلى مسدها والضمير المجرور لمن أو لله تعالى وعموم المتقين نائب مناب الراجع من الجزاء إلى من ومشعر بأن التقوى ملك الأمر عام للوفاء وغيره من أداء الواجبات والاجتناب عن المناهى ﴿ إن الذين يشترون ﴾ أى يستبدلون ويأخذون ﴿ بعهد الله ﴾ أى بدل ما عاهدوا عليه من الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم والوفاء بالأمانات ﴿ وأيمانهم ﴾ وبما حلفوا به من قولهم والله لنؤمنن به ولننصرنه ﴿ ثمنا قليلا ﴾ هو حطام الدنيا ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بتلك الصفات القبيحة ﴿ لا خلاق ﴾ لا نصيب ﴿ لهم فى الآخرة ﴾ من نعيمها ﴿ ولا يسكلمهم الله ﴾ أى بما يسرهم أو بشىء أصلا وإنما يقع ما يقع من السؤال والتوبيخ والتقرير فى أثناء الحساب من الملائكة عليهم السلام أو لا ينتفعون بكلمات الله تعالى وآياته والظاهر أنه كناية عن شدة غضبه وسخطه نعوذ بالله من ذلك لقوله تعالى ﴿ ولا ينظر إليهم يوم القيامة ﴾ فإنه مجاز عن الاستهانة بهم والسخط عليهم متفرع على الكناية فى حق من يجوز عليه النظر لأن من اعتد بالإنسان التفت إليه وأعاره بعمره^(١) ثم كثر حتى صار عبارة عن الاعتداد والإحسان وإن لم يكن

(١) فى ط : ١١ وأعاره نظره .

ثمة نظر ثم جاء فيمن لا يجوز عليه النظر مجرد المعنى الإحسان مجازاً عما وقع كناية عنه فيمن يجوز عليه النظر ويوم القيامة متعلق بالفعلين وفيه تهويل للوعيد ﴿ولا يذكهم﴾ أى لا يثنى عليهم أو لا يطهرهم من أضرار الأوزار ﴿ولهم عذاب أليم﴾ على ما فعلوه من المعاصى قيل إنها نزلت فى أبى رافع ولبابة ابن أبى الحقيق وحى بن أخطب حرفوا التوراة وبدلوا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذوا الرشوة على ذلك وقيل نزلت فى الأشعث بن قيس حيث كان بينه وبين رجل نزاع فى بشر فاختصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له شاهدك أو يمينه فقال الأشعث إذن يحلف ولا يبالي فقال صلى الله عليه وسلم من حلف على يمين يستحق بها ما لا هو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان وقيل فى رجل أقام سلعة فى السوق فحلف لقد اشتراها بما لم يكن اشتراها به . ﴿وإن منهم﴾ أى من اليهود المخرفين ﴿لفريقاً﴾ ككعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وأضراهما ﴿يلوون ألسنتهم بالكتاب﴾ أى يفتلون بها بقراءته فيميلونها عن المنزل إلى المخرف أو يعطفونها بشبه الكتاب وقرىء يلوون بالشديد ويلوون بقلب الواو المضمومة همزة ثم تخفيفها بحذفها وإلقاء حركتها على ما قبلها من الساكن ﴿لتحسيوه﴾ أى المحرف المدلول عليه بقوله تعالى (يلوون) الخ وقرىء بالياء والضمير للمسلمين ﴿من الكتاب﴾ أى من جملته وقوله تعالى ﴿وما هو من الكتاب﴾ حال من الضمير المنصوب أى والحال أنه ليس منه فى نفس الأمر وفى اعتقادهم أيضاً ﴿ويقولون﴾ مع ما ذكر من اللى والتعريف على طريقة التصريح لا بالتورية والتعريض ﴿هو﴾ أى المحرف ﴿من عند الله﴾ أى منزل من عند الله ﴿وما هو من عند الله﴾ حال من ضمير المتبدأ فى الخبر أى والحال أنه ليس من عنده تعالى فى اعتقادهم أيضاً وفيه من المبالغة فى تشنيعهم وتقبيح أمرهم وكال جرأتهم ما لا يخفى وإظهار الاسم الجليل والكتاب فى محل الإضمار لتهويل ما أقدموا عليه من القول .

﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ أنهم كاذبون ومفترون على الله تعالى وهو تأكيد وتسجيل عليهم بالكذب على الله والتعمد فيه وعن ابن عباس

رضى الله عنهما هم اليهود الذين قدموا على كعب بن الأشرف وغيروا التوراة وكتبوا كتابا بدلوا فيه صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أخذت قريظة بما كتبوا فخلطوه بالكتاب الذى عندهم ﴿ما كان لبشر﴾ بيان لافتراءهم على الأنبياء عليهم السلام حيث قال نصارى نجران إن عيسى عليه السلام أمرنا أن نتخذه ربا حاشاه عليه السلام وإبطال له إثريان افتراءهم على الله سبحانه وإبطاله أى ما صح وما استقام لأحد وإنما قيل لبشر إشعارا بعلته الحكم فإن البشرية منافية للأمر الذى أسنده الكفرة إليهم ﴿أن يؤتبه الله الكتاب﴾ الناطق بالحق الأمر بالتوحيد الناهى عن الإشرak ﴿والحكم﴾ هو (١) الفهم والعلم أو الحكمة . وهي السنة والنبوة .

﴿ثم يقول﴾ ذلك البشر ما شرفه الله عز وجل بما ذكر من التشريعات وعرفه الحق وأطلعته على شئونه العالمة ﴿للناس كونوا عباداً لى﴾ الجار متعلق بمحذوف هو صفة لعباد (٢) أى عباداً كائنين ﴿من دون الله﴾ متعلق بلفظ عبادة لما فيه من معنى الفعل أو صفة ثانية له ويحتمل الحالية لتخصص النكرة بالوصف أى متجاوزين الله تعالى سواء كان ذلك استقلالاً أو اشتراكاً فان التجاوز متحقق فيهما حتماً قيل أن أبا رافع القرظى والسيد النجرانى قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أتريد أن نعبدك ونتخذك ربا فقال عليه السلام معاذ الله أن يعبد غير الله تعالى وأن نأمر بعبادة غيره تعالى فما بذلك بعثنى ولا بذلك أمرنى فنزلت . وقيل قال رجل من المسلمين يا رسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك قال عليه السلام لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله تعالى ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله ﴿ولكن كونوا﴾ أى واسكن يقول كونوا ﴿ربانيين﴾ الربانى منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون كاللحيانى والرقبانى وهو الكامل فى العلم والعمل الشديد التمسك بطاعة الله عز وجل ودينه ﴿بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾ أى بسبب مشاركتكم على تعليم

(٢) فى ط : عبادة .

(١) سقطت من ط .

الكتاب ودراسته أى قراءته فإن جعل خبر كان مضارعا لإفادة الاستمرار المتجدد^(١) وتكرير بما كنتم للإيدان باستقلال كل من استمرار التعليم واستمرار القراءة بالفضل وتحصيل الربانية وتقديم التعليم على الدراسة لزيادة شرفه عليها أو لأن الخطاب الأول لرؤسائهم والثاني لمن دونهم وقرىء تعلمون بمعنى عالمين وتدرسون من التدريس وتدرسون من الإدراس بمعنى التدريس كأكرم بمعنى كرم ويجوز أن تكون القراءة المشهورة أيضاً بهذا المعنى على تقدير بما تدرسونه على الناس .

﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ﴾ بالنصب عطف على ثم يقول ولا مزيدة لتأكيد معنى النفي فى قوله تعالى (ما كان لبشر) أى ما كان لبشر أن يستنبيه الله تعالى ثم يأمر الناس بعبادة نفسه ويأمر باتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً وتوسيط الاستدراك بين المعطوفين للمسارة إلى تحقيق الحق ببيان ما يليق بشأنه ويحق صدوره عنه إثر تنزيهه عما لا يليق بشأبه ويمتنع صدوره عنه وأما ما قيل من أنها غير مزيدة على معنى أنه ليس له أن يأمر بعبادته ولا يأمر باتخاذ أكفائه أرباباً بل ينهى عنه وهو أدنى من العبادة فيقتضى بفساده ما ذكر من توسيط الاستدراك بين الجملتين المتعاطفتين ضرورة أنهما حينئذ فى حكم جملة واحدة وكذا قوله تعالى ﴿ يا أيها الكافر ﴾ فإنه صريح فى أن المراد بيان انتقاء كلا الأمرين قصداً لبيان انتقاء الأول لانتقاء الثانى ويعضده قراءة الرفع على الاستئناف وتجويز الحالية بتقدير المبتدأ أى وهو لا يأمركم إلى آخره بين الفساد لما عرفته آنفاً وقوله تعالى ﴿ بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ يدل على أن الخطاب للمسلمين وهم المستأذنون للسجود عليه السلام ﴿ ولذ أخذ الله ميثاق النبيين ﴾ منصوب بمضمرة خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم أى أذكر وقت أخذه تعالى ميثاقهم .

﴿ لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ﴾

(١) فى ط : التجددى .

ولتنصرنه ﴿ قيل هو على ظاهره وإذا كان هذا حكم الأنبياء عليهم السلام كان الأمم بذلك أولى وأحرى وقيل معناه أخذ الميثاق من النبيين وأممهم واستغنى بذكرهم عن ذكرهم وقيل إضافة الميثاق إلى النبيين إضافة إلى الفاعل والمعنى وإذا أخذ الله الميثاق الذي وثقه الأنبياء على أمتهم وقيل المراد أولاد النبيين على حذف المضف وهم بنو اسرائيل أو سماهم نبيين تهكأ بهم لأنهم كانوا يقولون نحن أولى بالنبوة من محمد صلى الله عليه وسلم لأننا أهل الكتاب والنبيون كانوا منا واللام في لما موطئة للقسم لأن أخذ الميثاق بمعنى الاستخلاف وما تحتل الشرطية ولتؤمنن ساد مسد جواب القسم والشرط وتحتل الخبرية وقرىء لما بالكسر على أن ما مصدرية أى لأجل إيتائى إياكم بعض الكتاب ثم ليجيء رسول مصدق أخذ الله الميثاق لتؤمنن به ولتنصرنه أو موصولة والمعنى أخذه الذى آتيتكموه وجاءكم رسول مصدق له وقرىء لما بمعنى حين آتيتكم أو لمن أجل ما آتيتكم على أن أصله لمن ما بالإدغام فحذف إحدى الميمات الثلاث استئقلا .

﴿ قال ﴾ أى الله تعالى بعد ما أخذ الميثاق ﴿ أقررتم ﴾ بما ذكر ﴿ وأخذتم على ذلكم إصرى ﴾ أى عهدى سمي به لأنه يؤصر أى يشد وقرىء بضم الهمزة إما لغة كعبر وعبر أو جمع إصار وهو ما يشد به ﴿ قالوا ﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قالوا عند ذلك فقيل قالوا ﴿ أقررنا ﴾ وإنما لم يذكر أخذهم الإصرار اكتفاء بذلك ﴿ قال ﴾ تعالى ﴿ فاشهدوا ﴾ أى فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار وقيل الخطاب فيه للملائكة ﴿ وأنا معكم من الشاهدين ﴾ أى وأنا أيضاً على إقراركم ذلك وتشاهدكم به ^(١) شاهد وإدخال مع على المخاطبين لما أنهم المباشرون للشهادة حقيقة وفيه من التأكيد والتحذير ما لا يخفى ﴿ فمن تولى ﴾ أى أعرض عما ذكر ﴿ بعد ذلك ﴾ الميثاق والتوكيد بالإقرار والشهادة فعنى البعد فى اسم الإشارة لتفخيم الميثاق ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى من واجمع باعتبار المعنى كما أن الأفراد فى تولى باعتبار اللفظ وما فيه من معنى البعد للدلالة

(١) سقطت من ط.

على ترامي أمرهم في السوء وبعد منزلتهم في الشر والفساد أي فأولئك المتولون المتصفون بالصفات القبيحة ﴿ هم الفاسقون ﴾ المتمردون الخارجون عن الطاعة من الكفرة فإن الفاسق من كل طائفة من كان متجاوزا عن الحد .

﴿ أفغير دين الله يبغون ﴾ عطف على مقدر أي يتولون فيبغون غير دين الله وتقديم المفعول لأنه المقصود إنكاره أو على الجملة المتقدمة والهمزة متوسطة بينهما للإنكار وقرئء بتاء الخطاب على تقدير وقل لهم ﴿ وله أسلم من في السموات والأرض ﴾ جملة حالية مفيدة لو كادة الإنكار ﴿ طوعا وكرها ﴾ أي طائعين بالنظر واتباع الحجة وكارهين بالسيف ومعاينة ما يلجئ إلى الإسلام كمنطق الجبل وإدراك الغرق والإشراف على الموت أو مختارين كالملائكة والمؤمنين ومستخرين كالكفرة فإنهم لا يقدرون على الامتناع عما قضى عليهم ﴿ ولإيه يرجعون ﴾ أي من فيهما والجمع باعتبار المعنى وقرئء بتاء الخطاب والجملة إما معطوفة على ما قبلها منصوبة على الحالية وإما مستأنفة سيقت التهديد والوعيد ﴿ قل آمنا بالله ﴾ أمر للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يخبر عن نفسه ومن معه من المؤمنين بالإيمان بما ذكر وجمع الضمير في قوله تعالى ﴿ وما أنزل علينا ﴾ وهو القرآن لما أنه منزل عليهم أيضا بتوسط تبليغه إليهم أو لأن المذسوب إلى واحد من الجماعة قد ينسب إلى الكل أو عن نفسه فقط وهو الأنسب بما بعده والجمع لإظهار جلالة قدره عليه السلام ورفعته محله بأمره بأن يتكلم عن نفسه على ديدن الملوك ويجوز أن يكون الأمر عاما والإفراد لتشريفه عليه عليه السلام والإيدان بأنه عليه السلام أصل في ذلك كما في قوله تعالى : (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء) .

﴿ وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ﴾ من الصحف والنزول كما يعدى إلى لانتهاته إلى الرسل يعدى بعلى لأنه من فوق ومن رام الفرق بأن على لكون الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وإلى لكون الخطاب للمؤمنين فقد تعسف ألا يرى إلى قوله تعالى : (بما أنزل إليك الخ)

وقوله (آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا) الخ وإنما قدم المنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم على ما أنزل على سائر الرسل عليهم السلام مع تقدمه عليه نزولاً لأنه المعروف له والعيار عليه والأسباط جمع سبط وهو الحافد والمراد بهم حفدة يعقوب عليه السلام وأبناؤه الإثنا عشر وذريتهم فإنهم حفده إبراهيم عليه السلام ﴿ وما أوتى موسى وعيسى ﴾ من التوراة والإنجيل وسائر المعجزات الظاهرة بأيديهما كما يتبي عنهما إيثار الإيتاء على الإنزال الخاص بالكتاب وتخصيصهما بالذكر لما أن الكلام مع اليهود والنصارى ﴿ والنيبون ﴾ عطف على موسى وعيسى عليهما السلام أى وما أوتى النيبون من المذكورين وغيرهم ﴿ من ربهم ﴾ من الكتب والمعجزات ﴿ لا نفرق بين أحد منهم ﴾ كدأب اليهود والنصارى آمنوا ببعض وكفروا ببعض بل تؤمن بصحة نبوة كل منهم وبحقية ما أنزل إليهم فى زمانهم وعدم التعرض لنفى التفريق بين الكتب لاستلزام المذكور إياه وقد مر تفصيله فى تفسير قوله تعالى (لا نفرق بين أحد من رسله) وهمزة أحداً ما أصلية فهو اسم موضوع لمن يصلح أن يخاطب يستوى فيه المفرد والمثنى والمجموع والمذكر والمؤنث ولذلك صح دخول بين عليه كما فى مثل المسأل بين الناس وإنما مبدلة من الواو فهو بمعنى واحد وعمومه لوقوعه فى حين النفى وصحة دخول بين عليه باعتبار معطوف قد حذف لظهوره أى بين أحد منهم وغيره كما فى قول النابغة :

فما كان بين الخير إذ جاء سالماً أبو حجر إلا ليهال قلائل

أى بين الخير وبينى ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ أى منقادون أو مخلصون أنفسنا له تعالى^(١) لأن جعل له شريكاً فيها وفيه تعريض بإيمان أهل الكتاب فإنه بمنزلة عن ذلك ﴿ ومن يتبع غير الإسلام ﴾ أى غير التوحيد والإتياء للحكم الله تعالى كدأب المشركين صريحاً والمدعين للتوحيد مع إشراكهم كأهل

(١) سقطت من ط .

الكتابين ﴿دينا﴾ ينتحل إليه وهو نصب على مفعول ليبتغ وغير الإسلام حال منه لما أنه كان صفة له فلما قدمت عليه انتصبت حالا وهو المفعول ودينا تمييز لما فيه من الإبهام أو بدل من غير الإسلام ﴿فلن يقبل﴾ ذلك ﴿منه﴾ أبدا بل يرد أشد رد وأقبحه ، وقوله تعالى ﴿وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ إما حال من الضمير المجرور أو استئناف لاجل له من الإعراب أى من الواقعين في الخسران والمعنى أن الإسلام والطالب لغيره فاقده للنفعة واقع في الخسران بإبطال الفطرة السليمة التي فطر الناس عليها وفي ترتيب الرد والخسران على مجرد الطلب دلالة على أن حال من تدين بغير الإسلام واطمان بذلك أفضح وأقبح واستدل به على أن الإيمان هو الإسلام إذ لو كان غيره لم يقبل والجواب أنه ينفي قبول كل دين يغيره لاقبول كل ما يغيره .

﴿كيف يهدى الله﴾ إلى الحق ﴿قوما كفروا بعد إيمانهم﴾ قيل هم عشرة رهط ارتدوا بعد ما آمنوا ولحقوا بمكة وقيل هم يهود قريظة والنضير ومن دان بدينهم كفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد أن كانوا مؤمنين به قبل مبعثه ﴿وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات﴾ استبعاد لأن يهديهم الله تعالى فإن الخائد عن الحق بعد ما وضح له منهك في الضلال بعيد عن الرشاد وقيل نفى وإنكار له وذلك يقتضى أن لا تقبل توبة المرتد وقوله تعالى وشهدوا عطف على إيمانهم باعتبار انحلاله إلى جملة فعلية كما في قوله تعالى (إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله) الخ فإنه في قوة أن يقال بعد أن آمنوا أو حال من ضمير كفروا بإضمار قد وهو دليل على أن الإقرار باللسان خارج عن حقيقة الإيمان ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أى الذين ظلموا أنفسهم بالإخلال بالنظر ووضع الكفر موضع الإيمان فيكيف من جاءه الحق وعرفه ثم أعرض عنه والجملة اعتراضية أو حالية .

﴿أولئك﴾ إشارة إلى المذكورين باعتبار اتصافهم بما مر من الصفات الشنيعة وما فيه من معنى البعد لما مر مرارا وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿جزاؤهم﴾ مبتدأ ثان وقوله تعالى ﴿أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾ خبره

والجملة خبر لأولئك وهذا يدل بمنطوقه على جواز لعنهم وبمفهومه ينفي جواز لعن غيرهم ولعل الفرق بينهم وبين غيرهم أنهم مطبوع على قلوبهم ممنوعون عن الهدى آيسون من الرحمة رأسا بخلاف غيرهم والمراد بالناس المؤمنون أو الكل فإن الكافر أيضا يلعن منكر الحق والمترد عنه ولكن لا يعرف الحق والمترد عنه ولكن لا يعرف الحق بعينه ﴿خالدين فيها﴾ في اللعنة أو العقوبة أو النار وإن لم تذكر لدلالة الكلام عليها ﴿لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾ أى يمهلون ﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك﴾ أى من بعد الارتداد ﴿وأصلحوا﴾ أى ما أفسدوا أو دخلوا فى الصلاح ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ فيقبل توبتهم ويتفضل عليهم وهو تعليل لما دل عليه الاستثناء وقيل نزلت فى الحرث بن سويد حين ندم على رده فأسرل إلى قومه أن يسألوا هل لى من توبة فأرسل إليه أخوه الحلاس الآية فرجع إلى المدينة فتاب ﴿إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا﴾ كاليهود كفروا بعبسى عليه السلام والإنجيل بعد الإيمان بموسى عليه الصلاة والسلام التوراة ، ثم ازدادوا كفرا حيث كفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام والقرآن أو كفروا به عليه السلام بعد ما آمنوا به قبل مبعثه ثم ازدادوا كفرا بالإصرار عليه والظعن فيه والصد عن الإيمان ونقض الميثاق أو كقوم ارتدوا ولحقوا بمكة ثم ازدادوا كفرا بقولهم نتر بص به ريب المنون أو نرجع إليه فنفاقه بإظهار الإيمان .

﴿إن تقبل توبتهم﴾ لأنهم لا يتوبون إلا عند إشرافهم على الهلاك فكفى عن عدم توبتهم بعدم قبولها تغليظا فى شأنهم وإبرازا لحالهم فى صورة حال الأيسين من الرحمة أو لأن توبتهم لا تكون إلا نفاقا لارتدادهم وازديادهم كفرا ولذلك لم تدخل فيه الغاء ﴿وأولئك هم الضالون﴾ الثابتون على الضلال ﴿إن الذين كفروا وما وتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به﴾ لما كان الموت على الكفر سببا لامتناع قبول القديرة زيدت الغاء ههنا للإشعار به وملء الشيء ما يملأ به وذهبا تميز وقرىء بالرفع على أنه بدل من ملء أو خبر لمخدوف ولو افتدى محمول على المعنى كأنه قيل

فلن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً أو العطوف على مضمير تقديره فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً لو تصدق به في الدنيا ولو افتدى به من العذاب في الآخرة أو المراد ولو افتدى بمثله كقوله تعالى ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه والمثل يحذف ويراد كثيراً لأن المثليين في حكم شيء واحد ﴿أولئك﴾ إشارة إلى المذكورين باعتبار إلتصافهم بالصفات الشنيعة المذكورة ﴿لهم عذاب أليم﴾ مؤلم اسم الإشارة مبتدأ والظرف خبره ولاعماده على المبتدأ ارتفع به عذاب أليم على الفاعلية ﴿وما لهم من ناصرين﴾ في دفع العذاب عنهم أو في تخفيفه ومن مزيدة للاستغراق وصيغة الجمع لمراعاة الضمير أى ليس لواحد منهم ناصر واحد .

﴿لن تنالوا البر﴾ من ناله نيلاً إذا أصابه والخطاب للمؤمنين وهو كلام مستأنف سيق لبيان ما ينفع المؤمنين ويقبل منهم لأثر بيان ما لا ينفع الكفرة ولا يقبل منهم^(١). أى لن تبلغوا حقيقة البر الذى يتنافس فيه المتنافسون ولن تدركوا شأوه ولن تلحقوا بزمره الأبرار أولن تنالوا بر الله تعالى وهو ثوابه ورحمته ورضاه وجنته ﴿حتى تنفقوا﴾ أى فى سبيل الله عز وجل رغبة فيما عنده ومن فى قوله تعالى ﴿ما تحبون﴾ تبعيضه ويؤيده قراءة من قرأ بعض ما تحبون وقيل بيانية وما موصولة أو موصوفة أى مما تهوون ويعجبكم من كرائم أموالكم وأحبها إليكم كما فى قوله تعالى ﴿أنفقوا من طيبات ما كسبتم﴾ أو بما يعمها وغيرها من الأعمال والمهج^(٢) على أن المراد بالإتفاق مطلق البذل وفيه من الإيدان بعزة منال البر ما لا يخفى وكان السلف رضى الله عنهم إذا أحبوا شيئاً جعلوه لله عز وجل ، وروى أنها لما نزلت جاء أبو طلحة فقال يا رسول الله إن أحب أموالى إلى بيرحاء فضعها يا رسول الله حيث أراك الله فقال عليه السلام بخ ذلك مال رائج أو راجح وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين فقسمها فى أقاربه وجاء زيد بن حارثة بفرس له كان يحبها فقال هذه فى

(١) فى ط : ممنون

(٢) فى ط : والمهجة .

سبيل الله فحمل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد فكان زيداً
وجد في نفسه وقال إنما أردت أن أتصدق بها^(١) فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم أما إن الله تعالى قد قبلها منك . قيل وفيه دلالة على أن إنفاق أحب
الأموال على أقرب الأتارب أفضل وكتب عمر رضى الله عنه إلى أبي موسى
الأشعري أن يشتري له جارية من سبي جلولاء يوم فتحت مدائن كسرى فلما
جاءت إليه أعجبته فقال إن الله تعالى يقول (إن تناولوا البر حتى تنفقوا مما تحبون)
فأعتقها ، وروى أن عمر بن عبد العزيز كانت لزوجته جارية بارعة الجمال وكان
عمر راغبا فيها وكان قد طلبها منها مرارا فلم تعطها لياه ثم لما ولي الخلافة
زينتها وأرسلتها إليه فقالت قد وهبتكم يا أمير المؤمنين فلتخدمك قال من أين
ملكيتها قالت جئت بها من بيت أبي عبد الملك ففتش عن كيفية تملكها لياها
فقيل إنه كان على فلان العامل ديون فلما توفي أخذت من تركته ففتش عن
حال العامل وأحضر ورثته وأرضاهم جميعا بإعطاء المال ثم توجه إلى الجارية
وكان يهاها هوى شديدا فقال أنت حررة لوجه الله تعالى فقالت لم يا أمير المؤمنين
وقد أزحت عن أمرها كل شبهة قال لست لذن بمن نهى النفس عن الهوى
﴿ وما تنفقوا من شيء ﴾ ما شرطية جازمة لتنفقوا منتصبة به على المفعولية
ومن تبعية متعلقة بمحذوف هو صفة لاسم الشرط أى أى شيء تنفقوا كائنا
من الأشياء فإن المفرد فى مثل هذا الموضع واقع موقع الجمع وقيل محل الجار
والمجرور النصب على التمييز أى أى شيء تنفقوا طيبا تحبونه أو خبيثا
تكرهونه .

﴿ فإن الله به عليم ﴾ تعليل لجواب الشرط واقع موقعه أى فجازيكم
بحسبه جيدا كان أو رديئا فإنه تعالى عليم بكل شيء تنفقونه علما كاملا بحيث

(١) ط : به .

(٢) ط : تملكك

لا يخفى عليه شيء من ذاته وصفاته وتقديم الجار والمجرور لرعاية الفواصل وفيه من الترغيب في إنفاق الجيد والتحذير عن إنفاق الردىء ما لا يخفى ﴿ كل الطعام ﴾ أى كل أفراد المطعوم أو كل أنواعه ﴿ كان حلالاً لبني إسرائيل ﴾ أى حلالاً لهم فإن الحل مصدر نعت به ولذلك استوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث كما في قوله تعالى ﴿ لا هن حل لهم ﴾ ﴿ إلا ما حرم إسرائيل على نفسه ﴾ استثناء متصل من اسم كان أى كان كل المطعومات حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل أى يعقوب عليه السلام على نفسه وهو لحوم الإبل والابلانها ، قيل كان به وجع الدسا فنذر لئن شفى لا يأكل أحب الطعام إليه وكان ذلك أحبه إليه وقيل فعل ذلك للتداوى بإشارة الأطباء واحتج به من جوز للنبي الاجتهاد وللمانع أن يقول كان ذلك بإذن من الله تعالى فيه فهو كتحريمه ابتداء ﴿ من قبل أن تنزل التوراة ﴾ متعلق بقوله تعالى كان حلالاً ولا ضير في توسط الاستثناء بينهما وقيل متعلق بجرم وفيه أن تقييد تحريمه عليه السلام بقبليّة تنزيل التوراة ليس فيه مزيد فائدة أى كان ما عدا المستثنى حلالاً لهم قبل أن تنزل التوراة مشتملة على تحريم ما حرم عليهم لظلمهم وبغيتهم عقوبة لهم وتشديداً وهو رد على اليهود في دعواهم البراءة عما نعى عليهم قوله تعالى ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ﴾ وقوله تعالى ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ﴾ الآيتين بأن قالوا لسنا أول من حرمت عليه وإنما كانت محرمة على نوح وإبراهيم ومن بعدهما حتى انتهى الأمر إلينا فحرمت علينا وتبكيّت لهم في منع النسخ والطعن في دعوى الرسول صلى الله عليه وسلم موافقته لإبراهيم عليه السلام بتحليله لحوم الإبل والابلانها .

﴿ قل فاتوا بالتوراة فاتلوها ﴾ أمر عليه الصلاة والسلام بأن يحاجهم بكتابهم الناطق بأن تحريم ما حرم عليهم تحريم حادث مترتب على ظلمهم وبغيتهم كلما ارتكبوا معصية من المعاصى التى اقترفوها حرم عليهم من الطيبات عقوبة لهم ويكلفهم لإخراجه وتلاوته ليسكتهم ويلقمهم الحجر ويظهر كتبهم وإظهار اسم التوراة لتكون الجملة كلاماً مع اليهود منقطاً عما قبله وقوله تعالى :

﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أى فى دعواكم أنه تحريم قديم وجواب الشرط محذوف للدلالة المذكور عليه أى إن كنتم صادقين فأتوا بالتوراة قائلوها فإن صدقكم مما يدعوكم إلى ذلك البتة . روى أنهم لم يجسروا على إخراج التوراة فبهتوا وانقلبوا صاغرين وفى ذلك من الحججة النيرة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم وجواز النسخ الذى يحدوته مالا يخفى والجملة مستأنفة مقررّة لما قبلها .

﴿ فمن افتري على الله الكذب ﴾ أى اختلقه عليه سبحانه بزعمه أنه حرم ما ذكر قبل نزول التوراة على بنى إسرائيل و[على] ^(١) من تقدمهم من الأمم . ﴿ من بعد ذلك ﴾ من بعد ما ذكر من أمرهم بإحضار التوراة وتلاوتها وما ترتب عليه من التبكيك والإلزام والتقييد به للدلالة على كمال القبح . ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة والجمع باعتبار معناه كما أن الأفراد فى الصلة باعتبار لفظه وما فيه من معنى البعد . الإيشعار ^(٢) ببعده منزلتهم فى الضلال والطغيان أى فأولئك المصرون على الإفتراء بعد ما ظهرت حقيقة الحال وضائق عليهم حلبة المحاجة والجدال . ﴿ هم الظالمون ﴾ المفرطون فى الظلم والعدوان المبعدون فيهما والجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب مسوقة من جهته تعالى لبيان كمال عتوهم وقيل هى فى محل النصب داخلّة تحت القول عطفا على قوله تعالى فأتوا بالتوراة ﴿ قل صدق الله ﴾ أى ظهر وثبت صدقه تعالى فيما أنزل فى شأن التحريم وقيل فى قوله تعالى . (ما كان إبراهيم يهوديا) الخ أو صدق فى كل شأن من الشئون وهو داخل فى ذلك دخولا أوليا وفيه تعريض بكذبهم الصريح ﴿ فاتبعوا ملة إبراهيم ﴾ أى ملة الإسلام التى هى فى الأصل ملة إبراهيم عليه السلام فإنكم ما كنتم متبعين لملته كما تزعمون أو فاتبعوا ملته حتى تتخلصوا من اليهودية التى اضطرتكم إلى التحريف والمكابدة وتلفيق الأكاذيب لتسوية الأغراض الدينية الدنيوية

(١) سقطت من ط .

(٢) فى ط : الايدان .

وأزمتكم تحريم طيبات محللة لإبراهيم عليه السلام ومن تبعه للدلالة على أن ظهور صدقه تعالى موجب للاتباع وترك ما كانوا عليه .

﴿ حنيفا ﴾ أى ما نلا عن الأديان الزائغة كلها ﴿ وما كان من المشركين ﴾
 أى فى أمر من أمور دينه أصلا وفرعا وفيه تعريض بإشراك اليهود وتصريح بأنه عليه السلام ليس بينه وبينهم علاقة دينية قطعا والغرض بيان أن النبي صلى الله عليه وسلم على دين إبراهيم عليه السلام فى الأصول لأنه لا يدعو إلا إلى التوحيد والبراءة عن كل معبود سواه سبحانه وتعالى والجملة تذييل لما قبلها ﴿ إن أول بيت وضع للناس ﴾ شروع فى بيان كفرهم ببعض آخر من شعائر ملته عليه السلام لإثر بيان كفرهم بكون كل المطعومات حلاله عليه السلام. روى أنهم قالوا بيت المقدس أعظم من الكعبة لأنه مهاجر الأنبياء [ولسكونه] (١) فى الأرض المقدسة وقال المسلمون بل الكعبة أعظم فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت أى إن أول بيت وضع للعبادة وجعل متعبدا لهم والواضع هو الله تعالى ويؤيده القراءة على البناء للفاعل وقوله تعالى ﴿ للذى بيكة ﴾ خبر لإن وإنما أخبر بالمعرفة مع كون اسمها نكرة لتخصصها بسبيين. الإضافة والوصف بالجملة بعدها أى للبيت الذى بيكة أى فيها وفى ترك الموصوف من التفخيم ما لا يخفى وبكة لغة فى مكة فإن العرب تعاقب بين الباء والميم كما فى قولهم ضربة لازب ولازم والنميط والنبيط فى اسم موضع بالدهناء وقولهم أمر راتب وراتم وسبد رأسه وسمدها وأغبط الحمى وأغمطت وهى علم للبلد الحرام من بكة إذا زحمه لآزدحام الناس فيه وعن قتادة بيك الناس بعضهم بعضا أو لأنها تيك أعناق الجبابة أى تدقها لم يقصدها جبار إلا قصمه الله عز وجل وقيل بكة اسم لبطن مكة وقيل لموضع البيت وقيل للمسجد نفسه ومكة اسم للبلد كله وأيد هذا بأن التباك وهو الآزدحام إنما يقع عند الطواف وقيل مكة اسم للمسجد والمطاف وبكة اسم للبلد لقوله تعالى (الذى

(١) سقطت من ط .

بمكة مباركا). روى أنه عليه السلام سئل عن أول بيت وضع للناس فقال المسجد الحرام ثم بيت المقدس وسئل كم بينهما فقال أربعون سنة وقيل أول من بناه إبراهيم عليه الصلاة والسلام وقيل آدم عليه السلام وقد استوفينا ما فيه من الآقاويل في سورة البقرة وقيل أول بيت وضع بالشرف لآبازمان .

﴿ مباركا ﴾ كثير الخير والنفع لما يحصل لمن حجه واعتمره واعتكف فيه^(١) وطاف حوله من الثواب وتكفير الذنوب وهو حال من المستكن في الظرف لأن التقدير للذي بيك هو العامل فيه ما قدر في الظرف من فعل الاستقرار ﴿ وهدى للعاملين ﴾ لأنه قبلتهم ومتعبدتهم ولأن فيه آيات عجيبة دالة على عظيم قدرته تعالى وبالغ حكمته كما قال ﴿ فيه آيات بينات ﴾ واضحات كأنحراف الطيور عن موازاة البيت على مدى الأعصار ومخالطة ضواري السباع الصيود في الحرم من غير تعرض لها وقر الله تعالى لكل جبار قصده بسوء كما أصحاب الفيل والجملة مفسرة للهدى أو حال أخرى ﴿ مقام إبراهيم ﴾ أى أثر قدميه عليه السلام في الصخرة التي كان عليه السلام يقوم عليها وقت رفع الحجارة لبناء الكعبة عند ارتفاعه أو عند غسل رأسه على ما روى أنه عليه السلام جاء زائرا من الشام إلى مكة فقالت له امرأة إسماعيل عليه السلام إنزل حتى أغسل رأسك فلم ينزل فجاءته بهذا الحجر فوضعت على شقه الأيمن فوضع قدمه عليه حتى غسلت شق رأسه ثم حولته إلى شقه الأيسر حتى غسلت الشق الآخر فبقى أثر قدميه عليه وهو إما مبتدأ حذف خبره أى منها مقام إبراهيم أو بدل من آيات بدل البعض من الكل أو عطف بيان إما وحده باعتبار كونه بمنزلة آيات كثيرة لظهور شأنه وقوة دلالاته على قدرة الله تعالى وعلى نبوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام كقوله تعالى (إن إبراهيم كان أمة قانتا) أو باعتبار اشتماله على آيات كثيرة فإن كل واحد من أثر قدميه في صخرة صماء وغوصه فيها إل

(١) في ط . دونه .

الكعبيين وإلانة بعض الصخور دون بعض وإبقائه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام وحفظه مع كثرة الأعداء ألف سنة آية مستقلة ويؤيده القراءة على التوحيد ولما بما يفهم من قوله عز وجل .

﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ فإنه وإن كان جملة مستأنفة إبتدائية أو شرطية. لكونها في قوة أن يقال وأمن من دخله فتكون بحسب المعنى والمآل معطوفة على مقام إبراهيم ولا يخفى أن الاثنين نوع من الجمع فيكتفى بذلك أو يحتمل على أنه ذكر من تلك الآيات اثنتان وطوى ذكر ماعداهما دلالة على كثرتها؛ ومعنى أمن داخله أمنه من التعرض له كما في قوله تعالى (أو لم يروا أنا جعلنا حراماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم) وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام (رب اجعل هذا البلد آمناً) وكان الرجل لو جر كل جريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يطلب. وعن عمر رضى الله عنه لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه. ولذلك قال أبو حنيفة رحمة الله تعالى من لزمه القتل في الحل بقصاص أو ردة أو زنى فالتجأ إلى الحرم لم يتعرض له إلا أنه لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى ولا يبايع حتى يضطر إلى الخروج وقيل أمنه من النار وعن النبي صلى الله عليه وسلم من مات في أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمناً وعنه عليه الصلاة والسلام الحجون والبقيع يؤخذ بأطرافهما وينثران في الجنة وهما مقبرتا مكة والمدينة وعن ابن مسعود رضى الله عنه وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على ثنية الحجون وليس بها يومئذ مقبرة فقال يبعث الله تعالى من هذه البقعة ومن هذا الحرم كله سبعين ألفاً وجوهم كالقمر ليلة البدر يدخلون الجنة بغير حساب يشفع كل واحد منهم في سبعين ألفاً وجوهم كالقمر ليلة البدر وعن النبي صلى الله عليه وسلم من صبر على حر مكة ساعة من نهار تباعدت عنه جهنم مسيرة مائتي عام .

﴿ والله على الناس حج البيت ﴾ جملة من مبتدأ هو حج البيت وخبر هو الله وقوله تعالى على الناس متعلق بما تعلق به الخبر من الاستقرار أو بمحذوف هو

حال من الضمير المستكن في الجار والعامل فيه ذلك الاستقرار ويجوز أن يكون على الناس هو الخبر والله متعلق بما تعلق به الخبر ولا سبيل إلى أن يتعلق بمحذوف هو حال من الضمير المستكن في على الناس لاستلزامه تقديم الحال على العامل المعنوي وذلك بما لا مساغ له عند الجمهور وقد جوزه ابن مالك إذا كانت هي ظرفاً أو حرف جر وعاملها كذلك بخلاف الظرف وحرف الجر فإنهما يتقدمان على عاملهما المعنوي واللام في البيت للعهد وحججه قصده للزيارة على الوجه المخصوص المعهود وكسر الحاء لغة نجد وقيل هو اسم للبصدر وقرئ بفتحها ﴿من استطاع إليه سبيلاً﴾ في محل الجر على أنه بدل من الناس بدل البعض من الكل مخصص لعمومه فالضمير العائد إلى المبدل منه محذوف أي من استطاع منهم وقيل بدل الكل على أن المراد بالناس هو البعض المستطيع فلا حاجة إلى الضمير وقيل في محل الرفع على أنه خبر مبتدأ مضمرة أي هم من استطاع الخ وقيل في حيز النصب بتقدير أعنى وقيل كلمة من شرطية والجزء محذوف لدلالة المذكور عليه وكذا العائد إلى الناس أي من استطاع منهم إليه سبيلاً فله عليه حج البيت وقد رجح هذا بكون ما بعده شرطية والضمير المحرور في إليه راجع إلى البيت أو إلى حج والجار متعلق بالسبيل قدم عليه اهتماماً بشأنه كما في قوله عز وجل (فهل إلى خروج من سبيل) و(هل إلى مرد من سبيل) لما فيه من معنى الإفضاء والإيصال كيف لا وهو عبارة عن الوسيلة من مال أو غيره فإنه قد روى أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال السبيل الزاد والراحلة وروى ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً قال يا رسول الله ما السبيل قال الزاد والراحلة وهو المراد بما روى أنه عليه السلام فسر الاستطاعة بالزاد والراحلة وهكذا روى عن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم وعليه أكثر العلماء خلا أن الشافعي أخذ بظاهره فأوجب الاستتابة على الزمن القادر على أجرة من ينوب عنه والظاهر أن عدم تعرضه عليه السلام لصحة البدن لظهور الأمر كيف لا والمفسر في الحقيقة هو السبيل الموصل لنفس المستطيع إلى البيت وذا لا يتصور بدون الصحة وعن ابن الزبير أنه على قدرة القوة

ومذهب مالك أن الرجل إذا وثق بقوته لزمه وعنه ذلك على قدر الطاقة وقد يجد الزاد والراحلة من لا يقدر على السفر وقد يقدر عليه من لا راحلة له ولا زاد وعن الضحاك أنه إذا قدر أن يؤجر نفسه فهو مستطيع .

﴿ومن كفر﴾ وضع من كفر موضع من لم يحج تأكيداً لوجوبه وتشديد [النكير] (١) على تاركة ولذلك قال عليه السلام من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً وروى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه أنه عليه السلام قال في خطبته أيها الناس إن الله فرض الحج على من استطاع إليه سبيلاً ومن لم يفعل فليمت على أي حال شاء يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً ﴿فإن الله غنى عن العالمين﴾ وعن عبادتهم وحيث كان من كفر من جملتهم داخلاً فيها دخولا أولياً اكتفى بذلك عن الضمير الرابط بين الشرط والجزاء ولقد حازت الآية الكريمة من فنون الاعتبارات المعربة عن كمال الاعتناء بأمر الحج والتشديد على تاركة ما لا مزيد عليه حيث أوثرت صيغة الخبر الدالة على التحقق وأبرزت في صورة الجملة الاسمية الدالة على الثبات والاستمرار على وجه يفيد أنه حق واجب لله سبحانه في ذم الناس لا انفكك لهم عن أدائه والخروج عن عهده وسلك بهم مسلك التعميم ثم التخصيص والإيهام ثم التبيين والإجمال ثم التفصيل لما في ذلك من مزيد تحقيق وتقرير وعبر عن تركه بالكفر الذي لا قبيح وراءه وجعل جزاؤه استغناءه تعالى المؤذن بشدة المقت وعظم السخط لاعتن تاركة فقط فإنه قد ضرب عنه صفحا إسقاطاً له عن درجة الاعتبار واستهجاناً بذكره بل عن جميع العالمين ممن فعل وترك ليبدل على نهاية شدة الغضب . هذا وقال ابن عباس والحسن وعطاء رضى الله تعالى عنهم ومن كفر أي جحد فرض الحج وزعم أنه ليس بواجب وعن سعيد بن المسيب نزلت في اليهود فإنهم قالوا الحج إلى مكة غير واجب وروى أنه لما نزل قوله تعالى (ولله على الناس حج البيت) جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الأديان كلهم فخطبهم فقال إن الله كتب عليكم

(١) سقط من ط .

الحج فحجوا فأمنت به ملة واحدة وهم المسلمون وكفرت به خمس ملل قالوا لا تؤمن به ولا نصلي إليه ولا نَحِجُّه فنزل ومن كفر وعن النبي صلى الله عليه وسلم حجوا قبل أن لا تحجوا فإنه قد هدم البيت مرتين ويرفع إلى السماء في الثالثة وروى حجوا قبل أن يمنع البر جانبه وعن ابن مسعود حجوا هذا البيت قبل أن ينبت في البادية شجرة لا تأكل منها دابة إلا انفقت وعن عمر رضی الله عنه لو ترك الناس الحج عاما واحدا ما فوظروا .

﴿قل يا أهل الكتاب﴾ هم اليهود والنصارى وإنما خوطبوا بعنوان أهلية الكتاب الموجبة للإيمان به وبما يصدقه من القرآن العظيم مبالغة في تقييد حالهم في كفرهم بها وقوله عز وجل ﴿لم تكفرون بآيات الله﴾ توبيخ وإنكار لأن يكون لكفرهم بها سبب من الأسباب وتحقيق لما يوجب الاجتناب عنه بالكلمة والمراد بآياته تعالى ما يعنى الآيات القرآنية التي من جملتها ما تلى في شأن الحج وغيره وما في التوراة والإنجيل من شواهد نبوته عليه السلام وقوله تعالى ﴿والله شهيد على ما تعملون﴾ حال من فاعل تكفرون مفيدة للتشديد التوبيخ وتأكيد الإنكار وإظهار الجلالة في موقع الإضمار لتربية المهابة وتهويل الخطب وصيغة المبالغة في شهيد للتشديد في الوعيد وكلمة ما إما عبارة عن كفرهم أو هي على عمومها وهو داخل فيها دخولا أوليا والمعنى لاى سبب تكفرون بآياته عز وعلا^(١) والحال أنه تعالى مبالغ في الاطلاع على جميع أعمالكم وفي مجازاتكم عليها ولا ريب في أن ذلك يسد جميع أنحاء ما تأتون به ويقطع أسبابه بالكلية ﴿قل يا أهل الكتاب﴾ أمر بتوبيخهم بالإضلال لأثر توبيخهم بالاضلال والتكرير للبالغة في حملة عليه السلام على تقريرهم وتوبيخهم وترك عطفه على الأمر السابق للإيدان باستقلالهم كما أن قطع قوله تعالى ﴿لم تصدون﴾ عن قوله تعالى ﴿لم تكفرون﴾ للإشعار بأن كل واحد من كفرهم وصددهم شناعة على حياها مستقلة في استتباع اللائمة والتقرير والتكرير الخطاب بعنوان أهلية الكتاب

(١) في ط : وجل .

لنا كيد الاستقلال وتشديد التشنيع فإن ذلك العنوان كما يستدعى الإيمان بما هو مصدق لما معهم يستدعى ترغيب الناس فيه فصددهم عنه في أقصى مراتب القباحة ولكون صددهم في بعض الصور بتحريف الكتاب والكفر بالآيات الدالة على نبوته عليه السلام وقرىء تصدون من أصدده .

﴿ عن سبيل الله ﴾ أى دينه الحق الموصل إلى السعادة الأبدية وهو التوحيد وملة الإسلام ﴿ من آمن ﴾ مفعول لتصدون قدم عليه الجار والمجرور للاهتمام به . كانوا يفتنون المؤمنين ويحتالون لصددهم عنه ويمنعون من أراد الدخول فيه . بجهدهم ويقولون إن صفتة عليه السلام ليست في كتابهم ولا تقدمت البشارة به عندهم وقيل أتت اليهود الأوس والخزرج فذكروهم ما كان بينهم في الجاهلية من العداوات والحروب ليعودا إلى ما كانوا فيه ﴿ تبغونها ﴾ على إسقاط الجار وإيصال الفعل إلى الضمير كما في قوله :

فتسولى غلامهم ثم نادى أظليما أصيدكم أم حمارا
بمعنى أصيد لكم أى تطلبون لسبيل الله التى هى أقوم السبل ﴿ عوجا ﴾
اعوجاجا بأن تلبسوا على الناس وتوهموا أن فيه ميلا عن الحق بنفى النسخ وتغيير
صفة الرسول صلى الله عليه وسلم عن وجهها ونحو ذلك والجملة حال من فاعل
تصدون وقيل من سبيل الله ﴿ وأنتم شهداء ﴾ حال من فاعل تصدون باعتبار
تقييده بالحال الأولى أو من فاعل تبغونها أى والحال أنكم شهداء تشهدون بأنها
سبيل الله لا يحوم حولها شائبة اعوجاج وأن الصد عنها لإضلال قال ابن عباس
رضى الله عنهما أى شهداء [على] (١) أن فى التوراة إن دين الله الذى لا يقبل غيره .
هو الإسلام أو أنتم عدول فيما بينكم يثقون بأقوالكم ويستشهدونكم فى القضايا
وعظائم الأمور ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ اعتراض تذييلي فيه تهديد ووعيد
شديد قيل لما كان صددهم للمؤمنين بطريق الخفية ختمت الآية الكريمة بما يحسم

(١) سقط من ط .

مادة حيلتهم من إحاطة علمه تعالى بأعمالهم كما أن كفرهم بآيات الله تعالى لما كان بطريق العلانية ختمت الآيه السابقة بشهادته تعالى على ما يعملون .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى المؤمنين تحذيرا لهم عن طاعة أهل الكتاب والافتتان بفتنتهم لأثر توبيخهم بالإغواء والإضلال ردعا لهم عن ذلك وتعليق الرد بطاعة فريق منهم للبالغه في التحذير عن طاعتهم وإيجاب الاجتناب عن مصاحبتهم بالسكينة فإنه في قوة أن يقال لا تطيعوا فريقا الخ كما أن تعميم التوبيخ فيما قبله للبالغه في الزجر أو للمحافظة على سبب النزول فإنه روى أن نفرا من الأوس والخزرج كانوا جلوسا يتحدثون فر بهم شاس بن قيس اليهودي وكان عظيم الكفر شديد الحسد للمسلمين فغاظه ما رأى منهم من تألف القلوب واتحاد الكلمة واجتماع الرأي بعد ما كان بينهم ما كان من العداوة والشنآن فأمر شاسا يهوديا كان معه بأن يجلس إليهم ويذكرهم يوم بعث وكان ذلك يوما عظيما اقتتل فيه الحيان وكان الظفر فيه للأوس وينشدهم ما قيل فيه من الأشعار ففعل فتفاخر القوم وتغاضبوا حتى توثبوا وقالوا السلاح السلاح فاجتمع من القبيلتين خلق عظيم فعند ذلك جاءهم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقال أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله تعالى بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم فعلموا أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم فألقوا السلاح واستغفروا وعانق بعضهم بعضا وانصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال الإمام الواحدى اصطفوا للقتال فنزلت الآية إلى قوله تعالى (لعنكم تهتدون) فجاء النبي صلى الله عليه وسلم حتى قام بين الصفرين فقرأهن ورفع صوته فلما سمعوا صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم أنصتوا له وجعلوا يستمعون له فلما فرغ ألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضا وجعلوا يبكون وقوله تعالى كافرين إما مفعول ثان ليردوكم على تضمين الرد معنى التصيير كما في قوله :

رمى الحدائثان نسوة آل سعد بمقدار سمدن له سمودا
فرد شعورهن السود بيضا ورد وجوههن البيض سودا

أحوال من مفعوله والأول أدخل في تنزيه المؤمنين عن نسبتهم إلى الكفر لما فيه من التصريح بكون الكفر المفروض بطريق القسر وإيراد الطرف مع عدم الحاجة إليه ضرورة سبق الخطاب بعنوان المؤمنين واستحالة تحقق الرد إلى الكفر بدون سبق الإيمان مع ترسيطه بين المفعولين لإظهار كمال شناعة الكفر وغاية بعده من الوقوع إما لزيادة قبحه الصارف العاقل عن مباشرته أو لممانعة الإيمان له كأنه قيل بعد إيمانكم الراسخ وفيه من تثبيت المؤمنين ما لا يخفى.

﴿ وكيف تكفرون ﴾ استفهام إنكاري بمعنى إنكار الوقوع كما في قوله تعالى (كيف يكون للمشركين عهد) الخ لا بمعنى إنكار الواقع كما في قوله تعالى (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا) الخ وفي توجيه الإنكار والاستبعاد إلى كيفية الكفر من المبالغة ما ليس في توجيهه إلى نفسه بأن يقال أتكفرون لأن كل موجود لا بد أن يكون وجوده على حال من الأحوال فإذا أنكر ونفى جميع أحوال وجوده فقد انتفى وجوده بالكلية على الطريق البرهاني وقوله تعالى ﴿ وأتمت تلى عليكم آيات الله ﴾ جملة وقعت حالا من ضمير المخاطبين في تكفرون مؤكدة للإنكار والاستبعاد بما فيها من الشؤون الداعية إلى الثبات على الإيمان الرادعة ^(١) عن الكفر وقوله تعالى ﴿ وفيكم رسوله ﴾ معطوف عليها داخل في حكمها فإن تلاوة آيات الله تعالى عليهم وكون رسوله عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم بتحقيق الحق وإزاحة الشبه من أقوى الزواجر عن الكفر وعدم إسناد التلاوة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم للإيدان باستقلال كل منهما في الباب .

﴿ ومن يعتصم بالله ﴾ أى ومن يتمسك بدينه الحق الذى بينه على

(١) فى ط : الوازعة .

لسان رسوله عليه الصلاة والسلام وهو الإسلام والتوحيد المعبر عنه فيما سبق بسبيل الله ﴿ فقد هدى ﴾ جواب للشرط وقد لإفادة معنى التحقيق كان الهدى قد حصل فهو يخبر عنه حاصلًا ومعنى التوقع فيه ظاهر فإن المعتصم به تعالى متوقع للهدى كما أن قاصد الكريمة متوقع للهدى ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾ موصل إلى المطلوب والتنوين للتفخيم والوصف بالاستقامة للتصريح بالرد على الذين يبعثون له عوجًا وهذا وإن كان هو دينه الحق في الحقيقة والاهتداء إليه هو الاعتصام به بعينه لكن لما اختلف الاعتباران وكان العنوان الأخير بما يتنافس فيه المتنافسون أبرز في معرض الجواب للحث والترغيب على طريقة قوله تعالى ﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ تكرير الخطاب بعنوان الإيمان تشریف إثر تشریف .

خصائص الإسلام

﴿ اتقوا الله ﴾ الاتقاء افتعال من الوقاية وهي فرط الصيانة ﴿ حق تقاته ﴾ أى حق تقواه وما يجب منها وهو استفراغ الوسع في القيام بالموجب والاجتناب عن المحارم كما في قوله تعالى ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ وعن ابن مسعود رضى الله عنه هو أن يطاع ولا يعصى ويذكر ولا ينسى ويشكر ولا يكفر وقد روى مرفوعاً إليه عليه السلام وقيل هو أن لا تأخذه في الله لومة لائم ويقوم بالقسط ولو على نفسه أو ابنه أو أبيه وقيل وهو أن ينزه الطاعة عن الالتفات^(١) إليها وعن توقع المجازاة وقد مر تحقيق الحق في ذلك عند قوله عز وجل ﴿ هدى للمتقين ﴾ والثقة من اتقى كالتؤدة من اتاد وأصلها وقية قلبت واؤها المضمومة تاء كما في تهمة وتخمة وياؤها المفتوحة ألفاً .

﴿ ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ أى مخلصون نفوسكم لله تعالى لا تجعلون فيها شركة لما سواه أصلاً كما في قوله تعالى ﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله ﴾

(١) أى لا يرى نفسه طائفاً إلا بتوفيق الله تعالى ولا يلتفت إلى عمله مجرداً عن

وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى لا تموتن على حال من الأحوال إلا حال تحقق إسلامكم وثباتكم عليه كما تنبى عنه الجملة الاسمية ولو قيل إلا مسلمين لم ينفد بفائدتها والعامل فى الحال ما قبل إلا بعد النقص وظاهر النظم الكريم وإن كان نهياً عن الموت المقيد بقيد هو الكون على أى حال غير حال الإسلام لسكن المقصود هو النهى عن ذلك القيد عند الموت المستلزم للأمر بضده الذى هو الكون على حال الإسلام حينئذ وحيث كان الخطاب للمؤمنين كان المراد لإيجاب الثبات على الإسلام إلى الموت وتوجيه النهى إلى الموت للمبالغة فى النهى عن قيده المذكور فإن النهى عن المقيد فى أمثاله نهى عن القيد ورفع له من أصله بالسكينة مفيد لما لا يفيد النهى عن نفس القيد فإن قولك لا تصل إلا وأنت خاشع يفيد من المبالغة فى إيجاب الخشوع فى الصلاة ما لا يفيد قولك لا تترك الخشوع فى الصلاة لما أن هذا نهى عن ترك الخشوع فقط وذاك نهى عنه وعماً يقارنه ومفيد لكون الخشوع هو العمدة فى الصلاة وأن الصلاة بدونها حقا أن لا تفعل وفيه نوع تحذير عما وراء الموت وقوله عز وجل .

﴿ واعتصموا بحبل الله ﴾ أى بدين الإسلام أو بكتابه لقوله عليه الصلاة والسلام القرآن حبل الله المتين لا تنقضى عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد من قال به صدق ومن عمل به رشد ومن اعتصم به هدى إلى صراط مستقيم إما تمثيل للحالة الحاصلة من استظهارهم به ووثوقهم بحمايته بالحالة الحاصلة من تمسك المتدلى من مكان رفيع بحبل وثيق مأمون الانقطاع من غير اعتبار مجاز فى المفردات وإما استعارة للحبل لما ذكر من الدين أو الكتاب أو الاعتصام ترشيح لها أو مستعار للوثوق به والاعتماد عليه ﴿ جميعاً ﴾ حال من فاعل اعتصموا أى مجتمعين فى الاعتصام ﴿ ولا تفرقوا ﴾ أى لا تفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كأهل الكتاب أو كما كنتم متفرقين فى الجاهلية يحارب بعضهم بعضاً أو لا تحدثوا ما يوجب التفرق^(١) ويزيل الألفة التى أنتم عليها ﴿ واذكروا

(١) وهى البدع التى فرقت الأمة إلى طوائف وشيع يحكمها الهوى ، وقد حدث ذلك فى القرن الثانى الهجرى ، واشتد خطره ، ثم ضعفت تلك الأهواء وتلاشت تقریباً .

نعمة الله ﴿ مصدر مضاف إلى الفاعل وقوله تعالى ﴿ عليكم ﴾ متعلق به أو بمحذوف وقع حالا منه وقوله تعالى ﴿ إذ كنتم ﴾ ظرف له أو للاستقرار في عليكم أى اذكروا إنعامه عليكم أو اذكروا إنعامه مستقراً عليكم وقت كونكم ﴿ أعداء ﴾ في الجاهلية بينكم الإحن والعداوات والحروب المتواصلة وقيل هم الأوس والخزرج كانوا أخوين لأب وأم فوَقعت بين أولادها العداوة والبغضاء وتطاولت الحروب فيما بينهم مائة وعشرين سنة ﴿ فألف بين قلوبكم ﴾ بتوفيقكم للإسلام ﴿ فأصبحتم ﴾ أى فصرتم ﴿ بنعمته ﴾ التى هى ذلك التأليف ﴿ إخوانا ﴾ خبر أصبحتم أى إخوانا متحابين مجتمعين على الأخوة فى الله متراحين متفاحين مشفقين على كلمة الحق وقيل معنى فأصبحتم فدخلتم فى الصباح فالباء حينئذ متعلقة بمحذوف وقع حالا من الفاعل وكذا إخوانا أى فأصبحتم ملتبسين حال كونكم إخوانا .

﴿ وكنتم على شفا حفرة من النار ﴾ شفا الحفرة وشفتها حرفها أى كنتم مشرفين على الوقوع فى نار جهنم لكفركم إذ لو أدرككم الموت على تلك الحالة لوقعتم فيها ﴿ فأنقذكم ﴾ بأن هداكم للإسلام ﴿ منها ﴾ الضمير للحفرة أو للنار أو للشفا والتأنيث للمضاف إليه كما فى قوله :

• كما شرقت صدر القناة من الدم •

أو لأنه بمعنى الشفة فإن شفا البئر وشفتها جانبها كالجانب والجانبية وأصله شفو قلبت الواو ألفا فى المذكر وحذفت فى المؤنث ﴿ كذلك ﴾ إشارة إلى مصدر الفعل الذى بعده وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجة المشار إليه وبعد منزلته فى الفضل وكال تميزه به عما عداه وانتظامه بسببه فى سلك الأمور المشاهدة ، والكاف مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة ومحلها النصب على أنها صفة لمصدر محذوف أى مثل ذلك التبيين الواضح ﴿ يبين الله لكم آياته ﴾ أى دلالاته ﴿ لعلمكم تهتدون ﴾ طلبا لثباتكم على الهدى وازديادكم فيه .

﴿ولكن منكم أمة يدعون إلى الخير﴾ أمرهم الله سبحانه بتكميل الغير وإرشاده إثر أمرهم بتكميل النفس وتهذيبها بما قبله من الأوامر والنواهي تثبيتاً للكل على مراعاة ما فيها من الأحكام بأن يقوم بعضهم بمواجهتها ويحافظ على حقوقها وحدودها ويذكرها الناس كافة ويردعهم عن الإخلال بها والجمهور على إسكان لام الأمر وقرىء بكسرهما على الأصل وهو من كان التامة ومن تبعيضية متعلقة بالأمر أو بمحذوف وقع حالاً من الفاعل وهو أمة ويدعون صفتها أى لتوجد منكم أمة داعية إلى الخير والأمة هى الجماعة التى يؤمها فرق الناس أى يقصدونها ويقتدون بها أو من الناقصة وأمة اسمها ويدعون خبرها أى لتسكن منكم أمة داعين إلى الخير وأياما كان فتوجيه الخطاب إلى الكل مع إسناد الدعوة إلى البعض لتحقيق معنى فرضيتها على الكفاية وأنها واجبة على الكل لكن بحيث إن أقامها البعض سقطت عن الباقيين ولو أحل بها الكل أموا جميعاً لا بحيث يتحتم على الكل إقامتها على ما ينبىء عنه قوله عز وجل ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ الآية ولأنها من عظام الأمور وعزائمها التى لا يتولاها إلا العلماء بأحكامه تعالى ومراتب الاحتساب وكيفية إقامتها فإن من لا يعلمها يوشك أن يأمر بمنكر وينهى عن معروف ويغلظ فى مقام اللين ويلين فى مقام الغلظة وينكر على من لا يزيد الإنكار إلا التماضى والإصرار وقيل من بيانية كما فى قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم) الآية والأمر من كان الناقصة والمعنى كونوا أمه تدعون الآية كقوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) الآية ولا يقتضى ذلك كون الدعوة فرض عين فإن الجهاد من فروض الكفاية مع ثبوته بالخطاب العام^(١) والدعاء إلى الخير عبارة عن الدعاء إلى ما فيه صلاح دينى أو دنيوى فعطف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عليه بقوله تعالى :

(١) فى ١٠ : الأعم .

﴿ ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ مع اندراجهما فيه من باب عطف الخاص على العام لإظهار فضلها وعلوها (١) على سائر الخيرات كعطف جبريل وميكايل على الملائكة عليهم السلام وحذف المفعول الصريح من الأفعال الثلاثة إما للإيدان بظهوره أى يدعون الناس ويأمر ونهم وينهونهم وإما القصد إلى إيجاد نفس الفعل كما في قولك فلان يعطى ويمنع أى يفعلون الدعاء إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿ وأولئك ﴾ إشارة إلى الأمة المذكورة باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت الفاضلة وكما تميزهم بذلك عن عداهم وانتظامهم بسببه في سلك الأمور المشاهدة وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو طابقتهم وبعد منزلتهم في الفضل والإفراد في كاف الخطاب إما لأن المخاطب كل من يصلح للخطاب وإما لأن التعمين غير مقصود أى أولئك الموصوفون بتلك الصفات الكاملة ﴿ هم المفلحون ﴾ أى هم الأحقاء بكال الفلاح وهم ضمير فصل يفصل بين الخبر والصفة ويؤكد النسبة ويفيد اختصاص المسمى بالمستند إليه أو مبتدأ خبره المفلحون والجملة خبر لأولئك وتعريف المفلحون إما للعهد أو للإشارة إلى ما يعرفه كل أحد من حقيقة المفلحين .

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن خير الناس فقال :
 « أمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأوصلهم للرحيم ، وعنه عليه السلام » من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه ، وعنه عليه السلام ، والذي نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذاباً من عنده ثم لتدعنه فلا يستجاب لكم ، وعن علي رضي الله عنه « أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومن شنأ الفاسقين (٢) وغضب لله غضب الله له ، والأمر بالمعروف في الوجوب والندب تابع للأمر به وأما النهي عن المنكر فواجب

(١) في ط : وإنايتهما ، واللعن واحد .

(٢) شنأ الفاسقين أى أبغضهم .

كله فإن جميع ما أنكره الشرع حرام^(١) والعاصي يجب عليه النهي عما ارتكبه
لذ يجب عليه تركه وإنكاره فلا يسقط بترك أحدهما وجوب شيء منهما
والتوبيخ في قوله تعالى ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم﴾ إنما هو على
نسيان أنفسهم لا على أمرهم بالبر وعن السلف مروا بالخبر وإن لم تفعلوا
﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا﴾ هم أهل الكتابين حيث تفرقت اليهود فرقا
والنصارى فرقا ﴿واختلفوا﴾ باستخراج التأويلات الزائفة وكتّم الآيات
الناطقة وتحرّيفها بما أدخلوا إليه من حطام الدنيا الدنيئة ﴿من بعد ما جاءهم
البيّنات﴾ أى الآيات الواضحة المبينة للحق للاتفاق عليه واتحاد الكلمة فالنهي
متوجه إلى المتصددين للدعوة أصالة وإلى أعقابهم تبعا ويجوز تعميم الموصول
للمختلفين من الأمم السالفة المشار إليهم بقوله عز وجل ﴿وما اختلف فيه إلا
الذين أتوه من بعد ما جاءتهم البيّنات﴾ وقيل هم المبتدعة من هذه الأمة وقيل
هم الحرورية^(٢) وعلى كل تقدير فالنهي عنه إنما هو الاختلاف فى الأصول
دون الفروع إلا أن يكون مخالفا للنصوص البيّنة أو الإجماع لقوله عليه الصلاة
والسلام لا اختلاف أمتى رحمة، وقوله عليه السلام من اجتهد فأصاب فله أجران
ومن أخطأ فله أجر واحد .

﴿وأولئك﴾ إشارة إلى المذكورين باعتبار اتصافهم بما فى حيز الصلة وهو
مبتدأ وقوله تعالى ﴿لهم﴾ خبره وقوله تعالى ﴿عذاب عظيم﴾ مرتفع بالظرف
على الفاعلية لاعتماده على المبتدأ أو مبتدأ والظرف خبره والجملة خبر للمبتدأ
الأول وفيه من التأكيد والمبالغة فى وعيد المتفرقين والتشديد فى تهديد المشبهين
بهم ما لا يخفى ﴿يوم تبيض وجوه﴾ أى وجوه كثيرة وقرىء تبيض ﴿وتسود
وجوه﴾ كثيرة وقرىء تسواد وعن عطاء تبيض وجوه المهاجرين والأنصار
وتسود وجوه بنى قريظة والنضير ويوم منصوب على أنه ظرف للاستمرار فى

(١) وهذا الأمر يكتسب الصفة العالمية من عالمية دعوة الإسلام فليس خاصا بالنهى
فى مجتمع المسلمين وحدهم .

(٢) لاداعى للتخصيص فكل من أحدث فى الإسلام بدعة فهو داخل فى هذا النوع

لهم أى لثبوت العذاب العظيم لهم أو على أنه مفعول لمضمر خوطب به المؤمنون تحذيرا لهم عن عاقبة التفرق بعد مجيء البينات وترغيبا في الاتفاق على التمسك بالدين أى اذكروا يوم تبيض الخ وبياض الوجه وسواده كنايةتان عن ظهور بهجة السرور وكآبة الخوف فيه وقيل يوسم أهل الحق ببياض الوجه والصحيفة وإشراق البشرة وسعى النور بين يديه وييمينه وأهل الباطل بأضداد ذلك ﴿فأما الذين اسودت وجوههم﴾ تفصيل لأحوال الصريقين بعد الإشارة إليها إجمالا وتقديم بيان هؤلاء لما أن المقام مقام التحذير عن التشبه بهم مع ما فيه من الجمع بين الإجمال والتفصيل والإفضاء إلى ختم الكلام بحسن حال المؤمنين كما بدىء بذلك عند الإجمال ﴿أكفرتم بعد إيمانكم﴾ على إرادة القول أى فيقال لهم ذلك والهمزة للتوبيخ والتعجب من حالهم والظاهر أنهم أهل الكتابين وكفرهم بعد إيمانهم كفرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد إيمان أسلافهم أو إيمان أنفسهم به قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام أو جميع الكفرة حيث كفروا بعد ما أقروا بالتوحيد يوم الميثاق أو بعد ما تمسكوا من الإيمان بالنظر الصحيح والدلائل الواضحة والآيات البينة وقيل المرتدون وقيل أهل البدع والأهواء والفناء في قوله عز وعلا .

﴿فذوقوا العذاب﴾ أى العذاب المعهود الموصوف بالعظيم للدلالة على أن الأمر بذوق العذاب على طريق الإهانة مترتب على كفرهم المذكور كما أن قوله تعالى ﴿بما كنتم تكفرون﴾ صريح في أن نفس الذوق معال بذلك والجمع بين صيغتي الماضى والمستقبل للدلالة على استمرار كفرهم أو على مضيه في الدنيا ﴿وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله﴾ أعنى الجنة والنعيم المخلد عبر عنها بالرحمة تنبيها على أن المؤمن وإن استغرق عمره في طاعة الله تعالى فإنه لا يدخل الجنة إلا برحمته تعالى وقرىء ابيضت كما قرىء اسودت ﴿هم فيها خالدون﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من السياق كأنه قيل كيف يكونون فيها فقيل هم فيها خالدون لا يظعنون عنها ولا يموتون وتقديم الظرف للمحافظة على رؤس الآى ﴿تلك﴾ إشارة إلى الآيات المشتملة على تنعيم الأبرار

وتعذيب الكفار ومعنى البعد للإيدان بعلو شأنها وسمو مكانها في الشرف وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿آيات الله﴾ خبره وقوله تعالى ﴿تتلوها﴾ جملة حالية من الآيات والعامل فيها معنى الإشارة أو هي الخبر وآيات الله بدل من اسم الإشارة والانتفات إلى التكلم بنون العظمة مع كون التلاوة على لسان جبريل عليه السلام لإبراز كمال العناية بالتلاوة وقرىء يتلوها على إسناد الفعل إلى ضميره تعالى وقوله تعالى ﴿عليك﴾ متعلق بتتلوها وقوله تعالى ﴿الحق﴾ حال مؤكدة من فاعل تتلوها أو من مفعوله أي ملتبسين أو [التلاوة]^(١) ملتبسة بالحق والعدل ليس في حكمها شائبة جور بنقص ثواب المحسن أو بزيادة عقاب المسيء أو بالعقاب من غير جرم بل كل ذلك موفى لهم حسب استحقاقهم بأعمالهم بموجب الوعد والوعيد وقوله ﴿وما الله يريد ظلماً للعالمين﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله على أبلغ وجه وآكده فإن تنكير الظلم وتوجيه النفي إلى إرادته بصيغة المضارع دون نفسه وتعليق الحكم بأحد الجمع المعروف والانتفات إلى الاسم الجليل إشعاراً بعلو الحكم وبيان لسكال نزاهته عز وجل عن الظلم بما لا مزيد عليه أي ما يريد فرداً من أفراد الظلم لفرد من أفراد العالمين في وقت من الأوقات فضلاً عن أن يظلمهم فإن المضارع كما يفيد الاستمرار في الإنبات يفيد في النفي بحسب المقام كما أن الجملة الاسمية تدل بمعرفة المقام على دوام الشبوت وعند دخول حرف النفي تدل على دوام الانتفاء لا على انتفاء الدوام وفي سبك الجملة نوع إيماء إلى التعريض بأن الكفرة هم الظالمون ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد كما في قوله تعالى (إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون).

﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ أي له تعالى وحده من غير شركة أصلاً ما فيهما من المخلوقات الفائقة للحصر ملكاً وخلقاً وإحياء وإماتة وإثابة وتعذيباً وإيراد كلمة ما إما لتغليب غير العقلاء وإما لتنزيلهم منزلة غيرهم إظهاراً

(١) سقطت من ط.

لحقارتهم في مقام بيان عظمتة تعالى ﴿وإلى الله﴾ أي إلى حكمه وقضائه لا إلى غيره شركة أو استقلالا ﴿ترجع الأمور﴾ أي أمورهم فيجازى كلا منهم بما وعد له وأوعده من غير دخل في ذلك لأحد قط فالجملة مقرررة لمضمون ما ورد في جزاء الفريقين وقيل هي معطوفة على ما قبلها مقرررة لمضمونه فإن كون العالمين عبيده تعالى ومخلوقه ومرزوقه يستدعى إرادة الخير بهم ﴿كنتم خير أمة﴾ كلام مستأنف سيق لتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الاتفاق على الحق والدعوة إلى الخير وكنتم من كان الناقصة التي تدل على تحقق شيء بصفة في الزمان الماضي من غير دلالة على عدم سابق أو لاحق كما في قوله تعالى وكان الله غفورا رحيما وقيل كنتم كذلك في علم الله تعالى أو في اللوح أو فيما بين الأمم السالفة وقيل معناه أتم خير أمة ﴿أخرجت للناس﴾ صفة لأمة واللام متعلقة بأخرجت أي أظهرت لهم وقيل بخير أمة أي كنتم خير الناس للناس فهو صريح في أن الخيرية بمعنى النفع للناس وإن فهم ذلك من الإخراج لهم أيضا أي أخرجت لأجلهم ومصالحهم قال أبو هريرة رضي الله عنه معناه كنتم خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل فتدخلونهم في الإسلام وقال قتادة هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم لم يؤمر نبي قبله بالقتال فهم يقاتلون الكفار فيدخلونهم في الإسلام فهم خير أمة للناس .

﴿تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾ استئناف مبين لكونهم خير أمة كما يقال زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بمصالحهم أو خير ثان لكنتم وصيغة المستقبل للدلالة على الاستمرار وخطاب المشافهة وإن كان خاصا بمن شاهد الوحي من المؤمنين لكن حكمه عام لكل قال ابن عباس رضي الله عنهما يريد أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقال الزجاج أصل هذا الخطاب لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سائر أمته وروى الترمذي عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول في قوله تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس أتم تمنون سبعين أمة أتم خيرها وأكرمها على الله تعالى وظاهر أن المراد بكل أمة أوائلهم وأواخرهم

لا أوائلهم فقط فلا بد أن تكون أعقاب هذه الأمة أيضا داخلة في الحكم وكذا الحال فيما روى أن مالك بن الصيف ووهب بن يهوذا اليهوديين مرا بنفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيهم ابن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى حذيفة رضوان الله عليهم فقالا لهم نحن أفضل منكم وديننا خير مما تدعوننا إليه . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما كنتم خير أمة الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وروى عن الضحاك أنهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة الرواة والدعاة الذين أمر الله المسلمين بطاعتهم .

﴿ وتؤمنون بالله ﴾ أى إيماننا متعلقا بكل ما يجب أن يؤمن به من رسول وكتاب وحساب وجزاء وإنما لم يصرح به تفصيلا لظهور أنه الذى يؤمن به المؤمنون وللإيمان بأنه هو الإيمان بالله تعالى حقيقة وأن ما خلا عن شيء من ذلك كإيمان أهل الكتاب ليس من الإيمان بالله ^(١) تعالى فى شيء قال تعالى : (ويقولون يؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا) وإنما أخرج ذلك عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع تقدمه عليهما وجودا ورتبة لأن دلالتهما على خيريتهم للناس أظهر من دلالتة عليهما وليقترن به قوله تعالى .

أهل الكتاب والإسلام

﴿ ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم ﴾ أى لو آمنوا كما يمانكم لكان ذلك خيرا لهم مما هم عليه من الرياسة واستتباع العوام ولازدادت رياستهم وتمتعهم بالحظوظ الدنيوية مع الفوز بما وعدوه على الإيمان من إيتاء الأجر مرتين وقيل مما هم فيه من الكفر فالخيرية إنما هى باعتبار زعمهم وفيه ضرب تهكم بهم وإنما لم يتعرض للؤمن به أصلا للإشعار بظهور أنه الذى يطلق

(١) فى ط : به تعالى .

عليه اسم الإيمان لا يذهب الوهم إلى غيره ولو فصل المؤمن به ههنا أو فيما قبل
 لربما فهم أن لأهل الكتاب أيضا إيمانا في الجملة لكن إيمان المؤمنين خير منه
 وهيئات ذلك ﴿ منهم المؤمنون ﴾ جملة مستأنفة سيقت جوابا عما نشأ من
 الشرطية الدالة على انتفاء الخيرية لانتفاء الإيمان عنهم كأنه قيل هل منهم من
 آمن أو كلهم على الكفر فقبل منهم المؤمنون المعهودون الفائزون بخير الدارين
 كعبد الله بن سلام وأصحابه .

﴿ وأكثرهم الفاسقون ﴾ المتمردون في الكفر الخارجون عن الحدود
 ﴿ إن يضروكم إلا أذى ﴾ استثناء مفرغ من المصدر العام أي لن يضروكم أبدا
 ضرا ما إلا ضرر أذى لا يبالي به من طعن وتهديد لا أثر له ﴿ وإن يقاتلوكم
 يولوكم الأدبار ﴾ أي ينهزمون من غير أن ينالوا منكم شيئا من قتل أو أسر
 ﴿ ثم لا ينصرون ﴾ عطف على الشرطية وشم للتراخي في الرتبة أي لا ينصرون
 من جهة أحد ولا يمنعون منكم قتلا وأخذا وفيه تثبيت لمن آمن منهم فإنهم كانوا
 يؤذونهم بالتلميح بهم وتوبيخهم وتضليلهم وتهديدهم وبشارة لهم بأنهم لا يقدر
 على أن يتجاوزوا الأذى بالقول إلى ضرر يعبا به مع أنه وعدم الغلبة عليهم
 والانتقام منهم وأن عاقبة أمرهم الخذلان والذل وإنما لم يعطف نفي متصوريتهم
 على الجزاء لأن المقصود هو الوعد بنفي النصر مطلقا ولو عطف عليه لكان
 مقيدا بمقاتلتهم كتولية الأدبار وكم بين الوعدين كأنه قيل ثم شأنهم الذي أخبركم
 عنه وأبشركم به أنهم مخذولون منتف عنهم النصر والقوة لا ينصرون بعد ذلك
 بجناح ولا يقومون على ساق ولا يستقيم لهم أمر وكان كذلك حيث لقي بنو
 قريظة والنضير وبنو قينقاع ويهود خيبر ما لقوا .

﴿ ضربت عليهم الذلة ﴾ أي هدر النفس والمال والأهل وذل التمسك
 بالباطل ﴿ أينما ثقفوا ﴾ أي وجدوا ﴿ إلا بحبل من الله وحبل من الناس ﴾
 استثناء من أعم الأحوال أي ضربت عليهم الذلة ضرب القبة على من هي عليه
 في جميع الأحوال إلا حال كونهم معتصمين بذمة الله أو كتابه الذي أتاهم
 وذمة المسلمين أو بذمة الإسلام واتباع سبيل المؤمنين ﴿ وبأوا بغضب من

الله ﴿ أى رجعوا مستوجبين له والتسكير للتفخيم والتحويل ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة لغضب مؤكدة لما أفاده التسكير من الفخامة والهلل أى كائن الله عز وجل ﴾ وضربت عليهم المسكنة ﴿ فى محيطة بهم من جميع جوانبهم واليهود كذلك فى غالب الحال مساكين تحت أيدي المسلمين والنصارى .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من ضرب الذلة والمسكنة عليهم والبوء بالغضب العظيم ﴿ بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ﴾ أى ذلك الذى ذكر كائن بسبب كفرهم المستمر بآيات الله الناطقة بنبوته محمد عليه الصلاة والسلام وتحريفهم لها وبسائر الآيات القرآنية ﴿ ويقتلون الأنبياء بغير حق ﴾ أى فى اعتقادهم أيضا وإسناد القتل إليهم مع أنه فعل أسلافهم لرضاهم به كما أن التحريف مع كونه من أفعال أحبارهم ينسب إلى كل من يسير بسيرتهم ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الكفر والقتل ﴿ بما عصروا وكانوا يعتدون ﴾ أى كائن بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله تعالى على الاستمرار فإن الإصرار على الصغائر يفضى إلى مباشرة الكبائر والاستمرار عليها يؤدى إلى الكفر وقيل معناه أن ضرب الذلة والمسكنة فى الدنيا واستيجاب الغضب فى الآخرة كما هو معلل بكفرهم وقتلهم فهو مسبب عن عصيانهم واعتدائهم من حيث أنهم مخاطبون بالفروع من حيث المؤاخذة ﴿ ليسوا سواء ﴾ جملة مستأنفة سبقت تمهيدا لتعداد محاسن مؤمنى أهل الكتاب وتذكيرا لقوله تعالى ﴿ منهم المؤمنون ﴾ والضمير فى ليسوا لأهل الكتاب جميعا لا للفاسقين منهم خاصة وهو اسم ليس وخبره سواء وإنما أفرد لأنه فى الأصل مصدر والمراد بنفى المساواة نفي المشاركة فى أصل الاتصاف بالقبائح المذكورة لا نفي المساواة فى مراتب الاتصاف بها مع تحقق المشاركة فى أصل الاتصاف بها أى ليس جميع أهل الكتاب متشاركين فى الاتصاف بما ذكر من القبائح والابتلاء بما يترتب عليها من العقوبات وقوله تعالى :

﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة ﴾ استئناف مبين لكيفية عدم تساويهم ومزيل لما فيه من الإبهام كما أن ما سبق من قوله تعالى (تأمرون بالمعروف) الآية مبين لقوله تعالى (كنتم خير أمة) الخ ووضع أهل الكتاب موضع الضمير العائد إليهم لتحقيق ما به الاشتراك بين الفريقين والإيدان بأن تلك الأمة من أوتى نصيباً وافراً من الكتاب لا من أراذلهم والقائمة المستقيمة العادلة من أقت العود فقام بمعنى استقام وهم الذين أسلموا منهم كعبد الله بن سلام وثعلبة بن سعيد وأسيد بن عبيد وأضرابهم وقيل هم أربعون رجلاً من أهل نجران واثنان وثلاثون من الحبشة وثلاثة من الروم كانوا على دين عيسى وصدقوا محمداً عليهما الصلاة والسلام وكان من الأنصار فيهم عدة قبل قدوم النبي عليه السلام منهم أسعد بن زرارة والبراء بن معرور ومحمد بن مسلمة وأبو قيس صرمة بن أنس كانوا موحدين يغتسلون من الجنابة ويقومون بما يعرفون من شرائع الحنيفية حتى بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم فصدقوه ونصروه وقوله تعالى ﴿ يتلون آيات الله ﴾ في محل الرفع على أنه صفة أخرى لأمة وقيل في محل النصب على أنه حال منها لتخصمها بالنعمة والعامل فيه الاستقرار الذي يتضمنه الجار أو من ضميرها في قائمة أو من المستكن في الجار لوقوعه خبراً لأمة والمراد بآيات الله القرآن وقوله تعالى :

﴿ آناء الليل ﴾ ظرف ليتلون أي في ساعاته جمع أنى بزنة أو إلى بزنة معي ، أو أنى بزنة ظلي ، أو إلى بزنة نحى ، أو أنو بزنة جرو .

﴿ وهم يسجدون ﴾ أي يصلون إذ لا تلاوة في السجود قال عليه الصلاة والسلام ألا إنى نهيت أن أقرأ راكعاً وساجداً وتخصيص السجود بالذكر من بين سائر أركان الصلاة لسكونه أدل على كمال الخضوع والتصريح بتلاوتهم آيات الله في الصلاة مع أنها مشتملة عليها قطعاً لزيادة تحقيق المخالفة وتوضيح عدم المساواة بينهم وبين الذين وصفوا آنفاً بالكفر بها وهو السر في تقديم هذا النعت على نعت الإيمان والمراد بصلاتهم التمجيد إذ هو أدخل في مدحهم وفيه تمسنى لهم التلاوة فإنها في المكتوبة وظيفة الإمام واعتبار حالهم عند

الصلاة على الانفراد ياباه مقام المدح وهو الأنسب بالعدول عن إيرادها باسم الجنس المتبادر منه الصلاة المكتوبة وبالتعبير عن وقتها بالآذان المهمة وقيل صلاة العشاء لأن أهل الكتاب لا يصلونها لما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرها ليلة ثم خرج فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال أما أنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم وقرأ هذه الآية وإيراد الجملة اسمية للدلالة على الاستمرار وتكرير الإسناد لتقوية الحكم وتأكيده وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والجملة حال من فاعل يتلون وقيل هي مستأنفة والمعنى أنهم يقومون تارة ويسجدون أخرى يتغنون الفضل والرحمة بأنواع ما يكون في الصلاة من الخضوع لله عز وجل كما في قوله تعالى: (والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما) وقيل المراد بالسجود هو الخضوع كما في قوله تعالى: (ولله يسجد ما في السموات والأرض) ﴿يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ صفة أخرى لأمة مبينة لمباينتهم اليهود من جهة أخرى أى يؤمنون بهما على الوجه الذى نطق به الشرع والإطلاق للإيدان بالغنى عن التقييد لظهور أنه الذى يطلق عليه الإيمان بهما فلا^(١) يذهب الوهم إلى غيره وللتعريض بأن إيمان اليهود بهما مع قولهم عزير ابن الله وكفرهم ببعض الكتب والرسول ووصفهم اليوم الآخر بخلاف أصفته ليس من الإيمان بهما فى شيء أصلا ولو قيد بما ذكر فرجما توهم^(٢) أن المنتقى عنهم هو القيد المذكور مع جواز إطلاق الإيمان على إيمانهم بالأصل وهيات .

﴿ ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ صفتان أخريان لأمة أجرينتا عليهم تحقيقا لمخالفتهم اليهود فى الفضائل المتعلقة بتكميل الغير لإثر بيان مباينتهم لهم فى الخصائص المتعلقة بتكميل النفس وتعريضها بمداهنتهم فى الاحتساب بل بتعكيسهم فى الأمر بإضلال الناس وصددهم عن سبيل الله

(١) فى ط : لا يذهبه .

(٢) فى ط : لربما توهم .

فإنه أمر بالمنكر ونهى عن المعروف ﴿ ويسارعون في الخيرات ﴾ صفة أخرى لأمة جامعة لفنون المحاسن المتعلقة بالنفس وبالغير والمسارة في الخير فرط الرغبة فيه لأن من رغب في الأمر سارع في توليه والقيام به وآثر النور على التراخي أى يبادرون مع كمال الرغبة في فعل أصناف الخيرات اللازمة والمتعدية وفيه تعريض بتباطؤ اليهود فيها بل بمبادرتهم إلى الشرور وإيثار كلمة في على ما وقع في قوله تعالى (وسارعوا إلى مغفرة) الخ للإيدان بأنهم مستقرون في أصل الخير متقلبون في فئونه المترتبة في طبقات الفضل لأنهم خارجون عنها منتهون إليها ﴿ وأولئك ﴾ إشارة إلى الأمة باعتبار اتصافهم بما فصل من النعوت الجليلة وما فيه من معنى البعد للإيدان بعلو درجاتهم وسمو طبقتهم في الفضل وإيثاره على الضمير للإشعار بعلو الحكم والمدح أى أولئك المنعوتون بتلك الصفات الفاضلة بسبب اتصافهم بها ﴿ من الصالحين ﴾ أى من جملة من صلحت أحوالهم عند الله عز وجل واستحقوا رضاه وثنائه ﴿ وما يفعلوا من خير ﴾ كأننا ما كان مما ذكر أو لم يذكر ﴿ فلن يكفروا ﴾ أى لن يعدموا ثوابه البتة عبر عنه بذلك كما عبر عن توفية الثواب بالشكر إظهاراً لكمال تنزهه سبحانه وتعالى عن ترك إثابهم بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى من القبائح وتمديته إلى مفعولين بتضمين معنى الحرمان وإيثار صيغة البناء للمفعول للمجرى على سنن الكبرياء وقرىء الفعلان على صيغة الخطاب .

﴿ والله عليم بالمتقين ﴾ تذييل مقرر ما قبله فإن علمه تعالى بأحوالهم يستدعى توفية أجورهم لاحتمال ، والمراد بالمتقين إما الأمة المعهودة ووضعت موضع الضمير العائد إليهم مدحاً لهم وتعييناً لعنوان تعلق العلم بهم وإشعاراً بمناط لإثابهم وهو التقوى المنطوية^(١) على الخصائص السالفة وإما جنس المتقين عموماً وهم مندرجون تحت حكمه اندراجاً أولياً .

(١) في ط : المنطوي .

أعمال الكافرين ونواياهم

﴿ إن الذين كفروا ﴾ أى بما يجب أن يؤمن به . قال ابن عباس رضى الله عنهما هم بنو قريظة والنضير فإن معاندهم كانت لأجل المال وقيل هم مشركوا قريش فإن أبا جهل كان كثير الافتخار بماله وقيل أبو سفيان وأصحابه فإنه أنفق مالا كثيرا على الكفار يوم بدر وأحد وقيل هم الكفار كافة فإنهم فآخروا بالأموال والأولاد حيث قالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين فرد الله عز وجل عليهم وقال ﴿ لن تغنى عنهم ﴾ أى لن تدفع عنهم ﴿ أموالهم ولا أولادهم من الله ﴾ أى من عذابه تعالى ﴿ شيئا ﴾ أى شيئا يسيرا منه أو شيئا من الإغناء ﴿ وأولئك أصحاب النار ﴾ أى مصاحبوها على الدوام وملازموها ﴿ هم فيها خالدون ﴾ أبدا .

﴿ مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا ﴾ بيان لسكينة عدم إغناء أموالهم التى كانوا يعولون عليها فى جلب المنافع ودفع المضار ويعلقون بها أطباعهم الفارغة ومأموصولة اسمية حذف عائدها أى حال ما ينفقه الكفرة قرابة أو مفاخرة وسمعة أو المنافع رياء وخوفا وقصته العجيبة التى تجرى مجرى المثل فى الغرابة ﴿ كمثل ريح فيها صر ﴾ أى برد شديد فإنه فى الأصل مصدر وإن شاع إطلاقه على الريح الباردة كالصرصر وقيل كلمة فى تجريدية كما فى قوله تعالى (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) ﴿ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم ﴾ بالكفر والمعاصى فبأوا بغضب من الله وإنما وصفوا بذلك لأن الإهلاك عن سخط أشد وأفظع ﴿ فأهلكته ﴾ تقوية لهم ولم تدع منه أثرا ولا عثرا والمراد تشبيه ما أنفقوا فى ضياعه وذهابه بالسكينة من غير أن يعود لإيهم نفع ما بحرث [قوم] (١) كفار ضربته صر فاستأصلته ولم يبق لهم فيه منفعة ما بوجه من الوجوه وهو من التشبيه المركب الذى مر تفصيله فى تفسير قوله تعالى (كمثل الذى استوقد نارا) ولذلك لم يبال بإيلاء كلمة التشبيه الريح

(١) سقطت من ظ

دون الحرث ويجوز أن يراد مثل إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك ربح أو مثل ما ينفقون كمثل مهلك ربح وهو الحرث وقرىء تنفقون ﴿ وما ظلمهم الله ﴾ بما بينه من ضياع ما أنفقوا من الأموال ﴿ ولكن أنفسهم يظلمون ﴾ لما أضاعوها بإففاقها لا على ما ينبغي وتقديم المفعول لرعاية الفواصل لا للتخصيص إذ الكلام في الفعل باعتبار تعلقه بالفاعل لا بالمفعول أى ما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار وقد جوز أن يكون المعنى وما ظلم الله تعالى أصحاب الحرث بإهلاكه ولكنهم ظلموا أنفسهم بارتكاب ما استحقوا به العقوبة وبأباه أنه قد مر التعرض له تصريحاً وقرىء ولكن بالتشديد على أن أنفسهم اسمها ويظلمون خبرها والعائد محذوف للفاصلة أى ولكن أنفسهم بظلمونها وأما تقدير ضمير الشأن فلا سبيل إليه لاختصاصه بالشعر ضرورة كما في قوله :

﴿ ولكن من يبصر جفونك يعشق ﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة ﴾ بطانة الرجل ووليجه من يعرفه أسرارهم ثقة به شبه ببطانة الثوب كما شبه بالشعار قال عليه الصلاة والسلام د الأنصار شعار والناس دثار، قال ابن عباس رضى الله عنهما كان رجال من المؤمنين يواصلون اليهود لما بينهم من القرابة والصدقة والمخالفة^(١) فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال مجاهد نزلت في قوم من المؤمنين كانوا يواصلون المنافقين فنهوا عن ذلك ويؤيده قوله تعالى (وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) وهى صفة المنافق وأياما كان فالحكم عام للكفرة كافة ﴿ من دونكم ﴾ أى من دون المسلمين وهو متعلق بلا تتخذوا أو بمحذوف وقع صفة لبطانة أى كائنة من دونكم مجاوزة لكم .

﴿ لا يألونكم خبالا ﴾ جملة مستأنفة مبيته لحالم داعية إلى الاجتناب عنهم

(١) فى ط : الحلف .

أو صفة بطانة يقال آلا في الأمر إذا أقصر فيه ثم استعمل معدى إلى مفعولين في قولهم لا آلوك نصحا ولا آلوك جهدا على تضمين معنى المنع والنقص والخيال الفساد أى لا يقصرون لكم في [تمنى] (١) الفساد ﴿ ودوا ما عنتم ﴾ أى تمنوا عنتم أى مشفتكم وشدة ضرركم وهو أيضاً استئناف مؤكدا للمنى موجب لزيادة الاجتناب عن المنهى عنه ﴿ قد بدت البغضاء من أفواههم ﴾ استئناف آخر مفيد لمزيد الاجتناب عن المنهى عنه أى قد ظهرت البغضاء في كلامهم لما أنهم لا يتماثلون مع مبغضهم في ضبط أنفسهم وتحاملهم عليها أن ينفلت من أسنتهم ما يعلم به بغضهم للمسلمين وقرىء قد بدا البغضاء والأفواه جمع فم وأصله فوه فلامه هاء يدل على ذلك جمعه على أفواه وتصغيره على فويه والنسبة إليه فوهى ﴿ وما تخفى صدورهم أكبر ﴾ مما بدا لأن بدوه ليس عن روية واختيار ﴿ قد بينا لكم الآيات ﴾ الدالة على وجوب الإخلاص في الدين وموالاتة المؤمنين ومعاداة الكافرين ﴿ إن كنتم تعقلون ﴾ أى إن كنتم من أهل العقل أو إن كنتم تعقلون ما بين لكم من الآيات والجواب محذوف للدلالة المذكور عليه .

﴿ ها أنتم أولاء ﴾ جملة من مبتدأ وخبر صدرت بحرف التنبيه لإظهار آلكمال العناية بمضمونها أى أنتم أولاء المخطئون في موالاتهم وقوله تعالى (تحبونهم ولا يحبونكم) بيان لخطئهم في ذلك وهو خبر ثان لأنتم أو خبر لأولاء والجملة خبر لأنتم كقولك أنت زيد تحبه أو صلة له أو حال والعامل معنى الإشارة ويجوز أن ينتصب أولاء بفعل يفسره ما بعده وتكون الجملة خبرا ﴿ وتؤمنون بالكتاب كله ﴾ أى بجنس الكتب جميعا وهو حال من ضمير المفعول في لا يحبونكم والمعنى لا يحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتابهم فإلحكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بكتابكم وفيه توبيخ بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم

(١) سقطت من ط .

﴿ وَإِذَا لَقوكم قالوا آمنا ﴾ نفاقاً ﴿ وَإِذَا خلوا عَضُوا عَلَيْكم الأنامل الغيظ ﴾ أى من أجله تأسفاً وتحسراً حيث لم يجدوا إلى التشفى سبيلاً ﴿ قل موتوا بغيظكم ﴾ دعاء عليهم بدوام الغيظ وزيادته بتضاعف قوة الإسلام وأهله إلى أن يهلكوا به أو باشتداده إلى أن يهلككم ﴿ إن الله عليم بذات الصدور ﴾ فيعلم ما فى صدوركم من العداوة والبغضاء والحق وهو يحتتمل أن يكون من المقول أى وقول لهم إن الله تعالى عليهم بما هو أخفى مما تخفونه من عض الأنامل غيظاً وأن يكون خارجاً عنه بمعنى لا تتعجب من إطلاعى إياك على أسرارهم فإنى عليم بذات الصدور وقيل هو أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بطيب النفس وقوة الرجاء والاستبشار بوعد الله تعالى أن يهلكوا غيظاً بإعزاز الإسلام وإذلالهم بقوته^(١) من غير أن يكون ثمة قول كأنه قيل حدث نفسك بذلك .

﴿ إن تمسككم حسنة تسوؤم وإن تصيبكم سيئة يفرحوا بها ﴾ بيان لتناهى عداوتهم إلى حد أن حسدوا ما نالهم من خير ومنفعة وشتموا بما أصابهم من ضرر وشدة وذكر المس مع الحسننة والإصابة مع السيئة إما للإيذان بأن مدار مسامتهم أذى مراتب إصابة الحسننة ومناط فرحهم تمام إصابة السيئة وإما لأن المس مستعار لمعنى الإصابة ﴿ وإن تصبروا ﴾ أى على عدوانتهم أو على مشاق التكليف ﴿ وتتنقوا ﴾ ما حرم الله تعالى عليكم ونهاكم عنه ﴿ لا يضركم كيدهم ﴾ مكرم وحيلتهم التى دبروها لأجلكم وقرىء لا يضركم بكسر الضاد وجرم الراء على جواب الشرط من ضاره يضره بمعنى ضره يضره وضممة الراء فى القراءة المشهورة للإتباع كضممة مد ﴿ شيئاً ﴾ نصب على المصدرية أى لا يضركم شيئاً من الضرر بفضل الله وحفظه الموعد للصابرين والمتقين ولأن الحمد فى الأمر المتدرب بالاتقاء والصبر يكون جريئاً على الخصم ﴿ إن الله بما يعملون ﴾ فى عداوتكم من الكيد ﴿ محيط ﴾ علماً فيعاقبهم على ذلك وقرىء بالتاء الفوقية^(٢) أى بما تعملون من الصبر والتقوى فيجازيكم بما أنتم أهله .

(١) فى ط : وإذلالهم به .

(٢) فى ط : العوقانية .

غزوة بدر

﴿ وإذ غدوت ﴾ كلام مستأنف سيق للاستشهاد بما فيه من استتباع عدم الصبر والتقوى للضرر على أن وجودهما مستتبع لما وعد من النجاة من مضرة كيد الأعداء وإذ نصت على المفعولية بمضمر خو طب به النبي صلى الله عليه وسلم خاصة مع عموم الخطاب فيما قبله وما بعده له وللمؤمنين لا اختصاص مضمون الكلام به عليه السلام أى واذ كر لهم وقت غدوك ليتذكروا ما وقع فيه من الأحوال الناشئة عن عدم الصبر فيعلموا أنهم إن لم يوا الصبر والتقوى لا يضرهم كيد الكفرة وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات للمبالغة في إيجابها كرها واستحضار الحادثة بتفاصيلها كما سلف بيانه في تفسير قوله تعالى (وإذ قال ربك للملائكة) الخ والمراد به خروجه عليه السلام إلى أحد وكان ذلك من منزل عائشة رضى الله عنها وهو المراد بقوله تعالى ﴿ من أهلك ﴾ أى من عند أهلك ﴿ تبوء المؤمنون ﴾ أى تنزلهم أوتهم وتسوى لهم ﴿ مقاعد ﴾ ويؤيد قراءته من قرأ تبوء للمؤمنين والجملة حال من فاعل غدوت لكن لا على أنها حال مقدره أى ناويا وقاصدا للتبوءة كما قيل بل على أن المقصود تذكير الزمان الممتد المتسع لابتداء الخروج والتبوءة وما يترتب عليها إذ هو المذكر للقصة وإنما عبر عنه بالغدو الذى هو الخروج غدوة مع كون خروجه عليه السلام بعد صلاة الجمعة كما ستعرفه إذ حينئذ وقعت التبوءة التى هى العمدة فى الباب إذ المقصود بتذكير الوقت تذكير مخالفتهم لأمر النبي صلى الله عليه وسلم وتزاييلهم عن أحيائهم المعينة لهم عند التبوءة وعدم صبرهم وبهذا يتبين خلل رأى من احتج به على جواز أداء صلاة الجمعة قبل الزوال واللام فى قوله تعالى ﴿ للقتال ﴾ إما متعلقة بتبوء أى لأجل القتال وإما محذوف وقع صفة لمقاعد أى كائنة ومقاعد القتال أما كنهه وموافقه فإن استعمال المقعد والمقام بمعنى المكان اتساعا شائع ذائع كما فى قوله تعالى (فى مقعد صدق) وقوله تعالى (قبل أن تقوم من مقامك) .

روى أن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ودعا عبد الله عبد الله بن أبي بن سلول ولم يكن دعاه قبل ذلك فاستشاره فقال عبد الله وأكثر الأنصار يارسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم فوالله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا ولا دخلها علينا إلا أصابنا منه فكيف وأنت فينا فدعهم فإن أقاموا أقاموا بشر محبس وإن دخلوا فاتهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة وإن رجعوا رجعوا خائبين وقال بعضهم يارسول الله أخرج بنا إلى هؤلاء الأكلب لا يرون أنا قد جئنا عنهم فقال عليه الصلاة والسلام إنى قد رأيت في منامى بقرا مذبحه حولي فأولتها خيراً ورأيت في ذباب سيفي ثلثاً فأولته هزيمة ورأيت كأنى أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة فتدعوهم فقال رجال من المسلمين قد فاتتهم بدر وأكرمهم الله تعالى بالشهادة يومئذ أخرج بنا إلى أعدائنا وقال النعمان بن مالك الأنصارى رضى الله عنه يارسول الله لا تحرمنى الجنة فوالذى بعثك بالحق لأدخلن الجنة ثم قال بقولى أشهد أن لا إله إلا الله وأنى لا أفر من الزحف فلم يزالوا به عليه السلام حتى دخل فلبس لأتمته فلما رأوه كذلك ندموا وقالوا بثما صنعنا نشير على رسول الله والوحى يأتية وقالوا اصنع يارسول الله ما رأيت فقال ما ينبغى لنبى أن يلبس لأتمته فيضعها حتى يقاتل نخرج يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة وأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للتصيف من شوال لسنة ثلاث من الهجرة فمشى على رجلية فجعل يصف أصحابه للقتال فكأتما يقوم بهم القدح إن رأى صدرا خارجا قال تأخر وكان نزوله في عدوة الوادى وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وأمر عبد الله بن جبير على الرماة وقال لهم انضحوا عنا بالنبل لا يأتونا من ورائنا ولا تبرحوا من مكانكم فلن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم ﴿والله سميع﴾ لأقوالكم ﴿عليم﴾ بضمايركم والجملة اعتراض للإيدان بأنه قد صدر عنهم هناك من الأقوال والأفعال ما لا ينبغى صدوره عنهم .

﴿ إذ هممت ﴾ بدل من إذ غدوت مبهين لما هو المقصود بالذكر أو ظرف
لسميع عليهم على معنى أنه تعالى جامع بين سماع الأقوال والعلم بالضمائر في ذلك
الوقت إذ لا وجه لتقييد كونه تعالى سميعا عليما بذلك الوقت . قال الفراء معنى
قولك ضربت وأكرمت زيدا أن زيدا منصوب بهما وأنهما تسلطا عليه معا
﴿ طائفتان منكم أن تفشلا ﴾ متعلق بهمت والباء محذوفة أى بأن تفشلا أى تجبنا
وتضعفا وهما حيان من الأنصار بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس
وهما الجناحان من عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا ألف رجل
وقيل تسعمائة وخمسين وعدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الفتح إن صبروا
فلما قاربوا عسكر الكفرة وكانوا ثلاثة آلاف انخزل عبد الله بن أبي بلثك
الناس فقال يا قوم علام نقتل أنفسنا وأولادنا فنبههم عمرو بن حزم الأنصارى
فقال أنشدكم الله فى نبيكم وأنفسكم فقال عبد الله لو نعلم قتالا لاتبعناكم فهم الحيان
باتباع عبد الله فعصمهم الله تعالى فمضوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن
ابن عباس رضى الله عنهما أضربوا أن يرجعوا فعزم الله لهم على الرشد فثبتوا
والظاهر أنها ما كانت إلا همة وحديث نفس قلبا تخلو النفس عنه عند الشدائد
﴿ والله وليهما ﴾ أى عاصمهما عن اتباع تلك الخطرة والجملة اعتراض ويجوز
أن تكون حالا من فاعل هممت أو من ضميره فى تفشلا مفيدة لاستبعاد فشلهما
أو همهما به مع كونهما فى ولاية الله تعالى وقرىء والله وليهم كما فى قوله تعالى
﴿ وإن طائفتان من المؤمنين أقتلتا ﴾ ﴿ وعلى الله ﴾ وحده دون ما عداه مطلقا
استقلالا أو اشتركا ﴿ فليتوكل المؤمنون ﴾ فى جميع أمورهم فإنه حسبهم وإظهار
الاسم الجليل للتبرك والتأميل^(١) فإن الألوهية من موجبات التوكل عليه تعالى
واللام فى المؤمنین للجنس فيدخل فيه الطائفتان دخولا أوليا وفيه إشعار بأن
وصف الإيمان من دواعى التوكل وموجباته .

﴿ ولقد نصركم الله بيدر ﴾ جملة مستأنفة سبقت لإيجاب الصبر والتقوى

(١) فى ط : والتعليل .

بتذكير ما ترتب عليهما من النصر لإثر تذكير ما ترتب على عدمهما من الضرر وقيل لإيجاب التوكل على الله تعالى بتذكير ما يوجبه وبدر اسم ماء بين مكة والمدينة كان رجل اسمه بدر بن كعدة فسمى باسمه وقيل سمي به لصفائه كالبدر واستدارته وقيل هو اسم الموضع أو الوادي وكانت وقعة بدر في السابع عشر من شهر رمضان سنة اثنتين من الهجرة ﴿وأنتم أذلة﴾ حال من مفعول نصركم وأذلة جمع ذليل وإنما جمع قلة للإيذان باتصافهم حينئذ بوصفي القلة والذلة إذ كانوا ثلثمائة وبضعة عشر وكان ضعف حالهم في الغاية خرجوا على النواضح يعتقب النفر منهم على البعير الواحد ولم يكن في العسكر إلا فرس واحد وقيل فرسان للبقداد ومرثد وتسعون بعيراً وست أدرع وثمانية سيوف وكان العدو زهاء ألف ومعهم مائة فرس وشكّة وشوكة ﴿فاتقوا الله﴾ اقتصر على الأمر بالتقوى مع كونه مشفوعاً بالصبر فيما سبق وما لحق للإشعار بأصالته وكون الصبر من مبادئه اللازمة له ولذلك قدم عليه في الذكر وفي ترتيب الأمر بالتقوى على الإخبار بالنصر إيذاناً بأن نصرهم المذكور كان بسبب تقواهم أي إذا كان الأمر كذلك فاتقوا الله كما اتقيتم يومئذ ﴿لعلكم تشكرون﴾ أي راجين أن تشكروا ما ينعم به عليكم بتقواكم من النصرة كما شكرتم فيما قبل أو لعلكم ينعم الله عليكم بالنصر كما فعل ذلك من قبل فوضع الشكر موضع سببه الذي هو الإنعام .

﴿إذ تقول﴾ تلوين للخطاب بتخصيصه برسول الله صلى الله عليه وسلم لتشريفه والإيذان بأن وقوع النصر كان بشارته عليه السلام (لهم) ^(١) وإذ ظرف لنصركم قدم عليه الأمر بالتقوى لإظهار كمال العناية به والمراد به الوقت الممتد الذي وقع فيه ما ذكر بعده وما طوى ذكره تعويلاً على شهادة الحال مما يتعلق به وجود النصر وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها أي نصركم وقت قولك ﴿للؤمنين﴾ حين أظهروا العجز عن المقاتلة

(١) - سقطت من ط .

قال الشعبي بلغ المؤمنين أن كرز بن جابر الحنفي يريد أن يمدد المشركين فشق ذلك على المؤمنين فنزل حينئذ ثم حكى ههنا ﴿ ألن يكفياكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف ﴾ الكفاية سد الخلة والقيام بالأمر والإمداد في الأصل إعطاء الشيء حالا بعد حال . قال المفضل ما كان منه بطريق التقوية والإعانة يقال فيه أمدته يمده إمداداً وما كان بطريق الزيادة يقال فيه مده يمدده مداً ومنه والبحر يمد منه سبعة أبحر وقيل المد في الشر كما في قوله تعالى (ويمدهم في طغيانهم يعمهون) وقوله (ونمد له من العذاب مداً) والإمداد في الخير كما في قوله تعالى (وأمددناكم بأموال وبنين) والتعرض لعنوان الربوبية ههنا وفيما سيأتي مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لإظهار العناية بهم والإشعار بعلّة الإمداد والمعنى إنكار عدم كفاية الإمداد بذلك المقدار ونفيه وكلمة لن للإشعار بأنهم كانوا حينئذ كالأيسين من النصر لضعفهم وقتلهم وقوة العدو وكثرتهم ﴿ من الملائكة ﴾ بيان أو صفة لآلاف أو لما أضيف إليه أى كائنين من الملائكة ﴿ منزلين ﴾ صفة لثلاثة آلاف ثم خمسة آلاف وقرىء مبنيًا للفاعل من الصيغتين أى منزلين النصر .

﴿ بلى ﴾ لإيجاب لما بعد لن وتحقيق له أى بلى يكفياكم ذلك ثم وعدهم (١) الزيادة بشرط الصبر والتقوى حثاً لهم عليهما وتقوية لقلوبهم فقال ﴿ إن تصبروا ﴾ على لقاء العدو ومناهضتهم ﴿ وتثقوا ﴾ معصية الله ومخالفة نبيه عليه الصلاة والسلام ﴿ ويأتواكم ﴾ أى المشركون ﴿ من فورهم هذا ﴾ أى من ساعتهم هذه وهو في الأصل مصدر فارت القدر أى اشتد غليانها ثم استعير للسرعة ثم أطلق على كل حالة لا ريث فيها أصلاً ووصفه بهذا لتأكيد السرعة بزيادة تعيينه وتقريبه ونظام إتيانهم بسرعة في سلك شرطى الإمداد المستتبعين له وجوداً وعدماً أعنى الصبر والتقوى مع تحقق الإمداد لا محالة سواء أسرعوا أو أبطأوا لتحقيق أصله أو لبيان تحققه على أى حال فرض على أبلغ وجه .

(١) في ط : وعدهم .

وأكدته بتعليقه بأبعد التقادير ليعلم تحققه على سائرهما بالطريق الأولى فإن هجوم الأعداء وإتيانهم بسرعة من مظان عدم لحوق المدد عادة فعلق به تحقق الإمداد إيدانا بأنه حيث تحقق مع ما ينافيه عادة فلأن يتحقق بدونه أولى وأحرى كما إذا أردت وصف درع بغاية الحصانة تقول إن لبستها وبارزت بها الأعداء فضر بوك بأيد شداد وسيوف حداد لم تتأثر منها قطعاً ﴿ يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴾ من التسمية الذي هو لإظهار سيما الشيء أى معلمين أنفسهم أو خيلهم فقد روى أنهم كانوا بعائم بيض لإلا جبريل عليه السلام فإنه كان بعامة صفراء على مثال الزبير بن العوام وروى أنهم كانوا على خيل بلق قال عروة بن الزبير كانت الملائكة على خيل بلق عليهم عائم بيض قد أرسلوها بين أكتافهم وقال هشام بن عروة عائم صفر وقال قتادة والضحاك كانوا قد أعلموا بالعين في نواصي الخيل وأذناها روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه تسوموا فإن الملائكة قد تسومت وقرىء مسومين على البناء للمفعول ومعناه معلمين من جهته سبحانه وقيل مرسلين من التسمية بمعنى الإسامة .

﴿ وما جعله الله ﴾ كلام مبدأ غير داخل في حيز القول مسوق^(١) من جنابه تعالى لبيان أن الأسباب الظاهرة بمعزل من التأثير وأن حقيقة النصر مختص به عز وجل ليشق به المؤمنون ولا يقنطوا منه عند فقدان أسبابه وأماراته معطوف على فعل مقدر ينسحب عليه الكلام ويستدعيه النظام فإن الإخبار بوقوع النصر على الإطلاق وتذكيره وقته وحكاية الوعد بوقوعه على وجه مخصوص هو الإمداد بالملائكة مرة بعد أخرى وتعيين وقته فيما مضى يقضى بوقوعه حينئذ قضاء قطعياً لكن لم يصرح به تعويلاً على تعاضد الدلائل وتأخذ الإمارات والمخايل وإيدانا بكامل الغنى عنه بل احترازاً عن شائبة التكرير أو عن إيهام الخلف في الوعد المحتوم كما أنه قيل عقيب قوله تعالى ﴿ يمددكم ربكم بخمسة آلاف من

(١) في ١١ : سيق .

الملائكة مسومين) فأمدكم بهم وما جعله الله الخ . والجعل متعدد إلى واحد هو الضمير العائد إلى مصدر ذلك الفعل المقدر وأما عوده إلى المصدر المذكور أعنى قوله تعالى أن يمدكم أو إلى المصدر المدلول عليه بقوله تعالى يمددكم كما قيل فغير حقيق بجزالة التنزيل لأن الهيئته البسيطة متقدمة على المركبة فبيان العلة الغائبة لوجود الإمداد كما هو المراد بالنظم الكريم حقه أن يكون بعد بيان وجوده في نفسه ولا ريب في أن المصدرين المذكورين غير معتبرين من حيث الوجود والوقوع كمصدر الفعل المقدر حتى يتصدى لبيان أحكام وجودهما بل الأول معتبر من حيث الكفاية والثاني من حيث الوعد على أن الأول هو الإمداد بثلاثة آلاف وقوله تعالى :

﴿إلا بشرى لكم﴾ استثناء مفرغ من أعم العلل وتلويح الخطاب لتشريف المؤمنين ولإيذان بأنهم المحتاجون إلى البشارة وتسكين القلوب بتوفيق الأسباب الظاهرة وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم غنى عنه بماله من التأيد الروحاني. أى وما جعل إمدادكم بإنزال الملائكة عياناً لشيء من الأشياء إلا للبشرى. لسكم بأنكم تنصرون ﴿ولتطمئن قلوبكم به﴾ أى بالإمداد وتسكن إليه كما كانت السكينة لبني إسرائيل كذلك فكلاهما علة غائية للجعل وقد نصب الأول لاجتماع شرائطه من اتحاد الفاعل والزمان وكونه مصدراً مسوقاً للتعليل وبقى الثاني على حاله لفقدها وقيل للإشارة أيضاً إلى أصلته في العلية وأهميته في نفسه. كما في قوله تعالى (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) وفي قصر الإمداد عليهما لإشعار بأن الملائكة عليهم السلام لم يباشروا يومئذ القتال وإنما كان إمدادهم بتقوية قلوب المباشرين بتكثير السواد ونحوه كما هو رأى بعض السلف. رضى الله عنه وقيل الجعل متعدد إلى اثنين وقوله عز وجل إلا بشرى لكم استثناء من أعم المفاعيل أى وما جعله الله تعالى شيئاً من الأشياء إلا بشارة لكم فاللام في قوله تعالى ولتطمئن متعلقة بمحذوف تقديره ولتطمئن قلوبكم به فعل ذلك .

﴿وما النصر﴾ أى حقيقة النصر على الإطلاق فيندرج في حكمة النصر المعهود اندراجاً أولياً ﴿إلا من عند الله﴾ أى إلا كائن من عنده تعالى من غير.

أن يكون فيه شركة من جهة الأسباب والعدد وإنما هي مظاهر له بطريق جريان سنته تعالى أو وما النصر المعهود إلا من عنده تعالى لا من عند الملائكة فإنهم بمعزل من التأثير وإنما قصارى أمرهم ما ذكر من البشارة وتقوية القلوب ﴿العزير﴾ أى الذى لا يغالب فى حكمه وأفضيته وإجراء هذا الوصف عليه تعالى للإشعار بعله اختصاص النصر به تعالى كما أن وصفه بقوله ﴿الحكيم﴾ أى الذى يفعل كل ما يفعل حسب مقتضيه الحكمة والمصلحة للإيدان بعله جعل النصر بإنزال الملائكة فإن ذلك من مقتضيات الحكمة ^(١) البالغة ﴿ليقطع﴾ متعلق بقوله تعالى ولقد نصركم وما بينهما تحقيق لحقيقته وبيان لكيفية وقوعه والمنقصور على التعليل بما ذكر من البشرى والاطمئنان إنما هو الإمداد بالملائكة على الوجه المذكور فلا يقدح ذلك فى تعليل أصل النصر بالقطع وما عطف عليه أو بما تعلق به الخبر فى قوله عز وعلا (وما النصر إلا من عند الله) على تقدير كونه عبارة عن النصر المعهود وقد أشير إلى أن المعلل بالبشارة والاطمئنان إنما هو الإمداد الصورى لا ما فى ضمنه من النصر المعنوى الذى هو ملاك الأمر وأما تعلقه بنفس النصر كما قيل فمع ما فيه من الفصل بين المصدر ومعموله بأجنبي هو الخبر مخل بسداد المعنى كيف لا ومعناه قصر النصر بخصوص المعلل بعلل معينة على الحصول من جهته تعالى وليس المراد إلا قصر حقيقة النصر أو النصر المعهود على ذلك والمعنى لقد نصركم الله يومئذ أو وما النصر الظاهر عند إمداد الملائكة إلا ثابت من عند الله ليقطع أى يملك وينقص ﴿طرفا من الذين كفروا﴾ أى طائفة منهم بقتل وأسر وقد وقع ذلك حيث قتل من رؤسائهم وصناديدهم سبعون وأسر سبعون ﴿أو يكبتهم﴾ أى يخزيهم ويفيظهم بالهزيمة فإن الكبت شدة غيظ أو وهن يقع فى القلب من كبتة بمعنى كبده إذا ضرب كبده بالغيظ والحرقه وقيل الكبت الإصابة بمكروه وقيل هو الصرع للوجه واليدين فالتاء حيثئذ غير مبدلة أو للتنويع ﴿فإنقلبوا خائبين﴾

(١) فى ط . الحكيم .

أى فينهمز موا منقطعى الآمال غير فائزين من مبتغاهم بشيء كما فى قوله تعالى (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا).

﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ اعتراض وسط بين المعطوف عليه المتعلق بالعاجل والمعطوف المتعلق بالأجل لتحقيق أن لا تأثير للمنصورين إثر بيان أن لا تأثير للناصرين وتخصيص النفى برسول الله صلى الله عليه وسلم على طريق تلوين الخطاب للدلالة على الانتماء من غيره بالطريق الأولى وإنما خص الاعتراض بموقعه لأن ما قبله من القطع والسكبت من مظان أن يكون فيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولسائر مباشرى القتال مدخل فى الجملة ﴿ أو يتوب عليهم أو يعذبهم ﴾ عطف على يكتبهم والمعنى أن مالك أمرهم على الإطلاق هو الله عز وجل نصركم عليهم ليهلكهم أو يكتبهم أو يتوب عليهم إن أسلموا أو يعذبهم إن أصروا [على الكفر] ^(١) وليس لك من أمرهم شيء إنما أنت عبد مأمور بإنذارهم وجهادهم والمراد بتعذيبهم التعذيب الشديد الأخرى المخصوص بأشد الكفرة كفرا وإلا فطلق التعذيب الأخرى متحقق فى الفريقين الأولين أيضا ونظم التوبة والتعذيب المذكور فى سلك العلة الغائية للنصر المترتبة عليه فى الوجود من حيث أن قبول توبتهم فرع تحققها الناشئ من علمهم بحقيقة الإسلام بسبب غلبة أهله المترتبة على النصر وأن تعذيبهم بالعذاب المذكور مترتب على إصرارهم على الكفر بعد تبين الحق على الوجه المذكور هذا وقيل إن عتبة بن أبى وقاص شج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد وكسر ربايته فجعل عليه الصلاة والسلام يمسح الدم عن وجهه وسالم مولى أبى حذيفة يغسل عن وجهه الدم وهو يقول كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم فنزلت ليس لك من الأمر شيء الآية . كأنه نوع معاتبة على إنكاره عليه السلام لفلاحهم وقيل أراد أن يدعو عليهم فنجاه الله تعالى لعلمه

(١) سقطت من ط .

بأن منهم من يؤمن فقله تعالى أو يتوب عليهم حينئذ معطوف على الأمر أو على شيء بإضمار أن أى ليس لك من أمرهم أو من التوبة عليهم أو من تعذيبهم شيء أو ليس لك من أمرهم شيء أو التوبة عليهم أو تعذيبهم ونقل عن الفراء وابن الأنبارى أن أو بمعنى إلا أن والمعنى ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح به أو يعذبهم فتتشفى منهم وأيا ما كان فهو كلام مستأنف سيق لبيان بعض الأمور المتعلقة بغزوة أحد إثر بيان بعض ما يتعلق بغزوة بدر لما بينهما من التناسب الظاهر لأن كلا منهما مبنى على اختصاص الأمر كله بالله تعالى ومغنيء عن سلبه عن سواه .

وأما تعلق كل القصة بغزوة أحد على أن قوله تعالى إذ تقول بدل ثان من إذ غدوت وأن ما حكى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وقع يوم أحد وأن الإمداد الموعود كان مشروطا بالصبر والتقوى فلما لم يفعلوا لم يتحقق الموعود كما قيل فلا يساعده النظم الكريم أما أو لا فلأن المشروط بالصبر والتقوى إنما هو الإمداد بخمسة آلاف لا بثلاثة آلاف مع أنه لم يقع الإمداد يومئذ ولا بملك واحد وأما ثانيا فلأنه كان ينبغي حينئذ أن ينعى عليهم جنائهم وحرمانهم بسببها تلك النعمة الجليلة ودعوى ظهوره مع عدم دلالة السياق والسياق عليه بل مع دلالتها على خلافه بما لا يكاد يسمع وأما ثالثا فلأنه لا سبيل إلى جعل الضمير في قوله تعالى (وما جعله الله) الخ . عاندا إلى الإمداد الموعود لأنه لم يتحقق فكيف يبين علته الغائية ولا إلى الوعد به على معنى أنه تعالى إنما جعل ذلك الوعد لبشارتكم واطمئنان قلوبكم فلم تفعلوا ما شرط عليكم من الصبر والتقوى فلم يقع إنجاز الموعود لما أن قوله تعالى (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) صريح في أنه قد وقع الإمداد الموعود لكن أثره إنما هو مجرد البشارة والاطمئنان وقد حصل وأما النصر الحقيقي فليس ذلك إلا من عنده تعالى وجعله استثناء مقرر لعدم وقوع الإمداد على معنى أن النصر الموعود مخصوص به تعالى فلا ينصر من خالف أمره بترك الصبر والتقوى اعتساف بين يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله على أن قوله تعالى (ليقطع طرفا)

الآية متعلق حينئذ بما تعلق به قوله تعالى (من عند الله) من الثبوت والاستقرار ضرورة أن تعلقه بقوله تعالى (ولقد نصركم الله بيدر) الآية، مع كون ما بينهما من التفصيل متعلقاً بوقعة أحد من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه فلا بد من اعتبار وجود النصر قطعاً لأن تفصيل الأحكام المترتبة على وجود شيء بصدد بيان انتفائه مما لم يعهد في كلام الناس فضلاً عن الكلام المجيد فالحق الذي لا يحيد عنه أن قوله تعالى إذ تقول ظرف لنصركم وأن ما حكى في أثناءه إلى قوله تعالى خائبين متعلق بيوم بدر قطعاً وما بعده محتمل للوجهين المذكورين وقوله تعالى .

﴿ فإنهم ظالمون ﴾ تعليل على كل حال لقوله تعالى أو يعذبهم مبين لكون ذلك من جهتهم وجزاء لظلمهم ﴿ ولله ما في السموات وما في الأرض ﴾ كلام مستأنف سيق لبيان اختصاص ملكوت كل الكائنات به عز وجل لإثبات اختصاص طرف من ذلك به سبحانه تقريراً لما سبق وتكملة له وتقديم الجار للقصر وكلمة ما شاملة للعقلاء أيضاً تغليبا أي له ما فيهما من الموجودات خلقاً وملكاً لا مدخل فيه لأحد أصلاً فله الأمر كله ﴿ يغفر لمن يشاء ﴾ أن يغفر له مشيئة مبنية على الحكمة والمصلحة^(١) ﴿ ويعذب من يشاء ﴾ أن يعذبه بعمله مشيئة كذلك وإيثار كلمة من في الموضوعين لاختصاص المغفرة والتعذيب بالعقلاء وتقديم المغفرة على التعذيب للإيدان بسبق رحمة تعالى غضبه وبأنها من مقتضيات الذات دونه فإنه من مقتضيات سيئات العصاة وهذا صريح في نفي وجوب التعذيب والتقييد بالتوبة وعدمها كالمنا في له ﴿ والله غفور رحيم ﴾ تذييل مقرر لمضمون قوله تعالى (يغفر لمن يشاء) مع زيادة وفي تخصيص التذييل به دون قرينة من الاعتناء بشأن المغفرة والرحمة ما لا يخفى .

(١) في ط : الحكم والمصالح .

جهاد النفس وجهاد العدو

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربوا ﴾ كلام مبتدأ مشتمل على ما هو ملك الأمر في كل باب لا سيما في باب الجهاد من التقوى والطاعة وما بعدهما من الأمور المذكورة على نهج الترغيب والترهيب جرى به في تضاعيف القصة مسارعة إلى إرشاد المخاطبين إلى ما فيه وإيذانا بسكال وجوب المحافظة عليه فيما هم فيه من الجهاد فإن الأمور المذكورة فيه مع كونها مناطا للفوز في الدارين على الإطلاق عمدة في أمر الجهاد عليها يدور فلك النصر والغلبة كيف لا ولو حافظوا على الصبر والتقوى وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم لما لقوا ما لقوا ولعل لإيراد النهي عن الربا في أثنائها لما أن الترغيب في الإنفاق في السراء والضراء الذي عمدته الإنفاق في سبيل الجهاد متضمن للترغيب في تحصيل المال فكان مظنة مبادرة الناس إلى طرق الاكتساب ومن جعلتها الربا فهربوا عن ذلك والمراد بأكله أخذه وإنما عبر عنه بالأكل لما أنه معظم ما يقصد بالأخذ ولشيوعه في المأكولات مع ما فيه من زيادة تشنيع وقوله عز وجل ﴿ أضعافا مضاعفة ﴾ ليس لتقييد النهي به بل لمراعاة ما كانوا عليه من العادة توبيخا لهم بذلك إذ كان الرجل يربي إلى أجل فإذا حل قال للدين زدني في المسال حتى أزيدك في الأجل فيفعل وهكذا عند محل كل أجل فيستغرق بالشئ الطفيف ما له بالكلية ومحلّه بالنصب على الحالية من الربا وقرئ مضعفه ﴿ وأنقوا الله ﴾ فيما نهيتم عنه من الأعمال^(١) التي من جعلتها الربا ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ راجين للفلاح ﴿ وأنقوا النار التي أعدت للكافرين ﴾ بالتحرز عن متابعتهم وتعاطي ما يتعاطونه كان أبو حنيفة رحمة الله تعالى يقول هي أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه في اجتناب محارمه ﴿ وأطيعوا الله ﴾ في كل ما أمركم به ونهاكم عنه ﴿ والرسول ﴾ الذي يبلغكم أوامره ونواهيه ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ راجين لرحمته . عقب الوعيد بالوعد ترهيبا عن المخالفة

(١) في ط : من الأمور .

وترغبيا في الطاعة وإيراد لعل في الموضعين للإشعار بعزة منال الفلاح والرحمة قال محمد ابن إسحق هذه الآية معاتبة للذين عصوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمرهم بما أمرهم يوم أحد .

﴿ وسارعوا ﴾ عطف على أطيعوا وقرىء بغير واو على وجه الاستئناف أى بادروا وأقبلوا وقرىء وسابقوا ﴿ إلى مغفرة من ربكم وجنة ﴾ أى إلى ما يؤدى إليهما وقيل إلى الإسلام وقيل إلى التوبة وقيل إلى الإخلاص وقيل إلى الجهاد وقيل إلى أداء جميع الواجبات وترك جميع المنهيات فيدخل فيها ما مر من الأمور المأمور بها والمنهى عنها دخولا أوليا وتقديم المغفرة على الجنة لما أن التخلية متقدمة على التحلية ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة لمغفرة أى كائنة من ربكم والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لإظهار مزيد اللطف بهم وقوله تعالى ﴿ عرضها السموات والأرض ﴾ أى كعرضهما صفة لجنة وتخصيص العرض بالذكر للمبالغة في وصفها بالسعة والبسطة على طريقة التمثيل فإن العرض في العادة أدنى من الطول وعن ابن عباس رضى الله عنهما كسبع سموات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض ﴿ أعدت للمتقين ﴾ فى حيز الجر على أنه صفة أخرى لجنة أو فى محل النصب على الحالية منها لتخصصها بالصفة أى هيئت لهم وفيه دليل على أن اللجنة مخلوقة الآن وأنها خارجة عن هذا العالم ﴿ الذين ينفقون ﴾ فى محل الجر على أنه نعت للمتقين مادح لهم أو بدل منه أو بيان أو فى حيز النصب أو الرفع على المدح ومفعول ينفقون محذوف ليتناول كل ما يصلح للإنفاق أو متروك بالكيفية كما فى قولك يعطى ويمنع ﴿ فى السراء والضراء ﴾ فى حالتى الرخاء والشدة والبسر والعسر أو فى الأحوال كلها إذ الإنسان لا يخلو عن مسرة أو مضرة أى لا يخلو فى حال ما ياتفاق ما قدروا عليه من قليل أو كثير .

﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ عطف على الموصول والعدول إلى صيغة الفاعل للدلالة على الاستمرار وأما الإنفاق فحيث كان أمرا متجددا عبر عنه بما يفيد

الحدث هو التجدد والكظم الحبس يقال كظم غيظه أى حبسه قال المبرد تأويله أنه كتبه على امتلائه منه يقال كظمت السقاء إذا ملأته وشددت عليه أى المسكين عليه الكافين عن إضائه مع القدرة عليه وعن النبي صلى الله عليه وسلم من كظم غيظاً وهو قادر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمنأ وإيماناً ﴿ والعافين عن الناس ﴾ أى التاركين عقوبة من استحق مؤاخذته . روى أنه ينادى مناد يوم القيامة أين الذين كانت أجورهم على الله تعالى فلا يقوم إلا من عفا وعن النبي صلى الله عليه وسلم أن هؤلاء فى أمتى قليل إلا من عصم الله وقد كانوا كثيراً فى الأمم التى مضت وفى هذين الوصفين إشعار بكمال حسن موقع عفوهم عليه الصلاة والسلام عن الرماة وترك مؤاخذتهم بما فعلوا من مخالفة أمره عليه السلام وندب له عليه السلام إلى ترك ما عزم عليه من مجازاة المشركين بما فعلوا بحمزة رضى الله عنه حيث قال حين رآه قد مثل به لأمثلن بسبعين مكانك .

﴿ والله يحب المحسنين ﴾ اللام إما للجنس وهم داخلون فيه دخولا أولياً وإما للعهد عبر عنهم بالمحسنين لإيداناً بأن النعوت المعدودة من باب الإحسان الذى هو الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق الذى هو حسنها الوصفى المستلزم لحسنها الذاتى وقد فسره عليه السلام بقوله أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك والجملة تذييل يقرر مضمون^(١) ما قبلها ﴿ والذين ﴾ مرفوع على الابتداء وقيل مجرور معطوف على ما قبله من صفات المتقين وقوله تعالى ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ اعتراض بينهما مشير إلى ما بينهما من التفاوت فإن درجة الأولين من التقوى أعلى من درجة هؤلاء وحظهم أو على نفس المتقين فيكون التفاوت أكثر وأظهر ﴿ إذا فعلوا فاحشة ﴾ أى فعلت بالغت فى القبح كالزنا ﴿ أو ظلموا أنفسهم ﴾ بأن أتوا ذنبا أى ذنب كان وقيل الفاحشة الكبيرة وظلم النفس الصغيرة أو الفاحشة ما يتعدى إلى الغير وظلم النفس ما ليس كذلك قيل قال المؤمنون يا رسول الله كانت بنو إسرائيل أكرم على الله تعالى منا كان أحدهم إذا أذنب

(١) فى ١١ : مقرر مضمون .

أصبحت كفارة ذنبه مكتوبة على عتبة داره افعل كذا فأنزل الله تعالى هذه الآية وقيل إن نهان التمار أتمه امرأة حسناء تطلب منه تمرأ فقال لها هذا التمر ليس بجيد وفي البيت أجود منه فذهب بها إلى بيته فضمها إلى نفسه وقبلها فقالت له اتق الله فتركها وندم على ذلك وأتى النبي صلى الله عليه وسلم وذكر له ذلك فنزلت وقيل جرى مثل هذا بين أنصاري وامرأة رجل ثقيف كان بينهما مؤاخاة فقدم الأنصاري وحثا على رأسه التراب وهام على وجهه وجعل يسيح في الجبال تائبا مستغفرا ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت وأياما كان بإطلاق اللفظ ينتظم ما فعله الزناة انتظاما أوليا ﴿اذكروا الله﴾ تذكروا حقه العظيم وجلاله الموجب للخشية والحياء أو وعيده أو حكمه وعقابه .

﴿ فاستغفروا الذنوبهم ﴾ بالتوبة والندم والفاء للدلالة على أن ذكره تعالى مستتبع للاستغفار لا محالة ﴿ ومن يغفر الذنوب ﴾ استفهام إنكاري والمراد بالذنوب جنسها كما في قولك فلان يلبس الثياب ويركب الخيل لا كلهما حتى يخل بما هو المقصود من استحالة صدور مغفرة فرد منها عن غيره تعالى وقوله تعالى ﴿ إلا الله ﴾ يدل من الضمير المستكن في يغفر أي لا يغفر جنس الذنوب أحد إلا الله خلا أن دلالة الاستفهام عن الانتفاء أقوى وأبلغ لإيدانه بأن كل أحد ممن له حظ من الخطاب يعرف ذلك الانتفاء فيسارع إلى الجواب به والمراد به وصفه سبحانه بغاية سعة الرحمة وعموم المغفرة والجملة معترضة بين المعطوفين أو بين الحال وصاحبها لتقرير الاستغفار والحث عليه والإشعار بالوعد بالقبول ﴿ ولم يصروا ﴾ عطف على فاستغفروا وتأخيره عنه مع تقدم عدم الإصرار على الاستغفار رتبة لإظهار الاعتناء بشأن الاستغفار واستحقاقه للمسارعة إليه عقيب ذكره تعالى أو حال من فاعله أي ولم يقيموا أو غير مقيمين ﴿ على ما فعلوا ﴾ أي ما فعلوه من الذنوب فاحشة كانت أو ظلما أو على فعلهم . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة وأنه لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار ﴿ وهم يعلمون ﴾ حال من فاعل يصروا أي لم يصروا على ما فعلوا وهم عالمون بقبحه والنهي عنه .

والوعيد عليه والتقييد بذلك لما أنه قد يعذر من لا يعلم ذلك إذا لم يكن التقصير (١) في تحصيل العلم به .

﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المذكورين آخرًا باعتبار انصافهم بما مر من الصفات الحميدة وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعيد منزلتهم وعلو طبقتهم في الفضل وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿ جزاؤهم ﴾ بدل اشتمال منه وقوله تعالى ﴿ مغفرة ﴾ خبر له أو جزاؤهم مبتدأ ثان ومغفرة خبر له والجملة خبر لأولئك وهذه الجملة خبر لقوله تعالى (والذين إذا فعلوا) الخ على الوجه الأول وهو الأظهر الأنسب بنظم المغفرة المنبئة عن سابقة الذنب في سلك الجزاء إذ على الوجهين يكون قوله تعالى أولئك الخ جملة مستأنفة مبينة لما قبلها كاشفة عن حال كلا الفريقين المحسنين والتائبين ولم يذكر من أوصاف الأولين ما فيه شانبة الذنب حتى يذكر في مطلع الجزاء الشامل لهما المغفرة وتخصيص الإشارة بالآخرين مع اشتراكهما في حكم اعداد الجنة لهما تعسف ظاهر ﴿ من ربه ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لمغفرة مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أي كائنة من جهته تعالى والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم للإشعار بعلة الحكم والشريف ﴿ وجنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ عطف على مغفرة والتشكيك المشعر بكونها أدنى من الجنة السابقة مما يؤيد رجحان الوجه الأول ﴿ خالدين فيها ﴾ حال مقدر من الضمير في جزاؤهم لأنه مفعول به في المعنى لأنه في قوة يحزبهم الله جنات خالدين فيها ولا مساغ لأن يكون حالا من جنات في اللفظ وهي لأصحابها في المعنى إذ لو كان كذلك لبرز الضمير .

﴿ ونعم أجر العاملين ﴾ المخصوص بالمدح محذوف أي ونعم أجر العاملين ذلك أي ما ذكر من المغفرة والجنات والتعجير عنهما بالأجر المشعر بأنهما يستحقان بمقابلة العمل وأن كان بطريق التفضل لمزيد الترغيب في الطاعات والزجر

عن المعاصي والجملة تذييل مختص بالتائبين حسب اختصاص التذليل السابق بالأولين وناهيك مضمونهما دليلا على ما بين الفريقين من التفاوت النير والتباين البين شتان بين المحسنين الفائزين بمحبة الله عز وجل وبين العاملين الخائزين لأجرتهم وعمالتهم .

عود إلى جهاد الأعداء

﴿ قد خلت من قبلكم سنن ﴾ رجوع إلى تفصيل بقية القصة بعد تمهيد مبادئ الرشد والصلاح وترتيب مقدمات الفوز والفلاح والخلو المضى والسنة الوقائع وقيل الأمم والظرف إما متعلق بخلت أو بمحذوف وقع حالا من سنن أى قد مضت من قبل زمانكم أو كائنة من قبلكم وقائع سننها الله تعالى فى الأمم المكذبة كما فى قوله تعالى (وقتلوا تقيلا سنة الله فى الذين خلوا) الخ والفاء فى قوله تعالى ﴿ فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ للدلالة على سببية خلوها للسير والنظر أو للأمر بهما وقيل المعنى على الشرط أى إن شككتم فسيروا الخ وكيف خبر مقدم لكان معلق بفعل النظر والجملة فى محل النصب بعد نزع الخافض لأن الأصل استعماله بالجار .

﴿ هذا ﴾ إشارة إلى ما سلف من قوله تعالى قد خلت إلى آخره ﴿ بيان للناس ﴾ أى تبين لهم على أن اللام متعلقة بالمصدر أو كائن لهم على أنها متعلقة بمحذوف وقع صفة له وتعريف للناس للعهد وهم المكذبون أى هذا لإيضاح لسوء عاقبة ما هم عليه من التكذيب فإن الأمر بالسير والنظر وإن كان خاصا بالمؤمنين لكن العمل بموجبه غير مختص بواحد دون واحد ففيه حمل للمكذبين أيضاً على أن ينظروا فى عواقب من قبلهم من أهل التكذيب ويعتبروا بما يعانون من آثار دمارهم وإن لم يكن الكلام مسوقا لهم ﴿ وهدى وموعظة ﴾ أى وزيادة بصيرة وموعظة لكم وإنما قيل ﴿ للمتقين ﴾ للإيذان بعله الحكم فإن مدار كونه هدى وموعظة لهم إنما هو تقواهم ويجوز أن يراد بالمتقين الصائرين إلى التقوى والهدى والموعظة لهم إنما هو تقواهم ويجوز أن يراد بالمتقين الصائرين

إلى التقوى والهدى والموعظة على ظاهرهما أى هذا بيان لما آل أمر الناس وسوء
مخبئه وهداية لمن اتقى منهم وزجر لهم عما هم عليه من التكذيب وأن يراد به
ما يعمهم ويعم^(١) غيرهم من المتقين بالفعل ويراد بالهدى والموعظة أيضاً ما يعم
ابتداءهما والزيادة فيهما وإنما قدم كونه بيانا للتكذيبين مع أنه غير مسوق له
على كونه هدى وموعظة للمتقين مع أنه المقصود بالسياق لأن أول ما يترتب
على مشاهدة آثار هلاك أسلافهم ظهور حال أخلافهم وأما زيادة الهدى أو أصله
فأمر مترتب عليه وتخصيص البيان للناس مع شموله للمتقين أيضاً لما أن المراد
به مجرد البيان العارى عن الهدى والعظة والافتقار عليهما في جانب المتقين مع
ترتيبهما على البيان لما أنهما المقصد الأصلي ويجوز أن يكون تعريف الناس
للجنس أى هذا بيان للناس كافة وهدى وموعظة للمتقين منهم خاصة وقيل
كلمة هذا إشارة إلى ما لخص من أمر المتقين والتائبين والمصرين وقوله تعالى
قد خلت الآية اعتراض للبحث^(٢) على الإيمان وما يستحق به ما ذكر من أجر
العالمين وأنت خير بأن الاعتراض لا بد أن يكون مقرراً لمضمون ما وقع في
خلاله ومعاينة آثار المكذبين مما لا تعلق له بحال أحد الأصفاء الثلاثة
للمؤمنين وإن كان باعثاً على الإيمان زاجراً عن التكذيب وقيل إشارة إلى
القرآن ولا يخفى بعده .

﴿ ولا تنهوا ولا تحزنوا ﴾ تشجيع للمؤمنين وتقوية لقلوبهم وتسليمة عما
أصابهم يوم أحد من القتل والقرح وكان قد قتل يومئذ خمسة من المهاجرين
حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير صاحب راية رسول الله صلى الله عليه
وسلم وعبد الله بن جحش ابن عمه النبي صلى الله عليه وسلم وعثمان بن مظعون
وسعد مولى عتبة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ومن الأنصار سبعون رجلاً

(١) سقطت من ط .

(٢) في ط : للبحث .

رضى الله عنهم أى لا تضعفوا عن الجهاد بما نالكم من الجراح ولا تخزنوا على من قتل منكم ﴿ وأتمم الأعلون ﴾ جملة حالية من فاعل الفعلين أى والحال أنكم الأعلون الغالبون دون عدوكم فإن مصير أمرهم إلى العمار حسبما شاهدتم من أحوال أسلافهم فهو تصريح بالوعد بالنصر والغلبة بعد الإشعار به فيما سبق أو وأتمم المهودون بغاية علو الشأن لما أنكم على الحق وقاتلكم الله عز وجل وقتلكم فى الجنة وهم على الباطل وقاتلهم للشيطان وقتلهم فى النار ، وقيل وأتمم الأعلون حالا منهم حيث أصبتم منهم يوم بدر أ كثر بما أصابوا منكم اليوم ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ متعلق بالنهى أو بالأعلون وجوابه محذوف لدلالة ما تعلق به عليه أى إن كنتم مؤمنين فلا تمنوا ولا تخزنوا فإن الإيمان يوجب قوة القلب والثقة بضع الله تعالى وعدم المبالاة بأعدائه أو إن كنتم مؤمنين فأنتم الأعلون فإن الإيمان يقتضى العلو لا محالة أو إن كنتم مصدقين بوعد الله تعالى فأنتم الأعلون وأياما كان فالمخصود تحقيق المعلق به كما فى قول الأجير إن كنت عملت لك فأعطينى أجرى ولذلك قيل معناه إذ كنتم مؤمنين وقيل معناه إن بقيتم على الإيمان .

﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ﴾ القرح بالفتح والضم لغتان كالضعف والضعف وقد قرىء بهما وقيل هو بالفتح الجراح وبالضم ألمها ، وقرىء بفتحين ، وقيل القرح والقرح كالطرد والطرد ، والمعنى إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتهم منهم قبله يوم بدر ثم لم يشببهم عن معاودتكم بالقتال فأنتم أحق بأن لا تضعفوا فإنكم ترجون من الله ما لا يرجون وقيل كلا المسين كان يوم أحد فإن المسلمين نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قتلوا منهم نيفا وعشرين رجلا منهم صاحب لوأثمهم وجرحوا عددا كثيرا وعقروا عامة خيلهم بالنبل ﴿ وتلك الأيام ﴾ إشارة إلى الأيام الجارية فيما بين الأمم الماضية والآتية كافة لا إلى الأيام المعهودة خاصة من يوم بدر ويوم أحد بل هى داخلة فيها دخولا أوليا والمراد بها

أوقات الظفر والغلبة ﴿ نداؤها بين الناس ﴾ نصرها بينهم ندبل لهؤلاء تارة
ولهؤلاء أخرى كقول من قال :

فيوما علينا ويوما لنا ويوما نساء ويوما نسر

والمداولة كالمعاورة يقال داولته بينهم فتداولوه أى عاورته فتعاوروه واسم
الإشارة متبداً والأيام إما صفة له أو بدل منه أو عطف بيان له فتداولها خبره
أو خبر فتداولها حال من الأيام والعامل معنى اسم الإشارة أو خبر بعد خبر
وصيغة المضارع الدالة على التجدد والاستمرار للإيدان بأن تلك المداولة سنة
مسلوكة فيما بين الأمم قاطبة سابقتها ولاحقتها وفيه ضرب من التسلية وقوله
عن وجل ﴿ وليعلم الله الذين آمنوا ﴾ إما من باب التمثيل أى ليعاملكم معاملة
من يريد أن يعلم المخلصين الثابتين على الإيمان من غيرهم أو العلم فيه مجاز عن
التمييز بطريق إطلاق اسم السبب على المسبب أى ليميز الثابتين على الإيمان من
غيرهم كما في قوله تعالى (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أتم عليه حتى يميز
الخبث من الطيب) أو هو على حقيقته معتبر من حيث تعلقه بالمعلوم من حيث
أنه موجود بالفعل إذ هو الذى يدور عليه فلك الجزء لا من حيث أنه
موجود بالقوة وإطلاق الإيمان مع أن المراد هو الرسوخ والإخلاص فيه
للإيدان بأن اسم الإيمان لا ينطلق على غيره والالتفات إلى الغيبة بإسناده
إلى اسم الذات المستجمع للصفات لتربيته المهابة والإشعار بأن صدر كل واحد
بما يذكر بصدد التعايل من أفعاله تعالى باعتبار منشأ معين من صفاته تعالى
مغاير لمنشأ الآخر والجملة علة لما هو فزد من أفراد مطلق المداولة التى نطق بها
قوله تعالى (نداؤها بين الناس) من المداولة المعهودة الجارية بين فريقى المؤمنين
والكافرين واللام متعلقة بما دل عليه المطلق من الفعل المقيد بالوقوع بين
الفريقين المذكورين أو بنفس الفعل المطلق باعتبار وقوعه بينهما والجملة
معطوفة على علة أخرى لها معتبرة إما على الخصوص والتعيين محذوفة للدلالة
المذكورة عليها لكونها من مبادئها كأنه قيل نداؤها بينكم وبين عدوكم ليظهر

أمركم وليعلم الخ فإن ظهور أعمالهم وخروجها من القوة إلى الفعل من مبادئ تمييزهم عن غيرهم وموجب تعلق العلم الأزل بها من تلك الحيشية وكذا الحال في باب التمثيل فتأمل وإما على العموم والإيهام للتنبيه على أن العزل غير منحصرة فيها عدد من الأمور وأن العبد يسوءه ما يجرى عليه من النوائب ولا يشعر بأن الله تعالى جعل له في ذلك من الألفاظ الخفية ما لا يخطر بباله كأنه قيل نداؤها بينكم ليكون من المصالح كيت وكيت وليعلم الخ وفيه من تأكيد التسلية ومزيد التبصرة ما لا يخفى وتخصيص البيان بعلة هذا الفرد من مطلق المداولة دون سائر أفرادها الجارية فيما بين بقية الأمم تعييناً أو إيهاماً لعدم تعلق الغرض العلمي ببيانها ولك أن تجعل المحذوف المبهم عبارة عن علة سائر أفرادها للإشارة إجمالاً إلى أن كل فرد من أفرادها له علة داعية إليه كأنه قيل نداؤها بين الناس كافة ليكون كيت وكيت من الحكم الداعية إلى تلك الأفراد وليعلم الخ فاللام الأولى متعلقة بالفعل المطلق باعتبار تقيده بتلك الأفراد والثانية باعتبار تقيده بالفرد المعهود وقيل هي متعلقة بمحذوف مؤخر تقديره وليعلم الله الذين آمنوا فعل ذلك .

﴿ ويتخذ منكم شهداء ﴾ جمع شهيد أي ويكرم ناساً منكم بالشهادة وهم شهداء أحد فمن ابتدائية أو تبعيضية متعلقة بـ يتخذ أو بمحذوف وقع حالاً من شهداء أو جمع شاهد أي ويتخذ منكم شهوداً معدلين بما ظهر منهم من الثبات على الحق والصبر على الشدائد وغير ذلك من شواهد الصدق ليشهدوا على الأمم يوم القيامة فمن بيانيه لأن تلك الشهادة وظيفه الكل دون المستشهدين فقط وأياً ما كان ففي لفظ الاتخاذ المنبئ عن الاصطفاء والتقريب من تشریفهم وتفخيم شأنهم ما لا يخفى وقوله تعالى ﴿ والله لا يحب الظالمين ﴾ اعتراض مقرر لمضمون ما قبله ونفي المحبة كناية عن البغض وفي إيقاعه على الظالمين تعريض بمحبته تعالى لمقابلتهم والمراد بهم إما غير الثابتين على الإيمان فالتقرير من حيث أن بغضه تعالى لهم من دواعي إخراج المخلصين المصطفين للشهادة من بينهم وإما

الكفرة الذين أدل لهم فالتقرير من حيث أن ذلك ليس بطريق النصرة لهم فإنها مختصة بأوليائه تعالى بل لما ذكر من الفوائد العائدة إلى المؤمنين وقوله تعالى ﴿ وليحص الله الذين آمنوا ﴾ أى ليصفيهم ويظهرهم من الذنوب عطف على يتخذ وتكرير اللام لتذكير التعليل لوقوع الفصل بينهما بالاعتراض وإظهار الاسم الجليل فى موقع الإضمار لإبراز مزيد الاعتناء بشأن التخصيص وهذه الأمور الثلاثة علل للمداولة المعهودة باعتبار كونها على المؤمنين قدمت فى الذكر لأنها المحتاجة إلى البيان ولعل تأخير العلة الأخيرة عن الاعتراض لئلا يتوهم اندراج المذنبين فى الظالمين أو ليقترن بقوله عز وجل ﴿ ويمحق الكافرين ﴾ فإن التخصيص فيه محو الآثار وإزالة الأوضار كما أن المحق عبارة عن النقص والإذهاب قال المفضل هو أن يذهب الشيء بالسكينة حتى لا يرى منه شيء ومنه قوله تعالى ﴿ يمحق الله الربا ﴾ أى يستأصله وهذه علة للمداولة باعتبار كونها على الكافرين والمراد بهم الذين حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد وأصرو على الكفر وقد محقهم الله عز وجل جميعا .

﴿ أم حسبتم ﴾ كلام مستأنف سيق لبيان ماهى الغاية القصوى من المداولة والنتيجة لما ذكر من تمييز المخلصين وتمحيصهم واتخاذ الشهداء وإظهار عزة منالها والخطاب للذين انهزموا يوم أحد وأم منقطعة وما فيها من كلمة بل للإضراب عن التسليمية ببيان السبب^(١) فيما لقوا من الشدة إلى تحقيق أنها مبادئ الفوز بالمطلب الأسنى والهمزة للإنكار والاستبعاد أى بل أحسبتم ﴿ أن تدخلوا الجنة ﴾ وتفوزوا بنعيمها وقوله تعالى ﴿ ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ﴾ حال من ضمير تدخلوا مؤكدة للإنكار فإن رجاء الأجر بغير عمل بمن يعلم أنه منوط به مستبعد عند العقول وعدم العلم كناية عن عدم المعلوم لما بينهما من اللزوم المبني على لزوم تحقق الأول لتحقق الثانى ضرورة استحالة تحقق شيء

(١) فى ط : العلل .

بدون علمه تعالى به وإيثارها على التصريح للمبالغة في تحقيق المعنى المراد فإنها لإثبات لعدم جهادهم بالبرهان وللإيدان بأن مدار ترتب الجزاء على الأعمال إنما هو علم الله تعالى بها كأنه قيل والحال أنه لم يوجد الذين جاهدوا منكم وإنما وجه النفي إلى الموصوفين مع أن المنفى هو الوصف فقط وكان يكفى أن يقال ولما يعلم الله جهادكم كناية عن معنى ولما تجاهدوا للمبالغة في بيان انتفاء الوصف وعدم تحققه أصلاً وفي كلمة لما إيدان بأن الجهاد متوقع منهم فيما يستقبل إلا أنه غير معتبر في تأكيد الإنكار وقرىء يعلم بفتح الميم على أن أصله يعلمن فحذفت النون أو على طريقة إتياع الميم لما قبلها في الحركة لإبقاء تفتيح اسم الله تعالى ومنكم حال من الذين .

﴿ ويعلم الصابرين ﴾ منصوب بإضمار أن على أن الواو للجمع كما في قولك لا تأكل السمك وتشرب اللبن أى لا يكن منك أكل السمك وشرب اللبن والمعنى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة والحال أنه لم يتحقق منكم الجهاد والصبر أى الجمع بينهما وإيثار اسم الفاعل على الموصول للدلالة على أن المعتبر هو الاستمرار على الصبر وللمحافظة على الفواصل وقيل مجزوم معطوف على المجزوم قبله قد حرك لالتقاء الساكنين بالفتح للخفة والإتياع كما مر ويؤيده القراءة بالكسر على ما هو الأصل في تحريك الساكن وقرىء يعلم بالرفع على أن الواو للرجال وصاحبها الموصول والمبتدأ محذوف أى وهو يعلم الصابرين كأنه قيل ولما تجاهدوا وأنتم صابرون .

﴿ ولقد كنتم تمنون الموت ﴾ أى تمنون الحرب فإنها من مبادئ الموت أو الموت بالشهادة والخطاب للذين لم يشهدوا بدراً وكانوا يتمنون أن يشهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهداً لينالوا ما ناله شهداء بدر من الكرامة فألحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخروج ثم ظهر منهم خلاف ذلك ﴿ من قبل أن تلقوه ﴾ متعلق بتمنون مبين لسبب إقدامهم على التنى أى من قبل

أن تشاهدوه وتعرفوا هوله وشدته وقرىء تلاقوه ﴿ فقد رأيتموه ﴾ أى ما تتمنونه من أسباب الموت أو الموت بمشاهدة أسبابه وقوله تعالى ﴿ وأنتم تنظرون ﴾ حال من ضمير المخاطبين وفي إثارة الرؤية على الملاقاة وتقييدها بالنظر مزيد مبالغة في مشاهدتهم له والفاء فصيحة كأنه قيل إن كنتم صادقين في تمنيتكم ذلك فقد رأيتموه معاينين له حين قتل بين أيديكم من قتل من إخوانكم وأقاربكم وشارفتهم أن تقتلوا فلم فعلتم ما فعلتم وهو توبيخ لهم على تمنيتهم الحرب وتسبيهم لها ثم جنبتهم وانزاهم لاعلى تمنى الشهادة بناء على تضمنها لغلبة الكفار لما أن مطلب من يتمناها نيل كرامة الشهداء من غير أن يخطر بباله شيء غير ذلك فلا يستحق العتاب من تلك الجهة .

﴿ وما محمد إلا رسول ﴾ مبتدأ وخبر ولا عمل لما بالاتفاق لا نتقاض نفيه بإلا قوله تعالى ﴿ قد خلعت من قبله الرسل ﴾ صفة لرسول منبئه عن كونه في شرف الخلو فإن خلو مشارك في منصب الرسالة من شواهد خلوه عليه الصلاة والسلام لا محالة كأنه قيل قد خلعت من قبله أمثاله فسيخلو كما خلوا والقصر قلبى فإنهم لما انقلبوا على أعقابهم فكأنهم اعتقدوا أنه عليه الصلاة والسلام رسول لا كسائر الرسل فى أنه يخلو كما خلوا أو يجب التمسك بدينه بعده كما يجب التمسك بدينهم بعدهم فرد عليهم بأنه ليس إلا رسولا كسائر الرسل فسيخلوا كما خلوا ويجب التمسك بدينه كما يجب التمسك بدينهم وقيل هو قصر لإفراد فإنهم لما استعظموا عدم بقاءه عليه الصلاة والسلام لهم نزلوا منزلة المستبعدين لهلاكه كأنهم يعتقدون فيه عليه الصلاة والسلام وصفين الرسالة والبعد عن الهلاك فرد عليهم بأنه مقصور على الرسالة لا يتجاوزها إلى البعد عن الهلاك فلا بد حينئذ من جعل قوله تعالى قد خلعت الخ كلاما مبتدأ مسوقا لتقرير عدم براءته عليه الصلاة والسلام من الهلاك وبيان كونه أسوة لمن قبله من الرسل عليهم السلام وأياما كان فالسكلام يخرج على خلاف مقتضى الظاهر ﴿ أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾ إنكار لارتدادهم وانقلابهم عن الدين بخلوه بموت أو قتل بعد عليهم بخلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكا به وقيل الفاء للسببية

والهمزة لإنكار أن يجعلوا خلو الرسل قبله سبياً لا انقلابهم بعد وفاته مع كونه سبياً في الحقيقة لثباتهم على الدين وإيراد الموت بكلمة أن مع علمهم به البتة لتنزيل المخاطبين منزلة المترددين فيه لما ذكر من استعظامهم لإياه وهكذا الحال في سائر الموارد فإن كلمة إن في كلام الله تعالى لا تجرى على ظاهرها قط ضرورة علمه تعالى بالوقوع أو اللاتوقوع بل تحمل على اعتبار حال السامع أو أمر آخر يناسب المقام وتقديم تقدير الموت مع أن تقدير القتل هو الذي ثار منه الفتنة وعظم فيه المحنة لما أن الموت في شرف الوقوع فزجر الناس عن النكوص (١) عنده وحملهم على الثبوت هناك أهم ولأن الوصف الجامع بينه وبين الرسل عليهم السلام وهو الخلو بالموت دون القتل . روى أنه لما التقى الفئتان حمل أبو دجاجة في نفر من المسلمين على المشركين فقاتل قتالاً شديداً وقاتل على بن أبي طالب رضي الله عنه قتالاً عظيماً حتى التوى سيفه وكذا سعد بن أبي قاص فقتلوا جماعة من المشركين وهزموهم فلما نظر الرماة إليهم ورأوا أنهم قد أنزموا أقبلوا على النهب ولم يلتفتوا إلى نهي أميرهم عبد الله بن جبير فلم يبق منهم عنده إلا ثمانية نفر فلما رآهم خالد بن الوليد قد اشتغلوا بالغنيمه حمل عليهم في مائتين وخمسين فارساً من المشركين من قبل الشعب وقتلوا من بقي من الرماة ودخلوا خلف أفضية المسلمين ففرقوهم وهزموهم وحملوا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلواهم حتى أصيب هناك نحو ثلاثين رجلاً كل منهم يجشو بين يديه ويقول وجهي لوجهك وقاء نفسي لنفسك فداء وعليك سلام الله غير مودع ورمى عبد الله بن قيس الخارثي رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر فكسر رباعيته وشج وجهه الكريم فذب عنه مصعب بن عمير رضي الله عنه وكان صاحب الراية حتى قتل ابن قيس وهو يزعم أنه قتل النبي صلى الله عليه وسلم فقال قتلت محمداً وصرخ صارخ قيل إنه إبليس ألا أن محمداً قد قتل فانكفأ الناس وجعل الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو إلى عباد الله قال كعب بن مالك

(١) في ط : الانقلاب .

رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات ﴿ ومن ينقلب على عقبيه ﴾ بإدباره عما كان يقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمر الجهاد وغيره وقيل بارتداده^(١) عن الإسلام وما ارتد يومئذ أحد من المسلمين إلا ما كان من المنافقين .

﴿ فلن يضرب الله ﴾ بما فعل من الانقلاب ﴿ شيئاً ﴾ أى شيئاً من الضرر وإنما يضرب نفسه بتعريضها للسخط والعذاب ﴿ وسيجزى الله الشاكرين ﴾ أى الثابتين على دين الإسلام الذى هو أجل نعمة وأعز معروف سماوا بذلك لأن الثبات عليه شكر له وعرافان لحقه وفيه إيماء إلى كفران المنقلبين . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن المراد بهم الطائعون لله تعالى من المهاجرين والأنصار وعن على رضى الله عنه أبو بكر وأصحابه رضى الله عنهم وعنه رضى الله عنه أنه قال أبو بكر من الشاكرين ومن أحبب الله تعالى وإظهار الاسم الجليل فى موقع الإضمار لإبراز مزيد الاعتناء بشأن جزائهم .

﴿ وما كان لنفس أن تموت ﴾ كلام مستأنف سيق للتنبيه على خطئهم فيما فعلوا حذرا من قتلهم وبناء على الإرجاف بقتله عليه الصلاة والسلام ببيان أن موت كل نفس منوط بمشيئة الله عز وجل لا يكاد يقع بدون تعلقها به وإن خاضت موارد الحتوف واقتحمت مضائق كل هول ومخوف وقد أشير بذلك إلى أنها لم تكن متعلقة بموتهم فى الوقت الذى حذروه فيه ولذلك لم يقتلوا حينئذ لا لإحجامهم عن مباشرة القتال وكلمة كان ناقصة اسمها أن تموت وخبرها الظرف على أنه متعلق بمحذوف .

وقوله تعالى ﴿ إلا بإذن الله ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأسباب أى وما كان الموت حاصلًا لنفس من النفوس بسبب من الأسباب إلا بمشيئته تعالى على أن الإذن مجاز منها لكونها من لوازمه أو إلا بإذنه لملك الموت فى قبض روحها وسوق الكلام مساق التمثيل بتصوير الموت بالنسبة إلى النفوس بصورة

(١) فى ١١ برده .

الأفعال الاختيارية التي لا يتسنى للفاعل إيقاعها والإقدام عليها بدون إذنه تعالى أو بتنزيل إقدامها على مبادئه أعنى القتال منزلة الإقدام على نفسه للمبالغة في تحقيق المرام فإن موتها حيث استحال وقوعه عند إقدامها عليه أو على مبادئه وسعيها في إيقاعه فلأن يستحيل عند عدم ذلك أولى وأظهر وفيه من التحريض على القتال ما لا يخفى (كتاباً) مصدر مؤكد لمضمون ما قبله أى كتبه الله كتاباً (موجلاً) مؤقفاً بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر ولو ساعة وقرىء موجلاً بالواو بدل الهمزة على قياس التخفيف وبعد تحقيق أن مناط (١) الموت والحياة محض مشيئة الله عز وجل من غير أن يكون فيه مدخل لأحد أصلاً أشير إلى أن توفية ثمرات الأعمال دائرة على إرادتهم ليصرفوها عن الأغراض الدنيئة إلى المطالب السنية فليل .

(ومن يرد) أى بعمله (ثواب الدنيا نواته) بنون العظمة على طريق الالتفات (منها) أى من ثوابها ما نشاء أن تؤتبه إياه كما فى قوله عز وجل (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد) وهو تعريض بمن شغلتهم الغنائم يؤمئذ وقد مر تفصيله (ومن يرد) أى بعمله (ثواب الآخرة نواته منها) أى من ثوابها ما نشاء من الأضعاف حسبما جرى به الوعد الكريم (وسنجزى الشاكرين) نعمة الإسلام التابئين عليه الصارفين لما آتاهم الله تعالى من القوى والقدر إلى ما خلقت هى لأجله من طاعة الله تعالى لا يلومهم عن ذلك صارف أصلاً والمراد بهم إما المجاهدون الممهوردون من الشهداء وغيرهم وإما جنس الشاكرين وهم داخلون فيه دخولا أولياء والجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبله ووعد بالمازىد عليه وفى تصديرها بالسين وإيهام الجزاء من التأكيد والدلالة على نغامة شأن الجزاء وكونه بحيث يقصر عنه البيان ما لا يخفى وقرىء الأفعال الثلاثة بالياء .

(وكأين) كلام مبتدأ ناع عليهم تفصيرهم وسوء صنيعهم فى صدورهم

عن سنن الربانيين المجاهدين في سبيل الله مع الرسل الخالين^(١) عليهم السلام وكأين لفظة مركبة من كاف التشبيه وأى حدث فيها بعد التركيب معنى التكثير كما حدث في كذا وكذا والنون تنوين أثبتت في الخط على غير قياس وفيها خمس لغات هي إحداهن والثانية كأن مثل كاعن والثالثة كأين مثل كعين والرابعة كيثن بيا ساكنة بعدها همزة مكسورة وهي قلب ما قبلها والخامسة كأن مثل كمن وقد قرئ بكل منها ومحلها الرفع بالابتداء وقوله تعالى ﴿من نبي﴾ تمييز لها لأنها مثل كم الخبرية وقد جاء تمييزها منصوبا كما في قوله

أطرد اليأس بالرجاء فكأين أملا حم يسره بعد عسر

وقوله تعالى ﴿قاتل معه ربيون كثير﴾ خبر لها على أن الفعل مسند إلى الظاهر والرابط هو الضمير المجرور في معه وقرئ قتل وقتل على صيغة المبني للمفعول مخنفة ومشددة والربى منسوب إلى الرب كالرباني وكسر الراء من تغييرات النسب وقرئ بضمها وبفتحها أيضاً على الأصل وقيل هو منسوب إلى الربة وهي الجماعة أى كثير من الأنبياء قاتل معه لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه علماء أتقياء أو عابدون أو جماعات كثيرة^(٢) فالظرف متعلق بقاتل أو بمحذوف وقع حالاً من فاعله كما في القراءتين الأخيرتين إذ لا احتمال فيهما لتعلقه بالفعل أى قتلوا أو قتلوا كائنين معه في القتال لا في القتل قال سعيد بن جبير ما سمعنا بنبي قتل في القتال وقال الحسن البصرى وجماعة من العظام لم يقتل نبي في حرب قط وقيل الفعل مسند إلى ضمير النبي والظرف متعلق بمحذوف وقع حالاً منه والرابط هو الضمير المجرور الراجع إليه وهذا واضح على القراءة المشهورة بلا خوف أى كم نبي قاتل كائناً معه في القتال ربيون كثير وأما على القراءتين الأخيرتين فغير ظاهر لا سيما على قراءة التشديد وقد جوزه بعضهم وأيده بأن مدار التوبيخ انخراطهم للإرجاف يقتله عليه السلام أى كم من نبي قتل كائناً معه في القتال أو في القتال ربيون الخ وقوله تعالى :

(١) في ط : الحالية .

(٢) في ١١ كثيرين .

﴿ فما وهنوا ﴾ عطف على قاتل على أن المراد به عدم الوهن المتوقع من القتال كما في قولك وعظته فلم يتعظ وصحت به فلم ينزجر فإن الإتيان بالشئ بعد ورود ما يوجب الإقلاع عنه وإن كان استمرارا عليه بحسب الظاهر ولكنه بحسب الحقيقة صنع جديدهم صحح له دخول الفاء المرتبة له على ما قبله أي فافترؤا وما انكسرت همتهم ﴿ لما أصابهم ﴾ في أثناء القتال وهو علة للمعنى دون النفي نعم يشعر بملته قوله تعالى ﴿ في سبيل الله ﴾ فإن كون ذلك في سبيله عز وجل مما يقوى قلوبهم ويزيل وهنهم وما موصولة أو موصوفة فإن جعل الضميران لجميع الربيين فهي عبارة عما عدا القتل من الجراح وسائر المكروه المعترية للسكك وإن جعل للبعض الباقيين بعد ما قتل الآخرون كما هو الأليق^(١) بمقام توبيخ المنخدلين بعد ما استشهد الشهداء فهي عبارة عما ذكر مع ما اعتراهم من قتل إخوانهم من الخوف والحزن وغير ذلك هذا على القراءة المشهورة وأما على القراءة الأخرتين فإن أسند الفعل إلى الربيين فالضميران للباقيين منهم حتما وإن أسند إلى ضمير النبي كما هو الأنسب بالتوبيخ على الانخدال بسبب الإرجاف بقتله عليه الصلاة والسلام فهما للباقيين أيضا إن اعتبر كون الربيين مع النبي في القتل وللجميع إن اعتبر كونهم معه في القتال ﴿ وما ضعفوا ﴾ عن العدو وقيل عن الجهاد وقيل في الدين ﴿ وما استكانوا ﴾ أي وما خضعوا للعدو وأصله استكن من السكون لأن الخاضع يسكن لصاحبه ليفعل به ما يريد والألف من إشباع الفتحة أو استكون من السكون لأنه يطلب أن يكون لمن يخضع له وهذا تعريض بما أصابهم من الوهن والانكسار عند استيلاء الكفرة عليهم والإرجاف بقتل النبي صلى الله عليه وسلم وبعضهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين واستكانتهم لهم حين أرادوا أن يعتضدوا بأبي المنافق في طلب الأمان من أبي سفيان ﴿ والله يحب الصابرين ﴾ أي على مقاساة الشدائد ومعاناة المكروه في سبيل الله فينصبرهم ويعظم قدرهم والمراد بالصابرين إما المعهودين والإظهار

(١) في ط الأنسب .

في موضع الإضمار للثناء عليهم بحسن الصبر والإشعار بعلّة الحكم وإما الجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا والجملة تذييل لما قبلها .

﴿ وما كان قولهم ﴾ كلام مبين لمحاسنهم القولية معطوف على ما قبله من الجمل المبيّنة لمحاسنهم وقولهم بالنصب الفعلية خبر لكان واسمها أن وما بعدها في قوله تعالى ﴿ إلا أن قالوا ﴾ والاستثناء مفرغ من أعم الأشياء ما كان قولهم عند أي لقاء العدو واقتحام مضايق الحرب وإصابة ما أصابهم من فنون الشدائد والأهوال شيء من الأشياء إلا أن قالوا ﴿ ربنا اغفر لنا ذنوبنا ﴾ أي صغائرنا ﴿ وإسرافنا في أمرنا ﴾ أي تجاوزنا الحد في ركوب الكبائر أضافوا الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربانيين برآء من التفريط في جنب الله تعالى هضما لهم واستصغاراً (١) لهمهم وإسناداً لما أصابهم إلى أعمالهم وقدموا الدعاء بمغفرتها على ما هو الأهم بحسب الحال من الدعاء بقولهم ﴿ وثبت أقدامنا ﴾ أي في مواطن الحرب والتقوية والتأييد من عندك أو ثبتنا على دينك الحق ﴿ وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ تقريباً له إلى حين القبول فإن الدعاء المقرون بالخضوع الصادر عن زكاه وطهارة أقرب إلى الاستجابة والمعنى لم يزالوا مواظبين على هذا الدعاء من غير أن يصدر عنهم قول يوم شائبة الجزع والخور والتزلزل في مواقف الحرب ومرصد الدين وفيه من التعريض بالمنهزمين مالا يخفى وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية عنهما برفع قولهم على أنه الاسم والخبر أن وما في حيزها أي ما كان قولهم حينئذ شيئاً من الأشياء إلا هذا القول المنبئ عن أحسن (٢) المحاسن وهذا كما ترى أقمد بحسب المعنى وأوفق بمقتضى المقام لما أن الإخبار بكولهم المطلق خصوصية قولهم المحكى عنهم مفصلاً كما تفيدته قراءتهما أكثر إفادة للسامع من الإخبار بكولهم المذكور قولهم لما أن مصب الفائدة وموقع البيان في الجمل الخبرية هو الخبر فالأحق بالخبرية ما هو أكثر إفادة وأظهر دلالة على الحدث وأوفر اشتمالاً على نسب خاصة بعيدة

(١) في ط : واستصغارا .

(٢) في ط : أحاسن .

من الوقوع في الخارج وفي ذهن السامع ولا يخفى أن ذلك ههنا في أن مع ما في خيزها أتم وأكمل وأما ما تفيدته الإضافة من النسبة المطلقة الإجمالية. فيث كانت سهلة الحصول خارجا وذهنا كان حقها أن تلاحظ ملاحظة إجمالية وتجعل عنوانا للموضوع لا مقصودا بالذات في باب البيان وإنما اختار الجمهور ما اختاره لقاعدة صناعية هي أنه إذا اجتمع معرفتان فالأعرف منهما أحق بالإسمية ولا ريب في أعرافية أن قالوا للدلالته على جهة النسبة وزمان الحدث ولأنه يشبه المضمرة من حيث أنه لا يوصف ولا يوصف به وقولهم مضاف إلى مضمرة فهو بمنزلة العلم فتأمل .

﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ ﴾ بسبب دعائهم ذلك ﴿ ثَوَابَ الدُّنْيَا ﴾ أي النصر والغنيمة والعز والذكر الجميل ﴿ وَحَسَنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ الْحَسَنَ وَهُوَ الْجَنَّةُ وَالنَّعِيمُ الْمَخْلُودُ وَتَخْصِيصُ وَصْفِ الْحَسَنِ بِهِ لِلإِيذَانِ بِفَضْلِهِ وَمَنْزِيَّتِهِ وَأَنَّهُ الْمَعْتَدُ بِهِ عِنْدَهُ تَعَالَى ﴾ والله يحب المحسنين ﴿ تذييل مقرر لمضمون (١) ما قبله فإن محبة الله تعالى للعبد عبارة عن رضاه عنه وإزادة الخير به فهي مبدأ لسكل سعادة والإيم إمام للعهد وإنما وضع المظهر موضع ضمير المعبودين للإشعار بأن ما حكى عنهم من الأفعال والأقوال من باب الإحسان وإما للجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا وهذا أنسب بمقام ترغيب المؤمنين في تحصيل ما حكى عنهم من المناقب الجليلة .

من دستور الحرب

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ شروع في زجرهم عن متابعة الكفار ببيان استتباعها لخسران الدنيا والآخرة لإثر ترغيبهم في الاقتداء بأنصار الأنبياء إفضاءها (٢) إلى فوزهم بسعادة الدارين وتصدير الخطاب بالنداء والتنبيه لإظهار الاعتناء بما في خيزه ووصفهم بالإيمان لتذكير حالهم وتثبيتهم عليها بإظهار

(١) في ١ : يقرر مضمون .

(٢) في ط : إفضاءه .

مباينتها لحال أعدائهم كما أن وصف المنافقين بالكافرين في قوله تعالى : ﴿ إن تطيعوا الذين كفروا ﴾ لذلك قصدا إلى مزيد التنفير عنهم والتحذير عن طاعتهم قال على رضى الله عنه نزلت في قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا في دينهم فوقوع قوله تعالى : ﴿ يردوكم على أعقابكم ﴾ جوابا للشرط مع كونه في قوة أن يقال إن تطيعوهم في قولهم ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا في دينهم يدخلوكم في دينهم باعتبار كونه تمهيدا لقوله تعالى : ﴿ فتقلبوا خامسين ﴾ أى للدنيا والآخرة غير فائزين بشيء منهما واقعين في العذاب الخالد على أن الارتداد على العقب علم على انتكاس الأمر ومثل في الحور بعد الكور وقيل المراد بهم اليهود والنصارى حيث كانوا يستخونونهم ويوقعون لهم الشبه في الدين ويقولون لو كان نبيا حقا لما غلب ولما أصابه وأصحابه ما أصابهم وإنما هو رجل حاله كحال غيره من الناس يوما عليه ويوما له وقيل أبو سفيان وأصحابه والمراد بطاعتهم استئمانهم والاستسكانة لهم وقيل الموصول على عمومته والمعنى نهى المؤمنين عن طاعتهم في أمر من الأمور حتى لا يستجروهم إلى الارتداد عن الدين فلا حاجة على هذه التقادير إلى ما مر من البيان .

﴿ بل الله مولاكم ﴾ إضراب عما يفهم من مضمون الشرطية كأنه قيل فليسوا أنصاركم حتى تطيعوهم بل الله ناصركم لا غيره فأطيعوه واستعينوا به عن موالاتهم وقرىء بالنصب كأنه قيل فلا تطيعوهم بل أطيعوا الله ومولاكم نصب على أنه صفة له ﴿ وهو خير الناصرين ﴾ فخصوه بالطاعة والاستعانة ﴿ سنلقى ﴾ بنون العظمة على طريقة الالتفات جريا على سنن الكبرياء لتقوية^(١) المهابة وقرىء بالياء والسين لتأكيد الإلقاء ﴿ في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ بسكون العين وقرىء بضمها على الأصل وهو ما قذف في قلوبهم من الخوف يوم أحد حتى تركوا القتال ورجعوا من غير سبب ولهم القوة والغلبة وقيل ذهبوا إلى

(١) في ط : لتربية .

مكة فلما كانوا بيمض الطريق قالوا ما صنعنا شيئاً قتلنا منهم ثم تركناهم ونحن قاهرون ارجعوا فاستأصلوهم فعند ذلك ألقى الله تعالى في قلوبهم الرعب فأمسكوا فلا بد من كون نزول الآية في تضاعيف الحرب أو عقيب انقضائها^(١) وقيل هو ما ألقى في قلوبهم من الرعب يوم الأحزاب ﴿بما أشركوا بالله﴾ متعلق بنلقى دون الرعب وما مصدرية أى بسبب إشرأ بهم به تعالى فإنه من موجبات خذلانهم ونصر المؤمنين عليهم وكلاهما من دواعى الرعب ﴿مالم ينزل به﴾ أى بإشرأ كه ﴿سلطانا﴾ أى حجة سميت به لوضوحها وإلارتها أو لقوتها أو لحدتها ونفوذها وذكر عدم تنزيلها مع استعالة تحققها فى نفسها من قبيل قوله :

• ولا ترى الضب بها ينجحر •

أى لا ضب ولا انجحر وفيه إيدان بأن المتبع فى الباب هو البرهان السماوى دون الآراء والأهواء الباطلة .

﴿وماوأم﴾ بيان لأحوالهم فى الآخرة إثر بيان أحوالهم فى الدنيا وهى الرعب أى ما يأوون إليه فى الآخرة ﴿النار﴾ لاملجأ لهم غيرها ﴿وبئس مشوى الظالمين﴾ أى مشواهم وإنما وضع موضعه المظهر المذكور للتخليط والتعليل والإشعار بأنهم فى إشرأ بهم ظالمون واضعون للشئ فى غير موضعه والمخصوص بالذم محذوف أى بئس مشوى الظالمين النار وفى جعلها مشواهم بعد جعلها ماوأم نوع رمز إلى خلودهم فيها فإن المشوى مكان الإقامة المنبئة عن المسكث وأما المسأوى فهو المسكان الذى يأوى إليه الإنسان ﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾ نصب على أنه مفعول ثان لصدق صريحاً وقيل بنزع الجار أى فى وعده نزلت حين قال ناس من المؤمنين عند رجوعهم إلى المدينة من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله تعالى بالنصر وهو ما وعدهم على لسان نبيه عليه السلام من النصر

(١) فى ط : انقضائه .

حيث قال للرماة لا تبرحوا مكانكم فلن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم وفي رواية أخرى لا تبرحوا عن هذا المكان فإننا لانزال غالبين ما دمتم في هذا المكان وقد كان كذلك فإن المشركين لما أقبلوا جعل الرماة يرشقونهم والباقون يضربونهم بالسيوف حتى انهزموا والمسلمون على آفأهم يقتلونهم قتلا ذريعا وذلك قوله تعالى :

﴿ إذ تحسونهم ﴾ أى تقتلونهم قتلا كثيرا فاشيا من حسه إذا أبطل حسه وهو ظرف لصدقكم وقوله تعالى : ﴿ يا ذننه ﴾ أى بتيسيره وتوفيقه لتحقيق أن قتلهم بما وعدهم الله تعالى من النصر وقيل هو ما وعدهم بقوله تعالى (إن تصبروا وتتقوا) الآية وقد مر تحقيق أن ذلك كان يوم بدر كيف لا والموعود بما ذكر إمداده عز وجل بإنزال الملائكة عليهم السلام وتقبيد صدق وعده تعالى بوقت قتلهم يا ذننه تعالى صريح فى أن الموعود هو النصر المأمونى والتيسير لا الإمداد بالملائكة وقيل هو ما وعدته تعالى بقوله سنلقى الخ وأنت خير بأن اللقاء الرعب كان عند تركهم القتال ورجوعهم من غير سبب أو بعد ذلك فى الطريق على اختلاف [فى] ^(١) الروايتين وأيا ما كان فلا سبيل إلى كونه مغيا بقوله تعالى ﴿ حتى إذا فشلتم ﴾ أى جبنتم وضعف رأيكم أو ملتم إلى الغنيمة فإن الحرص من ضعف القلب ﴿ وتنازعتم فى الأمر ﴾ فقال بعض الرماة حين انهزم المشركون وولوا هاربين والمسلمون على أعقابهم قتلا وضربا فما موقنا ههنا بعد هذا وقال أميرهم عبد الله بن جبير رضى الله عنه لا نخالف أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فثبت مكانه فى نبردون العشرة من أصحابه ونفر الباقون للنهب وذلك قوله تعالى :

﴿ وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ﴾ أى من الظفر والغنيمة وانهمزام العدو فلما رأى المشركون ذلك حملوا عليهم من قبل الشعب وقتلوا أمير الرماة ومن معه من أصحابه حسبما فصل فى تفسير قوله تعالى (أفان مات أو قتل انقلبتم

على أعقابكم) وجواب إذا محذوف وهو منعكم نصره وقيل امتحنكم ويرده جعل الابتلاء غاية للصرف المترتب على منع النصر وقيل هو انقسمتم إلى قسمين كما ينبي عنه قوله تعالى: ﴿منكم من يريد الدنيا﴾ وهم الذين تركوا المركز وأقبلوا على النهب ﴿ومنكم من يريد الآخرة﴾ وهم الذين ثبتوا مكانهم حتى نالوا شرف الشهادة هذا على تقدير كون إذا شرطية وحتى ابتدائية داخلية على الجملة الشرطية وقيل إذا اسم كما في قوطهم إذا يقوم زيد يقوم عمرو وحتى حرف جر بمعنى إلى المتعلقة بقوله تعالى صدقكم باعتبار تضمنه لمعنى النصر كأنه قيل لقد نصركم الله إلى وقت فشلكم وتنازعكم الخ وعلى هذا فقوله تعالى ﴿ثم صرفكم عنهم﴾ حتى حالت الحال ودالت الدولة وفيه من اللطف بالمسلمين ما لا يخفى ﴿ليبتليكم﴾ أى يعاملكم معاملة من يمتحنكم بالمصائب ليظهر ثباتكم على الإيمان عندها ﴿واقدر عفا عنكم﴾ تفضلا ولما علم من ندمكم على المخالفة ﴿والله ذو فضل على المؤمنين﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله ومؤذن بأن ذلك العفو بطريق التفضل والإحسان لا بطريق الوجوب عليه أى شأنه أن يتفضل عليهم بالعفو أو هو متفضل عليهم فى جميع الأحوال أدب عليهم إذ الابتلاء أيضا رحمة والتنكير للتفخيم والمراد بالمؤمنين إما المخاطبون والإظهار فى موقع الإضمار للتشريف والإشعار بعلية الحكم وإما الجنس وهم داخلون فى الحكم دخولا أوليا ﴿إذ تصعدون﴾ متعلق بصرفكم أو بقوله تعالى: ليبتليكم أو بمقدر كما ذكروا والإصعاد الذهاب والإبعاد فى الأرض وقرى بثلاثى أى فى الجبل وقرى تصعدون من التفعّل بطرح إحدى التاءين وقرى تصعدون من يصعدون بالالتفات إلى الغيبة .

﴿ولا تلوّن على أحد﴾ أى لا تلتفتون إلى ما وراءكم ولا يقف واحد منكم لواحد وقرى تلوّن بواو واحدة بقلب الواو المضمومة همزة وحذفها تخفيفا وقرى يلوّن كيصعدون ﴿والرسول يدعوكم﴾ كان عاينه الصلاة والسلام يدعوهم إلى عباد الله أنا رسول الله من يكرّ فله الجنة وإيراده عليه السلام بعنوان الرسالة للإيدان بأن دعوته عليه السلام كانت بطريق الرسالة من جهته

سبحانه لإشباعاً في توبيخ المنهزمين ﴿ في أخراكم ﴾ في ساققتكم وجماعتكم الأخرى ﴿ فأنا بكم ﴾ عطف على صرفكم أى لجازاكم الله تعالى بما صنعتم ﴿ غما ﴾ موصولاً ﴿ بغم ﴾ من الاغتمام بالقتل والجرح وظفر المشركين والإرجاف بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم وفوت الغنيمة فالتشكير للتشكير أو غما بمقابلة غم أذتموه رسول الله صلى عليه وسلم بعصيانكم له ﴿ لسكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم ﴾ أى لتتمرنوا على الصبر في الشدائد فلا تحزنوا على نفع فات أو ضرت أو قيل لا زائدة والمعنى لتأسفوا على ما فاتكم من الظفر والغنيمة وعلى ما أصابكم من الجراح والهزيمة عقوبة لكم وقيل الضمير في أنا بكم للرسول صلى الله عليه وسلم أى واساكم في الاغتمام فاغتم بما نزل عليكم كما اغتمتم بما نزل عليه ولم يثر بكم على عصيانكم تسليمة لكم وتنفيساً لكم لئلا تحزنوا على ما فاتكم من النصر وما أصابكم من الجراح وغير ذلك ﴿ والله خبير بما تعملون ﴾ أى عالم بأعمالكم وبما أردتم^(١) بها .

﴿ ثم أنزل عليكم ﴾ عطف على قوله تعالى فأنا بكم والخطاب للمؤمنين حقاً ﴿ من بعد الغم ﴾ أى الغم المذكور والتصريح بتأخر الإنزال عنه مع دلالة ثم عليه وعلى تراخيه عنه لزيادة البيان وذكير عظم النعمة كما في قوله تعالى ﴿ ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ﴾ الآية ﴿ أمانة ﴾ أى أمانة نصب على المفعولية وقوله تعالى ﴿ نعاسا ﴾ بدل منها أو عطف بيان وقيل مفعول له أو هو المفعول وأمانة حال منه متقدمة عليه أو مفعول له حال من مخاطبين على تقدير مضاف أى ذو أمانة أو على أنه جمع آمن كبار وبررة وقرىء بسكون الميم كأنها مرة من الأمن وتقدير الطرفين على المفعول الصريح لما مر غير مرة من الاعتناء بشأن المقدم والتشويق إلى المؤخر وتخصيص الخوف من بين فنون الغم بالإزالة لأنه المهم عندهم حينئذ لما أن المشركين لما انصرفوا كانوا يتوعدون المسلمين بالرجوع فلم يأمنوا كرتهم وكانوا تحت الحيف متأهين للقتال فأنزل الله تعالى

(١) في ط : قصدتم .

عليهم الأمانة فأخذهم النعاس . قال ابن عباس رضى الله عنهما أمنهم يومئذ بنعاس تغشاهم بعد خوف وإنما ينعس من أمن والخائف لا ينام وقال الزبير رضى الله عنه كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم حين اشتد الخوف فأنزل الله علينا النوم والله لئنى أسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشائى ما أسمع إلا كالحلم يقول لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ههنا وقال أبو طلحة رضى الله عنه رفعت رأسى يوم أحد فجعلت لا أرى أحدا من القوم إلا وهو يمد تحت حجفته من النعاس . قال وكنت ممن ألقى عليه النعاس يومئذ فكان السيف يسقط من يدي فأخذه ثم يسقط السوط من يدي فأخذه وفيه دلالة على أن من المؤمنين من لم يلق عليه النعاس كما ينبىء عنه قوله عز وجل :

﴿ يغشى طائفة منكم ﴾ قال ابن عباس هم المهاجرون وعامة الأنصار ولا يقدح ذلك في عموم الإنزال للكلى والجملة فى محل النصب على أنها صفة لنعاسا وقرىء بالناء على أنها صفة لأمنة وفيه أن الصفة حقها أن تتقدم على البدل وعطف البيان وأن لا يفصل بينها وبين الموصوف بالمفعول له وأن المعهود أن يحدث عن البدل دون المبدل منه ﴿ وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ﴾ أى أوقعتهم فى الهموم والأحزان أو ما بهم إلا هم أنفسهم وقصد خلاصها من قولهم همى الشىء أى كان من همى وقصدى والقصر مستفاد بمعونة المقام وطائفة مبتدأ وما بعدها إما خبرها وإنما جاز ذلك مع كونها نكرة لاعتمادها على واو الحال كما فى قوله :

سريتنا ونجم قد أضاء فبدأ محياك أخفى ضوءه كل شارق

أو لوقوعها فى موضع التفصيل كما فى قوله :

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشق وتحتى شقها لم يحول

وإما صفتها والخبر محذوف أى ومعكم طائفة أو وهناك طائفة وقيل تقديره ومنكم طائفة وفيه أنه يقتضى دخول المنافقين فى الخطاب بإنزال الأمانة

وأيا ما كان فالجملة إما حالية مبينة لفظاعة الهول مؤكدة لعظم النعمة في الخلاص عنه كما في قوله تعالى (أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم) وإما مستأنفة مسوقة لبيان حال المنافقين وقوله عز وجل ﴿ يظنون بالله ﴾ حال من ضمير أهمتهم أو من طائفة لتخصصها بالصفة أو صفة أخرى لها أو خبر بعد خبر أو استئناف مبين لما قبله وقوله تعالى ﴿ غير الحق ﴾ في حكم المصدر أى يظنون به تعالى غير الظن الحق الذى يجب أن يظن به سبحانه وقوله تعالى ﴿ ظان الجاهلية ﴾ بدل منه وهو الظن المختص بالملة الجاهلية والإضافة كما في حاتم الجرد ورجل صدق وقوله تعالى :

﴿ يقولون ﴾ بدل من يظنون لما أن مستلهم كانت صادرة عن الظن أى يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم على صورة الاسترشاد ﴿ هل لنا من الأمر ﴾ أى من أمر الله ووعده من النصر والظفر ﴿ من شيء ﴾ أى من نصيب قط أو هل لنا من التدبير من شيء وقوله تعالى ﴿ قل إن الأمر كله لله ﴾ أى إن الغلبة بالآخرة لله تعالى ولأوليائه فإن حزب الله هم الغالبون أو أن التدبير كله لله فإنه تعالى قد نبر الأمر كما جرى في سابق قضائه فلا مرد له وقرئ كله بالرفع على الابتداء وقوله تعالى ﴿ يخفون في أنفسهم ﴾ أى يضمرون فيها أو يقولون فيما بينهم بطريق الخفية ﴿ ما لا يبدون لك ﴾ استئناف أو حال من ضمير يقولون وقوله تعالى قل إن الأمر الخ اعتراض بين الحال وصاحبها أى يقولون ما يقولون مظهرين أنهم مسترشدون طالبون للنصر مبطنين الإنكار والتكذيب وقوله تعالى ﴿ يقولون ﴾ استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ بما قبله كأنه قيل أى شيء يخفون فقول يحدثون أنفسهم أو يقول بعضهم لبعض فيما بينهم خفية ﴿ لو كان لنا من الأمر شيء ﴾ كما وعد محمد عليه الصلاة والسلام من أن الغلبة لله تعالى ولأوليائه وأن الأمر كله لله أو لو كان لنا من التدبير والرأى شيء ﴿ ما قتلنا ههنا ﴾ أى ما غلبنا أو ما قتل من قتل منا في هذه المعركة على أن النفس راجع إلى نفس القتل لا إلى وقوعه فيها فقط ولما برحنا من منازلنا كما رآه ابن أبى ويؤيده تعيين مكان القتل وكذا قوله تعالى :

﴿ قل لو كنتم في بيوتكم ﴾ أى لو لم تخرجوا إلى أحد وقعدتم بالمدينة كما تقولون ﴿ لبرز الذين كتب عليهم القتل ﴾ أى فى اللوح المحفوظ بسبب من الأسباب الداعية إلى البروز ﴿ إلى مضاجعهم ﴾ إلى مصارعهم التى قدر الله تعالى قتلهم فيها وقتلوا هنالك البتة ولم تنفع العزيمة على الإقامة بالمدينة قطعا فإن قضاء الله تعالى لا يرد وحكمه لا يعقب وفيه مبالغة فى رد مقاتلهم الباطلة حيث لم يقتصر على تحقيق نفس القتل كما فى قوله عز وجل (أينما تكونوا يدرككم الموت) بل عين مكانه أيضا ولا ريب فى تعيين زمانه أيضا لقوله تعالى (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) روى أن ملك الموت حضر مجلس سليمان عليه الصلاة والسلام فنظر إلى رجل من أهل المجلس نظرة هائلة فلما قام قال الرجل من هذا فقال سليمان عليه السلام ملك الموت قال أرسلنى مع الريح إلى عالم آخر فإنى رأيت منه مرأى هائلا فأمرها عليه السلام فألقته فى قطر سحيق من أقطار العالم فما لبث أن عاد ملك الموت إلى سليمان عليه السلام فقال كنت أمرت بقبض روح ذلك الرجل فى هذه الساعة فى أرض كذا فلما وجدته فى مجلسك قلت متى يصل هذا إليها وقد أرسلته بالريح إلى ذلك المكان فوجدته هناك فقضى أمر الله عز وجل فى زمانه ومكانه من غير إخلال بشيء من ذلك وقرىء كتب على البناء للفاعل ونصب القتل وقرىء كتب عليهم القتال وقرىء لبرز بالتشديد على البناء للمفعول ﴿ وليبتلى الله ما فى صدوركم ﴾ أى ليعاملكم معاملة من يبتلى ما فى صدوركم من الإخلاص والنفاق ويظهر ما فيها من السرائر وهو علة لفعل مقدر قبلها معطوفة على علل لها أخرى مطوية للإيدان بكثرتها كأنه قيل فعل ما فعل لمصالح جملة وليبتلى الخ وجعلها عللا لبرز ياباه الذوق السليم فإن مقتضى المقام بيان حكمة ما وقع يومئذ من الشدة والحوار لا بيان حكمة البروز المفروض أو الفعل مقدر بعدها أى وللإبتلاء المذكور فعل ما فعل لا لعدم العناية بأمر المؤمنين ونحو ذلك وتفدير الفعل مقدما خال عن هذه المزية .

﴿ وليحص ما في قلوبكم ﴾ من مخفيات الأمور ويكشفها أو يخلصها من الوسوس ﴿ والله عليم بذات الصدور ﴾ أى السرائر والضمائر الخفية التى لا تكاد تفارق الصدور بل تلازمها وتصاحبها والجملة إما اعتراض للتنبيه على أن الله تعالى غنى عن الابتلاء وإنما يبرز صورة الابتلاء لتمرين المؤمنين وإظهار حال المنافقين أو حال من متعلق الفعلين أى فعل ما فعل للابتلاء والتحميض والحال أنه تعالى غنى عنهما محيط بمخفيات الأمور وفيه وعد ووعد ﴿ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان ﴾ وهم الذين انهمزوا يوم أحد حسبما مرت حكايتهم ﴿ إنما استزلهم الشيطان ﴾ أى إنما كان سبب انهمزهم أن الشيطان طلب منهم الزلل ﴿ ببعض ما كسبوا ﴾ من الذنوب والمعاصى التى هى مخافة أمر النبى صلى الله عليه وسلم وترك المركز والحرص على الغنيمة أو الحياة فخرموا التأيد وقوة القلب وقيل استزلال الشيطان توليهم وذلك بذنوب تقدمت لهم فإن المعاصى يجر بعضها إلى بعض كالطاعة وقيل استزلمهم بذنوب سبقت منهم وكرهوا القتل قبل لإخلاق التوبة والخروج من المظلمة ﴿ ولقد عفا الله عنهم ﴾ لتوبتهم واعتذارهم ﴿ إن الله غفور ﴾ للذنوب ﴿ حلیم ﴾ لا يعاجل بعقوبة المذنب ليتوب والجملة تعليل لما قبلها على سبيل التحقيق وفى إظهار الجلالة تربية للهابية وتأکید للتعليل ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا ﴾ وهم المنافقون القائلون ولو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا وإنما ذكر فى صدر الصلة كفرهم تصريحاً بمباينة حالهم لحال المؤمنين وتنفيراً عن مماثلتهم آثر ذى أثر وقوله تعالى .

﴿ وقالوا لإخوانهم ﴾ تعيين لوجه الشبه والمماثلة التى نهوا عنها أى قالوا لأجلهم وفى حقهم ومعنى أخوتهم اتفاقهم نسباً أو مذهباً ﴿ إذا ضربوا فى الأرض ﴾ أى سافروا فيها وأبعدوا للتجارة أو غيرها وإيثار إذا المفيدة لمعنى الاستقبال على إذا المفيدة لمعنى المضى لحكاية الحال الماضية إذ المراد بها الزمان المستمر المنتظم للحال الذى عليه يدور أمر استحضار الصورة . قال الزجاج إذا ههنا تنوب عما مضى من الزمان وما يستقبل يعنى أنها مجرد الوقت أو يقصد

بها الاستمرار وظرفيتها لقولهم إنما هي باعتبار ما وقع فيها بل التحقيق أنها ظرف له لا لقولهم كأنه قيل قالوا لأجل ما أصاب إخوانهم حين ضربوا الخ ﴿أو كانوا﴾ أي إخوانهم ﴿غزا﴾ جمع غاز كغضى جمع عاف قال :
ومغبرة الآفاق غاشعة الصوى لها قلب عافى الحياض أجون

وقرىء بتخفيف الزاى على حذف التاء من غزاة وإفراد كونهم غزاة بالذكر مع اندراجه تحت الضرب فى الأرض لأنه المقصود ببيانه فى المقام وذكر الضرب فى الأرض توطئه له وتقديمه لسكثرة وقوعه على أنه قد يوجد بدون الضرب فى الأرض إذ المراد به السفر البعيد وإنما لم يقل أو غزوا للإيدان باستمرار اتصافهم بعنوان كونهم غزاة أو بانقضاء ذلك أى كانوا غزا فيما معنى وقوله تعالى ﴿لو كانوا عندنا﴾ أى مقيمين ﴿ما مانوا وما قتلوا﴾ مفعول لقاتلوا دليل على أن هناك مضمراً قد حذف ثقته به أى إذا ضربوا فى الأرض فماتوا أو كانوا غزا فقتلوا وليس المقصود بالنهى عدم مائلتهم فى النطق بهذا القول بل فى الاعتقاد بمضمونه والحكم بموجبه كما أنه المنكر على قائله ألا يرى إلى قوله عز وجل :

﴿ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم﴾ فإنه الذى جعل حسرة فيها قطعاً وإليه أشير بذلك كما نقل عن الزجاج أنه إشارة إلى ظنهم أنهم لو لم يحضروا القتال لم يقتلوا وتعلقه بقالوا ليس باعتبار نطقهم بذلك القول بل باعتبار ما فيه من الحكم والاعتقاد واللام للعاقبة كما فى قوله تعالى (ليكون لهم عدوا وحنانا) أى قالوا ذلك واعتقدوه ليكون حسرة فى قلوبهم والمراد بالتعليل المذكور بيان عدم ترتب فائدة ما على ذلك أصلاً وقيل هو تعليل للنهى بمعنى لا تكونوا مثلهم فى النطق بذلك القول واعتقاده ليحمله الله تعالى حسرة فى قلوبهم خاصة ويصون منها قلوبكم فذلك كما مر إشارة إلى ما دل عليه قولهم من الاعتقاد ويجوز أن يكون إشارة إلى ما دل عليه النهى أى لا تكونوا مثلهم ليحمله الله انتفاء كونكم مثلهم حسرة فى قلوبهم فإن مصادقكم لهم فى القول والاعتقاد مما ينمهم

ويغيبهم ﴿ والله يحيي ويميت ﴾ رد لباطلهم^(١) إثر بيان غائلته أى هو المؤثر في الحياة والممات وحده من غير أن يكون للإقامة أو للسفر مدخل في ذلك فإنه تعالى قد يحيي المسافر والغازي مع اقتحامهما لموارد الختوف ويميت المقيم والقاعد مع حيازتهما لأسباب السلامة ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ تهديد للمؤمنين على أن يمانوهم وقرىء بالياء على أنه وعيد للذين كفروا وما يعملون عام متناول لقولهم المذكور ولمنشئه الذي هو اعتقادهم ولما ترتب على ذلك من الأعمال ولذلك تعرض لعنوان البصر لا لعنوان السمع وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لتربية المهابة وإلقاء الروعة والمبالغة في التهديد والتشديد في الوعيد .

﴿ ولئن قتلتهم في سبيل الله أو تم ﴾ شروع في تحقيق أن ما يحذرون ترتبه على الغزو والسفر من القتل والموت في سبيل الله تعالى ليس مما ينبغي أن يحذر بل مما يجب أن يتنافس فيه المتنافسون إثر إبطال ترتبه عليهما واللام هي الموصوطة للقسم وما في قوله تعالى ﴿ لمغفرة من الله ورحمة ﴾ لام الابتداء والتنوين في الموضوعين للتقابل ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة للبتداء وقد حذف صفة رحمة لدلالة المذكور عليها والجملة جواب للقسم ساد مسد جواب الشرط والمعنى أن السفر والغزو ليس مما يجلب الموت ويقدم الأجل أصلاً ولأن وقع ذلك بأمر الله تعالى لنفحة يسيرة من مغفرة ورحمة كالتين من الله تعالى بمقابلة ذلك ﴿ خير مما يجمعون ﴾ أى الكفرة من منافع الدنيا وطيبانها مدة أعمارهم وعن ابن عباس رضى الله عنهما خير من طلاع الأرض ذهبه حمراء وقرىء بالناء أى مما يجمعونه أنتم لو لم تموتوا والاقتصار على بيان خيريتهما من ذلك بلا تعرض للإخبار بحصولهما لهم للإيدان بعدم الحاجة إليه بناء على استحالة التخيب منه تعالى بعد الإطماع وقد قيل لا بد من حذف آخر أى المغفرة لكم من الله الخ وحينئذ يكون أيضاً إخراج المقدر مخرج الصفة دون الخبر لنحو ما ذكر من ادعاء الظهور والغنى عن الإخبار به وتغيير الترتيب الواقع في قولهم

(١) في ط : لقولهم الباطل

ما ماتوا وما قتلوا المبني على كثرة الوقوع وقلته للمبالغة في الترغيب في الجهاد ببيان زيادة مزية القتل في سبيل الله وإنافته في استجلاب المغفرة والرحمة وفيه دلالة واضحة على ما مر من أن المقصود بالنهاي إنما هو عدم مائلتهم في الاعتقاد بمضمون القول المذكور والعمل بموجبه لا في النطق به وإضلال الناس به .

﴿ واثم أوتيتهم ﴾ أي على أي وجه اتفق هلاككم حسب تعلق الإرادة الإلهية وقرئ ميم بكسر الميم من مات ﴿ لا إله إلا الله ﴾ أي إلى المعبود بالحق العظيم الشأن الواسع الرحمة الجزيل الإحسان ﴿ تحشرون ﴾ لا إلى غيره فيوفيكم أجوركم ويجزل عطاءكم والسكلام في لامي الجملة كما مر في أختها ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والفاء لترتيب مضمون الكلام على ما ينبغي عنه السياق من استحقاقهم للأئمة والتعنيف بموجب الجملة البشرية أو من سعة ساحة مغفرته تعالى ورحمته والباء متعلقة بلنت قدمت عليه للقصر وما مزيدة للتوكيد أو نكرة ورحمة بدل منها مبين لإبهامها^(١) والتنوين للتفخيم ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة لرحمة أي فبرحمة عظيمة لهم كائنة من الله تعالى وهي ربطه على جأشه وتحصيصه بمكارم الأخلاق كنت لين الجانب لهم وعاملتهم بالرفق والتلطف بهم حيث اغتممت لهم بعد ما كان منهم ما كان من مخالفة أمرك وإسلامك للعدو.

﴿ ولو ﴾ لم تكن كذلك بل ﴿ كنت فظا ﴾ جافيا في المعاشرة قولا وفعلا وقال الراغب الفظ هو الكريه الخلق وقال الواحدي هو الغليظ الجانب السيء الخلق ﴿ غليظ القلب ﴾ قاسيه وقال السكبي فظا في القول غليظ القلب في الفعل ﴿ لا نفصوا من حولك ﴾ لتفرقوا من عندك ولم يسكنوا إليك وتردوا في مهاوى الردى والفناء في قوله عز وجل ﴿ فاعف عنهم ﴾ لترتيب العفو أو الأمر به على ما قبله أي إذا كان الأمر كما ذكر فاعف عنهم فيما يتعلق بحقوقك كما عفا الله عنهم ﴿ واستغفر لهم ﴾ الله فيما يتعلق بحقوقه تعالى إتماما للشفقة عليهم وإكالا

(١) في ١١ : لبيان إبهامها .

للبر بهم ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ أى في أمر الحرب إذ هو المعهود أو فيه وفي أمثاله مما تجرى فيه المشاورة عادة استظهاراً بأرائهم وتطيبياً لقلوبهم وتمهيداً لسنة المشاورة للامة وقرى^١ وشاورهم في بعض الأمر .

﴿ فإذا عزم ﴾ أى عقيب المشاورة على شيء واطمأنت به نفسك ﴿ فتوكل على الله ﴾ فى إمضاء أمرك على ما هو أرشد لك وأصلح فإن علمه مختص به سبحانه وتعالى وقرى^٢ فإذا عزم على صيغة التكلم أى عزم لك على شيء وأرشدتك إليه فتوكل على ولا تشاور بعد ذلك أحداً والالتفات لترتبة المهابة وتعليل التوكل أو الأمر به فإن عنوان الألوهية الجامعة لجميع صفات الكمال مستدع للتوكل عليه تعالى أو الأمر به ﴿ إن الله يحب المتوكلين ﴾ عليه تعالى فينصرهم ويرشدهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم^(١) والجملة تعليل للتوكل عليه تعالى وقوله تعالى ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ﴾ جملة مستأنفة سيقى بطريق تلوين الخطاب تشرىفاً للمؤمنين لا يجاب توكلهم عليه تعالى وحثهم على اللجأ إليه وتحذيرهم عما يفضى إلى خذلانه أى إن ينصركم كما نصركم يوم بدر فلا أحد يغلبكم على طريق نفي الجنس المنتظم لنفى جميع أفراد الغالب ذاتاً وصفة ولو قيل فلا يغلبكم أحد لدل على نفي الصفة فقط ثم المفهوم من ظاهر النظم الكريم وإن كان نفي مغلوبيتهم من غير تعرض لنفى المساواة أيضاً وهو الذى يقتضيه المقام لكن المفهوم منه فهما قطعياً هو نفي المساواة وإثبات الغالبية للخطابين فإذا قلت لا أكرم من فلان أو لا أفضل منه فالمفهوم منه حتماً أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل وهذا أمر مطرد فى جميع اللغات ولا اختصاص له بالنفى الصريح بل هو مطرد فيما ورد على طريق الاستفهام الإنكارى كما فى قوله تعالى (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً) فى مواقع كثيرة من التنزيل وبما هو نص قاطع فيما ذكرنا ما وقع فى سورة هود حيث قيل بعده

(١) فى ط : خير لهم وصلاح .

في حقهم لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون فإن كونهم أخسر من كل خاسر يستدعى قطعاً كونهم أظلم من كل ظالم .

(وإن يخذلكم) كما فعل يوم أحد وقرى^١ يخذلكم من أخذله إذا جعله خذولاً (فمن ذا الذي ينصركم) استفهام إنكارى مفيد لانتفاء الناصر ذاتاً وصفة بطريق المبالغة (من بعده) أى من بعد خذلانه تعالى أو من بعد الله تعالى على معنى إذا جاوزتموه (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) تقديم الجار والمجرور على الفعل لإفادة قصره عليه تعالى والفاء لترتيبه أو ترتيب الأمر به على ما مر من غلبة المخاطبين على تقدير نصرته تعالى لهم ومغلو بيئتهم على تقدير خذلانه تعالى إياهم فإن العلم بذلك بما يقتضى قصر التوكل عليه تعالى لا محالة والمراد بالمؤمنين إما الجنس والمخاطبون داخلون فيه دخولاً أولياً وإما هم خاصة بطريق الالتفات وأياما كان فنيه تشریف لهم بعنوان الإيمان اشتراكاً أو استقلالاً وتعليل لتحتم التوكل عليه تعالى فإن وصف الإيمان بما يوجب قطعاً (وما كان لنبي) أى وما صح لنبي من الأنبياء ولا استقام له (أن يغفل) أى يخون في المغنم فإن النبوة تنافيه منافاة بينه يقال غل شيئاً من المغنم يغفل غلولا وأغل إغلالاً إذا أخذه خفية والمراد إما تنزيهه ساحة رسول الله صلى الله عليه وسلم عما ظن به الرماة يوم أحد حين تركوا المركز وأفاضوا في الغنيمة وقالوا نخشى أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذ شيئاً فهو له ولا يقسم الغنائم كما لم يقسمها يوم بدر فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم ألم أعهد إليكم أن لا تتركوا المركز حتى يأتىكم أمرى فقالوا تركنا بقية إخواننا وقوفا فقال عليه السلام بل ظننتم أنا نغل ولا نقسم بينكم وأما المبالغة في النهى لرسول الله صلى الله عليه وسلم على ما روى أنه بعث طلحة فغنم النبي صلى الله عليه وسلم بعدهم غنائم فقسما بين الحاضرين^(١) ولم يترك للطلحة شيئاً فنزلت .

(١) في ط : الحاضرين .

والمعنى ما كان لنبي أن يعطى قوما من العسكر ويمنع آخرين بل عليه أن يقسم بين الكل بالسوية وعبر عن حرمان بعض الغزاة بالغلول تغليظا وأما ما قيل من أن المراد تنزيهه عليه السلام عما تفوه به بعض المنافقين اذ روى أن قطيفة حمراء فقدت يوم بدر فقال بعض المنافقين لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها فبعيد جدا وقرئ على البناء للمفعول والمعنى ما كان له أن يوجد غالا أو ينسب إلى الغلول .

﴿ ومن يغفل يأت بما غل يوم القيامة ﴾ يأت بالذى غلّه بعينه يحمله على عنقه كما ورد في الحديث الشريف وروى أنه عليه السلام قال ألا لا أعرفن أحدكم يأتي ببيعير له رغاء وبيقرة لها خوار وبشاة لها نغاء فينادى يا محمد فأقول لا أملك لك من الله شيئا فقد بلغتك أو يأت بما احتمل من إثمه ووباله ﴿ ثم توفى كل نفس ما كسبت ﴾ أى تعطى وإفيا جزاء ما كسبت خيرا أو شرا كثيرا أو يسيرا ووضع المكسوب موضع جزائه تحقيقا للعدل ببيان ما بينهما من تمام التناسب كما وكيفما كأنهما شيء واحد وفى إسناد التوفية إلى كل كاسب وتعليقها بكل مكسوب مع أن المقصود بيان حال الغال عند إتيانه بما غلّه يوم القيامة من الدلالة على فخامة شأن اليوم وهول مطالعته والمبالغه فى بيان فظاعة حال الغال ما لا يخفى فإنه حيث وفى كل كاسب جزاء ما كسبه ولم ينقص منه شيء وإن كان جرمه فى غاية القلة والحقارة فلأن لا ينقص من جزاء الغال شيء وجرمه من أعظم الجرائم أظهر وأجلى ﴿ وهم ﴾ أى كل الناس المدلول عليهم بكل نفس ﴿ لا يظلمون ﴾ بزيادة عقاب أو بنقص ثواب .

﴿ أفن اتبع رضوان الله ﴾ أى سعى فى تحصيله وانتحى نحوه حيثما كان بفعل الطاعات وترك المنكرات كالنبي ومن يسير بسيرته ﴿ كمن بام ﴾ أى رجع ﴿ بسخط ﴾ عظيم لا يقادر قدره كائن ﴿ من الله ﴾ تعالى بسبب معاصيه كالغال ومن يدين بدينه والمراد تأكيد نفي الغلول عن النبي عليه الصلاة والسلام

وتقريره بتحقيق المباينة السككية بينه وبين الغال حيث وصف كل منهما بشقيض ما وصف به الآخر فقبول رضوانه تعالى بسخطه والاتباع بالبهو والجمع بين الهمزة والفاء لتوجيه الإنكار إلى ترتب توهم المماثلة بينهما والحكم بها على ما ذكر من حال الغال كأنه قيل أبعد ظهور حاله يكون من ترقى إلى أعلى عليين كمن تردى إلى أسفل سافلين وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لإدخال الروعة وتربية المهابة ﴿ وماواه جهنم ﴾ إما كلام مستأنف مسوق لبيان مآل أمر من باء بسخطه تعالى وإما معطوف على قوله تعالى باء بسخط عطف الصلة الاسمية على الفعلية وأيا ما كان فلا محل له من الإعراب ﴿ وبئس المصير ﴾ اعتراض تذييلي والمخصوص بالذم محذوف أي وبئس المصير جهنم والفرق بينه وبين المرجع أن الأول يعتبر فيه الرجوع على خلاف الحالة الأولى بخلاف الثاني ﴿ هم ﴾ راجع إلى الموصولين باعتبار المعنى ﴿ درجات عند الله ﴾ أي طبقات متفاوتة في علمه تعالى وحكمه شهبوا في تفاوت الأحوال وتباينها بالدرجات مبالغة وإيداناً بأن بينهم تفاوتاً ذاتياً كاللدرجات أو ذوو درجات ﴿ والله بصير بما يعملون ﴾ من الأعمال ودرجاتها فيجازيهم .

﴿ لقد من الله ﴾ جواب قسم محذوف أي والله لقد من الله أي أنعم ﴿ على المؤمنين ﴾ أي من قومه عليه السلام ﴿ إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ﴾ أي من نسبهم أو من جنسهم عربيا مثلهم ليفقهوا كلامه بسهولة ليكونوا واقفين على حاله في الصدق والأمانة مفتخرين به وفي ذلك شر لهم عظيم قال الله تعالى ﴿ ولأنه لذكرك لك ولقومك ﴾ وقرىء من أنفسهم أي أشرفهم فإنه عليه السلام كان من أشرف قبائل العرب وبطونها وقرىء لمن من الله على المؤمنين إذ بعث الخ . على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي منه إذ بعث الخ أو على أن إذ في محل الرفع على الابتداء بمعنى لمن من الله عليه من ^(١) المؤمنين وقت بعثه وتخصيصهم بالامتثال مع عموم البعثة للأسود والأحمر لما مر من مزيد انتفاعهم بها

(١) في ط : على المؤمنين .

وقوله تعالى من أنفسهم متعلق بمحذوف وقع صفة لرسولا أى كائنا من أنفسهم وقوله تعالى: ﴿ يتلو عليهم آياته ﴾ صفة أخرى أى يتلو عليهم القرآن بعد ما كانوا أهل جاهلية لم يطرُق أسماعهم شيء من الوحي ﴿ ويزكهم ﴾ عطف على يتلو أى يطهرهم من دنس الطبائع وسوء العقائد وأوضار الأوزار .

﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ أى القرآن والسنة وهو صفة أخرى لرسولا مترتبة في الوجود على التلاوة وإنما وسط بينهما التركيبية التي هي عبارة عن تكميل النفس بحسب القوة العملية وتهذيبها المتفرع على تكميلها بحسب القوة العملية وتهذيبها المتفرع على تكميلها بحسب القوة النظرية الحاصل بالتعليم المترتب على التلاوة للإيدان بأن كل واحد من الأمور المترتبة نعمة جلية على حيالها مستوجبة للشكر فلو روعي ترتيب الوجود كما في قوله تعالى (ربنا وبعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكهم) لتبادر إلى الفهم عد الجميع نعمة واحدة وهو السر في التعبير عن القرآن بالآيات تارة وبالكتاب والحكمة [تارة] ^(١) أخرى رمزا إلى أنه باعتبار كل عنوان نعمة على حدة ولا يقدح في ذلك شمول الحكمة لما في مطاوى الأحاديث الكريمة من الشرائع كما سلف في سورة البقرة ﴿ وإن كانوا من قبل بعثته عليه السلام وتزكيتهم وتعليمهم ﴾ لفي ضلال مبين ﴾ أى بين لا ريب في كونه ضلالا وأن هي المخففة من الثقيلة ^(٢) وضمير الشأن محذوف واللام فارقة بينها وبين النافية والظرف الأول لغو متعلق بكان والثاني خبرها وهي مع خبرها خبر لأن المخففة التي حذف اسمها أعنى ضمير الشأن وقيل هي نافية واللام بمعنى إلا أى وما كانوا من قبل إلا في ضلال مبين وأياما كان فالجملة إما حال من الضمير المنصوب في يعلمهم أو مستأنفة وعلى التقديرين فهي مبينة لسكال النعمة وتامها .

(١) سقطت من ط.

(٢) في ط : مع أن

﴿ أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ﴾ كلام مبتدأ مسوق لإبطال بعض ما صدر عنهم من الظنون الفاسدة والآقاويل الباطلة الناشئة منها إثر إبطال بعض آخر منها والهمزة للتقريع والتقرير والواو عاطفة لمدخولها على محذوف قبلها ولما ظرف لقلتم مضاف إلى ما بعده وقد أصبتم في محل الرفع على أنه صفة لمصيبة والمراد بها ما أصابهم يوم أحد من قتل سبعين منهم وبمثلها ما أصاب المشركين يوم بدر من قتل سبعين منهم وأسر سبعين وأنى هذا مقول قلتم وتوسط الظرف وما يتعلق به بينه وبين الهمزة مع أن (١) المقصود إنكاره والمعطوف بالواو حقيقة لتأكيد النكير وتشديد التقريع فإن فعل القبيح في غير وقته أقبح والإنكار على فاعله أدخل والمعنى أحين أصابكم من المشركين نصف ما قد أصابهم منكم قبل ذلك جزعتم وقتلتم من أين أصابنا هذا وقد تقدم الوعد بالنصر على توجيه الإنكار والتقريع إلى صدور ذلك القول عنهم في ذلك الوقت خاصة بناء على عدم كونه مظنة له داعيا إليه بل على كونه داعيا إلى عدمه فإن كون مصيبة عدوهم ضعف مصيبتهم مما يهون الخطب ويورث السلوة أو أفعالهم ما فعلتم ولما أصابتكم غائلته قلتم أنى هذا على توجيه الإنكار إلى استبعادهم الحادثة مع مباشرتهم لسببها وتذكير اسم الإشارة في أنى هذا مع كونه إشارة إلى المصيبة ليس لكونها عبارة عن القتل ونحوه بل لما أن إشارتهم ليست إلا إلى ما شاهدوه في المعركة من حيث هو من غير أن يخطر ببالهم تسميته باسم ما فضلا عن تسميته باسم المصيبة وإنما هي عند الحكاية وقوله عز وجل :

﴿ قل هو من عند أنفسكم ﴾ أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يجيب عن سؤالهم الفاسد إثر تحقيق فساده بالإنكار والتقريع ويبيحتهم ببيان أن ما نالهم إنما نالهم من جهتهم بتركهم المركز وحرصهم على الغنيمة وقيل

(١) في قى : مع أنه

باختيارهم الخروج من المدينة ويأباه أن الوعد بالنصر كان بعد ذلك كما ذكر عند قوله تعالى (ولقد صدقكم الله وعده) الآية وأن عمل النبي صلى الله عليه وسلم بموجبه قد رفع الخطر عنه وخفف جناباتهم فيه على أن اختيار الخروج والإصرار عليه كان ممن أكرمهم الله تعالى بالشهادة يومئذ وأين لهم من التفوه بمثل هذه الكلمة وقبل بأخذهم الفداء يوم بدر قبل أن يؤذن لهم والأول هو الأظهر والأقوى وإنما يعضده توسط خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم بين الخطابين المتوجهين إلى المؤمنين وتفويض التبكيك إليه عليه السلام فإن توبيخ الفاعل على الفعل إذا كان ممن نهاه عنه كان أشد تأثيراً ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ ومن جملة النصر عند الطاعة والخذلان عند المخالفة وحيث خرجتم عن الطاعة أصابكم منه تعالى ما أصابكم والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبلها داخل تحت الأمر .

في الهزيمة عبرة

﴿ وما أصابكم ﴾ رجوع إلى خطاب المؤمنين إثر خطابه عليه السلام بسر يقتضيه وإرشاد لهم إلى طريق الحق فيما سألوا عنه وبيان لبعض ما فيه من الحكمة والمصالح ودفع لما عسى أن يتوهم من قوله تعالى (هو من عند أنفسكم) من استقلالهم في وقوع الحادثة والعدول عن الإضمار إلى ما ذكر للتحويل وزيادة التقرير ببيان وقته بقوله تعالى ﴿ يوم التقى الجمعان ﴾ أى جمعكم وجمع المشركين ﴿ فبإذن الله ﴾ أى فهو كائن بقضائه وتخليته الكفار سمي ذلك إذناً لكونها من لوازمه ﴿ وليعلم المؤمنون ﴾ عطف على قوله تعالى فبإذن الله عطف المسبب عن السبب والمراد بالعلم التمييز والإظهار فيما بين الناس ﴿ وليعلم الذين نافقوا ﴾ عطف على ما قبله من مثله وإعادة الفعل لتشريف المؤمنين وتمزيحهم عن الانتظام في سلك^(١) المنافقين وللايذان باختلاف حال

(١) في ط ، في قرن

العلم بحسب التعلق بالفريقين فإنه متعلق بالمؤمنين على نهج تعلقه السابق وبالمنافقين على وجه جديد وهو السر في إيراد الأولين بصيغة اسم الفاعل المبنيّة عن الاستمرار والآخرين بموصول صلته فعل دال على الحدوث والمعنى وما أصابكم يومئذ فهو كائن لتمييز التابطين على الإيمان والذين أظهروا النفاق ﴿وقيل لهم﴾ عطف على نافقوا داخل معه في حيز الصلة أو كلام مبتدأ قال ابن عباس رضى الله عنهما هم عبد الله بن أبي وأصحابه حيث انصرفوا يوم أحد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم عبد الله بن عمرو بن حرام أذكركم الله لا (١) تخذلوا نبيكم وقومكم ودعاهم إلى القتال وذلك قوله تعالى :

﴿ تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا ﴾ قال السدى ادفعوا عنا العدو بتكثير سوادنا إن لم تقاتلوا معنا وقيل أو ادفعوا عن أهلكم وبلدكم وحرمتكم إن لم تقاتلوا في سبيل الله تعالى وترك العطف بين تعالوا وقاتلوا لما أن المقصود بهما واحد وهو الثانى وذكر الأول توطئة له وترغيب فيه لما فيه من الدلالة على التظاهر والتعاون ﴿ قالوا ﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال ينسحب عليه الكلام كأنه قيل فماذا صنعوا حين خيروا بين الخصلتين المذكورتين فقيل قالوا ﴿ لو نعم قاتلا لا تبعناكم ﴾ أى لو نحسن قتالا ونقدر عليه وإنما قالوه دغلا واستهزاء وإنما عبر عن نفى القدرة على القتال بنفى العلم به لما أن القدرة على الأفعال الاختيارية مستلزمة للعلم بها أو لو نعم ما يصح أن يسمى قاتلا لا تبعناكم ولكن ما أنتم بصدده ليس بقتال أصلا وإنما هو إلقاء النفس إلى التهلكة وفى جعلهم التالى مجرد الاتباع دون القتال الذى هو المقصود بالدعوة دليل على كمال تثبطهم عن القتال حيث لا ترضى نفوسهم بجعله تاليا لمقدم مستحيل الوقوع ﴿ هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ﴾ الصمير مبتدأ وأقرب خبره واللام فى للكفر والإيمان متعلقة به كذا يومئذ ومنهم وعدم جواز تعاق حرفين متحدين لفظا ومعنى بعامل واحد بلا عطف أو بديلة إنما هو فيما عدا أفعل

(١) فى ط : أن نخذلوا .

التفضيل من العوامل لاتحاد حيثية عملها وأما أفعل التفضيل فحيث دل على أصل الفعل وزيادته جرى مجرى عاملين كأنه قيل قيل قريتهم للكفر زائد على قريتهم للإيمان وقيل تعلق الجارين به لشبههما بالظرفين أى هم للكفر يوم إذ قالوا ما قالوا أقرب منهم للإيمان فإنهم كانوا قبل ذلك يتظاهرون بالإيمان وما ظهرت منهم أمانة مؤذنة بكفرهم فلما اتخذوا عن عسكر المسلمين وقالوا ما قالوا تباعدوا بذلك عن الإيمان المظنون بهم واقتربوا من الكفر وقيل هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان لأن تقليل سواد المسلمين بالانخزال تقوية للشركين وقوله تعالى :

﴿ يقولون بأفوههم ما ليس في قلوبهم ﴾ جملة مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها وذكر الأفواه والقلوب تصوير لنفاقهم وتوضيح لمخالفة ظاهرهم لباطنهم وما عبارة عن القول والمراد به إما نفس الكلام الظاهر في اللسان تارة وفي القلب أخرى فالمثبت والمنفى متحدان ذاتا وإن اختلفا مظهرآ وإما القول الملفوظ فقط فالمنفى حينئذ منشؤه الذى لا ينفك عنه القول أصلا وإنما عبر عنه به إبانة لما بينهما من شدة الاتصال أى يتفوهون بقول لا وجود له أو لمنشئه في قلوبهم أصلا من الأباطيل التى من جملتها ما حكى عنهم آنفا فإنهم أظهروا فيه أمرين ليس في قلوبهم شيء منهما أحدهما عدم العلم بالقتال والآخر الاتباع على تقدير العلم به وقد كذبوا فيما كذبا بيانا حيث كانوا عالمين به غير ناوين للاتباع بل كانوا مصرين مع ذلك على الانخزال عازمين على الارتداد وقوله عز وجل :

﴿ والله أعلم بما يكتمون ﴾ زيادة تحقيق لكفرهم ونفاقهم ببيان اشتغال قلوبهم بما يخالف أقوالهم من فنون الشر والفساد لأثر بيان خلوها عما يوافقها وصيغة التفضيل لما أن بعض ما يكتمونه من أحكام النفاق وذم المؤمنين وتخطئة آرائهم والشماتة بهم وغير ذلك يعلمه المؤمنون على وجه الإجمال وأن تفاصيل ذلك وكيفياته مختصة بالعلم الإلهي ﴿الذين قالوا﴾ مرفوع على أنه بدل من واو يكتمون أو خبر لمبتدأ محذوف وقيل مبتدأ خبره قل فادروا بحذف العائد

تقديره قل لهم الخ أو منصوب على الذم أو على أنه نعت للذين نافقوا أو بدل منه وقيل مجرور على أنه بدل من ضمير أفواههم أو قلوبهم كما في قوله على جوده لرضن بالماء حاتم والمراد بهم عبد الله بن أبي وأصحابه ﴿لإخوانهم﴾ أى لأجلهم وهم من قتل يوم أحد من جنسهم أو من أقاربهم فيندرج فيهم بعض الشهداء ﴿وقعدوا﴾ حال من ضمير قالوا بتقدير قد أى قالوا وقد قعدوا عن القتال بالانخزال ﴿لو أطاعونا﴾ أى فيما أمرناهم به ووافقونا فى ذلك ﴿ما قتلوا﴾ كما لم نقتل وفيه إيدان بأنهم أمر وهم بالانخزال حين انخزلوا وأغروهم كما غروا وحمل القعود على ما استصوبه ابن أبى عند المشاورة من الإقامة بالمدينة ابتداء وجعل الإطاعة عبارة عن قبول رأيه والعمل به يردده كون الجملة حالية فإنها لتعيين ما فيه العصيان والمخالفة مع أن ابن أبى ليس من القاعدين فيها بذلك المعنى على أن تخصيص عدم الطاعة بإخوانهم ينادى باختصاص الأمر أيضاً بهم فيستحيل أى يحمل على ما خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم عند المشاورة .

﴿قل﴾ تبكيها لهم وإظهارا لكدبهم ﴿فادروا عن أنفسكم الموت﴾ جواب لشرط قد حذف تعويلا على ما بعده من قوله تعالى ﴿إن كنتم صادقين﴾ كما أنه شرط حذف جوابه لدلالة الجواب المذكور عليه أى إن كنتم صادقين فيما ينهى عنه قولكم من أنكم قادرون على دفع القتل عنكم كتب عليه فادعوا عن أنفسكم الموت الذى كتب عليكم معلقا بسبب خاص موقتا بوقت معين بدفع سببه فإن أسباب الموت فى إمكان المدافعة بالحال وامتناعها سواء وأنفسكم أعز عليكم من إخوانكم وأمرها أهم لديكم من أمرهم والمعنى أن عدم قتلكم كان بسبب أنه لم يكن مكتوبا عليكم لا بسبب أنكم دفعتموه بالقعود مع كتابته عليكم فإن ذلك مما لا سبيل إليه بل قد يكون القتال سببا للنجاة والقعود مؤديا إلى الموت . روى أنه مات يوم قالوا سبعون منافقا وقيل أريد إن كنتم صادقين فى مضمون الشرطية والمعنى أنهم لو أطاعوكم وقعدوا لقتلوا قاعدين كما قتلوا مقاتلين فقوله تعالى ﴿فادروا عن أنفسكم الموت﴾ حينئذ استهزاء بهم أى إن كنتم

رجالاً دفاعين لأسباب الموت فادروا جميع أسبابه حتى لا تموتوا كما درأتم في زعمكم هذا السبب الخاص .

مكانة الشهداء

﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان أن القتل الذي يحذرونه ويحذرون الناس منه ليس مما يحذر بل هو من أجل المطالب التي يتنافس فيها المتنافسون لإثربيان أن الحذر لا يجدى ولا يغنى وقرىء ولا تحسبن بكسر السين والمراد بهم شهداء أحد وكانوا سبعين رجلاً أربعة من المهاجرين حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وعثمان بن شهاب وعبد الله ابن جحش وباقيهم من الأنصار رضوان الله تعالى عليهم أجمعين والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لسلك أحد من له حظ من الخطاب وقرىء بالياء على الإسناد إلى ضميره عليه السلام أو ضمير من يحسب وقيل إلى الذين قتلوا والمفعول الأول محذوف لأنه في الأصل مبتدأ جاز الحذف عند القرينة والتقدير ولا يحسبنهم الذين قتلوا أمواتاً أى لا يحسبن الذين قتلوا أنفسهم أمواتاً على أن المراد من توجيه النهى إليهم تنبيه السامعين على أنهم أحقاء بأن يسألوا بذلك وببشروا بالحياة الأبدية والكرامة السنوية والنعيم المقيم لكن لا في جميع أوقاتهم بل عند ابتداء القتل إذ بعد تبين حالهم لهم لا يبقى لاعتبار تسليتهم وتبشيرهم فائدة ولا لتنبيه السامعين وتذكيرهم وجه وقرىء قتلوا بالتشديد لكثرة المقتولين ﴿بل أحياء﴾ أى بل هم أحياء وقرىء منصوباً أى بل أحسبهم أحياء على أن الحسبان بمعنى اليقين كما في قوله :

حسبت التقي والمجد خير تجارة رباحاً إذا ما المرء أصبح ناقلاً

أو على أنه وارد على طريق المشاكلة ﴿عند ربهم﴾ في محل الرفع على أنه خبر ثان للبتدأ المقدر أو صفة لأحياء أو في محل نصب على أنه حال من الضمير في أحياء وقيل هو ظرف لأحياء أو للفعل بعده والمراد بالعندية التقرب والزلقى وفي التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن الترية والتبليغ إلى السكالم مع

الإضافة إلى ضميرهم مزيد تكريمة لهم ﴿ يرزقون ﴾ أى من الجنة وفيه تأكيد لكونهم أحياء وتحقيق لمعنى حياتهم . قال الإمام الواحدى الأصح فى حياة الشهداء ماروى عن النبى صلى الله عليه وسلم من أن أرواحهم فى أجواف طيور خضر وأنهم يرزقون ويأكلون ويتنعمون . وروى عنه عليه السلام أنه قال لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طيور^(١) خضر تدور فى أنهار الجنة وروى ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتسرح من الجنة حيث شاءت وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش وفيه دلالة على أن روح الإنسان جسم لطيف لا يفنى بحراب البدن ولا يتوقف عليه إدراكه وتألمه والتذاهد ومن قال بتجر يد النفوس البشرية يقول المراد أن نفوس الشهداء تتمثل طيوراً خضراً أو تتعلق بها فتلتد بما ذكر وقيل المراد أنها تتعلق بالأفلاك والكواكب فتلتد بذلك وتكتسب زيادة كمال ﴿ فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴾ وهو شرف الشهادة والفوز بالحياة الأبدية والزلفى من الله عز وجل والتمتع بالنعيم المخلد عاجلاً .

﴿ ويستبشرون ﴾ يسرون بالإشارة ﴿ بالذين لم يلحقوا بهم ﴾ أى بإخوانهم الذين لم يقتلوا بعد فى سبيل الله فيلحقوا بهم ﴿ من خلفهم ﴾ متعلق بيلحقوا والمعنى أنهم بقوا بعدهم وهم قد تقدموهم أو محذوف وقع حالاً من فاعل يلحقوا أى لم يلحقوا بهم حال كونهم متخلفين عنهم باقين فى الدنيا ﴿ إلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ بدل من الذين بدل احتمال مبين لكون استبشارهم بحال إخوانهم لا بذواتهم وأن هى المخففة من أن واسمها ضمير الشأن المحذوف وخبرها الجملة المنفية أى يستبشرون بما تبين لهم من حسن حال إخوانهم الذين تركوهم وهو أنهم عند قتلهم يفوزون بحياة أبدية لا يكدرها خوف [ولا]^(٢) وقوع محذور ولا حزن [على]^(٣) فوات مطلوب أو لا خوف عليهم فى الدنيا من القتل

(١) فى ١٠ : طير .

(٢) سقطت من ط .

(٣) سقطت من ط .

فإنه عين الحياة التي يجب أن يرغب فيها فضلاً عن أن تخاف وتحذر أي لا يعتريهم ما يوجب ذلك لا أنه يعتريهم ذلك لكنهم لا يخافون ولا يحزنون والمراد بيان دوام انتفاء الخوف والحزن لا بيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر في الجملة الثانية مضارعاً فإن النفي وإن دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام ﴿يستبشرون بنعمة﴾ كرر لبيان أن الاستبشار المذكور ليس بمجرد عدم الخوف والحزن بل به وبما يقارنه من نعمة عظيمة لا يقادر قدرها وهي ثواب أعمالهم وقد جوز أن يكون الأول متعلقاً بحال إخوانهم وهذا بحال أنفسهم بيانا لبعض ما أجمل في قوله تعالى ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ من الله متعلق بمحذوف وقع صفة لنعمة مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة الإضافية أي كائنة منه تعالى ﴿وفضل﴾ أي زيادة عظيمة كما في قوله تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) .

﴿وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾ بفتح أن عطف على فضل منتظم معه في سلك المستبشر به والمراد بالمؤمنين إما الشهداء والتعمير عنهم بالمؤمنين للإيدان بسمو رتبة الإيمان وكونه مناطاً لما نالوه من السعادة وإما كافة أهل الإيمان من الشهداء وغيرهم ذكرت توفية أجورهم على إيمانهم وعدت من جملة ما يستبشر به الشهداء بحكم الأخوة في الدين وقرىء بكسرهما على أنه استئناف معترض دال على أن ذلك أجر لهم على إيمانهم مشعر بأن من لا إيمان له أعماله محبطة لا أجر له وفيه من الحث على الجهاد والترغيب في الشهادة والبعث على ازدياد الطاعة وبشرى المؤمنين بالفلاح ما لا يخفى .

﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح﴾ صفة مادحة للمؤمنين لا مخصوصة أو نصب على المدح أو رفع على الابتداء والخبر قوله تعالى ﴿للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم﴾ بجملته ومن للبيان والمقصود من الجمع بين الوصفين المدح والتعليل لا التقييد لأن المستجيبين كلهم محسنون ومتقون . روى أن أبا سفيان وأصحابه لما انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء ندموا وهموا بالرجوع فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأراد أن

يرهبهم ويرهبهم من نفسه وأصحابه قوة فندب أصحابه للخروج في طلب أبي سفيان، وقال لا يخرجن معنا إلا من حضر يومنا بالأمس نخرج صلى الله عليه وسلم مع جماعة حتى بلغوا حراء الأسد وهي من المدينة على ثمانية أميال وكان بأصحابه القرع فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر وألقى الله تعالى الرعب في قلوب المشركين فذهبوا فنزلت ﴿الذين قال لهم الناس﴾ يعني الركب الذين استقبلوهم من عبد قيس أو نعيم بن مسعود الأشجعي وإطلاق الناس عليه لمسا أنه من جنسهم وكلامه كلامهم يقال فلان ركب الخيل ويلبس الثياب وماله سوى فرس فرد وغير ثوب واحد أو لأنه انضم إليه ناس من المدينة وأذاعوا كلامه ﴿إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم﴾ روى أن أبا سفيان نادى عند انصرافه من أحد يا محمد موعدنا موسم بدر القابل إن شئت فقال عليه السلام إن شاء الله تعالى فلما كان القابل خرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مر الظهران فألقى الله تعالى في قلبه الرعب وبدا له أن يرجع فربه ركب من بني عبد قيس يريدون المدينة للبيعة فشرط لهم حمل بعير من زيب إن ثبطو المسلمين وقيل لقي نعيم بن مسعود وقد قدم معتمراً فسأله ذلك والتزم له عشراً من الإبل وضمها منه سهيل بن عمرو ونخرج نعيم ووجد المسلمين يتجهزون للخروج فقال لهم أتوكم في دياركم فلم يقلتم منكم أحد إلا شريد أفترزون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم ففروا فقال عليه السلام والذي نفسي بيده لأخرجن ولو لم يخرج معي أحد نخرج في سبعين راكبا كلهم يقولون حسبنا الله ونعم الوكيل . قيل هي السكلمة التي قالها إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين ألقى في النار .

﴿فزادهم إيماناً﴾ الضمير المستكن للمقول أو لمصدر قال أو لفاعله إن أريد به نعيم وحده والمعنى أنهم لم يلتفتوا إلى ذلك بل ثبت به يقينهم بالله تعالى وازداد اطمئنانهم وأظهروا حمية الإسلام وأخلصوا النية عنده وهو دليل على أن الإيمان يتفاوت زيادة ونقصاناً فإن ازدياد اليقين بالإلف وكثرة التأمل وتناصر الحجج مما لا ريب فيه ويعضده قول ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قلنا يارسول الله الإيمان يزيد وينقص قال نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة

وينقمس حتى يدخل صاحبه النار ﴿ وقالوا حسبنا الله ﴾ أى حسبنا الله وكافينا من أحسبه إذا كفاه والدليل على أنه بمعنى المحسب أنه لا يستفيد بالإضافة تعريفاً في قولك هذا رجل حسبك ﴿ ونعم الوكيل ﴾ . أى نعم الموكل إليه والخصوص بالمدح محذوف أى الله عز وجل ﴿ فانقلبوا ﴾ عطف على مقدر ينسحب عليه السلام أى نخرجوا إليهم ووافوا الموعد . روى أنه عليه الصلاة والسلام وفى بجيشه بدر وأقام بها ثمانى ليال وكانت معهم تجارات فباعوها وأصابوا خيراً كثيراً والباء فى قوله تعالى ﴿ بنعمة ﴾ متعلقة بمحذوف وقع حالاً من الضمير فى فانقلبوا والتنوين للتفخيم أى فرجعوا من مقصدهم ملتبسين بنعمة عظيمة لا يقدر قدرها وقوله عز وجل :

﴿ من الله ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لنعمة مؤكدة لفخامتها الذاتية التى يفيدها التنكير بالفخامة الإضافية أى كائنة من الله تعالى وهى العافية والثبات على الإيمان والزيادة فيه وحذر العدو منهم ﴿ وفضل ﴾ أى ربح فى التجارة وتشكيره أيضاً للتفخيم ﴿ لم يمسه سوى ﴾ حال أخرى من الضمير فى فانقلبوا أو من المستكن فى الحال كأنه قيل منعمين حال كونهم سالمين عن السوء والحال إذا كان مضارعاً منفياً بل وفيه ضمير ذى الحال جاز فيه دخول الواو كما فى قوله تعالى (أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شيء) وعدمه كما فى هذه الآية الكريمة وفى وفى قوله تعالى (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً) .

﴿ وانبجوا ﴾ فى كل ما أتوا من قول وفعل ﴿ رضوان الله ﴾ الذى هو مناط الفوز بخير الدارين ﴿ والله ذو فضل عظيم ﴾ حيث تفضل عليهم بالثبوت وزيادة الإيمان والتوفيق للمبادرة إلى الجهاد والتصلب فى الدين وإظهار الجراءة على العدو وحفظهم عن كل ما يسوءهم مع إصابتهم بالنعمة الجميلة وفيه تحسير لمن تخلف عنهم وإظهار لخطأ رأيهم حيث حرموا أنفسهم ما فاز به هؤلاء وروى أنهم قالوا هل يكون هذا غزواً فأعطاهم الله تعالى ثواب الغزو ورضى عنهم ﴿ إنما ذلكم ﴾ إشارة إلى المشبط أو إلى من حمل على التثييط والخطاب للمؤمنين وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿ الشيطان ﴾ إما خبره وقوله تعالى ﴿ يخوف أوليائه ﴾

جملة مستأنفة مبنية لشيظنته أو حال كما في قوله تعالى (فتلك بيوتهم خاوية) الخ وإما صفته والجملة خبره ويجوز أن تكون الإشارة إلى قوله على تقدير مضاف أي إنما ذلك قول الشيطان أي إبليس والمستكن في يخوف إما للمقدر وإما للشيطان بحذف الراجع إلى المقدر أي يخوف به والمراد بأوليائه إما أبو سفيان وأصحابه فالمفعول الأول محذوف أي يخوفكم أوليائه كما هو قراءة ابن عباس وابن مسعود ويؤيده قوله تعالى ﴿ فلا تخافوهم ﴾ أي أوليائه ﴿ وخافون ﴾ في مخالفة أمرى وإما القاعدون فالمفعول الثاني محذوف أي يخوفهم الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والضمير البارز في فلا تخافوهم للناس الثاني أي فلا تخافون فتقعوا عن القتال وتجنبوا وخافوني فجاهدوا مع رسولى وسارعوا إلى ما يأمركم به والخطاب لفريقى الخارجين والقاعدين والفاء لترتيب النهى أو الانتهاء على ما قبلها فإن كون المخوف شيطانا بما يوجب عدم الخوف والنهى عنه ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ فإن الإيمان يقتضى إثار خوف الله تعالى على خوف غيره ويستدعى الأمن من شر الشيطان وأوليائه .

﴿ ولا يحزنك ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لتشريفه بتخصيصه بالتسليم والإيدان بأصاليته في تدبير أمور الدين والاهتمام بشؤنه ﴿ الذين يسارعون في الكفر ﴾ أي يقعون فيه سريعا لغاية حرصهم عليه وشدة رغبتهم فيه وإيثار كلمة في على ما وقع في قوله تعالى : (أولئك يسارعون في الخيرات) فإن ذلك مؤذن بملا بستهم للخيرات وتقلبهم في فنونها في طرفى المسارعة وتضاعفها وأما إيثار كلمة إلى في قوله تعالى (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة) الخ فالآن المغفرة والجنة منتهى المسارعة وغايتها والمراد بالموصول المنافقون من المتخلفين وطائفة من اليهود حسبما عين في قوله تعالى (يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا) وقيل قوم ارتدوا عن الإسلام والتعبير عنهم بذلك للإشارة بما في حيز الصلة إلى مظنة وجود المنهى عنه واعتراؤه لرسول الله صلى الله عليه وسلم أي لا يحزنوك بمسارعتهم في

الكفر ومبادرتهم إلى تنفيذ^(١) أحكامه ومظاهرتهم لأهله وتوجيه النهي إلى جبهتهم مع أن المقصود نهيه عليه الصلاة والسلام عن التأثر منهم للمبالغة في ذلك لما أن النهي عن التأثر نهي عن التأثر بأصله ونفي له بالمرّة وقد يوجه النهي إلى اللازم والمراد هو النهي عن الملزوم كما في قولك لا أرينك ههنا وقرأ لا يحزنك من أحزن المنقول من حزن بكسر الزاء والمعنى واحد وقيل معنى حزنه جعل فيه حزننا كما في دهنه أي جعل فيه دهننا ومعنى أحزنه جعله حزيننا وقيل معنى حزنه أحدث له الحزن ومعنى أحزنه عرضه للحزن .

﴿ إنهم لن يضروا الله ﴾ تعليل للنهي وتسكين للتسليّة بتحقيق نفى ضررهم أبداً أي لن يضروا بذلك أولياء الله البتة وتعليل نفى الضرر به تعالى لتشریفهم والإيدان بأن مضارتهم بمنزلة مضارته سبحانه وفيه مزيد مبالغة في التسليّة وقوله تعالى ﴿ شيئاً ﴾ في حيز النصب على المصدرية أي شيئاً من الضرر والتنكير لتأكيد ما فيه من القلّة والحقارة وقيل على نزع الجار أي بشيء ما أصلاً وقيل المعنى لن ينقصوا بذلك من ملكه تعالى وسلطانه شيئاً كما روى أبو ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله تعالى لو أن أولكم وآخركم وجنكم وإنسكم كانوا على قلب أتقى^(٢) رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ولو أن أولكم وآخركم وجنكم وإنسكم كانوا على قلب أفجر^(٣) رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً والأول هو الأنسب بمقام التسليّة والتعليل .

﴿ يريد الله أن لا يجعل لهم حظاً في الآخرة ﴾ استئناف مبين لسر ابتلائهم بما هم فيه من انهمالك في الكفر وفي ذكر الإرادة من الإيدان بكال خلوص الداعي إلى حرمانهم وتعذيبهم حيث تعلقت بهما لإرادة أرحم الراحمين ما لا يخفى وصيغة الإستقبال للدلالة على دوام الإرادة واستمرارها أي يريد الله بذلك أن لا يجعل لهم في الآخرة حظاً ما من الثواب ولذلك

(٢) في ط : أتقى قلبه

(١) في ط : إلى تمشية .

(١) في ط : أفجر قلب

وقد جوز كون الموصول الأول عاماً للكفار والثاني خاصاً بالمعهودين وأنت خبير بأنه مع خلوه عن النسكت المذكورة مما لا يليق بفخامة شأن التنزيل لما أن صدور المسارعة في الكفر بالمعنى المذكور وكونها مظنة لإيراث الحزن لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما يفهم من النهى عنه إنما يتصور ممن علم اتصافه بها وأما من لا يعرف حاله من الكفرة الكاتنين في الأماكن البعيدة فإسناد المسارعة المذكورة إليهم باعتبار كونها من مبادئ حزنه عليه السلام مما لاوجه وقوله تعالى :

﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ جملة مبتدأة مبينة لكمال فظاعة عذابهم بذكر غاية لإيلامه بعد ذكر نهاية عظمه . قيل لما جرت العادة باغتباط المشتري بما اشتراه وسروره بتحصيله عند كون الصفة رابحة وتبأله عند كونها خاسرة وصف عذابهم بالإيلام مراعاة لذلك .

استدراج الكفار

﴿ ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيراً لأنفسهم ﴾ عطف على قوله تعالى (ولا يحزنك الذين) الآية والفعل مسند إلى الموصول وأن بما في حينها سادة مسد مفعوليه عند سيديويه لتمام المقصود بها وهو تعلق الفعل القلبي بالنسبة بين المبتدأ والخبر أو مسد أحدهما والآخر محذوف عند الأخفش وما مصدرية أو موصولة حذف عاندها ووصلها في الكتابة لاتباع الإمام أى لا يحسبن الكافرون أن إملأنا لهم أو أن ما نمليه لهم خيراً لأنفسهم أو لا يحسبن الكافرون خيرية إملأنا لهم أو خيرية ما نمليه لهم ثابتة أو واقعة ومآله نهيهم عن السرور بظاهر إملأناهم تعالى لهم بناء على حسابان خيريته لهم وتحسيرهم ببيان أنه شر بحت وضرر محض كما أن مآل المعطوف عليه نهي الرسول صلى الله عليه وسلم عن الحزن بظاهر حال الكفرة بناء على توهم الضرر من قبلهم وتسليمته عليه السلام ببيان عجزهم عن ذلك بالكلية والمراد بالموصول إما جنس الكفرة فيندرج تحت حكمه الكلى أحكام المعهودين اندراجاً أولياً وإما المعهودون خاصة فيأثار الإظهار

تركهم في طغيانهم يعمهون إلى أن يهاكوا على الكفر ﴿ ولهم ﴾ مع ذلك الحرمان الكلي ﴿ عذاب عظيم ﴾ لا يقادر قدره قيل لما دات المسارعة في الشيء على عظم شأنه وجلالة قدره عند المسارع وصف عذابه بالعظم رعاية للمناسبة وتنبها على حقارة ما سارعوا فيه وخساسته في نفسه والجملة لإمامبتدأة مبينة لحظهم من العقاب إثر بيان أن لا شيء لهم من الثواب وإما حال من الضمير في لهم أى يريد الله حرمانهم من الثواب معدا لهم عذاب عظيم ﴿ إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان ﴾ أى أخذوه بدلا منه رغبة فيما أخذوه وإعراضا عما تركوه وقد مر تحقيق القول في هذه الاستعارة في تفسير قوله عز وجل (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) مستوفى .

﴿ لن يضروا الله شيئا ﴾ تفسيره كما مر غير أن فيه تعريضا ظاهرا باقتصار الضرر عليهم كأنه قيل وإنما يضررون أنفسهم فإن جعل الموصول عبارة عن المسارعين المعهودين بأن يراد بالاشتراء الكفر بالإيمان لإثاره عليه إما بأخذه بدلا من الإيمان الحاصل بالفعل كما هو حال المرتدين أو بالقوة القريبة منه الحاصلة بمشاهدة دلائله في التوراة كما هو شأن اليهود ومنافقيهم فالتكرير لتقرير الحكم وتأكيد به بيان علته بتغيير عنوان الموضوع فإن ما ذكر في حيز الصلة من الاشتراء المذكور صريح في لحوق ضرره بأنفسهم تعديه إلى غيرهم أصلا كيف لا وهو علم في الخسران الكلي والحرمان الأبدى دال على كمال سخافة عقولهم وركاكة آرائهم فكيف يتأتى منهم ما يتوقف على قوة الحزم ورزانة الرأي ورصانة التدبير من مضارة حزب الله تعالى وهى أعز من الأبلق الفرد وأمنع من عقاب الجور وإن أجرى الموصول على عمومته بأن يراد بالاشتراء المذكور القدر المشترك الشامل للمعنيين المذكورين ولأخذ الكفر بدلا مما نزل منزلة نفس الإيمان من الاستعداد القريب له الحاصل بمشاهدة الوحي الناطق وملاحظة الدلائل المنصوبة في الآفاق والأنفس كما هو دأب جميع الكفرة فالجملة مقررة لمضمون ما قبلها تقربر القواعد الكلمية لما اندرج تحتها من جزئيات الأحكام هذا

على الإضرار لرعاية المقارنة الدائمة بين الصلة وبين الإيماء الذي هو عبارة عن إهمالهم وتخليتهم وشأنهم دهرًا طويلًا فإن المقارن له دائمًا إنما هو الكافر المستمر لا المسارعة المذكورة ولا الاشتراء المذكور فإنهما من الأحوال المتجددة المنقضية في تضاعيف الكافر المستمر وقرىء لا تحسبن بالتاء والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الأنسب بمقام التسلية أو لكل من يتأتى منه الحسبان تصدا إلى إشاعة فظاعة حالهم والموصول مفعول وإنما نملى لهم إما بدل منه وحيث كان التعويل على البدل وهو ساد مسد المفعولين كما في قوله تعالى (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون) اقتصر على مفعول واحد كما في قولك جعلت المتاع بعضه فوق بعض وإمام مفعول ثالث بتقدير مضاف إما فيه أى لا تحسبن الذين كفروا أصحاب أن الإيماء خير لأنفسهم أو في المفعول الأول أى لا تحسبن حال الذين كفروا أن الإيماء خير لأنفسهم ومعنى التفضيل باعتبار زعمهم .

(إنما نملى لهم ليزدادوا إثمًا) استئناف مبين لحكمة الإيماء وما كفاة واللام لام الإرادة وعند المعتزلة لام العاقبة وقرىء بفتح الهمزة ههنا على إيقاع الفعل عليه وكسرها فيما سبق على أنه اعتراض بين الفعل ومعموله مفيد لمزيد الاعتناء بإبطال الحسبان وردة على معنى لا يحسبن الكافرون أن إيماءنا لهم لازدياد الإثم حسبما هو شأنهم بل إنما هو لتلافى ما فرط منهم بالتوبة والدخول في الإيمان (ولهم) في الآخرة (عذاب مهين) لما تضمن الإيماء التمتع بطيبات الدنيا وزينتها وذلك مما يستدعى التعزز والتجبر وصف عذابهم بالإهانة ليكون جزاؤهم جزاء وفاقًا والجملة إما مبتدأة مبينة لحالهم في الآخرة لئلا يبان حالهم في الدنيا وإما حال من الواو أى ليزدادوا إثمًا معداً لهم عذاب مهين وهذا متعين على القراءة الأخير .

(ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أتهم عليه) كلام مستأنف مسوق لوعده المؤمنين ووعيد المنافقين بالعقوبة الدنيوية التي هي الفضيحة والخزي لئلا يبان عقوبتهم الآخروية والمراد بالمؤمنين المخلصون وما الخطاب فقد قيل إنه لجمهور

المصدقين من أهل الإخلاص وأهل النفاق ففيه التفات في ضمن التلوين والمراد بما هم عليه اختلاط بعضهم بعضاً واستواؤهم في إجراء أحكام الإسلام عليهم إذ هو القدر المشترك بين الفريقين وقيل لأنه للكفار والمنافقين وهو قول ابن عباس والضحاك ومقاتل والكلبي وأكثر المفسرين ففيه تلوين فقط ولعل المنافقين عطف تفسيري للكفار وإلا فلا شركة بين المؤمنين والمنافقين في أمر من الأمور والمراد بما هم عليه ما مر من القدر المشترك فإنه كما يجوز نسبته إلى الفريقين معاً يجوز نسبته إلى كل منهما لا الكفر والنفاق كما قيل فإن المؤمنين ما كانوا مشاركين لهم في ذلك حتى لا يتركوا عليه وقيل إنه للمؤمنين خاصة وهو قول أكثر أهل المعاني ففيه تلوين والتفات كما مر والتعرض لإيمانهم قبل الخطاب للإشعار بعلّة الحكم والمراد بما هم عليه ما مر غير مرة والأول هو الأقرب وإليه جنح المحققون من أهل التفسير لكونه صريحاً في كون المراد بما هم عليه ما ذكر من القدر المشترك بين الفريقين من حيث هو مشترك بينهما بخلاف القولين الأخيرين فإنهما بمعزل من ذلك كيف لا والمفهوم مما عليه المنافقون هو الكفر والنفاق وبما عليه المؤمنون هو الإيمان والإخلاص لا القدر المشترك بينهما ولئن فهم ذلك فإنما يفهم من حيث الانتساب إلى أحدهما لا من حيث الانتساب إليهما معاً وعليه يدور أمر الاختلاط المحجوج إلى الإفراز واللام في لئذ إما متعلقة بالخبر المقدر لكان كما هو رأى البصرية وانتصاب الفعل بعدها بأن المقدره أى ما كان الله مريداً أو متصدياً لأن يذر المؤمنين الخ ففي توجيه النفي إلى إرادة الفعل تأكيد مبالغة ليست في توجيهه إلى نفسه وأما مزيدة للتأكيد ناصبة للفعل بنفسها كما هو رأى الكوفية ولا يقدح في ذلك زيادتها كما لا يقدح زيادة حروف الجر في عملها وقوله عز وجل ،

﴿ حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ غاية لما يفيد النفي المذكور كأنه قيل ما يتركهم الله تعالى على ذلك الاختلاط بل يقدر الأمور ويرتب الأسباب حتى يزل المنافق من المؤمن وفي التعبير عنهما بما ورد به النظم الكريم تسجيل على كل منهما بما يليق به وإشعار بعلّة الحكم وإفراد الخبيث والطيب مع تعددها أريد

بكل منهما وتكثره لا سيما بعد ذكر ما أريد بأحدهما أعنى المؤمنين بصيغة الجمع للإيدان بأن مدار إفراز أحد الفريقين من الآخر هو اتصافهما بوصفهما لا خصوصية ذاتهما وتعدد آحادهما كما في مثل قوله تعالى (ذلك أذنى ألا تعولوا) ونظيره قوله تعالى (تذهل كل مرضعة عما أرضعت) حيث قصد الدلالة على الاتصاف بالوصف من غير تعرض لسكون الموصوف من العقلاء أو غيرهم وتعليق الميز^(١) بالخبيث المعبر به عن المنافق مع أن المتبادر مما سبق من عدم ترك المؤمنين على الاختلاط تعلقه بهم وإفرازهم عن المنافقين لما أن الميز الواقع بين الفريقين إنما هو بالتصرف في المنافقين وتغييرهم من حال إلى حال مغايرة للأولى مع بقاء المؤمنين على ما كانوا عليه من أصل الإيمان وإن ظهر من يد إخلاصهم لا بالتصرف فيهم وتغييرهم من حال إلى حال أخرى مع بقاء المنافقين على ما هم عليه من الاستتار ولأن فيه مزيد تأكيد للوعيد كما أشير إليه في قوله تعالى (والله يعلم المفسد من المصلح) وإنما لم ينسب عدم الترك إليهم لما أنه مشعر باعتناء بشأن من نسب إليه فإن المتبادر منه عدم تركه^(٢) على حالة غير ملائمة كما يشهد به الذوق السليم وقرئ حتى يميز من التمييز وقوله تعالى :

﴿ وما كان الله ليطلعكم على الغيب ﴾ تمهيد لبيان الميز الموعود على طريق تجريد الخطاب للمخلصين تشريراً لهم وقوله عز وجل ﴿ ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء ﴾ إشارة إلى كيفية وقوعه على سبيل الإجمال وإظهار الاسم الجليل في الموضوعين لتربية المهابة فالمعنى ما كان الله ليترك المخلصين على الاختلاط بالمنافقين بل يرتب المبادئ حتى يخرج المنافقين من بينهم وما يفعل ذلك باطلاعكم على ما في قلوبهم من الكفر والنفاق ولكنه تعالى يوحى إلى رسوله عليه السلام فيخبره بذلك وبما ظهر منهم من الأقوال والأفعال حسبما حكى عنهم بعضه فيما سلف فيفضحهم على رؤس الأشهاد ويخلصك من خسة الشركاء

(١) في ١٠ : التمييز .

(٢) في ط : عدم الترك .

(٣٩ - أبو السعود - أول)

وسوء جوارهم والتعرض للاجتباء للإيدان بأن الوقوف على أمثال تلك الأسرار الغيبية لا يتأتى إلا عن رشحه الله تعالى لمنصب جليل تقاصرت عنه همم الأمم واصطفاه على الجماهير لإرشادهم وتعميم الاجتباء لسائر الرسل عليهم السلام للدلالة على أن شأنه عليه السلام في هذا الباب أمر متين له أصل أصيل جار على سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين الرسل الخالية عليهم السلام وتعميم الأمر في قوله تعالى :

﴿ فآمنوا بالله ورسوله ﴾ مع أن سوق النظم الكريم للإيمان بالنبي عليه الصلاة والسلام لا يجاب الإيمان بالطريق البرهاني والإشعار بأن ذلك مستلزم للإيمان بالكل لأنه مصدق لما بين يديه من الرسل وهم شهداء بصحة نبوته عليه الصلاة والسلام والمأمور به الإيمان بكل ما جاء به عليه الصلاة والسلام فيدخل فيه تصديقه عليه السلام فيما أخبر به من أحوال المنافقين دخولا أوليا هذا هو الذي تقتضيه جزالة النظم الكريم وقد جوز أن يكون المعنى لا يترككم مختلطين حتى يميز الحديث من الطيب بأن يكلفكم التكليف الصعبة التي لا يصير عليها إلا الخالص الذين امتحن الله تعالى قلوبهم كبذل الأرواح في الجهاد وانفاق الأموال في سبيل الله تعالى فيجعل ذلك عيارا على عقائدكم وشاهدا بضمايركم حتى يعلم بعضكم بما في قلب بعض بطريق الاستدلال لا من جهة الوقوف على ذات الصدور فإن ذلك مما استأثر الله تعالى به وأنت خبير بأن الاستدراك باجتباء الرسل المنبئ عن مزيد من يتهم وفضل معرفتهم على الخلق إثر بيان قصور تدبهم عن الوقوف على خفايا السرائر صريح في أن المراد لإظهار تلك السرائر بطريق الوحي لا بطريق التكليف بما يؤدي إلى خروج أسرارهم عن رتبة الخفاء وأقرب من ذلك حمل الآية السكريمة على أن تكون مسوقة لبيان الحكمة في إملائه تعالى للكفرة إثر بيان شريعته لهم فالمعنى ما كان الله لينذر المخلصين على الاختلاط أبدا كما تركهم كذلك إلى الآن لسر يقتضيه بل يفرض عنهم المنافقين ولذلك فعله يومئذ حيث خلى الكفرة وشأنهم فأبرز لهم صورة الغلبة فأظهر من في قلوبهم مرض ما فيها من الخبائث وافتضحوا على رؤس الأشهاد وقيل قال

الكافرون إن كان محمدا صادقا فليخبرنا من يؤمن منا ومن يكفر فنزلت ﴿ وإن تؤمنوا ﴾ أى بما ذكر حق الإيمان ﴿ وتتقوا ﴾ أى عدم مراعاة حقوقه أو النفاق ﴿ فلكم ﴾ بمقابلة ذلك الإيمان والتقوى ﴿ أجر عظيم ﴾ لا يبلغ كنهه .

البخل والبخلاء

﴿ ولا يحسن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم ﴾ بيان لحال البخل ووخامة عاقبته وتخطئة لأهله فى توهم خيرته حسب بيان حال الإماء وإيراد ما بخلوا به بعنوان إيتاء الله تعالى إياه من فضله للمبالغة فى بيان سوء صنيعهم فإن ذلك من موجبات بذله فى سبيله كما فى قوله تعالى ﴿ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ والفعل مسند إلى الموصول والمفعول الأول محذوف للدلالة الصلة عليه وضمير الفصل راجع إليه أى لا يحسن الباخلون بما آتاهم الله من فضله من غير أن يكون لهم مدخل فيه أو استحقاق له هو خيرا لهم . من إنفاقه وقيل الفعل مسند إلى ضمير النبي صلى الله عليه وسلم أو إلى ضمير من يحسب والمفعول الأول هو الموصول بتقدير مضاف والثانى ما ذكر كما هو كذلك على قراءة الخطاب أى ولا يحسن بخل الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم ﴿ بل هو شر لهم ﴾ التنصيص على شريته لهم مع إدراكها (١) من نفي خيريته للمبالغة فى ذلك والتنوين للتفخيم وقوله تعالى ﴿ سيطوفون ما بخلوا به يوم القيامة ﴾ بيان لكيفية شريته أى سيلزمون وبال ما بخلوا به من الزكاة حية فى عنقه تنهشه من قرنه إلى قدمه وتنقر رأسه وتقول أنا مالك . ﴿ والله ﴾ وحده لا لأحد غيره استقلالا أو اشتراكا ﴿ ميراث السموات والأرض ﴾ أى ما يتوارثه أهلها من مال وغيره من الرسالات التى يتوارثها أهل السموات والأرض فما لهم يبخلون عليه بملكه ولا ينفقونه فى سبيله أو أنه يرث منهم ما يمسكونه ولا ينفقونه فى سبيله تعالى عند هلاكهم

(١) فى ط : انهمها .

وتدوم^(١) عليهم الحسرة والندامة ﴿ والله بما تعملون ﴾ من المنع والبخل ﴿ خبير ﴾ فيجازيكم على ذلك وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لترزية المهابة والآلتفات للمبالغة في الوعيد والإشعار باشتداد غضب الرحمن الناشئ من ذكر قبائحهم وقرىء بالياء على الظاهر ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾ قالت اليهود لما سمعوا قوله تعالى (من ذا الذي يقرض الله قرصا حسنا) وروى أنه عليه السلام كتب مع أبي بكر رضى الله عنه إلى يهود بني قينقاع يدعوهم إلى الإسلام وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرصا حسنا فقال فنحاص إن الله فقير حتى سألتنا القرص فلطمه أبو بكر رضى الله عنه في وجهه وقال لولا الذى بيننا وبينكم من العهد لضربت عنقك فشكاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجحد ما قاله فنزلت والجمع حينئذ مع كون القائل واحدا لرضا الباقيين بذلك والمعنى أنه لم يخف عليه تعالى وأعد له من العذاب كفاء والتعبير عنه بالسماح للإيدان بأنه من الشناعة والسماجة بحيث لا يرضى قائله بأن يسمعه سامع والتوكيد القسمى للتشديد في التهديد والمبالغة في الوعيد .

﴿ سنسكتب ما قالوا ﴾ أى سنسكتب ما قالوه من العظيمة الشنعاء في صحائف الحفظة أو سنحفظه ونثبته في علمنا لا ننساه ولا نهمله كما ينبت المكتوب والسين للتأكيد أى لن يفوتنا أبدا تدوينه وإثباته لكونه في غاية العظم والهلول كيف لا وهو كفر بالله تعالى واستهزاء بالقرآن العظيم والرسول الكريم ولذلك عطف عليه قوله تعالى ﴿ وقتلهم الأنبياء ﴾ إيدانا بأنهما في العظم إخوان وتبئها على أنه ليس بأول جريمة ارتكبوها بل لهم فيه سوابق وأن من اجترأ على قتل الأنبياء لم يستبعد منه أمثال هذه العظام والمراد بقتلهم الأنبياء رضاهم بفعل أسلافهم وقوله تعالى ﴿ بغير حق ﴾ منعلق بمحذوف وقع حالا من قتلهم أى كأننا بغير حق في اعتقادهم أيضا كما هو في نفس الأمر وقرىء سيكتب على البناء.

(١) في ط : أو تبقى .

للفاعل وسيكتب على البناء للمفعول وقتلهم بالرفع ﴿ ونقول ذوقوا عذاب
الحريق ﴾ أي وندقم منهم بعد الكتابة بأن نقول لهم ذوقوا العذاب المحرق
كما أذقم المسلمين الغصص وفيه من المبالغات ما لا يخفى وقرىء ويقول بالياء
ويقال على البناء للمفعول ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى العذاب المذكور وما فيه من معنى
البعد للدلالة على عظم شأنه وبعد منزلته في الهول والفضاعة وهو مبتدأ خبره
قوله تعالى ﴿ بما قدمت أيديكم ﴾ أي بسبب ما اقترتموه من قتل الأنبياء
والتفوه بمثل تلك العظيمة وغيرها من المعاصي والتعبير عن الأنفس بالأيدي لما
أن عامة أفعالها تراول بهن ومحل أن في قوله تعالى :

﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف والمجئ
تاعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبلها أي والأمر أنه تعالى ليس بمعذب لعبيده
بغير ذنب من قبلهم والتعبير عن ذلك ينفي الظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس
بظلم على ما تقرر من قاعدة أهل السنة فضلا عن كونه ظلما بالغالبيان كمال نزاهته
تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه سبحانه من الظلم كما يعبر
عن ترك الإثابة على الأعمال بإضاعتها مع أن الأعمال غير موجبة للثواب حتى
يلزم من تخلفه عنها ضياعها وصيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بإبرار ما ذكر
من التعذيب بغير ذنب في صورة المبالغة في الظلم وقيل هي لرعاية جمعية العبيد
من قولهم فلان ظالم لعبده وظلام لعبيده على أنها للمبالغة كما لا كيفا هذا وقد
قيل محل أن الجر بالعطف على ما قدمت وسببته للعذاب من حيث أن نفى الظلم
مستلزم للعدل المقتضى لإثابة المحسن ومعاقبة المسيء وفساده ظاهر فإن ترك
التعذيب من مستحقه ليس بظلم شرعا ولا عقلا حتى ينتهض نفى الظلم سببا
للتعذيب حسبما ذكره القائل في سورة الأنفال وقيل سببية ذنوبهم لعذابهم مقيدة
بانضمام انتفاء ظلمه تعالى إليها إذ لولاه لأمكن أن يعذبهم بغير ذنوبهم وأنت
خبير بأن إمكان تعذيبه تعالى لعبيده بغير ذنب بل وقوعه لا ينافي كون تعذيب
هؤلاء الكفرة بسبب ذنوبهم حتى يحتاج إلى اعتبار عدمه معه وإنما يحتاج

إلى اعتبار عدمه معه وإنما يحتاج إلى ذلك أن لو كان المدعى أن جميع تعذيباته تعالى بسبب ذنوب المعذبين .

﴿ الذين قالوا ﴾ نصب أو رفع على الذم وهم كعب بن الأشرف ومالك ابن صيفي وحبي بن أخطب وفنحاص بن عازوراء ووهب بن يهوذا ﴿ إن الله عهد إلينا ﴾ أى أمرنا فى التوراة وأوصانا ﴿ أن لا تؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ﴾ كما كان عليه أمر أنبياء بنى إسرائيل حيث كان يقرب بالقربان فيقوم النبى فيدعو فتنزّل نار من السماء فتأكله أى تحيله إلى طبعها بالإحراق وهذا من مفترياتهم وأباطيلهم فإن أكل النار القربان لم يوجب الإيمان إلا لسكونه معجزة فهو وسائر المعجزات سواء ولما كان محصل كلامهم الباطل أن عدم إيمانهم برسول الله صلى الله عليه وسلم لعدم إتيانه بما قالوا ولو تحقق الإتيان به لتحقق الإيمان رد عليهم بقوله تعالى ﴿ قل ﴾ أى تسكيتمهم وإظهارا لسكذبهم ﴿ قد جاءكم رسل ﴾ كثيرة العدد كبيرة المقدار ﴿ من قبلى بالبينات ﴾ أى المعجزات الواضحة ﴿ وبالذى قلتم ﴾ بعينه من القربان الذى تأكله النار ﴿ فلم قلتموهم إن كنتم صادقين ﴾ أى فيما يدل عليه كلامكم من أنكم تؤمنون لرسول يأتىكم بما اقترحتموه فإن زكريا ويحيى وغيرهما من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد جاءوكم بما قلتم فى معجزات آخر فما لكم لم تؤمنوا لهم حتى اجترأتم على قتلهم ﴿ فإن كذبوك ﴾ شروع فى تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم إثر ما أوحى إليه ما يحزنه عليه الصلاة والسلام من مقالات الكفرة من المشركين واليهود وقوله تعالى ﴿ فقد كذب رسل من قبلك ﴾ تعليل لجواب الشرط أى فنسل فقد كذب الخ ومن متعلقة بكذب أو بمحذوف هو صفة الرسل أى كائنه من قبلك ﴿ جاءوا بالبينات ﴾ أى المعجزات الواضحة صفة لرسول ﴿ والزبر ﴾ هو جمع زبور وهو الكتاب المقصور على الحكم من زبرته إذا حسنته وقيل الزبر المواعظ والزواجر من زبرته إذا زجرته ﴿ والكتاب المنير ﴾ قيل أى التوراة والإنجيل والزبور والكتاب فى عرف القرآن ما يتضمن الشرائع والأحكام ولذلك جاء الكتاب والحكمة متعاطفين فى عامة المواقع

وقرىء وبالزبر بإعادة الجار دلالة على أنها معايرة بالذات للبينات ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ وعد ووعيد للصدق والمكذب وقرىء ذائقة الموت بالتنوين وعدمه كما في قوله ولا ذا كرا لله إلا قليلا ﴿ وإنما توفون أجوركم ﴾ أى تعطون جزاء أعمالكم على التمام والسكال ﴿ يوم القيامة ﴾ أى يوم قيامكم من القبور وفى لفظ التوفية إشاره إلى أن بعض أجورهم يصل إليهم قبله كما ينبىء عنه قوله عليه الصلاة والسلام القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران ﴿ فمن زحزح عن النار ﴾ أى بعد عنها يومئذ ونجا والزحزحة فى الأصل تكرير الزح وهو الجذب بعجلة ﴿ وأدخل الجنة فقد فاز ﴾ بالنجاة ونيل المراد والفوز الظفر بالبغية وعن النبى صلى الله عليه وسلم من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ويأتى إلى الناس بما يحب أن يؤتى إليه ﴿ وما الحياة الدنيا ﴾ أى لذاتها وزخارفها ﴿ إلا متاع الغرور ﴾ شبهت بالمتاع الذى يدلس به على المستام ويغر حتى يشتره وهذا لمن آثرها على الآخرة فأما من طلب بها الآخرة فهى له متاع بلاغ والغرور إما مصدر أو جمع غار ﴿ لتبلون ﴾ شروع فى تسليمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين عما سيلقونه من جهة الكفرة من المكارة إثر تسليتهم عما قد وقع منهم ليوطنوا أنفسهم على احتماله عند وقوعه ويستعدوا للقاته ويقابلوه بحسن الصبر والثبات فإن هجوم الأوجال مما يزلزل أقدام الرجال والاستعداد للكروب مما يهون الخطوب وأصل البلاء الاختبار أى تطلب الخبرة بحال المختبر بتعريضه لأمر يشق عليه غالبا ملا بسته ومفارقته وذلك إنما يتصور حقيقة مما لا وقوف له على عواقب الأمور وأما من جهة العليم الخبير فلا يكون إلا مجازا من تمكنه للعبد من اختيار أحد الأمرين أو الأمور قبل أن يرتب عليه شيئا هو من مبادئه العادية كما مر والجملة جواب قسم محذوف أى والله لتبلون أى لتعاملن معاملة المختبر ليظهر ما عندكم من الثبات على الحق والأعمال الحسنة وفائدة التوكيد إما تحقيق معنى الابتلاء تهوينا للخطب وإما تحقيق وقوع المبلى به مبالغة الحث على ما أريد منهم من التهيؤ والاستعداد ﴿ فى أموالكم ﴾

بما يقع فيها من ضروب الآفات المؤدية إلى هلاكها وأما إنفاقها في سبيل الخير مطلقا فلا يليق نظمه في سلك الابتلاء لما أنه من باب الإضعاف لا من قبيل الإيتلاف ﴿ وأنفسكم ﴾ بالقتل والأسر والجراح وما يرد عليها من أصناف المتاعب والمخاوف والشدائد ونحو ذلك وتقديم الأموال لكثرة وقوع الهلكة فيها ﴿ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ﴾ أى من قبل إيتائكم القرآن وهم اليهود والنصارى عبر عنهم بذلك للإشعار بمدار الشقاق والإيذان بأن بعض ما يسمعون منه مستند على زعمهم إلى الكتاب كما في قوله تعالى (إن الله عهد لإبنا) الخ والتصريح بالقبلية لتأكيد الإشعار وتقوية المدار فإن قدم نزول كتابهم مما يؤيد تمسكهم به ﴿ ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ﴾ من الطعن في الدين الخفيف والقدح في أحكام الشرع الشريف وصد من أراد أن يؤمن وتخطئة من آمن وما كان من كعب بن الأشرف وأضرابه من هجاء المؤمنين وتحريض المشركين على مضادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك مما لا خير فيه ﴿ وإن تصبروا ﴾ أى على تلك الشدائد والبلوى عند ورودها وتقابلوها بحسن التجمل ﴿ وتقفوا ﴾ أى تبتلوا إلى الله تعالى بالسكينة معرضين عما سواه بالمرّة بحيث يتساوى عندكم وصول المحبوب ولقاء المكروه ﴿ فإن ذلك ﴾ إشارة إلى الصبر والتقوى وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجتكما وبعد منزلتكما وتوحيد حرف الخطاب إما باعتبار كل واحد من المخاطبين وإما لأن المراد بالخطاب لمجرد التنبيه من غير ملاحظة خصوصية أحوال المخاطبين ﴿ من عزم الأمور ﴾ من معزوماتها التى يتنافس فيها المتنافسون أى مما يجب أن يعزم عليه كل أحد لما فيه من كمال المزيه والشرف أو مما عزم الله تعالى عليه وأمر به وبالغ فيه يعنى أن ذلك عزيمة من عزيمات الله تعالى لا بد أن تصبروا وتتقوا والجملة تعليل لجواب الشرط واقع موقعه كأنه قيل وإن تصبروا وتتقوا فهو خير لكم أو فافعلوا أو فقد أحسنتم أو فقد أصبتم فإن ذلك الخ ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى صبر المخاطبين وتقواهم فالجملة حينئذ جواب الشرط وفى إبراز الأمر بالصبر والتقوى فى صورة الشرطية من إظهار كمال

اللفظ بالعباد ما لا يخفى ﴿ وإذ أخذ الله ﴾ كلام مستأنف سيق لبيان بعض أذياتهم وهو كتابتهم ما في كتبهم من شواهد نبوته عليه الصلاة والسلام وغيرها وإذ منصوب على المفعولية بمضمرة أمر به النبي صلى الله عليه وسلم خاصة بطريق تجريد الخطاب إثر الخطاب الشامل له عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين لكون مضمونه من الوظائف الخاصة به عليه الصلاة والسلام وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات للبالغة في إيجاب ذكرها على ما مر بيانه في تفسير قوله تعالى وإذ قال (ربك للملائكة إني جاعل) الخ أى اذكر وقت أخذه تعالى ﴿ ميثاق الذين أوتوا الكتاب ﴾ وهم علماء اليهود والنصارى ذكروا بعنوان إيتاء الكتاب مبالغة في تقبيح حالهم .

﴿ لتبينه ﴾ حكاية لما خوطبوا به والضمير للكتاب وهو جواب لقسم ينبيه عنه أخذ الميثاق كأنه قيل لهم بالله لتبينه ﴿ للناس ﴾ وتظهرن جميع ما فيه من الأحكام والأخبار التي من جملتها أمر نبوته عليه الصلاة والسلام وهو المقصود بالحكاية وقرىء بالياء لأنهم غيب ﴿ ولا تكتمونه ﴾ عطف على الجواب وإنما لم يؤكد بالنون لكونه منفياً كما في قولك والله لا يقوم زيد وقيل اكتمى بالتأكيدي في الأول لأنه تأكيد له وقيل هو حال من ضمير المخاطبين إما على إضمار مبتدأ بعد الواو أى وأنتم لا تكتمونه وإما على رأى من جوز دخول الواو على المضارع المنهى عند وقوعه حالا أى لتبينه غير كاتمين والمنهى عن الكتمان بعد الأمر بالبيان إما للبالغة في إيجاب الأمر به وإما لأن المراد بالبيان المأمور به ذكر الآيات الناطقة بنبوته عليه الصلاة والسلام وبالكتمان المنهى عنه إلقاء التأويلات الزائفة والشبهات الباطلة وقرىء بالياء كما قبله ﴿ فنبدوه ﴾ النبذ الرمي والإبعاد أى طرحوا ما أخذ منهم من الميثاق الموثق بفنون التأكيد والقوه .

﴿ وراء ظهورهم ﴾ ولم يراعوه ولم يلتفتوا إليه أصلاً فإن نبذ الشيء وراء الظهر مثل في الاستهانة به والإعراض عنه بالسكينة كما أن جعله نصب العين علم بنى كمال العناية به وفيه من الدلالة على تحتم بيان الحق على علماء الدين وإظهار

ما منحوه من العلم للناس أجمعين وحرمة كتبانه لغرض من الأغراض الفاسدة أو لطمع في عرض من الأعراض الفانية الكاسدة ما لا يخفى وعن النبي صلى الله عليه وسلم من كتم علما عن أهله ألجم بلجام من نار وعن طاوس أنه قال لوهب بن منبه إنى أرى الله سوف يعذبك بهذه الكتب وقال والله لو كنت نبيا فكتمت العلم كما تكتمته لرأيت أن الله سيعذبك وعن محمد بن كعب لا يحل لأحد من العلماء أن يسكت على علمه ولا يحل لجاهل أن يسكت على جهله حتى يسأل وعن علي رضي الله عنه ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا ﴿واشتروا به﴾ أى بالكتاب الذى أمروا بديانته ونهوا عن كتبانه فإن ذكر نبيذ الميثاق يدل على ذلك دلالة واضحة وإيقاع الفعل على الكل مع أن المراد به كتم بعضه كدلائل نبوته عليه الصلاة والسلام ونحوها لما أن ذلك كتم للكل إذ به يتم الكتاب كما أن رفض بعض أركان الصلاة رفض لسكاتها أو بمنزلة كتم الكل من حيث أنهما سيان في الشناعة واستجرار العقاب كما في قوله تعالى (وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) والاشتراء مستعار لاستبدال متاع الدنيا بما كتموه أى تركوا ما أمروا به وأخذوا بدلا منه^(١) ﴿ثمنا قليلا﴾ أى شيئا نافعها حقيرا من حطام الدنيا وأعراضها وفي تصوير هذه المعاملة بعقد المعاوضة لا سيما بالاشتراء المؤذن بالرغبة فى المأخوذ والإعراض عن المعطى والتعبير عن المشتري الذى هو العمدة فى العقد والمقصود بالمعاملة بالثمن الذى شأنه أن يكون وسيلة إليه وجعل الكتاب الذى حقه أن يتنافس فيه المتنافسون مصحوبا بالباء الداخلة على الآلات والوسائل من نهاية الجزالة والدلالة على كمال فظاعة حالهم وغاية قبحها بإيثارهم الدنى الخفير على الشريف الخطير وتعكيسهم بجعلهم المقصد الأسمى وسيلة والوسيلة مقصدا ما لا يخفى جلالة شأنه ورفعة مكانه ﴿فبئس ما يشترون﴾ ما نكرة منصوبة مفسرة لفاعل بئس ويشترون صفته والمخصوص بالذم محذوف أى بئس شيئا

(١) فى ط : بدله .

يشترونه ذلك الثمن ﴿ لا تحسبن ﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن يصلح له .

﴿الذين يفرحون بما أتوا﴾ أى بما فعلوا كما فى قوله تعالى (إنه كان وعده مآثيا) ويدل عليه قراءة أبى : يفرحون بما فعلوا وقرىء بما أتوا بمعنى أعطوا وبما أتوا أى بما أتوه عن علم التوراة . قال ابن عباس رضى الله عنهما هم اليهود حرفوا التوراة وفرحوا بذلك وأحبوا أن يوصفوا بالديانة والفضل روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل اليهود عن شىء مما فى التوراة فكتموا الحق وأخبروه بخلافه وأروه أنهم قد صدقوه واستحمدوا إليه وفرحوا بما فعلوا وقيل فرحوا بكتمان النصوص الناطقة بنبوته عليه الصلاة والسلام وأحبوا أن يحمدوا بأنهم متبعون ملة إبراهيم عليه السلام فالموصول عبارة عن المذكورين أو عن مشاهيرهم وضع موضع ضميرهم والجملة مسوقة لبيان ما تستتبعه أعمالهم المحكية من العقاب الأخرى إثر بيان قباحتها وقد أدمج فيها بيان بعض آخر من شنائعهم وهو إصرارهم على ما هم عليه من القبائح وفرحهم بذلك ومحبتهم لأن يوصفوا بما ليس فيهم من الأوصاف الجميلة وقد نظم ذلك فى سلك الصلة التى حقها أن تكون معلومة الثبوت للموصول عند المخاطب لئذانا بشهرة اتصافهم بذلك وقيل هم قوم تخلفوا عن الغزو ثم اعتذروا بأنهم رأوا المصلحة فى ذلك واستحمدوا به وقيل هم المنافقون كافة وهو الأنسب بظاهر قوله تعالى :

﴿ ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ﴾ لشهرة أنهم كانوا يفرحون بما فعلوا من إظهار الإيمان وقلوبهم مطمئنة بالسكفر ويستحمدون إلى المسلمين بالإيمان وهم عن فعله بألف منزل وكانوا يظهرون محبة المؤمنين وهم فى الغاية القاصية من العداوة فالموصول عبارة عن طائفة معهودة من المذكورين وغيرهم فإن أكثر المنافقين كانوا من اليهود ولعل الأولى لإجراء الموصول على عمومه شاملا لكل من يأتى بشىء من الحسنات فيفرح به فرح إعجاب ويود أن يمدحه الناس بما هو عار منه من الفضائل منتظما للمعهودين انتظاما أوليا وأياما

كان فهو مفعول أول لتحسين وقوله تعالى ﴿ فلا تحسبنهم ﴾ تأكيد له والفاء زائدة والمفعول الثاني قوله تعالى ﴿ بمفازة من العذاب ﴾ أى ملتبسين بنجاة منه على أن المفازة مصدر ميمى ولا يضر تأنيثها بالناء لما أنها مبنية عليها وليست للدلالة على الوحدة كما فى قوله:

فلولا رجاء النصر منك ورهبة عقابك قد كانوا لنا بالموارد
ولا سبيل إلى جعلها اسم مكان على أن الجار متعلق بمحذوف وقع صفة
لها أى بمفازة كائنة من العذاب لأنها ليست من العذاب وتقدير فعل خاص
ليصح به المعنى أى بمفازة منجية من العذاب مع كونه خلاف الأصل تعسف
مستغنى عنه وقرئ بضم الباء فى الفعلين على أن الخطاب شامل للدؤمنين أيضاً
وقرئ بياء الغيبة وفتح الباء فيهما على أن الفعل له عليه الصلاة والسلام أو لكل
أحد ممن يتأتى منه الحسبان ومفعولاه كما ذكر وقرئ بضم الباء فى الثانى فقط
على أن الفعل للموصول والمفعول الأول محذوف لسكونه عين الفاعل والثانى
بمفازة أى لا يحسبن الذين يترحون أنفسهم فائزين وقوله تعالى فلا يحسبنهم
تأكيد للأول والفاء زائدة كما مر ويجوز أن يحمل الفعل الأول على حذف
المفعولين معا اختصاراً للدلالة مفعولى الثانى عليهما على عكس ما فى قوله :

بأى كتاب أو بآية سنة ترى حبهم عارا على وتحسب

حيث حذف فيه مفعولا الثانى للدلالة مفعولى الأول عليهما أو على أن
الفعل الأول للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل حاسب ومفعوله الأول
الموصول والثانى محذوف للدلالة مفعول الفعل الثانى عليه والفعل الثانى مسند
إلى ضمير الموصول والفاء للعطف لظهور تفرع حسبانهم على عدم حسبانته
عليه السلام ومفعولاه الضمير المنصوب وقوله تعالى بمفازة وتصدير الوعيد
بنيهم عن الحسبان المذكور للتنبيه على بطلان آرائهم الركيكة وقطع أطماعهم
الفارغة حيث كانوا يزعمون أنهم يشجون بما صنعوا من عذاب الآخرة كما نجوا
به من التواخذة الدنيوية وعليه كان مبنى فرحهم وأما نهيه عليه السلام فالتعريض
بحسبانهم المذكور لا لاحتمال وقوع الحسبان من جهته عليه السلام ﴿ ولهم

عذاب أليم ﴿ بعد ما أشير إلى عدم نجاتهم من مطلق العذاب حقق أن لهم فردا منه لا غاية له في المدة والشدة كما تلوح به الجملة الاسمية والتنكير التفخيمي والوصف .

﴿ والله ﴾ أى خاصة ﴿ ملك السموات والأرض ﴾ أى السلطان القاهر فيهما بحيث يتصرف فيهما وفيما فيهما كيفما يشاء ويريد إيجادا وإعداما لإحياء وإماتة تعذيبا وإثابة من غير أن يكون لغيره شائبة دخل في شيء من ذلك بوجه من الوجوه فالجملة مقررمة لما قبلها وقوله تعالى ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ تقرير لاختصاص ملك العالم الجسماني المعبر عنه بقطريه به سبحانه وتعالى قادرا على الكل بحيث لا يشذ من ملكوته شيء من الأشياء يستدعى كون ما سواه كائنا ما كان مقدورا له ومن ضرورته اختصاص القدرة به تعالى واستحالة أن يشاركه شيء من الأشياء في القدرة على شيء من الأشياء فضلا عن المشاركة في ملك السموات والأرض وفيه تقرير لما مر من ثبوت العذاب الأليم لهم وعدم نجاتهم منه وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لترية المهابة والإشعار بمناط الحكم فإن شمول القدرة لجميع الأشياء من أحكام الألوهية مع ما فيه من الإشعار باستقلال كل من الجملتين بالتقرير ﴿ إن في خلق السموات ﴾ جملة مستأنفة سيقنت لتقرير ما سبق من اختصاصه تعالى بالسلطان القاهر والقدرة التامة صدرت بكلمة التأكيد اعتناء بتحقيق مضمونها أى في إنشائها على ما هي عليه في ذواتها وصفاتها من الأمور التي يحارفي فهم أجلاها العقول ﴿ والأرض ﴾ على ما هي عليه ذاتا وصفة .

﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ أى في تعاقبهما في وجه الأرض وكون كل منهما خليفة للآخر بحسب طلوع الشمس وغروبها التابعين لحركات السموات وسكون الأرض أو في تفاوتهما بازدياد كل منهما بانتقاص الآخر وانتقاصه بازدياده باختلاف حال الشمس بالنسبة إلينا قربا وبعدا بحسب الأزمنة أو في اختلافهما وتفاوتهما بحسب الأمكنة أما في الطول والقصر فإن البلاد القريبة

من القطب الشمالى أيامها الصيفية أطول ولياليها الصيفية أقصر من أيام البلاد البعيدة منه ولياليها وأما فى أنفسها فإن كرية الأرض تقتضى أن يكون بعض الأيام كن ليلا وفى مقابله نهارا وفى بعضها صباحا وفى بعضها ظهرا أو عصرًا أو غير ذلك والليل قيل لأنه اسم جنس يفرق بين واحده وجمعه بالتاء كتمر وتمرّة والليالى جمع جمع والصحيح أنه مفرد ولا يحفظ له جمع والليالى جمع ليلة وهو جمع غريب كأنهم توهموا أنها ليلاة كما فى كيككة وكياكى كأنها جمع كيككة والنهار اسم لما بين طلوع الفجر وغروب الشمس قاله الراغب وقال ابن فارس هو ضياء ما بينهما وتقديم الليل على النهار إما لأنه الأصل فإن غرر الشهور تظهر فى الليالى وإما لتقدمه فى الخلفية حسبما ينبىء عنه قوله تعالى (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار) أى نزيله منه فيخلفه (لآيات) اسم لأن دخلته اللام لتأخره عن خبرها والتنكير للتفخيم كما وكيفا أى لآيات كثيرة عظيمة لا يقادر قدرها دالة على تعاجيب شئونه التى من جملتها ما مر من اختصاص الملك العظيم والقدره التامة به سبحانه وعدم التعرض لما ذكر فى سورة البقرة من الفلك والمطر وتصريف الرياح والسحاب لما أن المقصود ههنا بيان استبداده تعالى بما ذكر من الملك والقدره فاكتفى بمعظم الشواهد الدالة على ذلك وأنا هناك فقد قصد فى ضمن بيان اختصاصه تعالى بالألوهية بيان انصافه تعالى بالرحمة الواسعة فنظمت دلائل الفضل والرحمة فى سلك دلائل التوحيد فإن ما فصل هناك [هو] (١)

من آيات رحمته تعالى كما أنه من آيات ألوهيته ووحدته .

(لأولى الألباب) أى لذوى العقول المجلوة الخالصة عن شوائب الحس والوهم المتجردين عن العلائق النفسانية المتخلصين من العوائق الظلمانية المتأملين فى أحوال الحقائق وأحكام النعوت المراقبين فى أطوار الملك وأسرار الملكوت المتفكرين فى بدائع صنائع الملك الخلاق المتدبرين فى روائع حكمه المودعة فى الأنفس والآفاق الناظرين إلى العالم بعين الاعتبار والشهود المتفحصين عن

(١) سقطت من ط .

حقيقة سر الحق في كل موجود المثارين على مراقبته وذكره غير ملتفتين إلى شيء مما سواه إلا من حيث أنه مرآة لمشاهدة جماله وآلة لملاحظة صفات كماله فإن كل ما ظهر في مظاهر الإبداع وحضر محاضر التكوين والاختراع سبيل سوى إلى عالم التوحيد ودليل قوى على الصانع المجيد ناطق بآيات قدرته فهل من سامع واع ومخبر بأنباء عليه وحكمته فهل له من داع يكلم الناس على قدر عقولهم ويرد جوابهم بحسب مقولهم يحاور تارة بأوضح عبارة ويلوح أخرى بالطف إشارة مراعيًا في الحوار إلهامهم وتصريحهم وإن من شيء إلا تسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم فتأمل في هذه الشئون والأسرار إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار . عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هل لك يا عائشة أن تأذني لي الليلة في عبادة ربي فقلت يا رسول الله إني لأحب قربك وأحب هوائك قد أذنت لك فقام إلى قربته من ماء في البيت فتوضأ ولم يكثر من صب الماء ثم قام يصلي فقرأ من القرآن وجعل يبكي حتى بلغ الدموع حقويه ثم جلس فحمد الله تعالى وأثنى عليه وجعل يبكي ثم رفع يديه فجعل يبكي حتى رأيت دموعه قد بليت الأرض فأتاه بلال يؤذنه بصلاة الغداة فرآه يبكي فقال له يا رسول الله أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال يا بلال أفلا أكون عبدا شكورا ثم قال وبالي لا أبكي وقد أنزل الله تعالى علي في هذه الليلة إن في خلق السموات والأرض الخ ثم قال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها وروى ويل لمن لا كفا بين فكليه ولم يتأملها وعن علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل يتسوك ثم ينظر إلى السماء ثم يقول إن في خلق السموات والأرض الخ .

﴿ الذين يذكرون الله ﴾ الموصول إما موصول بأولى الأبواب مجرور على أنه نعت كاشف له بما في حيز الصلة وإما موصول عنه مرفوع أو منصوب على المدح أو مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف وقيل هو مرفوع على الابتداء والخبر هو القول المقدر قبل قوله تعالى ربنا وفيه من تفكيك الأنظم الجليل ما لا يخفى وأياما كان فقد أشير بما في حيز صلته أن المراد بهم الذين لا يغفلون

عنه تعالى في عامة أوقاتهم لاطمئنان قلوبهم بذكره واستغراق سرائرهم في مراقبته لما أيقنوا بأن كل ما سواه فائض منه وعائد إليه فلا يشاهدون حالا من الأحوال في أنفسهم وإليه أشير بقوله عز وجل ﴿قياماً وقيوداً وعلى جنوبهم﴾ ولا في الآفاق وإليه أشير بما بعده إلا وهم يعاينون في ذلك شأننا من شئونه تعالى فالمراد به ذكره تعالى مطلقاً سواء كان ذلك من حيث الذات أو من حيث الصفات والأفعال وسواء قارنه الذكر اللساني أولاً وأما ما يحكى عن ابن عمر وعروة بن الزبير وجماعة رضى الله عنهم من أنهم خرجوا يوم العيد إلى المصلى فجعلوا يذكرون الله تعالى فقال بعضهم أما قال الله تعالى (الذين يذكرون الله قياماً وقيوداً) فقاموا يذكرون الله على أقدامهم فليس مرادهم به تفسير الآية وتحقيق مصداقها على التعيين وإنما أرادوا به التبرك بنوع موافقة لها في ضمن الإتيان بفرد من أفراد مدلولها وأما حمل الذكر على الصلاة في هذه الأحوال حسب الاستطاعة كما قال عليه السلام لعمران بن الحصين صلى قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب توىء إيماء فما لا يساعده سباق التنظيم الجليل ولا سياقه والقيام والقعود جمع قائم وقاعد كقيام ورعود جمع قائم وراقد وانتصابهما على الحالية من ضمير يذكرون أى يذكرونه قائمين وقاعدين وقوله تعالى وعلى جنوبهم متعلق بمحذوف معطوف على الحاليين أى وكانين على جنوبهم أى مضطجعين والمراد تعميم الذكر للأوقات كما مر وتخصيص الأحوال المذكورة بالذكر ليس لتخصيص الذكر بها بل لأنها الأحوال المعهودة التي لا يخلو عنها الإنسان غالباً ﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض﴾ عطف على يذكرون منتظم معه في حيز الصلة فلا محل له من الإعراب وقيل محله النصب على أنه معطوف على الأحوال السابقة وليس بظاهر وهو بيان لتفكيرهم في أفعاله سبحانه إثر بيان تفكيرهم في ذاته تعالى على الإطلاق وأشار إلى نتيجة التي يؤدي إليها من معرفة أحوال المعاد حسبما نطقت به السنة الرسل وآيات الكتب فكما أنها آيات تشريعية هادية للخلق إلى معرفته تعالى ووجوب طاعته كذلك المخلوقات آيات تكوينية مرشدة لهم إلى ذلك فالأولى منبهات لهم على

الثانية ودواع إلى الاستشهاد بها كذه الآية الكريمة ونحوها بما ورد في مواضع غير محصورة من التنزيل والثانية مؤيدات للأولى وشواهد دالة على صحة مضمونها وحقيتها مكمونها فإن من تأمل في تضاعيف خلق العالم على هذا النمط البديع قضى باتصاف خالقه تعالى بجميع ما نطق به الرسل والكتب من الوجوب الذاتي والوحدة الذاتية والملك القاهر والقدرة التامة والعلم الشامل والحكمة البالغة وغير ذلك من صفات السكال وحكم بأن من قدر على إنشائه بلا مثال يحتديه أو قانون ينتحيه فهو على إعادته بالبعث أقدر وحكم بأن ذلك ليس إلا لحكمه باهرة هي جزاء المسكلفين بحسب استحقاقهم المنوط بأعمالهم أي علومهم وأعتقاداتهم التابعة لأنظارهم فيما نصب لهم من الحجج والدلائل والآمارات والمخايل وسائر أعمالهم المتفرعة على ذلك فإن العمل غير مختص بعمل الجوارح بل متناول للعمل القلبي هو أشرف أفراده لما أن لسكل من القلب والقالب عملا خاصا .

ومن قضية كون الأول أشرف من الثاني كون عمله أيضاً أشرف من عمله كيف لا ولا عمل بدون معرفته تعالى التي هي أول الواجبات على العباد والغاية القصوى من الخلق على ما نطق به عز وجل وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون أي ليعرفون كما أعرب عنه قوله عليه الصلاة والسلام يقول الله تعالى كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف وإنما طريقها النظر والتفكير فيما ذكر من شئونه تعالى وقد روى عنه عليه السلام أنه قال لا تفضلوني على يونس بن متى فإنه كان يرفع له كل يوم مثل عمل أهل الأرض قالوا وإنما كان ذلك التفكير في أمر الله تعالى ولذلك قال عليه السلام لاعبادة مثل التفكير وقد عرفت أنه مستتبع لتحقيق ما جاءت به الشريعة الحقة وإلا لما فسر النبي صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليباوكم أيكم أحسن عملاً) بقوله عليه الصلاة والسلام أيكم أحسن عملاً وأورع عن محارم الله تعالى (٤٠ - أبو السعود - أول)

فإن التورع عن محارمه سبحانه موقوف على معرفة الحلال والحرام المنوطة بالكتاب والسنة فيثبت تصادق الآيات التكوينية وتتوافق الأدلة السمعية والعقلية وهو السر في نظم ما حكى عن المتفكرين من الأمور المستدعية للإيمان بالشريعة في سلك نتيجة تفكيرهم كما ستقف عليه وإظهار خلق السموات والأرض مع كفاية الإضمار لإبراز كمال العناية ببيان حالهم والإيدان بكون تفكيرهم على وجه التحقيق والتفصيل وعدم التعرض لإدراج اختلاف الملوين في سلك التفكير مع ذكره فيما سلف إما للإيدان بظهور اندراجه فيه لما أن ذلك من الأحوال التابعة لأحوال السموات والأرض كما أشير إليه وإما للإشعار بمسارعتهم إلى الحكم بالنتيجة بمجرد تفكيرهم في بعض الآيات من غير حاجة إلى بعض آخر منها في إثبات المطلوب والخلق مصدر على حاله أى يتفكرون في إنشائهما وإبداعهما بما فيهما من عجائب المصنوعات وقيل بمعنى المخلوق على أن الإضافة بمعنى فى أى يتفكرون فيما خلق فيهما أعم من أن يكون به طريق الجزئية منهما أو بطريق الحلول فيهما أو على أنها بيازية .

﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلا ﴾ كلمة هذا إشارة إلى السموات والأرض متضمنة لضرب من التعظيم كما فى قوله تعالى (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) والتذكير لما أنهما باعتبار تعلق الخلق بهما فى معنى المخلوق أو إلى الخلق على تقدير كونه بمعنى المخلوق وباطلا إما صفة لمصدر مؤكّد محذوف أو حال من المفعول به أى ما خلقت هذا المخلوق البديع العظيم الشأن عبثا عاريا عن الحكمة خاليا عن المصلحة كما تنبى عنه أوضاع الغافلين عن ذلك المعرضين عن التفكير فيه بل منتظما لحكمة^(١) جليلة ومصالح عظيمة من جعلتها أن يكون مدارا للمعاش العباد ومنارا يرشدهم إلى معرفة أحوال المبدأ والمعاد حسبا أفصححت عنه الرسل والكتب الإلهية كما تحققتة مفصلا والجملة بتامها فى حين النصب بقول مقدر

(١) فى ط : الحكيم .

هو على تقدير كون الموصول نعتاً لأولى الألباب استئناف مبين لنتيجة التفكر ومدلول الآيات ناشيء مما سبق فإن النفس عند سماع تخصيص الآيات المنصوبة في خلق العالم بأولى الألباب ثم وصفهم بذكر الله تعالى والتفكر في محال تلك الآيات تبقى مترقبة لما يظهر منهم من آثارها وأحكامها كأنه قيل فإذا يكون عند تفكيرهم في ذلك وماذا يترتب عليه من النتيجة فقيل كيت وكيت مما ينبغي عن قوفهم على سر الخلق المؤدى إلى معرفة صدق الرسل وحقية الكتب الناطقة بتفاصيل الأحكام الشرعية على التفصيل الذي وقفت عليه هذا وأما جعله حالاً من المستمكن في الفعل كما أطبق عليه الجمهور فما لا يساعده جزالة النظم الكريم لما أن ما في حيز الصلة وما هو قيد له حقه أن يكون من مبادئ الحكم الذي أجرى على الموصول ودواعي ثبوته له كذكرهم الله عز وجل في عامة أوقاتهم وتفكيرهم في خلق السموات والأرض فإنهما مما يؤدي إلى اجتلاء تلك الآيات والاستدلال بها على المطلوب ولا ريب في أن قولهم ذلك ليس من مبادئ الاستدلال المذكور بل من نتائج المترتبة عليه فاعتباره قيداً لما في حيز الصلة مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل نعم هو حال من ذلك على تقدير كون الموصول مرفوعاً أو منصوباً على المدح أو مرفوعاً على أنه خبر لمبتدأ محذوف إذ لا اشتباه في أن قولهم ذلك مبادئ مدحهم ومحاسن مناقبهم وفي إبراز هذا القول في معرض الحال دون الخبر إشعار بمقارنته لتفكيرهم من غير تلغثم وتردد في ذلك.

وقوله تعالى ﴿سبحانك﴾ أي تنزيها لك عما لا يليق بك من الأمور التي من جملتها خلق ما لا حكمة فيه اعتراض مؤكد لمضمون ما قبله وممد لما بعده من قوله تعالى ﴿فقنا عذاب النار﴾ فإن معرفة سر خلق العالم وما فيه من الحكمة البالغة والغاية الحميدة والقيام بما تقتضيه من الأعمال الصالحة وتنزيه الصانع تعالى عن العبث من دواعي الاستعادة مما يحيق بالمنخلين بذلك من وجهين أحدهما الوقوف على تحقق العذاب فالفاء لترتيب الدعاء على ما ذكر والثاني الاستعداد لقبول الدعاء فالفاء لترتيب المدعو أعني الوقاية على ذلك كأنه قيل وإذا قد عرفنا شرك وأطعنا أمرك ونزهناك عما لا ينبغي فقنا عذاب النار الذي

هو جزاء الذين لا يعرفونك ^(١) ﴿ ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته ﴾ مبالغة في استدعاء الوقاية وبيان لسببه وتصدير الجملة بالنداء للمبالغة في التضرع والجوار وتأكيدها لإظهار كمال اليقين، مضمونها والإيدان بشدة الخوف وإظهار النار في موضع الإضمار لتحويل أمرها وذكر الإدخال في مورد العذاب لتعيين كيفيةه وتبيين غاية فظاعته . قال الواحدى للإخزاء معان متقاربة يقال أخزاه الله أى أبعدوه وقيل أهانوه وقيل أهلكه وقيل فضحه . قال ابن الأنبارى الخزى لغة الهلاك بتلف أو بانقطاع حجة أو بوقوع في بلاء والمعنى فقد أخزيتته خزيا لا غاية وراه كقولهم من أدرك مرعى الصمان فقد أدرك أى المرعى الذى لا مرعى بعده وفيه من الإشعار بفضاعة العذاب الروحانى ما لا يخفى .

وقوله تعالى ﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ تذييل لإظهار نهاية فظاعة حالهم ببيان خلود عذابهم بفقدان من ينصرهم ويقوم بتخليصهم وغرضهم تأكيد الاستدعاء ووضع الظالمين موضع ضمير المدخلين لزمهم والإشعار بتعليل دخولهم النار بظلمهم ووضعهم الأشياء في غير مواضعها وجمع الأنصار بالنظر إلى جمع الظالمين أى ما لظالم من الظالمين نصير من الأنصار والمراد به من ينصر بالمدافعة والقهر فليس في الآية دلالة على نفي الشفاعة على أن المراد بالظالمين هم الكفار .

﴿ ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان ﴾ حكاية لدعاء آخر لهم مبنى على تأملهم في الدليل السمعى بعد حكاية دعائهم السابق المبني على التفكير في الأدلة العقلية وتصدير مقدمة الدعاء بالنداء لإظهار كمال الضراعة والابتهال والتأكيد للإيدان بصدور المقال عنهم بوفور الرغبة وكمال النشاط والمراد بالنداء الدعاء وتعديتهما بالى لتضمنهما معنى الإنهاء وباللام لاشتمالها على معنى التخصيص ^(٢) والمراد بالمتنادى الرسول صلى الله عليه وسلم وتنوينه ^(٣) للتفخيم وإيثاره على

(١) في ط : لا يعرفون ذلك .

(٢) في ط : الاحتصاص .

(٣) في ط : وتنويه .

الداعى للدلالة على كمال اعتنائه بشأن الدعوة وتبليغها إلى الدانى والقاصى لما فيه من الإيذان برفع الصوت وينادى صفة لمناديا عند الجمهور كما فى قولك سمعت رجلا يقول كيت وكيت ولو كان معرفة لكان حالاً منه كما إذا قلت سمعت زيدا يقول الخ ومفعول ثان لسمعنا عند الفارسى وأتباعه وهذا أسلوب يديع يصار إليه للمبالغة فى تحقيق السماع والإيذان بوقوعه بلا واسطة عند صدور المسموع عن المتكلم وللتوسل إلى تفصيله واستحضار صورته وقد اختص النظم الكريم بمزية زائدة على ذلك حيث عبر عن المسموع منه بالمنادى ثم وصف بالنداء للإيمان على طريقة قولك سمعت متكلماً يتكلم بالحكمة لما أن التفسير بعد الإبهام والتقييد بعد الإطلاق أوقع عند النفس وأجدر بالقبول وقيل المنادى القرآن العظيم ﴿ أن آمنوا ﴾ على أن دان، تفسيرية أو بأن آمنوا على أنها مصدرية ﴿ بربكم ﴾ بما السلككم ومتولى أموركم ومبلغكم إلى السكال وفى إطلاق الإيمان ثم تقييده تفضيماً لشأنه .

﴿ فآمننا ﴾ أى فأمثلنا بأمره وأجبنا نداءه ﴿ ربنا ﴾ تكرر للنضوع وإظهار كمال الخضوع وعرض للاعتراف بربوبيته مع الإيمان به والفاء فى قوله تعالى : ﴿ فاغفر لنا ﴾ الفاء لترتيب المغفرة أو الدعاء بها على الإيمان به تعالى والإقرار بربوبيته فإن ذلك من دواعى المغفرة والدعاء بها ﴿ ذنوبنا ﴾ أى كبائرنا فإن الإيمان يجب ما قبله ﴿ وكفر عنا سيئاتنا ﴾ أى صغائرنا فإنها مكفرة عن اجتناب^(١) الكبائر ﴿ وتوفنا مع الأبرار ﴾ أى مخصوصين بصحبتهم مغتتمين لجوارهم معدودين من زميرتهم وفيه إشعار بأنهم كانوا يحبون لقاء الله ومن أحب لقاء الله أحب لقاءه والأبرار جمع بار أو بر كأصحاب وأرباب ﴿ ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ﴾ حكاية لدعاء آخر لهم مسبوق بما قبله معطوف عليه لتأخر التحلية عن التخلية وتكرير النداء لما مر مكرراً والمراد بالموعود الثواب وعلى لما متعلقة بالوعد كما فى قولك

(١) فى ط : ومجتنب .

وعد الله الجنة على الطاعة أى وعدتنا على تصديق رسلك أو بمحذوف وقع صفة لمصدر مؤكد محذوف أى وعدتنا وعدا كأننا على السنة رسلك وقيل التقدير منزلا على رسلك أو محولا على رسلك ولا يخفى أن تقدير الأفعال الخاصة فى مثل هذه المواقع تعسف وجمع الرسل مع أن المنادى هو الرسول صلى الله عليه وسلم وحده لما أن دعوته عليه السلام لا سيما فى باب التوحيد وما أجمع عليه الكل من الشرائع منطوية على دعوة الكل فتصديقه تصديق لهم عليهم السلام كيف لا وقد أخذ منهم الميثاق بالإيمان به عليه السلام لقوله تعالى (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب) الآية وكذا الموعود على لسانه من الثواب موعود على السنة الكل وإيثار الجمع لإظهار كمال الثقة بإنجاز الموجود بناء على كثرة الشهود .

(ولا تخزنا يوم القيامة) قصدوا بذلك تذكير وعده تعالى بقوله (يوم لا يخزى الله النبي والذين آمنوا معه) مظهرين أنهم ممن أمن معه رجاء للانتظام فى سلكهم يومئذ وقوله تعالى (إنك لا تخلف الميعاد) تعليل لتحقيق ما نظموا فى سلك الدعاء وهذه الدعوات وما فى تضاعيفها كمال الضراعة والابتهاال ليست لخوفهم من إخلاف الميعاد بل لخوفهم من ألا يكونوا من جملة الموجودين بتغير الحال وسوء الخاتمة والمسأل فرجعها إلى الدعاء بالتثبيت أو للمبالغة فى التعمد والخشوع والميعاد الوعد وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه البعث بعد الموت وفى الآثار عن جعفر الصادق من حزنه أمر فقال ربنا خمس مرات أنجاه الله مما يخاف وأعطاه ما أراد وقرأ هذه الآية .

(فاستجاب لهم ربهم) الاستجابة بمعنى الإجابة وقال تاج القراء الإجابة عامة والاستجابة خاصة بأعطاء المستول وتتعدى باللام وينفسها كما فى قوله :

• فلم يستجبه عند ذلك مجيب • وهو عطف على الاستئناف المقدر فيما سلف مترتب على ما فى حيزه من الأدعية كما أن قوله عز وجل (ثم قيل للذين ظلموا) الخ عطف على قيل المقدر قبل الآن أى قيل لهم الآن آمنتم به ثم قيل الآية وكما أن قوله تعالى فى سورة الأعراف (ونطبع على قلوبهم) معطوف

على ما دل عليه معنى أو لم يهد لهم الخ كأنه قيل يغفلون عن الهداية ونطبع الخ ولا ضير في اختلافهما صيغة لما أن صيغة المستقبل هناك للدلالة على الاستمرار المناسب لمقام الدعاء وصيغة الماضي ههنا للإيذان بتحقيق الاستجابة وتقررهما كما لا ضير في الاختلاف بين قوله تعالى (إذ تستغيثون ربكم) وبين ما عطف عليه من قوله تعالى (فاستجاب لكم) كما سيأتي ويجوز أن يكون معطوفا على مضمحل ينساق إليه الذهن أى دعوا بهذه الأدعية فاستجاب الخ وأما على تقدير كون المقدر حالا فهو عطف على يتفكرون باعتبار مقارنته لما وقع حالا من فاعله أعنى قوله تعالى ربنا ربنا الخ فإن الاستجابة مترتبة على دعواتهم لا على مجرد تفكيرهم وحيث كانت هى من أوصافهم الجميلة المترتبة على أعمالهم بالآخرة استحققت الانتظام فى سلك محاسنهم المعدودة فى أثناء مدحهم وأما على تقدير كون الموصول نعتا لأولى الأبواب فلا مساغ لهذا العطف أصلا لما عرفت من أن حق ما فى حيز الصلة أن يكون من مبادئ جريان الحكم على الموصول وقد عرفت أن دعواتهم السابقة ليست كذلك فأين الاستجابة المتأخرة عنها وفى التعرض لعنوان الربوبية المنتبئة عن التبليغ إلى السكال مع الإضافة إلى ضميرهم من تشر يفهم وإظهار اللطف بهم ما لا يخفى .

﴿ أنى لا أضيع عمل عامل منكم ﴾ أى بآنى وهكذا قرأ أنى رضى الله عنه والباء للسببية كأنه قيل فاستجاب لهم ربهم بسبب أنه لا يضيع عمل عامل منهم أى سنته السنية مستمرة على ذلك والالتفات إلى التكلم والخطاب لإظهار كمال الاعتناء بشأن الاستجابة وتشر يف الداعين بشرف الخطات والمراد تأكيدها ببيان سببها والإشعار بأن مدارها أعمالهم التى قدموها على الدعاء لا مجرد الدعاء وتعميم الوعد لسائر العاملين وإن لم يبلغوا درجة أولى الأبواب لتأكيد استجابة الدعوات المذكورة والتعبير عن ترك الإثابة بالإضاعة مع أنه ليس بإضاعة حقيقة إذ الأعمال غير موجبة للثواب حتى يلزم من تخلفه عنها ضياعها لبيان كمال زاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه من القبائح وإبراز الإثابة فى معرض الأمور الواجبة عليه وقرىء بكسر الهمزة على إرادة

القول أى قائلاً إني الخ فلا للتفات حينئذ وقرىء لا أضيع بالتشديد ومن متعلقة بمحذوف وقع صفه لعامل أى عامل كائن منكم وقوله تعالى ﴿ من ذكر أو أنثى ﴾ بيان لعامل وتأكيده لعمومه وقوله تعالى ﴿ بعضكم من بعض ﴾ جملة معترضة مبيّنة لسبب انتظام النساء في سلك الرجال في الوعد فإن كون كل منهما من الآخر لتشعبهما من أصل واحد أو لفرط الإتصال بينهما أو لاتفاقهما في الدين والعمل بما^(١) يستدعى الشركة والاتحاد في ذلك . روى أن أم سلمة رضی الله عنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم إني أسمع الله تعالى يذكر الرجال في الهجرة ولا يذكر النساء فنزلت وقوله تعالى ﴿ فالذين هاجروا ﴾ ضرب تفصيل لما أجمل في العمل وتعداد لبعض أحاسن أفراده على وجه المدح والتعظيم أى فالذين هجروا^(٢) الشرك أو الأوطان والعشائر للدين وقوله تعالى .

﴿ وأخرجوا من ديارهم ﴾ على الأول عبارة عن نفس الهجرة وعلى الثانى عن كيفيةها وكونها بالقسر والاضطرار ﴿ وأوذوا في سبيلى ﴾ أى بسبب الله ومن أجله وهو متناول لكل أذية نالتهم من قبل المشركين ﴿ وقاتلوا ﴾ أى الكفار في سبيل الله تعالى ﴿ وقتلوا ﴾ استشهدوا في القتال وقرىء بالعكس لما أن الواو لا تستدعى الترتيب أو لأن المراد قتل بعضهم وقتال آخرين إذ ليس المعنى على اتصاف كل فرد من أفراد الموصول المذكور بكل واحد مما ذكر في حين الصلة بل على اتصاف الكل بالكل في الجملة سواء كان ذلك باتصاف كل فرد من الموصول بواحد من الأوصاف المذكورة أو باثنين منها أو بأكثر إما بطريق التوزيع أو بطريق حذف بعض الموصولات من البين كما هو رأى الكوفيين كيف لا ولو أدير الحكم على اتصاف كل فرد بالكل لكان قد أضيع عمل من اتصف بالبعض وقرىء وقتلوا بالتشديد .

﴿ لا كفرن عنهم سيئاتهم ﴾ جواب قسم محذوف أى والله لا كفرن والجملة القسمية خبر للبتداء الذى هو الموصول وهذا تصريح بوعد ما سأل

(١) في ط : بما .

(٢) في ط : هاجروا .

الداعون بخصوصه بعد ما وعد ذلك عموماً وقوله تعالى ﴿ ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ إشارة إلى ما عبر عنه الداعون فيما قبل بقولهم وآتنا ما وعدتنا على رسلك وتفسير له ﴿ ثواباً ﴾ مصدر مؤكد لما قبله فإن تكفير السيئات وإدخال الجنة في معنى الإثابة وقوله تعالى ﴿ من عند الله ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة له مبينة لشرفه أى لأثابهم إثابة كائنة أو توثياً كائناً من عنده تعالى بالغاً إلى المرتبة العالية^(١) من الشرف وقوله تعالى ﴿ والله عنده حسن الثواب ﴾ اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله والاسم الجليل مبتدأ خبره عنده وحسن الثواب مرتفع بالظرف على الفاعلية لاعتماده على المبتدأ أو هو مبتدأ ثان والظرف خبره والجملة خبر للمبتدأ الأول والعندية عبارة عن الاختصاص به تعالى مثل كونه بقدرته تعالى وفضله بحيث لا يقدر عليه غيره بحال شيء يكون بحضرة أحد لا يد عليه لغيره فالاختصاص مستفاد من التمثيل سواء جعل عنده خبراً مقدماً لحسن الثواب أولاً وفي تصدير الوعد الكريم بعدم إضاعة العمل ثم تعقيبه بمثل هذا الإحسان الذي لا يقدر^(٢) قدره من لطف المسلك النبوي عن عظم شأن المحسن ما لا يخفى .

﴿ لا يفرنك تقلب الذين كفروا في البلاد ﴾ بيان لقبح ما أوتى الكفرة من حظوظ الدنيا وكشف عن حقارة شأنها وسوء مغبتها إثر بيان حسن ما أوتى المؤمنون من الثواب والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم على أن المراد تثبيته على ما هو عليه كقوله تعالى (فلا تطع المكذبين) أو على أن المراد نهى المؤمنين كما يوجه الخطاب إلى مداره القوم ورؤسائهم والمراد أفناؤهم^(٣) ولكل أحد ممن يصلح للخطاب من المؤمنين والنهي للمخاطب وإنما جعل للتقلب مبالغة أى لا تنظر إلى ما عليه الكفرة من السعة ووفور الحظ ولا تغتر بظاهر ما ترى منهم من التبسط في المكاسب والمتاجر والمزارع . روى أن بعض المؤمنين كانوا يرون المشركين

(١) في ط : القاصية .

(٢) في ط : لا يقادر .

(٣) في ١١ : عاتتهم وهما بمعنى .

في رخاء ولين عيش فيقولون إن أعداء الله تعالى فيما نرى من الخير وقد هلكنا من الجوع والجهد فنزلت وقرىء لا يغررك بالنون الخفيفة ﴿متاع قليل﴾ خبر لمبتدأ محذوف أى هو متاع قليل لا قدر له في جنب ما ذكر من ثواب الله تعالى قال عليه السلام ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في ليم فليستظر بم يرجع فإذا لا يجدى وجوده لو اجديه ولا يضر فقدا نه لفاقديه ﴿ثم ما أوامم﴾ أى مصيرهم الذى يأوون إليه لا يبرحونه ﴿جهنم﴾ التى لا يوصف عذابها وقوله تعالى .

﴿وبئس المهاد﴾ ذم لها وإيدان بأن مصيرهم إليها بما جنته أنفسهم وكسبته أيديهم والمخصوص بالذم محذوف أى بئس ما مهدوا لأنفسهم جهنم ﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ بيان لسكّال حسن حال المؤمنين غب بيان وتكرير له لإثر تقرير مع زيادة خلودهم في الجنات ليتم بذلك سرورهم ويزداد تبجحهم ويتكامل به سوء حال الكفرة وإيراد التقوى في حيز الصلة للإشعار بكون الخصال المذكورة من باب التقوى والمراد به الإلتقاء من الشرك والمعاصى فالموصول مبتدأ والظرف خبره وجنات مرتفع به على الفاعليه لاعتماده على المبتدأ أو الظرف خبر الجنات والجملة خبر للموصول وخالدين فيها أى فى الجنات حال مقدره من الضمير أو من جنات لتخصصها بالوصف والعامل ما فى الظرف من معنى الاستقرار ﴿نزلا من عند الله﴾ وقرىء بسكون الزاى وهو ما يعد للنازل من طعام وشراب وغيرهما قال أبو الشعر الضبي :

وكنا إذا الجبار بالجيش ضافنا جعلنا القنا والمرهفات له نزلا
واتتصابه على الحالية من جنات لتخصصها بالوصف والعامل فيه ما فى
الظرف من معنى الاستقرار وقيل هو مصدر مؤكد كأنه قيل رزقا أو عطاء من
عند الله ﴿وما عند الله خير﴾ مبتدأ وخبر وقوله تعالى ﴿للأبرار﴾ متعلق
بمحذوف هو صفة خير أى ما عنده تعالى من الأمور المذكورة الدائمة خير
كأن للأبرار أى مما يتقلب فيه الفجار من المتاع القليل الزائل والتعبير عنهم

بالأبرار للإشعار بأن الصفات المعدودة من أعمال البر كما أنها من قبيل التقوى والجملة تذييل لما قبلها .

﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله ﴾ جملة مستأنفة سيقت لبيان أن أهل الكتاب ليس كلهم كمن حكيت همتهم من نبد الميثاق وتحريف الكتاب وغير ذلك بل منهم من له مناقب جليلة . قيل هم عبد الله بن سلام وأصحابه وقيل هم أربعون من أهل نجران واثنتان وثلاثون من الحبشة وثمانية من الروم كانوا نصارى فأسلموا وقيل المراد به أصحاب النجاشي فإنه لما مات نعاه جبريل إلى النبي عليه السلام فقال عليه السلام أخرجوا فصلوا على أخ لسكم مات بغير أرضكم فخرج إلى البقيع فنظر إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشي وصلّى عليه واستغفر له فقال المنافقون أنظروا إلى هذا يصلى على علق نصراني لم يره قط وليس على دينه فنزلت وإنما دخلت لام الابتداء على اسم إن لفصل الظرف بينهما كما في قوله تعالى ﴿ وإن منكم لمن ليبطئن ﴾ .

﴿ وما أنزل إليكم ﴾ من القرآن ﴿ وما أنزل إليهم ﴾ من الكتابين وتأخير إيمانهم بهما عن إيمانهم بالقرآن في الذكر مع أن الأمر بالعكس في الوجود لما أنه عيار ومبين عليهما فإن إيمانهم بهما إنما يعتبر بتبعية إيمانهم به إذ لا عبرة بأحكامهما المنسوخة وما لم ينسخ منها إنما يعتبر من حيث ثبوته بالقرآن ولتعلق ما بعده بهما والمراد بإيمانهم بهما إيمانهم بهما من غير تحريف ولا كتم كما هو دين المحرفين وأتباعهم من العامة ﴿ عاشعين لله ﴾ حال من فاعل يؤمن والجمع باعتبار المعنى ﴿ لا يشتركون بآيات الله ثمنا قليلا ﴾ تصريح بمخالفتهم للمحرفين والجملة حال كما قبله ونظمها في سلك محاسنهم ليس من حيث عدم الاشتراء فقط بل لتضمن ذلك لإظهار ما في الكتابين من شواهد نبوته عليه السلام ﴿ أولئك ﴾ إشارة إليهم من حيث اتصافهم بما عد من صفاتهم الحميدة وما فيه من معنى البعد للدلالة على رتبتهم وبعد منزلتهم في الشرف والفضيلة وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ لهم ﴾ وقوله ﴿ أجرهم ﴾ أي المختص بهم الموعود لهم بقوله تعالى ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين ﴾ وقوله تعالى ﴿ يؤتكم كفلين من رحمته ﴾

مرتفع بالظرف على الفاعلية أو على الإبتداء والظرف خبره والجملة خبر لأولئك وقوله تعالى ﴿ عند ربهم ﴾ نصب على الحالية من أجرهم والمراد به التشريف كالصفة .

﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ لنفوذ علمه بجميع الأشياء فهو عالم بما يستحقه كل عامل من الأجر من غير حاجة إلى تأمل والمراد بيان سرعة وصول الأجر الموعود إليهم ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ إثر ما بين في تضاعيف السورة الكريمة فنون الحكم والأحكام ختمت بما يوجب المحافظة عليها فقول ﴿ اصبروا ﴾ أى على مشاق الطاعات وغير ذلك من المكارم والشدائد ﴿ وصابروا ﴾ أى غالبوا أعداء الله تعالى بالصبر فى مواطن الحروب وأعدى عدوكم بالصبر على مخالفة الهوى وتخصيص المصابرة بالأمر بعد الأمر بمطلق الصبر لكونها أشد منه وأشق ﴿ ورابطوا ﴾ أى أقيموا فى الشغور رابطين خيلكم فيها مترصدين للغزو مستعدين له قال تعالى (ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) وعن النبي صلى الله عليه وسلم من رباط يوماً وليلة فى سبيل الله كان كعدل صيام شهر رمضان وقيامه لا يفطرو ولا يفتل عن صلواته إلى الحاجة ﴿ واتقوا الله ﴾ فى مخالفة أمره على الإطلاق فيندرج فيه ما ذكر فى تضاعيف السورة الكريمة إندرجا أولياً ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ كى تنتظموا فى زمرة المفلحين الفائزين بكل مطلوب الناجين من كل الكروب ، عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة آل عمران أعطى بكل آية منها أماناً على جسدهم . وعنه صلى الله عليه وسلم من قرأ السورة التى يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه وملائكته حتى تحجب الشمس والله أعلم .

سورة النساء ، مدنية ، وهي مائة وخمس وسبعون آية

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ يا أيها الناس ﴾ خطاب يعم حكمه جميع المكلفين عند النزول ومن سينتظم في سلكهم من الموجودين حينئذ والحادثين بعد ذلك إلى يوم القيامة عند انتظامهم فيه لكن لا بطريق الحقيقة فإن خطاب المشافهة لا يتناول القاصرين عن درجة التكليف إلا عند الحنابلة بل إما بطريق تغليب الفريق الأول على الآخرين وإما بطريق تعميم حكمه لهما بدليل خارجي فإن الإجماع منعقد على أن آخر الأمة مكلف بما كلف به أولها كما ينبي عنه قوله عليه السلام الحلال ما جرى على لساني إلى يوم القيامة والحرام ما جرى على لساني إلى يوم القيامة وقد فصل في موضعه وأما الأمم الدارجة قبل النزول فلاحظ لهم في الخطاب لاختصاص الأوامر والنواهي بمن يتصور منه الامتثال وأما اندراجهم في خطاب ما عداهما بما له دخل في تأكيد التكليف وتقوية الإيجاب فستعرف حاله ولفظ الناس ينتظم الذكور والإناث حقيقة وأما صيغة جمع المذكر في قوله تعالى ﴿ اتقوا ربكم ﴾ فواردة على طريقة التغليب لعدم تناولها حقيقة للإناث عند غير الحنابلة وأما إدخالهن في الأمر بالتقوى بما ذكر من الدليل الخارجي. وإن كان فيه مراعاة جانب الصيغة لكنه يستدعي تخصيص لفظ الناس ببعض أفراده والمأمور به إما مطلق التقوى التي هي التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك وإما التقوى فيما يتعلق بحقوق أبناء الجنس أي اتقوه في مخالفة أوامره ونواهيها على الإطلاق أو في مخالفة تكاليفه الوارة ههنا وأياً ما كان فالتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية والتربية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لتأييد الأمر وتأكيد الإيجاب الامتثال به على طريقة الترغيب والترهيب وكذا وصف الرب بقوله تعالى .

﴿ الذى خلقكم من نفس واحدة ﴾ فإن خلقه تعالى لإياهم على هذا النمط البديع لإنبائه عن قدرة شاملة لجميع المقدورات التي من جملتها عقابهم على معاصيهم وعن نعمة كاملة لأقدارها من أقوى الدواعي إلى الاتقاء من موجبات

نعمته وأتم الزواج عن كفران نعمته وكذا جعله تعالى إياهم صنوانا مفرعة من أرومة واحدة هي نفس آدم عليه السلام من موجبات الاحتراز عن الإخلال بمراعاة ما بينهم من حقوق الأخوة وتعميم الخطاب في ربكم وخلقكم لكم للامم السالفة أيضا مع اختصاصه فيما قبل بالمأمورين بناء على أن تذكير شمول ربوبيته تعالى وخلقته للكل من مؤكدات الأمر بالتقوى وموجبات الامتثال به تفكيك للنظم الكريم مع الاستغناء عنه لأن خلقه تعالى للمأمورين من نفس آدم عليه السلام حيث كان بواسطة ما بينهم وبينه عليه السلام من الآباء والأمهات كان التعرض لخلقهم متضمنا للتعرض لخلق الوسايط جميعا وكذا التعرض لربوبيته تعالى لهم متضمن للتعرض لربوبيته تعالى لأصولهم قاطبة لا سيما وقد نطق بذلك قوله عز وجل ﴿ وخلق منها زوجها ﴾ فإنه مع ما عطف عليه صريح في ذلك وهو معطوف إما على مقدر ينبي عنه سوق الكلام لأن تفرغ الفروع من أصل واحد يستدعي لإنشاء ذلك الأصل لا محالة كأنه قيل خلقكم من نفس واحدة خلقها أولا وخلق منها زوجها الخ وهو استئناف مسوق لتقرير وحدة المبدأ وبيان كيفية خلقهم منه وتفصيل ما أجمل أولا أو صفة لنفس مفيدة لذلك وإما على خلقكم داخل معه في حيز الصلاة مقرر ومبين لما ذكر وإعادة الفعل مع جواز عطف مفعوله على مفعول الفعل الأول كما في قوله تعالى يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم الخ لإظهار ما بين الخلقين من التفاوت فإن الأول بطريق التفرغ من الأصل والثاني بطريق الإنشاء من المادة فإنه تعالى خلق حواء من ضلع آدم عليه السلام . روى أنه عز وجل لما خلقه عليه السلام وأسكنه الجنة ألقى عليه النوم فبينما هو بين النائم واليقظان خلق حواء من ضلع من أضلاعه اليسرى فلما انتبه وجدها عنده وتأخير ذكر خلقها عن ذكر خلقهم لما أن تذكير خلقهم أدخل في تحقيق ما هو المقصود من حملهم على الامتثال بالأمر بالتقوى من تذكير خلقها وتقديم الجار والمجرور للاعتناء ببيان مبدئيه عليه السلام لها مع ما فيه من التشويق إلى المؤخر كما مر مرارا وإيرادها بعنوان الزوجية تمهيد لما بعده من التناسل .

﴿ وبت منهما ﴾ أى نشر من تلك النفس وزوجها المخلوقة منها بطريق التوالد والتناسل ﴿ رجالا كثيرا ﴾ نعت لرجالا مؤكدا لما أفاده التنكير من الكثرة والإفراد باعتبار معنى الجمع أو العدد وقيل هو نعت لمصدر مؤكدا للفعل أى بئأ كثيرا ﴿ ونساء ﴾ أى كثيرة وترك التصريح بها للاكتفاء بالوصف المذكور وإبشارهما على ذكورا وإناثا لتأكيد الكثرة والمبالغة فيها بترشيح كل فرد من الأفراد المبثوثة لمبدئية غيره وقرىء وخالق وبات على حذف المبتدأ أى وهو خالق وبات ﴿ واتقوا الله الذى تساءلون به ﴾ تكرر للأمر وتذكير ببعض (١) آخر من موجبات الامتثال به فإن سؤال بعضهم بعضا بالله تعالى بأن يقولوا أسألك بالله وأنشدك الله على سبيل الاستعطاف يقتضى الاتقاء من مخالفة أوامره ونواهيه وتعليق الاتقاء بالاسم الجليل لمزيد التأكيد والمبالغة فى الحمل على الامتثال بتربية المهابة وإدخال الروعة ولوقوع التساؤل به لا بغيره من أسمائه تعالى وصفاته وتساءلون أصله تتساءلون فطرحت إحدى التامين تخفيفا وقرىء بإدغام تاء التفاعل فى السين لتقاربهما فى الهمس وقرىء تسألون من الثلاثى أى تسألون به غيركم وقد فسر به القراءة الأولى والثانية وحمل صيغة التفاعل على اعتبار الجمع كما فى قولك رأيت الهلال وتراه به وبه فسر عم يتساءلون على وجه وقرىء تسألون بنقل حركة الهمزة إلى السين .

﴿ والأرحام ﴾ بالنصب عطفا على محل الجار والمجرور كقولك مررت بزيد وعمرا وينصره قراءة تساءلون به وبالأرحام فإنهم كانوا يقرنونها فى السؤال والمناشدة بالله عز وجل ويقولون أسألك بالله وبالرحم أو عطفا على الاسم الجليل أى اتقوا الله والأرحام وصلوها ولا تقطعوها فإن قطيعتها مما يجب أن يتقى وهو قول مجاهد وقتادة والسدى والضحاك والفراء والزجاج وقد جوز الواحدى نصبه على لإغراء أى والزمو الأرحام وصلوها وقرىء بالجر عطفا على الضمير المجرور وبالرفع على أنه مبتدأ محذوف الخبر تقديره والأرحام

(١) فى ط : لبعض .

كذلك أى مما يتقى أو يتساءل به وقد نبه سبحانه وتعالى حيث قرنها باسمه الجليل على أن صلتها بمكان منه كما فى قوله تعالى (أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) وعنه عليه السلام الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلنى وصله الله ومن قطعنى قطعه الله ﴿إن الله كان عليكم رقيباً﴾ أى مراقباً وهى صيغة من رقب يرقب رقبا ورقوبا ورقبانا إذا أحد النظر لأمر يريد تحقيقه أى حافظاً مطلعاً على جميع ما يصدر عنك من الأفعال والأقوال وعلى ما فى ضمائرهم من النيات مریداً لمجازاتهم بذلك وهو تعليل للأمر ووجوب الامتثال به وإظهار الاسم الجليل لتأكيده وتقديم الجار والمجرور لرعاية الفواصل ،

﴿وآتوا اليتامى أموالهم﴾ شروع فى تفصيل موارد الاتقاء ومظانه بتكليف ما يقابلها أمراً ونهياً عقيب الأمر بنفسه مرة بعد أخرى وتقديم ما يتعلق باليتامى لإظهار كمال العناية بأمرهم وملابستهم بالأرحام إذ الخطاب للأولياء والأوصياء وقلها تفوض الوصاية إلى الأجانب واليتيم من مات أبوه من اليتيم وهو الانفراد ومنه الدرّة اليتيمة وجمعه على يتامى إما أنه لما جرى مجرى الأسماء جمع على يتامى ثم قلب فقيل يتامى أو لأنه لما كان من وادى الآفات جمع على يتامى ثم جمع يتامى على يتامى والاشتقاق يقتضى صحة إطلاقه على الكبار أيضاً واختصاصه بالصغار مبنى على العرف وأما قوله عليه السلام لا يتم بعد الحلم فتعليم للشريعة لا تعيين لمعنى اللفظ أى لا يجرى على اليتيم بعده حكم الأيتام والمراد بإيتاء أموالهم قطع المخاطبين أطماعهم الفارغة عنها وكف أكفهم الخاطفة عن اختزالها وتركها على حالها غير متعرض لها بسوء حتى تأتيمهم وتصل إليهم سالمة كما ينبى عنه ما بعده عن النهى عن التبديل والأكل لا الإعطاء بالفعل فإنه مشروط بالبلوغ وإيتاس الرشد على ما ينطق به قوله تعالى (حتى إذا بلغوا) الآية وإنما عبر عما ذكر بالإيتاء مجازاً للإيدان بأنه ينبغى أن يكون مرادهم بذلك إيصالاً إليهم لا مجرد ترك التعرض لها فالمراد بهم إما الصغار على ما هو المتبادر والأمر خاص بمن يتولى أمرهم من الأولياء والأوصياء وشمول حكمه لأولياء من كان بالغاً عند نزول الآية بطريق الدلالة دون العبارة وأما من جرى عليه

اليتيم في الجملة مجازا أعم من أن يكون كذلك عند النزول أو بالغيا فالأمر شامل لأولياء الفريقين صيغة موجبة عليهم ما ذكر من حفظ أموالهم والتحفظ عن إضاعتها مطلقا وأما وجوب الدفع إلى الكبار فاستفاد مما سيأتي من الأمر به وقيل المراد بهم الصغار والإيتاء الإعطاء في الزمان المستقبل وقيل أطلق اسمهم على الكبار بطريق الاتساع لقرب عهدهم باليتيم حثا لأولياء على المسارعة إلى دفع أموالهم إليهم أول ما بلغوا قبل أن يزول عنهم اسمهم المعهود للإيتاء بمعنى الإعطاء بالفعل ويأباهما ما سيأتي من قوله تعالى (وابتلوا اليتامى) الخ فإن ما فيه من الأمر بالدفع وارد على وجه التكليف الابتدائي لا على وجه تعيين وقته أو بيان شرطه فقط كما هو مقتضى القوانين وأما تعميم الاسم للصغار والكبار مجازا بطريق التغليب مع تعميم الإيتاء للإيتاء حالا والإيتاء مآلا وتعميم الخطاب لأولياء كلا الفريقين على أن من بلغ منهم فوليه مأمور بالدفع إليه بالفعل وأن من لم يبلغ بعد فوليه مأمور بالدفع إليه عند بلوغه الرشد فع ما سبق تكلف لا يخفى فالأنسب ما تقدم من حمل إيتاء أموالهم إليهم على ما يؤدي إليه من ترك التعرض لها بسوء كما يلوح من التعبير عن الإعطاء بالفعل بالدفع سواء أريد باليتامى الصغار أو ما يعم الصغار والكبار حسبا ذكر آنفا وأما ما روى من أن رجلا من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له فلما بلغ طلب منه ماله فمنعه فنزلت فلما سمعها قال أظعننا الله وأظعننا الرسول نعوذ بالله من الحوب الكبير فغير قادح في ذلك لما أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب (ولا تبدلوا الخبيث بالطيب) نهى عن أخذ مال اليتيم على الوجه المخصوص بعد النهى الضمني عن أخذه على الإطلاق وتبدل الشيء بالشيء واستبداله به أخذ الأول بدل الثاني بعد أن كان حاصلا له أو في شرف الحصول يستعملان أبدا بإفصائهما إلى الحاصل بأنفسهما وإلى الزائل بالياء كما في قوله تعالى (ومن يتبدل الكافر بالإيمان) الخ وقوله تعالى (أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير) وأما التبديل فيستعمل تارة كذلك كما في قوله تعالى (وبدلناهم بجناتهم جنتين) الخ وأخرى بالعكس كما في قولك بدأت الحلقة بالختام إذا أذبتها وجعلتها خانما (٤١ - أبو السعود - أول)

نص عليه الأزهرى وتارة أخرى بإفضائه إلى مفعوليه بنفسه كما في قوله تعالى (يبدل الله سيئاتهم حسنات) والمراد بالخبيث والطيب إن كان هو الحرام والحلال فالمنهى عنه استبدال مال اليتيم بمال أنفسهم مطلقا كما قاله الفراء والزجاج وقيل معناه لا تذروا أموالكم الحلال وتأكلوا الحرام من أموالهم فالمنهى عنه أكل ماله مكان ما لهم المحقق أو المقدر وقيل هو اختزال ماله مكان حفظه وأياما كان فإنما عبر عنهما بهما تنفيرا عما أخذوه وترغيبا فيما أعطوه وتصويرا لمعاملتهم بصورة ما لا يصدر عن العاقل وإن كان هو الرديء والجيد فمورد النهى ما كانوا عليه من أخذ الجيد من مال اليتيم وإعطاء الرديء من مال أنفسهم وبه قال سعيد ابن المسيب والنخعي والأزهري والسدي وتخصيص هذه المعاملة بالنهى لخروجها مخرج العادة لا لإباحة ما عداها وأما التعبير عنها بتبدل الخبيث بالطيب مع أنها تبديله به أو تبدل الطيب بالخبيث فللايزان بأن الأولياء حقهم أن يكونوا في المعاملات عاملين لليتيم لا لأنفسهم مراعين لجانبه قاصدين لجلب المحلوب إليه مشترى كان أو ثمنا لا لسلب المساوب عنه ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾ نهى عن منكر آخر كانوا يتعاطونه أى لا تأكلوها مضهومة إلى أموالكم ولا تسووا بينهما وهذا حلال وذاك حرام وقد خص من ذلك مقدار أجر المثل عند كون الولي فقيرا ﴿إنه﴾ أى الأكل المفهوم من النهى ﴿كان حوبا﴾ أى ذنبا عظيما وقرىء بفتح الحاء وهو مصدر حاب حوبا وقرىء حابا وهو أيضا مصدر كقال قولا وقالوا ﴿كبيرا﴾ مبالغة في بيان عظم ذنب الأكل المذكور كأنه قيل من كبار الذنوب العظيمة لا من أفئتها ﴿وإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى﴾ الإقساط العدل وقرىء بفتح التاء فقييل هو من قسط أى جار ولا مزيدة كما في قوله تعالى ﴿لئلا يعلم﴾ وقيل هو بمعنى أقسط فإن الزجاج حكى أن قسط يستعمل استعمال أقسط والمراد بالخوف العلم كما في قوله تعالى ﴿فمن خاف من موص جنتها﴾ عبر عنه بذلك إيدانا بكون المعلوم مخوفا محذورا لا معناه الحقيقي لأن الذى علق به الجواب هو العلم بوقوع الجور المخوف لا الخوف منه وإلا لم يكن الأمر شاملا لمن يصر على الجور ولا يخافه وهذا

شروع في النهي عن منكر آخر كانوا يباشرونه متعلق بأنفس اليتامى أصالة
 وبأموالهم تبعاً عقيب النهي عما يتعلق بأموالهم خاصة وتأخيره عنه لقلّة وقوع
 المنهى عنه بالنسبة إلى الأول ونزوله منه بمنزلة المركب من الفرد وذلك أنهم
 كانوا يتزوجون من تحمل لهم من اليتامى اللاتي يلوطنن لكن لا لرغبة فيهن بل
 في مالهن ويسيتون في الصحبة والمعاشرة ويتر بصون بهن أن يمتن فيرثوهن وهذا
 قول الحسن وقيل هي اليتيمة التي تكون في حجر وليها فيرغب في مالها وجمالها
 ويريد أن ينكحها بأذى من مهر نساها فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن
 في إكمال الصداق وأمروا أن ينكحوا ما سواهن من النساء وهذا قول الزهري
 رواية عن عروة عن عائشة رضی الله عنها وأما اعتبار اجتماع عدد كثير ممنهن
 كما أطبق عليه أكثر أهل التفسير حيث قالوا كان الرجل يحد اليتيمة لها مال
 وجمال ويكون وليها فيتزوجها ضمناً بها عن غيره فربما اجتمعت عنده عشر
 ممنهن الخ فلا يساعده الأمر بنكاح غيرهن فإن المحذور حينئذ يندفع بتقليل
 عددهن أي وإن خفتم أن لا تعدلوا في حق اليتامى إذا تزوجتم بهن بإساءة العشرة
 أو ينقص الصداق ﴿فانكحوا ما طاب لكم﴾ ما موصولة أو موصوفة ما بعدها
 صلتها أو صفتها أو ثرت على من ذهاباً إلى الوصف وإيذاناً بأنه المقصود بالذات
 والغالب في الاعتبار لا بناء على أن الإناث من العقلاء يجرين مجرى غير العقلاء
 لإخلافه بمقام الترغيب فيهن وقرأ ابن أبي عملة من طاب ومن في قوله تعالى
 ﴿من النساء﴾ بيانية وقيل تبعيضية والمراد بهن غير اليتامى بشهادة قرينة المقام
 أي فانكحوا من استطابتهن نفوسكم من الأجنبية وفي إيثار الأمر بنكاحهن
 على النهي عن نكاح اليتامى مع أنه المقصود بالذات مزيد لطف في استنزاهم
 عن ذلك فإن النفس مجبولة على الحرص على ما منعت منه كما أن وصف النساء
 بالطيب على الوجه الذي أشير إليه فيه مبالغة في الاستمالة إليهن والترغيب فيهن
 وكل ذلك للاعتناء بصرفهم عن نكاح اليتامى وهو السر في توجيه النهي الضمني
 إلى النكاح المترقب مع أن سبب النزول هو النكاح المحقق لما فيه من المسارعة
 إلى دفع الشر قبل وقوعه فرب واقع لا يرفع والمبالغة في بيان حال النكاح

المحقق فإن محظوريه المترقب حيث كانت للجور المترقب فيه فمحظورية المحقق مع تحقق الجور فيه أولى وقيل المراد بالطيب الحل أى ما حل لكم شرعاً لأن ما استطابوه شامل للمحرّمات ولا مخصص له بمن عداهن وفيه فرار من مخدور ووقوع فيما هو أفضح منه لأن ما حل لهم يحمل وقد تقرر أن النص إذا تردد بين الإجمال والتخصيص يحمل على الثاني لأن العام المخصوص حجة في غير محل التخصيص والمحمل ليس بحجة قبل ورود البيان أصلاً ولئن جعل قوله تعالى حرمت عليكم الخ دالاً على التفصيل بناء على ادعاء تقدمه في التنزيل فليجعل دالاً على التخصيص (مثنى وثلاث ورباع) معدولة عن أعداد مكررة غير منصرفة لما فيها من العدلين عدلها عن صيغها وعدلها عن تكررها وقيل للعدل والصفة فإنها بنيت صفات وإن لم تكن أصولها كذلك وقرىء وثلاث ورباع على القصر من ثلاث ورباع ومحملن النصب على أنها حال من فاعل طاب مؤكدة لما أفاده وصف الطيب من الترغيب فيهن والاستمالة إليهن بتوسيع دائرة الإذن أى فأنكحوا الطيبات لكم معدودات هذا العدد ثنتين ثلاثين وثلاثاً وثلاثاً وأربعاً أربعاً حسبما تريدون على معنى أن لكل واحد منهم أن يختار أى عدد شاء من الأعداد المذكورة لا أن بعضها لبعض منهم وبعضها لبعض آخر كما في قولك اقتسموا هذه البكرة درهمين درهمين وثلاثة وثلاثة وأربعة وأربعة ولو أفردت لفهم منه تجويز الجمع بين تلك الأعداد دون التوزيع ولو ذكرت بكلمة أو لفات تجويز الاختلاف في العدد ، هذا وقد قيل في تفسير الآية الكريمة لما نزلت الآية في اليتامى وما فى أكل أموالهم من الحوب الكبير أخذ الأولياء. يتحرجون من ولايتهم خوفاً من لحوق الحوب بترك الإقساط مع أنهم كانوا لا يتحرجون من ترك العدل في حقوق النساء حيث كان تحت الرجل منهم عشر منهن فقيل لهم إن خفتم ترك العدل في حقوق اليتامى فتحرجتم منها فخافوا أيضاً ترك العدل بين النساء فقللوا عدد المنكوحات لأن من تحرج من ذنب أو تاب عنه وهو مرتكب مثله فهو غير متحرج ولا تائب عنه وقيل كانوا لا يتحرجون من الزنى وهم يتحرجون من ولاية اليتامى فقيل إن خفتم الجور في حق اليتامى.

غافوا الزنى فانكحوا ما حل لكم من النساء ولا تحوموا حول المحرمات ولا يخفى أنه لا يساعدهما جزالة التنظيم الكريم لبنائهما على تقدم نزول الآية الأولى وشيوعها بين الناس مع ظهور توقف حكمها على ما بعدها من قوله تعالى: (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم) إلى قوله تعالى (وكفى بالله حسيباً) .

﴿ فإن خفتم أن لا تعدلوا ﴾ أى فيما بينهن ولو فى أقل الأعداد المذكورة كما خفتموه فى حق اليتامى أو كما لم تعدلوا فى حقهن أو كما لم تعدلوا فيما فوق هذه الأعداد ﴿ فواحدة ﴾ أى فالزموا أو فاختروا واحدة وذروا الجمع بالكلية وقرىء بالرفع أى فالمقنع واحدة أو لحسبكم واحدة ﴿ أو ما ملكت أيمانكم ﴾ أى من السرارى بالغة ما بلغت من مراتب العدد وهو عطف على واحدة على أن اللزوم والاختيار فيه بطريق التسرى لا بطريق النكاح كما فيما عطف عليه لاستلزامه ورود ملك النكاح على ملك اليمين بموجب اتحاد المخاطبين فى الموضوعين بخلاف ماسياتى من قوله تعالى (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فما ملكت أيمانكم) فإن المأمور بالنكاح هناك غير المخاطبين بملك اليمين وإنما سوى فى السهولة واليسر بين الحرة الواحدة وبين السرارى من غير حصر فى عدد لقلة تبعتهن وخفة مؤنتهن وعدم وجوب القسم بينهن وقرىء أو من ملكت أيمانكم وما فى القراءة المشهورة للإيدان بقصور رتبتن عن رتبة العقلاء ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى اختيار الواحدة والتسرى ﴿ أدنى أن لا تعدلوا ﴾ العول الميل من قولهم عال الميزان عولا إذا مال وعال فى الحكم أى جار والمراد هنا الميل المحذور المقابل للعدل أى ما ذكر من اختيار الواحدة والتسرى أقرب بالنسبة إلى ما عداهما من أن لا تميلوا ميلا محظورا لا تتفائه رأسا بانتفاء محله فى الأول وانتفاء خطره فى الثانى بخلاف اختيار العدد فى المهاثر فإن الميل المحذور متوقع فيه لتحقيق المحل والخطر ومن ههنا تبين أن مدار الأمر هو عدم العول لا تحقيق العدل كما قيل وقد فسر بأن لا يكثُر عيالكم على أنه من عال الرجل عياله يعوظم أى مانهم فعبر عن كثرة العيال بكثرة المؤنة على طريقة الكتابة ويؤيده قراءة أن تعيلوا من أعال الرجل إذا كثر عياله ووجه كون

التسرى مظنة قلة العيال مع جواز الاستكثار من السرارى أنه يجوز العزل.
عن بن بغير رضاهن ولا كذلك المهاجر والجملة مستأنفة جارية مما قبلها مجرى
التعليل ﴿ وآتوا النساء ﴾ أى اللاتى أمر بنسكاحهن ﴿ صدقاتهن ﴾ جمع صدقة
كسمره وهى المهر وقرىء بسكون الدال على التخفيف وبضم الصاد وسكون
الدال جمع صدقة كخرفة وبضمهما على التوحيد وهو تنقيل صدقة كظلمة فى
ظلمة ﴿ نحلة ﴾ قال ابن عباس وقتادة وابن جرير وابن زيد فريضة من الله تعالى
لأنها مما فرضه الله فى النحلة أى الملة والشرعة والديانة فانتصباها على الحالية من
الصدقات أى أعطوهن مهورهن حال كونها فريضة منه تعالى وقال الزجاج تدينها
فانتصباها على أنها مفعول له أى أعطوهن ديانة وشرعية وقال السكبي نحلة أى
هبة وعطية من الله وتفضلا منه عليهن فانتصباها على الحالية منها أيضاً وقيل عطية
من جهة الأزواج من نحلته كذا إذا أعطاه إياه ووهبه له عن طيبة من نفسه
نحلة ونحلا والتعبير عن إيتاء المهور بالنحلة مع كونها واجبة على الأزواج لإفادة
معنى الإيتاء عن كمال الرضا وطيب خاطر وانتصباها على المصدرية لأن الإيتاء
والنحلة بمعنى الإعطاء كأنه قيل وانحلوا النساء صدقاتهن نحلة أى أعطوهن
مهورهن عن طيبة أنفسكم أو على الحالية من ضمير آتوا أى آتوهن صدقاتهن
ناحلين طيبى النفوس بالإعطاء أو من الصدقات أى منحولة معطاة عن طيبة
الأنفس فالخطاب للأزواج وقيل للأولياء لأنهم كانوا يأخذون مهور بناتهم
وكانوا يقولون هنيئاً لك النافجة لمن يولد له بنت يعنون تأخذ مهرها فتنفج به
مالك أى تعظمه ﴿ فإن طبن لكم عن شيء منه ﴾ الضمير للصدقات وتذكيره
لإجرائه مجرى ذلك فإنه يشار به إلى المتعدد كما فى قوله عز وجل (قل أو نبشكم
بخبير من ذلكم) بعد ذكر الشهوات المعدودة وقد روى عن رؤية أنه حين قيل
له فى قوله :

ففى خطوط من سواد وبلق وكأنه فى الجسد توليع البهق
إن أردت الخطوط ينبغى أن تقول كأنها وإن أردت السواد والبلق ينبغى
أن تقول كأنهما قال لكفى أردت كأن ذلك أو للصدقات الواقع موقعه صدقاتهن.

كأنه قيل وآتوا النساء صدقاتكم كما في قوله تعالى (فأصدق وأكن) حيث عطف
أكن على ما دل عليه المذكور ووقع موقعه كأنه قيل إن أخرتني أصدق وأكن
واللام متعلقة بالفعل وكذا عن لسان بتضمينه معنى التجاني والتجاوز ومن متعلقة
بمخذوف وقع صفة لشيء أى كائن من الصداق وفيه بعث لمن على تقليل الموهوب
﴿ نفسا ﴾ تمييز والتوحيد لما أن المقصود بيان الجنس أى إن وهب لكم
شيئا من الصداق متجافيا عنه نفوسهن طيبات غير مخبثات بما يضطرهن إلى
البذل من شكاسة أخلاقكم وسوء معاشرتكم لمن عدل عن لفظ الهبة والسماحة
إلى ما عليه النظم الكريم ليداننا بأن العمدة في الأمر إنما هو طيب النفس
وتجافيا عن الموهوب بالمرءة ﴿ فكلوه ﴾ أى نفذوا ذلك الشيء الذى طابت به
نفوسهن وتصرفوا فيه تملكا وتخصيص الأكل بالذكر لأنه معظم وجوه
التصرفات المسالية ﴿ هنيئا مريئا ﴾ صفتان من هنتو الطعام ومرؤ إذا كان
سائغا لا تنغيص فيه وقيل الهنىء الذى يلذه الأكل والمرىء ما يحمد عاقبته
وقيل ما ينساغ في مجراه الذى هو المرىء وهو ما بين الخلقوم إلى فم المعدة
سمى بذلك لمروء الطعام فيه أى انسياغه ونصبهما على أنهما صفتان للمصدر
أى أ كلا هنيئا مريئا أو على أنهما حالان من الضمير المنصوب أى كلوه وهو
هنىء مرىء وقد يوقف على كلوه وينتدأ هنيئا مريئا على الدعاء وعلى أنهما
صفتان أقيمتا مقام المصدرين كأنه قيل هنا ومرأ وهذه عبارة عن التحليل
والمبالغة في الإباحة وإزالة التبعة . روى أن ناسا كانوا يتأثمون أن يقبل
أحدهم من زوجته شيئا بما ساقه إليها فنزلت ﴿ ولا تؤتوا السفهاه أموالكم ﴾
رجوع إلى بيان بقية الأحكام المتعلقة بأموال اليتامى وتفصيل ما أجمل
فيما سبق من شرط إيتائهم ووقته وكيفيةه إثر بيان بعض الأحكام المتعلقة
بأنفسهن أعنى نكاحهن وبيان بعض الحقوق المتعلقة بغيرهن من الأجنبيةات
من حيث النفس ومن حيث المال استطرادا والنخاطب للأولياء نهوا أن
يؤتوا المبذرين من اليتامى أموالهم مخافة أن يضيعوها وإنما أضيفت إليهم وهى
لليتامى لا نظرا إلى كونها تحت ولايتهم كما قيل فإنه غير مصحح لاتصافها

بالوصف الآتي بل تنزيلا لاختصاصها بأصحابها منزلة اختصاصها بالأولياء
فكان أموالهم عين أموالهم لما بينهم وبينهم من الإتحاد الجنسي والنسبي مبالغة
في حملهم على المحافظة عليها كما في قوله تعالى (ولا تقتلوا أنفسكم) أي لا يقتل
بعضكم بعضا حيث عبر عن بني نوعهم بأنفسهم مبالغة في زجرهم عن قتلهم
فكان قتلهم قتل أنفسهم وقد أيد ذلك حيث عبر عن جعلها مناط المعاش
الأولياء فقيل ﴿التي جعل الله لكم قياما﴾ أي جعلها الله شيئا تقومون به
وتتعمشون على حذف الأول فلو ضيعتموه لضعتم ثم زيد في المبالغة حتى جعل
ما به القيام قياما فكانها في أنفسها قيامكم وانتعاشكم وقيل إنما أضيفت إلى
الأولياء لأنها من جنس ما يقيم به الناس معاشهم حيث لم يقصد بها الخصوصية
الشخصية بل الجنسية التي هي معنى ما يقام به المعاش وتميل إليه القلوب ويدخر
لأوقات الاحتياج وهي بهذا الاعتبار لا تختص باليتامى وأنت خبير بأن ذلك
بمعزل من حمل الأولياء على المحافظة المذكورة كيف لا والوحدة الجنسية
المالية ليست مختصة بما بين أموال اليتامى وأموال الأولياء بل هي متحققة
بين أموالهم وأموال الأجانب فإذن لا وجه لاعتبارها أصلا وقرىء اللاتي
واللواتى وقرىء قيا بمعنى قياما كما جاء عوذا بمعنى عياذا وقرىء قواما بكسر
القاف وهو ما يقام به الشيء أو مصدر قاوم وقرىء بفتحها ﴿وارزقوهم فيها
واكسوهم﴾ أي واجعلوها مكانا لرزقهم وكسوتهم بأن تتجروا وترجحوا
حتى تكون نفقاتهم من الأرباح لا من صلب المال وقيل الخطاب لسكل
أحد كائنا من كان والمراد نهيه عن أن يفوض أمر ماله إلى من لا رشد له
من نسائه وأولاده ووكلائه وغير ذلك ولا يخفى أن ذلك محل بجزالة النظم
الكريم ﴿وقولوا لهم قولا معروفا﴾ أي كلاما لينا تطيب به نفوسهم وعن
سعيد بن جبير وبجاهد وابن جريح عدوهم عدة جميلة بأن تقولوا إذا صلحتم
ورشدتم سلمنا إليكم أموالكم وكل ما سكنت إليه النفس لحسنه شرعا أو عقلا
من قول أو عمل فهو معروف وما أنكرته لقبحه شرعا أو عقلا فهو منكرو
﴿وابتلاوا اليتامى﴾ شروع في تعيين وقت تسليم أموال اليتامى إليهم وبيان

شرطه بعد الأمر بإيتائها على الإطلاق والنهي عنه عند كون أصحابها سفهاء أى واختبروا من ليس منهم بين السفه قبل البلوغ بتتبع أحوالهم فى صلاح الدين والاهتداء إلى ضبط المال وحسن التصرف فيه وجربوهم بما يليق بحالهم فإن كانوا من أهل التجارة فبأن تعطوهم من المال ما يتصرفون فيه يبعوا وشراء وإن كانوا ممن له ضياع وأهل وخدم فبأن تعطوهم منه ما يصرفونه إلى نفقة عبيدهم وخدمهم وأجرائهم وسائر مصارفهم حتى تتبين لكم كيفية أحوالهم ﴿ حتى إذا بلغوا النكاح ﴾ بأن يحتلموا لأنهم يصلحون حينئذ للنكاح ﴿ فإن آنستم ﴾ أى شاهدتم وتبينتم وقرىء أحستم بمعنى أحسستم كما فى قول من قال :

خلا أن العتاق من المطايا أحسن به وهن إليه شوم

﴿ منهم رشدا ﴾ أى اهتداء إلى وجوه التصرفات من غير عجز وتبذير . وتقديم الجار والمجرور على المفعول للاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر . أو للاعتداد بمبدئيته له والتنوين للدلالة على كفاية رشد فى الجملة وقرىء بفتح الراء والشين وبضمهما ﴿ فادفعوا إليهم أموالهم ﴾ من غير تأخير عن حد البلوغ وفى إظهار الدفع على الإيتاء الوارد فى أول الأمر إيدان بتفاوتهما بحسب المعنى كما أشير إليه فيما سلف ونظم الآية الكريمة أن حتى هى التى تقع بعدها الجمل كالتى فى قوله :

فا زالت القتل تجم دماها بدجلة حتى ماء دجلة أشكل

وما بعدها جملة شرطية جعلت غاية للإيتاء وفعل الشرط بلغوا وجوابه الشرطية الثانية كأنه قيل وابتلوا اليتامى إلى وقت بلوغهم واستحقاقهم دفع أموالهم إليهم بشرط ليناس الرشد منهم وظاهر الآية الكريمة أن من بلغ غير رشيد إما بالتبذير أو بالعجز لا يدفع إليه ماله أبداً وبه أخذ أبو يوسف ومحمد . وقال أبو حنيفة ينتظر إلى خمس وعشرين سنة لأن البلوغ بالسن ثمانى عشر سنة فإذا زادت عليها سبع سنين وهى مدة معتبرة فى تغير أحوال الإنسان لما نقله عليه الصلاة والسلام مرورهم بالصلاة اسبع دفع إليه ماله . أونس منه

أولم يؤنس ﴿ ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ﴾ أى مسرفين ومبادرين
كبرهم أو لإسرافكم ومبادرتكم كبرهم تفرطون فى إنفاقها وتقولون ننفق كما
نشتهى قبل أن يكبر اليتامى فينتزعوها من أيدينا والجملة تأكيد للأمر بالدفع
وتقرير لها وتمهيد لما بعدها من قوله تعالى ﴿ ومن كان غنيا فليستعفف ﴾ الخ
أى من كان من الأولياء والأوصياء غنيا فليتنزه عن أكلها وليقتنع بما آتاه الله
تعالى من الغنى والرزق إشفافاً على اليتيم وإبقاء على ماله ﴿ ومن كان ﴾ من
الأولياء والأوصياء ﴿ فقيراً فليأكل بالمعروف ﴾ بقدر حاجته الضرورية
وأجرة سعيه وخدمته وفى لفظ الاستعفاف والأكل بالمعروف ما يدل على أن
للوصى حقاً لقيامه عليها . عن النبي عليه الصلاة والسلام أن رجلاً قال له إن
فى حجرى يتيماً أفأكل من ماله قال بالمعروف غير متأثر مالا ولا واق مالك
بماله وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن ولى يتيم قال له أفأشرب من لبن إبله
قال إن كنت تبغى ضالتها وتلوط حوضها وتمنأ جرباها وتسقيها يوم ورودها
فأشرب غير مضر بنسل ولا ناهك فى الحلب وعن محمد بن كعب يتقزم كما تقزم
البيهية وينزل نفسه منزلة الأجير فيما لا بد منه وعن الشعبي يأكل من ماله
بقدر ما يعين فيه وعنه كالميتة يتناول عند الضرورة وعن مجاهد يستسلف فإذا
أسر أدى وعن سعيد بن جبير إن شاء شرب فضل اللبن وركب الظهر ولبس
ما يستره من الثياب وأخذ القوت ولا يجاوزه فإن أسر قضاه وإن أسر فهور
فى حل وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لى أنزلت نفسى من مال الله تعالى
منزلة ولى اليتيم إن استغنيت استعففت وإن افتقرت أكلت بالمعروف وإذا
أسرت قضيت . واستعف أبلغ من عف كأنه يطلب زيادة العفة ﴿ فإذا دفعتم
إليهم أموالهم ﴾ بعد ما راعيتم الشرائط المذكورة وتقديم الجار والمجرور على
المفعول الصريح للاهتمام به ﴿ فأشهدوا عليهم ﴾ بأنهم تسلموها وقبضوها
وبرئت عنها ذمكم لما أن ذلك أبعد من التهمة وأنفى للخصومة وأدخل فى الأمانة
وبراءة الساحة ولأن لم يسكن ذلك واجبا عند أصحابنا فإن الوصى مصدق فى
الدفع مع اليمين خلافاً للملك والشافعى رحمهما الله ﴿ وكفى بالله حسيباً ﴾ أى

محاسباً فلا تخالفوا ما أمركم به ولا تتجاوزوا ما حد لكم ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ﴾ شروع في بيان أحكام الموارث بعد بيان أحكام أموال اليتامى المنتقلة إليهم بالإرث والمراد بالأقربين المتوارثون منهم ومن في مما متعلقة بمحذوف وقع صفة لنصيب أي لهم نصيب كأن مما ترك وقد جوز تعلقها بنصيب ﴿ وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ﴾ إيراد حكيم على الاستقلال دون الدرر في تضاعيف أحكامهم بأن يقال للرجال والنساء الخ للإعتناء بأمرهن والإيدان بأصالتهن في استحقاق الإرث والإشارة من أول الأمر إلى تفاوت ما بين نصيب الفريقين والمبالغة في إبطال حكم الجاهلية فإنهم لم يكونوا يورثون النساء والأطفال ويقولون إنما يرث من يحارب ويذب عن الحوزة روى أن أوس بن ثابت الأنصاري خلف زوجته أم حكة وثلاث بنات فزوى أبناء عمه سويد وعرفطة أو قتادة وعرفجة ميراثه عنهن على سنة الجاهلية فجاءت أم حكة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فشككت إليه فقال ارجعي حتى أنظر ما يحدثه الله تعالى فنزلت فأرسل إليهما إن الله قد جعل لهن نصيباً ولم يبين فلا تفرقا من مال أوس شيئاً حتى يبين فنزل يوصيكم الله الخ فأعطى أم حكة الثمن والبنات الثلثين والباقي لابني العم وهو دليل على جواز تأخير البيان عن الخطاب وقوله تعالى ﴿ مما قل منه أو كثير ﴾ بدل من ما الأخيرة بإعادة الجار وإليها يعود الضمير المجرور وهذا البديل مراد في الجملة الأولى أيضاً محذوف للتعويل على المذكور وفائدته دفع توهم تخصيص بعض الأموال ببعض الورثة كالخيل وآلات الحرب للرجال وتحقيق أن لكل من الفريقين حقا من كل ما جل ودق ﴿ نصيباً مفروضاً ﴾ نصب على أنه مصدر مؤكد كقوله تعالى (فريضة من الله) كأنه قيل قسمة مفروضة أو على الحالية إذ المعنى ثبت لهم نصيب كأن مما ترك الوالدان والأقربون حال كونه مفروضاً أو على الاختصاص أي أعني نصيباً مقطوعاً مفروضاً واجبا لهم وفيه دليل على أن الوارث لو أعرض عن نصيبه لم يسقط حقه ﴿ وإذا حضر القسمة ﴾ أي قسمة التركة وإنما قدمت مع كونها مفعولاً لأنها المبحوث عنها ولأن في الفاعل تعدداً فلوروعى الترتيب

يفوت تجاوب أطراف الكلام ﴿أولو القرني﴾ من لا يرث ﴿واليتامى والمساكين﴾ من الأجانب ﴿فارزقوهم منه﴾ أى أعطوهم شيئاً من المال المقسوم المدلول عليه بالقسمة وقيل الضمير لما وهو أمر ندب كلف به البالغون من الورثة تطيباً لقلوب الطوائف المذكورة وتصديقاً عليهم وقيل أمر وجوب ثم اختلف في نسخه ﴿وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾ وهو أن يدعوا لهم ويستقلوا ما أعطوهم ويعتدروا من ذلك ولا يمتنوا عليهم ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم﴾ أمر للأوصياء بأن يخشوا الله تعالى ويتقوه في أمر اليتامى فيفعلوا بهم ما يحبون أن يفعل بذرائعهم الضعاف بعد وفاتهم أو لمن حضر المريض من العواد عند الإيصال بأن يخشوا ربهم أو يخشوا أولاد المريض ويشفقوا عليهم شفقتهم على أولادهم فلا يتركوه أن يضر بهم بصرف المال عنهم أو للورثة بالشفقة على من حضر القسمة من ضعفاء الأقارب واليتامى والمساكين متصورين أنهم لو كانوا أولادهم بقوا خلفهم ضعافاً مثلهم هل يجوزون حرمانهم أو للموصين بأن ينظروا للورثة فلا يسرفوا في الوصية ولو بما في حيزها صلة للذين على معنى وليخش الذين حالهم وصفتهم أنهم لو شرفوا أن يخلفوا ورثة ضعافاً خافوا عليهم الضياع وفي ترتيب الأمر عليه إشارة إلى المقصود منه والعلة فيه وبعث على التراحم وأن يجب لأولاد غيره ما يجب لأولاد نفسه وتهديد للخالف بحال أولاده وقرىء ضعفاء وضعافى وضعافى ﴿فليتقوا الله﴾ فى ذلك والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ﴿وليقولوا قولاً سديداً﴾ أمرهم بالتقوى التى هى غاية الخشية بعد ما أمرهم بها مراعاة للبدا والمنتهى إذ لا نفع للأول بدون الثانى ثم أمرهم بأن يقولوا لليتامى مثل ما يقولون لأولادهم بالشفقة وحسن الأدب أو للمريض ما يصدده عن الإسراف فى الوصية وتضييع الورثة يذكره التوبة وكلمة الشهادة أو لحاضرى القسمة عذراً ووعداً حسناً أو يقولوا فى الوصية ما لا يؤدى إلى تجاوز الثلث .

وقوله تعالى ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾ أى على وجه الظلم أو ظالمين استئناف جرى به لتقرير مضمون ما فضل من الأوامر والنواهي

﴿لأنما يأكلون في بطونهم﴾ أى ملء بطونهم ﴿نارا﴾ أى ما يجر إلى النار ويؤدى إليها وعن أبى بردة أنه صلى الله عليه وسلم قال « يبعث الله تعالى قوما من قبورهم تتأجج أفواههم نارا ، فقيل من هم ؟ فقال عليه السلام « ألم تر أن الله يقول ﴿لن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا﴾ » ﴿وسيصلون سعيرا﴾ أى سيدخلون نارا هائلة مبهمة الوصف وقرىء بضم الياء مخففا ومشددا من الإصلاء والتصلية يقال صلى النار قامى حرها وصليته وشويته وأصليته وصليته ألقيته فيها والسعير فعيل بمعنى مفعول من سعرت النار إذا أظبتها . روى أن آكل مال اليتيم يبعث يوم القيامة والدخان يخرج من قبره ومن فيه وأنفه وأذنيه وعينه فيعرف الناس أنه كان يأكل مال اليتيم فى الدنيا وروى أنه لما نزلت هذه الآية ثقل ذلك على الناس فاحترزوا عن مخالطة اليتامى بالسكينة فصعب الأمر على اليتامى فنزل قوله تعالى (ولئن تخالطوهم) الآية .

﴿يوصيكم الله﴾ شروع فى تفصيل أحكام الموارث المجملة فى قوله تعالى (للرجال نصيب) النخ وأقسام الورثة ثلاثة قسم لا يسقط بحال وهم الآباء والأولاد والأزواج فهؤلاء قسمان والثالث السكالة أى يأمركم ويعهد إليكم ﴿فى أولادكم﴾ أولاد كل واحد منكم أى فى شأن ميراثهم بدىء بهم لأنهم أقرب الورثة إلى الميت وأكثرهم بقاء بعد المورث ﴿لذا كر مثل الأنثيين﴾ جملة مستأنفة جىء بها لتبيين الوصية وتفسيرها وقيل محلها النصب بيوصيكم على أن المعنى يفرض عليكم ويشرع لكم هذا الحكم وهذا قريب مما رآه الفراء فإنه يجرى ما كان بمعنى القول من الأفعال مجراه فى حكاية الجملة بعده ونظيره قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة) الآية وقوله تعالى للذكر لا بد له من ضمير عائد إلى الأولاد محذوف ثقة بظهوره كما فى قولهم السمن منوان بدرهم أى للذكر منهم وقيل الألف واللام قائم مقامه والأصل لذكرهم ومثل صفة لموصوف محذوف أى للذكر منهم حظ الأنثيين والبداة ببيان حكم الذكر لإظهار منيته على الأنثى كما أنها المناط فى تضعيف حظه وإيثار اسمى الذكر والأنثى على ما ذكر أولا من الرجال والنساء للتنصيص على استواء

الكبار والصغار من الفريفيين في الاستحقاق من غير دخل للبلوغ والكبر في ذلك أصلاً كما هو زعم أهل الجاهلية حيث كانوا لا يورثون الأطفال كالنساء ﴿فإن كن﴾ أي الأولاد والتأنيث باعتبار الخبر وهو قوله تعالى ﴿نساء﴾ أي خلاصاً ليس معهن ذكر ﴿فوق اثنتين﴾ خبر ثان أو صفة لنساء أي نساء زائدات على اثنتين ﴿فلهن ثلثا ما ترك﴾ أي المتوفى المدلول عليه بقريئة المقام ﴿وإن كانت﴾ أي المولودة ﴿واحدة﴾ أي امرأة واحدة ليس معها أخ ولا أخت وعدم التعرض للموصوف لظهوره مما سبق ﴿فلها النصف﴾ بما ترك وقرىء واحدة على كان التامة واختلف في الثنتين فقال ابن عباس حكهما حكم الواحدة لأنه تعالى جعل الثلثين لما فوقهما وقال الجمهور حكهما حكم ما فوقهما لأنه تعالى لما بين أن حظ الذكر مثل حظ الأنثيين إذا كان معه أنثى وهو الثلثان اقتضى ذلك أن فرضهما الثلثان ثم لما أوهم ذلك أن يزداد النصيب بزيادة العدد ذلك بقوله تعالى ﴿فإن كن نساء فوق اثنتين﴾ ويؤيد ذلك أن البنت الواحدة لما استحققت الثلث مع أخيها الأقوى منها في الاستحقاق فلأن تستحقه مع مثلها أولى وأحرى وأن البنيتين أمس رحماً من الأختين وقد فرض الله لهما الثلثين حيث قال تعالى ﴿فلهما الثلثان بما ترك﴾ .

﴿ولأبويه﴾ أي لأبوي الميت . غير النظم الكريم لعدم اختصاص حكمه بما قبله من الصور ﴿لسكل واحد منهما﴾ بدل منه بتكرير العامل وسط بين المبتدأ الذي هو قوله تعالى ﴿السدس﴾ وبين خبره الذي هو لأبويه ونقل الخبرية إليه تنصيها على استحقاق كل منهما السدس وتأكيدها له بالتفصيل بعد الإجمال وقرىء السدس بسكون الدال تخفيفاً وكذلك الثلث والرابع والثلثين ﴿بما ترك﴾ متعلق بمحذوف وقع حالاً من السدس والعامل الاستقرار المعتبر في الخبر أي كأننا بما ترك المتوفى ﴿إن كان له ولد﴾ أو ولد ابن ذكر كان أو أنثى واحداً أو متعدداً غير أن الأب في صورة الأنوثة بعد ما أخذ فرضه المذكور ويأخذ ما بقي من ذوى الفروض بالعصوبة ﴿فإن لم يكن له ولد﴾ ولا ولد ابن ﴿وورثه أبواه﴾ فحسب ﴿فلأمه الثلث﴾ بما ترك والباقي

للأب وإنما لم يذكر لعدم الحاجة إليه لأنه لما فرض انحصار الوارث في أبويه وعين نصيب الأم علم أن الباقي للأب وتخصيص جانب الأم بالذكر وإحالة جانب الأب على دلالة الحال مع حصول البيان بالعكس أيضا لما أن حظها أخصر واستحقاقه أتم وأوفر أو لأن استحقاقه بطريق العصبية دون الفرض هذا إذا لم يكن معهما أحد الزوجين أما إذا كان معهما ذلك فللأم ثلث ما بقي بعد فرض أحدهما لا ثلث الكل كما قاله ابن عباس رضى الله عنهما فإنه يفضى إلى تفضيل الأم على الأب مع كونه أقوى منها في الإرث بدليل إضعافه عليها عند انفردهما عن أحد الزوجين وكونه صاحب فرض وعصبة وذلك خلاف وضع الشرع .

﴿ فإن كان له إخوة ﴾ أى عدد بمن له إخوة من غير اعتبار التثليث سواء كانت من جهة الأبوين أو من جهة أحدهما وسواء كانوا ذكورا أو إناثا أو مختلطين وسواء كان لهم ميراث أو كانوا محجوبين بالأب ﴿ فالأمه السدس ﴾ أما السدس الذى حجبوها عنه فهو للأب عند وجوده ولهم عند عدمه وعليه وعليه الجمهور وعند ابن عباس رضى الله عنهما أنه لهم على كل حال خلا أن هذا الحجب عنده لا يتحقق بما دون الثلاث وبالأخوات الخالص وقرىء فلإمه بكسر الهمزة اتباعا لما قبلها ﴿ من بعد وصية ﴾ خبر مبتدأ محذوف والجملة متعلقة بما تقدم جميعا لا بما يليها وحده أى هذه الأنصبة للورثة من بعد إخراج وصية ﴿ يوصى بها ﴾ أى الميت وقرىء مبنيًا للمفعول مخففا ومبنيًا للفاعل مشددا وفائدة الوصف الترغيب فى الوصية والندب إليها ﴿ أو دين ﴾ عطف على وصية إلا أنه غير مقيد بما قيدت به من الوصف بل هو مطلق يتناول ما ثبت بالبينة أو الإقرار فى الصحة وإيثار أو المفيدة للإباحة على الواو للدلالة على تساويهما فى الوجوب وتقدمهما على القسمة بمجموعين أو منفردين وتقديم الوصية على الدين ذكرامع تأخرها عنه حكما لإظهار كمال العناية بتنفيذها لكونها مظنة للتفريط فى أدائها وإطرادها بخلاف الدين ﴿ آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا ﴾ الخطاب للورثة فأباؤكم مبتدأ وأبناؤكم عطف عليه ولا تدرون

خبره وأيهم مبتدأ وأقرب خبره ونفعا نصب على التمييز منه وهو منقول من الفاعلية كأنه قيل أيهم أقرب لكم نفعه والجملة في حيز النصب بلا تدرؤن ، والجملة الكبيرة اعتراضية مؤكدة لوجوب تنفيذ الوصية أى أصولكم وفروعكم الذين يتوفون لا تدرؤن أيهم أنفع لكم أمن يوصى ببعض ماله فيعرضكم ثواب الآخرة بتنفيذ وصيته أم من لا يوصى بشيء فيوفر عليكم عرض الدنيا وليس المراد بنفى الدراية عنهم بيان اشتباه الأمر عليهم وكون أنفعية كل من الأول والثاني في حيز الاحتمال عندهم من غير رجحان أحدهما على الآخر كما في قوله عليه الصلاة والسلام مثل أمتى مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره فإن ذلك بمنزل من إفادة التأكيذ المذكور والترغيب في تنفيذ الوصية بل تحقيق أنفعية الأول في ضمن التعريض بأن لهم اعتقادا بأنفعية الثاني مبنيا على عدم الدراية ، وقد أشير إلى ذلك حيث عبر عن الأنفعية بأقربية النفع تذكير المناطق زعمهم وتعييننا لمنشأ خطتهم ومبالغة في الترغيب المذكور بتصوير الثواب الآجل بصورة العاجل لأن الطباع مجبولة على حب الخير الحاضر كأنه قيل لا تدرؤن أيهم أنفع لكم فتحكمون نظرا إلى ظاهر الحال وقرب المنال بأنفعية الثاني مع أن الأمر بخلافه فإن ثواب الآخرة لتحقيق وصوله إلى صاحبه ودوام تمتعه به مع غاية قهر مدة ما بينهما من الحياة الدنيا أقرب وأحضر وعرض الدنيا لسرعة نفاذه وفنائه أبعد وأقصى وقيل الخطاب للمورثين والمعنى لا تعلمون من أنفع لكم بمن يرأسكم من أصولكم وفروعكم عاجلا وأجلا فتحروا في شأنهم ما أوصاكم الله تعالى به ولا تعمدوا إلى تفضيل بعض وحرمان بعض ، روى أن أحد المتوالدين إذا كان أرفع درجة من الآخر في الجنة سأل الله تعالى أن يرفع إليه صاحبه فيرفع إليه بشفاعته قيل فالجملة الاعتراضية حينئذ مؤكدة لأمر القسمة وأنت خبير بأنه مشعر بأن مدار الإرث ما ذكر من أقربية النفع أنه الدلالة السمية ﴿ فريضة من الله ﴾ نصبت نصب مصدر مؤكذ لفعل محذوف أى فرض الله ذلك فرضا أو لقوله تعالى ﴿ يوصيكم الله ﴾ فإنه في معنى يأمركم ويفرض عليكم ﴿ إن الله كان عليما ﴾

أى بالمصالح والرتب ﴿حكيماً﴾ فى كل ما قضى وقدر فىدخل فىه الأحكام المذكورة دخولا أوليا .

﴿ولكم نصف ما ترك أزواجكم﴾ من المال شروع فى بيان أحكام القسم الثانى من الورثة ووجه تقديم حكم ميراث الرجال بما لا حاجة إلى ذكره ﴿إن لم يكن لهن ولد﴾ أى ولد وارث من بطنها أو من صلب بنيتها وإن سفل ذكر كان أو أنثى واحدا كان أو متعددا لأن لفظ الولد ينظم الجميع منكم أو من غيركم والباقي لورثتهن من ذوى الفروض والعصابات أو غيرهم وليبت المال إن لم يكن لهن وارث آخر أصلا ﴿فإن كان لهن ولد﴾ على نحو ما فصل والنماء لترتيب ما بعدها على قبلها فإن ذكر تقدير عدم الولد وبيان حكمه مستتبع لتقدير وجوده وبيان حكمه ﴿فلكم الربع مما تركن﴾ من المال والباقي لباقي الورثة ﴿من بعد وصية﴾ متعلق بكلمتا الصورتين لا بما يليه وحده ﴿يوصين بها﴾ فى محل الجر على أنه صفة لوصية وفائدتها ما مر من ترغيب الميت فى الوصية وحث الورثة على تنفيذها ﴿أو دين﴾ عطف على وصية سواء كان ثبوته بالبينة أو بالإقرار وإيثار أو على الواو لما مر من الدلالة على تساويهما فى الوجوب والتقدم على القسمة وكذا تقديم الوصية على الدين ذكرنا لما ذكر من إبراز كمال العناية بتنفيذها ﴿ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد﴾ على التفصيل المذكور آنفا والباقي لبقية ورثتكم من أصحاب الفروض والعصابات أو ذوى الأرحام أو لبيت المال إن يكن لكم وارث آخر أصلا ﴿فإن كان لكم ولد﴾ على النحو الذى فصل ﴿فلهن الثمن مما تركتم﴾ من المال والباقي للباقيين ﴿من بعد وصية توصون بها أو دين﴾ الكلام فىه كما فصل فى نظيره فرض للرجل بحق الزواج ضعف ما فرض للمرأة كما فى النسب لمزيتة عليها وشرفه الظاهر ولذلك اختص بتشريف الخطاب وهكذا قياس كل رجل وامرأة اشتراكا فى فى الجهة والقرب ولا يستثنى منه إلا أولاد الأم والمعتق والمعتقة وتستوى الواحدة والعدد منهن فى الربع والثمن ﴿وإن كان رجل﴾ شروع فى بيان أحكام

القسم الثالث من الورثة المحتمل للسقوط ووجه تأخيره عن الأولين بين والمراد بالرجل الميت وقوله تعالى ﴿ يورث ﴾ على البناء للمفعول من ورث لا من أورث خبر كان أى يورث منه ﴿ كلاله ﴾ الكلاله فى الأصل مصدر بمعنى الكلال وهو ذهاب القوة من الإعياء استعيرت للقرابة من غير جهة الوالد والولد لضعفهما بالإضافة إلى قرابتهما وتطلق على من لم يخلف ولدا ولا والدا وعلى من ليس بوالد ولا ولد من المخلفين بمعنى ذى كلاله كما تطلق القرابة على ذوى القرابة وقد جوز كونها صفة كالهجاجة والفتاكة للأحمق فنصبها إما على أنها مفعول له أى يورث منه لأجل القرابة المذكورة أو على أنها حال من ضمير يورث أى حال كونه ذا كلاله أو على أنها خبر لسكان ويورث صفه لرجل أى إن كان رجل موروث ذا كلاله ليس له والد ولا ولد وقرىء يورث على البناء للمفاعل مخففا ومشددا فانتصاب كلاله إما على أنها حال من ضمير الفعل والمفعول محذوف أى يورث وارثه حال كونه ذا كلاله وإما على أنها مفعول به أى يورث ذا كلاله وإما على أنه مفعول له أى يورث لأجل الكلاله ﴿ أو امرأة ﴾ عطف على رجل مقيد بما قيد به أى أو امرأة تورث كذلك ولعل فصل ذكرها عن ذكره للإيدان بشرفه وأصالته فى الأحكام ﴿ وله ﴾ أى للرجل ففيه تأكيد للإيدان المذكور حيث لم يتعرض لها بعد جريان ذكرها أيضا وقيل الضمير لسبل منهما ﴿ أخ أو أخت ﴾ أى من الأم فحسب وقد قرىء كذلك فإن أحكام بنى الأعيان والعلات هى التى ذكرت فى آخر السورة الكريمة والجملة فى محل النصب على أنها حال من ضمير يورث أو من رجل على تقدير كون يورث صفة وسيقت لتصوير المسألة وذكر الكلاله لتحقيق جريان الحكم المذكور وإن كان مع من ذكر ورثة أخرى بطريق الكلاله وأما جريانه فى صورة وجود الأم أو الجدة مع أن قرابتهما ليست بطريق الكلاله فبإجماع ﴿ فلاسكل واحد منهما ﴾ من الأخت والأخت ﴿ السدس ﴾ من غير تفضيل للذكر على الأثني لأن الإدلاء إلى الميت بمحض الأثوثة .

﴿ فإن كانوا أكثر من ذلك ﴾ أى أكثر من الأخت أو الأخت المنفردين

بواحد أو بأكثر والفاء لما مر من أن ذكر احتمال الانفراد مستتبع لذكر احتمال التعدد (فهم شركاء في الثلث) يفتسمونه بالسوية والباقي لبقية الورثة من أصحاب الفروض والعصبات هذا وأما جواز أن يكون يورث في القراءة المشهورة مبنيا للفعول من أورث على أن المراد به الوارث والمعنى وإن كان رجل يجعل وارثا لأجل الكلاله أو ذا كلاله أى غير والد أو ولد ولذلك الوارث أخ أو أخت فلكل واحد من ذلك الوارث وأخيه أو أخته السدس فإن كانوا أكثر من ذلك أى من الاثنين بأن كانوا ثلاثة أو أكثر فهم شركاء في الثلث الموزع للإثنين لا يزداد عليه شيء فبمعزل من السداد أما أولا فلان المعتبر على ذلك التقدير إنما هى الأخوة بين الوارث وبين شريكه فى الإرث من أخيه أو أخته لا ما بينه وبين مورثه من الأخوة التى عليها يترتب حكم الإرث وبها يتم تصوير المسألة وإنما المعتبر بينهما الوراثة بطريق الكلاله وهى عامة لجميع صور القرابات التى لا تكون بالولادة فلا يكون نصيبه ولا نصيب شريكه مما ذكر بعينه ومن ادعى اختصاصها بالأخوة لأم متمسكا بالإجماع على أن المراد بالكلاله ههنا أولاد الأم فقد اعترف ببطلان رأيه من حيث لا يحسب كيف لا ومبناه إنما هو الإجماع على أن المراد بالأخوة فى قوله تعالى (وله أخ أو أخت) هو الأخوة لأم خاصة حسبما شهدت به القراءة المحكية والآية الآتية فى آخر السورة الكريمة ولولا أن الرجل عبارة عن الميت والأخوة معتبرة بينه وبين ورثته لما أمكن كون السكلى أولاد الأم ثم إن الكلاله كما نهت عليه باقية على إطلاقها ليس فيها شائبة اختصاص بأولاد الأم فضلا عن الإجماع على ذلك وإلا لاقتصر البيان على حكم صورة انحصار الورثة فيهم وإنما الإجماع فيما ذكر من أن المراد بالأخ والأخت من كان لأم خاصة وأنت خبير بأن ذلك فى قوة الإجماع على أن يورث من ورث لا من أورث فتدبر وأما ثانيا فلأنه يقتضى أن يكون المعتبر فى استحقاق الورثة فى الفرض المذكور أخوة بعضهم لبعض من جهة الأم فقط لما ذكر من الإجماع مع ثبوت الاستحقاق على تقدير الأخوة من الجهتين وأما ثالثا فلأن حكم صورة

انفراد الوارث عن الأخ والأخت يبقى حيثئذ غير مبين وليس من ضرورة كون حظ كل منهما السدس عند الإجماع كونه كذلك عند الانفراد الأيرى أن حظ كل من الأختين الثلث عند الإجماع والنصف عند الانفراد وأما رابعا فلأن تخصيص أحد الورثة بالتوريث وجعل غيره تبعاً له فيه مع اتخاذ الشكل في الإدلاء إلى المورث مما لا عهد به .

﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين ﴾ الكلام فيه كالذي مر في نظائره خلا أن الدين ههنا موصوف بوصف الوصية جريا على قاعدة تقييد المعطوف بما قيد به المعطوف عليه لاتفاق الجمهور على اعتبار عدم المضارة فيه أيضاً وذلك إنما يتحقق فيما يكون ثبوته بالإقرار في المرض كأنه قيل أو دين يوصى به ﴿ غير مضار ﴾ حال من فاعل فعل مضمر يدل عليه المذكور وما حذف من المعطوف اعتماداً عليه كما أن رجال في قوله تعالى (يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال) على قراءة المبني للفعول فاعل لفعل ينهى عنه المذكور ومن فاعل الفعل المذكور والمحذوف اكتفاء به على قراءة البناء للفاعل أى يوصى بما ذكر من الوصية والدين حال كونه غير مضار للورثة أى بأن يوصى بما زاد على الثلث أو تكون الوصية لقصد الإضرار بهم دون القرابة وبأن يقر في المرض بدين كاذباً وتخصيص هذا القيد بهذا المقام لما أن الورثة مظنة لتفريط الميت في حقوقهم ﴿ وصية من الله ﴾ مصدر مؤكد لفعل محذوف وتنوينه للتفخيم ومن متعلقة بمضمر وقع صفة له مؤكدة لفخامته الذاتية بالفخامة الإضافية أى يوصيكم بذلك وصية كائنة من الله كقوله تعالى (فريضة من الله) ولعل السر في تخصيص كل منهما بمحله الإشعار بما بين الأحكام المتعلقة بالأصول والفروع وبين الأحكام المتعلقة بغيرهم من التفاوت حسب تفاوت الفريضة والوصية وإن كانت كلاًهما واجبة المراعاة أو منصوب بغير مضار على أنه مفعول به فإنه اسم فاعل معتمد على ذى الحال أو منفي معنى فيعمل في المفعول الصريح ويعضده القراءة بالإضافة أى غير مضار لوصية الله وعهده لا فى شأن الأولاد فقط كما قيل إذ لا تعلق لهم بالمقام بل فى شأن الورثة المذكورة ههنا فإن الأحكام المفصلة كلها

مندرجة تحت قوله تعالى (يوصيكم الله) جارية مجرى تفسيره وبيانه ومضارها الإخلال بحقوقهم ونقصها بما ذكر من الوصية بما زاد على الثلث والوصية لقصد الإضرار دون القرية والإقرار بالدين كاذبا وإيقاعها على الوصية مع أنها واقعة على الورثة حقيقة كما في قوله :

• يا سارق الليلة أهل الدار •

للبالغة في الزجر عنها بإخراجها مخرج مضارة أمر الله تعالى ومضادته وجعل الوصية عبارة عن الوصية بالثلث فما دونه يقتضى أن يكون غير مضار حالا من ضمير الفعل المتعلق بالوصية فقط وذلك يؤدي إلى الفصل بين الحال وعاملها بأجنبي هو المعطوف على وصية مع أنه لا تنحسم به مادة المضارة لبقاء الإقرار بالدين عن إطلاقه ﴿ والله عليم ﴾ بالمضار وغيره ﴿ حلیم ﴾ لا يعاجل بالعقوبة فلا يغتر بالإمهال وإيراد الاسم الجليل مع كفاية الإضرار لإدخال الروعة وتربية المهابة .

﴿ تلك ﴾ إشارة إلى الأحكام التي تقدمت في شئون التامى والمواريث وغير ذلك ﴿ حدود الله ﴾ أي شرائعه المحدودة التي لا تجوز مجاوزتها ﴿ ومن يطع الله ورسوله ﴾ في جميع الأوامر والنواهي التي من جملتها ما فصل ههنا وإظهار الاسم الجليل لما ذكر آنفا ﴿ يدخله جنات ﴾ نصب على الظرفية عند الجمهور وعلى المفعولية عند الأخصش ﴿ تجرى من تحتها الأنهار ﴾ صفة لجنات منصوبه حسب اتصافها ﴿ خالدن فيها ﴾ حال مقدره من مفعول يدخله وصيغة الجمع بالنظر إلى جمعية من بحسب المعنى كما أن أفراد الضمير بالنظر إلى أفراده لفظا ﴿ وذلك ﴾ إشارة إلى ما مر من دخول الجنات الموصوفة على وجه الخلود وما فيه من معنى البعد للإيدان بكمال علو درجته ﴿ الفوز العظيم ﴾ الذي لا فوز وراه وصف الفوز وهو الظفر بالخير بالعظيم إما باعتبار متعلقه أو باعتبار ذاته فإن الفوز بالعظيم عظيم والجملة اعتراض .

﴿ ومن يعص الله ورسوله ﴾ ولو في بعض الأوامر والنواهي قال مجاهد فيما اقتص من المواريث و عكر قالمة عن ابن عباس من لم يرض بقسم الله تعالى

ويتعدا قال الله تعالى وقال الكلبي يعني ومن يكفر بقسمة الله المواريث ويتعد حدوده استحلالا والإظهار في موقع الإضرار للبالغ في الزجر بتحويل الأمر وتربية المهابة ﴿ ويتعد حدوده ﴾ شرائعه المحدودة في جميع الأحكام فيدخل فيها ما نحن فيه دخولا أوليا ﴿ يدخله ﴾ وقرىء بنون العظمة في الموضعين ﴿ نارا ﴾ أى عظيمة هائلة لا يقادر قدرها ﴿ خالدا فيها ﴾ حال كما سبق ولعل إيثار الأفراد ههنا نظرا إلى ظاهر اللفظ واختيار الجمع هناك نظرا إلى المعنى للإيدان بأن الخلود في دار الثواب بصفة الاجتماع أجلب للأنس كما أن الخلود في دار العذاب بصفة الانفراد أشد في استجلاب الوحشة ﴿ وله عذاب مهين ﴾ أى وله مع عذاب الحريق الجسماني عذاب آخر مهين لا يعرف كنهه وهو العذاب الروحاني كما يؤذن به وصفه والجملة حالية .

﴿ واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم ﴾ شروع في بيان بعض آخر من الأحكام المتعلقة بالنساء إثر بيان أحكام المواريث واللاتي جمع التي بحسب المعنى دون اللفظ وقيل جمع على غير قياس والفاحشة الفعلة القبيحة أريد بها الزنا لزيادة قبحة والإتيان الفعل والمباشرة يقال أتى الفاحشة أى فعلها وباشرها وكذا جاءها ورهقها وغشيها وقرىء بالفاحشة فالإتيان بمنغاه المشهور ومن متعلقة بمحذوف وقع حالا من فاعل يأتين أى اللاتي يفعلن الزنا كائنات من نسائكم أى من أزواجكم كما في قوله تعالى (والذين يظاهرون من نسائهم) وقوله تعالى (من نسائكم اللاتي دخلتم بهن) وبه قال السدي ﴿ فاستشهدوا عليهن أربعة منكم ﴾ خبر للوصول والفاء للدلالة على سببية ما في حيز الصلة للحكم أى فاطلبوا أن يشهد عليهن بإتيانها أربعة من رجال المؤمنين وأحرارهم

﴿ فإن شهدوا ﴾ عليهن بذلك ﴿ فأمسكوهن في البيوت ﴾ أى فاحبسوهن فيها واجعلوها سجننا عليهن ﴿ حتى يتوفاهن ﴾ أى إلى أن يستوفى أرواحهن ﴿ الموت ﴾ وفيه تهويل للموت ولإبراز له في صورة من يتولى قبض الأرواح وتوفيتها أو يتوفاهن ملائكة الموت ﴿ أو يجعل الله لهن سبيلا ﴾ أى يشرع لهن

حكما خاصا بهن ولعل التعبير عنه بالسبيل للإيدان بكونه طريقا مسلوكا فليس فيه دلالة على كونه أخف من الحبس كما قاله أبو مسلم .

﴿ واللذان يأتيناها منكم ﴾ هما الزانى والزانية تغليبا قال السدى أريد بهما البكران منهما كما ينبىء عنه كون عقوبتهما أخف من الحبس المخلد وبذلك يندفع التكرار إلا أنه يبقى حكم الزانى المحصن مبهما لاختصاص العقوبة الأولى بالمحصنات وعدم ظهور إلحاقه بأحد الحكمين دلالة لبقاء الشركة فى المناط ﴿ فأذوهما ﴾ أى بالتوبيخ والتقريع وقيل بالضرب بالنعال أيضا والظاهر أن إجراء هذا الحكم أيضا إنما يكون بعد الثبوت لكن ترك ذكره تعويلا على ما ذكر آنفا ﴿ فإن تابا ﴾ عما فعلا من الفاحشة بسبب ما لقيها من زواج الأذية وقوارع التوبيخ كما ينبىء عنه الفاء ﴿ وأصلحا ﴾ أى أعمالها ﴿ فأعرضوا عنها ﴾ بقطع الأذية والتوبيخ فإن التوبة والصلاح مما يمنع استحقاق النزم والعقاب وقد جوز أن يكون الخطاب للشهود الواقفين على هتاتهما ويراد بالإيداء ذمهما وتعنيفهما وتهديدهما بالرفع إلى الولاية وبالإعراض عنهما ترك التعرض لهما بالرفع إليهم قيل كانت عقوبة الفريقين المذكورين فى أوائل الإسلام على ما مر من التفصيل ثم نسخ بالحد لما روى أن النبى عليه الصلاة والسلام قال خذوا عنى خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلا الثيب ترجم والبكر تجلد وقيل هذه الآية سابقة على الأولى نزولا وكانت عقوبة الزناة المطلقات الأذى ثم الحبس ثم الجلد ثم الرجم وقد جوز أن يكون الأمر بالحبس غير منسوخ بأن يترك ذكر الحد لكونه معلوما بالكتاب والسنة ويوصى بإمسأكن فى البيوت بعد إقامة الحد صيانة لهن عن مثل ما جرى عليهن بسبب الخروج من البيوت والتعرض للرجال ولا يخفى أنه مما لا يساعده النظم الكريم وقال أبو مسلم وعزاه إلى مجاهد إن الأولى فى السحاقيات وهذه فى اللواطين وما فى سورة النور فى الزناة والزوانى متمسكا بأن المذكور فى الأولى صيغة الإناث خاصة وفى الثانية صيغة الذكور ولا ضرورة للبصير إلى التغليب على أنه لا إمكان له فى الأولى وبأباه الأمر باستشهاد الأربعة فإنه غير معهود فى الشرع فيما عدا الزنا ﴿ إن الله كان

تواباً ﴿ مبالغاً في قبول التوبة ﴾ (رحيماً) واسع الرحمة وهو تعليل للأمر بالإعراض.

﴿ إنما التوبة على الله ﴾ استئناف مسوق لبيان أن قبول التوبة من الله تعالى ليس على إطلاقه كما ينشئ عنه وصفه تعالى بكونه تواباً رحيماً بل هو مقيد بما سينطق به النص الكريم فقوله تعالى التوبة مبتدأ وقوله تعالى ﴿ للذين يعملون السوء ﴾ خبره وقوله تعالى على الله متعلق بما تعلق به الخبر من الاستقرار فإن تقديم الجار والمجرور على عامله المعنوي مما لا نزاع في جوازه وكذا الظرف أو بمحذوف وقع حالا من ضمير المبتدأ المستكن فيما تعلق به الخبر على رأى من جوز تقديم الحال على عاملها المعنوي عند كونها ظرفاً أو حرف جر كما سبق في تفسير قوله تعالى (والله على الناس حجج البيت) وأياً ما كان فعنى كون التوبة عليه سبحانه صدور القبول عنه تعالى وكلمة على للدلالة على التحقق ألبتة بحكم جرى العادة وسبق الوعد حتى كأنه من الواجبات عليه سبحانه وهذا مراد من قال كلمة على بمعنى من وقيل هي بمعنى عند وعن الحسن يعنى التوبة التي يقبلها الله تعالى وقيل هي التوبة التي أوجب الله تعالى على نفسه بفضل قبولها وهذا يشير إلى أن قوله تعالى على الله صفة للتوبة بتقدير متعلقه معرفة على رأى من جوز حذف الموصول مع بعض صلته أى إنما التوبة الكائنة على الله والمراد بالسوء المعصية صغيرة كانت أو كبيرة وقيل الخبر على الله وقوله تعالى للذين متعلق بما تعلق به الخبر أو بمحذوف وقع حالا من الضمير المستكن في متعلق الخبر وليس فيه ما في الوجه الأول من تقديم الحال على العامل المعنوي إلا أن الذى يقتضيه المقام ويستدعيه النظام هو الأول لما أن ما قبله من وصفه تعالى بكونه تواباً رحيماً إنما يقتضى بيان اختصاص قبول التوبة منه تعالى بالذكورين وذلك إنما يكون بجعل قوله تعالى للذين الخ خبراً ألا ترى إلى قوله عز وجل (وليست التوبة الذين يعملون السيئات) الخ فإنه ناطق بما قلنا كأنه قيل إنما التوبة لهؤلاء لا لهؤلاء ﴿ بجهالة ﴾ متعلق بمحذوف

وقع حالا من فاعل يعملون أى يعملون السوء متلبسين بها أى جاهلين سفهاء أو يعملون على أن الباء سببية أى يعملونه بسبب الجهالة لأن ارتكاب الذنب مما يدعو إليه الجهل وليس المراد به عدم العلم بكونه سوءاً بل عدم التفكر فى العاقبة كما يفعله الجاهل قال قتادة اجتمع أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم فرأوا أن كل شيء عصى به ربه فهو جهالة عمداً كان أو خطأ وعن مجاهد من عصى الله تعالى فهو جاهل حتى ينزع عن جهالته وقال الزجاج يعنى بقوله بجهالة اختيارهم اللذة الفانية على اللذة الباقية ﴿ ثم يتوبون من قريب ﴾ أى من زمان قريب وهو ما قبل حضور الموت كما ينبىء عنه ما سيأتى من قوله تعالى : (حتى إذا حضر أحدهم الموت) الخ فإنه صريح فى أن وقت الاحتضار هو الوقت الذى لا تقبل فيه التوبة فبقى ما رواه فى حيز القبول وعن ابن عباس رضى الله عنهما قبل أن ينزل به سلطان الموت وعن الضحاك كل توبة قبل الموت فهو قريب .

وعن إبراهيم النخعى ما لم يؤخذ بكظمه وهو مجرى النفس ، وروى أبو أيوب عن النبي صلى الله عليه وسلم د أن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر ، وعن عطاءه لوقبل موته بفراق ناقه ، وعن الحسن أن إبليس قال حين أهبط إلى الأرض وعزتك لا أفارق ابن آدم مادام روحه فى جسده ، فقال تعالى : د وعزتى لا أغلق عليه باب التوبة ما لم يغرغر ، ومن تبعضية أى يتوبون بعض زمان قريب كأنه سمي ما بين وجود المعصية وبين حضور الموت زماناً قريباً فى أى جزء تاب من أجزاء هذا الزمان فهو تائب ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى المذكورين من حيث اتصافهم بما ذكر وما فيه من معنى البعد باعتبار كونهم بانقضاهم ذكرهم فى حكم البعيد ، والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أولسكل أحد من يصلح للخطاب وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ يتوب الله عليهم ﴾ وما فيه من تكرير الإسناد لتقوية الحكم وهذا وعد بقبول توبتهم لئلا يمان أن التوبة لهم والفاء للدلالة على سببيتها للقبول ﴿ وكان الله عليهما حكيماً ﴾ مبالغة فى العلم والحكمة فينبى أحكامه وأفعاله على أساس الحكمة والمصلحة

والجملة اعتراضية مقرررة لمضمون ما قبلها وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار للإشعار بعلّة الحكم فإن الألوهية أصل لاتصافه تعالى بصفات الكمال .

﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات ﴾ تصريح بما فهم من قصر القبول على توبة من تاب من قريب وزيادة تعيين له ببيان أن توبة من عدام بمنزلة العدم وجمع السيئات باعتبار تكرر وقوعها في الزمان المديد لا لأن المراد بها جميع أنواعها وبما مر من السوء نوع منها ﴿ حتى إذا حضر أحدكم الموت قال إني تبت الآن ﴾ حتى حرف لإبتداء الجملة الشرطية بعدها غاية لما قبلها أي ليس قبول التوبة للذين يعملون السيئات إلى حضور موتهم وقولهم حينئذ إني تبت الآن وذكر الآن لمزيد تعيين الوقت وإيثار قال على تاب لإسقاط ذلك عن درجة الاعتبار والتجاشى عن تسميته توبة ﴿ ولا الذين يموتون وهم كفار ﴾ عطف على الموصول الذي قبله أي ليس قبول التوبة لهؤلاء ولا هؤلاء وإنما ذكر هؤلاء مع أنه لا توبة لهم رأساً مبالغة في بيان عدم قبول توبة المسوفين وإيداناً بأن وجودها كعدمها بل في تكرير حرف النفي في المعطوف إشعار خفي بكون حال المسوفين في عدم استتباع الجدوى أقوى من حال الذين يموتون على الكفر والمراد بالموصولين إما الكفار خاصة وإما الفساق وحدهم وتسميتهم في الجملة الحالية كفاراً للتخليط كما في قوله تعالى (ومن كفر فإن الله غني عن العالمين) ، وأما ما يعم الفريقين جميعاً فالتسمية حينئذ للتخليط ويجوز أن يراد بالأول الفسقة وبالثاني الكفرة ففيه مبالغة أخرى ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الفريقين وما فيه من معنى البعد للإيدان بتراخي حالهم في الفظاعة وبعد منزلتهم في السوء وهو مبتدأ خبره ﴿ أعتدنا لهم ﴾ أي هيأنا لهم ﴿ عذاباً أليماً ﴾ تكرير الإسناد لما مر من تقوية الحكم وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لإظهار الاعتناء بكون العذاب معداً لهم ووصفه للتفخيم الذاتي والوصفي .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يحمل لكم أن ترثوا النساء كرها ﴾ كان الرجل

إذا مات قريبه يلقي ثوبه على امرأته أو على خباتها ويقول أرث امرأته كما أرث ماله فيصير بذلك أحق بها من كل أحد ثم إن شاء تزوجها بلا صداق غير الصداق الأول وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقها ولم يعطها منه شيئاً وإن شاء عضلها لتفتدى نفسها بما ورثت من زوجها وإن ذهبت المرأة إلى أهلها قبل إلقاء الثوب فهي أحق بنفسها فنهوا عن ذلك وقيل لهم لا يحل لكم أن تأخذوهن بطريق الإرث على زعمكم كما تحاز المواريث وهن كارهات لذلك أو مكراهات عليه وقيل كانوا يمسكونهن حتى يمتن ويرثوا منهن فقبل لهم لا يحل لكم ذلك وهن غير راضيات بامساككم وقرىء لاتحل بالناء الفوقية على أن ترثوا بمعنى الوراثة وقرىء كرها بضم الكاف وهي لغة كالضعف والضعف وكان الرجل إذا تزوج امرأة ولم تكن من حاجته حبسها مع سوء العشرة والقهر وضيق عليها لتفتدى نفسها منه بما لها وتختلع فقيل لهم ﴿ ولا تعضلوهن ﴾ عطفاً على ترثوا ولا لتأكيد النفي والخطاب للأزواج والعضل الحبس والتصنيق ومنه عضلت المرأة بولدها إذا اختنقت رحمها فخرج بعضه وبقي بعضه أى ولا أن تضيقوا عليهن ﴿ لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن ﴾ أى من الصداق بأن يدفعن إليكم بعضه اضطراراً فتأخذوه منهن وإنما لم يتعرض لفعالهن لإذنانا بكونه بمنزلة العدم لصدوره عنهن اضطراراً وإنما عبر عن ذلك بالذهاب به لا بالأخذ ولا بالإذهاب للبالغة في تقييده بيان تضمنته لأمرين كل منهما محذور شنيع الأخذ والإذهاب منهن لأنه عبارة عن الذهاب مستصحبا به ﴿ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ على صيغة الفاعل من بين بمعنى تبين وقرىء على صيغة المفعول وعلى صيغة الفاعل من أبان بمعنى تبين أى بينة القبح من النشوز وشكاسة الخلق وإيذاء الزوج وأهله بالبذاء والسلطة ويعضده قراءة أبى إلا أن يفحشن عليكم ، وقيل الفاحشة الزنا ، وهو استثناء من أعم الأحوال أو أعم الأوقات أو أعم العلل أى ولا يحل لكم عضلن في حال من الأحوال أو في وقت من الأوقات أو لعلة من العلل إلا في حال إتيانن بفاحشة

أو إلا في وقت إتيانهم أو إلا لإتيانهم بها فإن السبب حينئذ يكون من جهتهم وأنتم معذورون في طلب النخلع .

﴿وعاشروهن بالمعروف﴾ خطاب للذين يسيئون العشرة معهن والمعروف ما لا ينكره الشرع والمروء والمراد ههنا النصفه في المبيت والنفقة والإجمال في القول ونحو ذلك ﴿فإن كرهتموهن﴾ وسئتم صحبتهن بمقتضى الطبيعة من غير أن يكون من قبلهن ما يوجب ذلك من الأمور المذكورة فلا تفارقوهن بمجرد كراهة النفس واصبروا على معاشرتهن ﴿فعسى أن تكثرها شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾ علة للجزاء أقيمت مقامه للإيدان بقوة استلزامها لإياه كأنه قيل فإن كرهتموهن فاصبروا عليهن مع الكراهة فلعل لكم فيما تكثرهونه خيراً كثيراً ليس فيما تحبونه وعسى تامة رافعة لما بعدها مستغنية عن تقدير الخبر أى فقد قربت كراهتكم شيئاً وجعل الله فيه خيراً كثيراً فإن النفس ربما تكثره ما هو أصلح في الدين وأحمد عاقبة وأذن إلى الخير وتحب ما هو بخلافه فليكن نظركم إلى ما فيه خير وصلاح دون ما تهوى أنفسكم وذكر الفعل الأول مع الاستغناء عنه وانحصار العلية في الثانى للتوسل إلى تعميم مفعوله ليفيد أن ترتيب الخير الكثير من الله تعالى ليس مخصوصاً بمكروه دون مكروه بل هو سنة إلهية جارية على الإطلاق حسب اقتضاء الحكمة وأن ما نحن فيه مادة من موادها وفيه من المبالغة في الحمل على ترك المفارقة وتعميم الإرشاد ما لا يخفى وقرىء ويجعل مرفوعاً على أنه خبر لمبتدأ محذوف والجملة حالية تقديره وهو أى ذلك الشيء يجعل الله فيه خيراً كثيراً وقيل تقديره والله يجعل بوضع المظهر موضع المضمرة وتنوين خيراً لتفخيمه الذاتى ووصفه بالكثرة لبيان نغامته الوصفية والمراد به ههنا الولد الصالح وقيل الألفة والمحبة .

﴿وإن أردتم استبدال زوج﴾ أى تزوج امرأة ترغبون فيها ﴿مكان زوج﴾ ترغبون عنها بأن تطلقوها ﴿وآتيتم إحداهن﴾ أى إحدى الزوجات فإن المراد بالزوج هو الجنس والجملة حالية بإضمار قد لا معطوفة على الشرط

أى وقد آتبتهم التى تريدون أن تطلقوها ﴿ فنطارا ﴾ أى مالا كثيرا ﴿ فلا تأخذوا منه ﴾ أى من ذلك القنطار ﴿ شيئا ﴾ يسيراً فضلاً عن الكثير ﴿ تأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾ استئناف مسوق لتقرير النهى والتنفير عن المنهى عنه والاستفهام للإنكار والتوبيخ أى تأخذونه باهتين وأثمين أو للبهتان والإثم فإن أحدهم كان إذا تزوج امرأة بهت التى تحته بفاحشة حتى يلجئها إلى الإفتداء منه بما أعطاها ليصرفه إلى تزوج الجديدة فنهوا عن ذلك والبهتان الكذب الذى يبهت المكذوب عليه ويدهشه وقد يستعمل فى الفعل الباطل ولذلك فسر ههنا بالظلم وقوله عز وجل .

﴿ وكيف تأخذونه ﴾ إنكار لأخذه إثر إنكار وتنفير عنه بعد تنفير وقد بولغ فيه حيث وجه الإنكار إلى كيفية الأخذ إيداناً بأنه بما لا سبيل له إلى التحقق والوقوع أصلاً لأن ما يدخل تحت الوجود لا بد أن يكون على حال من الأحوال فإذا لم يكن لشيء حال أصلاً لم يكن له حظ من الوجود قطعاً وقوله عز وجل ﴿ وقد أفضى بعضكم إلى بعض ﴾ حال من فاعل تأخذونه مفيدة لتأكيد التكثير وتقرير الاستبعاد أى على أى حال أو فى أى حال تأخذونه والحال أنه قد جرى بينكم وبينهن أحوال منافية له من الخلوّة وتقرر المهر وثبوت حق خدمتهن لكم وغير ذلك ﴿ وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ﴾ عطف على ما قبله داخل فى حكمه أى أخذن منكم عهداً وثيقاً وهو حق الصحبة والمعاشرة أو ما وثق الله تعالى عليهم فى شأنهن بقوله تعالى ﴿ فإمسك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ أو ما أشار إليه النبي عليه الصلاة والسلام أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله تعالى .

﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم ﴾ شروع فى بيان من يحرم نكاحها من النساء ومن لا يحرم وإنما خص هذا النكاح بالنهى ولم ينظم فى سلك نكاح المحرمات الآتية مبالغة فى الزجر عنه حيث كانوا مصرين على تعاطيه قال ابن عباس وجمهور المفسرين كان أهل الجاهلية يتزوجون بأزواج آباؤهم فنهوا

عن ذلك واسم الآباء ينتظم الأجداد مجازا فتثبت حرمة ما نكحوها نسا وإجماعا ويستقل في إثبات هذه الحرمة نفس النكاح إذا كان صحيحا وأما إذا كان فاسدا فلا بد في إثباتها من الوطء أو ما يجرى مجراه من التقبيل والمس بشهوة ونحوهما بل هو المثبت لها في الحقيقة حتى لو وقع شيء من ذلك بحكم ملك اليمين أو بالوجه المحرم ثبت به الحرمة عندنا خلافا للشافعي في المحرم أى لا تنكحوا التى نكحها آباؤكم وإيثار ما على من للذهاب إلى الوصف وقيل ما مصدرية على لإرادة المفعول من المصدر ﴿من النساء﴾ بيان لما نكح على الوجهين ﴿إلا ما قد سلف استثناء مما نكح مفيد للمبالغة في التحريم بإخراج الكلام مخرج التعليق بالمحال على طريقة قوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب والمعنى لا تنكحوا حلائل آباءكم إلا من ماتت منهن والمقصود سد طريق الإباحة بالكيفية ونظيره قوله تعالى (حتى يلج الجمل في سم الخياط) وقيل هو استثناء مما يستلزمه النهى ويستوجه مباشرة المنهى عنه كأنه قيل لا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء فإنه موجب للعقاب إلا ما قد مضى فإنه معفو عنه وقيل هو استثناء منقطع معناه لكن ما قد سلف لا مؤاخذه عليه لا أنه مقرر ويأباهما قوله تعالى ﴿لأنه كان فاحشة ومقتا﴾ فإنه تعليل للنهى وبيان لكون المنهى عنه في غاية القبح مبغوضا أشد البغض وأنه لم يزل في حكم الله تعالى وعلمه موصوفا بذلك ما رخص فيه لأمة من الأمم فلا يلائم أن يوسط بينهما ما يهون أمره من ترك المؤاخذه على ما سلف منه ﴿وساء سييلا﴾ في كلمة ساء قولان أحدهما أنها جارية مجرى بئس في الذم والعمل ففيها ضمير مبهم يفسره ما بعده والمنصوص بالذم محذوف تقديره وساء سييلا سبيل ذلك النكاح كقوله تعالى بئس الشراب أى ذلك الماء وثانيهما أنها كسائر الأفعال وفيها ضمير يعود إلى ما عاد إليه ضمير لأنه وسييلا تمييز والجملة إما مستأنفة لا محل لها من الإعراب أو معطوفة على خبر كان محكية بقول مضمرة هو المعطوف في الحقيقة

تقديره ومقولا في حقه ساء سبيلا فإن السنة الأمم كافة لم تزل ناطقة بذلك في الأعصار والأمصار . قيل مراتب القبح ثلاث القبح الشرعى والقبح العقلى والقبح العادى وقد وصف الله تعالى هذا النكاح بكل ذلك فقوله تعالى فاحشة مرتبة قبحه العقلى وقوله تعالى ومقتا مرتبة قبحه الشرعى وقوله تعالى وساء سبيلا مرتبة قبحه العادى وما اجتمع فيه هذه المراتب فقد بلغ أقصى مراتب القبح ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت ﴾ ليس المراد تحريم ذواتهن بل تحريم نكاحهن وما يقصد به من التمتع بهن وبيان امتناع ورود ملك النكاح عليهن وانتفاء محليتهن له أصلا وأما حرمة التمتع بهن بملك اليمين في المواد التى يتصور فيها قرار الملك كما فى بعض المعطوفات على تقدير رهن فثابتة بدلالة النص لاتحاد المدار الذى هو عدم محلية أوضاعهن لذلك لا بعبارته بشهادة سباق النظم الكريم وسياقه وإنما لم يوجب المدار المذكور امتناع ورود ملك اليمين عليهن رأسا ولا حرمة سببه الذى هو العقد أو ما يجرى مجراه كما أوجب حرمة عقد النكاح وامتناع ورود حكمه عليهن لأن مورد ملك اليمين ليس هو البضع الذى هو مورد ملك النكاح حتى يفوت بفوات محليته له كملك النكاح فإنه حيث كان مورده ذلك فات بفوات محليته له قطعا وإنما مورده الرقبة الموجودة فى كل رقيق فيتحقق بتحقيق محله حتما ثم يزول بوقوع العتق فى المواد التى سبب حرمتها محض القرابة النسبية كالمذكورات ويبقى فى البواقي على حاله مستتبعا لجميع أحكامه المقصودة منه شرعا وأما حل الوطء فليس من تلك الأحكام فلا ضير فى تخلفه عنه كما فى المجوسية . والأمهات تعم الجدات وإن علون والبنات تتناول بناتهن وإن سفلان والأخوات ينتظمن الأخوات من الجهات الثلاث وكذا الباقيات والعمة كل أثنى ولدها من ولد والدك والحالة كل أثنى ولدها من ولد والدتك قريبا أو بعيدا وبنات الأخ وبنات الأخت تتناول القريبة والبعيدة ﴿ وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة ﴾ نزل الله تعالى الرضاعة منزلة النسب حتى سمي المرضعة أما لرضيع والمراضعة أختا وكذلك زوج المرضعة أبوه وأبواه جداه وأخته

عمته وكل ولد ولد له من غير المرضعة قبل الرضاع وبعده فهم إخوته وأخواته لأبيه وأم المرضعة جدته وأختها خالته وكل من ولدها من هذا الزوج فهم إخوته وأخواته لأبيه وأمه ومن ولدها من غيره فهم إخوته وأخواته لأمه ومنه قوله عليه السلام يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب وهو حكم كل من جار على عمومه وأما أم أخيه لأب وأخت لابنه لأم وأم ابنه وأم عمه وأم خاله لأب فليست حرمتهم من جهة النسب حتى يحل بعمومه ضرورة حلهم في صور الرضاع بل من جهة المصاهرة ألا يرى أن الأولى موطوءة أبيه والثانية بنت موطوءته والثالثة أم موطوءته والرابعة موطوءة جده الصحيح والخامسة موطوءة جده الفاسد .

﴿ وأمهات نسائكم ﴾ شروع في بيان المحرمات من جهة المصاهرة إثر بيان المحرمات من جهة الرضاعة التي لها لحة كالحمة بالنسب والمراد بالنساء المنكوحات على الإطلاق سواء كن مدخولا بهن أولا وعليه جمهور العلماء روى عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال في رجل تزوج امرأة ثم طلقها قبل أن يدخل بها إنه لا بأس بأن يتزوج ابنتها ولا يحل له أن يتزوج أمها وعن عمر وعمران بن الحصين رضی الله عنهما أن الأم تحرم بنفس العقد وعن مسروق هي مرسله فأرسلوا ما أرسل الله وعن ابن عباس أبهموا ما أبهم الله خلا أنه روى عنه وعن علي وزيد وابن عمر وابن الزبير رضی الله عنهم أنهم قرؤا وأمهات نسائكم اللاتي دخلتم بهن وعن جابر روايتان وعن سعيد بن المسيب عن زيد أنه إذا ماتت عنده فأخذ ميراثها كره أن يخلف على أمها وإذا طلقها قبل أن يدخل بها فإن شاء فعل أقام الموت في ذلك مقام الدخول كما قام مقامه في باب المهر والعدة ويلحق بهن الموطوءات بوجه من الوجوه المعدودة فيما سبق والمسوسات ونظائرهن والأمهات تعم المرضعات كما تعم الجدات حسبها ذكر ﴿ وربائبكم اللاتي في حجوركم ﴾ الربائب جمع ربيبة فعيل بمعنى مفعول والتاء للنقل إلى الإسمية والريبب ولد المرأة من آخر سمى به لأنه يربه غالبا كما يرب

ولده وإن لم يكن ذلك أمرا مطردا وهو المعنى بكونهن في الحجور فإن شأنهن الغالب المعتاد أن يكن في حضانة أمهاتهن تحت حماية أزواجهن لا كونهن كذلك بالفعل وفائدة وصفهن بذلك تقوية علة الحرمة وتكملها كما أنها هي النسكته في إيرادهن باسم الرائب دون بنات النساء فإن كونهن بصدد احتضانهم لهن وفي شرف القلب في حجورهم وتحت حمايتهم وتربيتهم بما يقوى الملاسة والشبه بينهن وبين أولادهم ويستدعى لإجرامهن مجرى بناتهن لا تقييد الحرمة بكونهن في حجورهم بالفعل كما روى عن علي رضي الله عنه وبه أخذ داود ومذهب جمهور العلماء ما ذكر أو لا بخلاف ما في قوله تعالى :

(من نسائكم اللاتي دخلتم بهن) فإنه لتقييدها به قطعاً فإن كلمة من متعلقة بمحذوف وقع حالا من ربائبكم اللاتي استقررن في حجوركم كائنات من نسائكم الخ ولا مساغ لجعله حالا من أمهات أو ما أضيفت هي إليه خاصة وهو بين لا ستره به ولا مع ما ذكر أو لا ضرورة أن حالته من ربائبكم أو من ضميرها تقتضى كون كلمة من ابتدائية وحالته من أمهات أو من نسائكم تستدعى كونها بيانية وإدعاء كونها اتصالية منتظمة لمعنى الابتداء والبيان أو جعل الموصول صفة للنساء من مع اختلاف عامليهما مما يجب تنزيهه ساحة التنزيل عن أمثاله مع أنه سعى في إسكات ما نطق به النبي عليه الصلاة والسلام واتفق عليه الجمهور حسبها ذكر فيما قبل وأما ما نقل من القراءة فضعيفة الرواية وعلى تقدير الصحة محمولة على النسخ ومعنى الدخول بهن لإدخالهن الستر والباء للتعدية وهي كناية عن الجماع كقوهم بنى عليها وضرب عليها الحجاب وفي حكمه اللمس ونظائره كما مر (فإن لم تكونوا) أى فيما قبل (دخلتم بهن) أصلاً (فلا جناح عليكم) أى في نكاح الرائب وهو تصريح بما أشعر به ما قبله والفاء الأولى لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن بيان حكم الدخول مستتبع لبيان حكم عدمه (وحلائل أبنائكم) أى زوجاتهم سميت الزوجة حليلة لخلها للزوج أو لخلوها في محله وقيل لخل كل منهما لزار صاحبه وفي حكمهن من نياتهم ومن (٤٣ - أبو السعود - أول)

يحرين مجراهن من المسوسات ونظائرهن وقوله تعالى ﴿الذين من أصلابكم﴾ لإخراج الأديعاء دون أبناء الأولاد والأبناء من الرضاع فإنهم وإن سفلوا في حكم الأبناء الصليبين ﴿وأن يجمعوا بين الأختين﴾ في حيز الرفع عطفاً على ما قبله من المحرمات والمراد به جمعهما في النكاح لا في ملك اليمين وأما جمعهما في الوطء بمالك اليمين فليحق به بطريق الدلالة لاتحادهما في المدار وقوله عليه الصلاة والسلام من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجمعن ماءه في رحم أختين بخلاف نفس مالك اليمين فإنه ليس في معنى النكاح في الإفضاء إلى الوطء ولا مستلزماً له ولذلك يصح شراء المجوسية دون نكاحها حتى لو وطئها لا يحل له وطء إحداهما حتى يحرم عليه وطء الأخرى بسبب من الأسباب وكذا لو تزوج أخت أمته الموطوءة لا يحل له وطء إحداهما حتى يحرم عليه الأخرى لأن المنكوحة موطوءة حكماً فكأنه جمعهما وطئاً وإسناد الحرمة إلى جمعهما لا إلى الثانية منهما بأن يقال وأخوات نساتكم للاحتراز عن إفادة الحرمة المؤبدة كما في المحرمات السابقات ولكونه معزول من الدلالة على حرمة الجمع بينهما على سبيل المعية ويشترك في هذا الحكم الجمع بين المرأة وعمتها ونظائرهما فإن مدار حرمة الجمع بين الأختين لإفضاؤه إلى قطع ما أمر الله بوصله وذلك متحقق في الجمع بين هؤلاء بل أولى فإن العمة والخالة بمنزلة الأم فقوله عليه السلام لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ولا على ابنة أخيها ولا على ابنة أختها من قبيل بيان التفسير لا بيان التغيير وقيل هو مشهور يجوز به الزيادة على الكتاب ﴿إلا ما قد سلف﴾ استثناء منقطع أي لكن ما قد مضى لا تؤخذون به ولا سبيل إلى جعله متصلاً بقصد التأكيذ والمبالغة كما مر فيما سلف لأن قوله تعالى :

﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾ تعليل لما أفاده الاستثناء فيتحتم الانقطاع وقال عطاء والسدى معناه إلا ما كان من يعقوب عليه السلام فإنه قد جمع بين ليا أم يهوذا وبين راحيل أم يوسف عليه الصلاة والسلام ولا يساعده التعليل لأن ما فعله يعقوب عليه السلام كان حلالاً في شريعته وقال ابن عباس رضى

الله عنهما كان أهل الجاهلية يجرمون ما حرم الله تعالى إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين وروى هشام بن عبد الله عن محمد بن الحسن أنه قال كان أهل الجاهلية يعرفون هذه المحرمات إلا اثنتين نكاح امرأة الأب والجمع بين الأختين ألا يرى أنه قد عقب النهي عن كل منهما بقوله تعالى إلا ما قد سلف وهذا يشير إلى كون الاستثناء فيهما على سنن واحد ويأباه اختلاف التعاليم (والمحصنات) بفتح الصاد وهن ذوات الأزواج أحصنهن الزوج أو الأزواج أو الأولياء أي أعفهن عن الوقوع في الحرام وقرىء على صيغة اسم الفاعل فإنهن أحصن فروجهن عن غير أزواجهن أو أحصن أزواجهن وقيل الصيغة للفاعل على القراءة الأولى أيضا وفتح الصاد محمول على الشذوذ كما في نظيره مملوح ومسهب من ألحح وأسهب قيل قد ورد الإحصان في القرآن على أربعة معان الأول الزوج كما في هذه الآية الكريمة الثاني العفة كما في قوله تعالى (محصنين غير مسافحين) الثالث الحرية كما في قوله تعالى (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات) والرابع الإسلام كما في قوله تعالى (فإذا أحصن) قيل في تفسيره أي أسلمن وهي معطوفة على المحرمات السابقة وقوله تعالى :

(من النساء) متعلق بمحذوف وقع حالا منها أي كانتات من النساء وفائدته تأكيد عمومها في دفع توهم شمولها للرجال بناء على كونها صفة الأنفس كما توهم (إلا ما ملكت أيما نكحكم) استثناء من المحصنات استثناء النوع من الجنس أي ملكتموه وإسناد الملك إلى الأيمان لما أن سببه الغالب هو الصفة الواقعة بها وقد اشتهر ذلك في الأرقاء لاسيما في إنانهم وهن المرادات ههنا رعاية للمقابلة بينه وبين ملك النكاح الوارد على الحرائر والتعبير عنهن بما لا يسقطهن بما فيهن من قصور الرق عن رتبة العقلاء وهي إمامة حسب عموم صلتها فالاستثناء حينئذ ليس لإخراج جميع أفرادها من حكم التحريم بطريق شمول النفي بل بطريق نفي الشمول المستلزم لإخراج بعضها أي حرمت عليكم المحصنات على الإطلاق إلا المحصنات اللاتي ملكتموهن فإنهن لسن من المحرمات على

الإطلاق بل فيهن من لا يحرم نكاحهن في الجملة وهن المسليات بغير أزواجهن أو مطلقا حسب اختلاف الرايين وإما خاصة بالمذكورات فالمنعى حرمت عليكم المحصنات إلا اللاتي سبين فإن نكاحهن مشروع في الجملة أى لغير ملاكن وأما حلن لهم بحكم ملك اليمين فمفهوم بدلالة النص لاتحاد المناط لا بعبارة لما عرفت من أن مساق النظم الكريم لبيان حرمة التمتع بالمحرمات المعدودة بحكم ملك النكاح وإنما ثبوت حرمة التمتع بهن بحكم ملك اليمين بطريق دلالة النص وذلك بما لا يجرى فيه الاستثناء قطعاً وأما عدهن من ذوات الأزواج مع تحقق الفرقة بينهن وبين أزواجهن قطعاً بالتباين أو بالسبب على اختلاف الرايين فمبنى على اعتقاد الناس حيث كانوا حينئذ غافلين عن الفرقة ألا ترى إلى ما روى عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه من أنه قال أصبنا يوم أو طاس سبايا هن أزواج ففكر هنا أن نقع عليهن فسالنا النبي عليه السلام وفي رواية عنه قلنا يا رسول الله كيف نقع على نساء قد عرفنا أنسائهن وأزواجهن فنزلت والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيما نكحتم فاستلنناهن .

وفي رواية أخرى عنه ونادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا لا توطأ حامل حتى تضع ولا حائل حتى تحيض فأباح وطأهن بعد الاستبراء وليس في ترتيب هذا الحكم على نزول الآية الكريمة ما يدل على كونها مسوقة له فإن ذلك إنما يتوقف على إفادتها له بوجه من وجوه الدلالة لا على إفادتها بطريق العبارة أو نحوها . هذا وقد روى عن أبي سعيد رضى الله عنه أنه قال لأنها نزلت في نساء كن يهاجرن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهن أزواج فيتزوجهن بعض المسلمين ثم يقدم أزواجهن مهاجرين فنهى عن نكاحهن فالمحصنات حينئذ عبارة عن المهاجرات اللاتي يتحقق أو يتوقع من أزواجهن الإسلام والمهاجرة ولذلك لم يزل عنهن اسم الإحصان والنهى للتحریم المحقق وتعرف حال المتوقع وإلما عداهن بمعزل من الحرمة واستحقاق إطلاق الاسم عليهن كيف لا وحين انقطعت العلاقة بين المسبية وزوجها مع اتحادهما

في الدين فالآن تنقطع ما بين المهاجرة وزوجها أحق وأولى كما يفصح عنه قوله عز وجل (فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لأن حل لهم ولا هم يحلون لهن) الآية .

((كتاب الله)) مصدر مؤكد أي كتب الله ((عليكم)) تحريم هؤلاء كتاباً وفرضه فرضاً وقيل منصوب على الإغراء بفعل مضمرة أي ألزموا كتاب الله وعليكم متعلق إما بالمصدر وإما بمحذوف وقع حالاً منه وقيل هو إغراء آخر مؤكداً لما قبله قد حذف مفعوله للدلالة المذكور عليه أو بنفس عليكم على رأى من جوز تقديم المنصوب في باب الإغراء كما في قوله :

يا أيها المائح دلوى دونك إني رأيت الناس يحمدونك

وقرىء كتب الله بالجمع والرفع أي هذه فرائض الله عليكم وقرىء كتب الله بلفظ الفعل ((وأحل لكم)) عطف على حرمت عليكم الخ وتوسيط قوله تعالى (كتاب الله عليكم) بينهما للبالغة في الحمل على المحافظة عن المحرمات المذكورة وقرىء على صيغة المبني للفاعل فيكون معطوفاً على الفعل المقدر وقيل بل على حرمت الخ فإنهما جملتان متقابلتان مؤسستان للتحريم والتجامل المنوطين بأمر الله تعالى ولا ضمير في اختلاف المسند إليه بحسب الظاهر لاسيما بعد ما أكدت الأولى بما يدل على أن المحرم هو الله تعالى ((ما وراء ذلكم)) إشارة إلى ما ذكر من المحرمات المعدودة أي أحل لكم نكاح ما سواهن انفراداً وجمعاً ولعل لإيثار اسم الإشارة المتعرض لوصف المشار إليه وعنوانه على الضمير المتعرض للذات فقط لتذكير ما في كل واحدة منهن من العنوان الذي يدور عليه^(١) حكم الحرمة فيفهم مشاركة من في معناهن لهن فيها بطريق الدلالة فإن حرمة الجمع بين المرأة وعمتها وبين خالتها ليست بطريق الدلالة كما سلف وقيل ليس المراد بالإحلال مطلقاً أي على جميع الأحوال

(١) في ط : عليه يدور .

حتى يرد أنه يلزم منه حل الجمع بين المرأة وعمتها وبينها وبين خالتها بل إنما هو لإحلالهن في الجملة أى على بعض الأحوال ولا ريب في حل نكاحهن بطريق الانفراد ولا يقدر في ذلك حرمة بطريق الجمع ألا ترى أن حرمة نكاح المعتدة والمطلقة ثلاثاً والخامسة ونكاح الأمة على الحرة ونكاح الملائنة لا تقدر في حل نكاحهن بعد العدة وبعد التحليل وبعد تطليق الرابعة وانقضاء العدة وبعد تطليق الحرة وبعد إكذاب الملائن نفسه وأنت خير بأن الحل يجب أن يتعلق ههنا بما يتعلق به الحرمة فيما سلف وقد تعلق هناك بالجمع فلا بد أن يتعلق الحل ههنا به أيضاً .

﴿ أن تبتغوا ﴾ متعلق بالفعلين المذكورين على أنه مفعول له لكن لا باعتبار ذاتهما بل باعتبار بيانهما وإظهارهما أى بين لَكُمْ تحريم المحرمات المعدودة وإحلال ما سواهن إرادة أن تبتغوا بأموالكم والمفعول محذوف أى تبتغوا النساء أو متروك أى تفعلوا الإبتغاء ﴿ بأموالكم ﴾ بصرفها إلى مهورهن أو بدل اشتغال مما وراء ذلكم بتقدير ضمير المفعول ﴿ محصنين ﴾ حال من فاعل تبتغوا والإحصان العفة وتحصين النفس عن الوقوع فيما يوجب اللوم والعقاب ﴿ غير مسافحين ﴾ حال ثانية منه أو حال من الضمير في محصنين والسفاح الزنا والفجور من السفح الذى هو صب المنى سمي به لأنه الغرض منه ومفعول الفعلين محذوف أى محصنين فروجكم غير مسافحين الزواني وهى فى الحقيقة حال مؤكدة لأن المحصن غير مسافح ألبتة وما فى قوله تعالى : ﴿ فما استمتعتم به منهن ﴾ إما عبارة عن النساء أو عما يتعلق بهن من الأفعال وعلى التقديرين فهى إما شرطية ما بعدها شرطها وإما موصولة ما بعدها صلته وأياً ما كان فهى مبتدأ خبرها على تقدير كونها شرطية إما فعل الشرط أو جوابه أو كلاهما على الخلاف المعروف وعلى تقدير كونها موصولة قوله تعالى : ﴿ فآتوهن أجورهن ﴾ والقاء انضمام الموصول معنى الشرط ثم على تقدير كونها عبارة عن النساء فالعائد إلى المبتدأ هو الضمير المنصوب فى فآتوهن سواء

كانت شرطية أو موصولة ومن بيانية أو تبعيضية محلها النصب على الحالية من الضمير المجرور في به والمعنى فأى فرد استمتعتم به أو بالفرد الذى استمتعتم به حال كونه من جنس النساء أو بعضهن فأتوهن وقد روعى تارة جانب اللفظ فأفرد الضمير أولا وأخرى جانب المعنى فجمع نازيا وثالثا وأما على تقدير كونها عبارة عما يتعلق بهن فن ابتدائية متعلقة بالاستمتاع والعائد إلى المبتدأ محذوف والمعنى أى فعل استمتعتم به من جهتهن من نكاح أو خلوة أو نحوهما أو بالفعل الذى استمتعتم به من قبلهن من الأفعال المذكورة فأتوهن أجورهن لأجله أو بمقابلته والمراد بالأجور المهور فإنها أجور أبضاعهن .

﴿ فريضة ﴾ حال من الأجور بمعنى مفروضة أو نعت لمصدر محذوف أى إيتاء مفروضا أو مصدر مؤكد أى فرض ذلك فريضة أى لمن عليكم ﴿ ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به ﴾ أى لا إثم عليكم فيما تراضيتم به من الخط عن المهر أو الإبراء منه على طريقة قوله تعالى (فإن طبن لکم عن شيء منه نفسا فكلوه) إثر قوله تعالى (وآتوا النساء صدقاتهن) وقوله تعالى (إلا أن يعنن) وتعميمه للزيادة على المسمى لا يساعده رفع الجناح عن الرجال لأنها ليست مظنة الجناح إلا أن يجعل الخطاب للأزواج تغليبا فإن أخذ الزيادة على المسمى مظنة الجناح على الزوجة وقيل فيما تراضيتم به من نفقة ونحوها وقيل من مقام أو فراق ولا يساعده قوله تعالى :

﴿ من بعد الفريضة ﴾ إذ لا تعلق لها بالفريضة إلا أن يكون الفراق بطريق المخالعة وقيل نزلت في المتعة التي هي النكاح إلى وقت معلوم من يوم أو أكثر سميت بذلك لأن الغرض منها مجرد الاستمتاع بالمرأة واستمتاعها بما يعطى وقد أبيحت ثلاثة أيام حين فتحت مكة شرفها الله تعالى ثم نسخت لما لم يروى أنه عليه السلام أباحها ثم أصبح يقول يا أيها الناس إنى كنت أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء ألا إن الله حرم ذلك إلى يوم القيامة وقيل أبيع مرتين وحرم مرتين وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه رجع عن القول

بجوازه عند موته وقال اللهم إني أتوب إليك من قولي بالمتعة وقولي في الصرف ﴿ إن الله كان عليهما ﴾ بمصالح العباد ﴿ حكيما ﴾ فيها شرع لهم من الأحكام ولذلك شرع لكم هذه الأحكام اللائقة بحالككم ﴿ ومن لم يستطع منكم ﴾ من إما شرطية ما بعدها شرطها أو موصولة ما بعدها صلتهما والظرف متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل يستطع أى حال كونه منكم وقوله تعالى .

﴿ طولاً ﴾ أو غنى وسعة أى اعتلاء ونيلاً وأصله الزيادة والفضل مفعول ليستطع وقوله عز وجل ﴿ أن ينكح المحصنات المؤمنات ﴾ إما مفعول صريح لطول فإن إعمال المصدر المنون شائع ذائع كما في قوله تعالى (أو إطعام في يوم ذى مسغبة يتيماً ذا مقربة) كأنه قيل ومن لم يستطع منكم أن ينال نكاحهن وإما بتقدير حرف الجر أى ومن لم يستطع منكم غنى إلى نكاحهن أو لنكاحهن فالجار في محل النصب صفة لطولاً أى طولاً موصلاً إليه أو كائناً له أو على نكاحهن على أن الطول بمعنى القدرة في القاموس الطول والطائل والطائلة الفضل والقدرة والغنى والسعة ومحل أن بعد حذف الجار نصب عند سيبويه والفراء وجر عند الكسائي والأخفش وإما بدل من طولاً لأن الطول فضل والنكاح قدرة وإما مفعول ليستطع وطولاً مصدر مؤكد له لأنه بمعناه إذ الإستطاعة هى الطول أو تمييز أى ومن لم يستطع منكم نكاحهن استطاعة أو من جهة الطول والغنى أى لا من جهة الطبيعة والمزاج فإن عدم الاستطاعة من تلك الجهة لا تعلق له بالمقام والمراد بالمحصنات الحرائر بدليل مقابلتهن بالملوكات فإن حريتهن أحصنتهن عن ذل الرق والابتذال وغيرهما من صفات القصور والنقصان وقوله عز وجل .

﴿ فمما ملكت أيانكم ﴾ إما جواب للشرط أو خبر للوصول والفاء لتضمنه معنى الشرط والجار متعلق بفعل مقدر حذف مفعوله وما موصولة أى فلينكح امرأة أو أمة من النوع الذى ملكته أيانكم وهو فى الحقيقة متعلق بمحذوف وقع صفة لذلك المفعول والمحذوف ومن تبعضية أى فلينكح امرأة

كائنة من ذلك النوع وقيل من زائفة والموصول مفعول للفعل المقدر أى فلينسكح ما ملكته أيمانكم وقوله تعالى ﴿ من فتياتكم المؤمنات ﴾ في محل النصب على الحالية من الضمير المقدر في ملكت الراجع إلى ما وقيل هو المفعول للفعل المقدر على زيادة من وما ملكت متعلق بنفس الفعل ومن لا ابتداء الغاية أو بمحذوف وقع حالا من فتياتكم ومن للتبويض أى فلينسكح فتياتكم كائنات بعض ما ملكت أيمانكم والمؤمنات صفة لفتياتكم على كل تقدير وقيل هو المفعول للفعل المقدر ومما ملكت على ما تقدم آنفاً ومن فتياتكم حال من العائد المحذوف وظاهر النظم الكريم يفيد عدم جواز نكاح الأمة للمستطيع كما ذهب إليه الشافعي رحمه الله تعالى وعدم جواز نكاح الأمة الكتابية أصلاً كما هو رأى أهل الحجاز وقد جوزهما أبو حنيفة رحمه الله تعالى متمسكاً بالعمومات فمحمل الشرط والوصف هو الأفضلية ولا نزاع فيها لأحد وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال وما وسع الله على هذه الأمة نكاح الأمة واليهودية والنصرانية وإن كان موسراً وقوله تعالى .

﴿ والله أعلم بإيمانكم ﴾ جملة معترضة جىء بها لتأنيسهم بنكاح الإماء واستنزاهم من رتبة الاستنكاف منه ببيان أن مناط التفاضل ومدار التفاخر هو الإيمان دون الأنساب على ما نطق به قوله عز قائلها (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) والمعنى أنه تعالى أعلم منكم بمراتبكم في الإيمان الذي به تنتظم أحوال العباد وعليه يدور فلك المصالح في المعاش والمعاد ولا تعلق له بخصوص الحرية والرق فرب أمة يفوق إيمانها إيمان الحرائر وقوله تعالى : ﴿ بعضكم من بعض ﴾ إن أريد به الاتصال من حيث الدين فهو بيان لتناسبهم من تلك الحيثية لأثر بيان تفاوتهم في ذلك وإن أريد به الاتصال من حيث النسب فهو اعتراض آخر مؤكداً للتأنيس من جهة أخرى والخطاب في الموضوعين إما لمن كما في الخطاب الذي يعقبه قد روعى فيما سبق جانب اللفظ وههنا جانب المعنى والاتلفات للاهتمام بالترغيب والتأنيس وإما لغيرهم من المسلمين كالخطابات السابقة لحصول

الترغيب بخطابهم أيضا وأيما كان بإعادة الأمر بالنكاح على وجه الخطاب في قوله تعالى: ﴿فانكحوهن﴾ مع انفهامه من قوله تعالى فيما ملكت أيما نكحكم حسبما ذكر لزيادة الترغيب في نكاحهن وتقييده بقوله تعالى ﴿ياذن أهلهن﴾ وتصديره بالفاء للإيذان بترتبه على ما قبله أي وإذ قد وقفت على جلالة الأمر فانكحوهن ياذن مواليهن ولا تترفعوا عنهن وفي اشتراط إذن الموالي دون مباشرتهم للعقد إشعار بجواز مباشرتهن له ﴿وآتوهن أجورهن﴾ أي مهورهن ﴿بالمعروف﴾ متعلق بآتوهن أي أدوا ليهن مهورهن بغير مطل وضرار وإلجاء إلى الإقتضاء واللز حسبما يقتضيه الشرع والعادة ومن ضرورته أن يكون الأداء ليهن ياذن الموالي فيكون ذكر ليهن لبيان جواز الأداء ليهن لا لسكون المهور لهن وقيل أصله آتوا مواليهن فحذف المضاف وأوصل الفعل إلى المضاف إليه ﴿محصنات﴾ حال من مفعول فانكحوهن أي حال كونهن عفاف عن الزنا .

﴿غير مسأخات﴾ حال مؤكدة أي غير مجاهرات به ﴿ولا متخذات أخذان﴾ عطف على مسأخات ولا لتأكيد ما في غير من معنى النفي والخدن الصاحب قال أبو زيد الأخدان الأصدقاء على الفاحشه والواحد خدن وخدين واجمع للمقابلة بالانقسام على معنى ألا يكون لواخده منهن خدن لاعلى معنى ألا يكون لها أخذان أي غير مجاهرات بالزنا ولا مسرات له وكان الزنا في الجاهلية منقسما إلى هذين القسمين ﴿فإذا أحصن﴾ أي بالتزويج وقرىء على البناء للفاعل أي أحصن فروجهن أو أزواجهن ﴿فإن أتين بفاحشة﴾ أي فعلن فاحشة وهى الزنا ﴿فعلين﴾ وجب عليهن شرعا ﴿نصف ما على المحصنات﴾ أي الحرائر الأبكار ﴿من العذاب﴾ من الحد الذى هو جلد مائة فنصفه خمسون كما هو كذلك قبل الإحصان فالمراد بيان عدم تفاوت حدهن بالإحصان كتفاوت حد الحرائر فالفاء فى فإن أتين جواب إذا والثانية جواب إن والشرط الثانى مع جوابه مترتب على وجود الأول كما فى قولك إذ أتيتنى فإن لم أكرمك فعبيدى حر ﴿ذلك﴾ أي نكاح الإمام

﴿ لمن خشى العنت منكم ﴾ أى لمن خاف وقوعه فى الإثم الذى تؤدى إليه غلبة الشهوة وأصل العنت انكسار العظم بعد الجبر فاستعير لكل مشقة وضرر يعترى الإنسان بعد صلاح حاله ولا ضرر أعظم من موازنة المآثم بارتكاب أخش القبائح وقيل أريد به الحد لأنه إذا هويها يخشى أن يواقعها فيحد والأول اللائق بحال المؤمن دون الثانى لإيهامه أن المحذور عنده الحد لا ما يوجبه ﴿ وأن تصبروا ﴾ أى عن نكاحهن متعفين كافين أنفسكم عما تشنيه من المعاصى .

﴿ خير لكم ﴾ من نكاحهن وإن سبقت كلمة الرخصة فيه لما فيه من تعريض الولد للرق قال عمر رضى الله عنه أيما حر تزوج بأمة فقد أرق نصفه وقال سعيد بن جبير ما نكاح الأمة من الزنا إلا قريب ولأن حق المولى فيها أقوى فلا تخلص للزوج خلوص الحرائر ولأن المولى يقدر على استخدامها كيفما يريد فى السفر والحضر وعلى بيعها للحاضر والبادى وفيه من اختلال حال الزوج وأولاده ما لا مزيد عليه ولأنها بمنزلة خراجة ولاجة وذلك كله ذل ومهانة سارية إلى النكاح والعزة هى اللائقة بالمؤمنين ولأن مهرها لمولاهما فلا تقدر على التمتع به ولا على هبته للزوج فلا ينتظم أمر المنزل وقد قال عليه السلام الحرائر صلاح البيت والإماء هلاك البيت ﴿ والله غفور ﴾ مبالغ فى المغفرة فيغفر لمن لم يهبر عن نكاحهن ما فى ذلك من الأمور المنافية لحال المؤمنين ﴿ رحيم ﴾ مبالغ فى الرحمة ولذلك رخص لكم فى نكاحهن ﴿ يريد الله ليبين لكم ﴾ استئناف مسوق لتقرير ما سبق من الأحكام وبيان كونها جارية على مناهج المهتدين من الأنبياء والصالحين قيل أصل النظم الكريم يريد الله أن يبين لكم فزيدت اللام لتأكيد معنى الاستقبال اللازم للإرادة ومفعول بين محذوف ثقة بشهادة السباق والسياق أى يريد الله أن يبين لكم ما هو خفى عنكم من مصالحكم وفضائل أعمالكم أو ما تعبدكم به من الحلال والحرام وقيل مفعول يريد محذوف تقديره يريد الله تشريع ما شرع

من التحريم والتحليل لأجل التبيين لَكُمْ وهذا مذهب البصريين ويعزى إلى سيدييه وقيل إن اللام بنفسها ناصبة للفعل من غير إضمار أن وهى وما بعدها مفعول للفعل المتقدم فإن اللام قد تقام مقام أن في فعل الإرادة والأمر فيقال أردت لأذهب وأن أذهب وأمرتك لتقوم وأن تقوم قال تعالى (يريدون ليطفئوا نور الله) وفي موضع (يريدون أن يطفئوا) وقال تعالى (وأمرنا لنسلم) وفي موضع (وأمرت أن أسلم) وفي آخر (وأمرت لأعدل بينكم) أى أن أعدل بينكم وهذا مذهب الكوفيين ومنعه البصريون وقالوا إن وظيفة اللام هى الجر والنصب فيما قالوا بإضمار أن أى أمرنا بما أمرنا لنسلم ويريدون ليطفئوا وقيل يؤول الفعل الذى قبل اللام بمصدر مرفوع بالابتداء ويجعل ما بعده خبرا له كما فى تسمع بالمعيدي خير من أن تراه أى أن تسمع به ويعزى هذا الرأى إلى بعض البصريين ﴿ ويهديكم سنن الذين من قبلكم ﴾ من الأنبياء والصالحين لتقتدوا بهم .

﴿ ويتوب عليكم ﴾ إذ أنبئتم إليه تعالى عما يقع منكم من التقصير والتفريط فى مراعاة ما كلفتموه من الشرائع فإن المكلف قلما يخلو من تقصير يستدعى تلافيه بالتوبة ويغفر لكم ذنوبكم أو يرشدكم إلى ما يردعكم عن المعاصى ويحشركم على التوبة أو إلى ما يكون كفارة لسيئاتكم وليس الخطاب لجميع المكلفين حتى يتخلف مراده تعالى عن إرادته فيمن لم يتب منهم بل لطائف معينة حصلت لهم هذه التوبة ﴿ والله عليم ﴾ مبالغ فى العلم بالأشياء التى من جملتها ما شرع لكم من الأحكام ﴿ حكيم ﴾ مراعى فى جميع أفعاله الحكمة والمصلحة ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ﴾ جملة مبتدأ مسوقة لبيان كمال منفعة ما أراه الله تعالى وكال مضره ما يريد الفجرة لا لبيان إرادته تعالى لتوبته عليهم حتى يكون من باب التكرير للتقرير ولذلك غير الأسلوب إلى الجملة الاسمية دلالة على دوام الإرادة ولم يفعل ذلك فى قوله تعالى : ﴿ ويريد الذين يتبعون الشهوات ﴾ للإشارة إلى الحدوث وللإيماء إلى كمال المباينة بين مضمونى الجملتين كما مر فى قوله تعالى (الله ولى الذين آمنوا) الآية

والمراد بمتبعي الشهوات الفجرة فإن اتباعها الاثمار بها وأما المتعاطى لما سوغه الشرع من المشتبهات دون غيره فهو متبع له لا لها وقيل هم اليهود والنصارى وقيل هم المجوس حيث كانوا يحلون الأخوات من الأب وبنات الأخ وبنات الأخت فلما حرمهن الله تعالى قالوا فإنكم تحلون بنت الخالة مع أن العممة والخالة عليكم حرام فانكحوا بنات الأخ والأخت فنزلت ﴿ أن تملوا ﴾ عن الحق بموافقتهن على اتباع الشهوات واستحلال المحرمات وتكونوا زناة مثلهم وقرىء بالياء التحتانية والضمير للذين يتبعون الشهوات .

﴿ ميلا عظيما ﴾ أى بالنسبة إلى ميل من اقترف خطيئة على ندره بلا استحلال ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم ﴾ بما مر من الرخص ما فى عهدتكم من مشاق التكاليف والجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب ﴿ وخلق الإنسان ضعيفا ﴾ عاجزا عن مخالفة هواه غير قادر على مقابلة دواعيه وقواه حيث لا يصبر عن اتباع الشهوات ولا يستخدم قواه فى مشاق الطاعات وعن الحسن أن المراد ضعف الخلق ولا يساعده المقام فإن الجملة اعتراض تذييل مسوق لتقرير ما قبله من التخفيف بالرخصة فى نكاح الإماء وليس لضعف البنية مدخل فى ذلك وإنما الذى يتعلق به التخفيف فى العبادات الشاقة وقيل المراد به ضعفة فى أمر النساء خاصة حيث لا يصبر عنهن وعن سعيد بن المسيب ما أيس الشيطان من بنى آدم قط إلا أتاها من قبل النساء فقد أتى على ثمانون سنة وذهبت لإحدى عينى وأنا أعشو بالأخرى وإن أخوف ما أخاف على نفسى فتنة النساء وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما وخلق الإنسان على البناء للفاعل والضمير لله عز وجل وعنه رضى الله عنه ثمانى آيات فى سورة النساء هن خير لهذا الأمة بما طلعت عليه الشمس وغربت (يريد الله ليعين لكم) (والله يريد أن يتوب عليكم) (يريد الله أن يخفف عنكم) (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه) (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة

يضاعفها) (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه) (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم) ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ شروع في بيان بعض الحرمات المتعلقة بالأموال والأشخاص إثر بيان الحرمات المتعلقة بالأبضاع وتصدير الخطاب بالنداء والتوبيخ لإظهار كمال العناية بمضمونه والمراد بالباطل ما يخالف الشرع كالغصب والسرقة والخيانة والقمار وعقود الربا وغير ذلك مما لم يبيحه الشرع أى لا يأكل كل بعضكم أموال بعض بغير طريق شرعى ﴿إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم﴾ استثناء منقطع وعن متعلقة بمحذوف وقع صفة لتجارة أى إلا أن تكون التجارة تجارة صادرة عن تراض كما في قوله

• إذا كان يوماً ذاكوا كب أشعنا •

أى إذا كان اليوم يوماً الخ أو إلا أن تكون الأموال أموال تجارة وقرىء تجارة بالرفع على أن كان تامة أى ولكن اقصدوا كون تجارة عن تراض أى وقوعها أو ولكن وجود تجارة عن تراض غير منتهى عنه وتخصيصها بالذكر من بين سائر أسباب الملك لكونها معظمها وأغلبها وقوعاً وأوفقها لذوى المروءات والمراد بالتراضى مرضاة المتبايعين فيما تعاقدا عليه في حال المبايعات وقت الإيجاب والقبول عندنا وعند الشافعى رحمة الله حالة الافتراق عن مجلس العقد .

﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ أى من كان من جنسكم من المؤمنين فإن كلهم كنفس واحدة وعن الحسن لا تقتلوا إخوانكم والتعبير عنهم بالأنفس للبالغة في الزجر عن قتلهم بتصويره بصورة ما لا يكاد يفعله عاقل أو لانهلكوا أنفسكم بتعريضها للعقاب باقتراف ما يفضى إليه فإنه القتل الحقيقي كما يشعر به إيراده عقيب النهى عن أكل الحرام فيكون مقررراً للنهى السابق وقيل لا تقتلوا أنفسكم بالبئح كما يفعله بعض الجهلاء أو بارتكاب ما يؤدي إلى القتل من الجنايات وقيل بالقائمها في التهلكة وأيد بما روى عن عمرو بن العاص أنه تأوله بالتيتم لخوف البرد فلم ينسك عليه النبي عليه الصلاة والسلام وقرىء ولا تقتلوا

بالتشديد للتكثير وقد جمع في التوصية بين حفظ النفس وحفظ المال لما أنه شقيقها من حيث أنه سبب لقوامها وتحصيل كمالها واستيفاء فضائلها وتقديم النهي عن التعرض له لكثرة وقوعه ﴿إن الله كان بكم رحيمًا﴾ تعليل للنهي بطريق الاستئناف أي مبالغًا في الرحمة والرفقة ولذلك نهاكم عما نهاكم^(١) عنه فإن في ذلك رحمة عظيمة لكم بالزجر عن المعاصي وللذين هم في معرض التعرض لهم بحفظ أموالهم وأنفسهم وقيل معناه لأنه كان بكم بأمة محمد رحيمًا حيث أمر بنى إسرائيل بقتلهم أنفسهم ليكون توبة لهم وتمحيصًا لخطاياهم ولم يكلفكم تلك التكاليف الشاقة ﴿وهن يفعل ذلك﴾ إشارة إلى القتل خاصة أو لما قبله من أكل الأموال وما فيه من معنى البعد للإيدان بعد منزلتهما في الفساد ﴿عدوانًا وظلمًا﴾ أي إفراطًا في التجاوز عن الحد وإتيانًا بما لا يستحقه وقيل أريد بالعدوان التعدي على الغير وبالظلم الظلم على النفس بتعريضها للعقاب ومحلهما النصب على الحالية أو على التعليل^(٢) أي معتديًا وظالمًا أو للعدوان والظلم وقرئ عدوانًا بكسر العين .

﴿فسوف نصليه﴾ جواب للشرط أن ندخله وقرئ بالتشديد من صلى وفتح الشون من صلاه يصليه ومنه شاة مصلية ويصليه بالياء والضمير لله تعالى أو لذلك من حيث أنه سبب للصلى ﴿نارًا﴾ أي نارًا مخصوصة هائلة شديدة العذاب ﴿وكان ذلك﴾ أي لإصلاؤه النار ﴿على الله يسيرًا﴾ لتحقيق الداعي وعدم الصارف وإظهار الاسم الجليل بطريق الالتفات لترية المهابة وتأكيد استقلال الاعتراض التذييلي ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾ أي كبائر الذنوب التي نهاكم الشرع عنها مما ذكر ههنا وما لم يذكر وقرئ كبير على إرادة الجنس ﴿نكفركم عنكم﴾ بنون العظمة على طريقة الالتفات وقرئ بالياء بالإسناد إليه تعالى والتكفير إماطة المستحق من العقاب بثواب أريد أو بتوبة

(١) في ط : نهي .

(٢) في ط : العلية .

أى يغفر لكم ﴿ سيئاتكم ﴾ صفائركم ونمحوها عنكم ، قال المفسرون الصلاة إلى الصلاة والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن من الصغائر إذا اجتنبت الكبائر واختلف في الكبائر والأقرب أن الكبيرة كل ذنب رتب الشارع عليه الحد أو صرح بالوعيد فيه وقيل ما علم حرمة بقاطع وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنها سبع الإشراف بالله تعالى وقتل النفس التي حرمها الله تعالى وقذف المحصنات وأكل مال اليتيم والربا والفرار من الزحف وعقوق الوالدين وعن علي رضي الله عنه التعقيب بعد الهجرة مكان عقوق الوالدين وزاد ابن عمر رضي الله عنهما السحر واستحلال البيت الحرام وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلا قال له الكبائر سبع قال هي إلى سبعانة أقرب منها إلى سبع وروى عنه إلى سبعين إذلا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار وقيل أريد به أنواع الشرك لقوله تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وقيل صغر الذنوب [وكبرها] ^(١) بالإضافة إلى ما فوقها وما تحتها وبحسب فاعلمها [فقط] ^(٢) بل بحسب الأوقات والأماكن أيضا فأكبر الكبائر الشرك وأصغر الصغائر حديث النفس وما بينهما وسائط. يصدق عليه الأمران فن له أمران منهما ^(٣) ودعت نفسه إليهما بحيث لا يتالك فكفها عن أكبرهما كفر عنه ما ارتكبه لما استحق على اجتناب الأكبر من الثواب ﴿ وندخلكم مدخلا ﴾ بضم الميم اسم مكان هو الجنة ﴿ كريما ﴾ أى حسنا مرضيا أو مصدر ميمي أى إدخالا مع كرامة وقرىء بفتح الميم وهو أيضا يحتمل المكان والمصدر ونصبه على الثانى بفعل مقدر مطاوع للذكور أى ندخلكم فتدخلون مدخلا أو دخولا كريما كما فى قوله .

وعضة دهر يا ابن مروان لم تدع من المال إلا مسحت أو مجلف
أى لم تدع فلم يبق إلا مسحت الخ ﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على

(٣) فى ط : منها

(٢، ١) سقط من المطبوعة .

بعض) أى عليكم ولعل لإيثار الإيهام عليه للتفادى عن المواجهة بما يشق عليهم . قال القفال لما نهى الله تعالى عن أكل أموال الناس بالباطل وقتل الأنفس عقبه بالنهاى عما يؤدي إليه من الطمع فى أموالهم وتمنيها وقيل نهىهم أولاً عن التعرض لأموالهم بالجوارح ثم عن التعرض لها بالقلب على سبيل الحسد لتطهير أعمالهم الظاهرة والباطنة فالمعنى لا تتمنوا ما أعطاه الله تعالى بعضكم من الأمور الدنيوية كالجاه والمال وغير ذلك مما يجرى فيه التنافس دونكم فإن ذلك قسمة من الله تعالى صادرة عن تدبير لائق بأحوال العباد مترتب على الإحاطة بجلائل شؤونهم ودقائقها فعلى كل أحد من المفضل عليهم أن يرضى بما قسم الله له ولا يتمنى حظ المفضل ولا يحسده عليه لما أنه معارضة لحكم القدر المؤسس على الحكم البالغة لا لأن عدمه خير له ولا لأنه لو كان خلافه لكان مفسدة له كما قيل إذ لا يساعده ما سياتى من الأمر بالسؤال من فضله تعالى فإنه ناطق بأن النهى عنه تمنى نصيب الغير لا تمنى ما زاد على نصيبه مطلقاً هذا وقد قيل لما جعل الله تعالى فى الميراث للذكر مثل حظ الأنثيين قالت النساء نحن أحوج أن يكون لنا سهمان وللرجال سهم واحد لأننا ضعفاء وهم أقوياء وأقدر على طلب المعاش منا فنزلت وهذا هو الأنسب بتعليل النهى بقوله عز وجل ﴿ للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ﴾ فإنه صريح فى جريان التمنى بين فريقى الرجال والنساء ولعل صيغة المذكر فى النهى بالبعض والمعنى لكل من الفريقين فى الميراث نصيب معين المقدار مما أصابه بحسب استعداده وقد عبر عنه بالاكْتِسَاب على طريقة الاستعارة التبعية المبنية على تشبيه اقتضاء حاله لنصيبه باكتسابه إياه تأكيداً لاستحقاق كل منهما لنصيبه وتقوية لاختصاصه به بحيث لا يتخطاه إلى غيره فإن ذلك مما يوجب الانتهاء عن التمنى المذكور .

وقوله تعالى ﴿ واسألوا الله من فضله ﴾ عطف على النهى وتوسيط التعليل بينهما لتقرير الانتهاء مع ما فيه من الترغيب فى الامتنال بالأمر كأنه قيل لا تتمنوا ما يختص بغيركم من نصيبه المكتسب له واسألوا الله تعالى من خزائن (٤٤ - أبو السعود - أول)

نعمه التي لا تنفذ وحذف المفعول الثاني للتعميم أي وأسألوه ما تريدون فإنه تعالى يعطيكموه أو لسكونه معلوما من السياق أي وأسألوه مثله وقيل من زائدة والتقدير وأسألوه فضله وقد جاء في الحديث لا يتمنين أحدكم مال أخيه ولكن لبقل اللهم ارزقني اللهم أعطني مثله وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سلوا الله من فضله فإنه يحب أن يسأل وأفضل العبادة انتظار الفرج وحمل النصيب على الأجر الأخرى وإبقائه الاكتساب على حقيقته يجعل سبب النزول ما روى أن أم سلمة رضي الله عنها قالت لبت الله كتب علينا الجهاد كما كتبه على الرجال فيكون لنا من الأجر مثل ما لهم على أن المعنى لكل من الفريقين نصيب خاص به من الأجر مترتب على عمله فالرجال أجر بمقابلة ما يليق بهم من الأعمال كالجهاد ونحوه وللنساء أجر بمقابلة ما يليق بهن من الأعمال كحفظ حقوق الأزواج ونحوه فلا تتمن النساء خصوصية أجر الرجال وليسألن من خزائن رحمته تعالى ما يليق بحالهن من الأجر لا يساعده سياق النظم الكريم المتعلق بالمواريث وفضائل الرجال ﴿ إن الله كان بكل شيء عليما ﴾ ولذلك جعل الناس على طبقات ورفع بعضهم على بعض درجات حسب مراتب استعداداتهم الفاضلة عليهم بموجب المشيئة المبنية على الحكم الأبية .

﴿ ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون ﴾ جملة مبتدأة مقررة لمضمون ما قبلها ولكل مفعول ثان لجعلنا قدم عليه لتأكيد الشمول ودفع توهم تعلق الجعل بالبعض دون البعض كما في قوله تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) أى ولكل تركة جعلنا ورثة متفاوتة في الدرجة يلونها ويحوزون منها أنصباهم بحسب استحقاقهم المنوط بما بينهم وبين المورث من العلاقة ومما ترك بيان لكل قد فصل بينهما بما عمل فيه كما فصل في قوله تعالى (قل أغير الله أخذ ليا فاطر السموات والأرض) بين لفظ الجلالة وبين صفة التعامل فيما أضيف إليه أعنى غير أو ولكل قوم جعلناهم موالى أى وراث نصيب معين مغاير لنصيب قوم آخرين مما ترك الوالدان والأقربون على أن جعلنا موالى صفة

لكل والضمير الراجع إليه محذوف والكلام مبتدأ وخبر على طريقة قولك لكل من خلقه الله إنسانا من رزق الله أى حظ. منه وأما ما قيل من أن المعنى لكل أحد جعلنا موالى مما ترك أى وراثنا منه على أن من صلة موالى لأنه فى معنى الوارث وفى ترك ضمير مستكن عائد إلى كل وقوله تعالى الوالدان والأقربون استئناف مفسر للموالى كأنه قيل من هم فقيل الوالدان ففيه تفكيك للنظم الكريم لأن بيان الموالى بما ذكر يفوت الإبهام المصحح لاعتبار التفاوت بينهم وبه يتحقق الانتظام كما أشير إليه فى تقرير الوجهين الأولين مع ما فيه من خروج الأولاد من الموالى إذ لا يتناولهم الأقربون كما لا يتناول الوالدين ﴿والذين عقدت أيمانكم﴾ هم موالى الموالاة كان الحليف يرث السدس من مال حليفه فنسخ بقوله تعالى (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض) وعند أنى حنيفة رحمه الله إذا أسلم رجل على يد رجل وتعاقدا على أن يرثه ويعقل عنه صح وعليه عقله وله إرثه إن لم يكن له وارث أصلا وإسناد العقد إلى الأيمان لأن المعتاد هو المماسحة بها عند العقد والمعنى عقدت أيمانكم عهدوهم فحذف العهود وأقيم المضاف إليه مقامه ثم حذف وقرىء عقدت بالتشديد وعاقدت بمعنى عاقدتهم أيمانكم وماسحتموهم وهو مبتدأ متضمن للمعنى الشرط ولذلك صدر الخبر أعنى قوله تعالى ﴿فآتوهم نصيبتهم﴾ بالفاء أو منصوب بمضمر يفسره ما بعده كقولك زيدا فاضربه أو مرفوع معطوف على الوالدان والأقربون وقوله تعالى فآتوهم الخ جملة مبينة للجملة قبلها ومؤكدة لها والضمير للموالى ﴿إن الله كان على كل شىء﴾ من الأشياء التى من جملتها الإتياء والمنع ﴿شهيذا﴾ ففيه وعد ووعد .

﴿الرجال قوامون على النساء﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان سبب استحقاق الرجال الزيادة فى الميراث تفصيلا لإثر بيان تفاوت استحقاقهم إجمالا وإيراد الجملة اسمية والخبر على صيغة المبالغة للإيزان بعراقتهم فى الاتصاف بما أسند إليهم ورسوخهم فيه أى شأنهم القيام عليهن بالأمر والنهى قيام الولاية على الرعية وعلل ذلك بأمرين وهى وكسبى فقبل ﴿بما فضل الله بعضهم على بعض﴾ الباء

سببية متعلقة بقوامون أو بمحذوف وقع حالا من ضميره وما مصدرية والضمير البارز لكلا الفريقين تغليبا أى قوامون عليهن بسبب تفضيل الله تعالى لإياهم عليهن أو ملتبسين بتفضيله تعالى الخ ووضع البعض موضع الضميرين للإشعار بغاية ظهور الأمر وعدم الحاجة إلى التصريح بالفضل والمفضل عليه أصلا ولذلك لم يصرح بما به التفضيل من صفات كما له التي هي كمال العقل وحسن التدبير ورزاقه الرأى ومزبد القوة فى الأعمال والطاعات ولذلك خصوا بالنبوة والإمامة والولاية وإقامة الشعائر والشهادة فى جميع القضايا وجوب الجهاد والجمعة وغير ذلك ﴿وبما أنفقوا من أموالهم﴾ الباء متعلقة بما تعلقت به الأولى وما مصدرية وموصولة حذف عائدها من الصلة ومن تبعيضية أو ابتدائية متعلقة بأنفقوا أو بمحذوف وقع حالا من العائد المحذوف أى وبسبب إنفاقهم من أموالهم أو بسبب ما أنفقوه من أموالهم أو كائنا من أموالهم وهو ما أنفقوه من المهر والنفقة . روى أن سعد بن الربيع أحد نقيب الأنصار رضى الله عنهم نشرت عليه امرأته حبيبة بنت زيد بن أبى زهير فلطمها فانطلق بها أبوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكا فقال عليه السلام لتقتص منه فنزلت فقال عليه السلام أردنا أمرا وأراد الله أمرا والذى أراد الله خير .

﴿ فالصالحات ﴾ شروع فى تفصيل أحوالهن وبيان كيفية القيام عليهن بحسب اختلاف أحوالهن أى فالصالحات منهن ﴿ قانتات ﴾ أى مطيعات لله تعالى قائمات بحقوق الأزواج ﴿ حافظات للغيب ﴾ أى لمواجب الغيب أى لما يجب عليهن حفظه فى حال غيبة الأزواج من الفروج والأموال . عن النبي صلى الله عليه وسلم خير النساء امرأة إن نظرت إليها سرتك وإن أمرتها أطاعتك وإذا غبت عنها حفظتك فى مالها ونفسها وتلا الآية وقيل لأسرارهم وإضافة المال إليها للإيدان بأن ماله فى حق التصرف فى حكم مالها كما فى قوله تعالى (ولا توتوا السفهاء أموالكم) الآية ﴿بما حفظ الله﴾ ما مصدرية أى بحفظه تعالى لإياهن بالأمر بحفظ الغيب والحث عليه بالوعد والوعيد والتوعيد والتوفيق له أو موصولة أى بالذى حفظ الله لهم عليهم من المهر والنفقة والقيام بحفظهن

والذنب عنهن وقرىء بما حفظ الله بالنصب على حذف المضاف أى بالأمر الذى حفظ حق الله تعالى وطاعته وهو التعفف والشفقة على الرجال .

﴿ واللاتى تخافون نشوزهن ﴾ خطاب للأزواج وإرشادهم إلى طريق القيام عليهن والخوف حالة تحصل فى القلب عند حدوث أمر مكروه أو عند الظن أو العلم بحدوثه وقد يراد به أحدهما أى تظنون عصيانهن وترفعن عن مطاوعتكم من النشز وهو المرتفع من الأرض ﴿ فعظوهن ﴾ فانصحوهن بالترغيب والترهيب ﴿ واهجروهن ﴾ بعد ذلك إن لم ينفع الوعظ والنصيحة ﴿ فى المضاجع ﴾ أى فى المرافد فلا تدخلوهن تحت اللحف ولا تباشروهن فيكون كناية عن الجماع وقيل المضاجع المبات أى لا تبايتوهن وقرىء فى المضجع وفى المضطجع ﴿ واضربوهن ﴾ إن لم ينجع ما فعلتم من العظة والهجران ضرباً غير مبرح ولا شائن ﴿ فإن أطعنكم ﴾ بذلك كما هو الظاهر لأنه منتهى ما يعد زاجراً ﴿ فلا تبغوا عليهن سبيلاً ﴾ بالتوبيخ والأذية أى فأزيلوا عنهن التعرض واجعلوا ما كان منهن كأن لم يكن فإن الثائب من الذنب كمن لا ذنب له .

﴿ إن الله كان عليماً كبيراً ﴾ فاحذروه فإنه تعالى أقدر عليكم منكم على من تحت أيديكم أو أنه تعالى على علو شأنه يتجاوز عن سيئاتكم ويتوب عليكم عند توبتكم فأنتم أحق بالعفو عن أزواجكم عند إطاعتهم لكم أو أنه تعالى ويكبر أن يظلم أحداً أو ينقص حقه وعدم التعرض لعدم إطاعتهم لهم للإيدان بأن ذلك ليس مما ينبغى أن يتحقق أو يفرض تحققه وأن الذى يتوقع منهن ويليق بشأنهن لاسيما بعد ما كان من الزواج هو الإطاعة ولذلك صدرت الشرطية بالفناء المنبئة عن سببية ما قبلها لما بعدها ﴿ وإن خفتن شقاق بينهما ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى الحكم ووارد على بناء الأمر على التقدير المسكوت عنه أعنى عدم الإطاعة المؤدى إلى المنخاصمه والمرافعة إليهم والشقاق المخالفة إما لأن كلا منهما يريد ما يشق على الآخر وإما لأن كلا منهما فى شق أى جوانب غير شق الآخر والخوف ههنا بمعنى العلم قاله ابن عباس والجزم بوجود الشقاق لا ينافى بعث الحكمين لأنه لرجاء إزالته لا لتعرف وجوده بالفعل وقيل بمعنى

الظن وضمير التثنية للزوجين وإن لم يجر ذكرهما لجرى ما يدل عليهما وإضافة الشقاق إلى الظرف إما على لإجرائه مجرى المفعول به كما في قوله يأسارق الليلة أو مجرى الفاعل كما في قولك نهارة صائم أي إن علمتم أو ظننتم تأكد المخالفة بحيث لا يقدر الزوج على إزالتها ﴿ فابعثوا ﴾ أي إلى الزوجين لإصلاح ذات البين ﴿ حكما ﴾ رجلا وسطا صالحا للحكومة والإصلاح ﴿ من أهله ﴾ من أهل الزوج ﴿ وحقما ﴾ آخر على صفة الأول ﴿ من أهلها ﴾ فإن الأقارب أعرف ببواطن الأحوال وأطلب للإصلاح وهذا على وجه الاستحباب فلو نصبا من الأجانب جاز واختلف في أنهما هل يليان الجمع والتفريق إن رأيا ذلك فقيل لهما ذلك وهو المروى على رضى الله عنه وبه قال الشعبي وعن الحسن يجمعان ولا يفرقان وقال مالك لهما أن يتخالعا إن كان الإصلاح فيه ﴿ إن يريدان ﴾ أي الحكمان ﴿ إصلاحا ﴾ أي إن قصدا لإصلاح ذات البين وكانت نيتهم صحيحة وقلوبهما ناصحة لوجه الله تعالى .

﴿ يوفق الله بينهما ﴾ يوقع بين الزوجين الموافقة والألفة وألقى في نفوسهما المودة والرافة وعدم التعرض لذكر عدم إرادتهما الإصلاح لما ذكر من الإيدان بأن ذلك ليس مما ينبغي أن يفرض صدوره عنهما وأن الذى يليق بشأنتهما ويتوقع صدوره عنهما هو إرادة الإصلاح وفيه مزيد ترغيب للحكمين في الإصلاح وتحذير عن المساهلة لسكيلا ينسب اختلال الأمر إلى عدم إرادتهما فإن الشرطية الناطقة بدوران وجود التوفيق على وجود الإرادة منبئة عن دوران عدمه على عدمها وقيل كلا الضميرين للحكمين أي إن قصدا الإصلاح يوفق الله بينهما فمتفق كليهما ويحصل مقصودهما وقيل كلاهما للزوجين أي إن أرادا إصلاح ما بينهما من الشقاق أوقع الله تعالى بينهما الألفة والوفاق وفيه تنبيه على أن من أصلح نيته فيما يتوخاه وفقه الله تعالى لمبتغاه ﴿ إن الله كان عليما خبيراً ﴾ بالظواهر والبواطن فيعلم كيف يرفع الشقاق ويوقع الوفاق ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ﴾ كلام مبتدأ مسوق لبيان الأحكام المتعلقة بحقوق الوالدين والأقارب ونحوهم إثر بيان الأحكام المتعلقة بحقوق الأزواج صدر بما يتعلق

بمقوق الله عز وجل التي هي آكد الحقوق وأعظمها تنبيها على جلالة شأن حقوق الوالدين بنظمها في سلكها كما في سائر المواقف وشيئا نصب على أنه مفعول أي لا تشركوا به شيئا من الأشياء صنما أو غيره أو على أنه مصدرا أي لا تشركوا به شيئا من الإشراف جاليا أو خفيا ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ أي أحسنوا إليهما إحسانا ﴿ وبذئ القربى ﴾ أي بصاحب القرابة من أخ أو عم أو خال أو نحو ذلك .

﴿ واليتامى والمساكين ﴾ من الأجانف ﴿ والجار ذئ القربى ﴾ أي الذي قرب جواره وقيل له مع الجوار قرب واتصال بنسب أو دين وقرىء بالنصب على الاختصاص تعظيما لحق الجار ذئ القربى ﴿ والجار الجنب ﴾ أي البعيد أو الذي لا قرابة له وعنه عليه الصلاة والسلام الجيران ثلاثة لجار له ثلاثة حقوق حق الجوار وحق القرابة وحق الإسلام وجار له حقان حق الجوار وحق الإسلام وجار له حق واحد وهو حق الجوار وهو الجار من أهل الكتاب وقرىء والجار الجنب ﴿ والصاحب بالجنب ﴾ أي الرفيق في أمر حسن كتعلم وتصرف وصناعة وسفر فإنه صديق وحصل بجانبك ومنهم من قعد بجانبك في مسجد أو مجلس أو غير ذلك من أدنى صحبة التأممت بينك وبينه وقيل هي المرأة ﴿ وابن السبيل ﴾ هو المسافر المنتقطع به أو الضيف ﴿ وما ملكت أيمانكم ﴾ من العبيد والإماء ﴿ إن الله لا يحب من كان مختالا ﴾ أي متكبرا يأنف عن أقاربه وجيرانه وأصحابه ولا يلتفت إليهم ﴿ نفورا ﴾ يتفاخر عليهم والجملة تعليل للأمر السابق .

﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ﴾ بضم الباء وسكون الخاء وقرىء بفتح الأول وفتحهما وبضمهما والموصول بدل من قوله تعالى (من كان) أو نصب على الذم أو رفع عليه أي هم الذين أو مبتدأ خبره محذوف تقديره الذين يبخلون ويفعلون ويصنعون أحقاء بكل ملامة ﴿ ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ﴾ أي من المال والغنى أو من نعوته عليه السلام التي بينها لهم في التوراة وهو أنسب بأمرهم للناس بالبخل فإن أحبارهم كانوا يكتمونها ويأمرون أعقابهم

بكتما ﴿ وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً ﴾ وضع الظاهر موضع المضمرة لإشعاراً بأن من هذا شأنه فهو كافر بنعمة الله تعالى ومن كان كافراً بنعمة الله تعالى فله عذاب مهينه كما أهان النعمة بالبخل والإخفاء والآية نزلت في طائفة من اليهود كانوا يقولون للأنصار بطريق النصيحة لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفقر وقيل في الذين كتموا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم والجملة اعتراض تذييلي مقرر لما قبلها ﴿ والذين ينفقون أموالهم رياء الناس ﴾ أى للفتخار وليقال ما أسخاهم وما أجودهم لا ابتغاء وجه الله تعالى وهو عطف على الذين يبخلون أو على الكافرين وإنما شاركهم في الذم والوعيد لأن البخل والسرف الذى هو الإنفاق فيما لا ينبغي من حيث أنهما طرفا تفريط وإفراط سواء فى القبح واستتباع اللاتمة والذم ويجوز أن يكون العطف بناء على إجراء التغاير الوصفي بجرى التغاير الذاتى كما فى قوله :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث السكتائب فى المزدحم

أومبتداً خبره محذوف يدل عليه قوله تعالى ومن يكن الخ كأنه قيل والذين ينفقون أموالهم رياء الناس ﴿ ولا يؤمنون بالله ولا اليوم الآخر ﴾ ليتحروا بالإنفاق مرضيه تعالى وثوابه وهم مشركو مكة المنفقون أموالهم فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل المنافقون ﴿ ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً ﴾ أى فقرينهم الشيطان وإنما حذف للإيذان بظهوره واستغنائاه عن التصريح به والمراد به إبليس وأعوانه حيث حملوهم على تلك القبائح وزينوها لهم كما فى قوله تعالى (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين) ويجوز أن يكون وعيداً لهم بأن الشيطان يقربهم فى النار ﴿ وماذا عليهم ﴾ أى على من ذكر من الطوائف .

﴿ ولو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا بما رزقهم الله ﴾ أى ابتغاء وجه الله تعالى وإنما لم يصرح به تعويلاً على التفصيل السابق واكتفاء بذكر الإيمان بالله واليوم الآخر فإنه يقتضى أن يكون الإنفاق لا ابتغاء وجهه تعالى وطلب

ثوابه البتة أى وما الذى عليهم أو وأى تبعة ووبال عليهم فى الإيمان بالله والإلتفاق فى سبيله وهو توييح لهم على الجهل بمكان المنفعة والإعتقاد فى الشئ بخلاف ما هو عليه وتحريض على التفتكر لطلب الجواب لعله يؤدى بهم إلى العلم بما فيه من الفوائد الجليلة والعوائد الجميلة وتنبيه على أن المدعو إلى أمر لا ضرر فيه ينبغى أن يجيب إليه إحتياطاً فكيف إذا كان فيه منافع لا تحصى وتقديم الإيمان بهما لأهميته فى نفسه ولعدم الإعتداد بالإلتفاق بدونه وأما تقديم إلتفاقهم رثاء الناس على عدم إيمانهم بهما مع كون المؤخر أقبح من المقدم فإعتناء المناسبة بين إلتفاقهم ذلك وبين ما قبله من بخلهم وأمرهم للناس به ﴿ وكان الله بهم ﴾ وبأحوالهم المحققة ﴿ علياً ﴾ فهو وعيد لهم بالعقاب أو بأعمالهم المفروضة وبيان لإثابته تعالى لإيمانهم لو كانوا قد آمنوا وأنفقوا كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾ المنقل مفعول من النقل كالمقدار من القدر واتصاه به على أنه نعت للمفعول قائم مقامه سواء كان الظلم بمعنى النقص أو بمعنى وضع الشئ فى غير موضعه أى لا ينقص من الأجر ولا يزيد فى العقاب شيئاً مقدار ذرة أو على أنه نعت للصدر المحذوف نائب منابه أى لا يظلم ظلماً مقدار ذرة وهى النملة الصغيرة أو كل جزء من أجزاء الهباء فى الكوة وهو الأنسب بمقام المبالغة فإن قلته فى الثقل أظهر من قلة النملة وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه أدخل يده فى التراب ثم نفخ فيه فقال كل واحدة من هؤلاء ذرة .

﴿ وإن تك حسنة ﴾ أى وإن تك مثقال ذرة حسنة أنت لتأنيث الخبر أو لإضافته إلى الذرة وحذف النون من غير قياس تشبيهاً بحروف العلة وتخفيفاً لكثرة الاستعمال وقرىء حسنه بالرفع على أن كان تامة ﴿ يضاعفها ﴾ أى يضاعف ثوابها جعل ذلك مضاعفة لنفس الحسنة تنبيهاً على كمال الإلتصال بينهما كأنهما شئ واحد وقرىء يضاعفها وكلاهما بمعنى واحد وقرىء تضاعفها بنون العظمة على طريقة الإلتفات . عن عثمان النهدى أنه قال لأبى هريرة رضى الله عنه بلغنى عنك أنك تقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن الله

تعالى يعطى عبده المؤمن بالحسنة ألف ألف حسنة قال أبو هريرة لا بل سمعته صلى الله عليه وسلم يقول يعطيه ألفي ألف حسنة ثم تلا هذه الآية والمراد الكثرة لا التحديد ﴿ وبؤت من لدنه ﴾ ويعط صاحبها من عنده على نهج التفضل زائداً على ما وعده في مقابلة العمل ﴿ أجراً عظيماً ﴾ عطاء جزيلاً وإنما سماه أجراً لكونه تابعا للأجر مزيدا عليه ﴿ فكيف ﴾ محلها إما الرفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف وإما النصب بفعل محذوف على التشبيه بالحال كما هو رأى سيبويه أو على التشبيه بالظرف كما هو رأى الأخفش أى كيف حال هؤلاء الكفرة من اليهود والنصارى وغيرهم أو كيف يصنعون ﴿ إذا جئنا ﴾ يوم القيامة ﴿ من كل أمة ﴾ من الأمم ﴿ بشهيد ﴾ يشهد عليهم بما كانوا عليه من فساد العقائد وقبائح الأعمال وهو نبيهم كما فى قوله تعالى (وكنتم عليهم شهيدا ما دمت فيهم) والعامل فى الظرف مضمون المبتدأ والخبر من هول الأمر وعظم الشأن أو الفعل المقدر ومن متعلقة بجئنا .

﴿ وجئنا بك ﴾ يا محمد ﴿ على هؤلاء ﴾ إشارة إلى الشهداء المدلول عليهم بما ذكر ﴿ شهيداً ﴾ تشهد على صدقهم لعلمك بعقائدهم لاستجماع شرعك لمجامع قواعدهم وقيل إلى المكذبين المستفهم عن حالهم تشهد عليهم بالكفر والعصيان كما يشهد سائر الأنبياء على أممهم وقيل إلى المؤمنين كما فى قوله تعالى (لتكنوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) ﴿ يؤمنون الذين كفروا وعصوا الرسول ﴾ استئناف لبيان حالهم التى أشير إلى شدتها وفضاعتها بقوله تعالى فكيف فإن أريد بهم المكذبون لرسول الله صلى الله عليه وسلم فالتعبير عنهم بالموصول لا سيما بعد الإشارة إليهم بهؤلاء لندمهم بما فى حيز الصلة والإشعار بعلة ما اعتراهم من الحال الفظيعة والأمر الهائل وإيراده عليه السلام بعنوان الرسالة لتشریفه وزيادة تقييح حال مكذبيه فإن حق الرسول أن يؤمن به ويطاع لا أن يكفر به ويعصى وإن أريد بهم جنس الكفرة فهم داخلون فى زميرتهم دخولا أوليا والمراد بالرسول حينئذ الجنس المنتظم للنبي عليه السلام إنتظاما أوليا وأياما كان فقيه من تهويل الأمر ونفطيع الحال ما لا يقادر قدره

وقوله تعالى وعصوا عطف على كفروا داخل معه في الصلة والمراد معاصيهم المغايرة لكفرهم ففيه دلالة على أن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع في حق المواخذة وقيل حال من ضمير كفروا وقيل صلة لموصول آخر أى يود في ذلك اليوم الذين جمعوا بين الكفر وعصيان الرسول أو الذين كفروا وقد عصوا الرسول أو الذين كفروا والذين عصوا الرسول ولو في قوله تعالى :

(لو تسوى بهم الأرض) إن جعلت مصدرية فالجملة مفعول ليود أى يودون أن يدفنوا فتسوى بهم الأرض كالموتى وقيل يودون أنهم لم يبعثوا أو لم يخلقوا وكانهم والأرض سواء وقيل تصير البهائم ترابا فيودون حالها وإن جعلت على بابها فالمفعول محذوف لدلالة الجملة عليه أى يودون تسوية الأرض بهم وجواب لو أيضاً محذوف لإدانا بغاية ظهوره أى لسروا بذلك وقوله تعالى (ولا يكتُمون الله حديثا) عطف على يود أى ولا يقدر على كتابته لأن جوارحهم تشهد عليهم وقيل الواو للحال أى يودون أن يدفنوا في الأرض وهم لا يكتُمون منه تعالى حديثا ولا يكذبونه بقولهم : والله ربنا ما كنا مشركين إذ روى أنهم إذا قالوا ذلك ختم الله على أفواههم فنشهد عليهم جوارحهم فيشتمد الأمر عليهم فيتمنون أن تسوى بهم الأرض وقرىء تسوى على أن أصله تتسوى فأدغم التاء في السين وقرىء تسوى بحذف التاء الثانية يقال سويته فتسوى (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأتمموا سكارى حتى تعلموا ما تقولون) لما نهوا فيما سلف عن الإشراف به تعالى نهوا همنا عما يؤدي إليه من حيث لا يحتسبون فإنه روى أن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه صنع طعاما وشرابا حين كانت الخمر مباحة فدعا نورا من الصحابة رضى الله عنهم فأكلوا وشربوا حتى ثملوا وجاء وقت صلاة المغرب فتقدم أحدهم ليصلي بهم فقرأ أعبد ما تعبدون فنزلت وتصدير الكلام بحرف النداء والتنبيه للبالغ في حملهم على العمل بموجب النهى وتوجيه النهى إلى قرب الصلاة مع أن المراد هو النهى عن إقامتها للبالغ في ذلك وقيل المراد النهى عن قربان المساجد

لقوله عليه السلام جنبوا مساجدكم صديبا نكم ومجانينسكم وبأباه قوله تعالى (حتى تعلموا ما تقولون) فالمعنى لا تقيموها في حالة السكر حتى تعلموا قبل الشروع ما تقولونه إذ بتلك التجربة يظهر أنهم يعامون ما سيقروونه في الصلاة وحمل ما تقولون على ما في الصلاة يستدعى تقدم الشروع فيها على غاية النهى وحمل العلم على ما بالقوة على معنى حتى تسكونوا بحيث تعلمون ما ستقروونه في الصلاة تطويل بلا طائل لأن تلك الحبثية إنما تظهر بما ذكر من التجربة على أن إثارة ما تقولون على ما تقرؤن حينئذ يكون عاريا عن الداعى وقيل المراد بالسكر سكر النعاس وغلبة النوم وأياما كان فليس مرجع النهى هو المقيد مع بقاء القيد مرخصا بحاله بل إنما هو القيد مع بقاء المقيد على حاله : إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا. كأنه قيل يا أيها الذين آمنوا لا تسكروا في أوقات الصلاة وقد روى أنهم كانوا بعد ما نزلت الآية لا يشربون الخمر في أوقات الصلاة فإذا صلوا العشاء شربوها فلا يصبحون إلا وقد ذهب عنهم السكر وعلموا ما يقولون .

﴿ ولا جنبا ﴾ عطف على قوله تعالى وأنتم سكارى فإنه في حيز النصب كأنه قيل لا تقرؤوا الصلاة سكارى ولا جنبا والجنب من أصابه الجنابة يستوى فيه المذكر والمؤنث والواحد والجمع لجريانه مجرى المصدر ﴿ إلا عابري سبيل ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال محله النصب على أنه حال من ضمير لا تقرؤوا باعتبار تقيده بالحال الثانية دون الأولى والعامل فيه فعل النهى أى لا تقرؤوا الصلاة جنبا في حال من الأحوال لاحال كونكم مسافرين على معنى أن في حالة السفر ينتهى حكم النهى لكن لا بطريق شمول النفي لجميع صورها بل بطريق نفي الشمول في الجملة من غير دلالة على انتقاء خصوصية البعض المنتفى ولا على بقاء خصوصية البعض الباقي ولا على ثبوت نقيضه لا كليا ولا جزئيا فإن الاستثناء لا يدل على ذلك عبارة . نعم يشير إلى مخالفة حكم ما بعده لما قبله إشارة لإجمالية يكتفى بها في المقامات الخطابية لا في إثبات الأحكام الشرعية فإن ملاك الأمر في ذلك إنما هو الدليل وقد ورد عقيبها على طريقة البيان وقيل

هو صفة لجنبنا على أن إلا بمعنى غير أى وإلا جنبنا غير عابرى سبيل ومن حمل الصلاة على مواضعها فسر العبور بالاجتياز بها وجوز للجنب عبور المسجد وبه قال الشافعى رحمه الله وعندنا لا يجوز ذلك إلا أن يكون الماء أو الطريق فيه وقيل إن رجلا من الأنصار كانت أبوابهم فى المسجد وكان يصديهم الجنابة ولا يجردون مراً إلا فى المسجد فرخص لهم ذلك ﴿ حتى تغسلوا ﴾ غاية للنهى عن قربان الصلاة حالة الجنابة ولعل تقديم الاستثناء عليه للإيدان من أول الأمر بأن حكم النهى فى هذه الصورة ليس على الإطلاق كما فى صورة السكر تشويهاً إلى البيان وروما لزيادة تقررره فى الأذهان وفى الآية الكريمة إشارة إلى أن المصلى حقه أن يتحرز عما يلهيه ويشغل قلبه وأن يزكى نفسه عما يدنسها ولا يكتفى بأذى مراتب التزكية عند إمكان أعاليها .

﴿ وإن كنتم مرضى ﴾ شروع فى تفصيل ما أجمل فى الاستثناء وبيان ماهو فى حكم المستثنى من الأعذار والاقتصار فيما قبل على استثناء السفر مع مشاركة الباقي له فى حكم الترخيص للإشعار بأنه العذر الغالب المنبئ عن الضرورة التى عليها يدور أمر الرخصة كأنه قيل ولا جنباً إلا مضطرب وإليه مرجع ما قيل من أنه جعل عابرى سبيل كناية عن مطلق المعذورين والمراد بالمرض ما يمنع من استعمال الماء مطلقاً سواء كان ذلك بتعذر الوصول إليه أو بتعذر استعماله ﴿ أو على سفر ﴾ عطف على مرضى أى أو كنتم على سفر ما طال أو قصر وإيراده صريحاً مع سبق ذكره بطريق الاستثناء لبناء الحكم الشرعى عليه وبيان كلفيته فإن الاستثناء كما أشير إليه بمعزل من الدلالة على ثبوته فضلاً عن الدلالة على كلفيته وتقديم المرض عليه للإيدان بأصالته واستقلاله بأحكام لا توجد فى غيره كالاشتداد باستعمال الماء ونحوه ﴿ أو جاء أحد منكم من الغائط ﴾ هو المكان الغائر المطمئن والمجىء منه كناية عن الحدث لأن المعتاد أن من يريد يذهب إليه ليوارى شخصه عن أعين الناس وإسناد المجىء منه إلى واحد منهم من المخاطبين دونهم للنفادى عن التصريح بنسبتهم إلى ما يستحيا منه أو يستهجن التصريح به وكذلك إيثار الكناية فيما عطف عليه من قوله عز وجل ﴿ أو

لامستم النساء ﴿ على التصريح بالجماع ونظمهما في سلك سببي سقوط الطهارة والمصير إلى التيمم مع كونهما سببي وجوبها ليس باعتبار أنفسهما بل باعتبار قيدهما المستفاد من قوله تعالى ﴿ فلم تجدوا ماء ﴾ بل هو السبب في الحقيقة وإنما ذكرنا تمهيدا له وتنديها على أنه سبب للرخصة بعد انعقاد سبب الطهارة الصغرى والكبرى كما أنه قيل أولم تكونوا مرضى أو مسافرين بل كنتم فاقدين للماء بسبب من الأسباب مع تحقق ما يوجب استعماله وتخصيص ذكره بهذه الصورة مع أنه معتبر في صورة المرض والسفر أيضا لندرة وقوعه فيها واستغنائه عن ذكره إما لأن الجناية معتبرة فيهما قطعا فيعلم من حكمها حكم الحدث الأصغر بدلالة النص لأن تقدير النظم لا تقرىوا الصلاة في حال الجنابة إلا حال كونكم مسافرين فإن كنتم كذلك أو كنتم مرضى الخ وإما لما قيل من أن عموم إعراف الماء في حق المسافرين غالب والعجز عن استعمال الماء القائم مقام عدمه في حق المريض مغن عن ذكره لفظا وما قيل من أن هذا القيد راجع إلى السكك وأن قيد وجوب التطهر المكثي عنه بالمجيء من الغائط والملامسة معتبر في السكك بما لا يساعده النظم الكريم .

﴿ فتيمموا صعيدا طيبا ﴾ فتعمدوا شيئا من وجه الأرض طاهرا قال الزجاج الصعيد وجه الأرض ترابا أو غيره وإن كان صخرًا لا تراب عليه لو ضرب التيمم يده عليه ومسح لكان ذلك طهوره وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله وعند الشافعي رحمه الله لا بد أن يعلق باليد شيء من التراب ﴿ فامسحوا بوجوهكم وأيديكم ﴾ أي إلى المرفقين لما روى أنه عليه السلام تيمم ومسح يديه إلى مرفقيه ولأنه بدل من الوضوء فيقدر بقدره ﴿ إن الله كان عفوا غفورا ﴾ تعليل للترخيص والتيسير وتقرير لهما فإن من عادته المستمرة أن يعفو عن الخاطئين ويغفر للذنوبين لا بد أن يكون ميسرا لا معسرا وقيل هو كناية عنهما فإن الترفيه والمساحة من روادف العفو وتوابع الغفران ﴿ ألم تر إلى الذين أتوا نصيبا من الكتاب ﴾ كلام مستأنف مسوق لتعجب المؤمنين من سوء حالهم والتحذير عن موالاتهم والخطاب لكل من يتأق منه الرؤية من المؤمنين

وتوجيهه فيما بعد إلى الكل معاً للإيدان بكمال شهرة شناعة حالهم وأنها بلغت من الظهور إلى حيث يتعجب منها كل من يراها والرؤية بصرية أى ألم تنظر إليهم فإنهم أحقاء أن تشاهدهم وتتعجب من أحوالهم وتجويز كونها قلبية على أن إلى تتضمن معنى الانتهاء لما فعلوه يآباه مقام تشهير شنائعهم ونظمها في سلك الأمور المشاهدة والمراد بهم أخبار اليهود .

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها نزلت في حبرين من أخبار اليهود كانا يأتیان رأس المنافقين عبد الله بن أبى ورهطه يثبطنهم عن الإسلام وعنه رضى الله عنه أيضاً أنها نزلت في رفاعة بن زيد ومالك بن دخشم كانا إذا تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم لوليا لسانهما وعاباه والمراد بالكتاب هو التوراة وحمله على جنس الكتاب المنتظم لها انتظاماً أولياً تطويل للمسافة والذي أتوه ما بين لهم فيها من الأحكام والعلوم التي من جملتها ما علوه من نعت النبي صلى الله عليه وسلم وحقية الإسلام والتعبير عنه بالنصيب المنبئ عن كونه حقاً من حقوقهم التي يجب مراعاتها والمحافظة عليها بكامل ركاكة آرائهم حيث ضيعوه تضخيماً وتنوينه تفخيماً مؤيد للتشنيع عليهم والتعجيب من حالهم فالتعبير عنهم بالموصول للتنبيه بما في حيز الصلة على كمال شنائعهم والاشعار بمكان ما طوى ذكره في المعاملة المحسنة عنهم من الهدى الذي هو أحد العوضين وكلمة من متعلقة إما بأوتوا أو بمحذوف وقع صفة لنصبها مبينة لفخامته الإضافية أثر بيان نظامته الذاتية أى نصيباً كائننا من الكتاب وقوله تعالى :

﴿ يشترون الضلالة ﴾ قيل هو حال مقدرة من واوتوا ولا ريب في أن اعتبار تقدير اشتراهم المذكور في الإيتاء بما لا يليق بالمقام وقيل هو حال من الموصول أى ألم تنظر إليهم حال اشتراهم وأنت خبير بأنه خال عن إفادة أن مادة التشنيع والتعجيب هو الاشتراء المذكور وما عطف عليه والذي تقتضيه جزالة العظم الكريم أنه استئناف مبين لمناسبات التشنيع ومدار التعجيب المفهومين

من صدر الكلام على وجه الإجمال والإيهام مبني على سؤال نشأ منه كأنه قيل ماذا يصنعون حتى ينظر إليهم فليل ياخذون الضلالة ويتركون ما أوتوه من الهداية وإنما طوى ذكر المتروك لغاية ظهور الأمر لاسيما بعد الإشعار المذكور والتعبير عن ذلك بالاشترام الذي هو عبارة عن استبدال السلعة بالثمن أى أخذها بدلا منه أخذا ناشئا عن الرغبة فيها والإعراض عنه للإيدان بكمال رغبتهم في الضلالة التي حقها أن يعرض عنها كل الإعراض وإعراضهم عن الهداية التي يتنافس فيها المتنافسون وفيه من التسجيل على نهاية سخافة عقولهم وغاية ركاكة آرائهم مالا يخفى حيث صورت حالهم بصورة مالا يكاد يتعاطاه أحد ممن له أدنى تمييز وليس المراد بالضلالة جنسها الحاصل لهم من قبل حتى يخجل بمعنى الاشتراء المنبئ عن تأخرها عنه بل هو فردها الكامل وهو عنادهم وتماديهم في الكفر بعد ما علموا بشأن النبي عليه السلام وتيقنوا بحقية دينه وأنه هو النبي العربي المبشر به في التوراة ولا ريب في أن هذه الرتبة لم تكن حاصلة لهم قبل ذلك وقد مر في أوائل سورة البقرة .

(ويريدون) عطف على يشترون شريك له في بيان محل التشنيع والتعجب وصيغة المضارع فيها للدلالة على الاستمرار التجددي فإن تجدد حكم اشترائهم المذكور وتكرر العمل بموجبه في قوة تجدد نفسه وتكرره أى لا يكتفون بضلال أنفسهم بل يريدون بما فعلوا من كتمان نعوته عليه السلام (أن تضلوا) أتم أيضا أيها المؤمنون (السبيل) المستقيم الموصل إلى الحق (والله أعلم) أى منكم (بأعدائكم) جميعا ومن جملتهم هؤلاء وقد أخبركم بعداوتهم لكم وما يريدون بكم لتكونوا على حذر منهم ومن مخالطتهم أو هو أعلم بحالهم ومآل أمرهم والجملة معترضة لتقرير إرادتهم المذكورة (وكفى بالله وليا) في جميع أموركم ومصالحكم (وكفى بالله نصيرا) في كل المواطن فتقوا به واكتفوا بولايته ونصرتة ولا تتولوا غيره أو لا تبالوا بهم وبما يسومونكم من سوء فإنه تعالى يكفيكهم مكرهم وشرهم ففيه وعد ووعد والباء مزيدة في

فاعل كفى لتأكيد الاتصال الإسنادى بالاتصال الإضافى وتكرير الفعل فى الجملتين مع إظهار الجلالة فى مقام الإضمار لا سيما فى الثانى لتقوية استقلالها المناسب للاعتراض وتأكيد كفايته عز وجل فى كل من الولاية والنصرة والإشعار بعليتهما فإن الألوهية من موجباتهما لا محالة ﴿من الذين هادوا﴾ قيل هو بيان لأعدائكم وما بينهما اعتراض وفيه أنه لا وجه لتخصيص علمه سبحانه بطائفة من أعدائهم لا سيما فى معرض الاعتراض الذى حقه للعموم والإطلاق وانتظام ما هو المقصود فى المقام انتظاماً أولياً كما أشير إليه وقيل هو صلة لنصير أى ينصركم من الذين هادوا كما فى قوله تعالى (فمن ينصرنى من الله) وفيه ما فيه من تحجيز واسع نصرته عز وجل مع أنه لا داعى إلى وضع الموصول موضع ضمير الأعداء لأن ما فى حيز الصلة ليس بوصف ملائم للنصر وقيل هو خبر مبتدأ محذوف وقع قوله تعالى :

﴿يخرفون الكلم عن مواضعه﴾ صفة له أى من الذين هادوا قوم أو فريق يخرفون الح وفيه أنه يقتضى كون الفريق السابق بمزول من التحريف الذى هو المصداق لاشتراطهم فى الحقيقة فالذى يليق بشأن التنزيل الجليل أنه بيان للموصول الأول المتناول بحسب المفهوم لأهل الكتابين قد وسط بينهما ما وسط لمزيد الاعتناء ببيان محل التشنيع والتعجيب والمسارة إلى تنفير المؤمنين منهم وتحذيرهم عن مخالطتهم والاهتمام بحملهم على الثقة بالله عز وجل والاكتفاء بولايته ونصرته وأن قوله تعالى يخرفون وما عطف عليه بيان لاشتراطهم المذكور وتفصيل لفنون ضلالتهم وقد روعيت فى النظم الكريم طريقة التفسير بعد الإبهام والتفصيل إثر الإجمال روما لزيادة تقرير يقتضيه الحال والكلم اسم جنس واحده كلمة كتمر وتمرّة وتذكير ضميره باعتبار إفراده لفظاً وجمعية مواضعه باعتبار تعدده معنى وقرىء بكسر الكاف وسكون اللام جمع كلمة تخفيف كلمة وقرىء يخرفون الكلام والمراد به ههنا إما ما فى التوراة خاصة وإما ما هو أعم منه وما سيحكى عنهم من الكلمات المعودة (٤٥ - أبو السعود - أول)

الصادرة عنهم في أثناء المحاورة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا مساع
لإرادة تلك الكلمات خاصة بأن يجعل عطف قوله تعالى :

﴿ ويقولون سمعنا وعصينا ﴾ الخ على ما قبله عطفًا تفسيريًا لما ستقف على
سره فإن أريد به الأول كما هو رأى الجمهور فتحريفه إزالته عن موضعه التي
وضعه الله تعالى فيها من التوراة كتحريرهم في نعت النبي عليه السلام أسير ربعة
عن موضعه في التوراة بأن وضعوا مكانه آدم طوال كتحريرهم الرجم بوضعهم
بدله الحد أو صرفه عن المعنى الذي أنزله الله تعالى فيه إلى ما لا صحة له بالتأويلات
الزائفة الملائمة لشهواتهم الباطلة وإن أريد به الثاني فلا بد من أن يراد بموضعه
ما يليق به مطلقًا سواء كان ذلك بتعيينه تعالى صريحًا كموضع ما في التوراة
أو بتعيين العقل أو الدين كموضع غيره وأيا ما كان فقولهم سمعنا وعصينا ينبغى
أن يجرى على إطلاقه من غير تقييد بزمان أو مكان ولا تخصيص بمادة دون مادة
بل وأن يحمل على ما هو أعم من القول الحقيقي وبما يترجم عنه عنادهم ومكابرتهم
ليندرج فيه ما انطقت به السنة حاظم عند تحريف التوراة فإن من لا يتفوه
بتلك العظيمة لا يكاد يتجاسر على مثل هذه الجنائية وإلا فعمله على ما قالوه في
مجلس النبي صلى الله عليه وسلم من القبائح خاصة يستدعى اختصاص حكم الشرطية
الآتية وما بعدها بهن من غير تعرض لتحريرهم التوراة مع أنه معظم جنائياتهم
المعدودة ومن ههنا انكشف لك السر الموعود فتأمل أى يقولون في كل أمر
مخالف لأهوائهم الفاسدة سواء كان بمحض النبي صلى الله عليه وسلم أولاً بلسان
المقال أو الحال سمعنا وعصينا عنادا وتحقيقا للبخالفة وقوله تعالى .

﴿ واسمع غير مسمع ﴾ عطف على سمعنا وعصينا داخل تحت القول أى
ويقولون ذلك في أثناء مخاطبته عليه السلام خاصة وهو كلام ذو وجهين محتمل
للسر بأن يحمل على معنى اسمع حال كونك غير مسمع كلاماً أصلاً بصمم أو موت
أى مدعوا عليك بلا سمعت أو غير مسمع كلاماً ترضاه فيبتذئ يجوز أن يكون
نصبه على المفعولية وللخير بأن يحمل على اسمع منا غير مسمع مكروها كانوا

يخاطبون به النبي صلى الله عليه وسلم استهزاء به مظهرين له عليه السلام إرادة المعنى الأخير وهم مضمرون في أنفسهم المعنى الأول مطمئنون به ﴿ وراعنا ﴾ عطف على اسمع غير مسمع أى ويقولون فى أثناء خطابهم له عليه السلام هذا أيضاً يوردون كلا من العظائم الثلاث فى مواقعها وهى أيضاً كلمة ذات وجهين محتملة للخير بحملها على معنى ارقبنا وانظرنا نكلمك وللشر بحملها على السب بالرغبة أى الحق أو باجرائها مجرى ما يشبهها من كلمة عبرانية أو سريانية كانوا يتسبون بها وهى راعينا كانوا يخاطبونه عليه السلام بذلك ينمون الشتمة والإهانة ويظهرون التوقير والاحترام ومصيرهم إلى مسلك النفاق فى القولين الأخيرين مع تصريحهم بالعصيان فى الأول لما قالوا من أن جميع الكفرة كانوا يواجهونه بالكفر والعصيان ولا يواجهونه بالسب ودعاء السوء وقيل كانوا يقولون الأول فيما بينهم وقيل يجوز أن لا ينطقوا بذلك ولكنهم لما لم يؤمنوا به صاروا (١) كأنهم نطقوا به .

﴿ ليا بالستهم ﴾ أى قتلاها وصرفا للكلام عن نهجه إلى نسبة السب حيث وضعوا غير مسمع لا أن سمعت مكرها وأجروا راعنا المشابهة لراعينا مجرى انظرنا أو قتلاها وضما لما يظهر منه من الدعاء والتوقير إلى ما يضمرونه من السب والتحقير ﴿ وطعنا فى الدين ﴾ أى قدحا فيه بالاستهزاء والسخرية وانتصاهما على التعليل ليقولون باعتبار تعلقه بالقولين الأخيرين أى يقولون ذلك لصرف الكلام عن وجهه إلى السب والطعن فى الدين أو على الحالية أى لاوين طاعنين فى الدين ﴿ ولو أنهم ﴾ عندما سمعوا شيئا من أوامر الله تعالى ونواهيه ﴿ قالوا ﴾ بلسان المقال أو بلسان المقال أو بلسان الحال مكان قولهم سمعنا وعصينا ﴿ سمعنا وأطعنا ﴾ إنما أعيد سمعنا مع أنه متحقق فى كلامهم وإنما الحاجة إلى وضع أطعنا مكان عصينا لا للتنبيه على عدم اعتباره بل على اعتبار عدم كيف لا وسماعهم سماع الرد ومرادهم بحكايته الإعلام بأن (٢) عصيانهم للأمر

(١) فى ط : جملا .

(٢) فى ط : إعلام أن

بعد سماعه والوقوف عليه فلا بد من إزالته وإقامة سماع القبول مقامه .

﴿ واسمع ﴾ أى لو قالوا عند مخاطبة النبي عليه الصلاة والسلام بدل قولهم اسمع غير مسمع اسمع ﴿ وانظرونا ﴾ أى ولو قالوا ذلك بدل قولهم راعنا ولم يدسوا تحت كلامهم شراً وفساداً أى لو ثبت أنهم قالوا هذا مكان ما قالوا من الأقوال ﴿ لكان ﴾ قولهم ذلك ﴿ خيرا لهم ﴾ مما قالوا ﴿ وأقوم ﴾ أى أعدل وأسد فى نفسه وصيغة التفضيل إما على بابها واعتبار أصل الفضل فى المفضل عليه بناء على اعتقادهم أو بطريق التهكم وإما بمعنى اسم الفاعل وإنما قدم فى البيان حاله بالنسبة إليهم على حاله فى نفسه لأن همهم مقصورة على ما ينفعهم .

﴿ ولكن لعنهم الله بكفرهم ﴾ أى ولكن لم يقولوا ذلك واستمروا على كفرهم فخذلهم الله تعالى وأبعدهم عن الهدى بسبب كفرهم بذلك . ﴿ فلا يؤمنون ﴾ بعد ذلك .

﴿ إلا قليلا ﴾ قيل أى إلا إيمانا قليلا لا يعبا به وهو الإيمان ببعض الكتب والرسل أو إلا زمانا قليلا وهو زمان الاحتضار فإنهم يؤمنون حين لا ينفعهم الإيمان قال تعالى (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) . وكلاهما ليس بإيمان قطعا وقد جوز أن يراد بالقللة العدم بالسلبية على طريقة قوله تعالى (لا يدوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) أى إن كان الإيمان المعدوم إيمانا فهم يحدثون شيئا من الإيمان فهو فى المعنى تعليق بالمحال وأنت خير بأن السكلى يأباه ما يعقبه من الأمر بالإيمان بالقرآن الناطق بهذا لإفضائه إلى التكليف بالمحال الذى هو إيمانهم بعدم إيمانهم المستمر أما على الوجه الأخير فظاهر وأما على الأولين فلأن أمرهم بالإيمان المنجز بجميع الكتب والرسل تكليف لهم بإيمانهم ببعض الكتب والرسل وبعدم إيمانهم إلى وقت الاحتضار فالوجه أن يحمل القليل على من يؤمنون لإفضائه إلى وقوع إيمان من لعنه الله تعالى وخذله مع ما فيه من نسبة القراء إلى الاتفاق على

غير المختار بل يجعله ضمير المفعول في لعنهم أى ولكن لعنهم الله إلا فريقا قليلا فإنه تعالى لم يلعنهم فلم ينسد عليهم باب الإيمان وقد آمن بعد ذلك فريق من الأحبار كعبد الله بن سلام وكعب وأضرابهما كما سيأتى .

﴿ يا أيها الذين أتوا الكتاب ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إما إلى من حكيت أحوالهم وأقوالهم خاصة بطريق الالتفات ووصفهم تارة بإتياء الكتاب أى التوراة وأخرى بإتياء نصيب منها لتوفية كل من المقامين حقه فإن المقصود فيما سبق بيان أخذهم الضلالة وإزالة ما أوتوه بمقابلتها بالتحريف وليس ما أزالوه بذلك كلها حتى يوصفوا بإتيائه بل هو بعضها فوصفوا بإتيائه . وأما ههنا فالمقصود تأكيد إيجاب الامتثال بالأمر الذى يعقبه والتحذير عن مخالفته من حيث أن الإيمان بالمصدق موجب للإيمان بما يصدقه والكفر بالثانى مقتضى للكفر بالأول قطعا ولا ريب فى أن المحذور عندهم إنما هو لزوم الكفر بالتوراة نفسها لا ببعضها وذلك إنما يتحقق بجعل القرآن مصدقا لسكها وإن كان مناط التصديق بعضها منها ضرورة أن مصدق البعض مصدق للكل المتضمن له حتما وإما إليهم وإلى غيرهم قاطبة وهو الأظهر وأيا ما كان فتفصيل ما فصل لما كان من مظان إقلاع كل من الفريقين عما كانوا عليه من الضلالة عقب ذلك بالأمر بالمبادرة إلى سلوك حجة الهداية مشفوعا بالوعيد الشديد على المخالفة فقال :

﴿ آمنوا بما نزلنا ﴾ من القرآن عبر عنه بالموصول تشريفا له بما فى حيز الصلة وتحقيقا لكونه من عنده عز وعلا ﴿ مصدقا لما معكم ﴾ من التوراة عبر عنها بذلك للإيدان بكمال وقوفهم على حقيقة الحال فإن المعية المستدعية لدوام تلاوتها وتكرار المراجعة إليها من موجبات العشور على ما فى تضاعيفها المؤدى إلى العلم بكون القرآن مصدقا لها ومعنى تصديقه إياها نزوله حسبما نعت لهم فيها أو كونه موافقا لها فى القصص والمواعيد والدعوة إلى التوحيد والعدل بين الناس والنهي عن المعاصى والفواحش وأما ما يتراءى من مخالفته لها فى جزئيات

الأحكام بسبب تفاوت الأمم والأعصار فليست بمخالفة في الحقيقة بل هي عين الموافقة من حيث أن كلا منها حق بالإضافة إلى عصره متضمن للحكمة التي عليها يدور فلك التشريع حتى لو تأخر نزول المتقدم لنزل على وفق المتأخر ولو تقدم نزول المتأخر لوافق المتقدم قطعا ولذلك قال عليه الصلاة والسلام لو كان موسى حيا لما وسعه إلا اتباعي ﴿من قبل أن نطمس وجوها﴾ متعلق بالأمر مفيد للمسارة إلى الامتثال به والجد في الانتهاء عن مخالفته بما فيه من الوعيد الشديد الوارد على أبلغ وجه وأكده حيث لم يعلق وقوع المتوعد به بالمخالفة ولم يصرح بوقوعه عندها تنبيها على أن ذلك أمر محقق غنى عن الإخبار به وأنه على شرف الوقوع متوجه نحو المخاطبين وفي تنكير الوجوه المفيد للتكثير تهويل للخطب وفي إبهامها لطف بالمخاطبين وحسن استدعاء لهم إلى الإيمان وأصل الطمس محو الآثار وإزالة الأعلام أي آمنوا من قبل أن نمحو تخطيط صورها ونزيل آثارها قال ابن عباس رضى الله عنهما نجعلها كخف البعير أو كحافر الدابة وقال قتادة والضحاك نعميها كقوله تعالى (فطمسنا أعينهم) وقيل نجعلها منابت الشعر كوجوه القرودة .

﴿فردها على أدبارها﴾ فنجعلها على هيئة أدبارها وأقفاؤها مطموسة مثلها؛ فالفاء للتسبيب أو نكسها بعد الطمس فردها إلى موضع الأقفاء والأقفاء إلى موضعها وقد اكتفى بذكر أشدهما فالفاء للتعقيب وقيل المراد بالوجوه الوجهاً على أن الطمس بمعنى مطلق التغيير أي من قبل أن نغير أحوال وجهاً ففسلب إقبالهم ووجاهتهم ونكسهم صغارا وإدبارا^(١) أو نردم من حيث جاؤا منه وهي أذرع الشأم فالمراد بذلك لإجلاء بنى النضير ولا يخفى أنه لا يساعده مقام تشديد الوعيد وتعميم التهديد للجميع فالوجه ماسبق من الوجوه وقد اختلف في أن الوعيد هل كان بوقوعه في الدنيا أو في الآخرة ف قيل كان بوقوعه في

(١) في ١٠: وإذلالا

الدنيا ويؤيده ما روى أن عبد الله بن سلام رضى الله تعالى عنه لما قدم من الشام وقد سمع هذه الآية أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يأتى أهله فأسلم وقال يا رسول الله ما كنت أرى أن أصل إليك حتى يتحول وجهى إلى قفاى وفى رواية جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام ويده على وجهه وأسلم وقال ما قال وكذا ما روى أن عمر رضى الله عنه قرأ هذه الآية على كعب الأحبار فقال كعب يارب أمنت يارب أسلمت مخافة أن يصيبه وعيدها ثم اختلفوا فقيل إنه منتظر بعد ولا بد من طمس فى اليهود ومسح وهو قول المبرذ وفيه أن انصراف العذاب الموعود عن أوائلهم وهم الذين باشروا أسباب نزوله وموجبات حلوله حيث شاهدوا شواهد النبوة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكذبوها وفى التوراة خرفوها وأصروا على الكفر والضلالة وتعلق بهم خطاب المشافهة بالوعيد ثم نزوله على من وجد بعد مئات من السنين من أعقابهم الضالين يا ضلالهم العالمين بما مهدوا من قوانين الغواية بعيد من حكمة الله تعالى العزيز الحكيم وقيل إن وقوعه كان مشروطاً بعدم الإيمان وقد آمن من أحبارهم المذكوران وأضرابهما فلم يقع وفيه أن إسلام بعضهم إن لم يكن سبباً لتأكد نزول العذاب على الباقين لتشديد هم النكير والعناد بعد لإزدياد الحق وضوحاً وقيام الحججة عليهم بشهادة أمثالهم العدول فلا أقل من ألا يكون سبباً لرفعه عنهم وقيل كان الوعيد بوقوع أحد الأمرين كما ينطق به قوله تعالى .

﴿ أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت ﴾ فإن لم يقع الأمر الأول فلا نزاع فى وقوع الثانى كيف لا وهم ملعونون بكل لسان فى كل زمان وتفسير اللعن بالمسح ليس بمقرر البتة وأنت خبير بأن المتبادر من اللعن المشبه بلعن أصحاب السبت هو المسح وليس فى عطفه على الطمس والرد على الأدبار شائبة دلالة على عدم إرادة المسح لضرورة أنه تغيير مغاير لما عطف عليه على أن المتوعد به لا بد أن يكون أمراً حادئاً مترتباً على الوعيد محذوراً عندهم لىكون مزجراً عن مخالفة الأمر ولم يعهد أنه وقع عليهم لعن بهذا الوصف إنما الواقع عليهم ما تداولته الألسنة من اللعن المستمر الذى ألفوه وهو بمنزل من صلاحية أن

يكون حكماً لهذا الوعيد أو مزجراً للعنيد وقيل إنما كان الوعيد بوقوع ما ذكر في الآخرة عند الحشر وسيقع فيها لا محالة أحد الأمرين أو كلاهما على سبيل التوزيع وأما ما روى عن عبد الله بن سلام وكعب فبني على الاحتياط اللاتق بشأنهما والحق أن النظم السكريم ليس بنص في أحد الوجهين بل المتبادر منه بحسب المقام هو الأول لأنه أدخل في الزجر وعليه مبنى ما روى عن الخبرين لكن لما لم يتضح وقوعه علم أن المراد هو الثاني والله تعالى أعلم وأياماً كان فلعل السر في تخصيصهم بهذه العقوبة من بين العقوبات مراعاة المشاكلة بينهما وبين ما أوجبها من جنائيتهم التي هي التحريف والتغيير والله هو العليم الخبير ﴿ وكان أمر الله ﴾ أى ما أمر به كائناً ما كان أو أمره بإيقاع شيء ما من الأشياء ﴿ مفعولاً ﴾ نافذاً كائناً لا محالة فيدخل فيه ما أوعدتم به دخولا أولياً فالجملتان اعتراض تذييلي مقرر لما سبق ووضع الاسم الجليل موضع الضمير بطريق الالتفات لتربية المهابة وتعليل الحكم وتقوية ما في الاعتراض من الاستقلال .

﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ﴾ كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله من الوعيد وتأكيده وجوب الامتنال بالأمر بالإيمان ببيان استحالة المغفرة بدونها فإنهم كانوا يفعلون ما يفعلون من التحريف ويطمعون في المغفرة كما في قوله تعالى ﴿ نكف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ﴾ أى على التحريف (ويقولون سيغفر لنا) والمراد بالشرك مطلق الكفر المنتظم لكفر اليهود انتظاماً أولياً فإن الشرع قد نص على إشراك أهل الكتاب قاطبة وقضى بخلود أصناف الكفرة في النار ونزوله في حق اليهود كما قال مقاتل وهو الأنسب بسباق النظم السكريم وسيأقده لا يقتضى اختصاصه بكفرهم بل يكفي اندراجه فيه قطعا بل لا وجه له أصلاً لاقتضائه جواز مغفرة ما دون كفرهم في الشدة من أنواع الكفر أى لا يغفر الكفر لمن أنصف به بلا توبة وإيمان لأن الحكمة التشريعية مقتضية لسد باب الكفر وجواز مغفرته بلا إيمان بما يؤدي إلى فتحه ولأن ظلمات الكفر والمعاصي إنما يسترها نور الإيمان فمن لم يكن له إيمان لم

يغفر له شيء من الكفر والمعاصي ﴿ويغفر ما دون ذلك﴾ عطف على خبر إن وذلك إشارة إلى الشرك وما فيه من معنى البعد مع قربه في الذكر للإيدان ببعده ودرجته وكونه في أقصى مراتب القبح أي ويغفر ما دونه في القبح من المعاصي صغيرة كانت أو كبيرة تفضلاً من لدنه وإحساناً من غير توبة عنها لكن لا لكل أحد بل ﴿لمن يشاء﴾ أي لمن يشاء أن يغفر له ممن اتصف به فقط لا بما فوقه فإن مغفرتهم لمن اتصف بهما سواء في استحالة الدخول تحت المشيئة المبنية على الحكمة التشريعية فإن اختصاص مغفرة المعاصي من غير توبة بأهل الإيمان من متمات الترغيب فيه والزجر عن الكفر ومن علق المشيئة بكل الفاعلين وجعل الوصول الأول عبارة عن لم يتب والثاني عن تاب فقد ضل سواء السبيل^(١) كيف لا وإن مساق النظم الكريم لإظهار كمال عظم جريمة الكفر وامتيازها عن سائر المعاصي ببيان استحالة مغفرتها وجواز مغفرتها فلو كان الجواز على تقدير التوبة لم يظهر بينهما فرق للإجماع على مغفرتها بالتوبة ولم يحصل ما هو المقصود من الزجر البليغ عن الكفر والطغيان والحمل على التوبة والإيمان .

﴿ومن يشرك بالله﴾ لإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لزيادة تقييد الإشراف وتفظيع حال من يتصف به [ولإظهار المهابة من الكفر]^(٢) ﴿فقد افترى﴾ أي افترى واختلق مرتكباً لئلا يقادر قدره ويستحقق دونه جميع الآثام فلا تتعلق به المغفرة قطعاً ﴿المتر إلى الذين يزكون أنفسهم﴾ تعجيب من حاطهم المنافية لما هم عليه من الكفر والطغيان والمراد بهم اليهود الذين يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه وقيل ناس من اليهود جاءوا بأطفالهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا هل على هؤلاء ذنب فقال عليه الصلاة والسلام لا قالوا ما نحن إلا كهيئةهم ما عملنا بالنهار كفر عنا بالليل وما عملنا بالليل كفر عنا بالنهار أي انظر إليهم فتعجب من ادعائهم أنهم أزكيا عند الله تعالى مع ما هم عليه من الكفر والإثم

(١) في ط : الصواب . (٢) ١٠ بين الحاصرين سقط من ط

العظيم أو من ادعائهم التكفير مع استحالة أن يغفر للكافر شيء من كفره أو معاصيه وفيه تحذير من إعجاب المرء بنفسه وبعمله ﴿بل الله يزكى من يشاء﴾ عطف على مقدر ينساق إليه الكلام كأنه قيل هم لا يزكونها في الحقيقة لكنذبهم وبطلان اعتقادهم بل الله يزكى من يشاء تزكيتهم يستأهلها من المرتضين من عباده المؤمنين إذ هو العليم الخبير بما ينطوى عليه البشر من المحاسن والمساوى وقد وصفهم الله بما هم متصفون به من القبائح وأصل التزكية نفي ما يستتبع بالفعل أو بالقول .

﴿ولا يظلمون﴾ عطف على جملة قد حذف تعويلا على دلالة الحال عليها وإيذاً بأنها غنية عن الذكر أى يعاقبون بتلك الفعل القبيحة ولا يظلمون في ذلك العقاب ﴿فتيلاً﴾ أى أدنى ظلم وأصغره وهو الخيط الذى فى شق النواة يضرب به المثل فى القلة والحقارة وقيل التقدير يثاب المزكون ولا ينقص من ثوابهم شيء أصلاً ولا يساعده مقام الوعيد .

﴿انظر كيف يفترون على الله الكذب﴾ كيف نصب إما تشبيهاً (١) بالظرف أو بالحال على الخلاف المشهور بين سيديويه والأخفش والعامل يفترون وبه تتعلق على فى أى حال أو على أى حال يفترون عليه تعالى الكذب والمراد بيان شناعة تلك الحال وكمال فظاعتها والجملة فى محل نصب بمسند نزع الخافض والنظر متعلق بهما وهو تعجيب وتنبيه على أن ما ارتكبه متضمن لأمرين عظيمين موجبين للتعجب : إدعاؤهم الاتصاف بما هم متصفون بنقيضه وإفترائهم على الله سبحانه . فإن ادعاءهم الزكاة عنده تعالى متضمن لادعائهم قبول الله وارتضاه إياهم تعالى عن ذلك علواً كبيراً ولكون هذا أشنع من الأول جرماً وأعظم قبيحاً لما فيه من نسبته سبحانه وتعالى إلى ما يستحيل عليه بالكيفية من قبول الكفر وارتضائه لعباده ومفطرة كفر الكافر وسائر معاصيه

(١) فى ط : على التشبيه .

وجه النظر إلى كيفيته تشديدا للتشجيع وتأكيذا للتعجيب والتصريح بالكذب مع أن الافتراء لا يكون إلا كذبا للمبالغة في تقييح حالهم .

﴿ وكفى به ﴾ أى بافتراءهم هذا من حيث هو افتراء عليه تعالى مع قطع النظر عن مقارنته لتزكية أنفسهم وسائر آثامهم العظام ﴿ إنما مينا ﴾ ظاهر بينا كونه [أشد] ^(١) إنما والمعنى كفى ذلك وحده في كونهم أشد إنما من كل كفار أثيم أو في استحقاقهم لأشد العقوبات لما مر سره وجعل الضمير لزمعهم مما لا مساغ له لإخلاله بتحويل أمر الافتراء فتدبر ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب ﴾ تعجب من حال أخرى لهم ووصفهم بما ذكر من إيتاء النصيب لما مر من منافاته لما صدر عنهم من القبائح وقوله عز وجل ﴿ يؤمنون بالجبث والطاغوت ﴾ استئناف مبين لمادة التعجب مبنى على سؤال ينساق إليه الكلام كأنه قيل ماذا يفعلون حين ينظر إليهم فقيل يؤمنون بالجبث والجبث الأصنام وكل ماعبد من دون الله تعالى فقيل أصله الجبس وهو الذى لا خير عنده فأبدل السين تاء وقيل الجبث الساحر بلغة الحبشة والطاغوت الشيطان قيل هو فى الأصل كل ما يطغى الإنسان . روى أن حبي بن أخطب وكعب بن الأشرف اليهوديين خرجا إلى مكة فى سبعين راكبا من اليهود ليحالفوا قريشا على محاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم وينقضوا العهد الذى كان بينهم وبينه عليه السلام فقالوا أنتم أهل كتاب وأنتم أقرب إلى محمد منكم إلينا فلا نأمن مكركم فاسجدوا لأطنتنا حتى نطمئن إليكم ففعلوا فهذا إيمانهم بالجبث والطاغوت لأنهم سجدوا للأصنام وأطاعوا إبليس فيما فعلوا وقال أبو سفيان لكعب إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أميون لا نعلم فأينا أهدى طريقا نحن أم محمد فقال ماذا يقول محمد قال يأمر بعبادة الله وحده وينهى عن الشرك قال وما دينكم قالوا نحن ولاة البيت نسقى الحاج ونقرى الضيف ونفك العاني وذكروا أفعالهم فقال أنتم أهدى سبيلا .

(١) سقط من ط .

وذلك قوله تعالى ﴿ويقولون للذين كفروا﴾ أى لأجلهم وفى حقهم ﴿هؤلاء﴾ يعنونهم ﴿أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾ أى أقوم ديناً وأرشد طريقة وإيرادهم بعنوان الإيمان ليس من قبل القائلين بل من جهة الله تعالى تعريفاً لهم بالوصف الجميل وتخطئة لمن رجح عليهم المتصفين بأقبح القبائح ﴿أولئك﴾ إشارة إلى القائلين وما فيه من معنى البعد مع قربهم فى الذكر للإشعار ببعد منزلتهم فى الضلال وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿الذين لعنهم الله﴾ أى أبعدهم عن رحمته وطردهم والجملة مستأنفة لبيان حالهم وإظهار مصيرهم وما لهم ﴿ومن يلعن الله﴾ أى يبعده عن رحمته ﴿فلن تجد له نصيراً﴾ يدفع عنه العذاب دنيوياً كان أو آخروياً لا بشفاعة ولا بغيرها وفيه تنصيص على حرمانهم بما طلبوا من قریش وفى كلمة لن وتوجيه الخطاب إلى كل أحد ممن يتسنى له الخطاب وتوحيد النصير منكرًا والتعبير عن عدمه بعدم الوجدان المنبئ عن سبق الطلب مستنداً إلى المخاطب الغام من الدلالة على حرمانهم الأبدى بالكلية ما لا يخفى .

﴿أم لهم نصيب من الملك﴾ شروع فى تفصيل بعض آخر من قبائحهم وأم منقطعة وما فيها من بل للإضراب والانتقال من ذمهم ؛ تركيتهم أنفسهم وغيرها مما حكى عنهم إلى ذمهم بادعائهم نصيباً من الملك وبخلهم المفرط وشحهم البالغ والهمزة لإنكار أن يكون لهم ما يدعونه وإبطال ما زعموا أن الملك سيصير إليهم وقوله تعالى ﴿فاذن لا يؤتون الناس نقيراً﴾ بيان لعدم استحقاقهم له بل لاستحقاقهم الحرمان منه بسبب أنهم من البخل والدناءة بحيث لو أوتوا شيئاً من ذلك لما أعطوا الناس منه أقل قليل ومن حق من أوتى الملك أن يؤثر الغير بشيء منه فالفاء للسببية الجزائية لشرط محذوف أى إن جعل لهم نصيب منه فاذن لا يؤتون الناس مقدار نقير وهو ما فى ظهر النواة من النقرة يضرب به المثل فى القلة والخفارة وهذا هو البيان الكاشف عن كنهه حالهم وإذا كان شأنهم كذلك وهم ملوك فما ظنك بهم وهم أذلاء متفاقرون ويجوز أن لا تكون

الهمزة لإنكار الوقوع بل لإنكار الواقع والتوبيخ عليه أى لعدده منكرًا غير لائق بالوقوع على أن الفاء للعطف والإنكار متوجه إلى مجموع المعطوفين على معنى ألهم نصيب وافر من الملك حيث كانوا أصحاب أموال وبساتين وقصور مشيدة كالملوك فلا يؤتون الناس مع ذلك فقيرا كما تقول لغنى لا يراعى أباه ألك هذا القدر من المال فلا تنفق على أهلك شيئا وفائدة إذن تأكيد الإنكار والتوبيخ حيث يجعلون ثبوت النصيب سببا للمنع مع كونه سببا للإعطاء وهى ملغاة عن العمل كأنه قيل فلا يؤتون الناس إذن وقرىء فأذن لا يؤتوا بالنصب على إعمالها .

﴿ أم يحسدون الناس ﴾ منقطعة أيضا مفيدة للانتقال من توبيخهم بما سبق إلى توبيخهم بالحسد الذى هو شر الرذائل وأقبحها لا سيما على ما هم بمعزل من استحقاقه واللام فى الناس للعهد والإشارة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وحمله على الجنس إيدانا بتمييزهم للكالات البشرية قاطبة فكأنهم هم الناس لا غير لا يلائمه ذكر حديث آل إبراهيم فإن ذلك لتذكير ما بين الفريقين من العلاقة الموجبة لاشتراكهما فى استحقاق الفضل والهمزة لإنكار الواقع واستنقابه فإنهم كانوا يطمعون أن يكون النبي الموعود منهم فلما خص الله تعالى بتلك الكرامة غيرهم حسدوهم أى بل يحسدونهم ﴿ على ما آتاهم الله من فضله ﴾ يعنى النبوة والكتاب وازدياد العز والنصر يوما فيوما وقوله تعالى ﴿ فقد آتينا ﴾ تعليل للإنكار والاستقباح وإلزام لهم بما هو مسلم عندهم وحسم لمادة حسدهم واستبعادهم المبنيين على توهم عدم استحقاق المحسود لما أوتى من الفضل ببيان استحقاقه له بطريق الورائة كإبراهيم عن كابر وإجراء الكلام على سنن الكبرياء بطريق الالتفات لإظهار كمال العناية بالأمر والمعنى أن حسدهم المذكور فى غاية القبح والبطلان فإننا قد آتينا من قبل هذا ﴿ آل إبراهيم ﴾ الذين هم أسلاف محمد عليه الصلاة والسلام أو أبناء أعمامه ﴿ الكتاب والحكمة ﴾ أى النبوة .

﴿وآتيناهم﴾ مع ذلك ﴿ملكاً عظيماً﴾ لا يقادر قدره فكيف يستبعدون نبوته عليه الصلاة والسلام ويحسدونه على إيتائها. وتكرير الإيتاء لما يقتضيه مقام التفصيل مع الإشعار بما بين النبوة والملك من المغايرة فإن أريد به الإيتاء بالذات فالمراد بآل إبراهيم أنبيأؤهم خاصة والضمير المنصوب في الفعل الثاني لبعضهم إما بحذف المضاف أو بطريق الاستخدام لما أن الملك لم يؤت كلهم . قال ابن عباس رضى الله عنهما الملك في آل إبراهيم ملك يوسف وداود وسليمان عليهم السلام إن أريد به ما يعمه وغيره من الإيتاء بالواسطة وهو اللائق بالمقام والأوفق لما قبله من نسبة إيتاء الفضل إلى الناس فالمراد بآل إبراهيم كلهم فإن تشریف البعض بما ذكر من إيتاء النبوة والملك تشریف للكل لاعتنائهم بآثاره واقتباسهم من أنواره وفي تفصيل ما أوتوه وتكرير الفعل ووصف الملك بالعظم وتنكيره التفضيلى من تأكيد الإلزام وتشديد الإنكار ما لا يخفى هذا هو المتبادر من النظم الكريم وإليه جنح جمهور أئمة التفسير لسكن الظاهر حينئذ أن يكون قوله تعالى ﴿فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه﴾ حكاية لما صدر عن أسلافهم عقيب وقوع المحسكى من غير أن يكون له دخل في الإلزام الذى سيق له الكلام . أى فمن جنس هؤلاء الحاسدين وآبائهم من آمن بما أوتى آل إبراهيم ومنهم من أعرض عنه وأما جعل الضميرين لما ذكر من حديث آل إبراهيم فيستدعى تراخى الآية الكريمة عما قبلها نزولاً وكيف لا وحكاية لإيمانهم بالحديث المذكور وإعراضهم عنه بصيغة الماضى إنما يتصور بعد وقوع الإيمان والإعراض المتأخرين عن سماع الحديث المتأخر عن نزوله وكذا جعلهما لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذ الظاهر بيان حالهم بعد هذا الإلزام وحمله على حكاية حالهم السابقة لا تساعده الفاء المرتبة لما بعدها على ما قبلها ولا يبعد كل البعد أن تكون الهمزة لتقرير حسدهم وتوبيخهم بذلك ويكون قوله تعالى فقد ﴿آتيناهم﴾ الآية تعليلاً له بدلالته على إعراضهم عما أوتى آل إبراهيم وإن لم يذكر كونه بطريق الحسد كأنه قيل بل أيحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ولا يؤمنون به وذلك . حديثهم المستمر فإننا قد آتيناهم ما آتاهم الله من فضله ولا يؤمنون به وذلك .

آتيناهم ومنهم من أعرض عنه ولم يؤمن به والله سبحانه أعلم وفيه تسليية لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿ وكفى بجهنم سعيراً ﴾ نارا مسعرة يعذبون بها والجملة تذييل لما قبلها ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا ﴾ إن أريد بهم الذين كفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم فالمراد بالآيات إما القرآن أو ما يعم كله وبعضه أو ما يعم سائر معجزاته أيضاً وإن أريد بهم الجنس المتناول لهم تناوولا أوليا فالمراد بالآيات ما يعم المذكورات وسائر الشواهد التي أوتيتها الأنبياء عليهم السلام ﴿ سوف نصليهم نارا ﴾ قال سيبويه سوف كلمة تذكر للتهديد والوعيد وينوب عنها السين وقد يذكران في الوعد فيفيدان التأكيد أي ندخلهم نارا عظيمة هائلة ﴿ كلما نضجت جلودهم ﴾ أي احترقت وكلما ظرف زمان والعامل فيه ﴿ بدلناهم جلودا غيرها ﴾ من قبيل بدله بخوفه أمنا لا من قبيل يبدل الله سيئاتهم حسنات أي أعطيناهم مكان كل جلد محترق عند احترقه جلدا جديدا مغايرا للمحترق صورة وإن كان عينه مادة بأن يزال عنه الإحتراق ليعود إحساسه للعذاب والجملة في محل النصب على أنها حال من ضمير نصليهم وقد جوز كونها صفة لنارا على حذف العائد أي كلما نضجت فيها جلودهم فعنى قوله تعالى .

﴿ ليدوقوا العذاب ﴾ ليدوم ذوقهم^(١) ولا ينقطع كقولك للعزير أعزك الله وقيل يخلق مكانه جلداً آخر والعذاب للنفس العاصية لآلة إدراكها قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يبدلون جلودا بيضاء كأمثال القراطيس وروى أن هذه الآية قرئت عند عمر رضى الله تعالى عنه فقال للقارىء أعدها فأعادها وكان عنده معاذين جبل فقال معاذ عندى تفسيرها يبدل في ساعة مائة مرة فقال عمر رضى الله عنه هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وقال الحسن تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم عودوا

(١) في ط : ذوقه .

فيعدون كما كانوا وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أن بين منكبي الكافر مسيره ثلاثة أيام للراكب المسرع وعن أبي هريرة أنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاثة أيام والتعبير عن إدراك العذاب بالذوق ليس لبيان قلته بل لبيان أن إحساسهم بالعذاب في كل مرة كإحساس الذائق بالمذوق من حيث أنه لا يدخله نقصان بدوام الملابس أو للإشعار بمرارة العذاب مع إيلامه أو للتنبية على شدة تأثيره من حيث أن القوة الذاتية أشد الحواس تأثراً أو على سرايته للباطن ولعل السر في تبديل الجلود مع قدرته تعالى على إبقاء إدراك العذاب وذوقه بحاله مع الاحتراق أو مع إبقاء أبدانهم على حالها مصونة عن الاحتراق أن النفس ربما تتوهم زوال الإدراك بالاحتراق ولا تستبعد كل الاستبعاد أن تكون مصونة عن التألم والعذاب صيانةً بدنها عن الاحتراق .

﴿ إن الله كان عزيزاً ﴾ لا يمتنع عليه ما يريد ولا يمانعه أحد ﴿ حكياً ﴾ يعاقب من يعاقبه على وفق حكمته والجملة تعليل لما قبلها من الإصلاح والتبديل وإظهار الاسم الجليل بطريق الالتفات لتحويل الأمر وتربية المهابة وتعليل الحكم فإن عنوان الألوهية مناط لجميع صفات كماله تعالى ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ عقب بيان سوء حال الكفرة ببيان حسن حال المؤمنين تكميلاً لمساءة الأولين ومسرة الآخرين أي الذين آمنوا بآياتنا وعملوا بمقتضياتها وهو مبتدأ خبره قوله تعالى :

﴿ سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ وقرئ سيدخلهم بالياء رداً على الاسم الجليل وفي السين تأكيد للوعد ﴿ خالدين فيها أبداً ﴾ حال مقدرة من الضمير المنصوب في سندخلهم وقوله عز وعلا ﴿ لهم فيها أزواج مطهرة ﴾ أي بما في نساء الدنيا من الأحوال المستقرة البدنية والأدناس الطبيعية في محل النصب على أنه حال من جنات أو حال ثانية من الضمير المنصوب أو على أنه صفة لجنات بعد صفة أو في محل الرفع على أنه خبر للموصول بعد خبر

﴿ وندخلهم ظلا ظليلا ﴾ أى فينا نا لا جوب فيه دائما لا تنسخه شمس اللهم
 ارزقنا ذلك بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين والظليل صفة مشتقة من لفظ الظل
 للتأكيد كما في ليل أليل ويوم أيوم وقرىء يدخلهم بالياء وهو عطف على
 سيدخلهم لا على أنه غير الإدخال الأول بالذات بل بالعنوان كما في قوله تعالى
 (ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ)
 ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ في تصدير الكلام بكلمة التحقيق
 وإظهار الاسم الجليل وإيراد الأمر على صورة الإخبار من الفخامة وتأكيد
 وجوب الامتثال به والدلالة على الاعتناء بشأنه ما لا مزيد عليه وهو خطاب
 يعم حكمه المكلفين قاطبة كما أن الأمانات تعم جميع الحقوق المتعلقة بدمهم من
 حقوق الله تعالى وحقوق العباد سواء كانت فعلية أو قولية أو اعتقادية وإن ورد
 في شأن عثمان بن طلحة بن عبد الدارسادن الكعبة المعظمة وذلك أن رسول الله
 صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة يوم الفتح ألقى عثمان رضى الله عنه باب
 الكعبة وصعد السطح وأبى أن يدفع المفتاح إليه وقال لو علمت أنه رسول الله
 لم أمنعه فلوى على بن أبى طالب يده وأخذه منه وفتح ودخل النبي صلى الله
 عليه وسلم وصلى ركعتين فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ويجمع له
 السقاية والسدانة فنزلت فأمر عليا أن يرده إلى عثمان ويعتذر إليه فقال عثمان
 لعلى أكرهت وأذيت ثم جئت ترفو فقال لقد أنزل الله تعالى في شأنك قرآنا
 فقرأ عليه الآية فقال عثمان أشهد لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فهبط
 جبريل عليه الصلاة والسلام وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن السدانة
 في أولاد عثمان أبدا وقرىء الأمانة على التوحيد والمراد الجنس لا المهود وقيل
 هو أمر للولاية بأداء الحقوق المتعلقة بدمهم من المناصب وغيرها إلى مستحقيها
 كما أن قوله تعالى :

﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ أمر لهم بإيصال الحقوق
 المتعلقة بدمم الغير إلى أصحابها وحيث كان المأمور به ههنا مختصا بوقت المرافعة
 (٤٦ - أبو السمود - أول)

قيد به بخلاف المسأور به أو لا فإنه لما لم يتعلق بوقت دون وقت أطلق إطلاقاً
فقوله تعالى أن تحكموا عطف على أن تؤدوا قد فصل بين العاطف والمعطوف
بالظرف المعمول له عند السكوفيين والمقدر يدل هو عليه عند البصريين لأن
ما بعد أن لا يعمل فيما قبلها عندهم أي وأن تحكموا إذا حكتم الخ وقوله تعالى
بالعدل متعلق بتحكموا أو بمقدر وقع حالاً من فاعله أي متلبسين بالعدل
والإنصاف .

﴿ إن الله نعماً يعظكم به ﴾ ما إما منصوبة موصوفة بـ يعظكم به أو مرفوعة
موصولة به كأنه قيل نعم شيئاً يعظكم به أو نعم الشيء الذي يعظكم به والمخصوص
بالمدح محذوف أي نعماً يعظكم به ذلك وهو المأمور به من أداء الأمانات والعدل
في الحكومات وقرىء نعماً بفتح النون والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها متضمنة
لمزيد لطف بالمنحاطين وحسن استدعاء لهم إلى الامتثال بالأمر وإظهار الاسم
الجليل لتربية المهابة [في القلوب] (١) ﴿ إن الله كان سمياً ﴾ لأقوالكم ﴿ بصيراً ﴾
بأفعالكم فهو وعد ووعيد وإظهار الجلالة لما ذكر آنفاً فإن فيه تأكيداً لكل
من الوعد والوعيد ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ بعد ما أمر الولاية بطريق العموم
أو بطريق الخصوص بأداء الأمانات والعدل في الحكومات أمر سائر الناس
بطاعتهم لكن لا مطلقاً بل في ضمن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه
وسلم حيث قيل ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾ وهم
أمراء الحق وولاية العدل كالحلفاء الراشدين ومن يقتدى بهم من المهتدين وأما
أمراء الجور فبمعزل من استحقاق العطف على الله تعالى والرسول عليه الصلاة
والسلام في وجوب الطاعة لهم وقيل هم علماء الشرع لقوله تعالى (ولو ردوه إلى
الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعليه الذين يستنبطونه منهم) ويأباه قوله تعالى :
﴿ فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله ﴾ إذ ليس للمقلد أن ينازع المجتهد

(١) سقطت من ط .

في حكمه إلا أن يجعل الخطاب لأولى الأمر بطريق الالتفات وفيه بعد وتصدير [إن] (١) الشرطية بالفاء لترتبها على ما قبلها فإن بيان حكم طاعة أولى الأمر عند موافقتها لطاعة الله تعالى وطاعة الرسول عليه السلام يستدعي بيان حكمها عند المخالفة أي إن اختلفتم أنتم وأولوا الأمر منكم في أمر من أمور الدين فراجعوا فيه إلى كتاب الله ﴿والرسول﴾ أي إلى سنته وقد استدل به منكروا القياس وهو في الحقيقة دليل على حججه كيف لا ورد المختلف فيه إلى المنصوص عليه إنما يكون بالتمثيل والبناء عليه وهو المعنى بالقياس ويؤيده الأمر به بعد الأمر بطاعة الله تعالى وبطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام فإنه يدل على أن الأحكام ثلاثة ثابت بالكتاب وثابت بالسنة وثابت بالرد إليهما بالقياس ﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ متعلق بالأمر الأخير الوارد في محل النزاع إذ هو المحتاج إلى التحذير من المخالفة وجواب الشرط محذوف عند جمهور البصريين ثقة بدلالة المذكور عليه أي إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر فردوه الخ فإن الإيمان بهما يوجب ذلك أما الإيمان بالله تعالى فظاهر وأما الإيمان باليوم الآخر فلما فيه من العقاب على المخالفة ﴿ذلك﴾ أي الرد المسأور به ﴿خير﴾ لكم وأصلح ﴿وأحسن﴾ في نفسه ﴿تأويلاً﴾ أي عاقبة ومآلاً وتقديم خيريته لهم على أحسنيته في نفسه لما مر من تعلق أنظارهم بما ينفعهم والمراد بيان اتصافه في نفسه بالخيرية الكاملة والحسن الكامل في حد ذاته من غير اعتبار فضله على شيء يشاركه في أصل الخيرية والحسن كما ينبىء عنه التحذير السابق :

﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ﴾
 قولون للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجبياً له من حال
 الذين يخالفون ما أمر من الأمر المحتوم ولا يطيعون الله ولا رسوله ووصفهم
 بادعاء الإيمان بالقرآن وبما أنزل من قبله أعنى التوراة لتأكيد التعجب وتشديد

(١) سقطت من ط .

التوبيخ والاستقباح بإظهار^(١) كمال المباينة بين دعواهم وبين ما صدر عنهم وقرىء.
 الإعلان على البناء للفاعل وقوله عز وجل ﴿ يريدون أن يتحاكموا إلى
 الطاغوت ﴾ استئناف سيق لبيان محل التعجيب مبنى على سؤال نشأ من صدر
 الكلام كأنه قيل ماذا يفعلون فقيل يريدون الخ . روى عن ابن عباس رضى
 الله عنهما أن منافقا خاصم يهوديا فدعاه اليهودى إلى رسول الله صلى الله عليه
 وسلم ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف ثم لمتما احتكما إلى رسول الله صلى
 الله عليه وسلم فلم يرض بقضائه فقال عمر للمنافق أهكذا قال نعم فقال عمر
 مكانكما حتى أخرج اليكما فدخل فاشتمل على سيفه ثم خرج فضرب به عنق
 المنافق حتى برد ثم قال هكذا أفضى لمن لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله.
 فنزلت فهبط جبريل عليه الصلاة والسلام وقال إن عمر فرق بين الحق والباطل.
 فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت الفاروق فالطاغوت كعب بن الأشرف.
 سمي به لإفراطه في الطغيان وعداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلى التشبيه
 بالشیطان والتسمية باسمه أو جعل اختيار التحاكم إلى غير النبي صلى الله عليه
 وسلم على التحاكم إليه تحاكما إلى الشيطان وقال الضحاك المراد بالطاغوت كهنة
 اليهود وسحرتهم وعن الشعبي أن المنافق دعا خصمه إلى كاهن من جهينة فتحاكما
 إليه وعن السدى أن الحادثة وقعت في قتيل بين بنى قريظة والنضير فتحاكم
 المسلمون من الفريقيين إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأبى المنافقون منهما إلا
 التحاكم إلى أبى بردة الكاهن الأسلمى فتحاكما إليه فيكون الاقتصار
 حينئذ في معرض التعجيب والاستقباح على ذكر إرادة التحاكم دون نفسه مع
 وقوعه أيضا للتنبيه على أن إرادته بما يقضى منه العجب ولا ينبغي أن يدخل
 تحت الوقوع فما ظنك بنفسه وهذا أنسب بوصف المنافقين بادعاء الإيمان.
 بالتوراة فإنه كما يقتضى كونهم من منافق اليهود يقتضى كون ما صدر عنهم من

(١) فى ط بيان .

التحاكم ظاهر المنافاه لادعاء الإيمان بالتوراة وليس التحاكم إلى كعب بن الأشرف بهذه المثابة من الظهور وأيضاً فالمتبادر من قوله تعالى .

﴿ وقد أمروا أن يكفروا به ﴾ كونهم مأمورين بكفره في الكتابين وما ذاك إلا الشيطان وأولياؤه المشهورون بولايته كالكهنة ونظائرهم لامن عداهم ممن لم يشتهر بذلك وقرىء أن يكفروا بها على أن الطاغوت جمع كما في قوله تعالى (أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم) والجملة حال من ضمير يريدون مفيدة ثلثاً كيد التعجيب وتشديد الاستقباح كالوصف السابق وقوله عز وعلا ﴿ ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً ﴾ عطف على يريدون داخل في حكم التعجيب فإن اتباعهم لمن يريد إضلالهم وإعراضهم عن من يريد هدايتهم أعجب من كل عجيب . وضلالاً إما مصدر مؤكد للفعل المذكور بحذف الزوائد كما في قوله تعالى ﴿ وأنبتها نباتاً حسناً ﴾ أى إضلالاً بعيداً وإما مصدر مؤكد لفعله المدلول عليه بالفعل المذكور أى فيضلوا ضلالاً وأياماً كان فوصفه بالبعد الذي نعت هو صوفه للبالغه وقوله تعالى ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ﴾ تكلمة لمادة التعجيب ببيان إعراضهم صريحاً عن التحاكم إلى كتاب الله تعالى ورسوله إثر بيان إعراضهم عن ذلك في ضمن التحاكم إلى الطاغوت وقرىء تعالوا بضم اللام على أنه حذف لام الفعل تخفيفاً كما في قولهم ما باليت يالة أصلها بالية كعافية وكما قالوا في آية إن أصلها آية فحذفت اللام ووقعت واو الجمع بعد اللام في تعالوا فضمت فصار تعالوا ومنه قول أهل مكة للمرأة تعالوا بكسر اللام وعليه قول أبي فراس الحمداني :

أيا جارتى ما أنصف الدهر بيننا تعالوا أقاسمك الهوموم تعالوا

﴿ رأيت المنافقين ﴾ إظهار المنافقين في مقام الإضمار للتسجيل عليهم بالنفاق وضمهم به والإشعار بجملة الحكم والرؤية بصرية وقوله تعالى ﴿ يصدون عنك ﴾ حال من المنافقين وقيل الرؤية قلبية والجملة مفعول ثان لها والأول هو الأنسب بظهور حالهم وقوله تعالى ﴿ صدوداً ﴾ مصدر مؤكد لفعله أى يعرضون عنك

إعراضاً وأى إعراض وقيل هو اسم للبصدر الذى هو الصد والأظهر أنه مصدر لصد اللازم والصد مصدر للمتعدى يقال صد عنه صدوداً أى أعرض عنه وصدته عنه صدأ أى منعه منه وقوله تعالى .

﴿ فكيف ﴾ شروع فى بيان غائلة جنائياتهم المحكمية ووخامة عاقبتها أى كيف يكون حالهم ﴿ إذا أصابهم مصيبة ﴾ أى وقت إصابة المصيبة لإياهم بافتضاحهم بظهور نفاقهم ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ بسبب ما عملوا من الجنائيات التى من جملتها التجاؤم إلى الطاغوت والإعراض عن حكمك ﴿ ثم جاءوك ﴾ للاعتذار عما صنعوا من القبائح وهو عطف على أصابهم والمراد تفضيح حالهم وتحويل مادهم من الخطب واعتراهم من شدة الأمر عند إصابة المصيبة وعند الجحيم للإعتذار ﴿ يملفون بالله ﴾ حال من فاعل جاؤك ﴿ إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً ﴾ أى ما أردنا بتجاؤنا إلى غيرك إلا الفصل بالوجه الحسن والتوفيق بين الخصمين ولم نرد مخالفة لك ولا لحكمك فلا تؤاخذنا بما فعلنا وهذا وعيد لهم على ما فعلوا وأنهم سيندمون عليه حين لا ينفعهم الندم ولا يغنى عنهم الاعتذار وقيل جاء أولياء المنافق يطلبون بدمه وقد أهدره الله تعالى فقالوا ما أردنا أى ما أراد صاحبنا المقتول بالتجاؤم إلى عمر رضى الله تعالى عنه إلا أن يحسن إليه ويوفق بينه وبين خصمه ﴿ أولئك ﴾ إشارته إلى المنافقين وما فيه من معنى البعد للتنبية على بعد منزلتهم فى الكفر والنفاق وهو مبتدأ خبره ﴿ الذين يعلم الله ما فى قلوبهم ﴾ أى من فنون الشرور والفساد المنافية لما أظهر واللك من الأكاذيب .

﴿ فأعرض عنهم ﴾ جواب شرط محذوف أى إذا كان حالهم كذلك فأعرض عن قبول معذرتهم وقيل عن عقابهم لمصلحة فى استبقائهم ولا تظهر لهم عليك بما فى بواطنهم ولا تهتك سترهم حتى يبقوا على وجل وحذر ﴿ وعظمت ﴾ أى أجزهم عن النفاق والكيد .

﴿ وقل لهم فى أنفسهم ﴾ فى حق أنفسهم الخبيثة وقلوبهم المنطوية على

الشروع التي يعلمها الله تعالى أو في أنفسهم خاليا بهم ليس معهم غيرهم مسارا بالنصيحة لأنها في السر أنجح ﴿قولا بليغا﴾ مؤثرا واصلا إلى كنه المراد مطابقا لما سبق له من المقصود فالظرف على التقديرين متعلق بالامر وقيل متعلق ببليغا على رأى من يميز تقديم معمول الصفة على الموصوف أى قل لهم قولا بليغا في أنفسهم مؤثرا في قلوبهم يهتمون به اعتماا ويستشعرون منه الخوف استشعارا وهو التوعد بالقتل والاستئصال والإيدان بأن ما في قلوبهم من مكنونات الشر والنفاق غير خاف على الله تعالى وأن ذلك مستوجب لأشد العقوبات وإنما هذه المكافأة والتأخير لإظهارهم الإيمان والطاعة وإضمارهم الكفر ولئن أظهروا الشقاق وبرزوا بأشخاصهم من نفق النفاق ليمسهم العذاب إن الله شديد العقاب ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله﴾ كلام مبتدأ جرى به تمهيدا لبيان خطئهم في الإشتغال بستر جنائيتهم بالاعتذار بالباطل وعدم تلافيا بالتوبة أى وما أرسلنا رسولا من الرسل لشيء من الأشياء إلا ليطاع بسبب إذنه تعالى في طاعته وأمره المرسل إليهم بأن يطيعوه ويتبعوه لأنه مؤد عنه تعالى فطاعته طاعة الله تعالى ومعصيته معصيته تعالى من يطع الرسول فقد أطاع الله أو بتيسير الله تعالى وتوفيقه في طاعته .

﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم﴾ وعرضوها لعذاب ﴿زائد﴾ (١) على عذاب النفاق بترك طاعتك والتحاكم إلى غيرك ﴿جاؤك﴾ من غير تأخير كما يفصح عنه تقديم الظرف متوسلين بك في التنصل عن جنائياتهم القديمة والحادثة ولم يزدادوا جنائية على جنائية بالقصد إلى سترها بالاعتذار الباطل والإيمان الفاجرة ﴿فاستغفروا الله﴾ بالتوبة والإخلاص وبالغوا في التضرع إليك حتى انتصبت شفيعا لهم إلى الله تعالى واستغفرت لهم وإنما قيل ﴿واستغفر لهم الرسول﴾ على طريقة الالتفات تفيخيا لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) سقطت من ط .

وتعظيما لاستغفاره وتنبهها على أن شفاعته في حيز القبول ﴿ لوجدوا الله توابا رحيمًا ﴾ لعلوه مبالغًا في قبول توبتهم والتفضل عليهم بالرحمة وإن فسر الوجدان بالمصادفة كان قوله تعالى توابا حالًا ورحيمًا بدلًا منه أو حالًا من الضمير فيه وأياما كان ففيه فضل ترغيب للسامعين في المسارعة إلى التوبة والاستغفار ومزيد تنديم لأولئك المنافقين على ما صنعوا لما أن ظهور تبشير قبول التوبة وحصول الرحمة لهم ومشاهدتهم لآثارها نعمة زائدة عليهما موجبة لكمال الرغبة في تحصيلها وتمام الحسرة على فواتها .

﴿ فلا وربك ﴾ أى فوربك ولا مزيدة لتأكيد معنى القسم لا لتأكيد النفي في جوابه أعنى قوله ﴿ لا يؤمنون ﴾ لأنها تزداد في الإثبات أيضا كما في قوله تعالى ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ ونظائره ﴿ حتى يحكموك ﴾ أى يتحاكموا إليك ويترافعوا إليك وإنما جرى بصيغة التحكيم مع أنه عليه الصلاة والسلام حاكم بأمر الله سبحانه لإيداننا بأن حقهم أن يجعلوه حكاما فيما بينهم وترضوا بحكمه وإن قطع النظر عن كونه حاكما على الإطلاق ﴿ فيما شجر بينهم ﴾ أى فيما اختلف بينهم من الأمور واختلط ومنه الشجر لتداخل أغصانه ﴿ ثم لا يجدوا ﴾ عطف على مقدر ينساق إليه الكلام أى فتقضى بينهم ثم لا يجدوا ﴿ فى أنفسهم حرجا ﴾ ضيقا ﴿ مما قضيت ﴾ أى مما قضيت به أو من فضائك وقيل شكا من أجله إذ الشاك فى ضيق من أمره ﴿ ويسلبوا ﴾ أى ينقادوا لأمرك وينزعوا له ﴿ تسليما ﴾ تأكيد للفعل بمنزلة تكريره أى تسليما تاما بظاهرهم وباطنهم يقال سلم لأمر الله وأسلم له بمعنى وحقيقته سلم نفسه له وأسلمها إذا جعلها سالمة له خالصة أى ينقادوا لحكمك انقيادا لاشبهة فيه بظاهرهم وباطنهم قيل نزلت فى شأن المنافق واليهودى [السابقين] (١) وقيل فى شأن الزبير ورجل من الأنصار حين اختصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شراج من الحرة كنا يسقيان بها النخل فقال عليه الصلاة والسلام اسق يا زبير ثم أرسل المساء إلى جارك فغضب الأنصارى وقال لأن

(١) سقطت من ط .

كان ابن عمك فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر واستوف حقه ثم أرسله إلى جارك كان قد أشار على الزبير برأى فيه سعة له ولخصمه فلما أحفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم استوعب للزبير حقه في صريح الحكم ثم خرجا فمرا على المقداد ابن الأسود فقال لمن القضاء فقال الأنصاري قضى لابن عمته ولوى شذقه ففطن يهودى كان مع المقداد فقال قاتل الله هؤلاء يشهدون أنه رسول الله ثم يتهمون به في قضاء يقضى بينهم وأيم الله لقد أذنبنا ذنبا مرة في حياة موسى فدعانا إلى التوبة منه وقال اقتلوا أنفسكم ففعلنا فبلغ قتلانا سبعين ألفا في طاعة ربنا حتى رضى عنا فقال ثابت بن قيس بن شماس أما والله إن الله ليعلم منى الصدق لو أمرنى محمد أن أقتل نفسى لقتلتها وروى أنه قال ذلك ثابت وابن مسعود وعمار بن ياسر رضى الله عنهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده إن من أمتى رجالا الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسى فنزلت في شأن هؤلاء .

﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ﴾ أى لو أوجبنا عليهم مثل ما أوجبنا على بنى إسرائيل من قتلهم أنفسهم أو خروجهم من ديارهم حين استتابتهم من عبادة العجل وأن مصدرية أو مفسرة لأن كتبنا فى معنى أمرنا ﴿ ما فعلوه ﴾ أى المسكتوب المدلول عليه بكتبتنا أو أحد مصدرى الفعلين ﴿ إلا قليل منهم ﴾ أى إلا أناس قليل منهم وهم المخلصون من المؤمنين وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال والله لو أمرنا ربنا لفعلنا والحمد لله الذى لم يفعل بنا ذلك وقيل معنى اقتلوا أنفسكم تعرضوا بها للقتل بالجهاد وهو بعيد وقرىء إلا قليلا بالنصب على الاستثناء أو إلا فعلا قليلا ﴿ ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به ﴾ من متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام وطاعته والانقياد لما يراه ويحكم به ظاهرا وباطنا وسميت أوامر الله تعالى ونواهيه مواعظ لاقترانها بالوعد والوعيد ﴿ لكان ﴾ أى فعلهم ذلك ﴿ خيرا لهم ﴾ عاجلا وآجلا ﴿ وأشد تثبيتا ﴾ لهم على الإيمان وأبعد من الاضطراب فيه وأشد تثبيتا لشواب أعمالهم .

﴿ ولذا لا تيناهم من لدنا أجرا عظيما ﴾ جواب لسؤال مقدر كأنه قيل وماذا يكون لهم بعد الثبوت فقليل ولإذن لو ثبتوا لا تيناهم فإن إذن جواب وجزاء ﴿ ولهديناهم صراطا مستقيما ﴾ يصلون بسلوكة إلى عالم القدس [والطهارة] (١) ويفتح لهم أبواب الغيب قال عليه الصلاة والسلام من عمل بما علم ورثه الله تعالى علم ما لم يعلم ﴿ ومن يطع الله والرسول ﴾ كلام مستأنف فيه فضل ترغيب في الطاعة ومزيد تشويق إليها ببيان أن نتيجتها أقصى ما ينتهي إليه همم الأمم وأرفع ما يمتد إليه أعناق عزائمهم من مجاورة أعظم الخلائق مقدارا وأرفعهم منارا متضمن لتفسير ما أتهم في جواب الشرطية السابقة وتفصيل ما أجمل فيه والمراد بالطاعة هو الانقياد التام والامتثال الكامل لجميع الأوامر والنواهي ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى المطيعين والجمع باعتبار معنى من كما أن الأفراد في فعل الشرط باعتبار لفظها وما فيه من معنى البعد مع القرب في الذكر للإيذان بعلو درجاتهم وبعده منزلتهم في الشرف وهو مبتدأ خبره ﴿ مع الذين أنعم الله عليهم ﴾ والجملة جواب الشرط وترك ذكر المنعم به للإشعار بقصور العبارة عن تفصيله وبيانه .

﴿ من النبيين ﴾ بيان للمنعم عليهم والتعرض لمعية سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أن الكلام في بيان حكم طاعة نبينا عليه الصلاة والسلام لجريان ذكرهم في سبب النزول مع ما فيه من الإشارة إلى أن طاعته عليه الصلاة والسلام متضمنة لطاعتهم لاشتغال شريعته على شرائعهم التي لا تتغير بتغير الأعصار روى أن نفرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا يا نبي الله إن صرنا إلى الجنة تفضلنا بدرجات النبوة فلا نراك وقال الشعبي جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي فقال ما يبكيك يا فلان فقال يا رسول الله بالله الذي لا إله إلا هو لأنت أحب إلى من نفسي وأهلي

(١) سقطت من ط .

ومالى وولدى وإني لأذكرك وأنا فى أهلى فىأخذنى مثل الجنون حتى أراك
وذكرت موتى وأنتك ترفع مع النبيين وإنى إن أدخلت الجنة كنت فى منزلة
أدنى من منزلتك فلم يرد النبي عليه الصلاة والسلام فنزلت وروى أن ثوبان
مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديد الحب له عليه الصلاة والسلام
قليل الصبر عنه فأتاه يوماً وقد تغير وجهه ونحل جسمه وعرف الحزن فى وجهه
فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حاله فقال يارسول الله ما بى من وجع
غير أنى إذا لم أرك اشتقت إليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك فذكرت
الآخرة فنخفت أن لا أراك هناك لأنى عرفت أنك ترفع مع النبيين وإن
أدخلت الجنة كنت فى منزل دون منزلك وإن لم أدخل فذاك حين لا أراك أبداً
فنزلت فقال عليه الصلاة والسلام والذى نفسى بيده لا يؤمن عبد حتى أكون
أحب إليه من نفسه وأبويه وأهله وولده والناس أجمعين وحكى ذلك عن
جماعة من الصحابة رضى الله عنهم وروى أن أنسا قال يارسول الله الرجل يجب
قوماً ولما يلحق بهم قال عليه الصلاة والسلام المرء مع من أحب .

﴿والصديقين﴾ أى المتقدمين فى تصديقهم المبالغين فى الصدق والإخلاص
فى الأقوال والأفعال وهم أفاضل أصحاب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأما
خواصهم المقربين كما بى بكر الصديق رضى الله عنه ﴿ والشهداء ﴾ الذين بذلوا
أرواحهم فى طاعة الله تعالى وإعلاء كلمته ﴿ والصالحين ﴾ الصارفين أعمارهم
فى طاعته وأموالهم فى مرضاته وليس المراد بالمعية الاتحاد فى الدرجة ولا مطلق
الاشتراك فى دخول الجنة بل كونهم فيها بحيث يتمكن كل واحد منهم من رؤية
الآخر وزيارته متى أراد وإن بعد ما بينهما من المسافة ﴿ وحسن أولئك رفيقا ﴾
الرفيق صاحب مأخوذ من الرفق وهو لين الجانب واللطافة فى المعاشرة قولا
وفعلا فإن جعل أولئك إشارة إلى النبيين ومن بعدهم على أن ما فيه من معنى
البعد لما مر مرارا فرقيقا إما تمييز أو حال على معنى أنهم وصفوا بالحسن من
جهة كونهم رفقاء للبطيعين أو حال كونهم رفقاء وإفراده لما أنه كالصديق
والخليط والرسول يستوى فيه الواحد والمتعدد أو لأنه أريد حسن كل واحد

منهم رفيقا وإن جعل إشارة إلى المطيعين فهو تمييز على معنى أنهم وصفوا بحسن الرفيق من النبيين ومن بعدهم لا بنفس الحسن فلا يجوز دخول من عليه كما يجوز في الوجه الأول والجملة تذييل مقرر لما قبله مؤكداً للترغيب والتشويق قيل فيه معنى التعجب كأنه قيل وما أحسن أولئك رفيقا ولا استقلاله بمعنى التعجب قرىء وحسن بسكون السين .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما للمطيعين من عظيم الأجر ومزيد الهداية ومرافقة هؤلاء المنعم عليهم أو إلى فضلهم ومزييتهم وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو رتبته وبعد منزلته في الشرف وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿ الفضل ﴾ صفتة وقوله تعالى ﴿ من الله ﴾ خبره أى ذلك الفضل العظيم من الله تعالى لا من غيره أو الفضل خبره ومن الله متعلق بمحذوف وقع حالا منه والعامل فيه معنى الإشارة أى ذلك الذى ذكر فضل كائنا من الله تعالى لا أن أعمال المكلفين موجهة له ﴿ وكفى بالله عليماً ﴾ بجزاء من أطاعه وبمقادير الفضل واستحقاق أهله ﴿ يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم ﴾ الحذر والحذر واحد كالإثر والأثر والشبه والشبه أى تيقظوا واحترزوا من العدو ولا تمكثوه من أنفسكم يقال أخذ حذره إذا تيقظ واحترز من الخوف كأنه جعل الحذر آتية التى يبق بها نفسه وقيل هو ما يحذر به من السلاح والحزم أى استعدوا للعدو ﴿ فانفروا ﴾ بكسر الفاء وقرىء بضمها أى اخرجوا إلى الجهاد عند خروجكم ﴿ ثبات ﴾ جمع ثبة وهى الجماعة من الرجال فوق العشرة ووزنها فى الأصل فعلة كحطمة حذفت لامها وعوض عنها تاء التأنيث وهل هى واو أو ياء فيه قولان قيل إنها مشتقة من ثبا يثبو كحلا يحلو أى اجتمع وقيل من ثبتت على الرجل إذا أثبتت عليه كأنك جمعت محاسنه ويجمع أيضا على ثبين جبراً لما حذف من عجزه ومحلها النصب على الحالية أى انفروا جماعات متفرقة سرية بعد سرية ﴿ أو انفروا جميعاً ﴾ أى مجتمعين كوكبه واحدة ولا تتخاذلوا فتلقوا بأنفسكم إلى التهلكة .

﴿ وإن منكم من ليبطئن ﴾ أى ليتأقن وليتخلفن عن الجهاد من بطأ بمعنى أبطأ كعتم بمعنى أعمت والخطاب لعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم

المؤمنين منهم والمنافقين والمبطلون منافقوهم الذين تناقلوا وتخلفوا عن الجهاد أو لبيطائن غيره ويثبطنه من بطأ منقولاً من بطؤ كثقل من ثقل كما بطأ ابن أبي ناسا يوم أحد والأول أنسب لما بعده واللام الأولى للإبتداء دخلت على اسم إن للفصل بالخبر والثانية جواب قسم محذوف والقسم بجوابه صلة من والراجع إليه ما استكن في لبيطائن والتقدير وإن منكم لمن أقسم بالله لبيطائن ﴿فإن أصابتكم مصيبة﴾ كقتل وهزيمة ﴿قال﴾ أي المبطل فرحاً بصنعته وحامداً لرأيه ﴿قد أنعم الله على﴾ أي بالعودة .

﴿لألم أكن معهم شهيداً﴾ أي حاضرأ في المعركة فيصينى ما أصابهم والفاء في الشرطية لترتيب مضمونها على ما قبلها فإن ذكر التبطلتة مستتبع لذكر ما يترتب عليها كما أن نفس التبطلتة مستدعية لشيء ينتظر المبطل وقوعه ﴿وإن أصابكم فضل﴾ كفتح وغنيمة ﴿من الله﴾ متعلق بأصابتكم أو بمحذوف وقع صفة لفضل أي فضل كائن من الله تعالى ونسبة إصابتة الفضل إلى جناب الله تعالى دون إصابتة المصيبة من العادات الشريفة التنزيلية كما في قوله سبحانه (وإذا مرضت فهو يشفين) وتقديم الشرطية الأولى لما أن مضمونها لمقصدهم أوفق وأثر نفاقهم فيها أظهر ﴿ليقولن﴾ ندامة على تثبطه وقعوده وتهالكا على حطام الدنيا وتحسرا على فواته وقرىء ليقولن بضم اللام إعادة للضمير إلى معنى من وقوله تعالى ﴿كأن لم تكن بينكم وبينه مودة﴾ اعتراض وسط بين الفعل ومفعوله الذى هو ﴿يألتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً﴾ لئلا يفهم من مطلع كلامه أن تمنيه لمعية المؤمنين لنصرتهم ومظاهرتهم حسبما يقتضيه ما في البين من المودة بل هو للحرص على المسال كما ينطق به آخره وليس إثبات المودة في البين بطريق التحقيق بل بطريق التهكم وقيل الجملة التشبيهية حال من ضمير ليقولن أى ليقولن مشها بمن لا مودة بينكم وبينه وقيل هى داخله في المقول أى ليقولن المثبط لمن يثبطه من المنافقين وضعفة المؤمنين كأن لم تكن بينكم وبين محمد مودة حيث لم يستصحبكم في الغزو حتى تفوزوا بما فاز يألتنى كنت معهم وغرضه إلقاء العداوة.

بينهم وبينه عليه الصلاة والسلام وتأكيدها وكأن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن وهو محذوف وقرىء لم يكن بالياء والمنادى في ياليتنى محذوف أى يا قوم وقيل يا أطلاق للتنبيه على الاتساع وقوله تعالى فأفوز نصب على جواب التمنى وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى فأنا أفوز في ذلك الوقت أو على أنه معطوف على كنت داخل معه تحت التمنى .

﴿ فليقاتل في سبيل الله ﴾ قدم الظرف على الفاعل للاهتمام به ﴿ الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ﴾ أى يبيعونها بها وهم المؤمنون فالفاء جواب شرط مقدر أى إن بطأ هؤلاء عن القتال فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم في طلب الآخرة أو الذين يشترونها ويختارونها على الآخرة وهم المبطلون فالفاء للتعقيب أى لتركوا ما كانوا عليه من التثبط والنفاق وليبدلوه بالقتال في سبيل الله ﴿ ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه ﴾ بنون العظمة .النفاتا ﴿ أجرأ عظيماً ﴾ لا يقادر قدره وتعقيب القتال بأحد الأمرين للإشعار بأن المجاهد حقه أن يوطن نفسه بإحدى الحسينيين ولا يخطر بباله القسم الثالث أصلاً .وتقديم القتل للإيدان يتقدمه في استتباع الأجر ، روى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تكفل الله تعالى لمن جاهد في سبيله لا يخرجه الإجهاد في سبيله وتصديق كلمته أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه مع ما نال من أجر وغنيمة ﴿ وما لكم ﴾ خطاب للأمورين بالقتال على طريقة الالتفات مبالغة في التحريض عليه وتأكيده لوجوبه وهو مبتدأ وخبر وقوله عز وجل ﴿ لا تقاتلون في سبيل الله ﴾ حال عاملها ما في الظرف من معنى الفعل والاستفهام للإنكار والنفي أى أى شيء لكم غير مقاتلين . أى لا عذر لكم في ترك المقاتلة .

﴿ والمستضعفين ﴾ عطف على اسم الله أى في سبيل المستضعفين وهو تخليصهم من الأسر ووصونهم عن العدو أو على السبيل بحذف المضاف أى في خلاص المستضعفين ويجوز نصبه على الاختصاص فإن سبيل الله يعم أبواب الخير .

وتخليص ضعفاء^(١) المؤمنين من أيدي الكفرة أعظمها وأخصها ﴿ من الرجال والنساء والولدان ﴾ بيان للمستضعفين أو حال منهم وهم المسلمون الذين بقوا بمكة لصدم المشركين أو لضعفهم عن الهجرة مستذلين ممتننين وإنما ذكر الولدان معهم تسكيلاً للاستعطاق واستجلاباً للرحمة^(٢) وتنبها على تناهي ظلم المشركين بحيث بلغ أذاهم الصبيان لإرغام آبائهم وأمهاتهم ولإبذانا بإجابة الدعاء الآتي واقتراب زمان الخلاص ببيان شركتهم في التضرع إلى الله تعالى كل ذلك للبالغه في الحث على القتال وقيل المراد بالولدان العبيد والإماء إذ يقال لهما الوليد والوليدة وقد غلب الذكور على الإناث فأطلق الولدان على الولدان أيضاً ﴿ الذين ﴾ محله الجر على أنه صفة للمستضعفين أو لما في حيز البيان أو النصب على الاختصاص .

﴿ يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ﴾ بالشرك الذي هو ظلم عظيم وبأذية المسلمين وهي مكة والظالم صفتها وتذكير ما أسند إليه فإن اسم الفاعل والمفعول إذا أجرى على غير من هو له كان كالفعل في التذكير والتأنيث بحسب ما عمل فيه ﴿ واجعل لنا من لذك ولياً ﴾ كلا الجارين متعلق باجعل لاختلاف معنيهما وتقديم المجرورين على المفعول الصريح لإظهار الاعتناء بهما وإبراز الرغبة في المؤخر بتقديم أحواله فإن تأخير ما حقه التقديم عما هو من أحواله المرغبة فيه كما يورث شوق السامع إلى وردة نبيه عن كمال رغبة المتكلم فيه واعتنائه بحصوله لا محالة وتقديم اللام على من للمسارعة إلى إبراز كون المسئول نافعاً لهم مرغوباً فيه لديهم ويجوز أن تتعلق كلمة من بمحذوف وقع حالاً من ولياً قدمت عليه لكونه نسكرة وكذا الكلام في قوله تعالى ﴿ واجعل لنا من لذك نصيراً ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما أي ول علينا والياً من المؤمنين يوالينا ويقوم بمصالحنا ويحفظ علينا ديننا وشرعنا وينصرنا على أعدائنا

(١) في ط. : ضعفه .

(٢) في ط : واستجلاب الرحمة ، خطأ .

ولقد استجاب الله عز وجل دعاءهم حيث يسر لبعضهم الخروج إلى المدينة وجعل لمن بقي منهم خير ولي وأعز ناصر ففتح مكة على يدي نبيه عليه الصلاة والسلام فتولاهم أى تول ونصرهم أية نصره ثم استعمل عليهم عتاب بن أسيد ونصرهم حتى صاروا أعز أهلها وقيل المراد واجل لنا من لدنك ولاية ونصرة أى كن أنت ولينا وناصرنا وتكرير الفعل ومتعاقبه للبالغ في التضرع والابتهاال .

﴿ الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ﴾ كلام مبتدأ سيق لترغيب المؤمنين في القتال وتشجيعهم ببيان كمال قوتهم بإمداد الله تعالى ونصرته وغاية ضعف أعدائهم أى المؤمنون إنما يقاتلون في دين الله الحق الموصل لهم إلى الله عز وجل وفى إعلاء كلمته فهو وليهم وناصرهم لاحالة ﴿ والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ﴾ أى فيما يوصلهم إلى الشيطان فلا ناصر لهم سواه والغناء فى قوله تعالى ﴿ فقاتلوا أولياء الشيطان ﴾ لبيان استتباع ما قبلها لما بعدها وذكر بهذا العنوان للدلالة على أن ذلك نتيجة لقتالهم فى سبيل الشيطان والإشعار بأن المؤمنين أولياء الله تعالى لما أن قتالهم فى سبيله وكل ذلك لتأكيد رغبة المؤمنين فى القتال وتقوية عزائمهم عليه فإن ولاية الله تعالى علم فى العزة والقوة كما أن ولاية الشيطان مثل فى الذلة والضعف كأنه قيل إذا كان الأمر كذلك فقاتلوا يا أولياء الله أولياء الشيطان ثم صرح بالتعليل فقيل ﴿ إن كيد الشيطان كان ضعيفا ﴾ أى فى حد ذاته فكيف بالقياس إلى قدرة الله تعالى ولم يتعرض لبيان قوة جنابه تعالى لإيداننا بظهورها قالوا فائدة إدخال كان فى أمثال هذه المواقع التأكيد ببيان أنه منذ كان كذلك فالمعنى أن كيد الشيطان منذ كان موصوفا بالضعف .

﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم ﴾ تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم من إحجامهم عن القتال مع أنهم كانوا قبل ذلك راغبين فيه حراصا عليه بحيث كادوا يباشرونه كما ينبىء عنه الأمر بكف الأيدي فإن ذلك مشعر

بكونهم يصدد بسطها إلى العدو بحيث يكادون يسطون بهم قال الكلبي إن جماعة من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام منهم عبد الرحمن بن عوف الزهري والمقداد ابن الأسود الكندي وقدامة ابن مظعون الجحفي وسعد بن أبي وقاص الزهري رضى الله تعالى عنهم كانوا يلقون من مشركي مكة قبل الهجرة أذى شديداً فيشكون ذلك إلى النبي عليه الصلاة والسلام ويقولون انذن لنا في قتالهم ويقول لهم النبي عليه الصلاة والسلام كفوا أيديكم ﴿ وأقيموا الصلوة وآتوا الزكاة ﴾ فإن لم تأمر بقتالهم وبناء القول للمفعول مع أن القائل هو النبي عليه الصلاة والسلام للإيذان بكون ذلك بأمر الله سبحانه وتعالى ولأن المقصود بالذات والمعتبر في التعجيب إنما هو كمال رغبتهم في القتال وكونهم بحيث احتاجوا إلى النهي عنه وإنما ذكر في حين الصلة الأمر بكف الأيدي لتحقيقه وتصويره على طريقة الكناية فلا يتعلق ببيان خصوصية الأمر غرض وكانوا في مدة إقامتهم بمكة مستمرين على تلك الحالة فلما هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وأمروا بالقتال في وقعة بدر كرهه بعضهم وشق ذلك عليه لكن لا شكا في الدين ولا رغبة عنه بل نفوراً عن الإخطار بالأرواح وخوفاً من الموت بموجب الجملة البشرية وذلك قوله تعالى :

﴿ فلما كتب عليهم القتال ﴾ الخ وهو عطف على قيل لهم كفوا أيديكم باعتبار مدلوله الكينائي إذ حينئذ يتحقق التباين بين مدلولي المعطوفين وعليه يدور أمر التعجيب كأنه قيل ألم تر إلى الذين كانوا حراساً على القتال فلما كتب عليهم كرهه بعضهم وقوله تعالى ﴿ إذا فريق منهم يخشون الناس ﴾ جواب لما على أن فريق مبتدأ ومنهم متعلق بمحذوف وقع صفة له ويخشون خبره وتصديره إذا المفاجأة لبيان مسارعته إلى الخشية أثر ذى أثر من غير تلثم وتردد أى فاجأ فريق منهم أن يخشوا الكفار أن يقتلوهم ولعل توجيه التعجيب إلى السكل مع صدور الخشية عن بعضهم للإيذان بأنه ما كان ينبغي أن يصدروا أحدهم ما يتأني جالتهم الأولى وقوله تعالى ﴿ كخشية الله ﴾ مصدر مضاف إلى (٤٧ - أبو السعود - أول)

المفعول محله النصب على أنه حال من فاعل يخشون أى يخشونهم مشبهين الأهل خشية الله تعالى ﴿ أو أشد خشية ﴾ عطف عليه بمعنى أو أشد خشية من أهل خشية الله أو على أنه مصدر مؤكد على جعل الخشية ذات خشية مبالغة كما في جد جده أى يخشونهم خشية مثل خشية الله أو خشية أشد خشية من خشية الله وأياما كان فكلمة أو إما للتوبيخ على معنى أن خشية بعضهم كخشية الله وخشية بعضهم أشد منها وإما للإيهام على السامع وهو قريب مما في قوله تعالى (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) يعنى أن من يبصرهم يقول إنهم مائة ألف أو يزيدون ﴿ وقالوا ﴾ عطف على جواب لما أى قلنا كتب عليهم القتال هلع^(١) فريق منهم خشية الناس وقالوا ﴿ ربنا لم كتبت علينا القتال ﴾ في هذا الوقت لا على وجه الاعتراض على حكمه تعالى والإنكار لإيجابه بل على طريق تمى التخفيف . ﴿ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ﴾ استزادة في مدة الكف واستمهال إلى وقت آخر حذرا من الموت وقد جوز أن يكون هذا مما نطقت به ألسنة حالهم من غير أن يتفوهوا به صريحا .

﴿ قل ﴾ أى ترهيدا لهم فيما يؤملونه بالقيود من المتاع الفانى وترغيبا فيما ينالونه بالقتال من النعيم الباقى ﴿ متاع الدنيا ﴾ أى ما يتمتع وينتفع به فى الدنيا ﴿ قليل ﴾ سريع التقضى وشيك الانصرام وإن أخرتم إلى ذلك الأجل ﴿ والآخرة ﴾ أى ثوابها الذى من جملته الثواب المنوط بالقتال ﴿ خير ﴾ أى لكم من ذلك المتاع القليل لكثيرته وعدم انقطاعه وصفائه عن الكدورات وإنما قيل ﴿ لمن اتقى ﴾ حنا لهم على اتقاء العصيان والإخلال بمواجب التكليف ﴿ ولا تظلمون فتىلا ﴾ عطف على مقدر يندسح عليه الكلام أى تجزون فيها ولا تنقصون أدنى شىء من أجور أعمالكم التى من جملتها مسعاكم^(٢) فى شأن القتال فلا ترغبوا عنه والفتيل ما فى شق النواة من الخيط يضرب به المثل فى القلة والحقارة وقرىء يظلمون بالياء إعادة للضمير إلى ظاهر من ﴿ أينما تكونوا

(١) فى ط: فاجأ .

(٢) فى ١٠ : جدم .

يدرككم الموت ﴿ كلام مبتدأ مسوق من قبله تعالى بطريق تلوين الخطاب وصرفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المخاطبين اعتناء بالزامهم لإثبات حقارة الدنيا وعلو شأن الآخرة بواسطة عليه الصلاة والسلام فلا محل له من الإعراب أو في محل النصب داخل تحت القول المأمور به أى أينما تكونوا في الحضر والسفر يدرككم الموت الذى لأجله تكرهون القتال زعماً منكم أنه من مظانه وتحبون القعود عنه على زعم أنه منجاة منه وفي لفظ الإدراك إشعار بأنهم في الحرب من الموت وهو مجد في طلبهم وقرىء بالرفع على حذف الفاء كما في قوله * من يفعل الحسنات الله يشكرها * أو على اعتبار وقوع أينما كنتم في موقع أينما تكونوا أو على أنه كلام مبتدأ وأينما تكونوا متصل بلا تظلمون أى لا تنقصون شيئاً مما كتب من آجالكم أينما تكونوا في ملاحم الحروب ومعارك الخطوب .

﴿ ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ في حصون ربيعة أو قصور محصنة وقال السدى وقتادة بروج السماء يقال شاد البناء وأشاده وشيده رفعه وقرىء مشيدة بكسر الياء وصفاً لها بفعل فاعلها مجازاً كما في قصيدة شاعر ومشيدة من شاد القصر إذا رفعه أو طلاه بالشيء وهو الجص وجواب لو محذوف اعتماداً على دلالة ما قبله عليه أى ولو كنتم في بروج مشيدة يدرككم الموت والجملة معطوفة جملة مثلها (١) أى لو لم تكونوا في بروج مشيدة ولو كنتم الخ وقد اطردها حذفها للدلالة المذكور عليها دلالة واضحة فإن الشيء إذا تحقق عند وجود المانع فلأن يتحقق عند عدمه أولى وعلى هذه النكتة يدور ما في الوصلية من التأكيد والمبالغة وقد مر تحقيقه في تفسير قوله تعالى (أولوا كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) ﴿ وإن تصبهم حسنة يقولون هذا من عند الله ﴾ كلام مبتدأ جرى به عقيب ما حكى عن المسلمين لما بينهم من المناسبة في اشتماهما على إسناد ما يكرهونه إلى بعض الأمور وكرهتهم له بسبب ذلك والضمير لليهود والمنافقين

(١) في ط : أخرى .

روى أنه كان قد بسط عليهم الرزق فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة قد دعاهم إلى الإيمان فكفروا أمسك عنهم بعض الإمساك فقالوا مازلنا نعرف النقص في ثمارنا ومرارنا منذ قدم هذا الرجل وأصحابه وذلك قوله تعالى :

﴿ وإن تصبهم سيئة يقولون هذه من عندك ﴾ أى وإن تصبهم نعمة ورغاء نسبوها إلى الله تعالى وإن تصبهم بلية من جدد وغلاء أضافوها إليك كما حكى عن أسلافهم بقوله تعالى (وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه) فأمر النبي عليه الصلاة والسلام بأن يرد زعمهم الباطل ويرشدهم إلى الحق ويلقهم حجراً (١) ببيان إسناد الكل إليه تعالى على الإجمال إذ لا يجترئون على معارضة أمر الله عز وجل حيث قيل ﴿ قل كل من عند الله ﴾ أى كل واحدة من النعمة والبلية من جهة الله تعالى خلقاً وإيجاداً من غير أن يكون لى مدخل فى وقوع شىء منهما، بوجه من الوجوه كما تزعمون بل وقوع الأولى منه تعالى بالذات تفضلاً ووقوع الثانية بواسطة ذنوب من ابتلى بها عقوبة كما سيأتى بيانه فهذا الجواب المجمع فى معنى ما قيل رداً على أسلافهم من قوله تعالى (ألا إنما طأرهم عند الله) أى إنما سبب خيرهم وشرهم أو سبب إصابة السيئة التى هى ذنوبهم عند الله تعالى لا عند غيره حتى يسندوها إليه ويطيروا به وقوله تعالى :

﴿ فما هؤلاء القوم ﴾ الخ كلام معترض بين المبين وبينه مسوق من جهته تعالى لتعيرهم بالجهل وتقبیح حاظهم والتعجب من كمال غباوتهم والفاء لترتيبه على ما قبله وقوله تعالى ﴿ لا يكادون يفقهون حديثاً ﴾ حال من هؤلاء والعامل فيها ما فى الظروف من معنى الاستقرار أى وحيث كان الأمر كذلك فأى شىء حصل لهم حال كونهم بمعزل من أن يفقهوا حديثاً أو استثناف مبنى على سؤال نشأ من الإستفهام كأنه قيل ما بالهم وماذا يصنعون حتى يتعجب منه أو يسأل عن سببه فقيل لا يكادون يفقهون حديثاً من الأحاديث أصلاً فيقولون ما يقولون إذ لو فقهوا شيئاً من ذلك لفهموا هذا النص وما فى معناه وما هو أوضح منه.

(١) فى ط : الحجر .

من النصوص القرآنية الناطقة بأن الكل فائض من عند الله تعالى وأن النعمة منه تعالى بطريق التفضل والإحسان والبلية بطريق العقوبة على ذنوب العباد لاسيما النص الوارد عليهم في صحف موسى وإبراهيم الذي وفي أن لاتزر وازرة وزر أخرى ولم يستندوا جنباية أنفسهم إلى غيرهم وقوله تعالى :

﴿ ما أصابك من حسنة ﴾ الخ بيان للجواب المجمل المأمور به وإجراؤه على لسان النبي عليه الصلاة والسلام ثم سوق البيان من جهته عز وجل بطريق تلوين الخطاب وتوجيهه إلى كل واحد من الناس والالتفات لمزيد الاعتناء به والاهتمام بردمقاتهم الباطلة والإشعار بأن مضمونه مبنى على حكمة دقيقة حتى بأن يتولى بيانها علام الغيوب وتوجيه الخطاب إلى كل واحد منهم دون كلهم كما في قوله تعالى (وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم) للمبالغة في التحقيق بقطع احتمال سببية معصية بعضهم لعقوبة الآخرين أي ما أصابك من نعمة من النعم ﴿ فمن الله ﴾ أي فهي منه تعالى بالذات تفضلا وإحسانا من غير استيجاب لها من قبلك كيف لا وأن كل ما يفعله المرء من الطاعات التي يفرض كونها ذريعة إلى إصابتها نعمة ما فهي بحيث لا تكاد تكافئ نعمة حياته المقارنة لأدائها ولا نعمة إقداره تعالى لإياه على أدائها فضلا عن استيجابها لنعمة أخرى ولذلك قال عليه الصلاة والسلام ما أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله تعالى قيل ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا .

﴿ وما أصابك من سيئة ﴾ أي بلية من البلايا ﴿ فمن نفسك ﴾ أي فهي منها بسبب اقترافها المعاصي الموجبة لها وإن كانت من حيث الإيجاد منسوبة (١) إليه تعالى نازلة من عنده عقوبة كقوله تعالى (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) وعن عائشة رضي الله عنها ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب حتى الشوكة يشاكها وحتى انقطاع شمع نعله إلا بذنب وما يعفو

(١) في ط : منتسبة .

الله عنه أ كثر ، وقيل الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما قبله وما بعده لكن لا لبيان حاله عليه الصلاة والسلام بل لبيان حال الكفرة بطريق التصوير ولعل ذلك لإظهار كمال السخط والغضب عليهم والإشعار بأنهم لفرط جهلهم وبلاذتهم بعزل عن استحقاق^(١) الخطاب لاسيما بمثل هذه الحكمة الأنيقة ﴿ وأرسلناك للناس رسولا ﴾ بيان لجلالة منصبه عليه الصلاة والسلام ومكانته عند الله عز وجل بعد بيان بطلان زعمهم الفاسد في حقه عليه الصلاة والسلام بناء على جهلهم يشأ أنه الجليل وتعريف الناس للاستغراق والجار إما متعلق برسولا قدم عليه للاختصاص الناظر إلى قيد العموم أى مرسلا لكل الناس لالبعضهم فقط كما في قوله تعالى (وما أرسلناك إلا كافة للناس) وإما بالفعل فرسولا حال مؤكدة وقد جوز أن يكون مصدرا مؤكدا كما في قوله :

لقد كذب الواشون ما فهمت عندهم بسر ولا أرسلتهم برسول

أى يارسال بمعنى رسالة ﴿ وكفى بالله شهيدا ﴾ أى على رسالتك بنصب المعجزات التى من جملتها هذا النص الناطق والوحي الصادق والالفتات لتربية المهابة وتقوية الشهادة والجملة اعتراض تذييلى ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ بيان لأحكام رسالته عليه الصلاة والسلام إثر بيان تحققها وثبوتها وإنما كان كذلك لأن الأمر والنهى فى الحقيقة هو الله تعالى وإنما هو عليه الصلاة والسلام مبلغ لأمره ونهيه فرجع الطاعة وعدمها هو لله سبحانه ، روى أنه عليه الصلاة والسلام قال من أحبني فقد أحب الله ومن أطاعني فقد أطاع الله فقال المنافقون ألا تسمعون إلى ما يقول هذا الرجل لقد قارف الشرك وهو ينهى أن يعبد غير الله ما يريد إلا أن نتخذه ربا كما اتخذت النصارى عيسى فنزلت ، والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بالرسول دون الخطاب للإيدان بأن مناط كون طاعته عليه الصلاة والسلام طاعة له تعالى ليس خصوصية ذاته عليه الصلاة والسلام.

(١) فى ط : من استحقاق .

بل من حيثية رسالته وإظهار الجلالة لتربية المهابة وتأكيد وجوب الطاعة
بذكر عنوان الألوهية وحمل الرسول على الجنس المنتظم له عليه الصلاة والسلام
انتظاما أوليا يآباه تخصيص الخطاب به عليه السلام في قوله تعالى :

﴿ ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا ﴾ وجواب الشرط محذوف
والمذكور تعليل له أى ومن أعرض عن الطاعة عنه إنما أرسلناك رسولا مبلغا
لا حفيظا مهيمننا تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها وتعاقبهم بحسبها وحفيظا
حال من السكاف وعليهم متعلق به قدم عليه رعاية للفاصلة وجمع الضمير باعتبار
معنى من كما أن الأفراد في تولى باعتبار لفظه ﴿ ويقولون ﴾ شروع في بيان
معاملتهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم بعد بيان وجوب طاعته أى يقولون
إذا أمرتهم بشيء ﴿ طاعة ﴾ أى أمرنا وشأننا طاعة أو منا طاعة والأصل
النصب على المصدر والرفع للدلالة على الثبات كسلام ﴿ فإذا برزوا من عندك ﴾ أى
خرجوا من مجلسك ﴿ بيت طائفة منهم ﴾ أى من القائلين المذكورين وهم
رؤساؤهم ﴿ غير الذى تقول ﴾ أى زورت طائفة منهم وسوت خلاف ما قالت
لك من القبول وضمان الطاعة لأنهم مصرون على الرد والعصيان وإنما يظهرون
ما يظهرون على وجه النفاق أو خلاف ما قلت لها والتبديد إمامن البيتوته لأنه
قضاء الأمر وتدبيره بالليل يقال هذا أمر بيت بليل وإما من بيت الشعر لأن
الشاعر يدبره ويسويه وتذكير الفعل لأن تأنيث الطائفة غير حقيقى وقرىء
بإدغام التاء فى التاء لقرب المخرج وإسناده إلى طائفة منهم لبيان أنهم المتصدون
له بالذات والباقون أتباع لهم فى ذلك لا لأن الباقين ثابتون على الطاعة .

﴿ والله يكتب ما يبيتون ﴾ أى يكتبه فى جملة ما يوحى إليك فيطلعك
على أسرارهم فلا يحسبوا أن مكرهم يخفى عليك فىجدون بذلك إلى الإضرار
بكم سبيلا أو يشته فى صحائفهم فيجازيهم عليه وأياما كان فالجملة اعتراضية
﴿ فأعرض عنهم ﴾ أى لا تبال بهم وبما صنعوا أو تجاف عنهم ولا تتصدل لانتقام
منهم والفاء لسببية ما قبلها لما بعدها .

﴿ وتوكل على الله ﴾ في كل ما تأتي وما تذر لاسيما في شأنهم وإظهار الجلالة في مقام الإضمار للإشعار بعلّة الحكم ﴿ وكفى بالله وكيلًا ﴾ فيكفيك معرفتهم وينتقم لك منهم والإظهار ههنا أيضا لما مر وللتنبية على استقلال الجملة واستغنائها عما عداها من كل وجه ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ إنكار واستقباح لعدم تدبرهم القرآن وإعراضهم عن التأمل فيها فيه من موجبات الإيمان وتدبر الشيء تأمله والنظر في أدباره وما يؤول إليه في عاقبته ومنتهاه ثم استعمل في كل تفكير ونظر والفاء للعطف على مقدر أي يعرضون عن القرآن فلا يتأملون فيه ليعلموا كونه من عند الله تعالى بمشاهدة ما فيه من الشواهد^(١) التي من جملتها هذا الوحي الصادق والنسب الناطق بنفاقهم المحكي على ما هو عليه .

﴿ ولو كان ﴾ أي القرآن ﴿ من عند غير الله ﴾ كما يزعمون ﴿ لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ بأن يكون بعض أخباره غير مطابق للواقع إذ لا علم بالأمور الغيبية ماضية كانت أو مستقبلية لغيره سبحانه وحيث كانت كلها مطابقة للواقع تعين كونه من عنده تعالى . قال الزجاج ولولا أنه من عند الله تعالى لكان ما فيه من الإخبار بالغيب مما يسره المنافقون وما يبيتونه مختلفا بعضه حق وبعضه باطل لأن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى وقال أبو بكر الأضمر إن هؤلاء المنافقين كانوا يتواطؤون في السر على أنواع كثيرة من الكيد والمكر وكان الله تعالى يطلع الرسول عليه الصلاة والسلام على ذلك ويخبره بها مفصلة فقليل لهم إن ذلك لو لم يحصل بإخبار الله تعالى لما اطرده الصدق فيه ولوقع فيه الاختلاف فلما لم يقع ذلك قط علم أنه بإعلامه تعالى هذا هو الذي يستدعيه جزالة النظم الكريم وأما حمل الاختلاف على التناقض وتفاوت النظم في البلاغة بأن كان بعضه دالا على معنى صحيح عند علماء المعاني وبعضه على معنى

(١) في ١٠ : الدلائل .

فاسد غير ملتئم وبعضه بالغاً حد الإعجاز وبعضه قاصراً عنه يمكن معارضته كما جنح إليه الجمهور فما لا يساعده السباق ولا السياق ومن رام التقريب وقال لعل ذكره ههنا للتنبية على أن اختلاف ما سبق من الأحكام ليس لتناقض في الحكم والمصالح المقتضية لذلك فقد بعد عن الحق بمراحل .

﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ﴾ يقال أذاع السر وأذاع به أى أشاعه وأفشاه وقيل معنى أذاعوا به فعلوا به الإذاعة وهو أبلغ من أذاعوه وهو كلام مسوق لدفع ماعسى يتوهم في بعض المواد من شائبة الاختلاف بناء على عدم فهم المراد ببيان أن ذلك لعدم وقوفهم على معنى الكلام لا لتخلف مدلوله عنه وذلك أن ناساً من ضعفة المسلمين الذين لا خبرة لهم بالأحوال كانوا إذا أخبرهم الرسول عليه الصلاة والسلام بما أوحى إليه من وعد بالظفر أو تخوير من الكفرة يذيعونه من غير فهم لمعناه ولا ضبط لفجواه على حسب ما كانوا يفهمونه ويحملونه عليه من المحامل وعلى تقدير الفهم قد يكون ذلك مشروطاً بأمور تفوت بالإذاعة فلا يظهر أثره المتوقع فيكون ذلك منشأ لتوهم الاختلاف فنعمى عليهم ذلك وقيل ﴿ ولو ردوه ﴾ أى ذلك الأمر الذى جاءهم ﴿ إلى الرسول ﴾ أى عرضه على رأيه عليه الصلاة والسلام مستكشفين لمعناه وما ينبغى له من التدبير والالتفات لما أن عنوان الرسالة من موجبات الرد والمراجعة إلى رأيه عليه الصلاة والسلام ﴿ وإلى أولى الأمر منهم ﴾ وهم كبار الصحابة البصراء فى الأمور رضى الله تعالى عنهم ﴿ لعله ﴾ أى لعلم الرادون معناه وتديره وإنما وضع موضع ضميرهم الموصول فقيل :

﴿ الذين يستنبطونه منهم ﴾ للإيذان بأنه ينبغى أن يكون قصدهم يردوهم إليهم استكشاف معناه واستيضاح فجواه أى لعله أولئك الرادون الذين يستنبطونه أى يتلقونه ويستخرجون علمه وتديره منهم أى من جهة الرسول عليه الصلاة والسلام وأولى الأمر من صحابته رضوان الله عليهم أجمعين ولما فعلوا فى حقه ما فعلوا فلم يقع فيه ما وقع من الاشتباه وتوهم الاختلاف وقيل لعله الذين

يستخرجون تدبيره بفتنهم وتجاربهم ومعرفتهم بأمر الحرب ومكايدها فكلمة من في منهم بياينة وقيل لأنهم كانوا إذا بلغهم خبر عن سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمن وسلامة أو خوف وخلل أذاعوا به وكانت إذاعتهم مفسدة ولو ردوا ذلك الخبر إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام وإلى أولى الأمر لعلم تدبير ما أخبروا به الذين يستنبطونه أى يستخرجون تدبيره بفتنهم وتجاربهم ومعرفتهم بأمر الحرب ومكايدها وقيل كانوا يقفون من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولى الأمر على أمن ووثوق بالظهور على بعض الأعداء أو على خوف فيذيعونه فينتشر فيبلغ الأعداء فتعود إذاعتهم مفسدة ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر وفوضوه إليهم وكانوا كأن لم يسمعوا لعلم الذين يستنبطون تدبيره كيف يدبرونه وما يأتون وما يذرون فيه وقيل كانوا يسمعون من أفواه المنافقين شيئا من الأخبار^(١) عن السرايا مضمونا غير معلوم الصحة فيذيعونه فيعود ذلك وبالا على المؤمنين ولو ردوه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وإلى أولى الأمر وقالوا نسكت حتى نسمعه منهم ونعلم هل هو مما يذاع أو لا يذاع لعلموا^(٢) صحته وهل هو مما يذاع أو لا يذاع هم الذين يستنبطونه من الرسول وأولى الأمر أى يتلقونه منهم ويستخرجون علمه من جهتهم فساق النظم الكريم حيثئذ لبيان جنائية تلك الطائفة وسوء تدبيرهم لإثبات جنائية المنافقين ومكرهم والخطاب في قوله تعالى :

﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ﴾ للطائفة المذكورة على طريقة الالتفات أى لولا فضله تعالى عليكم ورحمته يارشادكم إلى طريق الحق الذى هو المراجعة فى مظان الاشتباه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأولى الأمر ﴿ لا تبعتم الشيطان ﴾ وعلمتم بأراء المنافقين فيما أتون وما تذكرون ولم تهتدوا إلى سنن الصواب. ﴿ إلا قليلا ﴾ وهم أولوا الأمر الواقفون على أسرار الكتاب الراسخون فى

(١) فى ط : الخبر

(٢) فى ط : لعلم .

معرفة أحكامه فلا استثناء منقطع وقيل ولولا فضله تعالى عليكم ورحمته بإرسال الرسول وإنزال الكتاب لا تبعتم الشيطان وبقيتم على الكفر والضلالة إلا قليلا منكم قد تفضل عليه بعقل راجح اهتدى به إلى طريق الحق والصواب وعصمه من متابعة الشيطان كقوس بن ساعدة الإيادي وزيد بن عمرو بن نفيل وورقة ابن نوفل وأضرابهم فالخطاب للكل والاستثناء متصل وقيل المراد بالفضل والرحمة النهمة والظفر بالأعداء أى ولولا حصول النصر والظفر على التواتر والتتابع لا تبعتم الشيطان وتركتم الدين إلا قليلا منكم وهم أولوا البصائر النافذة والنيات القوية والعزائم الماضية من أفاضل المؤمنين الواقفين على حقيقة الدين البالغين إلى درجة حق اليقين المستغنين عن مشاهدة آثار حقيقته من الفتح والظفر وقيل إلا اتباعا قليلا ﴿ فقاتل في سبيل الله ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق الالتفات وهو جواب شرط محذوف ينساق إليه النظم الكريم أى إذا كان الأمر كما حكى من عدم طاعة المنافقين وكيدهم وتقصير الآخرين فى مراعاة أحكام الإسلام فقاتل أنت وحدك غير مكترث بما فعلوا وقوله تعالى :

﴿ لا تكلف إلا نفسك ﴾ أى إلا فعل نفسك استئناف مقرر لما قبله فإن اختصاص تكليفه عليه الصلاة والسلام بفعل نفسه من موجبات مباشرته للقتال وحده وفيه دلالة على أن ما فعلوا من التثبط لا يضره عليه الصلاة والسلام ولا يؤاخذ به وقيل هو حال من فاعل قاتل أى فقاتل غير مكلف إلا نفسك وقرىء لا تكلف بالجزم على النهى وقيل على جواب الأمر وقرىء بنون العظمة أى لا تكلفك إلا فعل نفسك لاعلى معنى لا تكلف أحدا إلا نفسك ﴿ وحرص المؤمنين ﴾ عطف على الأمر السابق داخل فى حكمه فإن كون حال الطائفتين كما حكى سبب للأمر بالقتال وحده وبتحريض خلص المؤمنين والتحريض على الشيء الحث عليه والترغيب فيه قال الراغب كأنه فى الأصل إزالة الحرص وهو ما لا خير فيه ولا يعتد به أى رغبتهم فى القتال ولا تعنف بهم وإنما لم يذكر المحرض عليه لغاية ظهوره وقوله تعالى :

﴿ عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا ﴾ عبدة منه سبحانه وتعالى محففة الإنجاز بكف شدة الكفرة ومكروههم فإن ما صدر بلعل وعسى مقرر الوقوع من جهته عز وجل وقد كان كذلك حيث روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم واعد أبا سفيان بعد حرب أحد موسم بدر للصغرى في ذى القعدة فلما بلغ الميعاد دعا الناس إلى الخروج فكرهه بعضهم فنزلت نخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبعين راكبا ووافوا الموعد وألقى الله تعالى في قلوب الذين كفروا الرعب فرجعوا من مر الظهران وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وافى بجميشه بدرا وأقام بها ثمانى ليال وكانت معهم تجارات فباعوها وأصابوا خيرا كثيرا وقد مر في سورة آل عمران ﴿ والله أشد بأسا ﴾ أى من قریش ﴿ وأشد تنكيلا ﴾ أى تعذيبا وعقوبة تنكل من يشاهدها عن مباشرة ما يؤدى إليها والجملة اعتراض تذيلى مقرر لما قبلها وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وتعليل الحكم وتقوية استقلال الجملة وتكرير الخبر لتأكيد التشديد وقوله تعالى :

﴿ من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ﴾ أى من ثوابها جملة مستأنفة سيقنت لبيان أن له عليه الصلاة والسلام فيما أمر به من تحريض المؤمنين حظا موفورا فإن الشفاعة هى التوسط بالقول فى وصول شخص إلى منفعة من المنافع الدنيوية أو الآخروية أو خلاصه من مضرة ما كذلك من الشفع كأن المشفوع له كان فردا فجعله الشفيع شفعا والحسنة منها ما كانت فى أمر مشروع روعى بها حق مسلم ابتغاء لوجه الله تعالى من غير أن يتضمن غرضا من الأغراض الدنيوية وأى منفعة أجل مما قد حصل للدؤمنين بتحريضه عليه للصلاة والسلام على الجهاد من المنافع الدنيوية والآخروية وأى مضرة أعظم مما تخلصوا منه بذلك من التثبط عنه ويتدرج فيها الدعاء للمسلم فإنه شفاعة إلى الله سبحانه وعليه مساق آية التحية الآتية روى أنه صلى الله عليه وسلم قال من دعا لأخيه المسلم بظن الغيب استجيب له وقال له الملك ولك مثل ذلك وهذا بيان لمقدار النصيب الموعود ﴿ ومن يشفع شفاعة سيئة ﴾ وهى ما كانت بخلاف الحسنة ﴿ يكن له

كفّل منها ﴿ أى نصيب من وزرها مساو لها في المقدار من غير أن يتقص منه شيء ﴾ وكان الله على كل شيء مقبلاً ﴿ أى مقتدراً من أوقات على الشيء إذا اقتدر عليه أو شهيداً حفيظاً واشتقاقه من القوت فإنه يقوى البدن ويحفظه والجملة تذييل مقرر لما قبلها على كلا المعنيين .

﴿ وإذا حييتم بتحيةة ﴾ ترغيب في فرد شائع من أفراد الشفاعة الحسنة إثر ما رغب فيها على الإطلاق وحذر عما يقابلها من الشفاعة السيئة وإرشاد إلى توفية حق الشفيع وكيفية أدائه فإن تحية الإسلام من المسلم شفاعة منه لأخيه إلى الله تعالى والتحية مصدر حي أصلها تحيية كتسمية من سمي وأصل الأصل تحيي بثلاث ياءات فحذفت الأخيرة وعوض عنها تاء التانيث وأدغمت الأولى في الثانية بعد نقل حركتها إلى الحاء قال الراغب أصل التحية الدعاء بالحياة وطولها ثم استعملت في كل دعاء وكانت العرب إذا لقي بعضهم بعضاً يقول حياك الله ثم استعملها الشرع في السلام وهي تحية الإسلام وقال تعالى تحييتهم فيها سلام وقال فسلبوا على أنفسكم تحية من عند الله قالوا في السلام مزية على التحية لما أنه دعاء بالسلامة من الآفات الدينية والدينية وهي مستلزمة لطول الحياة وليس في الدعاء بطول الحياة ذلك ولأن السلام من أسمائه تعالى فالبداءة بذكره مما لا ريب في فضله ومزيته أي إذا سلم عليكم من جهة المؤمنين ﴿ فحيوا بأحسن منها ﴾ أي بتحية أحسن منها بأن تقولوا وعليكم السلام ورحمة الله لأن اقتصر المسلم على الأول وبأن تزيدوا وبركاته إن جمعهما المسلم وهي النهاية لانتظامها بجميع فنون المطالب التي هي السلامة عن المضار ونيل المنافع ودوامها ونماؤها .

﴿ أوردوها ﴾ أي أجيبوها بمثلها . روى أن رجلاً قال أحدهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم السلام عليك فقال وعليك السلام ورحمة الله وقال الآخر السلام عليك ورحمة الله فقال وعليك السلام ورحمة الله وبركاته وقال الآخر السلام عليك ورحمة الله وبركاته فقال وعليك فقال الرجل نقصتني فأين ما قال الله تعالى وتلا الآية فقال عليه الصلاة والسلام إنك لم تترك لي فضلاً فرددت

عليك مثله وجواب التسليم واجب وإنما التخيير بين الزيادة وتركها وعن النخعي أن السلام سنة والرد فريضة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما الرد واجب وما من رجل يمر على قوم مسلمين فيسلم عليهم ولا يردون عليه إلا نزع الله منهم روح القدس وردت عليه الملائكة ولا يرد في الخطبة وتلاوة القرآن جهرا ورواية الحديث وعند دراسه العلم والأذان والإقامة ولا يسلم على لاعب النرد والشطرنج والمغنى والقاعد لحاجته ومطير الحمام والعارى في الحمام وغيره قالوا ويسلم الرجل على امرأته لا على الأجنبية والسنة أن يسلم الماشى على القاعد والراكب على الماشى وراكب الفرس على راكب الحمار والصغير على الكبير والقليل على الكثير وإذا التقيا ابتدرا وعن أبي حنيفة رضى الله عنه لا يجهر بالرد يعنى الجهر الكثير وعن النبي عليه الصلاة والسلام إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم أى وعليكم ما قلتم حيث كان يقول بعضهم السام عليكم وروى لا تبدأ اليهودى بالسلام وإذا بدأك فقل وعليك وعن الحسن أنه يجوز أن يقول للكافر وعليك السلام دون الزيادة وقيل التحية بالأحسن عند كون المسلم مسلما ورد مثلها عند كونه كافرا .

﴿إن الله كان على كل شيء حسيبا﴾ فيحاسبكم على كل شيء من أعمالكم التي من جعلتها ما أمرتم به من التحية حافظوا على مراعاتها حسبما أمرتم به . ﴿الله لا إله إلا هو﴾ مبتدأ وخبر وقوله تعالى ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة﴾ جواب قسم محذوف أى والله ليحشرنكم من قبوركم إلى حساب يوم القيامة . وقيل إلى بمعنى فى والجملة القسمية إما مستأنفة لا محل لها من الإعراب أو خبر ثان للبتدأ أو هى الخبر ولا إله إلا هو اعتراض وقوله تعالى ﴿لا ريب فيه﴾ أى فى يوم القيامة أو فى الجمع حال من اليوم أو صفة للبصير أى جمعا لا ريب فيه ﴿ومن أصدق من الله حديثا﴾ إنكار لأن يكون أحد أصدق منه تعالى فى وعده وسائر أخباره وبيان لاستحاله كيف لا والكذب محال عليه سبحانه دون غيره .

﴿فما لكم﴾ مبتدأ وخبر والاستفهام للإنكار والنفي والخطاب لجميع المؤمنين لكن ما فيه من معنى التوبيخ متوجه إلى بعضهم وقوله تعالى ﴿في المنافقين﴾ متعلق إما بما تعلق به الخبر أى أى شىء كائن لكم فيهم أى فى أمرهم وشأنهم فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وإما بما يدل عليه قوله تعالى ﴿فئتين﴾ من معنى الافتراق أى فما لكم تفترقون فى المنافقين وإما بمحذوف وقع حالا من فئتين أى كائنتين فى المنافقين لأنه فى الأصل صفة فلما قدمت انتصبت على الحال (١) كما هو شأن صفات النكرات على الإطلاق أو من الضمير فى تفترقون وانتصاب فئتين عند البصريين على الحالية من المخاطبين والعامل ما فى لكم من معنى الفعل كما فى قوله تعالى (فما لهم عن التذكرة معرضين) وعند الكوفيين على خبرية كان مضمرة أى فما لكم فى المنافقين كنتم فئتين والمراد إنكار أن يكون للمخاطبين شىء يصحح اختلافهم (٢) فى أمر المنافقين وبيان وجوب بت القول بكفرهم وإجرائهم مجرى المجاهدين بالكفر فى جميع الأحكام وذكرهم بعنوان النفاق باعتبار وصفهم السابق . روى أنهم قوم من المنافقين استأذنوا رسول الله عليه الصلاة والسلام فى الخروج إلى البدو معتلين باجتواء المدينة فلما خرجوا لم يزالوا راحلين مرحلة فرحلة حتى لحقوا بالمشركين فاختلف المسلمون فى أمرهم وقيل هم قوم هاجروا من مكة إلى المدينة ثم بدا لهم فرجعوا وكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إنا على دينك وما أخرجنا إلا اجتواء المدينة والاشتياق إلى بلدنا وقيل هم ناس أظهروا الإسلام وقعدوا عن الهجرة وقيل هم قوم خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ثم رجعوا ويأباه ما سياتى من جعل هجرتهم غاية للنهى عن توليهم وقيل هم العرنيون الذين أغاروا على السرح وقتلوا راعى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرده ما سياتى من الآيات الناطقة بكيفية المعاملة معهم من السلم والحرب وهؤلاء قد أخذوا وفعل بهم ما فعل من المثلثة والقتل ولم ينقل فى أمرهم اختلاف المؤمنين .

(٢) فى ط : مصحح لاختلافهم .

(١) فى ط : حالا .

﴿ والله أركسهم ﴾ حال من المنافقين مفيدة لتأكيد الإنكار السابق واستبعاد وقوع المنكر ببيان وجود النافي بعد بيان عدم الداعي وقيل من ضمير المخاطبين والرابط هو الواو أى أى شىء يدعوكم إلى الاختلاف فى كفرهم مع تحقق ما يوجب اتفاقكم على كفرهم وهو أن الله تعالى قد ردهم فى الكفر كما كانوا ﴿ بما كسبوا ﴾ بسبب ما كسبوه من الارتداد واللحوق بالمشركين والاحتيال على رسول الله صلى الله عليه وسلم والعائد إلى الموصول محذوف وقيل ما مصدرية أى بكسبهم وقيل معنى أركسهم نكسهم بأن صيرهم للنار وأصل الركب رد الشىء مقلوبا وقرىء ركسهم مشددا وركسهم أيضا مخففا ﴿ أتريدون أن تهدوا من أضل الله ﴾ تجريد للخطاب وتخصيص له بالقاتلين بإيمانهم من الفشتين وتوبيخ لهم على زعمهم ذلك وإشعار بأنه يؤدي إلى محاولة المحال الذى هو هداية من أضله الله تعالى وذلك بأن الحكم بإيمانهم وادعاء اهتدائهم وهم بمعزل من ذلك سعى فى هدايتهم وإرادة لها ووضع الموصول موضع ضمير المنافقين لتشديد الإنكار وتأكيده استحالة الهداية بما ذكر فى حيز الصلة وتوجيه الإنكار إلى الإرادة لا إلى متعلقها بأن يقال أتهدون الخ للمبالغة فى إنكاره ببيان أنه بما لا يمكن إرادته فضلا عن إمكان نفسه وحمل الهداية والإضلال على الحكم بهما ياباه قوله تعالى :

﴿ ومن يضلل الله فلن نجد له سبيلا ﴾ أى ومن يخلق فيه الضلال كأننا من كان فلن نجد له سبيلا من السهل فضلا عن أن تهديه إليه وفيه من الإفصاح عن كمال الاستحالة ما ليس فى قوله تعالى (ومن يضلل الله فما له من هاد) ونظائره وحمل إضلاله تعالى على حكمه وقضائه بالضلال مخل بحسن المقابلة بين الشرط والجزاء وتوجيه الخطاب إلى كل واحد من المخاطبين للإشعار بشمول عدم الوجدان لكل على طريق التفصيل والجملة إما حال من فاعل تريدون أو تهدوا والرابط هو الواو أو اعتراض تذييل مقرر للإنكار السابق ومؤكده لاستحالة الهداية فحينئذ يجوز أن يكون الخطاب لكل أحد من يصلح له من المخاطبين

أولا ومن غيرهم ﴿ودوا لتكفرون﴾ كلام مستأنف لبيان غلوهم وتماديهم في الكفر وتصديهم لإضلال غيرهم إثر بيان كفرهم وضلالهم في أنفسهم وكلية لومصدرية غنية عن الجواب وهي مع ما بعدها نصب على المفعولية أي ودوا أن تكفروا وقوله تعالى ﴿كما كفروا﴾ نصب على أنه نعت لمصدر محذوف أي كفرا مثل كفرهم أو حال من ضمير ذلك المصدر كما هو رأى سيبويه وقوله تعالى ﴿فتكفونوا سواء﴾ عطف على تكفرون داخل في حكمه أي ودوا أن تكفروا فتكفونوا سواء مستويين في الكفر والضلال وقيل كلية لو على بابها وجوابها محذوف كفعول ودوا التقدير ودوا كفركم لتكفرون كما كفروا لسروا بذلك ﴿فلا تتخذوا منهم أولياء﴾ الفاء جواب شرط محذوف وجمع أولياء لمراعاة جمع المخاطبين فإن المراد نهى أن يتخذ واحد من المخاطبين وليا واحدا منهم أي إذا كان حالهم ما ذكر من ودادة كفركم فلا توالوهم ﴿حتى يهاجروا في سبيل الله﴾ أي حتى يؤمنوا ويحققوا إيمانهم بهجرة كائنه الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام لا لغرض من أغراض الدنيا .

﴿فإن تولوا﴾ أي عن الإيمان المؤيد^(١) بالهجرة الصحيحة المستقيمة ﴿نظفونهم﴾ أي إذا قدرتم عليهم ﴿واقتلوهم حيث وجدتموهم﴾ من الحل والحرم فإن حكمهم حكم سائر المشركين أسرا وقتلا ﴿ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا﴾ أي جانبوهم محاببة كلية ولا تقبلوا منهم ولاية ولا نصرة أبدا ﴿إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ استثناء من قوله تعالى نظفونهم واقتلوهم أي إلا الذين يتصلون وينتهون إلى قوم عاهدوكم ولم يحاربوكم وهم الأسلميون كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وقت خروجه من مكة قد وادع هلال بن عويمر الأسلمي على أنه لا يعينه ولا يعين عليه وعلى أن من وصل إلى

(١) في ط المظاهر .

هلال ولجأ إليه فله من الجوار مثل الذي لهلال وقيل هم بنو بكر بن زيد مناة وقيل هم خزاعة .

﴿ أو جاءوكم ﴾ عطف على الصلوة أى أو الذين جاءوكم كافين عن قتالكم وقاتل قومهم استثنى من المأمور بأخذهم وقتلهم فريقان أحدهما من ترك المحاربين ولحق بالمعاهدين والآخر من أتى المؤمنين وكف عن قتال الفريقين أو على صفة قوم كأنه قيل إلا الذين يصلون إلى قوم معاهدين أو إلى قوم كافين عن القتال لكم والقتال عليكم والأول هو الأظهر لما سيأتى من قوله تعالى (فإن اعتزلوكم) الخ فإنه صريح فى أن كفهم عن القتال أحد سببى استحقاقهم لنفى التعرض لهم وقرىء جاءوكم بغير عاطف على أنه صفة بعد صفة أو بيان ليصلون أو استئناف ﴿ حصرت صدورهم ﴾ حال بإضمار قد بدليل أنه قرىء حصرة صدورهم وحصرات صدورهم وقيل هو بيان لجاءوكم وهم بنو مدلج جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مقاتلين والحصر الضيق والانتباض ﴿ أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ﴾ أى من أن يقاتلوكم أى لأن يقاتلوكم أو كراهة أن يقاتلوكم الخ ﴿ ولو شاء الله لسلطهم عليكم ﴾ جملة مبتدأة جارية بجرى التعليل لاستثناء الطائفة الأخيرة من حكم الأخذ والقتل ونظمهم فى سلك الطائفة الأولى الجارية بجرى المعاهدين مع عدم تعلقهم بنا ولا بمن عاهدونا كالطائفة الأولى أى ولو شاء الله لسلطهم عليكم ببسط صدورهم وتقوية قلوبهم وإزالة الرعب عنها ﴿ فلقاؤكم ﴾ عقيب ذلك ولم يكفوا عنكم واللام جواب لو على التكرير أو الإبدال من الأولى وقرىء فلقاؤكم بالتخفيف والتشديد ﴿ فإن اعتزلوكم ﴾ ولم يتعرضوا لكم ﴿ فلم يقاتلوكم ﴾ مع ما علمتم من تمسكهم من ذلك بمشبهة الله عز وجل ﴿ وألقوا إليكم السلم ﴾ أى الإلقاء والإسلام وقرىء بسكون اللام ﴿ فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً ﴾ طريقاً بالأسر أو بالقتل فإن كفهم عن قتالكم وأن يقاتلوا قومهم أيضاً وإلقاءهم إليكم السلم وإن لم يعاهدوكم كافية فى استحقاقهم لعدم تعرضكم لهم ﴿ ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم ﴾ هم قوم من أسد وعظمان كانوا إذا أتوا المدينة أسلموا وعاهدوا

ليأمنوا المسلمين فإذا رجعوا إلى قومهم ونكثوا عهودهم ليأمنوا قومهم وقيل هم بنو عبد الدار وكان دينهم ما ذكر ﴿ كلما ردوا إلى الفتنة ﴾ أى دعوا إلى الكفر وقاتل المسلمين ﴿ أركسوا فيها ﴾ قلبوا فيها أبيض قلب وأشنعوه وكانوا فيها شرا من كل عدو شرير ﴿ فإن لم يعتزلوكم ﴾ بالكف عن التعرض لكم بوجه ما ﴿ وبلغوا إليكم السلم ﴾ أى لم يلقوا إليكم الصلح والعهد بل نبذوه إليكم ﴿ ويكفوا أيديهم ﴾ أى لم يكفوها عن قتالكم ﴿ نفلوهم واقتلوهم حيث ثقفتهم ﴾ أى تمكنتهم منهم ﴿ وأولئكم ﴾ الموصوفون بما ذكر من الصفات القبيحة ﴿ جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا ﴾ حجة واضحة في الإيقاع بهم قتلا وسبيا لظهور عداوتهم وانكشاف حالهم في الكفر والغدر وإضرارهم بأهل الإسلام أو تسلطا ظاهرا حيث أذن لكم في أخذهم وقتلهم ﴿ وما كان لمؤمن ﴾ أى وما صح له ولا لاق بحاله ﴿ أن يقتل مؤمنا ﴾ بغير حق فإن الإيمان زاجر عن ذلك ﴿ إلا خطأ ﴾ فإنه ربما يقع لعدم دخول الاحتراز عنه بالكلمة تحت الطاقة البشرية وانتصا به إما على أنه حال أى وما كان له أن يقتل مؤمنا في حال من الأحوال إلا في حال الخطأ أو على أنه المفعول له أى وما كان له أن يقتله لعل من العلل إلا للخطأ أو على أنه صفة للمصدر أى إلا قتلا خطأ وقيل إلا بمعنى ولا التقدير وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا عمداً ولا خطأ وقيل ما كان نفي في معنى النهى والاستثناء منقطع أى لكن إن قتله خطأ فجزاؤه ما يذكر والخطأ ما لا يقارنه القصد إلى الفعل أو إلى الشخص أو لا يقصد به زهوق الروح غالبا أو لا يقصد به محذور كرمى مسلم في صف الكفار مع الجهل بإسلامه وقرىء خطاء بالمد وخطا كعصا بتخفيف الهمزة . روى أن عياش بن أبي ربيعة وكان أخا أبي جهل لأمه أسلم وهاجر إلى المدينة خوفا من أهله وذلك قبل هجرة النبي عليه الصلاة والسلام فأقسمت أمه لا تأكل ولا تشرب ولا يأويها سقف حتى يرجع ثخرج أبو جهل ومعه الحرث بن زيد بن أبي أنيسة فأتياه وهو في أطم فقتل منه أبو جهل في الذروة والغارب وقال أليس محمد يحنك على صلة الرحم انصرف وبر أمك وأنت على دينك حتى نزل وذهب معهما

فلما فسحا من المدينة كتفاه وجلده كل واحد منهما مائة جلدة فقال للحرث
هذا أخي فن أنت يا حرث لله على إن وجدتك خاليا أن أقتلك وقدما به على
أمه خلفت لا يحل كتافه أو يرتد ففعل بلسانه ثم هاجر بعد ذلك وأسلم الحرث
وهاجر فلقية عياش بظهر قباء ولم يشعر بإسلامه فأنحى عليه فقتله ثم أخبر
بإسلامه فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قتلته ولم أشعر بإسلامه فنزلت
﴿ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة ﴾ أي فعلية أو فجزاؤه تحرير رقبة أي
إعتاق نسمة عبر عنها بها كما يعبر عنها بالرأس ﴿ مؤمنة ﴾ أي محكوم بإسلامها
وإن كانت صغيرة ﴿ ودية مسلمة إلى أهله ﴾ مؤداة إلى ورثته يقسمونها
كسائر الموارث لقول الضحاك بن سفيان الكلابي كتب إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم يأمرني أن أورث امرأة أشيم الضبابي من عقل زوجها
﴿ إلا أن يصدقوا ﴾ أي إلا أن يتصدق أهله عليه سمي العفو عنها صدقة حثا
عليه وتنبها على فضله وعن النبي عليه الصلاة والسلام كل معروف صدقة
وقرىء إلا أن يتصدقوا وهو متعلق بعليه أو بمسألة أي تجب الدية أو يسلمها
إلى أهله إلا وقت تصدقهم عليه فهو في محل النصب على الظرفية أو إلا حال
كونهم متصدقين عليه فهو حال من الأهل أو القاتل ﴿ فإن كان ﴾ أي المقتول
﴿ من قوم عدو لكم ﴾ كفار محاربين ﴿ وهو مؤمن ﴾ ولم يعلم به القاتل
لسكونه بين أظهر قومه بأن أسلم فيما بينهم ولم يفارقهم أو بأن أتاهم بعدما فارقهم
لهم من المهمات ﴿ فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ أي فعلى قاتله الكفارة دون الدية
إذا وراثته بينه وبين أهله لأنهم محاربون ﴿ وإن كان ﴾ أي المقتول المؤمن
﴿ من قوم ﴾ كفرة ﴿ بينكم وبينهم ميثاق ﴾ أي عهد مؤقت أو مؤبد
﴿ فدية ﴾ أي فعلى قاتله دية ﴿ مسلمة إلى أهله ﴾ من أهل الإسلام إن وجدوا
ولعل تقديم هذا الحكم ههنا مع تأخيره فيما سلف للإشعار بالمسارعة إلى
تسليم الدية تحاشيا عن توهم نقض الميثاق ﴿ وتحرير رقبة مؤمنة ﴾ كما هو حكم
سائر المسلمين ولعل لإفراده بالذكر مع اندراجه في حكم ما سبق من قوله تعالى
﴿ ومن قتل مؤمنا خطأ ﴾ الخ لبيان أن كونه فيما بين المعاهدين لا يمنع وجوب

الدية كما منعه كونه فيما بين المحاربين وقبل المراد بالمقتول الذمي أو المعاهد
لئلا يلزم التكرار بلا فائدة ولا التوريت بين المسلم والكافر وقد عرفت عدم
لزومهما ﴿ فن لم يجد ﴾ أى رقة ليحررها بأن لم يملكها ولا ما يتوصل به
إليها من الثمن ﴿ فصيام ﴾ أى فعلية صيام ﴿ شهرين متتابعين ﴾ لم يتخلل بين
يومين من أيامهما لإفطار ﴿ توبة ﴾ نصب على أنه مفعول له أى شرع لكم
ذلك توبة أى قبولاً لها من تاب الله عليه إذا قبل توبته أو مصدر مؤكد لفعل
محذوف أى تاب عليكم توبة وقيل على أنه حال من الضمير المجرور فى عليه
بحذف المضاف أى فعلية صيام شهرين حال كونه ذا توبة وقوله تعالى :
﴿ من الله ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لتوبة أى كائنة منه تعالى : ﴿ وكان
الله عليهما ﴾ بجميع الأشياء التى من جملتها حاله ﴿ حكيماً ﴾ فى كل ما شرع
وقضى من الشرائع والأحكام التى من جملتها ما شرعه فى شأنه ﴿ ومن يقتل
مؤمناً متعمداً ﴾ لما بين حكم القتل خطأ وفصل أقسامه الثلاثة عقب ذلك
بيان القتل عمداً خلا أن حكمه الدينوى لما بين فى سورة البقرة اقتصر ههنا
على حكمه الأخرى . روى أن مقيس بن ضيابة الكناني وكان قد أسلم هو
وأخوه هشام وجد أخاه قتيلاً فى بنى النجار فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم
وذكر له القصة فأرسل عليه السلام معه زبير بن عياض الفهرى وكان من
أصحاب بدر إلى بنى النجار يأمرهم بتسليم القاتل إلى مقيس ليقتص منه إن
علوه وبأداء الدية إن لم يملوه فقالوا سمعنا وطاعة لله تعالى ولرسوله عليه السلام
ما نعلم له قاتلاً وسكناً نؤدى دية فأتوه بمائة من الإبل فانصرفا راجعين إلى
المدينة حتى إذا كانا ببعض الطريق أتى الشيطان مقيساً فوسوس إليه فقال
أقبل دية أخيك فيكون مسبة عليك اقتل الذى معك فيكون نفساً بنفس
وفضل الدية فتغفل الفهرى فرماه بصخرة فشدخه ثم ركب بعيراً من الإبل
واستاق بقيتها راجعاً إلى مكة كافراً وهو يقول :

قتلت به فهراً وحملت عقله سراة بنى النجار أصحاب قارع
وأدركت نأرى واضطجعت موسداً وكنت إلى الأوثان أول راجع

فنزلت وهو الذي استثناه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح بمن
أمنه فقتل وهو متعلق بأستار الكعبة وقوله تعالى : متعمدا حال من فاعل يقتل
وروى عن الكسائي سكون التاء كأنه فر من توالي الحركات ﴿ فجزاؤه ﴾
الذي يستحقه بجنايته ﴿ جهنم ﴾ وقوله تعالى ﴿ خالدا فيها ﴾ حال مقدره من
فاعل فعل مقدر بقتضيه المقام كأنه قيل فجزاؤه أن يدخل جهنم خالدا فيها
وقيل هو حال من ضمير يجزاها وقيل من مفعول جزاه وأيد ذلك بأنه
أنسب بعطف ما بعده عليه لموافقته له صيغة ولا يخفى أن ما يقدر للحال
أو للعطف عليه حقه أن يكون بما يقتضيه المقام اقتضاء ظاهرا ويدل عليه
الكلام دلالة بينة وظاهر أن كون جزائه ما ذكر لا يقتضى وقوع الجزاء
البتة كما ستقف عليه حتى يقدر يجزاها أو جزاه بطريق الإخبار عن وقوعه
وأما قوله تعالى : ﴿ وغضب الله عليه ﴾ فعطوف على مقدر يدل عليه الشرطية
دلالة واضحة كأنه قيل بطريق الاستئناف تقريراً وتأكيذاً لمضمونها حكم الله
بأن جزاءه ذلك وغضب عليه أى انتقم منه ﴿ ولعنه ﴾ أى أبعدته عن الرحمة
بجعل جزائه ما ذكر وقيل هو وما بعده معطوف على الخبر بتقدير أن وحمل
المباضى على معنى المستقبل كما فى قوله تعالى (ونفخ فى الصور) ونظائره أى
فجزاؤه جهنم وأن يغضب الله عليه الخ ﴿ وأعد له ﴾ فى جهنم ﴿ عذاباً عظيماً ﴾
لا يقادر قدره ولما ترى فى الآية السكينة من التهديد الشديد والوعيد الأكيد
وفنون الإبراق والإرعاد وقد تأيدت بما روى من الأخبار الشداد كقوله
عليه الصلاة والسلام والذي نفسى بيده لروال الدنيا عند الله أهون من قتل
مؤمن وقوله عليه الصلاة والسلام لو أن رجلاً قتل بالمشرق وآخر رضى بالمغرب
لأشرك فى دمه وقوله عليه الصلاة والسلام من أعان على قتل مؤمن ولو بشطر
كلية جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله تعالى وبنحو ذلك
من القوارع تمسكت الخوارج والمعتزلة بها فى خلود من قتل المؤمن عمداً فى
النار ولا متمسك لهم فيها إلا لما قيل من أنها فى حق المستحل كما هو رأى
عكرمة وأضرابه بدليل أنها نزلت فى مقيس بن ضبابه الكنانى المرتد حسبما

مرت حكايته فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب بل لأن المراد بالخلود هو المسكك الطويل لا الدوام لتظاهر النصوص الناطقة بأن عصاة المؤمنين لا يدوم عذابهم وما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمدا وكذا ما روى عن سفيان أن أهل العلم كانوا إذا سئلوا قالوا لا توبة له محمول على الاقتداء بسنة الله تعالى في التشديد والتخليط وعليه يحمل ما روى عن أنس رضى الله تعالى عنه أن النبي عليه الصلاة والسلام قال أنى الله أن يجعل لقاتل المؤمن توبة . كيف لا وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلا سأله ألقاتل المؤمن توبة قال لا وسأله آخر ألقاتل المؤمن توبة فقال نعم فقيل له قلت لذلك كذا ولهذا كذا قال كان الأول لم يقتل بعد فقلت ما قلت كيلا يقتل وكان هذا قد قتل فقلت له ما قلت لئلا يياس وقد روى عنه جواز المغفرة بلا توبة أيضا حيث قال في قوله تعالى : فجزاءه جهنم الآية هي جزاؤه فإن شاء عذبه وإن شاء غفر له وروى مرفوعا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال هو جزاؤه إن جازاه وبه قال عون بن عبد الله وبكر بن عبد الله المزني وأبو صالح قالوا قد يقول الإنسان لمن يزجره عن أمر إن فعلته فجزاؤه القتل والضرب ثم إن لم يجزه بذلك لم يكن ذلك منه كذبا قال الواحدى والأصل في ذلك أن الله عز وجل يجوز أن يخلف الوعيد وإن امتنع أن يخلف الوعد . بهذا وردت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث أنس رضى الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال من وعده الله تعالى على عمله ثوابا فهو منجزه له ومن أوعده على عمله عقابا فهو بالخيار والتحقيق أنه لا ضرورة إلى تفريع ما نحن فيه على الأصل المذكور لأنه لإخبار منه تعالى بأن جزاءه ذلك لا بأنه يجزه بذلك . كيف لا وقد قال الله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) ولو كان هذا إخبارا بأنه تعالى يجزى كل سيئة بمثلها لعارضه قوله تعالى (ويعفو عن كثير) ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ إثر ما بين حكم القتل بقسميه وأن ما يتصور صدوره عن المؤمن إنما هو القتل خطأ شرع في التحذير عما يؤدي إليه من قلة المبالاة في الأمور ﴿ إذا ضربتم

في سبيل الله ﴿ أى سافرتم في الغزو ولما في إذا من معنى الشرط صدر قوله تعالى : ﴿ فتدينوا ﴾ بالفاء أى فاطلبوا بيان الأمر في كل ما تأتون وما تذكرون ولا تعجلوا فيه بغير تدبر وروية وقرىء فتثبتوا أى اطلبوا إثباته وقوله تعالى : ﴿ ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام ﴾ نهى عما هو نتيجة لترك المأمور به وتعيين لمادة مهمة من المواد التي يجب فيها التبيين وقرىء السلم بغير ألف وبكسر السين وسكون اللام أى لا تقولوا بغير تدبر لمن حياكم بتحية الإسلام أو لمن ألقى إليكم مقاليد الاستسلام والانقياد ﴿ لست مؤمنا ﴾ وإنما أظهرت ما أظهرت متعوذا بل اقبلوا منه ما أظهره وعاملوه بموجبه وقرىء مؤمنا بالفتح أى مبذولا لك الأمان وهذا أنسب بالقراءتين الأخيرتين والاقصار على ذكر تحية الإسلام في القراءة الأولى مع كونها مقرونة بكلمتي الشهادة كما سيأتى في سبب النزول للبالغثة في النهى والزجر والتنبيه على كمال ظهور خطئهم ببيان أن تحية الإسلام كانت كافية في المسكافة والازجار عن التعرض لصاحبها فكيف وهى مقرونة بهما وقوله تعالى ﴿ تبتغون عرض الحياة الدنيا ﴾ حال من فاعل لا تقولوا منبئء عما يحملهم على العجلة وترك التأنى لكن لا على أن يكون النهى راجعا إلى القيد فقط كما في قولك لا تطلب العلم تبتغى به الجاه بل إليهما جميعا أى لا تقولوا له ذلك حال كونكم طالبين لما له الذى هو حطام سريع النفاذ وقوله تعالى ﴿ فعند الله مغنم كثيرة ﴾ تعليل للنهى عن ابتغاء ماله بما فيه من الوعد الضمنى كأنه قيل لا تبتغوا ماله فعند الله مغنم كثيرة يغنمكموها فيغنيكم عن ارتكاب ما ارتكبتموه وقوله تعالى ﴿ كذلك كنتم من قبل فن الله عليكم ﴾ تعليل للنهى عن القول المذكور ولعل تأخيره لما فيه من نوع تفصيل ربما يخل بتقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم مع ما فيه من مراعاة المقارنة بين التعليل السابق وبين ما علل به كما في قوله تعالى (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم) الخ وتقديم خبر كان للقصر المقيد لتأكيد المشابهة بين طرفي التشبيه وذلك إشارة إلى الموصول باعتبار انصافه بما في حين الصلة والفاء في فن للعطف على كنتم أى مثل ذلك

الذي ألقى إليكم السلام كنتم أيضا في بدء إسلامكم لا يظهر منكم للناس غير ما ظهر منه لكم من تحية الإسلام ونحوها فن الله عليكم بأن قبل منكم تلك المرتبة وعصم بها دماءكم وأموالكم ولم يأمر بالتفحص عن سرائركم والفاء في قوله تعالى: ﴿ فتبينوا ﴾ فصيحة أي إذا كان الأمر كذلك فاطلبوا بيان هذا الأمر البين وقيسوا حاله بحالكم وافعلوا به ما فعل بكم في أوائل أموركم من قبول ظاهر الحال من غير وقوف على تواطؤ الظاهر والباطن هذا هو الذي تقتضيه جزاله التنزيل وتستدعيه غفامة شأنه الجليل ومن حسب أن المعنى أول ما دخلتم في الإسلام سمعت من أفواهكم كلمة الشهادة فخصت دماءكم وأموالكم من غير انتظار الاطلاع على مواطاة قلوبكم لألسنتكم فن الله عليكم بالاستقامة والاشتهار بالإيمان والتقدم فيه وأن صرتم أعلاما فيه فعليكم أن تفعلوا بالداخلين في الإسلام كما فعل بكم وأن تعتبروا ظاهر الإسلام في الكف ولا تقولوا الخ فقد أبعد عن الحق لأن المراد كما عرفت بيان أن تحصين الدماء والأموال حكم مترتب على ما فيه المماثلة بينه وبينهم من مجرد التفوه بكلمة الشهادة وإظهار أن ترتبه عليه في حقهم يقتضى ترتبه عليه في حقه أيضا لإرغامهم وإظهار الخطيئة ولا يخفى أن ذلك إنما يتأتى بتفسير منه تعالى عليهم المترتب على كونهم مثله بتهصين دماهم وأموالهم حسبما ذكر حتى يظهر عندهم وجوب تحصين دمه وماله أيضا بحكم المشاركة فيما يوجبه وحيث لم يفعل ذلك بل فسره به لم يبق في النظم الكريم ما يدل على ترتب تحصين دماهم وأموالهم على ما ذكر فن أين له أن يقول فخصنت دماءكم وأموالكم حتى يتأتى البيان وارتكاب تقديره بناء على اقتضاء ما ذكر في تفسير المن إيام بناء على أساس واه كيف لا وإنما ذكره بصدد التفسير وإن كان أمرا متفرعا على ما فيه المماثلة مبنيا عليه في حقهم لكنه ليس بحكم أريد لإثباته في حقه بناء على ثبوته في حقهم كالتحصين المذكور حتى يستحق أن يتعرض له ولا بأمر له دخل في وجوب اعتبار ظاهر الإسلام من الداخلين فيه حتى يصح نظمه في سلك ما فرع عليه قوله فعليكم أن تفعلوا الخ .

وحمل الكلام على معنى أنكم في أول الأمر كنتم مثله في قصور الرتبة في الإسلام فمن الله عليكم وبلغتم هذه الرتبة العالية منه فلا تستقصروا حالته نظرا إلى حالتكم هذه بل اعتدوا بها نظرا إلى حالتكم السابقة يرده أن قتله لم يكن لاستقصار إسلامه بل لتوهم عدم مطابقة قلبه للسان فان الآية الكريمة نزلت في شأن مرداس بن نهيك من أهل فدك وكان قد أسلم ولم يسلم من قومه غيره فغزتهم سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم غالب بن فضالة الليثي فهربوا وبقى مرداس لثقتة بإسلامه فلما رأى الخيل ألقا غنمه إلى عاقول من الجبل وصعد فلما تلاحقوا وكبروا كبر وقال لا إله إلا الله محمد رسول الله السلام عليكم فقتله أسامة بن زيد واستاق غنمه فأخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد وجدنا شديدا وقال قتلتموه إرادة ما معه فقال أسامة إنه قال بلسانه دون قلبه وفي رواية إنما قالها خوفا من السلاح فقال عليه الصلاة والسلام هلا شققت عن قلبه وفي رواية أفلا شققت عن قلبه ثم قرأ الآية على أسامة فقال يا رسول الله استغفر لي فقال كيف بلا إله إلا الله قال أسامة فما زال عليه الصلاة والسلام يعيدها حتى وددت أن لم أكن أسلمت إلا يومئذ ثم استغفر لي وقال أعتق رقبة وقيل نزلت في رجل قال يا رسول الله كنا نطلب القوم وقد هزمهم الله تعالى فقصدت رجلا فلما أحس بالسيف قال إني مسلم فقتلته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أقتلت مسلما قال إنه كان متعوذا فقال عليه الصلاة والسلام أفلا شققت عن قلبه ﴿إن الله كان بما تعملون﴾ من الأعمال الظاهرة والخفية وبكيفياتها ﴿خبيرا﴾ فيجازيكم بحسبها إن خيرا فخير وإن شرا فشر فلا تتهاونوا في القتل واحتاطوا فيه والجملة تعليل لما قبلها بطريق الاستئناف وقرئ بفتح أن على أنها معمولة لتبينوا أو على حذف لام التعليل ﴿لا يستوى القاعدون﴾ بيان لتفاوت طبقات المؤمنين بحسب تفاوت درجات مساعيهم في الجهاد بعد ما مر من الأمر به وتحريض المؤمنين عليه ليأنف القاعد عنه ويرفع بنفسه عن انحطاط رتبته فيهنز له رغبة في ارتفاع طبقته والمراد بهم الذين أذن لهم في القعود عن الجهاد اكتفاء بغيرهم قال ابن عباس رضي الله تعالى

عنهما هم القاعدون عن بدر والخارجون إليها وهو الظاهر الموافق لتاريخ النزول لا ما روى عن مقاتل من أنهم الخارجون إلى تبوك فإنه مما لا يوافق التاريخ ولا يساعده الحال إذا لم يكن للمتخلفين يومئذ هذه الرخصة وقوله تعالى ﴿ من المؤمنين ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من القاعدين أى كائنين من المؤمنين وفائدتها الإيذان من أول الأمر بعدم إخلال وصف القعود بإيمانهم والإشعار بعلة استحقاقهم لما سيأتى من الحسنى ﴿ غير أولى الضرر ﴾ صفة للقاعدين لجر يانه مجرى النكرة حيث لم يقصد به قوم بأعيانهم أو بدل منه وقرىء بالنصب على أنه حال منه أو استثناء وبالجر على أنه صفة للمؤمنين أو بدل منه والضرر المرض أو العاهة من عى أو عرج أو زمانة أو نحوها وفي معناه العجز عن الأهبة . عن زيد بن ثابت رضى الله تعالى عنه أنه قال كنت إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم فغشيت السكينة ف وقعت فخذته على فخذي حتى خشيت أن ترضها ثم سرى عنه فقال اكتب فكتبت (لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون) فقال ابن أم مكتوم وكان أعمى يارسول الله وكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين فغشيت السكينة كذلك ثم سرى عنه فقال اكتب (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر) ﴿ والمجاهدون ﴾ لإيرادهم بهذا العنوان دون الخروج المقابل لوصف المعطوف عليه كما وقع في عبارة ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وكذا تقييد المجاهدة بكونها ﴿ فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ﴾ لمدحهم بذلك والإشعار بعلة استحقاقهم لعلو المرتبة مع ما فيه من حسن موقع السبيل فى مقابلة القعود وتقديم القاعدين فى الذكر والإيذان من أول الأمر بأن القصور الذى ينبىء عنه عدم الاستواء من جهتهم لا من جهة مقابلتهم فإن مفهوم عدم الاستواء بين الشئتين المتفاوتتين زيادة ونقصانا وإن جاز اعتباره بحسب زيادة الزائد لكن المتبادر اعتباره بحسب قصور القاصر وعليه قوله تعالى (هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور) إلى غير ذلك وأما قوله تعالى (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) فلعل تقديم الفاضل فيه لأن صلته ملكة لصلة المفضول وقوله عز وجل ﴿ فضل الله المجاهدين بأموالهم

وأفسهم على القاعدين درجة ﴿ استثناف مسوق لتفصيل ما بين الفريقين من التفاضل المفهوم من ذكر عدم استوائهما إجمالا ببيان كينيته وكميته مبنى على سؤال ينساق إليه المقال كأنه قيل كيف وقع ذلك فقيل فضل الله الخ وأما تقدير ما لهم لا يستوون وإنما يليق بجعل الاستثناف تعليلا لعدم الاستواء مسوقا لإثباته وفيه عكس ظاهر فإن الذى يحق أن يكون مقصودا بالذات إنما هو بيان تفاضل الفريقين على درجات متفاوتة وأما عدم استوائهما فقصارى أمره أن يكون توطئة لذكره ولام المجاهدين والقاعدين للعهد فقيد كون الجهاد فى سبيل الله معتبر فى الأول كما أن قيد عدم الضرر معتبر فى الثانى ودرجة نصب على المصدرية لوقوعها موقع المرة من التفضيل أى فضل الله تفضيلة أو على نزع الخافض أى بدرجة وقيل على التمييز وقيل على الحالية من المجاهدين أى ذوى درجة وتنوينها للتفخيم وقوله تعالى ﴿ وكلا ﴾ مفعول أول لما يعقبه قدم عليه لإفادة القصر تأكيدا للوعد أى كل واحد من المجاهدين والقاعدين ﴿ وعد الله الحسنى ﴾ أى المثوبة الحسنى وهى الجنة لا أحدهما فقط كما فى قوله تعالى (وأرسلناك للناس رسولا) على أن اللام متعلقة برسولا والجملة اعتراض جىء به تداركا لما عسى أن يوهمه تفضيل أحد الفريقين على الآخر من حرمان المفضول وقوله عز وجل ﴿ وفضل الله المجاهدين على القاعدين ﴾ عطف على قوله تعالى فضل الله الخ واللام فى الفريقين مغنية لهما عن ذكر القيود التى تركت على سبيل التدرىج وقوله تعالى ﴿ أجرا عظيما ﴾ مصدر مؤكد لفضل على أنه بمعنى أجر وليثاره على ما هو مصدر من فعله للإشعار بكون ذلك التفضيل أجرا لأعمالهم أو مفعول ثان له بتضمينه معنى الإعطاء أى أعطاهم زيادة على القاعدين أجرا عظيما وقيل هو منصوب بنزع الخافض أى فضلهم بأجر عظيم وقوله تعالى ﴿ درجات ﴾ بدل من أجرا بدل السكل مبين لسكمية التفضيل وقوله تعالى ﴿ منه ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لدرجات دالة على فخامتها وجلالة قدرها أى درجات كأنه منه تعالى قال ابن محيريز هى سبعون درجة ما بين كل درجتين عدو الفرس الجواد المضمير سبعين خريفا وقال السدى هى سبعمائة درجة وعن أبى هريرة رضى الله عنه

أن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن في الجنة مائة درجة أعدها الله تعالى للمجاهدين في سبيله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض ويجوز أن يكون انتصاب درجات على المصدرية كما في قولك ضربه أسواطاً أى ضربات كأنه قيل فضلهم تفضيلاً وقوله تعالى ﴿ومغفرة﴾ بدل من أجراً بدل البعض لأن بعض الأجر ليس من باب المغفرة أى مغفرة لما فرط منهم من الذنوب التي لا يكفرها سائر الحسنات التي يأتي بها القاعدون أيضاً حتى تعد من خصائصهم وقوله تعالى ﴿ورحمة﴾ بدل السكل من أجراً مثله درجات ويجوز أن يكون انتصابهما بإضمار فعلهما أى غفر لهم مغفرة ورحمهم رحمة هذا .

ولعل تكرير التفضيل بطريق العطف المنبئ عن المغايرة وتقييده تارة بدرجة وأخرى بدرجات مع اتحاد المفضل والمفضل عليه حسبما يقتضيه الكلام ويستدعيه حسن النظام إما التنزيل للاختلاف العنواني بين التفضيلين وبين الدرجة والدرجات منزلة الاختلاف الذاتي تمهيداً لسلوك طريق الإبهام ثم التفسير روما لمزيد التحقيق والتقرير كما في قوله تعالى (فلما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيتناهم من عذاب غليظ) كأنه قيل فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة لا يقادر قدرها ولا يبلغ كنهها وحيث كان تحقق هذا البون البعيد بينهما موهما لحرمان القاعدين قيل وكلا وعد الله الحسنى ثم أريد تفسير ما أفاده التنكير بطريق الإبهام بحيث يقطع احتمال كونه للوحدة فقيل ما قيل والله در شأن التنزيل وإما للاختلاف بالذات بين التفضيلين وبين الدرجة والدرجات على أن المراد بالتفضيل الأول ما خولهم الله تعالى عاجلاً في الدنيا من الغنيمة والظفر والذكر الجميل الحقيقي بكونه درجة واحدة وبالتفضيل الثاني ما أنعم به في الآخرة من الدرجات العالية الفاتحة للحصر كما ينبغي عنه تقديم الأول وتأخير الثاني وتوسيط الوعد بالجنة بينهما كأنه قيل وفضلهم عليهم في الدنيا درجة واحدة وفي الآخرة درجات لا تحصى وقد وسط بينهما في الذكر ما هو متوسط بينهما في الوجود أعني الوعد بالجنة توضيحاً لخالها ومساواة إلى.

تسليمة المنفصول والله سبحانه أعلم . هذا ما بين المجاهدين وبين القاعدين غير أولى الضرر وأما أولو الضرر فهم مساوون للمجاهدين عند القائلين بمفهوم الصفة وبأن الاستثناء من النفي إثبات وأما عند من لا يقول بذلك فلا دلالة لعبارة النص عليه وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد خلفتم في المدينة أقواما ما سرتهم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم وهم الذين سحت نياتهم ونصحت جيوبهم وكانت أفئدتهم تهوى إلى الجهاد وبهم ما يمنعهم من المسير من ضرر أو غيره وبعبارة أخرى إن في المدينة لأقواما ما سرتهم من مسير ولا قطعتم من واد إلا كانوا معكم فيه قالوا يا رسول الله وهم بالمدينة قال نعم وهم بالمدينة حبسهم العذر قالوا هذه المساواة مشروطة بشريطة أخرى سوى الضرر قد ذكرت في قوله تعالى (ليس على الضعفاء ولا على المرضى إلى قوله إذا نصحووا لله ورسوله) وقيل القاعدون الأول هم الأضراء والثاني غيرهم وفيه من تفكيك النظم الكريم ما لا يخفى ولا ريب في أن الأضراء أفضل من غيرهم درجة كالأريب في أنهم دون المجاهدين بحسب الدرجة الدنياوية ﴿ وكان الله غفورا رحيما ﴾ تذييل مقرر لما وعد من المغفرة والرحمة ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ﴾ بيان لحال القاعدين عن الهجرة بعد بيان حال القاعدين عن الجهاد وتوفاهم يشمل أن يكون ماضيا ويؤيده قراءة من قرأ توفاهم وأن يكون مضارعا قد حذف منه إحدى التاءين وأصله تتوفاهم على حكاية الحال الماضية والقصد إلى استحضار صورتها وبعضه قراءة من قرأ توفاهم على مضارع وفيت بمعنى أن الله تعالى يوفى الملائكة أنفسهم فيتوفونها أى يمكنهم من استيفائها فيستوفونها ﴿ ظالمى أنفسهم ﴾ حال من ضمير توفاهم فإنه وإن كان مضافا إلى المعرفة إلا أنه نكرة في الحقيقة لأن المعنى على الانفصال وإن كان موصولا في اللفظ كما في قوله تعالى (غير محلى الصيد) وهديا بالغ السكبة (وثانى عطفه) أى محلى الصيد وبالغا السكبة وثانيا عطفه كأنه قيل ظالمين أنفسهم وذلك بترك الهجرة واختيار مجاورة الكفار الموجبة للإخلال بأمور الدين فإنها نزلت في ناس من أهل مكة قد أسلموا ولم يهاجروا حين كانت الهجرة فريضة ﴿ قالوا ﴾ أى الملائكة للتوفين

تقريراً لهم بتقصيرهم في إظهار إسلامهم وإقامة أحكامه من الصلاة ونحوها وتوبيخاً لهم بذلك ﴿ فيم كنتم ﴾ أي في أي شيء كنتم من أمور دينكم ﴿ قالوا ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية سؤال الملائكة كأنه قيل فماذا قالوا في الجواب فقيل قالوا متجانفين عن الإقرار الصريح بما هم فيه من التقصير متعللين بما يوجبه على زعمهم ﴿ كنا مستضعفين في الأرض ﴾ أي في أرض مكة عاجزين عن القيام بمواجب الدين فيما بين أهلها ﴿ قالوا ﴾ لإبطالاً لتعلمهم وتبكيته لهم ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ إلى قطر آخر منها تقدرون فيه على إقامة أمور الدين كما فعله من هاجر إلى المدينة وإلى الحبشة وأما حمل تعلقهم على إظهار العجز عن الهجرة وجعل جواب الملائكة تكذيباً لهم في ذلك فيرده أن سبب العجز عنها لا ينحصر في فقدان دار الهجرة بل قد يكون لعدم الاستطاعة للخروج بسبب الفقر أو لعدم تمكن الكفرة منه فلا يكون بيان سعة الأرض تكذيباً لهم ورداً عليهم بل لا بد من بيان استطاعتهم أيضاً حتى يتم التبكيته وقيل كانت الطائفة المذكورة قد خرجت مع المشركين إلى بدر منهم قيس بن العاص بن المغيرة وقيس بن الوليد بن المغيرة وأشباهما فقتلوا فيها فضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم وقالوا لهم ما قالوا فيكون ذلك منهم تقريراً وتوبيخاً لهم بما كانوا فيه من مساعدة الكفرة وانتظامهم في عسكرهم ويكون جوابهم بالاستضعاف تمللاً بأنهم كانوا مقهورين تحت أيديهم وأنهم أخرجوهم كارهين فرد عليهم بأنهم كانوا بسبيل من الخلاص عن قهرهم متمكنين من الهجرة ﴿ فأولئك ﴾ الذين حكيت أحوالهم الفظيعة ﴿ ماواهم ﴾ أي في الآخرة ﴿ جهنم ﴾ كما أن ماواهم في الدنيا دار الكفر لتركهم الفريضة المحتومة فماواهم مبتدأ وجهنم خبره والجملة خبر لأولئك وهذه الجملة خبر إن والفاء فيه لنضمن اسمها معنى الشرط وقوله تعالى قالوا فيم كنتم حال من الملائكة بإضمار قد عند من يشترطه أو هو الخبر والعائد منه محذوف أي قالوا لهم والجملة المصدرية بالفاء معطوفة عليه مستنتجة منه وبما في حيزه ﴿ وساءت مصيراً ﴾ أي مصيرهم أي جهنم وفي الآية الكريمة إرشاد إلى وجوب الهجرة من موضع

لا يتمكن الرجل من إقامة أمر دينه بأى سبب كان وعن النبي صلى الله عليه وسلم من فر بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبرا من الأرض استوجبت له الجنة وكان رفيق أبيه إبراهيم ونبيه محمد عليهما الصلاة والسلام ﴿ إلا المستضعفين ﴾ استثناء منقطع لعدم دخولهم في الموصول وضميره والإشارة إليه ومن في قوله تعالى ﴿ من الرجال والنساء والوالدان ﴾ متعلقة بمحذوف وقع حالا من المستضعفين كاثنين منهم وذكر الوالدان إن أريد بهم المالك أو المراهقون ظاهر وأما إن أريد بهم الأطفال فللمبالغة في أمر الهجرة والإيدان بأنها بحيث لو استطاعها غير المكلفين لوجبت عليهم والإشعار بأنهم لا يحصى لهم عنها البتة تجب عليهم كما بلغوا حتى كأنها واجبة عليهم قبل البلوغ لو استطاعوا أن يهاجروا بهم متى أمكنت وقوله تعالى ﴿ لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ﴾ صفة للمستضعفين فإن ما فيه من اللام ليس للتعريف أو حال منه أو من الضمير المستكن فيه وقيل تفسير لنفس المستضعفين لكثرة وجوه الاستضعاف واستطاعة الحيلة وجدان أسباب الهجرة ومبادياها واهتداء السبيل معرفة طريق الموضع المهاجر إليه بنفسه أو بدليل ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى المستضعفين الموصوفين بما ذكر من صفات العجز ﴿ عسى الله أن يعفو عنهم ﴾ جيء بكلمة الإطماع ولفظ العفو إيدانا بأن الهجرة من تأكد الوجوب بحيث ينبغى أن يعد تركها من تحقق عدم وجوبها عليه ذنبا يجب طلب العفو عنه رجاء وطمعا لاجز ما وقطعا ﴿ وكان الله عنوا غمورا ﴾ تذييل مقرر لما قبله ﴿ ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا ﴾ ترغيب في المهاجرة وتأنيس لها أى يجد فيها متحولا ومهاجرا وإنما عبر عنه بذلك تأكيذا للترغيب لما فيه من الإشعار يكون ذلك المتحول بحيث يصل فيه المهاجر من الخير والنعمة إلى ما يكون سببا لرغم أنف قومه الذين هاجروهم والرغم الذل والهوان وأصله لصوق الأنف بالرغام وهو التراب وقيل يجد فيها طريقا يراغم بسلوكة قومه أى يفارقهم على رغم أنوفهم ﴿ وسعة ﴾ أى من الرزق ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت ﴾ أى قبل أن يصل إلى المقصد وأن

كان ذلك خارج بابه كما ينبغي عنه إيثار الخروج من بيته على المهاجرة وهو عطف على فعل الشرط وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وقيل هو حركة الهاء نقلت إلى الكاف على نية الوقف كما في قوله :

من عنزى سبني لم أضربه عجبت والدهر كثير عجبه

وقرئ بالنصب على إضمار أن كما في قوله * وألحق بالحجاز فأستريحاه * (فقد وقع أجره على الله) أى ثبت ذلك عنده تعالى ثبوت الأمر الواجب . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث بالآيات المتقدمة إلى مسلي مكة قال جندب بن ضمرة لبنيه وكان شيخا كبيرا إحمولوني فإنى لست من المستضعفين وإنى لأهتدى الطريق والله لا أبيت الليلة بمكة فحماوه على سرير متوجها إلى المدينة فلما بلغ التنعيم أشرف على الموت فصفق بيمينه على شماله ثم قال اللهم هذه لك وهذه لرسولك أبايعك على ما أبايعك رسولك فمات حميدا فبلغ خبره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا لو توفى بالمدينة لسكان أتم أجرا كل هجرة في غرض ديني من طلب علم أو حج أو جهاد أو نحو ذلك فهي هجرة فنزلت . قالوا إلى الله عز وجل وإلى رسوله عليه الصلاة والسلام .

(وكان الله غفورا) مبالغا في المغفرة فيغفر له ما فرط منه من الذنوب التي من جملة القعود عن الهجرة إلى وقت الخروج (رحيم) مبالغا في الرحمة فيرحمه بإتمام^(١) ثواب هجرته .

الصلاة في الضرورات

(وإذا ضربتم في الأرض) شروع في بيان كيفية الصلاة عند الضرورات من السفر ولقاء العدو والمرض والمطر وفيه تأكيد لعزيمة المهاجر على المهاجرة وترغيب له فيها لما فيه من تخفيف المؤنة أى إذا سافرتم أى مسافرة كانت

(١) في ط : بإكمال

ولذلك لم يقيد بما قيد به المهاجرة (فليس عليكم جناح) أي لا حرج [ولا] (١) ما ثم
 ﴿ أن تقصروا ﴾ أي في أن تقصروا والقصر خلاف المديقال قصرت الشيء
 أي جعلته قصيرا بحذف بعض أجزائه أو أوصافه فمتعلق القصر حقيقة إنما
 هو ذلك الشيء لا بعضه فإنه متعلق الحذف دون القصر وعلى هذا فقوله تعالى
 ﴿ من الصلوة ﴾ يذبحى أن يكون مفعولا لتقصروا على زيادة من حسبها رآه
 الأخفش وأما على تقدير أن تكون تبعيضية ويكون المفعول محذوفا كما هو
 رأى سيويه أي شيئا من الصلاة فينبغى أن يصار إلى وصف الجزء بصفة
 الكل أو يراد بالقصر معنى الحبس يقال قصرت الشيء إذا حبسته أو يراد
 بالصلوة الجنس ليكون المقصور بعضا منها وهي الرباعيات أي فليس عليكم
 جناح في أن تقصروا بعض الصلاة بتدبيرها وقرىء تقصروا من الإقصار
 وتقصروا من التقصير والكل بمعنى وأدنى مدة السفر الذى يتعلق به القصر عند
 أبي حنيفة مسيرة ثلاثة أيام ولياليها بسير الإبل ومشى الأقدام بالإقتصاد وعند
 الشافعى مسيرة يومين وظاهر الآية الكريمة التخيير وأفضلية الإتمام وبه قال (٢)
 الشافعى وبما روى عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه أتم في السفر وعن عائشة
 رضى الله عنها أنها أتمت تارة وقصرت أخرى وعن عثمان رضى الله عنه أنه
 كان يتم ويقصر وعندنا يجب القصر لا محالة خلا أن بعض مشايخنا سماه عزيمة
 وبعضهم رخصة إسقاط بحيث لا مساغ للإتمام لا رخصة ترفيه إذ لا معنى
 للتخيير بين الأخف والأثقل وهو قول عمر وعلى وابن عباس وابن عمر
 وجابر رضوان الله عليهم وبه قال الحسن وعمر بن عبد العزيز وقتادة وهو
 قول مالك .

وقد روى عن عمر رضى الله عنه صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر على
 لسان نبيكم عليه السلام وعن أنس رضى الله عنه خرجنا مع النبي صلى الله عليه

(١) سقط من ط

(٢) فى ط : تعلق .

وسلم من المدينة إلى مكة فكان يصلي ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة وعن
 عمران بن حصين رضى الله عنه ما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يصلي في السفر
 إلا ركعتين وصلى بمكة ركعتين ثم قال أتموا فإنما قوم سفر وحين سمع ابن مسعود
 أن عثمان رضى الله عنه صلى بمكة أربع ركعات استرجع ثم قال صليت مع
 رسول الله عليه الصلاة والسلام بمكة ركعتين وصليت مع أبي بكر رضى الله عنه
 بمكة ركعتين وصليت مع عمر رضى الله عنه بمكة ركعتين فليت حظى من أربع
 ركعات ركعتان متقبلتان وقد اعتذر عثمان رضى الله عنه عن إتمامه بأنه تأهل
 بمكة وعن الزهري أنه إنما أتم لأنه أزمع الإقامة بمكة وعن عائشة رضى الله عنها
 أول ما فرضت الصلاة فرضت ركعتين ركعتين فأقرت في السفر وزيدت في
 الحضر وفي صحيح البخارى أنها قالت فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين
 في الحضر والسفر وزيد في صلاة الحضر وأما ما روى عنها من الإتمام فقد
 اعتذرت عنه وقالت أنا أم المؤمنين فحيث حللت ففى دارى وإنما ورد ذلك بنى
 الجناح لما أنهم ألفوا الإتمام فكانوا مظنة أن يخطر بياهم أن عليهم نقصانا
 فى القصر فصرح بنى الجناح عنهم لتطيب به نفوسهم ويطمئنوا إليه كما فى قوله
 تعالى (فن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما) مع أن ذلك
 الطواف واجب عندنا ركن عند الشافعى وقوله تعالى :

(إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه
 أى إن خفتم أن يتعرضوا لكم بما تكرهونه من القتال وغيره فليس عليكم
 جناح الخ وهو شرط معتبر فى شرعية ما يذكر بعده من صلاة الخوف المؤداة
 بالجماعة وأما فى حق مطلق القصر فلا اعتبار له اتفاقا لتظاهر السنن على مشروعيته
 حسبما وقفت على تفاصيلها وقد ذكر الطحاوى فى شرح الآثار مسنداً إلى يعلى
 ابن أمية أنه قال قلت لعمر بن الخطاب رضى الله عنه إنما قال الله (فليس عليكم
 جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) وقد أمن الناس

فقال عمر رضى الله عنه عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته وفيه دليل على عدم جواز الإكمال لأن التصديق بما لا يحتمل التملك إسقاط محض لا يحتمل الرد كما حقق في موضعه ولا يتوهم أنه مخالف للكتاب لأن التقييد بالشرط عندنا إنما يدل على ثبوت الحكم عند وجود الشرط وأما عدمه عند عدمه فمسكوت عنه فإن وجد له دليل ثبت عنده أيضا وإلا بقی^(١) على حاله لعدم تحقق دليله لالتحقق دليل عدمه وناهيك بما سمعت من الأدلة الواضحة وأما عند القائلين بالمفهوم فلأنه إنما يدل على نفي الحكم عند عدم الشرط إذ لم يكن له فائدة أخرى وقد خرج الشرط ههنا مخرج الأغلب كما في قوله تعالى (ولا تكرر هو أفتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا) بل نقول إن الآية الكريمة مجملة في حق مقدار القصر وكيفية وفي حق ما يتعلق به من الصلوات وفي مقدار مدة الضرب الذي يبط به القصر فكل ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم من القصر في حال الأمن وتخصيصه بالرباعيات على وجه التنصيف وبالضرب في المدة المعينة بيان لإجمال الكتاب وقد قيل إن قوله تعالى إن خفتن الخ متعلق بما بعده من صلاة الخوف منفصل عما قبله فإنه روى عن أبي أيوب الأنصاري رضى الله عنه أنه قال نزل قوله تعالى (وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة) ثم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد حول فنزل (إن خفتن أن يفتنكم الذين كفروا فليس عليكم جناح) الخ وقد قرئ من الصلاة أن يفتنكم بغير إن خفتن على أنه مفعول له لما دل عليه الكلام كأنه قيل شرع لكم ذلك كراهة أن يفتنكم الخ فإن استمرار الاشتغال بالصلاة مظنة لاقتدارهم على إيقاع الفتنة وقوله تعالى .

(إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا) تعليل لذلك باعتبار تعلقه بما ذكر أو لما يفهم من الكلام من كون فتنتهم متوقعة فإن كمال عداوتهم للؤمنين من

(١) في ط : يبقى .

موجبات التعرض لهم بسوء وقوله تعالى ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ ﴾ بيان لما قبله من النص المجمل الوارد في مشروعية القصر بطريق التفريع وتصوير لسكيفيته عند الضرورة التامة وتخصيص البيان بهذه الصورة مع الاكتفاء فيما عداها بالبيان بطريق السنة لمزيد حاجتها إليه لما فيها من كثرة التغيير عن الهيئة الأصلية ومن هنا ظهر لك أن مورد النص الشريف على المقصورة وحكم ما عداها مستفاد من حكمها والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق التجريد وبظاهره يتعلق من لا يرى صلاة الخوف بعده عليه السلام ولا يخفى أن الأئمة بعده نوابه عليه السلام قوام بما كان يقوم به فيتناولهم حكم الخطاب الوارد له عليه السلام كما في قوله تعالى ﴿ خذ من أموالهم صدقة ﴾ وقد روى أن سعيد بن العاص لما أراد أن يصلى بطبرستان صلاة الخوف قال من شهد منكم صلاة الخوف منع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام حذيفة بن اليمان رضى الله عنه فوصف له ذلك فصلى بهم كما وصف وكان ذلك بحضور الصحابة رضى الله عنهم فلم ينكره أحد فحل محل الإجماع وروى في السنن أنهم غزوا مع عبد الرحمن بن سمرة بابل فصلى بهم صلاة الخوف ﴿ فأقمت لهم الصلوة ﴾ أى أردت أن تقيم بهم الصلاة .

﴿ فلتقم طائفة منهم معك ﴾ بعد أن جعلتهم طائفتين ولتقف الطائفة الأخرى بإزاء العدو ليحرسوكم منهم وإنما لم يصرح به لظهوره ﴿ وليأخذوا ﴾ أى الطائفة القائمة معك ﴿ أسلحتهم ﴾ أى لا يضعوها ولا يلقوها إنما عبر عن ذلك بالأخذ للإيدان بالاعتناء باستصحابها كأنهم يأخذونها ابتداء ﴿ فإذا سجدوا ﴾ أى القائمون معك وأنموا الركعة ﴿ فليكونوا من ورائكم ﴾ أى فليصرفوا إلى مقابلة العدو للحراسة ﴿ ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا ﴾ بعد وهى الطائفة الواقفة تجاه العدو للحراسة وإنما لم تعرف لما أنها لم تذكر فيما قبل ﴿ فليصلوا معك ﴾ الركعة الباقية ولم يبين فى الآية الكريمة حال الركعة الباقية لسلك من الطائفتين وقد بين ذلك بالسنة حيث روى عن ابن عمرو وابن مسعود رضى الله عنهم أن النبي صلى الله عليه وسلم حين صلى صلاة الخوف

صلى بالطائفة الأولى ركعة وبالطائفة الأخرى ركعة كما في الآية الكريمة
ثم جاءت الطائفة الأولى وذهبت هذه إلى مقابلة العدو حتى قضت الأولى الركعة
الأخيرة بلا قراءة وسلموا ثم جاءت الطائفة الأخرى وقضوا الركعة
الأولى بقراءة حتى صار لكل طائفة ركعتان ﴿ وليأخذوا ﴾ أي
هذه الطائفة .

﴿ حذرهم وأسلحتهم ﴾ لعل زيادة الأمر بالحذر في هذه المرة لكونها
مظنة لوقوف الكفرة على كون الطائفة القائمة مع النبي صلى الله عليه وسلم
في شغل شاغل وأما قبلها فربما يظنونهم قائمين للحرب وتكليف كل من
الطائفتين بما ذكر لما أن الاشتغال بالصلاة مظنة لإلقاء السلاح والإعراض
عن غيرها ومظنة^(١) لهجوم العدو كما ينطق به قوله تعالى : ﴿ ود الذين كفروا
لو تغفلون عن أسلحتكم وأمعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ﴾ فإنه
استئناف مسوق لتعليل الأمر المذكور والخطاب للفريقين بطريق الالتفات
أي تمنوا أن ينالوا منكم غرة ويتهنوا فرصة فيشدوا عليكم شدة واحدة
والمراد بالأمعة ما يتمتع به في الحرب لا مطلقا وهذا الأمر للوجوب لقوله
تعالى . ﴿ ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن
تضعوا أسلحتكم ﴾ حيث رخص لهم في وضعها إذا ثقل عليهم استصحابها
بسبب مطر أو مرض وأمروا مع ذلك بالتيقظ والاحتياط فليل .

﴿ وخذوا حذركم ﴾ لئلا يهجم العدو عليكم غيلة روى الكلبي عن
أبي صالح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا محاربا وبنى أنمار فنزلوا ولا يرون
من العدو أحدا فوضع الناس أسلحتهم وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم
لحاجة له وقد وضع سلاحه حتى قطع الوادي والسماء ترش فحال الوادي بينه
عليه السلام وبين أصحابه فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فبصر به
غوث ابن الحرث المحاربي فقال قتلتني الله أن لم أقتلك ثم انحدر من الجبل

(١) في ط : ومشة .

ومعه السيف فلم يشعر به رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا هو قائم على رأسه وقد سل سيفه من غمده فقال يا محمد من يعصمك مني الآن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الله عز وجل ثم قال اللهم اكفني غورث بن الحرث بما شئت ثم أهوى بالسيف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضربه فأكب لوجهه من زلخة زلخها بين كتفيه فبدر سيفه فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذه ثم قال يا غورث من يمنعك مني الآن قال لا أحد قال عليه الصلاة والسلام تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وأعطيك سيفك قال لا ولكن أشهد أن لا أقاتلك أبدا ولا أعين عليك عدوا فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه فقال غورث والله لأنت خير مني فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أحق بذلك منك فرجع غورث إلى أصحابه فقص عليهم قصته فآمن بعضهم قال وسكن الوادي فقطع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وأخبرهم بالخبر وقوله تعالى :

﴿ إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا ﴾ تعليل للأمر بأخذ الخذر أي أعد لهم عذابا مهينا بأن يخذلهم وينصرهم عليهم فاهتموا بأموركم ولا تهملوا في مباشرة الأسباب ليحل^(١) بهم عذابه بأيديكم وقيل لما كان الأمر بالخذر من العدو موها لتوقع غلبته واعتزازه في ذلك الإيهام بأن الله تعالى ينصرهم ويهين عدوهم لتقوى قلوبهم ﴿ فإذا قضيتم الصلوة ﴾ أي صلاة الخوف أي أدبتموها على الوجه المبين وفرغتم منها ﴿ فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم ﴾ أي فداوموا على ذكر الله تعالى وحافظوا على مراقبته ومناجاته ودعائه في جميع الأحوال حتى في حال المسابقة والقتال كما في قوله تعالى : ﴿ إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴾ ﴿ فإذا اطمانتم ﴾ سكنت قلوبكم من الخوف وأمنتهم بعد ما وضعت الحرب أوزارها ﴿ فأقيموا الصلوة ﴾ أي الصلاة التي دخل وقتها حينئذ أي أدوها بتعديل أركانها ومراعاة

(١) في ط : كي يحل .

شرائطها وقيل المراد بالذكر في الأحوال الثلاثة الصلاة فيها أى فإذا أردتم أداء الصلاة فصلوا قياما عند المسابقة وعودا جائين على الركب عند المراماة وعلى جنوبكم مشخنين بالجراح فإذا اطمأنتم في الجملة فاقضوا ما صليتم في تلك الأحوال التى هى [من] (١) أحوال القلق والانزعاج وهو رأى الشافعى رحمه الله وفيه من البعد ما لا يخفى .

﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا ﴾ أى فرضا موقتا قال مجاهد وقته الله عليهم فلا بد من إقامتها في حالة الخوف أيضا على الوجه المشروح وقيل مفروضا مقدرا في الحضر أربع ركعات وفي السفر ركعتين فلا بد أن تؤدى في كل وقت حسبما قدر فيه .

﴿ ولا تهنوا في ابتغاء القوم ﴾ أى لا تضعفوا ولا تتوانوا في طلب الكفارة بالقتال والتعرض لهم بالحرب وقوله تعالى : ﴿ إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون ﴾ تعليل للنهى وتشجيع لهم أى ليس ما تقاسونه من الآلام مختصا بكم بل هو مشترك بينكم وبينهم ثم إنهم يصبرون على ذلك فالكم لا تصبرون مع أنكم أولى به منهم حيث ترجون من الله من إظهار دينكم على سائر الأديان ومن الثواب في الآخرة ما لا يخاطر ببالهم وقرىء إن تكونوا بفتح الهمزة أى تهنوا لأن تكونوا تألمون وقوله تعالى فإنهم تعليل للنهى عن الوهن لأجله والآية نزلت في بدر الصغرى ﴿ وكان الله عليما ﴾ مبالغا في العلم فيعلم أعمالكم وضمائمكم ﴿ حكيم ﴾ فيما يأمر وينهى فجدوا في الامتثال بذلك فإن فيه عواقب حميدة .

وجوب الحكم بما أنزل الله

﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ﴾ روى أن رجلا من الأنصار يقال له طعمة بن أبيرق من بنى ظفر سرق درعا من جاره قتادة ابن النعمان في جراب دقيق

(١) سقطت من ط .

فجعل الدقيق يتثر من خرق فيه نخبأها عند زيد بن السميين اليهودى فالتست الدرع عند طعمة فلم توجد وحلف ما أخذها وماله بها علم فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودى فأخذوها فقال دفعها إلى طعمة وشهد له ناس من اليهود فقالت بنو ظفر انطلقوا بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وشهدوا ببراءته وسرقة اليهودى فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل فنزات وروى أن طعمة هرب إلى مكة وارتد ونقب حائطاً بمكة ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فقتله وقيل نزل على رجل من بنى سليم من أهل مكة يقال له الحجاج بن علاط فنقب بيته فسقط عليه حجر فلم يستطع الدخول ولا الخروج فأخذ ليقتل فقبل دعه فإنه قد لجأ إليك فتركة وأخرجوه من مكة فالتحق بتجار من قضاة نحو الشام فنزلوا منزلاً فسرق بعض متاعهم وهرب فأخذوه ورجموا بالحجارة حتى قتلوه وقيل إنه ركب سفينة إلى جدة فسرق فيها كيساً فيه دنانير فأخذ وألقى في البحر .

﴿ لتحكم بين الناس بما أراك الله ﴾ أى بما عرفك وأوحى به إليك ﴿ ولا تكن للخائنين ﴾ أى لأجلهم والذب عنهم وهم طعمة ومن يعينه من قومه أو هو ومن يسير بسيرته ﴿ خصيماً ﴾ مخاصماً للبراة أى لا تخاصم اليهود لأجلهم والنهى معطوف على أمر ينسحب عليه النظم الكريم كأنه قيل فأحكم به ولا تكن الخ ﴿ واستغفر الله ﴾ بما هممت به تعويلاً على شهادتهم : ﴿ إن الله كان عفواً رحيماً ﴾ . وبالغا في المغفرة والرحمة لمن يستغفره ، ﴿ ولا تجادل عن الذين يخفون أنفسهم ﴾ أى يخونونها بالمعصية كقوله تعالى ﴿ علم الله أنكم كنتم تخفون أنفسكم ﴾ جعلت معصية العصاة خيانة منهم لأنفسهم كما جعلت ظلماً لها لرجوع ضررها إليهم والمراد بالوصول إما طعمة وأمثاله وأما هو ومن عاونته وشهد ببراءته من قومه فإنهم شركاء في الإثم والخيانة ﴿ إن الله لا يحب من كان خواناً ﴾ مفرطاً في الخيانة مصراً عليها ﴿ أيماً ﴾ منهم كما فيه وتعليق عدم المحبة الذى هو كناية عن البغض والسخط بالمبالغ في الخيانة والإثم ليس لتخصيصه به بل لبيان إفراط طعمة وقومه فيهما ﴿ يستخفون ﴾

من الناس ﴿ يستترون منهم حياءً وخوفاً من ضررهم ﴾ ولا يستخفون من الله ﴿ أى لا يستحيون منه سبحانه وتعالى وهو أحق بأن يستحيا منه ويخاف من عقابه ﴾ (وهو معهم) عالم بهم وبأحوالهم فلا طريق إلى الاستخفاء منه سوى ترك ما يستقبجه ويؤاخذ به ﴿ إذ يبيتون ﴾ يدبرون ويزورون ﴿ ما لا يرضى من القول ﴾ من رمى البريء والحلف الكاذب وشهادة الزور ﴿ وكان الله بما يعملون ﴾ من الأعمال الظاهرة والخافية ﴿ محيظاً ﴾ لا يعزب عنه شيء منها ولا يفوت .

﴿ ها أتم هؤلاء ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له لإيهام بطريق الالتفات إني أنا بأن تعديد جنائياتهم يوجب مشافهتهم بالتوبيخ والتقريع والجملة مبتدأ وخبر وقوله تعالى ﴿ جادلتم عنهم في الحياة الدنيا ﴾ جملة مبينة لوقوع أولاء خبراً ويجوز أن يكون أولاء اسماً موصولاً بمعنى الذين وجادلتم الخ صلة له والمجادلة أشد المخاصمة والمعنى هبوا أنكم خاصمتهم عن طعمة وأمثاله في الدنيا ﴿ فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة ﴾ فمن يخاصم عنهم يومئذ عند تعذيبهم وعقابهم ﴿ أم من يكون عليهم وكيلاً ﴾ حافظاً ومحامياً من بأس الله تعالى وانتقامه .

﴿ ومن يعمل سوءاً ﴾ قبيحاً ليسوء^(١) به غيره كإفعل طعمة بقتادة واليهودى ﴿ أو يظلم نفسه ﴾ بما يختص به كالحلف الكاذب وقيل السوء ما دون الشرك وقيل هما الصغيرة والكبيرة ﴿ ثم يستغفر الله ﴾ بالتوبة الصادقة ﴿ يجد الله غفوراً ﴾ لذنوبه كائنة ما كانت ﴿ رحيماً ﴾ متفضلاً عليه وفيه مزيد ترغيب لطعمة وقومه في التوبة والاستغفار لما أن مشاهدة التائب لآثار المغفرة والرحمة نعمة زائدة كإمر ﴿ ومن يكسب إثماً ﴾ من الآثام ﴿ فإنما يكسبه على نفسه ﴾ حيث لا يتعدى ضرره ووباله إلى غيره فليختر عن تعريضها للعقاب والعذاب عاجلاً وآجلاً ﴿ وكان الله عليماً ﴾ مباليغاً في العلم ﴿ حكيماً ﴾ مراعيماً للحكمة في

(١) في طام يسوءان

كل ما قدر وقضى ولذلك لا تحمل وازرة وذر أخرى ﴿ ومن يكسب خطيئة ﴾ صغيرة أو ما لا عمد فيه من الذنوب وقرىء ومن يكسب بكسر الكاف وتشديد السين وأصله يكتسب ﴿ أو إثمًا ﴾ كبيرة أو ما كان عن عمد ﴿ ثم يرم به ﴾ أى يقذف به ويسنده [إليه] ^(١) وتوحيد الضمير مع تعدد المرجع لمكان أو وتذكيره لتغليب الإثم على الخطيئة كأنه قيل ثم يرم بأحدهما وقرىء يرم بهما وقيل الضمير للكسب المدلول عليه بقوله تعالى يكسب وثم للتراخي في الرتبة ﴿ بريثًا ﴾ أى بما رماه به ليحمله عقوبته العاجلة كما فعله طعمة يزيد .

﴿ فقد احتمل أى بما فعل من تحميل جريرته على البرىء ﴾ بهتانًا وهو الكذب على الغير بما يبهت منه ويتحير عند سماعه لفظاعته وهوله وقيل هو الكذب الذى يتحير فى عظمه ﴿ وإثمًا مبینًا ﴾ أى بينا فاحشا وهو صفة لإثمًا وقد اكتفى فى بيان عظم البهتان بالتنكير التفضيلى كأنه قيل بهتانًا لا يقادر قدره وإثمًا مبینًا على أن وصف الإثم بما ذكر بمنزلة وصف البهتان به لأنهما عبارة عن أمر واحد هو رى البرىء بجناية نفسه قد عبر عنه بهما تهويلًا لأمره وتفظيما لحاله فمدار العظم والفخامة كون المرمى به للراى فإن رى البرىء بجناية ما خطيئة كانت أو إثمًا بهتان وإثم فى نفسه أما كونه بهتانًا فظاهر وأما كونه إثمًا فلأن كون الذنب بالنسبة إلى من فعله خطيئة لا يلزم منه كونه بالنسبة إلى من نسبه إلى البرىء منه أيضا كذلك بل لا يجوز ذلك قطعًا كيف لا وهو كذب محرم فى جميع الأديان ^(٢) فهو فى نفسه بهتان وإثم لا محالة ويكون تلك الجناية للراى يتضاعف ذلك شدة ويزداد قبحا لكن لا لانضمام جنايته .

(١) سقط من ط .

(٢) لا دين إلا الإسلام على الحقيقة وهو ما آمن به نوح فمن بعده صراحة وقد أكد المؤلف ذلك فيما سبق ولعل مراده هنا الشرائع الممهدة للشريعة لمحمد صلى الله عليه وسلم .

المكسوبة إلى رمى البريء وإلا لكان الرمي بغير جنائية مثله في العظم ولا لمجرد اشتماله على تبرئة نفسه الخاطئة وإلا لكان الرمي بغير جنائية مع تبرئة نفسه كذلك في العظم بل لاشتماله على قصد تحميل جنائته على البريء وإجراء عقوبتها عليه كما ينبغي عنه إثبات الاحتمال على الاكتساب ونحوه لما فيه من الإيدان بانعكاس تقديره مع ما فيه من الإشعار بثقل الوزر وصعوبة الأمر نعم بما ذكر من انضمام كسبه وتبرئة نفسه إلى رمى البريء تزداد الجنائية قبحا لكن تلك الزيادة وصف للجموع لا للإثم .

﴿ ولولا فضل الله عليك ورحمته ﴾ بإعلامك ما هم عليه بالوحي وتنبهك على الحق وقيل بالنبوة والعصمة ﴿ طمعت طائفة منهم ﴾ أي من بني ظفر وهم الذابون عن طعمة وقد جوز أن يكون المراد بالطائفة كلهم ويكون الضمير راجعا إلى الناس وقيل هم وفد بني ثقيف قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا جئناك لنبايعك على أن لا تكسر أصنامنا ولا تعشرنا فردهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ أن يضلوك ﴾ أي بأن يضلوك عن القضاء بالحق مع علمهم بكنهه الأمر والجملة جواب لولا وإنما نفى همهم مع أن المنفى إنما هو تأثيره فقط إيدانا بانتفاء تأثيره بالكلية وقيل المراد هو الهم المؤثر ولا ريب في انتفائه حقيقة وقيل الجواب محذوف أي لأضلوك وقوله تعالى طمعت جملة مستأنفة أي لقد همت طائفة الخ ﴿ وما يضلون إلا أنفسهم ﴾ لاقتصار وبال مكرهم عليهم من غير أن يصيبك منه شيء والجملة اعتراض وقوله تعالى ﴿ وما يضرونك من شيء ﴾ عطف عليه ومحل الجار والمجرور التصب على المصدرية أي وما يضرونك شيئا من الضرر لما أنه تعالى عاصمك وأما ما خطر ببالك فكان عملا منك بظاهر الحال ثقة بأقوال القائلين من غير أن يخطر ببالك أن الحقيقة على خلاف ذلك ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ﴾ أي القرآن الجامع بين العنوانين وقيل المراد بالحكمة السنة ﴿ وعلمك ﴾ بالوحي من خفيات الأمور التي من جملتها وجوه لإبطال كيد المنافقين أو من أمور الدين وأحكام الشرع ﴿ ما لم تكن تعلم ﴾ ذلك إلى وقت التعليم .

﴿ وكان فضل الله عليك عظيما ﴾ إذ لا فضل أعظم من النبوة العامة والرياسة التامة ﴿ لاخير في كثير من نجواهم ﴾ أى فى كثير من تناجى الناس ﴿ إلا من أمر ﴾ أى إلا فى نجوى من أمر ﴿ بصدقة أو معروف ﴾ وقيل المراد بالنجوى المتناجون بطريق المجاز وقيل النجوى جمع نجى نقله الكرماني وأيا ما كان فالاستثناء متصل ويجوز الانقطاع أيضا على معنى لسن من أمر بصدقة الخ فى نجواه الخير . والمعروف كل ما يستحسنه الشرع ولا ينكره العقل فينتظم أصناف الجميل وفنون أعمال البر وقد فسر ههنا بالقرض وإغاثة الملهوف وصدقة التطوع على أن المراد بالصدقة الصدقة الواجبة ﴿ أو إصلاح بين الناس ﴾ عند وقوع المشاقة والعداء^(١) بينهم من غير أن يجاوز فى ذلك حدود الشرع الشريف وبين إما متعلق بنفس إصلاح يقال أصلحت بين القوم أو بمحذوف هو صفة له أى كائن بين الناس عن أبى أيوب الأنصاري رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له ألا أدلك على صدقة خير لك من حمر النعم فقال بلى يا رسول الله قال تصلح بين الناس إذا تفسدوا وتقرب بينهم إذا تباعدوا قالوا ولعل السر فى أفراد هذه الأقسام الثلاثة بالذكر أن عمل الخير المتعدى إلى الناس إما لإيصال المنفعة أو لدفع المضرة والمنفعة إما جسمانية كإعطاء المال وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ إلا من أمر بصدقة ﴾ وإما روحانية وإليه الإشارة بالأمر بالمعروف وأما دفع الضرر فقد أشير إليه بقوله تعالى ﴿ أو إصلاح بين الناس ﴾ .

﴿ ومن يفعل ذلك ﴾ إشارة إلى الأمور المذكورة أعنى الصدقة والمعروف والإصلاح فإنه يشار به إلى متعدد وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بها للإيدان ببعد منزلتها ورفع شأنها وترتيب الوعد على فعلها إثر بيان خيرية الأمر بها لما أن المقصود الأصلي هو الترغيب فى الفعل وبيان خيرية الأمر به للدلالة

(١) فى ط : والمعادة .

على خيريته بالطريق الأولى لما أن مدار حسن الأمر وقبحه حسن المأمور به وقبحه فحيث ثبت خيرية الأمر بالأمور المذكورة نفيرية فعلها أثبت وفيه تحريض للامر بها على فعلها أو إشارة إلى الأمر بها كأنه قيل ومن يأمر بها والكلام في ترتيب الوعد على فعلها كالذي مر في الخيرية فإن استتباع الأمر بها للأجر العظيم إنما هو لسكونه ذريعة [وسبباً] (١) إلى فعلها فاستتباعه له أولى وأحق ﴿ ابتغاء مرضاة الله ﴾ علة للفعل والتقيد به لأن الأعمال بالنيات وأن من فعل خيراً لغير ذلك لم يستحق به غير الحرمان ﴿ فسوف نؤتيه ﴾ بنون العظمة على الالتفات وقرىء بالياء ﴿ أجراً عظيماً ﴾ يقصر عنه الوصف ﴿ ومن يشاقق الرسول ﴾ التعرض لعنوان الرسالة لإظهار كمال شناعة ما اجترأوا عليه من المشاققة والمخالفة وتعليل الحكم الآتي بذلك ﴿ من بعد ما تبين له الهدى ﴾ ظهر له الحق بالوقوف على المعجزات الدالة على ثبوته ﴿ ويتبع غير سبيل المؤمنين ﴾ أي غير ما هم مستمررون عليه من عقد وعمل وهو الدين القيم .

﴿ قوله ما تولى ﴾ أي نجعله واليا لما تولى من الضلال ونخذه بأن نخلى بينه وبين ما اختاره ﴿ ونصلبه جهنم ﴾ أي ندخله إياها وقرىء بفتح النون من صلاة ﴿ وساءت مصيراً ﴾ أي جهنم وفيها دلالة على حجية الإجماع وحرمة مخالفته ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ قد مر تفسيره فيما سبق وهو تكرير للتأكيد والتشديد أو لقصة طعمة وقد مر موته كافراً . وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن شيخاً من العرب جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إني شيخ منهمك في الذنوب إلا أني لم أشرك بالله شيئاً منذ عرفته وآمنت به ولم أتخذ من دونه ولياً ولم أواقع المعاصي جراءة على الله تعالى وما توهمت طرفه عين أني أعجز الله هرباً وإني لنادم تائب مستغفر فما ترى حالي عند الله تعالى فنزلت ﴿ ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً

(١) سقطت من ط .

بعيداً ﴿ عن الحق فإن الشرك أعظم أنواع الضلالة وأبعدها عن الصواب والاستقامة كما أنه افتراء وإثم عظيم ولذلك جعل الجزاء في هذه الشرطية فقد ضل الخ وفيما سبق فقد افترى إثمًا عظيمًا حسبما يقتضيه سباق النظم الكريم وسيأقاه .

﴿ إن يدعون من دونه ﴾ أى ما يعبدون من دونه عز وجل ﴿ إلا إناثا ﴾ يعنى اللات والعزى ومناة ونحوها . عن الحسن أنه لم يكن من أحياء العرب حتى إلا كان لهم صنم يعبدونه يسمونه أنثى بنى فلان قيل لأنهم كانوا يقولون فى أصنامهم هن بنات الله وقيل لأنهم كانوا يلبسونها أنواع الحلى ويزينونها على هيات النسوان وقيل المراد الملائكة لقولهم الملائكة بنات الله وقيل تسميتها إناثا لتأنيث أسمائها أو لأنها فى الأصل جماد والجادات تؤنث من حيث أنها ضاهت الإناث لانفعالها وإيرادها بهذا الاسم للتشبيه على فرط حماقة عبدتها وتناهى جهلمهم والإناث جمع أنثى كرباب وربى وقرىء على التوحيد وأتانا أيضا على أنه جمع أنيث كقلب وقلب أو جمع إناث كثمار وثمر وقرىء وئنا وائنا بالتخفيف والتثميل جمع وثن كقولك أسد وأسد وأسد على الأصل وقلب الواو ألفا نحو أجوه فى جوه ﴿ وإن يدعون ﴾ وما يعبدون بعبادتها ﴿ إلا شيطانا مريدا ﴾ إذ هو الذى أمرهم بعبادتها وأغرام عليها فكانت طاعتهم له عبادة والمريد والمراد هو الذى لا يتعلق^(١) بخير وأصل التركيب للملاسة ومنه صرح مرد وشجرة مرداء للتى تناثر ورقها .

﴿ لعنه الله ﴾ صفة ثانية لشيطانا ﴿ وقال لآتخذن من عبادك نصيبا مفروضا ﴾ عطف على الجملة المتقدمة أى شيطانا مريدا جامعا بين لعنة الله وهذا القول الشنيع الصادر عنه عند اللعن ولقد برهن على أن عبادة الأصنام غاية الضلال بطريق التعليل بأن ما يعبدونها يفعل ولا يفعل فعلا إختياريا

(١) فى ط : يتعلق .

وذلك ينافى الألوهية غاية المنافاة ثم استدل عليه بأن ذلك عبادة للشيطان وهو أفظع الضلال من وجوه ثلاثة الأول منهمك في الغى لا يكاد يعلق بشيء من الخير والهدى فتسكون طاعة ضلالا بعيداً عن الحق والثاني أنه ملعون لضلاله فلا تستتبع مطاوعته سوى اللعن والضلال والثالث أنه في غاية السعى في إهلاكهم وإضلالهم فوالاة من هذا شأنه غاية الضلال فضلا عن عبادته والمفروض المقطوع أى نصيباً قدر لى وفرض من قولهم فرض له في العطاء ﴿ولأضلنهم ولأمنينهم﴾ الأمانى الباطلة كطول الحياة وألا بعث ولا عقاب ونحو ذلك ﴿ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعام﴾ أى فليقطعنها بموجب أمرى ويشقنها من غير تعلم في ذلك ولا تأخير وذلك ما كانت العرب تفعله بالبحائر والسوانب ﴿ولأمرنهم فليغيرن﴾ ممثلين به ﴿خلق الله﴾ عن نهجه صورة أو صفة وينتظم فيه ما قيل من فقه عين الحامى وخصاء العبيد والوشم والوشر ونحو ذلك وعموم اللفظ يمنع الخصاء مطلقا لكن الفقهاء رخصوا في البهائم لمكان الحاجة وهذه الجملة المحكية عن اللعين مما نطق به لسانه مقالا أو حالا وما فيها من اللامات كلها للقسم والمأمور به فى الموضوعين محذوف ثقة بدلالة النظم عليه ﴿ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله﴾ يبايثار ما يدعو إليه على ما أمر الله تعالى به وبجاوزته عن طاعة الله تعالى إلى طاعته ﴿فقد خسر خسرانا مبينا﴾ لأنه ضيع رأس ماله بالسكينة واستبدل بمكانه من الجنة مكانه من النار ﴿يعدم﴾ أى ما لا يكاد ينجزه ﴿ويمنيهم﴾ أى الأمانى الفارغة أو يفعل لهم الوعد والتمنية على طريقة فلان يعطى ويمتنع والضميران لمن والجمع باعتبار معناها كما أن الأفراد فى يتخذ وخسر باعتبار لفظها .

﴿وما يعدم الشيطان إلا غرورا﴾ وهو إظهار النفع فيما فيه الضرر وهذا الوعد إما بالقاء الخواطر الفاسدة أو بالسنة أوليائه وغرورا إما مفعول ثان للوعد أو مفعول لأجله أو نعت لمصدر محذوف أى وعدا ذا غرور أو مصدر على غير لفظ المصدر لأن يعدم فى قوة يغرهم بوعدو والجملة اعتراض وعدم التعرض للتمنية لأنها باب من الوعد ﴿أولئك﴾ إشارة إلى أولياء

الشیطان وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد منزلتهم في الخسران وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿ ماواهم ﴾ مبتدأ ثان وقوله تعالى ﴿ جهنم ﴾ خبر للثاني والجملة من الثاني [وخبره] ^(١) خبر للأول ﴿ ولا يجدون عنها محيصا ﴾ أى معدلا ومهربا من حاص الحمار إذا عدل وقيل خلص ونجا وقيل الحيص هو الروغان بنفور عنها متعلق بمحذوف وقع حالا من محيصا أى كائنا عنها ولا مساغ لتعلقه بمحيصا أما إذا كان اسم مكان فظاهر وأما إذا كان مصدرا فلأنه لا يعمل فيما قبله .

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ سندخلهم جنتنا تجري من تحتها الأنهار خالدین فيها أبدا ﴾ قرن وعيد الكفرة بوعد المؤمنين زيادة لمسرة هؤلاء ومساءة أولئك ﴿ وعد الله حقا ﴾ أى وعده وعدا وحق ذلك حقا فالأول مؤكد لنفسه لأن مضمون الجملة الاسمية وعد والثاني مؤكد لغيره ويجوز أن ينتصب الموصول بمضمر يفسره ما بعده وينتصب وعد الله بقوله تعالى سندخلهم لأنه في معنى نعدهم إدخال جنتنا الخ وحقا على أنه حال من المصدر ﴿ ومن أصدق من الله قبلا ﴾ جملة مؤكدة بليغة والمقصود من الآية معارضة مواعيد الشيطان الكاذبة لقرنائه بوعد الله الصادق لأوليائه والمبالغة في تأكيده ترغيبا للعباد في تحصيله والقبيل مصدر كالقول والقال وقال ابن السكيت القبيل والقال اسمان لا مصدران ونصبه على التمييز وقرىء بإشمام الصاد وكذا كل صاد ساكنة بعدها دال .

الأعمال والثواب

﴿ ليس بأمانیکم ولا أمانی أهل الكتاب ﴾ أى ليس ما وعد الله تعالى من الثواب يحصل بأمانیکم أيها المسلمون ولا بأمانی أهل الكتاب وإنما يحصل .

(١) سقطت من ط .

بالإيمان والعمل الصالح ولعل نظم أمانى أهل الكتاب في سلك أمانى المسلمين مع ظهور حالها للإيدان بعدم إجداء أمانى المسلمين أصلاً كما في قوله تعالى (ولا الذين يموتون وهم كفار) كما سلف وعن الحسن ليس الإيمان بالتقى ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل إن قوما ألهتهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا نحسن الظن بالله وكذبوا لو أحسنوا الظن به لأحسنوا العمل وقيل إن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا فقال أهل الكتاب نبينا قبل نبيكم وكتابتنا قبل كتابكم فتمحن أولى بالله تعالى منكم فقال المسلمون نحن أولى منكم نبينا نحاتم النبيين وكتابتنا يقضى على الكتب المتقدمة فنزلت وقيل الخطاب للمشركين ويؤيده تقدم ذكرهم أى ليس الأمر بأمانى المشركين وهو قولهم لا الجنة ولا نار وقولهم إن كان الأمر كما يزعم هؤلاء لنكونن خيراً منهم وأحسن حالاً وقولهم لا وتين مالا وولداً ولا أمانى أهل الكتاب وهو قولهم (لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى) وقولهم (لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة) ثم قرر ذلك بقوله تعالى .

﴿ من يعمل سوءاً يجز به ﴾ عاجلاً أو آجلاً لما روى أنه لما نزلت قال أبو بكر رضى الله تعالى عنه فن ينجو مع هذا يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما تحزن أو تمرض أو يصيبك البلاء قال بلى يا رسول الله قال هو ذلك ﴿ ولا يجد له من دون الله ﴾ أى مجاوزاً لموالاته الله ونصرته ﴿ وإيا ﴾ يواليه ﴿ ولا نصيراً ﴾ ينصره في دفع العذاب فيه .

﴿ ومن يعمل من الصالحات ﴾ أى بعضها أو شيئاً منها فإن كل أحد لا يتمكن من كلها وليس مكلفاً بها ﴿ من ذكر أو أنثى ﴾ في موضع الحال من المستكن في يعمل ومن للبيان أو من الصالحات فمن للابتداء أى كائنه من ذكر الخ ﴿ وهو مؤمن ﴾ حال شرط اقتران العمل بها في استدعاء الثواب المذكور تنبيهاً على أنه لا اعتداد به دونه ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى من بعنوان اتصافه بالإيمان والعمل الصالح والجمع باعتبار معناها كما أن الإفراد فيما سبق باعتبار لفظها وما فيه

من معنى البعد لما مر غير مرة من الإشعار بعلو رتبة المشار إليه وبعد منزلته في الشرف ﴿ يدخلون الجنة ﴾ وقرىء يدخلون مبنيًا للفعول من الإدخال ﴿ ولا يظلمون نقيراً ﴾ أى لا ينقصون شيئاً حقيراً من ثواب أعمالهم فإن النقيير علم في القلة والحقارة وإذا لم ينقص ثواب المطيع فلأن لا يزداد عقاب العاصي أولى وأحرى كيف لا والمجازى [هـ] (١) أرجم الراحمين وهو السر في الاقتصار على ذكره عقيب الثواب ﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله ﴾ أى أخلص نفسه له تعالى لا يعرف له ربا سواه وقيل بذل وجهه له في السجود وقيل أخلص عمله له عز وجل وقيل فوض أمره إليه تعالى وهذا إنكار واستبعاد لأن يكون أحد أحسن ديناً ممن فعل ذلك أو مساوياً له وإن لم يكن سيك التركيب متمرصاً لإنكار المساواة ونفيها يرشدك إليه العرف المطرد والاستعمال الفاشى فإنه إذا قيل من أكرم من فلان أو لا أفضل من فلان فالمراد به حتماً أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل وعليه مساق قوله تعالى (ومن أظلم ممن افترى) ونظائره وديننا نصب على التمييز من أحسن منقول من المبتدأ والتقدير ومن دينه أحسن من دين من أسلم الخ فالتفضيل في الحقيقة جار بين الدينين لا بين صاحبهما ففيه تنبيه على أن ذلك أقصى ما تنتهى إليه القوة البشرية ﴿ وهو محسن ﴾ أى أت بالحسنات تارك للسيئات أو أت بالأعمال الصالحة على الوجه اللائق الذى هو حسنها الوصفى المستلزم لحسنها الذاتى وقد فسره عليه الصلاة والسلام بقوله أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك والجملة حال من فاعل أسلم ﴿ واتبع ملة إبراهيم ﴾ الموافقة لدين الإسلام المتفق على صحتها وقبولها ﴿ حنيفاً ﴾ مائلاً عن الأديان الزائفة وهو حال من فاعل اتبع أو [حال (٢)] من إبراهيم .

﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ اصطفاه وخصه بكرامات تشبه كرامات

(١) سقطت من ط .

(٢) سقطت من ط .

الخليل عند خليله وإظهاره عليه الصلاة والسلام في موقع الإضمار لتفخيم شأنه والتنصيص على أنه الممدوح وتأكيد استقلال الجملة الاعتراضية والخلة من الخلال فإنه ود تخلل النفس وخالطها وقيل من الخلل فإن كل واحد من الخليلين يسد خلل الآخر أو من الخل وهو الطريق في الرمل فإنهما يتوافقان في الطريقة أو من الخلة بمعنى الخصلة فإنهما يتوافقان في الخصال وفائدة الاعتراض جمعة من جعلتها الترغيب في اتباع ملته عليه السلام فإن من بلغ من الزلني عند الله تعالى مبلغا مصححا لتسميته خليليا حقيق بأن يكون اتباع طريقته أهم ما يمتد إليه أعناق الهمم وأشرف ما يرمى نحوه أحداق الأمم قيل إنه عليه الصلاة والسلام بعث إلى خليل له بمصر في أزمة أصابت الناس يمتار منه فقال خليله لو كان إبراهيم يطلب الميرة لنفسه لفعلت ولكنني يريدنا للأضياف وقد أصابنا ما أصاب الناس من الشدة فرجع غلبانه عليه الصلاة والسلام فاجتازوا ببطحاء لينة فملأوا منها الغرائر حياء من الناس وجاموا بها إلى منزل إبراهيم عليه الصلاة والسلام وألقوها فيه وتفرقوا وجاء أحدهم فأخبر إبراهيم بالقصة فاغتم لذلك غما شديدا لا سيما لاجتماع الناس ببابه رجاء الطعام فغلبته عيناه وعمدت سارة إلى الغرائر فإذا فيها أجود ما يكون من الخوارى فاخترت وفي رواية فأطعمت الناس وانتبه لإبراهيم عليه الصلاة والسلام فاشتم رائحة الخبز فقال من أين لكم قالت سارة من خليلك المصري فقال بل من عند خليلي الله عز وجل فسماه الله تعالى خليليا.

طاعة الله على أهل السماء والأرض

﴿ والله ما في السموات والأرض ﴾ جملة مبتدأة سبقت لتقرير وجوب طاعة الله تعالى على أهل السموات والأرض ببيان أن جميع ما فيهما من الموجودات له تعالى خلقا وملكا لا يخرج عن ملكوته شيء منها فيجازى كلا بموجب أعماله خيرا أو شرا وقيل لبيان أن اتخاذه عز وجل لإبراهيم عليه السلام خليليا ليس لاحتياجه سبحانه إلى ذلك في شأن من شأنه كما هو دأب الآدميين.

فإن مدار خلتهم افتقار بعضهم إلى بعض في مصالحهم بل لمجرد تسكرته وتشريفه عليه السلام وقيل لبيان أن الخلة لا تخرجه عن رتبة العبودية وقيل لبيان أن اصطفاؤه عليه السلام للخلة بمحض مشيئته تعالى أي له تعالى ما فيهما جميعا يختار منهما ما يشاء لمن يشاء وقوله عز وجل ﴿ وكان الله بكل شيء محيطا ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله على الوجوه المذكورة فإن إحاطته تعالى علما وقدره بجميع الأشياء التي من جملتها ما فيهما من المكلفين وأعمالهم مما يقرر ذلك أكمل تقرير

أحكام في معاشره النساء

﴿ ويستفتونك في النساء ﴾ أي في حقن على الإطلاق كما ينبى عنه الأحكام الآتية لا في حق ميراثهن خاصة فإنه صلى الله عليه وسلم قد سئل عن أحوال كثيرة مما يتعلق بهن فما بين حكمه فيما سلف أحيل بيانه على ما ورد في ذلك من الكتاب وما لم يبين حكمه بعد بين ههنا وذلك قوله تعالى ﴿ قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب ﴾ بإسناد الإفتاء الذي هو بيان^(١) المهم وتوضيح المشكل إليه تعالى وإلى ما تلى من الكتاب فيما سبق باعتبارين على طريقة قولك أغنانى زيد وعطاؤه بعطف ما على المبتدأ أو ضميره في الخبر لمكان الفصل بالمفعول والجار والمجرور وإيثار صيغة المضارع للإيدان باستمرار التلاوة ودوامها وفي الكتاب إما متعلق ببتلى أو بمحذوف وقع حالا من المستكن فيه أى يتلى كائنا فيه ويجوز أن يكون ما يتلى عليكم مبتدأ وفي الكتاب خبره على أن المراد به اللوح المحفوظ والجملة معترضة مسوقة لبيان عظم شأن المتلو عليهم وأن العدل في الحقوق المبينة فيه من عظام الأمور التي تجب مراعاتها والمحافظة عليها فيما يتلى حينئذ متناول لما تلى وما سيتلى ويجوز أن يكون مجرورا على القسم المنبئ عن تعظيم المقسم به وتفخيمه كأنه قيل قل الله يفتيكم فيهن وأقسم بما يتلى عليكم في الكتاب فالمراد بقوله تعالى يفتيكم بيانه السابق

(١) في ط. تبين .

واللاحق ولا مساغ لعطفه على المجرور من فيهن لاختلاله لفظاً ومعنى وقوله تعالى : ﴿ في يتامى النساء ﴾ على الوجه الأول وهو الأظهر متعلق بـ يتلى أى ما يتلى عليكم فى شأنهن وعلى الآخرين بدل من فيهن وهذه الإضافة بمعنى من لأنها إضافة الشيء إلى جنسه وقرىء بـ يتامى بقلب (١) همزة أياً ياء .

﴿ اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن ﴾ أى ما فرض لهن من الميراث وغيره ﴿ وترغبون ﴾ عطف على الصلة عطف جملة مثبتة على جملة منفية وقيل حال من فاعل تؤتونهن بتأويل وأتم ترغبون ولا ريب فى أنه لا يظهر لتقييد عدم الإيتاء بذلك فائدة إلا إذا أريد بما كتب لهن صداقهن ﴿ أن تنكحوهن ﴾ أى فى أن تنكحوهن لا لأجل التمتع بهن بل لأكل ما لهن أو فى أن تنكحوهن بغير إكمال الصداق وذلك ما روى عن عائشة رضى الله تعالى عنها من أنها اليتيمة تكون فى حجر وليها فيرغب فى مالها وجمالها ويريد أن ينكحها بأذى من سنة نساءها فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن فى إكمال الصداق أو عن أن تنكحوهن وذلك ما روى عنها رضى الله عنها أنها يتيمة يرغب وليها عن نكاحها ولا ينكحها فيعضلها طمعا فى ميراثها وفى رواية عنها رضى الله عنها هو الرجل يكون عنده يتيمة هو وليها ووارثها وشريكها فى المال حتى فى العذق فيرغب أن ينكحها ويكره أن يزوجها رجلاً فيشركه فى ماله بما شركته فيعضلها فالمراد بما كتب لهن على الوجه الأول والآخر ميراثهن وبما يتلى فى حقهن قوله تعالى ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ﴾ وقوله تعالى ﴿ ولا تأكلوها ﴾ ونحوهما من النصوص الدالة على عدم التعرض لأموالهم وعلى الوجه الثانى صداقهن وبما يتلى فىهن قوله تعالى ﴿ وإن خفتن أن لا تقسطوا فى اليتامى ﴾ الآية .

﴿ والمستضعفين من ولدان ﴾ عطف على يتامى النساء وما يتلى فى حقهم وقوله تعالى ﴿ يوصيكم الله ﴾ الخ وقد كانوا فى الجاهلية لا يرثونهم كما لا يرثون

(١) فى ط : على قلب .

النساء وإنما يورثون الرجال القوامين^(١) بالأمور . روى أن عينة ابن حصن الفرارى جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أخبرنا بأنك تعطى الإبنة النصف والأخت النصف وإنما كنا نورث من يشهد القتال ويجوز الغنيمة فقال عليه الصلاة والسلام كذلك أمرت ﴿ وأن تقوموا لليتامى بالقسط ﴾ بالجر عطف على ما قبله وما يتلى في حقهم قوله تعالى (ولا تبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم) ونحو ذلك مما لا يكاد يحصر هذا على تقدير كون في يتامى النساء متملقا بيتلى وأما على تقدير كونه بدلا من فيهن فالوجه نصبه عطفًا على موضع فيهن أى يفتيكم أن تقوموا ويجوز نصبه بإضمار فعل أى ويأمركم وهو خطاب للولادة أو للأولياء والأوصياء ﴿ وما تفعلوا ﴾ في حقوق المذكورين ﴿ من خير ﴾ حسبما أمرتم به أو ما تفعلوه من خير على الإطلاق فيندرج فيه ما يتعلق بهم اندراجا أو ليا .

﴿ فإن الله كان به عليما ﴾ فيجازيكم بحسبه ﴿ وأن امرأة خافت ﴾ شروع في بيان ما لم يبين فيما سلف من الأحكام أى إن توقعتم امرأة ﴿ من بعلمها نشوزا ﴾ أى تجافيا عنها وترفعاعن صحبتها كراهة لها ومنعًا لحقوقها ﴿ أو اعراضا ﴾ بأن يقل محادثتها وموانستها لما يقتضى ذلك من الدواعى والأسباب ﴿ فلا جناح عليهما ﴾ حينئذ ﴿ أن يصلحا بينهما صلحا ﴾ أى فى أن يصلحا بينهما بأن تحط عنه^(٢) المهر أو بعضه أو القسم كما فعلت سودة بنت زمعة حين كرهت أن يفارقها رسول الله صلى الله عليه وسلم فوهبت يومها لعائشة رضى الله عنها أو بأن تهب له شياً تستميله وقرى يصلحا من يتصالحا ويصلحا من يصطلحا ويصلحا من المفاعلة وصلحا إما منصوب بالفعل المذكور على كل تقدير على أنه مصدر منه بحذف الزوائد وقد يدبر عنه باسم المصدر كأنه قيل إصلاحا أو تصالحا أو

(١) فى ط : القوام .

(٢) فى ط : له .

لمصطلحا حسبما قرىء الفعل أو بفعل مترتب على المذكور أى فيصلح حالهما صلحا وبينهما ظرف للفعل أو حال من صلحا والتعرض لنفى الجناح عنهما مع أنه ليس من جانبها الأخذ الذى هو المظنة للجناح لبيان أن هذا الصلح ليس من قبيل الرشوة المحرمة للبعثى والأخذ .

﴿ والصلح خير ﴾ أى من الفرقة أو من سوء العشرة أو من الخصومة فاللام للعهد أو هو خير من الخيور فاللام للجنس والجملة اعتراض مقرر لما قبله وكذا قوله تعالى ﴿ وأحضرت الأنفس الشح ﴾ أى جعلت حاضرة له مطبوعة عليه لا تنفك عنه أبدا فلا المرأة تسمح بحقوقها من الرجل ولا الرجل يجود بحسن المعاشرة مع دمايتها فإن فيه تحقيقاً للصلح وتقريراً له بحث كل منهما عليه لكن لا بالنظر إلى حال نفسه فإن ذلك يستدعى التماضى فى المما كسة والشقاق بل بالنظر إلى حال صاحبه فإن شح نفس الرجل وعدم ميلها عن حالتها الجبلية بغير استمالة بما يحمل المرأة على بذل بعض حقوقها إليه لاستمالاته وكذا شح نفسها بحقوقها بما يحمل الرجل على أن يقتنع من قبلها بشيء يسير ولا يكلفها بذل الكثير فيتحقق بذلك الصلح ﴿ وإن تحسنوا ﴾ فى العشرة ﴿ وتتقوا ﴾ النشوز والإعراض مع تعاضد^(١) الأسباب الداعية إليهما وتصبروا على ذلك مراعاة لحقوق الصحبة ولم تضطروهن إلى بذل شيء من حقوقهن ﴿ فإن الله كان بما تعملون ﴾ أى من الإحسان والتقوى أو بما تعملون جميعا فيدخل ذلك فيه دخولا أولياً ﴿ خبيراً ﴾ فيجازيكم ويثيبكم على ذلك البتة لاستحالة أن يضع أجر المحسنين وفى خطاب الأزواج بطريق الالتفات والتعبير عن رعاية حقوقهن بالإحسان ولفظ التقوى المنبئ عن كون النشوز والإعراض مما يتوقى منه وترتيب الوعد الكريم عليه من لطف الاستمالة والترغيب فى حسن المعاملة ما لا يخفى . روى أنها نزلت فى عمرة بنت محمد بن مسلمة وزوجها سعد بن الربيع

(١) فى ط : وإن تعاضدت .

تزوجها وهي شابة فلما علاها الكبر تزوج شابة وآثرها عليها وجفاها ؛ فأنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وشككت إليمه ذلك ، وقيل : نزلت في أبي السائب ، كانت له امرأة قد كبرت وله منها أولاد فأراد أن يطلقها ويتزوج غيرها فقالت لا تطلقني ودعني على أولادي فاقسم لي من كل شهرين إن شئت فلا تقسم لي فقال إن كان يصلح ذلك فهو أحب إلي فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فنزلت .

﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ﴾ أى محال أن تقدرُوا على أن تعدلوا بينهن بحيث لا يقع ميل ما إلى جانب إحداهن في شأن من الشؤون البتة وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك وفي رواية وأنت أعلم بما لا أملك يعني فرط محبته لعائشة رضي الله عنها ﴿ ولو حرصتم ﴾ أى على إقامة العدل والعتق في ذلك .

﴿ فلا تميلوا كل الميل ﴾ أى فلا تجوروا على المرغوب عنها كل الجور واعدلوا ما استطعتم فإن عجزكم عن حقيقة العدل إنما يصحح عدم تكليفكم بها لا بما دونها من المراتب الداخلة تحت استطاعتكم ﴿ فتذروها ﴾ أى التي ملتم عنها ﴿ كالمعلقة ﴾ التي ليست ذات بعل أو مطلقة وقرىء كالمسجونة وفي الحديث من كانت له امرأتان يميل مع إحداهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل ﴿ وإن تصالحوا ﴾ ما كنتم تفسدون من أمورهن ﴿ وتلقوا ﴾ الميل فيما يستقبل ﴿ فإن الله كان غفورا ﴾ يغفر لكم ما فرجا منكم من الميل ﴿ رحيم ﴾ يتفضل عليكم برحمته ﴿ وإن يتفرقا ﴾ وقرىء يتفرقا أى وإن يفارق كل منهما صاحبه بأن لم يتفق بينهما وفاق بوجه ما من الصلح وغيره ﴿ يغن الله كلا ﴾ منهما أى يجعله مستغنيا عن الآخر ويكفه مهماته ﴿ من سعته ﴾ من غناه وقدرته وفيه زجر لهما عن المفارقة رغما لصاحبه ﴿ وكان الله واسعا حكيما ﴾ مقتدرا متقنا في أفعاله وأحكامه وقوله تعالى ﴿ والله ما في السموات وما في

الأرض ﴿ أى من الموجودات كائنا ما كان من الخلائق وأرزاقهم وغير ذلك جملة مستأنفة منبهة على كمال سعته وعظم قدرته ﴾ ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ﴿ أى أمرناهم في كتابهم وهم اليهود والنصارى ومن قبلهم من الأمم واللام في الكتاب للجنس ومن متعلقة بوصينا أو بأوتوا .

﴿ وإياكم ﴾ عطف على الموصول ﴿ أن اتقوا الله ﴾ أى وصينا كلامكم ومنهم بأن اتقوا الله على أن أن مصدرية حذف منها^(١) الجار ويجوز أن تكون مفسرة لأن التوصية في معنى القول فقوله تعالى ﴿ وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ حينئذ من تنمة القول المحكى أى ولقد قلنا لهم ولكم اتقوا الله وإن تكفروا إلى آخر الآية وعلى تقدير كون أن مصدرية مبنى الكلام وإرادة القول أى أمرناهم وإياكم بالتقوى وقلنا لهم ولكم إن تكفروا الآية وقيل هى جملة مستأنفة خوطب بها هذه الأمة وأياما كان فالترتب على كفرهم ليس مضمون قوله تعالى فإن لله الآية بل هو الأمر بعلمه كأنه قيل وإن تكفروا فاعلموا أن لله ما فى السموات وما فى الأرض من الخلائق قاطبة مفتقرين إليه فى الوجود وسائر النعم المتفرعة عليه لا يستغنون عن فيضه طرفة عين فحقه أن يطاع ولا يعصى ويتقى عقابه ويرجى ثوابه وقد قرر ذلك بقوله تعالى ﴿ وكان الله غنيا ﴾ أى عن الخلق وعبادتهم ﴿ حميدا ﴾ محمودا فى ذاته حمدوه أو لم يحمدوه فلا يتضرر بكفرهم ومعاصيهم كما لا ينتفع بشكرهم وتقواهم وإنما وصاهم بالتقوى لرحمته لا لحاجته ﴿ والله ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ كلام مبتدأ مسوق للمخاطبين توطئة لما بعده من الشرطية غير داخل تحت القول المحكى أى له سبحانه ما فىهما من الخلائق خلقا وملكا يتصرف فيهم كيفما يشاء لإيجادا وإعداما وإحياء وإماتة .

﴿ وكفى بالله وكبيلا ﴾ فى تدبير أمور السكل وكل الأمور فلا بد من أن

(١) فى ط : عنها .

يتوكل عليه لاعلى أحد سواه ﴿ إن يشأ يذهبكم أيها الناس ﴾ أى يفضلكم ويستأصلكم بالمرّة ﴿ ويأت بأخرين ﴾ أى ويوجد دفعة مكانكم قوما آخرين من البشر أو خلقا آخرين مكان الإنس ومنفعل المشيئة محذوف لكونه مضمون الجزاء أى إن يشأ أفناكم وإيجاد آخرين يذهبكم الخ يعنى أن إبقاءكم على ما أتم عليه من العصيان إنما هو لسكال غناه عن طاعتكم ولعدم تعلق مشيئته المبنية على الحكم البالغة بإفنائكم لالعجزه سبحانه تعالى عن ذلك علوا كبيرا ﴿ وكان الله على ذلك ﴾ أى على إفنائكم بالمرّة وإيجاد آخرين دفعة مكانكم ﴿ قديرا ﴾ بليغ القدرة وفيه لاسيما فى توسط^(١) الخطاب بين الجزاء وما عطف عليه من تشديد التهديد ما لا يخفى وقيل هو خطاب لى عادى رسول الله صلى الله عليه وسلم من العرب لى أن يشأ يمتكم ويأت بأناس آخرين يوالونه فغناه هو معنى قوله تعالى (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) ويروى أنها لما نزلت ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده على ظهر سلمان وقال لهم قوم هذا يريد أبناء فارس ﴿ من كان يريد ثواب الدنيا ﴾ كالمجاهد يريد بجهاده الغنيمة ﴿ فعند الله ثواب الدنيا والآخرة ﴾ أى فعنده تعالى ثوابهما له إن أراد فماله يطلب أحسهما فليطلبهما كمن يقول ربنا آتتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة أو ليطلب أشرفهما فإن من جاهد خالصا لوجه الله تعالى لم تخطئه الغنيمة وله فى الآخرة ما هى فى جنبه كلاً شىء أى فعند الله ثواب الدارين فيعطى كلاً ما يريد كقوله تعالى (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه) الآية ﴿ وكان الله سميعا بصيرا ﴾ عالما بجميع المسموعات والمبصرات فيندج فيها ما صدر عنهم من الأقوال والأعمال المتعلقة بمراداتهم اندرجا أوليا .

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ﴾ مبالغين فى العدل وإقامة القسط فى جميع الأمور مجتهدين فى ذلك حق الاجتهاد ﴿ شهداء لله ﴾ بالحق

(١) فى ط : توسط .

تقيمون شهادتكم لوجه الله تعالى وهو خبر ثان وقيل حال ﴿ولو على أنفسكم﴾ أي ولو كانت الشهادة على أنفسكم بأن تقرروا عليها على أن الشهادة عبارة عن الإخبار بحق الغير سواء كان ذلك عليه أو على ثالث بأن تكون الشهادة مستتبعة لضرر ينالكم من جهة المشهود عليه ﴿أو والدين والأقربين﴾ أي ولو كانت على والديكم وأقاربكم ﴿إن يكن﴾ أي المشهود عليه ﴿غنيا﴾ يبتغى في العادة رضاه ويتقى سخطه ﴿أو فقيراً﴾ يترحم عليه غالباً وقرىء إن يكن غني أو فقير على أن كان تامة وجواب الشرط محذوف للدلالة قوله تعالى :

﴿فإنه أولى بهما﴾ عليه أي فلا يمتنعوا عنها طلباً لرضا الغني أو ترحموا على الفقير فإن الله تعالى أولى بجنسى الغني والفقير المدلول عليهما بما ذكر ولو أن الشهادة عليهما مصلحة لهما لما شرعها وقرىء أولى بهم ﴿فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا﴾ أي مخافة أن تعدلوا عن الحق فإن إتباع الهوى من مظان الجور الذى حقه أن يخاف ويحذر وقيل كراهة أن تعدلوا بين الناس أو إرادة أن تعدلوا بين الناس أو إرادة أن تعدلوا عن الحق ﴿وإن تولوا﴾ أي ألسنتكم عن شهادة الحق أو حكومة العدل بأن تأتوا بها لاعلى وجهها وقرىء وإن تولوا من الولاية والتصدى أي وإن وليتم إقامة الشهادة ﴿أو تعرضوا﴾ أي عن إقامتها رأساً ﴿فإن الله كان بما تعملون﴾ من لى الألسنة والإعراض بالكلية أو من جميع الأعمال التى من جعلتها ما ذكر ﴿خبيراً﴾ فيجازيكم لا محالة على ذلك فهو على القراءة المشهورة وعيد محض وعلى القراءة الأخيرة متضمن للوعيد .

خطاب للمسلمين جميعاً

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ خطاب لكافة المسلمين فعنى قوله تعالى ﴿آمنوا﴾ بالله ورسوله والكتاب الذى أنزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ﴿اثبتوا على الإيمان بذلك ودوموا عليه وازدادوا فيه طمأنينة ويقينا أو آمنوا بما ذكر متصلاً بناء على أن الإيمان بعضهم إجمالى والمراد بالكتاب الثانى الجنس

المنتظم لجميع الكتب السماوية لقوله تعالى (وكتبه) وبالإيمان به الإيمان بأن كل كتاب من تلك الكتب منزل منه تعالى على رسول معين لإرشاد أمته إلى ما شرع لهم من الدين بالأوامر والنواهي لكن لا على أن مدار الإيمان بكل واحد من تلك الكتب خصوصية ذلك الكتاب ولا على أن أحكام تلك الكتب وشرائعها باقية بالسكينة ولا على أن الباقي منها معتبر بالإضافة إليها بل على أن الإيمان بالكل مندرج تحت الإيمان بالكتاب المنزل على رسوله وأن أحكام كل منها كانت حقة ثابتة إلى ورود ما نسخها وأن ما لم ينسخ منها إلى الآن من الشرائع والأحكام ثابتة من حيث أنها من أحكام هذا الكتاب الجليل المصون عن النسخ والتبديل كما مر في تفسير خاتمة سورة البقرة وقرىء نزل وأنزل على البناء للفعول وقيل هو خطاب لمؤمني أهل الكتاب لما أن عبد الله ابن سلام وابن أخته سلامة وابن أخيه سلمة وأسدا وأسيدا ابني كعب وثعلبة ابن قيس ويامين بن يامين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا يا رسول الله إنا نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير ونكفر بما سواه من الكتب والرسل فقال عليه السلام بل آمنوا بالله ورسوله محمد وكتابه القرآن وبكل كتاب كان قبله فقالوا لا نفعل فنزلت فأمنوا كلهم فأمرهم بالإيمان بالكتاب المتناول للتوراة مع أنهم مؤمنون بها من قبل ليس لسكون المراد بالإيمان ما يعم لإنشاءه والثبات عليه ولا لأن متعلق الأمر حقيقة هو الإيمان بما عداها كأنه قيل آمنوا بالكل ولا تخصوه بالبعض بل لأن المأمور به إنما هو الإيمان بها في ضمن الإيمان بالقرآن على الوجه الذي أشير إليه آنفا لا إيمانهم السابق ولأن فيه حملا لهم على التسوية بينها وبين سائر الكتب في التصديق لاشتراك الكل فيما يوجبه وهو النزول من عند الله تعالى وقيل خطاب لأهل الكتابين فالمعنى آمنوا بالكل لا ببعض دون بعض وأمر كل طائفة بالإيمان بكتابه في ضمن الأمر بالإيمان بمنس الكتب لما ذكر وقيل هو للمنافقين فالمعنى آمنوا بقلوبكم لا بألسنتكم فقط (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر) أي بشيء من ذلك .

﴿ فقد ضل ضللاً بعيداً ﴾ عن المقصد بحيث لا يكاد يعود إلى طريقه وزيادة الملائكة واليوم الآخر في جانب الكفر لما أنه^(١) بالكفر بأحدهما لا يتحقق الإيمان أصلاً وجمع الكتب والرسول لما أن الكفر بكتاب أو برسول كفر بالكل وتقديم الرسول فيما سبق لذكر الكتاب بعنوان كونه منزلاً عليه وتقديم الملائكة والكتب على الرسول لأنهم وسائط بين الله عز وجل وبين الرسل في إنزال الكتب .

﴿ إن الذين آمنوا ﴾ قال قتادة هم اليهود آمنوا بموسى ﴿ ثم كفروا ﴾ بعبادتهم العجل ﴿ ثم آمنوا ﴾ عند عوده لإيهم ﴿ ثم كفروا ﴾ بعيسى والإنجيل ﴿ ثم ازدادوا كفراً ﴾ بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل هم قوم تكرر منهم الارتداد وأصروا على الكفر وازدادوا تمادياً في الغي ﴿ لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً ﴾ لما أنه يستبعد منهم أن يتوبوا عن الكفر ويثبتوا على الإيمان فإن قلوبهم قد ضرت بالكفر وتمرن على الردة وكان الإيمان عندهم أهون شيء وأدونه لا أنهم لو أخلصوا الإيمان لم يقبل منهم ولم يغفر لهم وخبر كان محذوف أى مريدا ليغفر لهم وقوله عز وجل ﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً ﴾ يدل على أن المراد بالمذكورين الذين آمنوا في الظاهر نفاقاً وكفروا في السر مرة بعد أخرى ثم ازدادوا كفراً ونفاقاً ووضع التبشير^(٢) موضع الإنذار^(٣) تهكماً بهم ﴿ الذين يتخذون الكافرين أولياء ﴾ في محل نصب أو الرفع على الزم بمعنى أريد بهم الذين أو هم الذين وقيل نصب على أنه صفة للمنافقين وقوله تعالى ﴿ من دون المؤمنين ﴾ حال من فاعل يتخذون أى يتخذون الكفرة أنصاراً متجاوزين ولاية المؤمنين وكانوا يوالونهم ويقول بعضهم لبعض لا يتم أمر محمد عليه الصلاة والسلام فتولوا اليهود ﴿ أيبغون عندهم العزة ﴾ إنكار لرأيهم وإبطال له وبيان لخفية رجائهم وقطع لأطباعهم الفارغة والجملة

(٢) في ط : يشر .

(١) في ط : لما أن .

(٣) في ط : أنذر .

معتزلة مقرر لما قبلها أى يطلبون بموالاتة الكفرة القوة والغلبة؟ قال الواحدى أصل العزة الشدة ومنه قيل للأرض الشديدة الصلابة عزاز وقوله تعالى .

﴿ فإن العزة لله جميعاً ﴾ تعليل لما يفيد الاستفهام الإنكارى من بطلان رأيهم وخيبة رجائهم فإن انحصار جميع أفراد العزة فى جنابه عز وعلا بحيث لا ينالها إلا أولياؤه الذين كتب لهم العزة والغلبة قال تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) يقضى ببطلان التعزز بغيره سبحانه وتعالى واستحالة الانتفاع به وقيل هو جواب شرط محذوف كأنه قيل إن ينتهوا عندهم العزة فإن العزة لله وجميعاً حال من المستكن فى قوله تعالى لله لاعتماده على المبتدأ ﴿ وقد نزل عليكم ﴾ خطاب للمنافقين بطريق الالتفات مفيد لتشديد التوبيخ الذى يستدعيه تعداد جنباياتهم وقرىء مبنياً للمفعول من التنزيل والإنزال ونزل أيضاً مخففا والجملة حال من ضمير يتخذون أيضا مفيدة لـ. كمال قباحة حالهم ونهاية استعصامهم عليه سبحانه ببيان أنهم فعلوا ما فعلوا من موالاتة الكفرة مع تحقق ما يمنعهم من ذلك وهو ورود النهى الصريح عن مجالستهم المستلزم للنهى عن موالاتهم على أبلغ وجه وآ كده إثر بيان انتفاء ما يدعوهم إليه بالجملة المعتزلة كأنه قيل تتخذونهم أولياء والحال أنه تعالى قد نزل عليكم قبل هذا بمكة ﴿ فى الكتاب ﴾ أى القرآن الكريم ﴿ أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستنزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ﴾ وذلك قوله تعالى (وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم) الآية وهذا يقتضى الانزجار عن مجالستهم فى تلك الحالة القبيحة فكيف بموالاتهم والاعتزاز بهم وأن هى المخففة من أن وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف والجملة الشرطية خبرها وقوله تعالى يكفر بها حال من آيات الله وقوله تعالى ويستنزأ بها عطف عليه داخل فى حكم الحالية وإضافة الآيات إلى الاسم الجليل لتشريفها وإبانة خطرها وتهويل أمر الكفر بها أى نزل عليكم فى الكتاب أنه إذا سمعتم آيات الله مكفورا بها ومستنزأ بها وفيه دلالة على أن المنزل على النبي عليه السلام وإن خوطب به خاصة منزل على الأمة وأن مدار الإعراض عنهم هو العلم بخوضهم فى الآيات

ولذلك عبر عن ذلك تارة بالرؤية وأخرى بالسمع وأن المراد بالإعراض إظهار المخالفة بالقيام عن مجالسهم لا الإعراض بالقلب أو بالوجه فقط والضمير في معهم للكفرة المدلول عليهم بقوله تعالى يكفر بها ويستهنأ بها .

﴿ إنكم إذن مثلهم ﴾ جملة مستأنفة سيقت لتعليل النهى غير داخلة تحت التنزيل وإذن ملغاة عن العمل لوقوعها بين المبتدأ والخبر أى لا تقعدوا معهم في ذلك الوقت إنكم إن فعلتموه كنتم مثلهم في الكفر واستتباع العذاب وإفراد المثل لأنه كالمصدر أو للاستغناء بالإضافة إلى الجمع وقرىء شاذاً مثلهم بالفتح لإضافته إلى غير متمكن كما في قوله تعالى (مثل ما أنكم تنطقون) وقيل هو منصوب على الظرفية أى في مثل حالهم وقوله تعالى ﴿ إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً ﴾ تعليل لكونهم مثلهم في الكفر ببيان ما يستلزمه من شركتهم لهم في العذاب والمراد بالمنافقين إما المخاطبون وقد وضع موضع ضميرهم الظاهر^(١) تسجيلاً بنفاقهم وتعليلاً للحكم بأخذ الاشتقاق وإما الجنس وهم داخلون تحتة دخولا أولياً وتقديم المنافقين على الكافرين لتشديد الوعيد على المخاطبين ونصب جميعاً مثل ما قبله ﴿ الذين يترصبون بكم ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى المؤمنين بتعدد بعض آخر من جنائيات المنافقين وقبائحهم وهو إما بدل من الذين يتخذون أو صفة للمنافقين فقط إذ هم المترصبون دون الكافرين أو مرفوع أو منصوب على الذم أى ينتظرون أمركم وما يحدث لكم من ظفر أو إخفاق والفاء في قوله تعالى :

﴿ فإن كان لكم فتح من الله ﴾ لترتيب مضمونه على ما قبلها فإن حكاية ترصبهم مستتبعة لحكاية ما يقع بعد ذلك كما أن نفس التربص يستدعى شيئاً ينتظر المتربص وقوعه .

﴿ قالوا ﴾ أى لكم ﴿ ألم نكن معكم ﴾ أى مظاهرين لكم فأسهموا لنا في الغنيمة ﴿ وإن كان للكافرين نصيب ﴾ من الحرب فإنها سجال ﴿ قالوا ﴾

(١) في ط : المظهر .

أى للكفرة ﴿ ألم نستحوذ عليكم ﴾ أى ألم نغلبكم وتمكن من قتلكم وأسركم فأبقينا عليكم ﴿ ونمنعكم من المؤمنين ﴾ بأن نبطنهم عنكم وخيلنا لهم ما ضعفت به قلوبهم ومرضوا فى قتالكم وتوانينا فى مظاهرتهم وإلا لكانت نهبه للشوائب فهاتوا نصيباً لنا بما أصبتم وتسمية ظفر المسلمين فتحا وما للكافرين نصيباً لتعظيم شأن المسلمين وتحقير^(١) حظ الكافرين وهوى ونمنعكم بإضمار أن ﴿ فالله يحكم بينكم يوم القيامة ﴾ حكماً يليق بشأن كل منكم من الثواب والعقاب وأما فى الدنيا فقد أجرى على من تفوه بكلمة الإسلام حكمه ولم يضع السيف على من تكلم بها نفاقاً ﴿ ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ﴾ حينئذ كما قد يجعل ذلك فى الدنيا بطريق الابتلاء والاستدراج أو فى الدنيا على أن المراد بالسبيل الحجة .

من علامات النفاق

﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ كلام مبتدأ سيق لبيان طرف آخر من قبائح أعمالهم أى يفعلون ما يفعل الخادع من إظهار الإيمان وإبطان نقيضه والله فاعل بهم ما يفعل الغالب فى الخداع حيث تركهم فى الدنيا معصومى الدماء والأموال وأعد لهم فى الآخرة الدرك الأسفل من النار وقد مر التحقيق فى صدر سورة البقرة وقيل يعطون على الصراط نوراً كما يعطى المؤمنون فيمضون بنورهم ثم يطفأ نورهم ويبقى نور المؤمنين فينادون انظرونا نفتبس من نوركم .
﴿ وإذا قاموا إلى الصلوة قاموا كسالى ﴾ متافلين كالمسكوه على الفعل وقرىء بفتح الكاف وهما جمعاً كسلان ﴿ يراءون الناس ﴾ ليحسبوهم مؤمنين والمرأاة مفاعلة بمعنى التفعيل كنعم وناعم أو للمقابلة فإن المرأى يرى غيره عمله وهو يريه استحسانه والجملة إما استئناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل فإذا يريدون بقيامهم إليها كسالى فقيل يراءون الخ أو حال من ضمير قاموا

(١) فى ط : وتحسيس .

﴿ ولا يذكرون الله إلا قليلاً ﴾ عطف على يرامون أى لا يذكرونه سبحانه
إلا ذكراً قليلاً وهو ذكرهم باللسان فإنه بالإضافة إلى الذكر بالقلب قليل أو
إلا زماناً قليلاً أو لا يصلون إلا قليلاً لأنهم لا يصلون إلا بمرآى من الناس
وذلك قليل وقيل لا يذكرونه تعالى فى الصلاة إلا قليلاً عند التكبير والتسليم
﴿ مذنبين بين ذلك ﴾ حال من فاعل يرامون أو منصوب على الذم وذلك إشارة
إلى الإيمان والكفر المدلول عليهما بمعونة المقام أى مترددين بينهما متحيرين قد
ذبذبهم الشيطان وحقيقة المذبذب ما يذب ويدفع عن كلا الجانبين مرة بعد أخرى
وقرىء بكسر الهمزة أى مذنبين قلوبهم أو رأيهم أو دينهم أو بمعنى متذبذبين
كما جاء صلصل بمعنى تصلصل وفى مصحف ابن مسعود رضى الله عنه متذبذبين
وقرىء مدبذبين بالدال غير المعجمة وكان المعنى أخذ بهم تارة فى دبة أى طريقة
وأخرى فى أخرى .

﴿ لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴾ أى لا منسوبين إلى المؤمنين ولا منسوبين
إلى الكافرين أولاً صائرين إلى الأولين ولا إلى الآخرين فمحله
النصب على أنه حال من ضمير مذنبين أو على أنه بدل منه أو بيان
وتفسير له ﴿ ومن يضلل الله ﴾ لعدم استعداده للهداية والتوفيق ﴿ فلن
تجد له سبيلاً ﴾ موصلاً إلى الحق والصواب فضلاً عن أن تهديه إليه والخطاب
لكل من يصلح له كائناً من كان ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء
من دون المؤمنين ﴾ نهوا عن موالاة الكفرة صريحاً وإن كان فى بيان حال
المتأفقين زجر^(١) عن ذلك مبالغة فى الزجر والتحذير ﴿ أتريدون أن تجعلوا
الله عليكم سلطاناً مبيناً ﴾ أى أتريدون بذلك أن تجعلوا الله عليكم حجة بينة على
أنكم منافقون فإن موالاة الكفرة صريحاً أو سلطاناً يسلط عليكم عقابه
وتوجيه الإنكار إلى الإرادة دون متعلقها بأن يقال أتعلمون الخ المبالغة فى
إنكاره وتهويل أمره ببيان أنه مما لا يصدر عن العاقل إرادته فضلاً عن صدور

(١) فى ط : مزجرة .

نفسه كما في قوله عز وجل (أم تريدون أن تسألوا رسولكم) ﴿ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ﴾ وهو الطبقة النى في قعر جهنم وإنما كان كذلك لأنهم أخبث الكفرة حيث ضموا إلى الكفر الاستهزاء بالإسلام وأهله وخداهم ، وأما قوله عليه السلام ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم من إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان ونحوه فمن باب التشديد والتهديد والتغليظ مبالغة في الزجر وتسمية طبقاتها السبع دركات لكونها متداركة متتابعة بعضها تحت بعض وقرىء بفتح الراء وهو لغة كالسطر والسطر ويعضده أن جمعه أدراك ﴿ ولن تجد لهم نصيرا ﴾ يخلصهم منه والخطاب كما سبق .

﴿ إلا الذين تابوا ﴾ أى عن النفاق وهو استثناء من المنافقين بل من ضميرهم فى الخبر ﴿ وأصلحوا ﴾ ما أفسدوا من أحوالهم فى حال النفاق ﴿ واعتصموا بالله ﴾ أى وثقوا به وتمسكوا بدينه ﴿ وأخلصوا دينهم ﴾ أى جعلوه خالصا ﴿ لله ﴾ لا يبتغون بطاعتهم إلا وجهه ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد للإيدان ببعده المنزلة وعلو الطبقة ﴿ مع المؤمنين ﴾ أى المؤمنين المعهودين الذين لم يصدر عنهم نفاق أصلا منذ آمنوا وإلا فهم أيضا مؤمنون أى معهم فى الدرجات العليا (١) من الجنة وقد بين ذلك بقوله تعالى ﴿ وسوف يؤتى الله المؤمنين أجرا عظيما ﴾ لا يقادر قدره فيسأهمونهم فيه ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ﴾ استئناف مسوق لبيان أن مدار تعذيبهم وجودا وعدما وإنما هو كفرهم لاشيء آخر فيكون مقررا لما قبله من إنابتهم عند توبتهم وما استنفامية مقيدة للنفي على أبلغ وجه وآكده أى أى شىء يفعل الله سبحانه بتعذيبكم أي تشفى به من الغيظ أم يدرك به النار أم يستجلب به نفعاً أم يستدفع به ضرراً كما هو شأن الملوك وهو الغنى المتعالى عن أمثال ذلك ؟ وإنما هو أمر يقتضيه كفركم فإذا زال ذلك بالإيمان والشكر

(١) فى ط : العالية

انتفى التعذيب لا محالة وتقديم الشكر على الإيمان لما أنه طريق موصل إليه فإنه يدرك أولاً ما عليه من النعم الأنفسية والآفاقية فيشكر شاكراً مهما ثم يترقى إلى معرفة المنعم فيؤمن به وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه ﴿ وكان الله شاكراً ﴾ الشكر من الله سبحانه هو الرضا باليسير من طاعة عباده وإضعاف الثواب بمقابلته ﴿ عليماً ﴾ مبالغاً في العلم بجميع المعلومات التي من جملتها شكركم وإيمانكم فيستحيل أن لا يوفيكم أجوركم .

﴿ لا يحب الله الجهر بالسوء من القول ﴾ عدم محبته تعالى لشيء كناية عن سخطه والباء متعلقة بالجهر ومن بمحذوف وقع حالا من السوء أى لا يحب الله تعالى أن يجهر أحد بالسوء كأننا من القول ﴿ إلا من ظلم ﴾ أى إلا جهر من ظلم بأن يدعو على ظالمه أو يتظلم منه وبذكره بما فيه من السوء فإن ذلك غير مسخوط عنده سبحانه وقيل هو أن يبدأ بالشتيمة فيرد على الشاتم (ولمن انتصر بعد ظلمه) الآية وقيل ضاف رجل قوما فلم يطعموه فاشتكاهم فعوتب على الشكاية فنزلت وقرئ إلا من ظلم على البناء للفاعل فالاستثناء منقطع أى ولكن الظالم يرتكب ما لا يحبه الله تعالى فيجهر بالسوء ﴿ وكان الله سميعاً ﴾ لجميع المسموعات. فيندرج فيها كلام المظلوم والظالم ﴿ عليماً ﴾ بجميع المعلومات التي من جملتها حال المظلوم والظالم فالجملة تذييل مقرر لما يفيد الاستثناء .

﴿ إن تبدوا خيراً ﴾ أى خير كان من الأقوال والأفعال ﴿ أو تحفوه أو تعفوا عن سوء ﴾ مع ما سوغ لكم من مؤاخذة المسمى والتنصيف عليه مع اندراجه في إبداء الخير وإخفائه لما أنه الحقيق بالبيان وإنما ذكر إبداء الخير وإخفائه بطريق التسبيب له كما ينبيء عنه قوله عز وجل ﴿ فإن الله كان عفواً قديراً ﴾ فإن إيراده في معرض جواب الشرط يدل على أن العمدة هو العفو مع القدرة أى كان مبالغاً في العفو مع كمال قدرته على المؤاخذة وقال الحسن يعفو عن الجائنين مع قدرته على الاتقام فعليكم أن تقتدوا بسنة الله تعالى وقال الكلبي هو أيذر على عفو ذنوبكم منكم على عفو ذنوب من ظلمكم وقيل عفواً عن عفاً قديراً على إيصال الثواب إليه ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسوله ﴾ أى يؤدى

إليه مذهبهم ويقتضيه رأيهم لا أنهم يصرحون بذلك كما ينبي عنه قوله تعالى ﴿ ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسوله ﴾ أي بأن يؤمنوا به تعالى ويكفروا بهم لكن لا بأن يصرحوا بالإيمان به تعالى وبالكفر بهم قاطبة بل بطريق الاستلزام كما يحكيه قوله تعالى ﴿ ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ﴾ أي نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعضهم كما قالت اليهود نؤمن بموسى والتوراة وعزيز ونكفر بما وراء ذلك وما ذلك إلا كفر بالله تعالى ورسوله وتفريق بين الله تعالى ورسوله في الإيمان لأنه تعالى قد أمرهم بالإيمان بجميع الأنبياء عليهم السلام وما من نبي من الأنبياء إلا وقد أخبر قومه بحقيقة دين نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم وعليهم أجمعين فمن كفر بواحد منهم فقد كفر بالكل وبالله تعالى أيضا من حيث لا يحتسب ﴿ ويريدون ﴾ بقولهم ذلك ﴿ أن يتخذوا بين ذلك ﴾ أي بين الإيمان والكفر ﴿ سبيلا ﴾ يسلكونه مع أنه لا واسطة بينهما قطعا إذ الحق لا يتعدد^(١) وماذا بعد الحق إلا الضلال .

﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بالصفات القبيحة ﴿ هم الكافرون ﴾ الكاملون في الكفر لا عبرة بما يدعونه ويسمونه إيمانا أصلا ﴿ حقا ﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة أي حق ذلك أي كونهم كاملين في الكفر حقا أو صفة لمصدر الكافرين أي هم الذين كفروا كفرا حقا أي ثابتا يقينا لا ريب فيه ﴿ وأعتدنا للكافرين ﴾ أي لهم وإنما وضع المظهر مكان المضمرة ذما لهم وتذكيرا لوصفهم أو لجميع الكافرين وهم داخلون في زمرة دحولا أوليا ﴿ عذابا مهينا ﴾ سيدوقونه عند حلوله ﴿ والذين آمنوا بالله ورسوله ﴾ أي على الوجه الذي بين في تفسير قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله) الآية ﴿ ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴾ بأن يؤمنوا ببعضهم ويكفروا بآخرين كما فعله الكفرة ودخول بين على أحد تد مر تحقيقه في سورة البقرة بما لا مزيد عليه ﴿ أولئك ﴾ المشعوتون بالنعوت الجائلة المذكورة ﴿ سوف يؤتهم أجورهم ﴾ الموعودة لهم

(١) في ط : يختلف .

وتصديره بسوف لتأ كيد الوعد والدلالة على أنه كائن لا محالة وإن تراخى
وقرىء نوتهم بنون العظمة ﴿ وكان الله غفورا ﴾ لما فرط منهم ﴿ رحيمًا ﴾ .
مبالغًا في الرحمة عليهم بتضعيف حسناتهم .

عود إلى اليهود

﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء ﴾ نزلت في أحبار
اليهود حين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن كنت نبيا فأتنا بكتاب من
السماء جملة كما أتى به موسى عليه الصلاة والسلام وقيل كتابا محررا بخط سماوى
على اللوح كما نزلت التوراة أو كتابا نعاينه حين ينزل أول كتابا إلينا بأعياننا
بأنك رسول الله وما كان مقصدهم بهذه العظيمة إلا التحكم والتعنت قال الحسن
ولو سألوه لكى يتبينوا الحق لأعظامهم وفيما آتاهم كفاية ﴿ فقد سألو موسى
أ كبر من ذلك ﴾ جواب شرط مقدر أى إن استكبرت ما سألوه منك فقد
سألو موسى شيئا أ كبر منه وقيل تعليل للجواب أى فلا تبال بسؤالهم فقد
سألو موسى أ كبر منه وهذه المسألة وإن صدرت عن أسلافهم لكنهم لما كانوا
مقتدين بهم فى كل ما يأتون وما يذوون أسندت إليهم والمعنى أن لهم فى ذلك
عرقا راسخا وأن ما اقترحوه عليك ليس أول جهالاتهم ﴿ فقالوا أرنا الله
جهرة ﴾ أى أرناه نره جهرة أى عيانا أو مجاهرين معاينين له والفاء تفسيرية
﴿ فأخذتهم الصاعقة ﴾ أى النار التى جاءتهم ^(١) من السماء فأهلكتهم وقرىء
الصعقة ﴿ بظلمهم ﴾ أى بسبب ظلمهم وهو تعنتهم وسؤالهم لما يستحيل فى
تلك الحالة التى كانوا عليها وذلك لا يقتضى امتناع الرؤية مطلقا ﴿ ثم اتخذوا
العجل من بعد ما جاءتهم البينات ﴾ أى المعجزات التى أظهرها لفرعون من العصا
واليد البيضاء وخلق البحر وغيرها لا التوراة لأنها لم تنزل عليهم بعد ﴿ فعفونا
عن ذلك ﴾ ولم نستأصلهم وكانوا أحقاه به . قيل هذا استدعاء لهم إلى التوبة كأنه

(١) فى ط : جاءت .

قيل إن أولئك الذين أجرموا تابوا فعفونا عنهم فتوبوا أتم أيضا حتى نعفو عنكم .

﴿ وآتينا موسى سلطنا مبينا ﴾ سلطنا ظاهرا عليهم حيث أمرهم بأن يقتلوا أنفسهم توبة عن معصيتهم ﴿ ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم ﴾ أى بسبب ميثاقهم ليعطوه على ما روى أنهم هموا بنقضه فرفع الله تعالى عليهم الجبل فجاءوا وأقلعوا عن النقض وهو الأنسب بما سيأتى من قوله عز وجل (وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) ﴿ وقلنا لهم ﴾ على لسان موسى عليه السلام والطور يظلمهم (١) ﴿ ادخلوا الباب ﴾ قال قتادة كنا نحدث أنه باب من أبواب بيت المقدس وقيل هو إيليا وقيل هو أريحا وقيل هو اسم قرية وقيل باب القبة التى كانوا يصلون إليها فإنهم لم يدخلوا بيت المقدس فى حياة موسى عليه السلام ﴿ سجدا ﴾ أى متظامنين خاضعين ﴿ وقلنا لهم لا تعدوا ﴾ أى لا تظلموا باصطياد الحيتان ﴿ فى السبت ﴾ وقرىء لا تعدوا ولا تفتح العين وتشديد الدال على أن أصله تعدوا وأدغمت التاء فى الدال لتقاربهما فى المخرج بعد نقل حركتهما إلى العين ﴿ وأخذنا منهم ﴾ على الامتثال بما كفوه ﴿ ميثاقا غليظا ﴾ مؤكدا وهو العهد الذى أخذه الله عليهم فى التوراة قيل إنهم أعطوا الميثاق على أنهم إن هموا بالرجوع عن الدين فاقه تعالى يعذبهم بأى أنواع العذاب أراد .

﴿ فبما نقضهم ميثاقهم ﴾ ما مزيدة للتأكيد أو نكرة تامة ونقضهم بدل منها والباء متعلقة بفعل محذوف أى فبسبب نقضهم ميثاقهم ذلك فعلنا بهم ما فعلنا من اللعن والمسوخ وغيرهما من العقوبات النازلة عليهم أو على أعقابهم . روى أنهم اعتدوا فى السبت فى عهد داود عليه السلام فلعنوا ومسخوا قرده وقيل متعلقة بجرمنا على أن قوله تعالى (فبظلم) بدل من قوله تعالى (فبما) وما عطف عليه فيكون التحريم معللا بالكل ولا يخفى أن قولهم إنا قتلنا المسيح وقولهم على

(١) فى ط : مظل لهم .

مریم البهتان متأخر عن التحريم ولا مساغ لتعلقها بما دل عليه قوله تعالى (بل طبع الله عليها بكفرهم) لأنه رد لقولهم (قلوبنا غلف) فيكون من صلة قوله تعالى (وقولهم) المعطوف على المجرور فلا يعمل في جاره ﴿ وكفرهم بآيات الله ﴾ أى بالقرآن أو بما فى كتابهم ﴿ وقتلهم الأنبياء بغير حق ﴾ كزكريا ويحيى عليهما السلام ﴿ وقولهم قلوبنا غلف ﴾ جمع أغلف أى هى مغشاة بأغشية جبلية لا يكاد يصل إليها ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم أو هو تخفيف غلف جمع غلاف أى هى أوعية للعلوم فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره قاله ابن عباس وعطاء وقال السكبي يعنون أن قلوبنا بحيث لا يصل إليها حديث إلا وعته ولو كان فى حديثك خير لوعته أيضاً ﴿ بل طبع الله عليها بكفرهم ﴾ كلام معترض بين المعطوفين جىء به على وجه الاستطراد مسارعة إلى رد زعمهم الفاسد أى ليس كفرهم وعدم وصول الحق إلى قلوبهم لكونها غلفا بحسب الجبلية بل الأمر بالعكس حيث ختم الله عليها بسبب كفرهم أو ليست قلوبهم كما زعموا بل هى مطبوع عليها بسبب كفرهم ﴿ فلا يؤمنون إلا قليلا ﴾ منهم كعبد الله بن سلام وأضرابه أو إلا إيماناً قليلا لا يعاباً به .

﴿ وبكفرهم ﴾ أى بعيسى عليه السلام وهو عطف على (قولهم) وإعادة الجار لطول ما بينهما بالاستطراد وقد جوز عطفه على بكفرهم فيكون هو وما عطف عليه من أسباب الطبع وقيل هذا المجموع معطوف على مجموع ما قبله وتكرير ذكر الكفر للإيدان بتكرير كفرهم حيث كفروا بموسى ثم بعيسى ثم بمحمد عليهم الصلاة والسلام ﴿ وقولهم على مریم بهتاناً عظيماً ﴾ لا يقادر قدره حيث نسبوا إلى ما هى عنه بألف منزل ﴿ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مریم رسول الله ﴾ نظم قولهم هذا فى سلك سائر جنائياتهم التى نعتت عليهم ليس لمجرد كونه كذبا بل لتضمنه لايتهاجم بقتل النبی عليه السلام والاستهزاء به فإن وصفهم له عليه السلام بعنوان الرسالة إنما هو بطريق التهكم به عليه السلام كما فى قوله تعالى (يا أيها الذى نزل عليه الذكر) الخ وإنبائه عن ذكرهم له عليه السلام بالوجه القبيح على ما قيل من أن ذلك وضع للذكر الجميل من جهته تعالى

مدحا له ورفعوا لمحله عليه السلام وإظهارا لغاية جرائمهم في تصديهم لقتله ونهاية وقاحتهم في افتخارهم بذلك ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ﴾ حال أو اعتراض .

﴿ ولكن شبه لهم ﴾ روى أن رهطا من اليهود سبوه عليه السلام وأمه فدعا عليهم فمسخهم الله تعالى قردة وخنازير فأجمعت اليهود على قتله فأخبره الله تعالى بأنه سيرفعه^(١) إلى السماء فقال لأصحابه أيكم يرضى بأن يلقي عليه شبهي فيقتل ويصلب ويدخل الجنة فقال رجل منهم أنا فألقى الله تعالى عليه شبهه فقتل وصلب وقيل كان رجل ينافق عيسى عليه السلام فلما أرادوا قتله قال أنا أدلكم عليه فدخل بيت عيسى عليه السلام فرفع عيسى عليه السلام وألقى شبهه على المنافق فدخلوا عليه وقتلوه وهم يظنون أنه عيسى عليه السلام وقيل إن ططيانوس اليهودي دخل بيتا كان هو فيه فلم يجده وألقى الله تعالى عليه شبهه فلما خرج ظن أنه عيسى عليه السلام فأخذ وقتل وأمثال هذه الخوارق لا تستبعد في عصر النبوة وقيل إن اليهود لما هموا بقتله عليه السلام فرفعه الله تعالى إلى السماء خاف رؤساء اليهود من وقوع الفتنة بين عوامهم فأخذوا لإنسانا وقتلوه وصلبوه ولبسوا على الناس وأظهروا لهم أنه هو المسيح وما كانوا يعرفونه إلا بالاسم لعدم مخالطته عليه السلام لهم إلا قليلا وشبهه مسند إلى الجار والمجرور كأنه قيل ولكن وقع لهم التشبيه بين عيسى عليه السلام والمقتول أو في الأمر على قول من قال لم يقتل أحد ولكن أرجف بقتله فشاع بين الناس أو إلى ضمير المقتول للدلالة إنا قتلنا على أن تم مقتولا .

﴿ وإن الذين اختلفوا فيه ﴾ أي في شأن عيسى عليه السلام فإنه لما وقعت تلك الواقعة اختلف الناس فقال بعض اليهود إنه كان كاذبا فقتلناه حتما وتردد آخرون فقال بعضهم إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا وقال بعضهم الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا وقال من سمع منه عليه السلام إن الله يرفعي إلى

(١) في ط : يرفعه .

السماء لأنه رفع إلى السماء وقال قوم صاب الناسوت وصعد اللاهوت [وقد مر]^(١) ﴿لني شك منه﴾ لني تردد والشك كما يطلق على ما لم يترجح أحد طرفيه يطلق على مطلق التردد وعلى ما يقابل العلم ولذلك أكد بقوله تعالى ﴿ما لهم به من علم إلا إتباع الظن﴾ استثناء منقطع أي لسكنهم يتبعون الظن ويجوز أن يفسر الشك بالجهل والعلم بالاعتقاد الذي تسكن إليه النفس جز ما كان أو غيره فلا استثناء حينئذ متصل ﴿وما قتلوه يقينا﴾ أي قتلنا يقينا كما زعموا بقولهم إنا قتلنا المسيح وقيل معناه وما علموه يقينا كما في قول من قال :

كذلك تخبر عنها العالما بها وقد قتلت بعلمي ذلكم يقنا

من قولهم قتلت الشيء علما ونجرتة علما إذا تبالغ علمك فيه وفيه تمك بهم لإشعاره بعلمهم في الجملة وقد نفي ذلك عنهم بالسكينة ﴿بل رفعه الله إليه﴾ رد وإنكار لزعيمهم قتله^(٢) وإثبات لرفعه ﴿وكان الله عزيزا﴾ لا يخالب فيما يريد ﴿حكيم﴾ في جميع أفعاله فيدخل فيها تدبيراته تعالى في أمر عيسى عليه السلام دخولا أوليا ﴿وإن من أهل الكتاب﴾ أي من اليهود والنصارى وقوله تعالى .

﴿إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ جملة قسمية وقعت صفة لموصوف محذوف إليه يرجع الضمير الثاني والأول لعيسى عليه السلام أي وما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن بعيسى عليه السلام قبل أن تزهد روحه بأنه عبد الله ورسوله ولات حين إيمان لا انقطاع وقت التكليف ويعضده أنه قريء ليؤمنن به قبل موتهم بضم النون لما أن أحدا في معنى الجمع وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه فسره كذلك فقال له عكرمة فإن أتاه رجل فضرب عنقه قال لا تخرج نفسه حتى يحرك بها شفتيه قال فإن خر من فوق بيت أو احترق أو أكله سبع قال يتكلم بها في الهواء ولا تخرج روحه حتى يؤمن به وعن شهر بن حوشب

(١) سقطت من ط .

(٢) في ط : نقتله .

قال لى الحجاج آية ما قرأها إلا تخالج فى نفسى شئٌ منها يعنى هذه الآية وقال لى أوتى بالأسير من اليهود والنصارى فأضرب عنقه فلا أسمع منه ذلك فقلت إن اليهودى إذا حضره الموت ضربت الملائكة دبره ووجهه وقالوا يا عدو الله أتاك عيسى عليه السلام نبيا فكذبت به فيقول آمنت أنه عبد نبي وتقول للنصرانى أتاك عيسى عليه السلام نبيا فزعمت أنه الله أو ابن الله فيؤمن أنه عبد الله ورسوله حيث لا ينفعه إيمانه قال وكان متكئا فاستوى جالسا فنظر لى وقال من سمعت هذا قلت حدثنى محمد بن على بن الحنفية فأخذ ينكث الأرض بقضيبه ثم قال لقد أخذتها من عين صافية والإخبار بحالهم هذه وعيد لهم وتحريض على المسارعة إلى الإيمان به قبل أن يضطروا إليه مع انتفاء جدواه وقيل كلا الضميرين لعيسى والمعنى وما من أهل الكتاب الموجودين عند نزول عيسى عليه السلام أحدا إلا ليؤمنن به قبل موته. روى أنه عليه السلام ينزل من السماء فى آخر الزمان فلا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن به حتى تكون الملة واحدة وهى ملة الإسلام وبهلك الله فى زمانه الدجال وتقع الأمانة حتى ترتع الأسود مع الإبل والتمور مع البقر والذئاب مع الغنم ويلعب الصبيان بالحيات ويلبث فى الأرض أربعين سنة ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون ويدفنونه وقيل الضمير الأول يرجع إلى الله تعالى وقيل إلى محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ ويوم القيامة يكون ﴾ أى عيسى عليه السلام .

﴿ عليهم ﴾ على أهل الكتاب ﴿ شبيها ﴾ فيشهد على اليهود بالتكذيب وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا ﴿ فبظلم من الذين هادوا ﴾ لعل ذكرهم بهذا العنوان للإيدان بكال عظم ظلمهم بتذكير وقوعه بعد ما هادوا أى تابوا من عبادة العجل مثل تلك التوبة الهائلة المشروطة ببخس النفوس لئربيان عظمه فى حد ذاته بالتنوين التفخيمى أى بسبب ظلم عظيم خارج عن حدود الأشباه والأشكال صادر عنهم ﴿ حررنا عليهم طبييات أحلت لهم ﴾ ولمن قبلهم لا بشئٍ غيره كما زعموا فإنهم كانوا كلوا ارتكبوا معصية من المعاصى التى اقترفوها يحرم عليهم نوع من الطبييات التى كانت محالة لهم ولمن

تقدمهم من أسلافهم عقوبة لهم وكانوا مع ذلك يفترون على الله سبحانه [الكذب] (١) ويقولون اسنا بأول من حرمت عليه وإنما كانت محرمة على نوح وإبراهيم ومن بعدها حتى انتهى الأمر إلينا فكذبهم الله عز وجل في مواقع كثيرة وبكتهم بقوله تعالى (كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فانتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) أي في ادعائكم أنه تحريم قديم . روى أنه عليه السلام لما كلفهم إخراج التوراة لم يجسر أحد على إخراجها لما أن كون التحريم بظلمهم كان مسطوراً فيها فبهتوا وانقلبوا صاغرين ﴿ وبصدهم عن سبيل الله كثيراً ﴾ أي ناساً كثيراً أو صداً كثيراً ﴿ وأخذهم الربوا وقد نهوا عنه ﴾ فإن الربا كان محرماً عليهم كما هو محرم علينا وفيه دليل على أن النهى يدل على حرمة المنهى عنه ﴿ وأكلهم أموال الناس بالباطل ﴾ بالرشوة وسائر الوجوه المحرمة ﴿ وأعدنا للكافرين منهم ﴾ أي للمصرين على الكفر لا لمن تاب وآمن من بينهم ﴿ عذاباً أليماً ﴾ سيدوقونه في الآخرة كما ذاقوا في الدنيا عقوبة التحريم ﴿ لكن الراسخون في العلم منهم ﴾ استدرارك من قوله تعالى وأعدنا الخ وبيان لسكون بعضهم على خلاف حالهم عاجلاً وأجلاً أي لكن الثابتون في العلم منهم المتقنون المستبصرون فيه غير التابعين للظن كأولئك الجهلة والمراد بهم عبد الله بن سلام وأصحابه ﴿ والمؤمنون ﴾ أي منهم وصفوا بالإيمان بعد ما وصفوا بما يوجب من الرسوخ في العلم بطريق العطف المنبئ عن المغايرة بين المعطوفين تنزيلاً للاختلاف العنواني منزلة الاختلاف الذاتي وقوله تعالى :

﴿ يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ﴾ حال من المؤمنين مبدئة .
الكيفية لإيمانهم وقيل اعتراض مؤكداً لما قبله وقوله عز وجل ﴿ والمقيمون الصلاة ﴾
قيل نصب بإضمار فعل تقديره وأعني المقيمون الصلاة على أن الجملة معترضة بين

(١) سقطت من ط .

المبتدأ والخبر وقيل هو عطف على ما أنزل إليك على أن المراد بهم الأنبياء عليهم السلام أى يؤمنون بالكتب وبالأنبياء أو الملائكة قال مكى أى ويؤمنون بالملائكة الذين صفتهم إقامة الصلاة لقوله تعالى (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) وقيل عطف على الكاف فى إليك أى يؤمنون بما أنزل إليك وإلى المقيمين الصلاة وهم الأنبياء وقيل على الضمير المجرور فى منهم أى لكن الراسخون فى العلم منهم ومن المقيمين الصلاة وقرىء بالرفع على أنه معطوف على المؤمنون. بناء على ما مر من تنزيل التغيرات العنوانى منزلة التغيرات الذاتى وكذا الحال فيما سياتى من المعطوفين فإن قوله تعالى ﴿والمؤتون الزكوة﴾ عطف على المؤمنون مع اتحاد الكل ذاتا وكذا الكلام فى قوله تعالى ﴿والمؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ فإن المراد بالكل مؤمنوا أهل الكتاب قد وصفوا أولا بكونهم راسخين فى علم الكتاب إيدانا بأن ذلك موجب للإيمان حتما وأن من عداهم إنما بقوا مصرين على الكفر لعدم رسوخهم فيه ثم بكونهم مؤمنين بجميع الكتب المنزلة على الأنبياء ثم بكونهم عاملين بما فيها من الشرائع والأحكام واكتفى من بينها بذكر إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة المستبعين لسائر العبادات البدنية والمالية ثم بكونهم مؤمنين بالمبدأ والمعاد تحقيقا لحيازتهم الإيمان بفطرته وإحاطتهم به من طرفيه وتعريضا بأن من عداهم من أهل الكتاب ليسوا بمؤمنين بواحد منهما حقيقة فإنهم مشركون بالله سبحانه بقولهم عزير ابن الله^(١) وبقولهم لن تمسنا النار إلا أياما معدودة كافرون باليوم الآخر وقوله تعالى ﴿أولئك﴾ إشارة إليهم باعتبار انصافهم بما عدد من الصفات الجميلة وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو درجاتهم وبعد منزلتهم فى الفضل وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿سنؤتيهم أجرا عظيما﴾ خبره والجملة خبر للمبتدأ الذى هو الراسخون وما عطف عليه والسين لتأكيد الوعد وتنكير الأجر للتفخيم وهذا أنسب بتجاوب طرفى الاستدراك حيث أوعد الأولون بالعذاب الأليم ووعد الآخرون بالأجر العظيم كأنه قيل

(١) فى ط : فإنهم بقولهم عزير ابن الله مشركون بالله سبحانه

إثر قوله تعالى وأعدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً لكن المؤمنون منهم سنوتهم
أجرأ عظيماً وأما ما جنح إليه الجمهور من جعل قوله تعالى (يؤمنون بما أنزل إليك)
الخ خبراً للبتداء ففي كمال السداد أنه غير متعرض لتقابل الطرفين وقرىء سيؤتيهم
يالياء مراعاة لظاهر قوله تعالى والمؤمنون بالله

رد على أهل الكتاب

﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ﴾ جواب لأهل
الكتاب عن سؤالهم رسول الله عليه الصلاة والسلام أن ينزل عليهم كتاباً من
السماء واحتجاج عليهم بأنه ليس بدعا من الرسل وإنما شأنه في حقيقة الإرسال
وأصل الوحي كشأن سائر مشاهير الأنبياء الذين لا ريب لأحد في نبوتهم
والكاف في محل نصب على أنه نعت لمصدر محذوف أي إحياء مثل إحيائنا إلى
نوح أو على أنه حال من ذلك المصدر المقدر معرفاً كما هو رأى سيبويه أي
أوحينا الإحياء حال كونه مشبهاً لإحيائنا^(١) الخ ومن بعده متعلق بأوحينا وإنما
بدىء بذكر نوح لأنه أبو البشر وأول نبي شرع الله تعالى على لسانه الشرائع
والأحكام وأول نبي عذبت أمته لردم دعوته وقد أهلك الله بدعائه أهل الأرض
﴿ وأوحينا إلى إبراهيم ﴾ عطف على أوحينا إلى نوح داخل معه في حكم التشبيه
أي وكما أوحينا إلى إبراهيم ﴿ واسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ﴾ وهم
أولاد يعقوب عليهم السلام ﴿ وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان ﴾
خصوصاً بالذكر مع ظهور انتظامهم في سلك النبيين تشریفاً لهم وإظهاراً لفضلهم
كما في قوله تعالى (من كان عدو الله وملائكته ورسله وجبريل وميكال) وتصريحاً
بمن ينتمى إليهم اليهود من الأنبياء وتكرير الفعل لمزيد تقرير الإحياء والتفنيه
على أنهم طائفة خاصة مستقلة بنوع مخصوص من الوحي .

﴿ وآتيننا داود زبوراً ﴾ قال القرطبي كان فيه مائة وخمسون سورة ليس فيها

(١) في ط . بإحيائنا .

حكم من الأحكام وإنما هي حكم ومواعظ وتحميد وتمجيد وثناء على الله تعالى وقرىء بضم الراء وهو جمع زبر بمعنى مزبور والجملة عطف على أوحينا داخل في حكمه لأن إيتاء الزبور من باب الإيحاء أى وكما آتينا داود زبوراً وإيثاره على وأوحينا إلى داود لتحقيق المماثلة في أمر خاص هو إيتاء الكتاب بعد تحقيقها في مطلق الإيحاء ثم أشير إلى تحقيقها في أمر لازم لها لزوماً كلياً وهو الإرسال فإن قوله تعالى ﴿ورسلاً﴾ نصب بمضمرة يدل عليه أوحينا معطوف عليه داخل معه في حكم التشبيه كما قبله أى وكما أرسلنا رسلاً لا بما يفسره قوله تعالى ﴿قد قصصناهم عليك﴾ أى وقصصنا رسلاً كما قالوا وفرعوا عليه أن قوله تعالى قد قصصناهم على الوجه الأول منصوب على أنه صفة لرسلاً وعلى الوجه الثانى لا محل له من الإعراب فإنه بما لا سبيل إليه كما ستقف عليه وقرىء برفع رسل وقوله تعالى ﴿من قبل﴾ متعلق بقصصنا أى قصصنا من قبل هذه السورة أو اليوم .

﴿ورسلاً لم نقصصهم عليك﴾ عطف على رسلاً منصوب بناصبه وقيل كلاهما منصوب بنزع الخافض والتقدير كما أوحينا إلى نوح وإلى رسل الخ والحق أن يكون انتصابهما بأرسلنا فإن فيه تحقيقاً للمماثلة بين شأنه عليه الصلاة والسلام وبين شؤون من يعترفون بنبوته من الأنبياء عليهم السلام في مطلق الإيحاء ثم إيتاء الكتاب ثم في الإرسال فإن قوله تعالى إنا أوحينا إليك منتظم لمعنى آتيناك وأرسلناك حتماً كأنه قيل إنا أوحينا إليك إيحاء مثل ما أوحينا إلى نوح ومثل ما أوحينا إلى إبراهيم ومن بعده وآتيناك الفرقان إيتاء مثل ما آتينا داود زبوراً وأرسلناك إرسالاً مثل ما أرسلنا رسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً آخرين لم نقصصهم عليك من غير تفاوت بينك وبينهم في حقيقة الإيحاء وأصل الإرسال فالللكفرة يسألونك شيئاً لم يعطه أحد من هؤلاء الرسل عليهم السلام ومن هنا اتضح أن رسلاً لا يمكن نصبه بقصصنا فإن ناصبه يجب أن يكون معطوفاً على أوحينا داخل معه في حكم التشبيه الذى يدور فلك الاحتجاج على الكفرة ولا ريب في أن قصصنا لا تعلق له بشيء من الإيحاء والإيتاء حتى

يمكن اعتباره في ضمن قوله تعالى إنا أوحينا إليك ثم يعتبر بينه وبين المذكور مماثلة مصححة للتشبيه على أن تقديره في رسلا الأول يقتضى تقدير نفيه في الثانى وذلك أشد استحالة وأظهر بطلانا .

﴿ وكلم الله موسى ﴾ برفع الجلالة ونصب موسى وقرىء على القلب وقوله تعالى ﴿ تكليما ﴾ مصدر مؤكد رافع لاحتمال المجاز قال الفراء العرب تسمى ما وصل إلى الإنسان كلاما بأى طريق وصل ما لم يؤكد بالمصدر فإذا أكد به لم يكن إلا حقيقة الكلام والجملة إما معطوفه على قوله تعالى ﴿ إنا أوحينا إليك ﴾ عطف القصة على القصة لا على آتينا وما عطف عليه وإما حال بتقدير قد كما يفيء عنه تغيير الأسلوب بالالتفات والمعنى أن التسليم بغير واسطة منتهى مراتب الوحي خص به موسى من بينهم فلم يكن ذلك قادحا في نبوة سائر الأنبياء عليهم السلام فكيف يتوهم كون نزول التوراة عليه عليه السلام جملة قادحا في صحة نبوة من أنزل عليه الكتاب مفصلا مع ظهور أن نزولها كذلك لحكم مقتضيه لذلك من جملتها أن بنى اسرائيل كانوا فى العناد وشدة الشكيمة بحيث لو لم يكن نزولها كذلك لما آمنوا بها ومع ذلك ما آمنوا بها إلا بعد اللتيا والتي وقد فضل الله تعالى نبينا محمدا صل الله عليه وسلم بأن أعطاه مثل ما أعطى كل واحد منهم صلى الله عليهم وسلم تسليما كثيرا ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين ﴾ نصب على المدح أو بإضمار أرسلنا أو على الحال بأن يكون رسلا موطنًا لما بعده أو على البدلية من رسلا الأول أى مبشرين لأهل الطاعة بالجنة ومنذرين للعصاة بالنار ﴿ لكلا يكون للناس على الله حجة ﴾ أى معذرة يعتذرون بها قائلين لولا أرسلت إلينا رسولا فيبين لنا شرائعك ويعلمنا ما لم نكن نعلم من أحكامك لقصور القوة البشرية عن إدراك جزئيات المصالح وعجز أكثر الناس عن إدراك كلياتها كما فى قوله عز وجل (ولو أنا أهلكنهم بعباد من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك) الآية وإنما سميت حجة مع استحالة أن يكون لأحد عليه سبحانه حجة فى فعل من أفعاله بل له أن يفعل ما يشاء كما يشاء للتشبيه على أن المعذرة فى القبول عنده تعالى بمقتضى كرمه ورحمته لعباده بمنزلة الحجة القاطعة

التي لا مرد لها ولذلك قال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) قال النبي صلى الله عليه وسلم ما أحد أغير من الله تعالى ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن وما أحد أحب إليه المدح من الله تعالى ولذلك مدح نفسه وما أحد أحب إليه الإعذار^(١) من الله تعالى ولذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب فاللام متعلقة بأرسلنا وقيل بقوله تعالى (مبشرين ومنذرين) وحجة اسم كان وللناس خبرها وعلى الله متعلق بمحذوف وقع حالا من حجة أى كائنة على الله أو هو الخبر وللناس حال على الوجه المذكور ويجوز أن يتعلق كل منهما بما تعلق به الآخر الذى هو الخبر ولا يجوز التعلق بحجة لأن معمول المصدر لا يتقدم عليه وقوله تعالى .

﴿ بعد الرسل ﴾ أى بعد إرسالهم وتبليغ الشرائع إلى الأمم على ألسنتهم متعلق بحجة أو بمحذوف وقع صفة لها لأن الظروف يوصف بها الأحداث كما يخبر بها عنها نحو القتال يوم الجمعة ﴿ وكان الله عزيزاً ﴾ لا يغالب فى أمر من أموره ومن قضيته الامتناع عن الإجابة إلى مسألة المعتنتين ﴿ حكياً ﴾ فى جميع أفعاله التى من جملتها إرسال الرسل وإنزال الكتب فإن تعدد الرسل والكتب واختلافها فى كيفية النزول وتغايرها فى بعض الشرائع والأحكام إنما هو لتفاوت طبقات الأمم فى الأحوال التى عليها يدور فلك التكليف فكما أنه سبحانه وتعالى برأهم على أنحاء شتى وأطوار متباينة حسبما تقتضيه الحكمة التكوينية كذلك تعبدهم بما يليق يشأنهم وتقتضيه أحوالهم المتخالفة واستعداداتهم المتغايرة من الشرائع والأحكام حسبما تستدعيه الحكمة التشريعية وراعى فى إرسال الرسل وإنزال الكتب وغير ذلك من الأمور المتعلقة بمعاشهم ومعادهم ما فيه مصلحتهم فسؤال تنزيل الكتاب جملة اقتراح فاسد إذ حينئذ تتعاقم التكاليف فيثقل على المكلف قبولها والخروج عن عهدها وأما التنزيل المنجم الواقع حسب الأمور الداعية إليه فهو أيسر قبولا وأسهل امتثالاً ﴿ لكن الله يشهد ﴾ بتخفيف النون

(١) فى ط : العذر .

ورفع الجلالة وقرىء بتشديد النون ونصب الجلالة وهو استدراك عما يفهم
 بما قبله كما أنهم لما تعتوا عليه بما سبق من السؤال واحتج عليهم بقوله تعالى
 ﴿إنا أوحينا﴾ الخ قيل لهم لا يشهدون بذلك لكن الله يشهد ﴿بما أنزل إليك﴾
 على البناء للفاعل وقرىء على البناء للمفعول والباء صلة للشهادة أى يشهد بحقيقة
 ما أنزل إليك من القرآن المعجز الناطق بنبوتك وقيل لما نزل قوله تعالى
 ﴿إنا أوحينا إليك﴾ قالوا ما نشهد لك بذلك فنزل لكن الله يشهد .

﴿أنزله بعلمه﴾ أى ملتبسا بعلمه الخاص الذى لا يعلمه غيره وهو تأليفه
 على نمط بديع يعجز عنه كل بليغ أو بعلمه بحال من أنزله عليه واستعداده
 لاقتباس الأنوار القدسية أو بعلمه الذى يحتاج إليه الناس فى معاشهم ومعادهم
 فالجار والمجرور على الأولين حال من الفاعل وعلى الثالث من المفعول والجملة
 فى موقع التفسير لما قبلها وقرىء نزله وقوله تعالى ﴿والملائكة يشهدون﴾ أى
 بذلك مبتدأ وخبر والجملة عطف على ما قبلها وقيل حال من مفعول أنزله أى أنزله
 والملائكة يشهدون بصدقه وحقيقته ﴿وكفى بالله شهيدا﴾ على صحة نبوتك حيث
 نصب لها معجزات باهرة وحججا ظاهرة مغنية عن الاستشهاد بغيرها ﴿إن
 الذين كفروا﴾ أى بما أنزل الله تعالى وشهد به أو بكل ما يجب الإيمان به
 وهو داخل فيه دخولا أوليا والمراد بهم اليهود حيث كفروا به ﴿وصدوا عن
 سبيل الله﴾ وهو دين الإسلام من أراد سلوكه بقولهم ما نعرف صفة محمد فى
 كتابنا وقرىء صدوا مبنيًا للمفعول ﴿قد ضلوا﴾ بما فعلوا من الكفر والصد
 عن طريق الحق ﴿ضللا بعيدا﴾ لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال ولأن
 المضل يكون أعرق فى الضلال وأبعد من الإقلاع عنه .

﴿إن الذين كفروا﴾ أى بما ذكر آنفا ﴿وظلموا﴾ أى محمدا صلى الله
 عليه وسلم بإنكار نبوته وكتمان نعوته الجليلة ووضع غيرها مكانها أو الناس
 بصددهم عما فيه صلاحهم فى المعاش والمعاد ﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾ لاستحالة
 تعلق المغفرة بالكافر ﴿ولا ليهديهم طريقا إلا طريق جهنم﴾ لعدم استعدادهم
 للهداية إلى الحق والأعمال الصالحة التى هى طريق الجنة والمراد بالهداية المفهومة

من الاستثناء بطريق الإشارة خلقه تعالى لأعمالهم السيئة المؤدية بهم إلى جهنم عند صرف قدرتهم واختيازهم إلى اكتسابها أو سوقهم إليها يوم القيامة بواسطة الملائكة والطريق على عمومه والاستثناء متصل وقيل خاص بطريق الحق والاستثناء منقطع (خالدين فيها) حال مقدره من الضمير المنسوب والعامل فيها ما دل عليه الاستثناء دلالة واضحة كأنه قيل يدخلهم جهنم خالدين فيها الخ وقوله تعالى (أبدا) نصب على الظرفية رافع لاحتمال حمل الخلود على المكث الطويل (وكان ذلك) أى جعلهم خالدين في جهنم (على الله يسيرا) لاستحالة أن يتعذر عليه شيء من مراداته تعالى .

أمر بالإيمان

(يا أيها الناس) بعد ما حكى لرسول الله صلى الله عليه وسلم تعال اليهود بالباطل واقتراحهم الباطل نعمنا ورد عليهم ذلك بتحقيق نبوته عليه الصلاة والسلام وتقرير رسالته ببيان أن شأنه عليه الصلاة والسلام في أمر الوحي والإرسال كمشون من يعترفون بنبوته من مشاهير الأنبياء عليهم السلام وأكد ذلك بشهادته سبحانه وشهادة الملائكة أمر المسكفين كافة على طريق تلوين الخطاب بالإيمان بذلك أمرا مشفوعا بالوعد بالإجابة والوعيد على الرد تنبيها على أن الحجية قد لزمتم ولم يبق بعد ذلك لأحد عذر في عدم القبول وقوله عز وجل (قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم) تكرير للشهادة وتقرير لحقية المشهود به وتمهيد لما يعقبه من الأمر بالإيمان وإيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة لتأكيد وجوب طاعته والمراد بالحق هو القرآن الكريم والباء متعلقة بجاءكم فهي للتعدية أو بمحذوف وقع حالا من الرسول أى ملتبساً بالحق ومن أيضا متعلقة إما بالفعل وإما بمحذوف هو حال من الحق أى جاءكم به من عنده تعالى أو جاءكم بالحق كأننا من عنده تعالى والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين للإيذان بأن ذلك لتربيتهم وتبليغهم إلى كالم اللائق بهم ترغيبا لهم في الامتثال بما بعده من الأمر والفاء في قوله عز وجل (فآمنوا) للدلالة على إيجاب ما قبلها لما بعدها أى فآمنوا به وبما جاء به من الحق وقوله

تعالى ﴿ خيرا لكم ﴾ منصوب على أنه مفعول لفعل واجب الإضمار كما هو رأى الخليل وسيبويه أى اتصدوا أو اتتوا أمرا خيرا لكم بما أتم فيه من الكفر أو على أنه نعت لمصدر محذوف كما هو رأى الفراء أى آمنوا لإيماننا خيرا لكم أو على أنه خبر كان المضمرة الواقعة جوابا للأمر لا جزاء للشرط الصناعي وهو رأى الكسائى وأبى عبيدة أى يكن الإيمان خيرا لكم ﴿ وإن تكفروا ﴾ أى أن تصروا وتستمرروا على الكفر به ﴿ فإن الله ما فى السموات والأرض ﴾ من الموجودات سواء كانت داخلية فى حقيقتيها وبذلك يعلم حال أنفسهما على أبلغ وجه وآكده أو خارجه عنهما مستقرة فيهما من العقلاء وغيرهم فيدخل فى جملتهم المخاطبون دخولا أوليا أى كلها له عز وجل خلقا وملكا وتصرفا لا يخرج من ملكوته وقهره شيء منها فن هذا شأنه فهو قادر على تعذيبكم بكفركم لا محالة أو فمن كان كذلك فهو غنى عنكم وعن غيركم لا يتضرر بكفركم ولا ينتفع بإيمانكم وقيل فمن كان كذلك فله عبيد يعبدونه وينقادون لأمره ﴿ وكان الله عليما ﴾ مبالغا فى العلم فهو عالم بأحوال الكل فيدخل فى ذلك علمه تعالى بكفرهم دخولا أوليا ﴿ حكيا ﴾ مراعيًا للحكمة فى جميع أفعاله التى من جملتها تعذيبه تعالى لإياهم بكفرهم .

زجر النصارى

﴿ يا أهل الكتاب ﴾ تجريد للن خطاب وتخصيص له بالنصارى زجرا لهم عما هم عليه من الكفر والضلال ﴿ لا تغلوا فى دينكم ﴾ بالإفراط فى رفع شأن عيسى عليه السلام وادعاء ألوهيته وأما غلو اليهود فى حط رتبته عليه السلام ورميهم له بأنه ولد لغير رشدة فقد نعى عليهم ذلك فيما سبق ﴿ ولا تقولوا على الله إلا الحق ﴾ أى لا تصفوه بما يستحيل اتصافه به من الحلول والاتحاد واتخاذ صاحبة والولد بل زهوه عن جميع ذلك ﴿ إنما المسيح ﴾ قد مر تفسيره فى سورة آل عمران وقرىء بكسر الميم وتشديد السين كالكسكيت على صيغة المبالغة وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿ عيسى ﴾ بدل منه أو عطف بيان له وقوله تعالى ﴿ ابن مريم ﴾

صفة له مفيدة لبطلان ما وصفوه عليه السلام به من بنوته لله تعالى وقوله تعالى ﴿رسول الله﴾ خبر للبتداء والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل النهي عن القول الباطل المستلزم للأمر بفضده أعني الحق أى إنه مقصور على رتبة الرسالة لا يتخطاها ﴿وكلمته﴾ عطف على رسول الله أى مكون بكلمته وأمره الذى هو كن من غير واسطة أب ولا نظفة ﴿ألقاها إلى مريم﴾ أى أوصلها إليها وجعلها^(١) فيها بنفخ جبريل عليه السلام وقيل أعلها إياها وأخبرها بها بطريق البشارة وذلك قوله تعالى (إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم) وقيل الجملة حال من ضميره عليه السلام المستكن فيما دل عليه وكلمته من معنى المشتق الذى هو العامل فيها وقد مقدره معها .

﴿وروح منه﴾ قيل هو الذى نفخ جبريل عليه السلام في درع مريم فحملت بإذن الله تعالى سمي النفخ روحا لأنه ريح تخرج من الروح ومن لا بداء الغاية مجازا لا تبعيضية كما زعمت النصارى يحكى أن طبيبا حاذقا نصرانيا للرشيدي ناظر على بن حسين الواقدي المروزي^(٢) ذات يوم فقال له إن في كتابكم ما يدل على أن عيسى عليه السلام جزء منه تعالى وتلا هذه الآية فقرأ الواقدي (وسخر لكم ما في السموات والأرض جميعا منه) فقال إذن يلزم أن يكون جميع تلك الأشياء جزءا منه تعالى علوا كبيرا فانقطع النصراني فأسلم وفرح الرشيدي فرحا شديدا ووصل الواقدي بصلته فاخرة . وهي متعلقة بمحذوف وقع صفة لروح أى كائنه من جهته تعالى جعلت منه تعالى وإن كانت بنفخ جبريل عليه السلام لكون النفخ بأمره سبحانه وقيل سمي روحا لإحيائه الأموات وقيل لإحيائه القلوب كما سمي به القرآن لذلك في قوله تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا) وقيل أريد بالروح الوحي الذى أوحى لى مريم بالبشارة وقيل جرت العادة بأنهم إذا أرادوا وصف شيء بغاية الطهارة والنظافة قالوا إنه روح فلما كان عيسى عليه السلام متكونا من النفخ لا من النظفة وصف بالروح وتقديم كونه

(١) في ط : وحصلها . (٢) في ط : الروزي خطأ .

عليه السلام رسول الله في الذكر من تأخره عن كونه كلمته تعالى وروحاً منه في الوجود لتحقيق الحق من أول الأمر بما هو نص فيه غير محتمل للتأويل وتعيين مآل ما يحتمله وسد باب التأويل الزائغ .

(فآمنوا بالله) وخصوه بالألوهية (ورسله) أجمعين وصفوهم بالرسالة ولا تخرجوا بعضهم عن سلكهم بوصفه بالألوهية (ولا تقولوا ثلاثة) أى الآلهة ثلاثة الله والمسيح ومريم كما ينبيء عنه قوله تعالى (أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله) أو الله ثلاثة إن صح إنهم يقولون الله جوهر واحد ثلاثة أقانيم أقنوم الأب وأقنوم الابن وأقنوم روح القدس وأنهم يريدون بالأول الذات وقيل الوجود والثاني العلم والثالث الحياة (انتهوا) أى عن التثليث (خيرا لكم) قد مر وجوه انتصابه (إنما الله إله واحد) أى بالذات منزّه عن التعدد بوجه من الوجوه فإله مبتدأ وإله خبره وواحد نعت أى منفرد فى ألوهيته (سبحانه أن يكون له ولد) أى أسبجه تسبيحا من أن يكون له ولد أو سبجوه تسبيحا من ذلك فإنه إنما يتصور فيمن يماثله شيء ويتطرق إليه فناء والله سبحانه منزّه عن أمثاله وقرىء أن يكون أى سبحانه ما يكون له ولد وقوله تعالى (له ما فى السموات وما فى الأرض) جملة مستأنفة مسوقة لتعليل التنزيه وتقديره أى له ما فيهما من الموجودات خلقا وملاكا وتصرفا لا يخرج عن ملكوته شيء من الأشياء التى من جملتها عيسى عليه السلام فكيف يتوهم كونه ولدا له تعالى (وكفى بالله وكيفا) إليه بكل الخلق أمورهم وهو غنى عن العالمين فأنى يتصور فى حقه اتخاذ الولد الذى هو شأن العجزة المحتاجين فى تدبير أمورهم إلى من يخلفهم ويقوم مقامهم (لن يستنكف المسيح) استئناف مقرر لما سبق من التنزيه والاستنكاف الأنفة والترفع من نكفت اللمع إذا نحيت عن وجهك بالأصبع أى لن يأنف ولن يترفع .

(أن يكون عبداً لله) أى عن أن يكون عبداً له تعالى مستمرا على عبادته وطاعته حسبما هو وظيفة العبودية كيف وأن ذلك أقصى مراتب الشرف والاقتصار على ذكر عدم استنكافه عليه السلام عنه مع أن شأنه عليه السلام المباهاة به كما يدل عليه احواله ويفصح عنه أقواله أو لا يرى أن أول مقالة قالها

للناس قوله (إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا) لوقوعه في موقع الجواب عما قاله الكفرة . روى أن وفد نجران قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم تعيب صاحبنا قال ومن صاحبكم قالوا عيسى قال وأى شيء أقول قالوا تقول له عبد الله قال لأنه ليس بعار أن يكون عبد الله قالوا بلى فنزلت وهو السر في جعل المستنكف عنه كونه عليه السلام عبدا له تعالى دون أن يقال عن عبادة الله ونحو ذلك مع إفادة فائدة جلية هي كمال نزاهته عليه السلام عن الاستنكاف بالكلية فإن كونه عبدا له تعالى حالة مستمرة مستتعبة لدوام العبادة قطعا فعدم الاستنكاف عنه مستلزم لعدم الاستنكاف عن عبادته تعالى كما أشير إليه بخلاف عبادته تعالى فإنها حالة متجددة غير مستلزمة للدوام^(١) يكفي في إنصاف موصوفها بما تحققها مرة فعدم الاستنكاف عنها لا يستلزم عدم الاستنكاف عن دوامها .

﴿ ولا الملائكة المقربون ﴾ عطف على المسيح أي ولا يستنكف الملائكة المقربون أن يكونوا عبيدا لله تعالى وقيل أن أريد بالملائكة كل واحد منهم لم يحتج إلى التقدير واحتج بالآية من زعم فضل الملائكة على الأنبياء عليهم السلام وقال مساقه لرد النصارى في رفع المسيح عن مقام العبودية وذلك يقتضى أن يكون المعطوف أعلى درجة من المعطوف عليه حتى يكون عدم استنكافهم مستلزما لعدم استنكافه عليه السلام وأجيب بأن مناط كفر النصارى ورفعهم له عليه السلام عن رتبة العبودية لما كان اختصاصه عليه السلام وامتيازهم عن سائر أفراد البشر بالولادة من غير أب وبالعلم بالمغيبات وبالرفع إلى السماء عطف على عدم استنكافه عن عبوديته تعالى عدم استنكاف من هو أعلى درجة منه فيما ذكر فإن الملائكة مخلوقون من غير أب ولا أم وعالمون بما لا يعلمه البشر من المغيبات ومقارهم السموات العلاء ولا نزاع لأحد في علو درجاتهم من هذه الحيثية وإنما النزاع في علوها من حيث كثرة الثواب على الطاعات وبأن الآية ليست للرد على النصارى فقط بل على عبدة الملائكة أيضا فلا اتجاه لما

(١) في ١٠ : لا تستلزم الدوام .

قالوا حينئذ وإن سلم اختصاصها بالرد على النصارى فلعله أريد بالعطف المبالغة باعتبار التكثير والتفصيل لا باعتبار التكبير والتفضيل كما في قولك أصبح الأمير لا يخالفه رئيس ولا مرموس ولئن سلم إرادة التفضيل فغاية الأمر الدلالة على أفضلية المقربين منهم وهم الكروبيون الذين حول العرش أو من هو أعلى منهم رتبة من الملائكة عليهم السلام على المسيح من الأنبياء عليهم السلام وليس يلزم من ذلك فصل أحد الجنسين على الآخر مطلقاً وهل التشاجر إلا فيه ﴿ومن يستنكف عن عبادته﴾ أي عن طاعته فيشمل جميع الكفرة لعدم طاعتهم له تعالى بما لا سبيل لهم إلى إنكار اتصافهم به إن قيل لم عبر عن عدم طاعتهم له تعالى بالاستنكاف عنها مع أن ذلك منهم كان بطريق إنكار كون الأمر من جهته تعالى لا بطريق الاستنكاف لأنهم كانوا يستنكفون عن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهل هو إلا استنكاف عن طاعة الله تعالى إذ لا أمر له عليه الصلاة والسلام سوى أمره تعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله) ﴿ويستكبر﴾ الاستكبار الأئفة عما لا ينبغي أن يؤتف عنه وأصله طلب الكبر لنفسه بغير استحقاق له لا بمعنى طلب تحصيله مع اعتقاد عدم حصوله فيه بل بمعنى عد نفسه كبيراً واعتقاده كذلك وإنما عبر عنه بما يدل على الطلب للإيدان بأن ما له محض الطلب بدون حصول المطلوب وقد عبر عن مثل ذلك بنفس الطلب في قوله تعالى (يصدون عن سبيل الله ويغونها عوجاً) فإنهم ما كانوا يطلبون ثبوت العوج لسبيل الله مع اعتقادهم لاستقامتها بل كانوا يعدونها ويعتقدونها معوجة ويحكمون بذلك ولكن عبر عن ذلك بالطلب لما ذكر من الإشعار بأن ليس هناك شيء سوى الطلب والاستكبار دون الاستنكاف المنبئ عن توهم لحوق العار والنقص من المستنكف عنه .

﴿فسيحشرهم إليه جميعاً﴾ أي المستنكفين ومقابلهم المدلول عليهم ذكر عدم استنكاف المسيح والملائكة عليهم السلام وقد ترك ذكر أحد الفريقين في المفصل تعويلاً على إنباء التفصيل عنه وثقة بظهور اقتضاء حشر أحدهما لحشر الآخر ضرورة عموم الحشر للخلائق كافة كما ترك ذكر أحد

الفريقين في التفصيل عند قوله تعالى (فأما الذين آمنوا بالله) الآية مع عموم الخطاب لهما اعتمادا على ظهور اقتضاء إثابة أحدهما لعقاب الآخر ضرورة شمول الجزاء للكلى وقيل الضمير للمستنكفين وهناك مقدر معطوف عليه والتقدير فسيحشرهم إليه يوم يحشر العباد لمجازاتهم وفيه أن الأنسب بالتفصيل الآتى اعتبار حشر الكل في الإجمال على نهج واحد وقرىء فسيحشرهم بكسر السين وهى لغة وقرىء فسنحشرهم بنون العظمة بطريق الالتفات .

(فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات) بيان لحال الفريق المنوى ذكره في الإجمال قدم على بيان حال ما يقابله لإبانة لفضله ومسارة إلى بيان كون حشره أيضا معتبرا في الإجمال وإيراده بعنوان الإيمان والعمل الصالح لا يوصف عدم الاستنكاف المناسب لما قبله وما بعده للتنبية على أنه المستتبع لما يعقبه من الثمرات (فيوفيهم أجورهم) من غير أن ينقص منها شيئا أصلا (ويزيدهم من فضله) بتضعيفها أضعافا مضاعفة وبإيفاء ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (وأما الذين استنكفوا) أى من عبادته عز وجل (واستكبروا فيعذبهم) بسبب استنكافهم واستكبارهم (عذابا ألما) لا يحيط به الوصف (ولا يجدون لهم من دون الله وليا) يلى أمورهم ويدبر مصالحهم (ولا نصيرا) ينصرهم من بأسه تعالى وينجيهم من عذابه (يا أيها الناس) تلوين للخطاب وتوجيه له إلى كافة المكلفين لإثر بيان بطلان ما عليه الكفرة من فنون الكفر والضلال وإلزامهم بالبراهين القاطعة التى تخزلها صم الجبال وازاحة شبههم الواهية بالبينات الواضحة وتنبيه لهم على أن الحجة قد تمت [عليهم] (١) فلم يبق بعد ذلك علة لتعطل ولا عذر لمعتذر .

(قد جاءكم) أى وصل إليكم وتقرر فى قلوبكم بحيث لا سبيل لكم إلى الإنكار (برهان) البرهان ما يبرهن به على المطلوب والمراد به القرآن الدال على صحة نبوة النبي عليه الصلاة والسلام المثبت لما فيه من الأحكام التى

(١) سقطت من ط .

من جملتها ما أشير إليه مما أثبتته الآيات الكريمة من حقيقة الحق وبطلان الباطل . وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن النبي عليه الصلاة والسلام عبر عنه به لما معه من المعجزات التي تشهد بصدقه وقيل هو المعجزات التي أظهرها وقيل هو دين الحق الذي أتى به وقوله تعالى :

﴿ من ربكم ﴾ إما متعلق بجاءكم أو بمحذوف وقع صفة مشرفة لبرهان مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أى كائن منه تعالى على أن من لا ابتداء للغاية مجازا وقد جوز على الثانى كونها تبعيضية محذوف المضاف أى كائن من براهين ربكم والتعرض لعنوان الربونية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لإظهار اللطف بهم والإيدان بأن مجيئه إليهم لتريتهم وتكميلهم ﴿ وأنزلنا إليكم نورا مبينا ﴾ أريد به أيضا القرآن الكريم عبر عنه تارة بالبرهان لما أشير إليه آنفا وأخرى بالنور الغير بنفسه المنور لغيره إيدانا بأنه بين بنفسه مستغن فى ثبوت حقيقته وكونه من عند الله تعالى بإعجازه غير محتاج إلى غيره مبين لغيره من الأمور المذكورة وإشعاراً بهدايته للمخلق وإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان وقد سلك به مسلك العطف المبني على تغاير الطرفين تنزيلا للمغايرة العنوانية منزلة المغايرة الذاتية وعبر عن ملابسته للمخاطبين تارة بالمجىء المسند إليه المنبئ عن كمال قوته فى البرهانية كأنه يجيىء بنفسه فيثبت أحكامه من غير أن يجيىء به أحد ويجيىء على شبه الكفرة بالإبطال وأخرى بالإزال الموقوع عليه الملائم لحيثية كونه نورا توفيرا له باعتبار كل واحد من عنوانيه حظه اللائق به وإسناد إنزاله إليه تعالى بطريق الالتفات لكمال تشريفه هذا على تقدير كون البرهان عبارة عن القرآن العظيم وأما على تقدير كونه عبارة عن الرسول صلى الله عليه وسلم أو عن المعجزات الظاهرة على يده أو عن الدين الحق فالأمرهين وقوله تعالى إليكم متعلق بأنزلنا فإن إنزاله بالذات وإن كان إلى النبي صلى الله عليه وسلم لكنّه منزل إليهم أيضا بواسطة عليه الصلاة والسلام وإنما اعتبر حاله بالواسطة دون حاله بالذات كما فى قوله تعالى : (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس)

ونظائره لإظهار كمال اللطف بهم والتصريح بوصوله إليهم بمبالغة في الإعذار وتقديمه على المعقول الصريح مع أن حقه التأخر عنه لما مر غير مرة من الاهتمام بما قدم والتشويق إلى ما أخر وللحفاظة على فواصل الآي الكريمة .

﴿ فأما الذين آمنوا بالله ﴾ حسبما يوجب البرهان الذي أتاهم ﴿ واعتصموا به ﴾ أي عصموا به أنفسهم مما يرد بها من زيغ الشيطان وغيره ﴿ فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما هي الجنة وما يتفضل عليهم [به] ^(١) مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وغير عن إفاضة الفضل بالإدخال على طريقة قوله ﴿ علقها تبنا وماء بارداً ﴾ وتنوين رحمة وفضل تفخيمي ومنه متعلق بمحذوف وقع صفة مشرفة لرحمة ﴿ ويهديهم إليه ﴾ أي إلى الله عز وجل وقيل إلى الموعود وقيل إلى عبادته ﴿ صراطاً مستقيماً ﴾ هو الإسلام والطاعة في الدنيا وطريق الجنة في الآخرة وتقديم ذكر الوعد بإدخال الجنة على الوعد بالهداية إليها على خلاف الترتيب في الوجود بين الموعودين للمسارعة إلى التبشير بما هو المقصد الأصلي قيل انتصاب صراطاً على أنه مفعول لفعل محذوف ينبىء عنه يهديهم أي يعرفهم صراطاً مستقيماً .

حكم الكلالة

﴿ يستفتونك ﴾ أي في الكلالة استغنى عن ذكره بوروده في قوله تعالى ﴿ قل الله يفتيكم في الكلالة ﴾ وقد مر تفسيرها في مطلع السورة الكريمة والمستفتى جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه ، يروى أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم في طريق مكة عام حجة الوداع فقال إن لي أختاً فكأنكم أخذت من ميراثها إن ماتت وقيل كان مريضاً فعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلل إنى كلاله فكيف أصنع في مالي . وروى عنه رضي الله عنه أنه قال عادنى

(١) سقطت من ط .

رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مريض لا أعقل فتوضأ وصب من وضوئه على فعقلت فقلت يا رسول الله لمن الميراث وإنما يرثني كلاله فنزلت وقوله تعالى ﴿إن أمروءاً هلك﴾ استئناف مبين للفتيا وارتفع امرؤ بفعل يفسره المذكور وقوله تعالى :

﴿ليس له ولد﴾ صفة له وقيل حال من الضمير في هالك ورد بأنه مفسر للمحذوف غير مقصود في الكلام أى إن هلك امرؤ غير ذى ولد ذكراً كان أو أنثى واقتصر على ذكر عدم الولد مع أن عدم الوالد أيضاً معتبر في الكلاله ثقة بظهور الأمر ودلالة تفضيل الورثة عليه وقوله تعالى ﴿وله أخت﴾ عطف عطف على قوله تعالى ليس له ولد أو حال والمراد بالأخت من ليست لأم فقط فإن فرضها السدس وقد مر ببقائه في صدر السورة الكريمة ﴿فلها نصف ما ترك﴾ أى بالفرض والباقي للعصبة أو لها بالرد إن لم يكن عصبة ﴿وهو﴾ أى المرء المفروض ﴿يرثها﴾ أى أخته المفروضة إن فرض هلاكها مع بقاءه ﴿إن لم يكن لها ولد﴾ ذكراً كان أو أنثى فالمراد بإرثه لها إحراز جميع ما لها إذ هو المشروط بانتفاء الولد بالسكنية لا لإرثه لها في الجملة فإنه يتحقق مع وجود بنتها وليس في الآية ما يدل على سقوط الإخوة بغير الولد ولا على عدم سقوطهم وإنما دلت السنة الشريفة على سقوطهم في الأب^(١) ﴿فإن كانتا اثنتين﴾ عطف على الشرطية الأولى أى اثنتين فصاعداً ﴿فلهما الثلثان مما ترك﴾ الضمير لمن يرث بالأخوة والتأنيث والتثنية باعتبار المعنى قيل وفائدة الإخبار عنها بـ اثنتين مع دلالة ألف التثنية على الإثنية التنييه على أن المعتبر في اختلاف الحكم هو العدد دون الصغر والكبر وغيرهما ﴿وإن كانوا﴾ أى من يرث بطريق الأخوة ﴿أخوة﴾ أى مختلطة ﴿رجالاً ونساء﴾ بدل من أخوة والأصل وإن كانوا إخوة وأخوات فغلب المذكور على المؤنث ﴿فلذا كر﴾

(١) في ط دلت على سقوطها السنة الشريفة في

أى فللذكر منهم ﴿ مثل حظ الأنثيين ﴾ يقتسمون التركة على طريقة التعصيب وهذا آخر ما أنزل من كتاب الله تعالى في الأحكام ، روى أن الصديق رضى الله تعالى عنه قال في خطبته ألا إن الآية التي أنزلها الله تعالى في سورة النساء في الفرائض فأولها في الولد والوالد ونانها في الزوج والزوجة والأخوة من وئانها في الزوج والزوجة والأخوة من الأم والآية التي ختم بها السورة في والآية التي ختم بها سورة الأنفال أنزلها في أولى الأرحام .

﴿ يبين الله لكم ﴾ أى حكم الكلاله أو أحكامه وشرائعه التي من جملتها حكمها ﴿ أن تضلوا ﴾ أى كراهة أن تضلوا في ذلك وهذا رأى البصريين صرح به المبرد وذهب الكسائي والفراء وغيرهما من الكوفيين إلى تقدير اللام ولا في طرفي أن أى لثلاثا تضلوا وقال الزجاج هو مثل قوله تعالى : (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) وقال أبو عبيد رويت للكسائي حديث ابن عمر رضى الله تعالى عنهما وهو لا يدعون أحدكم على ولده أن يوافق من الله لإجابة أى لثلاثا يوافق فاستحسنه وليس ما ذكر من الآية والحديث نسا فيما ذهب إليه الكسائي وأضرابه فإن التقدير فيهما عند البصريين كراهة أن تزولا وكراهة أن يوافق الح وقيل ليس هناك حذف ولا تقدير وإنما هو مفعول يبين أى يبين لكم ضلالكم الذى هو من شأنكم إذا خليتكم وطباعكم لتحتزروا عنه وتتجروا خلفه وأنت خير بأن ذلك إنما يليق بما إذا كان يأنه تعالى تعيين على طريقة مواقع الخطأ والضلال من غير تصريح بما هو الحق والصواب وليس كذلك .

﴿ والله بكل شىء ﴾ من الأشياء التي من جملتها أحوالكم المتعلقة بحياتكم ومماتكم ﴿ عليم ﴾ مبالغ^(١) في العلم فيبين لكم ما فيه

(١) في ١٠ : بليغ في العلم .

مصلحتكم ومنفعتكم . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة النساء
فكانما تصدق على كل مؤمن ومؤمنة وورث ميراثا وأعطى من الأجر كمن
اشتري محررا أو برىء من الشرك وكان في مشيئة الله تعالى من الذين يتجاوز
عنهم والله أعلم .

تم بحمد الله تعالى طبع الجزء الأول من تفسير العلامة أبي السعود
ويليه الجزء الثاني وأوله سورة المائدة

فهرس موضوعى

للجزء الأول من تفسير
أبى السعود بن محمد العمادى الحنفى

فهرس موضوعى

للجزء الأول من تفسير أبى السعود

الموضوع	الصفحة
تقديم المحقق	
عالم الروم أبو السعود العمادى	
مناهج فهم القرآن الكريم	
تفسير أبى السعود	
كلمة أخيرة	
مقدمة المؤلف	١
سورة فاتحة الكتاب	٧
معنى فاتحة الكتاب وأسمائها	٨
هل البسمة من القرآث	٨
تفسير البسمة	١١
الحمد والذبح والشكر	١٦
سر وجوب قراءة الفاتحة فى الصلاة	٢٥
العبادة والعبودية والاستعانة	٢٧
أجناس الهداية	٢٨
النعم ومن الذى أنعم الله عليهم	٣٠
حكم قراءة آمين فى الصلاة	٣٣
سورة البقرة	٣٤
آراء فى الحروف المقطعة	
هل الحروف آيات ؟ إعرابها	٣٨
الهدى والضلال	٤٣
معانى التقوى ومراتبها	٤٨
الإيمان	٥٢

الموضوع	الصفحة
هل يدخل الحرام فى الرزق ؟	٥٥
إزال الككب السماوية	٥٧
أحوال الكفر والكفار	٦١
من علاماء النفاق	٦٨
تحريف المؤمنى على العبادة	١٠١
المراد بالتحوى	١٠٥
دلائل أن القرآن من عند الله	١١٠
بشاراء المؤمنى	١١٨
حكمة ضرب للمل فى القرآن	١٢٧
صفات الفاسقىن	١٣١
قصة خلق آدم وإسجاد الملائكة له ورفض إبلىس السجود	١٥٦
عناصر كفر بنى إسرائيل	١٦٣
الهود والنصارى يكفر بعضهم بعضا	٢٤١
شناعة تحزىب للمساجد	٢٤٣
موقف اليهود والنصارى من بعثة النبى صلى الله عليه وسلم	٢٤٧
تذكىر بنى إسرائيل بنعم الله عليهم	٢٤٩
رسالة النبى صلى الله عليه وسلم وشرىمة الخليل عليه السلام	٢٤٩
وصية إبراهيم ويعقوب لأولادهم باآباع الإسلام	٢٦٣
شعار آآباع محمد صلى الله عليه وسلم وعقيدتهم	٢٦٧
موقف اليهود من آآبىر القبلة	٢٧٣
آهدىد للذىن يكتمون ما أنزل الله من الهدى	٢٨٩
من دلائل عظمة الله وقدرته	٢٩٢
البر وعناصره	٣٠٥
القصاص والوصية	٣٠٨
آشريع الصيام	٣١٣
أمر بآآال للمآآدىن فى الشهر الحرام	٣٢٠

الموضوع	الصفحة
تشرىع الحج	٣٢٥
عود إلى تقرىع بنى إسرائيل	٣٣٣
حكم القتال فى الأشهر الحرم	٣٣٧
الحجر والميسر	٣٣٩
أحكام اليتامى ونكاح الشركات	٣٤٣
الإيلاء من الزوجات	٣٤١
من أحكام الطلاق والرضاع والعدة	٣٥٥
عود إلى شناعات بنى إسرائيل	٣٧٠
فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرسل	٣٨٠
محاجة إبراهيم للذى كفر	٣٨٩
بعث عزيز بعد موته	٣٩١
طلب إبراهيم دليلا عمليا على إحياء للوتى	٣٩٦
دعوة إلى الصدقة	٣٩٩
الربا والتجارة	٤١١
أحكام الديون	٤١٥
إيمان الرسول صلى الله عليه وسلم ومن تبعه	٤٢٢
سورة آل عمران	٤٣٠
من دلائل قدرة الله تعالى	
المحكم والمتشابه فى القرآن	٤٣٩
مقارنة شأن الدنيا وزينتها	٤٤٩
الدين واحد وهو الإسلام ، وسبب اختلاف الناس فيه	٤٥٥
مناجاة النبي صلى الله عليه وسلم لله تعالى	٤٦٠
اصطفاء الله تعالى للأنبياء عليهم السلام	٤٦٦
اصطفاء مريم	٤٧٩
ولادة عيسى عليه السلام	٤٨٢
عيسى والحواريون	٤٨٨

الموضوع	الصفحة
---------	--------

عناصر دعوة الإسلام	٤٩٨
خيانة أهل الكتاب فى المال	٥٠٢
خير الصدقات	٥١٢
فضل الكعبة المشرفة	٥١٦
من خصائص الإسلام	٥٢٢
أهل الكتاب والإسلام	٥٣٤
غزوة بدر	٥٤٤
جهاد النفس و جهاد العدو	٥٥٥
عود إلى جهاد الأعداء	٥٦٠
تحريرى المؤمنى على القتال	٥٦١
من دستور الحرب	٥٧٥
المنافقون والحرب	٥٨١
فى الهزيمة عبرة	٥٩٤
مكانة الشهداء عند ربهم	٥٩٨
استدراج الكفار	٦٠٥
البخل والبخلاء	٦١١
من دلائل عظمة الله تعالى	٦٢١
من دلائل الإيمان والمؤمنى	٦٢٤
سورة النساء	٦٣٧

دعوة إلى الإيمان بالله تعالى

٦٤٠ من أحكام أموال اليتامى

٦٤٣ تعدد الزوجات

٦٥١ من أحكام الميراث

٦٦٢ أحكام تتعلق بالنساء

٦٦٩ المحرمات من النساء

الموضوع	الصفحة
نكاح الإماء	٦٨٠
أسباب امتياز الرجال فى الميراث	٦٩١
حقوق الوالدين والأقارب	٦٩٤
الطهارة وأحكامها	٦٩٩
تحريف أهل الكتاب لكتبهم وعرض لقبائهم	٧٠٥
تشريعات للمؤمنين	٧٢٠
تعجب من أحوال الكفرة والمنافقين	٧٢٤
تحريض المؤمنين على الجهاد	٧٣٧
تحذير المؤمنين من المنافقين	٧٥١
المعفون من الجهاد	٧٦٣
الصلاة فى الضرورات	٧٦٩
وجوب الحكم بما أنزل الله	٧٧٦
الأعمال والثواب	٧٨٥
طاعة الله على أهل السماء والأرض	٧٨٨
أحكام فى معاشررة النساء	٧٨٩
خطاب للمسلمين جميعاً	٧٩٦
من علامات النفاق	٨٠١
عود إلى اليهود	٨٠٦
رد على أهل الكتاب	٨١٤
زجر النصارى	٨٢٠
أمر بالإيمان	٨٢٥
حكم الكفالة	٨٢٧